

تاريخ الحضارات العالم

١

الشرق

واليونان الإغريقية

منشورات صديقات
بيروت - باريس



تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسومة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ابيمار
أستاذ في السربون

جانين أوبوايه
أستاذة متحف غيمية

٢

روما وأمبراطوريتها

أندريه ابيمار
أستاذ في السربون

جانين أوبوايه
أستاذة متحف غيمية

٣

القرون الوسطى

إداور بروي
أستاذ في السربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه
أستاذ في السربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه و
أرنست لاجروس

أستاذ في السربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيروب
أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه
مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الأول

تاريخ الحضارات العظام
الشرق واليونان القديمة

تأليف

جانين أوبوايه
أمينة منحف غمه

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

نقله الى العربية

فؤاد ج. أبوريان

فريد م. داغر

منتورات عويدات

بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

الطبعة الثانية ١٩٨٦

سام في ترجمة هذا المؤلف كل من السيدين :
يوسف أسعد داغر و أحمد عويدات

مقدمة الطبعة العربية

التاريخ علم حي وواحة غضة تنفياً في ظلها العلوم اجتماعية كانت أم سياسية أم طبيعية الخ . والتاريخ واجبة الحضارة الانسانية ، فلا عجب من ثم ان استولى على قلوب هواة المعرفة وغدت له المنزلة الرفيعة عند الطالب والعالم وجمهرة الشعب . وقد اهتم مؤلفو الغرب الاهتمام الكلي لتبيان مراحل تطور الشعوب ورقبها وربط نتائجها بأسبابها ، فكانت من ثم ابحاثهم واقعية ومنطقية استلهموا فيها الآثار من رسم ونقش وبناء النخ والاستنتاج المنطقي اذ العاديات يجد ذاتها مادة لا حياة فيها ولا تسلسل ، يحميها العقل وينسجها ويفسرها فتنتطق اذ ذلك لتعلمنا بما ابقاه السلف تراثاً قيماً للخلف . ولا يعرف هذا التطور هوادة أو نهاية اذ تميز سنة الرقي بالانسان من حسن الى أحسن وبينني بنو آدم التاريخ لبنة لبنة ، ولن يتم هذا التطور الحضاري الا مع آخر حي عاقل .

وما أفدح خطأ من يعتبر التاريخ سلسلة حوادث وسجلاً لأسماء تنتثر هنا وهناك في الزمان والمكان اذ التاريخ كما سبق القول علم له أساليبه ومبادئه وفلسفته التي أوجد لمحتما وسداها العربي الخالد ابن خلدون . وليست الحضارة - مادة التاريخ - ثمرة جهود فرد او شعب او مجموعة أمم ، بل هي صنع الانسان في مختلف عصوره القديمة والحديثة والمستقبلية ، يتضافر ويتكافل لحلقها مع أخيه الانسان لسير مرحلة مرحلة والانتقال من حسن الى أحسن . وقد تولي أمة اهتمامها لناحية حضارية دون الأخرى وتسهم من ثم على قدر طاقتها في تشييد صرح هذه الحضارة الانسانية العالمية التي تنعم بها الجميع على تفاوت تبعاً للمؤهلات والظروف . فلا فضل والحالة هذه لشعب على آخر اذ لا حياة ولا استقرار ولا استمرار للجدد الانساني الكبير ان لم يعضده الافراد في أي قطر وجدوا وفي أي وقت عاشوا . وهكذا تظهر بوضوح كلي تلك الصفة الاجتماعية - الاشتراكية ... التي تربط الانسان بأخيه الانسان مهما اختلف اللون وتميز العرق وشملت المسافات . لذا ما أوهى قول بعضهم « الحضارة الشرقية » أو « الحضارة الغربية » اذ الحضارة الانسانية للانسان ونتيجة جهد الانسان وفي خدمة الانسان !

والبحث في تاريخ الحضارة - وان تجزأت اقسامها دون ان تصادم ! - هو نسبياً حديث

العمد ، اذ كثيراً ما كان يحصر المؤلفون عنايتهم بدرس حضارة شعبيهم أو قطنهم دون استقرار حضارة الغير والغوص عن جوهرها ومعالمها بلغت شأراً في الرقي والتقدم . ولكن أخذ المؤرخون في القرنين التاسع عشر والعشرين بتعاليم ابن خلدون فأولوا عنايتهم بالمجاري الحضارية والثقافية عند مختلف الامم منها اختلف الزمان والمكان فكوتوا من أمجاثهم والحالة هذه مادة موحدة « تاريخ الحضارات » وان تميزت المراحل واختلفت الحلقات .

وقد عثرنا على موسوعات عدة في اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية تشرح بأسهاب منطق هذه الحضارة الانسانية الجماعية ومادتها ، مؤلفة من شتاتها ووحدة تلد وبروق وتفيد . ولا يسعنا مفاصلة هذه على تلك اذ لكل منها ميزات وخصائص . ولكننا مع هذا توقفنا عند هذه الموسوعة الكبرى باللغة الفرنسية التي أصدرتها « دار المطبوعات الجامعية الفرنسية » ، وأشرف عليها العلامة الاستاذ موريس كروزيه *Maurice Crouzet* ، وأسهم بتدبير أجزاءها نتجة من المؤرخين الثقة المشهود لهم بالمعرفة والتدقيق فأعجبنا بها الاعجاب الشديد سيما وان كل مؤلف أخذ على عاتقه درس حضارة القطر أو الشعب أو العصر الذي أشبعه تمحصاً . وعمق الابحاث التي وردت في هذه المجموعة وجديتها من حيث تقصي الحقائق والوقوف على الآثار وتحليلها منطقياً وربطها مع زميلاتها ربطاً محكماً لآظهار مختلف مراحل التطور الحضاري الانساني حملنا على انتخاب هذه الموسوعة وتقديمها لقراء الضاد دون ان نغص حتى زميلاتها أو نقتص من صفاتها .

وتأتي هذه المجموعة الفرنسية على درس الحقائق التاريخية منذ أقدم عصور الحضارة الانسانية وأعرق الشعوب ، فتشرح الشرح العلمي المستفيض الوقائع والحوادث والأحداث التي عاشتها الامم في العالدين القديم والجديد على مر الأجيال والقرون... وهكذا تبدو هذه المجموعة سجلاً حافلاً من حيث الواقع والعلم لتاريخ الانسان منذ أطواره الأولى المتوعدة في القدم حتى عصرنا الحاضر دون التوقف عند هذه الأمة أو ذلك البلد فتظهر اذ ذلك حضارتنا المعاصرة ابنة الجهود الغابرة .

ومن مميزات هذه المجموعة انها أتت شاملة كاملة فوصفت لنا طرق العيش ونظام الحكم والاسس الاجتماعية والأساليب التجارية والمعتقدات الدينية والنشاطات الفكرية والاطوار الفنية الخ ... فلم تترك شاردة إلا ولجتها أو وارده إلا واحتلتها في اطار واقعي ومنطقي عز نظيره ، فقدت من ثم معلماً وهادياً لابن القرن العشرين ، ان استوعبها وقف على حقيقة تاريخ الانسان . وقد بسطت مجموعتنا المذكورة هذه المادة الحصبة بأسلوب رشيق متسلسل ، وضمت من الخرائط والرسوم العدد الوافر ، ووقفت على ما اكتشفه رواد وعلماء الآثار حتى سنة ١٩٦١ ، وأعلمت القياس والمنطق أو التخمين - عندما يعجز المنطق والأثر المادي - ... حتى غدا معها التاريخ علماً حياً شيقاً .

واننا لا نلقي القول على عواهنه بل نضع أمام القارئ اللبيب عناوين أجزاء هذه الموسوعة وأسماء مؤلفيها فيتأكد بأن القوس أعطيت بارها .

المجلد الأول : الشرق واليونان القديمة *L'Orient et la Grèce Antique*
لؤلفيه اندريه ايمار *André Aymard* . عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في باريس ، وجانين
أوبويه *Jeannine Auboyer* امينة متحف غيمه .

المجلد الثاني : روما وامبراطوريتها *Rome et son Empire*
لؤلفيه : اندريه ايمار *André Aymard* عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في باريس وجانين
أوبويه *Jeannine Auboyer* امينة متحف غيمه .

المجلد الثالث : القرون الوسطى *Le Moyen Age*
اتساع الشرق ومولد الحضارة الغربية
لؤلفه : ادوار بروي *Edouard Perroy* استاذ في السوربون .

المجلد الرابع : القرون السادس عشر والسابع عشر *Les XVI et XVII siècles*
تقدم الحضارة الأوروبية وتضعف الشرق (١٤٩٢ - ١٧١٥)
لؤلفه : رولان مونييه *Roland Mausnier* استاذ في السوربون .

المجلد الخامس : القرن الثامن عشر *Le XVIII siècle*
عصر النور (١٧١٥ - ١٨١٥)
لؤلفيه : رولان مونييه *Roland Mausnier* وارنست لابروس *Ernest Labrousse* استاذين في
السوربون .

المجلد السادس : القرن التاسع عشر *Le XIX siècle*
ذروة الاتساع الأوروبي (١٨١٥ - ١٩١٤)
لؤلفه روبرت شنيبر *Robert Schnerb* استاذ الصف الاول العالي في ليسه كليرمون - فرّان

المجلد السابع : العهد المعاصر *L'Epoque Contemporaine*
بحثاً عن حضارة جديدة
لؤلفه موريس كروزيه *Maurice Crouzet* ، مفتش المعارف العام في فرنسا

ويؤسفنا القول إن المكتبة العربية تفتقر الى مثل هذه الموسوعات المفيدة العلمية على غنى
تراثنا القومي ووفرة كتبه . وكَمْ تشوقنا الى الوقوف على مراحل الحضارة العالمية من خلال
مؤلفات عربية يضمها أبناء الضاد أنفسهم ، وما كان العرب يوماً الا سابقين في مضار المعرفة والعلم
والتأليف ، وقد استنار الغرب بكتبهم الموضوعية أو المنقولة . وما كان أسعدنا لو ارب أبناء

عالمنا العربي قاموا بمثل هذه الدروس الموسوعية بالاستناد الى غنى شرقنا - مهد الحضارة ومنهل الأمم - وتفتحهم على الثقافات العالمية .

ورغبة في سد هذه الثغرة والتعاون مع من أخذوا على عاتقهم محو هذا النقص تقدم لعالمنا العربي أبحاث هذه الموسوعة الفرنسية في لغة الآباء والاحفاد ... مع ما في الأمر من صعوبة وارهاق .

ولا مجال هنا للبحث في طرق النقل أو الترجمة . فقد ارتأى بعضهم في هذا المجال ان يزيدوا على النص الاصيل أو ينقصوه أو يفسروه طبقاً لرغبة أو تنويراً للقارىء أو تقويماً لأفكار المؤلف . أما نحن فقد تقيدنا تقيداً أميناً بنص الموسوعة الفرنسي ونقلناه نقلاً حرفياً - دون اعتبار صحة الآراء أو بطلها - . وان كنا لا نحاري المؤلف في بعض آراء او نظريات او استنتاجات ، اذ اننا نقدم لقراء الضاد ما قاله المؤلف الفرنسي على علاته وهنائه ؛ وتشويه الأفكار أو تحويرها أمر غير مستحب وان كان تقويمها ضرورياً ... ولكن في بحث مستقل ! ووضعنا نصب أعيننا بحجارة النص الفرنسي كما ورد دون تقديم أو تأخير - جهد المستطاع - على ما في هذا النص من تشابك صرفي وتركيب نحوي واستدارات في السبك وتطويل في الجمل : وحرصنا الحرص الكلي على التيقيد بروح المؤلف واستدراكه وتمييزاته البيانية حتى في بسط الاسلوب مع ما في الامر من جمل اعتراضية ونقط وفواصل الخ . لذا قد يبدو هنا وهناك بعض الوهن في حسن التركيب من حيث قواعد اللغة والادب ؛ ولا نرى غضاضة في ذلك ، اذ المؤرخ - ولو كان أديباً بالسليقة - لا يتوخى التسيق وجمال التعبير بل سرد الحقيقة المجردة دون خيال يمنح او لجوء الى أساليب بيانية . ونقل مثل هذه التراكيب والعبارات الى لغة الضاد - مع المحافظة على الكلمة روحاً ونصاً - قد يضطرنا بعض المرار الى تحطيط حسن السبك والاسلوب العربيين بغية التوفيق بين الاصل الفرنسي ومرادفه العربي ، اذ لكل لغة نفس وتقنية نحوية .

واعتمدنا في نقل أسماء العلم على اصولها ومواطنها الأولية مراعين قدر المستطاع ما غداً أمراً متداولاً . وهكذا سعينا جهدنا لكتابة الاسم اليوناني مثلاً كما ورد في لغته الاساسية ... باستثناء الاسماء التي جرى التعارف في كتابتها ولفظها على امر مستقر كاسم ارسطو بدل ارسطوطاليس . وقد استحسننا لنفسنا أيضاً ، عند تعذر كل وسيلة ، ان نعتمد كأساس الكلمة الفرنسية التي وردت في النص المنقول . وحرصاً على الدقة والامانة اللفظية لجأنا الى سفارة الجمهورية الهندية في بيروت لتعييننا على حسن كتابة الاسماء الهندية الصرفة فلقينا منها تجاوباً وحسن مساعدة تذكر فتشكر ، اذ غني عن البيان بأن الحرف اللاتيني قد لا يعبر التعبير الصحيح الدقيق عن كيفية لفظ وكتابة الكلمة الغريبة عنه هندية كانت أم عربية ام صينية .

ولا بد من الجهر أيضاً بأنه من الصعب الوقوف على كلمة عربية واحدة لبعض المصطلحات الفرنسية التي محتوها للتمييز عن مبدأ فلسفي أو عقيدة دينية بما أهاب بنا الى تأدية معناها بأكثر من لفظة أو أحياناً بنقش كلمة عربية - مثلاً استغرق نسبة الى تبني حضارة الاغريق -

قد توافق لفظ المصطلح الفرنسي، او باعتبار طرق الاشتقاق اللغوية العربية، ولا ترى في الأمر خرقاً لقاعدة او تجاوزاً على صلاحية .

واننا وقد أزمنا أنفسنا بأمانة النقل نرى من واجبنا استطراداً لما قيل أعلاه بأن نؤكد من جديد بأننا لا نتبنى ولا نؤيد شخصياً بعض النظريات التي ساقها المؤلف ، دينية كانت أم اجتماعية ، او بعض المبادئ السياسية والوقائع التاريخية التي اعتبرها المؤلف كحقائق . هذا مع لفت النظر الى ان تفسير الاحداث والحوادث التاريخية قد يتطور، وقد يناقض عالم تاريخي ما قاله زميل له على اعتبار ان المصادر والآثار لم تستنفذ بعد تماماً؛ وقد يكشف الغد وثائق تغلب بعض الاعتبارات التاريخية رأساً على عقب . ومن الحق القول إن مؤلفي هذا الكتاب يجهران صراحة بأن الرأي الذي ابدياه هو اجتهاد قد يحوله ويحوره ما سيعثر عليه عالم آخر من آثار أو يحلل من رموز كتابية لا تزال تجهلها الى يومنا .

ومع علمنا بوجود كتب تاريخية عربية قيمة نقلت عن لغات غربية يسعدنا بأن نقدم لقراء الضاد المجلد الأول من موسوعة موديس كروزيه التاريخية هادفين الى اعلاء كلمة العلم وشاكرين لدار « منشورات عويدات » في بيروت ما لاقتنا من تشجيع ، هذه الدار التي أتمحت المكتبة العربية ولا تزال بكتبها الفلسفية والقانونية والاجتماعية والقصصية ، والتي لن نألو جهداً لتقديم سائر أجزاء موسوعة كروزيه التاريخية للعالم العربي .

والمولى ولي التوفيق وعليه الاتكال .

هيئة الترجمة

مقدمة عامة لتاريخ الحضارات العام

انها لأول مرة على ما نعلم ، يصدر في تاريخ الادب الفرنسي ، كتاب بهذا العنوان يتوج مجموعة من الكتب تتجه للرأي العام ، بثل هذا الشمول . فهل في الامر ما يدعو للاستغراب ، بعد ان سبق للوسيان فينر وأوضح كيف ان كلمة « حضارة » دخلت مصطلح العلوم متأخرة في الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، وان مدلولها الكامل لم يتضح على الوجه الامثل ولم يستقر مشتمله الأوفى الا بعد ذلك بكثير .

وعلى تقيض البربرية ، عنى المصطلح الجديد ، على لسان فلاسفة القرن الثامن عشر العقليين وكتابه الشعوبيين ومن لف لفهم ، مجموعة من الخطط والنظم القمينة بأشاعة النظام والسلام والسعادة ، ويتطور البشرية الفكري والادبي ، ويتأمين انتصار الانوار . فالحضارة والحالة هذه ، « وضع مثالي وحقيقي في آن واحد ، عقلي وطبيعي ... سبي وبغائي » .

وراح القرن التاسع عشر بدوره يمكن لهذه الفكرة الأوروبية المحور ويستخرج لها في الأذهان . ووضع تقديم العلوم والتكنولوجيا بين ايدي الأوروبيين طاقة مادية بلغ من شأنها ما ادخل في روعهم تسامي حضارتهم وافضليتها على سواها من الحضارات الأخرى . وهكذا اخذ القرن التاسع عشر ينظر الى حضارته كالحضارة البشرية الفضلى ، وراح يعتقد ان من حقه فرض هذه النظرية على العالم كله بالقوة حتى تبناها وعمل بها ونهج عليها . الا ان طمأنينة الضمير الأوروبي لم تتعد هذا القرن ، وقد انتهى امرها الآن ، كما يستدل من التماير التي درجوا على اصطلاحها تشاؤماً ، اذ كثيراً ما يتردد على شفاه الكتاب عبارات كهذه : « أزمة الحضارة » ، و « الحضارة في خطر » و « الحضارة على المحك » .

لهذه الاسباب ، فتاريخ الحضارة في مفهومه القومي الرحب ، هذا التاريخ الذي يتناول بالدرن سجل الجماعات البشرية والمدنيات ، ويرى في هذا التراث المتأني الينا مراحل التطور الذي عرفته الانسانية في رقيها الصاعد ، ويخصي على كل جماعة ما اسدته من خير للتراث المشترك ، يصعب تجريدته من غاية تجعل الحضارة وفقاً علينا نحن الأوروبيين ابناء القرن العشرين .

صحيح اننا شهدنا ، في غضون العصور الأخيرة ، تحت تأثير أوروبا الحاسم نفسها توارى او زوال معالم حضارات كثيرة واصيلة ، وذلك اقله تحت ستار الدعوة الملحة لتوحيد نظم الحياة .

ولهذا اخذ يتبدى لنا ان هنالك حضارة موحدة آخذة بالتكون ، مستوحاة على الاخص من الغرب في مدلوله الاربع . كل هذا صحيح . غير ان هذا التطور نحو الوحدة لم يتم الا من عهد قريب ، وهذه الالف من السنين التي يتألف منها تاريخ البشرية ، مرت بأدوار من الركود والقهري ، وبأطوار من الانزالية والقطعية ، بحيث تفرغ علينا الحكمة العزوف عن مثل هذه النظرية .

اما ان نكون امام حضارات متعددة لاحضارة واحدة وحيدة ليس بينها ما يدعي الرئاسة المحتومة ، فهذا امر مسلم به اليوم بين علماء الاجناس البشرية والمؤرخين والعلماء الاجتماعيين اذ يقر هؤلاء بالاجماع ان لكل جماعة بشرية على شيء من النظام ، مدينتها الخاصة حتى ان للاقوام المتوحشة حضارتها الخاصة بها .
كذلك من الامور المسلم بها اليوم عدم الاخذ بالنظرية الضيقة التي تقول بتاريخ واحد للحضارة .

لقد شهدنا بالفعل في السنوات العشرين - وفي فرنسا على الاخص ، منذ ظهور البحث الداوي الذي وضعه مارسل موس - تطوراً حوكل انظارتنا من نظام سام وحيد للحضارات يفرض طولات سانية - الفنون والآداب ، الذوق حتى العلم - ليردها الى مظاهر الواقع الحيائي ، المادية غالباً والاقل بروزاً واثراً . فقد حاولوا ، نارة عن طريق المؤثرات الثقافية (فكرة ، أداة ، مهارة فنية ، وصفة مطبخية ، حركة في اللبس) وطوراً عن طريق الحقب الثقافية (الاسس الجغرافية للحضارات) ان يستبدلوا الدروس التقليدية ، بدررس موضوعية لا اثر فيها لهذه التجريدات الغيبية المليئة بالاحكام القنومة . وهكذا حاولوا بمزج عن الناس وعن اعمالهم (مشاهير الرجال وآثارهم الباقية) وبمزج عن تيارات العوامل المؤثرة ان يحددوا الشروط المادية والاجتماعية وغير ذلك من العوامل التي كثيراً ما عاجلها التاريخ التقليدي معالجة سقيمة او مر بها على الاقل مروراً عابراً

نرى في ماضي البشرية وتاريخها السحيق ، حضارات عديدة لكل منها مجموعة من الافكار والنظم السياسية ، ومستوى من العيش المادي والتقنية ، وطاقات على الانتاج وقدرة على تأمين العلاقات الاجتماعية على اختلاف مظاهرها : الدينية والفكرية والفنية . ليس من قصد الاجزاء التي تتنظم هذه المجموعة التي تظهر بعنوان « تاريخ الحضارات » ان تبنى هذه او تلك من النظريات الضيقة التي جيء بها باسم العلم ، او هذا المعنى الخاص على حساب غيره او باستثناء غيره . فالتاريخ ليس إيثراً او تحييراً ، بل استحضاراً للماضي بكل مظاهره وواقعه . فلعلنا اذاً ان نصف بدقة المظاهر الحياتية المتعددة التي تؤلف مجتمعة كلاً متجانساً وان نستحضرها للاذهان في وحدتها الزمنية والمكانية ، كما يتوجب علينا ان ندرس المؤثرات التي تفاعلت بها

هذه الحضارات وانفعلت . هذا ما يهدف اليه التاريخ العام الذي وضعناه للحضارات .



نقطة الانطلاق عندنا جهد موصول سده التحاليل ولحنه الوصف بنية ابراز الخصائص المفردة لكل حضارة ، وتحديد ما اسدته من خدمة للتراث الانساني النامي . هل بالامكان الذهاب الى ما هو ابعد ، ورسم خط بياني منحني لكل من هذه الحضارات تسبين ممة مراحل التقدم او التأخر التي قطعها ؟ وهل بالاستطاعة السير الى ابعد لنستخلص من هذه المشاهد والمرئيات الملاحظات التي توحى بها النواميس التي تنهض عليها الصيورة الاجتماعية التي رسمتها هذه الحضارات المتباينة ؟ ان محاولات التأليف العظيمة الباهرة التي شهدناها حديثاً والتي قامت على اساس من التفسير الجدلي في الازمنة الحاضرة والمستقبل الطالع، واقناع الرأي لدى المؤرخين وعلماء الاجتماع ، كل ذلك اوضح بصورة جليسة ضرورة الاعتصام بالفظنة في مجالات البحث الحديثة العهد هذه . ان تصنيف الحضارات ، ومبادئه ، الرقي ، و « التأخر » كل ذلك يعمل للتطور البشري مدلولاً متافيزيقياً ، يجب ان يبقى بطبيعة تعريفه بعيداً عن المؤرخ .

وستحاول هذه المجموعة ان تتفادى ما يتصل « بفلسفة التاريخ » ، هذه الفلسفة التي تبقي دوماً من العنديات العرصة ابداً للحدس والجدل ؛ بينما قبل كل شيء ان نصف وان نقر الامور ، لان نصدر احكاماً قوامها لون من الوان الحضارة المثالية .



تجاهلت البشرية وحدتها مدة طويلة . فلم يكن هنالك بشرية واحدة بل بشريات وحضارات . فقد ارسيت في اواخر القرن الخامس عشر مع الاكتشافات الجغرافية العظيمة الحامسة الاسس والامانات التي تدعم وحدة كرتنا الارضية ، هذه الوحدة التي كان علينا تشييدها فعلاً . ففي القرن الثامن عشر تمكن الانسان من استكشاف مجاهل اوقيانيا واورغاليا ، كما قام خلال القرن التاسع عشر باكتشاف المناطق المجهولة في افريقيا وقطبي الارض الشمالي والجنوبي . ووحدة عالمنا هذا كانت تبقى وحدة منقوصة لو لم تقم على اسس علمية ، وكانت بقت مجزرة مخرومة لو لم ينتظمها اقتصاد عالمي متماسك . هل بدا شيء من هذا قبل ظهور السفن الشراعية في القرن الثامن عشر ، او بالاحرى ، قبل الثورة التي اطلقها البخار ، هذه الثورة التي لم تبلغ اوجها الا في منتصف القرن التاسع عشر ؟ لا وايم الحق . وعلى هذا يجب ان نقيس احداث التاريخ العام ، ان يطالعنا في البدء السحيق ، فجر الحضارات الاولى ، والانتقال بالسير البشري من محصور ما قبل التاريخ الى التاريخ ، فتعاقب التواريخ والمدنيات على اساس من الترابط والتفاعل الى امت طلع علينا عالم موحد .

ان عرض هذه المادة التاريخية الوافرة في المجلدات السبعة التي تتألف منها هذه المجموعة اثر في وجهنا صمريات دقيقة . « فالسرعة التي يتكون بها التاريخ » ونحو معارفنا وازديادها حتياً

علينا ان نخص كل جزء من هذه الاجزاء ، دوراً من ادوار التاريخ العام يقصر او يطول كلما
دونا من التاريخ المعاصر .

لم يكن في الامكان ان نستعرض في المجلد الاول من هذه المجموعة ، ونحن بعد عند عتبة
التاريخ ، بروز هذه الحضارات وتطورها وفقاً للترتيب الزمني ونتولى درسها وإجالة النظر فيها
وتتبع احداثها من ذاتها وبذاتها باعتبارها كتلة قائمة . ومن اين تأتي بتواريخ صادقة صحيحة
لكل هذه المدن المتعاقبة ، بما فيها مدن الهند والشرق الأقصى ؟ وكيف تنفادى التكرار
في مثل هذه الحال ؟ هنالك مدنتان من اضخم المدن التي ظهرت في التاريخ القديم : المدينة
المصرية ومدينة بلاد ما بين النهرين ، تؤلفان معاً كتلتين متجانستين بالرغم مما بينها من فوارق
وخصائص مفردة ، استمرت أكثر من ثلاثة آلاف سنة . فدرسها درساً اقصياً في ادوار تاريخية
منفصلة امر يتعدى الاخذ به والوقوف عنده . ان هذه المدن وغيرها مما ضرب صفحاً عن
ذكره هنا قلما تأثرت بعوامل من الخارج ، وان حدث ذلك احياناً اقتصر التأثير فيها على
الاطراف الخارجية ، وظهور المدن العارضة وتطورها في الأقطار المجاورة لهذه المدن قد
حال دونها أو أضر ظهورها معارك طاحنة دارت رحاها بين هذه المدن الضخمة ، في نفس
هذه الأقطار . لا شك في ان نهجاً من هذا النوع كان افضى بنا الى صورة ناقصة حيناً، ممزقة احياناً
لعدم تكافؤ معلوماتنا من جهة او لتفاوت ظاهر بين هذه المدن مستوى وشأناً .

وقد حدث ، بعد ذلك بكثير ، اي بعد اوائل العهد الميلادي ، في نطاق العالم القديم على
الأقل - : آسيا واوروپا وافريقيا - اولي المحاولات لمقارنة هذه التواريخ ولربطها بعضاً ببعض
فجاءت اجزؤها متنافرة غير محكمة كما ان هذه التواريخ بقيت احياناً طويلاً متشابكة مترابكة .

الا ان توصلت العلاقات بين الشعوب واشتداد اواصرها بين مختلف الحكومات والحضارات
المتعزلة فيما بينها من قبل ، والعثور على المزيد من الأصول والوثائق التاريخية كل ذلك مكن
للأخذ من جديد بنظرية الاطوار الزمنية والاعتصام بها واتاح للمؤرخ ان يشدد ، أكثر فأكثر،
على بعض الاحداث والشخصيات التاريخية البارزة ، واطهار ما لها من اضواء كاشفة . ولكن
لم يلبث ان اتضح شيئاً فشيئاً وجوب التحرز من التبسط في السرد والاستطراد في القبول
والوصف ، اذ ان المهم في هذا كله ان يرسم المؤرخ الحقبة التاريخية التي يتناولها صورة واضحة
جلية ، ما امكن ، تأتلف كل الائتلاف وتنسجم مع الاكتشافات العلمية الحديثة .

ولا بد للقارئ الواعي من ان يلاحظ ان كثيراً من الاحداث التاريخية التي يحالو لبعض
الكتب التقليدية سردها بالتفصيل قد ضرب صفحاً عنها او لم يؤت على ذكرها الا لماماً . ولا
يتوهم احد قط اننا « ننتقص من اهمية الاحداث الثابتة الآخذ بعضها برقباب البعض وفقاً
للتسلسل الزمني » او انه سها عن البال تعريف التاريخ كما حدده البعض من انه « علم الواقع
المحيز » . فنحن اول من يقدر المحاذير المترتبة على « تجريد التاريخ من الواقع القائم » ، ولا يدور
في خلدنا ، في ردة عكسية ضد مفهوم التاريخ قديماً الذي كان لا يهتم الا للأمور السياسية

والحربية والدبلوماسية ، ان نغضي عن ذكر هذه الوقائع التي تؤلف أسس المدنيات والحضارات البشرية . فنحن اول من يعترف باهمية هذه الوقائع ، وقد حرصنا على احلالها المحل اللائق في تضاعيف هذا التاريخ وتقدير الدور البالغ الذي كان لها في الحضارات المتعاقبة . وقد همتنا منها ، في الدرجة الاولى الامور الاقتصادية والاجتماعية ، وشددنا بنوع خاص ، على التطور التقني وعلى القضايا التي تتصل بصمم السكان ، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا . ان حرصنا الشديد الا " نولي هذه المجموعة من المجلدات اهمية اكثر مما تستحق ، واليسر الذي يستطیع معه الباحث التوثق من الاحداث السياسية المعروفة ، كل ذلك حدا بنا احيانا الى التنويه بها في الجداول الزمنية الترتيب او في الاثرانيات التي تكوّن الاطار الوضعي لتاريخ الحضارات .

ان تاريخ الحضارات الذي يعنى بوضعه هنا انما يتجه في الدرجة الاولى من الرأي العام المثقف وليس من العلماء الاخصائيين . ولذا فقد ضربنا صفحا عن ذكر الشواهد والمراجع والمناقشات الجدلية التي جيء بها لاثبات رأي او لدحضه . فقد حرصنا على اثبات قائمة موجزة متواضعة من المصادر والمراجع يمكن لمن يرغب في التوسع اعتمادها والركون اليها . اما الصور والرسوم ، فتهدف لتوضيح النص باعادة جانب من الجو التاريخي الذي سيطر على هذه المدنيات دون ان يكون الغرض الاول منها التوثيق .



لست ارى بعد هذا ، موجبا يدعوني لتقديم المؤلفين الذين قبالوا القيام بوضع هذا التاريخ العام للحضارات البشرية ، اذ لهم من مؤلفاتهم ومن آثارهم في حقل التعليم والتدريس ما احلهم المحل اللائق بين زملائهم المؤرخين في فرنسا . وهل لي ان ازيد هنا ان هذه المجموعة من المجلدات التي يتألف منها هذا التاريخ لم يكن في الامكان تحقيقها ، لو لم يقم منذ ربع قرن تيسار جارف يتمثل على اشده في المأسوف على علمه المرحوم مارك بلوك الذي له الفضل الاكبر في تجديد الدراسات التاريخية في فرنسا ، فمدد الابحاث ووجهها شطر تاريخ مبسط يرتبط ارتباطا وثيقا بالعلوم البشرية الاخرى ؟ فقد كان من اولى واجباتنا هنا ان نتوه بفضل الرواد في هذا الحقل الذين مهدوا السبل امامنا .

موريس كروزيه

مدخل

من وحدة العصر الظرفاني الى النوع التاريخي

ظهور الانسان يوضح ظهور الانسان على الارض بين العصور الجيولوجية السحيقة . وقد اصبح ظهوره ممكناً منذ الدور الجيولوجي الثالث ، إذ كانت ظهرت فصائل البهائم . وبتمرجح هذا الظهور في أواخر الدور الجيولوجي الثالث ، عندما كانت تروح في بطاح الارض وتروح وحدات من فصائل الفيل الجنوبي - ويتأكد هذا ويثبت في الطور الاول من الاطوار ما بين الثلجية الاربعة التي عرفها الدور الجيولوجي الرابع . أما اذا ما حاولنا ان نحدد الازمنة والاقوات لهذا الظهور فلا بد من ان يأخذنا الدوار . وراح بعض علماء الهيئة في تحليلهم الادوار الجليدية وتقدير مداها ، يقدرون الفترة الاعدامية للدور الرابع بمائة وخمسين الف سنة ، بينما يجعل غيرهم امتداد هذه الحقبة لاكثر من خمسمائة الف او ستائة الف سنة . اما الدور الجيولوجي الثالث فيقدر بعضهم امتداد حقبته ثلاثين مليون سنة . ولا نعرف تاريخ ابي شعب من شعوب الارض يرجع الى ما قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة . ويعتري الواحد منا قشعريرة عندما ترقص امام عينيه ارقام مثل ٤٢٤٥ - ٤٢٤٢ قبل الميلاد وهو التاريخ الذي يحدده التقويم المصري القديم ، بدءاً للتاريخ المصري القديم .

فالانسان في مثل هذه الحقب المتهاككة في القديم هو الانسان الحيوان ، او الانسان الشبيه بالبشر . اما الانسان المنتصب القوام ، ولا سيما الانسان العاقل ، المدرك ، فلم يظهر إلا بعد ذلك بوقت طويل . فالانسان العامل ، صنَّعُ الدين ، الذي يستعمل الأدوات ويتحسسها ، قد تقدم الاول كما تقدمه بدوره جنس من شبه الأدميين . وكثيراً ما اكتشف علماء الآثار بعض مصنوعاته دون ان يعمروا على شيء من بقاياها العظمية ، وان وجدوا شيئاً منها فهو نادر ومبعض . والذي يجعل اهمية خاصة للانسان الصيني الذي عبثوا على بقاياها في تشو كوتيان ، على بعد ١٠٠ كيلومتر الى الجنوب من مدينة بكين ، وللانسان القرد الذي اكتشفوا بقاياها في بلدة ترينيل ، على مقربة من جاغا هو ما يجعل العلماء قادرين على ان يتبعوا ، في هذين المكانين ، بعض معالم التطور الذي بلغ معه الانسان منزلة الانسان العاقل . اما الاماكن الأخرى ، فعمل عكس ذلك تماماً كما يظهر

في افريقيا الجنوبية مع الانسان القرد الجنوبي ، في الترانسفال وفي اوروبا ، حيث يوجد فجوات من الفراغ بحيرة .

ففي اوروبا على الأخص نجعل كل شيء عن إنسان عصور ما بين الجليدية إلا بعض بقايا نادرة جداً من هيكله العظمي الرميم ، دقيقة الحجم . وقد عرّف العلماء المصنوعات الرئيسية المتخلفة عن هذا الإنسان ، بمصنوعات العصر الحجري المشطى . أما انسان العصر الجيولوجي الرابع او العصر الموستري كما اصطالحوا على تسميته فهو معروف أكثر وأكثر ، إذ انه يتمثل بانسان العصر النياندرتالي الذي انتشر على مساحات واسعة ، هو هو نفسه تقريباً بشكله الواحد ، أينما وجد : في اوروبا الغربية ، وفي جميع أنحاء افريقيا او في البلدان الشرق الاوسطية ، ومع ذلك فهو ليس من جنس الانسان الحقيقي . وهكذا نرى أنفسنا امام جنس آدمي جديد أو بشرية جديده ، طلعت اصولها من أقاصي آسيا لم تلبث ان قضت على «البشرية القديمة» وبحقتها .

ولكن هؤلاء الاقوام الجدد ينتمون الى ما اصطالح المؤرخون على تسميته العصر الحجري القديم بانسان العصر الحجري القديم ، مشطى كان ام مصقولاً ، عاصروا منه احدث ادواره او الدور الحديث منه ، عاشوا في العراء كلما سمح لهم الجو بذلك ، وسكنوا الكهوف وغابىء الارض ، يعولون في معاشهم أكثر ما يعولون عليه ، على الصيد والقتص ، وعالجوا استعمال حجر الصوان واتخذوا منه سلاحاً بعد صقله ، ودببوا منه الرأس ، وحددوا الاطراف ، كما اتخذوا ادوات لهم من عظام الحيوان وقرونه ، وعرفوا النقش والحفر والرسم ، وتوصلوا الى افراغ بعض الادوات في قوالب واشكال معينة .

وقد حفظت لنا جدران المغاور والكهوف التي سكنوها بعض معالم الفنون البدائية التي زاولوها على شيء من الذوق والصنعة الفنية ، متخذين لهم في بادىء الأمر مادة لصورهم بعض الحيوانات التي دجنوها ، وبعد ذلك بكثير ، الجسم البشري ، محاولين جهدهم في كل ما عالجوه ان يتركوا مسحة من جمال ترسموه . ففي عالم مجهول غامض ، كل ما فيه يدعو الانسان للعجب والحيرة والتحيز ، تترصد له الاعداء ، من كل جانب ، حاول الانسان ان يدرأ عنه الغوائل والمخاطر فيتخذ سلاحاً له كل ما تصل اليه يده ، واداة لخدمته ، كل ما يعينه على العيش . تعرّف الى العلاقات والاصداف والاساور فاتخذ منها زينة له وحلية كما اتخذ من بعضها تماويذ واقية ورقى . وتوصل الى صنع بعض دمي ، بشرية الصورة ، انثى الشكل ليرمز منها الى الحصب والانسال ، واصطنع صوراً شتى للحيوان يدرأ بها العين الشريرة والسحر الذي كثيراً ما وقع تحت تأثيره . وهو في كل هذا يحاول فرض سيطرته على الحيوانات المفترسة ، كما يحاول تدجين الانواع التي يفيد منها في معاشه او تؤمن له الصيد الوفير . وكان يشارك باحتفالات ومناسك دينية يترأسها سحرة ينصرفون اليها في المغاور المظلمة . وهكذا من تعاطيه اعمال السحر واستسلامه لطرق السحرة ظهرت الفكرة الدينية عنده ، وكان السحر والفكرة الدينية يصطبغان كلامها بمسحة من الفن البدائي .

ويؤيد أكثر من اكتشاف علمي ان الانسان ، منذ العصر الحجري القديم ، أخذ يهتم باطراء صاعد ، بجماته وتأمين دفنهم ، وإعداد اجسادهم وتجميعها في محفل معين وبمجاجاتهم إذ تراه يذُرُّها بالمعشرة ويمدها بالحلي والزينة والتقادم وبيعض اللحوم . وقد تمددت معالم هذه المناسك وعم استعمالها ، بعد ان كانت في الاصل تمييزاً عن مشاعر الانسان يتقي بها مغبة الثأر والانتقام المتوقعين . إلا ان هذه المراسم لم تلبث ان اصبحت عزيزة عليه كريمة عنده ، إذ رأى فيها ايماناً بعميقة الخلود والبقاء . وهكذا ترى كيف ان السحر افضى بالانسان الى ابعاد مما كان يتوقع له : الى عبادة الموتى وتكريمهم .

من حضارة العصر الحجري الحديث الى عصر الحديد
استطال امد العصر الحجري القديم في اوروبا
أكثر منه في اي مكان آخر ، ولا سيما في غربي جنوبي فرنسا ، وفي الغرب الشمالي من شبه الجزيرة الايبيرية . واستقرت الاجناس البشرية فيه على عروق مشهورة كالعرق المغدلاي ، والعرق الازبالي . الا ان ظهور اجناس بشرية أخرى ادى الى زوال العروق التي كانت تنهض هذه الحضارة او الى اقصائها وابعادها الى اماكن نائية صعبة المثال ، ككافريقيا مثلاً حيث عجزت عن القيام بأي دور بارز . فلم يحدث هذه المرة ، اقله في اوروبا ، تطور محلي ، بل غزو جارف طلع من الشرق المتوسطي قادماً من الجنوب ، ومن جهات اخرى اقصى ولا شك ، من الشمال الشرقي . فلم يؤلف الغزاة القادمون ، كما في الماضي ، بشرية جديدة ، بل كانوا من صميم الجنس البشري السائد الذي تمكنت بعض عروقه ، في اماكن معينة ، من التطور في المظهر الخارجي وفي الحضارة . وقد استطاعوا ان يؤلفوا ، من الوجهة العرقية جماعات كبيرة متباينة بينها الطوائف المتوسطة والجليلون (القوقاس - والألتاي) والطوائف الشمالية . والامم من هذا كله ، هو ان الحضارة استطاعت في عهود متباينة بقبان البلدان التي قامت فيها ، ان تتجه اتجاهاً مغايراً للاتجاه الذي سارت فيه حضارة العصر الحجري القديم . ويجب الا يغرب عن البال ان كلا الحضارتين عرفت اتصالات سابقة فقد تعرضت حضارة العصر الحجري القديم لتسربات ومؤثرات طارئة ، كما انها اعطت لدى زوالها الحضارة التي عقبته عادات واعرافاً تتعلق بالجنائز والمآتم . ومع ذلك فقد كانت حضارة جديدة لم تلبث ان انتشرت وعم استعمالها .

وهذه الحضارة الجديدة ، عرفت لدى المؤرخين بحضارة العصر الحجري المصقول . فقد لبث الحجر العنصر الرئيسي الذي استمد منه الانسان اجهزته وادواته الضرورية ، الا انه حجز اقسى من الصوان ، آثره الانسان لما فيه من صلابة بعد ان عرف كيف يصقله ويهذبه كما يشاء . وقد سجل الانسان مراحل عديدة في تطوره الصاعد ، فقد اصبح راعياً وتمكن من تدجين بعض الحيوانات ، ولم يلبث ان اقبل على الارض يحرثها ويستتبتها ، فقطع الاحراج وعزف على التربة يستخلصها من الاعشاب المؤذية ، واخذ يتخير بعض فساتل الزرع يستجيد منها الانواع ويستطيب كريم الاصل حتى استقر به المقام ، فتحضر ورأى نفسه مرتبطاً الى حد بعيد بما

لديه من زُرع وُضِعَ وبما يجرث من اراضٍ وحقول. واخذ في بناء اكواخ له ومنازل لسكناء، ثم تألب جماعات ما لبثوا ان ألغوا مجتمعاً يربط بين افراده روابط من العمل المشترك والدفاع المشترك عن سلامة المجموع . واتخذ له من صوف الحيوانات ومن بعض الالياف النباتية البسة خاطها ملبساً له استبدل بها جلود الحيوانات التي كان يعول عليها في لباسه من قبل . وعرف كيف يتخذ له مادة مما تقطع عليه عينه من معرّش التبنات والقصب ومن الدلفان المزوج ليصطنع من هذا كله السلال والحزف .

ثم تعلم كيف يستخدم خامات المعادن كالنحاس والذهب وكيف يستخرجها من مزيج الغازات ، ثم توصل تدريجياً الى اخلاط كثيرة ، كالخلط بين النحاس والقصدير لاصطناع الشبهان او البرونز . وبعد ذلك ترى الحصان والمجلة والحديد في خدمة الانسان .

كلها خطوات تصاعديّة في سلّم الحضارة تدعو للاعجاب ، وتشهد من الانسان الرغبة في المزيد . نود ولا شك لو نستطيع تحديد هذه المعالم في مدارج الرقي والتطور والتأريخ لها واقتناء ما كان لها من اثر بيّين ومن شيوع كرتس استعمالها . ولعل اكثر هذه الكشوف واقدامها كلها هي التي طلعت علينا بها مدنيات الشرق الاوسط ، ولا سيما مدينة مصر وبلاد ما بين النهرين ، وهما من انصب بلاد العالم طراً ومن اكثرها دعة للحياة البشرية . اما الحصان ، فقد وصل اليها من مناطق ابعد وانأى ، اما الحديد فان كان صنعه التقني يعود اصلاً للشرق ، الا ان ندرته في مناطق البحر المتوسط تجعل من العسير جداً تطور هذه الصناعة في تلك المنطقة . فالاكتشافان المذكوران يسجلان معاً تطوراً جديداً : هنا معاصراً وهناك لاحقاً . وقد طلعت علينا اقوام جديدة جاءت من الشمال او من الشرق الشمالي : من التركستان والقوقاس والبلقان، تتمثل في غزوات الهند والاروبيين الذين في غزوات متباعدة متلاحقة ، اخضعوا تبعاً : الهند ويران وآسيا الصغرى واليونان . وقد أخذ الشرق الاوسط يشمر بوراة هذه الغزوات ابتداءً من سنة ١٤٠٠ حتى اواخر الألف الثاني قبل الميلاد فزعزعت اركان الحضارات التي كانت مزدهرة منذ عهد بعيد ، في هذه الاقطار المحظوظة . اما الغرب الاوروبي ، فقد وصلت اليه صناعة النحاس والشبهان من الجنوب والجنوب الشرقي ، وعرف معها ان ينشئ له حضارات مستقلة قامت على هذه الصنائع . ولم يكن اثر حضارات الشرق الكبرى بلوغ الغرب باستثناء بعض المهارات التقنيّة . فمن الشرق ، دخلت الغزوات والحضارات اوروبا مارةً بوسط القارة وذلك ابتداءً من الألف الاول قبل الميلاد ، كما يظهر من آثار بلدة هولستات في النمسا ومن آثار بحيرة لاتاين في سويسرا وكلها تعود الى عصور ما قبل التاريخ في اوروبا .

غزوات وهجين اذا ما اردنا ان نتقصى بالتفصيل معالم هذا التطور الذي رسمنا بايجاز مراحلها الكبرى، كان لا بد لنا من ان نلاحظ هنا هذا العدد العديد من الغزوات التي انقضت على اوروبا من اقصاي آسيا او من سهول اوروبا الشرقية التي تتميز بحق امتدادها لها

بإتجاه الغرب . فلم نعرف غزوة منها نالت من النجاح ما نالته الغزوة التي حدثت في اواخر الدور الحجري الوسيط المعروف بالعصر الموستري واوائل العصر الحجري الاعلى . وهناك غزوات اخرى انطلقت في ما بعد متبعة لمرقا اخرى ، فبلغت مشارف البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلسي معاً . وقد لاقت في سيرها صعوبات كانت تشدد مع مرور الزمن ، إذ وجدت نفسها وجهاً لوجه مع حضارات أكثر تطوراً ، واقوى على المقاومة . غير ان تزعر اركان الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث لليلاد ، وانهارت هذه الامبراطورية في ما بعد ، في القرن الخامس ، يدلان على ان ليس ثمة صعوبة لا يمكن التغلب عليها .

ولذا كان لا بد لنا من العودة الى ما قبل التاريخ لنعاثر على « عرق » بشري أصيل ، يراد منه فريق كبير من الناس لهم ملامحهم الخارجية السوية الطابع . ان جيل العصر الموستري هو آخر من يستجمع هذه الصفاتية او من فرض وجودها . وهذا الجيل هو جيل شقيق لانسان العصر النياندرثالي ، باستثناء بعض الفروق النادرة التي تؤلف بحد ذاتها فوارق ثانوية لا بؤيه لها . ولكن انسان العصر الحجري الاعلى يمثل هو نفسه انساناً هجيناً كما يسميه مرسلين بول . وقد تكاثرت في ما بعد عمليات التهجين او التضايب ، مع تنالي الغزوات المتعاقبة ، بحيث لم يبق لكلمة « عرق » اذا ما أسقطنا من مدلولها الميزة الخارجية سوى الطابع او النموذج الذي يفرده الحضارة .

وحدة الحضارات وتنوعها
هنا يجب ان نلاحظ ان الانتقال من حضارات ما قبل التاريخ الى الحضارات التاريخية يجعل المدى التاريخي للاخيرة منها يضيق وينكش . فلم تتكرر ابدأ الوحدة التي ميّزت الدور الموستري المعروف بالعصر الحجري الوسيط ، او طلائع الدور الاعلى للعصر الحجري القديم . وكانت هذه الحضارات اوسع الحضارات التي عرفتها الانسانية انتشاراً وذيوعاً . فهل من عجب في الأمر وهو واضح كل الوضوح ؟ فالطقس الجميل يحفز للظعن والريادة اناساً مهمهم العثور على الاراضي المطيرة ، يكثر فيها الفئص والصيد او اقتفاء قطعان الحيوان التي تؤم الحديث من المراعي الخصبة والارض الخضلة . ثم يأخذ الانسان بألف تدريجياً الاستقرار في بقاع ورفاق من الارض تساعد طبيعتها الجغرافية طوائف من الناس على الإقامة فيها ، ولا يلبث بعد ان أمن على سلامته ، ان ينقطع لحراثة الارض وفلاحتها يطلب من خباياها رزقه الحلال .

ومع ذلك ، فقد تطرأ ادوار تسيطر فيها وحدة تعم شطراً كبيراً من الناس ، كما لاحظ ذلك علماء الألسنيّة ولا سباً من يفتون منهم باسماء الامكنة الجغرافية . من ابلغ الأمثلة على ذلك ، الاسل اللغوي : « Car » الذي يعني كلمة صخر او حجر . ومن هذا الاصل اشتقت المفردات او الكلمات : Carpathes , Karawanken , Carso , Crau , garrique ، وغير ذلك من الاوضاع اللغوية . ومن هذا الاصل الألسني جاءت الكلمة العربية قلعة ، والتركنة كاله

واللّيتوانية *gala* وكلها تعني في هذه اللغات : القلعة او الحصن . مثل هذه الكلمة وغيرها من المصطلحات اللغوية الأخرى ، مشاع بين بلدان كـ : ، وكلها دوائر او بقايا لغة تقدمت بكثير اللغة الهندو الأوروية التي درج استعمالها في هذه الرقعة الجغرافية الممتدة من القوقاس الى جبل طارق قبجر البلطيق . وهنا لا بد لنا من ان نتساءل ما عسى ان تكون هذه الاقوام او الشعوب التي في عهد العصر الحجري الجديد ، او في عهد اسبق واقدم ، تعارفت وتفاقت فيما بينها بهذه اللغة ، مع العلم ان اسماء الامكنة الجغرافية ومسمياتها تبقى على الالسنة يستعملها الناس ويمجرون عليها حتى بعد زوال الحضارات التي مكنت لها في الاستعمال . كذلك نرى مثل هذه المفارقات والمواصفات تظهر في الحضارات التي سبقت الحضارات السلالية في مصر وبلاد ما بين النهرين وبين الحضارات التي ازدهرت فيما بعد حول هارابا وموهنجو - دارو في حوض نهر الهندوس . فالاعتقاد بانها تجمدت من جذع واحد لا تزال منه في جهل مطبق ، ليس بكفر .

وهكذا ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار قديم ظهور الانسان على الارض ، فان الحضارات لم تأخذ بالتنوع والتفرّد وبالتالي بالتمركز جنباً الى جنب ، في حيز ضيق الا بصورة تدريجية ، وفي عهد قريب منا جداً . وقد برز هذا التنوع واصبح الطابع المميز لحياة الناس في التاريخ القديم ، رداً طويلاً من الزمن . وقد كانت هذه الظاهرة امراً لازماً . فمنذ ان اخذت فئات من الاقوام البشرية في الاستقرار والتحصن ، راحت كل فئة تتطور في المحيط الذي ارتضت لها مقراً وفقاً لعمال زمنية ومكانية ، خضعت لها ، ولؤثرات حسية وخلقية عرفت بها ودرجت عليها . والحق يقال ، ان التفتت الذي ألمّ بالحضارة الوحداية وتشعبها الى حضارات متعددة ليس إلا النتيجة المنطقية للرقى الذي حققه الانسان ولتطوره الصاعد الذي زاد حياته المادية والعقلية تعقيداً وتشابكاً ، ووفر له اسباب التباين والتغاير والتفرد . قرب برعم لم يؤبّه له عند ظهوره وبروزه كان سبباً في قيام ساحات من الغابات الظليلة والاحراج الغضة .

ليس لعمري من مدينة قامت وعاشت في قوقعة مطبقة لم تتأثر في كثرة اكرة او قلة بما تقدمها من الحضارات التي ازدهرت من قبل . وقد يكون خطر بعض هذه الحضارات مثل هذا الشعور من الاكتفاء الذاتي . من ذلك مثلاً الحضارة الفرعونية القديمة التي لم تستطع ان تحقق مثل هذه المثالية واذ كانت أكثر المدنيات اقتراباً منها . فكل هذه الحضارات دونما استثناء عولت على مصنوعات ومعايير جاتها من الخارج . ويعتري المرء الدهشة عندما يرى ، منذ اقدم العصور ، المسافات الطويلة التي كان يقتضيها وصول بعض المواد الأولية . صحيح ان معظم هذه المواد المستوردة كانت خفيفة الحمل والوزن يستعملها الانسان في حليه وزينته لندرتها وغلاء ثمنها . من هذه المواد مثلاً اصداف مقاطعة التورين ، في العصر الحجري القديم الاعلى ، والكهرمان المستورد بعد ذلك بكثير من شواطىء بحر البلطيق ، والحديد الذي اتخذت منه ادوات الصياغة في مصر وبلاد ما بين النهرين . وصناعة البرونز او الشبهان اقتضت كميات وافرة من القصدير جرى شحنها الى بلدان الشرق الادنى واقطاره . فالتبادل التجاري كان سبباً في اقامة اتصالات

مباشرة . المهم في هذا كله ان هذه المبادلات التجارية والاتصالات التي بعثتها وهيات اسبابها ، تمت واستمرت دون ان تمس ، بشكل محسوس ، اصالة كل هذه الحضارات التي انتظم عقدها واستبطن شأنها . والظاهر هو ان التاجر والبحار في نقلها السلع التجارية ومقايضتها بها ، كانوا اقل اهتماماً بنقل المهارات الفنية والتقنية ، واقل منها ، معاطاة " بالامور الفكرية والروحية . وهناك امثلة مستمدة من الازمنة التالية للتاريخ القديم ، يمكن ان يستدل بها على أنتجتها من ذلك إذ يفقدان بها سبب وجودهما . فالتبادل انما يعني التباين .

الامبراطوريات القديمة ووحدة الحضارة هل عاد هذا التجزؤ الحضاري الذي ميز التاريخ القديم بالضرر على غير التجار ؟ فان لم يعاود الناس اخبار تلك الوحدة التي زالت من الوجود بعد ان عجزوا عن الاحتفاظ بذكرها فقد يكون راوهم الشعور بان حضارة مشتركة تتحقق تساعد الجميع على العيش معاً بسلام ؟ قليلة جداً هي الاصوات التي عبرت متأخرة عن هذه الامنية ، وهي امنية كان علينا ان ننتظر طويلاً ظهور من يعبر عنها بجلاء ووضوح كالاسكندر الكبير في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد . والمحاولة القصيرة الامد التي تمت على يدي الفاتح المقدوني لم يقم من يجارها من جديد رسمياً الا الامبراطورية الرومانية في القرن الثاني للبلاد التي نسجت على هذا المنوال دون ان تعلن عنه او تفصح به .

فالتاريخ القديم يعج بالامبراطوريات ، كما يفيض باخبارها ومصائرهما وارتقاعهما وهبوطهما الى غير ذلك مما يدخل في صميم التطورات السياسية . وكل من هذه الامبراطوريات التي طلعت عبر التاريخ : من مصرية ، واشورية ، وفارسية ، ومقدونية واخيراً رومانية كان يبز اللاحق منها السابق باتساع الرقعة وضخامة السلطان ، بحيث يدخل في روع المستقرىء ان نقطة الانطلاق اقوى في اللاحق منها في السابق وان الاندفاع كان في كل مرة يقترب اكثر فاكثراً ، من الهدف المشترك الذي وضعه الفاتحون نصب اعينهم ، الا وهو الامبراطورية الشاملة . وكان هذا الجهد الموصول لتحقيق هذا الهدف السامي تعبير عن نزعة جاش يها قلب الانسانية الا وهو تحقيق وحدة شاملة ليست جغرافية فحسب بل بشرية ايضاً .

وبالفعل ليس شيء من هذا كله . فمهما كانت العوامل المختلفة المتفاعلة دائماً والمتشابكة ، التي ادت الى ظهور هذه السلطنات الشاسعة المتتالية ، فلا نفس في أيّ منها الرغبة الصادقة في نشر حضارة الفاتح وقرضها على المغلوب ، اذ ان اهتماماً من هذا النوع لا بد ان يقبلور ويبرز باعمال واجراءات موضوعية لا نجد بالفعل شيئاً منها . فالفاتح او الغازي الذي تم له الفتح ، كان يرى في الحضارة التي ادت به الى النصر المين خير الحضارات وامثلها كما رأى فيها سر قفوقه وتماليه ، يحرص عليها ويصونها من كل عيب وانفعال ويحتفظ لنفسه بالمنافع الجزئية التي امنتها له . فلم يحاول يوماً ان يصطنع المغلوب على امره او ان يتمثله او يتقرب منه تحت ستار او مظهر من مظاهر التشبع والدعوة . فالفاتح انما يهيم من الفتح الفوز بالاعداء والاسلاب ، ولذا فلم

تهتم الامبراطوريات التي قامت في التاريخ القديم يوماً بامتلاك القلوب والنفوس .

من الطبيعي جداً أن لا نتخاو مساكنة الغالب للقلوب وتمايشها مما زمناً طويلاً من تفاعلها معاً وانفعالها بمؤثرات وعوامل مشتركة. فبالرغم من تسك المصريين مثلاً وتشبيهم بعناد بتقاليدهم الموروثة ، في كلا الرضمين او الحالين ، فقد كانت تظهر عليهم معالم هذا التفاعل المتبادل يحملون اثره ظاهراً . غير ان الحصول على نتائج عميقة محسوسة من جراء هذا التمايش الطارىء فقد كان يقتضي له أمد طويلاً من الزمن لم يتوفر لكثير من هذه الامبراطوريات التي كانت تنهار وتنتهار سراعا . واذا اعوز هذه السلطنات الوقت الكافي الذي يتطلبه ابي تطور من هذا النوع كان لا بد للحكومة المركزية ، والحالة هذه ، ان تحاول بنفسها تحقيق هذا التقارب وتستحث منه الخطى بإدارة حازمة .

الا ان مثل هذه الفكرة لم تحظر يوماً على بال احد قبل الاسكندر . فجرد طروباً في ذهنه ومحاولته الصادقة لتحقيقها وتحجيزها قولاً وفعلاً ، كل ذلك يفضي على الفاتح المقدوني ميزة خاصة تفرده وتميزه بين كبار الفاتحين . ومن المفيد مع ذلك ان نلاحظ هنا ان هذه الفكرة لم تحظر على بال الفاتح اليوناني في بدء حملته على الفرس بل نشأت عنده ايان الفتح والحلمة العسكرية . ولذا جاز لنا ان نعتقد دون ان نشك باخلاصه في ان الفكرة تبدت له وسيلة من وسائل التغلب على المقاومة المنبذة التي لقيها عند خصمه . الا ان حتى رفاقه وتلمذهم امام صعوبة المطلب ، وموت الفاتح فجأة كل هذا حد من التجربة وانتقص من امكانيات تنفيذها بالزخم المرجحي والمدى المرغوب .

وقد قام بين خلفائه ، هنا وهنالك ، من عاود الكرة ، اما مدفوعاً اليها كرهاً عنه بقوة الاستمرار ، وبالتالي بنجاسة ولين ، إما بتوعية اكبر وادراك اوسع وبنشاط اوفر وعلى نسبة اكبر ، ولا شك انهم رأوا في الكرة يعاودونها من جديد وسيلة مثلى لترسيخ ما اقاموه من سلطان سياسي وعسكري فعملوا على تدعيمه ببلاط الوحدة الروحية .

وها هي رومة تطل اخيراً علينا فتدشيه امبراطورية تمتد اطرافها من الشرق الى الغرب هي اقوى الامبراطوريات التي عرفها التاريخ القديم واسمها طراً واطولها مدى ، اوشكت تتحقق من ضمنها وحدة الحضارة . ولكن رومة لم تسع الى هذه الوحدة ، بل فرضتها عليها عوامل عديدة ودوافع متنوعة : ادارية وسياسية ، وعسكرية واقتصادية ، حتى ودينية . فالسؤولون فيها لم يمتنعوا الفكرة ، ولم يماشوها الا متأخرين جداً ، بعد ان اتضح لهم فشل فكرة الامبراطورية . ثم من الجائز ايضاً الافتراض انهم لم يتذوقوا النتائج التي ادت اليها هذه الجهود الفورية أولاً ثم المنهجية . الا انه لا يجوز الانتقاص من اهميتها والحط من شأنها . ولكن ما عسى ان تكون افضت اليه هذه الجهود وهذه النتائج لو لم تستعجل غزوات البرابرة ، مع عوامل اخرى تصافرت وتفاعلت بها ، انبيار مثل هذه الوحدة البشرية الواسعة التي اوشكت ان تتم ؟

لتاريخ الحضارات التي ظهرت في العصور القديمة طابع مؤثر . فقد تفتح من المدينيات المسكونية البدائية حضارات مختلفة اخذت بالتطور والتكامل الى ان ازدهرت ورالت الواحدة تلو الأخرى . وقد اسهمت كل منها في نماء التراث البشري المشترك . ومن جهة أخرى فالحضارات الكبرى التي نشأت واستشرى امرها ضمت في كينونتها بمالك ودولاً تعايشت معاً وتفاعلت على فترات من تطورها . وهكذا بدا العالم القديم وكان قوة خفية تحركه وتدفعه من حيث لا يدري نحو وحدة تتجدد دهرأ بعد دهر . فالحضارات تتعاقب وتتناهى بعد ان تحاول كل منها ان ترفع درجة اعلى من سابقتها ، صخرة الوحدة التي آل اليها امرها فترة من الدهر . ولا تلبث الصخرة ان تهوي الى الارض محطمة كل شيء في انهارها المدوي .



القسم الأول
حضارات الشرق الأدنى والأمبراطورية

في هذه الرقعة الواسعة من الأرض التي يصطلحون اليوم على تسميتها بالشرق الأدنى ، برزت وازدهرت اقدم حضارتين بين الحضارات التي قامت على مقربة من حوض البحر المتوسط . ففي مصر وبلاد ما بين النهرين ظهرت اولى السلطنات العظيمة التي تستأمر باتباعنا للمجهود البشري العظيم الذي بذلته .

والسبق الذي حققه الانسان في هذه البلدان على امثاله في العوامل التي ساعدت على هذا النجاح في مصر وما بين النهرين . الاقطار الاخرى اذ كان نهجهم في العيش من قبل نهجاً واحداً سوياً ، يجب رده في الدرجة الاولى الى حلم الطبيعة والاحوال الجوية فيها . فكلما البلدين يتألف سواده من سهول فساح ووديان ظليلة يؤمن لها المناخ الحرارة اللازمة كما يردفها بالرفء والحصب انهار غزيرة . وهكذا في قلب منطقة صحراوية جرداء ، بعض فيافيها من اخشن ما قام من امثالها في الارض ، توفرت الشروط المؤاتية لبروز واحتين لا اوسع منها ولا اخصب تقع احدهما على شواطئ البحر الابيض المتوسط كما تطل الثانية على مشارف هذا البحر .

وراح الانسان في هذه البقاع البارة يتلمس طريقه وينمي خبراته مكتسباً مهارات جديدة في استثمار هذه الاراضي الحيرة . مهمة ظاهرها هي تسير بيننا يخفي الواقع صعوبات كأداء لا تلين . ففي الحين الذي كان يحاول فيه الانسان استنباط تكنيكه الزراعي وتحسين عدته وادوات عمله كان عليه ان يهيمن على المياه وان يتقاضي منها الطغيان والتقصان ، وان يردأ عنه بخطر المستنقعات وهجوم الصحراء عن طريق اقامة شبكة من اقنية الصرف والترع اللازمة للسقي ليحقق من هذا كله سيطرته الكاملة على الارض واستثمار خيراتها الطائفة ، على منهجية واصول .

فامام مهمة بهذا الشمول ويمثل هذه الجسامه كان لا بد لجهود الفرد من ان تصاب بالعجز وبيوه سعيه ومحاولاته بالفشل ، فيقصر عن تحقيق اي شيء نافع له ولغيره من بني جنسه لو لم يتكتمل مع غيره وينتظم من جماعات لها كيانها السياسي والاجتماعي ولها القدرة والسلطات الكافية لتنسيق الدروس وتحقيق المشروعات الموضوعه واستثمارها على وجه يعود بالنفع على المجتمع . وبالفعل فقد كان بحاجة ماسة الى زعماء وقادة يتمتعون بالسلطة والاحترام اللازمين .

فضرورة القيام بمثل هذه المهمة السلبية والنفع الذي تعود به على الجميع ليس من الحقائق التي تبرز للعين بروز واجب الدفاع عن الوطن من اعتداءات المعتدين . ومن جهة اخرى فالعرب

وضع طارئ، وحالة حادثة تمر وتنقضي ، بينما إعداد الأرض للزراعة عملية يجب مداومتها كل سنة وإتقانها من جديد عاماً بعد عام بعد ادخال التحسينات عليها. فلكي يستطيع القادة اصدار الاوامر في هذا المجال وانتزاع الطاعة ، يجب ان يتمتعوا بسلطة قوية تنطلق من مجموعة من التعاليم والعقائد الدينية التي تحتم على الانسان الطاعة التامة والخضوع الكامل والتسليم المطلق ، ان لم يكن تقاني الفرد المطلق وانسكابه في مجهود مشترك نظم .

هنالك ثلاثة عوامل تضافرت وتفاعلت معاً فأدت الى هذا النجاح ، هي :
سر هذا النجاح الظروف الطبيعية المؤاتية في خدمة ادارة جماعة يشدها الى الدين روابط وثيقة متينة . ولكن كيف تم للعاملين الانسانيين الاخيرين الظهور وكيف تم لها مثل هذا الانتشار والشيوخ واكتسبا مثل هذا الحول والطول ؟ هنا السر الكامن الذي لا يمكن ادراكه والنفاذ اليه ، اذ ان نشأة الدين وطوع الفكرة الدينية ، لا يأتلغان بشيء مع التسليم بفكرة المنفعة المادية . والاخذ بهذا التسليم يعجز عن تبرير هذا الرضوخ المستمر ، من قبل جماعات تعمل تحت الاكراه والضغط .

وما يزيد هذا السر اغلاقاً واطباقاً ، وبالتالي اثرأ في النفس هو اننا امام ظاهرتين لا ظاهرة واحدة وامام نشأة حضارتين متعاصرتين تقريباً. فالحضارة المصرية واختها الحضارة البابلية نفسها ، شارفتا على التام وتمت لها الخصائص المفردة ، بضعة قرون قبل اواخر الالف الرابع قبل الميلاد اي حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م ، بحيث يستحيل على المؤرخ اليوم ان يقطع في من منها سبق الاخرى للظهور .

ولو فرضنا وقام دليل قاطع على اسبقية احدهما للاخرى ، تعذر القطع ايضاً على الباحث في من منها تأثر بالاخرى ونهج نهجها واحتذى حذوها . فبين الحضارتين اكثر من خاصة واكثر من ميزة مشتركة . ولكن ، في النظام العقائدي الذي ارتضته كل منهما ، وفي الانظمة السياسية الاجتماعية التي عملتا بها ، قامت مفارقات اساسية جذرية تجلت كذلك في العلاقات التي شددت الدين الى السلطة الشرعية . والنتائج العملية التي أدت اليها المناهج والاساليب التقنية التي استخدمت هنا وهناك في استئثار الارض ، هي متشابهة ان لم نقل واحدة. ولكن اذا ما نظرنا الى مظاهر الحياة الاقتصادية نفسها رأيناها تتلبس اشكالا والوانا هي في مصر غيرها في بلاد ما بين النهرين . فنحن امام حضارتين اصلتین نشأتا الواحدة بمعزل عن الاخرى ، ودون نقل او نسخ الواحدة منها للاخرى ، مع بعض اقتباسات طفيفة . ولكل من هاتين الحضارتين فجرها الخاص وضحاها المميز ، وكلاهما يستدعي تبني مئات الألوف من الناس واقتباسهم لمجموعة من العقائد والمذاهب ، ذات فعالية مدهشة كان اثرها قبل التجربة غامضاً مجهولاً ، يصعب تحديده او تبيانها ، صحت اساساً وطيداً لهذه الحضارة ، ونقطة انطلاق لها نحو الظهور قاتلجلي فالازدهار .

العلية الشرق الادنى
للسيطرة والسود

وهذه الحضارات الفرعونية والبابلية التي يكتنف الغموض نشأتها المبكرة
ويلفّ كينونتها لفاً ، عرفت ، بما تمّ لها من موارد طبيعية هائلة ورقد
كريم ، وبما امتازت به في الداخل من تماسك وتراسد زادت النجاحات
التي سجلتها والتفوق الذي حققته قوة ومثانة ، ان تكفل الشعوب التي قامت عليها ونهضت بها ،
تقوفاً ساحقاً على ما سوحها من امم مجاورة وطوائف دارت في فلكها . فقد تم لهذين القطرين
منذ الفجر الباكر ومائل ساعدتها على الفتوحات العريضة وبسط سيطرتها بعيداً .

وهذا السلطان جاء استعماله واستخدامه عندهما على غير استواء . فالحاجة للزبد من
الطمأنينة عن طريق تدوين المزيد من الشعوب المجاورة ، الفينة بعد الفينة كانت اكثر غيباً لدى
المصريين منها لدى البابليين . وهكذا يبدو لنا ، بعيداً عن كل نظرة سيكولوجية ، ان
« شهدة السيطرة » التي وصّمت بها هذه الحضارات ، لا تلازم تاريخ مصر الفرعونية بصورة
مستمرة . ومع ذلك فقد اضطرت مصر ، بدافع من موقعها الجغرافي ، لتحقيق وحدتها في
الداخل وللمراقبة الضخاري المحيطة بها من الشرق والغرب ، على السواء تقادياً للفجآت المزعجة
ومنمناً لكل طارق طارئ ، بحيث تستطيع الانصراف للاستمتاع بدعة الرادي وبخيرات
الوافرة . ومهما يكن ، فقد اضطرتها ظروفها الخاصة ووضعها الجغرافي لان تصبغ وتبقى دوها ،
من الوجهة الجغرافية والاسكانية ، دولة كبيرة واحدة موحدة ، بالرغم مما تم لها من
سروف وظروف .

فالشرق الادنى ميزة خاصة لا يشاركه بها قطر من اقطار حوض البحر المتوسط ، وهي ان
حدوث الحضارات الكبرى لا يلبث ان يعقبه ، بعد فترة قصيرة ، طلوع امبراطوريات عريضة .
فاذا ما نظرنا الى هاتين الميزتين مستقلتين او في إطار التاريخ العام ، رأينا ان ليس بينها شيء
من الترابط والتداعي ، اذ اننا نلاحظ في غير مكان ، او في ازمنا تاريخية اخرى ، طلوع
حضارات ضخمة تزدهر ، بالرغم مما يتخللها من انقسامات سياسية . وعلى عكس ذلك تماماً ،
هنالك امبراطوريات واسعة تقوم وتستمر في الوجود بالرغم مما هي عليه من تخلف في تطورها .
فهذا التوافق والتزامن الزمني يبقى ابدأ من مواصفات الشرق الادنى المميزة .

وهذا التوافق ليس حدثاً عارضاً ، بل جاء نتيجة منطقية . ففي هذه الحقب الموعلة في
التاريخ ، جاء جهود السكان المشترك ، في حقلي الحضارة والتكونات الجغرافية ، سبباً وعلّة في
آن واحد . ومن جهة أخرى ، عندما تأخذ شمس هذه الحضارات والامبراطوريات بالغروب
تترك وراءها شيئاً مما كان في الاصل ضرورة عضوية لها .

فالشرق الادنى عرف ان يحافظ ، مع توالي الاجيال ومرار القرون ، على قسما صورته
الاولى . ومن جهة ثانية ، نرى الانطلاق الحر للفرد امراً عسيراً . فن وجهة عدد السكان الاجمالي
او من جهة كثافة السكان ، لم يكن لوحدة الدولة ، من الناحية المادية كبير اهمية . كذلك امر

الفرد من الناحية الادبية ، اذ كثيراً ما كان يضع بين غمر الجماهير . وكل شيء يشير الى اث الضغط الذي كانت الجماهير تحدته من الخارج ، كان اكثر من كافٍ ليعيق انفتاح الشخصية وبروزها . من العسير ان تتصور كيف لا يؤول التجنيد في سبيل نفع مشترك كالشغل والحرب ذباً عن الوطن الى التجنيد العقلي والادبي معاً . ومن جهة اخرى ، كانت هذه المنطقة منطقة الشرق الأدنى ، ابدأ ودوماً الأرض المختارة او الأرض المدعوة لاطلاع الممالك الكبيرة . يبدو ان قادة هذه الشعوب لم يستطيعوا مقاومة ما للاق المديد من سحر وفتنة ، فوقعوا تحت تأثير هذه الآفاق صرعى اغرائها وفعلها الاختاذ ، وقاموا يذرعون مشارق الأرض ومغاريها طولاً وعرضاً ، ويقطعون مضائق البحار وبرازخها ، تحقيقاً منهم لحلم راودهم بفتح مابين . وهكذا نرى الامبراطورية اليرانية التي آلت اليها تركه امبراطوريات بابل ومصر ، تحاول بدورها بلوغ ما لم تبلغه سابقتها من قبل .

وهكذا نرى الحضارات الامبراطورية الكبرى الثلاث : الفرعونية والبابلية واليرانية التي توارثت الشرق تباعاً ، قديماً ، تنتصب ، بما لها وفيها من نزعات عريقة اصيلة ، وجهاً لوجه امام مدنيات دقت رقعته الجغرافية وتواصفت خططها السياسية . وهكذا نرى ثلاث مدنيات كبرى تبسط سرادقها على الملايين من البشر تنتصب وجهاً لوجه امام مدنيات تركزت للجهد الفردي حرية اكبر واوسع . ففي الصورة الكبيرة التي رسمنا ، كما هي الحال في كل صورة مكبرة ، لا بد من التحفظ في ما تبدى عليها من فوارق . الا انها في مجلتها وفي خططها الكبرى تبدي الواقع الجرد .

الكتاب الأول

الحضارة المصرية

ودون ان تقطع في امر اقدم الحضارات واسبقها في الترتيب الزمني ، لنبدأ بمصر .

الحضارة الفرعونية التي زهت وازدهرت في مصر منذ اواسط الألف
مدى الحضارة المصرية الثالث قبل الميلاد عمرت نحواً من ثلاثة آلاف وخمسةائة سنة . ففي عهد
واستمرارها الامبراطورية الرومانية كان القوم يقدمون لآلهة مصر العبادة التي نهجوا
عليها وفقاً للرسم التقليدي المتعارفة ، ويننون لهم الهياكل وينقشون على جدرانها رسوم
الطقوس الدينية بالحط الهيروغليفي . ولم تتلاش ديانة مصر القديمة وتنسخ مناسكها ومراسمها الا
مع ظهور المسيحية وغلبتها في نهاية الأمر وسيطرتها على اطراف البلاد ، بعد ان عرفت كيف
تحافظ على نفسها سليمة وتحفظ مجيوتها بالرغم من وقوع مصر تحت سيطرة الفاتحين الاجانب
كالليبيين والاثيوبيين ، والاشوريين والفرس والمقدونيين . فاذا كان الاولون منهم اعتنقوا
الديانة المصرية وتبنوها ، فالباقون ادخلوا معهم آلهتهم الوطنية لاستعمالهم الخاص . اما الالهون
فقد احتفظوا بآلهة جدودهم القدامى واحاطوا بعضها بمظاهر التكريم وبالغوا في السير على مناسك
عبادتها . فالانسان لا يعرف حضارة من حضارات التاريخ القديم عمرت ما عمرت الحضارة
الفرعونية ، وبرهنت عن عراقه ورسوخ لا مثيل لها قط .

وغني عن القول ان الاستمرار لا يعني عدم التبديل . ففي مثل هذه الحقة المدينة التي
استطالت لها الحضارة المصرية القديمة ، عرفت مصر أكثر من تبدل وتغير وتطور في جميع
نواحي الحياة وفي كافة المجالات . والديانة نفسها التي يعني مدلولها المحافظة تقدم الدليل على ما
تقول ، ناهيك عن التطورات المدينة والعميقة مما التي أمت بالحياة الاقتصادية والاجتماعية في
البلاد ، ولا سيما في العهود التي وقعت مصر فيها تحت سيطرة الاجنبي .

كذلك ، غني عن القول ، ان مصر ، خلال الحسة والثلاثين قرناً التي استطالت لها الحضارة
الفرعونية ، لم تحافظ على مستوى واحد من الحيوية والنشاط . فقد مرت بها عهود ازدهار
وتوسع واشعاع كما عرفت عهوداً اخرى من الانحطاط والحسف والسبات العميق . فقد تماقبت على

الوادي ، منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، ثلاث امبراطوريات ، من الاسرتين الثالثة والرابعة - اي من بناء الاهرام - حتى اواخر القرن الثالث عشر قبل المسيح ، تاريخ زوال السلالة التاسعة عشرة التي ينتمي اليها رعمسيس الثاني . وبعد ذلك في القرنين السابع والثامن ، اي بين ذهاب سيادة آشور . والفتح الفارسي ، عاد الى مصر شيء من حيويتها مع اسرة سايس . فاذا شئنا ان نرسم للحضارة المصرية رسماً بيانياً لم يتبع الرسم خطأ منحنياً ، مديد الطول مع مدى الأزمنة التي استطلت لها هذه الحضارة ، بل سار متعرجاً ومتكسراً بين هبوط عظم وارتفاع شاهق .

فالحدث ، والحالة هذه عن حضارة مصرية « واحدة » ووضع صورة بيانية عامة لها عملية رهان ومجازفة ، ولكن المحاولة لها ما يبررها في ما اعتقد به المصريون واستقر في اذهانهم وما جأهروا به عالياً من ان حضارتهم حضارة استمرت دونما انقطاع .

اذا تبينا عند شعوب كثيرة الاعتقاد بعصر ذهبي ، ووضع مثالي تحقق في الماضي الاسطوري ، فمن النادر جداً ان تتخذ هذه الشعوب ، من هذا العصر المثالي قسطاساً تهب عليه وهدياً تأتم به . ولا يولي الظاهر للتطور عن قصد ، لما يتبينون فيه من مفسدة ، الا قوم لفهم العقيدة الدينية لفاً قتلبوسها وراحوا يستلمونها في كل تصرفاتهم وافكارهم . فقد هالهم التفاوت بين الأصل الذي عقده على نعم الالهة وعللوا النفس بها وبين البؤس الحيق بالناس فراخوا يعللونه بالخروج على التعاليم الالهية ، ويردونه لما كان عليه الجدود من وجود لنعم الالهة ومن جهل وجهالة فنالوا حزاء عملهم ما يتضرسون به اليوم من شقاء بعد ان فقدوا النعم والحيرات التي كانت لؤلؤ الجدود من قبل . ويبدو ان المصريين كانوا من هذا النوع من الناس . فمخ انهم كانوا يقولون بالتمسك بالقديم والحفاظ عليه ، لم تبق ارادتهم جامدة . صحيح انهم لم يكونوا من المستسلمين للكآبة والقنوط ، فقد حملهم ما عرفوا به من اندفاع طبيعي ، على احياء الماضي المجيد مع تحسرم عليه وتحرقهم اليه . فالشعب ، في مجموعه لم يعمر قلبه بفكرة الرقي الذين كان في مكنة المستقبل ان يحملها لهم . فقد اعوزهم ، ولا شك في ذلك ، الخيال المجنح المطمئن الذي يستطيع وحده ان يستجليه . كانت نفوسهم تهفو الى ماضي امثل كانوا عليه ، انما قضى ومضى وزال ؛ الا انه يمكن لهم ويتحتم عليهم استعادته وحياؤه . ولذا حاولنا على شاكلتهم استحضار هذا الماضي وتقهمه وتكوين صورة مثالية لهذه الحضارة الباهرة .

« مصر هبة النيل » كلمة مأثورة طالمنا نسبها الناس الى هيرودوتس المؤرخ وحسدة وفوضى اليوناني المشهور . والصحيح كما يصرح به هيرودوتس نفسه ان هذا القول نقله هو عن اسلافه الاغريق ولا نسيا عن هيكاتي الميلي ، احد مؤرخي اليونان ورحالته المشهورين في اواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد . وكان اليونان يطلقون القول على دلنا النيل وحدها بيننا وجد هيرودوتس ان القول يجب اطلاقه على مصر كلها .

وبالفعل ، فالنيل من الاهمية الطاغية على تكوين مصر وعلى تطورها عبر التاريخ ما لا يمكن نكرانه ولا يصح تجاهله ، ولا يحتاج بالتالي الى دليل يمتج به . فالحياة في مصر ترتبط في جميع مظاهرها ونواحيها البشرية والحيوانية والنباتية بالنيل وبما يردف به مصر ، في ابان الفيضان من ماء وفير وطمي يكسبها الخيرات والبركات الطائفة ، وهو فيضان يقع في فصل القيظ ، اي من حزيران الى تشرين الاول فتكون معجزة الماء احدى عجائب الخلق في هذا البلد . فمصر هي ، قبل كل شيء آخر ، النيل نفسه الذي يؤلف بواديه الطويل شريطاً اخضر كان ، منذ القدم ، امثل وسيلة للمواصلات ، يفيض الرفء على ما حول ضفافه من الاراضي الخضراء فتكتسي حلة سندسية . ولا تتجاوز هذه الاراضي ثلاثين الف كيلومتر مربع مساحة - اي ما يوازي مساحة بلجيكا مثلاً ، والف كيلومتر طولاً خطأ مستقيماً ، اي ما يوازي المسافة بين دنكرك في شمالي فرنسا وبرينان في جنوبيها ، او اطول من ذلك بكثير ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار عطفات النهر وتعاريجه اذ ان سيره ومجره ليس بالسير السوي القويم .

ولذا كان لا بد من وحدة للوادي ، يستطيع معها الانسان مراقبة ارتفاع مياه النهر ابان الفيضان وتنظيم عملية صرفها وتقنياتها ، وهي وحدة سريعة المطب ، سريعة الزوال اذا لم تتمكن الادارة المركزية من التغلب على عقبة المسافات والابعاد التي كانت تعترضها . والمقاطعة او التصرفية التي نشأت حول التجمعات البشرية التي قامت على جنبات الوادي كانت تضيي على الحياة اطاراً طبيعياً . ويجب ان نوه هنا ، ولو من طرف خفي ، بالتضاد او المنافسة القائمة بين الوادي او مصر العليا التي لم يكن عرضها ليتجاوز عشرة كيلومترات ، وبين الدلتا او مصر السفلى التي تألفت من مثلث طول ضلعه ٢٠٠ كيلومتر تقريباً حيث كانت المياه الجارية منها والراكدة تشعب الى اقنية وترع متعددة ، فتحدث البحيرات والفياض والاجام الغضبية التي كثيراً ما اعتصم فيها المتمردون والخارجون على القانون والشرعية ، هرباً من وجه العدالة . وبفضل اتصال الدلتا بالبحر تم لهذه المنطقة وسائل وخدمات تجارية لم تعرف مثلها مصر العليا او الصعيد ، فقامت في الدلتا مدن عديدة كان لها من الاهمية التجارية ما لم يترقر بعضه لمصر الصعيد ، وقام لها من المشاغل والمصالح الخاصة ما تعارض مع مصالح الريف في الوادي .

وتوجب علينا ان نشين هنا الى عامل آخر ، عمل فعله باستمرار منذ القدم الى جانب عامل الوحدة ، الا وهو وجود قوى مركزية دافعة ، استطاعت اكثر من مرة تحقيق اهدافها معتمدة في ذلك لما على نفسها او على مساعدات الاجنبي واثره الهدام على البلاد من الداخل . غير ان الشعور المرير بفقدان الوحدة لا يلبث ان يشتد عند مرأى المصائب والاحسن التي كانت تنزل بالبلاد ، فتحول دون استثمار الارض المرغوب فيه كما كانت تسيء الى الاهلين في سيرتهم المألوفة والعيش الذي الفوا نهجه . فاهيك عن انها كانت تضعف الموارد التي تنهض عليها معالم

الحياة الدينية التقليدية . وهكذا ندرك حق الادراك كيف ان الشعور بالاسف كان يغمر البلاد في تلك الأزمنة التي كان يضطرب فيها حبل الأمن في الداخل ، فتعاود الناس ذكرى تلك الأيام الحلوة وعبود الرخاء التي كانت فيها البسوحة والرفاهية يخيان فيها على مرافق البلاد كافة . وهكذا نجد ان التعلق بالماضي والحنين الى أيامه الحلوة ، هذا الماضي الذي عرف الوحدة وحضنها وحافظ عليها كان الدافع اليه المصلحة العامة المشتركة .

عزلة وأصاله كره المصريين للجديد له ما يبرره العزلة التي نعموا بها . فما من حضارة توفرت لها ظروف البروز والازدهار والبقاء بنأى عن المؤثرات الاجنبية كأنها في وعاء مغلق ، كالحضارة المصرية .

كانت مصر بفضل موقعها الجغرافي الممتاز ، اقل دولة تعرضاً للخطر من الخارج ، وهي ميزة تستلقت النظر والانتباه ، اذ ان الازدهار الذي نعمت به من شأنه أن يثير أطباع الراغبين وجشعهم . اما حدودها فكانت أقل ما يمكن ان يتصوره الناس لحدود طبيعية . فقد كانت الشلالات في الجنوب معال في وجه الغزاة يرومونها من هذه الناحية . والصحارى المحيطة بالوادي من الشرق والغرب على السواء كانت تؤلف سدوداً منيعة لا ترام ، كما أن حدودها البحرية كانت هي الاخرى ضيقة محدودة . والى هذا ، لم يجثم على حدود مصر ، عدو شديد الشكيمة ، يتهددها باستمرار . ولا يعني هذا الوضع الهين ان مصر نعمت باستمرار براحة البال لم يساورها القلق على سلامتها ومصيرها . فباستثناء الصحارى العربية والديبة القاحلة الجذباء التي عزلتها من الشرق والغرب والتي كانت على الاجمال خالية من السكان ، كان لا بد لمصر من قوة بوليسية دوماً منيظة للعمل والتدخل عندما تدعو الحاجة . وكثيراً ما اضطرت الظروف ودعتها للقائمة والجهاد المرير في جنوبي الدلتا وشماليها ، ولا سيما الى الشمال الشرقي ، إذ يشدها الى القارة الآسيوية برزخ ضيق . فحاربت واستماتت دفاعاً عن سلامتها او استخلاصها لارضها من مغتصب مستبد . وهذه المخاطر التي استهدفت لها من الخارج في العهود المتأخرة من تاريخها المديد ، لم تسبب لها قبل مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، سوى أزمات ونكسات عابرة . وليس في تاريخها الطويل ما يصح مقارنته او معارضته بهذه الحروب الاكول المنهكة التي اضطرت لحوض غمارها شعوب اخرى ذوداً عن أوطانها وذباً عن حياضها .

فالتلاحم في ساحات الرغى كثيراً ما أدى بالمدنيات القائمة وجهاً لوجه للاحتكاك والتصادم ، الا أن الحضارة المصرية قلما تعرضت لمثل هذه الامور في تاريخها السحيق . وهكذا استطاعت هذه الحضارة ، أن تحافظ على أصالتها ، بإسرها استطاعته أية حضارة اخرى . وكان من أثر هذا كله على المصريين ، ان حرك قبيهم كثيرهم من الشعوب الاخرى ، الشعور بالفخر والمباهاة ، وهو شعور أشد عندهم وأقوى منه عند الغير ، كما نلاحظ ذلك من كلام كهنتهم لبعض الرحالة اليونان عندما خاطبهم قائلين : « انتم اليونان لستم سوى اولاد صغار » . وعندما بلغ تحتمس بحياضه الجراراء ، شواطئ الفرات ، في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، قام في مصر من

الفصل الأول

النظم السياسية

الحضارة المصرية والملكية ، هما واحد ، في المجال السياسي . فمصر تفقد معناها وتخرج عن ذاتها عندما لا يتولى الحكم فيها فرعون قوي الشكيمة . فالضعف ينزل بالسلطان في مصر الفرعونية ، إنما يعني ، في نظر المصريين الهوان فالفوضى تعم البلاد ، فالغزو من الخارج يقوم به الطامعون بخيراتها لا يلبثون ان يتزوا بزى الفراعنة ، اجتذاباً لرعاياهم .

١ - الملك

الملك محور الوحدة وبخالها يعزو المصريون الى ملكهم الاول مينس مؤسس الاسرة الاولى ، تنظم البلاد على اساس توحيدها . فالملكية في نظرم ، بدء تاريخ الانسان في البلاد . وقد جعلوا من نقطة الانطلاق هذه حدثاً الهياً بديرته الآلهة وهيات له الاسباب ، وسخرت في سبيل تحقيقه مينس وجعلت منه خلفاً مباشراً للارواح انصاف الآلهة الذين شدوا منه الازر . وقد وقع هذا الحدث التاريخي في نظرم في الحين الذي برزت فيه الاكتشافات البشرية الاولى التي تمد من اركان حضارة الانسان : كالكتابة ، والفن واختراع فنون الزراعة والصناعة .

ويأبى علم الآثار التسليم بهذه الاحكام ، اذ لديه الدليل القاطع على المحاولات الاولى التي اخذ الانسان فيها يتلمس طريقه نحو التقدم والارتقاء ، كما عندهما الدليل على المراحل التي مر بها بين صعود وهبوط وارتقاء ونزول استغرقت وقتاً طويلاً من الحضارة . كل هذا من شأنه ان يضفي اهمية خاصة على تحقيقى الملكية بعد ان عرفت في البلاد ، ولادة صعبة ، بطيئة ، اذ كان عليها ان تتغلب تباعاً على النزعات المحلية الممثلة في الاربعة « حاكمية » وعلى الازدواجية او الثنائية التي قسمت مصر الى منطقتين متباينتين من الوجهة الطبيعية : الدلتا والوادي ، او مصر العليا ومصر السفلى ، متعادلتين تقريباً بمواردهما المادية والبشرية .

والحقة التي مرت على الملكتين تركت اثرها بارزاً في خطط المملكة الموحدة . اذ عرفت البلاد مدة طويلة ادارتين مختلفتين ، وسلسلتين او دورتين من الالقاب المتوازية ، وبيتين للامال او خزنتين ، اقله من الوجهة الرسمية . وهذه المراسم التي لم يكن بدّ منها في بادىء الامر لم تلبث ان زالت وقرارت بنا بقيت حية الرمز والشارات المميزة للملكية والتي كرستها التقاليد الخاصة بتكريس الملوك وتتويجهم . ولعل ابرز هذه الرموز طراً التاج الذي كان يتألف من تاجين مزدوجين ، اشارةً للملكتين اللتين اندمجتا وذابتا في ملكة واحدة ، يتوج به الفراعة في الحفلات الرسمية ، يعلوه تاج الجنوب الابيض المستدير الشكل من اعلاه ، مرتكزاً على قبعة الشال الحمراء يعلوها من الورا سنج عمودين تزينه من الامام ريشة لولبية الشكل . ومن القاب الملك الكبرى : « رب التاجين » وهو لقب يولي صاحبه صفة خاصة اذ ان للتاجين صفة التأليه ، ولها بالتالي المرتبة الثانية بين مراتب المراسم والتشريفات . وتنتهي الى الذوبان والانصهار في الذات الملكية هذه الازدواجية المثلة بهذه الانشطة الملتفة حول عمود العرش وهي انشطة تتألف من البردي ، وهو من منابت الفيض في الشال ، ومن زهرة البشتين او اللوتس ورمز الجنوب ، ومن الشارة البارزة في التاج الملوكي والتي ترمز الى الشال والجنوب معاً: النحلة والثعبان اللوحي الشكل من جهة ، والقصبة والنسر من جهة اخرى .

اختيار العاصمة منف وأثر ذلك
 لا شك ان الملك منس ، طلع من الجنوب ، من الصعيد ، اذ ان تاريخ مصر الرسمي يرجع للسلاطين المصريين الاولى والثانية ، الى مدينة قديمة من مدن الصعيد هي مدينة تنيس اتخذها ملوك الاسرتين المذكورتين عاصمةً للملكهم ، فاستحقوا بذلك ان يوصفوا بالاسر الثانية . وقد وقع اختياره على نقطة تقع الى الجنوب من الدلتا ، على بعد يسير من الرقعة التي تقوم عليها مدينة القاهرة اليوم . في هذا المكان ، تأسست منذ السلالة الاولى ، قبل إنشاء مدينة منف التي برزت بعد ذلك بقليل ، قلعة تعرف « بالجدار الابيض » وهي بمثابة حصن منيع يتحكم بطريق الوادي ويهيمن عليه ، كما كان يشتمل على قصر ملوكي تقام فيه حفلات التتويج .

والمكان الذي وقع عليه الاختيار نزولاً عند المتعضبات الجغرافية والمحافظة على التوازن بين الشطرين الشمالي والجنوبي ، كان يستجيب تماماً لاهداف الملكية الاتحادية ومتطلباتها التي طالما شهبوها مجازاً ببيضة الثعبان او ميزان المنطقين . وقد قررت السلالة الثالثة نقل المقر الملكي الى هذا المكان وجعله بالتالي مركزاً للحكم والادارة العامة ، وعلى ذلك سارت الاسر الفرعونية التالية حتى الثامنة منها، ولهذا استحققت ان تلقب بالاسر « النفية » نسبة الى منف ، بينما تعرف اسر الامبراطورية الوسطى والحديثة بالاسر « الطيبة » لان ماوكها الاول طلوعوا من طيبة في مصر العليا او الصعيد ، وكان هؤلاء الملوك ابناء اله هذه المدينة « آمون » الاله الملكي الاعظم ، وهكذا اصبحت طيبة المدينة العاصمة . وبعد ذلك بكثير قامت ستايبس في الدلتا ، ثم الاسكندرية خارج الدلتا او على مقربة من مصر ، كما ورد وصفها في النصوص الرسمية .

وفي العصر اليوناني نفسه ، اي في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، كانت مراسم التتويج لا تجري الا في مدينة منف ، وهو تقليد عميل به باستمرار لما كان يرمز اليه من اتحاد شطري البلاد في شخص الملك الواحد الوحيد .

الملك الاله كان الملك في مصر ، منذ بدء الملكية فيها ، الها ، ولكن ليس بصورة رمزية او مجازية للتدليل على سلطته المطلقة وتساميه فوق العامة بل على عكس ذلك تماماً ، فالنص الحرفي انما ينم على هذه العقيدة التي تكون احدي ميزات مصر الفرعونية . وهي عقيدة تطورت بالطبع على مر السنين والاجيال الا انها لم تفقد شيئاً من قوتها وفعاليتها .

فالملك هو قبيل كل شي « هوروس » الاله النسر او الاله الشمس ، ابن اوزيريس . وتحت تأثير عبادة الاله رع ، اله الشمس الاكبر في هليوبوليس بالقرب من مدينة منف ، مركز الثقل في الامبراطورية المصرية القديمة ، يصير هوروس تابعاً لرع ، والملك يصبح بالتالي : هوروس - رع او بالاحرى رع - هوروس ، ثم فيما بعد ابن رع . ولم تلبث هذه البنوة ان رمز اليها منذ الباكر بصورة حسية ، ظهرت على اتمها وباهية وجلال في عهد الامبراطورية الحديثة عندما اصبح امون طيبة الاله رع ، وذلك لاسباب ودوافع سلاسية ، واستحال بالتالي الاله امون رع . وعضواً من ان يكتفى بوصف هذا كله شفويآ اي بالكلام ، راح المصريون يسمون هذا كله على جدران الهياكل ، فيصرون الاتحاد الحسي بين امون والملكة كما راحوا يصورون حسياً العون يسديه الاله والآلهة التوابع للطفل عند ولادته وفي تربيته . وهي تقاليد بقيت حية ، قوية ، ثابتة ثبات الحضارة الفرعونية نفسها .

فرعون الاله في الحياة ، يبقى الهاً بعد الوفاة . فهو الاول بين المصريين وبالتالي يستحق مناسك العبادة والتكريم المتوجب للملك المتوفي باعتباره اوزيريس ، اذ قام على الارض من مجل محل ابنه هوروس . فمن المنطق والطبيعي ، والحالة هذه ، ان يصبح اباه الالهي . والتعاليم الدينية التي سيطرت على هليوبوليس لم تغير شيئاً من طبيعة الاعتقاد الذي لا يتفق ، حسب منطقنا ، مع العقيدة التي تجعل من الملك ابناً للاله رع ، الا ان الديانة المصرية لم تبال كثيراً بهذه التناقضات . ولما كان اوزيريس ملك الاموات كان لا بد للفرعون الراحل ان يتسم بهذه الصفة اللازمة للملكية . وهكذا حق لرعمسيس الثاني ان مخاطب اباه قائلاً : « انت في مسكن الراحة في الدار السفلى مع اوزيريس ، بينما انا أتألق هنا امام الشعب بصحبة رع ، متربعاً على عرشي مثل هوروس » .

وهذا التأليه في الدارين ، الفانية والباقية ، ليس من نزوات ملك عات مستبد اوجب على رعاياه الخائعين الاخذ به . فهو ينبثق رأساً ويصدر عن الايمان الوطيد ، بانه الله والله عظيم . دوماً على اتصال مباشر وثيق بالآلهة الكبار ، له القدرة على الطبيعة يصرفها في الوجه الحسب النافع .

فالملك ، كما يقول احد الوزراء الذين عملوا في عهد الامبراطورية الحديثة ، « اله اعماله تساعده على الحياة » . أفليس له الفضل في إخصاب المواسم وازدهارها واقبالها ، لانه اله النيل ، مصدر كل ازدهار . وسمع ما يقوله هنا أحد الفراعنة المتوفين : « كنت ملكاً أومن طلوع الشعير » . وعندما يعثي فرعون العرش ، كان على الناس ان يفرحوا ويتهجوا لأن أحد الارباب اقيم رئيساً على كل البلاد ... والمياه ترتفع ولا يهبط منسوبها ، والنيل المياه الحيرة المدارة ... والحياة نهب بين ضحك وهو « ففي الرقم والكتابات المصرية ، يرافق اسم الملك اشارات ترمز الى : « الحياة والصحة والقوة » ووجودها على هذا الشكل يُنرفع ليس للذات الملكية فحسب ، بل ويتجه ايضاً بواسطته لكل المملكة وما فيها من سكان . وحتى بعد الوفاة يبقى فرعون يحذب على مصر ويعطف عليها ، ولذا حق له اكثر من أي انسان آخر ، ان يخلد ذكره ويبقى حياً الى الأبد .

تعيين الملك وتويجه الملكية بمثل هذا المفهوم وعلى مثل هذا الشكل ، نظرية لا بد وان تترك ، من قريب او بعيد ، اثرها العميق على كل ما يتصل بالملك وشؤونه . فهل قام في مصر ، بالفعل ، حق ملكي وراثي راسخ ثابت وطيد ؟ ليس من يستطيع إثبات ذلك ، ان كل الدلائل تشير الى ان الابن البكر كان يخلف ابيه الملك ، ولكن هذا الأخير كان يعتمد في بعض الأحيان ، الى تأمين خليفته بنفسه فيختاره او يشره باعباء الحكم وهو في قيد الحياة فمحكم كوصي مشارك . غير ان تدابير كهذه من شأنها ان تجعل الملك يؤثر ابنه الاصغر او ابن احدي زوجاته الاخرى . ولذا فالوثائق الرسمية التي بلغت الينا من ذلك العهد لا تقتصر على التنويه بحق الولادة وحده . ففي حالات اغتصاب الملك والاستيلاء على العرش عنوة واقتداراً - وهي حالات كثيراً ما تكررت حوادثها علانية ولم يطف من حدة وقوعها زواج المعتصب من احدي اميرات الاسرة السابقة - تسكت الوثائق التي لدينا عن تبرير مصير الملكية بقوة الحق او بالنجاح . فالكل ينسب هذه الامور لرغبة الآلهة ومشيئتهم ، وهو بالذات ما تفرضه تماماً نظرية البنوّة الالهية . ولا بد ان يكون حدث - وقد حدث ذلك بالفعل اكثر من مرة - في عهد الامبراطورية الحديثة التي بلغت فيها عظمة الهه الطيبين امون الاوج ، كما كانت لنفوذ الكهنة اذ ذاك الشأن الكبير فكانت مداخلات الكهنة والسحرة والعرافين مشاراً للشك من حيث عدم تحيزهم .

وعلى كل ، فالملك لا يصبح بالفعل ملكاً الا بعد حفلة التتويج ، وهي حفلة تتم مراسمتها في مدينة منف بسلسلة من الطقوس الرمزية والادعية التقليدية التي في اتيانها تذكري بتوحيد الملكتين او شطري البلاد في شخص الملك ، فيدخل بين مصاف الآلهة ويصبح مساوياً لهم . وخلال حفلة التتويج يسلم اشارات الملك التي توليه القوة الالهية كالصولجان والسوط . وبعد ذلك « يتنصب » ناهضاً وعلى هامته تاج الجنوب الابيض وتاج الشمال الاحمر ثم البشنت (*Pschent*) ، الذي يجمع بينهما ، ويجلس على العرش فوق البردي واللوتس ويقوم بدورة حول « الجدار الابيض » ،

وهي حركة ترمز لتوليه امر الدفاع عن مصر ، اسوةً بالشمس التي تقوم بدورة حول الارض . وهكذا يحمل الملك الجديد الالقاب الرسمية الحمسة التي ينص على حملها مرسوم ملكي يعود صدوره لعهد الامبراطورية المتوسطة : هوروس رع ، ورع التاجين ، وهوروس الذهبي لها كاة الذهب الشمس ، وبالتالي رع ، و « ملك القصة والنحلة » رمزي مصر العليا ومصر السفلى ، وابن رع . وهكذا نرى رعسيس الثاني يلقب بالاسماء التالية : ١ - الثور القوي المصفح بالعدل ؛ ٢ - حامي مصر وصلة الوصل بين البلدان الاجنبية ؛ ٣ - المهتم ب سنين وقتوحات ؛ ٤ - المسرل بعدل رع والمصطفى من رع ؛ ٥ - حبيب امون ، رعسيس . والتاريخ لم يُبقِ الا على هذا الاسم الذي اعطيه له عند مولده . اما الاسماء والكنى الاخرى فلم يعرف بها الا بعد اعتلائه العرش ، اذ انه لا ينال الرابع منها الا في حفلة التتويج . وهكذا يقسرل فرعون صفة الملك الفائقة الطبيعية بصورة تأخذ الالباب وتدعو للرهبنة والحشية لما لها من وقع في النفس .

وحجري في عهد الملك حفلات من هذا النوع ، وذلك في الاعياد التذكارية وهي اعياد لها من المعنى والمدلول ما يتجاوز بكثير مفهوم الاعياد المألوفة . والفرض من هذه الاعياد تجديد الاعتبار الذي كان للملك من قبل والاعتراف بما له من سطوة دينية وقوة خارقة يتوقف عليها خصب مصر ورفاهية الوادي . بالطبع لم تكن هذه الاعياد الوسمية سوى العودة بالذكري الى تلك التقاليد والعادات البربرية التي كثيراً ما كانت تنتهي بقتل الملك واستبداله بمخلف له اوفر شاباً وصحة .

فحياته على مر الايام ، حياة الله وابن الله . هو موضوع عبادة الجميع وتكريمهم . الكل يعترف جبينه امامه ويتشرف اسعدهم حظاً بتقبيل قدميه . حركاته وسكناته الرسمية تجري وفقاً لمراسم معينة فلا يظهر للناس الا برداء خاص مرصع بالجواهر والاحجار الكريمة ، وبلحية صغيرة مستعارة ، كذلك يقوم بمراسم خاصة من التطهير . ووجبات الاكل التي يتناولها هي بمثابة قرابين يقدمها للآلهة .

فهو يحب ويستطيب بالطبع كل ما يدخل البهجة الى قلبه ، شأنه في هذا كله شأن الآلهة . له اوقاته الخاصة للترفيه والتسلية ولا بأس اذا ما تحدث الناس عن هذه او تناولها . فاذا ما نهض للصيد والغنص قام بعمل ما لوف متعارف لدى الملوك ، فيعطي الدليل على ما اوتي من قوة وصحة وبأس في صيد التامسح وفرس البحر التي تألف الغياض والمستنقعات ، فيطهر البلاد من السباع والحيوانات التي تعبت فيها فساداً وتنزل الرعب والضرر في العباد . وهو الى هذا كله ، ومع هذا كله بحاجة الى مياهيح اخرى تسري وتدخل الغبطة في النفس : كاللحم اللذيذ الوافر ، والطيب ، والموسيقى والرقص والمصارعين ، والراقا والاسرة ، التي تتألف من العديد من الزوجات والسرايري ، يختار من بينهن ما احلولى له ملكة ، يستعيض عنها باخرى بعد حين . وقد افرد للحرجم داراً يعج بالخدم والحشم والوصيفات . فلا عجب ان يقوم في مثل

هذا المحيط وهذه البيئة دانس وتحاك الفتن وتنسج المؤامرات وتدور المناورات ، كما وقع ذلك مثلاً في عهد الأسرة الثامنة عشرة اي في اواخر عهد الملك تحوتمس الثاني ، وهي المغامرة التي كانت بطلها الملكة حتشبسوت التي حفظت لنا الوثائق الرسمية الكثير من اخبارها .

وظائف الملك : الدين وبين المراسم الدينية التي يؤتى بها موعظة وعبرة ويحرص الملك على القيام بها بوصفه ملكاً للبلاد ، وظيفته الدينية التي كان يؤديها بكل امانة باعتباره ابن رع او ابن الاله امون . فهو يعرف اكثر من سواه كيف يعبر للآلهة ، عن شكر مصر ويستمطرها شأبيب النعمة ودوام البركات . فالواجب الديني هو اول الابعاء العائلية التي يضطلع بها ، والواجب الاول المفروض على الابن نحو ابيه ، وعلى الوريث نحو ذويه من اباعد واقارب . فهو الكاهن الاعظم الذي يرتب مصاف الكهنه ويقم من بينهم نواباً له او مساعدين لهم في الخدمة الدينية التي لا بد من تأدية مراسمها المفروضة كل يوم من ايام السنة .

نادرة جداً في تاريخ مصر القديم المناسبات التي استجال الحكم فيها ثيوقراطية ، آلت فيها حقيقة الحكم والادارة الى طائفة الكهنه . نرى في بعض الاحيان بعض الكهان يلقنون الملك القرارات التي تحم عليه اتخاذها ، الا انه كان دائماً حريصاً على التظاهر بان ما يصدر ليس سوى الالهات والتجليات التي يوحى بها اليه ابوه الالهي ، وانه يأتي ما يأتي وفقاً لمشيئته . ومع ذلك عرفت مصر النظام الثيوقراطي البحت في اواخر عهد الامبراطورية الحديثة ، بُعيد السلالة التاسعة عشرة ، سلالة رمسيس الثاني ، اي مع سلالة كهنه امون العظام ، وهي المعروفة بالسلالة العشرين . كل هذا والملك يعرف جيداً كيف يحول دون التجاوز هنا على حقوقه . فهو باعتباره الكاهن الاعظم في حياة البلاد الدينية ، يقوم بواجباته وبوظيفته الدينية على الوجه الامثل .

فالقرابين تقدم باسمه في الهياكل كل يوم من ايام السنة . وهو الذي يصدر الاوامر والتعليقات ببناء ما يرغب في بنائه وترميم ما يجب ترميمه من هياكل ، ويؤمن لها الاصلاحات التي يستدعيه وضعها ، هذه الهياكل العظيمة او المدافن الملكية التي شادها السلف الصالح . والملك هو الذي يُسبل الوقوفات ويقطع الاعطيات للآلهة ولهاكلها ، ويسهر على تأمين ادارتها واستئثار مراقفها عن طريق الكهنه ، كما يحرص على الظهور امام الناس بالخشوع والتقوى والامتثال الوديح في التنفيذ .

ولا يتردد ، الى جانب ذلك ، بفعل كونه اوسع اطلاعاً من اي شخص آخر ، في ان يعزي لشخصه سلطان اللاهوتيين الممتددي . واذا اكتفى في عهد الامبراطورية القديمة بتأييد تعاليم اللاهوت الشمسي المعمول بها في معبد رع في هليوبوليس ، فهو لا يهمل الاستفادة منها لمصلحته وخيره . وفي عهد الامبراطوريتين الوسيطة والحديثة ، لا يمكن فصل النجاحات التي احرزتها عبادة امون عن الاهداف السياسية التي سعت وراءها الامر الطيبة الاصل . واكثر من ذلك

فاننا نرى الفرعون اخناتون الذائع الصيت ، في الربع الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، يستخدم ما له من سلطان وقوة مادية للدفع بعبادة الاله اتون الى الامام . انها لازمة قصيرة ولا شك ولكنها اتصفت بعنف نادر وكان بمكنتها ان تؤدي الى نتائج راسخة لو قيض لاختناتون ان يعيش طويلا .

وظائف الملك : الحرب
الدفاع عن مصر والنود عن حياضها وصيانة استقلالها ، مهمة وطنية عليا يضطلع الملك نفسه بمسؤولياتها . فاذا ما انعمنا النظر ملياً في تاريخ مصر القديم ألفينا هذا الدور من المهمة الملقاة على كاهل الملك اقل بروزاً في مصر منه في معظم الممالك والدول القديمة التي قامت في بلدان واقطار كانت اكثر تعرضاً من وادي النيل لاطماع الغزاة والفاطمحين الذين جاشت نفوسهم برغبة التوسع . كان وضع مصر الجغرافي مدعاةً من الوجهة السيكلوجية لطمأنينة لم يتوفر مثلها لغيرها من البلدان المجاورة . فقد توالى على الحكم في مصر عدد كبير من الملوك حكموا البلاد وعاشوا بدعة هائنين لم يعرفوا الحرب ومتاعبها المقتضة . فالاشادة بحب السلام ، والاستمساك بعراه والتغني بنعمائه بعبارات ولهجة لا تنبو عن نزعات العصر الحديث ، كل ذلك من المميزات التي اتسم بها الادب السياسي في مصر قديماً . ومثل هذه النزعة تبدو واضحة بارزة في مجالات اخرى من الوضع الاجتماعي الذي سارت عليه البلاد .

وهناك مع ذلك حد ادنى للاستسلام للدعة والطمأنينة لا يمكن لاية دولة تجاوزه او تحطيه جزافاً ؛ فملك ايفتو لم يتغنّ بغير المثل التي تدغدغ خيال شاعر مجنح الخيال . اما الفرعون فعليه ان يسهر على مراقبة الصحارى المحدقة بمصر وعلى أمن مسالكها ومدخلها ولا سيما ما افضى منها الى ثغور البحر الاحمر ومرافقه التي كانت ترفد البلاد بمحاصيل بلاد البونت . وكان عليه ان يضع دوماً نصب عينيه تحت اشرافه ومراقبته بلاد النوبة وشبه جزيرة سيناء وكلاهما غني بالمعادن والحامات النادرة . فكلل الدول والامبراطوريات التي قامت في مصر ، في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد حرصت على ان تبسط سيطرة ثامة على سيناء وشيئاً من ذلك على النوبة ، فكان البلدان ابدأ من البلدان التوابع لمصر . وكان على الفرعون ان يتصدى اكثر فأكثر للغزاة الطامعين بمصر من آسيا عبر السويس . فمصر تأخرت ولا شك ولا تزال بكل الموجات البشرية التي يصل مدنها الى سواحل آسيا الغربية وبالفتوحات التي تنهض لها شعوب المنطقة .

الفوز الذي قام به ملوك الرعاة (الهكسوس) في اعقاب الامبراطورية الوسطى سجلت عهداً جديداً في تاريخ مصر كما احدث تغييراً ملحوظاً في القيم المثالية التي سيطرت على مصر الفرعونية . فقد ترتب على ملوك السلالة الثامنة عشرة ان يطردوا الاجنبي المنتصب من البلاد وان يطاردوه الى ما وراء الحدود الشرقية ويحدوا في اثره حتى مشارف الفرات ، محاولين ان يمحوا من المنطقة الواقعة شرقاً بين مصر وبلاد ما بين النهرين درعاً واقياً لهم . ولذا اخذت

الامبراطورية الحديثة تحاول بسط سيطرتها المباشرة على فلسطين وسوريا ووضعها تحت حمايتها المباشرة ، حتى ان ملوك ما بين النهرين اصبحوا في فترة معينة من التوابع لمسا . وعلى كل ، فهذه صفحة جديدة في تاريخ مصر . فبعد ان كانت البلاد ، من قبل ، في شبه عزلة ، نراها في هذه الحقبة تقوم بدور نشيط وحاكم في مصير الشرق الادنى ، سياسياً حيناً ، وحريةياً او عسكرياً في اكثر الاحيان . وكان من بعض نتائج هذا الوضع الطبيعية ان فراغنة ذلك العهد ، برزوا ، شاؤوا ام ابوا ، قادة حرب مجريين بالرغم من النفور او الكره الذي بدا على بعضهم في هذا المجال ، مثل امنوفيس الرابع . فشخصية تحوتس الثالث ورعمسيس الثاني الحربية تكشف من حولهم من فراغنة ذلك العهد ، من جراء الفتوحات العريضة والانتصارات المينة التي حققها ، هذا في مجدو وذاك في قدش ، كما تشهد بذلك مرويات تحوتس وقصيدة بنتاوار . وهذه النصوص الخالدة التي طبقت شهرتها الآفاق تعيد الى الذاكرة نصوصاً اخرى من عهد ملوك السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، تنبض بالنزعات ذاتها . من الطبيعي ان تنسب الوثائق الفضل في هذا النجاح يصيبه الجيش المصري ، لعناية الآلهة ورضاها ، الا انها تشدد هذه المرة وبعتماد ظاهر ، على صفات هؤلاء الملوك الحربية والنبوغ العسكري الذي تجلوا به . فنحن امام مفهوم جديد للقيم يطبع ذهنية الفراغنة ، كان من قبل في المرتبة الثانية ، واذا به اليوم يبرز الى الصف الاول .

فإقبال الملك على الألعاب الرياضية العنيفة والاستسلام لها بشدة يوليه قوة بدنية لا بد منها لتحمل الاعباء الحربية . فهو يظهر الآن أكثر منه في الماضي ، يصطاد الفيل على ضفاف الفرات كما يصطاد فرس البحر والتمساح ووحيد القرن بين غياض النيل ، ويطارد الاسد في الصحارى . والناس يتندرون بقوته السحرية ويتفاكون بأحاديث مهارته الفنية ويقدرته على وتر أشد الأقواس بعد ان يرتد عنها الآخرون خاسئين ، ويسمرون حول مهارته في تسيير دفة السفن وترويض الخيل الجفول وغير ذلك من ألعاب الفروسية التي حرص المؤرخون على تسجيل وقائعها في الكتابات التي خلفوها والرمق المنقوشة .

ومع ذلك ينقص هؤلاء الملوك شيء لم يتم لهم ولم يتوفر فيهم ، هو انقطاعهم لمهنة السلاح والاهتمام بالأمور العسكرية كخبراء مجريين وقادة محنكين ، فليس ثمة من استمراض للجيش ار تفقد سلاح يقوم به الملك ، ولا من تمارين ومناورات عسكرية خلال ايام السلم ، فاذا ما ارتفعت الحرب وخيم السلام على البلاد ، تنومي امر الجيش . فالمصري نفر دوماً من الحياة العسكرية ، فلا يتقبل الفكرة ولا يقبل عليها باختياره . واذا لم يسقط رجال الحرب من الفراغنة ، مكافأة الشجعان وتقدير البطولة والبسالة ، فانهم لم يستطيعوا مع ذلك ان يجدوا أي تعبير في عقلية رعاياهم . ولذا فهم يحاولون باصرار واستمرار لها مفرزاهما البعيد ان يتفادوا الصعوبات التي يصادفونها في اوقات التعبئة العسكرية واطلاق النفير العام ، وذلك عن طريق استخدام جيش من المرتزقة كالليبيين والنوبيين وأجناس شتى من الاسيويين ، وغير ذلك من شذاذ الآفاق ،

واخيراً الاغريق . وكم عساد عليهم الاتكال على الاجنبي في الذود عن حياض الوطن بالهاذير والمفاجآت المقضة أفلها اغتصاب السلطان على أيدي رؤساء مصريين . فكم آل الحكم في مصر الى سلالات لبية ونوبية حتى الى اليونان انفسهم مع ما عرفوا به من نفرة و أنفة من تمثل للحضارة المصرية ، فكثيراً ما زرعوا الاضطرابات الدائمة في الداخل ، في عهد الدولة ..

من الصعب ، وأيم الحق ، حقن شعب بالروح العسكرية وتحبيب هذه الروح اليه . الا انه كان في مقدور هؤلاء الملوك لو اعتصموا بالصبر واستخدموا الاساليب والطرق الموصوفة ان يثيروا في الشعب المصري اكثر من هبات عابرة واستشاطة آتية .

واخيراً كان على فرعون ان يؤمن لبلاده ادارة رشيدة ولشعب العدل بالسوية . فسلطته لا حد لها وليس لارادته مبدئياً من وازع او حسيب . فالكلمات التي ينسب بها « موحيات » تخرج من فم اله . وهذا الاله يبرئ ويبدع ويخلق : « فكل ما يتفوه به صاحب الجلالة يجب ان يتم وان يتحقق بالحال » . فشيئة الملك وارادته هي القانون ولها ما للعقيدة الدينية من قوة وشكيمة . « فهو يعمل ما يجب ، ولا يأتي قط ما يكره او يبغض » : هذه النصوص التي نستشهد بها هنا تعود بجرها الى الامبراطورية الفرعونية القديمة ، اي الى عهد بناء الاهرام . وهذا الشمول المطلق الذي تتضمنه لم تفقده الاجيال المتعاقبة شيئاً من قوته ومدلوله . واقواله لها من الحتمية بحيث لايسع المصري الا التسليم والخضوع لاوامر ونواه مها بدت له قاسية لا تحتمل او بغيفية لا تطاق . فبعد ان أعرب الحكيم المصري إيبور عن اسفه للقوضى التي ضربت اطنابها في مصر ، خلال الحقبة الواقعة بين الامبراطورية القديمة والامبراطورية الوسطى ، راح يكشف الملك دومًا خوف او وجل او تردد قائلاً : « ان ما تشهده البلاد بعض نتائج الاضطراب الذي زرعت يدك في طول البلاد وعرضها وسط السجس والجلبة . ولذا ترى الناس يلجأون للعنف بعضهم ضد البعض الآخر » . ثم لا يلبث ان يضيف قائلاً : « ان الشعب يمثل لأوامرك » . فالدعوة للثورة على الملك ، للانتفاض على الحكم لم ترتد يوماً رداء العقيدة . وسلطة الملك ، حتى ولو اصبحت مدعاة للضرر والأذى ، تحافظ على طابعها الالهي .

ولكن إيبور هذا يحتكم من الملك الوام الى الملك الحسن الاطلاع . فقد كان مفهومًا من الاساس ومقبولاً لدى الجميع ان الارادة الملكية لا يمكن ان تهدف الا لسعادة مصر . وبعبارة اخرى فالتنازل الذي تجيش به النفس المصرية والتسليم للمقدّر انما يعني في نظر المصري التسليم لمشيئة الآلهة الخيرة والتزول عند رغبتها ومشيتها . كذلك من الأمور البديهية عنده ان ارادة الملك وقضاه احكام لا يمكن ان تأتي كيفية ، اعتبارية ، هنالك تجريدات الهية تجعل من هذا كله اشبه باليقين . وبما ان « هو Hou » هو القوة المبدعة ، فلاحكام التي تصدر عنه والרגائب التي تتجلى فيه ، هي « سيا » اي تفهم . وما « مات » الا « عدل » و « حق » .

وعلى هذا المبدأ نظام الحكم المطلق في مصر الفرعونية يتكشف عن الوان من التقييم بدت وتجلت على وجهها الصحيح منذ نهاية الالف الثالث قبل الميلاد. وقد برزت بوضوح وجمالا في عهد السلالة الثانية عشرة ، اي في عهد الامبراطورية الوسطى. وبقيت منذ ذلك الحين مسيطرة على النفوس ، مستبدة بالاذهان حتى زوال السيطرة المصرية الوطنية. وتستمر هذه السهات على صفائها واستقرارها حتى في مثل هذه الحال ، لتنتقل كاملة غير منقوصة الى النظرية الملكية التي حملها معهم الفاتحون الفرس و عملوا بها لينقلوها الى الامرة الملكية اليونانية التي آل اليها الحكم بعدد دوال الدولة الفارسية ، بحيث ان البطالسة ، هؤلاء المقدونيين الذين تربعوا على دست الملك في وادي النيل ، لا يتحرجون ولا يجدون كبير عناء باستعمال التعابير والالقاب الرسمية نفسها التي عمل بها الفرعنة من قبل واستعمال الشعائر التي عمل بها وعلها هؤلاء الفرعنة انفسهم حقبة تزيد على الفتي سنة . وليس من اجس و اوضع ايجاد الحضارة المصرية القديمة ان تكون استطاعت - ان لم تكن الوحيدة والاولى بين الحضارات التاريخية القديمة ، وبمعزل عن كل تأثير اجنبي - ان تحمد وتلطف من طغيان السلطة المطلقة في نظام ملكي الهي .

وبالفعل ففهوم الملكية المؤله المثالي الذي يقول بـ : « مات » تفرض نفسها بنفسها على الملك بشكل لا يرد ويقوة لا تقاوم . هنالك نصوص صريحة ، بغاية الأهمية نطلعنا على « ارشادات » ملك لابنته ، وعلى « تعليقات » ملك لوزيره ، وهي نصوص وارشادات تتفق بنصاً وحرفاً ، يكفي الواحد منها لاعطائنا فكرة عامة : « ترغب الالهة في ان يحق الحق وهي تكره اشد ما تكره ، الاخذ بالوجه والتحيز » هنالك كل الناموس . هنالك قصة شعبية تقص على شفاء فلاح فصيح اللسان ، حسن الكلام ، يتقن القول ويمجد الكلمة البليغة بحضرة صاحب الجلالة ، فيمطره بوابل من الالناسات والتوسلات ترفع عنه في نهاية الأمر الحيف النازل به ، وتزيل اسباب الشكوى التي آذته وآلمته . « يا مولاي ! انقطع دابر اللصوصية وارحم البائسين واحسم المساكين ، ولا تكن اعصاراً يطعم بين جاءك يشتكي ظلامته ... إجر عدل ملك العدل ، واسلك عدالة العدل ... واعمل بحسب القول المأثور الذي خرج من فم رع نفسه ... قل الحق ، وأبِ العدل ، فالعدل قوة ، والحق شيء عظيم ، فكلامها راسخ رسوخ الجبال الشوامخ ... شكوت امري اليك ، فلم تصنع الى طلبتي وصممت اذنك عن شكواي ، ولذا فاني ارفع امري منك الى الهه الأموات ... يا لها من حرارة ومن جسارة في صاحب هذه القصة الذي انما اراد ان ينفذ منها الى اثاره الابستامة ولكن اعديدة هي هذه الممالك التي اتاح الروح الساخرة فيها ان تنفوه امام العزة او الجلالة المؤله ، بثل هذه الألفاظ ، وان تتفجر بثل هذه الاقوال حول موضوعات من هذا الشكل ومن هذا الوزن ؟

هذه التعاليم التي عمل بها والضرورة الملحة بضبط ادارة بلاد شاسعة كصر ، كل هذا جعل من فرعون مشرعاً . كانت الحياة في مصر تفرض وضع مثل هذه القواعد الاساسية التي تضبط السلوك البشري ، الى جانب القضاء الملكي الذي كان عليه ان يقفي ويقضي في امور كثيرة

تعرض له . وهذه القواعد المكتوبة المرعية الجانب لم تكن شيئاً غير المبادئ التي خطبها ملوك مصر من قبل ونهج القوم عليها من بعد . فنصر القديمة عرفت ولا شك ، الى جانب الاعراف المحلية او الاقليمية المعمول بها ، مجاميع من الشرائع والقوانين سنها نظام ملكي مركزي . ولكننا لم نجد بينها لأن ما يشبه ، من قريب او بعيد ، الدساتير التي عثر عليها في ما بين النهرين . نحن هنا امام تقاليد ومراسم حفظها لنا مؤرخو اليونان . فديودوروس الصقلي الذي استقى معلوماته عن مصر ، من مؤرخ مصري عاش في مطلع القرن الثالث قبل الميلاد ، هو اكثر الرواة والمؤرخين مردداً للتفاصيل المسببة . فهو يسمي لنا قبل الفتح الفارسي لمصر ، خمسة فراغنة ويقدمهم لنا بكونهم « مشترعي مصر » بينهم مشترع واحد استرسل بذكر اخباره . هو الفرعون بوخوروس الذي ملك على مصر في اواخر القرن الثامن قبل المسيح ، واليه يعود الفضل في مد البلاد بدستور ينظم الحياة التجارية فيها . الا ان فقر مصادرها حول هذه الناحية من نشاط الفراغنة يجعلنا نجعل الكثير من معالم الحضارة المصرية .

ومها يمكن من الامر ، فالملك ، في مصر ، هو المرجع الاعلى والموئل الارفع . اليه وحده يرفع طلب الاسترحام الذي لا يُحْرَم منه اي من رعايا فرعون ، مهما اتضح قدره وانحط شأنه ، وبذلك يتاح له مراقبة اعمال عماله المتصرفين بشؤون مملكته الشاسعة ، والضرب بشدة على ايدي العابثين منهم بأمورها او الخارجين على ارادته .

٢ - الحكومة والادارة

اذ لم تعوزنا المصادر المتعلقة بالناحية الادارية من تاريخ مصر الفرعونية فلا بد مع ذلك من ان نبين نوع وطبيعة هذه المراجع لتوضيح حدودها . نحن نفتقر لنصوص القوانين والمراسم والوثائق الميدانية ، أي تنقضا الاضبارات الادارية نفسها التي تتألف من اوراق أصلية تتصل مباشرة بعمل الجهاز الاداري الحكومي . في بلاد ما بين النهرين الوثائق عديدة كثيرة تتيح لنا شيئاً من المراقبة المتبادلة والمناقشة . اما في مصر ، ولا سيما في عهدها اليونانية والرومانية المتأخرة ، فلدنا مجموعات ضخمة من البرديات والفخاريات ، بينها بعض المراسيم العامة والكثير من الرسائل والتقارير والبيانات ، والعرائض والكشوف المالية المتعددة الوجوه . اما بشأن الازمنة التاريخية المتقدمة فعلينا ان نعول على مصادر من الصنف المتدني باستثناء بعض فترات تاريخية خاصة تتوفر لها بعض البرديات النادرة . فنحن على الغالب تارة امام نصوص رسمية تحمل الثناء الكثير على الملك وتقديس بذكره ومدحه وحده ، وطوراً امام كتابات مدفنية تسرد لنا على جانب من المديح والثناء سيرة الملك المتوفى ، وحيناً امام نصوص ذات طابع خرافي اسطوري ، وطلبت وتضرعات تقوية او غير ذلك من الروايات . كل هذه الوثائق تحمل طابع الصنعة والاصطناع وبالتالي التحريف للحقيقة الواقعية . ولذا يرى الناقد نفسه ، في كل

لحظة ، وجهاً لوجه امام صعوبات كآداء ليس من السهل تذليلها ، فتختفي وراءها تفاصيل ومعلومات ثمينة تتخذ مادة في ايضاح رأي أو دليلاً على نظر .

الصفات العامة كثيرة هي الانطباعات التي لها ما يؤيدها او تنهض على أساس ثابت . فازدهار مصر واستثمار خيراتها ومواردها الطائلة ، كل هذا وما اليه يفرض قيام ادارة رشيدة ، منظمة قادرة على ان تؤمن وسائل التبليغ والتنفيذ ، والأخذ بما رسمه سيد البلاد الوحيد الاوحد. فالمركزية في الادارة هي من هذه السمات الأساسية المفردة للحضارة الفرعونية . فكل تراخٍ او توانٍ او ضعف ينتابها يفضي في الحال الى بعض ما تقضي اليه الفوضى : الى البؤس والى ما هو أدهى وانكى منه ، الى الرعب ، والقلق والاضطراب العام ينزل بالبلاد ويشل منها أسباب الحياة . هذه حقيقة أساسية راسخة من حقائق التاريخ المصري القديم تؤيدها التجربة المريرة والاختبارات المتكررة . فهي توضح لنا حاجة البلاد والناس فيها للنظام ، للاطار الاداري المستحكم ، للسلطة القوية ، إذ طالما شعر الناس بمثل هذه الحاجة وشعروا بوطأتها . وهذا ما يفسر لنا جيداً روح الخضوع والامتثال التي ميزت الشعب المصري . فالفكرة الدينية ، مها بلغ من قوتها وشدة تأثيرها لم تكن لتستطيع وحدها ان تضفي على النفس المصرية مثل هذه المشاعر والاحاسيس التي جاشت بها هذه النفس طيلة آلاف السنين ، وهي مشاعر وأحاسيس كثيراً ما اتخذ منها الفراغنة يداً لكبت البدوات الفطرية والنوازح الامارة بالسوء ، ولكبت ما تحرق اليه الارباب من الاستئثار بالسلطان ، والحدّ من الدعوات الاقليمية والمحاولات التي قامت بها فئات نزعت لشيء من الاستقلال الاداري . فقد استطاعوا مراراً كثيرة ان يقيموا لهم في البلاد نظاماً ادارياً كادوا يبلغون به التمام لم يكن يضاهيه ، في التاريخ القديم ، غير النظام الذي اقامه فيها خلفاؤهم من بعدهم ، ملوك الدولة اليونانية . وليس من باب المصادفة قط ان تبلغ مصر في هذه العهود التي تم لها فيها مثل هذه النجاحات الباهرة ، سدره المنتهى في الحضارة التي صاغتها وانشأتها .

فأمام هذه المشاهد يرغب المرء ويتمنى لو يجدد بشيء من اليقين ، المبدأ الاساسي الركين الذي نهضت عليه الادارة في مصر الفرعونية وكان عمادها الاكبر . أ كانت مصر إذ ذاك ، ملكاً خاصاً لسيدتها وربها الفرعون ، يستثمرها كما يستثمر عقاراً خاصاً به ، او انها كانت تؤلف مملكة — او بالأحرى مملكتين هما مصر السفلى ومصر العليا — انيطت به مسؤولية ادارتها ؟ ليس ما ينفي في الواقع ، قيام الفكرتين معاً كما انه ليس هنالك دليل على ان الخواطر خامرهما ادنى شك بوجود اي تضاد او تنافر بين الفكرتين . كإله وابن إله ، الفرعون هو رب ارض مصر وسيد من عليها وما عليها . فلم نر قط اي اثر للتمييز ، ولو فكرياً ، بين تملك خاص او تملك تابع للتاج وبين دولة قائمة بذاتها تتألف من رقعة جغرافية قائمة بمحدودها المميزة ولها مجتمعها الواحد . والدليل البسيط على ذلك هو ان الناظر او القاص العام للادارة المالية في البلاد ، كانت من ضمن مسؤولياته ومن واجباته الاولى ان يؤمن حاجات البلاط . ومع ذلك ، فقد رأينا

كيف ان هنالك واجباً اديبياً على الملك ، هو واجب اشتد التحسن به على مر السنين . وقد ادت فكرة هذا الواجب بصورة لاشعورية ، الى فكرة دولة مستقلة ، متميزة عن شخصية رجل فرد ، ولو كان الهاً وابن اله . وعندما كان فرعون يتكلم عن : « وظيفته العظمى » - وقد أتى ذلك على لسانه أكثر من مرة - كان كلامه هذا تعبيراً عن فكرة لا تزال غامضة طي الضمير ، غير مستوفاة التحليل والتركيز ، لم يكن الناس ليتبينوا جيداً نتائجها ومستزماماتها النظرية إذ انهم لم يروا فيها تضاداً مع فكرة التملك ، ولم يستخلصوا منها النتائج العملية .

الحكومة المركزية
فالفكرتان مع ذلك تلتقيان من حيث ان كل شيء في مصر الفرعونية يتوقف على الملك وعلى الملك وحده . هذه هي القاعدة الذهبية التي قام عليها تاريخ مصر قديماً .

فصدر الملك « الصرح الكبير » ، برعا ، ومن هذه اللفظة المصرية نحت اليونان كلمة فرعون ، هو مجمّع الادارة المركزية التي يرجع اليها حتماً كل شيء . فالملك يتولى امرها ويقبل عليها يتدبر شؤونها منذ الصباح بعد قيامه بالمراسم الدينية ، ويتحرّى كل امر ويتقصّى كل شيء ، ويطلع على الرسائل والمعاملات الواردة والتقارير ، ويستقبل اصحاب الاعمال ويشرف على ديوان المظالم ، ويستردش بأراء ذوي الخبرة ويتخذ في نهاية المطاف الرأي ، ويصدر الاوامر والتعليمات التي يقتضيا الوضع ، فتُبلّغ بأسرع ما يمكن بعد ان تُفرغ بصيغة المتكلم .

والى جانب الملك يقوم وزراؤه او معاونوه وهم اشبه برؤساء دواوين عليهم تبليغ الاوامر وتنفيذها . وكثيراً ما تشير النصوص الرسمية اليهم فتصفهم طوراً بـ « قم الملك » ، و « لسان الملك » ، وطوراً « بعينه » او « اذنيه » ، يعينهم ويعزّهم كيفما يشاء . وبينهم من يلعب دوراً رئيسياً هو الوزير « ثاني » ، موضع ثقة الملك ، يلقبه تعليماته وتوجيهاته والارشادات العامة وكيفية مباشرة السلطة والقيام باعباء الادارة . فاختصاصات البلاط الملكي الواسعة وما اليه من مهام واعمال وعمال ، كل هذا يأتي على نسبة تفهم الفرعون لقتضيات « الوظيفة العظمى » . وهذا الاهتمام يختلف كما ونوعاً باختلاف شخصية الجالس سعيدياً على اريكة العرش الذي يبرز لنا دوماً من خلال لغة الدواوين والتعابير الرسمية المكرّسة . فصورة الفرعون الادبية والسياسية تتباين تباين صورته المادية او الطبيعية .

ففي عهد الاسرة التاسعة عشرة ، نرى الوزير يرأس احياناً مجلساً أعلى له ، من الوجهة الادارية على الاقل ، صلاحيات واسعة . الا انه ليس ما يدل على ان القضاء ، تمتع في مصر القديمة ، من الوجهة الادارية على الاقل ، بشيء من الاستقلال وتميز بذلك عن الادارة وانفصل عنها . وهذا المجلس ، هل كان وحيداً في البلاد ؟ وما كانت وظيفته والعمل الذي يقوم به ؟ ومن يتألف وعلامّ يقوم ؟ كلها اسئلة مغلقة تبقى دون جواب . وقد حلا لبعض المؤرخين ان يروا فيه هيئة وطنية ضمت عدداً من اعيان البلاد وامراقها ، نجمل كل شيء عن طريقة اختيارهم

وتمتينهم ، وهو رأي فيه الكثير من الجرأة ومن الخطل . والافضل ان نرى في هذا المجلس اشبه بلجنة من كبار الموظفين واصحاب المقامات العالية والنبلاء ليس إلا ، وهم كثر في القصر يؤلفون بطانة الملك ويمحلون أوثاناً من الالقب الشرفية او الادارية . في الامكان اعداد قائمة طويلة من هذه الرتب والالقب ، ليس فيها من طائل او كبير منفعة ، إذ يبقى علينا ان نعرف من جهة ، ما اذا كانت الالقب التي يحملونها بالفعل هي وظائف عملة يقومون بها ، كما يجب علينا من جهة أخرى ان نتساءل ما اذا لم يكن في البلاط قائمة رديف للاولى . فقد كان في عهد الامبراطورية القديمة في مصر ، احد عشر « رئيساً للاسرار » كلهم من رتبة واحدة تتميز الواحدة عن الاخرى بنعت او وصف يضاف الى حاملها فيفرده عن سواه . وهكذا نرى في البلاط عالماً من الموظفين يتوزعون على سلم من الرتب والدرجات لا نعرف عنها في اكثر الاحيان ما يشفي الغليل ، كلهم يعيش في « الصرح العظيم » ويعمل في دوائره واقسامه ودواوينه . رؤساء ورش ومأمورو مخازن ، ورؤساء عنابر ، وقهرمان على خزينة الدولة ، تحت اميرتهم جيش لجب من المأمير والكتاب والمحاسبين والحراس والعبيد ، هم على الغالب اسرى حرب وغزو .

الادارة الاقليمية والمحلية
ومها بلغت هذه الادارة المركزية من كمال التنظيم المحكم ، كان لا بد ان تتراسخ عراها وتلين حلقاتها امام المسافات الشاسعة التي كان يترتب اجتيازها باسرع ما يمكن على قلة وسائل النقل وضعفها ، إذ كان فيضان النيل السنوي الرتيب يحول دون انشاء وبناء طرقا جيدة تربط اقصاي البلاد بدوانها ، كما ان الحصان الذي دخل استعماله متأخراً في البلاد ، بقي وقفاً على الاغنياء والاثرياء . ولذا كان جل اعتماد الادارة على السعاة المشاة او على التنقل في النيل بواسطة المراكب الشراعية ، وما الى النيل من شبكة الاقنية والترع . فكان على العامل ، والحالة هذه ان يقطع بالامور ويبت بالقضايا العارضة بالتخاذ قرار محلي ، بالرغم مما يستهدف له ، اذا ما اشتط عن الصراط وخرج عن الصدد ، من تعنيف وتكدير ورجوع عما اتخذ من قرارات او اصدر من تعليمات .

وفي بعض عهود مصر الفرعونية زدوج مركز الوزير ويتضاعف ، اذ يقوم واحد في منف . وآخر في طيبة ، وفي هذه الثنائية ، تذكير بالملكيتين الموحدين معا في شخص الفرعون . وقد قام احيانا ، لاسيا في عهد الامبراطورية الحديثة حاكم خاص في النوبة ، عرف عندهم بـ « نائب ملك » . وكان حكام الولايات يتمتمون ولا شك بصلاحيات ادارية واسعة .

كانت الوحدة الادارية المحافظة او المديرية ، قسمت البلاد الى اربعين منها ، وهو تقسيم حافظت عليه البلاد ، كما حافظت على حدودها المرسومة . وكانت المحافظة تتألف من دائرة جغرافية لها تنظيمها الاقتصادي والديموغرافي ، لها حاضرتها او قاعدتها الادارية ، وهي على الغالب قرية كبيرة اطلقوا عليها في عهد حكم اليونان في مصر اسم : « متروبول » . وفي بعض عهود مصر الفرعونية ، ولاسيا في عهد الامبراطورية المصرية الوسطى التي اقامت في البلاد شبكة

ادارية محكمة الحلقات ، نرى المحافظة ، او بالاحرى ، جميع المحافظات ، تقسم اداريا الى أفضية : واحد في الشمال وآخر في الجنوب ، ويأتي في اسفل السلم ، القرية التي تمثل الوحدة الاساسية ، اذ كانت مصر تجهل المجتمعات السكنية المتفرقة من جراء فيضانات النيل فكانت المساكن تتجمع فوق مرتفعات الارض من رواب وتلال .

وعلى كل مستوى من هذه المستويات الادارية ، كان يقوم موظف اداري يمثل الفرعون في الناحية او المنطقة ، اختلفت رتبته وسلطته وطريقة تعيينه باختلاف العصور والازمنة والعهود التي تعاقبت على تاريخ مصر القديم . ففي العهود التي اخذ الحكم بأشذ انواع المركزية ، كان يتولى الأمر في القرية العمدة الذي يعين من وجوه سكانها . وكان لكل قضاء « مجالسه » ، مقصور بعضها على الفلاحين والصناع والكهنة ، وهي مجالس تقوم بوظائف قضائية ومالية ومدنية . من الصعب على المرء ، ان لم نقل من المستحيل عليه ان يستطيع تحديد مدى صلاحيات هذه المجالس ، ومدى ما كانت تتمتع به من استقلال اداري تجاه الحكام الذين كانوا يعينونها . ومهما يكن من الامر فقد كان عدد الموظفين كبيراً وكبيراً جداً . بعضهم يعمل بصورة دائمة في الديوان والآخرون يرون عليه غباً بين سعاة بريد ومفتشي ادارة ، ومراقبين ، تأميناً للصلة بين البلاط والادارات في الملحقات . والمفهوم ان هذا العدد العديد من الموظفين والاعمال التي يعهد اليهم القيام بها كان من شأنه ان يعمل واهياً او صورياً اي استقلال اداري ، اعترف به يوماً من الايام لأي من هذه الهنات الاقليمية او المحلية .

وهكذا نرى ان الموظف الرسمي في مصر القديمة ، تمتع دوماً بسلطة ونفوذ عظيمين ، كثيراً ما تجاوز حدود وظيفته ، فاتسع امامه مجال التادي في العبث والتجوز . والموظف النموذجي هو « الكاتب » . وهو على الغالب رجل علم ، ثقف ، مفتن بامور الكتابة والحظ والقراءة . على صعوبة الكتابة وقراءتها إذ ذلك . فاستطاع مع الزمن بما اوتي من ذكاء وعلم ومراس وخبرة ان يرقى درجات السلم الاداري فتنتفتح امامه ابواب الوظائف العالية . وسنرى بعد قليل صورة للكاتب وللشأن الذي يمثل ، في حديثنا عن الوضع الاجتماعي في البلاد ، اذ يمثل فيه دوراً بارزاً بفضل الوظيفة الادارية التي يقوم بها والتي كانت توليه سلطة مطلقة فتجعل منه ممثلاً للسلطة المركزية .

الادارة والحياة المادية في مصر اما الغاية لهذه الادارة والغرض الذي تسمى اليه فتأمين خدمة آلهة مصر على الوجه الاكمل حتى اذا ما تم لها الرضى احالته رفاهاً وازدهاراً على البلاد واهلها . ويجب الملاحظة هنا ان النظام الديني وجه متصل من وجوه الادارة المدنية . فالملك الاله هو سيد الامرين ورب الاتنين ، يرعى الاول تأميناً لخير الثاني ، ولا يرضى قط ان يعمل منها ميدانين مختلفين يؤمن مصالحهما اشخاص مختلفون هم من الدرجات العليا سواء ينتقل الواحد منهم ، من هذه الى تلك ، دونما تحرج . فالوظائف الكبرى في كلا السلكين تتناوب وتبادل على السواء .

ويستتبع هذا من الوجهة المثالية، ان الملك الاله، يوجه عن طريق الادارة، حياة مصر برمتها ويسيرها في جميع مظاهرها ومعالمها ، وان دور الاهلين فيها يقتصر على تنفيذ الاوامر والتعليقات التي يبلغونها حتى ما وقع منها ضمن حياتهم الخاصة . وهذه المثالية الصورية تقتضي بأن يكون الملك ليس رب البلاد ومالكها الأعلى فحسب ، بل السيد المطلق الفعلي للأرض وما عليها ، ولما ليها من صنائع وفنون ومقتنيات ، ولما يدب عليها من حيوان وانسان .

وكم نرى هذه المثالية الصورية تصطدم عملياً بالواقع المرير . فباستثناء ازمات الفوضى والاضطرابات التي صاحبت تاريخ كل امة ولازمت كل حضارة، كان على الملكية ان تحسب حساباً لماجريات الحياة وللاختبارات الواقعية . كان عليها ان تحسب حساب النزعات الى الاستقلال الاقتصادي اكثر منه الى الحرية الفردية ، وان شئت فقل التوق الى التملك والكسب الشخصي . ومثل هذه النزاع تجلّت في مصر كما تجلّت في أي بلد آخر الا انها هيمنت عليها في مصر مشاعر أقوى حدّت من سورتها وكبّنت من شكيتها .

وبالفعل نرى السلطة الملكية في مصر ، تبلغ الذروة في عهد الامبراطورية القديمة ، أي في عهد الاسرتين الرابعة والخامسة ، اذ كانت رغبة الملك وارادته هي القاعدة التي يؤتمّم بها ويعمل بها ، وهي ارادة يفرضها على اناس هم عبيد اكثر منهم رعايا . وفي عهد الامبراطورية الوسطى ، استطاعت الامرة الثامنة عشرة أن تعيد الى البلاد الهيبة التي كانت للسلطة من قبل ، كما استطاعت ان تقيم لها نظاماً ادارياً غاية في الدقة ، وذلك تحت ستار من مثالية العدالة أفصرت الملكية نفسها عليها واتمّت بها . ولم يستطع ملوك الامبراطورية الحديثة من الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ان يحققوا شيئاً من هذا أو شبيهاً به . الا ان هذه المثالية بقيت مهيمنة لارتباطها بجمجمة مصر نفسها، فأفاد منها الملوك المقدونيون في القرن الثالث قبل الميلاد وتوارثوا العمل بها ، فكانوا أسعد حظاً من أسلافهم الذين تعاقبوا على الحكم مدة ألف وخمسة مئة سنة قبلهم ، كما كانوا اكثر تفوقاً منهم في وضع هذه المثالية موضع التنفيذ .

لدينا من الوثائق ما يقيم الدليل القاطع على ما بلغتته الادارة في عهد مراقبة الحياة المادية ورضى التاج الامبراطورية الوسطى اذ ذاك ، من الدقة والانضباط وشدة المراقبة لنظام الحياة المادية في مصر الفرعونية . فهي تعطينا فكرة صحيحة صادقة للكيفية التي كانت تجري عليها عمليات الاحصاء العام في البلاد ، وهو احصاء يضبط بيان الاشخاص الذين تتألف منهم الأسرة الواحدة او الاشخاص الذين يعيشون تحت سقف واحد ، وبيان ما تملكه الأسرة من ماشية وعقارات قيد الاستغلال ، كل ذلك تحت مراقبة واشراف عدد من المراقبين الاداريين ، بينما كانت عمليات البيع والشراء والهبات والوقوفات ، والأرث وغير ذلك من وسائل التصرف خاضعة بصرامة لقيود التسجيل الرسمية .

ان تنظيمياً يثل هذه الشدة والضبط من شأنه بالطبع ان يتيسر للادارة الملكية ان تؤمن ولو

مبدئياً، لكل فرد وسائل العيش وأرد الحياة ، فتعين له عملاً تتحكم هي بجميع أسبابه ومقوماته ،
اذ لم تكن الارض تزرع والمهن تمارس وتحترف الا باسم الملك الاله الذي في شخصه تتمثل
الدولة وتجتسم .

عاد هذا النظام الاداري الآسر بفوائد عظيمة على السلطة ، وبمنافع جليلة ، فضربت على
الناس السخرة ، وأزمتهم السهر على صيانة الأبنية وسلامة الترع النهرية واجبرتهم بتشديد
السدود وبناء الطرقات ، وتأمين أعمال النقل والبناء ، كما تفرض ذلك مرضاة الآلهة وخدمة
الدولة النصوحة . وكانت الادارة تسهر على جباية ضرائب مختلفة ليس بالامكان تحديدها بالدقة
المطلوبة في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ولا تحديد تفاصيلها ومعدلها . وكان بين احكام
الحراج ما يتعلق بمباية الميرة على الاشخاص والرسوم المفروضة على الماشية ، وضريبة الاعشار
التي كان يتمدها متعهدون مشابهة أو على أقدار معينة ، وعلى محاصيل الارض وغلة كل شجرة ،
وغير ذلك من الرسوم المختلفة .

كان كثير من هذه الضرائب والاعشار يجبي عينا ، كما كان الملك يدفع عينا ايضاً بعض
مرقيات موظفي الادارة هو الآخر . وكانت الاعطيات التي يفدقها على الهايب وذوي
الحظوة ، تدفع لهم من غلال بعض الاملاك او من الرسوم العائدة بجبايتها للملك . فلا عجب بعد
هذا ان تتم الادارة بكنوز طائلة وخيرات لا تحمد ، فتختزن المعادن الثمينة خامات او صنائع
فنية ، وان يوضع تحت قصرها حواصل واهراء تقص بالحبوب والثمار والشراب والجلود وغير
ذلك من غلال الارض . وكان الداخل والخارج يضبط في قيود دقيقة ينظمها محاسبون مجربون ،
كما يتضح ذلك من بعض البرديات التي بلغت الينا .

وكان من نتائج هذا الجهاز الاداري المحكم الذي كاد يبلغ سدره الكمال ان يؤول ، حتى في
المواسم المتوسطة المردود ، الى هذا الغنى الاسطوري الذي رفلت به الملكية في مصر . ليس
باستطاعتنا ان نعطي هنا أرقاماً لما بلغه فيء الدولة المصرية ولا نفقاتها ، وهي ارقام بالطبع
يسيل لذكرها اللعاب وقدهش من يسمع بها ، كما كانت تثير الشهوة الجامحة والنهم في نفوس
الأغراب ، وشداد الآفاسق الذين كانوا يتشوفون الى غزو مصر والاستمتاع بمخبراتها الراقرة
والاستيلاء على الكنوز المحبوبة في عنابر الملك . فقد استهدفت مصر الفرعونية للعديد من هذه
الغزوات والفتوحات التي كان يمكن ان يتضاعف عددها لو لم تتم البلاد بموقع جغرافي عازل
يمتاز جعلها، الى حد كبير ، بأمن من المستبشرين ويمزل من الطامعين .

ان مجرد السيطرة على البلاد ، مهما قصر مداها وضاق عهدها ، كان كافياً ليؤمن لصاحب
الأمر فيها الذي عرف ان ينشر لواء سلطته فوقها ، موارد طائلة ، ودخلاً هائلاً . فكيف به ،
وما عسى ان يكون أمره ، اذا بسط نفوذه العسكري فوق النوبة وما تحويه من مناجم الذهب
ومن موارد غنية اخرى كالعاج والاششاب الثمينة ، وفوق شبه جزيرة سينا ومناجها الفنية ،

وعلى ما يجاورها من أقطار آسيا الغربية التي كانت تستأثر بتجارة العالم اذ ذلك فكانت مجالاً لحركة الاعمال والصنائع وأغنى بقاع الارض بغلال الحنطة . وبفضل الحراج الذي كان فراعنة الامبراطورية الحديثة يجيرونه من هذه الممتلكات ، واستثمارم لحسابهم الخاص املاك الدولة في كل من النوبة وسيناء ولا سياً مناجها الغنية ، استطاعوا ان يخففوا بعض الشيء من وطأة شبكة النظام الاداري الذي أحكوا حبكه ، وان يخففوا من حدة رسوم الجباية المرزحة التي كان الشعب المصري يشن منها .

والى هذه الرسوم والضرائب القانونية المفروضة ، يجب ان نضيف بالطبع ، ولو نظرياً ، وان نحسب حساب أعمال الابتزاز والاعتصار والاعتساف التي كان ينزلها بهذا الشعب الراضح المستكينين مشمولي السلطة في المقاطعات والأقضية ؛ والموظفون الاداريون كانوا جميعاً يحكمون ويدبرون امور البلاد والعباد باسم الفرعون ، فيجدون في النظام الاداري الذي ينتظمهم اكثر من مهرب أو فجوة للعبث بصالح للناس والاثراء . وتاريخ مصر القديم مليء بأخبار التناكبي والتباكي من المظالم تقع على السكان ، فتصاعد زفرات محرقة وتهدات كآوية لما يتعرضون له من مغارم ، وهي امور لا بد ان يقع مثلها في كل نظام مهما اشتدت فيه الرقابة . ولذا نرى الفلاح المصري يرضخ مستسلاً للواقع ، قلما يرفع صوته شاكياً وقلما يحاول الانتفاضة منجاة له من مظلمة تصيبه . فالفتاحون والأجانب الذين سولت لهم النفس بفتح مصر وغزوها ، كثيراً ما عولوا على ما عرف به المصري من روح الاستسلام فباء فألمهم وعادوا بأكثر من خيبة عندما حاولوا العبث بتقاليد البلاد الحضارية ولا سياً بتقاليدها الدينية .

وقد عاد هذا النظام الاداري الأمر على السلطة بفوائد عظيمة ومنافع طائلة فأقصرتهم على اعمال شاقة اخذتهم بها كالسخرة والأشغال الشاقة ، وكرهتهم على تأمين سلامة الاقنية والترع النهرية وتشديد السدود ، وبناء الطرقات ، وغير ذلك من اعمال النقل والبناء والصيانة التي يقتضيها كسب رضى الآلهة وخدمة الدولة . وكانت الادارة تسهر على جباية الضرائب العديدة ، وهي ضرائب لا نستطيع ، في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ان نحدد بالدقة المطلوبة ، تفاصيلها واقدارها او معدلاتها ، ومقدار الفيء الذي تؤمنه للتاج . وبين هذه الضرائب ولا شك ما يتعلق بجباية ضريبة الاعناق ، والضريبة المفروضة على رؤوس الماشية ، وضريبة الاعشار التي كانت تلازم للتحمدين مشابهة أو على أنصبة معينة ، وغيرها مما يتناول محاصيل الارض وغلال الحقول ، ورسوم الحرف والمهن ، وغير ذلك .

فالغنى الذي رفل به الفراعنة أتح لهم انشاء دولة ذات جهاز اداري صارم يحكم الحلقات يعج بالموظفين ، كما أتح لهم تكوين جيش لجب لم يكن دوماً من العزة والقوة المرتجاة ، كثير التكاليف ، باهظ النفقات لاعتماده بالاكثر على المرتزقة من الاغراب ، وانشاء بلاط فخم وبطانة تعج بالخدم والحشم والعبيد لم يقم في الارض ما يضاهاها . ومع ذلك فالتكاليف الباهظة كانت تلك التي تذهب في سبيل الآلهة وخدمة الفراعنة الآلهة ، الأموات منهم والأحياء . فالمراسم

الدينية التي كانت تأخذ احتفالها بمجامع القلوب مكنت الفن الوطني من التجلي والظهور في أبداع صورته . وفي هذا السبيل سخرت الحكومة كل ما في البلاد ومن عليها لتحقيق هذه الحضارة الفرعونية الباهرة وما بلغت من عظمة ساحقة صادقة . وكفني المؤرخ ان يسجل هذه الحوافز دون ان يكون لديه من المعايير ما يسمح له الجزم بالتكافؤ بين هذه الشقة وتلك .

الموظفون والنظام الملكي في تاريخ مصر الفرعونية مثال قد يكون ابرز ما تقدمه لنا الملكية المطلقة . فالحق الالهي الذي هو الاساس والنتيجة المحتومة لكل الانظمة من هذا النوع ، وجد في هذا النظام تعبيره الأقوى والأمثل وعاد بأبعاد النتائج وأقصاها . ولكن لكل نظام على هذه الشاكلة مساوئه الداخلية التي تتمثل بهذه الغرزة التي تجيش في نفس كل موظف ، من أي فئة كان ، فتزوع به للتححرر من كل مراقبة وتحدوه لتوسيع الصلاحيات التي اولته اياها السلطة العليا لتنفيذ الأوامر والتعليقات ، فراح يستخدمها للازواء . وهذه النزعة لا تكوّن المحذور الاكبر في نظر السلطة ، اذ كثيراً ما كانت تزوع نفوس كبار العمال والموظفين الاداريين ، للارتقاء الى مصاف صفار الملوك فيتصرفون بالاقطاع الذي قطع لهم كما يرغبون ، وتشرب نفوسهم احياناً الى مصاف الملوك الذين يبسطون سلطتهم فوق مصر برمتها . فكان على الملكية ان تعرف كيف تتفادى دوماً خطر الوهن يدب الى نظامها ، والاحلال يُصيب وحدة البلاد فتعرض معه لخطر اغتصاب السلطة الشرعية . ولم تر ان النظام الملكي عرف كيف يتجنب هذه المخاطر حقبة من الدهر زاد امدها على اكثر من مائتين او ثلاثمائة سنة .

وحركة الغتصاب للسلطة التي كانت تتكرر بالمظاهر الواحدة تقريباً من شأنها ان تحدث بعض الدهش في النفس . فقد كان على الفراعنة امام هذه التجارب المتكررة ان يبرهنوا عن فطنة اكبر للحيولة دون مواجهتها مرة اخرى .

فامام هذا الحرق الذي برهن عنه الفراعنة ، يحق لنا ان نتساءل عما اذا كانت مصر قديماً اصيبت بعقم بالرجال الاكفاء الخلقين بالاضطلاع باعباء الوظائف العليا مع بقائهم في الحدود المرسومة لهم . فمن بين جمهرة السكان السليبين القابعين في اشغالهم اليومية ، لم يبرزوا - ولم يبرزوا ان يبرزوا - نجة مختارة من الموظفين الاكفاء ، ثقافياً وخلقياً ، تكون من الكثرة والوفرة بحيث يختارون من بينها القدر الكافي لتأمين الادارة . لم يتوفر لكل الشعوب في كل ادوار تطورها التاريخي ما يلائم الدولة من موظفين اكفاء يجمعون بين الاختصاص والاخلاق وصدق الولاء ويحققون مثالية الدولة التي راودت الحضارة المصرية لتشيده البناء الديني والعلماني ، والمدني والعسكري .

ولعله من المفيد ان نحسب هنا حساباً لهذه الذهنية التي سيطرت على النظام الملكي المطلق في مصر ، وجعلت فراعنة مصر يمتقدون ان مصر 'ملك' خاص او متاع خاص بهم ، فيستدنون

بوجوبها ذوي قرباهم المتكاثرين عددهم بتعدد الزوجات ، ويقرؤون رجال بطانتهم ومحاسبيهم ، وقد اطمأنوا الى ولائهم في البدء . الا اننا على مر الاجيال وكر السنين نرى محاولات عدة للتحرر يقوم بها اصحاب الحظوة للاستبداد بامر السلطة . وعمدنا التاريخ بالكثير من الامثلة على ذلك .

على مثل هذا الشكل الموصوف تم ، على الاخص ، انحلال الامبراطورية المصرية القديمة ، كما يتضح ذلك ، بصورة لا تدع مجالاً للشك ، من الوثائق العديدة وزوالها ، ودون ان ندخل في تفصيل ذلك يكفي ان ننوه هنا ملاماً ببعض الاحداث المميزة .

نالت الهياكل العديدة هبات واعطيات واسعة من الاراضي والعقارات اعفاها الملوك الذين اسبلوها من الرسوم وغيرها من الضرائب المالية المعمول بها إذ ذلك ، كما انهم حوّلوا لها رسوم الجبائية التي كانت تُفرض على مستثمري الاراضي المائدة للملك . كل هذه الهبات ذهبت منافعها بالطبع لرؤساء الكهنة الاقليميين او المحليين الذين حاولوا ان يجعلوا مناصبهم وراثية في ولدهم واسرتهم .

كثيراً ما كان هؤلاء الزعماء الدينيون يجمعون بين المراتب الدينية والوظائف المدنية ، هذه الوظائف التي كانت تولى صاحبها او « المحافظ » ، كما يسميه الاغريق - رئاسة المحافظة ، وقد حصل هؤلاء الموظفون ولا سيما الكبار منهم على إقطاعات عريضة من الارضين نالوا معها حق نقلها بالوراثة الى ابناءهم من بعدهم .

ففي الوقت الذي كان فيه جميع من في البلاط يفاخرون بقرابتهم بالملك ويعتدون بصدقتهم له وتقربهم منه وملازمتهم لبطانته ، اخذت اواخر هذه القرني وشائج هذه الصداقة تتراخي بسرعة مع الزمن وتخفف عراها . والضعف الذي اعترى السلطة المركزية كان من بعض نتائجها الوخيمة ان يحمل بعض مرضى النفوس من يتوقون للسلطان ، على مناصب الملك العداء المكشوف فنشأ عن هذا الوضع في المقاطعات ، طبقة من النبلاء او الاشراف المحليين ، كما زاد من توسيع نفوذ الموجودين فيهم من قبل ، وكلهم يحاول التجاوز على امتيازات التاج او اختلاس حقوق الارتقاء الملكية المفروضة على مساحات شاسعة من الاراضي المصرية ، او يتألبون ضد الملك تحت سلطة احدى الاسر البارزة ، ويتنافسون فيما بينهم ويتحاربون احياناً ، ومحاولين إخضاع الفلاحين لسلطانهم . فنتج عن هذا كله فوضى قاصية في البلاد وما الى الفوضى من ضعف السلطان ووهن السلطة المركزية ، وانفصال المقاطعات وتناثرها ببدأ . فقد كان هذا الوضع الاجتماعي الذي برزت عليه مصر الفرعونية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد اولى سوابق نظام الاقطاع الذي ساد المجتمع الاوروبي في القرون الوسطى .

الإصلاح الامرج استطاع ملوك طيبة الأول من الامبراطورية الوسطى ، في اواخر السلالة الحادية عشرة وبداية الثانية عشرة ، ان يعيدوا الي البلاد وحدتها المتلومة

فيعود الأمر الى نصابه والنظام الى عرابه . واستفادوا كزملائهم ملوك الامبراطورية الحديثة درساً واتخذوا لهم عبرة من هذه التجربة المريرة التي مرت بها البلاد . ففسر منصب «الحافظة» على الاخص ، في عهدهم ، كثيراً من اهميته ولم يبق له من الوجهة العملية كبير شأن فاستحال الى رتبة شرقية لا غير . وكذلك حدث للوظائف الكبرى الأخرى ووفروا لها من يقوم بها بعد ان رفقوا اليها من برهن عن كفاءته واخلاصه وولائه للملك ، في الوظائف الدنيا التي اسندت اليهم .

ومع ذلك فالخطر لم يقبض عليه تماماً ، إذ رفض الملوك التخلي عن الاساليب التقليدية البالية التي نهج عليها اسلافهم من قبل ، لما كانت تؤمّنه لهم ولدوهم ولبطانتهم من منافع مادية . فالتقضاء على هذه الاساليب كان يقتضي له تفويض النظام القائم من اساسه وإلغاء الاعراف والتقاليد التي سار عليها المجتمع المصري إذ ذاك .

ففي عهد الامبراطورية الوسطى كاد النظام الاداري يبلغ الكمال . لا شك في انه بقي في بعض المناطق والاقاليم وظائف هامة لها شأنها تشرى وتباع . فالارشادات والتعليقات التي اصدرها الفرعون مريكاره والتي كانت تنزى بعاطفة انسانية كريمة ، كانت توصي بالاحتراز من العملاء الفقراء والموظفين المتوسطي الحال لما تجيش به نفوسهم من حسد وجشع ، كما كانت توصي بالتوسيع حول الكبار منهم اود العظام و الذين لهم من الفنى والثراء والبحيوة ما يسد مطلب النفس ويعد من نهم فيمتصون بمجل التجرد بعيدين عن المحاباة والاخذ بالوجه . والملاحظ على الاجال هو ان حى التورث ظهرت من جديد واستمر العمل بها ، كما يبدو ذلك واضحاً في عهد الامبراطورية الحديثة عند وفاة كبار الموظفين ورؤساء الكهنة . وقد خضعت الوزارة كما نحسب ، لنظام الوراثة بالرغم من الصفة الخاصة التي تلابسها ، وبذلك استقر منصب الوزارة مدة طويلة في بعض الاسر . كذلك أعيد الاخذ بنظام إقطاع الاراضي للجنود وللموظفين مكافأة لهم على خدمات قاموا بها او تسديداً لمرتباتهم ، كما اعيد العمل بنظام جمع وظائف عدة في شخص فرد واحد .

فل يلبث أن اطلّ الخطر من جديد على نظام الملك في مصر ، هذا الخطر الذي تمثل في الدور الذي لعبه الجيش في تسهيل مهمة المتصيين للسلطة العليا في البلاد . ولعل خير شاهد على هؤلاء القادة المجدودين هو مثل القائد حورمحب الذي بعد ان حقق انتصارات باهرة في ساحة الوغى وحمل ألقاباً عالية ، مثل : « قائد قواد الجيش » ، و « المدير العام للأعمال » ، هذا اللقب الذي كان يوليه سلطات عسكرية ومدنية واسعة جداً ، نودي به ملكاً على مصر بعد ان سبق لكاهن امون وتنبأ بصيرورة الملك اليه ، ثم تزوج من إحدى الاميرات لتأييد شرعيته في الحكم وترسيخ سلطانه على البلاد ، ثم بادر الى تقديم تاريخ وصوله للحكم فجعله توثاً بعد وفاة امنوفيس الثالث ، ضارباً عرض الحائط بالملوك الأربعة الذين تقدموه على العرش ، بعد ما عرفوا به من عداء لاله طيبة امون ، كما امنوفيس الرابع ، او من تكسّر له .

رئيس كهنة أمون تبين هذه الحادثة المزلّة العالمة التي تمتع بها رئيس كهنة أمون والدور السياسي الذي لعبه في البلاد . فليس بغريب قط ان يصبح رئيس الكهنة الشخصية الأولى في الدولة بعد الملك وان يحل محله أحياناً .

كان الملك رأس حفلة تصويب رئيس الكهنة الأعظم ، ملتصقاً من الإله أمون وضارعاً إليه ان يستجيب لتحقيق رغائبه ومشيتته التي يعبر عنها بالتأينات ومراسم كانت تخفي وراءها الكثير من الدسائس والتطبيقات والتاورات والألاعيب . وكان على الملك ان يستدرج رضى الإله بالأكثر من الأعطيات والتقدم التي كانت تذهب لليكل فتزيد من سلطة كهنة أمون وبالتالي من شأن رئيس الكهنة الذي كان يعيش عيشاً مترفاً ويسكن في دائرة خاصة تعج بالحشم والخدم فتشمل سلطته جميع الكهنة والعاملين في الاملاك والعقارات التابعة لهيكل أمون . وكثيراً ما كانت سلطته الدينية تمتد الى جميع اطراف البلاد فتشمل الكهنة القائمين على خدمة الهياكل الأخرى . وكان رئيس الكهنة يمارس الى جانب وظيفته الدينية وظائف مدنية أخرى حتى العسكرية منها . فن الطبيعي والحالة هذه ، ان تطمح نفسه ليجعل منصبه وراثياً في أسرته .

فالأصلاح الذي قام به امنوفيس الرابع اخناتون لم يستهدف الإله أمون فحسب ، بل طغمة رجال الدين ورئيس الكهنة نفسه الذي أخذت الملكية تخشى الوقوع تحت وصايته ، إلا ان المحاولة باءت بالفشل واستفعل بالتالي خطر رجال الدين . وفي أواخر أسرة رمسيس اي السلالة العشرين ، في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ، أصبحت وراثية مركز رئيس الكهنة القاعدة التي سير بموجبها في البلاد .

والظاهر ان هذه الوراثة لم تصبح مرقاة للشخص الذي عرف ان يفيد من هذا التطور هريجور . ومع اننا نجمل الكثير من الوثائق العائلية التي كانت تلابسه ، فاننا نراه بعد ارتقائه الى رئاسة الكهنة ، قائماً للملك في التوبة ووزيراً له ، وقائداً أعلى للجيش في الوجهين البحري والقبلي . وتليح لنا الرسوم والنقوش في هيكل الكرنك ان تتلعب المراحل التي مرت بها الى ان آل إليه التاج الملكي . وفي هذه المرحلة بالذات نرى الوجه البحري يؤول الأمر فيه الى وزير سابق تزوج من إحدى اميرات الأسرة المالكة . ومع ان هريجور يرسخ دعائم الاستقلال التام فهو يسمح بان يلقبوه هو وزوجته بلوك الصعيد . وبعد ذلك نرى لقب الملك يصير في عدة اجيال متلاحقة ، اي في عهد السلالة الحادية والعشرين ، من ألقاب رئيس كهنة الإله أمون . وهكذا نرى الملكية تعجز عن الدفاع عن امتيازاتها ضد تعديات كبار الموظفين وتجاوزات رؤساء الكهنة فتوغل في الفوضى .

وهكذا نرى أيضاً البون التاسع بين الحقيقة والمثال الأعلى . فالوضع في مصر القديمة يعطينا بوضوح وجلاء ، صورة صحيحة للخطر المزمن الذي احاق بالنظام الملكي المطلق ، هذا الخطر الذي تمثل خيراً تمثيل في كبار الموظفين .

الفصل الثاني

النظم الاقتصادية والاجتماعية

ان استعراض هذه النظم يوجب ابداء الملاحظة التالية : من العسير جداً تكوين فكرة شاملة وواضحة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر القديمة . أجل نحن لا نفتقر الى ما يستعيد أماننا هذه الحياة ، فالرسوم والكتابات والروايات اكثر من أن تعدد ولكننا نفتقر الى الايضاحات العددية والاحصائية . ولذلك فعلينا الاكتفاء بلوحة لا يتساوى فيها توزيع الأضواء تتضح لنا فيها تقنية الإنتاج المادية والمقايضات دون ان تيسر لنا رؤية نتائجها وتوزيعها أي ارتباطها بالحوادث الاجتماعية التي تسببها مع ذلك وتأثرها في آن واحد .

من النافل التشديد على النتائج الاقتصادية والاجتماعية التي يستلزمها المفهوم المثالي النظام المثالي للملكية المصرية : كان على الفرعون الاله ، منطقياً ، ان يمارس في كل شيء دور وكيل الاله العظمة على الارض ، وعملياً ، بالتالي ، دور صاحب الملك وصاحب العمل المباشر . وكان عليه بفعل سلطته المطلقة ان يعين لكل شخص عمله وأجره .

سبق وبيّنا ان هذه النتائج النظرية ، اذا ما ألقينا نظرة شاملة على التاريخ القديم ، لم يعمل بها الا في حالات وظروف نادرة . فباستثناء عهود ازدهار الامبراطوريتين القديمة والوسطى ، وهي لا تتعدى القرون الخمسة ، عرفت مصر ، دونما انقطاع ، ما يعرف عنه اليوم « بالنطاق الحر » . فمن ياترى أوجد هذا النطاق ؟ هل هي حرية أنعمت بها السلطات أم غش واغتصاب اغضت عنها هذه السلطات ؟ من ذا الذي كان يفيد من هذا النطاق بالإضافة الى الكهنة والمتنفذين الذين رزح الأهالي تحت وطأة مطالبهم كما رزحوا قديماً تحت وطأة مطالب الملك ؟ كلها اسئلة لا اجواب عليها لأن هذا الجواب يختلف دون شك باختلاف الازمنة والعهود .

ولكن بالرغم من هذا الغموض ، يسود الشعور بأن فقدان البادرة الفردية وحرية الفرد الاقتصادية والاجتماعية كامن في صميم منطق الحضارة المصرية القديمة . فنظام هذه الحضارة المثالي يفرض واجبات دقيقة يحول افعالها دون تحيزه في كاله وبهائه . ويبدو ان الامبراطورية الحديثة وحدها قد بلغت هذا الكمال دون الاضرار بعظمة الحضارة القومية ، أمه في الفترات الجعيدة

من حكم السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . ولكن هاتين السلالتين استثمرتا في آن واحد البقاع المصرية نفسها وبممتلكات خارجية واسعة الاطراف من شأن مواردها ان تقلب معطيات القضية نفسها .

١ - الحياة الاقتصادية

الزراعة مورد البلاد الكبير العجيب الذي لا ينضب . في صيف كل الوارد الطبيعية واستنارها سنة ينقل فيضان النيل الى الارض التي فلعتها الحرارة المياه والاوراح الحية فيستقبله السكان بالمزيد من الفرحة وعرقان الجليل . وفي الخريف يأخذ النهر في الانخفاض ، فتبدأ أعمال الحرث والبذر في المساحات الصالحة للزراعة التي لا أثر فيها للأرض البور ، والتي لا تحتاج ، بفعل غمر المياه ، الا الى حرث سطحية . وكثيراً ما كفى لطمر البذار ان يستعمل المحراث البدائي أو ان تقرع الحيوانات الأرض بأقدامها .

دون الرحالة الأغر يق اعجابهم بسهولة العمل ووفرة المحاصيل في مصر وقد بدت لهم تربة بلادهم ، بالمقارنة ، وكأنها أم جافية رديئة . ولكن لا نأخذن حرقاً بالتأكيدات والأرقام التي وردت على أقلامهم . فالفلاح المصري ، كأبي فلاح آخر ، يتعب ويتعشى ولا ينفوق للراحة طمعاً الا في أسابيع معدودة اذ تقمر المياه البلاد بأجمعها فتستحيل كل قرية جزيرة صغيرة . وما ان ينخفض النهر حتى يتوجب على السواعد البشرية تأمين أعمال الري المغذية ومعاونتها وتسييرها ... وقد أوجب تنظيم الري وتجفيف المستنقعات ان تشيد السدود وتحفر الأقنية ويعنى باصلاح هذه وتلك نباتات ، كما كان يقتضي في مراحل نمو المزروعات ان تمد الأقنية الصغيرة بالمياه ، أقله في البساتين ، وذلك يجمعها ونقلها من الغدران أو الآبار أو النهر نفسه بواسطة رقاص خشبي خاص أو باستعمال أوعية ثقيلة . قامت السواعد البشرية في سبيل ذلك كنه بأعمال فيها الكثير الكثير من العناء والمشقة . وكان الحصاد يتطلب بدوره يدأ عاملة لا تحصى توزع فرقاً تنتقل نزولاً من الوادي نحو الشمال تابعة في سيرها توقبت نضج المزروعات .

ومن نائل القول ان هذه الجهود الجبارة كثيراً ما أعطت ثمارها . فيكفي أن يبلغ الفيضان منسوباً وسطاً - ١٣ متراً في الوادي و ٧ امتار في الدلتا - حتى تأتي المكافأة غاية في السخاء يتمس فيها السكان عطف الآلهة عليهم . ولكن يتعذر القطع في من كان يفيد عملياً من هذا المن .

كانت الحبوب ، لا سوا الشعير والقمح ، قوام المحصول الزراعي . وكان هنالك ، بالإضافة الى الحبوب نفسها ، البساتين بخضارها وشجرها الممر وكرمتها المرشة ، وتربية المواشي ، لا الحصان - الذي أدخله الغزاة الرعاة مصر في النصف الثاني من الألف الثاني واستأثر به العظماء - بل الثور والحمار ولا سوا الخنزير والحروف والعتز والطيور الداخسة من أوز وبط . ولم يكن الدجاج معروفاً بعد .

توفر لنا النقوش المدقنية بدقة كل تفصيل حول هذا النشاط الزراعي بحيث يمكننا ، انطلاقاً منها ، ان نسير في هذا الاحصاء الى ابعد حد . ويصح القول نفسه عن القنص والصيد اللذين مارسهما المصريون بجميع الوسائل والادوات المختلفة واللذين لم تنحصر الغاية منهما في التليسة والرياسة : فبالرغم من الحظر المفروض هنا وهناك على استهلاك هذا أو ذاك من الطير والحيوان ، اسهم الصيد والقنص الى حد بعيد في تنمية الموارد الغذائية .

استطاعت ارض مصر ان تؤمن للملايين البشر الغذاء واللباس في اقليم ملائم عطوف ووفرت لهم في الوقت نفسه المنتجات المادية الضرورية لحضاره كبيرة .

أجل كانت مصر تقتفر الى الحديد وخشب البناء . فالحديد لم يستخرج من قبل ولمدة طويلة سوى من التيازك ، فكان بالتالي نادراً جداً يستعمله الصاعغة معدناً للزخرف . ولم يعم استعماله ، بفضل الاستيراد ، الا قبيل الألف الأول . ولم تكن الاشجار نادرة في مصر ، غير ان أشجارها من نخيل وائل وما اليها كانت جميعها عقداً لا تصلح للبناء . ولم تقم في مصر على كل حال غابات ظليلة ، فتحتم عليها ان تأتي من النوبة بالأخشاب الاستوائية ، ومن سوريا ، عن طريق فينيقيا ، بخشب الأرز والصنوبر . وقد اعتمدت أعمال بناء السفن خاصة على الأخشاب المستوردة من الخارج .

كل ما عدا ذلك كان كثيراً ووافراً . فالأسوار الصخرية في الصحارى الغربية تؤلف مناجم لا تنضب لحجارة البناء الجميلة المختلفة ، والرحل ، اذا خلط بالقش أو بالقصب وجفف تحت أشعة الشمس المحرقة ، يوفر للمهندسين احدى مواد البناء الكثيرة ، والذهب المستخرج من الصحراء العربية ومن النوبة يكاد يناقص الفضة . أضف الى ذلك وفرة النحاس في سيناء والحجارة الكريمة على انواعها من زمرد وفيروز وما اليها في الصحراء والنوبة وسيناء .

ولم تقتل هذه الخامات من جوف الارض ، وشأنها في ذلك شأن الحصائد ، الا بالمزيد من الجهود الناصبة . روت النصوص أخبار بعض البعثات في الصحراء ، واعمال حفر الآبار ، واستخراج الفدرات الضخمة ، واكتشافات عجيبة في بقاع خالية ، ولكنها اقل اداء ، على العموم ، من تلك المشاهد المصورة التي تمثل نشاطات الفلاح والصيد وقاطف العنب . ولا شك في ان قسمة عمال المتقال والمتناجم - وهم في الغالب من اسرى الحرب الارقاء - كانت أشد وأدهى من قسمة الفسلاح ، فهم يشقون عطاشاً تحت أشعة الشمس المحرقة يحيط بهم الجنود الذين يتولون حماية الثروات المكتشفة واللؤن من غزوات البدو . وفي الواقع كان على الطبقات الكادحة في مصر ان تصبر ، في سبيل حياة مصر وازدهار حضارتها ، على نظام لا يقيم وزناً لأم ولا يباه غالباً للحياة الفردية نفسها .

توفر لمعالجة هذه الخامات عمال على قسط كبير من المهارة والتقنية والفن . ولم يكن يومذاك من يميز بين أصحاب الحرف والفنانين . وقامت المعامل

التحويل والمقايضات

على أنواعها في كل مكان ولكننا لا نعرف منها سوى تلك التي تتمدها المعابد والبلاط الملصقي لاحاطة الآلهة والملوك الآله وحاشيته بمخلف ادوات الزينة والزخرف . واكتفى السواد الاعظم من السكان بالعمادي العادي من الاواني الخزفية . فلفظ المناخ يحد من حاجتهم الى المنسوجات التي تؤمنها الصناعات البيتية ، ولم يكونوا بحاجة للاستعانة بعمل الاختصاصيين المأجور سوى في ظروف الجائز . وكان يمكن الحائك والتجارين والصاغة والحكاكين والتقاشين ان يصنعوا التحف الجيدة لطبقات المجتمع العليا . اما القسم الاكبر من هذا الانتاج فقد أُضيف الى كنوز المعابد او خبيء في المدافن المظلمة بانتظار عبث الناهبين في غفلة من السلطة ، او تنقيب الأثريين مؤانئ المتاحف .

وكان يمكن التجارة الداخلية ان تتصف بنشاط واسع لأن موارد الدلتا والوادي غالباً ما تتكامل ولأن الانهار والترع تسهل حل معضلة النقل . غير ان المثل الاعلى لتنظيم البلاد لم يكن ليشتج المقايضات الخاصة ولو طبق بالتام لأفضى الى الاحتكار الكامل لصالح الدولة ، اذ يصبح من واجب السكان المنخرطين فرقاً في خدمة الآلة الحكومة الضخمة ان يتسلوا بمثابة لجر من المازن الرسمية كل ما يحتاجون اليه . وهذا ما حصل في اكثر الاحيان لبعض طبقات المجتمع التي يستحيل تحديد نسبتها في مجموع السكان : عمال الحرف وفلاحو املاك كل من المعابد والدولة؛ الجنود والموظفون والكهنة الذين غدت هذه التخصصات محاصيل اقطاعهم . ولا عجب بعد ذلك اذا ما رأينا ان التجارة ، حتى الصغرى الصغرى منها ، تبدو في مصادرها جذيرة بكل اتبناه واهتمام .

وتجدر الإشارة هنا الى ان مصادرها هذه محصورة مواضيعياً في مصر العليا تقريباً إذ انها سهلة المراقبة والادارة بفعل انحصارها . ويبدو ان الدلتا جاشت على الدوام بمجياة حضرية لم يعرفها الوادي وتملصت ببعض السهولة من المركزية التي اضاعت جهودها في هذه الشبكة من الشعب التهزية والمستنقعات . وكانت المجموعات البشرية اكثر اعزالاً فيها فشعرت بصوالجها وبقوتها الحقيقية ، وشدت الى الخارج علائق كثيرة اتاحت لها الاخذ بالاساليب المعتمدة في حضارات الشرق الأدنى الأخرى . وليس من الصدق ان يكون الملك بوخوريس ، الذي اشار ديودور الضفلي الى تشريعه حول العقود ، ملك سايبس احدي مدن الدلتا . ولكن هذا الدليل والأدلة الأخرى التي تثبتته - وجود التجار الاجانب ورواج النقد الاجنبي النع .. - لا يعود تاريخها الى ابعد من اواخر القرن الثامن قبل الميلاد .

وبالفعل لم يعرف النقد في مصر حتى عهد متأخر جداً مع انه الاداة الضرورية لنشاط المقايضات : فالاسكندر وخلفاؤه البطالسة هم الذين عمموا استعماله . كذلك لم تظهر سبائك الذهب والفضة والنحاسن إلا في اواخر الالف الثاني بعد ان تكاثرت سلب الكنوز والمدافن . ومن قبل ، اي في عهد الامبراطورية القديمة والعهود اللاحقة ، اعتمد المصريون للتقويم والتخمين ، منذ ايام الاسرة التاسعة عشرة ، وزناً معدنياً كوحدة حسابية مثل . ثم اخذوا يتقايطون

محاصيل او سلباً تعادلت قيمتها مضطربين احياناً لاضافة هذه او تلك من المواد الاخرى تمويضاً عن فرق في القيمة او الوزن . وجلي ان هذه الاساليب وما اليها قد شلت حركة الصفقات لانها لم تكيف وفقاً للحاجة .

التجارة الخارجية
ظلت التجارة الخارجية في حالة من الوهن والخور لاسيما اذا ما قورنت بوفرة المحاصيل المصرية وجودتها . ولا تترك لنا معلوماتنا ، على قلتها ، مجالاً للشك في هذا الموضوع .

واذا ما ارتكنا الى هذه المعلومات ، جاز لنا القول ان التجارة الخارجية منوطه بالملك وحده تقريباً . هو وحده يتصرف بما يمكن تصديره من فائض الانتاج الزراعي او المني ويقدر الحاجات الملحة لمواد الاستيراد ، لان المعابد والبلاط ، التي تستهلك وحدها هذه المواد ، تتعلق به دون غيره : فصر التي تكفي نفسها بالضروريات لم تلجأ الى الخارج إلا للكاليات من مصنوعات الزينة والزخرف ، والملك وحده اخيراً يمتلك الوسائل المادية لهذه التجارة اعني بها المراكب القادرة على ركوب « الحفراء الكبرى » والفرق العسكرية التي تراكب القوافل في مسالك الصحراء . لذلك غالباً ما ارتدت الملائق الاقتصادية بالخارج ، على الاقل في العهود الفرعونية ، صبغة التجديدات والمشاريع تتولاها الدولة نفسها .

وجب الحصول على الاخشاب من الموانئ الفينيقية وامها جبيل التي ترتقي صلتها بمصر الى اوائل التاريخ والتي كثيراً ما بدت ، حتى ابان استقلالها الحقيقي ، وكأنها من اوباع مصر : فاعتبر المصريون المقايضة في رواياتهم كتأدية للضرائب بلها تسليم الهبات . حصلوا فيها على العوارض الخشبية وبنوا فيها بعض المراكب تبسيطاً لعملية النقل . وقدم الفرعون بالمبادلة قطعاً فنية ومعادن ثمينة ومصنوعات متنوعة . وقد جاء في احدي الروايات ان اتفاقاً تم التوصل اليه في اوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، بعد مفاوضات عسيرة اجراها احد موقدي هرمحور رئيس كهنة امون الذي ما لبث ان جلس على العرش ، لمقايضة الاخشاب المعدة لمعد الكرنتك ، بقطع الصوغات والاقمشة الكتانية وخمسة الاف من البردي وخمسة ابد جلد بقر وخمسة ايس من العدس وثلاثين صاعاً من السمك المجفف الخ ..

وقد جرت المقايضات مع الجزيرة العربية ايضاً ، فكانت السفن تبليغ البحر الاحمر مروراً في شعب الدلتا الشرقية وفي قناة تنتهي الى البحيرات المالحة ومنها الى خليج السويس . وعمدت السلطنة المصرية ، كلما اشتد ساعدها ، الى ترمع هذه القناة المهددة على الدوام بغزو الروم . وغالباً ما قطعت احدي التجديدات الصحراء العربية انطلاقاً من منطقة طيبة ولطقت بالاسطول على الشاطئ . فيبدأ البحث بعد ذلك في الجزيرة العربية وبلاد « البونت » وابتعد الى الشرق في الخليج الفارسي وعند مصب الهندوس ، عن مصنوعات الشرق البعيدة العجيبة من جواهر ثمينة وعضور وطيوب . وقد حاول المصريون اكثر من مرة ان يقتلموا الاشجار البخورية نفسها وينقلوها

يجذورها وأتربتها الى بلادهم وقد توفقوا الى ذلك فعلاً بأمر الملكة حتشبسوت، في اواسط الألف الثاني، فجأؤوا ببعضها وأعادوا زراعتها في أملاك دير البحري وخذلوا هذه الذكرى بالمزيد من الكتابات والرسوم على جدران المعبد . وقد توجهت بعثات اخرى كثيرة أقل شهرة او أقل توفيقاً الى المناطق نفسها أو الى بلاد النوبة .

ولكن الأبهة نفسها التي كانت تراقب ذهاب هذه البعثات وعودتها والأجناد التي يسعى اليها الملك من وراء نجاحها تكفي للدلالة على انها أبعد من أن تؤدي خدمات تجارة منتظمة .

لم تعرف هذه التجارة المنتظمة في الحقيقة الا في عهد متأخر ويعود الفضل الأول في ظهورها، على ما يبدو ، الى الأجانب لا الى المصريين . واذا ما عرفت قبل ذلك ، على الأقل في الدلتا ، فلأن « الحضراء الكبرى » غرقتها سفن أخرى كثيرة غير سفن الفرعون . فقد عثر على مصنوعات كريتية في مصر كما عثر في كريت على مصنوعات مصرية المصدر . وتشير النقوش والرسوم والكتابات الى أجانب ، ايحيين او اسيويين ، نقلوا الى مصر مصنوعات بلادهم . ولكن النصوص الرسمية تحمل منهم مندوبين جاؤوا يعلنون ولاهم لسيد أو لصاحب إخاذة . وتشير الأوديسيه من جهتها الى اعمال قرصنة قام بها المغامرون الأغرقي ، ولعل الحقيقة في القول انها أعمال تجارية سلمية . وما من شك ايضاً في ان بعض التجار الفينيقيين أقاموا في مصر اقامة دائمة . ولكن مهما يكن من الأمر ، فقد بقيت هذه العلاقات عرضية حتى القرن الثامن عندما احتاج ملوك سايس الى اليونانيين كمرتزقة فسمحوا لمواطنيهم بتعاطي التجارة على هذه الأرض التي كانت مطمح الأنظار الجشعة . وبعد التمسكات الاولى التي اثارت في الرأي العام ردة فعل صاخبة ، حدوا من حريتهم في نواحي البلاد المختلفة وفي الدلتا نفسها ، ولكنهم مع ذلك خصصوا اليونانيين بسوق تجارية هي نوكراتيس حيث أقاموا متاجر دائمة تمكنوا بواسطتها من مقايضة نبيذهم وزيتهم وخزفياتهم ومصنوعاتهم المدنية بالقمح الذي كانت مدنهم اليونانية بحاجة اليه . ثم جاء ملوك الفرس فكانوا اكثر تسامحاً وتساهلاً . وهكذا فان مصر كانت آخذة في الانفتاح على التجارة العامة حين انتزعا الاسكندر نهائياً من عزلتها بتأسيس ميناء الاسكندرية « على مقربة » منها .

عزلة مصر الاقتصادية ونتائجها كانت مصر الفرعونية اذن أبعد من أن تحقق جميع امكاناتها الاقتصادية . فقد تعنت وتأثرت ، في رجالها النشيطين الوادعين ، من الافراط في نسبة ما أقطع من محاصيلها تخصيصات للالهة والملك والاله والموتى المؤهين . وبجنت اقتصادياً في نموها الطبيعي بتجميد معادنها ومصنوعاتها الثمينة في كنوز معابدها وفي مدافنها . كما انها تعنت وتأثرت ايضاً بفعل انكاشها الطوعي والعرضي معاً على نفسها .

كان بمكنتها ان تنتج كثيراً وقد انتجت كثيراً في الواقع . كما كان باستطاعتها ان تضاعف انتاجها لو حسنت تقنياتها باعتماد اكتشافات الشعوب الأخرى وأساليبها . وكان باستطاعتها على كل حال ان تسد الى حد بعيد العجز التقليدي المزمع في ترميم الشرق الايجي الذي يوفر لها

الحاجات اللازمة لأدواتها، وهي قد بذلت جهوداً متواصلة للتوفيق الى ما يقوم مقام هذه الأدوات. كلان من شأن المقايضات، لو حصلت، ان تؤدي الى خير كلا الطرفين، ولكنها لم تحصل بالاتساع المرغوب فلحق الضرر بالجميع هنا وهناك.

قد تكون مصر توصلت الى تشديد حضارتها الكبرى قبل غيرها من بادلتهن المقايضات، وهذا دليل سخاء الطبيعة عليها. غير ان الظروف الجغرافية، من جهة اخرى، حالت دون اقامة العلائق السهلة المنتظمة.

فيبدو والحالة هذه ان مصر القديمة نزعته الى العيش بنفسها ولنفسها خاضعة في ذلك لمثل اعلى في الاستقلال الاقتصادي - وهذا المثل الاعلى فطري عند الشعوب والأفراد على السواء، الا ان الشعوب تعرف كيف تهمله عندما تكون سلامتها بأمن من الاخطار - وقاصرة طلباتها الاستثنائية من الأجانب على ما يكتل مواردها الخاصة. فهي لم تبحث في الخارج الاعن الاستزادة فقط. وقد أحاطت على الدوام هذه الزيادة، تبذل الجهود للحصول عليها، بما يضفي عليها سمات الأهمية والندرة والزهو. عاشت مصر داخل اطار مقفل، كلما استطاعت الى ذلك سبيلا، عازقة عن امتلاك الغابات اللبنانية نفسها وحاصرة في النوبة وسيناء أفق مطامعها الاستعمارية.

ألا يجوز لنا الجدّ في كشف أسرار سيكولوجية الشعوب؟ وهل يجوز لنا، على الأقل، ان نعتقد بأن هذه الوقائع تفسر جزئياً تلك المشاعر التي أشار الأغرقيق اليها عند المصريين وتبثتها أدلة كأشفة كثيرة في مراحل التاريخ القديم: تمسكهم المستميت بالتقاليد القومية وفضارم الفطري بصفات حضارتهم ورسوخها في القدم وشعورهم بتفوقهم الأدبي والديني على الشعوب الأخرى ومقاومتهم كل اندماج بالغير واحتقارهم الأجنبي حتى وكراهيتهم له. فيمكننا دون تهوّر ودون عناء اثبات حقيقة التبادل بين فعل وتفاعل الأحداث والمشاعر في هذين النطاقين.

٢ - المجتمع

الأوضاع الاجتماعية: الرق ان فقدان المستندات القانونية حول الأوضاع الاجتماعية في مصر القديمة يفسر جهلنا المطبق الخفيف الذي لا يجوز اخفاؤه.

لا شك في ان الرق كان منتشرأ. ويبدو أن الأرقاء كانوا أجانب في الأصل: أسرى حرب وأسرى قرصنة أو لصوصية قدمتهم سلطات بلادهم بمثابة جزية أو تم شراؤهم من الخارج. وكثيراً ما حدث ان أعطي هؤلاء التويون والليديون والأسويون أسماء مصرية جديدة تثير الشك أحياناً حول حقيقة جنسيتهم. ولكن ليس من مثل واحد اكيد على وجود عبد مصري بحصر المعنى، مع اننا نجهل مصير الأولاد الذين أنجبتهن في مصر النساء الأجنبيات المستبعدات.

ويبدو في هذه الظروف ، ان العيد قد تفاوت عددهم وفقاً لمناخ وطبيعة علائق مصر بالخارج . ولكن هذا العدد لم يبلغ يوماً نسبة مرتفعة اذا ما قيس بمجموع السكان . وكان امتلاك العيد دليل يسار ومحبوبة لم يحدث ان تفر عملياً للطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان وجود العيد ، عند مثل هذه الطبقات ، مما يثير الشبهات . كما تكشف عن ذلك بعض التحقيقات حول نهب المدافن .

وكان الملك نفسه سيد غالبية هؤلاء العيد الأول يحتفظ بالقسم الاكبر منهم ويستخدمهم في خدمة البلاط او في أعمال العناية بالاملاك العامة او في أعمال المناجم والمقالع الشاقة . ولا شك في ان بعض الممتازين منهم قد عينوا في فرق المرتقة وان غيرهم قد شقوا طريقهم في وظائف الادارة بعد ان أسندت اليهم في البدء أعمال الترجمة : فحدث يوسف مثلاً ليس بالعيد البعيد عن الحقيقة .

ولكن الملك قد وهب بعضهم ايضاً للعقيرين اليه وخصوصاً لمحاربه فجعلهم بذلك يهتمون بفنم البصر . وقد ادى عمله هذا الى توزيع العيد على طبقات المجتمع المصري المختلفة لانهم ما لبثوا ان استحالوا مواد تجارية تباع وتؤجر وتعرض . هنالك بعض الروايات عن عيد يهرون فيطاردهم رجال الامن ، ولكننا نميل الى الاعتقاد بان الهاربين هم من عيد الملك لان اصحاب الاملاك الخاصة عزل من السلاح امام الحسارة والسرقة كما هي حالهم امام الاعتداء على ممتلكاتهم الاخرى . وهنالك بعض الامثلة النادرة عن تحرير العيد التي يمكننا الجزم في طوعيتها .

هذا كل ما يمكن قوله حيال هذا الموضوع . ويجوز لنا بالاضافة الى ذلك التأكيد ان قسمة العيد ، المرغم على العمل تحت تهديد العصا الدائم ، ما كانت تختلف عملياً عن قسمة الفلاح نفسه . وهو لم يتصف قط بصورة مجتمعية مميزة ، وما لبث ان امتزج وانصهر في مجموع السكان بالرغم من تميزه اصلاً بقلته ودينه واخلاقه وربما بصورته الطبيعية ايضاً .

الاسرة : المرأة
كما تدعوها هي بدورها « اخي » . ودرج على ذلك كل من الزوج والزوجة . فهل يُستنتج ان القاعدة كانت في زواج الشقيقين من شقيقته ؟ انقسمت الآراء حول هذا الموضوع . فالذين يرتأون الايجاب يستندون الى مثل اوزيريس وايزيس في الميثولوجيا المصرية والى اقدم الملوك ، في بعض السلالات على الأقل ، على التزوج بالفعل من شقيقاتهم . اما القائلون بالنفي فيجيبون ان الحرس على نقابة الدم في اسرة الهية قد يبرر مثل هذه العادة الغريبة وان التسميات المجازية وارادة في جميع اللغات . ولا تزال ابواب هذا الجدل مفتوحة على مصراعها .

ويبدو ايضاً ان الاسرة المصرية موسومة باعراف محل المرأة في مركز مرموق بل في مركز الصدارة احياناً . فغالباً ما انتسب الابناء الى امهاتهم انتسابهم الى آباءهم . واذا ما توفي زوج ، وليس بين ابناؤه من بلغ سن الرشد ، انتقلت سلطته الى امرأته حتى في علائق الاسرة بالدولة .

وقد عرفت رسمياً ، لا سيما بعد الامومة ، « بسيدة البيت » ، متمتعة بكل ما في هذا التعبير من مدلول قانوني ، وذلك بالرغم من ان البيت مصدره الزوج . ولكن الشك لا يزال يحوم حول تحديد ذلك في الزمن او التعريف عنه بوضوح .

والادلة على ما يعارض ذلك ليست بقليلة . ويبدو انه قد عمل احياناً بمقدد زواجي يحدّد مساهمة كل من الزوجين المادية ويحتفظ لكل منها بملكية ما يقدمه . وقد سمح بتعدد الزوجات الذي درجت عليه دون شك بعض طبقات المجتمع المتنعة بالفنى التي تستطيع تحمل ما يجير ذلك من نفقات : فقد رزق رعمسيس الثاني مثلاً أكثر من مائة وستين ولدأ . ولعل مركزاً شرفياً مرموقاً اعطي لاحدى الزوجات التي نعجز عن تعيينها بالضبط . وبالإضافة الى هذه الزوجات الشرعيات اتيح للرجل ان يحتفظ لنفسه في منزله ببعض السراري . وعلى نقيض ذلك كان تعدد الأزواج محرماً على المرأة التي يؤدي بها زناها الى القتل حتى ولو لم يقبض عليها بالجرم المشهور . ولكننا نجمل ما اذا كان على الحاكم ان تتدخل دائماً في هذه الحالات .

اجل ان في الادب الخيالي الكثير الكثير من الروايات التي تلعب فيها المرأة دوراً شديداً البعد عن الفضيلة ، وهي إما لواذع اصطلاحية واما انتقام الحقيقة والواقع من تشريع ظالم اعرج . ولتعترف هنا ايضاً بملئنا المطبق ، لا سيما ونحن نرى بازاء هذه الروايات ، التماثيل العديدة لزوجين جالسين او واقفين جنباً الى جنب وقد تشابكت ايديهما او القيت يد المرأة منها على كنف الزوج ، مما يدل على ان الموت نفسه لا يفصل بينها . غير ان للفن ، وللفن المدفني بنوع خاص ، ما للادب نفسه من مصطلحات .

ويجد بنا هنا ، دون رغبة منا في التعمع والشمول ، ان نلفت الانتباه الى الدور السياسي الذي لعبته في بعض الظروف نساء معينة من السلالة المالكة اشهرهن على الاطلاق الملكة حتشبسوت في اواسط الالف الثاني . وكذلك ، في القرن الثامن قبل الميلاد ، خلفت بعض « عابدات امون » ، في السلطة الروحية والزمنية على السواء ، رؤساء كهنة امون الذين لم يتح لزوجاتهم معهم ، لاجيال واجيال ، ان يحتلان مركزاً يذكر . فيمكن القول ، على وجه التأكيد ، ان مصر القديمة لم تنظر ، مبدئياً ، الى المرأة نظرتها الى كائن ادنى ، ولعل عزوفها اللسي عن الامور العسكرية وعدم اهتمامها بها يفسر لنا خير تفسير هذه الغرابة الخاصة .

الولد والاحصائيات البشرية نحن نجهد كل شيء عن التشريع في موضوع الاولاد ولكن الاخلاق تترامى لنا بشيء من الوضوح . وجب ان يكون للمصري ابن يؤمن له الدفن بعد موته وفقاً للطقوس واعراف الجنائز ، إذ يجب ان تدوم الاسرة جيلاً بعد جيل . لذلك يتحتم على الابن ، اذا ما بلغ سن الرجولة ، ان يقوم بدور رب الاسرة حيال امه الائمة وشقيقاته . غير ان ولادة الذكر التي من شأنها ان تؤمن الاعقاب لم تؤد يوماً الى التضحية بمن يولد بعده من اخوة او اخوات . وقد لاحظ الغريق بعض الدهشة ان

المصريين برضون « بترية » جميع الاولاد . وفهم من ذلك ان المصريين لم يدرجوا شات الاغريق ، على « عرض » المولودين حديثاً ، اي على امهاتهم وتحركهم يستهلون بين بقاياات الحياة المادية .

وبالفعل فان العطف على الولد كولد صفة من احب صفات الحضارة المصرية ومن اكثرها ندرة في الحضارات القديمة . فهل هو دمية من نوع الحيوان المنزلي الصغير يطفح بحياة فطرية نظيرة ، ام انسان المستقبل ، اي وعد يجب مساعدته على التحيز في تفتح وجوده . ان الافتراض الاول اقرب للصواب لان الفرد لم يكن له كبير شأن او قيمة . ولكن لا نتوقف عند هذه التفاصيل والفروقات الدقيقة . فيكفي ان نعرف ان الفن المصري كثيراً ما طرقت موضوع الولد بحيويته والعباءة وعطفه والعطف عليه . ويكفي كذلك ان نعلم ان النصوص كثيراً ما تصف مسرات الطفولة وتعتبر احياناً بقوة مؤثرة جداً عن الاقراح التي تسي الوالدين عناهم ومشقتهم .

كان من شأن خصب البلاد ان يزيل شبح القسوة النظفة التي فرضتها فرضاً ، في غير مكان ، طبيعة اقل سخاءً . ومن المؤكد ايضاً ، بالرغم من غزارة المياه وعذوبتها ، ان الوفيات بلغت نسبة مرتفعة . ومع هذا فلا شك ان المعنيين بامر الاحصائيات البشرية قد قدروا احياناً حرجة الموقف وواجهوا بعض المضلات الاقتصادية : فمها بلغت ارض النيل من خصب مغدً ، لم يكن بمكنتها ان تتسع لهذا التكاثر البشري المتزايد . كانت الادارة في وضع يمكنها من استدراك الخطر ، إذ ان القانون يقضي ، ولو نظرياً ، بالتحريم عن كل ولادة هي لها بمثابة قم جديد لا يجوز لها ان تدعه يوماً يصرخ من الجوع . لذلك كلما استعادت السلطة الملكية قوتها وشعرت بواجباتها وقضت على خطر الفوضى ، اخذت على نفسها اعمال تصريف المياه والتي رغبة منها في استخلاص اراض زراعية جديدة من المستنقعات والرمول . لذلك فان كل عهد ازدهار وعظمة من عهود مصر القديمة قد تجلّى بتوسيع رقعة زراعة القمح في الفيوم على حساب بحيرة ميرييس ، وهي هبطة طبيعية فسيحة الارحاء ، الى الجنوب الغربي من الدلتا ، قنتها اليها مياه فيضان النهر . اما في عهود الاخطاط فتغير الرمول على المنطقة نفسها وتكلسحها النباتات المائية . ولذلك فان رسماً بيانياً لمستويات البحيرة وشواطئها المختلفة في العهود المتعاقبة - فيما لو امكن وضعه - يصوّر التطور المتوازي في نظام الملكة وازدهارها وسكانها ، لان هذه الظواهر تعود ، في زمن واحد ، الى مجموعة متسجمة واحدة .

لما كان الصالح العام يستتبع سلطة ادارية مطلقة مثالية ، اصبح من المحتم ان تنجح الادارة ، رغبة في تبسيط مهمتها ، الى تقسيم المجتمع ، المنتظم رتباً وقرقاً ، الى طبقات وراثية تؤلف الاسرة لها إطاراً طبيعياً . فإذا ما توقفت الى ذلك ، وجدت معضلة الاستفادة من الكفاءات ، وهي مستعصية بفعل

الانجاء المحتم
الى الطبقات الوراثية

تجددها المتواصل ، حلا يكاد يكون آليا . وهكذا يتم تلقائيا تأمين ملء الفراغ في الحرف والمهن ولا يبقى سوى ايجاد العمل لمن هم أصغر سنا .

ولكن هذه الزعة لم تقض قط الى جود شامل . فهي ، بدلها هذا ، وبفعل تجارها ومنطق النظام الضمني ، قد ادت الى نتائج عميلة ، فنحن نرى ، في مراحل تاريخ مصر القديمة المختلفة ، امثلة اجتماعية شبه ثابتة تسيطر عليها الوراثة سيطرة تامة . كان الأب ، بفعل القرينة ، يكتيف الابن على صورته ويظلمه على اوليات معرفته وقنه بأشراكه في عمله وينقل اليه بسهولة المهنة المدونة باسمه في السجلات الملكية كما لو كان ينقل اليه ملكا عائليا خاصا . واذا ما اتفق ، من جهة ثانية ، ان لمس فيها بعض الفائدة ، كان من السهل عليه ، بموافقة الادارة ، ان يؤجرها او يبيعها . ولكننا نعتقد بأنه ما كان ليقدم على ذلك اذا تيسر له ان يحل محله فيها احد ابنائه . أو أنسابه . وهذا ما يفسر ، في جميع العهود ، رسوخ وركانة المجتمع المصري . واذا أغفلت المصادر في غالبيتها ذكر هذه الوراثة المفترضة والمقدرة ، فان الكتابات المدفنية والتي تشهد بفخار وكبرياء على انتساب الميت الاجتماعي ، لا تترك ابي مجال للشك حيال هذا الموضوع .

ويجب لفت النظر الى اننا نستخلص وجود بعض هذه الامثلة الاجتماعية استخلاصا فقط . قائلين ان مثل وشكان المدن على العموم يكتنفهم الغموض الشامل لأن المدن ، ولا سيما مدن الدلتا العديدة التي كانت تجيش بمجركة تجارية ناشطة ، امنع من ان يدركها البحث والاستقواء بعد ان غاصت ، منذ عشرات القرون ، تحت طبقات الاحمال الرسوبية المترامية ، ويصح القول نفسه عن المقابر التي قد يسفر التنقيب فيها ، فيا لو امكن التنقيب ، عن الكثير من النقوش والرسوم والكتابات الكاشفة . ومن المدهش ان الأدب المصري لم يتعرض قط عمليا لأمور سكان المدن ، ولعل مرد ذلك الى ان الادب يتوجه اساسا الى العظام المقيمين في اقطاعاتهم المتميزين باحتقار هؤلاء السكان وجعل كل شيء عنهم ، لا سيما وان نفوذهم الاجتماعي كان يقف عند مداخل المدن .

لذلك كان علينا ان نقصر الكلام على عدد من الامثلة النموذجية التي
الامثلة الاجتماعية : الفلاح
حيثها الفناون والكتاب المصريون نهائيا بالرغم مما فيها من
صفة اصطلاحية .

اما المثال الواجب رسمه قبل غيره ، بسبب ديمومته وشموه ، فهو الفلاح ، المشناس الاول للمصري والسواد الاعظم من المصريين في كل جيل . فهو فلاح قبيل أي شيء آخر ، بالرغم من توليه اعمالا اخرى مختلفة في بعض الظروف : تمهيد الاراضي ونقل الاحمال على ظهره او الاشتراك بجر الثقل منها في صفوف طويلة من امثاله . يتوقف انتزاع المحاصيل المغذية من التربة السوداء وحياء مصر نفسها وبهاء حضارتها على عمله خلال الفصول المتعاقبة ، وفاقا لفيضان النهر وانخفاضه .

ولكي تمثل حالة الفلاح ، هون علينا ان نرسم وجهي لوحة مزدوجة تتباين منها الظلال والانوار ، فالمصادر المصرية ، ولو تعاصرت ، تدعو الى ذلك .

كان فدادياً في الامبراطورية القديمة ، وما زال فدادياً ، علمياً ، حتى اذا بدا حراً فياً بعد ، من الوجهة القانونية ، لأنه اليد العاملة الضرورية التي لا يبقى للأرض قيمة بدونها . فهو مرتبط « بمقول الفرعون » والمبد - وقد شملت مصر بكاملها في بعض الاحيان - او ان عمله يعطى وبيع مع الاملاك التي لا يستطيع ان يهرب منها . اجل انه يملك بيتاً شيدته يدها من لبن وعوارض خشبية حين اقدم على الزواج ، كما يملك حديقة وبعض الطيور الداجنة . ولكن الارض الصغيرة المؤلفة من بيته وداره وحديقته لم تكن سوى هبة الغاية الميَّنة منها احكام ابقائه في الارض التي يعمل فيها تحت سلطة المتولي عليها . وقد يكون الملك ، في بعض العهود ، قد آثر اعتباره مزارعاً يستثمر على هواه حقلاً يعادل حقل جاره من حيث المساحة ، ولا شك في ان ذلك استتبع تأجيره بعض الحيوانات وبعض الادوات الزراعية . ولكن قسمته المادية لم تتغير قط ، موجهاً كان عمله ام حراً . فهو لا يزال يزرع تحت كاهل السخرة التي لا يبدل عنها لاعمال السدود والاقنية . ولا يزال الحق بمصادره قائماً لصالح الادارة المدنية او العسكرية . كما لا يزال سيده يقطع حصصه دون هواده ، إما مباشرة ، إما عن طريق اقتسام المحاصيل او بدلات الاستئجار او الضرائب . وتميل النصوص الى التشديد على تجاوزات الموظفين في سلطتهم وصلحايتهم . وأشهر هذه النصوص « هجاء المهن » الذي يعود ما يصفه الى عهد الامبراطورية الوسطى . وبعد ان يعدد الاضرار التي انزلتها بالمحاصيل الحشرات الطفيلية والجردان والطيور والحيوانات البرية واللصوص ، نراه يفصل بقرينة تصويرية ضربات العصي يكيلها للفلاح مرافقو جابي الرسوم وضروب قسوانهم ومظالمهم : « حينئذ يضربونه مطروحاً على الارض ثم يوثقونه بالحبال ويلقون به في القناة فيغوص في الماء ورأسه الى اسفل ويحرك يديه على غير هدى . ثم توثق امرأته بالحبال امام ناظره ويكبَّل اولاده بالسلاسل . فيتخلى عنه جيرانه ... »

قبالة هذه اللوحة التي تثير الشفقة ، نستطيع ان نشير الى تهديدات الملك المتكررة للمأوريه والتحقيقات المشددة يأمر باجرائها والعقوبات ينزلها بالخالفين والعدل يزرعه بنفسه . ولكن هذه الاجراءات التي تستحيل ، منذ اواخر الالف الثالث ، مجرد مادة للتريد ، تفقد فعاليتها وثقة السكان بها . وللحصول على الوان اكثر نقاءً وجلاء يترب علينا ان ننظر الى رسوم جدران المدافن . فهي ايضا تصف بقرينة حادة افراح الحياة الريفية واعمالها على السواء وتستعيد امامنا الظلال الوارفة والياه العذبة وتعبير عن حرارة فرق العمل التي تقوم ، على الحان الزامير ، بالحصاد او بدوس الغنم . والى جانب الاشخاص ، كتابات تكرر كلامهم الرشيق والمرح الذي لا يعرف للراة معنى . الحصادون ينشدون : « عملنا هو ما نحب » . ثم يسطر على الجميع جيو من المزاح والمداعبة . وبعد الفراغ من العمل يستسلمون للراحة يجرعون . خلالها الجمعة فريحين بالعباب اولادهم امامهم . ويبدو كل منهم راضياً عن قسمته وسعيداً بان يلفت ،

بهارته واخلاصه انظار سيده الذي يوجّه نشاطاً ضرورياً لسعادة الجميع .

وإذا نحن خبيرنا ، تبدو اللوحة الاولى أقرب الى الحقيقة ، فهذه المدافن المزدانة بالمشاهد الريفية انما هي مدافن العظام المتعامين عن آلام خدامهم ، والاطار المثالي لهذه الكتابات الراقية انما هو حقوق العالم الثاني . وقد ذهب بعضهم الى وضع مثل هذه الأغنية على أفواه حاملي أسيادهم : « نؤثر الحمل الملائن على الحمل الفارغ » . ولكن « هجاء المهن » من جهته يدعو الى الانتفاض . وكان من شأن هذا الشقاء ان يفضي طبيعياً الى الثورات ، غير ان هذه الثورات لم تتميز مرة واحدة بالشمول ، كما ان حوادث الحرب نفسها لم تتكرر الا نادراً . وهل هناك من خيار بالمعنى الصحيح ؟ فليس يمكنه الفلاح ان يلس شقاءه الا بمقارنة قسمته بقسمة غيره من الفلاحين التي لا يعلم عنها شيئاً . الالهة أنفسهم هم الذين وضعوا النظام الذي رزح الفلاح تحت وطأة المادية ، وهذا النظام في نظره لا يس . لا شك في انه حاول المطالبة بحقه في هذه الدنيا ، ولكنه سيحصله على كل حال في الآخرة ، بينما سيلقى العقاب فيها ذلك الذي حرمه منه . وقد دفع به كل هذا الى السلبية والاستسلام ولم يبق له الا ان يستمتع بتلك الافراح العادية التي لا يمكن لأحد ان ينتزعها منه : أفراح الطبيعة الهادئة وأفراح حب الأسرة وأفراح الصداقات بين أمثاله . ونرى ، بعد كل هذا ، ان وجهي اللوحة المزدوجة يتكاملان دون تعارض بالرغم من تباين الألوان فيها ، وان تقاربها وحده هو الذي يحدد ويقرب الى الفهم ميزة من أخص مزايا مصر القديمة ومن أكثرها تأثيراً . فلم يتح قط لعظام هذا العالم ، في غير مكان ، ان يتصرفوا بهذا القدر العظيم من الادوات البشرية الناشطة المطوعة والهائلة والمتواضعة والمتجلدة . فليس ابعد ، في مصر القديمة ، من مفهوم الرجل الحر والشخص المجده الذي يتلقى مساعدة الجماعة لتكون له هويته ، لا لينصر في الجماهير .

العامل يمكن ان نستخلص بوضوح كآف أمثلة اجتماعية اخرى .

يلف « هجاء المهن » وغيره من النصوص جميع العمال بما يئائل شقاء الفلاحين ولا تهمل الاحصاءات المؤثرة لا مهنة صغيرة ولا حرفة يدوية : الحلاق يستدرج الزبن في الأزقة والحداد يلتزم « فوهة الكور » وينشر الروائح الكريهة « اكثر من بيوض السمك » والحكاك الذي « حقله الحشب » و « معوله الأزميل » والنحات والملاح والحائك والحزاز وغيرهم ينهكهم عمل سواعدهم ويتضورون جوعاً او يكادون يتسولون .

ان اصحاب الحرف ، في الواقع ، اكثر تميزاً من الفلاحين . اما اولئك الذين يمارسون مهن الساحات العامة فيختلطون بعامة الشعب ، والذين يحكم عليهم بالاشغال الشاقة تستثمر عقوباتهم اقطع استثمار .

لا شك في ان العمال المرتبطين باشغال المعابد والملك قد لاقوا معاملة اقل سوءاً ، فهم يقصدون انجازن الطائفة بالمواد ويتسولون منها اجورهم في مواعيد منتظمة ، مأكلاً وملبساً . ولعلمهم ،

بالإضافة الى ذلك ، انتظموا جماعات متجانسة واستخدموا ما لديهم من وسائل للضغط على اصحاب الاعمال . ولدينا امثلة متأخرة عن تهديدات بالاضراب ساعدتهم على الفوز بمطالبهم . ومثل هذه الحوادث مما يثير الشك حول النشاط الذي تعزوه الرسوم اليهم لا سيما في اعمالهم الزراعية .

وكان بودنا ان نعرف الى قسمة اولئك العمال الاختصاصيين التمييزين الذين جمعوا رصيذاً مدهشاً من التقنية فاحلّوا منتوجاتهم في مصاف المصنوعات الفنية الرقيقة . فهل حظوا بالتقدير الذي هم جديرون به ؟ وهل نعموا بتكريم المجتمع لهم او هل كوفئوا مادياً مقابل مهجة الجمال يوزعونها ذات اليمين وذات اليسار ومقابلس الخلود يؤمنونه للمقتدرين من زبنهم ؟ من المغالاة والتهور نفي ذلك اطلاقاً لان بعضهم بلغ الثروة والجاه بفضل براعتهم . وقد بلغنا اسم الصانع نفسه في بعض الاحيان النادرة النادرة . ويبدو ان عهد امنوفيس الرابع - اخناتون قد تجاوز كل عهد غيره في رفع المستوى الاجتماعي لاسيما للتقنيين . ولكنه عهد قصير الامد اذا ما قيس بالتاريخ المصري المتطاوّل في الزمن . وفي اكثر الاحيان لا تحوّل كفاءات الفنان النادرة ونجاحاته الباهرة دون عمره ، كماصل يدوي عادي ، في جماعات الشعب المجهولة . ولكن حضارات قديمة كثيرة قد ارتكبت في هذا المجال ، قروناً طويلة ، الاخطاء نفسها التي ارتكبتها الحضارة المصرية .

كان اسهل على الجندي ان يبلغ الشهرة . فكثيرة هي الظروف في ساحات الوغى الجندي التي تتيح للفرد ان يفرض بطولته فرضاً . ولكننا لا نستطيع التأكيد مع ذلك ان بمكنة محارب الرتب السفلى في مصر ان يتعالى ويبلغ المراتب التي توليه النفوذ وتحوله حق القيادة . وهنالك نصوص تثبت تدرج بعض العسكريين المبرزين في سلك الجندي ، غير ان واحداً منهم لم ينطلق من الرتبة الدنيا بل هو ينحدر اساساً من اسرة تحتمل مكانة اجتماعية مرموقة وينتقل يافماً الى المدارس الحربية التي تجنّبه ، منذ دخوله اليها ، الاختلاطات المحطّة من شأنه . اما الانطلاق من رتبة الجنود العاديين ، وهو دليل الانحدار الوضيع ، فيكاد يحتم الغمر والاغفال .

وقد سبق ورأينا ان الروح العسكرية لم تنتشر قط بين افراد طبقات الشعب الدنيا لان مزاجهم السلبي لا يصلح ان يكون حقلًا خصباً لاستنارتها فيهم لاسيما وان الانظمة الدينية والادارية السائدة قد شجعت فيهم هذه السلبية وغنتها . ولم تشذ عن هذه القاعدة ، في بعض العهود القصيرة ، سوى امثلة نادرة لا يجوز ان نغالي في اهميتها ونشمل بها المجتمع كله . ويبدو ان الفلاح لم يبرهن ، في خدمته العسكرية ، عن اهلية تذكر إذ ان مثال الجندي ، عند الفرانجة ، اي ذلك الضابط الذي تأتي الوثائق المديدة على ذكر اجماده ، لم يكن مصرياً بسلاً غريباً ومأجوراً .

لم يعجب الرأي العام بهذا الجندي بل شعر نحوه بالخوف والازدراء . ولم يكن ابن الشعب يرى نفسه فيه لا سياً وان الجهود لم تبذل لايجاد هذا التقارب بينها . ولم يعرف الجيش ، على ما نعلم ، اي تخالط اذ كانت وحداته متجانسة من حيث قوميات افرادها . اما اذا حصل التخالط ، خارج الجيش ، فيكون ذلك نتيجة غير مباشرة لاسلوب تمتش عليه الادارة تأميناً لدوام خدمات هؤلاء الغرباء بمؤولها دون المطامع التي تثيرها ثروة البلاد .

فكان الملك يعرى المرتزقة باقطاع كل منهم ارضاً ، فيعنى بزراعتها واستثمارها تأميناً لحاجاته وحاجات عائلته . وقد افضى ذلك ، في عهد البطالسة الى « مستعمرات المهاجرين » . وفي عهد سلالات سايس ، بلغ عدد الجنود ، على ذمة هيرودوتس ، ٣١٠٠٠٠ وقد اقطع كل منهم ثلاثة هكتارات وربيع الهكتار في الدلتا ، وحق لمن انخرط منهم في الحرس الملكي ان يتسلم حصصاً غذائية سخية . فليس من المعقول ان يبيع كل هؤلاء من الخارج . وليس من المعقول خصوصاً ، ألا يكونوا من اصل مصري ، شريطة ان تعود جيلاً او احياناً الى الوراثة .

فاذا كان الملك يحتفظ مبدئياً بحق تلك هذه الاراضي ، واذا كان من حق ادارته بالتالي ان تبقي فيها عائلات الجنود ، ما دام هؤلاء صالحين للخدمة العسكرية فقط ، اصبح من السهل رسوخ قدم الوراثة التي كانت تؤمن مصالح الطرفين . فاذا خلف الابن أباه كجندي ومزارع ، احتفظت العائلة بقطعة الارض وأمن الجيش بديلاً عن رجل أصيب بمرض او تجاوز سن الخدمة . وهكذا فالصري الذي يقم نهائياً في مصر يصبح بعد حين اصلاً لفروع كثيرة ويتمصر احفاده رويداً رويداً فيستحيل ، بعد ذلك ، التمييز بينهم وبين المصريين الاصليين المنخرطين في الجندي الحاضنين لنظام مماثل . وتتنظم مع الزمن طبقة « المحاربين » الوراثة التي ألمح اليها كنية الأغرقي . ولكن يرجح ، قبل العهد الذي تصح فيه شهادة هؤلاء ، ان الجنود اقطعوا الاراضي منذ السلالة الثالثة عشرة وان المرتزقة تضخم عددهم منذ اواخر عهد السلالة الثامنة عشرة .

ولا حاجة بنا لأمثلة اكدية حتى تتصور نتيجة هذا النظام المحتومة . فوراثة الاراضي المقطعة لم تكن سوى مرحلة من مراحل التطور ويكفي ان تخفف وطأة المراقبة الادارية حتى يستحيل استثمار الاراضي ملكية فعلية قابلة للنقل بالهبة او بالبيع ، كما يطيب للمالك ، وتزول مع الزمن فريضة الخدمة العسكرية التي كانت في الاصل الشرط الاساسي لاقطاع الارض . وتتحم بالتالي العودة الى البدء كلاً مستحاجة الملك الى المحاربين الجدد . ان المصادر المتوفرة لدينا ليست من الوضوح والكمال بحيث نستطيع معها الجزم بان مصر قد قطعت هذه الدورة بكاملها ولكن منطلق الحوادث يبيح ذلك .

من الثابت ان طبقات الشعب المصري الميسورة لم تقدم للفراغة جميع ضباط الجيش والاسطول ، لا سيما في جميع العهود ، لان المرتزقة قد احتفظوا احياناً

برؤسائهم الأجانب ، مما عرض البلاد في بعض الفترات للقلقل والاضغاثبات . ولكن الضباط قد جاؤوا ، دائماً تقريباً ، وباعداد كافية ، من أسر هي في خدمة الجيش او الادارة الراهنة . كثيرة هي الكتابات المدفنية التي تشير باطراء دائم الى المآثر العسكرية واعمال البطولة والتضحيات ، ولم ان توزعها في الزمن ليس متساوياً لأن السلطنة لم تهتم على الدوام للشؤون العسكرية . ولم يكن مثل مثال الضباط في المجتمع المصري الا في عهد الامبراطورية الحديثة بنوع خاص وهي التي تولت تحرير البلاد اولاً ونهضت بالفتوحات في آسيا ثانياً . وقد استقر هذا المثال في الازمان بعد هذا التاريخ بسبب الحاجة الدائمة الى الدفاع عن مصر وصد الغزوات عنها

ويشدد « هجاه المنه » على ما يلزم مهنة الضباط من مشقة . في المدرسة الحربية ، وفي المراتب الدنيا نفسها ، لجأ الرؤساء الحازمون الى العصا لتلقين الشاب خفة الحركة والاتباه . يضاف الى ذلك عناء الأسفار الطويلة القسرية في المناطق الريفية ، والأمات تعرض العربات ، والجروح ، وغير ذلك مما هو أدهى . ولكن هذا النص يغير وجه الحقيقة هنا شأنه في تغيير وجه حقيقة من اخرى كثيرة ، لا بل يفضي عما فيها من تشويق ، أعني بذلك المكافآت الفخرية وغيرها ، وهبات الفرعون ، وتقاسم الغنائم المادية والبشرية ، والأوسمة عقوداً وأساور ، والتدرج السريع ، وخصوصاً التعمين في الوظائف المدنية ، او الحصول على الاقطاعات المحترمة ، عند بلوغ السن او الاصابة بعاهة ، وكلها تثير في النفس الرغبة والشهوة . وتعطينا الكتابات أمثلة لا تحصى على صحة ما تقدم . اجل لن يجسر ابي مستاء على ان ينسب لسيدته نكران الجميل ، ضمناً ، بالكلام عن عوزه في شيخوخته . ولكن الوقائع هي الوقائع . ولن يحظى الملك بخدمة مخلصه الا اذا اعترف بمجمل خدماته المخلصين . وبين لنا مثل حورمحيب ان اقرب الناس الى الملوك واكثرهم حظاً وشجاعة كانوا يحملون أحياناً بلزيم من السمو والارتفاع .

يبقى أخيراً اولئك الذين نعموا بثقافة ارفع . درجت العادة ان تبدأ الدروس منذ الحامس عهد الطفولة في المدارس الملحقة بالبلاط او بالمعابد حيث تحتل مادة الخط المركز الاول . ثم تتفرع بنية تلقين الطلاب المعارف الخاصة بالمهنة التي يعدد الوالد ابنه لها ، وهي غالباً تلك التي اختارها لنفسه بين اثنتين : الكهنوت او الادارة .

ونتيجة لانهاكهم في نشاطات المعابد الدينية والزمنية على السواء ، كرس كثير من المصريين والمصريات نفوسهم لخدمة الآلهة . ولكن في هذا الجمع الغفير علمانيين عديدين بما فيهم فئات عامة الشعب المختلفة : الفلاحون مستثمرو « الارض المقدسة » ، وعمال المصانع الاختصاصيون والعاثون على انواعهم ، حتى والراقصات والمغنيات والموسيقيين . ولم يخل ذلك دون تضخم عدد الكهنة انفسهم الذين توزعوا فئات كثيرة تحتلف القابها وانظمتها ، وربما اعمالها ، باختلاف المعابد . وتعيين هذه المهام منوط مبدئياً بالاله ابي الملوك ، ولكن المهام نفسها غالباً ما تصبح ،

مع الآيام ، ملكاً للفائزين بها . وقد حدث ، في عهد الانحطاط على الاقل ، ان تقسمت هذه المهام حصصاً زمنية ، غاية في القصر - اجزاء من اليوم - واصبحت موضوع تجارة وبيع وشراء .

وقد يصح الكلام عن كهنوت نسائي قوامه « سراري الآلهة » أو « المعتزلات » . ولكننا نجمل كل شيء عن تربيتهن ودورهن في العبادة . ومع ذلك يمكن التأكيد انهن كن ينتخبن ، للمراكز العليا على الاقل ، في صفوف المجتمع الراقي ، بل في البلاط نفسه احياناً . وكانت الملكة مبدئياً ، منذ الامبراطورية الحديثة ، رئيسة الكهنوت النسائي المكرس لخدمة معبد الآلهة امون في الكرنك وتلقب « باليد الالهية » و « عروس الاله » او « عابته » . وكانت تقوم مقامها عملياً تلك التي يمكن تسميتها رئيسة الكاهنات .

ويصح القول نفسه عن درجات الكهنة الذكور التي رأسها في القصة « النبي الاول » و « اعظم الانبياء » ، وبكلمة ، رئيس الكهنة ، الذي عرف بغير ذلك من الالقاب . وكان في كل معبد رئيس كهنة يقوم مقام الملك الذي يعينه لهذه المهمة . وقد احتل بعض رؤساء الكهنة مكانة ضخمة واسعة بفضل ما للاله الذين يدبرون شؤون معبده من نفوذ وتأييد وثروة طائلة . وبما لا شك فيه طبعاً ان واحداً منهم لم يتقدم على رئيس كهنة امون في الكرنك الذي افضى ضفء بعض الملوك الى رفعه الى مرتبة « مدير الانبياء في مصر العليا والسفلى » اي الى مرتبة رئيس الكهنوت الوطني الاعلى . والملكية ، كما سبق ورأينا ، تعرضت لخطر الاغتصابات على يد رجال الدين ولم تقلح دائماً في صدّه وابعاده .

وكثيراً ما وقع الخيار على رئيس الكهنة من خارج الدرجات الكهنوتية ، ولكنه اشرف مباشرة على سلسلة كاملة من « القراء » و « الاطهار » و « الآباء الالهيين » و « الانبياء » . وكان باستطاعة هؤلاء الكهنة ، المنتظمين فئات متميزة ، ان ينتقلوا من مرتبة الى اخرى ، غير ان تدرجهم يخضع لعوامل متعددة اهمها التعلق للبلاط وصلة القرى بدوي المناصب الرفيعة . واليك مثلاً عن نجاح كهنوتي باهر احرزهم اقدم في عهد رمسيس الثاني : دخل احد ابناء « نبي امون الثاني » المدرسة في سن الخامسة ، اصبح « طاهراً » في السابعة عشرة ، و « اباً الهياً » في الحادية والعشرين ، و « نبياً ثالثاً » في الثالثة والثلاثين ، و « نبياً ثانياً » في الثامنة والأربعين ، و « نبياً اولاً » في الستين حتى يماته في السادسة والثمانين . وهذا مثل آخر يعود الى عهد متأخر : احد رؤساء كهنة امون يعلن باعتزاز وكبرياء ان ابنه البكر « نبي ثان » في معبده وحفيده « اب الهي » ، ان لم يكن « نبياً رابعاً » ، بينا يرتبط ابنه الثاني بمعبد آخر .

هذه ، ولا ريب ، نجاحات وأسرع غير عادية زادت انجاسها في القوة الادبية والمادية التي نعم بها كهنوت هو ادارة في آن واحد . فشكل هذا الكهنوت طبقة اجتماعية شديدة طبقة الموظفين المدنيين . ولم يختلف الكاهن عملياً عن الكاتب . فهو يفتنى في الاوساط الاجتماعية نفسها ويربى التربية المدرسية عينها . وهو مدين ، في قوته ، الى مثل أعلى واحد هو التنظيم القميّ بان يؤمن

للشعب السعادة التي يهبها الآلهة بسخاء للدلالة عن رضاهم ، وهو أخيراً يبيح برغبة واحدة في اعتبار الوظيفة التي يشغلها ملكاً خاصاً لا خدمة عامة .

الكتاب فصل ، مع الكاتب ، الى مثال سيد مصر الفرعونية الحقيقي بكل نقائه وجلائه . ولا يشدد « هجاء المهن » ، بتلك المرارة ، على آلام المهن الأخرى وإخطارها ، إلا ليرى ما تنطوي عليه مهنة الموظف من قوة اغراء واجتذاب . وليس الشخص نفسه ، الذي يرسم هذه الصور السوداء ، إلا موظفاً صغيراً يحض ابنه على الاجتهاد ، وهو يقوده الى مدرسة البلاط ، منبت موظفي الادارة . وهناك نصوص كثيرة تعرب عن هذا التوق نفسه بإعجاب البسطاء دون ان تم عن حسد او تململ . وتجمع هذه النصوص على القول بقيام حالة راهنة يجب الاعتراف بحقيقة واقمها : « فالكتاب هو الأمر » كما جاء في كثير من هذه الكتابات .

تحمر الكاتب من السخرة التي اخذ يفرضها على غيره وابتعد عنه شبح التعب الجسدي وضم مؤونته من بيت الملك . فتوقف مجاحه على ذكائه وحميته دون غيرها . وكان من الطبيعي ، في مثل هذه الظروف ، ان يعمل الامس في السعادة المرجوة ، كلاً من الطالب والمبتدئ ، على الاعتماد ، في عمر الطيش ، عن ملذات الرقص التافهة وعن المسكرات والمنكرات ، وعلى كشف اسرار الحط والحساب والادارة ومناصفة اترابه في الدرس والاجتهاد .

ويصور هذا المثال احسن تصوير ، منذ الاسرة الحامسة في اواسط الالف الثالث ، تمثال « الكاتب المقرص » الذي يعبر عن حدة محسوسة في الانتباه عند قدوة الموظفين .

وإذا ما حالف الجدارة حسن الطالع ، يرتقي هذا الموظف الوضيع في الدرجات الكهنوتية الى ان يبلغ أكثر المناصب ابتغاءً ، بفعل الجاه الذي تؤمنه ، وافرغها عطاء سخياً ، بما تستتبعه من مرتبات وهبات . وان لم يتيسر له ذلك ، يرافقه دائماً ، حتى في الدرجات الدنيا ، شعور أخذ باشتراكه الشخصي في سلطة لاحد لها ويتساميه على الجماهير بمرآته الشاملة لاعمالها . وهو مبدئياً يتلقى التوجيهات حتى يوجهها للغير ، ولكن الملك ، عملياً ، ابتعد من ان يرضن عليه بالثقة . واضعف احياناً من ان يعاقبه على تجاوزاته .

وكثيراً ما يتاح للكاتب المنتمي الى هذه الدولة الالهية ، بفضل وراثة الوظائف وفقدان فعالية آلة الحكم المعقدة ، ان يستفيد منها استفادة مباشرة كبرى ، حالماً يراخى ، في القعة ، ذلك الحزم الذي تبقى المبادئ الاخلاقية يدونه حرفاً ميتاً .

وبذلك تكون الحضارة المصرية قد شيدت لمجد الآلهة الاعظم ولمجد الفرعون ابنهم ورضيعهم وخليفتهم ، معتمدة مادياً على مجهود الطبقات الكادحة التي أرهقتها بالواجبات ، ومستهلكة المزيد من الثروات بالرغم من سخاء الطبيعة في عطاياها المتكرر . ولكن انانية الانسان الفطرية قد سخرت منها الارضيات لصالح اولئك الذين عملوا تحت ستار تلك القوى الالهية وباسمها ، اعني عظماء مصر الحقيقيين : الكهنوت والادارة ، الكاهن والموظف .

الفصل الثالث

المظاهر الدينية

ليست الحضارة المصرية مدينة الا بجزء من عظمتها لقوة الالتحام والمنطق — من الوجهة المثالية على الاقل — في نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . فقد تجلّت قوتها الخلاقة ، بكثير من التأثير ايضاً ، في نطاقات بشرية اخرى .

ترتب علينا اكثر من مرة ، فيما سبق ، التنويه بقوة الفكرة الدينية في مصر القديمة . وكان هيرودوتس يعتبر المصريين « اكثر الناس دقة في التدنن » قاصداً بذلك حرصهم الشديد ، حتى في العادي من اعمالهم ، على العمل بموجبيات دستور العادات والمهرّمات الذي سنته تقوأم المازمة . وهذا الاثبات يحتفظ بقوته حتى ولو رفعناه الى مستوى أعلى . ففي الديانة وحندها ما يبرر نظرياً تنظيم البلاد العام . وبما ان البلاد ملك للآلهة ، فهي تعيش لاجلهم وفاقاً للباديء التي وضعوها والاورام التي تصدر عنهم يومياً .

١ - الآلهة

عدد هؤلاء الآلهة مرتفع جداً ولا حد لتتوع طبيعتهم . التعدد الاساسي وبمجم الضرورة ، سعى اللاهوتيون في نظرياتهم ، اكثر من مرة ، لادخال نظام ما على هذه الكثرة التي يكاد لا يحصرها عد . وحدث ، لاسيا لاسباب سياسية ، ان قاربوا التوحيد ان لم يتوصلوا اليه بالفعل احياناً . وقد حصل ذلك ، في حال حصوله ، مكرراً وخذاعاً باخضاع الآلهة الاخرين لآله جعل هذه الغاية أعلى منهم شأنًا وسلطاناً . ولكن هذه الطرائق لم تلق قط ترحيباً يذكر حتى ولو كانت السلطات عوناً لها ولم تجرز إلا نجاحاً محدوداً في المجتمع والمكان والزمان على السواء . فمن الجلي ان تعدد الآلهة كان أمراً اساسياً ولم ترض غالبية المؤمنين عنه بديلاً .

هل كان هنالك ، على الاقل ، فكرة مشتركة وراء هذا التعدد ؟ هل كان هؤلاء الآلهة

يُساوون في الانحدار من مبدأ أعلى؟ يميل كثير من علماء مصر القديمة ، منذ ما يقرب الأربعمائة عاماً ، الى اثبات ذلك ويحاولون ان يستشهدوا ، لهذه الغاية بلفظة «كا» التي جاءت على ذكرها نصوص قديمة قدم الاهرام : «هوذا انت ، كا» جميع الآلهة ، تقودهم وتحكمهم وتحييهم . ولكن هذه النصوص النادرة والغامضة لا تتيح الأجماع على تحديد مدلولها والانتباه منه الى ما يفرنا في اكتشاف مدلول ذات الالهية . جوهر اساسي او سائل هبولى تنصب عناصره في الاغشية المختلفة ، او مجموع القوى الفائقة الطبيعية ، او مبدأ الحياة الكامن في الاطعمة ، او مبدأ التناسل ، او مجموع الصفات الطبيعية والادبية والعقلية التي تكون الشخص الكامل ، لا فرق كان هذا المجموع واحداً او متعدداً : هذا قليل من تحايد كثيرة قدمها بعضهم . وكل منها يستند الى حد بعيد إما الى النظريات العامة وإما الى الاستعارات السهلة ، ويصفي ذلك وحده لان تحوم حولها الشكوك .

ومهما يكن من الامر ، من جهة اخرى ، فما كان بلوغ هذا التجريد بممكن اللغوية محصورة العسد ، ولا يبدو ان هذه النخبة انهمكت ابدأ ودائماً في بناء مذهب منسجم ومعقول . ولو حاولت ذلك ، لاصطدمت بواقع ديني برز قبلها مستقلاً عنها مستصعباً على جهودها التنظيمية . ولو فتحت جدلاً الى مذهب مرض ، لقابله المصري بالامبالاة وعدم الاكتراث .

تمكس الديانة المصرية ، بوضوح لا مثيل له الا في الفن الذي ربطه بها الواقع والخيال
 صلة وثيقة ، بعض الخطوط الأساسية للسيكولوجية الجماعية . وقد رسمت في الفكرة الدينية
 بعض هذه الخطوط ، بوضوح متفاوت ، عند الشعوب الأخرى . ولكن
 لمصر خطوطها المميّزة .

ومن حيث ان الفكرة الدينية المصرية قد نشأت ، كما في غير مكان ، من المضلات التي واجهها البشر في علاقتهم بالعالم المحيط بهم الذي تستبد حياته بحياتهم ، فهي قد انبثقت بديهاً من المادة الجامدة ومن المحسوس ، مع بعض التفضيل للرمزيات . وهي لم تحد عن هذا قط ، مع انها غالباً ما تعدتها ، يستهويها في ذلك خيال حاد . ولم يتح لها هذا الخيال ان تسكب الحياة في الاشياء لنفسها فحسب ، بأن اعطتها قيمة ارفع من قيمة الرموز ، بل قادها الى اعتماد التآليف والجمع كي تخلق من معطيات الواقع كائنات جديدة لم يدخل في خلقها احد انها دون هذه المعطيات واقعية . ولم يلعب التجريد في كل هذا الا دوراً ثانوياً ، اذ كان يكفي ، لبلوغ الهدف ، بذل مجهود في تأويل الواقع المنظور والاستمرار في الاستفادة من معطياتها بحيث يدخل ، في نطاق الاشتبار العادي ، اغرب ما يتعرض له الانسان وبيئته المباشرة من أحداث وظواهر .

وفي سبيل عملية الخلق هذه ، وقسّ المصري بين صور مختلفة متناوئة ، لانه كان يؤمن بالحياة في الصور . وبما ان الصورة منقولة عن حقيقة في الحاضر او في الماضي ، فهي تضاعف وجود هذه الحقيقة ، أو تعيد الوجود اليها كل مرة يعاد رسمها ، او طالما هي في حيز الوجود .

وهي في البدء ترسم دون فصد ، ثم تتجسم وتغطي الحياة لنفسها . ولذلك فالخلاق الضرر بالصورة انما هو الخلاق الضرر بين لا وجود له بدونها . وكانت هناك طريقة اخرى للخلق ، في التسمية لفظاً او كتابة : بمقابلة إسمي " إلهين مثلاً كانت بمثابة جمعها في واحد وكان من شأنها ان تقضي الى النتيجة نفسها التي تقضي اليها صورة من ينتمي الى جنسين مختلفين . وتتصل هذه الطريقة بفكرة الكلمة الخالق التي اعتمدها اللاهوتيون في تفسير تكوين العالم تلبية لنداء الاله الخالق . كما تتصل ايضاً بفكرة السلطة التي تمنحها ، على الاشياء والكائنات الحية ، معرفة اسمائها الحقيقية ، وهي التي كثيراً ما لجأ السحرة اليها . ولكن هذه الطريقة ، على الاجمال ، لم تؤد الخدمات التي أدتها الصورة ؛ منبت الفن المصري الوحيد ، او الاول على الاقل .

وبفضل الواقع من جهة، والحيال من جهة اخرى ، توفر للفكرة الدينية امكانيات خيار تكاد لا تحصى . ولكن يبدو ان نزعة تفاعلية ، تلفت النظر يجدها ، قد وجهت هذا الخيار . لا شك في ان المصري كان محاطاً بقوى كثيرة تبدو له وكأنها تناصبه العداء ، او تهدده تهديداً فقط . وهو قد رآها بام العين وحاول تهديتها . ولكنه ، على ما يظهر ، لم يرض قط بأن ينظر الى وجهها الخيف ، فحصر في نطاق ضيق ، على تقيض الحضارات الاخرى ، الحول والنعر اللذين اثارتهما فيه . فتمثل آلهته آلهة خير ، وغضبهم غضباً سريع الزوال . ولم يستطع أبالسته قط من توفير نصرة الشر . ولم يحدث في أي بلد آخر ، ان ادرك الانسان معنى الموت بهذا الجلاء وهذه الطمأنينة ، ناظراً اليه نظرته الى باب الحياة الثانية الابدية . وهكذا فان الديانة المصرية قد سبقت الكثرات غيرها في املاء عرفان الجميل على اتباعها وفي حل الامل اليهم . ومن حيث هي علة ومعول في آن واحد ، فانها قد اندمجت بكثير من التآلف في مجموع حضارة لا سبيل لادراكها اذا نحن اغفلنا ، ولو دقيقة واحدة ، ما ينطوي عليه الشعب في القطرة من صبر جميل وانس لطيف ، والحضارة كما نلم تعبير جماعي عن هذا الشعب .

لما كانت اعراق الديانة المصرية ترتقي الى ماضٍ سحيق ، فانها قد حددت تشبه الآلهة بالانسان احتفظت على مر الايام بالظواهر البدائية ، وبرزها بلا ريب عبادة الحيوانات .

ونحن نجد ، قبل بدء الازمنة التاريخية وتوحيد البلاد ، « شارات » المناطق المصرية المميزة مرسومة على المراكب والابنية التي ترين الحزقيات . وهي عبارة عن صور حيوانات او نباتات او أدوات مثبتة في اعلى الاعمدة الخشبية . وباستطاعتنا ان نتصور بسهولة تأليه حيوان نافع او مرهوب ونبات خيتر كالبطم او النخيل . ولكن كيف نتصور تأليه المتارس والمحاطوف والنبال وما الى ذلك ؟ ولنفرض انها رموز واصنام ، او ان لها أي تفسير آخر ، فما لا ريب فيه ان هذه « الشارات » مدلولاً دينياً .

ظهر التشبيه او التجسيد ، قبل عهود السلالات الفرعونية . ولكنه لم يفلح قط في ان يفرض

نفسه كلياً ، ففي أوج الحضارة المصرية نفسه ، استازمت صورة الآله ، على العموم ، تفصيلاً أو صفة على الأقل يعيدان إلى الذهن الرسوم البدائية غير البشرية ، شريطة أن يكون أصل هذا الآلهة راسخاً في القدم ، وأن يكون متصلاً بالآلهة المحليين . والشذوذ عن قاعدة استمرار الماضي هذه نادر جداً . ولكن أكثر الرسوم انتشاراً هي تلك التي عريت من كل عنصر بشري أو تلك التي تمثل النفولات .

وفيما يلي مثل واضح يبين ، أكثر من أي تحديد ، تنوع الحلول المعتمدة وسرعة الانتقال من حل إلى آخر . بين الرموز البدائية قحف الثور الذي انتشر منفرداً في البدء . ثم أضيف إليه الزهر فقام هو مقام الهيكل المعدني للرهر . ثم أصبحت البقرة إلهة المنطقة التي انتشر فيها . وبين الآلهة التي تمثلت بهذا الحيوان ، لاقت حازور أوسع ترحيب حتى خارج إطار هذه المنطقة . فنتج عن ذلك أن حازور تمثلت دائماً بشكل امرأة لها أذن البقرة ، أو يعلو رأسها زوج قرون حينا ، وقحف الثور والزهر أحياناً .

وقلنا صادفت عبادة النباتات والجمادات انتشاراً وحيوية ، لأن الحركة اعوزتها والحركة دليل الحياة الأول . وعلى نقيض ذلك استمرت عبادة الحيوانات زمنياً طويلاً حتى ولو انصفت بالبروز أننا والانكماش أننا آخر . وفي عهود الاخطاط نفسها ، لم نمل إلى الهبوط ، بل بعثت حيويتها بكل قوة . ولا تفسير آخر للسكانة التي يحلها هيرودوتس فيها ، بعد رحلة إلى مصر في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد ، والتي تؤيدها جميع الكتابات القديمة اللاحقة . وكثيراً ما يشير الكتبة الأغريق واللاتين ، بدهشة واثمزاز ، إلى الأكرام يحاط به هذا أو ذلك من الحيوانات ، وعقوبة الموت أو الجزاء النقدي تفرض على من يخالف القانون ويستحل قتله ، والاحترام يؤدي إلى مثل الفصيلة الحيوانية الممتنى به في أحد المعابد وإلى جميع حيوانات هذه الفصيلة بعد الموت . وليس من النادر أيضاً أن يلفتوا النظر إلى أن حيواناً قد يكون مقدساً هنا وعدواً هناك . فالتمساح مثلاً يكرم في منطقتي طيبة وبحيرة ميرييس ويطارد ويقتل ويستهلك في منطقة الفيحة . ومن الجلي أن هذه التناقضات الظاهرة تلاقى تفسيرها في ما تتميز به حلياً هذه الحيوانات الالهية .

وقد أيد علم الآثار شهادات المعاصرين هذه . فقد اسفرت أعمال التنقيب عن مقابر كثيرة دفنت فيها وفاقاً للطقوس ، جثث عنخنة كثيرة لحيوانات معينة : الحررة والكلاب والحبارى والصقور والاسماك .. المنتمية لهذه الفصيلة أو لتلك الفصيلة الأخرى . ويبدو أن هذه الاعراف لم تنتشر إلا في عهد متأخر . غير أن عبادة الثور أبس في منف تمود إلى السلالة الأولى على أقل تحديد . وقد تم العثور على مدافن ثيران هذه الفصيلة العائدة إلى ما بين القرنين الرابع عشر والأول قبل الميلاد . ففي معبد سيرابيس الذي اكتشفه مارييت ، عثر على أربعة وعشرين مدفناً تتوزع في الزمن منذ رمسيس الثاني حتى العهد اليوناني . كان هذا الثور الأبلق يُنصَب وفاقاً لطقوس احتفالية ، ويعيش في معبده ، بإزاء « قفاح » الآله العظيم الذي هو « بشيره »

« صورته الحية » ، ويجيب ، باسم الاله ، على اسئلة المتعبدين ويتقبل التقادم ويشترك في التطوافات ، وعند موته ، يحفظ ويوضع في ناوس ويخضع لطقوس جنازية تستمر سبعة ايام ثم يودع سرباً صغيراً بازاء اسلافه . وبالرغم من ان عبادة ابيس كانت اشهر العبادات طراً ، فانها لم تكن الوحيدة من نوعها . فعبادة الكيش في منديس من اعمال الدلتا ليست دونها رسوخاً في القدم . ويتكلم قدماء الكتبة اينداً عن ثيرات منيفيس وپوتيس ، وقد ايدم علم الآثار في ذلك .

يتضح اذن ان التشبيه او التجسيد قد اصطدم بعقبات لم يقوَ على التغلب عليها وازالتها من دربه . غير ان المصريين قد درجوا باستمرار على ان ينسوا الالهة ما يتميز به الانسان من شهوة للأكل وعاطفة وذكاء وافكار ويكيفونهم على صورتهم أدبياً وروحياً ان لم يكن مادياً ايضاً . وباكراً جداً ، جمعوا سوادهم الاعظم أسراً على النحو البشري لاسيا المثلث الذي قوامه اب وام وابن .

والى هذه المثلثات من المعطيات البدائية . فالواقع الديني الالهة المليون ؛ تقدم وجمعهم المصري السحيق يتمثل بمدد لا يحصى من الالهة المليون الذين يُنظر اليهم كأساد منطقية معينة . ولم تقتصر سيادتهم على امكنة معابدهم فحسب ، وهذا يصح لجميع الالهة على السواء ، بل امتدت ايضاً ، اما منذ عهد تپالوت في القدم ، واما بنسبة حقهم في التملك الى مصدر غير الهبة الملئخية ، على الارض المجاورة للمعابد ، وعلى كل ما عليها من بشر وحيوانات واشياء . وتركت هذه التجزئة الاولى آثارها بالرغم من ضيق البقعة وانزاحها . وقد تقام عدة معابد لاله الواحد في رقعة محصورة الاتساع . ولكن ، في الواقع ، اطلق على كل معبد اسم خاص ، كما اتسح ايضاً لشخصية اله كل معبد ، ان تبرز ، من وراء هذه السمية السطحية ، بواسطة لقب او تسمية او زاوية معينة او صفة لا يصح نسبتها الاله . وكانت باستطاعة المؤمنين ، والحالة هذه ، ان ينوعوا تقوالم وفاقاً لتفضيلاتهم الشخصية او للعادة السائدة . وهم لم يبخلوا على انفسهم بذلك .

وقد توصل المصريون بمدد لأي الى تخفيض عدد الالهة المليون بطرائق مختلفة . فلبجأوا الى المائلة ، انطلاقاً من اوجه تشابه عرضية في غالب الاحيان . فالبقرة مثلاً لم تكن في الاصل ولم تبق قط الحيوان الرامز لحاتور دون غيرها ؛ ولكن حينما وجد اله ترمز اليه البقرة ، سهل على حاتور ان تحمل محله . ولجأوا الى التركيب والضم ايضاً فجمعوا المميزات والصفات والرموز المتعارفة او الواحدة . وقد اصححت هذه الطريقة واسعة الانتشار واعتُمدت لكل الالهة على السواء . ولجأوا اخيراً الى توزيعهم مثلثات قد تختلف المناطق على تصنيفها او على تعيين الاله الرئيسي فيها ، وهكذا يرجع ان حاتور قد اشتركت احياناً في بعض المثلثات كأم هوروس ، ويقودنا الى هذا الاعتقاد اسمها نفسه الذي يعني « مسكن هوروس » . ولكنها اعتبرت زوجة

له على الاجمال ، متوارية امامه ، في ادفو ، جنوبي طيبة ، في المقاطعة الثانية من مصر العليا ، ومتقدمة عليه ، في دندره ، شمالي طيبة في المقاطعة السادسة .

وليس من شك في ان هذه المحاولات تعكس الصراع على النفوذ والمنافسة في السياسة بين جماعات بشرية تنتمى كل منها بقوة السلاح لالهها الخاص . قد سعى بعض علماء الآثار المصرية الى استعادة وجوه ماضي مصر السحيق بالمقارنة بين تقدم بعض العبادات المحلية ، وتقهرها ، ونجاح اتباعها وفشلهم . ولكن التوصل الى نتائج موضوعية ، انطلاقاً من هذه الطريقة ، يستوجب ، قبل كل شيء آخر ، ان يوضع تاريخ هذه العبادات المحلية على أساس وطيد . وهذه الطريقة ، من حيث المبدأ ، لا غبار عليها . فالمتمسرون يأتون بألهم الرئيسي ويدخلونه المنطقة المغلوبة على نفسها ، وان لم يحلوه المقام الاول : فحتى آخر تاريخ مصر القديمة ، أتيح دائماً للعبادة التي رعاها السلطة السياسية الفائزة ان تنتشر ويتسع نفوذها .

الى هؤلاء الآلهة المحصنين الذين يضع سر وجودهم في ظروف محلية ، والآلهة الكونيون والذين هبطت عبادتهم حتى الزوال احياناً ، او تقدمت بفضل ظروف بشرية مؤاتية ، انضم آلهة آخرون كثيرون ، في تواريخ لا تعرف الا القليل منها ، تأرجحت مصائرهم بين صعود وهبوط ، لاسباب مختلفة ، كثيراً ما يكتشفها الفموض ايضا .

انبتق بعض هؤلاء الآلهة من تأليه عناصر او قوى كونية كالشمس والفلك والارض . وليس من غرابة في طريقة الوصول الى ذلك . شعر الانسان ، في كل مكان ، بضغفه وعجزه ، امام هذه المعطيات الكونية ، فشده ميل طبيعي فيه الى تأليها . وقد تميز مصر القديمة بانها لم تنصّب إلا العدد القليل منها . فكان الأهمال نصيب الكواكب باستثناء الشمس ، وما كان القمر نفسه ليحتل مكانة ما لولا ارتباطه بالاله المحلي طوخ ، الاله الحبارى المعد لدور إله الكتابة والحساب والنشاطات العقلية . وتتميز ايضا بأنها انتهت الى عدة آلهة لكل من العناصر التي صادف تأليها نجاحاً كبيراً . ومرد هذا التعدد ، الثابت بالاسماء المختلفة والمفصي الى ايجاد آلهة ممتنين في التنافس احياناً ، بالرغم مما في طبيعتها من عمق الوحدة ، التشديد هنا او هناك على ظواهر او بوادر متباينة . وقد يكون مرد ذلك ايضا ان جماعات بشرية مختلفة قد شقت او سلكت طرقاً مختلفة . ومها يكن من الأمر ، فان صفة الشمول ، في اصل هؤلاء الآلهة ، بالرغم مما قد اصبحت به من اذى ، اتاحت اكثر من فرصة لأولئك الذين حاولوا جاهدين ان يوطدوا وحدة مصر عن طريق العبادة . وقد استخدمت الشمس قبل غيرها ، بهذا او ذاك من الاسماء ، في سبيل بلوغ هذا الهدف . وكان من الطبيعي ، في بلاد اشعت فيها الشمس قوتها اشاعاً ، ان تتجه الافكار اليها ، قبل غيرها من القوى الكونية ، لتحلّها في القمة من المراتب الالهية او لتجعل منها ، احياناً ، محوراً لمحاولة توحيدية .

ومن نافل القول ان فصل الآلهة المحليين عن الآلهة الكونيين غالباً ما يبدو نظرياً . فهو انما

يستند الى اصل هؤلاء الآلهة ؟ ولكن هذا القياس يكتنفه بعض الغموض احياناً . فليس الآلهة الكونيين ، عادة ، معابد وعبادات يومية خاصة بهم . غير ان هذه القاعدة لم تكن مطلقة . وكان من جهة اخرى ، للميثاق والتركيب ، اثرهما بين عدد من هؤلاء والآلهة المحليين ، وذلك باستخدام بعض اوجه الشبه الخارجية التي من شأنها اخفاء تباين الآراء في اصولهم .

لذلك تداخلت ، في كل هذا ، عوامل تطفئ عليها الناحية البشرية . ولا عجب ، فقد جمعت بين هاتين الفئتين من الآلهة صفة مشتركة ، وهي انهم بمجموعهم كانوا موضوع عبادة رسمية نظمها الدولة ، تحت رعاية الفرعون الذي حرص كل الحرص ، وهو اله ايضاً ، على ان يؤدي الاكرام لامثاله . ولكن هذه الرعاية نفسها جعلتهم عرضة للتأثر بعواقب التقلبات السياسية .

الآلهة الشميون
كما نود الوقوف على مكانة كل من هؤلاء الآلهة بين عامة الشعب . ولكن اشباح هذه الرغبة من المستحيلات في اغلب الاحيان ، لان شواهد التعبد التي بلغتنا مصدرها الاول ملوك وكهنة وموظفون . فباستطاعة العظمة والاغنياء ، دون غيرهم ، اظهار تقواهم بتقادم وانصاب وابنية تنقش عليها كتابات قديمة بان تسخر من عوادي الزمن . ويعبر النصوص الشعرية والادبية نفسها ، المحفوظة على اوراق البردي ، عن افكار اللاهوتيين والمثقفين الذين يأتفون ، بفعل انتباههم الى اوساط اجتماعية رفيعة ، من التوجه الى عامة الشعب كما يأتفون ، على كل حال ، عن التكتلم باسم هذه العامة . غير انه لا يستنتج من ذلك ان هذا الورع لم يرافقه الصدق دائماً . ولكن هل يصح ان نستقرئ ، من خلاله ورع الشعب ؟

بالحقيقة اذا نحن استندنا الى وثائق اقل شأنًا يغلب عليها الاغفال ، كبعض التائم والتعاويد الصغيرة المصنوعة من مواد عادية ، وجدنا ان عبادة الشعب تميل ، بالترفضيل ، وباندفاع مماثل ، الى آلهة آخرين يطلق عليهم لقب « ثانويين » للفصل بينهم وبين الآلهة « الرئيسيين » ؛ ويغلب ان هؤلاء مدينون بلقبهم هذا الى صفتهم الرسمية . اما الآلهة الثانويون فلم تأبه الاوساط الحاكمة لان توفر لهم مقومات العبادة ولم تكن على البعض منهم إلا بالقليل القليل كتلميح اليهم في نشيد او غيره من النصوص الدينية ، او زاوية لتمثال في هيكل ، او قسم من معبد احياناً .

من العسير وضع لائحة كاملة هؤلاء الآلهة الشميين . لذلك نكتفي باعطاء فكرة عن تنوعهم . لنضرب صفحاً عن الآلهة الغرباء ، ومعظمهم من اصل اسوي . ولكن نفور المصريين الدائم من الاعراف المستوردة يجعلنا على الاعتقاد بان عباد هؤلاء الآلهة كانوا في اغلب الاحيان ، شأن عباد الآلهة اليونانيين في عهد السيطرة المكدونية ، اجانب استوطنوا البلاد ، كالهكسوس الغزاة والعميد الارقاء . واذا وجد من بعدهم من اهالي البلاد ، فلا بد انهم من الجنود والموظفين الذين أقاموا في فينيقيا وسوريا . ولا مكان هنا لأن نفكر بالتجار قمل التناكد من ارت التجارة الخارجية أقسحت المجال للمحاولات الفردية . وبما لا ريب فيه على كل حال ، ان مصر قد اعطت الاجنبي ، على الصعيد الديني ، فوق ما تلقته منه .

ثم كان هنالك آلهة مرتبطون بالحياة الزراعية ، كالاله الفيل ، والاله الحية ، والكثير غيرهم من القوى الواقية في ظرفي الحمل والولادة على الارض . واشهر هؤلاء « بيس » حامى المنزل وهو قزم قبيح مضحك ، مقتنع بقناع اصغر ، مشهور بترويض الاسود ، يحاط بالقرود الاليفة ، متمتع بصفات آلهة كثيرين . وكان هنالك حيوانات من كل نوع ، تلك التي سبق الكلام عنها ، وغيرها ايضا ، تحصى بالذكر منها الجمل الذي انتشرت تماثيله التمودية انتشاراً واسعاً جداً . وكان هنالك اخيراً بشر مؤهون لم يبلغوا ، من حيث العدد ، نسبة كبيرة في مثل هذا التاريخ الطويل . ولا شك في ان كل ملك وكل انسان احيط دفنه بجنازات طقسية اصبح لها عند الموت ، ولكن لذريته فقط ؛ وما كان يتيسر ، الا للتاليه الخاص ، الذي يتوقف انتشاره على عوارض سرية تحمل الجماهير على الذكرى والتحويل ، ان يوسع آفاق هذا التاليه العام . وقد استفاد من ذلك بعض الملوك ولا سيما « انحوتب » وزير الملك جيسر (الاسرة الثالثة) ومهندسيه وطبيعه ، و « امنحوتب » ابن « هاو » ، مهندس امنوفيس الثالث (الاسرة الثامنة عشرة) . فاصبح كلاهما لها شافياً . وقد شهدت كتابات عديدة على آمال وشكر الحجاج الذين توافدوا حتى في العهد الروماني القريب ، يطلبون منها الشفاء في معبدها المشترك داخل هيكل الملكة حتشبسوت في دير البحري بالقرب من طيبة . وقد اقيمت لها في مصر عدة معابد اخرى .

لما تنتشر هذه المبادئ الشعبية الا في عهد متأخر ، ولكن حرارة تقوى الجماهير اوزريس قد اسهمت باكرآ في انتشار عبادة اله على الاقل هو اوزريس . وكل شيء يفرض علينا هنا ان نقر له مكاناً خاصاً : طبيعته الخاصة بين الالهة المصريين ، والعون الذي صادفه في روع الازساط الشعبية وأسهم من قريب او بعيد في استتال الشخصيات الرسمية اليه ، وانتشار عبادته الصاعد ، الذي جعله يلعب دوراً اساسياً في ديانة مصر الفرعونية وحضارتها .

الاسطورة الوحيدة ، بين الاساطير المصرية ، التي صادفت شهرة واسعة ، هي اسطورة اوزريس الذي قتله اخوه سيت ، وقطعه اربا اربا ، وبكته زوجته واخته ايزيس ، وبجثت عنه ، وعثرت عليه ، وثار له ابنه هوروس من القاتل . ولعل مرد هذه الشهرة ذبوع عبادة اوزريس ، الذي استحال الى سيرابيس ، خارج مصر في العهد اليوناني الروماني ، ولا سيما ذبوع عبادة ايزيس في كل مكان تقريباً من الامبراطورية الرومانية . فاثارت هذه الاسطورة اهتمام الكتاب الاغريق واللاتين ، ولا سيما « بلوتارك » الذي وضع فيها كتاباً صغيراً في اواخر القرن الاول للميلاد استقى منه ، باستمرار ، التقليد اللاتيني واليوناني . غير ان نصوصاً مصرية كثيرة تختلف ، في روايتها للاسطورة ، اختلافاً بيناً ، وحول نقاط هامة ، عن رواية « بلوتارك » . ومهما يكن من الامر ، فان الفكرة التي تكونت عن اوزريس في مصر قد تباينت وفقاً للزمان وواقعاً للمكان احياناً وحاولت ، على كل حال ، الجمع بين عناصر مختلفة .

لذلك برانا امام معاضل كثيرة لا تزال موضوع اخذ ورد ، لعل ادقها اصل هذا الاله . فقد

جاء في مؤلف بلوتارك ان جثة اوزيريس قد بلغت جبل في فينيقيا حيث لم يصعب على ايزيس ان تعثر عليها وتستعيدهما . فأخذ بعض المفسرين من ذلك حجة للتأكيد بان آسيا هي مصدر عبادة اوزيريس ، بينما رأى غيرهم ان اغفال ذكر فينيقيا في الروايات المصرية يكفي للدلالة على ان هذا المصدر هو مصر نفسها . واذا ما افترضنا جدلا ان الخارج هو المصدر ، يبقى ان مصر قد ميزت « اوزيريسها » الى حد بعيد . وهذا يبرز بقوة لدى درس صفاته الرئيسية ، لذلك يستقوم بهذا الدرس دون توقف عند هذا الجدل وغيره .

كان اوزيريس ، وهو ابن الارض الإلهة والساه الإلهة يموت ويبعث حياً ، كما كان اله زراعة انبثت بوجه عام وزراعة القمح بوجه خاص . والقمح يخضع لدورة دائمة ترمز اليها اهم مراحل الاسطورة وترتبط اياه على التوالي مخضوضراً ونامياً وناضجاً وهاوياً تحت المنجل ومقطعاً تحت التورج ومطموراً في الارض على رجاء البعث .

لذلك سهل اشراكه في قوة مصر المحيية الكبرى ومماثلته لها . وليست هذه القوة سوى « الماء الصافي » و « ماء التجدد » ، اي الفيضان الذي يخضع لدورة دائمة. ايضاً فيندفع صعوداً حتى القمة ثم يهبط نزولاً ثم يتوارى على امل الظهور ثانياً بقوة مستعادة . وقد قيل لاوزيريس : « النيل منبته نضج بديك » لان لقائه في مياه النهر قد سكب فيها صفاته الخيرة . وقيل له ايضاً : « انت النيل ؛ الآلهة والبشر يحبون من جريانك » . وقد حظي الفرقي ، في عهد الاحاطاط ، باكرامات إلهية خاصة بحيث دعي الفرقي « السيد » او « المحمود » .

كان من شأن هاتين المزييتين وحدهما ان تجعلا اوزيريس إله مصر كليهما . ولكن الاسطورة جعلت منه ، بالإضافة الى ذلك ، ملك مصر الموحدة . فهل استندت في ذلك الى ذكريات تاريخية ؟ نحن نرجح ذلك ، لان مقتل اوزيريس ، على يد شيت ، يتجاوب الى حد بعيد والصراعات الكثيرة في سبيل السيطرة على جميع البلاد ، التي وصلتنا بعض اخبارها . واذا صح ان بوزريس في الدلتا كانت عاصمة ملكه ، كما يعتقد ، فقد يكون اوزيريس اقدم انساب آلهته الديانة الشعبية . وعلى كل حال ، قد ربطته بالملكبة صلة وثيقة مستمرة . فاذا جسّد الفرعون هوروس ابن اوزيريس ، لا اوزيريس نفسه ، فان الدعامة « جد ged » ، احد رموز هذا الاخير ، لعبت دوراً هاماً في الاحتفالات الملكية ؛ وان اوزيريس يحمل دائماً ، في الرسوم التي بلفتنا التاج والصولجان وهما من الخاصيات الملكية .

وقد افضى المؤول دون مماثلته بالملك الحي الى احلال مكانته سدره المنتهى والى انضمام الجماهير الفقيرة الغفيرة الى صفوف عباده . فملكته مملكة الاموات قبل كل شيء ، آخر . وقد اجريت على جثته ، لأول مرة ، المراسم التي تؤمن البعث والحياة الابدية . فاذا ما اجريت على غيره من الاموات ، امتت لهم هذه الامتيازات العظمى نفسها . وقد تاق كل البشر لان يعاملوا بمثل ما عومل به اوزيريس ، حتى يصبحوا بمائلين له على غير طمع منهم في منازعته المقام الاول .

فهم رعابا ملك الاموات يخضعون لدينوتته بعد اقتدائهم به ، ويجوون بجمعيته مياه العالم الثاني وحقول . وكانت عبادة مثل هذا الاله املا بالبعث لجمعهم . « فإله الزرع » و « إله الفيضان » و « إله الحياة الجديدة » اسماء مختلفة لاله واحد . ويدل على ذلك ، كل سنة ، استفاضة المزروعات وتجدد الفيضان .

ان خاصيات اوزيرس الثانوية ، الى جانب ذلك ، كثيرة جداً ايضاً . فقد اشار المفسرون ، على غير اتفاق حول اهمية ما اشاروا اليه ، انه غالباً ما يبدو وكأنه اله الارض الخصبة ، او اله السماء المنتجمة او اله القمر . وما هذه التأويلات المتعددة ، التي تدعها كلها سخجج قوية ، الا الدليل على ما احرزه من نجاح وعلى ما فيه من قوة جاذبة عجيبة . ولا غرابة في الامر . فسقوطه المأساة نفذت الى قلب كل من زوجته وولده ، وحركت فيها المشاعر العائلية المؤثرة ، تلك المشاعر نفسها التي يتوق كل مصري لان يحاط بها . وعبادته طردت شبح الرعب من الموت . فكيف والحالة هذه لا تتدفق الجماهير نحوه اندفاعاً تلقائياً أخ له « سوغ » آلهة كثيرين ، او ربطهم به ، بعد ان كانوا مستقلين عنه ، فقدوا انسابه له او معاوين . وهكذا قامت « اسرة اوزيرس » التي لم يكن هوروس وايزيس سوى عضويها الرئيسين . ولم يقيم الكهنة بأي جهد لاحلاله في المقام الاول ، بل حاول بعضهم ، على نقيض ذلك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، ان يحاربوه مداورة عن طريق بعض الآلهات من اسرته ، ولم يدخلوه الا على مضض في هامش مذاهبهم اللاهوتية . وقد استفادت الملكية كثيراً من نفوذه على غير رغبة منها في توسع هذا النفوذ ، وهو على كل حال اوسع من ان يعوزه التأييد الرسمي .

للداهب اللاهوتية دعتنا الحاجة اكثر من مرة للاشارة الى المحاولات المتكررة في سبيل تنظيم الآلهة المصريين الكثيرين تنظيمياً متجانساً ، وهي محاولات متعددة ومتباينة . فكان لكل اله ، في نظر عبده ، من القوة ما يسمح برفعه الى المرتبة الاولى . وليس هناك من عقيدة سابقة مفروضة ، كما ليس ما يحول دون الحوض في اكثر البحوث النظرية تطرفاً وجرأة . وقد وردت بعض هذه البحوث في نصوص كاملة حيناً ، وبمجزأة احياناً ، يستازم تفسيرها منتهى الدقة . وكمنها ما لم يعد يترامى امامنا فاصبحنا لا نقدر وجودها تقديراً .

غير ان هذه المحاولات ، في الواقع ، لم تكن في متناول الجميع . فهي تفرض ثقافة دينية عالية ، ومقدرة نادرة على التجريد ، وبراعة في استخدام المجازات والرموز ، كما تفرض ايضاً دعائم بشرية قوية تتح لها الانتشار الواسع ، ويجب ان تشمل كلها نظرية في الحلق وتنظيم العالم : فهي في الوقت نفسه علوم في تكوين العالم وعلوم في نواميسه . وعلى كل منها ، في الدرجة الثانية على الاقل ، ايجاد حل لمشكلة الموت المقضة . لذلك وجدت معظم النصوص المعاصرة لهذه المحاولات في المدافن والقبور ، « كنصوص الاهرام » ، و « نصوص النواويس » مثلاً . وكان على كل منها اشيراً ان تنتهي الى مذهب الهى يقول بتفوق اله معين . وكان بناء هذا المذهب الهدف المصود للثابتين بهذه المحاولات . ويفلب ان هؤلاء من الكهنة حاملي الشهادات

الذين انطلقوا من رغبتهم في تبيان تفوق المهم، على نحو قناعتهم به . ولم يبق انوفيس الرابع نفسه يعمل هواة في ما عمله في هذا الحقل مع بعض المساعدين . وكانت الصعوبة تكمن في اقناع الآخرين باعتماد المذهب . فحدث احياناً ان السلطة السياسية نفسها ، بالرغم مما لديها من وسائل نافذة ، قد اخفقت في هذا الاقناع .

لا يسعنا هنا ان نغفل بعض هذه التعاليم اللاهوتية بسبب الاهمية
 مذاهب هليوبوليس ومنف :
 التي اسبغتها على بعض الالهة . ولكن يتعذر علينا ان نخصص لها
 «رع» و«فتاح»
 دراسة ولو موجزة ، لا سيما وان العبادات هي التي اثرت ، اكثر
 من العقائد النظرية ، في حياة البلاد الدينية . لذلك فاننا سنحاول هنا ، قبل كل شيء آخر ،
 تبيان النتائج العملية التي اسفرت عنها هذه العقائد .

هل المذهب الذي انتشر في هليوبوليس ؟: بالقرب من منف شمالاً ، اقدم من غيره من المذاهب ؟ لا يسمح تضارب آراء الاختصاصيين باثبات ذلك ، بالرغم من انتشاره الباكر . وقد كان له اثر عمق اثر باختياره الشمس الها رئيسياً . فما الشمس ، حين يعتبرها خالقة كل شيء حتى ذاتها - لانها خرجت بلء ارادتها من المياه - سوى « اتم » . ولكنه كان يلبسها شخصية ثانية فيسميها « رع » اي الشمس بالمعنى الحصري ، وبهذا الاسم تمت سيطرتها على مصر كلها . ويبدو انها احرزت نجاحاتها الحاسمة في عهد السلالتين الرابعة والخامسة على الاخص ، اذ ان الملكية ، بعد ان كانت مرتبطة بهوروس وحده ، ارتبطت حينذاك بالشمس ايضاً واذيف لقب « ابن رع » الى لائحة ألقاب الفرعون الرسمية . وقد تسرب اللاهوت الشمسي الى مذاهب دينية اخرى عديدة فاضيف اسم « رع » ، بما يشبه الشمول ، الى اسماء الالهة التقليدية . وليس ما يمنعنا ، على كل حال ، عن الاعتقاد بان كهنة كثيرين تولوا عملية هذا الاشراف حتى ينال اله كل منهم قسطه من عظمة الشمس الشاملة .

ولعل الاله الوحيد ، باستثناء اوزيريس طبعاً ، الذي استطاع ، بين الالهة العظام ، ان يحافظ على استقلاله ، هو « فتاح » اله منف . وقد سبق ورأينا ان ملوك السلالة الثالثة جعلوا من هذه المدينة ، القائمة بين شطري مصر ، المركز السياسي للبلاد . فكان هذا الخيار خدمة جلي « لفتاح » الذي تبوأ المقام الاول بفضل مذهب وضعه لاهوتيو منف . وقد وصفه هذا المذهب « بالخالق الاكبر » ، الذي ينحدر منه روحياً آلهة اخرون بما فيهم « اتم » ، ليسوا سوى « اسنانه وشفتيه » . فهم وسطاء الكلمة الخالقي يعبرون عن ارادته العاقبة وينفذونها . وقد احتفظ « فتاح » ومعبدته بمركز مرموق ، حتى عندما انصب عطف الملوك على آلهة آخرين .

قد يمكننا هنا ان نهمل المذهب الذي ساد مصر الوسطى ، في اهم المدن امون وامون رع التي اطلقت الاغريقي عليها اسم هرموبوليس ، بالرغم من رسوخه في القدم

رسوخ العقيدة السائدة في هليوبوليس ، وبالرغم من اهميته لتاريخ النظريات حول تكوين العالم. وغني عن البيان ان الاله الذي توخى هذا المذهب ورفع شأنه هو الاله المحلي « طوخ » ، ولطوخ مكانة مرموقة خاصة حتى لو جردناه من كل صلة بسواه . ويبدو ان آلهة كثيرين جداً قد انصهروا فيه : آلهة افاع ، وآلهة صفادع ، واله قرد ، واله حيارى ، واله قر . وقد نسب اليه القيام بالوساطات والايحاء الى البشر بجميع النشاطات الفكرية من كتابة وحساب وعالوم وسحر ، فكان بالتالي الاله الكاتب والاله المثقف ، وغداً مساعد اوزيريس الاول ورئيس الدوائر القضائية والادارية في مملكة الأموات . وهذا يعني اناطته باوزيريس بحيث انه لم يكن اولاً الا في نطاق معابده الخاصة .

ولكن هنالك اها انفصل عن الآلهة الذين احاطهم لاهوتيو هرمبوليس « بطوخ » ، هو « امون » ، ومعناه الاشتقاقي « السري » و « الخفي » . فها دعاه الى هذا الخروج وما هي المراحل التي مرت بها عبادته قبل ان تستقر في طيبة ، في مصر العليا ؟ نحن لا نعلم عن ذلك شيئاً . وجل ما نعلم هو انه كان لا يزال شبه مغمور ، في نطاقه الجديد ، حين توصل احد عبده المحليين « امنمتح » ومعناه « امون في الطليعة ») ، الى عرش الملك . وقد اسس هذا الفرعون السلالة الثانية عشرة ، فعظم شأن امون بسرعة تكاد تكون من المعجزات ان نحن نظرنا اليها من الناحية الدينية دون غيرها . ولكن يستحيل علينا تفسير هذه السرعة ان نحن لم نفكر بالقوة المطلقة التي تمتعت بها السلطنة الفرعونية حتى على الصعيد الروحي والتي هي ابرز مظهر من مظاهر هذه السلطنة . وكما كنا نود الاقتناع ، بصد هذا الاله ، بان بوادر العبادة الرسمية عبرت ، عند كل من اشترك فيها ، عن حقيقة ايمان صميم . ولكن افتقارنا الى وسائل التدقيق يوجب علينا الاكتفاء بالإشارة الى ان الحكام قد تباروا خلال اجيال طويلة في السير على خطى الملكية .

كان أمون ، في الواقع ، الاله المائلي للملك الذين تعاقبوا على عهد الامبراطوريتين الوسطى والحديثة ، وبعدهما ايضاً ، طوال الالف الثاني تقريباً . ففسدا مع الزمن ، ومغالة في تصويره مادياً ، والداً للملك الحي . كما ان عقيدة « الزواج الالهي » ، اي اتحاد الفرعون جنسياً بالودة الفرعون المقبل ، قد بلغت اوج الكمال في عهد الملكة حتشبسوت ، حوالي الف وخمسةائة سنة قبل المسيح ، في الكتابات والنقوش التي تزين جدران معبد دير البحري . وقد دامت هذه العقيدة باستمرار حتى عهد البطالسة . وكان من المفروض ايضاً في الاله ان يسهر شخصياً على طفولة الملك وتربيته ، وعلى اختياره وتعيينه خلفاً لابيه المزعوم ، والهامه السوك السوي وسط اعباء حكمه ، والاسراع الى تجديده في القتال .

لا عجب والحالة هذه في النجاحات التي حققها « أمون » . فابلت ، في اوائل الامبراطورية الوسطى ، ان اصبح إله منطقة طيبة . ثم اشترك « برع » ليكون معه « أمون رع » الذي استأثر باهتيازات الاله الشمس . وقد لقب « بملك الآلهة » . ثم الحقت به ، بالإضافة الى امرته

التي اختير اعضاؤها بين آلهة طيبة ، حاشية من آلهة آخرين تبين عددهم حتى بلغ الستة عشر احياناً . ولكن كل ذلك ليس دليلاً على وجود زعزعات توحيدية . فألمة مصر العديدون يدومون باستمرار ولكنهم يخضعون لاله السلالة الحاكمة كما يخضع بالفرعون لكل كائن حي في البلاد .

الثورة « الاثنية » وفسلها أدت هذه النجاحات لفترة طويلة خدمات حجة للملكية . ولكن تطور الامور ، بفعل هذه النجاحات ، لم يخل احياناً من اخطار تهدد هذه الملكية التي اسبغت الثروات والامتيازات السخية على كهنة معبد طيبة . فافضى الأمر هؤلاء الى الامعان في الوساطات السياسية العننية ، بعد ان كانوا يستجدونها استجداءً . وعندما دعت الحاجة الى اصلاح جذري ، ارتدى هذا الاصلاح ، بشكل غريب ، صفة ثورة لاهوتية يلازمها اسم الفرعون امنوفيس الرابع .

ولم تقتصر هذه المحاولة على الناحية اللاهوتية فحسب ، بل تداخلت فيها غايات واهداف زمنية أيضاً : الحرص على تحرير الملكية من نير وصاية الكهنوت الاموني الثقيل ؛ والتصميم الثابت ، بالرغم من الغموض الذي يحف به ومن مساعي بعض المؤرخين ، على ايجاد توافق ديني بين مصر وبين البلدان التي احتلتها في الخارج منذ أوائل عهد السلالة الثامنة عشرة : النوبة وسوريا ؛ واخيراً المقاومة التي اصطدم بها الملك المجدد والتي بلغت حد المؤامرة ، لا بل حد التمرد العلي ، فأخذ تصلبه يتضاعف شدة . وتطور هذا المذهب الجديد باتجاه نوع من الحصرية ، جديد في تاريخ مصر الديني ، اضفى على المحاولة الشيء الكثير من غرابتها المبتكرة .

ولم يكن الاله « اتون » ، الذي بذلت هذه الجهود في سبيله ، خليفة اوجدها امنوفيس الرابع من العدم ، لا ولا عبادة اتون ايضاً . بل كان « اتون » الهاً شمسياً ، او بالحري مظهراً من مظاهر الاله الشمس . ولا خير في ذلك إذ انه قد استفاد من الفتوحات السابقة التي احرزها لاهوتيو هليوبوليس والتي كانت قد انتقلت الى امون باسم « امون رع » . ولكن في هذا الانتقال ما يمكن ان يظهره مظهر عملية اغتصاب . وقد برز فعلاً ، في ايام بعض اسلاف امنوفيس الرابع ، ميل الى التخفيف من وثاق الاتحاد بين امون والشمس ، ان لم يكن الى فصله نهائياً . وفي عهد امنوفيس الثالث ابنه ، ارتسم اتجاه أكثر وضوحاً ، فأصبح « اتون » ، وهو اسم نكرة يعني قرص الشمس ، اسماً لاله انتظمت عبادته ، مع ما تستلزمه من كهنة ومعابد ، قبل ان يشارك اخناتون ، حوالي سنة ١٣٧٠ ، بسلطة أبيه الملكية . وبمكتنتنا ان نستشهد بسوابق اخرى كثيرة .

ولكن توضيح هذا التجديد لا يعني قط الانتقاص من اقدام امنوفيس الرابع وجرائه . فكل ما حدث قبله لم يخرج عن نطاق الرغبات المترددة التي لم تغترن باي اجراء جدي معه الا اهداف . وهو لم يضطلع بالتجديد إلا منذ تفرد بالسلطة مشدداً تارة على تنظيم ما ورثه من معالم شبه

دارسة ابصر هو ما تعرم به من امكانات لتحقيق هدفه ، وجزأماً تارة اخرى في رفض كل ما لا يتفق ونظامه الجديد .

وفي عداد ما احده الصفة الشخصية التي أحاط بها وحي العقيدة ونشرها في صفوف الرعايا . فحتى ذلك العهد كانت التعاليم اللاهوتية مغلقة لا تتراءى فيها شخصية واضعها . اما هذه المرّة ، فكل ما لدينا من مصادر يدل على ان الملك وحده ، دون غيره ، هو واضع التعاليم . والمغلاة في ذلك واضحة . فلا يعقل انه لم يستشر احداً او انه حرّر وحده ذلك الاثر الادبي الرائع اعني به النشيد الطويل لاتون . وكان من مستلزمات انتشار عبادة الاله ان يغامر الفرعون بنفسه في هذا السبيل . ولكن هنالك امراً آخر يبرز لأول مرة ولمدة وجيزة في الحضارة المصرية وانسجم مع الاتجاه الواقعي الملحوظ في الفن : الاندفاع نحو الفردية ، والتصميم على الاقتلاع عن التضحية بالانسان في سبيل عمله ، وبذل الجهود في سبيل احكام نزع الغلاف المثالي عن الكائن الحقيقي لاطاره على حقيقته العارية صافياً وواحداً ومكوّناً من لحم ودم وعواطف ، حتى لا يطبق عليه هذا الغلاف مرّة اخرى .

ان الاضواء الخافتة التي تلقيناها الوثائق المعاصرة على امنوفيس الرابع نفسه ما يثير الفلتق ويحرك المشاعر . فالملك يعتبر نفسه ابناً لاتون ، بغير مدلول بنوّة اسلافه لامون ، مستعضاً عن الزواج الالهي بعملية خلق تتجدد كل يوم كما لو كان « صورة » الاله . ويؤكد ايضاً انه نبي الاله ينزل الوحي عليه دون وسيط : « انت في قلبي ، وليس من يفهمك سواي ، انا ابنك » . والانسان ، اذا ما شاهد مثل هذه الرؤى لا يعلن عن حبه وثقته وشكره فحسب ، بل يندفع ، مستمسكاً بكليته للانفعالات التي تتركها في نفسه ، وراغباً في ان يخضع كل شيء لهذه الانفعالات عينها . يصمّم على العمل ويعمل بالفعل بنشاط لا يتصوره احد في كائن تدل كل تماثله على هزاله وحوله . وينسب البعض ذلك الى سيكولوجية كبار الملهمين ؛ ويرده غيرهم الى مرض نفساني . غير ان التعمق في التحليل يتعدى ما لدى المؤرخ من وثائق ومصادر .

ان اللاهوت الاتوني ، اذا ما قورن بالتعاليم اللاهوتية السابقة ، يتميز بطريقته المباشرة الساذجة . فلم تمثل الرسوم اتون انساناً او حيواناً او نغلا بل شمساً كما يراها البشر كل يوم . فانما هو قرص الشمس تضاف اليه بعض الرموز فقط : الحية الملتفة وايد تتناول ، عند اقصى الاشعة المتجهة نحو الارض ، التقادم الموضوعية على المذابح ، او تعرض ، امام وجه الملك ، الصليب المعقوف التقليدي الذي هو رمز « الحياة » الخير . وهكذا نرى ان الاله يعمل وحده دون آلهة وسطاء . ليس له عائلة او حاشية . كان هو الخالق الوحيد ولا يزال هو وحده يوزع القوة الحيوية اليومية على كل الموجودات التي تتجدد ولادتها ، بفضل ذلك ، مع كل فجر . لذلك فالطبيعة كلها تعترف بحيمه باستخدامها الخبير للحرارة المتجددة : البشر ينصرفون الى اعمالهم والحيوانات تسرح في المراعي والطيور تتطلق من اوكارها والمراكب تمخر غباب النهر صعوداً

والمحداراً والاسماك ترمز في المياه ، كل ذلك يشترك في الانسجام العام الذي اراده والذي هو ناسقه الاعظم .

كان من شأن هذا التعليم ان يفضي الى التوحيد . وما من شك في ان الملك قد ادرك ذلك . ولكن شتان بين الادراك والتنفيذ . فمقيدة « ماهاث » او « العدالة - الحقيقة » قد روعيت على الدوام لانها تعبير عن دافع ادبي لا يمكن فصله عن السلطة الملكية . وقد جرت ايضاً ، في بادىء الامر على الاقل ، محاولة تسوية مع الاله « رع » . ولكن هل هذه التسوية لاهوتية على اعتبار ان العبادة الشمسية ، مهسا كانت ، لا يمكن فصلها عن تعاليم هليوبوليس العقائدية ؟ ام هي تسوية سياسية يقصد منها الحصول على تأييد كهنة هليوبوليس ضد كهنة طيبة ؟ لا سيبل امامنا للاجابة على ذلك . وعلى كل حال لم تدم هذه المحاولات زمناً طويلاً . وباستثناء هاتين الحالتين ، رفض تمدد الآلهة بشكل صريح .

لجأ نبي اتون الى صلاحياته الملكية فعمم عبادة الهه وألغى ، في كل مكاتب ، العبادات التي سبق ان نظمتها الدولة ومهدت امامها الطرق خدمة لآلهة لا يريد هو الاعتراف بهم . بيد انه ما كان ليستطيع الخوول دون التعمد الخاص ، لا سيما في ما يعود الى عبادة الاموات حيث ترك هذا التعمد آثاراً ظاهرة . لكن المعابد تعطلت بعد انقطاع مواردها وخفت حركة الاحتفالات بالذبايح والاعياد وتوقفت الدعوات الكهنوتية وشلت الكهنة . فانتهى ارتباط العبادات بالدولة الى اضعاف الآلهة القدماء بعد ان كان مصدر قوتهم . وبزوال مرتكز العبادة الزمني انتهت العبادة نفسها الى الزوال .

تحولت هذه اللامبالاة ، بما انطوت عليه من عواقب عملية خطيرة ، الى اضطهاد استهدف الاله امون . كان هذا الاله وكنهته يحتلون مراتب اكثر ثباتاً واغراء من ان يتنازلوا عنها بسهولة ، فأثارت مقاومتهم الخطرة في العلن والخفاء تصلباً من جانب الملك . ومنذ السنة الرابعة لاعتلائه العرش ابدل الفرعون اسمه « امنوفيس » (امون راض) « باخناتون » (خادم اتون) فحذا حذوه رجال بلاطه والمقربون اليه بأن ابدلوا اسماءهم الامونية باسماء اخرى تنسب الى الآلهة الجديد . وفقدت طيبة مركزها كعاصمة وحلت محلها مدينة « اختاتون » (افق اتون) الجديدة التي انشئت بسرعة مذهشة في مصر الوسطى . ثم عقب الاضطهاد هذه التخيلية 'فقرض الحظر في كل مكاتب على معابد امون وشلت كهنته ولوحقوا واتلفت صورهم وعفي اسمه ، حيثما نقش ، بدق المطارق . وقد تناولت هذه الاعمال البربرية المدافن ورؤوس المسلات نفسها . ولم ينح ما نجا من الصور والرموز الا بفضل الاهمال في التنفيذ هنا او هناك . بيد ان المجازفة باء بالفشل . فما هي الاسباب يا ترى ؟ نحن لا نرى في الحقيقة سوى اسباب بشرية . وليس باستطاعة التفسير التاريخي ، مرة اخرى ، تقدير نسبة صدقها او نسبة عكسها لمشاعر المؤمنين الحقيقية . فتحن نثرامى مثلاً عداء اولئك الذين لحق الاذى بصوالجهم بعد ان كانوا ينعمون بالعيش في المعابد . وتعلم ايضاً ان الملك ، بانصرافه كلياً الى الامور الدينية ، قد اهل ممتلكات مصر في آسيا إبان تعرضها للزئيد من الاخطار . وما من ريب في ان اخناتون

نفسه اخذ بتراجع شيئاً فشيئاً . وعند وفاته ، بعد ولاية دامت عشرين عاماً ، انهار مشروعُه انبهاراً سريعاً . أما خلفاؤه الاولون ، وبينهم « توت عنخ اتون » (صورة اتون الحية) الذي اطلق على نفسه ، فيما بعد ، اسم « توت عنخ امون » ، فقد اكتفوا باجراءات تسكينية . غير ان جلوس « حورعبيح » على العرش ، بمساعدة كهنة طيبة ، قد كرس نهائياً انتصار العقيدة القديمة على الهرطقة . فاستهدف الاضطهاد اخناتون واله في صورهما وفي كل كتابة ورد فيها اسمها . وصبت اللعنة على عاصمته التي ما كانت لتعرف الشهرة ، باسم تل العمارنة ، لولا الاكتشافات الالوية .

عاد امون فاصبح إله السلالة المالكة واستعاد ووطئ سيطرته على مصر وعلى الحكومة . فعرفت عبادته ازدهاراً بعيداً لم تعرفه قبل الثورة وجمع كهنته ثروة طائلة وتمتعوا بسلطة نافذة . ولم يضع حداً لهذا الازدهار وهذه الثروة وهذه السلطة سوى القوضى ونقل الملكية الى الدلتا والاحتلال الاجنبي في نهاية المطاف .

٢ - عالم ما بعد الموت

الايان بالحياة الثانية
من الجلي ان المصري لم يأبه كثيراً للتعالم الالهيوية النظرية ، بل وجه جل اهتمامه الى المصير الذي ينتظر البشر . ولكنه لم يستطع مع ذلك ان يشايح بثبات اي تعليم عقائدي .

منذ ما قبل التاريخ حتى آخر التاريخ القديم ، احيطت جثث الموتى بعناية خاصة فدفنت وفقاً للرسم ووضعت على مقربة منها ، في المدافن ، الادوات البيتية او الصور والنصوص الرمزية ، وقدمت لها هدايا اعقاب الميت . وتدل هذه العادات والاعراف على استمرار وشمول الايمان بحياة ثانية ، وعلى اثر هذا الايمان العميق في الحضارة المصرية خلال مراحل تاريخها الطويل وتوضح هذه الصلة خاصة في النطاق الفني . فلن نغالي ان نحن رأينا فيها تعبيراً آخر للتفاوت الذي اشرنا اليه اكثر من مرة ، كميزة هامة من ميزات السيكولوجية المصرية .

اجل هنالك بعض النصوص الناشئة : نص « حوار بين انسان تعب من الحياة وبين نفسه » الذي بلغنا في كتابة وحيدة على ورق البردي ، وخصوصاً نص « اناشيد ضارب العود » المحفور في بعض مدافن الامبراطوريتين الوسطى والحديثة ، الى جانب صورة ضارب العود . وقد وردت في النص الاخير ، بعد التنويه بان المدافن عرضة للهدم ، مقاطع يقود ما فيها من افكار وتشاؤم الى الاخذ بهذا المبدأ : « عش ليومك ولا تعباً بغيرك » . « لا احد يعود من هناك ليطلعنا على واقع الموتى ويعرفنا بمحاجتهم فتهدأ قلوبنا بانتظار ساعة لحاقنا بن سقنا الى حيث ذهبوا . فافرح اذن واشبه رغبتك ما حبيت ... لا تستطيع الشكاوي انقاذ احد في القبر . اجمل ليومك

سعيداً . لا تستسلم لهم . انظر . فليس من يصطحب ثروته وليس من يعود بعد الذهاب .. »

ولكن هذا الإنكار — الذي ينتهي على كل حال ببدء الفرح ، لا الى التشاؤم — لم يخرج قط عن نطاق الشذوذ . وتكفي كتابة مثل هذه المقاطع الشعرية ، في المدافن ، للدلالة على ان واضعها لم ينظروا الى الشكوك التي تم عنها نظرتهم الى حقائق ثابتة . وقد اجتمعت مصر كلها تقريباً على رفض افنات الانسان باعتبار الموت نهاية لا غد بعدها . فقد اعتبرته بجمرة ، على نقبض ذلك ، انتقالا الى حياة اخرى . وقد اتاح ذلك للفلاح تمزية كبرى مقابل شقائه على هذه الارض . اجل ، لم يعن ذلك ان الانتقال غير محفوف بالخطر ، او ان الحياة الابدية دائمة الهناء . ولكن هذه الحياة ليست ، على كل حال ، بالعدم او يجهن .

يبقى علينا ايضاح فكرة العالم الآخر . ولكننا نميل الى الاعتقاد بان عامة الشعب لم تكن لتشعر بحاجة الى ذلك ، بل تكفي ببعض الارشادات العملية الوثيقة الاتصال بإحدى العقائد . ولذلك استوها السحر استواء مستمراً . اما العقيدة نفسها فقد رضت منها بعض الضمانات البهيمية التي تنسج مخيلته حولها ما شاءت من الممكنات والمتناقضات احبانا .

كانت ابواب النظريات مفتوحة امام العقائدين فولوجوا بخيرين .
حاولوا ، بالطبع ، ان يطبقوا آراءهم على الموت ، اذ ان الخلود الى مستوى الشعب
من مستلزمات الالهة . ولكن حريتهم في هذا النطاق كانت اضيق منها في النطاق اللاهوتي نفسه ، لانه ترتب عليهم هنا مراعاة الشعور الشعبي الحذر . وان تسلياتهم الكثيرة مع لحدث فريد من نوعه وباهميته في تاريخ الحضارة المصرية . فهذه الحضارة تقوم في جوهرها على مبدأ تسلسل الرتب وهي ، فيما يتعلق بالحياة الارضية ، عميمة الفائدة للطبقات الحاكمة ، وقاسية في الوقت نفسه على الوضعاء والسكاحين . ولكنها اضطرت ، فيما يتعلق بالحياة الثانية ، الى الأخذ ببيادىء مختلفة عن ذلك اختلافاً بيناً .

وليس من شك حول هذا التطور . فبموازاة كل حقبة من حقبة مصر الفرعونية الثلاث ، نجد سلسلة من النصوص المدفنية تراقق الميت في قبره وتترامى فيها الحياة الثانية التي يلجها : « نصوص الاهرام » في عهد مصر القديمة ، وقد حفرت على جدران هذه الضرائح منذ اواخر السلالة الخامسة (حوالي ٢٥٠٠ سنة قبل المسيح) وطيلة ايام السلالة السادسة ؛ و « نصوص النواويس » في عهد الامبراطورية الوسطى ، منذ السلالة الحادية عشرة قبيل السنة ٢١٠٠ ، وقد حفرت على جوانب هذه النواويس ، و « كتب الاموات » في عهد الامبراطورية الحديثة (ابتداء من السنة ١٥٠٠ تقريباً) والعهود اللاحقة ، وهي لفافات من البردي مليئة بالكتابات والرسوم توضع الى جانب المومياء . بيد ان الفرق كبير بين هذه المجموعات الثلاث من النصوص . وليس من واحدة بينها تتميز بالجدة . فقد انتقلت ، من سلسلة الى اخرى ، مقاطع طويلة احبانا كلمة تارة ومجتزأة اخرى . وما من ريب في ان « نصوص الاهرام » نفسها تتضمن مقاطع تعدى ،

في قديمها ، زمن استنساخ هذه الكتابات . اضيف الى ذلك ان التلاحم المتين مفقود في كل من هذه السلاسل التي كان وضعها عملية جمع لا عملية تأليف . ولكن بالرغم من هذا الاستمرار وهذا الانتقال ، في نصوص المجموعات الثلاث ، تبرز ثلاث نظريات يستحيل رد احداها الى الاخرى . وتحديدأ لاجزاء هذا التطور العام ، تكلم بعض المؤرخين عن « نقل الى الديمقراطية » . ويبدو ان الفكرة التي تعتبر عنها هذه الكلمة تنطبق على الواقع شرط أن لا تؤخذ بمعناها المصري السياسي . فاذا كان على المعاقدين ارضاء ميول الشعب ، توجب عليهم تطوير نظرتهم الى العالم الثاني وتوسيع آفاق تطبيقها .

لا نعلم شيئاً ، في عهد الامبراطورية القديمة ، عن المصير المحدد للفقراء بعد موتهم . ولكن نرجح انه كان وضعياً جداً . وقد زادت في ضعته تلك الحالة من البهائم التي احاطت بمصر الفرعون . فهل يعقل ان يهوي عن مرتبته عند الموت من كان لهسا على الارض ؟ وان هو استقر في قوة سلطانه ، جنت مصر الخيرات العميمة لانه سيشملها بعطفه المستمر . ولا سبيل ، خارج هذا الاقتناع ، الى فهم الجهود الجبارة المتمثلة في تشييد الاهرام الكبيرة . وبالرغم من استنساخ « نصوص الاهرام » بعد ذلك بسنتين ، فانها لا تتناول سوى مصير الملك الذي ، دون غيره ، يهتم له المؤلفون .

تشدد هذه النصوص على صفة الملك الميت الالهية وعلى عظمة دوره . بيد ان التناقضات ، حول تحديد هذه الالهة ومظاهرها ، تبرز في هذه النسخة الواحدة او تلك . ولذلك لا يجمع علماء الآثار المصرية على التفسير الواحد . ولنضرب صفحاً هنا عن « الاله العظيم » الذي قد لا يكون لا اوزيريس ولا رع ، وعن روايت عقيدة غامضة حول النجوم . يبقى امامنا ، حينذاك ، مذهبان متقاربان غالباً ، متمازجان احياناً ، متباينان اصلاً .

تشبه هذه النصوص احياناً الملك الميت باوزيريس . اجل ، انها تتضمن تعريفات مستتعبة بهذا الاله ونهجات مباشرة احياناً على آلهة اسرته او حاشيته . ولكنها لا تخلو من تمجيد اوزيريس ايضاً . ومن الطبيعي ، ما دام اوزيريس ملك مصر القديم ومثال الاله الميت والملك الميت ، يضمن الخلود لنفسه بفعل اكرام ابنه هوروس ، ان يصبح الفرعون اوزيريس آخر لا سياً وهو نفسه هوروس ما دام حياً وما دام يخلفه على الارض ابنه هوروس الجديد . وهو يملك ، بهذه الصفة ، على « الغرب » ، ملكة الاموات .

واحياناً اخرى تحمل محل عقيدة اوزيريس عقيدة اخرى اقدم عهداً واعظم قوة تتصل اتصالاً مباشراً وثيقاً بتعاليم هليوبوليس . استطاع اوزيريس ، من قبل ، ان يلج الى النظريات المدفنية ، ولكنه لم يفرض نفسه فيها دون سواه . اما هذه المرة فالفرعون الميت يصعد الى السماء كي يصبح هو نفسه الاله الشمس « رع » ، او يعلوه رتبة ، كما يقال احياناً . وبهذه الصفة يملك على ملكة السماء التي تنقسم ، شأن مصر ، الى قسمين .

وتلقي هذه النقطة الاخيرة ، على ضآلة اهميتها ، نوراً على القياس الذي اتاح تعميم الافادة من العقيدة الشمسية على اشخاص آخرين . فالقباية القائمة بين المملكة الارضية والمملكة السماوية تقضي حتى الى تخيل المقابلة في تنظيمها . لذلك يقتضي ان يكون للملك الميت امرته وبلاطه وادارته كما كان له كل ذلك في حياته . وكان من الطبيعي ان يحاط ، في العام الثاني ، بن احاط به على الارض . وقد درجت العادة ان يمنح من يريد شملهم بغطه الارض والترخيص اللازمين لدفعهم على مقربة منه ، وفاقاً لراسم دفنه نفسها ، في رموس مائلة لرمسه شكلاً ، اقل منه حجياً . فيستمر هؤلاء المحطون في مشاركته حياته المجيدة . ولكن فتح هذه التلمة ، لادخال بعض الاصدقاء والمعاونين المختارين ، قد ادى بصورة حتمية ، مع مرور الزمن ، الى توسيعها .

وقبل ان نصف وترسم هذا الاتساع ، تجدر الاشارة الى نتيجة اخرى من نتائج هذه العقيدة . فحتى يصبح الملك « رع » ، عليه ان يكون « مستقيم الفم » و« مستقيم الصوت » ؛ وفي طريقه الى مملكته السماوية ، عليه الاجابة على اسئلة الملاح الذي يمتاز هو النهر في بطاحه . اجل قد تكون هذه الايضاحات الدقيقة استلزمت فكرة دينونة اخلاقية تتناول اعمال حياته الارضية . ولكن لاشيء يفرض هذا التفسير . فالاجراء المتبع لبلوغ الصلاح ، حسب معرفتنا ، المحصر في صنع كلامية يجب معرفتها . وهكذا يكون الفرعون قد امن انتقاله من الملكية على هذه الارض الى الملكية في العالم الثاني . اما المقربون المدعوون للحاق به الذين يشعرون بحاجة للدلالة على انهم خضعوا دائماً للعدالة ، قد يقصدون بذلك العدالة الملكية وحدها ، وهذا يعني انهم يعلنون عن اخلاص خدمتهم . اجل اخذت تنتشر ، من قبل ، فكرة واجب ادبي فرضته الالهة على عطاء هذه الارض ، ولكنها ، على ما يبدو ، لم تسيطر سيطرة تامة . ان هذه الجرثومة الراهنة ستتمو ولكن السحر الراهن ايضاً سينافسها ويتفوق عليها نجاحاً .

تعم العقيدة الشمسية في البدء استمر الذين بلغوا حياة الملك الشمسية خاضعين للملك ، ولكن ضعف الملكية في اواخر الامبراطورية القديمة آثار الفوضى في هذا الصعيد نفسه . ولم تتراجع بعض الشخصيات الكبيرة امام اغتصاب الملك اغتصاباً كاملاً ؛ وقد اعلنت كتابات مدافنهم ، دونما اهتمام لسلطة خلعوا نيرها ، اتحادهم الشخصي بالشمس . وهكذا كانت الفوضى السماوية نتيجة وانمكاساً للفوضى الارضية . وفي الوقت نفسه تراخى جبل النظام الاداري والاجتماعي فتضخم عدد ذوي الامتيازات بعد ان كان ضئيلاً . وقد أمن بعض الموظفين الصغار لانفسهم الاستفادة من خلود مجيد بفضل مجاملة رؤسائهم او بفضل سلطتهم الشخصية . وقد احتدى بهم اخيراً كثيرون من عامة الشعب وانتشرت المراسم الجنائزية الموضوعية اصلاً للملك وحده وعم الجميع العمل بها . وقد كرس الامبراطورية الوسطى هذا التطور يجعلها من مصر ، كما سبق ورأينا ، ادارة واسعة يقوم كل رجل فيها ، وفاقاً لدرجته ، بالمهمة التي عينتها له

الدولة . وبعد تعمير الوظيفة العمومية في مجتمع منظم نظفياً جديداً ، اتبع لكل شخص الاحتفاظ بدرجة في العالم الثاني تحت قيادة الفرعون . تنبىء « نصوص النواويس » التي يعود تاريخها الى هذا العهد بان العقيدة الشمسية ما زالت حينذاك تسيطر على المعتقدات حول الحياة بعد الموت . فهي انما تشير دائماً الى « رع » ولا تأتي على ذكر اوزيريس الا نادراً ولا تعطيه سوى دور غير ذي اهمية . لا ريب في ان هذه النصوص مصدرها بعض الاوساط الكهنوتية التي بقيت على تمسكها باولوية الهيا . وكان استنساخها على جوانب النواويس بمثابة قربان طقسي بغية الفوز بقوتها الطلسمية . ولكن وثائق اخرى معاصرة ومتنوعة - لا سيما ما جاءنا منها من المدافن الحفيرة - تتكلم عن اوزيريس كما عن اله يتحد الميت به او يصيح احد رعاياه . وهكذا فقد عمل بالعقيدتين في آن واحد . ولكن عقيدة اوزيريس احرزت تقدماً لا مراء فيه .

ان فكرة الدينونة الاخلاقية قد رسخت . وتعود الى عهد الامبراطورية الوسطى ، من حيث المعنى على الاقل ، اكثر النصوص وضوحاً حول واجب الملك نفسه في الطاعة « لماهات » إلهة الحقيقة - العدالة . وفي بعضها ايضاً اثبات حصول امتحان بعد الموت . اليك مثلاً « تعاليم » ملك لابنه : « تذهب النفس الى مقر اولئك الذين يعرفونها ... انت تعلم ان القضاة الالهيين الذين يمحكون المظلوم لا شفقة عندهم ... ساعة تنفيذ القانون » . وقد درجت العادة في نسبة هذه الدينونة الى رع . ولكن فكرة عقيدة اوزيريس لم تلبث ان لايتها . فقد اطلق على الميت اسم « اوزيريس المستقيم الصوت » ، الماحاً الى حادثة في اسطورة الاله : الدعوى التي اثبتت حقه في الملك بالرغم من مزاعم شيت .

بيد ان المصريين العاديين ، على ما يبدو ، قد استوعروا هذه الافاق البعيدة . فلا ذكر للرماس والادعية ، على وجه التأكيد ، إلا فيما يتعلق بالملك ؛ وهذا نفسه مما يضعف اهميتها . وان ذلك اكثر صحة عند باقي البشر ، إذ ان خوفهم ، عندما يعبرون عنه ، لا يتعلق إلا باليسع الكلامية الجاهزة وقيام انسالهم بدقة بما هو مطلوب منهم . ويبرز شعور مماثل في الطريقة المعتمدة للتخلص من العمل في الحياة الثانية ، وهم لم يواجهوا هذه المشكلة إلا بعد ان تيسر للجميع ولوجها . ولم يشعروا ، إلا في عهد الامبراطورية الوسطى ، بوضع تماثيل صغيرة في القبور يطلقون عليها اسم « الكفلاء » ويعتبرونها صوراً للميت نفسه او لخدمته ويفرضون عليها تنفيذ ما قد يطلب منه من سخریات . وهكذا فان السحر او ما يماثله اتخذ له مكاناً ، يتسع يوماً بعد يوم ، في العقائد حول الحياة الاخرى .

كان انتصار اوزيريس ناجزاً في عهد الامبراطورية الحديثة ، ولم يبق من انتصار عقيدة اوزيريس اثر لما اصطدم به من منافسة طويلة سوى بقاء بعض الآلهة ، الى جانبه ، من مجموعة الاله رع ، كوماهات ، ابنة رع وكوطوخ « مثلاً . وتحلت هليوبوليس عن نفوذها لمرکزین رئيسيين من مراكز عبادة اوزيريس هما بوزيريس في الدلتا ، وهي عاصمة هذا الاله إبان حياته

الملكبة ، وابيدوس ، شمالي طيبة ، حيث عثر على رأس جثته المقطعة . وهكذا تغلبت العاطفة الشعبية على نظريات اللاهوتيين الكونية .

يعيش الموتى اذن في « الغرب » بوجه خاص ، و « الغرب » هو مملكة اوزيريس تحت الارض . ولا ذكر ، الا عرضاً ، لوجود بعضهم في الزورق الذي تجوب عليه الشمس مناطق السماء . ويسلك رع ، في الليل ، طريقاً باتجاه آخر مستحضراً النور والحرارة للناطق المظلمة . ومن العبث هنا ان نرى الدقة والتلاحم في جغرافية ما وراء الارض . فهي تلجأ الى عبارات غامضة ومتناقضة احياناً « كحقل القصب » و « حقل يالو » الذي جعل منه اليونان « حقول ايليزيه » . ويكتنف الغموض نفسه وصف كيفية تصرف الاموات بوقتهم . فهم تارة يستسلمون للراحة بفضل خدمة « الكفلاء » ، ويحرقون تارة اخرى الارض التي يهبهم اياها اوزيريس ، او يقيمون في قبورهم ، او يعودون ، هائئين وغير منظورين ، ليتلهاوا بمشهد الاحياء على الارض . ولعل القصد من مقابلة هذه الاعمال المختلفة ترك الخيار لهم في انتقاء الوسيلة التي تحقق سعادتهم . ولعل قدرة سامية ايضا تقوم بهذا الاختيار باسمهم . ولكن لو نظمت هذه الآراء التي تتخللها قياتر كثيرة تختلف زمنياً ومصدراً ، لفقدت الكثير مما فيها من فنتة واغراء .

وزن النفس وما يبنيه لم تكن هناك ، على الارجح ، رغبة في الايفال في فهم معنى « وزن النفس » ، ذلك الاجراء الذي يخضع له الميت قبل دخول مملكة اوزيريس . ان منطقتنا ، وقد يكون اداة غير صالحة في هذا المدى ، يرى ان المفهومين اللذين يعكسها هذا الوزن لا يمكن التوفيق بينهما . فقد اعتقد المصريون ، من جهة ، ان الميت ، كل ميت ، يخضع لدينونة صارمة وزودوا كل ميت ، حتى المجرم ، من جهة اخرى ، بما يضمن له صدور الحكم لصالحه . وهكذا فقد تقابلت المبادئ الاخلاقية والاعتقادات السحرية .

كان للباديء الاخلاقية شأنها . فيجلس اوزيريس على عرشه رائساً الهيئة الحاكمة ، وينتظر وحشٌ غريب الخلفة الحكم الذي سيسلمه المحكوم عليه . يوضع قلب الميت وريشة ماهات في كفتي ميزان كبير حيث يجب ان يتعادلا للحصول على النعمة المرجوة . انها لرموز مؤثرة حتى في سذاجتها . يدعى قلب الميت للشهادة عليه عند الاقتضاء . وهذه الفكرة ليست بالفكرة التافهة ، ولكن المهم ان يظل القلب حراً في شهادته .

كان الميت يأخذ المبادرة في الكلام فيعترف « اعترافين سليبين » متوجهاً ، في الاعتراف الثاني الاكمل ، الى اثنين واربعين قاضياً منكرأ ارتكاب اثنتين واربعين خطيئة يعددها واحدة واحدة . وكانت القائمة طويلة متشابهة غير منظمة تتجاوز فيها الامانات الملحقة بالآلهة ، والجرائم المقررة ضد السلطات المدنية ، والاضرار المنزلة بأرزاق الغير وشخصه ، والزلات الاخلاقية نفسها .

ان هذا المثال الاعلى الذي تمسده بمضادات بوضوح ، لا يخلو في مجموعه ، من مفهوم سام للوجدان الاجتماعي والفردي على السواء . ولكنه بسبب اكتماله ، قد عز بلوغه وتحقيقه . فكلم الأكاذيب انطوت عليها هذه الانتكارات المتسلسلة ، يا ترى ؟ كان الميت ينادي القضاة باسمائهم ، التي يعرفها تماماً ، وكان له ، بسبب هذه المعرفة ، بعض التأثير عليهم . والحقيقة كانت المحكمة ، بالرغم من مساواة مظهرها ، تخشى التشهير وتقبل بالمساومة . وبعد هذا ، يبقى الميزان وهو المرحلة الاخيرة او المستحدثة ، ويبقى القلب الذي يجب ان لا يتجاوز وزنه وزن الريشة . لكن هذا القلب كان موضوع مناقشات ملحة هي اقرب للابتهالات الحارة : « ايه يا قلبي بل يا قلب امي ... لا تقف شاهداً ضدي ؛ لا تجعل من وزنك حجة علي ... ؛ لا تقل ... » .

ان « كتاب الاموات » الذي يتضمن ، في ما يتضمن ، التفصيلات التي اوجزناها ، يدعى بالحقيقة « صيغ لاجل الخروج الى النهار » . يبين هذا الاسم بصورة كاملة ما في هذا الكتاب من منتخبات مجموعة على غير تلاحم تزود الميت بكل ما يحتاج اليه للتغلب على المكابد الكثيرة ، المادية والروحية ، التي تنتظره في طريقه الى « الغرب » . وبالرغم من انتقادات بعض المفسرين المعاصرين ، لا تبدو عملية « وزن النفس » ناشئة في هذا المجموع . وكان لا بد من ان يلقى لها الانسان عند اقتراب ساعة الموت . لكن هذا الامتحان مما تستطيع فيه الذاكرة البقطة ، بمساعدة الكتابة الموضوعية الى جانب الميت ، ان تخرج الانسان ظافراً بتلاوة بعض العبارات المضمونة المفعول . فكيف يمكن صرف النظر عن كلمة « سحر » ، والامتناع عن الاعتقاد بأن اللجوء الى هذه الصيغ كان قنبلاً يحو اخطاء الحياة الارضية ؟ لا شك في ان المؤمن كان مدعواً لأن يترفع عن هذه الاخطاء ولا يأتيها حتى يكون خلاصه القبل مضموناً . ولكن ما من اثر ، في اي مكان ، لتحتفظ بمصر فعالية هذه الصيغ التي يحرص المؤمن ، وان مجرماً عنيداً ، على ان يتزود بها .

حددت حضارة مصر الفرعونية علماً للاخلاق خاصاً بها جاعلة اياه ، منذ القديم ، على صلة بفكرة الحياة الثانية التي تليح امكانات كثيرة للعقوبة . ولكنها تفننت في اكتشاف وتعميم وسائل التهرب من هذه العقوبة . فاذا يكون علم الاخلاق عملياً ، يا ترى ؟

٣ - العبادة

كانت النتيجة الحتمية لهذا التهرب ازدياد اهمية العبادة والطقوس . وكان من الضروري ، على كل حال ، ان تكون هذه الاهمية بالغة لان على مصر ، المزدهرة بفضل الالهة ، ان تعرب لهم عن شكرها واعترافها بجميلهم . ولكن عبادة الاموات لم تلبث ان رافقت عبادة الالهة الحقيقيين . فهي ضرورية لحياتهم الثانية . واذا كان من المسلم به ان الاموات العاديين أعجز من ان

يلحقوا ضرراً كبيراً بالأحياء ، حتى الممهلين ، فمن الواجب ان يحسب حساب لتضامن الأجيال المتلاحقة منهم .

وكان بين عبادة الآلهة وعبادة الأموات كثير من النقاط المشتركة ، ولا عجب في هذا الالتقاء بينهما . فالطقوس الجنائزية انما وضعت لصالح الملك الميت ، استبقاء لقدرة العاطفة على مصر ، قبل ممارستها على غيره اولاً وعلى الجميع اخيراً . ولا عجب ايضاً اذا ما قلنا ان هذا التشابه بين العبادتين مصدره اثر اهم العقائد ، عقيدة رع وعقيدة اوزيريس بنوع خاص ، على هاتين المجموعتين من الطقوس . فمجموعة طقوس عبادة الآلهة العظيمة انفسهم مشبعة بأفكار عقيدة اوزيريس ، فكيف بطقوس عبادة الاموات ؟ وفي العجالة التالية ما يسمح بالوصول الى بعض المقارنات بينها .

عبادة الآلهة سارت عبادة الآلهة ، من حيث مبدأها ومظاهرها ، على قواعد عامة بالرغم من تنوعها وفاقاً للآلهة والمعابد .

ودلت هذ العبادة على الاعتقاد الثابت بأن الآلهة يشعر بما يشعر به اي انسان . فالعبد هو مسكنه الذي تُدخِل اليه الحياة والحركة جوقة من الخدم ولا يتاح للأرغمهم مقاماً ولوج الحجرة الخاصة حيث يقم الآلهة تحت اعراض تمثاله . وهو كالانسان بحاجة الى الكثير من العناية والملاطفة ، والترفيه والبذخ ، والمأكول والمشرب ، والراحة والنوم ، واللهو والاعادياد ايضاً . وكل هذا كان مضموناً باسم الملك الذي يميز الهبات السخية والذي يتولى الخدمة الكهنوتية بنفسه ، اذا سمحت له ظروفه بذلك ، بحكم كونه ، قانوناً ، الكاهن الكاهن .

كانت تقام كل صباح وفي كل المعابد ، مراسم متماثلة : حركات طقسية وسجديات وصلوات وناشيد واحراق بخور . كان الكاهن يفتح الحجرة الالهية « ويوقظ » الآلهة ويقدم له ، قبل اي شيء آخر ، « عين هوروس » التي فقدها هوروس في صراعه ضد شيت ثم عثر عليها وقدمها لآبيه اوزيريس . ويقدم له بعد ذلك تمثالاً صغيراً « لماهات » ابنة « رع » . ثم يغسله ويلبسه ثيابه ويزينه ويمسحه بالطيب ويخضبه . ويقدم له اخيراً ما لذ وطاب من انواع الطعام والمشرب على سباط او حصير امام التمثال . وفي ساعات معينة من النهار تفتح الحجرة مجدداً لكي تقدم له وجبة اخرى . وعند حلول المساء ، يرتدي ثياب الراحة ويستلم للنوم ، بعد ان يقفل المكان المقدس .

اما الذبائح فلم تقدم له لأنه لم يهتم ، على ما يبدو ، لنحر الحيوانات وتقطيعها وطهيها . غير ان الكاهن القائم بالخدمة كان يحرك مطرقة ، ولعل في هذا الرمز ذكرى ماضٍ سحيق لم تحصل فيه الاحتفالات من اطعمة مستحجبة .

كان الهدف من الاعياد ادخال البهجة الى قلب الآلهة المتفرد . ويبدو ان معظم هذه الاعياد على ضعف معرفتنا بها ، كانت تستزم تكشيد ابولي ، تطوافاً في الهواء الطلق ، على الاقل في هو

المعبد الكبير حيث كان باستطاعة المؤمنين ان يدخلوا . اما التمثال ، الذي لا يراه عادة الا نفر من المخطئين ، فكان يشترك في التطواف جالساً ، شأن رع في السماء ، في قارب يحمله الرجال على اكتافهم . وكان الاله في هذا الظرف خصوصاً ، وربما في ظروف اخرى ووفقاً لكيفيات اخرى ، يجيب على اسئلة العلمانيين باهترازات من تمثاله يجيد الكهنة تفسيرها .

تأتي المستندات على ذكر اعياد اخرى على جانب كبير من الاهمية او الشعبية . لتترك جانباً الاعياد الملكية ، وهي دينية قبيل كل شيء ، لان الفرعون اله على الارض له كهنته وعبادته اليومية واناثيده الخاصة . فكان له اذن اعياده ايضاً : اعياد الجلاوس في منف ، والاعياد التذكارية السنوية ، وخاصة اعياد « سد » التي تجدد نشاطه الالهي في مواعيد دورية منتظمة . اما الاعياد الكبرى في المعابد المحلية فان تنوع احتفالاتها الدينية وخاصاتها ، على معرفتنا المحدودة بها ، تفوق كل وصف ويتعذر تفسيرها احياناً . كان بعضها يستغرق اياماً عدة تتخللها انتقالات آلهة يزورون او يردون الزيارة في موكب فخم يسير على مياه النيل . وكان يرافق كثيراً منها مشاهد ايمانية او ناطقة احياناً تستعيد اسطورة الاله وتشترك فيها ايضاً بعض التماثيل . والاسطورة التي استغلت بالترفضيل ، في هذا الصدد ، بسبب تأثيرها الكبير وشعبتها الواسعة ، هي اسطورة اوزيريس التي استوحتها اعياد كثيرة لا سيما عيد ابيدوس الذي اطلق عليه هيرودوتس اسم « الاسرار » . ولكن الرحالة اليوناني والنصوص المصرية الكثيرة التي تشير اليها تعتمد العموس حول ما يستطيع الحاضرون استنزله فيها من الهامات قد تطمئنتهم سلفاً عن بعثهم الآتي .

ويرفض هذا البعث ، على كل حال ، القيام بطقوس تؤمن
الراسم الجنائزية وعبادة الاموات
الشروط المادية الضرورية للحياة الثانية التي لا يمكن تغييرها ،
على نقض الشروط الاخلاقية .

فكان من المهم حفظ الجسد اولاً كي تستطيع النفس التي انفصلت عنه عند الموت ان تستقر فيه . وامعاناً في الحرص على ذلك ، توضع في المدفن تماثيل يستعاض بها عن الجسد . بيد ان الجسد نفسه افضل من كل هذه التماثيل . وبما انه قابل الانحلال وجب تحويسه الى مومياء وفاقاً لطريقة فنية عولجت بها جثة اوزيريس لاول مرة : انتزاع الاحشاء ووضعها في اربعة آنية من الالبستر ، فصل اعضاء الجثة على مثال اوزيريس وغمرها في محلول من الاملاح المعدنية ، حشو الجثة بمواد رائينجية وعطرية واعادة شكلها بواسطة كتل من النسيل والقش وتقيطها بعصيات كثيرة من الكتان . ويقوم بهذه الاعمال كلتها مهنيون يعتبرون كهنة من درجة دنيا . وهكذا تغلبت ألوف الموميات على الزمن ، بفضل مناخ مصر الواقي ، بعد جفافها . ومنها ما يرتقي عهده الى الامبراطورية القديمة ، على الرغم من ان طريقة التحنيط هذه قد استمرت ، بعد ذلك ، اكثر من ألف وخمسةائة سنة في طريق التقدم والاكتمال .

ثم تأتي الجنائز مع موكب الاقارب وتماثيل الآلهة والناححات: الجرار على النيل - على غرار اوزيرس - ، الصعود البطيء نحو المقبرة عبر الاسوار الصخرية الغربية، وضع النوارس في مدفن مصمم كسكن لليت . ويقوم اخيراً كاهن يمثل هوروس بأعمال سحرية ، اهمها « فتح القدم والعنبنين » ، الغاية منها إعادة الوظائف الحيوية لليت بصورة نهائية . ثم يوصد المدفن وتشهر لعنات هائلة على كل من تسول له نفسه اطلاق راحته .

ومع ذلك لم تكن مطالب الميت لتقتصر على هذه المراسم الجنائزية . فهو بحاجة الى الغذاء ؛ وهناك نصوص عديدة تكشف عن وسواس الجوع والعطش عنده اللذين يدفعان به الى احقر التسولات . من هنا كان النداء الى القرابين الغذائية التي ترافقها الصلوات والايامات الطقسية . وكانت هذه القرابين مبدئياً من واجبات الابن اولا والحفيد ثانياً وغيرهما الى ما حد له في هذا التسلسل ، وكانت تدعى « عين هوروس » ، على غرار الرمز المقدم كل صباح الى التمثال الالهي في المعبد ، وتقابل الوجبات المقدمة للآلهة . ومن الممكن عملياً ان يستعاض بالتماثيل عن الاحفاد ؛ فكان في الهياكل المدفنية خاصة كهنة ويرانادات لهذه الغاية . وليس من ذكر عملياً الا ويحي ومن وقف الا ومصيره الحجز . والاموات صائرون حتماً الى الابد في يوم قريب او بعيد . وسعداء جداً اولئك الذين لم يعتد على قبورهم سوى الاثريين المعاصرين . وشغلت مكافحة ناهي القبور اجهزة أمن جميع القرائنة الذين حرصوا على استتباب النظام ؛ فماذا نقول عن تلك العهود التي تراخت فيها الادارة مفسحة المجال امام مخاطر اللصوص الجريئة في سبيل الاستيلاء على القرابين الثمينة المودعة الى جانب النواويس ؟

من الواضح ان ما قيل هنا لا يختص إلا بَعْضُ هذا العالم الذين عندهم من الثروة والنفوذ ما يزيل كل عقبة مادية تحول دون العناية بيجنتهم . ولا تتكلم الوثائق عن غيرهم من اصطدم حقهم بالحنود ، من طبقة اجتماعية الى اخرى ، بالعقبات العملية الكثيرة التي جعلته نظرياً فحسب . لذلك يعثر على موميائهم الوضيعة دخيلة على القبور القديمة ، او على آثارها فقط لان الوفير في التحنيط لا يكون إلا على حساب جودة النوع . وحتى يفسد ابن الميت هوروس لأوزيرس جديد ، كان لا مندوحة له من ان يملك الحد الأدنى من الموارد . وهكذا كان للجمتع المصري ، شأن بجمتعات اخرى كثيرة ، ضحاياه حتى في العالم الثاني ، وهم هم في كل زمان : اكثر الناس ضمة في هذا العالم .

الدين والحضارة
 في جميع هذه العبادات ، للآلهة كانت ام للاموات ، لم يكن للافعال المادية ، رسماً ، من قيمة الا اذا سمت بها التقوى الصادقة واخلق الكاهن القاسم بالخدمة ومن يمثله . بيد ان ظاهر الحق ، في هذا المجال ، يفرض علينا موقفاً حذراً حكيماً ، بالرغم من ان المثل الاعلى قد دام طويلاً . فالحضارة المصرية ، الى جانب المعابد والتقدم للآلهة والقبور والمراسم الجنائزية والتقدم للاموات ، استندت الى عمود فقري هو معتقداتها التي لا يه

كثيراً أن تكون رأّت فيها اولاً ، عملياً ، العمارات والمراسم الالزامية بنوع خاص . فهي قد شيدت العمارات وبذلت جهوداً صادقة في اقامة المراسم . وهذه المهمة المزدوجة شاقة جداً حتى على بلاد تتمتع بمثل هذه الثروة . فقد انك الفلاحين ما كان يفتتغ من تتاج كدحهم . وهم دفعوا ، من يؤسهم الخانع ، بذخ الآلهة وبذخ الاحياء العظام المدعون لان يصبحوا الاموات العظام . وكان قربانهم ، المحظيين في هذا النظام السياسي الساحق ، الفن المصري المغفل والفخم .



الفصل الرابع

المظاهر الفنية والعقلية

١ - الفن

ان الارتباط بين الدولة والدين ، هيكل الحضارة المصرية ، من القوة بحيث يتعذر القطع في الصبغة التي تسيطر على الفن المصري ، املكية هي ام دينية . وهاتان الصفتان تتعارضان بل تتداخلان ، فالملك الاله متسلط على الحياة الدينية ، والقبور الخاصة نفسها منوط امرها ، عملياً ، بالمؤسسة الملكية ، وهو الملك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الذي يملك كل شيء وهب ، على هواه ، الارض والمواد اللازمة لبناء القبر . وفي العهود اللاحقة نفسها ، كان الافراد الذين يملكون من الثروة ما يتيح لهم تحميم عمارتهم المدقنية ، مدينين بسعتهم الى خدمة في الجيش او في الادارة او في الكهنوت .

ولذلك يتضح كيف ان عهود ازدهار الفن المصري تقابل عهود ازدهار الملكية الفرعونية . فقد تسنى هذه الاخيرة ، بفضل الموارد الكثيرة التي وفرها لها حسن سير الآلة الحكومية واستثمار المقاطعات الخارجية ، ان تكثر من البناء وتوسع مجالات سلطتها وتوجه جهود الفن نحو مشاغلها الخاصة . وفي العهود المعروفة بالمتوسطة - الفوضى بين الامبراطوريتين القديمة والوسطى ، غزو الهيكسوس ، السيطرة الآشورية والفارسية - لم ينخفض الانتاج فحسب ، بل انحط ، من حيث القيمة الفنية ، مظهراً استرخاء موازياً للتدخل السياسي والاجتماعي ولتصدع التقاليد القومية .

وهكذا فقد تطور الفن المصري عاكساً في ذلك تطور الملكية ابداع الامبراطورية القديمة نفسها . يعود للامبراطورية القديمة ، التي اوجدت ما يمكن ان نسميه قاعدة الدولة وطوقها ، الفضل في تركيز تقاليد الفن وامثلته الكبرى باستثناء الهندسة المعمارية ، لان تصميم المعبد قد تأخر في بلوغ صورته النهائية ولان الاهرام الملكية الكبرى التي شيدت في عهد السلالة الرابعة لم تؤخذ مثالا لاي بناء آخر. غير ان امثلة الاعمدة الرئيسية وضعت

نهائياً : الاعمدة التي عرفت ، بعد شموليون ب « بروتودوربة » لانها ، بخلوها من القاعدة وبضوعها الجوفة وبتاجها البسيط ، تذكر بطراز من الاعمدة ابدعه الاغريق فيما بعد ، والاعمدة ذات الجذوع التي تنتهي بزهرة بردي تقوم مقام التاج . كما ان النحت الذي توصل الى تقنية رفيعة اخذ يحقق التماثل ويزين الانصاب وجدران المدافن بنقوش بارزة تعالج المواضيع التي ستوارثها الاجيال : الملك ، الالهة ، ابو الهول ، الميت وعائلته ، القربان للاله او للميت ، مشاهد الحياة اليومية ، الخ .. فتحدت منذ ذلك الحين المصطلحات الهامة لما يتعلق بالجسم البشري واوضاعه وازيائه وخصاياته .

وجد الفن القديم المتدع نفسه امام اتجاهين كبيرين : الواقعية والمثالية اللتين على كل فن ان يختار بينهما ، فمكسها معاً واعطى كلا منها نصيبه المتفاوت وفقاً لفاية عمله . احتفظ الفن الخاص بجرية اكبر ، دون ان ينحرف عن القاعدة العامة لموضوعه ، وتقيد بالواقع الذي يعبر عنه دون ان يهتم للمبالغة في تعظيمه ، صارفاً النظر فقط عما فيه من ضعة وإبتذال وبؤس ومنتسكاً بما في الحياة من قننة ومن نكتة احبانا . اما الفن الرسمي فقد كان والفن الخاص على طرفي نقيض لان جوح الخيال فيه لا يلبق لا بالالهة ولا بالملوك ، ولذلك فقد انطلق من الواقع المراقب ، اي من الصورة ، ولكن احترام القدسيات قد دخل عليه لاضفاء الجلالة الصافية عليه .

التطور اللاحق
 يتميز كل من العهود الكبرى للتالية بطابع خاص يضيف الى الفن شيئاً جديداً جرياً مع التيار العام الذي يبرز فيها .
 حققت الامبراطورية الوسطى تنظيماً داخلياً كبيراً . وقبني الفراغنة انفسهم هذا الواجب الذي عينت الدولة باسمه ، لكل مواطن ، مكانه وعمله في المجهود الجماعي . لذلك نمس ، على اوجه بعض التماثل الملكية على الأقل ، انسانية اكثر احساساً وتألماً وتأثيراً ، حتى في خشونتها . فالواقعية ، هنا ، تتقدم بقوة .

في الامبراطورية الحديثة نلس عودة الى المثالية . غير ان الاناقة الرشيقة تلتطف من تصنع النبل . فلم تكن الطبقات الحاكمة المصرية ، في يوم من الايام ، اوسع ثرورة واكثر سعادة مادية واوفر وسائل لارضاء اذواقها الرقيقة .

اما ثورة امنوفيس الرابع - اخناتون - القصيرة الامد فقد كانت شاملة ، على الاقل في البلاط الذي انتقل الى تل المارنة العاصمة الجديدة ، وتميزت ، في الفن كما في العقيدة الدينية ، بواقعية جريئة تصور العيوب الطبيعية نفسها الا في شخص الملك . ولكن اخلاصها يسهل عليها التعبير عن الحياة الروحية العارمة التي تجيش في « ملهم » اتون .

وبراقن الجهد ، الذي بذل في عهد سلالات سايس لاستعادة الوحدة الداخلية وبعث السلطة الخارجية ، تصمم حازم على الرجوع الى الفن القديم ، فعاد الفنانون ، بله اختياريهم ، الى الامثلة العامة في الامبراطورية القديمة ، واخذوا يقلدونها ، مدخلين على الصورة الواقعية ، خطوطها الكبرى الضليعة نفسها .

مصر القديمة في فنها مها كان من حقيقة هذا التنوع ، فانه لم يُطرح بوحدة الفن المصري العميقة الجذور . ومن كل ما انتجه هذا الفن ، تبرز ، بقوة غريبة ، بعض التعاليم التي تأتلف مع خطوط جوهريه اخرى في الحضارة الفرعونية .

توفرت دائما لاهم 'زُبُن هذا الفن سلطة تؤمن لهم وسائل عمل تفوق بضخامتها كل تصور . وقد نزع هذا الفن ، لا سيما في الهندسة المعمارية ، وفي صناعة التماثيل احيانا ، الى ان يصبح فنا واسعا جبارا يتعدى الاقيسة البشرية . فكانت مصر ، حتى في هذه الناحية ، ارض الآلهة ، وكان الناس فيها لا يقفون عند حد في خضوعهم وانقيادهم لهؤلاء الآلهة . وتفرض علينا روايت هذه الفن المميزة ، كما جرى للرحالة الاغريق ، ان نفكر بالجاهير التي اقتلعت الفدرات ونقلتها ودفعت بمرق الجبين اثمان المواد الضخمة او الثمينة ، قبل ان نفكر بالولئك الفنانين الذين صمموها وحققوها .

فهذه الروائع نفسها ايضا دليل على الايمان الذي عمر قلوب هذا الشعب ، فتحمل التضحيات الفائقة في سبيل اياته بألهته وايانه بخلود امواته وايانه بملوكه .

وقد رافق هذا الايمان ، من جهة ثانية ، رجاء دائم ، فأوجد في الشعب تقاؤلا وبهجة والهاما . اجل لم يستسلم الفن المصري لهذه الاتجاهات في كل مكان . ولكنه اتاح لها فرصة الانطلاق ، كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، مضفيا عليها تميّزا بريثا غدا هو نفسه ، في معالجة بعض المواضيع ، ضريا من ضروب الطقس .

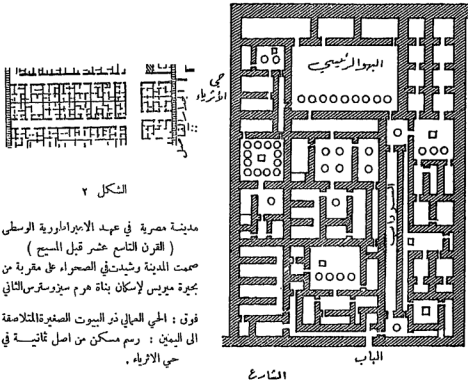
١ - الهندسة المعمارية

يسكن الاحياء يتجلى طابع العظمة على الاخص في ما تبقى من الآثار البنائية . ولا غرابة في الامر ، اذ ان لمعارفنا حدودا تقف عندها . هنالك الحدود الزمنية اولا : فالامبراطورية الوسطى اقل انتاجا ، وغالبية مدافن هذا العهد مبنية بالآجر وليست اليوم سوى انقاض متراكمة لا شكل لها ، كما ان المعابد ، على كثرة عددها ومتانة بنائها ، قد ادخلت عليها فيما بعد تجويرات جمّة .

وهناك ايضا الحدود المنطقية . فكل ما كان معدا للناس في حياتهم على الارض قد قام بالتفضيل ، رغبة في الاسراع ، على مواد يسهل منالها ، لا سيما اللبن الذي ما لبث ان انهار وتفتت . والقصور الملكية نفسها ابعد من ان يتيسر تخطيطها اليوم لان الآثار التي تركتها لا تتعدى بعض ما ازدانت به الجدران وبعض حفر قامت فيها احواض السباحة التي تشير اليها النصوص . وجلي ان هذه الآثار تضمحل اهميتها اذا ما قورنت بالكثير غيرها من الآثار البنائية

الضخمة . واذا كانت هذه هي حالة القصور ، فماذا عسانا نقول عن المساكن الخاصة ، لا بل عن المدن نفسها ؟

بيد ان اعمال التنقيب قد قدّمت لنا بعض الادلة . وهكذا فقد كان اكتشاف معالم مدينة مؤقتة ، مبنية في عهد الامبراطورية الوسطى على مقربة من احد العمال ، اكثر تيسراً ، كلما افضى انتهاء اعمال العمل الى الاجلاء عنها بسرعة . فاتبع وضع تخطيط مساكن مائة لموظفي الادارة كما للعمال . ولكن في ذلك كله من الاهتمام ما لا يسمح بتحديد الغاية من الغرف المختلفة ، حتى في المساكن الكبيرة نفسها . ولنكتف بالاشارة هنا الى سياج البيت من الخارج ، والممر



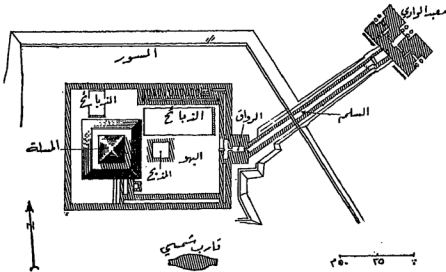
الشكل ٢
مدينة مصرية في عهد الامبراطورية الوسطى
(القرن التاسع عشر قبل المسيح)
صممت المدينة وشيدت في الصحراء على مقربة من
بحيرة ميرييس لإسكان بناء هرم سيذوسقرس الثاني
فوق : الحي العالي ذو البيوت الصغيرة المتلاصقة
الى اليمين : رسم مسكن من اصل ثمانية في
حي الاترياه .

الطويل ذي الزوايا المؤدي الى البهو الرئيسي الذي يحاذيه امام جهته الكبرى رواق مستطيل ، والفناءات الداخلية باعمدها واحواضها ، وسطوح الغرف التي توفر التنعم ببرودة الليل ، وهذا التخطيط انما يستجيب لرغبة مزدوجة : صفاء المنزل والرفاهية . اما المساكن الشعبية المبنية في حي خاص يفصله جدار عن حي الاغنياء فتقتصر على ثلاث غرف او اربع تؤلف جزءاً من كل هندسي رتيب هو شبه برقعة الشطرنج .

وباستثناء الحدائق والمساكن المتلاصقة ، وجد العلماء في غير امكنة ، وفاقا للطبقة الاجتماعية المعنية ، هذا السعي وراء الحياة اللذيذة تارة وهذا التواضع تارة اخرى . ولكن ليس في كل ذلك

اي شيء مبتكر يثير العجب ، سوى المعابد والمدافن ، تلك الابنية المشيدة بالحجر الصلب
والمعدنة ، اساساً ، لان تبقى مدى الدهر ، فبقيت مدى الدهر .

المعبد لم تستقر هندسة المعبد إلا بعد وقت طويل . ولا يبدو ، في عهد الامبراطورية القديمة ،
انها كانت واحدة لكل المعابد ، إذ كان لكل إله كبير تقريباً معبده الخاص به .
واشهر هذه المعابد معبد الاله الشمس ، وهو طلق السماء كما يليق به ان يكون . استغيض فيه
عن التمثال الالهي برمز شمسي كان في البدء ثقيلاً وموضوعاً على قاعدة كبيرة هرمية الشكل ،
وقد اخذت عنه فكرة المسلة . وبعد حقبة طويلة من الزمن ، ادت عبادة آتون ، التي نهض بها
فرعون نبي ، الى تشييد معبد شمسي مماثل في تل العمارنة . ولعل ما بقي من هذا التخصص



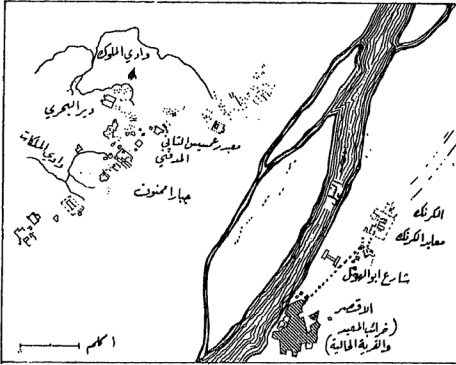
الشكل ٣ - معبد شمسي شيده الملك نيوسري
(السلالة الخامسة : حوالي السنة ٢٥٠٠ قبل المسيح)

الأول قد عاد وبرز ، على عهد الامبراطورية الوسطى ، في ظهور تاج العمود « الحاتوري » الذي
رسم فيه ازميل النحات مزهراً ورأس امرأة ذا اذني او قرني بقره . وقد خصص هذا العمود
بالمعابد المكرسة على اسم الالهات . بيد ان هذا العهد قد ابتكر أيضاً ، ولا شك في ذلك ،
العمود « الاوزريسي » ، الذي يستند اليه الظهر تمثال للملك بشكل اوزريس . وقد اعتمد هذا
العمود في المعابد المكرسة للاموات أيضاً . وان في هذين الابتكارين ، لعمري ، دليل النفوذ
الذي تتمتع به اوزريس وحاتور احدى آلهات اسرته . وقد توصل اللاهوت الشمسي أيضاً الى
فرض بعض الرموز على جميع المعابد . وهذا برهان جديد على ما لمقائد هليوبوليس واوزريس
من اثر عميق : فكان لا بد لوحدة الطقوس من ان تقود الى وحدة التصميم الهندسي .

فبعد التنوع القديم ، توصل المصريون ، اذن ، في عهد الامبراطورية الوسطى كابعدهد ، وربما
قبل ذلك ، الى مثال نموذجي موحد للمعبد الالهي . اجمل كان هنالك بعض الفروق في الواقع ،

خصوصاً في معبدي الكرنك والاقصر ، عند مداخل طيبة ، حيث نشاهد كل تركيب عجيب ، لان فراغة كثيرين ارادوا ان يسوا ملكهم ، فيها ، بأبنية شخصية ، وقد حققوا ذلك اما بتوسيع بعض الاقسام من عمل اسلافهم اما باضافة اقسام اخرى بمائة البها . ولكن باستطاعتنا ان نستخلص تخطيطاً عاماً شاملاً لاسما وانه قد حقق ، اكثر من مرة ، في عهود متأخرة جداً وحتى في ايام الاحتلالين المقدوني والروماني .

كانت تؤدي الى المعبد ، من المدينة او النهر ، طريق مرصوفة بالالواح الحجرية يحف بها من الجانبين صفان من تماثيل ابي الهول ، وقد يستعاض احياناً عن رأس ابي الهول برأس الكبش .



الشكل ٤ - منطقة طيبة
كانت مدينة طيبة مبنية على الضفة اليسرى قبالة الكرنك والاقصر

والكبش حيوان مكرس لأمون ، فمن الطبيعي بالتالي ان ينتصب تمثاله في طريق تؤدي الى المعبد هذا الاله . وتنتصب عند آخر الطريق ، نقلاً عن العبادة الشمسية ، مسلتان شاخنتان منحوتتان من حجر واحد تلتهمان عند القمة بشكل هرم صغير ، استرسل المصريون في وصف اعمال البطولة التي تطلبها اقتلاعها ونقلها وايقافها . وبعد المسلتين يقوم السور يجدرانه الضخمة محيطاً ببيت الاله الذي هو المعبد نفسه . وقد حافظ هذا البيت ، نظراً لقوة مالكة ، على مظاهر القلعة الحصينة من الخارج . وكان يدخل اليه بواسطة باب يقوم على جانبيه عمودان مربعان كبيران تسند اليها الظهر تماثيل ضخمة للفرعون الباني .

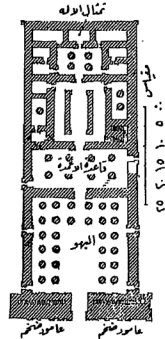
يلي هذا الباب هو كبير تحيط به اربعة ذات اعمدة يستطيع ان يدخل اليه جمهور غفير من

الشعب إبان الأعياد التي ينظم فيها التطواف بتمثال الآله وهو يرتج على قاربه. أما بعد ذلك فلم يكن مسموحاً بالولوج إلا لبعض اصحاب الامتيازات الذين يتضاءل عددهم شيئاً فشيئاً لاسيما وان قياسات الأبنية والغرف نفسها تتضاءل أكثر فأكثر. وعلاوة على ذلك كانت الأرض، بين قاعة وقاعة، ترتفع شيئاً فشيئاً بواسطة درجات، بينما كان السقف ينخفض باتجاه الطول ومن جهتي المحور. ويرمز ذلك إلى صعود الشمس وانحدارها يومياً في السماء. وقد اشتركت تيجان الأعمدة نفسها أحياناً بهذه الرمزية، فتبدو الأزهار، التي تستوحىها، متفتحة على مقربة من المحور ومنغلفة إلى اليمين واليسار، شأن الأزهار الحقيقية التي تفتح أوراقها في وضوح النهار وتطبقها عند اقتراب الليل.

وهكذا فإننا نجد، بعد البهو، «قاعة الأعمدة» وهي مسقوفة بألواح حجرية ملقاة على أعمدة مختلفة الارتفاع، بما يوجد فسحاً بين الألواح يتسرب منها النور والهواء. وبالرغم من ان القياسات نموذجية، فإننا نذكر هنا بعضهما لما تعطيها من إيضاحات ضرورية: تبلغ القاعة الكبرى في معبد الكرنك، التي أتم بناؤها رعمسيس الثاني، ١٠٣ امتار طولاً و٥٠ متراً عرضاً ويتنصب فيها ١٣٤ عموداً يزيد ارتفاعها عن العشرين متراً عند محور القاعة ويبلغ قطرها ٣,٤٠م. فلا عجب إذا ما تركت في نفوس زائريها انطبعاؤاً لا ينسى عن جلال وعظمة ما فوق الطاقة البشرية.

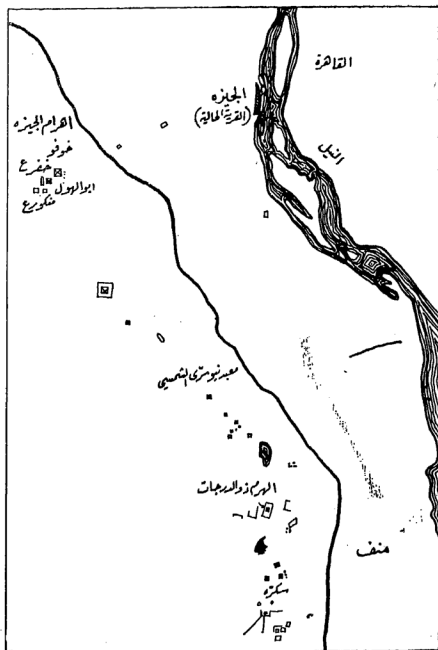
وتقوم أخيراً، في آخر المعبد، الحجرية المدة لسكنى التمثال أي الآله نفسه، وهي غارقة في ظلام دامس يفصله عن النور الذي يعمر فناء البهو نور خافت في قاعة الأعمدة. ولا يستطيع سوى كائن بشري واحد هو الملك أو منوّضه ان يفرض الخاتم القرّيني الموضوع على باب الحجرية ويدخلها ويحتفل بمراسم العبادة.

وتحيط بهذه الحجرية غرف مختلفة تستخدم مستودعات للالبسة والمصنوعات الثمينة. ولكن يتوجب علينا ان نتخيل أيضاً أراضي محاطة بسور أكثر اتساعاً تتوزع فيها مساكن خدام الهيكل والمكاتب والمخازن والمصانع والحدائق والبحيرة المقدسة، أي كل ما هو لازم لرفاهية الآله وللضروريات طائفة الخدم المكرسين لخدمته والعناية بملكاته.



الشكل ه- رسم معبد حصرم في الكرنك (القرن الثاني - حصر قبل المسح)

وقد حدث ان دفعت الرغبة في بذل مجهود يتصف بالجدة إلى اختيار مكان المعبد في بقعة وعرة عسيرة المسالك جداً، كما هي حال بعض المعابد «المدفنية» حيث يحتفل بعبادة الميت الموله، وهي هامة جداً حين يشيّدها الملوك إبان ولايتهم وتنسجم مع النموذج العام الذي سبق



الشكل ٦ - منطقة منف

وصفه . ولم يقر الرأي ، إلا في عهد متأخر ، على تشييدها بعيداً عن المدفن القائم خارج السهل المروي والمحروث ، فأقيمت في الامكنة الوعرة . واهم هذه المعابد المدفنية تلك التي بنيت عند لحف اسوار دير البحري الصخرية والتميزة بسقوف تصل بينها السلالم الحجرية وتقوم عليها الفناءات ذات الاروقة : معبد منتوحوب الاول والثاني الذي يعود الى عهد الامبراطورية الوسطى وخصوصاً معبد الملكة حتشبسوت حيث وفق المهندس الى الجمع بين عمله البشري وبينه طبيعية جلية الوعرة .

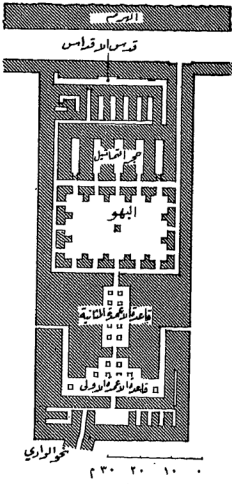
تحتت هذه المعابد جزئياً في الصخر الصلد ؛ وحدث ان تحتت فيه معابد كاملة . فقد امر رمسيس الثاني بنحت اثنين منها في جبل ابي سنبل امام الشلال الثاني ، تتقدمها فناءات في الهواء الطلق وتغوص اقسامها الأخرى في الجبل ، يحدراها واعدتها التي ابقى عليها ، من اصل الصخر ، اثناء النحت والتفريغ . ومام اكبر المعبدن ، تقوم اربعة تماثيل ضخمة تمثل الملك جالساً ، وتتعاقب ، في جوف الصخر ، عدة غرف ، بما فيها غرفة الاعمدة ، ترتكز على ثمانية اعمدة اوزرسية .

المدفن لقد اوحى المدفن ، المعد لاستقبال المومياء والتماثيل الكفلاء ولتأمين مسكن للميت الذي عادت نفسه الى جسده ، تحقيقات اكثر غرابة ايضاً ، اذا جاز هذا القول ، لاننا ، اذا ما ذكرنا المدفن في الكلام عن مصر ، ترسم امامنا في الحال ، صورة تلك الاكديس الثلاثة الهائلة من الحجارة المجموعة التي تنتصب في الجزيرة الى الجنوب الغربي من القاهرة . بيد ان الاهرام الكبيرة لا تمثل سوى فترة قصيرة من تاريخ المدفن المصري او بالاحرى ، في نطاق اضيق ، من تاريخ المدفن الملكي .

ان عناصر المدفن الاساسية تبرز بكل وضوح في الابنية المدفنية الاولى التي خلفت ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الحفر العادية . فالقبر نفسه محفور على بعض العمق في الارض ، ينزل اليه الناووس في بئر مستقيمة الزوايا . وبعد الدفن ، تؤخذ الاحتياطات القمينة بالمحافظة على سلامة القبر اثناء ردم البئر . وترتفع فوق الارض اكمة صغيرة ما لبثت ان اصبحت منحفاً من الآجر او من الحجر المنحوت وعرفت ، بسبب شكلها العام ، بالمصطلح العربي « مصطبة » . يدخل من جهتها الشرقية الى غرفة اولى هي مكان عبادة الميت ، بتوسطها ، فوق الناووس ، منضدة التقادم الى جانب نصب مدفني . وتقوم وراء هذا النصب غرفة اخرى في المصطبة نفسها وهي « المر » او السرداب الذي يضعون فيه تماثيل الميت . فالنصب اذن حد فاصل بين عالمين : عالم الاحياء وعالم الاموات لا يتصل احدهما بالآخر سوى بواسطة فرجة ضيقة لا يتجاوز علوها طول الانسان . وينحت هذا النصب بحيث يرمز الى باب - ولذلك دعي « باباً مُضلاً » - كما ينقش احياناً في اطرافه تماثيل يرمز الى الميت المائد الى عالم الاحياء . وقد يطل احياناً ، من كوة فوق مصراعي الباب ، تماثيل نصفية يرمز الى الميت مترقباً زائرته .

غير ومستودع غائليل ومعد ، هذه هي الاقسام الثلاثة الرئيسية في المدفن . وقد اضيفت اليها ، في « مصاطب » الاغنياء ، غرف اخرى تطل او تكثر وفقاً لمكانة الميت . ومن الطبيعي ان يصبح عددها كبيراً في المدافن الملكية .

جرت منذ اوائل عهد السلالة الثالثة محاولات مترددة ادّت الى مثال الهرم القياسي . ولكن لا مراء في ان المجدد الجريء هو المحبوب ، مهندس الملك جيسر ، الذي صمّم وحقق هرم سكره ذا الدرجات منضداً فيه ست مصاطب الواحدة فوق الاخرى . وقد شيّد مؤسس السلالة الرابعة اول هرم مربع القاعدة ومتساوي الانحدار . ثم شيّد خلفاؤه الثلاثة المباشرين الاهرام الثلاثة الكبيرة المعروفة : الاول باسم « افق خوفو » والثاني باسم « عظيم هو خفرع »



الشكل ٧

معيد خفرع المدفني في الوجه الشرقي من هرمه

الهرم هو مأوى القبر الامين . والقبر هنا ليس محفوراً في الارض بل قائماً في الهرم نفسه الذي تتشابك فيه الازوقة الكثيرة تسدّها المسالف الساقطة وتفرغ عنها معابر لا منفذ لها . ولكن جميع هذه الاختياطات لم تكن لتثني اللصوص عن عزمهم ، فتوصلوا الى النواويس منذ

والثالث باسم « الهيّ هو منكورع » . ويجدر بنا ، هذه المرة ايضاً ، ان نذكر بعض الارقام . تغطي قاعدة الهرم الاول اكثر من خمسة هكتارات ويتجاوز ضلعها ٢٣٠ متراً ، ويبلغ علوه الاساسي ١٤٦٤٥٠ متراً وحجمه الاساسي ٢٥٣١٠٠٠ متراً مكعباً . ويكاد الهرم الثاني يعادل الاول في قياساته (ضلع القاعدة ٢١٥ متراً والعلو ١٤٣٤٥٠ متراً) . اما الهرم الثالث فلا يبلغ ضخامة الاول والثاني (ضلع القاعدة ١٠٣ امتار والعلو ٦٦٤٤٠ متراً) .

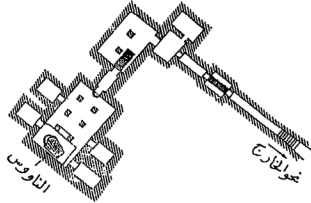
ان الخيلة لتعجز عن تقدير الجهد العظيم الذي بذلته في هذا العمل الجبار جماهير غفيرة مستخرة . ذكر هيرودوتس ان بناء هرم خوفو استغرق عشرين سنة كاملة ، بعد عشر سنوات مكرسة للاعمال التحضيرية وحدها . فهل يمكننا التحقق من هذه الاعداد ؟ ولكن ضخامة الجهود تفترض شيئاً آخر ، غير السوطي في خدمة الكبرياء ، هو انسياق الشعب في معتقدات تدفع سيده لان يازمه بهذا القدر من الجهود .

اوائل العهد القديم . وقد قام خارح الهرم امام جهته الشرقية هيكل مدفني يأوي ، في الوقت نفسه ، السرداب والمعدب . وبما كل هذه الابنية مشيدة في النجاة الصحراوية ، قام اخيراً في الوراوي معبد آخر مسقوف يتسلسل المنحدر .

فكلّ هرم من الاهرام الكبيرة ، والحالتهذه ، جزء من كلّ تبرز فيه ، بالرغم مما يفصل بينها ، عناصر المدفن القياسي موسعة حتى الضخامة او منكشة القياسات ، بالإضافة الى الصخر الناتئ القريب منه الذي استفادوا من شكله الطبيعي لكي ينتحوا منه تمثالاً لابي الهول يعلوه رأس خفرع ، وبالإضافة الى العديد العديد من المدافن والمصاطب والاهرام الاخرى المبنية لأعضاء الاسرة المالكة ولذوي المكائات الرفيعة . والى « الثرب » من منف عاصمة الملوك الاحياء ، او بالحري الى الشمال الغربي منها ، خلّدت المدافن جلالهم الالهي وعظمة رجال بلاطهم .

كان منكورع قد خفض قياسات هرمه . ولم تقم بعده اهرام ضخمة لان المجهود الذي تتطلبه مرهق جداً . بيد ان مثال الهرم ، الذي تبناه حتى الافراد العاديون والذي تحقق على

نطاق ضيق وبمواد اقل جودة ، كالقزميد مثلاً ، قد دام حتى الامبراطورية الوسطى . كلت مركز هذه الامبراطورية قد انتقل من منف الى طيبة ، والنجاة الصحراوية ، في مصر العليا ، اكثر تشققاً من الشمال فلا تصلح بالتالي لاستواء الابنية الضخمة . كانت المدافن منذ القديم ، في هذه المنطقة ، تغوص



الشكل ٨ - رسم دياس امنوفيس الثاني
(السلالة الثامنة عشرة ، القرن الخامس عشر قبل المسيح)

في السور الصخري ، لا سيما مدافن الامراء الحليين الذين حررتهم عهد الفوضى . وقد منّت فراعنة السلالة الثامنة عشرة النفس ، من جهة ثانية ، بان تنجو موميائهم من عبث اللصوص فاعتمدوا قبوراً تحت الارض او « دياميس » . اما معبد المدفني فقد بقي في السهل ، على مقربة من النيل ، لاصلة تربطه بالقبر المحفور في جوف صخر من صخور احد الوديان القفري الجافة ، سوى صلة الصوفية . وقد استحق احد هذه الوديان ، بسبب وفرة مدافنه الملكية اسم « وادي الملوك » ، كما اطلق اسم « وادي الملكات » على واد آخر . وكان مدخل القبر ، بعد المراسم الجنائزية ، يسدّ بكلّ عناية باكوام من الاقتاض والهيار . ثم يدخل في الصخر سرداب - يدعى في اليونانية سيرنفوس وهو اسم آخر يطلق على هذه القبور - تكثّر فيه المنعطفات والمنحدرات والسلام يتفرع الى غرف متباينة الاحجام تستند الى الاعمدة عند الحاجة .

بعد أواخر الإمبراطورية الوسطى يكتنف الغموض تطور المدفن الملكي ، إذ إن البيئة الطبيعية ، في الدلتا ، حيث انتقل مركز الملكية الرسمي ، غير مؤات للمحافظة على الأبنية . فقد اختفت آثار فراعنة سايبس . وقد عثر في تانيس ، نحو الشرق ، على مدافن السلالتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين ، ولكنها متواضعة ومحفورة في سور المعابد ولا أثر فيها للمصاطب . كانت الملكية سريعة الزوال إذ ذاك فحدثت ، راضية ، من الجهود التي فرضتها لأجل أمواتها .

في العهد نفسه استمر حفر السرايب للأفراد في مصر العليا . وقد سعى الأفراد دائماً في نطاق ثروتهم ، ولو متأخرين ، إلى تقليد العادات الملكية ، معتمدين الهرم وحده أو الهرم والمصطبة معاً ، وحافرين الجلايا في الأسوار الصخرية الغربية من مناطق ابيدوس وطيبة . أما الفقراء فلا غرابة في أن يكتفوا دائماً بالحفر الوضيعة أو أن ينتهزوا ظروف القوضى والأمال وانقراض السلالات كي يملأوا بموميائهم القبور المحفورة لسواهم من الأموات .

٢ - النقاشة والتصوير

صناعة التماثيل
أرفع الفنون الأخرى هو النقاشة التي لم تعوزها الظروف لتنتشر . فخلق الصورة هو بمثابة خلق الحياة . والتماثيل ضرورية للدلالة على الآلهة والبشر على السواء ، إذ إن نفس هؤلاء بحاجة إلى ما يجعل محل المومياء السريعة العطب ، إذا ما أرادت العودة إلى الجسد . أضف إلى ذلك ما في ترين جدران المعابد والمدافن واعدتها من تشويق وأغراء . وهكذا فقد وجدت النقاشة المصرية نفسها أمام حقل عمل : التماثيل والنقوش الناتجة ، وقد حققت في كليها تحملاً فنية مدهشة في ضخامة بعضها جيناً ، وفي كمال نجتها الفني أحياناً ، وخصوصاً في ما يتجلى فيها من صفات جمال وسمو مقصد ودراسة نفسية وفهم للحياة البشرية والحيوانية .

والنقوش الضخمة كثيرة اشتهر منها عدد كبير لا يزال حتى اليوم في حالة جيدة : أبو الهول في الجيزة ؟ والتماثيل التي تسند الظهر إلى الأعمدة المربعة الزوايا عند مداخل المعابد ، وكجيتاري ممنون ، مثلاً ، وما الأثران الوحيدان اللذان بقيا من معبد امنوفيس الثالث المدفني في سهل طيبة وقد اطلق الأفریق هذا الاسم عليها لأنه طاب لهم أن يروا فيها أحد أبطال اسطورة طروادة ؟ والتيجان الهائلة ؟ وتماثيل الملوك على شكل أوزيس الداخلة في الأعمدة ؛ الخ . وقد حققت كل هذه النقوش بقياسات تتناسب وقياسات الإنشاءات الهندسية الضخمة ، فعبرت مثلها عن قوة غير محدودة ، ووثبة لتجاوز المستوى البشري ، وتوق إلى غير المحدود ، وكلتها نزعات تكاد تكون طبيعية في بلاد ثرية وخاضعة لتانون قوتين تحديان عمل الإنسان : النيل والشمس .

ولنذكر بسرعة أيضاً التقنيات التي برع فيها المصريون منذ القرون الأولى من الألف الثالث . استفاد النقاش ، منذ ذلك الحين ، من الأثر الذي تركه له ناحت الأواني الحجرية ، ففرغ معالجة أقسى المواد ، كالصخر البركاني والحجر السائقي والرخام السهائي ، وصقلها صقلاً ملبصاً متوفقاً في الاستفادة من الوان الحجر وانعكاساته وعروقه . وقد توصل إلى استخدام المعدن في صناعة التماثيل الكبيرة : فتمثال الملك ميني الأول ، منذ السلالة الرابعة ، قد صنع من الألواح النحاسية المطروقة بإداة خشبية ، ونزلت عيناه بمجارية كريمة نادرة ، والبس أزراراً من ذهب . ويستنتج منه أن هذه التقنية لم تكن حينذاك في أول عهدها ، بالرغم من أننا نجهد كل شيء عن المحاولات التي سبقته . وما من شك في أن هذه التقنية قد تكاملت فيما بعد واعتمدت التذويب والالغام ، لا في التماثيل الكبيرة ، بل في التحف والتماثيل الصغيرة الكثيرة التي سبق مصر منتجتها الكبرى والتي ستصدرها إلى العالم المهليني بأسره وإلى العالم الروماني من بعده .

وقد فرضت الديانة والجلال الملكي على النقاش مصطلحاتها وقديستها بفعل وثوق الصلة بينها . فلا يهدف الفنان المصري إلى الجمال كجمال ، ولكن في سبيل غاية محدّدة تسمو على إرضاء هواه . فلا مجال إذن لتغيير الهياكل . وقد لاحظ افلاطون الخطر الموضوع على ابتداء كل ما هو خارج عن التقليد . أجل قد نجد بعض الحرية في التماثيل الممدّدة للزينة المحصويين ، وقد نجد بعض الجرأة في التماثيل الرسمية نفسها . ولكن هذه الجرأة ، إذا ما استثنينا مرحلة تل الممارسة ، في عهد اخناتون ، تبقى محدودة ونادرة . والتمثال ، جالساً كان أم واقفاً ، يصنع وفقاً لما يفرضه نوعه من ميزات ويرتب ساقاه وذراعيه ويده ترتيباً معيناً . وهو يبدو في أغلب الحالات كوحدة من كمية تجارية كبيرة .

وغالبا ما يحدث ، في الواقع ، أن الفنان لا يعبر الساقين والذراعين سوى أهمية محدودة فيصنع الجسم وفقاً لقياسات قانونية ويكرس للوجه جل مجهوده . وهو يبرز هنا أكل نجاحاته . فقد توصل إلى تحقيق التشابه الضروري لهوية من يجب تأمين الحياة له ، وتحقيق المثال الذي يعكس تصميمه المجتمع الألهي والبشري والذي يتيح له استخلاص مميزات العقلية والأدبية ومشاعره النقية . وهكذا ، من عهد إلى عهد ، ومن تحفة إلى تحفة أيضاً ، بحسب صفة الشخص الممثل الرسمية أو الخاصة ، اختلفت الأهمية المعطاة لهذين الاتجاهين اللذين تسهل دائماً مع ذلك رؤيتها .

يتعذر علينا هنا أن نذكر كل شيء . ولكن كيف لا نعد على الأقل أكثر التحقيقات سحراً . وهي اليوم مفخرة المتاحف التي تعرضها ؟ وستقوم لذلك باختبار شاق لأنه يفرض علينا التضحية بالكثير منها .

فمن عهد الإمبراطورية القديمة نذكر رأس خفرع يحمله جناحان يبسطهما وراءه صقر هوروس ويبرز فيه صفاء جلال لا حدود له ؛ والتمثال الخشبي لأحد موظفي السلالة الرابعة وهو قوي

الدلالة وينم عن سلامة القلب ، حتى ان عمال مارييت قد لقبوه بشيخ البلد ؛ وتمثال الكاتب المرفوض المعروض في متحف اللوفر ، وهو من الحشب ايضا ، تشع عيناه انقباضاً وذكاء حاداً وتمثل وظيفته في وجهه . من الامبراطورية الوسطى نذكر تماثيل حشيشوت وامونفيس الثالث الرشيق ، بالرغم من آثار التخثنت فيها ، والتمثال المعروض في متحف تورينو والذي يحمل اسم رمسيس الثاني . ومن عهد سايسس اخيراً نذكر رؤوس شيوخ عدة قعّرها اهم فوق ما قعّرتها السن .

بيد انه يحدر بنا ان تفصل تحف عهد تل العمارنة عن هذا الرواق المستطيل في الزمن والمتصف بالوحدة بالرغم مما فيه من فروق ظرفية ؛ فعهد تل العمارنة قد ادخل ، على التماثيل والنقوش الناتجة معاً ، لهباً من الواقعية والقسوة : بدانة الاوراك ، وانتفاخ البطن ، وسماجة الجمجمة ، وطول الاعضاء والرقبة وضعفها ، وتواء الذقن في الوجه . وقد برز كل هذا في عهد اخناتون منذ بداية ملكه ، حتى قبل ان يقاطع امون . فبعد رفض مصطلحات القانون حول الشكل الخارجي ، اهلكت الهيئات التي اتصفت بعد ذلك بالميوعة والحفارة والتصنع ولم يعد يشع منها اي جلال . غير ان هذه النقوش نفسها ، التي تشبه الصور الاستهزائية الى حد بعيد ، تأسر القلب بخاوص المشاهد العائلية - الملكة او الاميرات الصغيرات على ركبتي الفرعون مثلاً - وبسحر رأس نفرتيتي المعروض في متحف برلين الذي لم يفقد شيئاً من صفاته المستحب بالرغم من انتشار نماذجها التجارية ، وبدراسة الشهبانية في اجسام الفتيات ، وبالروحانية الفاضلة في نظر الملك الذي ينيره وحي مسكر انزله الهه عليه . اجل ليس هذا العهد سوى منهيبة في تاريخ النقاش المصرية ، ولكنها هنيهة لا تنسى بسبب قصرها الذي لم يتح لها تثليث مصطلحات فنية جديدة تقسد هي معها في تصنع يميل الى الزوال .

التعش الناقص والتصوير
اضيفت الى الكتابات التي ازدانت بها جدران الابنية نقوش فائقة اتسعت لها مساحات كبيرة يجب تجميلها في هذه الجدران . ولكن النقوش لم تملأها كلها ، لا بل انها ، حتى في المساحات التي زينتها ، تتصف بطابع من السرية ابعده من ان يؤثر في شعور بالعظمة تحته رؤية الجدران بعناصرها المتناسقة . واذا ما استثنينا انصاب الابواب المضط ، فاننا لا نشاهد نقشاً كثير التتوء . اما النقش القليل التتوء فيراد يكون منعدم السباكة بحيث لا يظهر فيه الظل سوى قسمه الدائري . وقد يحدث ان لا يكون هنالك تتوء البتة ، لا سوا في النقوش المعطرة ، المتمددة في خارج الابنية للأقلال من خطر التعديات ، وفي داخلها ، بدافع السرعة الذي نلسه خصوصاً في عهود عظام البنائين من قراعة الامبراطورية الوسطى ، كرمسيس الثاني مثلاً .

وبرزت في بعض الغرف المظلمة او القليلة النور حاجة الى ابراز الرسم فاوجب ذلك ، منذ البداية طلي النقوش بالالوان . ولم يمض وقت طويل حتى استعملت الالوان وحدها بسبب تدني

سرع كلفتها وسرعة وسهولة إنجازها ، فاستعيض بها عن النقوش النائثة وظهرت فعلاً في بعض المدافن الخاصة العائدة الى عهد الامبراطورية القديمة . ثم انتشر استعمالها حتى كادت تستعمل دون غيرها ، في السرايدب عموماً وحتى في سرايدب الملوك انفسهم ، بسبب شوائب الصخر ، الذي يكفي ان يطلى بالدهان حتى يصبح صقيلاً .

لذلك كان من الطبيعي ان يخضع هذان الفنان اللذان تجمع بينهما غاية واحدة ، اعني بهما التصوير - دوغما ظلال - والنقاشة النائثة ، الى قواعد واحدة هي قواعد الرسم . وكان هذا الرسم اصطلاحياً بسبب رفضه تصوير الاشياء بحسب رؤية العين وتمثله الجسم البشري تمثيلاً كيفياً . ففي الجسم مثلاً ، لا يرى الرأس الا من جانبه ، بينما ترى العين مقابلة ؛ وترى مقابلة ايضاً ، الا في حالات نادرة جداً ، الاكتفاف واعلى الجذع الذي لا يرسم فيه سوى ثدي واحد . ولا ترسم الاعضاء الا من جانبها ، وترى في اليد الاصابع الخمسة بينما تحفي ابهام الارجل الاصابع الاخرى كلها .

يسهل علينا ان نطيل لائحة هذه المصطلحات . ومن نافل القول انه لا يجوز ردها الى شحرق الفنان بل الى احترامه لتقاليد دائمة ثابتة . فهاهنا الرسام ليست بحاجة الى دليل .

وهو لم يتصرف بموجب مهارته الا بحسبة عندما يعالج المواضيع الرسمية . والمواضيع الرسمية كثيرة تقتصر هنا على ذكر بعضها : مراحل العبادة الرئيسية ؛ والزواج الالهي اي اتحاد امون بوالدة الملك المقبل ؛ وعناية الالهة بهذا الملك ؛ والاعياد الملكية الكبرى ؛ وتشديد المعابد وزخرفتها ؛ وقيام الغرباء بتقديم الجزية ؛ والانتصار على العدو ؛ والى ما هنالك ... ولكن ما هو عدد هذه المواضيع يا ترى ، اذا ما قورن بالمساحات المطلوب تجميلها : اعمدة المعابد المربعة الزوايا ، واروقتها ، وجدران غرفها ؟ كل هذه المواضيع قد عولجت دون ملل ودون طابع الفردية بحيث ان الفرعون قد استطاع اكثر من مرة ، ان ينسب لنفسه نقوشاً ناشئة انجزت في عهد احد اسلافه . وفي تكرارها الريب دليل قاطع على استمرار الديانة والمثل الملكي الاعلى طيلة الوف السنين .

ولكن لا يصح القول نفسه في غيرا للملوك من قصور وبيوت ومدافن . فتقسم هذه الى غرف عديدة قد ضاعف منها الجدران وزاد في رغبة الانتفاع بها للترزين . ولم تقف عبادة الاموات دون ذلك ، بل دعت اليه بكل تشويق . فرسمت عليها مشاهد الجنائز وعمليات وزن النفوس . ولكن الجنائز ووزن النفس انما يقودان الى حياة ثانية لا يمكن تخيلها اكثر سعادة الا بتشبيها بالحياة الثانية . وكان لا بد ، بالاضافة الى ذلك ، من مواجهة امكانية انقطاع خدمة القرايين على يد الاحفاد او الكهنة الاختصاصيين . فكانت افضل طريقة ، للحوول دون هذه الامكانية ، اللجوء الى ما في الصورة من قدرة خلاقة وتصوير كل ما قد يحتاج اليه الميت وكل ما يمكن ان يدخل الهجة في قلبه . وكما ان باستطاعة تماثيل السرداب ان تقوم مقام الموميا ، كذلك يكون باستطاعة النقوش او الصور ان تحمل محل واقع غير متوفر .

هذا كان المنطلق العقائدي لرسوم متنوعة لا تحصى . فهناك مشاهد التقادم مع كل ما يمكن تخيله من ما كل ومشارب وازهار والبسة تتمثل بنهش السخاء والشامية والبذخ . وهنالك جميع مشاهد الحياة الريفية والمهنية الشاقة ، وقد رسمت للدلالة على اغلال هذه الحياة ولإعادة الميت الى وسط اراضيهِ والعمل الذي اشرف على نشاطهم . وهنالك اخيراً مشاهد القنص والصيد والملاحة والتزهر والحلوص العائلي والولائم التي تتجلى بهجة فيها بالموسيقى والرقص والبهوانيات والشعوذات ، وهي مشاهد غنية كسابقتها بما توحيه من ذكريات وذكريات . وتكاد هذه اللوحة لا تقع تحت حصر . ولو جاز لنا ان نتق بهذا النشاط الداعب المنسوب دائماً الى السيد العاملة ، لاستمادت هذه المجموعة الكبيرة من الصور كل عمل وكل هنية من اعمال وهنيات الحياة المادية في مصر ، بمهامها وافرأحها اليومية ، لان مصر قد استعرت في مساعيها لان تنقل الى العالم الثاني طيب العيش الذي لم يعوزها منه شيء على هذه الارض .

بيد ان هذه اللوحة لا تخلو من مواضع تقليدية يكثر تكرارها في حقلي الاجتماع والفن على السواء . ومن النادر ان لا يعالج الموضوع الواحد مراراً عدة ، ولكن بفروق تسترعي الاهتمام . وفي الواقع تجرر النقاشون والمصورون من بعض قيود الطلبات الرسمية وعملوا يرحي تخيلتهم ، دون ان يتركوا لها العنان ، فأدخلوا على الهياكل بعض التغييرات في الجزئيات خصوصاً . وهكذا تسربت الى المشاهد النموذجية نفسها اشياء جديدة مستمدة غالباً من مفتنة والظيفة دائماً وغير مستقبحة ابداً . فالشروهن انفسهم وحتى الشرهات يحتفظون باناقتهن عندما يتقايون اطعمتهن . وفي الوقت نفسه استطاع التصوير ، الذي احتل مركز النقاش في هذه المواضيع الخاصة ، ان يبلغ مستوى الفنون الرفيعة في اواسط الامبراطورية الحديثة . فقد لفت تمثيل الحيوانات الانظار منذ زمن بعيد ، ولكنه بلغ القمة ، حينذاك ، بمجدة الملاحظة والحياة المصطفقة التي تملأ الهررة البرية والطيور وحتى الحيوانات المجررة .

الفنون الثانوية
لو اتبعت لنا القيام باستعراض الفنون المصرية كلها لوجدنا كثيراً من الفنون الثانوية التي تستحق ذكراً خاصاً ، لا سيما الصياغة التي تبهر النظر بدقتها وقيمتها ، والحِكاك التي كشفت مفروشات مدقن توت عنخ آمون عن قطعها الفخمة العجيبة . وان في كل هذه الفنون دليلاً على مهارة في التقنية لا تجارياً مهارة وعلى ابتكار يحافظ على الاناقة في اغرب التحقيقات وعلى انتاج مكثراً نادر . ولا عجب في ذلك ، اذ ان زين هذه الفنون من الطبقات الرفيعة التي لم تكن غريبة عن أي مظهر من مظاهر الظرف والاناقة . واذا ما قل عدد هؤلاء الزين في مصر ، بفعل مصائب الدهر القاسية ، تلجأ مصر الى التصدير على نطاق واسع مع انها لم تلجأ اليه الا عرضاً في عهود ازدهارها .

وان ندرة هذا التصدير نفسها ، قد أسهمت ، خلال أجيال طويلة ، في رفع أثمان القطع واذاعة شهرتها في العالم المتوسطي الذي سبقته مصر بأشواط بعيدة . فانصبت الاطباع من كل

جبهة على منشا هذه الروائع ، بينا وقف الرحالة والمرتزة معجبين بتلك الأبنية الضخمة التي استطاعت مصر وعرفت ان تشيدها . فتحت مصر ابوابها للأجنبي ، وحتى اواخر التاريخ القديم ، استألت اليها السياح وقدمت للهواة حاجاتهم من التحف الجميلة والثمينة . وبالاجمال لم ينقل الأجانب عن فنها الا بعض التقنية ولم يستلهموا قط ما فيه من ايماء عميق . ولم يبرز الفن المصري ، على صعيد الجماليات ، مريباً او موجهاً لأي فن قديم .

ولعل مرد ذلك ان الفن المصري قد جهل الانسان . فهو لم يخصص له مكانه ، بل اهمله كما اهملته كل الحضارة التي هو لها ، في اكثر الأحيان ، بمثابة إزهار عظيم . ولم يدرسه كفرد الا قليلاً ، كما لم يخدمه الا نادراً خارج الطبقات الحاكمة التي أحاطها بالجلال والعظمة اولاً وباللطف والظرافة ثانياً . ونظراً لارتباطه الوثيق بها ، بسبب رسالته الدينية والسياسية ، تعذر عليه التخلص من قيود التقاليد الرسمية ومن الاحتذاء بماض قديم سحيق . وكان مكتوباً له ، في عالم نزعت قواه الفنية الى مثل أعلى آخر منذ قبل اواسط الألف الأول ، ان ينكش على نفسه ولا يؤثر في غيره ويعيد الصيغ نفسها أو يتكاسف الرقة .

ب - الحياة العقلية

لم تترك الحياة العقلية في الحضارة المصرية طابعاً شبيهاً بذلك الذي تركه كل من الديانة والفن . فقد كانت ، شأن الفن ، في اكثر مظاهرها ، بمثابة ملحق للديانة تشتق منها وتخدمها . ولكن تحقيقاتها متواضعة جداً اذا ما قورنت بتحقيقات الفن . وهي قد شابهت ، في كثير من خطوطها ، الحياة العقلية التي قابلتها في النمو في بلاد ما بين النهرين . فهي قد انطلقت من نقطة واحدة ، من تلك الأرومة الروحية التي لم ترض قط ان تنفصل عنها ، وسارت في اتجاهات مماثلة ، خاضعة لمشاغل وتصرفات تكاد تكون واحدة ؛ ولم يتفرد بصفات مميزة حقاً سوى الأدب بمعناه المصري . بيد ان سكان ما بين النهرين قد تخطوا المصريين في كل نواحي هذه الحياة تقريباً . لذلك سيكون من الجدوى بمكان ان نفرد للفصل الذي سيخصص بهم بياناً اكثر استفاضة عن الوسائل المعتمدة والنتائج المحصنة . وفي نظر الأغرقي ، يبدو ان المصريين قد بلغوا بل تجاوزوا ، على صعيد الفكر والعلم ، الشهرة التي بلغها سكان ما بين النهرين . ولعل مرد ذلك الى ان مصر المفتوحة على البحر والداخلة ، قبل فتح الاسكندر ، في صراع ضد ملك الفرس ، عدوم ، كانت تستهويهم وتقنتهم اكثر فأكثر . ولعل لذلك سبباً اقل تعقيداً ، وهو ان المصريين ، الذين يحميون الكلام ، قد تفوقوا في التباهي والتنشير .

ونحن ابعد ، على كل حال ، من ان يحق لنا احتقار تحقيقات العقل المصري .

مارس المصريون الكتابة منذ اواخر الالف الرابع قبل المسيح . وقد توصلا
الكتابة
الها بانفسهم دون ان ينقلوا شيئاً عن اسلوب غريب ، لان الرموز التي اعتمدها
مستعارة من المشهد الذي تبسطه بلادهم امامهم ، لا سيما الحيوانات والازهار الخاصة بها . ولكنهم
شأن سكان ما بين النهرين الذين استنبطوا هم ايضاً كتابة قد تكون اقدم عهداً ، لم يعرفوا او لم
يريدوا تبسيط طريقتهم في سبيل جعلها اسهل منلا .

تنطلق هذه الطريقة من مبدأ رسم الكلمات - او اجزاها - بصورة المسمى بها . فضورة
السناق تعني « الساق » مثلاً وصورة الساعد تعني « الساعد » . ولكن ما لبث الرسم الواحد ارت
انطوى على معان اخرى كثيرة : المعنى الرمزي ، لتجريد العمل الذي يقوم به المسمى المرسوم
او الفكرة التي توحيها رؤيته ؛ والمعنى الصوتي ، لتسخ كلمات يؤديها صوت واحد ؛ والمعنى
المقطعي ، لكتابة كلمة مركبة من اكثر من مقطع واحد برموز يقابل كل منها كلمة ذات مقطع
واحد ؛ والمعنى اليجدي اخيراً لاربعة وعشرين رمزاً يقابل كل منها حرفاً اما صحيحاً ولما
قريباً من حروف العلة . وقد وجب ، امام خطر الالتباس والتشويش الدائم ، توضيح معنى كل
رمز من الرموز بسبب انطوائه على مثل هذه الفروق الكثيرة . لذلك وضعت اشارات تحديدية
الى جانب الكلمة التي يراد كتابتها بهذا الشكل او ذلك . وهكذا ، بعد ان وصل المصريون الى
اليجدية بتحليل الاصداة التي تراقق الصوت ، لم يهملوا ، حين اعتمدها ، الاساليب الكتابية
القديمية ، بل جعلوا من اليجدية طريقة اخرى جديدة واستعملوها بالاضافة الى الاساليب
الاخرى . فكانت النتيجة تعقيداً كلياً .

لم تبسط الا الرموز نفسها . فكان الرسم الاسامي يتطلب مهارة ورشاقة ويحد عن السرعة
في الكتابة بما يستلزمه من تفاصيل وفوارق . ولم يحتفظ به ، على نمطه هذا ، الا للكتابة على
الخشب او الحجر او المعدن ، اي ، عملياً ، للنصوص الرسمية التي اوجد بها عنصراً زخرفياً
للإينية التي تكاد تضطبخ كلها بصبغة دينية . لذلك اطلق الاغريق على هذه الرموز اسم
« الهيروغليف » اي « النقوش المقدسة » . اما الكتابة الرائجة التي سُوتها واقتصرت فيها على
القسم الدائري من الرموز ، فهي اولا الكتابة « المقدسة » (وهذه التسمية كاذبة) المعتمدة على
البردي في العهد الفرعوني كله ، وثانياً الكتابة « الشعبية » في عهد الالمخاطط .

ومها يكن من الأمر ، فان تعلم القراءة والكتابة كان أمراً شاقاً يتطلب
الكاتب : للمدارس
و « بيوت الحياة »
سنوات مراس طويلة . وكان هناك « علم » حقيقي للكتابة يحضّل
ببطء في مدارس القصر او المعابد التي يبدأ التردّد إليها منذ الصغر .
فالنارين تبدأ على الواح من الحجر الطري ، او على قطع خزفية ، قبل ان تلازم على البردي .
ولم يهمل استعملك هذه الخزفيات قط ، حتى في الادارة ، للوثائق الشاوية . وقد توافر في مصر
النبات المائي الذي يؤمن المادة الخام للبردي ؛ ولكن البافه تقضي تحضيراً طويلاً قبل ان تصح
لغات وترسم عليها الرموز بواسطة منقش مخضّل في الحجر .

ولم يقتصر التمرين على الناحية المادية ، بل رافقه ، بحكم الضرورة ، ترويض عقلي صاعد يستازم ، فيما يستازم ، قراءة النصوص ونسخها وتفسيرها واستظهارها . وهذه الطريقة ، كانت معارف كثيرة تملك طريقها الى ذهن التلميذ ، فيتدرج رويداً رويداً الى تعاليم تتباين فيها صفة التخصص ، ويقطع فيها اشواطاً بعيدة ، اذا ما اقترن انقياده بالنشاط اللازم . فكانت طبيعياً والحالة هذه ان يسود الاعتقاد بان العلوم جميعها ، من حيث انها تؤلف كلام مع الكتابة التي هي بمثابة المفتاح لها ، اوحاها للبشر الاله الكاتب « طوخ » .

وتفسر هذه الظروف المادية ، الى حد بعيد ، النفوذ الذي تمتع به الكاتب ، بصرف النظر عن سلطته كعضو في الادارة او الكهنوت . فهو قد استقى العلم ، طيلة سني طفولته ، من مصادر يستحيل على الجاهل الاقتراب منها . لذلك فهو لا ينتخب من الطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان هذه الدروس الطويلة اعتبرت ترفاً كالياً . فكان تعقيد طريقة الكتابة ، والحالة هذه ، حاجزاً اجتماعياً لا يمكن تجاوزه .

وكان في بعض المعابد ، الى جانب مدارس الكتبة ، معاهد تعرف « بيوت الحياة » لاث الطب كان احد التعاليم الرئيسية التي تتلقاها فيها نخبة الطلاب . وكان قوام هذه « البيوت » الاول مكتبة كاملة ؛ ويتناول التدريس فيها الاستطلاع ، والحساب وتدوين حوليات الاله او الملك المقدسة ، والتعمق في العقائد الدينية .

تباهى كثير من الملوك بمعارفهم الواسعة ، ولا عجب في ذلك . افلا يعرفون اكثر من امثالهم ، بفضل مركزهم ، كل الاسرار الالهية ؟ وتباهى كثير منهم ايضاً بعلاقتهم ببيوت الحياة وبسخائهم عليها ، لانها ملحقة بالمعابد فحسب ، بل لانها بيوت الحياة . وفي عهد الاحتلال الفارسي نفسه ، جرى ترميم احد هذه البيوت في معبد سايبس الرئيسي باسم داربوس الاول : « استسه وادخلت اليه كل تلامذته الذين اخترتهم من اصل عريق لا من بيثة وضيفة ؛ وجعلت عليهم ، لكل الاعمال ، علماء في كل الحفول ... » وبالرغم من ذلك ، فاننا لا ننس هنا مجهوداً او تعطشاً للمعرفة شبيهين بما ينم عنه قيام مكتبة اشوربانيبال في القصر الملكي نفسه . ربما كان امنوفيس الرابع اخناتون لاهوتياً ؛ ولكن اسلافه وخلفاءه ، على معرفتنا بهم ، يبدون وكأنهم كرسوا نفوسهم لمهامهم الملكية ، مؤثرين الاستفادة من نشاط العلماء العقلي على الاسهام شخصياً فيه .

المعالم الصحيحة ثم ان العلم نفسه ، في معناه المحصور ، يخضع للرغبة في فعاليته العملية لا للرغبة في المعرفة الحقيقية عن طريق التفسير . فهو انما يبحث عن صيغ ذات فعالية دورت اكثر اثار التجريد في اكتشاف الصلة القائمة بين ما يلاحظه من محسوسات .

يحتل علم الحساب ، الضروري للادارة ، مركزاً رفيعاً مرموقاً ؛ وله المقام الاول في تربية كاتب الغد . ومع ذلك فانه لا يزال علماً أخرق . واذا طبق المصريون القاعدة العشرية ، فانهم ، كغيرهم من شعوب التاريخ القديم ، قد جهلوا الصفر . عرفوا الجمع والطرح وجاهلوا العمليات الحسابية الاخرى التي لم يستطيعوا اجراءها الا بالاستناد الى العمليتين الاوليين . اما الهندسة فلا تسمو ابدأ الى النظرية . فيبدو ، بكلمة مختصرة ، ان الاغريق قد جهلوا الواقع الراهن الراهن حين نسبوا الى اقدم علماءهم تحقيقات كثيرة منقولة عن مصر . لا شك في ان مجاحات المهندسين المصريين التقنية ، في حفر الاقنية وتشيد الابنية الضخمة ، امر لا ينكره احد عليهم . ولكن هل يدل ذلك على شيء آخر غير المهارة التي هي ثمره التجربة والاختبار ؟

وما من ريب في ان التبصر في السماء قد أثار اهتمام شعب اسكن فيها كبار الآلهة ، وينوع أخص ، اهتمام كهنة هليوبوليس المكرسين لعبادة الشمس ، رع . وقد حمل رئيس كهنتهم هذا اللقب الرسمي : « اكبر الرائين » . فقد لاحظوا اذن بعض الاحداث الفلكية ، ولكن لم يبلغوا بملاحظاتهم ما بلغه سكان ما بين النهرين من علم منظم مفيد . فلم يعيروا اهمية ، مثلاً ، للكسوفات الشمسية ولم يهتموا لادراكها قبل حدوثها . اجل انهم قد حققوا فتحاً مبدئياً في اعتماد الروزنامة الشمسية ، ولكنهم لم يقدموا على تحسينها بالرغم مما انطوت عليه من شوائب .

وقد انطلقوا ، للتوصل الى هذه الروزنامة ، من اتفاق غريب لا يصبغ الا على خط واحد من خطوط العرض ، هو خط منف - هليوبوليس ، مما يحدد مكان الملاحظة بالضبط والوسط العلمي الذي استخلص نتائج هذا الاتفاق . فكل سنة ، في التاسع عشر من تموز ، وهو اليوم الذي تظهر فيه « مياه التجديد » الاول ، اي ابتداء الفيضان الذي تتوقف عليه حياة البلاد ، تبرز فوق الافق ، مع اشراق الشمس ، النجمة سوتيس (الشعري) التي يمثلون بها ايزيس . وبين هذا التاريخ والتاسع عشر من شهر تموز التالي تمر ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً قسموها ، بتأثير من الروزنامة القمرية القديمة ، الى اثني عشر شهراً متساوياً من ثلاثين يوماً ، و اضافوا اليها خمسة ايام متممة . وهنالك ، كما نعلم ، نقص يقارب ربع النهار ، يتولد منه في البدء انحراف طفيف لا يلبث ان يلاشي التوافق بين الروزنامة الرسمية وبين مواعيد تعاقب الفصول وفيضان النيل و بزوغ سوتيس مع اشراق الشمس .

استناداً الى هذه المعطيات ، استطاع علماء الفلك المعاصرون ان يشتوا ، بعملية حسابية ، ان الاتفاق الذي كان منطلق هذه الروزنامة الشمسية قد حدث اما بين ٢٧٨٥ و ٢٧٨٢ ، واما بين ٤٣٤٥ و ٤٣٤٢ قبل المسيح . ومن الجائز مبدئياً ان نتردد بين هذين التاريخين ، ولكن بعض الدلائل تدفع بنا ، على العموم ، الى تفضيل التاريخ الاقدم . ومهما يكن من الامر ، لا سياً وان الشيء لم يتقرر الا بعد سنوات طويلة من الملاحظات السابقة ، فان هذا النجاح الباهر يرتقي الى عهد متطاوّل في القدم .

انه لنجاح هام ، ولكنه نجاح غير مكتمل . ولم يتقرر على معرفتنا ، اضافة يوم سادس

متمم الى الايام الخمسة الاخرى ، الا في السنة ٢٣٨ قبل المسيح في عهد احد البطالسة . وهناك على نقيض ذلك ، نصوص كثيرة تعرب عن الحزن الذي تسببت به « السنة العرجاء » . وقد مست الحاجة علمياً الى اصلاح عيوبها ، ولدينا الدليل الثابت على ان العلماء قد شرعوا بالفعل بيجرون العمليات الحسابية اللازمة . ولكن روزنامة الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ما زالت ، مع ذلك ، تعتبر رسمية دون غيرها .

العلوم الطبيعية والسحر كان امام الطب ، بفضل معالجة الجثث ، حقل اختبار واسع وكبير الفائدة ، فاستثمره ايما استتار وبلغ شهرة واسعة جداً اعترفت له بها الشعوب المجاورة . فطلب الملك الفارسي قورش طبيب عيون من الفرعون واعجب الاغريق بعدد اطباء المصريين المرتفع وب تخصصهم في الحقول الصحية المختلفة : العيون والرأس والاسنان والبطن والامراض الداخلية ، كما يذكر هيرودوتس . واعجبوا كذلك بأرائهم الصحية الدقيقة حول تناول الاطعمة مع ما يفرضه من ادوية منظفة ومقيّئة متكررة استعملها المصريون باقتياد وطوعية فجعلت منهم ، بمساعدة المناخ ، « اوفر الناس صحة سليمة » . ربما كانت هنالك « كتب مقدسة » طبية ، اي مستظهرة ومحفوظة في المعابد ، ولكن البردبات التي تعطينا اليوم فكرة عنها توحى لنا ان العلم الذي انطوت عليه ، بما في ذلك علم التشريح ، كانت علماً موجزاً ويفتقر ، في اكثر الاحيان ، الى مبادئ الاساليب العلمية نفسها . وقد ذكر ذوبوذروس الصقلي ان الطبيب يتعرض للدعاوى وعقوبة الموت اذا ما انحرف عن التعاليم الطبية القانونية ، لان « المشترع قد ارتأى بأنه يصعب اكتشاف طريقة علاجية افضل من الطريقة المعتمدة منذ اهد بعيد التي توصل اليها رجال الفن » . وبديهي ان هذه المحاذير لم تكن لتشجع المحاولات في سبيل التقدم .

يصح القول نفسه عن علم الكيمياء المقتمر على الاختبار التقني في صنع المعونات الملونة والقيشاني والزجاج وفي استخراج المعادن ومزجها ويجدر التنويه هنا بما توصل اليه هذا الاختبار من ابداع واقتنا .

ولسنا بحاجة للتشديد على « بيوت الحياة » الكهنوتية ، لتلمس مرة اخرى ان اللدانية تأثيرها . فهي قد افرزت في نطاقها الخاص مركزاً هاماً للسحر فكيف لا يتمتع السحر ، منذ البدء ، بمركز رفيع في النطاق العمي او في النطاق الذي قد يصبح علمياً ، لا سيما وان المعمل فيها يتناول الطبيعة نفسها ؟ لذلك فقد استمر وجود السحر بصورة دائمة . والعقل لا يخضع البتة لقوانين المنطق وحدها . لا بل انه ما شعر قط بوجودها . ويسهل علينا هنا ان نسرده الامثلة الكثيرة . فالروزنامة مثلاً تنطوي على أيام فال وايام شوم تبررها بعض الحوادث في حياة هذا او ذاك من الآلهة ؛ وهذه الايام ذكريات سنوية لهذه الحوادث . وهناك ادوية تشفي المرضى في بعض الاشهر ، بينما هي تبقى دون جدوى في اشهر اخرى . وترافقها ، عند الاستعمال ، الرقى

والمراسم . وقد حرص الناس على ان يجمعوا السائم والعود من كل نوع . ولم يكن ذلك وقفاً على الشعب وحده . ففي عهود الانحطاط على الاقل طغت موجة السخر في كل مكان .

وكان السحر اثره البين في الطب بنوع خاص ، لأن علمي التنجيم والكيمياء لم يبرزا قط في مصر برونهما في بلاد ما بين النهرين . غير ان الرومان والاغريق ، الذين تأثروا بالسحر الى حد بعيد ، لم يحسنوا التدقيق في ما رأوا . فقد بدا لهم الشرع عموماً مهدياً للمعارف السرية التي كثيراً ما نهلوا منها عن طريق اشخاص التيس في جنسياتهم .

يستدل من احد التقاليد المشكوك بها كثيراً ان افلاطون قد اقام اقامة طويلة في مصر ^{الأدب} وانه آمن في التحدث الى كهنة هليوبوليس . واذا هو لم يحصل بالقرب منهم على معارف فلكية جديدة ، فان في قوة عقيدتهم حول الحياة الثانية ما اثر فيه وعمل فيه عمله . وان « نصوص الاهرام » ، في هذا الموضوع ، جدرة بكل تقدير . ولكن الأدب المصري الذي لا يزال يحرك منا الشعور احياناً ليس مديناً بديمومته الى هذه النصوص .

كان الأدب المصري مكثراً ولم يصل البنا منه الا النذر اليسير . وقد أتاحت لنا الظروف ، اكثر من مرة ، فيما سبق ، ان نذكر بعض انتاجاته ، لا سيما ما يتصف منها بصفة سياسية واخلاقية ، كـ « التعالم » و « الأحاديث » التي تعبر ، بغم الملك او بغم احد العطاء ، عن افكار يتجلى فيها نبل رفيع صارم . ويبدو ان العصر الذهبي ، لمثل هذا الأدب ، هو عهد الامبراطورية الوسطى ، الخليفة المباشرة لمهد الفوضى الذي بلبل الروح المصرية في اعماقها ، ومقمية النظام الجديد الذي ارسته على مثالية لها نزعاتها الجديدة . ولكننا لا نعرف هذه النصوص الا عن طريق نسخ متأخرة عنها ، مما يثبت استمرار شهرتها .

وهنالك مؤلفات اخرى تنسب الى ألوان أدبية مختلفة . فقد ترك لنا عهد تل العمارنة نشيداً لأتون ينسب الى الملك نفسه ويفيض بنفحة شعرية أوحاها له منظر الطبيعة المباشر . ولكن هذه السذاجة وهذه النضارة اللتين ستما هنا الى مستوى اللاهوت ، تبرزان ايضاً في مؤلفات معدة لعامة الشعب ، اعني بها القصص . تظهر القصص منذ الامبراطورية الوسطى وتنتشر انتشاراً كبيراً ابتداء من السلالة الثامنة عشرة . وهي على قسط كبير من الواقعية والخيال المضح والسخرية ، وكأنها الند الطبيعي للثقوش الناتئة والصور التي تعالج مواضيع الحياة اليومية . ولكنها هي ايضاً تفسح مجالاً كبيراً للسحر ، ايماناً من مؤلفيها بالحصول على رضى سامعها اذا ما تقولم الى نطاق ما هو مدهش وعجيب . وكيف لا نذكر اخيراً الشعر الغنائي الشهواني الذي يسوغ كل شيء في « اناشيد الحب » ؟ قد يكون هذا الأدب الخيالي نهل من منبع مشترك واحد في الشرق الأدنى ، وقد يكون هو نفسه أسهم في تكوين هذا المنبع . بيد انه من الجلي ، مثلاً ، ان في « قصة الفريق » ، بعض اوجه التشابه بمجوات مغامرات أوليس او سندياد البحري وان « اناشيد الحب » تذكر احياناً بنشيد الاناشيد .

الخاتمة

الحضارة المصرية والعالم القديم

ان الحضارة المصرية اذن ، بالرغم من انكماشها البالغ ، قد اتصلت أحيانا بالأجنبي . غير ان هذا الاتصال لم يتصف بطابع الامة عملياً .

وهي مدينة باستقلالها الى التلاحم الذي ربط كل مظاهرها بسلطة الدولة والآلهة المطلقة . اجل ، قد نجد في غير مكان مبدأ تلاحم مماثل ، ولكن مصر وحدها طبقته بمثل هذه الشدة وهذا التطاول ، وفي بلاد على مثل هذا الاتساع وهذه الثروة ، وعلى شعب يمثل هذه الكثرة وهذا الخنوع . وان اتفاق هذه الظروف المؤاتية التي توفرت بفضل الانسان والطبيعة معاً يضيفي عليها صفة مميزة بالغة الأهمية .

كانت مصر القديمة ولا تزال مدينة لها بمكانتها وشهرتها . وبالرغم من ان الحضارة المصرية قد عمرت اكثر من اية حضارة قديمة ، فانها قد اندثرت اليوم ، واضمحلت . وقبل زوالها بالف سنة تقريباً ، لم تقوَ على البقاء الا بالزيد من التحايل والعناء ، عاجزة لا عن النهوض والتجدد فحسب ، بل ايضاً عن ادراك المعنى الحقيقي للتقاليد التي لم تتخل عنها . فهناك مدلولات : الانسان والتقدم ، اجتماعاً وانتصراً في كل مكان ؛ اما هي فقد جهلتها وعجزت بالتالي عن استساغتها والافادة منها .

ولكنها قبل زوالها بزم طويل قد أثرت في بعض الحضارات الاخرى . فوفرت للملك كثيرين مثلاً اعلى للعقيدة الملكية التي تبرر سلطتهم المطلقة ، ولتنظيم الادارة التي توجه الثروات نحو الحكومة المركزية . اما الملكيات الهلينية بنوع خاص - وقد أقامت احداها في مصر - والامبراطورية الرومانية فقد اخذت عنها بعض الاتجاهات العامة على الأقل ، واقتبست احياناً بعض نظمها المحكمة . كذلك اقتبست عنها الحضارة الاسكندنافية ، التي ترعرعت وازدهرت « على مقربة » من مصر ، الميل الى الاقتان والسخرية والاحساس بالظرف الرقيق ، وكلها يميز بعض مظاهر فنها وادبها . وقد انتشرت اخيراً عبادة ايزيس المهبا في بلدان عديدة ، كما كان للسحر ، احد مظاهرها ، سوق رائجة في الكثير من المناطق .

ولكن واحداً من هذه المنقولات لم يمس جوهر الامور الحقيقي . ولا عجب فانما خلق هذا الجوهر لمصر ، ولا سياً لمصر في الالفين الثالث والثاني .

الكتاب الثاني

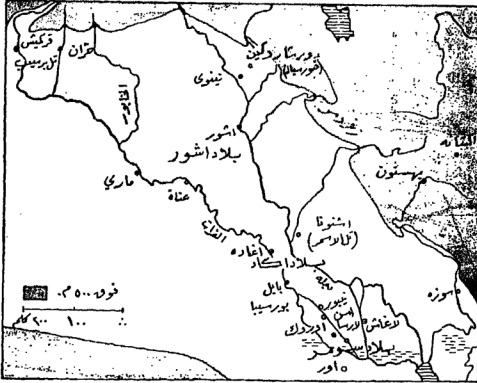
حضارة بلاد ما بين النهرين

ان القاء نظرة خاطفة على مجمل حضارة بلاد ما بين النهرين لا يعد مجازفة اكبر من تلك التي خضناها عند قيامنا بالعمل نفسه نسبة لحضارة وادي النيل .

مصر وبلاد ما بين النهرين :
تشابه في المصير والحضارة
ان حضارة مصر وحضارة بلاد ما بين النهرين ، وقد اعتبنا حضارة مشتركة لا بل حضارة شاركتهما فيها اقطار اخرى ، ولدنا ونحننا شكلاً في تواريخ متقاربة ، وان عسر علينا تحديدها بدقة . وقد فقدت كل منها سادتها في فترتين لا تبعد الواحدة عن الاخرى اكثر من خمسة عشر عاماً ، تحت ضربات عدو مشترك هو المملكة الفارسية . ولكن استمرت كل منها ، بعد ان زال استقلال الدول التي اتحدت معها اتحاداً ذاتياً ، على شيء من الحيوية ايام الحكم الاجنبي . ولا عبء من ثم ان هوت حضارة بلاد ما بين النهرين قبل الحضارة المصرية اذ كان قد قضي عملاً على هذه الاخيرة منذ مدة بعيدة . ونسبة للزمن فان سرد الوقائع الذي يظهر الحقائق الثابتة بقوة اشد من قوة اظهار الاختلافات التي يسببها الوقت والبيئة ، لا يجب ان يلاقي من ثم صعوبات كبرى : وهنا ايضاً فان حجب الحوادث يجمع الشئتين من آلاف السنين .

مصر وبلاد ما بين النهرين :
حضارات موحدة ومغلقة
ان صعوبات اخرى تنشأ عن اختلاف الواقع الجغرافي قد تعترض سرداً مثل هذا ، ولكن قدليلها نسبة الى مصر اسهل ، اذ ان الطبيعة ، باستثناء الجهة الجنوبية ، تعين لمصر حدوداً ، وتدعوها للوحدة . وتختلف الحالة ان اعتبرنا بلاد ما بين النهرين ، اذ ان الصحارى التي تحيط بها ، باستثناء جهة البلاد العربية ، اقل عداوة للانسان من الفيافي التي تحد مصر . وان اعتبرنا ناحية سورية خاصة نر بان لهذه الباديات بالاحرى منظر الساسب دون البراري الحقيقية ، وعلاوة على ذلك فان الشواطئ الفينيقية والسورية هي قريبة نوعاً ما ومغرية ايضاً لتموض عن الجهد الذي يتطلبه اجتيازها ، هذا الاجتياز الذي يقلل بصورة جدية المسافة . وعلاوة على ذلك فان بلاد ما بين النهرين تتصل دون صعوبة باقطار اخرى تناسب حياة الانسان .

لذا لم نجد بلاد ما بين النهرين نفسها محصورة ضمن حدود طبيعية تفرض ذاتها على الجميع ، وذلك تحت عوامل داخلية وخارجية . وخلافا للشعوب المصرية فان سكان بلاد ما بين النهرين لم يُدعوا للوحدة ولم تلجج اطباع رؤسائهم التوسعية التي لم تمتد بعراقيل طبيعية الا في البعيد البعيد عن بلادهم . ودون اي ضرر جليل يسهل تقسيم البلاد الى دول عدة ، كما تستوعب باكثر سهولة المؤثرات والتفوذ الاجنبي لا بل هي اكثر عرضة للغزوات . وبالمقابلة فهي تواقه اكثر الى ان تلقي بقواها ورجالها خارج حدودها وتصهر بواسطتهم حضارتها .



الشكل ٩ - بلاد ما بين النهرين

لذا فان حضارة بلاد ما بين النهرين تبدو للمؤرخ اكثر ترجحاً في ديومتها الزمنية واقل وحدة ومماسكاً ، اذ تظهر عليها المؤثرات القطرية باشد جلاء ، ومن نقطة الانطلاق هذه يتضح لنا ، ولو جزئياً ، كيف انقرضت هذه الحضارة قبل الحضارة المصرية . واذ كانت اكثر استعداداً للذوبان والتشتت ، غدا من الطبيعي ان لا تبدي مقاومة ضارية ضد الحضارات المنافسة .

ان الفوارق والتقلبات التي طرأت على حضارة بلاد ما بين النهرين في الزمان والمكان لا تحول مع هذا دون وجود هذه الحضارة واعتبارها ، بما فيها من ابداع وتناغم ، وحدة مستقبه من السهل مقارنتها مع الحضارات المعاصرة والمجاورة . فهي نشأت في بلاد ما بين النهرين السفلى ، في المنطقة المدعوة سومر . وفيما

يتعلق خاصة بالدين والكتابة فقد وسما التأثير السومري بأثر عميق قاوم آلاف السنين ، حتى بعد ان قضت على السومريين عناصر عرقية اخرى . وفي هذين المجالين تبرز الديمومة بشكل واضح : ولكن الدرس والتحليل سيكشفان لنا بصورة تكثرت او تقلت سهولة مواطن اخرى لهذه الديمومة .

والحق يقال بانه ، في مصر كما في بلاد ما بين النهرين ، وبشعور اقل استمراراً فقط في مناطق دجلة والفرات مما هو في وادي النيل ، توخى المرء في عصر دعوته بالذهبي احياء الماضي السعيني الاكثر قدماً .



الفصل الأول

الأشكال السياسية

التجزئة ليست الوحدة السياسية التي تشمل قطراً شامعاً عنصراً أساسياً في حضارة بلاد ما بين النهرين . لقد تحققت أحياناً ولكنها لم تدم فترة طويلة الأمد . وعلى كل فأننا لا نجد ، في الحقبة الأولى ، في بلاد ما بين النهرين السفلى حيث ، باكراً جداً ، تباورت الخطوط الرئيسية لحضارة مدعوة لان تستمر وقتاً طويلاً .

والدولة - المثال هي البلدة ، اعني المدينة : مركز قطر يتعذر علينا ، لغموض معطيات الجغرافية التاريخية ، تحديد مساحته الا نادراً جداً . ففي هذا السهل المنخفض حيث تنتقي العروص الطبيعية ، ما عدا شحاب الأنهر والقنوات - وقد احدثت فيضاناتها ، ولا يزال الى يومنا ، أكثر من تغيير مكاني لما تسببه من ارتفاع في مستوى الماء والطمي - فأننا لا نرى اي اثر لحدود مستديمة ، لكونها طبيعية ، لقطر معين . وقد نشأت مدن لا يزال موقعها الى يومنا مجهولاً : كأغاده (او اكثاد) التي فرضت اسمها على منطقة كاملة لما كان لها من سطو وعظمة . وما القول عن تجووم المدن التي غدا ضرورياً لحفظها بذل جهود جبارة ومستديمة ضد المستنقعات والرمال ؟ ولكن لا يرقى الشك الى وجود الكثير منها وان استحال علينا تقدير مساحتها التقريبية .

وتركت المدينة هنا آثاراً أكثر مما تركت زميلتها في مصر مع انه ، في منطقة الدلتا اقله ، لم يختلف الوضع اختلافاً كبيراً في اول العهد . ولا يشعر المرء قط في بلاد ما بين النهرين ، كما يلمس ذلك في مصر ، باي ترق الى نظام موحد اعتبر لازماً لاسعاد حياة السكان . وكانت باستطاعة هذا التنظيم ان يثمر هناك ايضاً نتائج حسنة لما يحققه من تجانس وتناسق في اعمال الري والتجفيف . ولكن للفيضانات النهريّة هنا تأثيراً اخف على الانتاج ، ولربما كان السكان ايضاً اقل كثافة . وعلى كل حال فان التجزئة السياسية التي اعتبرها المصريون فوضى لم تعد هنا معد ذاتها عاملاً سوء .

مع هذا فقد غدا من الحتم ان تتمدى البلاد مستوى التجزئة . ولا جرم
بانه نشأت منازعات بين المدن المتجاورة . ونتيجة للحروب او للمحالفات
حيث يفرض احد الفرقاء سيادته ، نشأت دول اكثر اهمية ، لا بل ولدت
مفهوم الاستمرار على مفهوم
مفومات البلدة
مراوراً امباطوريات بكل ما في الكلمة من معنى .

ان الاقاب الرسمية التي كان يحملها الملوك تكشف لنا بعض الشيء عن مفهوم الدولة .
ويتراوح هذا المفهوم ، كما يبدو ، بين البلدة التي تتسع قليلاً او كثيراً وبين المنطقه . ومع اسم
المدينة ، كمدن أور وأوروك ولاغاش وغيرها برز ، باكرأ جداً ، لقب « ملك البلاد » : وهذا
ما ينطبق على سومر التي لم تعد بلدة . ولكن لقب « ملك اكاد » هو شديد الغموض ، إذ مع
الزمن اطلق اسم هذه المدينة على مجمل القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين السفلى ، ومن ضمنها
بابل . وينطبق الامر نفسه على لفظة « اشور » التي عنت في البدء احدى مدن بلاد اشورية
العديدة ، ثم اطلقت بصورة واقعية على المنطقة بكاملها بعد ان تضاءلت امامها سائر المدن .
وهكذا فقد حافظت الدولة ، بعد ان اتسعت رقعتها كثيراً ، على ذكر رسمه الحلية الاولى التي
منها نشأت .

وفي الوقت ذاته نلاحظ استعمال تماير مختلف مفهومها اختلافاً كلياً . فان
مفهوم الامباطورية
لقب « ملك المناطق الاربع » قد يشير في البدء ، علاوة على سومر واكاد ،
الى منطقتين اخريين في الشمال - الغربي والغرب امورو وسوبارتو يصعب تعيين حدودهما بصورة
واضحة . وقد تشمل هذه التسمية ، استناداً الى تعبير كان رائجاً يومئذ ، مناطق تمتد « من
البحر الاسفل (الخليج الفارسي) الى البحر الاعلى (البحر الابيض المتوسط) » . ولكن يفضي
بنا هذا اللقب الى لقب آخر هو « ملك مناطق العالم الاربع » الذي يفرض تفسيراً اشد اتساعاً
لانه يعيد الى الذهن الجهات الاربع الاساسية . وما يؤكد هذا التفسير لقب « ملك الكل » ،
و « ملك العالم » الذي لن يتوانى بعض الملوك الاشوريين والبابليين ان يتخذوه . فالدولة ، التي
تسلست من مفهوم البلدة ، تنتهي بالتساوي مع مفهوم الامباطورية العالمية .

ان هذا المفهوم نظري دون شك اذ لم يحققه عملياً اي من الملوك الذين اتخذوا لانفسهم مثل
ذاك اللقب ، ولكنه يشير اقله الى ادعاءات لم يعتبرها المعاصرون . في القرن السابع مثلاً فيها ،
اي في عهد اوج عظيمة سلالة الاشوريين السرجونيين الذين امتد سلطانهم من بيجرة « فان » الى مصر
العليا ، ومن كيليكية الى بلاد الماديين *Mèdes* .

و فعلاً بقيت هذه الامباطوريات ، عظيمة او صغيرة ، عرضة
للزوال السريع .
تزعزع الامباطوريات

وقد سعى لتشيدها كل الذين ، هنا وهناك ، توصلوا الى بعض السلطة . وانتقلت السيادة من

تلك البلدة في سومر الى ساميتي كيش الذي استقر ملكها سرجون (القديم) في أكاد واسس اول امبراطورية عظيمة في بلاد ما بين النهرين . ثم نرى سلسلة من الممالك السومرية تلتها اول امبراطورية بابلية اعلى شأنها في القرن الثامن او السابع ق.م. الملك حورابي العظيم . ولم تكون بلاد ما بين النهرين في كل مرة الا نقطة انطلاق يسعى منها الاباطرة لاختضاع بلاد عيلام وسلسلة جبال زغروس شرقاً ، ووادي دجلة الوسطى اعني اشورية شمالاً ، ووادي الفرات مع ماري في الشمال الغربي ، ثم غرباً الشواطئ السورية ولربما ايضاً - كما يزعم اقله سرجون القديم - جزيرة قبرص . وهكذا تبدو روح السيطرة الاشورية ، ان اعدناها الى اطار تلك الحقبة التاريخية الطويلة ، كأنها وريثة تلك الاتجاهات التوسعية التي لم يكتب لها النجاح طويلاً ، وان هي أوصلتها الى مدى اوسع .



الشكل ١٠

امتداد الامبراطورية الاشورية في عهد اشوربانيبال

اذ كان البناء يتزعزع كل مرة ثم ينهار تحت تأثير الثورات الداخلية او غزوات الشعوب المتدفقة من الجبال او السباسب المجاورة ، هذا البناء الذي كان قد شيد بصعوبة كلية وغدا ثمرة غزوات سنوية متكررة . واتخذ البطش الذي يرافق كل فتح او اخماد ثورة اشكالا أشد قسوة ، وقد بلغ الزبي اثناء الحروب التي خاضها الملوك الاشوريين . ولكن لم يحسب الابداع في خطط التنكيل دون ازدياد المساعي الفاشلة .

وعبثاً سعى فاتحو بلاد ما بين النهرين ان يجمعوا تحت سلطانهم المدن التي اعتقدوا بأن

مدنيتها قريبة مما اعتبروه اساس سيطرتهم . فما هو القول اذن عن المدن او القبائل الغربية ؟ ان الزعة الفردية التي انبثقت عن المفاهيم الاولية تستمر قوة لا تقهر .

ولكن نتيجة لكثرة الحروب والثورات التي لا يجمد لها لهيب ضعفت قوى شعوب ما بين النهرين . وقد سهل هذا الوهن تحقيق اهداف فاتحي المستقبل من امثال كورش الايراني واسكندر المقدوني .

النظام الملكي وجماعة المواطنين تتطلب الحرب وحدة القيادة ، أعني قائداً حربياً يسمى حتماً ليصبح زعيماً سياسياً ، لذا فلا عجب اذا غدا النظام الملكي في بلاد ما بين النهرين كما في وادي النيل اساس الادارة السياسية . ولكن الفرق واضح بين هذين النظامين الملكيين اذ ان مبدأ التجزئة الى دويلات مستقلة هو اكثر شيوعاً في بلاد ما بين النهرين ، كما ان المدينة في تلك البلاد قد اتبعت لربما في الاصل النظام الجمهوري دون الملكي .

ويستحيل حقاً على نفر من المؤرخين الثقة بتفسير بعض النصوص ان لم يستندوا الى وجود نظام يت الى « الديوقراطية البدائية » حيث كان مسير الامور « الشيوخ » يستشيرون ندرات الرجال الاحرار . ولم تنتخب هذه الندوة رئيساً واحداً الا في حال نشوب أزمة وحل هذه الأزمة فقط . وقد حول تكاثر الأزمات وعبرية بعض الزعماء هذا النظام المعارض الى نظام مستديم .

والحق يقال ، ان هذه النظرية تسيء الى المبدأ العام ، الذي لا يحتمل اي شواذ ، القائل بشيوع النظام الملكي . ولكن في زمن لاحق ، وفي بعض المدن التي كان يحكمها ملك ، كما نرى ذلك مثلاً في مستعمرات الآشوريين ببلاد كبادوكية في اوائل الألف الثاني ، نشهد بعض المنظمات الجماعية التي تسيطر عليها طبقة ارسقراطية بورجوازية .

لا مشاحة بأنه ، نسبة الى تطور النظام السياسي ، يجب ان نحسب حساباً للملك « نائب الآلهة » للآلهة كما نفعل ذلك مع المواطنين وطالبي السلطة .

فكل مدينة تسيطر عليها آلهة معينة . ومع ان آلهة اخرى تُعبد في تلك المدينة ، فان لهذه الآلهة فيها حق السيادة والاولية ، كما ان هيكلها يفوق سائر الهياكل عظيمة وغنى . وهي التي توحى القرارات سواء اتخذها المجلس او الشيوخ او الملك ا

لذا فان السلطة الملكية تستند دوماً الى أساس الهي . « لقد هبط النظام الملكي من السماء » ، وهذا ما يحلو للنصوص ان تؤكد . وعلاوة على هذا فان اللقب الذي يحمله ذوو السلطة ليس دائماً ، اقله في اوائل العهد ، لقب « الملك » . لذا غالباً ما تتلاقى مثل هذه الكلمات « حاكم المدينة » ، خاصة متى احتكر ذو السلطة مسؤولية الكاهن الأعظم ايضاً « نائب » و« مندوب »

الآلهة . لذا فان الملوك الاشوريين الاوائل مع تسمية ذاتهم بـ « الملوك » ، لا بل « ملوك العالم » لا ينفكون عن اعتبار انفسهم « نواب الاله آشور » ، ولم يعد يمنح لقب « الحاكم » - وقد فقد من حقيقة مغزاه وقيمته الاولى - الا الى الامراء التابعين او الى الموظفين .

وبالعكس ، ولفترة طويلة ، نرى بأن لقب هذا الاله او تلك الإلهة هو « ملك » او « ملكة » المدينة .

تعيين وتنصيب الملك يظهر كل هذا الدور السياسي الذي ، نظراً للمعتقد الديني وغنى الهيكل ، يلعبه رجال الكهنوت او الكاهن الاعظم في شؤون المدينة او المملكة . وهكذا فان النظام يحتفظ ، من وجهات عدة ، بالمظهر الشوقراطي . فالسلطة الملكية لا تصبح علمانية ، لا بل انها لا تتجه نحو العلنية ، بل تسعى لتستفيد من وضع سبقها في الزمن .

و فعلاً يفترض في الآلهة امر تعيين صاحب السلطة . فهي « تنظر اليه مجذب » او « تلفظ اسمه » . وكانت تم هذه الوقائع بموجب طقوس لا تزال نجعلها . ولا غرابة في التوفيق بين هذا الاصطلاح وبين مبدأ الوراثية إذ ان الملوك يفخرون بالأصل الملكي الذي ينتسبون اليه . ولكنهم مع هذا لا يتناسون في الوقت نفسه عن التذكير بالانتخاب الذي وقع عليهم من قبل الآلهة . وفي عهد اوج الامبراطورية الاشورية يباشر الملك ، زيادة في الاطمئنان ، وهو على قيد الحياة ، بانتخاب احد بنيه . وهذا يعني دون شك بأنه يعرض من يقنضه لتقره الآلهة ، إذ لا اثر لبدل البكورية : فاشوربانيبال يعلن بكل صراحة بأنه اصغر سنًا من « اخوته الزناة » .

وبعد المصادقة على الانتخاب ، يستحصل الوالد على بين الخضوع والاحترام لابنه ، ويلج المنتخب « بيت الوراثة » حيث يدرب على مهام منصبه المستقبلية . ويوم ارتقاء العرش تجري احتفالات دينية يمنح اثناءها المنتخب اسمه الملكي ويُنقَد الشعارات ، رمز السلطة الالهية . وتقام هذه الاحتفالات في آشور ، مدينة الامبراطورية الاشورية المقدسة ، وليس في المقر الملكي ان كان في نينوى او في مدينة اخرى .

لذا يغدر من السهل فهم الاسطورة التي تجعل من سرجون القديم ابناً لاحدى الكاهنات ، وقد ربي عند بستاني ، او تلك التي تؤكد بان اشورناسير ايلي الثاني - ملك اشوري من القرن التاسع - يعتبر نفسه من اصل جبلي وضيع ، مع انه ابن ملك ، ويقول من ثم : « انت يا اشتهار ، سيده الآلهة الرهيبه ، قد القيت نظرك علي ، و اردت ان اصبح ملكاً ، وانتشلتني من بين الجبال .. وعهدت لي بصولجان العدالة » .

واجبات الملك الدينية ان التقوى ، والحالة هذه ، هي صفة من صفات الملك اللازمية ، واجباته الدينية هي اولى واهم واجباته .

ومنها واجبات طقسية . فالملك هو الكاهن لا بل الكاهن الأكبر للاله الوطني ، حتى ولو لم تقر له الكتب صراحة بهذه الالتاب . وهو الذي يقدم شخصياً طقوس العبادة ، وهو الذي يشيد ويرمم ويكرس المعابد . وهو اكثر من اي كان مؤهل للقيام بطقوس التطهير ، وتقديم الذبايح ، واستشارة الآلهة .

ومن هذه الواجبات ، او التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالمذكورة اعلاه ، واجبات ادارية . فهو الذي يراقب ادارة اموال الهياكل التي يقوم بها رجال الدين ويتدخل لتقوم ما اعوج سنهها . وهو الذي يعين في المناصب الكهنوتية ، اقله في المراكز الاكثر اهمية ، كوظيفة كبير الكهنة ، ولا يتردد في اسنادها الى افراد من اسرته ، استناداً بطبيعة الحال الى اوامر الآلهة التي يعجب لها بكل سذاجة .

واخيراً فان بعض هذه الواجبات هي معنوية . ومن المؤكد بان كلمات « عدالة » و« انصاف » و« حقيقة » تذكر اكثر من مرة . فجمورابي عندما اعلن قانونه اراد ان يرضي ستمش « إله العدل » وان « يؤمن الحق في البلاد ويقضي على فاعل الشر والردية » ويمنع القوي من الحق الاذى بالضعيف . . ولكن في الاساس تتحد العدالة اتحاداً ذاتياً بإرادة الآلهة التي يستعصي فهم اسبابها على ادراك البشر الذين لا يحق لهم من ثم مناقشتها والحكم عليها .

وهكذا فان واجب الملك المعنوي الاول قبل الآلهة ، بصورة عملية ، هو الطاعة العمياء . انه يسعى لمعرفة ارادة الآلهة ، لذا فهو يراقب ويأمر بمراقبة وتفسير كل الدلائل الممكنة : احلامه ، الظواهر الفلكية ، اجوبة الآلهة ، كبد المحرقات الخ ... انه يضرع الى الآلهة لثلمه ؛ وباللقاب عليه ان يخضع لإجماعات الآلهة فيبدأ المعركة عندما تأمره بذلك ، ولا يخوضها الا عندما تشير عليه بذلك . ولدينا نصوص عدة تظهر لنا علماء التفسير يطعمون باله ان ساوره شؤم ، لا بل يلحون عليه كيلا يهمل الرقي والتوضؤ ، او يأمرونه ، حتى اشعار آخر ، بالمثابة على صيام مضم ينهك قواه ، او على عدم تبديل ثيابه ، وعدم تقديم المحرقات وركوب العربات الخ . . وهكذا يفدو الملك فعلاً عبداً لعلماء تفسير ارادة الآلهة اذ يجب عليه ان يظهر بمظهر التقى الشديد الورع .

الملك صة الوصل بين الشعب والآلهة
يبود من السهل ، استناداً الى هذه العلاقات مع الآلهة ، ان نجد اوجه شبه بين النظام الملكي المصري والنظام الملكي في بلاد ما بين النهرين . ولكن لا تقل الاختلافات بينها وضوحاً ايضاً ومن اهمها دون شك عدم اعتبار مالوك بلاد ما بين النهرين انفسهم عادة وبشكل اساسي آلهة .

ففي بعض مدن بلاد ما بين النهرين السفلى نجد نقرأ من الملوك الاقدمين في الزون (البابتيون) المحلي ؛ ولكن حتى بعد المئات فان الرجال الذين يكتبون صفة الالهية يمدون من الشواذ . ويصبح هذا المبدأ اصدق حقيقة ما دام الملك على قيد الحياة . ويمثل لنا نصب اللوفر الشهير ،

وقد اقامه الخليفة الثالث لسرجون القديم نارام سن ملك اكد ، الذي كلل هامه بالتاج ذي القرون ، وهذا امتياز لا يعطى إلا للآلهة . ولكن هذا أمر لا ثاني له ! ففي القرنين الثالث والثاني يسبق اسم بعض ملوك بلاد ما بين النهرين السفلى نمت يدل القارئ على ان الاسم الذي يلي هو اسم « إله » . ولكن لم يعمّ قط هذا الاستعمال وقد زال مع عهد حورابي على ابعد تقدير . وحتى مع هذا الملك الاخير فلا يبدو الامر بعيداً عن كل شبهة ، ويظهر الخلاف على اشده بين المؤرخين عند تفسير لقب « إله الملوك » الذي يطلقه الملك على نفسه في قانونه .

ولا نجد امثلة اخرى الا في عصر قديم وفي حالات افرادية . وقد يستعمل اسم ملك بدل اسم إله لتكوين اسماء اشخاص من امثال « حورابي هو الهى » . فلا تدل هذه العادة مع هذا الاعلى احترام شخصي وليس على تأليه رسمي . وقد تذكر قصة نكاح الملك إلهة انتخبته عوض زوجها الالهى ، ولكن لا يعني ذلك الا طقس خصب . وهناك تقاليد اخرى اكثر ديمومة تسترعى الانتباه في العهد الآشوري : التضرع الى العاهل مشفوع بالدعاء الى الآلهة في عبارات بين ، او تأكيد من الملك بأنه ينسب بوشانج القربى الى الآلهة كما يت بالوقت نفسه الى اصل بشري . ولكن لا يتعدى مداها الحقيقي حداً بعيداً .

والحقيقة هي انه بينما نرى الفرعون المصري المنحدر من صلب الهى والمترع على يد الآلهة يرتقى حين اعتلائه العرش الى مصاف الآلهة ليستمر على هذا الصعيد حتى بعد مماته ، نجد بان الملك في بلاد ما بين النهرين هو يمثل الآلهة فقط قبل البشر و مندوب البشر لدن الآلهة . فهو اذن والحالة هذه صلة الوصل بين العالمين الرباني والانساني . وهو لمرؤوسه نوع من الطلاسم ، يدافع عنهم ويسعى لتنفيذ رغبات الآلهة نحوهم ، اي انه يخلق لهم جواً ملائماً لحياتهم وسعادتهم بالاتفاق مع القوى التي تفوق الطبيعة ، ويسهر على ديمومة هذا الجوى .

السلطات والنظم الملكية
سبق واشرنا الى الحدود التي تقررهما هذه النظرية للسلطة الملكية المطلقة . ولكن لا تجعل هذه الحدود من الملك رجلاً شديداً بامثاله الآخرين ، إذ ان خضوعه للرغبات الالهية تقابله من جهة اخرى طاعة مرؤوسيه العمياء التي تسهل له القيام بالموجبات الملقاة على عاتقه . لذا تشمل سلطاته جميع مرافق الحياة الجماعية . والى اي حد تكون سلطاته هذه حقيقة وتنتشر بمجيج دينية ، ام ظاهرية فقط تخفي والحالة هذه الحمايات تنتسب الى اصل كهنوتي ؟ انه من المحال تقرير ذلك على ضوء النصوص الرسمية التي وصلت الينا . وتختلف الطباع دون شك في هذا المجال باختلاف الملوك ، فتبرز من ثم حالات عدة متنوعة .

وعلاوة على امتيازاتها الدينية فللملكية مهام حربية وادارية .

القيادة الحربية
ان الملك هو قائد الجيش الاعلى ، ولربما غدت هذه المنزلة في الاساس سبب وجوده . وغدا من ثم لزاماً عليه ان يجارب بصورة مستديمة وعلى رأس

جيوشه . ويتباهى الفن والأدب لاعلان بطولاته . وقعداه الآلهة بالنصر وتمنحه اياه ، لذا غدا وصف المارك شبيهاً بتقارير يقدمها للآلهة التي ترعاه وتحميه . وتظهر كثرة هذه التقارير المهمة القيادية التي يأخذها على عاتقهم ملوك الدولة الاشورية في عصرها الذهبي . ومن النادر ان تقتضي سنة دون ان يخوض الملك فيها حرباً ، وبأدرة الغزوات التي يلقي زمام قيادتها ، عند غيابه ، الى التوراثو ، تران التوراة ، اعني نائبه . غير انه بالواقع من المحتمل جداً بان هذا الاخصائي يقوم بعمله جنباً الى جنب مع الملك كانه القائد الحقيقي . ولكن عظمة الملك تحتم على هذا النائب بان يحتفي وراء الرئيس الاصيلي .

ولا بد ان يظهر هذا النشاط الحربي بصورة ما ، وان لم يحتل دوماً الصدارة في حياة الملك . لذا يحتم وجود جيش . وتعرف حالة هذا الجيش من خلال الآثار المنقوشة والادبية معرفة لا بأس بها وان تفاوتت تبعاً للشخص والزمن .

الجيش الاشوري نستطيع ان نتتبع بشيء من الدقة تطور المعدات الحربية وخطط القتال . وسنجد في هذا المجال الاساطير والخيالات . ولكننا نكتفي ، استناداً الى نتائج هذا التطور في قومه ، بان نلقي نظرة على الجيش الاشوري في القرنين الثامن والسابع ، هذا الجيش الذي يعد بحق اشد وارهب اداة حربية حققتها دولة في بلاد ما بين النهرين : ويفسر لنا تفوق هذا الجيش عدد انتصاراته واستمرارها .

ان تقسيم الفرق وتنوع معداتها نسبة الى المهمات الملقاة على عاتقها دقيقان جداً .

لم يظهر الحصان إلا في وقت متأخر - وكانت الحبر تجر العجلات السومرية القليلة العدد - وقد استخدم لهدفين . فهو كدابة حمل يجر العجلة الحربية التي يعولها رجال عدة : ففي المقدمة يقف السائق الذي يوجه الحصانين المشدودين الى جانبي الجر ، ويليه المحارب والقارب منه حربة وجعبة كبيرة للسهم ؛ وخلف الاثنين « الثالث » الذي يقبل بين يديه ترساً دفاعاً عن رقيقه . وكحيوان ركوب ساعد الحصان في اوائل القرن التاسع على تكوين فرق للخيالة . ولم يكن آتئذ ركباً او سرج بل فرش . واوجب ركوب الخيل معرفة فن الفروسية الذي ما يرح يتقدم تقدماً مستمراً لتقدم وتطور السلاح الهجومى . ورافقت في اول الامر المقاتل الخيال مساعد يتطلي صهوة جواد ليقود فرس الجندي ويحميها معاً . غير انه مع الزمن استغني عن هذا المساعد اذ ألس الحصان قطعاً وازاد المحارب الى خوذته درعاً معدنية واتخذ المساة . وغدت عجلات القتال وفرق الخيالة الثقيلة اهم عناصر الجيش الاشوري الهجومية .

ويتألف جيش المشاة ، وهو الاكثر عدداً ، من فرق الرماة وحاملي الحريات ، وقد اعتمر بعضهم الخوذ ولبسوا الدروع والاحذية وحلوا الدرقة . ولم يكن لفرق المشاة الخفيفة التي ضمت رماة القلاع الا سلاح دفاعي اقل وزناً وعدداً ، يمتاز رجالها بسباحة ، دون شك ، بجاري المياه مستعينين بظروف من جلد منفوخة او يملون بمجاذيف القوارب على حوافي الاطراس المرتفعة .

والجيش أيضاً فرق من العلة المجهزين بالفؤوس والماول لشق الطرقات في الجبال ونصب الجسور والأسراع في أعمال الحصار . لا بل أصبح للجيش فرق للتأمين لامدادها بالغذاء والعتاد ، تحملها الجمال والحير ، إذ ان موارد البلاد الوعرة حيث يقود الرئيس جيوشه لا تكفي لحاجاتها .

وهكذا أصبح الجيش آلة معقدة يفرض حسن قيادتها على هيئة الأركان مشا كل تقنية دقيقة . ولا شيء يظهر بوضوح الاتقان الذي توصل اليه الجيش في مختلف المرافق والحلقات أكثر من التقدم الذي أحرزه في فن الحصار إذ لم يجد العدو ، أمام تفوق الآشوريين في المارك ، وسيلة أفضل من الاحتناء وراء أسوار مدنه . ولكن كان الآشوريون إذ ذاك يشدون الحصار بإبراج متحركة يصون منها نبالهم على المحاصرين ويقذفونهم بكوم من التراب للسيطرة عليهم . والآشوريين آلات متحركة عليها أكباش ثقيلة لذلك الجدران . ثم يقومون بهجوم صاعق لا يُغلب برأسه السلام أو من ثغر الأسوار يتبعه النهب والتقتيل وتعذيب الملك المتمرد وجلاء الأسرى وآلهم الذين يصحبون فرسة لتتكامل المنتصر بشراسة وبطش .

ولكن مهما بلغ هذا الجيش من القوة والكمال فلا بد ان يلاقي يوماً ما من يصبح له سيداً ، مع انه ، حسب معرفتنا ، لم يتعرض لاي تضعضع أو تحاذل داخلي . وقد يفاجئه اعداء لم يتعود اساليبهم - أو بالأحرى لا يعرف لهم اساليب ! - بأسراب من الحياة لا قرار لهم أكثر خبرة من خيالاته ينقضون من السباب الشمالية والشمالية - الشرقية . ومع ان الغزاة (السيث Scythes) والسياريين (Cimmériens) ، هؤلاء الرحل الشكس ، لم يستطيعوا ان يوجها ضربة قاضية الى الجيش الآشوري الذي لم يعرف الانكسار مدة طويلة ، فانهم مع هذا اضعفوه الى ان هوى تحت وطأة الماديين (Mèdes) - وهم أيضاً خيالة أكثر مهارة - والبابليين المتمردن . وهكذا حيت هتافات الغبطة والخلاص والضعيفة المتأكلة حسداً وتشفيأ التي فجرتها الشعوب المغلوبة على امرها حريقاً مدينتي اشور ونيوى وقد هوتا ودمرتا .

التعبئة لا وجود لجيش دون قوانين تنظم اشكال التعبئة . ولكن باستثناء بعض الحقب المعبئة ، يبرز جهلنا في هذا المجال .

وقد ظهرت باكراً جداً الخدمة العسكرية الازامية ايام الحرب ، وذلك منذ نشوء الدولة دون شك : إذ بدونها يصعب علينا ان نتصور كيف تقدم مدينة صغيرة على مفامرة الحرب والفتح . ولكن هذه الكيفية في التعبئة لا تأتي إلا نادراً جداً يجنود ذوي جداره . لذا فارت قانون حوراني ، زمن كانت بابل تتحكم في مصير امبراطورية ، يكشف القناع عن وجود جنود اتخذوا الجندي مهنة لهم ، فيخدم بعضهم بصورة مستندية في فرق الحرس الملكي ، ولا يجند بعضهم ، وهم أكثر عدداً ، إلا اذا اقتضت الحاجة ، ويقبض جميعهم اجرهم . وبالعكس ، في

ايام السلم ، فانهم يعيشون مع اسرهم باستئثارهم ارضاً اقطعهم اياها الملك ، مع بيت للسكن وقطيع ،
مازمن فقط بتلثة نداء استناداً الى تطور التعمشة . ولم تصحح وراثه هذه الاقطاعية حقاً ولكن غدا
ذلك امرأ متبعاً . ومن المعتقد ، استناداً الى تطور سار عليه كل نظام مماثل ، بان هذه الارض
اصبحت فيما بعد ملكاً المعطى اليه ، ويستطيع ان يبيعها .

ولا نجد شيئاً لهذا الامر ، كما نعرف اقله ، في الامبراطورية الاشورية . فان الجنود
الحقيقيين يمثلون ، نسبة الى عدد السكان ، عدداً اقوى بكثير ، وهذا مما يدل دون شك على وجود
الخدمة العسكرية الاجبارية الفعلية مع تدريب اشد تغلغلاً في الجماهير . ونجد ايضاً ، نسيباً ، اذا كان
الاختلاف بين فرق الجيش يتناسب مع التفاوت الاجتماعي . وهذا من المحتمل ان رجل الحياالة
او المقاتل على المعجلة مثلاً هو دون ريب من طبقة ميسورة الحال . ولكن ، حتى وان شملت
التعمشة مجالاً اوسع ، فان الجهود الحربي اقوى من ان يتحصله الاشوريون وحدهم . لذا يستعين
الملوك بفرق من المرتزقة تقدم افرادها الشعوب الخاضعة لطاعتهم . لا بل يبدو مراراً بان الملوك
فرضوا تعمشة ما على البلاد المغلوبة على امرها . ولكن تبقى صفوف الجيش الاساسية دون ريب
من اصل اشوري .

وهكذا تتكون مجموعة من التقاليد والنظم الحربية ترثها الامبراطورية الفارسية ، حتى ان
آخر دولة من دول بلاد ما بين النهرين ، المملكة البابلية الثانية ، تساهم بدورها في اغناء هذه
المجموعة اذا انها ، في مدة سيطرتها الوجيزة التي تمتد من تضعف بلاد اشور الى الفتح الفارسي
لا تتوانى عن تجديد مرتزقة يونان فيخدم نبوكدنصر شقيق الشاعر األسه (*Alciv*) . وفي
الفترة نفسها يقدر قراعة سايس (*Sais*) مزايبا اليونانيين الحربية . وعندما يتخذ ملوك الفرس
مرتزقة من اليونان منذ اواخر القرن الخامس ، فانهم بذلك يجدون حذو الممالك التي
قضوا عليها .

الادارة والموظفون
ان ملك بلاد ما بين النهرين هو رأس الادارة كما هو القائد الحربي في الدولة ،
توجهه اسباب اضطرابية مختلفة نحو المركزية حتى ولو لم ينجح خلقه الى
ذلك . ويلزمه لجيشه كمهامات مادية وبشرية ، وعليه ايضاً ان يسعى لتقوية وحدته الاقطار
والشعوب التي يسيطر عليها . ولا تتحقق هذه الرغبات إلا اذا فرض طاعته ، ولا يتسنى له ذلك
الا اذا اوجد ادارة محكمة او اقله مراقبة بظقة .

واهتمت هذه الادارة ، في اول الامر فقط ، وذلك بصورة لا يرقى اليها الشك ، بتدبير الاملاك
الملكية . واذ تتخذ من القصر مركزاً لها فهي تنظم « كبيت » الملك ولها نظار وموظفون
يقومون بخدمات معينة . وترى هذا التنظيم ، ولو بصورة مصغرة ، في « بيوت » الملكة وولي
العهد . ولكن رويداً رويداً امتدت صلاحيات هذه الادارة الى الدولة بأسرها ، وذلك بسهولة

اذ يظهر بانّه لم يجر قط اي تمييز بين املاك العاهل الشخصية وبين الدولة بمعناها الحقيقي .

وتنشأ الصعوبة الكبرى بطبيعة الحال من كيفية التوفيق بين السلطة الملكية واستقلال المدينة ، وقد كانت دولة قديمة ضمت الى دولة أكثر اتساعاً . وفي هذا المضمار لم يتنجح نظام المركزية الملكية أكثر من نجاحه في المملكة البابلية ايام حورابي ، حتى ان اعظم الملوك الاشوريين لم يأتوا بشيء يفوق اتفاقاً ما اتي به حورابي . انهم لربما تماطلوا أكثر منه مع جماعات بشرية من قبائل جبلية او قبائل على نصف بداوة ، وهي اقل تنظيمياً واقل خضوعاً حتى ارتضت بنظام اقطاعي أكثر رخاوة .

المركزية زمن حورابي وبالعكس فان السلالة البابلية الاولى اخضعت لارادتها حياة الجماعات المغلوبة على امرها من كافة النواحي ، وقد تبقي على الامراء المحليين تاركة لهم لقب « حاكم » - وقد كانت لقبهم قديماً « الملك » - . ولكن معظم هؤلاء الحكام ليسوا الا موظفين يعينهم العاهل وينقلهم متى اراد من مدينة الى اخرى . ويحتفظ الملك ، اعني الادارة المركزية التي تسيّر الامور بالقرب منه وتنفذ اوامره المباشرة ، بمراسلة دقيقة مع مختلف الجهات . فهو يتسلم التقارير وهو الذي يقرر ويقوم ، معتن مراراً بامور تافهة جداً ويسلوك موظفين ثانويين .

ولا يظهر تأثير الملك باكثر وضوحاً وقوة ، في اي من مرافق الحياة الاجتماعية ، مثل ظهوره في مضار العدالة . فلقد استغل حورابي ، وهو الملك المشرع ، سلطاته القضائية ليوحد ويوطد المركزية . والى جانب الجهاز القضائي في المدن والهياكل ، يوجد جهاز قضائي ملكي يعين العاهل فيه ممثليه . وعلاوة على ذلك اباح حورابي لجميع رعاياه امكانية مراجعته او مراجعة وزيره الاعلى .

وهكذا فان الموظفين الذين لا يحصرهم عدد يؤلفون قسماً هاماً من الامة البابلية ، وهم ينالون اجرهم مستثمرين ارضاً يقطعهم اياها الملك اسوة بالجنود الذين التحنوا الجندية مهنة لهم .

الاية الملكية ان للملك على كل حال حياة ابهة تحجبه عن سائر البشر ، حتى عندما تبدو المركزية اقل شأنًا والهيئة الادارية اقل عظمة . فالقصر هو « البيت الكبير » يسحق بشموخه وعظمته سائر مباني الدولة ، ما عدا الهياكل ، يمشر فيه عالم من الجنود والعبيد والخدم والكتابة ، وتراعى فيه قوانين آداب اجتماعية صارمة ، مما يجعل الوصول الى الملك امراً صعباً .

والآثار المنقوشة ، وهي تكثر خاصة ايام الملوك الاشوريين ، تظهرهم لنا في الحرب اوفى في الصيد والقتل - وهي الاعمال التي تنوب مناب الحرب - او الحفلات الرسمية . ويبدو لنا فيها

العاهل كرمز اكثر مما يبدو كفرد . وحتى في المشاهد العنيفة فلا تحور حركاته ، وهي دائماً دليل النصر ، شيئاً من جلالة الملك التي تبدو بأكثر وضوح في مشاهد الاستعراضات . فله اللحية والشعر المجدد ، بكلل هامه التاج العالي وسط رجال حاسري الرأس ، يتزين بالخطى ويرتدي ثياباً طويلة مزركشة ، تحميه مظلة ويتبعه رهط من الخدم يلوحون بالراوح . وقد يجلس على العرش ، او يقف ، ورجلاه على الأرض ، حاملاً عصى طويلة ترتفع حتى الوجه ، او ينتصب على عجلة تجرها الاحصنة المزينة . وهو يمثل ، في كل حال ، بمعظمة وثبات جنات ، جبروت الانسان الكلي القدرة الذي انتخبته الالهة ليكون « مندوبها » على الأرض .



الأشكال الاجتماعية والاقتصادية

يؤلف القصر الملكي ، بطبيعة الحال ، علماً على حدة في حياة مدينة بلاد ما بين النهرين . ويسكن فيه جمهور اجتماعي تشده الى العاهل عرى تتمدى الوشائج التي تصل الاقرباء بعميد الاسرة او العبد بسيده . ولقد وجد المتقربون في اور - اور في بلاد الكلدان حسب التوراة، ووطن ابراهيم - قبوراً لا يتعدى تاريخها اوائل الالف الثالث غنية جداً بالاشياء الثمينة مما يحمل على الاعتقاد بان بعضاً منها اقله هي اجداث ملكية . ويجري كل منها على اقل تقدير هيكلتي عظام ، ومراراً عشرات وعشرات رقت على احسن دقة ونظام . ولم تحدث دون شك اعمال عنف او مشاجرة . وهناك اشخاص يضعون طوعاً مجيئهم - ولا فرق ان فرضتها التقاليد - وهم ينتمون الى حاشية الملك لبراقوه في عالم غير عالمنا الارضي . ولم يعثر على اي قبر يرقى الى عهد اسبق في بلاد بابل او آشور لم تمتد اليه اليد . ولكن تذكر لنا بعض اللوحات الآشورية الطقس المتبع عند دفن العاهل : وهي تفيدنا بأنه كان يجري في الوقت نفسه دفن « سيدة القصر » اعني الزوجة الاصلية . ولم يجر هذا الدفن الا صورياً لربما اذ نعرف ، في اواخر القرن التاسع ، ملكة - امّا أصبحت وصية في بدء ولاية ابنها وهي سامون - رامات التي دخلت الاسطورة باسم سميراميس . ولكن هذا كاف للتدليل على ان العادات القديمة تركت لها اثرأ زمنأ طويلاً ولو بشكل ملطف .

وهذه المجموعة الاجتماعية هي كثيرة العدد ومختلفة التركيب اذ نجد فيها عمالاً ينتسبون الى كل المهن ، واجراء ، وكتبة ، وصناعيين ، ورجال اعمال ، وفلاحين ، ورعاة ، وحراس مخازن الخ وكلهم يخضعون لاوامر ناظر اذ ان الاملاك الملكية المشتتة والمتشعبة الخيرات تجعل من القصر نوعاً ما مشروعاً اقتصادياً واسماً تساهم ارباحه بتثبيت وتقوية سلطة الملك المادية .

ويصلح الملك عن املاكه اقطاعات يخصصها للملكة ولاولاده الملكيين ، كما انه يقطع أيضاً منها ، اقله زمن حورابي ، اقساماً يوزعها على سبيل المكافاة ، لجنود اتخذوا الجندية مهنة لهم او لموظفين . ويؤسّس ما تبقى من هذه الاملاك مباشرة حسب اوامر الملك الذي يتصرف كالكبير يهتم بارباحه . انه لا يوجد بكل تأكيد اي تمييز بين عقار يملكه الفرد وآخر يخص التاج . لابل

يحصل التباس اكيد بين املاك التاج والدولة ، اقله فيما يختص بالافعال المادية ذات المنفعة العامة . وان سهل التمييز نسبة الى الضرائب والجزى ، فالعكس مؤكد ان اعتبرنا اعمال السخرة التي تقرض على المواطنين لحفر قنوات الري والاعتناء بها وبناء الطرقات والنقل ومصادرة الحيوانات الخلوبية وحيوانات الجر والمراكب والعجلات . وعلى كل فان الاهراء حيث تكسب غلال املاك المعامل والدولة مشتركة . وللملك الحق بان يتعاطى اعمال الصيرفة ، ويقرض مالا لقاء فائدة ، ويشترك في مشاريع خصوصية . ومع انه مالك كبير لارض وقطعان ، وصاحب معامل فهو ايضاً رأسمالي واسع الثراء . وهكذا يلعب الملك في مختلف المرافق دوراً اساسياً في حياة البلاد الاقتصادية .

الهيكل وتقوم الهياكل ، نسبة لعددها ، بدور اشد خطورة . فلكل مدينة عدة هياكل : فقد وجد في لاغاش في اوائل الالف الثالث نحو خمسين هيكلاً . وتصنف هذه الهياكل درجات وفتات ، وعلى كل تعود الاولوية الى هيكل الإلهة سيدة المدينة . وهذا المعبد هو عادة اكبر المعابد واكثرها زينة الا اذا عطف على هيكل آخر ، وبصورة استثنائية ، ملك يتنسب الى مدينة اخرى . وهذا الهيكل هو اكثر الهياكل غنى ، لذا فهو احسنها تجهيزاً من حيث رجال الكهنوت ورجال الادارة والاستثمار .

وهكذا يكون كل هيكل ، على غرار القصر ، عالماً مستقلاً . ونسبة الى بعض الفئات التي تتلاقى مع نشاط طقسي او مهام اخرى بعض المرار ، فان المجتمع الذي يتخذ له من الهيكل مركزاً رئيسياً يصبح كأنه طبقة مغلقة . وهناك اساليب وفنون لا يتعلمها المرء الا في الهيكل ، وفي عهد الصبا . كما توجد من تبدو وكأنها لا تمت الى الدين بصلة ولكنها تستوجب مع هذا ، بالنسبة الى الهيكل ورجال الكهنوت ، معرفة بعض الطقوس و ممارستها ؛ وعلى النقاشين والنساجين والحبارين وحتى البوابين ان يقفوا عليها . ولا شك في ان اعمال الزراعة وحدها تستثنى من هذا الواجب .

ويلاحظ المرء ، على كل حال ، عدداً وفيراً من المهن يلتحق اربابها بالهيكل . وتمثل فيهم كل الطبقات الاجتماعية ابتداء من المعبد حتى ابن الملك او ابنته ، ويكوتون ، تحت رعاية الكاهن الاظم او الكاهنة الاولى ، جماعة كبيرة تحيا لخدمة الاله ، وتمتاش من ثم من مدخوله ، اعني من غلة ارضه او مما يفيض عن التقادم والذبايح .

ولكن لا يستتفك افراد هذه الفئات المختلفة من الاندماج في الحياة المدنية ، فهم لا يأتون بثروتهم الشخصية الى الهيكل الذي ينتمون اليه ويملكون ارضاً شخصية يستثمرونها كما يحالو لهم .

حتى ان اصحاب الحرف الذين يعملون لمصلحة الهيكل يشتغلون ايضاً للجمهور لقاء أجر .
ابن سنحيت الظروف .

لا يخاف هذا التنظيم من خلل . فبإكراً جداً بدأ التذمر من الالتماسات التي لا مفر منها . ومنذ الألف الثالث اخترع احد ملوك لاغاش بأنه وضع حداً نهائياً للخداع الذي استخدمت بموجبه « ثيران الاله » لاعمال زراعية في ارض يملكها شخصياً احد الكهنة . ومع الزمن اصبحت هذه الوظائف الدينية كأنها حق ارثي : فيرهن الواحد او يبيع او يهب لمدة اشهر او ايام هذه الوظيفة او تلك ، لا بل انتهى بهم الامر مراراً في اعمال تقسيم الارث او اجراء البيع الى تجزئة يوم من الخدمة اجزاء عدة . واستمرت هذه العادة حتى في العهد اليوناني ، في بلاد بل على اقل تقدير ، بعد ان كان قد انهار الاستقلال السياسي . وتدل ضمناً هذه المواقف بان رضوخ كان يتعلق بفوائد تلازم وظيفة ما . ومع هذا فربما فرض تحصيل مثل هذه المنافع القيام ببعض الموجبات . وعلى كل يجب الرجوع الى فترة انتقالية غدت فيها الوظيفة ، كوحدة بما لها من حقوق وواجبات ، موضوع مساومة ، مع مسبق ذلك من تطور يسهل تصور مراحلها .

وهل غدت املاك الاله موضوع استملاك مماثل ؟ ان الامر ممكن اذ في زمن متوغل في القدم اقتطعوا منها حصصاً ووهبوا الى الافراد . وقد استثمر هؤلاء المقارات تلك ليؤمنوا معيشتهم ومعيشة اسرهم . ومع الاحتياطات المتخذة فلا يجب استثناء هذه الحصص من مبدأ اغتصاب اراض وزعها الملك على جنوده او موظفيه .

ومها تقلبت الظروف يحتفظ الهيكل باملاك يؤجرها من الغير واخرى يستثمرها مباشرة بما يملكه من ادوات وحيوانات ويد عاملة تميزها اعمال السخرة ، ويتم كل امر باشراف النظار . والهيكل ايضاً مصانعه يصنع العمال فيها ما يلزم لطقوس العبادة او لرجال البيعة . وله ايضاً مخازن ومستودعات وكنز ورجال اعمال .

وهكذا تهيمن الهياكل ، في مختلف المرافق ، على قسط وافر من حياة البلاد الاقتصادية . ويتشابك تشابكاً متيناً نفوذ المادي مع امتيازاتهم الروحية . وقد يسخر الهيكل احياناً سلطانه هذا للخير والرحمة ، اذ تفيدنا نصوص ترتقي الى عصر حورابي بان الهياكل تقدم قروضاً يفائدة تفل عن الفائدة القانونية القصوى ، لا بل تنقص عن الفائدة المعتدلة . وتقرض الهياكل ايام المجاعة الحبوب دون ربي ، وتسلف العبد الذي يريد ان يبتاع حريته . ويأمر الملك ايضاً بان يقرضوا الجندي الذي وقع اسيراً في يد العدو والذي يعجز ، نسبة لفقره ، عن دفع الفدى . وبعض اعمال الرحمة هذه تلقائية ! وعندما فرضها حورابي فرضاً اكتفى بثبوت تقاليد متبعة . وهكذا يسعى الهيكل لتأمين مصالح الاله والقيام بافعال رحمة خليقة به . وقد قرأنا اعلاه كيف حدد حورابي مشيئة شمس .

ان طرحنا جانباً عالمي* القصر والهياكل فاننا لا نعرف مثلاً معرفة حسنة المجتمع المجتمع الهلاني الميزوبوتامي الا في عهد حورابي ، وخاصة من خلال قانونه . ويكون هذا

التشريع النص الأساسي الذي يسمح لنا بتفسير مستندات لا عد لها ، عقود يختلف زمانها ومكانها . وان وقفنا على نبد من قوانين اخرى سنها ملوك اور واشنونا وأسین ، او ملوك آشوريون من الالف الثاني ، او اذا وجدت بعض نصوص عقود لاحقة في الزم ن تكشف لنا القناع عن اختلافات تملق بنقاط خصوصية ، فان الجوهر والمعادن لم تتبدل كما يبدو .

ان قانون حورابي يؤكد بصورة قاطعة وجود ثلاث طبقات اجتماعية ، اقله في المدرس : « الانسان » اي الانسان الكامل اعني الفرد الحر ، « والشخص الذي ينحني » المرؤوس الوضيع اعني الفرد الذي يتمتع بقليل من القيم ، واخيراً العبد ، ملك شخص آخر ، حراً كان هذا الاخير ام مرؤوساً .

ان الغرابية في هذا التقسم هو وجود الطبقة الوسطى . اننا نجعل اصلها كما لا نعرف المرؤوس ان كانت قد حصرت فقط في بعض المهن المحددة . وعلينا ان نقرر بوجودها ونعترف بان القانون وضعها على مفترق الطرق بين الفئتين الاخرين . فالذي يضرب مثلاً ابنة رجل حر ويسبب لها من ثم اجهاضاً يدفع غرامة تعادل عشرة مثاقيل^(١) فضة بينما لا ينقد ابنة المرؤوس سوى خمسة ائقال ، وابنة العبد الا مثقالين فقط . ويظهر هذا التفاوت ايضاً في الاجر المستحق لقاء احدى الخدمات اذ يقبض الجراح الذي اجري عملية ما عشرة مثاقيل او خمسة او مثقالين تبعاً لفئة المريض الاجتماعية .

العبد ان العبد ، ذكرأ كان ام انثى ، يتساوى قانوناً مع الشيء المادي الممتلك المنقول ويوسم غالباً . ويجب يتريد الطبيب الذي يزبل هذا الوسم . ويعاقب معاقبة صارمة من يساعد او يقبل عنده عبداً هاربا ، لا بل قد يحكم عليه بالموت ان كان الهارب من عبيد القصر . ونسبة الى سلسلة تصنيف الممتلكات المنقولة ينزل العبد منزلة وسطى بين المعادن الثمينة والحيوانات الليفة . وهو مثل هذه الكائنات يباع ويستبدل ويهرن ويودع . وفي عهد حورابي غدا الثمن التجاري المعادي للعبد الذكر الذي بلغ اشده عشرين مثقالاً ؛ وهذا هو ثمن حمار ... وهو اقل دون شك من ثمن الثور . وتم مثل هذه الصفقات بموجب عقود مكتوبة حسب المتعارف : ويكفل البائع حقوق المشتري ، ان وجد في العبد عيوب مستورة ، وذلك لغفرة اختلفت مدتها قديماً ولكن جعلها القانون شهراً .

ان حقيقة حال العبد القديمة والتي تركت لها اثرأ في معجم اللغة ، نسبت اليه اصلاً غريباً ، فهو اما من الاسلاب او حصيلة عملية شراء قانونية تمت خارج حدود البلاد . ومنذ القدم فعلاً ولد بعض العبيد في الوطن اما من ابوين عبيدين او حتى من ابوين يتمتعان بحريتها ، لانه ان اعتبر الاولاد الذين هم ثمرة زواج فتاة حرة مع عبد احراراً كوالدهم ، فان الاولاد الذين

(١) وزن المثقال ٦ غرامات .

يستولدم سيد خليفة عبدة لا يعتقدون بلمه الحق في الوقت الذي تصبح والدتهم حرة ، الا عند وفاة والدهم . وعلاوة على ذلك فانه باستطاعة الآباء الاحرار ان يبيعوا اولادهم ، وللدائن الحق باسرها من مديونه وامراته واولاده منها . وفي هذه الحالة الاخيرة فمن الحق القول إن القانون لا يقر المبودية الا لفترة لا تتعدى ثلاث سنوات . ولكن مددت هذه الفترة القصوى فيما بعد قانونياً وواقعياً .

ولا يوجد الا حالة واحدة ، وتبدو غامضة - حالة عبد ولد في بلاد بابل واقتيد الى الخارج واعتق هناك - يأمر فيها القانون بالعتق بصورة آلية . ولكن يستطيع العبد دوماً ان ينال الحرية ان وهبه اياها سيده دون مقابل او منحه اياها لقاء مبلغ ما . وكسب الحرية بالمال ، وقد كثر اللجوء الى هذه الوسيلة ، يؤكد انه بإمكان العبد جمع قسوة ، ولكن لا نعرف كيفية هذا الكسب . ويقدر العبد ان يقترض من الهيكمل مبلغاً لا كمال القنوة او ليقوم مقامها . وقد يفرض عقد العتق على العتيق بعض الواجبات نحو سيده ما دام هذا الاخير على قيد الحياة . وللعق مفاعيل معجلة التنفيذ فيما يختص بالاحوال الشخصية . وكان التحرير يتم ، ايام حمورابي ، في احتفال ديني يطره اثناءه جبين العبد حتى غدا لكلمة « التطهير » معنى « العتق » .

وكل هذه المعلومات ، وهي ذات قيمة عظيمة ولا نرى لها مثيلاً في القرون القديمة الا في المجتمع الروماني ، لا تفيدنا مع هذا لسوء الحظ كيف كان يحيا بالواقع افراد طبقتي المروسين والغيبس .

وتسري هذه الملاحظة ايضاً على الاسرة .

تتبع الاسرة بمحقق نظام الاسرة للمرأة الاستقلال لشخصيتها القانونية خصوصاً في موضوع ادارة املاكها ، وهذا امر يستعري الانظار . والذي يقدمه الزوج المقبل لمحبه عند اعطائه الوعد بالزواج لا يصبح ملكاً للزوجة ، ولكنها تبقى المالكة الوحيدة للباينة التي تجلبها لزوجها . اما الهدايا التي من الطبيعي ان يقدمها الزوج لزوجته فلا تستطيع هذه الاخيرة ان تباعها ولكن لها ملاء الحق بالانتفاع منها . وللزوجة وحدها حق التصرف بكل حرية بما هو ملك لها من اموال منقولة او ثابتة . وللعقد الذي هو شرط ضروري واساسي لكل زواج صحيح ان يمنع القاء القبض على شخص الزوجة من قبل دائن زوجها . ولكن لا يسري عادة هذا البند الا على الدينون التي توجب على الزوج قبل زواجه . ولكن ينفذ مبدأ التكافل والتضامن للدينون التي تمقد بعد الزواج . ولا يستأثر اذ ذلك الزوج بإدارة المنافع المشتركة بل نرى الزوجة تتدخل ، اقله كشاهدة ، عند عقود البيع . وان كان الزوج جندياً ، وطلب للخدمة فيعود اذ ذلك للزوجة حق ادارة املاكه ، ان لم يكن له ابن بلغ اشده ، وتصبح الزوجة في مثل هذه الحالات مالكة لثلث الربح .

ويستطيع الزوج دون شك ان يطلق امرأته ، ولكن القوانين تحميها اذ ذلك ضد قراره

المتصفي ، إذ عليه ان يلجأ الى المحاكم ويثبت شكواه بأدلة عادلة وقوية . وعلاوة على ذلك فإن سوء سلوك الزوج يعطي الزوجة الحق بإقامة دعوى بمائسة لتعود الى عند زوجها . وفي كل من الحالتين تأخذ معها كل ما يخصها وغالباً أيضاً تعويضاً تقدره القوانين . ويبقى جرم الزنى المشهود : اما جرم الزوج فلا يذكره القانون ، كما نعلم ، بينما يمكن القاء الزوجة المجرمة مع غيرها الى الماء ، اذا لم يصفح عنها زوجها . وهذا ، على ما يبدو ، هو التفاوت الحقيقي الوحيد .

ونظام الزوجة الواحدة هو القانون ، يحده من شدته حتى تأمين ذرية للرجل ، لذا فان عقم الزوجة ومرضاها هما من اسباب الطلاق الشرعية كرفض الامراة القيام بواجباتها كزوجة وربة بيت او تهاونها في اداها . ويحق للزوجة العاقر ان تهدي زوجها عبدة بمثابة خلية . ولربما هدف هذا التدبير الى منعها من اتخاذ اي تدبير قبله ان اتخذ له السراري ، اذ ان القانون ، في مثل هذه المواقف التي لا تتصرف ، يكتفي دون شك بالتلطيف من افعال لا مفر منها . ونعرف حوادث النجب فيها الرجل اولاداً من زوجه ومن خليلته ايضاً . ولا يمكن بيع العبدية التي غدت موضوع انتخاب كهذا ، لا بل تعتق مع اولادها عند موت سيدها . ولكن عليها مع هذا ان لا تنافس سيدتها وان تنجب اولاداً . وان اخلت باي من هذه الشروط يحق اذ ذلك للزوجة ان تعيدها الى العبودية .

ويسمح القانون اخيراً للزوج ، ان لم ينجب اولاداً من زوجته او من خليلته ، وفي مثل هذه الحالة فقط ، ان يدخل الى بيته زوجة من رتبة ثانية . وعلى هذه الزوجة ان تحترم افضلية الزوجة الاولى . وقد ينص صراحة عقد النكاح الثاني على ان الزوجة الثانية « تغسل رجلي الاولى » .

ويعد ايجاد الحلول لمختلف هذه الحالات تبقى مسألة التبني ويتم التبني بموجب عقد . وارت جرى وفقاً للاصول ودون اي ضغط فان القانون يحمي التبني في حال جحود المتبني او والديه الطبيعيين . فالمتبني الذي يتنكر لاسرته الجديدة يباع كعبد ، ويستطيع المتبني ، ان رزق الاولاد فيها بعد ، ان يفسخ العقد ولكن شرط ان يعطي للمتبني الذي يرذله ثلث الحصة الارثية القانونية باستثناء الاملاك الثابتة .

ويحدد القانون بدقة بالغة قوانين الارث ، فان كل ما تملكه الامراة ، حتى ولو استرجعته معها عند عودتها الى اسرتها ، يعود الى اولادها . ولكن يوجد تمييز وتفرقة نسبة الى المهور بين الاولاد الذين هم ثمرة عقود زواج متبالية . والشيء نفسه يقال عن اموال الوالد . ومع هذا فيوسع الوالد ان يهب الهبات لامرأته او لاي من بنيه او حتى لشخص غريب عن الاسرة . ولكنه لا يستطيع ان يجرم من الميراث اباً من اولاده الا اذا سمحت له المحاكم بذلك بسبب ذنب خطير اقترفه المحروم . ويجري تقسيم الارث بالمساواة التامة ، اقله بين اولاد الزوجة ، لا بل يأمر القانون بالاحتفاظ بما هو ضروري هدايا العرس التي سيقدّمها العزب ، ويجرم من الارث اولاد الخلية ان لم يكن الوالد قد اعتنقهم وهو على قيد الحياة . وان كان قد اعتنقهم فطعيم

فمن هذا ان يدعووا لاختوهم افضلية الخيار بين الحصص . وتحرم البنات من الارث ان كن قد اخذن البائنة والافلهن حق استئثار حصة ما .

وتكفي هذه الايضاحات ، ومن السهل الزيادة عليها ، لظهار روح قانون الاسرة الذي يهتم بالاهتمام الدقيق بكل ما هو موضوع ملكية منقولاً كان ، بما في ذلك العبيد ، ام ثابتاً .

واستناداً الى البقايا التي وجدت من قانون يرتقي الى الالف الثاني ، تظهر الاسرة ، عند الاشوريين ، اقل تماسكاً : فيذكر مثلاً بأنه باستطاعة الزوجة ان تعيش في البيت الوالدي ، حيث يزورها زوجها ويقدم لها كل ما تحتاج اليه . ولكن الفرق الاساسي هو ان للمرأة اهلية مدنية اقل مدى . فلا تراها فقط الا في القرنين الثامن والسابع ، ايام سلالة السرجونيين ، فريقياً في عقود البيع او افعال مماثلة ، وذلك بصورة اكثر ندرة مما هو الحال في بلاد بابل . ويعاقب القاتون كل من يقربها حتى ولو كان غريباً عن الاسرة ويجعل بانها متزوجة . ويمكن طلاقها دون تمويض او لجوء الى المحاكم . ويجبرها القانون ، بعد موت بعلمها ، على الزواج من اخيه او من احد الاولاد الذين يجلبهم من زواجه الاول . ويحق للزوج ان يتخذ خلية او خليات عدة ، ويرفعهن الى مرتبة الزوجات .

ان قانون حمورابي سبق بقرون عدة التشريع الاشوري ، ومع هذا فهو يعبر بصورة جازمة عن حالة اجتماعية قد يعتبرها المرء اكثر تطوراً . ولكن في هذا المجال يجب اعتبار الطبع القومي . فلا عجب من ثم ان بقيت المرأة في مستوى قانوني دون مستوى الرجل عند شعب حربي كالشعب الاشوري .

ويسهل تصور ما ينقصنا في هذا الجانب او ذاك . ومن الطبيعي بان مجموعة قوانين ، حتى ولو طابقت دوماً - مع ان بعض العقود تنقض هذا القول - الحقيقة العملية ، تعتبر على مستوى واحد اوضاعاً تتوفر كثيراً في حياة مجتمع مع اوضاع اخرى تعد نادرة وشاذة ، هذا ان لم نقل مجرد تخمين وتكهن . والاخلاق التي تنتج عن وضع وسط بين هذه النظرية وتلك لا تنمكس بصورة واضحة في القوانين التي تبقى دون وزن ان استثنيتها . ويلزم لحياء الحقيقة امور غير العقود التي لا عد لها والاسناد القضائية التي قد يأتي تنظيمها المنطقي نتيجة المصادفة . اعني مراسلات شخصية وطرائف وقصصاً . ان المستندات الكثيرة عن تاريخ بلاد ما بين النهرين تساعد الشراع اكثر من المؤرخ .

بدلنا كل ما تقدم على اهمية وقوة وتنوع الحياة الاقتصادية . ويعتقدون بأنه الحياة الاقتصادية :
من واجبات المؤسسات الجماعية الاساسية السهر على هذه الحياة وتنظيمها
العمل الرسمي
لتأمين ازدهارها وابقائها على مستوى من الاستمرار العادل .

وتهدف العبادة في الدرجة الاولى الى استجلاب عطف وحذب الآلهة على الاعمال التي تؤمن

للإنسان طعامه ورفاهيته . ويعطي المثل والقذوة مالكو الاراضي واليهما كل والنقصور واصحاب الكنوز والخيرات مهياً اختلفت انواعها . فهم يتأثرون مباشرة بالأزدهار العمومي لما تسدقه عليهم من خيرات مادية فضائل التقوى والطاعة وعرافان الجميل . لذا فهم يقومون بدور منظمي الحياة الاقتصادية . ولكن هذه النظرية هي أشد وطأة في مصر : اذ لا نجد اثرأ لاقتصاد موجباً ، ولا يعتبر الملك او الآلهة المالكين الوحيدين لجميع اراضي البلاد التي يصبح المزارعون فلاحها . ولكن في بعض المرافق ، يشهد تدخل الدولة بصورة اوضح واعمق مما يجري في وادي النيل ، حسب معرفتنا اقله ؛ ويعتبر قانون حمورابي ، بعد ان حدد الراتب والثمن في مجالات عدة ، اوسع تجربة ، في عهد قديم ، لثمنين رسمي ، ونود ان نعرف ، استناداً الى وثائق اكثر عدداً وأشد وضوحاً ، فعالية هذا العمل في الحياة اليومية وتطورات التاريخة .

الزراعة تتبوأ الزراعة مركزاً مرموقاً ، الاول دون شك ، في حقل اهتمام المسؤولين عن مجموع الامة ، وقد مسحت الارض ، باكرأ جداً ، وغدا ضرورياً تسجيل كل تغيير يطرأ على تقسيمها او ملكيتها او حتى على طرق استثمارها . وتحفر قنوات التجفيف والري ويسهر على صيانتها تحت اشراف السلطات ، تبعاً لنظام اعمال سخرة لا يعني منها الا امتياز ملكي . ويدبر مهندسون جهابذة مكاتب فن ودراسة ليضعوا تصامم احواض وخزانات المياه وقتواتها ، كما تنظم القوانين والتقاليد اسس توزيع المياه المنعشة ، ومعاقبة كل اممال او غش يلحق الضرر بالمجاورين . ويحدد القانون ايضاً شروط المزارعة واجبات المزارع وكيفية تقسيم الاضرار التي تسببها ثقلات الجو بين المالك والمزارع او المستأجر ، ومبلغ اجرة الفلاح والبقار والراعي ، وبدل استئجار ثور او حمار ، ومسؤولية الحوادث او الحسائر التي تحمل بالقطيع ، وعملة العامل اليومي في الحقول .

وتكشف هذه الدقة التي تصل غالباً حد المغالاة عن نظم حياة زراعية شديدة التطور ومبداً الملكية العقارية المصفرة جداً ، وترتيبات لا حصر لها في كيفية ملكية وتوزيع الاراضي الزراعية . وما لا جدال فيه بان الارض ، في منطقة بابل ، مهد حضارة بلاد ما بين النهرين ، غدت المظهر الاول للثروة ، واثارت المطامع ، وبسبب انتقالها من يد الى يد خلقت المشاك التي لم يستطع حلها الا الهياكل والدولة . لذا اصبحت الارض المادة التي اجريت عليها اقدم التجارب لحياة اقتصادية تتخلق علاقات بين السكان وتستحث مخيلتهم .

وتتمتع ، عن جدارة واستحقاق ، بلاد بابل طوال الازمنة القديمة ، وهي الارض الرسوبية المروية ، بشهرة حصب اسطورية تفوق شهرة تربة مصر . ولقد افاد هيرودوتس وسترابون بان الحبوب كانت تعطي غلة تعادل ٢٠٠/٣٠٠ او ٣٠٠/٣٠٠ للوحدة ، وتسمح لنا حقا المستندات والوثائق الاعتقاد بغلة عادية تفوق ٥٠ للشعير ، هذا الصنف من الحبوب الاكثر شيوعاً والذي غدا عياره مقياساً لمعظم الاثمان والتعويضات التي حددتها القوانين . وحسب اقوال هيرودوتس ايضاً فات

نبتي: السمسم، الذي يستخرج الزيت من حبه، والجوارس اصبحتا كالشجيرة! ولتأكد هيرودوتس بابن احدى لن يصدق، استنكف من الاشارة الى طول هذه الشجيرة. ويعترف «ابوالتاريخ» بعدم وجود الكرمه وشجرتي الزيتون والتين؛ ولكنه، وقد حدا حدوه سترابون، يشدد في الكلام على عدد شجر النخيل وتنوع المنافع التي تؤدها: اثار قد تعتبر المادة الغذائية الاساسية، وخمرة، وعسل، وخل، والياق للنسيج؛ حتى ان نواة البلح تصلع وقوداً للحديد، وهي ان طحنت غدت علفاً للحيوانات. ويقال، كما يعترف سترابون، بان اغنية فارسية تعدد نحو ٣٦٠ استعمالاً لشجرة النخيل.

لذا فان اساليب لبقه ترشد عمل الانسان وتساعد، وقد بلورتها حقب عدة من التجربة والاختبار. فقد عرفوا اثاره تليق شجرة النخيل، واستطاعوا ان يجعلوا من الثور البري ذي القرون الطويلة الملتوية، ومن الحمار، والحزير، والضأن، وطيور الفن حيوانات داجنة، وهم يجاربون، مستندين الى المهارة والقوة والحيلة، والحيوانات المضرة التي تعيش في المناطق المجاورة من الصحارى والجبال او في مناطق المستنقعات. ولم يكتفوا باستعمال الحراث الذي تجره الحيوانات بل عرفوا ايضاً المذرة.

ان هذه الاوصاف الجميلة تنطبق على بلاد بابل، اعني السهل المنخفض الذي حبته الطبيعة. وكسبب ومُسبب في الوقت ذاته للازدهار الزراعي الذي لا يمكره احد، فان كثافة السكان التي لم تخضع لاي احصاء، تصل الى نسبة كبيرة جداً، يؤكد ذلك عدد المدن التي تذكرها النصوص والذي يفوق عدد المدن التي عثر عليها. وتتغير الحال في المناطق الاقل غنى، اعني مناطق الجبال والسهاب. ويفدو الصيد من اساس وسائل التغذية في كل مكان يجري فيه نهر او تنساب قناة. ويذكر هيرودوتس بان ثلاث «قبائل» على شاطئ الخليج الفارسي، وهو من اكثر مناطق الدنيا فقراً وجدياً، لا تأكل الا سمكاً مجففاً في الشمس او مسحوقاً ليصبح دقيقاً. وهناك بدو يتنقلون سعيًا وراء المراعي لقطعان الماعز والضأن والجمال. وهناك سكان الجبال الذين لا يمينون الا غلالاً ضئيلة ولكنهم يتعاطون الصيد الذي يصبح عندهم من ثم ضرورة مستمرة والذي يغذي فيهم النزعة الحربية، بينما يعتبر في مناطق اخرى لهواً نبيلاً لا بل محصوراً بالملك. وفي فترات مختلفة تصبح هذه الجماعات، التي تعيش على الحدود، والقريبة من مواسم السهول الغنية، خطراً عظيماً على رجال الزراعة الذين يعرفون الاستقرار. وبقيت هذه الجماعات، رغم الحملات التأديبية المتكررة، سبب ازعاج مستمر للدول النظامية التي تتعاضى عن اي تجاوز على القانون او عصيان.

العمل الصناعي
ان مهارة الصناعيين لا تقل عن مهارة الفلاحين ودأهم على العمل. ويكفي اب تتفحص ما وجد في قبور اور الملكية لتتأكد من دقة الصناعات اليدوية في اعمال على الخشب والمعادن، خاصة منذ اواخر الألف الرابع او اوائل الألف الثالث. فهم عرفوا

خمسة معادن : الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص . وقد اتقنوا تنقيتها من الشوائب والاقطار ، وقاموا بأعمال المزج واللحام والصفل والصياغة والترصيع والتزيين بالطين . وقد استبدل الخنزف بالمعدن للاراني الثمينة . ومع الزمن فان الجمهور الذي يتماطى مع الهياكل والقصور التي تفذي المصانع المختصة بالنسيج والتطريز والصياغة والنقش والحفر الخ ، ساعد على تطور الفنون اليدوية وتقدمها المستمر . والتدريب على هذه الاعمال ، وقد اصدر لها حورابي تشريعاً دقيقاً ، يؤمن توارثها .

المواد الادرية ان ما محتاج اليه بلاد ما بين النهرين لتتخذ صناعاتها المدى الواسع الذي يبرره كالمواد الادرية هو الادرية ، وخاصة المواد المعدنية . ويصر المؤرخون اليونان على ذكر « الزفت » اي القار في حالته الجامدة او شبه الجامدة في بلاد بابل ، الذي تطلّى به السفن او تشد به آجر الحيطان ، وان كان سائلاً ، النفط الذي ينبع من ارض سوسة والذي يستعمل زيتاً لاشعال القناديل . وهذه ثروة جوف الارض الوحيدة تقريباً ، اذ لا اثر للمعادن او انها سرعان ما نضبت ، لا بل تنتقص المنطقة الاكثر خصباً وسكاناً ، اعني سهول الادرية الرسوبية ، الحشيب والحجارة .

لذا على المرء ان يسعى لاستيراد هذه المواد عندما يصل الى درجة من الحضارة التقنية . ومنذ تاريخ متوغل في القدم استوردوا بعض هذه المعادن من امكنة بعيدة جداً : فالعاج والحجارة الكريمة من الهند ، والنحاس من قبرص وارمينية وآسية الصغرى ، والقصدير من القفقاس لربما . ولكن قد يتعرض التموين بهذه المواد الى مخاطر كنفاد المعادن او انقطاع سبيل المواصلات . ويختلف العلماء بخصوص تحديد تاريخ مقابر اور الملكية حيث الشبه ، وطبقة لاغاش حيث ادوات النحاس ، ولكن ليس من المستحيل ان تكون اور قد استحصلت على القصدير وقد خلت منه لاغاش في زمن لاحق .

ولدينا دليل على تصدير الحجر والقياش والاشياء المصنوعة . غير اننا لا نجد ائراً لتصدير المواد الغذائية . ومع هذا فن المؤكد انه كان سهلاً على بلاد بابل ان تقدم كمية كبيرة من هذه المواد . ولكن تسمى البلاد الغربية جهدها لكفاية حالها بحالها وتستكف من ثم عن دفع ثمن هذه المواد الغالي اذ لا تجري التجارة الا على بضائع ترتفع اثمانها لما يطرا عليها من مصاريف باهظة نتيجة للنقل وللأخطار المحتملة والمضاربة .

وتطرح ضرورة التصدير الى البلاد البعيدة على بساط البحث مشاكل النقل . وسائل النقل وفي بلاد بابل يحل وجود القنوات هذه الصعوبة ياهون الطرق فتمذ اوائل الالف الثالث غدت المراكب تتسع لمحملة ذات وزن محترم (اكثر من مائتي هكتوليترا !) . وهي تسير بواسطة المجداف او الشراع . ويحدد قانون حورابي بصورة واضحة شروط بناء هذه المراكب وتأجيرها واستخدام ربايتها . وتصلح الانهر ، خاصة الفرات ، لاسفار اكثر بعداً . ويلعب « الرصيف » دوراً رئيسياً في المدن التي اقامها الملوك الاشوريون او التي جددوا بناءها ،

اذ تصحح الكلمة التي تعني « رصيف » جزءاً من اسم المدينة . وهكذا تأتي الاخشاب الكبيرة التي تنقلها القوارب او الاطواف من آسية الصغرى او سورية ، وتستخرج الاحجار الكبيرة من الجبال الشالية – الغربية او الشالية – الشرقية .

ولكن لا بد من اللجوء الى وسائل النقل البرية . مع ما يرافق ذلك من صعوبات تولدها حالة الطرق السيئة وشروط الجر البدائية . ويحصر استعمال الحصان او العجلة تقريباً بالأعمال الحربية فقط . ولضرورات الحياة العادية يلجأون اذن الى حيوانات الجر كالخير والبغال والجمال . واذ كان الامن شبه مفقود على الطرق في المناطق الصحراوية او الجبلية يجتمع التجار قوافل قوافل تبعاً لتقليد سيستم الشرق عليه آلافاً من السنين .

استثمرت بلاد ما بين النهرين موقعها الجغرافي ، وهو اقل عزلة من التجارة ومستعمراتهم موقع مصر . وترجع علاقات بلاد ما بين النهرين مع اقطار بعدت عنها كثيراً كمناطق وادي الاندوس والقفقاس وآسية الصغرى الغربية الى اقدم العصور التاريخية والى اكثر عهود ما قبل التاريخ قديماً . وبصورة شبه مستديمة ، باستثناء فترات سببها هجرة الشعوب اكثر من الغزوات الحربية ، فقد استمرت هذه العلاقات مسهلة والحالة هذه تبادل الحيرات وتلاقي الحضارات وتشابك العناصر العرقية المتباينة .

وقد اثبتت المستندات المدعوة « اللوحات الكبادوكية » بانه في اواخر الالف الثالث ، كان يوجد في اواسط آسية الصغرى ، في ضواحي جبل « أرجيه » ، جماعات من التجار الاشوريين يتعاطون اعمال السمسة للاستيراد والتصدير . وهم يديرون شؤونهم كما لو كانوا جمهوريات صغيرة مستقلة ، « الارصفة » ، ويقون على اتصال مع بلاد ما بين النهرين . وان اختفت هذه المؤسسات دون ان تبقي لها اثرأ فقد غدا لسواها ديمومة اطول عمراً . وبما يثير الدهشة ان يلاحظ المرء في بدء القرن السادس وجود يونان في مملكة نبوكدنصر ليس لهم صفة المرتزقة ، اذ تشير مستندات تجارية الى وجود تجار « ايونيين » في بابل . ولكن يصعب على المرء خاصة ان يفهم توسع الاراميين الآتين من السبابس الممتدة بين دجلة والفرات ، دون ان يتبادر الى ذهنه دور الوسطاء في حياة اقتصادية فتحت المجال رجباً للتبادل بين الاقطار لا بسل بين الدول . وسنجد في هذه الدراسة اكثر من مناسبة للالتيان على ذكرهم .

تتطلب المعاملات تولد اتساع العلاقات الاقتصادية المختلفة الاشكال ، وذلك باكرأ جداً جداً ، وبشكل متطورة للتنظيم التجاري حتى والمصرفي .

والقرض لقاء فائدة هو موضوع معاملات عادية ، لجهة الغلال كان ام لجهة المال . ويعين القانون حد الفائدة الاقصى منذ الالف الثالث . وان اعتبرت الغلات الزراعة – وتذكر النصوص « الشعير » ، ولكن اتخذت هذه الكلمة مدلولاً واسعاً – فالفائدة هي ٣٣،٣٣ بالمئة

سنوياً ؛ وان اعتبر المال تبلغ الفائدة ٢٠ بالمئة فقط . ونعرف بعض حالات نادرة جداً فوق الفائدة الحقيقية هذا الحد ، وحالات كثيرة جداً تنقص عنه . وهذه الفائدة هي في هبوط مستمر ، أقله في بلاد بابل الاكثر انتاجاً . ففي العهد البابلي الجديد لا تعدى الفائدة العادية للشعير الحد الذي قرره حمورابي للمال . وعلاوة على ذلك ، ومنذ القدم ، فان على القصر والميكل واجباً معنوياً ، وهو ان يظهرها تساهلاً وحديباً اكثر من الافراد . وهكذا فقد اكتفى احد الهياكل بفائدة تبلغ فقط ٦ بالمئة ، كما استلف الفقراء والمرضى الجيوب دون اي فائدة .

وهناك ايضاً امثلة اخرى عديدة عن اعمال عادية : كالايجار والرهن والكفالة ، وفيما يختص بالتجارة ، الشراكة لمدة قصيرة او طويلة ، وفي هذه الحالة ، المحاسبة في اوقات محددة ، وشركة المضاربة ، والسمسرة والتوكيل الخ .. وتحدد القوانين شروط هذه الاعمال ، كما فعلت للدين ، وتستدرك حالات عدة مختلفة .

وتم كل عمل بموجب عقد ينظم ويقع حسب الاصول ، مع ايضاحات صريحة ، وذلك امام شهود يوقعون اختتامهم ، وغالباً ايضاً ، خاصة في مجال الدين ، امام موظف يحمي اشرافه المديون ضد قسوة المرابي الذي يستغل الفرص للكسب . فرجل الاعمال الذي يخضع له مستخدمون وعلاء هو شخص له اهميته في مجتمع بلاد ما بين النهرين وحياة شعوبها . واذ يكون غالباً وكيلاً عن الثروة الملكية او الالهية فهو يعمل ايضاً باسم رجال احرار آخرين او باسمه الشخصي ، وهو يعتبر ، منذ السلالة البابلية الاولى ، جد الصيرفي المصري .

المعايير والقيم تسهلاً للتبادل وتبسيطه لم ينقص ذلك المجتمع سوى معرفة النقد . وقد عوض عنه ، بصورة تزداد حسناً او تقسلاً ، باستعماله الشعير والمعادن ، كمعايير للثمن والقيمة . ففي اول الامر لجأوا الى النحاس فقط ، وعند الاشوريين الى الرصاص غالباً ؛ ولكن بشكل مستمر ، خاصة في عهد حمورابي ، استعمالوا الفضة التي يضاف اليها الذهب ، بكميات قليلة للتعامل مع الغريب . وللهياكل والقصور مكاييل ومعايير معينة ، وينص القانون على معاقبة الغش . ويتعاملون بالمعدن على شكل سبائك او صفائح او حلقات ، قد انتهى الامر بهم الى ختمها بختم للدلالة على نقاوتها . ولكنهم لم يسكوا قط نقوداً معدنية ، وقد حفظت الاقدار هذا الاختراع للحضارات الغربية .

وتظهر بعض النصوص بان نسبة التقدير ، حتى بين البضائع المتخذة كمعايير ، غدت عرضة للتغيير . وقد يحمل الحصاد على ازالة كمية الشعير التي يمكن الحصول عليها بوزن من الفضة (عادة هكتوليتراً واحد لكل ٣,٣ غرامات من معدن الفضة النقي) الى النصف او اكثر . وتزداد نسبياً من ثم قيمة الذهب ، وهو في كل وقت مادة اندر من الفضة ويحتكرها الصاغة . ومع هذا فلا نلاحظ قيمة تصاعدية مستمرة : واذ كان الذهب يساوي في البدء تسعة اضعاف وزنه من الفضة ، فقد هبطت قيمته ايام حمورابي الى ستة اضعاف لترتفع من جديد الى اثني عشر ضعفاً في القرون

السادس . ولكن أيام الامبراطورية الفارسية غدا المعدل المتعارف عليه عشرة اضعاف فقط . ويخضع هذا التقلب دون شك الى كميات الذهب المتوفرة التي هي عرضة بدورها للتبدل الحاصل في ملكية المناجم . وتكثر هذه المناجم او تقل تبعاً لاتساع ممتلكات الدولة جغرافياً .

ويكون عدم وجود النقود، او اقله عدم توفر عيار موحد ذي قيمة ثابتة، النقص الوحيد في حياة بلاد ما بين النهرين الاقتصادية . ولكن ان اعتبرنا بمثل هذه الحياة فان الوقوف على حيويتها وليونتها وتشعبها ، هذه الصفات التي تثبتها لوحات القبود والحاسبة المكتشفة ، يحملنا على الشعور بانها حياة اقتصادية شبيهة جداً بمحيطاتنا العصرية .





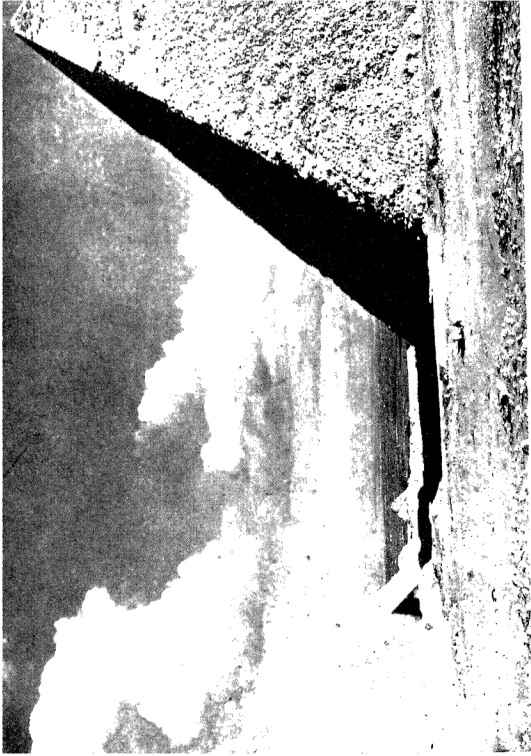
١ - القرين الأثقال السوداء في مغارة لاسكو



٢ - سيدة دامار الند البيضاء



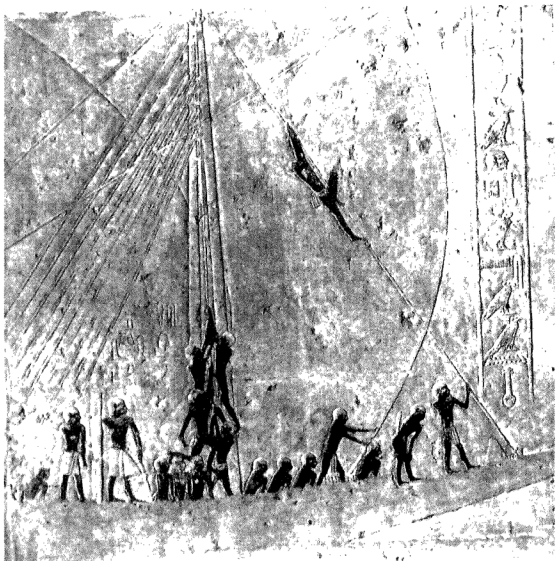
٢ - مهم سكره ذو الدرجات



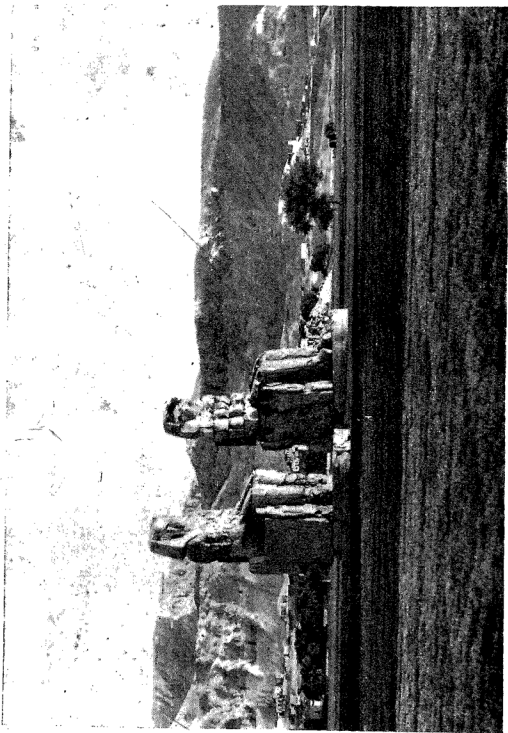
٤ - أهرام الجيزة.



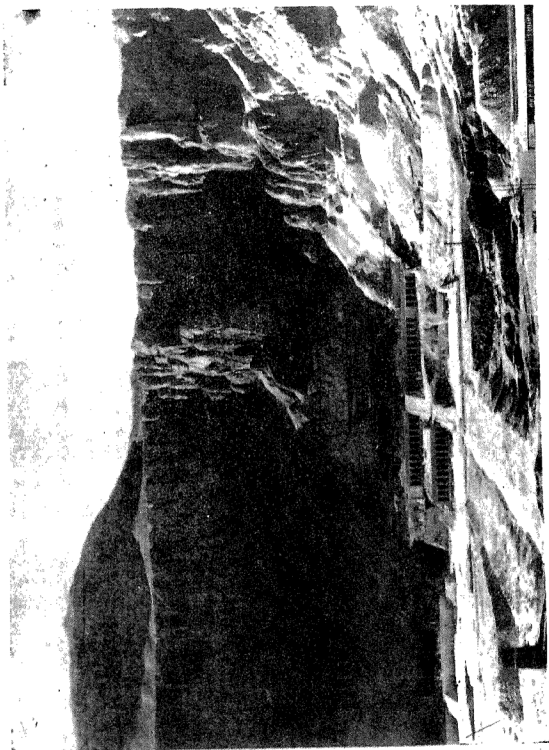
٥ - أبو الهول في الجيزة



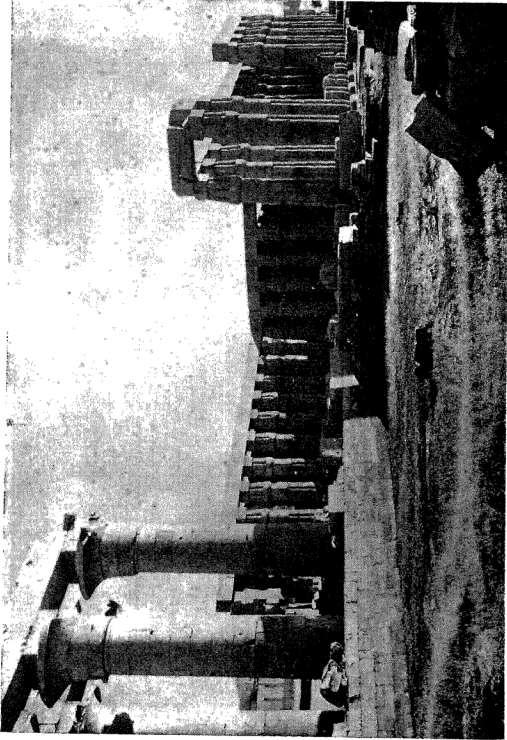
٦ - نقش ناتىء فى مصعلبة أخوتحوب



٧ - جيرا ميثرون



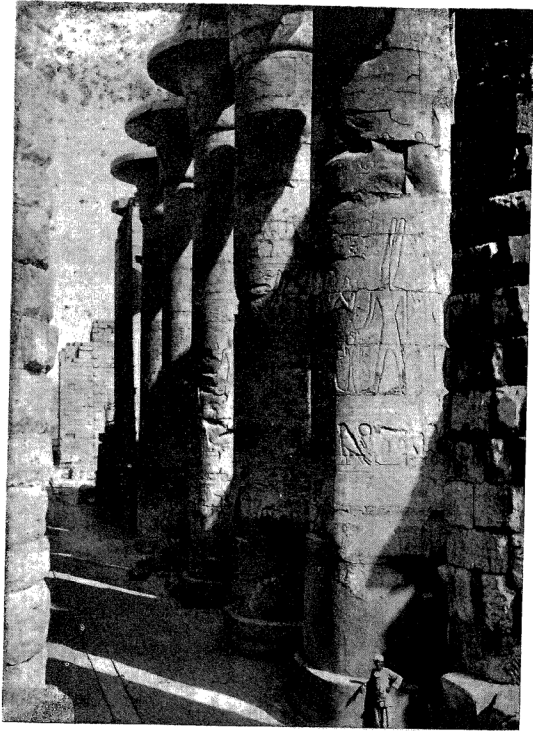
٨ - معبد حثشورث في دير البحري



٩ - معبد آمون في الأقصر



١٠ - غداة الأميرة



١١ - قاعة الأعمدة في الكرنك



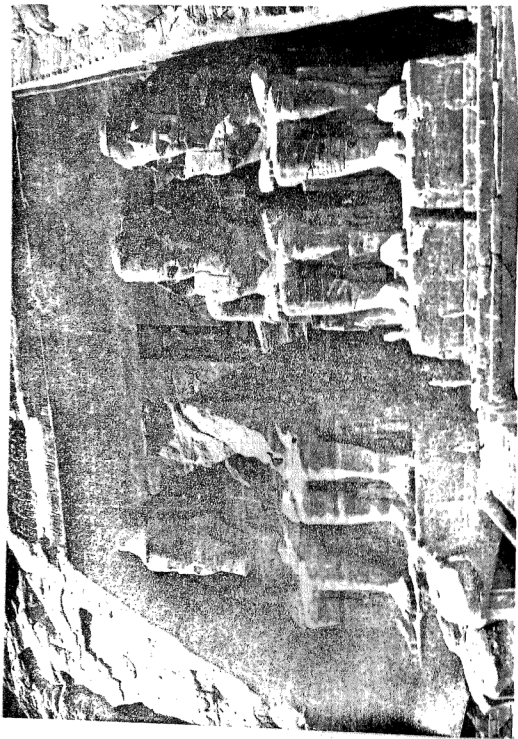
١٢ - معبد امون في الكرنك



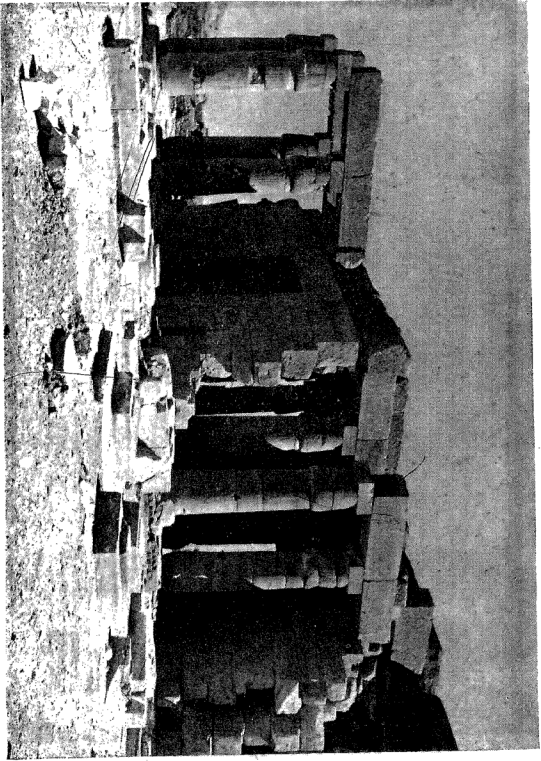
١٣ - سبتي الأول والالهة حاتور



١٤ - معبد سيتي الأول في أيدوس



١٥ - التماثيل الجبارة في معبد أبي سنبل . السلاطة التاسعة عشرة



١٦ - المعبد المدهني لرسيس الثاني في طيبة . الساحة الثامنة عشرة

الفصل الثالث

الحياة الروحية

ان الطوائف المالية والتجارية التي وقفنا عليها لا تكون الحصة الوحيدة التي اسهمت بها حضارة بلاد ما بين النهرين في مجموعة اختبارات العالم القديم . ولا تقل حيويتها وضوحاً واهمية في مضار الحياة الدينية والعقلية والفنية . وان اعتبرنا بعض المعالم ، خاصة علم التنجيم ، ان لم نعر اهتماماً إلا هذه الناحية الأكثر اشراقاً ، نر بان هذه الحضارة لم تعرف لها منافساً ، وقد تركت اثرأ لا يمحي في مناطق تبعد كثيراً عن احواض دجلة والفرات .

اولاً - الافكار والوقائع الدينية

يعسر على البحث الوقوف على اصول ديانة بلاد ما بين النهرين . وعندما يصبح بالإمكان التقصي عن هذه الديانة ، فستظهر لنا إذ ذاك متينة التكوين من حيث المظاهر الاساسية والاهداف الرئيسية ، ان لم تقل في الكثير من نواحيها التفصيلية . فهي موجودة منذ العهد السومري ، قبل اوائل الالف الثالث . ولا يعني هذا جزماً بانها من صنع السومريين الذين يكونون قد اكتفوا بتبني او تعديل عقائد او عبارات سبقتهم في الزمن . ولكن بقي التقليد اميناً لما اورثوه . واستمرت معرفة لغتهم محصورة زمناً طويلاً بين الاوساط الكهنوتية ، لا بل يشعر المرء ايضاً بان التغييرات العرقية التي فرضتها الغزوات في وقت لاحق لم تبدل كثيراً في ديانة ثبتت اسسها منذ عهدهم . لا بل فان العكس صحيح اذ ان الشعوب التي تلتهم اعتنقت هذه الديانة التي فرضت نفسها فرضاً عليهم لما لها من ابهة وفضائل .

ولا اوضح في هذا المجال من المغارنة مع الديانات السامية . فهناك تقاطع ثلاث لاشك فيها . فمشعوب بلاد ما بين النهرين اله للزرع ، دوموزي ، وهو الاله تومز بالذات ، اي ادونيس عند الفينيقيين والسوريين . ولهم اله للزوبسة والماصفة ، يتخذ عند الامم المذكورة اسم حداد . ولكن عبادة هذه الآلهة في بلاد ما بين النهرين هي اسبق في الزمن من اقدم تغفل

سامي، حتى ان نظرية الاقتباسات التي اعتمدها الساميون ، المدعوون « غربيين » ، لها من الاحتمال ما للنظرية المعاكسة .

وعلى كل تبقي دوماً مثل هذه الآلهة في ديانة بلاد ما بين النهرين على هامش المذاهب الالهية الاكثر احكاماً وتبواراً . وقد قبيل كل الساميين المدعوين « شرقيين » ، اعني ساميتي بلاد اكداد واشور ، الخاضوع لهذه المذاهب مع ما هم عليه من تفوق حربي وسياسي . ففي بابل الاكادية يتبع حمورابي الديانة نفسها التي خضع لها غوديا في لاغاش السومرية ، فيكرم الآلهة نفسها ويقدم لها ذات الطقوس وفي المياكل عينها ، لا بل يظهر نارويد ، عشيبة الفتح الفارسي ، اي بعد اكثر من خمسة عشر قرناً على انقراض مملكة اور ، تمبده للاله سن ، الاله القمر في اور القديمة ، احدى مدن بلاد الكلدان .

ومع هذا يلوح هنا او هناك تطور ما : إذ لا يستمر قط امر انساني على تكريم الموتى ، عدم حاله . وتبدو هذه الحقيقة اكثر دقة عند البحث بالأفكار المتعلقة بالموت ، النظام في قبور اور فتتكشف اذ ذاك عن وضوح ووحدة توحيد المؤرخين .

ولم يمتد بعد ثلاثون عاماً على اكتشاف قبور اور التي يرجع تاريخها الى نحو ثلاثة آلاف سنة . ولكن اظهر هذا الاكتشاف المدى القوي الذي كان يتمتع به الاعتقاد بوجود حياة ثانية . فقد وجدت كل الجثث في هذه القبور والى جانبيها ادوات تستعمل في هذه الحياة الدنيا ، من الادوات الخزفية السيئة الصنع والشكل المختصة بالفقراء المدفونين في جوف الارض دون تألوت الى الآلات الثمينة التي يستعملها عظماء هذا الكون ، وقد شيدوا لهم اقبية من آجر . ولا يُفسر وجود بعض من هذه الاواني الا اذا كانت مملوءة بالمواد الغذائية . ونرى المعجلات والأسلحة التي يتخذونها للآلهة والعظمة كالختانجر والخوذ من الذهب الخالص ، وزناجر الفضة وآنية الطعام الذهبية ، ومعدات التزيين والتبرج ، والحلى ، وحتى والآلات الموسيقية . وعلاوة على ذلك فان جثث الحيوانات والحراس والخدم والجواري تؤلف بعد الموت ، كما فعلت اثناء الحياة الارضية ، الموكب الذي يعتبر ضرورة لاظهار عظمة السيد الميت ، الذي سيحيا حياة لا نهاية لها في عالم آخر نجعل عنه كل شيء .

ولم يعثر قط على قبور كقبور اور نجبرنا الحقيقة - على قلة النقوش التي وجدت فيها - مهما توغلنا في القدم او بحثنا في المناطق التي ازدهرت فيها حضارة بلاد ما بين النهرين . ولم يشهد لهذه القبور مثيل . ولا شيء يفهمنا حقيقة مثل هذا التصرف مهما قلبنا في الآداب السومرية او البابلية او الاشورية . ولقد اكتشف امر وحيد مقارب يقبه الفكر : الطقوس التي يذكرها هيرودوتس والتي كانت تقام في زمن الملوك الفزّ (او السيت Scythes) . ولكن نسبة للبعد لا يسع المرء الا ان يشك في قدرته على استنثارها ليستنتج وجود تأثير عراقي او غيره .

الافتكار المتداولة
بمخصوص الموت

فقد الاحياء ، مع الزمن ، بعضاً من الاهتمام الذي كانوا يبدونه نحو الموتى ، فلا يميل القبر انموذجاً من فنون بلاد ما بين النهرين ، على عكس ما نراه في معظم الحضارات القديمة ؛ لذا نجد انفسنا مقبدين بالنصوص التي ، على ما فيها من تكتم ، تساعدنا على معرفة العقائد التي تفرضها اكتشافات أور الباهرة .

ولا يعني هذا بان الموت يعادل العدم الكلي . ولكن لا يصبح الميت لها كما الحالة في مصر . وقد نمد على اصابع اليد الاشخاص الذين اعتبرتهم الميثولوجية آلهة . وفي الوقت الذي تنقلص فيه الحياة يفادر الجسد ظل او روح . وان لم يُعد لهذا الروح رسم ، وبصورة ثانوية مواد غذائية ، فهو ينكد عيش الاحياء اذ هو بطبيعته شرير ويهم دون راحة . لذا فان مصالحي الاحياء تتفق مع منفعة الميت ، وهذا ما يفسر لنا الرغبة الملحّة في ان يكون للميت ولد ، حتى ولو كان بالتبني ؛ وهذا الابن يؤمن طقوس الدفن المناسبة ويصبح فيما بعد « مريق الماء » ومنظم وجبات طعام الميت ؛ لانه ان اقيمت الفروض الاخيرة المتوجبة نحو الجثة ، يهبط اذ ذلك هذا الروح نحو « الارض الكبيرة » و « الارض التحتانية » و « الارض التي لا عود منها ! »

ويقدم لنا قصيد « بزول إشتار الى الجحيم » وصفاً غير شيق عن هذه المملكة الجهنمية، وعن شروط المكوث الانهائي الذي سيقضيه فيها حتى اكبر العطاء انفسهم . ويطابق هذا الوصف الوصف الذي تسوقه لنا ملحمة غيلغيميش ، ولا يحتفظ الاموات باي ثوب بعد ان ينزعوا عنهم كل ملابسهم عندما يعبرون الابواب السبعة التي تتيح لهم اجتياز الاسوار السبعة المتتابعة . ولا يستطيع هؤلاء الاموات الذين تكتنفهم ظلمات حالكة ويحرسهم الشياطين ان يعودوا الى الارض ، وذلك لراحة الاحياء الكبرى . ويهجع الجنود الذين يسقطون في ساحات الوغى وقد رفع ذروهم رأسهم قليلاً وارتاحت نساؤهم على وسادتهم . وينعم بعض من هؤلاء الاموات ، دون ان نستطيع تعيينهم لنقص في النصوص ، بسرير ويشرون « ماء قراحاً » . ويقنات العسد الاكبر من الاموات ، حتى وان اعتنى بهم الاحياء ، من الغبار او من التراب المذوب .

ويقلتي غيلغيميش على مصير هؤلاء الاموات المساكين . وقد يناشدهم قائلاً : « ايها الميت لن نجد الحياة لتي تبحث عنها . وعندما خلق الآلهة الانسان خصصوا له الموت ، اما الحياة فقد احتفظوا بها بين يديهم » . ومع هذا فهو يكتشف نبئة الصبي الذي يصبح اسمها « الشيخ الذي يعود شاباً » والتي تكون مادة لتهاج . ولكن تتزعزعا منه اخيراً اقمى مثبتة بصورة قاطعة مصير الانسان الذي يدعو للشفقة .

والبون شاسع بين هذه الاساطير المهزنة والحكايات التي دغدغت عقول المصريين . واذ لا ينكشف اي اقق جمشجع على العالم الثاني يزول من ثم كل استغراب ان بدا تطويل امد الحياة الدنيا صفة الاماني ، اذ لا تحقق اي حياة اخرى مروراً للكائن الزائل . وهذا التمديد في اوروك ولا رسا كما عند الاشوريين والبابليين ، هو المكافأة الكبرى لحياة صلاح ، اعني لحيانة

خضعت لمشيئة الآلهة ، وملأها صاحبها بإفعال البر ، حتى ان اشوربانيبال العظيم لا يستنكف عن ترديد هذا الدعاء : « اني ارهب الهيتك ، فامنحي حياة مليئة بالايام الطوال ، فرحة القلب ، ولاني اعبدك في هيكلك دع قدمي تسيخان ! »

خوف وتقوى
اتي هذا النص على ذكر خوف الآلهة . وباستطاعتنا ان نورد نصوصاً تفوق الحصر تتناول من خلالها نفس العاطفة . ولا يفكر المؤمن بالتذمر او الشكوى ، بل قد يستمتع لنفسه مراراً اظهار استغرابه للبلاوى التي تنزل به والتي لا يبرها مع هذا اي خطأ ارتكبه ، فتتصارع في نفسه عاطفتنا الخوف والشكران لكل مساكين يمكن ان يصيبه وقد نجأ منه . وهكذا يغدو الخوف ، ولو بصورة مصغرة ، مرادفاً للتقوى ، وفقدان هذا الفزع للخطيئة ، والذي يخشى يعتبر نفسه على حق ان التمس ، دون السحاح ، ثواباً لان الخوف يجرسه على اتيان اعمال تسر الآلهة ، بينما يعد نفسه مستوجباً للعذاب الذي لا يعرف للخوف معنى .

انه يوجد ولا ريب شياطين شريرين ، وهم مصدر الامراض والبلايا ، وتقوم مهمة السحر في تدارك وابعاد اذام . ولكن يصبح اعظم الآلهة ، مع حدهم الاصيل نحو الانسان ، عرضة لانفعالات غضب يستحيل التكهن بوقت حصولها ومعرفة اسبابها . واذ يعسر على المؤمن التخفيف من حدتها ، يتوجب عليه من ثم تقبل نتائجها دون استنكار او تذمر . وكما نجد آتاماً معددة المام ومصفقة درجات درجات ، هناك خطايا يرتكبها الانسان عفواً دون ان يفقه بانها تشكل ضده اسباباً للشكوى . وان وجدت آلهة من مزاياها الاساسية العدالة وحماية الانسان ، نرى آلهة اخرى لا تتأثر قواها قط بالمبادئ المعنوية . وكما يوجد آلهة يعرف الجميع حقيقة كنهها ، فهناك آلهة سرية يجمل المرء عن حقيقتها كل شيء ، فيسهل من ثم اغضاؤها وعن غير قصد . وهكذا يغدو الاعتراف بآثامه الوسيلة الوحيدة لاستجداء الرحمة : « ان آثامي كثيرة وخطاياي ثقيلة ، فلتخمد عاصفة الغضب في قلب سيدي ! فليهدئ الاله الذي اعرفه والاله الذي اجهله ! وليطمئن خاطر الإلهة التي اعرفها والتي اجهلها ! »

الآلهة الكبرى
ان اصل هذه الطاعة العمياء ، في مستهل نشأة ديانة بلاد الرافدين الذي يصعب علينا تحديده هو تأليه القوى الطبيعية العظمى التي تتسلط احوالها على الانسان الاعزل . وفعلاً فسيمثل دوماً في زون (باتلتيون) كثير التفسير آلهة الرعد والزوابع والطار والانهار والجمال . كما تتمثل فيه آلهة الزراعة ، التي على غرار الزراعة نفسها ، تنتقل الى الموت لتعرف من بعد قيامة جديدة . وتقام لهذه الفئة من الآلهة او لتلك طقوس تقدم لنا اصدق تفسير عن تأمين خصب الارض ومن ثم تكثير الغلال .

ومع هذا فان تطوراً طويلاً الامد ، متوغلاً جداً في القدم ، وذا طابع عملي يصعب علينا من ثم احياء مراحل ، قد اسند المركز الاولي الى آلهة لا تبسح لنسب التجارب اليومية والسريعة معرفة حقيقة قوتها . وتسيطر بعض هذه الآلهة على مختلف العوالم من سما وارض ومساء وعالم

سفلي ، كما تتحد بعض منها اتحاداً ذاتياً مع النجوم الكبرى . وهذه الآلة الاخيرة بالإضافة الى آله السماء كالاله أو الإلهة أنتوم والتي يستحيل علينا التفريق بينها ، هي دون شك الآلهة الأكثر عظمة : سن الاله - القمر ، شمس الاله - الشمس ، إشتار كوكب الزهرة . لذا فان العلامة التي تسبق اسم العلم وتشير بانها ستدل على إله هي مشتقة من شكل النجمة وتعني في الاساس « السماء » .

يوزع سكان بلاد الرافدين تعبدهم على آلهة لا عد لها . ويقر كل الصلة الشخصية بين الاله والفرد شخص ، مها كانت منزلته ، بان له الها ومراراً إلهة ايضاً ينتظر منها رعاية خصوصية . وتظهر غالباً هذه العلاقة الفردية في اسم المؤمن حيث نجد الكلمة العادية « يا إلهي » « ربه » ، او اسم هذا الاله او ذلك مشفوعاً بتأكيد نظير هذا... هو حصتي « ... خلقه » ، او بدعاء شبيه بهذا « كن رحيماً » « اعطف علي » الخ ... ويلاحظ غالباً على الخاتم الخاص بكل شخص اسم او رسم هذا الاله ، الملك الحارس ، او حادثة تمت الى طقوس عبادته او اسطوره . ولا ينسى المرء ان يستجدي حياية الاله بدعائه : « ليقف الهي عن يميني ا وتلتصّب إلهي عن يساري ا وليستقر ملاكي الحارس على جانبي ا » ولكن نظم الفرد ، منذ اقدم العهود ، مجموعة هذه الآلهة التي ينتخب منها من يشاء ، وذلك تبعاً لعاداته ومفاهيمه واحتياجاته ك مخلوق اجتماعي .

في جميع الآثار ، المنقوشة منها والادبية ، يبدو لنا المذهب القائل إن للآلهة اشكالاً ومزايا الانسان ، كأنه قاعدة مطلقة . ولا نجد قط اي اثر لمبدأ التعاويذ (*Fétichisme*) . وقد نقي وتطور. تطورا عميقاً المذهب القائل إن النفس هي مصدر كل الامثال (*Animisme*) . وقد نلاق بعض دلائل لما يعرف بمذهب التوتيمس (*Totémisme*) (قالت به بعض القبائل الوثنية ، خاصة في اميركة الشمالية) ، ويؤكد بان جسد الانسان هو حيوان معروف لديهم يقومون من ثم بتكريمه) ولكنها شديدة التشويه ويختلف العلماء في تفسيرها . وانعدمت في بلاد ما بين النهرين عبادات الحيوانات التي اكتسبت في وادي النيل اشكالاً واشكالاً : فلاحوانات مؤهلة ، ولا كائنات نصفها على شكل انسان والنصف الآخر على هيئة حيوان : وليس الثور المجنح الذي يحمل وجهاً بشرياً إلا روحاً للحياة يتمتع بسلطة معدودة . وقد يرافق حيوان مقدس آلهة ما : ففري إشتار ومعها اسد تجرّه او تعلقه او تشده الى عجلتها ، ويشبهونها به . ولكن ليس للحيوان ، ان راقق الاله او حل محله ، الا قيمة رمزية او مجازية شبيهة بقيمة قرون الثور ، رمز العظمة ، المرسومة حول التاج الذي يكفل التماثل الالهية . وهذا دليل على انه ان كانت الديانة قد عرفت مراحل سابقة في الزمن ، فهي تطورت وتجاوزت هذه المراحل منذ العهد السومري .

ان جميع الآثار المنقوشة اضعفت على الآلهة الحقيقية لا بسل على الارواح الصالحة او

الشريرة مظهرأ انسانيأ بحتأ ، واعتبرتهم من ثم الميثولوجية متساوين في كل شيء للطبيعة الانسانية ، ماعدا الموت ، فاسندت اليهم العواطف والاهواء ، وتحدثت عن أسفارهم ومغامراتهم ، ونظمتهم فئات فئات ، فلكل اله زوجة او « السيدة » استولدها البنين والبنات : ومن البديهي ايضأ ان نجد في الميثولوجية بعض الاختلافات ، فان وشائج القربى تتغير ، طبقأ للسكان وخاصة حسب الزمان ، تبعأ لتقلبات واهواء يستحيل غالبأ تفسيرها . وتُعرف إشتار بانها ابنة سن من آنو ، ولكن في مكان ما او في فترة لاحقة يقدمونها لساكنها ابنة آنو التي تصبح زوجة له . وفسر لنا هذه الملاحظة الى اقصى حد التغيرات الجمة التي تطرأ على علم انساب كثير التراجع . ويتشاجر الآلهة ويتحاربون ، وهم يتبادلون الرأي في اجتماعهم ، وقد يندم بعضهم ، ولكن لات ساعة مندم ، بعد ان يكونوا قد خضعوا لضغط الآخرىن ، فلا يبقى لهم من ثم إلا ان يبكوا بكاء مريأ .

يستطيع الانسان ان يفسر ما يتحدى التفسير لاول وهلة . فان الآفة والردل التغيرات التي تطرأ على الدولة تمكس الظروف التي تمر بها القوة النسبية للآلهة التي تحمي هذه الدولة وتعطف دوماً عليها دون ان يغدو لقتها مع هذا مفعول ايجابي . ولكل مدينة اله او إلهة ، وهي تعتبر نفسها ملكأ لها او له ، كما تتحد معه او معها شبه اتحاد ذاتي ؛ وتحتفظ المدينة له - او لها - بافخر هداياها ، عربون عبادتها ، وتثن به - او بها - لتمييز ملكها الذي بدوره يعرض قراراته ومشاريعه كأنها فرضت عليه فرضأ من قبل الآلهة ، او اقله اوحث له بها . وهكذا فان آنو هو ، بالدرجة الاولى ، اله اوروك ، وأنليل رب نيبور ، ونرغال معبود كونا؛ وسن سيد أور ، وشمش رب مدينتي لاغاش السومرية وسيدار الاكادية .

ويظهر هذا الملل الاخير كيف ان مدينتين قد تكرمان مرارأ الإلهة الواحدة . ولكن حتى في هذه الحالة لا يأخذون على انفسهم إلا نادراً ان يضيفوا الى اسم هذه الإلهة صفة خاصة ، كمنذما يوضحون مثلاً « إشتار مدينة اربيل » لتمييزها عن إلهة اخرى اشورية تدعى بهذا الاسم كإشتار فينوى او إشتار اشور . ولا يعني غالبأ هذا التشابه في الاسماء خداعاً بل يكشف عن صلة استعمار ، او بوجه افضل ، عن تفاعل ديني ، هذا ان لم نقل عن فتح حربي حقيقي . وان عرف سن منذ اقدم الازمنة بانه اله أور في بلاد الكلدان فقد اشتهر بعدئذ بانه اله حران ، في الشمال الغربي من بلاد ما بين النهرين ، عند منعطف الفرات : فكيف يتناسى المرء بان والدي ابراهيم كان قد هاجر ، كما تذكر التوراة ، من اور الى حران ؟ ومع هذا فان مثل هذا التزوج او ايجاد مراكز جديدة لا يتأان دوماً دون تحويل او تحوير في الجوهر او التمييز ؛ فإشتار التي عُرُفت في بلاد بابل بانها إلهة الحب اساساً ، غدت في بلاد آشورية الحرب . ولكن وان مالت نارة لهذه الجهة وطوراً لتلك الناحية فقد غنت دوماً وبصورة التلازم هذين العنصرين .

ولذا يسهل التفسير كيف ان بعض الآلهة ارتفعت الى مصاف إلهة شعباو بالأحرى ملكة ، دون ان تبقى بصورة حصرية إلهة مدينة ما . وقد لازم هذا الارتقاء في المنزلة تطور المدينة التي اصبحت مركزاً سياسياً أكثر أهمية او عاصمة دولة . وهكذا فان اشور ، رب مدينة اشور ، اصبحت الإله الرئيسي لجميع الاشوريين ، حتى وان كانوا خارج المدينة التي تحمل اسمه ، ثم غدا إله الدولة الاشورية الأول ، بعد ان انتصر على آلهة الشعوب الغربية المغلوبة على امرها . ولكن كيف نعرف في هذا المجال ان كانت حقيقة العقائد العنوية تعادل فعلاً العبادة الرسمية التي يبدونها الماهل ؟ والحقيقة الواحدة الثابتة هي ان افراد سلالة سرجون قد اظهروا عبادتهم للإله اشور ، واعتبروه حامى سلطانهم ومعلم تعلق الشعوب بهم . ومن الجائز طرح مثل هذا السؤال وفي الالفاظ نفسها فيما يختص بالاله مردوك ، رب بابل ، وقد اصبحت معبود الامبراطورية أيام حورابي ، ثم بعد انقضاء الف سنة ، معبودها في عهد نبوكدنصر .

وتوافق هذه التغييرات السياسية تقلبات قد تكون عاطفية ، وتفسر بعض التحويرات الميثولوجية وان هي لم تخضع مع هذا لمعطيات القياس . وهكذا يرتقي هذا الإله الثانوي ، بالاستناد الى حدث جديد ، الى مستوى رب آخر أعلى مقاماً ، بل يحل محله ان اقتضى الامر ويرتفع من ثم الى القمة . وهكذا فان إشتار ، وهي الزهرة الكوكب السيار ، وسيدة السماء ، و « ربة اللذة » و « سيدة الحب » و « إلهة الحرب والمغامع » قد حققت ارتقاء مستمراً حتى ان آتو في مدينة اوروك انتخبها زوجة له .. قبل ان تحل محله : وقد طغى نجاحها على كل بلاد ما بين النهرين حتى اصبحت اسمها مرادفاً لاسم « إلهة » . ونجد نصوصاً ترتقي الى العهد المهورابي تروي لنا كيف تنازل الإلهة لصالح مردوك ، اله العاصمة بابل ، ومنحوه « ملكاً ابدياً » « الملك على العالم بأسره » . فغداً بل *Bél* « السيد » . وقد كان سابقاً هذا اللقب والمركز لانييل . وفي « نشيد الخليقة » اغتصب نحو خمسين اسماً من اسماء الآلهة كما اختلس لنفسه في الوقت ذاته صفة خالق الانسان ، وقد كانت قبلاً لابيه « إيا » اله اريدو . ولكن في وقت لاحق ، واستناداً الى نص هذا النشيد الاشوري ، استأثر اشور لنفسه بهذه المنزلة . وهكذا تعكس تعديلات الاسطورة ، مداورة بواسطة الآلهة ، مصير الجماعات البشرية المتقلب .

ان عرفت هذه الجماعات افول مجدها لأن الآلهة التي تكرمها قد تحلّت عنها او
الميكمل
خضعت لآلهة اخرى ، فلا يعني هذا الامر بانها تهاون في جهودها للابقاء مع هذا على عطف الآلهة وذلك باستكشاف رغباتها ومن ثم تنفيذها ، إذ تعتبر هذه الجماعات بان عبادة الآلهة باصدق المعاني وادق المظاهر هي فرض لازب لا تستمع لنفسها التهرب منه .

ويحتاج الإله كالانسان لمنزل له ولاسرته اعني الميكمل . وللهاكل كلها دون استثناء اسم يبتدئ في اللغة السومرية بحرف (اي *E*) وباللغة الاكادية بحرف « بيت » اي « البيت » . ففي بابل يملك الإله مردوك الـ « اي - ساغ - يل *E-Sag-il* » اعني « المنزل ذو الرأس العالي » الذي

يرتفع بقربه حصن يدعى ابي - تيمين - أن - كي E - Temen - an - ki اي « بيت اساس الارض والساه » . ويشمخ عالياً في اشور « بيت اشور القطر » اي هيكلك انليل ، كما يرى في « بيت العظمة » ، وهو سور كرتس لاشور ، « بيت جبل البلاد » . وعلاوة على ذلك ، وفي خارج المدينة ، يملك بعض الآلهة بيتاً ريفياً يجلبونهم اليه بمسيرة حافلة في موسم اعيادهم .

ويلزم لتشييد هذه الهياكل وترميمها او توسيعها جهد كبير ووفر من المال ساهم بها الملوك بصورة فعلية وليس فقط ادارياً ومالياً : إذ لا يستنكر الملوك من ان يتمثلوا ، كما حصل في لاغاش ، وهم يحملون على رؤوسهم قفة تملؤها مواد البناء . ويتبع البيت الحاق عدة : كالحازن والاصطبلات للحياة المادية ، والجنائن والحدائق للترويح عن النفس . وتضاف اليه ايضاً مدرسة للكتابة ، ومخطوطات ومكتبة بغية تأمين الثقافة اللازمة لرجال الكهنوت .

ان هدف العبادة الرئيسي ، لارضاء الاله ، هو تغذيته وذلك بتقديم العبادة رجال الكهنوت
المأكول والاشربة التي تقررها الكتب الطقسية ، في ساعات محددة واكثر من مرة في اليوم ، على طاولة مقدسة امام الصنم الالهي وسط الازاهير وادخنة البخور النقي وسيول من الروائح العطرية . وصمحت كثرة ذبائح الحيوانات المنتخبة الاحتفاظ بوميماً باحسن الاجزاء للاله ، واذ كان يجب التنوع في الطعام قدموا له لحوم حيوانات داجنة وورية ، وطيوراً ، وبيضاً ، واسماكاً ، وتمروراً وائمسار عنب وتيناً ، وعسلأ ، وماء ، وجعة ، وخرأ وحليباً .

وكانت الاعياد كثيرة يحتفل بها باهية عظمى تتخلها تطوافات تشارك فيها الجماهير التي تواكب التابيل الالهية المحملة على العجلات .

وساد الحفلات ترتيب دقيق شمل الحركات والاناشيد ونصوص الصلوات « أد كل يوم واجباتك لالهك : الذبائح والصلوات والبخور اللائق ... قدم له كل صباح الابتهاال والصلوة والسجود وهو يهيك الكنوز ، وتتجح كثيراً بواسطة الهك ... إذ ان الذبيحة تريد في الحياة والصلوة تطهر من الائم » .

لذا افتقر كل هيكل الى العديد من رجال الكهنوت الذين قسموا فئات فئات . ففي القمة نجد الكاهن الاعظم الذي ينوب مناب الملك ، ثم جيشاً من مختلف الرتب : فهناك الرقاة والمتحجون والمنشدون والسحرة والمنجمون الخ .. وهكذا فاننا نعرف اقله اربعين وظيفة كهنوتية . ونجد ، حتى في خدمة الآلهة الذكور ، الكاهنة العظمى والكاهنات ؛ خصوصاً كما نجد في هيكل إشتار بمدينة اوروك ، العواهر اللواتي يعرضن ذواتهن لتنعم طقوس تكريم الربة !

ويبدو بان رجال البيعة هؤلاء كوّنوا ، في كل المناسبات ، الوسيط الضروري بين المؤمن والآلهة . وقد لا نقف قط على فعل عبادة شخصية يقوم بها في منزله فرد علماني . ولم يمنع هذا الفرد من تأدية الصلاة ، ولكن هل من ثقة في جديتها؟ رحتى هذه الصلاة أمّا كان من الضروري

معرفة نصها معرفة تامة ؟ قد تضلنا الوثائق التي نتمتع عليها والتي لا تمت جميعها تقريبا إلا الى اصل كهنوتي . ولكننا نعرف ، ان اعتمادنا عليها ، بأنه لم يكن يتم اي امر بدون خبير ، ولم يشترك جمهور المؤمنين في الحفلات الا خارج الهياكل التي كانت توصل دوماً في وجههم . فكلية « الداخل » - الى الهيكل - كانت تعني بالدرجة الاولى الكاهن الذي يساعد دوماً المؤمن الذي يسمح له بالدخول الى « بيت الآلهة » ، وذلك في مناسبات خاصة وللقيام بعمل محدد المعالم كالذبحة او التقدمة او استشارة عرافي الآلهة .

السحر
تعددت الظروف التي حتمت على المؤمن مراجعة رجال الكهنوت لقاء أجر محدد . ووضعت الهياكل سحرتها وعرافيها في خدمة الجمهور وخدمة الملك .

والسحر والدين الرسمي متلازمان لا يفترقان . وترقب الانسان في كل لحظة من لحظات حياته اشراك ونجوس ومخاطبات دنسة ، وشياطين ينشرون الاذى - « السبعة » « مجموعات السبعة » - وينفذ او امرهم سحرة وساحرات ، يترصدون في كل مكان ويوقعون بالف مصيبة ، حتى يغدو المرض شكلا من اشكالها . واتقاء لشرهم يستنجد الآلهة والملوك بالارواح الحارسة ، هذه الثيران المجنحة ذوات الرأس البشري المهيب والحنون ، والتي تنتصب امام ابواب الهياكل والقصور . ولكن لا يبطل حضورها مع هذا شر الشياطين ، بل نجد لهذه الغاية طقوساً كثيرة العدد والتنوع من التضحية بماء التطهير الى تلاوة الصلوات الى اعمال الرقي الاكثر تعقيداً .

ومن الضروري اجراء المقتضى على الشخص بالذات ، وتطهيره من الخطايا التي يكون قد ارتكبها ، او من الهفوات التي قد اقدم عليها بصورة اللاوعي ضد الاخلاق الانسانية والقيم الدينية ، او من اعمال السحر التي يكون قد تعرض لها . ويجب اتمام الطقوس على كل ما يخصه او يحيط به حتى اصغر ممتلكاته المتقولة العادية كالكرسي والسرير او الطاولة . وتشمل هذه الاعمال ايضاً زوايا بيته ومنعطفات الطرق وثقوب الحفر . ولبلوغ هذا الهدف تتوالى الصلوات والمزامير والادعية . ولكنهم مع هذا قد يجرون الطقوس المشار اليها على الرسوم والنقوش التي تمثل الشخص المعني ، او حتى ايضاً على اشياء اخرى تلتقى من بعد الى النيران او الكلاب . ويستعملون كذلك مواد نافعة شرط ان تعتبر مقدسة من حيث جوهرها او من الطقوس التي اجريت عليها : كالزيت النقي ، « المقدس » ، المطهر الآلهة ، الذي يسمح فيه المرضى خاصة . وهكذا يأخذ السحر وكأنه من صميم الدين مجراه الى علم الطب .

العرافة
لا تقل العرافة شأناً واهمية ، وهي تهدف استكشاف نيات الآلهة ومن ثم الخضوع لها وتنفيذها اكثر مما تسعى لايضاح مصير مقدر لا مرد عليه . ويصون ايضاً في هذا المجال الى التأكد من ان الظروف ستكون سعداً او شؤماً على المشروع الذي يفكرون به . وهكذا يسعى الانسان ، وهو يحيا في خوف دائم من التأثيرات الضارة التي تحيط

به ، لمعرفة الخطر حتى يتخذ حالة دفاع امنع فيجعل حياته اكثر نقاوة او يستجدي عوناً اشد فعالية .

وللوصول الى هذه الغايات المختلفة تصبح جميع الوسائل صالحة شرط ان يقوم بتنفيذها خبراء يملكون مجموعات مخلوطات عملية دونت فيها قواعد واساليب تقليد يغيب في ظلمة القدم . وان تتابع الاحداث الشديدة التنوع والتي لوحظت بكل دقة وسجلت بفائق عناية ، سمح بتقرير قوانين التوافق السري بين مجالات تبدو غريبة بعضها عن بعض . ولكل شيء معنى ، لم يتضح بعد ولكن من الممكن كشف القناع عنه يوماً ما ، إذ لا ينفرد في العالم اي امر : بل يكفي ان يحدد الاطار ، الفعلي او الرمزي ، الذي يدخل ضمنه الحدث مهما كان تأقفاً .

لذا تعتمد العرافة اساليب عدة . وتقدر الاحلام ، واضحة كانت ام بحاجة الى تأويل - وقد ارسلتها الالهة دون شك - بمثابة ائذار او نصح او امر . وراقبون حالات وحركات المعينين والاشخاص الثالثيين والحيوانات ، فزجر الطير وتوجج الماء واللهيب يعطيان افادات لها مغزى وتقع . وقد يستحصلون ايضاً على مادة التفسير بزجهم الزيت والماء ، ويفحصون خصوصاً فصصاً دقيقاً جداً امعاء وكبد الحيوان الذي انتخب للذبيحة . وعرفت هذه الطريقة الاخيرة - اعني فحص الكبد - رواجاً اكثر من سواها . وافاد كثيراً ايضاً درس هذا الجهاز بهذه الطريقة لمعرفة معرفة واسعة من حيث علم التشريح . لذا اكلوا من صنع اكباد خزفية وحتى نحاسية استعملوها كآلات للقبالة حتى يستطيعوا تفسير اي حالة غير طبيعية مها كانت دقيقة .

علم التنجيم ارت اعتبار بعض كبار الالهة متحدة اتحاداً ذاتياً مع كواكب معينة ، وتقوم العالم الفلكي وآلهة السماء الذي اقتره الشعوب منذ اقدم العصور ، شجعاً على مراقبة الاحداث الفلكية مراقبة دقيقة ، اذ هي تنبئ عن الاحداث الارضية المقبلة وتسيرها وتسيطر عليها : لذا وجب معرفة الصلة المتينة الكاملة التي تربط بين ما يجري في السماء وما سيحدث على الارض .

فالخسوف يخبئ تهديداً ما ، لذا غدا من المفيد معرفة زمن وقوعه ، حتى يبذل الجهد لتدارك نتائجه او تخفيف وطأته جهد المستطاع . ولم تظهر مصادفة الغمامة التي تحول دون ملاحظة الهلال في اوائل الشهر ، ويخضع مصر الانسان لهيئة الأبراج ومقتضى اوضاعها وقت مولده . وما الفيضانات والانتصارات والمزائم الحربية ، والامراض الحيوانية ، والابوثة السارية ، والامراض الشخصية إلا تعبير مادي عن حسن استعداد الالهة او غضبها ، وعن الممارك التي تنشب فيما بينها او ضد القوى المعادية لها .

لذا فباستطاعة الذي يراقب الفلك بصورة مستديرة وعلمية ان يستكشف كل شيء . وارت جمع هذا المراقب الى علمه كفسر لا تقوته شاردة او واردة صفة اللاهوتي والساحر والكاهن غدا بإمكانه ان يعين بكل تأكيد الطريق الواجب اتباعها لتجنب الالم او العوز المدقع ، ان لم يكن

ايضاً طريق الخلاص والازدهار . ولكن لا يدعي احد بانهُ يملك مثل هذا العلم الدقيق المتبصر . ومع هذا يُدَوّن علماء التنجيم دون ملل او وهن في مخطوطات الهياكل الملاحظات التي يقفون عليها اثناء ابحاثهم . لذا تقدم مباشرة مراقبة الطوالع والادلة السواوية مواد لا تحصى ، تحرّر منها ، بوعي او بغير وعي ، علم الفلك الاولي .

انقرضت ديانة بلاد الرافدين قبل الديانة المصرية . وحافظت معطيات ديانة بلاد ما بين النهرين المستديّة هياكل اوروك ، احدى اقدم المدن السومرية ، على دورها التقليدي اكثر من سواها . وكما يحصل غالباً عند نزاع الحضارات المزلزلة يلاحظ المرء عند هذه الجماعات الكهنوتية الخاضعة لسلطان الملوك اليونان ، في القرنين الثالث والثاني قبل المسح ، ارادة ملحمة للعودة الى الماضي السحيق ، وجهداً كبيراً لاجيائه اشكال الحياة الدينية الاكثر قديماً مع معارضة كل تحوير قرره العرف والتقليد . ولكن الزوال بتمّ ؛ وتعود آخر وثيقة ذات صبغة دينية - وتدلل على ملاحظة فلكية - الى القرن السابع ق.م . اما الصمت الذي يلي فيعني دون شك اضمحلال هذا « الجمع » الكهنوتي ، اضمحلالاً طبيعياً . وهكذا تكون ديانة بلاد ما بين النهرين قد دامت قرابة ثلاثة آلاف سنة .

ولا نعتقد بان هذه الديانة قد منحت المؤمنين بها الكثير من الفرح . فقد عاشوا تحت وطأة الخوف الذي اوحس اليهم به والذي كان ينبع بصورة اللزومية من فكرة العالم الالهي الذي صورته لهم . وبقيت المبادئ الاخلاقية والادبية التي قالت بها تلك الديانة تدور في حلقة ضيقة وقد خلت من كل فكرة عقاب او ثواب في عالم آخر بدا كالحل للجميع ، كما اضعفها الاعتقاد بخطيئة مجهولة يرتكبها الانسان دون وعي . وغدت هذه التعاليم ، كما يظهر ، سلبية قبل كل شيء ، اقله فيما يختص بالعلاقات مع الآخرين . وان اكتفينا بمجموع السؤالات التي كان يطرحها الساحر الباحث عن اسباب المرض الذي يريد ان ينقذ المؤمن منه ، وجدنا بان الواجب الاليماني الوحيد المفروض هو تحرير اسير او اطلاق سراح مكبل . اما الآثام الاخرى التي يبحث عنها فهي السرقة والاهانة والعنف . وقبل ان تتلاشى هذه الديانة بزمن طويل كانت حضارات عدة قد نشرت تعاليمها الاخلاقية متخذة اساليب واهدافاً اكثر اختلافاً وشمولاً .

ولكن مع هذا لم تندثر تلك الديانة تماماً عندما مالت نحو الافول قبل بدء عصرنا بقليل ، إذ ستعرف امور السحر والتنجيم والرقى - وقد اشتقت جميعها من تلك الديانة - اتساعاً زاهراً في العالم القديم . فقد لاقى « الكلدانيون » في رومية - ولم يكن لهم دون شك من الصفة الكلدانية إلا الاسم وبممارسة بغض الاساليب التي هزلت قيمتها الى مرتبة وصفات مبتذلة - منزلة عادت عليهم بالنفع مع ما كان لهم من سمعة غير مستحبة . ومن جهة ثانية ، ان اعتبرنا الصمد العقلي او بالاحرى العلمي ، فان علمي الطب والفلك كانا قد استفادا كثيراً من الملاحظات الدقيقة التي جمعت دون ملل في هياكل بلاد ما بين النهرين .

وهكذا فقد غدا لبعض المظاهر التي نمت الى ديانة السومريين والساميين الشرقيين قُوَّة
فاعلية مستديرة .

ثانياً - الاكتشافات الفكرية

الوثائق احتفظت الهياكل ، كما رأينا ، اطول زمن ممكن ، بالكتابة الخاصة بحضارة
بلاد ما بين النهرين . وتقاسم الهيكل والقصر ، طوال المدة التي استمرت فيها
هذه الحضارة على حيويتها ، تثقيف الكهنة والاستفادة منهم . ولم يفقد هؤلاء المثقفون ، حتى
عندما عملوا المصلحة الافراد او ككتبة عدل ومؤلفين للجواهر ، صفتهم كوظفين او خدمة عند
الآلهة . ولدينا عدد لا حصر له من الوثائق الخطية الكلدانية والاشورية . ولم ينشر الكثير منها
بعد ، ولكن قد تكشف لنا دراسة الموسوعات التي جمعت منها منذ امد بعيد نصوصاً في غاية
الاهمية مرَّ عليها لغاية اليوم مرور الكرام . ولكن مها تعددت اهداف وفحوى هذه الوثائق ،
فان لمعلمها صفة ملكية او دينية ، لا بل ان للكثير منها الصفتان معا .

الكتابة المسارية ان تعقيد كتابة بلاد الرافدين يفوق تعقيد الكتابة المصرية ، وهذا
ما يسهل لنا تفسير الحالة التي ألحنا اليها اعلاه . ولا نستطيع ان نجزم
باسبقية زمنية لهذه الكتابة او لتلك . وتشير بعض الآثار التي عثر عليها مؤخراً في بلاد ما بين
النهرين ، بان البدء باستعمال هذه الكتابة قد يعود الى النصف الثاني من الالف الرابع . وانطلقت
الكتابتان من نقطة متشابهة : رسم شكل يمثل الشيء او الكائن الحي او الفكرة ، ولكن اسهم
استعمال الحزف كادة للكتابة في بلاد ما بين النهرين في تحويل الرسوم التصويرية الى جموع اشارات
ضمت بعضها الى بعض على الهوى ودون نظام . وقد تحدد الشكل الاصلي الذي انبثقت عنه
بعض هذه الجموع ، ولكن يستعصي حل تفسير الكثير منها : فهناك حالات يرى فيها بعض
العلماء بدأاً تحمل صولجاناً ، بينما يتحدث عنها علماء آخرون بانها تمثل مركباً يعالوه شرع ، او
برجاً للرقابة يستند على ركيزة .

وتشبه كل علامة مساراً ذا رأس عريض ، كسوار البطار . وكان الكتاب يرسم هذه العلامة
بواسطة قصبه حدد رأسها بشكل منحني او مثلث الزوايا يفرزها في البدء غرزاً قوياً في الحزف
ثم يسحبها خفياً بصورة تصاعدي الضغط على احدى الزوايا . وتكون هذه المسامير « الجوانب »
العلامات للكتابة المسارية . وقد تكون أفقية او عمودية او منحنية ، ومراراً صغيرة الحجم
جداً ، تتشابهك معاً عندما تعود الى جمع واحد . وقد رسمت اولا على الحزف مما يسهل تفسير
الامور . وبعد ان استقر اسلوب الكتابة هذه بزمان طويل سعوا لحفر العلامات المسارية على
المعدن او الحجر ، فغدا من ثم يمكننا الاحتفاظ بالشكل التمثيلي للرسم الاصلي ، كما حدث ذلك

في مصر . ولكن مع هذا استمروا على استعمال الحزف لسهولة الحفز عليه وكثرة وجوده . وكان يكتبني ان يبقى الكتاب هذه المادة الحزفية رطبة قليلاً ولدنة . وحفظ تحفيف صفائح الحزف في الشمس او شيئاً الرقائق المكتوبة من اي تحريف اوتزوير . وغالباً ما اعطوا هذه الصفائح شكل لوحات مستديرة او مسطحة او قائمة الزوايا .

وضعوية الكتابة المسارية متأنية عن كثرة عدد جموع العلامات . ولم يتعد تقسيم الكلمات المقاطع الصوتية التي فاقت من ثم دون شك عدد الحروف . ونتجت هذه الصعوبة ايضاً من تنوع المعاني الممكنة لكل جمع من العلامات ، كما حدث ذلك في الاشارات الهيروغليفية المصرية . فقد يعني الجمع ثارة فكرة وطوراً مقطعاً صوتياً ، كما قد يدل ايضاً على صفة ، ويختلف معناه ان وضع قبل جمع آخر او بعده .

الفنان السومرية والاكادية
تضاف الى الصعوبات اعلاه تلك التي تنتج عن تنوع اللغات . ويشعر المرء بحرجة الموقف في حال الاختصار وفي حصر الامور على وسط بلاد ما بين النهرين ، أي بعد التعاضى عن الاقطار والشعوب المغلوبة ، وعن وثائق جهات ايران الجنوبية الغربية العيلامية ونصوص « بوغاز - كي » في آسية الصغرى .

لقد حدد السومريون معالم الكتابة المسارية . ولم تندثر لغتهم إلا رويداً رويداً مع تفوق الساميين عليهم عدداً ونفوذاً . وبقيت وقتاً طويلاً تستعمل خاصة في النصوص الدينية التي تحافظ اكثر من سواها على التقاليد القديمة . لذا وجب على كل كاتب ، جدير بهذا اللقب ، ان يفهم ويقرأ ويكتب لغة مينة ، مهما كانت نواقصها ثابتة كعدم ليونتها وخاصة قلة وضوحها .

وللاستعمال العادي او السياحي تقلبت لغة سامية الاصل ، تتماز امتيازاً عظيماً بليوننة قواعد صرفها وبوضوحها وبقدرتها على تأدية مختلف انواع الفكر مهما كانت دقيقة : أعني اللغة الاكادية التي لم تكن اللغة الاشورية اشكلاً من أشكالها . ولكن منذ البدء تبتنى الكتاب الاكاديون جموع علامات الكتابة السومرية . وان هم احتفظوا بمعناها للتعبير عن فكرة ما فانهم مع هذا عدلوا قيمتها كصوت حتى يعطوها القيمة الصوتية للمقطع الذي يعبر عن الفكرة نفسها في لغتهم الخاصة . ونتيجة لذلك فان نفس جمع العلامات الذي كان له ثلاث معان في اللغة السومرية ، اصبح يلفظ بصورة مختلفة اختلافاً كلياً في اللغة الاكادية ويدل من ثم على معنى حقيقي مختلف جداً .

لذا أصبح التدرب الدقيق والطويل ضربة لازب على كتبة المستقبل . وكان من ثم لازماً عليهم ، حتى ولو اقتبسوا ثقافة عالية جداً ، ان يرجعوا في ممارسة مهنتهم الى كتبهم ومستندات تدلهم على المعاني المختلفة التي كان ممكناً ان يدل عليها اي جمع من العلامات في اللغتين السومرية والاكادية .

وتجدر الملاحظة بأن هذه الصعوبات قد ولدت نتائج ماثلة تقريباً لنتائج شوع الطباعة والتعلم البدائي في عصرنا الحاضر . فهي وضعت على أقل تقدير حداً لتطور اللغة ، خاصة اللغة المكتوبة ، هذا ان لم تمتنع الامر منغاً باتاً . وسعى الكتبة ، وقد اشبعوا من التقاليد ، لحماية هذه اللغة جهد المستطاع من التحريف ، ونجحوا تقريباً في هدفهم . ولم يلاحظ حقاً اي انحراف الا في عصر لاحق : وقد زال تصحيح الاشكال الصرفية اثناء السيطرة اليونانية في القرن الثالث قبل عصرنا . ولكن لم تعرف اللغة الاكادية الا تغييرات طفيفة جداً مدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً ؛ ولا يسعنا طبعاً ان نبدي حكماً فيما يختص باللغة المحكية .

الفئة الأرامية تفسر هذه الصعوبات وذلك الثبات وذاك التمسك المقصود بالقدم النجاح الهائل الذي لاقته في الألف الأول قبل المسيح لغة اخرى : اللغة الأرامية . وقد نجد اسباباً اخرى لتعليل هذا الفوز . فالقبائل ، وهي سامية ايضاً ، التي نطقت بهذه اللغة انتشرت في مختلف مناطق آسية العليا تقريباً .. ولعب الاراميون دوراً تجارياً هاماً مما ساعد على انتشار لغتهم التي عدت والحالة هذه شبه لفظة « عمومية » اخضعت لسلطانها رويداً رويداً . وتختلف اللغات التي استعملت في المنطقة والتي لم تنجح أي منها في فرض نفسها خارج نطاق الشعب الذي اتخذها لغة وطنية . ورافق انتشار الكتابة الأرامية توسع اللغة الأرامية ، واتخذت عن الفيلسفيين أيمدية ايسط . بكثير من الايمدية المسارية ، وكتبت بالخبر على مواد أخف وزناً واسهل تداولاً من الخزف كالرق او البردي . ومنذ القرن الثامن كتبوا على لوحات مختصراً باللغة الأرامية للوثيقة التي سجلت بكاملها بالكتابة المسارية . واستخدم الملوك الاشوريون في قصورهم « كتبة على الرق » ، اعني للكتابة باللغة الأرامية ، و « كتبة على اللوحات » اي للكتابة باللغة الاكادية . وعدت الأرامية ، اثناء الحكم الفارسي ، لفظة الادارة ، واضحت من ثم اساس وحدة الامبراطورية السياسية .

ولكن لسوء حظ المؤرخين العصريين ، فان البردي والرق هما اقل مقاومة لعوامل الزمن من لوحة الخزف المشوية أو فقط المجففة ، ومن ثم عرضة للزوال اكثر منها .

قدمت اللوحات والنقوش على الحجر أو النحاس نصوصاً مختلفة المواضيع . المؤلفات الادبية فيها ما هو قانوني ، القوانين ، الوثائق القضائية ، العقود المختلفة النواحي . ومنها ما هو اداري : المراسلات الرسمية ، مستندات المحاسبة . ومنها ما هو تاريخي : سجلات الملك ، تقارير وجهت لاله عن غزوات شنها المعامل ، اخبار المدينة او الهيكمل . ومنها ما هو ديني : الصلوات ، والمستندات عن المؤسسات الخيرية ، والتقارير عن مراقبة النجوم او احشاء الذبائح ، والرقى السحرية الخ . ولكن للبعض من هذه الوثائق الكثيرة العدد والشديدة التنوع نفس شعري أو نثنية أدبينة . وهكذا باستطاعتنا ان نتحدث عن أدب بلاد ما بين النهرين ، هذا الأدب الذي لا يخلو من روائع .

ولا تخلو بعض كتابات ملوك الاشوريين التي تسرد لنا مغامراتهم الوحشية من عظمة فظة . ويحدد تفلتفلاس الاول نفسه قائلاً : « نهار مشع ييهر سناه المناطق الاربع ، شلة وهاجاة تهمن على البلد العدو كحطر الزوبعة » . وهذا اشوربانينال يخبرنا عن اجتياحه مدينة سوزه وبلاد سوسه : « في شهر من الايام اخضعت عيلام في كل مساحتها ؛ وضعت حداً في اريافها لصوت الانسان ، ولوقع حوافر القطيع الصغير والكبير ، ولهتافات الفبطة ، وتركتها مسرحاً لجمار الوحش والابل وجميع اصناف الحيوانات البرية » . ولا تنقص هذه الامثلة النبرة الملحمية والخيالات التصويرية والاستعارات .

وقد تنتهي هذه التصاور بالغموض ، خاصة في النصوص الدينية ، التي تجنح غالباً نحو السر . وباكراً جداً ، وربما منذ العهد السومري او على اقصى تقدير في عصر حورابي ، وبدأ ينسجون الاساطير الميثولوجية ويدونونها . وقد توالى الكتابة احياناً بعد اجيال ، ولقرون عدة ، على نسخ هذه الاساطير دون ان يخشوا تحريفها او تحويرها . وتمتد هذه الاساطير اساس ادب بلاد ما بين النهرين الكلاسيكي .

الاناشيد الميثولوجية الكبرى ستوقف هنا على نشيدين من هذه الاناشيد ، وهما مشهورتان بصورة خاصة وعن استحسان . والاول هو « انوما اليش » اي « عندما في الاعالي... » ، ودعي كذلك نسبة للكلمات الاولى . وقد دعاه المعاصرون ايضاً « نشيد الخلق » ، لانه يخبرنا كيف تنظم العالم خارج الفضى الاول . واول الامر تميز الماء العذب عن الماء المالح ، وغدا الواحد شفعاً للآخر ، ثم ظهر الصوت او العقل وكان لها خادماً . ومن هذه الاوليات ولدت الالهة ، زوجاً زوجاً ايضاً . وثار بعضهم على بعض ، وبعد عراك لا هوادة فيه انتصر احدهم - وقد يتغير ، فهو مردوك في الاسطورة البابلية ، واشور في الرواية الاشورية - وغدا من ثم منظم العالم ، خالق الكائنات الارضية ، اي الانسان والحيوان .

ثم « ملحمة غيلغيميش » التي تحكي لنا في روايات عدة مغامرات مؤسس مدينة اوروك وملحمتها ، وهو انسان حقيقي ولكن آلهته الاسطورة . ومجد في هذه الملحمة ايضاً قصص صيد ، وسرد معارك ، وحوادث عراك ضد الوحوش ، واخبار الطوفان ، وقصة السطو على النبات الشائك الذي يؤمن بقوة دائمة ثم فقدانه ، وذكرى اخي سلاح قد مات . ويكفي هذا المختصر « القيد » ليوحى لنا بالصدى الذي لاقته هذه الملحمة خارج بلاد الرافدين . وليس من العجب دون شك ان نأخذ بعين الاعتبار الممارسة التي تقرض نفسها بين هذه الملحمة وذاك الفصل من سفر التكوين او من الاديسه *Odyssée* او من اسطورة هرقل .

منذ عهد حورابي انشأت بعض الهياكل مكاتب حيث حشرت اللوحات ، وقد صنفت بعناية استناداً الى موضوعها ، في سلال تحمل عناوين من الخزف ، حسب مبدأ استعمل ايضاً لتصنيف المخطوطات وحفظها .

وقد قام بعض الملوك بهذا العمل ايضاً في قصورهم ، غير ان اياً منهم لم يظهر في هذا المجال جهداً او مشاركة مثل اشوربانيبال الذي كان يفخر بأن الآلهة وهبته « كل علم الكتابة » . وكان يأمر موظفيه كي يتحروا عن الوثائق والكتابات ويرسلوا الى القصر الاصول او أقله نسخاً عن كل النصوص الطقسية والدينية والسحرية والفلكية والتاريخية الخ . وكان يهتم رسائله بنصائح من هذا النوع يبعث بها الى مثله في بروسيا في بلاد الكلدان : « وان وجدت بعض لوحات او نصوص طقسية لم اطلبها منك واعتبرتها مفيدة لقصري ، فانسخها وارسلها الي » . واستطاع العلماء الانكليزي ان يكتشفوا في خرائب نينوى أوفاً من اللوحات التي تعد اليوم من أغنى ثروات المتحف البريطاني .

ويثبت جمعها في قصر اشوربانيبال الاحترام العميق الذي كانوا يبذونه لكل عمل حققه العقل البشري في الاجيال السابقة وترك له اثرأ مكتوباً . وغدت هذه اللوائح موضوع غزو كالتحريات المادية فهي تقني المرء دينياً وعلمياً . ولم تتوفر مثل هذا الاهتمام في أي عصر منذ ان وجد الانسان ، وسعى بعضهم لتأسيس امبراطوريات . ويعتري هذا السعي دون شك شيء كثير من الخرافات الدينية . ولكن يظهر المدى الذي وصل اليه بأنه اخذ يصبح علمانياً . وهو يعبر من ثم عن توق لمعرفة جامعة يحد عن اي ان يسخر منها .

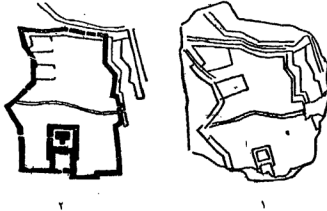
العالم : الطب وعلم الفلك
 رأينا كيف تفتح الدين عن علوم تشابكت مع معارف اخرى وان لم تعد هذه وتلك المدفانها مع هذا ذات افرو قيمة .

وعالج الطب المريض ، كما لو انه ارتكب اثماً او مسه شيطان أقله . لذا لم ينس قط اللجوء الى الطقوس الدينية لينقذه من الروح الشريرة . ولكن بدأ رويداً رويداً يقرن الى هذه الأساليب أدوية معدنية أو نباتية أو حيوانية ، فعالج بالنبات والنحاس والرماد والدم والبول والشحم والزيت ومواد اخرى ووافق لاستعمالها بين تعاليم التجارب ومعطيات السحر ، إذ ، مع تحديده الكلمة التي يجب ان تعطى ، لم يتناس المناسبات الطقسية للبحث عن هذه المواد واستعمالها . وساعت مراقبة طوال علم الفلك والاشارات التي تدل على ارادة الآلهة الموافقة او المخالفة الى علم النجوم . فدرسوا الكواكب وراقبوا حركاتها الظاهرية واتفاقها مع شروق وغروب الشمس فحددوا من ثم السمات ومنطقة الابراج ، وتوصلوا الى نتيجة على جانب عظيم من الأهمية اعني التقويم السنوي .

واتبع دوماً هذا التقويم السنة القمرية ، وجعل بدء الشهر يتفق مع ظهور الهلال . ولكن غدا لزاماً ان يضاف من وقت الى آخر الشهر الثالث عشر وذلك لاعادة التوافق مع فصول السنة . وكان الملك يقرر هذا الادخال بالاتفاق مع السحرة . واخيراً ، وعلى أكثر تقدير سنة ٧٤٧ ق.م . عرفوا بأن عدد ايام متتين وخمسة وثلاثين شهراً قريباً يعادل بالتدقيق عدد ايام تسعة عشر عاماً شمسياً . وهكذا أضافوا سبعة اشهر قمرية بعد مرور فترة تبلغ تسعة عشر عاماً . ولكن متى تجرري

هذه الاضافة ؟ واستمر القصر يصدر الاوامر بذلك . ولم يعين مبدأ وقت الزيادة بصورة مستديمة الا اثناء السيادة الفارسية سنة ٣٦٧ ، إذ قرروا اضافة الشهر المشار اليه ست مرات في الربيع ومرة في الخريف في بعض السنوات المحددة في دور يعد تسعة عشر عاماً . وهذه نتيجة فضلى سمحت للورخين المصريين ان يعرفوا ، بالاستناد الى علماء الفلك ، تحديد كل تاريخ يذكره التقويم البابلي دون ان يتجاوز الغلط الممكن يوماً او يومين - وذلك باعتبار الايام التي حالت فيها طبيعة السماء دون مشاهدة الهلال الجديد .

الرياضيات وعلم الموازين
فرض استعمال نتائج علم الفلك هذا معلومات رياضية جمة . اذ كان السومريون فعلاً قد اكتشفوا واستعملوا نظاماً « ستيتياً » كاملاً وفتق معه فيما بعد نظام عشري . وقد طبق مراقبو النجوم هذا النظام بسرعة ودقة لا مثيل لها في العصور القديمة قبل يونان القرنين الرابع والثالث .



الشكل ١١ - رسم نيبور

١ - على لوحة ميسارية ؛ ٢ - حسب اعمال التنقيب الحديثة

واخترعوا باكر جداً نظاماً للموازين والمقاييس قورن ، نسبة لا يفهمه من توازن داخلي ، بنظامنا المترى - وكان ذلك نتيجة حتمية لما بلغته الحياة الاقتصادية من اتساع ومدى ، اذ يستحيل ان تنشط التجارة والملكية العقارية دون وجود عيارات ثابتة ، واتخذت الوحدات الاساسية من قياسات الطول - ومن تربيعة احداهما كوتوا سلسلة مقاييس المساحة ومن تكعيب اخرى اوجدوا سلاسل المكاييل للجسام السائلة والجامدة . واشتقت سلسلة الموازين من حجم كمية ماء .

وتسهيلاً للحساب وضعوا جداول معينة . وكان هناك نماذج من اعمال حسابية او هندسية وضعوا لها طرائق حل : وهكذا توصلوا الى حل اعمال من الرتبة الثانية والثالثة ، بتطبيق قواعد عملية سهلة .

عادم الطبيعة قاموا بدقة المسافات والطرق ، ووضعا الرسوم الهندسية للنازل والقنوات وحتى المدن . وقد اثبتت افعال الحفريات التي اجريت في نيبور دقة رسوماتهم . ووصلت البناخريطة عن العالم ، قديمة جداً دون شك ، وهي تضع ولا جرم بلاد ما بين النهرين في وسط الارض . ويمتد حوالها المحيط او « النهر المر » ، وعلى مسافة ابعد تنبت اراض اخرى ، ارض الشال المدعوة « البلاد حيث لا يرون الشمس » ، ولكن من غير الحكمة ان نفكر بان البابليين عرفوا الليل القطبي .

وهل بالامكان التحدث عن العلوم الطبيعية ؟ ان مثل هذا التعبير دون شك هو من الكلفة على شيء كثير . ولكن لدينا اقله عدة جداول قديمة العهد للنبات والحيوان وضعت دون شك بكل دقة . ولا يكشف النقاب دوماً عن المبدأ الذي يمين على هذا التصنيف ، لا بل يبدو انه اعتمد على المظاهر اكثر من اللازم كعندما صنفوا مع الحجارة نواة التمر او البرد . ولكن هناك جهد واضح للاتبان بتصنيف وتنظيم عملي : فيجمع جدول واحد النباتات التي تحوي القلي ، والتي يمكن استعمالها كتوابل الخ .

ذهايا من المواد التي تقدمها الطبيعة درجت الصناعة المعدنية والكيمياء العلم والسحر في الفنون اولى خطواتها .

وكان الحديد اولاً نادراً ، اذ يستعملون فقط الحديد الذي يجذونه صالحاً للاستعمال ، خاصة الذي يمت اصلا الى النيازك ، لذا حصروا استعماله لصنع الحلي ؛ لا بل قد يرصعون الذهب فيه . ولكن ، حوالى آخر الالف الثاني ، اتسع مدى استعماله اذ عرفوا كيف يستخرجونه من المعدن . واتصل بهم هذا الاسلوب من اوروبه ، وقد حملته الى بلاد ما بين النهرين ، والى كافة اقطار الشرق ، الشعوب التي بدأت فقد منذ القرنين الخامس عشر والرابع عشر ؛ واقتبست بلاد الافدين هذا التقدم اما باحتكاكها مع هذه الشعوب او لانها تعرضت الى غزواتهم ، فقدا استعمال الحديد فيها امرأ عادياً منذ الالف الاول .

وبالعكس فان كيفية صنع الزجاج الذي تزينه المينا هي اقدم بكثير ، ولدينا نص مكتوب لهذه الطريقة وهو يحدد المواد الواجب استعمالها وكميتها المفروضة . ويعود هذا النص الى اوائل الالف الثاني ، وقد كشفت لنا اعمال التنقيب القناع عن لوحات زجاجية من هذا النوع تعود الى عصر اشد قديماً : فلا عجب والحالة هذه ان غدا هذا النص نسخة او اقتباساً من نص يفوقه قديماً .

ويسود هذا النص غموض مقصود : فان كاتبه اتخذ ، وقد اراد ان يسجله خطياً ، كل تحفظ وحذر كيلا يكشف القناع عن الاسرار التي يحويها ، اذ تحتفظ هذه الصناعة بعري وثيقة مع السحر والرافقة ، كما هو الحال ايضاً دون شك في الصناعة المعدنية حيث نلاحظ اقله مثل هذا الحذر : اذ لا يجدر العمل إلا في ايام معينة وساعات محددة ، بعد مراقبة بعض الدلائل ،

والتلفظ ببعض الكلمات . ولا يجب ان يقودنا هذا القول الى علم الكيمياء : فالطريق ، وهي حتى الآن واحدة ، لم تتفرع الا في وقت لاحق فقط فظهرت لنا اذ ذاك طريق ثانوية ستؤدي بنا الى « العمل الكبير » .

المعقود : المعقود هل تُدخل في الأدب او العلوم او الفنون الاختراعات القانونية التي أوجدها سكان بلاد ما بين النهرين ؟ ولا نجد عن الطريق السوي ان اعتبرناها ضمن أي من هذه المجالات ، أو ضمن مجالات اخرى أيضاً ، اذ أجبرنا على التحدث عنها أكثر من مرة . وعلى كل حال فانها حقاً مؤثرة .

تظهر لنا الاتفاقيات المسجلة على اللوائح ، مهما توغلنا في القدم ، قانوناً خاصاً في غاية التطور ، وبالدرجة الاولى في كل ما له علاقة بالمعقود ونقل الملكية . وتكفي ضرورة تثبيت شروط أي عمل من هذا النوع بصورة خطية ، تحت طائلة البطلان ، لدعوة العقل الى تنظيم منطقي في مختلف الميادين ؛ وقد أكسبت هذه الضرورة الاعمال المحكي عنها صفة الثبوت والتأكيد الحقيقية . ولم تتمتع هذه المعقود بنظام مفرد من القيود الشكلية . ولكن حوت هذه القيود ، مع التحديد الواضح للفرقاء والموضوع ولشهود الاتفاق ، بعض التأكيدات التي تتناسب وتحليل العقد المتبوي اجرأه كعمل قانوني تحليلاً دقيقاً وبيان المصالح المتضاربة وما قد ينشأ من منازعات .

القوانين : قانون حورابي تبدو القوانين ، ومنها ما يعود الى اواخر الألف الثالث ، أكثر وقماً في النفس أيضاً . وقد زادت الاكتشافات الحديثة عددها : ففي سنة ١٩٤٨ نشرت بعض اجزاء الشرائع التي سنها بيلالاما ، احد ملوك اشنونا ؛ كما أشير سنة ١٩٥٢ الى شرعة أور - نامو ، وهو من ملوك أور الذي يفوق بيلالاما قدماً . ولكن كل هذه السنن هي دون قانون حورابي أهمية وشهرة .

وبكل تأكيد فان هذا الصيت متأثراً جزئياً عن المسلة العظمى التي عرفتنا بهذه الشرائع . ويدعو تاريخ هذه المسلة الى المعجب أفحوا الى سنة ١١٧٥ ق.م. سابقا شوتروك تاخوتته ملك سوزه ، كجزء من الاسلاب التي غنمها من بلاد بابل ؛ ووجدت سنة ١٩٠٢ بين انقاض عاصمته ، وقد قامت بهذه الحفرات البعثة الفرنسية في بلاد فارس ، مما اكسب متحف اللوفر حق ملكيتها . وتدعو الى المعجب ايضا هذه المسلة بمجد ذاتها : وهي عبارة عن اسطوانة من الحجر الأسود الصلب مغروطة الشكل يبلغ ارتفاعها ٢٤٢٥ م ودائرة قاعدتها مترين . وفي اعلى وجه المسلة نرى نقشاً يمثل الملك واقفاً في وضع للمتعبد امام شمس ، اله الشمس . والعدالة أيضاً ، تدلنا عليه شرارات تقدح من كتيبه . وتقطن كامل وجه النصب رموز مسبارية صنعت على شكل عمد ، أقى الفاتحون على بعضها بالمطرقة ، كما طرقت أيضاً القرص الشمسي الذي كان يملو هام الاله ! ويعد النص نحو ٣٦٠٠ سطر .

ولكن بصرف النظر عن هذا النصب الذي لم يكن وحيد دهره اذ كشفت اعمال الحفر ، في

سوزه ايضاً ، نسخة عنه ، فقد اكتسب هذا القانون شهرة حقوقية فائقة في كل اقطار الشرق الاذنى . ونسخ هذا القانون على لوائح ولاقى رواجاً في اقطار بعيدة جداً عن بلاد ما بين النهرين واثر من ثم في قوانين شعوب غربية عن امبراطورية حوراني .

وقارن اكثر من معاصر هذه الشرائع مع قانون نابليون . وتسري هذه المقارنة دون شك ان اعتبرنا انتشار هذا القانون ومدى تأثيره ، ولكنها قد تقود الى الخطأ فيما يختص بمفهوم النص وروحه . فبعد استهلال ، يعتبر قطعة ادب ديني وسياسي ومعنوي رائعة ، يعلن « محاكمات عدالة » تهدف الى « اقامة الحق في البلاد » وقد قررها حوراني ، « ملك الحق الذي وهبه شمس العدل » نقرأ ٢٨٢ قضية . ويبدأ معظمها بهذه الكلمات « لما كان ... » ثم تحدد كل منها حالة عملية معينة ، وتنتهي بقرار يحكم بها . وان نحن ابقينا على هذا التشبيه الذي اقره الزمن ، باستطاعتنا ان نعتبر هذه القرارات كمواد قانون ، صيغت بلغة في غاية الدقة والوضوح ، تقضي جهد المستطاع على كل إشكال ومغوض . وان نحن لاحظنا ترتيباً نسبياً في تصنيفها ، فاننا نمجز مع هذا ان نتحدث عن مواد قانونية وضعت بصورة منطقية متراصة تسبغ لنا ان نرى من خلالها تطبيق نظام شرعي بالمعنى المحصور .

اننا نفس دون شك بعض الاتجاهات العمومية : تثبيت استمرار الاسرة بواسطة الولد ، تأمين الملكية مما اتخذت من الاشكال الخ ، ولكن نلاحظ ايضاً امتزاج مبادئ تختلف لا بل تتناقض . فمثلاً نرى العقاب او التكفير ، ومبدأ دم بواء دم او التعويض . وبصورة تبدو مستهجنة يطبق هذا المبدأ او ذلك تبعاً لمركز الضحية الاجتماعي : فالرجل الحر الذي حطم اسنان رجل حر يفقد اسنانه ، ولكنه يكتفي بدفع ثلث « كيل » فضة^(١) الى من دونه رتبة وحدث له مثل هذا الضرر ؛ والذي يسبب باعتداء اجهاض وموت ابنة رجل حر يشهد مقتل ابنته ، ولكنه يدفع نصف او ثلث مثقال فضة ان كانت ضحيته ابنة عبد او شخص دونه رتبة . ونرى مثل هذا التفاوت في مجال التحقيق : تقبل الأدلة وتعد البينة الشخصية منها مع تقرير عقاب صارم للشهود الكاذبة ، ولكن قد تعرض اليمين « امام الاله » ، اعني يطلبها الاله ، او الملك ايضاً ، لا بل يلجأون في بعض الحالات الى اساليب التعذيب فيلقون في « الاله - النهر » اعني الفرات من اثم باستعمال السحر او الامراة المتهمة بالزنى . ونلس بكل سهولة من خلال هذا الوضع اثر تطور في الحق الجزائي او الآداب ، لا يزال مستمراً ، تباطأ هنا وتقدم هناك .

وهكذا فاننا بالاحرى امام مجموعة قرارات ملكية - وليس قوانين - لحل بعض حالات تبدو غالباً على جانب من الصعوبة واللبس ، لا بل منها ما هو لربما وهمي وغير حقيقي ؛ وتعرض علينا هذه القرارات كأنها اجتهادات محاكم وذلك لتوحيد احكام القضاء . واكثر ما يمكننا قوله باننا امام كتابة تقاليد قانونية كانت تنفذ لذلك التاريخ في وسط الامبراطورية ، ثم قررت الارادة الملكية تعميمها على جميع المناطق التي تهيمن عليها .

١ - يعادل الكيل ٥٠٠ غرامات من الفضة .

وبقي علينا في هذا المجال ان نعرف جواباً لسؤال قد يطرح: هل نفذت دوماً هذه الاوامر، وحوارنا لا يزال حياً؟ اذ نرى اكثر من لوحة، فيما يختص بالقرود، لا لتقييد بنصوص هذا القانون، وهذا ما يميلنا على الاعتقاد بان العادة المتبعة او ارادة المتماقدين قد احتفظتا بقوة اشد من الاوامر الملكية.

وتُظهر لنا عوامل مائة قوانين بلاد الرافدين الاخرى، التي يرتقي بعض منها الى زمن اشد قديماً. وتعتبر كلها عن جهد ملحوظ هو اجتماعي واقتصادي اكثر مما هو علمي. وقد اراد واضعوها ان يكسبوا مختلف علاقات البشر المبدأ القانوني، ويضفوا عليها صفة الشرعية والتأمين، ولكنهم لم يخلقوا، لا بل لم يلحظوا هذه الربط المسندة الى القياس العقلي الذي هو القانون.

وتفرض ملاحظة مائة نفسها على معظم مجالات نشاط حضارة بلاد ما حدود الجهد الفكري بين النهرين العقلية: فهي لم تعدد حدود التجربة والعمل. لقد اجاز علماء بلاد الرافدين المراقبة الدقيقة، وسجلوا ملاحظاتهم بسداد واحكام ضيق. وهم قد صنعوا وقابلوا بعضها ببعض. ولكنهم لم يستنجوا من ذلك الا سلسلة من السوابق الواقعية والنصائح العملية، ولم يرتقوا في اي مجال الى الجو النظري المجرد، ولم يسعوا لمعرفة اسباب ما لاحظوه.

حتى ان الرياضيات نفسها، وهي علم نظري في الدرجة الاولى، اتخذت معهم مجرى غير مجراها: لقد استوقفتهم المسائل الرياضية، واثاروا الى الطرق الواجب اتباعها لايجاد حل لها. وهكذا توصلوا الى هذا الحل الصحيح، ولكنهم لم يملأوا ذلك قط علمياً ولم يخلوه، بل اكتفوا بانهم وجدوا سر النجاح، وذلك دون شك بعد ان تلمسوا الحل مرة بعد مرة او اجرؤ التجارب المتعددة. وينطبق هذا القول على مختلف مجالات معارفهم. وهكذا فان معارف بلاد ما بين النهرين بقيت عملية مجتة - حتى انها لم تصح تجريبية، مع ان المبدأ التجريبي يعتمد في بعض مظاهره على الاختبار - ولم ترتفع الى مستوى التنظيم القياسي.

وكيف يمكن ان تكون الحالة على غير هذا نسبة الى العرى الوثيقة التي كانت تشد العلم الى الدين؟ فقد اعتبروا العلم كأنه الهام او وحى، كأنه هبة يمنحها هذا الاله او ذاك الى الانسان. لذا اكتفى الانسان بالمراقبة والتطبيق: وما كان عليه ان يفقه الكنه والسبب.

وتتج المهود عن هذا الوضع العقلي بصورة لا مفر منها. وحيث ان المعرفة هي هبة من الآلهة فلا بد بانهم منحوها، باكرأ جداً، الى الاجيال القديمة التي سبقت الجميع في مجال التقوى والطوقس الدينية. لذا غدا واجب الجيل الحاضر الرئيسي جمع عناصر هذه المعرفة وتسليمها الى الغير، ومن العيب من ثم ان يطعم الى زيادة شيء عليها؛ وكما هو الحال فيما يختص بالعقائد والاعمال الدينية، الذي لا تكون معرفتها الا أمراً تيمناً، فان الكمال محصور في الماضي وليس في المستقبل.

ومن هنا نجد تفسيراً لهذه النسخ التي لا عد لها ، وهذا التردد المستمر ، وهذا الختووع لاعادة ما كتبه السلف . وفي هذا الفصل لم يرد إلا نادراً ذكر الاشوريين ، وبصورة شاذة بصفتهم مخترعين . فهم وقفوا أنفسهم على جمع تراث فكري وصيائمه جهد المستطاع . ولجهود اشوربانيبال التي هدفت الى جمع كل ما كتب سابقاً في مكتبة قصره بنيوى مظهر رمزي : فليست معرفة جميع الامور التي يسعون لتسهيل اكتسابها نقطة انطلاق نحو خلق آفاق جديدة اوسع مدى ، ولكن يمد هذا الاكتساب هدفاً نهائياً بمجد ذاته . واعتبرت بابل في عهد حمورابي مثلاً يحتذى به . وقد جمع فيها حقاً كنز زاه من الثروات العقلية . ولكن الى اي حد غدت هذه الثروات ، حتى في القسم الاول من الالف الثاني ، فتحاً جديداً حقيقه البابليون معاصرو تلك الحقبة ؟ قد يكون فضلهم ضعيفاً جداً اذ اثبت اكثر من اكتشاف حديث بان ما نقلوه جمعه كتبه حمورابي يعود الى ماض سحيق ، ليس فقط من حيث الاصل بل ايضاً من حيث النسخ المباشرة التي اخذوا عنها .

الأثار الفنية

لن يعجب احد اذا وجد إن فن بلاد الرافدين قد ساه ، منذ بدء وجوده الى آخر عهده ، الحدث الديني والحدث الملكي ، ويرجع الاول كثيراً على الثاني اذ يتغلغل فيه ويكون دوماً له سنداً : فالدين هو دائماً مصدر الوحي الجزئي اقله للفن ، هذا ان لم يكن غالباً المصدر الوحيد . ولا يحسب أي حساب للبدن القائل « الفن للفن » اذ يقتضي بالدرجة الاولى ان يستعدي المرء نعم الآلهة باظهاره تعبده لهم . ولا يتكسر قط الملوك لهذا الامر ان هم شيدوا الهياكل او وضعوا فيها تقادمهم التي تفوق تقادم المؤمنين السذج أو أقاموا وزينوا منازلهم الخاصة . وهكذا ، واذا لم تنتج ضرورة تأمين الحياة في العالم الآخري فن مستقل — حتى ان قبور اور و الملكية « مدينة بقيمتها الفنية لانها ، الذي هو اثار ارضي ولا هم تاريخ فن العارة الا لأنها تثبت استعمال الحنية والتعبه بأكرأ جداً — فان الهياكل والقصور هي الابنية الوحيدة المهمة ، لا بل الهدف الوحيد للفن الذي تنحصر رسالته بتشييدها لحي سكانها وحراستهم ومجدهم وسرورهم .

مع ان كلمة « فن » تفوق كل مستوى في هذا المجال ، يرغب المرء مع هذا المدن والحضون ان يمثّل التجمع المدني في شكله المادي لهذه الحضارة حيث لعبت المدينة منذ اقدم العصور دوراً هاماً . ولكن سرعة عطب مواد البناء وتضيد المساكن المتتالية في نفس المواقع مدة آلاف من السنين لا يميزان لنا معرفة البيوت وتنظيم المدن الداخلي معرفة حسنة : ولا يتعدى ما نلجده اليوم ، ليصبح مادة بحث ، انقراض المباني الكبيرة التي يصعب جداً مع هذا تفسيرها لما حل بها من ترميم وتبديل . وباستثناءها فالسور هو عنصر الهندسة المدنية الذي يسهل معرفته اكثر من غيره .

ومن الطبيعي بأن يأتي الاشوريون في هذا المجال بتحسينات ملحوسة ، ان لم يكن بامور جديدة كلياً : اذ غدت الحرب مهم الرئيسي بشكل لم تعرفه اي جماعة بشرية سكنت بلاد ما النهرين . واذ سعوا لحماية سيادتهم ضد الثورات الداخلية والغزوات فانهم اكثروا الحصون وحوطوا بالأسوار قصور ملوكهم . ووزرت عنهم هذه الاساليب ملوك الدولة البابلية الجديدة ،

حتى ان اعمال الدفاع التي أقاموها حول عاصمتهم أثارت ، في العهد الفارسي ، إعجاب المسافرين اليونان :

وكان للمدن القديمة دون شك أسوار مستديرة الشكل تقريباً تشبه أزقة ضيقة لتشابك دون اي نظام . وغالباً ما احتفظ الملوك الآشوريون بما وجدوه ليس فقط في المدن التي أخضعوها وأقاموا فيها الحماميات ، كتل برسب (وتعرف اليوم بتل الاحمر) على منعطف القرات ، بل ايضاً في المدن الوطنية القديمة كمدينة اشور . وقد استرعى الانتباه ما قاموا به من اعمال فنية حتى على هذه المواقع القديمة ، اذ يعجب المرء مثلاً لكثرة وجودة حصون اشور : ارضة من الحجر والاجر المشوي على طول دجلة واحدى القنوات ، وحفرة نحو السهول قد تملأها المياه يبلغ عرضها عشرين متراً وعمقها خمسة عشر متراً ؛ واسوار من الداخسل والخارج يبلغ ارتفاعها نحو اثني عشر متراً تتخللها ، كل ثلاثين متراً تقريباً، ابراج ثالثة ؛ وقلاع ضخمة في الاماكن المعرضة للخطر النخ .

ويزداد التقدم وضوحاً عندما ينشئء الملوك مدناً جديدة ويكونون اذ ذاك احرار التصرف . وقدمت لنا حفريات خرساباد اشهر مثل على ذلك في قصر شيده سرجون الثاني حوالي اواخر القرن الثامن يدعى دور - شروكين اي « حائط سرجون » . وقد حلّ هنا الشكل الهندسي المتوازي الاضلاع محل الشكل المستدير وان لم تظهر هنا الصفة العمودية كاملة ، خلافاً لما اعتقده المنقبون منذ مئة سنة ، فان مجموع البناء يشكل رسماً هندسياً واسعاً مربع الاضلاع . وقائم الزوايا تقريباً ، يبلغ عرضه نحو ١٨٠٠ م وطوله ١٧٠٠ م ومساحته ٣٠٠ هكتار . ويشجع على اساس من الحجر حائط من اللبن يتجاوز ارتفاعه وعرضه عشرين متراً، ويحده خارج الحصن حيطاناً عدة ذات زوايا ، وسبعة ابواب منيعة وعدداً من العرصات والنرف والمنحنيات تحمي مداخل المدينة (الشكل ١٣ صفحة ١٩١)

ومها يدت خرساباد جبارة ، فلا شيء يفوق من حيث العظمة والضخامة اسوار مدينة بابل الخارجية التي شيدها نبوخذنصر ، وهي ايضاً مربعة الاضلاع تمتد على طول ١٨ كلم تقريباً ، مع حيطان مزدوجة يلتصق بعضها ببعض تعززها الابراج . وعلاوة على هذا كان يحده سور آخر المدينة الداخلية ، وهي اقل مساحة ويلجون اليها بابواب ضخمة مزينة وميتينة ، أهمها اليوم باب إشتار (الشكل ١٤ صفحة ١٩٧) لانه حفظ بمجالة احسن من سواه .

وفي كل ناحية شيدت النباتات العظيمة كالمهاكل وخاصة القصور الملكية لتصبح معاقل الدفاع الاخيرة ، وقد كوّنت مجد ذاتها قلاعاً تستطيع ان تقاوم زمناً طويلاً كل حصار ، اذ ارتفعت حولها الاسوار بما فيها من ابراج ذات شرافات ومرام .

واستنفد هذا الجهد البشري والفن الهندسي دون جدوى ، اذ املت دور - شروكين ، بما يفسر لنا كيف حفظت الى يومنا بصورة تمت الى الاعجوبة . واستولى المنتصرون الماديون

والبابلون على آشور ونينوى ودمروهما وجعلوها طعمة للتران . ووقعت بابل بدورها في قبضة الغازي الفارسي ، وتفتقر اسطورة بلشاصر « منّا تَقِل فرسين » باسطورة كومة حطب سردانااب . ولكن يظهر وجود هذه الاساطير الى أي حد سيطرت سطوة الامبراطرة



الشكل ١٢ - مدينة آشور

قبل تدميرها بوقت قليل في اواخر القرن السابع قبل المسيح
ب . قصر ؛ ت ١ ، بيت اكيثو « بيت السنة الجديدة » بيت الاله
اشور الريفي ؛ ت ٢ ، مجموعة اربعة هياكل ويملك احدھا زقوراتين ؛
ت ٣ ، « بيت جبل البلاد » هيكل الاله اشور الكبير ؛ ز ،
الزقورات الكبرى كوست في اول الامر لأنليل ثم لأشور .

الاشوريين على الخيلة . وسيتبسفن
اقامة الحصون عند اليونان الكثير
من مثله الذي ازدهر في حوضي
دجلة والفرات .

ويسري هذا التأكيد ايضاً على
فن تشييد المدن وقد فرض السيد
رسماً منسقاً للمدن التي شيدها أو
جدها ، إذ ان فن بناء المربعات
الهندسي هو من وضع بلاد ما بين
النهرين الشرقية : ولم يحدد
هيبوداموس رجل ميله *Mile* ،
عندما قرر تصاميم بيره *Pirée* في
القرن الخامس ، إلا في نقل هذا الفن
للمرة الأولى الى اوروبه . وقد اعطى
الاشوريون الرسم والمثال للأعمال
الفنية الضرورية لتجمع بشري كبير .
وجلب سنحاريب الى نينوى
مياه الجبال بواسطة قناة حملها
فوق واد « جسر من الحجارة
البيضاء » يبلغ طوله ٢٨٠ م ،
وعرضه ٢٢ م ، وارتفاعه ٩ امتار .

ولكن تبقى كل هذه الامور قليلة الاهمية نسبياً ازاء الاكتشافات المدهشة حقاً ، غالب
الاحيان ، والتي ازاحت الستار عنها اعمال التنقيب التي اجريت حيث شيدت القصور والهياكل .
وقد بذل البناؤون لوقاية هذه الابنية جهوداً وتضحيات مادية أكبر ، كما غدت ملاحظات علماء
الآثار أكثر دقة وقد اجروا اعمال تنقيبهم في مساحات صغيرة لان هندسة البناء الديني والملكي
فاقت دون شك عظمة واهية كل هندسة وبناء آخر ولا تزال كذلك .

هناك عامل مادي له تأثير فعال منذ اقدم العهود ، تساعد على استمراره
ظروف مختلفة حتى ولو لم يعد له من سبب حقيقي .

استعمال الحرف

وتجاوز بلاد ما بين النهرين السفلى من الحجارة ، وغاباتها قليلة جداً ، لذا غدا لزاماً على الانسان الذي اراد تشييد بناء ضخم ان يعتمد الى الحزف ، ويصنع منه خاصة لبناً يحفظها في الشمس ويكدسها اكداً افقية لتلتحم بعضها الى بعض بواسطة وقع من القصب او القش او الزيت . ولم يستعملوا اللبنة المشوية بالصوره استثنائية في الامكنة المعرضة الى مياه المطر او الانهر ، وكان يلزم لصنعها مواد محرقة . ومن الاكيد بان بلاد الاشوريين كانت اغنى بكثير بالمواد الصلبة من سهول الجنوب الرسوبية ، ولكن غدت حضارتها ، بواسطة بابل ، وريثة الحضارة السومرية ، لذا احتفظت بتقاليد نشأت في مكان آخر وتحكمت فيها عناصر طبيعية اخرى . وقد عملت الفكرة الدينية على تقوية هذا الاستمرار اذ ساد الاعتقاد بان كل حكمة ، املاها الوحي ، تجردت من السومريين .

وهناك اعتبار آخر ايضاً : سرعة الاعمال وسهولتها . وقد طبع كل ملك سني حكمه بطابع اعمال شخصية وسمى والحالة هذه الى تخليد اسمه فشيئاً او اصلح مباني تشهد على تقواه وقوته . وهكذا غدا فن النقش عند الاشوريين اكثر ابتكاراً اذ تصرف بصورة اوسع مدى بهذه الحجارة التي اجبر السومريون والاكاديون على جلها من مكان بعيد وبتكاليف مرتفعة عندما ابوا ان يكتفوا بالحصى الكبيرة التي كانت تحملها الانهر . ولكن لم يحدث الفن الاشوري في مجال هندسة البناء ابي تجدد اذ اكتفى بما هو سريع الزوال شرط ان يكون عظيماً : لذا لم يستعمل المهندسون الحجر الا لوضع الاسس . وقد شيّد الملوك العظماء على اقل تقدير قصرهم وهياكل عدة ، هذا ان لم نقل مدينتهم الخاصة كما فعل سرجون الثاني في دور - شروكين .

غدا لاستعمال اللبنة القليلة الصلابة نتائج تقنية اصبحت مع الزمن تقاليد محترمة
النتائج حتى عندما زالت الضرورة الاولى .

والنتيجة الاولى الاكثر ضرورة هي ايجاد كوم من التراب الاصطناعية وذلك لحماية اسس المباني العظيمة من خطر الفيضانات . وكان على سطحها المنحني ، والذي يغطي ان دعت الحاجة الزفت ابر الاجر المشوي ، ان يوجه الماء نحو باليخ اعدت في هيكل هذه الكوم . ولاعطاء فكرة عن ضخامة هذه المباني التي شيدت يكفي القول ان سطح قصر سرجون في خراساباد الذي يغطي مساحة تبلغ نحو ١٠ هكتارات قد ارتفع اكثر من ١٥ متراً ويساوي تراباً منقولاً يبلغ حجمه نحو مليون ونصف من الامتار المكعبة .

ولجعل الجدران اكثر صلابة غدا لزاماً ان تبني سميكه جداً . وهي تضيق كلما اتجه المرء صعداً من الاساس الى القمة . واندمت النوافذ تقريباً ، الا - لربما - عند السقف اذ ارادوا تقليل ، جهد المستطاع ، نقاط الضعف في هذه المباني الضخمة . ووجب على الابواب ، وكان بالامكان جعلها اكثر ارتفاعاً دون كبير ضرر ، ان تؤمن الحاجة الى الهواء والنور . وكانت لزاماً ايضاً ان تفتتح على الهواء الطلق ، لذا وجب الاكثار من العرصات الكبيرة والصغيرة داخل البناء .

ومن هنا يتأتى الشعور بالضخامة الهائلة التي تظهرها المباني الكبيرة . واذ امتدت على مسافة طويلة - وكان من الخطر ان تتوالى الطابق ولم يجرؤ احد حقاً على هذه المغامرة ، حتى في الزقورات - ظهرت كل من هذه المباني ، ان اعتبرنا الخط المستقيم ، ككومة ضخمة شبيهة الى حد ما بجرم متواز ومستطيل السطح ، حفرت فيها بصورة واضحة ، من القمة الى الاسفل ، حفراً على شيء كثير او قليل من الشكل المكعب .

وهذا ما يفسر لنا الجدران التي قامت على وتيرة واحدة . لذا سعوا باكرأ جداً لان يصلحوا الحال وذلك بتبني نظام الحائط المربع الزوايا او نصف الدائري الذي يتخذ اذ ذلك شكل ركن مربع او عمود منتقص . وعمدوا ايضاً الى تغطية المساحات العمودية او المسطحة بمرمعات القيسفاء او الأجر المشوي المطلي بالميلا بشكل عادي او نافر ؛ ولجأوا ايضاً الى تغطيتها بمادة تشبه الرخام ينقشون عليها الرسوم ، او اخيراً ، وفي بلاد الآشوريين ، باسنادهم اليها نقوشاً بارزة من الحجر المنحوت . واكسبت هذه الاساليب تشابكاً في الالوان على تلك اللوحة السمراء التي لا مفر منها . وخيمت داخل القاعات ظلام خفيف اذ لم يتسرب اليها النور الا قليلاً ؛ والحق يقال ان هذه العممة اللطيفة التي تدعها صفاقة الحييطان كانت تحمي من الحر الذي يشتد كثيراً جداً في ذلك الاقليم .

أثار السقف مشاكل لم يوفقوا في إيجاد حل لها . ولم يكن لشكله الأفقي السقف ودعه كبير أهمية : وحالت كمية من الزفت دون تسرب الماء منه في بلاد خف مطرها . ولكن لم يكن للقوم خشب . واستعملوا للبناء الصغيرة ، كالبيوت مثلاً ، نظام القيب . وعرفوا ايضاً نظام العقد واستعملوه للقنوات والجسور ولكن لم يعترفوا الا قليلاً على آثار من عقود السقف في انقاض المباني العظيمة . لذا احبوا كثيراً استعمال قطع كبيرة من الاخشاب حصلوا عليها من جذوع الاشجار . ولا شك في انهم اتوا بها ، إن دعت الظروف ، من الغابات البعيدة ، خاصة من سورية مستعنين بالفرات : وتقضي نقوش عدة على كل شك بخصوص شهرة أرز لبنان . ولكن لزمهم والحالة هذه عدد كبير . واكتفوا غالباً بأخشاب قصيرة ، مما اجبرهم من ثم على تقليل عرضها .

واستعمال الأجر لاقامة العمد التي تحمل السقف امر في غاية الدقة . ولعدم توفر اساليب فنية للحصول على الأجر المشوي استحال على هذه العمد ان تصبح متينة ان لم يعمدوا الى زيادة قطرها ، وهذا ما كان يعنى الرؤية في القاعة .

لذا لا نجد للضخامة الخارجية مثيلاً في الداخل ، في مقاييس القاعات او العرصات ؛ وغدا من الصعب جعلها فخمة الا في مجالي الطول والعلو ، وذلك ببذل جهود جبارة استثنائية . ولكن اوحى قصور الآلهة والملوك التي تهيمن على المدن فكرة اجالية بوجود سطوة تفوق قدرة الاشخاص العاديين .

ان الهيكل هو بيت الآلهة ، أعني بالوقت ذاته ، القصر والحصن ، وذلك بعد ان
 الهيكل زالت الازمنة الدولية الوضيعة . وتشاهد على ركب أحد تماثيل الملك « غوديا
 المهندس » لوحة تحمل رسم الهيكل المنوي تشييده : انه رسم حصن منيع ، اذ يحيط بالهيكل
 الكلاسيكي سور له ابراج لحماية الآلهة وخدامها وكهنتها وكنوزها ضد أي عدو .

ويفرض دور الهيكل الاقتصادي ، وقد رأينا اعلاه اهميته ، وجود منازل ومكاتب
 للاشخاص ، كما يحتم وجود اصطبلات واهراء ومخازن وكنوز . وفي كل هيكل كثر عدد بيوت
 العبادة بالمعنى الحصري اذ زيدت مع الزمن دور خصصت لآلهة اخرى استضافتها الإلهة
 الوحيدة او الإلهتان الرئيسيتان . وهذا ما يدعو دوماً لتغيير هندسة الهيكل . ومع
 هذا لكل إله رئيسي نجد دوماً تقريباً باحة مخصصة للاحتفالات الدينية تشرف على قاعة نجد
 في اقصاها الغرفة الالهية السرية بمصر المعنى حيث لا يدخل الا الكهنة والمالوك وحيث يرتفع
 تماثيل الإلهة .

تشتمل كل الهياكل الكبرى ايضاً ، في احدى زوايا سورها او على مقربة
 البرج ذو الطبقات منها ، على بناء خصوصي يعبر احسن تعبير عن حضارة بلاد ما بين النهرين:
 الزقورات (Ziqqurat) وقد درج المعاصرون على تسميته « البرج ذو الطبقات » . ومع
 الاختلافات المحلية المتعددة التي طرأت على هذا المبني ، نراه دوماً « عالياً » - وهذا معنى
 كلمة الزقورات الاصلي - تقبل مساحته ذهاباً من الاساس الى القمة .

وهندسة هذا البناء معروفة : سطوح تماو بعضها بعضاً تضيق مساحتها باستمرار كلما
 ارتفعت ، تصلها مع بعضها البعض سلالم او درابزوات . وان ارادوا اعداد قاعات فيها فلا
 يتوفر لهم ذلك ، في كل سطح ، الا على الجوانب ، ويقفون لها ابواباً تطل على الاعمدة الجانبية
 التي تتوسط الاجزاء ، اذ وجب الامتناع عن اجراء اي ثغرة في جسم البناء الاساسي وذلك
 لتأمين متانته .

وكان عدد السطوح عرضة للتبديل : فهو سبعة ، حسب احد النصوص ، « اي - تيمين - أن
 كي E - temen - an - ki » ، اي « بيت اساس السماء والارض » ، الذي ارتفع بالقرب من
 « وادي - ساغ - ايل E - sag - il » ، اعني « البيت ذو الرأس العالي » ، او هيكل مردوك في بابل ؛ بينما
 ايهول هيرودوتس هذا العدد الى ثمانية ، وقد اعتبر دون شك الجزء الذي هو بمثابة الاساس ،
 ونجد ان هذا الرقم هو سبعة في مواضع اخرى ، بينما لا يبلغ الا الاربعة او الخمسة على بعض
 النقوش . واختلقت ايضاً المقاييس : فهي تزيد قليلاً عن التسعين متراً طولاً وعرضاً وارتفاعاً
 « وادي - تيمين - أن - كي » ، بينما لا تزيد الا القليل عن ١٦٠٠ م لبرج خرسايد التي لا تزال باقية
 سطوحه الثلاث السفلى ؛ وهي لا تمتدى ٦٤ م و ٤٣ م للطبقة الاولى ، وهي الوحيدة التي يسهل
 قياسها ، من برج اور الذي يرتقي الى الالف الثالث .

وحقيقة تفسير تشييد هذا النوع من المباني لم تفرض بعد ، وبحول عدد السطوح الذي يتبدل هنا وهناك دون اعتباره متصلاً بالكواكب السبع السارة التي عرفها البابليون ، وخصصوا لكل منها طبقة طلوا كلاً منها بلون مختلف. وذكر هيرودوتس بأنه كان يوجد في القبة « بيت للعبادة وضع فيه سرير كبير وعليه اغطية، ويحاذيه طاولة من الذهب ». وقد قضت فيه ليلتها وحيدة امرأة من المدينة « اختارها الاله من بين جميع النساء ». ويزعم سترابون بان سكان بابل اعتبروا الاله - تيمين - أن - كي قبراً لمردوك ، بينما اورد ديودور الصقلي بانهم استعملوا الزقورات كمرصد . اما بعض المعاصرين فرأوا فيه « مكاناً عالياً اصطناعياً » . ومن الجائز اختيار اي من هذه الحلول ، ان لم يكن من الواجب دمجها معاً .

ولكن بانتفاء التفسير الاكيد فلا يغربن عن البال الجهد المادي الذي بذل والاثر الذي تركه مثل هذا البناء طوال العصور القديمة . ولم تعرف بلاد بابل ، وقد خضعت للبرثين قبل عهد اوغسطس بقرن ، تدفق السياح اليونان والرومان الذي اشتهرت به مصر ، لذا لم تعم اساطير هذه الانفاض العالم القديم كما انتشرت الاساطير التي اوجدتها الاهرام الكبرى او تماثيل منوت الضخمة . ولكن تظهر الدمشة في تماثيل هيرودوتس الذي زار الاماكن ، كما تظهر في كتابات سترابون وديودور الصقلي اللذين لم يأثيا اليها . ومحدثنا التوراة عن برج بابل الذي شيده جبروت بني آدم اللذين توخوا « تخليد اسمهم » والحؤول دون تشييدهم . ومنذ القرن الثاني عشر من عصرنا ارادوا ان يتعرفوا الى هذا البرج من خلال خرائب « بيت قواد الساء والارض السبعة » الذي كرسوه للاله نابو في بورتيا : اذ ان كمية التراب المتهار الذي يبلغ ارتفاعها ٤٧ م هي اليوم دون شك اعظم آثار بلاد الرافدين .

المالك والمباني الدينية

ساعد الملوك يديم لتشيد الهياكل والابرار ذوات الطبقات . وقد وجدوا نصاً مسابرياً يرتقي الى القرن الثالث ق.م . يعزو هذا القول الى ملك يوناني: « كنت اصنع ، بيدي الطاهرة ، ومن زيت في غاية النقاوة ، الآجر » لترميم هياكل بابل . وابدى اقدم ملوك بلاد ما بين النهرين تقوى ماثلة ، فاشتغلوا بالدرارة والمسطرة والحبل والمنكاش والمر ، واوزعوا الى رسمهم او نقشهم وهم يحملون على رأسهم قفة مملوءة آجرأ . وكالوا يعضون في اساسات الهيكل ودائع ثمينة ويرفقونها بوثيقة تثبت تكريس مكان التشييد وتذكر الاجيال القادمة بعزمهم الحثيث . وعند ترميم الهيكل كان واجب الملك الذي يرأس هذا العمل ان يطلي بالزيت وثائق اسلافه قبل ان يزيد عليها وثيقته الخاصة التي تدعو خلفاه الى تبني هذه الاعمال التقوية وذلك بتهديدهم باشد اللعنات ، اذ غدا لزاماً ان يستدر عطف الالهة على الملك الذي هو وسيطهم امام شعبه .

وكان من ثم طبيعياً ان تحوي اسوار القصر الملكي نفسها بيوتاً للعبادة ان لم يكن هياكل ، مع نصوص ابتهالات وصور ارواح حارسه ورسوماً او نقوشاً تمثل طقوس العبادة او تقدمية

الذبايح . ولقد وجدوا شيئاً من هذا في اقدم القصور التي سمحت اعمال التنقيب بدراستها ، كقصور اشنونا في بلاد أكتاد التي ترتقي الى اواخر الالف الثالث ، او قصر ماري على الفرات الوسط والذي دمره حورابي . ونجد في الفسحة حيث ارتقع قصر سرجون الثاني ، الذي شُيّد في اواخر القرن الثامن ، ستة هياكل مختلفة الاحجام ، بالقرب من الزقورات ، وقد اعتقد المتقون في القرن السابق بان هذه المباني هي حرم الملك . وعلاوة على ذلك نجد بالجوار المباشر ، ولكن خارج هذه الفسحة ، هيكل آخر الحقوه بقصر آخر . فكان الملك يعيش والحالة هذه بمباشرة الآلهة المباشرة .

ان احديث اكتشافات الدور الملكية في بلاد الرافدين ، اكتشاف ماري ، القصر ليس اقلها اهمية . فهناك مساحة تبلغ هكتارين ونصفاً احصوا فيها ٢٦٠ غرفة ، منها قاعات الحفلات التي تزينها الرسوم ، وغرف السكنى المجهزة تجهيز رفاهية ، ومكتبات المحفوظات ومكاتب العمل ، ومدرسة للكتابة ، والمجالب ، والمجان ، والمخازن والمصانع . ولكن لم يفتصب دون شك قصر سرجون الثاني في خرساباد الشهرة التي لا يزال يتمتع بها منذ قورت تقريباً . وبعد ان هجر لم يطرأ عليه اي دمار الا التخريب الذي انزلته به العوامل الطبيعية ، لذا سهل هنا عمل علماء الآثار اكثر من اي مكان آخر : وهو اليوم خير شاهد على العظمة والفخامة ، ولم يكن له في هذا المجال ، المركز الاول .

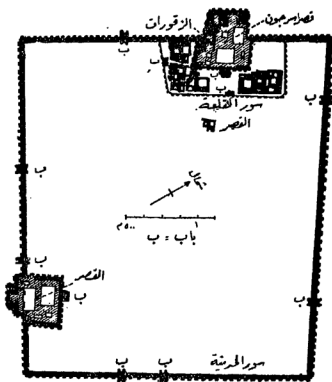
وشمخ هذا القصر على ارض مرتفعة امتدت على جانبي سور المدينة في الشمال الغربي . وبسبب توته نحو الخارج غداً كأنه حصن دفاعي حصين . واتصلت الارض من جهة المدينة بمجموعة من المباني الاخرى تحدها اسوار محصنة اشد اتساعاً غدت كأنها قلعة مستقلة .

وإذا اتجه المرء من المدينة الى القصر فانه ، بعد ان يجتاز القلعة ، يصل الى الرصيف بواسطة درج عريض يؤدي الى باب القصر الكبير الذي تحيط به الابراج . وخلف الباب تمتد باحة مكعبة الشكل تقريباً ، يبلغ طول جانبيها مئة متر ، وتعد هذه الباحة مركزاً للواحق القصر وحياته المادية ، يجتمع فيها الجمهور او أقله الحرس والخدم ، ومن حولها تظهر ابواب مستودعات اللون المختلفة الأنواع ، والاصطبلات والمطابخ . وعلى بعض المسافة ومن الجهة التي هي اكثر بعداً عن المدينة ، تتلاقى حول باحة كبيرة قائمة الزوايا المباني المعدة للسكن والادارة والحفلات : قاعة العرش خاصة ، حيث وجدوا قسمة السفلي ، وكان لها ثلاثة ابواب يفصل بينها عمودان هائلان على احدى جوانب الباحة الطويلة ، ويبلغ طول هذه الغرفة نحو ٥٠ متراً ، وعرضها ١٢ م فقط . وهكذا نجد أكثر من مئتي غرفة تشرف ببقية الهواء والنور على أكثر من عشرين باحة ، تارة كبيرة وطوراً ضيقة جداً .

مع الاهتمام بفن التزيين ، ويجب ان نعود الى هذا الموضوع ، لا يفرغ عن البسال المنائن معهم لتأمين الرفاهية . فقد وجدت في قصر ماري القديم كما في قصر تل بربيد

الاشوري الريفي (من القرن التاسع الى القرن السابع) غرف الحمام ، مجهزة احسن تجهيز ، وفيها المغاطس واكوار التسخين ، ولم تنقص المياه اذن وقد جلبت من محل قريب بواسطة القنوات او ، كما الحال في نينوى ، بواسطة قنوات تملو القنوات .

لا بل توفرت المياه حتى غدا بالاستطاعة خلق جنائن غرست فيها الاشجار . وغدت هذه



الشكل ١٣

دور شروكين (جدار سرجون) خراساباد اليوم
السور والمباني الرئيسية للدينة التي شيدها سرجون الثاني حوالي اواخر
القرن الثامن ق.م.

الجنائن هدف احلام سكان هذه المناطق التي تقرب السباب ان لم يكن الصحارى ، وحيث تشتد فيها الحرارة . وكان يلزمهم حدائق يجوار الهياكل ليُسكنوا الآلهة في « بيت يفرح القلب » ؛ وقد ظن البعض بأنهم غرسوا الأشجار على طبقات الزقورات ؛ وعلى كل حال كان لمعابد كثيرة شيدت في المدن بيوت ريفية ألحقت بها ينقلون اليها الآلهة في بعض المواسم . وغدا ضرورياً أيضاً إيجاد بساتين على اقرب ما يكون من القصور لكي يشعر الملك بطراوة نضرة . وظن علماء التنقيب بأنهم عثروا في بابل على اسس « الجنائن المعلقة » وذلك في مجموعة من الغرف الضيقة جداً . واعتبرت التقاليد اليونانية هذه « الجنائن المعلقة » احدى عجائب الدنيا السبع !

ويقال إن الملك نبوخذنصر اعداه ارضاء لزوجته التي اعتادت على الجنائن الملكية « الفراديس » في بلاد ميديا حيث كانت قد ترعرعت .

ان فن النقش ، ولو ادغمه غالباً في هندسة البناء ، بقي لها الارصاف العمومية لفن النقش الخادم والمساعد الذي يقدم عوامل تزيين او يزيدنها غنى وجمالاً . وفي هذا المجال ازداد دوره اهمية ، خاصة في القصور الاشورية . وحتى في هذه الحالة لم يكن للزخرفة فقط وقد - والتقدير هذا في غاية الدقة - لم يقصد هذا الهدف . وعلى كل قصدوا من اللجوء الى النقش ، اول الامر ، ارضاء عوامل مختلفة ، اذ لم تظهر قط للعيان بعض النقوش وقد دفنتها في الارض . لذا لم يكن الجمال المحرك لتلك النزعة الاولى ، بل وجب ايجاد السبب في الافكار الدينية او ما شابهها .

وأرادوا من جراء نقش شخص ما ان يؤمنوا ، اطول مدة ممكنة ، حضوره حيثما وضع - ولا شك في مكان مقدس - حتى تحرسه الآلهة . كما انهم توخوا من نقش مشهد الذبيحة والعبادة والتقدمة ، والمركبة المظفرة او القنص الموفق احياء ذكرى هذه الافعال او تأمين استمرار هذه الاعمال التقوية والمجيدة ، او بالاحرى استمرار العطف الالهي الذي كانت نتيجة الاعمال الاولى وسبب الاخرى . وهكذا فان الانتاج الفني ، وقد لازمته الادعية والصلوات ، لا ببل غدا هو دعاء وصلاة ، حاذى حدود السحر وتعداها غالباً .

ولم تختلف هذه الفكرة في جوهرها عن زميلتها المصرية . ولكن ضيق مدى تطبيقها تفاوتت في الاعتقاد بحياة في العالم الآخر . ولم يتطلب القبر تماثيل تقوم مقام المومياء ، كما لم يقدم جدرانها ليصوروا عليها رسوماً تحمي لليت المؤله افراس الحياة الارضية والتار الحتمية للعمل الانساني . ولكن بقيت التماثيل والانصاب التي كرسوها للآلهة في الهياكل ، واستمرت ايضاً النقوش التي غدا وجودها في القصور سبب نعم لساكنيها ، ولم تنقطع الادعية وان خف عددها .

لا يعجب احد ان خضع فن النقش هذا ، خاصة في عهده القديم ، مقوماته لشروط معينة .

ولم يتم التفنن لاطهار الجسم الانساني في تناسقه الطبيعي : وهو لم يمثل المرأة الاندرا ، ولم يتبع مبدأ العمري الاندرا جداً جداً . وبالعكس فقد سلطوا انتباههم على الشباب التي سوا جدهم لاطهارها بدقة : ففي اول العهد تنورة من شقف صوفية ، استلموها شكلها دون شك من جلد الخروف وجزته ، ثم جبة طويلة مشدودة ومطرزة . وقد استرسلت هذه الاثواب حتى الارض ، ولكن اعدت فيها ثغرة للرجلين . اما الذرايعان فكانتا مطويتين عادة دون ان تتحركا وقد لصقنا بالجسم . وهكذا صعب بتر الاعضاء اذ احدث اتحاداً كلياً بكتابة التمثال .

ونبضت الحياة في الرأس بشكل اتضح أكثر فأكثر باستمالةم حواجب اصطناعية من الزفت وعوينا من الحجر الماكن ، والصدف الابيض والمينا . ولكن لم يتسم الوجه الا نادراً جداً ، ورافقت غالباً عدم تأثيره مسحة من السويده ، ان لم يكن من الحزن : فديانة بلاد ما بين النهرين لا تسهل كثيراً أسباب السرور . وغذا الرأس عند السومريين ، دون جدال ، الجزء الرئيسي من التمثال ، وقد جعلوه نسبياً اقوى وأكثر ارتفاعاً من سائر اجزاء الجسم . وهل غدا التمثال الصورة الحية لشخص معين ؟ ان التأكيد في هذا المجال يتناقى وملاحظات علماء العرق الذين اكتشفوا فوارق كبيرة بين الهياكل العظمية والناتيل : فمجمعة هذه الاخيرة تتساوى طولاً وعرضاً ، بينما يفوق طول جمجمة الهياكل عرضها . لذا وجب الرضوخ الى بعض الحقائق المتفق عليها وآخرها - وهي التي تثير اشد استغراب - يؤكد بأثر هناك أقلية عرقية قد احتفظت بالسيادة السياسية .

وكان على النقش البارز ان يتجانس مع فن الرؤية : أعني الاسلوب الذي اصطلحو عليه لأظهار هذا الفن ، وهكذا سمح المتفنن لنفسه ان يظهر الأشياء مرتبة فوق بعضها البعض ، ومراراً على شكل طبقات تفصل بينها خطوط ، مع انه كان عليه ان يبرزها على شكل يوحى بفكرة العمق . وعندما نقش المتفنن الانسان خضع لمبادئ تقرب من مبادئ النقش المصري . ولم ير الوجه بصورة مقابلة الا نادراً جداً وللأشخاص الالهية فقط . ولكن مع انهم ابرزوا الوجه بشكل موارب فانهم اظهروا مع هذا العين والحية بصورة مقابلة ، وقد لجأوا أيضاً الى هذه الوسيلة فيما يختص بالكتفين وأعلى صدر الانسان . وعندما طووا هذا الصدر ، وكان ذلك نادراً جداً ، وبشكل غير كاف ، توخوا الابقاء على إظهار الذراعين بشكل موارب . وقد لجأوا دوماً أيضاً الى هذا البديل لإظهار الاعضاء السفلى ابتداء من الركب ، وذلك بدون اي استثناء اذ ساروا على هذه النظرية حتى عندما نقشوا البطل غيلغيميش بشكل مقابل .

ان فن النقش في بلاد ما بين النهرين ، خلافاً لما حصل في مصر ، لا يعتمد على شرطه التقنية اشغال عظيمة الحجم ، وهو في هذا المجال على طرفي نقيض من فن الهندسة . وتعد هذه الاشغال ، ان وجدت ، استثنائية وحديثة العهد نسبياً ، ولا يتعدى أي منها العصر الاشوري العظيم : وخير مثال كلاسيكي في هذا المضمار هو الثيران الهائلة المنحثة ذات الوجه البشري في خرساباد التي تبرز لنا عضلاتها القوية على جوانب قطع حجرية يفوق علوها اربعة امتار ، ووزنها ثلاثين طناً . وبقيت المقاييس قبل هذه الفترة صغيرة نسبياً ، واذا وجدوا في سلسلة تماثيل غوديا الكثيرة العدد انموذجاً يظهر فيه جالساً وقد زاد ارتفاعه ١٠٥٨م عن طول قامة الانسان العادية وصفوا هذا التمثال « التمثال الضخم » . وتفسير هذا النقص ، الذي يخف في بلاد الاشوريين ، هو عدم وجود مواد صلبة في بلاد ما بين النهرين السفلى ؛ وقد تأصلت هنا عادات تبناها الغير مع انه كان أكثر غنى في المواد الاولية . ويجوز لنا ان نضيف الى هذا

التفسير المادي تواضع الرجال ، والملوك ايضاً ، الذين لم يعدوا انفسهم آلهة ، امام عظمة القوى الالهية الساحقة . ولكن 'عدم هذا الشعور عندما أرادوا تمثيل إلهة ما . وفعلا تحمل الثورات المجنحة ، وهي ارواح حماية ، التاج ذا القرون ، رمز العظمة الالهية . ومع هذا فان قلة تحقيق مثل هذه الاعمال الضخمة تقيد على وجود مثل هذه الاعتبارات واحترامها .

ولا نجد كل هذه الاعتبارات لنفسها تحليلاً منطقياً ، كما تحقق لنا ذلك . ولكن مقدرة المتفطن التقنية هي فوق كل شبهة . انها دون شك لا تظهر دوماً على اكمل وجهه . ولكن بأكراً جداً ينتصر النقاش ، أقله في بعض الأماكن ، على اصلب مادة ، وهو يحقق بصبر وطول اناة ما يريد وما ينتظر منه . انه يرى ما يجب عليه ان يراه ويعبر عنه كما يريد ان يراه الغير ، ويهين دوماً عقله على يده عندما يعبر عن معطيات حواسه ونخيلته .

يكتسب فن صنع التماثيل الأهمية الكبرى في العهود القديمة . وقد عرفت فن صنع التماثيل الشهرة ، في هذا المجال مصنوعات قديمة عدة ؛ وهي لم تكتسبها لجمالها الفني فحسب ، بل غالباً لغنى الأدلة التي تقدمها لنا عن معتقدات سكان سومر وأكاد القديمة .

ولا نجد الا عدداً قليلاً جداً نسبياً لتماثيل الآلهة ذكوراً كان أم اناثاً . ومن اشهرها تماثيل عثر عليه في قصر ماري وهو يظهر لنا إلهة مرتدية ثوباً مزركشاً وتضع على هامها تاجاً مستديراً يحيط به زوجا قرون ، وتمسك على بطنها بيديها وعاء ينسكب الماء من ثقبه - والتمثال فارغ الجوف - على الثوب : انها « إلهة الوعاء المتدفق » ، رمز الرفاهية والحصب الذي نجده مراراً بين يدي تماثيل الانسان .

ونجد ايضاً بعض التماثيل للأرواح الجارسة ، لا بل تماثيل للتورذي الرأس البشري - وهو محتو يهدوء - بكلل هامه تاج ذو قرون ، وتعبير نظراته عن الرصانة ، ان لم يكن الحزن . ومع تماثيل هذه الارواح ، نجد تماثيل كثيرة اخرى تعبر عن حيوانات مختلفة كالأكباش والأبقار الوحشية والأسود التي ترمز الى آلهة او تستدعي عطف هذه الآلهة على القطيع . ولا تخلو هذه التماثيل من تقوُب اعدت لتصبح مستقرأ لقطع من صدف ، يتم معها ، ان هذبت ، الشبه التام مع رقطة جلده الحيوانات .

ونجد اخيراً وبصورة خاصة تماثيل كثيرة جداً ، صغيرة أو كبيرة ، للرجال . أما تماثيل النساء فهي أقل منها عدداً . وقد طويت الذراعان بصورة تسمح لليدين بأن تلتقياً على الصدر ، أو لاحدهما ان تستقر امام الفم ؛ وهذه هي علامات الصلاة والعبادة اننا دون شك ازاء ملوك او عظماء ارادوا ان يؤمنوا حضورهم الى الابد في الهياكل ويظهروا للإلهة تقوَام، وخضوعهم لاوامرها . وكبلا يصبح اسمهم عرضة للنسيان ، فانهم غالباً ما يحفرون على احد اجزاء التمثال الملصقة .

لنكتف بسرد اشهر التماثيل . اولاً « قِيم » قصر ماري ، ايل - ايل . وهو قيم ماري ، غوديا منقوش في الرخام الابيض ، حجر ابيض لبن ، ونجا باعجوبة من كل خراب ودمار : ولكن مع هذا فقد فقدت رجلاه . ولا يرتدي الشخص ، وهو جالس على مقعد سلال ولا يرتدي الا قميصاً من صوف . وتلتقي يده امام وسطه الماري . ولم يمس رأسه الذي يحوي كل العناصر التي تفرضا العيون والحواجب والاهداب ، تمدده لحية حريرية بينما حلق شعر الجمجمة والشارب . وتسدي هاتان العينان على الوجه حياة زاخرة ، تساعدنا على ذلك شفتان يعولهما شبه ابتسامة

ولكن علينا ان نتوقف اكثر امام مجموعة تماثيل الملك غوديا العجيبة ، التي عثر عليها في تلسو ، حيث ارتفعت لاغاش القديمة . ونعرف اكثر من ثلاثين تماثلاً من هذه المجموعة ، منها ما هو مكتمل الانجزاء ومنها ما هو مكسور . ويوجد منها نحو اثني عشر تماثلاً في متحف اللوفر وقد عثر عليها متقبون فرنسيون . ولكن لا يحوي هذا المتحف إلا ثلاثة رؤوس . وقد نقشت كل هذه التماثيل في حجر رلب جداً ، وفي غاية الجمال يميل لونه الاخضر نحو الاسوداد . ومع هذا يدل نقشها على مهارة لا غبار عليها . وتراوح احجامها من ثلاثين سنتيمتراً حتى تبلغ مع التماثيل « الضخم » ، الذي يظهر الملك جالساً ، نحو ١٠٥٨ م . ويبدو فيها الملك في مختلف مراحل سنه ، فتارة في عهد صباه وطوراً في مكتمل العمر . ولكن يكفي ان نلاحظ بانهم يطلقون على احد هذه التماثيل صفة « صغير الكتفين » وعلى النموذج آخر منها « عريض الكتفين » لنشك ولو قليلاً في حقيقة هذه الصور . ولكننا نجد في كل حلقات هذه المجموعة نفس العينين المفتوحتين ، والشفتين المنقوشتين نقشاً دقيقاً ، والنقن الطويلة المكوفة . . وتكشف لنا هذه الاوصاف عن مزايا الشخص النسائية : فهو كان دون شك ذا ارادة وعزم . ولكن مما يسترعي الانتباه هو الصفة الكهنوتية التي تظهر مراراً كثيرة على ثيابه وجلسته . ويضم غوديا دوماً يديه ، ان ظهر واقفاً أو جالساً ، حاسر الرأس او ممتراً نوعاً من العمامة . ويظهر دوماً وقد انحسرت عن كتفه وذراعه من الجهة اليمنى قطعة قماش كبيرة تمر من تحت ابطه ويفضي جزء منها كتفه اليسرى وذراعه حتى المعصم . ويجد في نفس الامكنة الثنايا ذاتها وان قل عددها ولطف طيبها . ولكن في كل الناذج وتحت قطعة القماش السميكة ، تبرز لنا الحياة في الجسم ، اقله في الجزء الاعلى ؛ ولا ينقص قط اي مثال شيء من الاقامة والكمياسة . كما تظهر لنا البساطة بصورة مؤثرة ، مها تجسست وخلافاً لكل مفهوم ، عظمة الشخص الذي يستجدي ويتنظر وحي الآلهة ليقوم بعمل ما وسط بني البشر .

النقش البارز Bas - relief
 لم يتوصل قط فن نقش التماثيل في بلاد ما بين النهرين الى درجة كمال كهذه . انه لم ينقرض ولكنه مع هذا ترك المركز الاول في فن النقش الى ما دعه النقش البارز .

غداً لفن النقش البارز عند الملوك الاشوريين خطوة لا مثيل لها ، وقد تعاطاه الجمهور باكرأ

جسداً على لوائح مصفرة ، أو حصى (الكودوروس Koudourrous) ، أو اوان او نصب . وكانت بلادهم غنية بالحجارة ، فاستعملوها بكثرة لتغطية جوانب الآجر ، خاصة جوانب قصورهم . وتقول المساحة المنقوشة على هذا المضار في قصر سرجون الثاني في خرساباد ستة آلاف متر مربع .

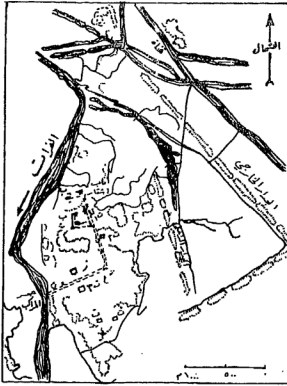
ووجدت هذه الآثار المنقوشة على مقربة من الابواب . وكانت تمثل هناك خاصة الارواح الخيِّرة التي يحول وجودها دون دخول الارواح الشريرة . وغدا لوجود نقوش الابطال والحيوانات الحقيقية او الخيالية مغزى رمزي . ونقش هناك اغلب الاحيان نوعان من النقوش . الاول البطل غيلغيميش الذي يتصر على الاسد ويشده الى ذراعه الابرى ، بينما تحمل يده اليمنى سلاحاً معكوفاً يعد اصلاً للحسام؛ والثاني الثور المنحني ذو الرأس البشري الذي يتصب على ركائز الباب ، يدير نحو الزائر رأسه المهيب على ما به من وسائم بشاشة وامن .

ووجدت النقوش أيضاً في الداخلى على جدران الاروقة والقاعات . وكانت اقل دقة اذ لولا ذلك لانعدمت رؤيتها لقلة وسوء الاضاءة . وهي تمثل ارواحاً بمنحة خيالية برفقة الملك او وحدها ، ترش ماء التطهير بواسطة ثمرة الصنوبر الطقسية ، نباتات اخرى ، مستدعية والحالة هذه على البلاد بركات الحصب . ونقش أيضاً العبيد وهم يعدون الحفلات حيث سيظهر الملك بكل عظمة . وهناك أيضاً نقوش قصص تظهر الملك وهو يخترق بسهامه او حربته ، من على عجلته ، الاسد الشرس ، او يسككه من لبدته ويغمد في بطنه الخنجر . وقد يمثون الملك ايضاً وهو واقف على عربته يجارب في الصف الاول من جيوشه ، وهو على احسن هندام ، وقد جعد شعر رأسه ولحيتة بكل عناية . وكثرت مشاهد الحرب والمعامع والحصار والهجوم ، كما تمددت ايضاً مشاهد التقتيل والموتى وجوع الاسرى والامم المسيية او دافعي الجزية الذين غلبوا على امرهم .

ولطفت من حرمة التقاليد المقدسة حرية في الوحي التعبيري، لا بل خفت حدة هذه الحقيقة الواقعية القاسية، ان لم نقل ايضاً الواقع الطبيعي القوي. ولكن استمرت تلك التقاليد على شدتها عندما مثلوا الملك او حاشيته المباشرة ، او عربته واحصنته وخدامه . ولم يفرقوا قط شخص الملك عن اصول اللياقة هذه التي استطاعوا ان يقللوا من اهميتها عندما نقشوا الجنود والاعداء والمواطنين والذين قهرهم في الحروب .

وعبرت هذه النقوش الناتجة من ثم احسن تعبير عن التقارير المظفرة التي كان يقدمها الملوك للالهة عن معاركهم : ولم يكن الاشوري ، حتى عند عرضه قساوته ، باي تحفظ . ولا تلبخ هذه الاعمال من حيث الفن درجة الكمال . ووجب الاسراع بالعمل لبث الحياة في انصاب شيدت بسرعة وذلك بواسطة هذه الرسوم . وقد استعملوا احجاراً لينية ، كحجر الكلس والرخام الابيض . واشرف على ادارة الاعمال رجل فن ، ولكن انجزها نفر من العملة ،

ولوحظت اخطاء في التنفيذ. ولكن مع هذا استطاعت القرية ان تكشف عن نفسها من خلال وحة فنية : فيطلق الخيال نداء مستعلا يده كبق ، او في الخيم تمتني الالدة بانها او يحمي الصبي الجنود . وقد بلغ الكمال حداً فائقاً بعض المرار ايضاً، خاصة في درس واظهار الحيوانات . وفي هذا المجال



يحوي المتحف البريطاني روائع زاهية صادرة عن قصر اشوريانيبال في نينوى ، منها اللبوءة . المجروحة وهي تجر مؤخرتها المثقلة بالسهم بينما ينفجر من شدقه صراخ الالم الشديد . ويشكل هذا النموذج اروع واشهر وحدات هذه المجموعة التي لن تنسى .

لم يكن النقش
التزيين المرسوم
البارز إلا
والمزخرف بلينا
وسيلة للتزيين ،

من ضمن وسائل اخرى متعددة :
إذ كل من المناسب ان لا
تغطي الوتيرة الواحدة على
مسافات كبيرة .

ولهذه الغاية لجأ القوم الى فن
الرسم بالالوان . ولكن لم تحفظ
نماذجه جيداً لسرعة زواله .

الشكل ١٤ - بابل عشية الفتح الفارسي (٥٣٩ ق.م.)
ب ، القصر ، القصر في الجهة الشمالية القصى ، ويشمله الجدار
الخارجي وهو قصر نبوخذنصر الصفي ، ت - الهيكل ؛ ٢ ،
هيكل إشتار ؛ ٣ ، هيكل مردوك . زقورات مردوك .

واننا نجد فقط بعض آثار هذا الفن في اكبر وافخم العصور ، وقد اكتشفت لسوء الحظ في زمن لم تبلغ فيها اعمال التنقيب كالا تقنياً . لذا وجب انتظار اعمال التنقيب في ماري ، عشية الحرب الكبرى ، ليسهل درس بعض النماذج المهمة ، ان لم يكن اقله جمعها . وتمثل تصاوير ماري ، وان عسر تفسير دقائقها ، مشاهد دينية كطقوس العبادة وتقديم الذبائح . ولكن في قصر تل برسيب الاشوري الرفي استطاعوا ان يتحققوا من وجود رسوم تمثل رسوماً شبيهة برسوم الدور الملكية الكبرى : الصيد والقتال وصفوف الجنود .

وعلاوة على ذلك فقد طليت هذه الرسوم بالالوان ليزيدوا من دقة وجمال الاشكال ، كما انهم

استعملوا الالوان ليضفوا على الاجر الاسمر نوراً وبهجة . وهكذا نجد مساحات واسعة باللون الاصفر ، والازرق الخفيف ، والاحمر والابيض السخ ، عليها رسوم ورود وزهيرات وحيوانات لا تتجاوب غالباً ألوانها مع الالوان الحقيقية .

ولكي يجمعوا في الخارج الالوان اكثر ثبوتاً لجأوا الى مبدأ تزيين الجدر بالمنساجات بقا تقتضيه الاشكال المرسومة . والتحقيق في هذا المجال الذي يدعو الى الدهشة اكثر من سواه هو تزيين باب هيكل إشتار في بابل . ولا تزال انقاض هذا الباب الى يومنا وهي ترتفع الى ١٢ متراً . وقد لَوّن كل شيء قديماً ، ولكن دون تشابك الالوان تشابكاً مفرداً . وكانت الالوان خفيفة . ولَوّن الجزء السفلي بالازرق عادة ، اما اعالي الحيطان ذات الشرافات ، فاعطيت ألواناً زاهية تخترقها خطوط من ورود وازهار . وعلى جوانب الأبراج والعمد رسوما بصورة نافرة ثلاثة عشر صفاً منضدة تنضيداً تتشابه فيها الثيران والتنانين ذوات رأس الحية المقرن ، يتعاقب فيها حيوان ابيض وحيوان اسود . وغدا الباب نفسه نقطة نهاية لطريق تصلح لمسيرة الاحتفالات ، حصرت بين اسوار منيعة ايضاً ، تزينها اسود يظهر رسمها المطلي بالمنساجات نافراً على الخط العمودي . وقدروا بانه قد رسم نحو ١٢٠ اسداً و ٥٧٥ تينياً وثوراً على هذه اللوحات الدفاعية وذلك بشكل في يدعو الى الغرابة وان هولم يخل من بعض الدقة . وتشابكت في هذا المجال اساليب التلوين وتجاوز الحقيقة المغالى فيه واللجوء الى رموز الآلهة الحارسة مع الهندسة الدفاعية النفعية . واستقى دون شك فن تشييد القصور الفارسية من بابل فكرة الافاريز المطلية بالمنساجات .

لا يجدر بالذكر ، من بين الفنون الثانوية ، إلا فن النقش على الحجر ، وذلك فن النقش على الحجر
لكثرة ما تركه من آثار ، تحوي المتاحف كالمجموعات الخاصة آلافاً منها ، إذ كان يملك كل شخص ، شرط ان يبلغ منزلة اجتماعية ما ، خاتماً يحل الرسم المنقوش عليه محل توقيع الفرد على المعاملات التي يكون فيها فريقاً او شاهداً . وغدا هذا الخاتم حامله بمثابة تمييزة : اذ كما احتوى كل اسم علم على اسم آلهة ما ، غداً طبيعياً من ثم ان يمثل الخاتم روحاً حارسة ، او حيواناً رمزياً ، او اسطورة مشولوجية ، او مشهداً تقوياً ، او طقساً يقضي على نفوذ الشياطين الشريرة . ورافقت كل هذا غالباً خطوط كتابة تشند او تقل وضوحاً .

وحفر الرسم بشكل مقعر حتى يظهر نافراً على الخنزف حيث يطبع . ولهذا الغرض استعملوا حجراً منتخباً ، كاللازورد والعقيق وحجر الحية وحجر الدم الخ ، فحصلوا على اختتام مسطحة ونحروية او نصف كروية ، او خاصة على اسطوانات تحمل ثقباً على خط مجورها للرباط الذي يوثق به . ان درس مثل هذه الاشياء يحمل في طياته غالباً فائدة دينية كبرى . وكما يبدو وصلوا الى قمة الفن في هذا المجال حوالي اواخر الالف الثالث عندما اظهر المتقنون حذقاً خصباً في الابداع ، وحساً مرهفاً في الخلق المتزن ، ومهارة تقنية فائقة . ولكن اذ

كأثر الطلب فيما بعد عمدوا الى صنع هذه الاشياء بصورة متواصلة ومتسلسلة مما دعا الى العمل
بسرعة فانتفت الجودة

ان درساً شاملاً لفن بلاد الرافدين يستدعي فقرات اخرى كثيرة للبحث في الآنية ،
والمعادن ، والثياب والاثاث الخ . ولكن لن يظهر هذا البحث شيئاً جديداً اذ ان المصنوعات في
هذه المجالات المختلفة لا تقدم لنا العظمة والجودة اللتين وجدناهما في النماذج التي اتينا امامنا على
ذكرها - هذا ان توقفتنا عند النتائج الحالية للاكتشافات الاثرية التي تخضع لعوامل المصادفة
وامكانية حفظ الاشياء .



الخلاصة

أنا دون شك ، ومهما كانت الاعتبارات ، امام حضارة زاهية من حيث ما حققتة ومن حيث مدتها . وهي زاهية ايضاً لما اسهمت به في الحضارة الانسانية العامة والتوجهيات التي وهبتها لمعتقدات واعمال بعض الحضارات القديمة .

انها تنفقر عادة الى عوامل الاغراء والجمال والطلاوة ، ولا نجد فيها الا مكاناً ضيقاً للسخرية والنرج . لا بل ان القساوة والكربة المتأصلتين فيها منذ القدم لا تستميلان النفس ، كما لا تؤثر فيها الشراسة المصودة التي يظهرها الاثوريون وكثيراً ما تلامس عظمتها فظاظة غير انسانية ، حتى غدت هذه الصفة من مقوماتها المستديمة .

ولكن لن ينكر احد على هذه الحضارة قوتها على التنظيم الجماعي او الابتكارات التي اوجدتها في صلب هذا التنظيم بالذات . وبموجب هذه المبادئ يذوب الفرد في المجموعة التي تدينه العذاب والمهوان : ولا يستطيع المرء في هذا المجال ان يتفاضى عن الحقيقة . ولكن يبدو هذا الواقع اخف وطأة مما هو في مصر ، وعلى كل حال يتجه اتجاهاً مختلفاً ، لان عبادة الموتى لا تحظى هناك باهمية كبرى في الدين ، ولان الملك لا يعد هنالك ايضاً في مصاف الآلهة . لذا فان لانصهار الفرد في بلاد الرافدين بالمجموعة الاجتماعية الذي تفرضه عقائد اخف وطأة مما هي في مصر ، وقمماً اقل شدة وقساوة . وهذا ما يفسر لنا مداورة كيف ان الفرد في بلاد ما بين النهرين احتفظ بقسط قليل مبدئياً بحرية العمل مع خضوعه لمقتضيات الجماعة وللأوامر الالهية ، ومع خوفه من التهديدات والاضراك السرية التي تحيط بحياة الانسان وسعادته .

واستغل الفرد هذه المواقف التي لا تتصل كلياً بالعدم كما هو الحال في مصر . ولم يحطه ذلك طبعاً على تحليل وفهم الحوادث والمظاهر التي اعتقد مبدئياً بانها لا تخضع لاي قياس منطقي . ولكنه استباح لنفسه اقله ان يراقب . لا بل سار على هذا التوال لاعتقاده المتين بمقاربة الانسان وبالتفوق الساحق الذي تملكه القوى التي تهيمن على مصير بني آدم وتفردته . وهذا ما حدا بسكان بلاد الرافدين الى المراقبة وتدوين ملاحظاتهم بكل حماس . لا بل نلس عندهم الجدد والدقة والمثابرة على العمل .. وكلها عوامل قادتهم الى تخوم بعض الصلوم المباشرة . وسيجصد الورثة ثمرة جهودهم ، ولكنهم سيتعمون طرفاً اقل حكمة ، وان كان ذلك بصورة اللاوعي ، واقل تواضعاً ومثابرة ، مما يحمله على ارتكاب اكثر من خطأ .

آسيا الصغرى وايران

لم يشمل الشرق الأدنى ، باستثناء مصر وبلاد ما بين النهرين ، مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة ، إذ لم توجد فيه انهار كبيرة ذات فيضانات رسوبية . ولم تستهو هذه الاقطار بني آدم . وعندما كانوا يمتازونها لم يفرح شيء للاستقرار فيها وتكوين جماعات مستديمه . وهكذا لم تظهر فيها حضارات متطورة إلا في زمن لاحق جداً . لا بل هناك عوامل كثيرة اخرى لهذا الواقع سببتها على مدى واسع قلة عطاء الارض . ولم تبلغ قط اي من هذه الحضارات عظمة زقوة ومدى حضارتي مصر وبلاد الرافدين . ولم تجد اي منها مهداً فسيحاً ينتج خيرات بمائثة لخيرات هذين القطرين . وهكذا فانها لم تلد بصورة عفوية كما غدت الحال هناك ، ولم تعبر بشكل نقي عن الفضائل والميول الخاصة بشعب معين . فبرزت من ثم هذه الحضارات مركبة العناصر ومتشعبة الاصول لانها نشأت عن احتكاكات ولتها سيول الهجرات او المبادلات التجارية . وغدت هذه الحضارات اكثر ميوعة واقل ديمومة . وقد شابت كلا منها نواقص كثيرة ، ولم تملك مجتمعة او منفردة الامكانيات المادية او المعنوية او الوقت للتغلب عليها . ولم تترك هذه الحضارات للخلف في الزمان والمكان إلا إرثاً اقل عظمة وكالا إذ غدت هي نفسها في كل المجالات دون الحضارتين اللتين سلف ذكرهما شروقاً ونبوغاً . ونتيجة لهذه الحقيقة خلفت آثاراً دون آثارهما : ولا تزال الى يومنا هذا نستشف جوهرها جاهلين بمقاماتها وذلك مع ما حققته العلوم الاولية واللغوية من اكتشافات باهرة .

وتتصل بعض هذه الحضارات بدول شجعت همتها القوي لتدعم مركزها الداخلي او توسيع مداها الخارجي لتحافظ على كيانها ، وذلك على غرار ما جرى لزميلتها في مصر وبلاد الرافدين . وهكذا نجد انفسنا مضطربين لجمعها معاً هنا وان اختلفت عناصرها واهدافها . واستناداً الى النجاح الكثير او القليل الذي لاقته فاننا نصنفها مع الحضارات التي يمكننا ان نطلق عليها لقب « الحضارات الامبراطورية » ، ولكن شوائبها تقلل من مدى اهميتها الجوهري

والنسي . ومع هذا تتفصل واحدة منها عن المجموعة وان كانت تشارك سائر زميلاتها بتلك السمات . ومع انها كانت الاخيرة من حيث زمن ظهورها فانها فرضت مع ذلك سيادتها السياسية على ابعاد مدى ، حتى انها اخضعت لسيطرتها مصر وبلاد الرافدين . انها الحضارة الايرانية او بالاحرى الفارسية .



الفصل الأول

الحضارة الحثية

جرت العادة على تسمية شعوب آسية الصغرى القديمة « الشعوب الآسيانية » . وتدل هذه التسمية على جهلنا حقيقة تلك الأمم ، اذ يتعذر علينا دمجها مع الساميين او مع الهندو - الاوروبيين . ولا اهمية ان ابتكرت هذه الشعوب حضارة زاهرة ، كما فعل السومريون الذين لا يزال اصلهم العرقي مجهولا . ولم يحصل هذا إلا بعد ان توطن فيهم أثر سكان بلاد الراقدين والهندو - الاوروبيين . عندئذ فقط ، وابتداء من اوائل الالف الثاني تقريبا ، ظهرت دول منتظمة كالامبراطورية الحثية ومملكة ميتاتسي الحورية .

المضار الحثية والحورية :
الخطوط الكبرى

يصعب تعيين حدود هذه الدولة او تلك لأنها كثيراً ما تغيرت ، واتخذت دوماً الامبراطورية الحثية مركزها في الجزء غير الايحي من الانجاد الاناضولية : وغدت عاصمتها مدينة خطوش (بوغاز - كي الحالية) الواقعة داخل المنطقة التي يكونها منعطف نهر كيزيل - إرمك ، الذي عرفه اليونان باسم « هاليس » . ولكن اتسعت هذه الامبراطورية كثيراً نحو الجنوب - الشرقي حتى امتدت الى بابل في بعض اطوارها . ونجد الحوريين ، في أزمنة مختلفة ، في كل من نواحي بلاد الراقدين الشمالية الممتدة من جبال زغروس حتى شواطئ البحر الابيض المتوسط السورية . ويطلق اسم الميتاني خاصة على منطقة منعطف الفرات حيث كان لمصريي الامبراطورية الجديدة علاقات كبرى مع الحوريين : وفي هذه الحقبة وتلك المنطقة فقط شيد الحوريون دولة عرفت بعض الاهمية والاستمرار . ولكن منذ السلالة التاسعة عشرة خضعوا لسلطة الحثيين وانقرضوا تماماً تقريبا . لذا يصعب علينا من ثم التفريق بين حضارتهم وحضارة الحثيين التي قد تتوفر لنا فعلا عناصر معرفتها بعض الشيء .

واساس حضارة الشعبين هو آسياني . وبدأت الاحتكاكات مع بلاد الراقدين تدخل الى هذا الشعب او ذاك بعض العناصر الثقافية ، خاصة استعمال العلامات المسارية للكتابة ، ويرتقي هذا الواقع الى اوائل الالف الثالث . وقد اتخذ هذا التغلغل مدى واسعا كما يشهد بذلك وجود

جاءت من التجار الاشوريين في بلاد كبادونية . ولكن في هذه الفترة أتت بعض العناصر الهندو - الاوروبية - من تراقية دون شك - الى بلاد الافاضل ، فتلقت مع حثيبي المناطق الشرقية وحوريي المناطق الشمالية الشرقية . وتزايدت هذه الجماعات مع الزمن حتى انتهى بها الامر الى تكوين فئة ارسوقراطية حاكمة ، خاصة وقد جلبت معها الحصان الذي حقق لها استعماله تقوفاً حربيًا لا يبادل فيه . واستساعت هذه القوى لنفسها اذ ذلك شن غزوات جريئة ، لا بسل تشيد امبراطورية حثية . وفي القرنين الرابع عشر والثالث عشر تفوقت هذه الامبراطورية على دولتي البابليين والاشوريين المنفصلتين واقامت توازنًا للقوى مع مصر . وفي هذه الفترة اوجدت العلاقات الدبلوماسية والحربية احتكاكات جديدة مع حضارة بلاد ما بين النهرين وعرفت الحضارة المصرية التي كانت قبل ابعدها جداً .

وبعد ذلك حصل الجزر ثم التضعف واخيراً الانقراض السريع او التدريجي . ولكن بقيت لنا نصوص ونقوش تشهد بهذه العظمة القصيرة العمر . ولم تفسر بعد كل هذه النصوص ، وان كان قد اميط اللثام منذ ثلاثين سنة عن سر بعضها التي كتبت بالخط المساري فلا يزال العلماء يتعمرون لحل رموز تلك التي كتبت بالخط الهيروغليفي . ولكن من الممكن مع هذا ان تأتي على ذكر حضارة اظهرت السحة الحافظة التي سبقت معالمها المتشعبة الاصول .

الدولة تستند الدولة الى أسس اقل متانة وتنظيمًا مما هي عليه في مصر وبلاد الرافدين . ان هناك بالتأكيد عرى وثيقة تربط السلطة الملكية بالآلهة . اهم يستجدون نبوءات عرفاني الآلهة في الشؤون العامة ، ويمثلت الآلهة وهي تقبل الملك والمملكة . ويصوب الملك نحو تأليه نفسه لرغبته في التشبه بفرعون مصر : فهو يتخذ لنفسه حوالي منتصف القرن الرابع عشر ، لقب « شمسي » ، ويصبح بعد موته موضوع عبادة ، ويتقبل التقادم الغذائية المخصصة للآلهة . ولكن لم تتطور قط عملياً هذه المنزلة الدينية بسلطة ملكية مطلقة .

ونجد الى جانب الملك جهازاً يرجع أساسه الى اصل هندو - اوروبي : اعني المجلس الذي يؤلفه افراد من الطبقة الحاكمة . ويقرر هذا المجلس قيام ملك جديد ، ويخلف بين يديه بين الوفاء ولكنه يتقبل من المعامل عهداً مائلاً . ويسمى الملك لتدبير خلفته على العرش وهو بعد على قيد الحياة . وتوصلاً لهذه الغاية يقدم ابنه للمجلس ويستحصل مسبقاً من هذه الهيئة على بين الاطاعة . ومع هذه الاحتياطات فقد اثار هذا النظام اضطرابات سلبية : وقد حصل منها ما اضعف الدولة الحثية . وتعتبر عن تفوق هذا المجلس المبدئي امتيازاته القضائية : إذ هو يفصل بالدعاوى التي تساق على اعضائه وعلى اقرباء الملك .

وتستثنى اجزاء شاسعة من الدولة من ادارة الملك المباشرة . ويستثمر الملك مباشرة بعض الاراضي ، وهو يتسلم عائدات ويفرض اعمال السخرة . ولكن عليه ان يحسب حساباً لجماعة الهياكل التي تتمتع بالحصانة ، وللكهنة الاعظم ، في الاوساط الدينية الكبرى ، الذي يتمتع

ايضا بسلطات مدنية وهناك ايضا الامراء الاقطاعيون التابع ، يعقد معهم الملك معاهدات تضمن
لنريتهم السيطرة لقاء طاعتهم . ويوجد اخيرا النبلاء الذين ، في اوقات الحرب ، يجمعون فرق
الجنود من سكان اراضيهم ويؤمنون قيادتها ، ويطالبون من ثم بحجزه من الغنائم . وللملك جنوده
الخصوصيون ، ومنهم المرتزقة ، ومنهم المواطنين الذين يبيعهم إقطاعات من الارض ، اذ تجري
التعبئة بصورة بسيطة ويجب الاحتفاظ من ثم ، على تخوم الدولة المعرضة للخطر ، بحمايات
مستديمة في الحصون حيث يوجد حكام يمثلون الملك .

النصوص القانونية وتعاليمها
لدينا مجموعتان من القوانين الحشية وضعت على غرار بلاد ما بين
النهرين واوجدت الحلول لمشاكل مماثلة . نملك ايضا عقودا تشريعية
حورية . ولم يأت النظام التشريعي بشيء جديد ، وقد تأثر بمحضارات أودية دجلة والفرات .

ويظهر لنا كل هذا مجتمعا لا يختلف اختلافا اساسيا عن مجتمع بلاد الرافدين من حيث نظام
الاسرة والمهر والطلاق والتبني . ومع هذا لا بد من الاشارة الى اختلافات هامة . وبما يجب
ملاحظته في اول الامر هو ان وجود طبقة حاكمة وحرية ، شبه اقطاعية ، يفرض تعاونا
اجتماعيا يعادل على ما يبدو تفاوتنا عرقيا . ويدعى افراد الحرس الملكي عند الحوريين «ماراباني»
وتشتق هذه الكلمة من كلمة ماريا الهندو-اوروپية التي تعني «الطل» ويتحكم هؤلاء المحاربون
بعملة يمتلكونها ، ومعظم هؤلاء من «المسيبين» ذوي نظام اجتماعي أقل شأنا . ونلاحظ ثانيا بان
القانون الجزائي هنا هو اخف وطأة من قانون بلاد ما بين النهرين ، وهو يعتمد اكثر على مبدأ
الغرامة او التعويض ، الذي يتخذ له مستوى قاسيا جدا . وهكذا فلا تعاقب قط السرقة عند
الحوريين بالموت ، ولكن قد يبلغ التعويض ما يوازي ٢٤ مرة قيمة الشيء المفقود . والعقوبات
الجسدية هي اقل عددا واكثر ليئا . ويزداد هذا الفرق ، المفوس منذ القدم ، قوة مع التطور
والزمن .

وتستفيد الحياة الاقتصادية من معطيات زميلتها في بلاد الرافدين ويمارس القوم اعمال التبادل
والقروض حسب نظم مختلفة ، مع وجود مبادئ الكفالة والرهن الخ . وعلى ما يظهر نشطت
جدا التجارة في مختلف مرافقها . واستحال عكس ذلك في مناطق اعددها وضعها الجغرافي
لتلعب دور الوسيط بين سواحل البحر الابيض المتوسط . من جهة وبلاد ما بين النهرين ويران
من جهة اخرى . وغدا الحديد خاصة مادة تصدير كبير نحو المناطق الشرقية والجنوبية ، وقد
استخرجوه من آسية الصغرى وزاد في استعماله كثيرا الهندو-اوروپيون ؛ وكما حدث للقوانين
البابلية والاشورية فقد حدد التشريع الحثي الاثمان المفروضة لبيع المنتجات الزراعية
والحيوانات ، وبدلات المثل للخدمات والادوات وفائدة القروض ، ولكن ارتفعت جدا
قيمة المعدن الثمين وفائدة القروض ، اقله في الواقع .

السن والدين . غدا الحثيون بناء عظماء . ويظهر موقع عاصمتهم آثار أسوارها ، وآثار مبان أخرى مهمة، ولكن يصعب تحديدها. ووجدوا، أيضا في المدن المقدسة آثار الهياكل. واعتمد القوم كثيرا على النقش . وقد وجدوا ، علاوة على نقوش الارواح الحارسة التي تحمي الابواب كما جرت العادة عند الاشوريين ، نقوشا على الصخور . وهي تبدو عظيمة ولكنها غير كاملة ، تمثل آلهة منفردة او مواكب دينية . ويظهر لنا اشهرها مجموعة من اربعين ذكرا تقدم نحو صف من عشرين انثى او اكثر : وقد نظم الاشخاص في كلا الصفين حسب الدرجات ؛ ففي الامام نجد الآلهة الكبرى ، تليها الآلهة الثانوية ، ثم يتبع رجال الكهنوت . ولهذا النقوش الكبرى فائدة اذ تقدم لنا معلومات عن الديانة ، بالإضافة الى الدلائل التي تحويها النصوص في هذا المجال .

يحتوي الزون(الباتيون)الحيثي على آلهة كثيرة العدد جدا. وبعد ان يعددوا اسماء بعض الآلهة في المعاهدات السياسية يستغيثون « يا آلهة الحثيين الالف»: وذكرون هذا العدد الاجمالي دون شك للتأكد بانهم لم ينسوا اى إله. ومع هذا يولد هذا العدد الكبير الحيرة. وفعلا اقتبس الحثيون آلهتهم من مختلف الجهات. ولكن لا يعود اكبر عدد من هذه الآلهة واهمها الى اصل أسويي ، ونحن غالباً ما نجعل اسم الاله الحيثي ، ان لم نقل الحوري، هذا مع العلم بان الهندو – الأوروبيين قد جلبوا معهم بعض آلهتهم كدمترا، مثلا ، وبان الحثيين اقتبسوا أيضاً بعض آلهة زون (باتيون) بلاد الرافدين كإشتار .

ونجد على رأس هذه اللائحة زوجين من الآلهة حيث تتولى المرأة الصدارة دون شك . انها. الإلهة – الشمس ، وبصورة اوضح « شمس أرينا » وقد اتخذت اسم المدينة ، حيث شيد اشهر معابدها ، ولها حيوانان هما اللبوءة واليامة ، ورفيقها هو اله العاصفة الذي يصبح بالوقت نفسه ، هنا او هناك اقله ، اله الحرب . ويمثلونه برفقة ثورين وترمز اليه الصاعقة او الفأس او الحربة او مجموعة من الاسلحة . ولكن مع الزمن والتطور تأتي على اوليته إلهة أخرى ، هي بالاساس ابنة الزوجين المذكورين اعلاه . اننا هذه المرة امام الاله الفتى الشمس الذي يظهره لنا دون حياء ، ولا يترددون من جعله عشيق والدته ، عندما يعتبرون هذه الاخيرة إلهة الخصب .

وتأثر العبادة والكتب الطقسية تأثيراً كبيراً بزميلاتها في بلاد ما بين النهرين . فهم يقدمون النبايح – وقد يقوم غالباً بهذا العمل الملك نفسه – وينظمون المواكب ، كالملوكب الذي يظهره النقش الذي اشير اليه اعلاه والذي يمثل إله العاصفة وهو يتقدم نحو الآلهة – الشمس . ومما الامراض والمصائب إلا قصاص ترسله الآلهة : لذا وجب على المرء ، لتهدئة الآلهة ، ان يتطهر جسدياً ويقدم النبايح وينطق بالصاوات والعبارات الطقسية . وللشعر مركز مرموق كما انهم يقبلون على مراقبة النجوم ، وزجر الطير ، والتدقيق بكبد النبايح ليسندلوا من هذه الطقوس على المستقبل .

لا تستوجب الديانة الحثية الاتباع لكونها تمت الى اصول عده فحسب ، بل ايضا لانها تلقي الانوار على مصادر بعض العبادات والطقوس التي نعتز عليها في امكنة اخرى وازمنة لاحقة .

وسنجد إله العاصفة ، المدعو تيشوب عند الحوريين ، والذي نجعل اسمه الحسي ، في سورية باسم سحدد وفي فينيقية باسم بعل . وسيصبح الاله سحدد - بعل في مدينة دوليخه *Dolichè* (بلاد كوماجين *Commagène*) الذي يحتفظ بالثور والفأس الإله زوس - دوليخانوس *Zeus Dolichéus* ليوناني العهد الهليني ، ثم الاله جويتير دوليخانوس *Dolichéus* للرومان ؛ وهذا الاسم ستمتد عبادته الى كل المقاطعات .

وحسب كل الظواهر فان الإلهة الكبرى التي فقدت بصورة تدريجية صفتها الشمسية ليست إلا « الوالدة الكبرى » ، الإلهة الرئيسية لكل آسية الصغرى تقريبا ، « مروضة الحيوانات المفترسة » خاصة الاسد . وقد اطلقوا عليها اسماء عدة وعرفت تسميات كثيرة . فدعتها نصوص فينيقية قديمة باسم كويابا . وستصبح كينييه عند الليديين ، وسبيلة *Sybèle* عند اليونان . وستجلبها رومة ، منذ أواخر القرن الثالث ق.م . من مدينة بستيونت في فريجيا ، المركز الرئيسي إذ ذاك لعبادتها . وستمرافقها كبراً في الامبراطورية الرومانية . ولكن عبادتها الآسيوية ، كانت هذه الإلهة قد أثرت في ديمتير اليونانية ، وذلك قبل ان يشعر اليونان بزم كثير بغرام عبادتها الآسيوية . وسارع الفرس ، منذ ان اتوا الى آسية الصغرى ، ان يساوا بينها وبين إلهتهم انيستا *Anahita* .

ووجد الاله الابن الفتى في الديانات السامية: وقد عرفه اليونان في فينيقية باسم ادونيس . وهذه الصفة اجتاز البحر الابيض المتوسط منذ القرن الخامس ق.م . ولكن ستعرفه اوروبه ايام الامبراطورية الرومانية باسم أتيس خاصة وقد دمج مع والدته ... وهي حبيبتة في الوقت نفسه . سبيلة .

واخير أي تفسير نعطي لوجود بعض التقاليد الدينية التي عرفها الحثيون في مدينة رومة وذلك منذ أقدم الازمنة ؟ أحصل الامر عفواً ام كان وليد اعمال نهل مستقلة ولكن من معين واحد مشترك عرفه مدى اتساعه شواذب غريبة ؟ ففي رومة سعى القوم ايضاً لقراءة المستقبل من خلال كسب الذبائح وزجر النلير ؟ واستعمل العرافون العصا المنحنية ، اللبتوس *Lituis* التي كان الحثيون يضعونها بين يدي إله الزوبعة والملك الذي يقوم بالخدمة الدينية . ومن غير المشكوك فيه بان رومة عرفت كل هذا من الاثر وسكيين *Etrusques* : وبما ان هؤلاء قد اتوا من آسية الصغرى نحو ايطاليا فلن المعض بانهم وجدوا فيهم الحلقة التي كانت تنقص السلسلة المشدودة .

وعلى كل ، حتى ولو لم تأخذ بهذه النظرية ، فاننا نجد بان الحسين ، وبصورة ثانوية حورسي
ميتاني ، قد لعبوا دوراً هاماً في نشر المتقدات الدينية . ولم يكتب الحسين بالمحافظة على
الاساس الآسياني واقتباس بعض العناصر من بلاد الرافدين بل سهلوا انتقال كل هذه المعالم الى
امكنة اخرى على سواحل البحر المتوسط الشرقية .



الفصل الثاني

الحضارة الليديّة

دخلت الامبراطورية الحثية تطور التضعف حوالي أواخر القرن الثالث عشر، خاصة تحت عامل
بيجم جماعات هندو . اوروبية ، أتت من الغرب عن طريق المضائق . وعلينا ان ننتظر قروناً
عدة لنعاثر من جديد في آسية الصغرى على دولة لها بعض القوة ويمكننا معرفتها
بعض الشيء .

ليست هذه حال مملكة او ممالك الفريجيين .

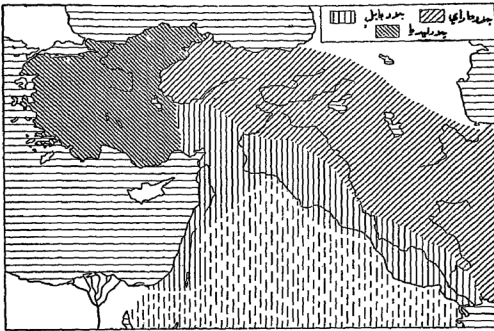
الفريجيين

فمنذ القرن الثاني عشر حتى أواخر القرن السابع تدلنا كتابات الماوك الاشوريين
على وجود الموشكو *Moushkon* في شرقي آسية الصغرى ، وقد ناصبهم العداء ومحاربوا مرات
عدة . ومن الجائز الظن بان خلفاء الحثيين هؤلاء هم من تدعوم الالباذة بالفريجيين . وان صدقنا
الاساطير اليونانية فانهم حالفوا امسالي طروادة . وكانت ملكتهم هيكيوب ، امرأة بريام ،
فريجية . ونغدا ماوكهم خلفاء غوردياس . وقد اشتق منه اسم عاصمتهم غورديون حيث قطع
الاسكندر العقدة « النوردية » ... وميداس . واتخذ احد هؤلاء زوجة له امرأة يونانية من
الساحل الايحيي وقدم لابلون الدلفي العرش الذي كان يجلس عليه للقضاء . ولا نستطيع تفسير
هذه الوقائع إلا اذا قاربنا بلاد الفريجيين من الغرب اقله البحر الابيض المتوسط ، وان هي
كانت اقل اتساعاً لجهة الشرق من الامبراطورية الحثية .

وما نستطيع زيادته على هذه الاسطورة او تصحيحه هو امر قليل . فقد اتت زمرة من
الفريجيين من بلاد تراقية ؛ وهذا ما تؤكده بعض العلاقات الدينية ؛ ولكنهم حصلوا على إرث
الاسيويين والحثيين العرقي . ومن الوجهة السياسية لم يكونوا دولة مركزية ، إذ لم يكتشفوا
قبوراً كبيرة ، وهي قبور ملكية دون شك ، في غورديون فقط ، بل ايضاً في اقطار شرقية ،
في انقره مثلاً ؛ وتفسر هذه البعثرة ضعف دورهم الحربي . وقد كانت لهم علاقات تجارية مع

جيرانهم ، ولكن على مدى قليل . وفي الحقيقة غدت الزراعة وتربية المواشي ، وقد امتدحتهما الالياذة دون ذكر تفاصيل مميزة ، مصدر ثروتهم الرئيسية . واطهر علم الآثار بانهم تأثروا بتأثيرات مختلفة في مجال الفن والصناعة الخزفية : فهناك تأثير الحثيين ، وقد عمدوا مثلهم الى النقش على الصخور ؛ وتأثير قبرص التي باعتهم العرعى التي تصل اجزاء الثوب والواني ؛ واخيراً تأثير اليونان الذين اخذوا عنهم الالقباء ومبادئ التزيين في القرن السابع .

وهكذا نجد حضارة مختلفة العناصر ولكنها دون نضارة . ولم تتحدث العصور القديمة عن الفريحيين إلا بشأن هيكل بستيونوت من حيث امتدت عبادة سبيلة وأتيس مع ما يرافقها من ادوات موسيقى صاخبة كالصنوج او « النحاس الفريحي » .



الشكل ١٥ - امبراطوريات آسيا الوسطى نحو منتصف القرن الخامس قبل المسح

تقدم لنا الحضارة الليدية وسبها آخر مختلفا . المملكة الليدية انشقت عن الاقطار الفريحية المناطق التي ستصبح في غربي آسيا الصغرى ولكن لم يظهر هذا الاسم إلا في زمن متأخر : اذ اسكنت الالياذة في هذه المنطقة الميونيين « Maioniens » الذين كانوا هم أيضاً حلفاء طروادة . وقد ربطت التقاليد اليونانية تغيير الاسم مع اغتصاب العرش على يد جيجس Gyges في اوائل القرن السابع ! وفي الفترة نفسها تشير النصوص الاشورية الى اللودو Loudou وملكهم غوغو Gougou . ودام حكم السلالة الجديدة ، المدعوة سلالة مرمناد Mermnudes ، نحو قرن ونصف وذلك حتى الفتح الفارسي . وفي آخر

عدها سيطرت على مسافات شاسعة : فقد بسطت نفوذها على آسية الصغرى الغربية بكاملها حتى نهر الهاليس . وخضعت لمجانبها أيضاً السواحل الايحية بما فيها المدن اليونانية . وقد احاطت - ولا تزال - شهرة غنى استثنائي باسم آخر ملوكها كريوسوس *Crésus* . وغدت عاصمته *Sardes* مركز حضارة زاهية .

منذ وصول الهنود - اوروبيين غدت تسيطر على البلاد طبقة من النبلاء لما تملكه من اراض . وكانت تقدم للملك « رفقاء » . وقد ملأ الوزير جييجس هذا المنصب وغدا خاتم الشهر الحتم الملكي . ولم يأت « المرنداد » على هذه الفئة الارستوقراطية . وبعد هذه السلالة نجد النبلاء يعيشون في ممتلكاتهم في بيوت ريفية دعاها اليونان « الارجح » وهي تشبه الحصون . وكانوا بعض المرار اغنياء جداً بما ادهش الملك الفارسي أحشوروش او (*Serxes Asreiscus*) . وحققت السلطة الملكية ، على زمن خلفاء جييجس ، تقدماً محسوساً ، حتى ان التقاليد تظهر لنا الملوك مطلقى الصلاحية ، لا بل تمترهم طغاة حقيقيين . ولم يراعوا خاطر احد إذ كانوا خلفاء مفتصب يواجون الدسائس والفتن ويلاقون المنافسة عند شغور العرش : وكان والد كريوسوس يترق ثياب النبلاء ويصق في وجههم إذلالاً واحتقاراً . وامات كريوسوس اخاه بين اسنان آلة تمشيط الصوف لانه سعى الى العرش .

الحياة الاقتصادية لم تكن ثروة الملك اسطورة ، وقد اثبتتها هبات منقطعة النظير في بلاد اليونان . وتولد هذا الغنى الفادح عن استئثار املاك الدولة والضرائب التي ادتها الجماعات المحلية . وعلاوة على ذلك كثر المعدن الثمين وقد جمعه على شكل وريقات من رمال الباكثول ، نهر سرديس ، كما استخرجوه من مناجم بعض الجبال . وكان يوجد أيضاً ضرائب على التجارة . وقد يطرحون هذا السؤال : هل ازدهرت التجارة مع الشرق البعيد ؟ ان حفریات سرديس اظهرت لنا اشياء قليلة جداً اتت من تلك النواحي ، ولعلمهم يغالون كثيراً في وصف تجارة القوافل التي كانت تتجول على الطريق الكبيرة التي تخترق آسية الصغرى ، والتي استدعى فيها بعدة الطريق الملكي ، ايام الفرس . ومع هذا يؤكد هيرودوتس بان اللبدين غدوا الكابلي *Kapeli* الاولسين ، اعني الذين يبيعون بالتفريق ويديرون الحانات (اي الفنادق) . وعلى كل لا يشك احد في كثرة التبادل التجاري مع مدن الساحل اليونانية التي تقود اليها الودية النهرية والتي غدت صلة الوصل البحرية مع الغرب .

وقد دعا دون شك هذا التبادل لاختراع النقود المعدنية التي وضعت حداً لمراقبة نوع ووزن السبائك التي عم استعمالها سكان بلاد الرافدين . وتتردد التقاليد كثيراً في تعيين زمان ومكان اختراعها . وقد يكون حقيق ذلك بعض الافراد في مدن الساحل اليونانية . ولكن ان عدت المملكة الليدية مقتنسة ذاك الاستعمال فهي قد اقتنسته باكبراً . وسك القوم في اول الامر قطعاً من معدن استحصولوا عليه بمزجهم الذهب والفضة بنسبة غدت عرضة للتبديل ، فأصبحت من ثم

النقود ذات قيمة غير معينة . وظهرت اول عملية سك نقود فضة في بلاد اليونان ، بينا غدا كريسوس اول من سك نقوداً ذهبية في عالم البحر الابيض المتوسط .

ان العلاقات مع العالم اليوناني تقسر لنا تشابك هاتين الحضارتين .
الحضارة الليدية
الحضارة اليونانية
احتفظت الحضارة الليدية بمظاهر جد شرقية . وشابهت القبور الكبيرة التومولي *Tumuli* الفريجية . وغدت سبلة وأتيس الإهتين الرئيسيتين . وكان للموسيقي مركز مرموق في الحفلات حتى قد تهجم الجيوش على ميله *Milet* « على انغام المزمارة والقيثارة » . واتسمت الدعارة بطابع مقدس ، وكانت امرأ طبيعياً للفتيات الليديات . وعلى كل فقد ساهمت الجاريات ، بالاشتراك مع رجال الصناعة والتجارة ، بأكبر مبلغ لتشديد قبر والد كريسوس . لذا لم يستكشف اليونان عن ذكر تفاصيل حياة الليديين الانيقة والمختثة : فهم يصفونهم مرتدين غلائل طويلة من قماش زاه ، وواضعين في آذانهم الخرصان ، يهدرون الدهن المعطر على رؤوسهم ، ويتذوق المسك والطيب والعطر من اجسادهم . وهم يفضلون الاكل اللذيذ والحلويات والمربيات ، ويخترعون - لتناسي الجوع والقحط - ألعاب الكعب والزهر والكرة ، وألعاباً كثيرة اخرى . ولا ترمز هذه الالعب الصبيانية التي ترفع من المنعويات إلا الى الافتتان الذي شعر به اليونان عندما احتكوا بطبقة اجتماعية استغلت معرفتها فنون الرفاهية التي اوجدتها حضارات الشرق القديمة .

ولم يتوان اليونان عن الحضور . فقد عرضوا خدماتهم كمرتزة وتعاطوا التجارة . وألّفوا مستعمرة في سرديس : ففي هذه المدينة ولد الشاعر ألكان *Alcman* . لا بل توصلوا الى القصر ايضاً إذ ان والدة منافس كريسوس السيه الحظ ، وهو اخ له من أبيه ، كانت يونانية . وتفتحت الحضارة الليدية على العناصر اليونانية ، واتخذ الملوك الليديون لنفسهم لقب « محبو اليونان » ، ولم يسلكوا هذا المسلك للدعابة : فهم استشاروا العرافين اليونان ، واطهروا احتراماً فائقاً للاله ابولون في مدينة دلفي ، وأكثروا العطايا للهاكل والمدن اليونانية ، وتعاقدوا مع المهندس تاليس . وتذكر التقاليد بانهم عهدوا الى صاغة يونان في بعض اعمالهم ، وقدموا المعونة الى شاعر الامثال ايزوب *Esop* ، وتحدثوا الى هذا او ذاك من الحكماء السبعة الذين اتوا الى بلادهم . ولم ينحصر اثر الحضارة اليونانية في القصر الليدي فقط اذ وجدوا اغراضاً خزفية كثيرة من صنع يوناني في قبور سرديس التي ترقى الى اواخر القرن السابع او الى النصف الاول من القرن السادس . وبعد مضي قرن على الفتح الفارسي كتب المؤرخ الليدي كستوس *Xanthos* تاريخ بلاده بالغة اليونانية . وهكذا منذ اواخر العصر المتوغل في القدم بدأ ذاك التطور ، وقصد اشتد مع فتح الاسكندر ، الذي سيجعل من آسية الصغرى الغربية ارضاً حصبية للحضارة اليونانية ، وذلك طوال العصور القديمة الاخيرة وفترة طويلة من القرون الوسطى .

وبالمقابلة فقد عرف اليونان من معين الحضارة الليدية ، واستقوام الذهب . ولتفسير وجود

الذهب بشكل كثير ومفاجئ، من الممكن الظن بانهم لاقوا مناجم جديدة . وعلى كل فقد ذكروا ، وكانوا بذلك على حق ، « هجوم » اليونان ، وهم تناسوا بسهولة انفتهم امام مثل هذا الغنى . وقد اورد هيرودوتس قصة احد نبلاء اثينة الذي سمح له كريوس ، مكافأة له لانه اضحكه بشكله الزري ، ان يأخذ من الذهب ما يستطيع حمله ، فلأ التبيلل إذ ذاك حذاءه و حلويات قميصه و فمه ايضاً ، هذا علاوة عن الهدايا الاخرى التي تلقاها . واخذ اليونان من ليديا العدد الكثير من الكنوز، إذ غدت هذه البلاد، وهي قريبة من مدنهم الأسيوية، إحدى الطرق، لا بل الطريق الرئيسية ، التي سمحت لهم بالاحتكاك مع الشرق الذي اقتبسوا عنه الطرق التقنية الصناعية والفنية، والعقائد والعبادات الدينية، والامثال الميتولوجية والمعلومات العلمية . وهكذا غدت اقتباسات اليونان من الشرق كثيرة العدد وثقيلة الوزن ، إذ تعجز المصادفة ان تقسر التقدم الذي احرزته ايونية على سائر المقاطعات اليونانية ، وقد شاركت لا بل خضعت عملياً لسرديس : ولم تلاق اي من هذه المقاطعات سهولة مثل ما لاقته ايونية للاستفادة من اختبارات الغير .

الفصل الثالث

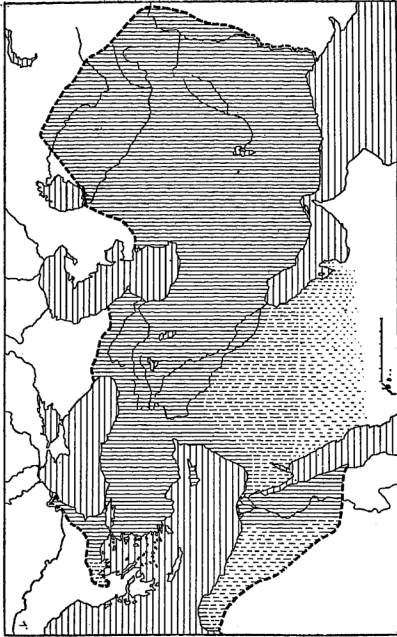
حضارة بلاد الفرس الأخمينية

استولى الملك كورش الفارسي على سرديس سنة ٥٤٦ او سنة ٥٤٥ . وبعد قليل بدأ يونان الساحل بهجرتهم ، وهكذا فوجيء العالم بظهور قوى جديدة سوف يقضي توسعها بشكل صاعق على جميع العقبات ، وذلك اثناء نصف قرن او اكثر .

روح السيطرة الفارسية كانت هذه القوى لشعب لم يعره احد قبلا كبير اهتمام . وينتمي هذا الشعب الى الارومة الهندو - اوروبية ، وكان قد استقر في الالف الثاني ق.م في جهات هضبة ايران الغربية . وجاوره جنوبا السوزيون *Susians* الذين كانوا قد اقتبسوا حياة سكان بلاد الرافدين منذ زمن قديم . ولكن فصلت سلسلة جبال زغروس بين هذا الشعب وبلاد ما بين النهرين . ومع هذا تأتي على ذكره بعض المرات نصوص آشورية . وعندما يقرؤها المرء يمتدد بأنه ازاء قوم من البدو السرقة والمثقلين . ورويدا رويدا استقر بعض منهم ونظموا حياتهم حسب تطور لا تزال نجهله .

وحالف هؤلاء البابليين واسهموا ، بقيادة الماديين ، بالاستيلاء على نينوى وتدعيمها ، وقد نالوا مناطق بلاد الرافدين العليا عندما قسمت الامبراطورية الاشورية . ولم يكفهم هذا . وكان عليهم ان ينتظروا اكثر من ستين عاما ليظهروا قوتهم الحقيقية دون حاجة الى حلفاء . وفي هذه الاثناء انتقلت القيادة الى الفرس الذين حققوا غربا فتوحات ساحقة : فاستولى كورش ، اول ملك من السلالة الاخمينية ، على ليديا ثم بابل ؛ واخضع ابنه قمبيز مصر والقيروان ؛ وغدا الملك الثالث داريوس الاول سيد بعض جزر بحر ايجه وتراقية في اوروبة . واثر غزوات اخرى اشد صعوبة دون شك - ولا تزال معرفتنا بها سطحية جدا - دانت لهم هضبة ايران حتى تركستان ونهر الهندوس .

وفي زمن لاحق غدت حدود الدولة هنا وهناك عرضة للتغيير ؛ وهكذا تحلى الملوك نهائيا عن اوروبة اثر انكساراتهم في بلاد اليونان زمن الحروب المادية . وحصلت في الداخل ثورات



الشكل ١٦ - امتداد الإمبراطورية القارسية في بدء القرن الخامس قبل المسيح

متتالية لم يستطيعوا قمعها إلا بصعوبة ، كما حصل في مصر مثلاً . ولكن لا تؤخذ هذه الظروف بعين الاعتبار إذ لم يسبق للعالم القديم ان عرف دولة بمثل هذا الاتساع . ولكونها ورثت الامبراطوريات العظمى التي سبقتها فقد هيمنت هذه الدولة على كل الاقطار التي خضعت لتلك الامبراطوريات ، وزادت عليها بلاداً اخرى : ولم يصل اقوى الملوك الاشوريين الى المضائق او الى نهر الهندوس .

وهناك أكثر من ملاحظة جغرافية . فمن ناحية اولى استفاد الماديون والفرس ، وقد برزوا في زمن لاحق على مسرح منازعات الشرق السياسية والحربية ، من تضعف شركائهم القدامى وتفككهم . ولم يستطع الذين هدموا الماديون والفرس ان يوجدوا صفوفهم لما استحکم بينهم من منافسات قديمة ، لا بل كان تحالفهم ، ان تحقق ، اعجز من ان يتلبور في عمل مشترك . ومن ناحية أخرى وجد عواهل الفرس في تراث الممالك العظمى المنوي التي غلبوها على امرها مبادئ عدة تدعوهم الى السيطرة العالمية . وكان التراث البابلي اغنى من كل زملائه في هذا المجال . لذا ظهر هؤلاء الملوك وكأنهم يحققون منهج الدول الشرقية الاستعماري .

وفي الحقيقة لم يكن اندفاعهم المفاجيء إلا تعبيراً عن دفقة حياة جديدة في نظام مرت عليه ألوف السنين : نبضة تلت زميلات كثيرات لها امتدت ابعدهن مدى ، ولكنها ستعرف مثلن المصير المنهك . وهناك أكثر من ذلك . فان كان الانكماش الذي تلاها قد تأخر ، ولم يحصل إلا بعد قرن ونصف من الحرب المادية الثانية - لكنه غدا اوسع مدى من اي انكماش سابق واتخذ له طابعاً جديداً ، اذ مع الاسكندر غمر الغرب لأول مرة اقطار الامبراطوريات القديمة ، ولم يصبح توحيد الشرق إلا عاملاً يسهل مهمة الذي سينتصر عليه . وقد ناب المكثوني مناب العاهل الاخيمني ، بعد ان انتصر عليه ، وغدا هو ايضاً وريث المبادئ الملكية التي نشأت في منف وطبوة وبابل وأشور .

« أنا أحشويروش ، الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك البلاد المتعددة الروح الابراية
 اصناف رجالها ، ملك تلك الاقطار الشاسعة ، ابن داريوس الملك ، اني اخميني وفارسي وابن فارسي وآري من عرق آري » هذا ما نظهره لنا كتابة منحورة على جسم موحد السطح تقريباً . وتحوي مجموعة هذه الالفاظ اموراً عدة . ودون ان نعيد الكرة على مزاعم الملك الذي يريد السيطرة على العالم كله سنكتفي بالتعليق على العناصر الاخرى .
 يشدد الملك على وصف اصله العائلي والعرقى . فهو يعلن نفسه بكل اعتزاز بأنه ايراني نبيل ؛ ويبقى في الواقع على هذا الشرف .

وكان الآريون - وهم الهندو - اوروبيون الذين استوطنوا ايران - اقرباء الغز والسيارين الذين سكنوا السهول المنبسطة ما بين الدانوب الاسفل وتركستان . ولم تستطع ايران ، وهي بلاد سباسب وصحارى ، ان تقهرهم . وغدت المناطق ، التي تقع على سفح الجبال المحيطة بالبلاد

من الشمال ومن الغرب ، البقاع الوحيدة الصالحة لحياة استقرار لناخها الرطب وسهولة الري . ومع انه أسست هناك المدن فقد استمر مبدأ حياة البداوة يسيطر نوعاً ما . وبقي التنظيم الاجتماعي الطبيعي على ما كان عليه في القبيلة : ست قبائل من الماديين ، كما يقول هيرودوتس ، وعشرة قبائل من الفرس منهم أربع قبائل رحل . وقسمت هذه القبائل الى بطون وأسر : ومن هنا تكاثرت عدد الرؤساء الذين يتوارثون السلطة والنبلاء الذين يختلفون فئات وطبقات . ولم يختلف الماديون والفرس في هذا كله عن سائر الايرانيين الا في تكوين نظام ملكي مطلق مبدئياً ولكنه يحسب واقعياً الف حساب للأسر الكبيرة .

واعتمدت بعضها بانها لا تقتل شرفاً عن الاسرة الاخمينية نفسها . لقد اكتسب كوروش سلطة معنوية لا حد لها احرزها من انتصاراته ، ولكن انقرض نسله بموت ابنه . وانتسب داريوس الاول الى اسرة فانية ولم يكن رئيساً لها . وانتخب من بين عظماء كثيرين كانوا قد تضافروا ضد احد المعتصمين . وكان احدهم قد تنازل عن ترشيح نفسه ، شرط ان يعفى ، هو وذريته من بعده ، من الاعتراف باي سيد . واسدى الملك الجديد خدمات جلياً اذ قمع الثورات التي نشبت في سوزه وبابل وبلاد ماداي - فاحرز تسعة عشر نصراً ، وادب تسعة عصاة - ونظم الامبراطورية . وقد أضفت عليه هذه الاعمال هالة من المجد استند اليها خلفاؤه . ولكن حصلت اضطرابات عدة كان مصدرها القصر ، وهو مهد الدسائس والمكائد ، او أحدثها نبلاء كان اخلاصهم سريع التضعف . واستند النظام الملكي الفارسي على اخلاص الفرد للفرد ، وذلك على مدى واسع ، اي على النفوذ المعنوي الذي يتمتع به الرئيس عند صحابته .

وتبرز الروح الايرانية بظواهر اخرى تميز الحضارة الفارسية عن الحضارات الشرقية القديمة . ولا يتم هذا في مجال الدين فقط حيث للاله الاعظم أروموزد طابع مميزة لا جدال فيها ، بل ايضاً - ويصعب تحليل هذه النظرية - في توزيع الامة الى فئات تعتمد كل منها على صناعة ، وذلك حسب مبدأ نظري شبيه بالذي تنفذه اليوم الامة الهندية . واخيراً تبرز تلك الصفة باستعمال نقوش ورموز تعبر عن اساطير غامضة ، يمتد اتساعها الجغرافي دون تعيين حدود ، الى سباسب جنوبي اوروبية واواسط آسية متجاوزاً بذلك حدود ايران . وبين الارواح التي لا يرقى الشك الى دورها الرقائي يحتل الحصان منزلة مرموقة ، إن كان وحده او ضم بصورة غريبة الى حيوانات اخرى كالديك مثلاً . وعندما يجزنا هيرودوتس بأن داريوس انتخب للعرش لأن حصانه قد صهل للشمس الشارقة قبل أحصنة الطامعين الآخرين بالتاج ، فان معرفة ارادة الآلهة بهذا الشكل تتلاقى مع دلائل اخرى لتظهر لنا الامة العملية والروحانية التي كانت للحصان عند شعب بدوي الاصل استمر على تعاطي تربية المواشي .

لا نستطيع والحالة هذه ان نغصم العرى التي تصل المملكة
إرث الشرق الكلاسيكي «
الفارسية بأصولها الايرانية : وان رجعنا الى الزمن القديم نرى

بأن هذه المملكة هي غريبة عن « الشرق الكلاسيكي » . ولم تلتف الأسكندر هذه الحقيقة إذ 'تظهر السياسة التي اتبعها بأنه شعر ، وهو في إيران ، بأنه أقرب الى مقدونية مما لو كان في مصر او بلاد بابل .

لكن تأثرت الحضارة الفارسية بمجار كثيرة اخرى ، جعلت منها حضارة شرقية . وتعتبر هذه الحضارة ، أكثر من كل زميلاتها السابقة ، نقطة التقاء . ونسبة لما اقام الماديون والفرس من علاقات مع سوسه وبلاد الاشوريين فانهم تخطوا الحياة البدوية الصرفة . ثم جعلت الفتوحات من الاخمينيين ورقة اعظم الامبراطوريات القديمة وسادة اقطار تأصلت فيها اشد الحضارات قدماً . ومع ان هذه الحضارات كانت قد أشرفت على المنيب فانها تركت تقاليد وآثاراً باهرة : فكيف التهرب اذن من اشاعها ؟ وبرز تأثير الشرق قوياً جداً ، خاصة نفوذ بلاد الرافدين ، وهي اقرب الى وسط الامبراطورية واشد تنظيماً من مصر البعيدة .

ونشأت عن هذه الحالة ، في المجال السياسي ، صعوبات مباشرة اظهرت حدتها الازمة التي برزت عند اعتلاء داريوس الاول العرش . وغدا من الضروري ايجاد نظام ، وان كان اداريا اقله ، لامبراطورية لا تعرف اي وحدة اذ هي فسيفساء بلاد متعددة الشعوب ، تختلف في الدين واللغة والنظام الاجتماعي والحياة الاقتصادية ، ولم يكن الهدف توحيد هذه الحضارات او صهر تلك الامم . ولم يكن هناك سابقة تدعو الى ذلك ، ولم تلاق مثل هذه الفكرة ، ان وجدت ، اي بدء تنفيذ . انهم اكتفوا فقط بنقل بعض السكان من قطر الى آخر وذلك على سبيل القصاص ، فأسكن بعض اليونان في بلاد سوسه ، وكان الاشوريين والبابليين قد لجأوا مراراً كثيرة الى مثل هذا التدبير . وهكذا أسكنت بعض الجماعات الارانية في وادي النيل وآسية الصغرى الغربية . وقد مثلت هذه الجماعات فرقاً حربية اسندت اليها مهمة الدفاع عن حدود يدها الحخطر او مناطق معرضة للثورات . واكتفى الملوك الاخمينيون ، دون ان يكون لهم هدف واسع المدى والتنظيم ، ان يروا بأن اوامرهم تنفذ ، والجزية تدفع لهم بانتظام ، وتعبئة جيوشهم تتحقق .

وتوصلا الى هذه الغاية لجأوا الى الطرق التي اتبعها اسلافهم ، خصوصاً ملوك بلاد الرافدين . انهم حسنوها دون شك ونفذوها غالباً كما تقتضيه العدالة والروح الانسانية ، ولكنهم لم يستنبطوا شيئاً جديداً في هذا المضمار . ومع هذا فان التطور الذي قد حصل كان خارجاً عن ارادتهم ولم يحددوا المتفعين منه .

النظام الملكي
الملك هو مطلق الصلاحية . ولا يحق لأي فرد او لأي مجلس جماعي ان يقامه سلطاته او يراقب كيف يستغلها . انه يتسلمها من اورموزد الذي يقتخبه . وتبتدىء كل النقوش الملكية ، تحت ستار الدعاء الى الإله ، بإعادة ذكر هذا التعمين : اورموزد هو الاله الاكبر ، الذي خلق السماء في العلي ، واوجد الارض ، الذي ابدع الانسان

واستنبط له الغبطة ، الذي جعل من داريوس ملكاً ، وهوب لداريوس . هذه المملكة العظيمة الغنية بالخييل والسكان . وقد وجد هذا النص منقوشاً على اربعة وعشرين نصباً في مصر . وعلى وجهه التصب الآخر وجدوا النص الهيروغليفي المقابل وهو يعزو انتصارات الملك الى عطف الهة سايس ، والدته . اما في بابل فكان الاله بعل - مردوك ينتخب الملك . وهم يسندون النص الرسمي الى التقاليد المحلية . ولكن لا يتكلم هذا النص الا عن الاله الايراني .

ولا تعتبر السلطة الملكية المطلقة التي تقرها ارادة الاله تجديداً في الشرق . كما لا يعد امرأ غير مألوف الرأي القائل إن على الملك ان يحب الحق ، ويؤمن العدالة ، ويحمي الضعيف وذلك طاعة لرغبات الالهة . وتعد هذه النظرية جزءاً من مفهوم النظام الملكي المصري ، وقد اشار اليها بشدة حورابي في قانونه . ولكن يعبر ملوك الفرس عن هذه العقيدة بصورة أشد وضوحاً واكثر استمراراً : « لقد احببت العدل وأبغضت الكذب » كما يؤكد داريوس « وارادتي هي ان لا يلحق ظلم بالارملة واليتيم » لقد جازيت الكذاب وكافأت الفلاح . وهذا ما يتفق مع المبادئ التي بشرت بها الديانة الفارسية لكل الامم . وان اعتبر بعض الكتاب اليونان الملك الاخميني ، وهو عدو وطنهم ، مثال المستبد الظالم الذي يعد نفسه فوق كل قانون ، فقد اشاد البعض الاخر ، ومراراً الكتاب الاولون ايضاً ، بنمثل هذه التعاليم . وعلى كل لم تكن هذه الاشارة مجرد كلمات جوفاء ، فان كتاب السروبيدي *Cyropédie* لكسينوفون *Xénophon* هو اقدم قصة تاريخية . ولكن اشهر بحق داريوس الاول بانسه مشرع عادل ونشيط .

وهناك مظهر كلاسيكي للنظام الملكي الشرقي المثالي ، وقد اشاد بذكره الملوك الاخمينيون الذين انتسبوا الى أصل ايراني : فالملك هو القدوة لكل محارب ، اذ قد غدا مروضاً على مختلف التمارين الجسدية ا وعندما وصل الاسكندر الى قبر داريوس نقلوا له بهذه الكلمات ما كان قد نقش على ضريحه : « كنت صديقاً لاصدقائي ، واصبحت امهر الحياثة ورماة القوس ، وفقت الصيادين ، وباستطاعتي القيام بكل شيء . » ويعبر هذا الموجز احسن تعبير عن روح النص الاصيلي وان كان اطول .

وفي اول عهد النظام الملكي ، كان باستطاعة النبلاء العظماء ان يقابلوا الملك بسهولة . ولكن بعد داريوس نظمت مبادئ دقيقة جداً جميع اعمال الملك . فهو يعيش في جناح خصوصي بالقصر دون ان يستطيع احد الاقتراب منه . وتجرباً قصة استير *Esther* بأن نساءه كن ينتظرن اوامره ليلتحقن به . ولم يشاهده الحاضرون لحكمه الا في ايام الاحتفالات ، يخضع الجميع امامه عندما يطل على عرش العظمة او عربية الالهة يحميه حرس منتخب تحل لئلا تصاور سوسه اسلحتهم وحليهم . وقد سبب له هذا الانزواء نتائج لا مفر منها : دسائس الحريم والاختيالات ومكاييد الوزراء والحشيان . ويوجد هوة سحيقة بين المملكة القوية التي حكمها كورش الكبير او

داريوس الاول وبين الدولة التي انتقض عليها الاسكندر اذ كان قد هلك ملكا من ملوكها بالم بينا احتاط الثالث لنفسه فسم قاتلها خشية ان يصبح هو الضحية .

الحكم والادارة للملك عدة عواصم، فمنها ما هو في بلاد فارس نفسها: بسرغاد *Pasargades* التي اسسها كورش ولكنها اهلكت بالواقع، وپرسبوليس *Persépolis* التي وضع تصميمها داريوس، اول ملك من الفرع الثاني، لتصبح مقر السلالة الرئيسي والتي لم يكتمل قط بناؤها. وهناك عواصم اخرى كانت قواعد الدول التي اخضعتها المملكة الجديدة: إكبتانا في بلاد ماداي وپابل وسوزه. وقد اهلكت مصر وليديا لبعدهما. وشيد الملك في كل مكان القصور وأقام الحدائق « الجنائن » لشدة ولعه بالحضرة والقنص - وكلمة الجنائن هي الاسم الفارسي للحدائق الكبيرة حيث ترتفع الاشجار وتكثر حيوانات الصيد المتنوعة. وسريعا ما ينتقل الملك من مكان الى آخر دون ان يغير نفسه في هذا المجال ببديل او نظام. ولكن المقر المستحب هو مدينة سوزه، حتى ان اسم هذه المدينة غدا للمعاصرين كأنه رمز لقوة الامبراطورية وهبتها حكما.

ويجري طبعا كل شيء باسم الملك. وتتخذ القوانين الملكية العمومية شكل تصريحات شفوية تصدرها دوائر الدولة. ولكن يقوم الى جانب الملك وزير ينتخبه المعامل ويدعوه اليونان «شيليارك» *Chiliarque* ويشتهق هذا اللقب من كلمة حربية وهو يعني قيادة جزء من الحرس الملكي.

وترتكز المركزية على وسائل مادية قوية. فقد اعدوا بعض الطرق الكبيرة والحقوا بها سلسلة من الخانات والاصطبلات التي تمسب كمحطات تؤمن تنقل السعاة السريع. ومن اشهر هذه الطرق الطريق التي تصل سرديس بسوزه، وعلى كل هي الاشهر لان اليونان استعملوها وغدت موضوع اعجابهم. ولكن لا يكفي تبادل الرسائل؛ لذا ترسل الحكومة المركزية مراقبين يراقبون الادارات المحلية؛ وقد دعي هؤلاء «عيون وآذان الملك» حسب استعارة تبتتها الممالك التي سبقت في الزمان.

وهناك وسيلة اخرى تسهل المركزية: اللغة والكتابة. ولم تكتب الفارسية لغة الملوک، قبل داريوس الاول. ولهذا اهدف تبنيوا العلامات المسارية. واستعملوا اللغة الفارسية في النقوش الرسمية والاستعمارية، كما استعملوا في الوقت ذاته لغات الممالك القديمة كلفتي بلاد أكاد وسوسه. وقد سمحت هذه النصوص المكتوبة باللغات الثلاث للعلاء المعاصرين ان يحلوا رموز هذه اللغات المنقرضة وذلك لما عرفوه من اللغة الفارسية بواسطة كتب الباريسين الدينية الذين يقيمون في الهند. ولكن لم تصبح هذه اللغة سهلة التداول لانها فرضت استعمال الحذف. وكانت المملكة الإشرورية قد بدأت تستعمل اللغة الآرامية؛ وهكذا اعتبرت المملكة الفارسية اللغة الآرامية اللغة الوحيدة للأعمال الادارية. وعمدت دوائر الدولة في سوزه الى نقل النص

الفارسي الى اللغة الآرامية وارسلت نسخاً من مقرراتها الى الدوائر الحكومية المحلية التي كانت تترجمها بدورها الى لغة القطر الوطنية . وهذا ما يفسر لنا التقدم المستمر الذي احرزته اللغة الآرامية في الشرق الأدنى - وهذه نتيجة غير مقصودة لضرورة سياسة - وقد نتج كل هذا عن اسناد المملكة وظائفها - ولم يكن لها تقاليد عريقة او مؤهلات لحلق ادارة مركزية على شكل آخر - الى جماعة من الكتبة اورثتهم اياها الدول المتقرضة او انتخبتم من رعاياها الاكثر تورطاً او اطلاعاً .

وهكذا اكتفى الآخمينيون بتبتي اساليب اسلافهم والسير بها نحو الكمال ، وذلك في اكثر من مجال ، ولكنهم اوجدوا مناهج جديدة في مضمار الادارة القطرية ان لم يكن المحلية ، واحترموا الجماعات البشرية والتقسيمات الجغرافية التقليدية كالأقاليم والممتلكات العقارية الفسيحة العائدة الى الهياكل والاشخاص ، والمدن والمحافظات ، ولكنهم مع هذا قسموا امراطوريتهم الى عدد من المقاطعات يتراوح بين العشرين والثلاثين دعواها المرزبانات . وكان على رأس كل منها نبيل ايراني يمثل دون شك الملك ، ولكنه يمثل ايضاً في الوقت ذاته الشعب الفاتح او بالاحرى تلك الطبقة الاستوقراطية الحربية التي تصلها بالمعامل عرى وقاء شخصي ، اذ تشارك وايد بحماية وادارة الاقطار التي انتصر عليها بجهودهم المشترك . وقد برزت الصفة الأيرانية في اكثر مظاهر هذا التنظيم اذ عاش المرزبان ، ولو على مستوى اقل ، عيشة الملك ، وكان له قصر وحرس وبلاط واصدقاء شخصيون . ولم تخل هذه الحالة من غناظر . واتخذ داريوس الاول للأمر احتياطاته اذ اوجد المفتشين والمراقبين ، وانشأ نظام البريد الملكي ، وأقسام يمينان « المرزبان » امين سر يرأس مباشرة الوزير ، واسند الى قائد خاص قيادة الجيوش الموجودة في المرزبانة . ولكن ضعف بعض الملوك والتنازع على السلطة في القصر اوهنا هذه العرى التي كانت قديماً متينة وقوية . وجند بعض المرابزة مباشرة المرتزقة وطالبوا - وقالوا مبتغاهم . باسناد وطلائعهم الى اولادهم ؛ وقد احدثت هذه التصرفات ، في القرن الرابع ، اضطرابات طويلة الامد في نواحي الامبراطورية الغربية . وبعد ان كانت هذه القلاقل محلية فقط اتسعت فعدت اذ ذلك « ثورة المرابزة الكبرى » التي لم يقض عليها ارتحششتا الثالث الا بصعوبة كلية .

اهداف الادارة
توخت هذه الادارة في الدرجة الاولى اعطاء الملك وسائل اظهار
جبروته .

وسندا الهدف الاول توفير الاموال ، لذا اجبر جميع رعايا الدولة على دفع الجزية ما عدا الفرس والماديين ، وهم الشعوب المظفرة . وكان داريوس قد حدد مقدار هذه الجزية لكل من المرزبانات . ولتوزيع هذه الضرائب على الجماعات التي اجبرت على تأديتها ، اعتمدوا الاساليب القديمة المتبعة وذلك على اساس اعمال مساحة نظمت هنا تنظيمًا دقيقاً وهناك حسب تقدير

تقريباً . وغدا للفرس من ثم فضل التوفيق وليس الاختراع . ولم يجر خلفاء داريوس ، كما يبدو ، تغييرات اساسية في هذه الاجراءات . وقد نجد تفسيراً للتورات المتكررة في بلاد بابل دون اعتناء الافتراض القائل بزيادة تلك الضرائب . فهي كانت منذ الابداس المرزبانة الاشد احتقاراً والمفروض عليها ايهظ جزية إذ اجبرت سنوياً على تأدية ألف مثقال فضة وخمسة خصي . وكان قسم من الجزية يدفع خيرات طبيعية والقسم الآخر سبائك من المعدن الثمين . واستعمل جزء من هذه الضرائب في كل مرزبانة لإعالة الجنود والموظفين المقيمين فيها . وهكذا قدمت كيليكية ٣٦٠ حصاناً ايضاً و ٥٠٠ مثقال فضة يصل منها فقط الى الحكومة المركزية ٣٦٠ مثقالاً . ويلجأ هيرودوتس ، واليه يعود فضل وقوفنا على حسابات عهد داريوس التوصيلية ، الى ضرب ربح مثاقيل عيار الذهب التي كانت تدفعها المرزبانة الهندية وهي ، حسب قوله ، اغنى المرزبانات واكثرها سكاناً ، وذلك للحصول على كمية الفضة المعادلة لذلك اليسار الذهبي . وهكذا يؤكد بأن تلك المرزبانة كانت تدفع ما يقابل ١٤٥٦٠ مثقال فضة - اي ما يعادل ٨٧٤٣٦٠،٤٠٠ فرنكاً فرنسياً في سنة ١٩١٤ . واعتبر اليونان دوماً بأن لملك الفرس ثروة ضخمة خضع لجاذبيتها اكثر من شخص .

وعلاوة على الابعاء المالية كانت هناك اعباء حربية . وتآلفت القوى التي اخذ الاخميني على نفسه تعبتاً ان دعت الضرورة من فرق تقدمها كل مرزبانة ويدعو قائدها بجادة المرزبان نفسه . وهكذا استطاع العاهل جمع اسطول وجيش كثيري العدد . ولكن لم تسر هذا الجيش وذلك الاسطول اي روح وطنية وقد كانا مجموعة عناصر مختلفة من حيث السلاح وخطط القتال واللغة . وقد استغل اليونان ، اعداء الفرس ، هذا الواقع الى ابعد مدى فذكروا لجيوش الفرس رقماً هيوياً وتحدثوا عن عبيد سيقوا الى المعركة تحت تهديد السوط . لقد وجدت دوماً في خضم هذه الجماهير عناصر حسنة ، خاصة الايرانيين ، خيالة كانوا او رماة ، والمشاة البالغ عددهم عشرة آلاف وهم فخر الحرس الملكي ، ويدعونهم « الخالدون » . ولكن اهاب تفوق الجندي اليوناني التقني بالملوك والمرازبة الفرس لتجنيد المرتزقة اليونان وذلك بصورة تصاعديّة ابتداء من اواخر القرن الخامس ؟ وقد اثبتت حوادث عدة هذا التفوق ومن اشهرها مغامرة « العشرة آلاف » من بلاد بابل حتى البحر الاسود . وايام غزوة الاسكندر كان المرتزقة اليونان يؤلفون قسماً هاماً من الجيش الفارسي ، اقله من الفرق التي لم يعوزها كبير وقت الانتقال من مكان الى آخر ، كما كون ايضاً اليونان او بحارة شواطئ آسية الصغرى الذين ينتمون الى عنصر يوناني ، بالاشتراك مع البحارة الفينيقين ، رجال اسطول حسبوا له حساباً ،

هل حددت الدولة الفارسية لنفسها اهدافاً اخرى ؟ انها على كل لم تقدر بله ارادتها ووعيتها منهاجاً اقتصادياً . فقد تركت للأقطار التي اخضعتها حرية الاستمرار على تنفيذ النظم التي ارادتها لنفسها . ولكن حصل مرموق في حقل التشريع ، وخاصة في بلاد بابل ، ومع ذلك لم تسع الدولة لتوحيد القوانين . وقد سهلت الوحدة السياسية التعامل التجاري اذ قللت

الجواجز والصعوبات ووجدت جو أمن وسلام لتنقل التجار؛ ولكن لم يستمد القوم من الامكانيات التي برزت امام الاتصالات البحرية . ومع هذا استطاع احد الاسويين الغربيين الذي كان في خدمة داربوس وهو الكاري سكيلاكس من كلرندا ، ان يجاري نهر الهندوس ثم يجاذي سواحل ايران الجنوبية ليدور بعد ذلك حول الجزيرة العربية وينتهي عند السويس . ولكن بقي هذا « الطواف » وحيد جنبه ولم يستفد تجارياً منه احد ، وكان قد نظم لغايات سياسية ، وبصورة ثانوية علمية . وسيظهر نبارك ، امير البحر عند الاسكندر ، جزأة فائقة عندما يتم جزءاً من الرحلة التي قام بها سكيلاكس . والطريق الوحيدة للشرق الاقصى كانت الطريق البرية : فبعد اجتياز ايران كانت هذه الطريق تتفرع نحو افغانستان والهند من جهة ، ونحو تركستان والصين من جهة اخرى . وقد عرفوا هذه الطريق واستعملوها ولكن نجعل مدى استغلالها .

وكانت تنقص الامبراطورية الفارسية لتحقيق امكانياتها الاقتصادية سياسة مالية منظمة ومطردة . ولم يتبع الاخينيون الا قليلاً المثل الذي قدمه لهم الملوك البيديون . فهم منذ عهد داربوس الاول ، ضربوا السكة الذهبية « الداراجة » وذلك بكمية قليلة جداً ، ولكنهم لم يعدوا الى ضرب النقود الفضية الا في زمن متأخر ، كما سمحوا للرازمة ان يسكوا مثلها باسمهم . وقد قام هؤلاء واولئك بهذا العمل لضرورة معاملتهم مع اليونان ، وهم المرتزة والتجار ورجال الفن . ولكن يؤكد انتشار قطع النقود اليونانية في الامبراطورية الفارسية التي بعدت بعض اقطارها بعداً شاسعاً عن البحر الابيض المتوسط بأن النقود الفارسية لم تدفع بالمطوب الضروي . وفضل ملوك الفرس تكليس الثروات محتفظين بالمدن الثمين الذي دفع لهم كجزية بشكل سبائك صبت على هيئة اوان . وهكذا بقيت وقتاً طويلاً هذه الثروات دون فائدة . وعندما استولى الاسكندر على العواصم الفارسية وضع يده على كنوز لم ير لها مثل في ذلك العصر ! مئة وعشرون الف مثقال في برسبوليس وحدها ... وهذه القيمة تعادل اكثر من مليار فرنك في سنة ١٩١٤ م . وسارع هو وخلفاؤه لسك نقود من هذه الكميات ؛ محدثين والحالة هذه ثورة اقتصادية حقيقية في بعض الاقطار حيث بقي التبادل التجاري يحتفظ بأشكال متأخرة وقديمة العهد .

واستطاع بعض الملوك ان يراقبوا مراقبة دقيقة حكام المقاطعات المحليين ، فاهتمت الدولة اذ ذاك برفاهية رعاياها وحمايتهم من مظالم السلطات . ولا نجد في هذا المجال اوضح من رسالة ارسلها داربوس الاول - ولا نجد دوماً الا هذا الملك ! - الى موظف نجعل رتبته كان يشغل وظيفة ما على الساحل الايجي . وقد افادتنا عن هذه الرسالة كتابة يونانية غير كاملة ، لسوء الحظ ، ورد فيها : « عرفت بأنك لا تخضع لأوامري مجذافيرها . وبما انك تستثمر املاكي اذ تزرع فيها اشجاراً مثمرة بعد ان تنقلها من سورية نحو شاطيء آسية فاني امتدح افعالك وستلقى مكافأتك من القصر الملكي . ولكن حيث انك تستهزىء بتعليقاتي التي اصدرها تجاه الآلهة فاني

بأريك ، ان لم تغير ساوكك ، مدى غضبي . فقد فرضت دون حق ضريبة على مزارعي ابوتوت المقدسين وامرتهم بان يفلحوا ارضاً لا تخص الإله ، مستهتراً والحالة هذه يعرفان الجليل الذي ابداه اجدادي نحو الآله ، الذي علّم الفرس حقيقة شريفة و ... » وهكذا توخت الادارة كاهداف لها ، وقد احسنت مراقبتها ، تقدم الزراعة والعدالة والتساهل نحو الآلهة الغربية ، شرط ان تعلم الحقيقة ، وهذه كلها موجبات معنوية اخذتها الديانة الفارسية بعين الاعتبار .

الديانة عرف الشرق قبل هذا التاريخ فاتحين لم يتصفوا كلهم بالتسامح . وقد اعتبر الاشوريون حروباً عدة جرت بين الامم معارك تشب بين الآلهة . وعندما سبى نبوخذنصر البابلي اليهود الى عاصمته قسا بشراسة ضد الهيكل اليهودي . ولا يفهم سلوك الاخمينيين على حقيقته الا اذا قورن بمثل هذا النهج الذي سار عليه سلفاؤهم مباشرة . وحالما وصل كورش الى بابل قدم « خضوعه لبعل - مردوك » كما اطلق في الوقت نفسه سراخ العبرانيين وساعدهم في تعيير مناطقهم . ولم يقدم خلفاؤه على اي اضطهاد ، ولم يفرضوا آلهتهم بالقوة ، لا بل أدوا لسائر معتقدات امبراطوريتهم الاحترام التقليدي الذي كان يؤديه الملوك الوطنيون: وهكذا قدمت في اورشليم كل يوم ذبيحة على اسم ونفقة الملك ، ولم يلحق اي اذى برجال الكهنوت في مصر وبلاد بابل الا بقدر ما اتهموا به من تحريض على الثورة . وان لم يعرف العالم القديم ، منذ هذا التاريخ ، الا بصورة استثنائية التعصب الديني ، فان ذلك يعود الى المثل الذي ضربه الملوك الفرس .

ولم يكن سلوك هؤلاء الملوك في هذا المجال تعبيراً عن عدم مبالاة او بصورة اولية عن كياسة سياسية ، بل اقتبالاً لديانة اعتبرت على غير مستوى .

ويصعب علينا تحليل خيوط الكعبة التي تؤلف الديانة الفارسية القديمة . وان لم تقتبس هذه الديانة امورا أساسية من الديانات الشرقية فانها تحتوي مع هذا على عناصر مختلفة لا نجد لتفسير الكثير منها معلومات مستقلة . وجمعت هذه المبادئ في كتاب زند افسته المقدس . وقد نعتز على بعض العناصر الهندو - اوروية التي نجدها في كتاب ريفندا الهندي ، وهذه العناصر هي قليلة . ولكن هناك ايضا مبادئ آرية بجمة ، اي خاصة بالايانيين الغربيين ، والتي لم تعم بواسطتهم القبائل الايرية الاخرى الا في زمن متأخر . وقد اتى احد المصلحين ، زرادشت ، بتعاليم في غاية النقاوة ، ولكن شوها جمهور المؤمنين بها . وتطرح هذه الوقائع اسئلة لا عد لها ، دون ان يبدو لها حلا لتاريخه . وتختص اهم هذه الصعوبات بزرادشت نفسه . فقد لاقت تعاليمه دون شك ، وهو بعد على قيد الحياة ، نجاحها الاكبر في ايران الشرقية . ولكن اين بالتدقيق ؟ وخاصة في اي زمن ؟ ان اللبدي كسانتوس هو اول الكتاب المعروفين في التاريخ الذي يأتي على ذكره ويرجعه الى القرن الخامس . ويرجع به المؤرخون العصريون الى عهد اكثر قديماً ، ويذكرون عادة القرن السابع او القرن السادس . وعلى كل يعجب المرء

كيف تجاملت ديانة الاخميين الرسمية زرادشت وثمانليه .

إن جوهر عقيدة المصلح هو التوحيد بانقى مظاهره . فهي لا تقز الا بالله واحد هو اورموزد ، لا قياس لعظمته وقدرته وروحانيته . وتوجد معه وحدات مجردة هي اشكال منه او مبادئه صادرة عنه . ولكن في منزلة اقل من منزله يتناحر منذ خلق العالم روحان ، احدهما للخير والآخر للشر ، ولا يعرف نزاعها مهادفة وهو يشمل كل شيء . وعلى الشخص ان يحارب عناصر الشر في ذاته وخارجاً عنه ، وعلى هذا الاساس سينال السعادة بعد الدينونة الاخيرة . وتنجصر العبادة في هذا الجهد اليومي المتواصل متحررة من كل تقادم او ذبائح مادية ! « ان رجل التقوى هو قديس : وهو يزيد العدالة بالعدل والكلام والعمل والضمير » . وهكذا يشعر المرء الى اي قمة اوصل هذا المصلح ، الذي يشتمله الغموض ، فكرته .

وتغير عن هذه المبادئ ديانة الاخميين الرسمية التي تظهر لنا من خلال النصوص الملكية . فهي تعتبر اورموزد « اكبر الآلهة » ، ويتحدث داريوس الاول عن « الآلهة الاخرى الموجودة » . انه تعبير غامض وهو يشمل دون شك آلهة غريبة - وهذا ما يفسر لنا التسامح نحوها - وآلهة ايرانية اخرى . ويجب انتظار حفيد داريوس ، حوالي منتصف القرن الخامس ، لنعرف بالتدقيق « سمي الهتين من هذه الآلهة الايرانية وهما ميترا وأناهيتا . وعلى كل يبقى اورموزد الاله الاعظم ، الاله الملكي الدرجة الاولى ويمثلونه برسم قرص شمس مجنح يخرج منه نصف الشخص الاعلى يحمل لحية ويكفل التاج هامه . ويشتمق هذا الرسم من الرموز الاشورية الدينية . وبما انه خالقت العالم ، بما فيه الارض والسماء ، فهو اكثر من الشمس : انه النور السماوي « السيد الحكمة » منظم السعادة والعدالة ، الذي يأمر بحب الحقيقة وبغض الكذب . ومع وجود هذه الغزوة نحو المبادئ الروحانية الطاهرة فقد قدم الملوك الذبائح ، اقله باشعالهم شخصياً النار التي لا تنطفئ على المذابح .

وقد ابقت الديانة الشعبية ، التي استمرت على شيء كثير من الحيوية ، المركز الاعلى لاورموزد ، ولكنها تلتصق به جبهة من الآلهة التي تمثل قوى الطبيعة والعناصر . واكثر من هذا ، فهي تتخيل ، مقابل عالم الاله الاكبر ، عالم النور واليسر والحصب ، عالماً للدياجير والاشراك والشياطين ، ويسير هذا العالم اهريمان . انها تؤمن بضرورة جهود الانسان الروحية وبدينونة النفس التي قد تقضي الى فردوس افراح مادية جداً . ومع هذا فهي تعتمد كثيراً على طقوس العبادة التي يقوم بها ، او اقله ينظمها ، رجال الكهنوت اعني المجوس ، وتقر ايضاً عبادة النار والاناشيد والتقدم والذبائح الدموية التي ندد بها زرادشت بكل شدة . واستناداً الى هذه المعتقدات فهم لا يحرقون الجثث ولا يدفنونها كيلا يدنسوا النار او التراب ولكنهم يلقونها في اماكن صحراوية . ولا نستطيع لسوء الحظ تحديد الوقت الذي فرضت فيه هذه الفكرة نفسها بتلك القوة .

ان الديانة الفارسية زادت على مجرى التفكير القديم افكاراً جديدة منها الحياة الفكرية
الدينونة الاخيرة ومبدأ المثوية ، هذا مع العلم بانها شددت اكثر من الديانات

الإخرى على المبادئ الأدبية . أما في باقي مجالات الحياة الفكرية فلم يأتِ الفرس بأي جديد . ولا تملك في هذا المهار لإبداء الحكم إلا كتاب زنداستا ، وهو كتاب ديني تناقله القوم أجزاءه القديمة بالسماح ، لأنهم لم يلبثوا إلى الكتابة إلا في أواخر القرن السادس .

ولا يحتوي هذا الكتاب على أمور علمية . لقد كان لدى الفرس أطباء دون شك . وداوى بعضهم بالنباتات ، أما الآخرون فلجأوا إلى التماييز الطقسية . ولكن جلب الملوك إلى بلاطهم أطباء يونان أو مصريين . ولم تظهر إيران كمهد للعلوم أو لشبه العلوم التي كلف بها الغرب واطلق عليها اسم زرادشت إلا في زمن متأخر ، أي بعد العصر المسيحي : ومنذ هذا الزمن اتخذت كلمة « مجوسية » معناها الحالي ، وقد اشتقت من اسم الكهنة الإيرانيين .

ولا يبدو بان حياة الامبراطورية الفكرية الحقيقية كانت فارسية ، لا بل لم يتم كثيراً الفرس لهذه الحياة . وقد اصطلح التقويم البابلي مرة أخرى سنة ٣٦٧ ق.م. لإحداثوا السنين والفصول حيث كان يجب حشر الشهور التي قرروا زيادتها ، وذلك ضمن اطار الوحدة التي تشمل تسعة عشر عاماً . ولكن فضل الفرس الوحيد في هذا المضمار هو السماح للسماء الفلك من الكهنة متابعة اجرائهم . واطهر بعض الإيرانيين ميلاً للفلسفة والعلوم ، حتى اليونانية منها . وقد تحدثوا عن وجود شلة منهم بالقرب من أفلاطون في أواخر أيامه . ولكن بقيت مثل هذه العناية أمراً استثنائياً ، ولا يظهر بان أحداً من الملوك رغب فيها .

ان الحالة في مجال الفن على غير ما ذكر اعلاه ، وان كان مؤكداً بأنه لم يحتل إلا الفن منزلة محدودة في الحضارة الفارسية . اننا لا نجد تماثيل للألهة ، او هياكل ، إذ اكتفت الآلهة بالمذابح ، لا بل زهدت بهذه الأخيرة مراراً . ولا نجد أيضاً قبوراً ، للأفراد أقله . وحسب علمنا لم يشيد الشخص لنفسه بيتاً كبيراً ، ولم يأت باي ابتكار في هذا المجال من حيث الهندسة او الزينة . ومع هذا يوجد فن فارسي ، إذ وجد ملوك فرس لم يستطيعوا التخيلي عن التقاليد التي تربطهم بالملوك الشرقيين . ولأنهم فاقوم قوة وغنى ، وقد أعلنوا أنفسهم « الملوك الكبار ، ملوك الملوك » ، ارادوا أقله مساواتهم بما خلدوا من آثار . لا بل فرض عليهم مثل هذا السلوك مقامهم في عين رعاياهم الإيرانيين الذين اعتقدوا بان الذي ينتخبه اورموزد هو من جوهر سام جداً .

وهكذا تعرض الفن الملكي ، في مراحل التصميم والتنفيذ ، إلى تجريد الملك والسلالة والسلطة الملكية . ولكن لم تبرز هذه الأهداف منذ البدء : ولم يكن كورش بحاجة إلى شيء من هذا وكانت عاصمته يومتذ بسرغاد مدينة متواضعة . وغدت المبادرة في هذا المجال لداريوس الأول الذي نظم الامبراطورية ، فتبنى الأنواع الثلاثة من المباني التي لم تفصل قط في دول أخرى عن فكرة السلطة الملكية وهي : النقوش بشكل ضخيم وبارز التي تذكر باعمال الملك الباهرة ، ثم القصر وهو الاطار المهيب للحفلات والبلاط ، واخيراً القبر الذي يحمي شخص الملك من

الامانات بعد موته . ولكن كان هذا الهدف الاخير رمزياً إذ لم يسع الفرس ، أو سوا قليلاً جداً ، للاحتفاظ بالجنّة الطبيعية . وفلا كان مبنى ، على شيء كثير من البساطة ، قد جرى ما تبقى من كورش . ولكن أيام داريوس وجد تقليد في غاية السمو يؤكد بان الملك لا يخضع للناموس الطبيعي .

وغدا الفن الفارسي ، وهو فن ملكي ، متعدد الناجز والأصول ، إذ لم يكن لايران تعاليد عريقة ، بينما عرف الشرق الذي خضع للفرس بفنائه في هذا المجال وبفنى اختباره . وقد قدمت المناطق المواد الاولى والعملة



الشكل ١٧ - منطقة برسيوليس

ورجال الفن . ولنصنع الى داريوس الاول في سوزه : « لقد أتيت من بعيد بالمواد التي بنيت بها هذا القصر في سوزه . والشعب البابلي هو الذي حفر الارض وكوّم الحصى ، وجلب الارز من لبنان . وقد أتى به البابليون حتى بابل ، واصله من بابل « الايونيون والكاريون » - وهم مسبيوت - الى سوزه . وأتوا بخشب الصندل من الهند ، والذهب من سرديس وبكتريه ، واللآزورد والزنجر من سوغديانه ، والفيروز من بلاد خوارزم ، والفضة

والرصاص من مصر ، والمواد التي ترين الجدران من ايونية ، والعاج من اثيوبية والهند ، والعمود الحجرية من كلويه . وكان نحاس الحجارة ايونيين وليديين ، والصاغة ليديين ومصريين وعمال الخنزف بابليين ، ومزينو الجدران ماديين ومصريين . لقد انجز عمل باهر في سوزه . ليحمي الإله اورموزد... وقد أتى هؤلاء الرجال ، وهم مختلفو الاجناس ، بالحلول التي ارتأوها وعملوا حسب فنونهم . وانا نجعل الشخص الذي نسقت هذه الاعمال . ولكن على كل برز القصر وكأنه مختصر للامبراطورية واتخذ من ثم هذا الفن قيمة رمزية .

ولم يستعمل احد غير داريوس النقوش الهائلة التي توخت التذكير . انها نقوش «هستون» الصخرية وقد حفرت على علو مئة متر وعلى صخرة تشرف على احدى ممرات جبال زغروس ، وهي الطريق التاريخي الكبير بين بلاد آشور وبلاد ماداي . وتغنى هذه النقوش بالانتصار الذي احرزه داريوس على الثائرين الذين هددوا أمن وسلامة الامبراطورية غداة تسلمه العرش . وفي اعلى النقوش رسم يرتفع فوقه رمز أورموزد: قائدان والملك وعشرة من الاعداء وقد ألقى

أصنام أولها وقبده التسعة الآخرون ووضع الجبل في عنقهم ، وفي الأسفل نقرأ كتابة بلغات ثلاث تسرد الحوادث . ولم يستطع احد ان يقرأها وهو على الطريق ، وغدا الجهد المبذول لغرامها اشادة عظمى بعظمة الملك وجبروته .

والقبور الملكية في برسبوليس ونكش - اي - روستم *Naksh - i - Roustem* هي صخرية ايضاً ، وقد أخذوا فكرتها الاولى عن القبور المصرية . ولكن لم يتسع داخلها إلا الى رواق وغرفة دون نقوش اورسوم ، وقديمتي من ثم في غاية البساطة . وصبووا جل اعتناهم على الخارج . وقسمت الصخرة ، وقد برزت على شكل صليب يوناني كبير ، قسمين عليها النقوش . ويمثل القسم الذي في الوسط ، وهو الاكثر عرضاً ، مجموعة من العواميد تحمل افرزاً : أي واجهة قصر ينشق في وسطها باب القبر . ويمثل القسم الاعلى الملك امام مذبح النار الذي يعاوه اورموزد ، وترى الملك على دكة يحملها رجال يرمزون الى المرزبات .

والقصور هي اشد تأثيراً ايضاً . وقد أراد كل ملك ان يشيد له قصرأ خاصاً في العواصم الوطنية ، او أقبله زيادة شيء جديد على مباني أسلافه . وهذا ما يفسر لنا كثرة القصور وتشابك اجزاها . وهذا ما يشرح لنا ايضاً السرعة التي جعلتهم يستعملون الحجر للجدرات طبقاً للتقاليد الاشورية ، والاحتفاظ بالحجارة لاطار الأبواب ، مع اننا في مناطق كبلاد فارس حيث لا تنقص المواد الصلبة للبناء . وهذا ما يملل لنا اخيراً عدم اتمامهم الاعمال مراراً ! ففي برسبوليس بالذات نرى اجزاء الأساطين انتشوا من اعدادها ولكنهم لم يركزوها في مواضعها .

وتعرفنا خاصة اعمال التنقيب الحديثة بقصر سوزه الكبير وبمجموعة المدينة الملكية المهمة في برسبوليس . وبعد ان شيد داريوس هذه المدينة الاخيرة لتصبح عاصمة السلالة بدأوا رويداً رويداً يتخلون عنها لمصلحة سوزه ، ولم يظهر فيها الملك إلا نادراً جداً وذلك في مواسم الاحتفالات الرسمية . ولكن بقيت برسبوليس مع هذا رمزاً للمملكة الاخمينية اكثر من المدن الاخرى ، وعلى هذا الاعتبار احرقها سحب الاسكندر عندما مروا فيها وذلك ثأراً لما سببه الفرس من خراب في بلاد اليونان اثناء الحروب المادية . وتستند هذه المدينة الى الجبل وتشرف على سهل واسع . وهي تمتد على فسحة مسطحة نصف اصطناعية يبلغ طولها ٥٣٠ م وعرضها ٣٣٠ م إذ قد قرّض الصخر وسويت حافاته حيث أقيم جدار من الحجر النحيت . ولم يخشوا الفيضانات ، ولكنهم حذوا حذو تقاليد بلاد الرافدين فشيّدوا القصور الملكية في مكان يشرف على المدينة التي يقطنها عموم السكان .

وغدت قاعة الاستقبال ، والأبادة ، حيث يجلس الملك على عرشه تحيط به هالة من الوقار والعظمة ام اجزاء قصر سوزه وبرسبوليس . وتحمل سقف هذه القاعة المصنوعة من خشب الارز اعمدة تعد قليلة العدد نسبة الى مقاييس القاعة - ٣٦ عموداً فقط في مربع يبلغ ضلعه

٤٣٥٠ م -ورفيمة جداً نسبة لعلوها- قطر القصر ١٤٦٠ م لعلو ٢٠ م تقريباً - ونسقا هذه « الغرفة ذات المثة عمود » على غرار قاعات الهياكل المصرية ، ولكن خفة وزن السقف سمحت بالإبقاء على شكل العمد الرشيقة . ويوجد تجديد آخر سببه تاج العمود الذي يمثل ، فوق نقوش حازونية الشكل ، رؤوس ثيران جاثية .

وزاد فن التزيين في عظمة هذه الهندسة ، وقد اعتمد كثيراً على اللون ، لا بل على الحجارة الكريمة أو الذهب . ففي سوزه رسوماً صفوفاً طويلة من الجنود والاسود او الحيوانات الخيالية على قطع من الآجر الناتيء ، والمطلي بالميئا وفقاً للطريقة البابلية ، والذي يظهر في اجزاء السلام والمعرات السفلى . أما في برسبولس فقد اعادت الرسوم المسطحة التي صورت على الحجر باظهار الجنود او المسكّفين الذين يحمّلون الى السيد ، وهم في زيهم الوطني ، ضرائب اوطانهم . وهناك ايضاً رسوم ونقوش نافرة - وهذا ما يحدث نادراً جداً - تستلهم الرسوم الأشورية : الثور المجنح وله رأس بشري ، صراع الاسد والثور ، قتل وحش هائل بيد الملك . ولا نرى اي رسم او ظل رسم لامرأة ، بل نجد دوماً رسوم الملك ورعاياه وجنوده ووثوته وعظمته دون عطفه .

ولذا يبقى كل شيء في هذا المضمار على وتيرة واحدة ، وإن هم سعوا لبعث الحياة فيه . ومع هذا يجدر بنا ذكر تأثير الفن اليوناني على ما سبق لنا وذكرنا من تأثيرات عدة ، وان بدا هذا التأثير محدوداً جداً نسبة لغیره او لم يبرز بصورة عملية الا في تموجات بعض الثياب والستائر ، ولكنه يوجد على كل حال وقد ضم الملك الى امپراطوريته جزءاً من العالم اليوناني وأتاه رجال فن من الاجزاء التي بقيت حرة ؛ غير ان احداً منهم لم يكن من الدرجة الأولى الممتازة ، أو ان احداً منهم لم يستطع ان يعبر كما يرغب عن المواضيع الرسمية : ولا يلاحظ وجودهم هنا وهناك الا في تجميد أو طبة قطعة القماش الذي يغطي الجسم .

تمايشت معاً الحضارة الايرانية والحضارة اليونانية الكلاسيكية ، ولم
الميزة الايرانية والمهلبية
تحل المنازعات التي نشبت بين الشعبين دون احتكاك هاتين الحضارتين .

ولكن حذار ان نبالغ في مدى الاقتباسات التي أخذت عن الحضارة الهلينية . لقد سمح الملوك لليونان بالتجول في الشرق والوقوف على حالته . وما قام به هيروودوتس هو اكبر شاهد على هذا التسامح . ولكن تابع الفن اليوناني تطوره وكان قد تجاوز عهد تلمس طريقه . وعرف اليونان الهند بواسطة فارس ، ولكن بقيت معرفتهم لها سطحية جداً ؛ وان وجد عملياً التأثير الهندي فلم يتجاوز حدود بعض المبادئ الطبية وبعض الادوية . ان أفلاطون عرف « فكرة الثنائية » الزرادشمية ، وقد استهوته . ولكن انتهى كل شيء عند هذا الحد ، وعلينا ان ننتظر عدة قرون لنلاحظ انتشار عبادة ميترا وعلوم السخر السرية المنسوبة الى « الجوس » الذين لا يثنون مع هذا ، الحضارة الايرانية في القرنين الخامس والرابع .

وبصورة معاكسة فلم يستهو الحضارة الهلينية ، وبصورة سطحية فقط ، إلا بعض أفراد الطبقات الحاكمة الذين رأوا فيها أساليب عيش رخاء ورفاهية لم يعرفوها قبلاً ولم يريدوا ان يحرّموا أنفسهم منها . وفي زمن الحرب التي انتهت باندحاره سلامين ، كان أحشوروش الملك قد وضع يده على بعض الآثار الفنية وأتى بها الى سوزه . ودخلت نساء يونانيات الى حرم الملك أو تزوجن مرازية يحكون المقاطعات الغربية . وخدم بعض الأطباء اليونان في بلاط ملك فارس من امثال ديموسيدس الكروتوني *Democédès de Crotone* في القرن السادس وأبولونيد من جزيرة كوس *Apollonide de Cos* في القرن الخامس ، ثم كتيسياس *Clésias* ؛ ولكن يقال بان ابقرات *Hippocrate* رفض عروض أحشوروش المغربية . وتجنّدمرترقة يونان كثيرون في صفوف الجيش الفارسي في القرن الرابع ، وقد لعب بعض من قوادهم دوراً مهماً ، دون ان يكسبوا مع هذا ثقة الملك الكاملة . ولم تجد التجارة الأثينية أي قيود . وبإستطاعتنا ان نضيف الى هذه الحقائق حلقات عدة ولكن دون ان نغير شيئاً من النتيجة . وان غدا تقدم الحضارة الهلينية مؤكداً في آسية الصغرى الغربية ، حيث كانت قد استالت اليها السكان الوطنيين ، فان الإيرانيين مع هذا لم يستجيبوا كثيراً لهذه الحضارة ..

وفي زمن حروب الاسكندر تواجه الشعبان . وكان كل منهما يمثل عالماً مستقلاً وحضارة مختلفة . ولم تستطع جدارة البطل كما لم يتوصل نبله ان يشيدا جسراً دائماً بينها .

القسم الثاني

حضارات الانسان في الشرق الأدنى

المقدمات

بالرغم من اللقائم التي لا يختر ببالنا قط اسدال الستار عليها - ومن الجلي ان كل تصنيف يخطىء ، حين يبسط ، ويضحي بالكثير من التفاصيل - فان هنالك ، في المهود نفسها ، ابتداء من الالف الثالث قبل المسيح ، حضارات تميز عن الحضارات الامبراطورية التي جرى استعراضها في الفصول السابقة .

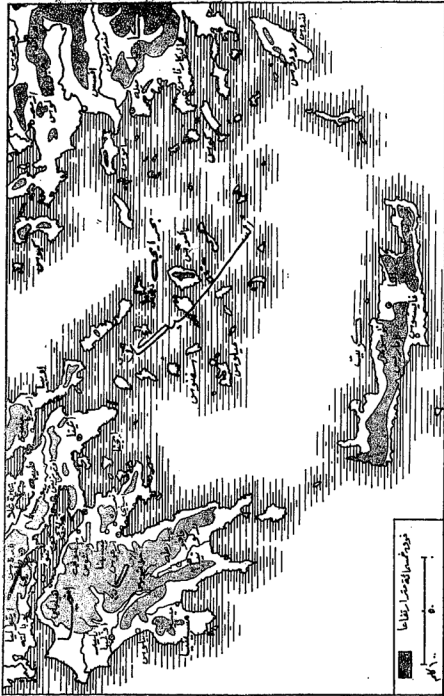
ارتبطت الحضارات الامبراطورية كلها بدول اتسعت وقمتها وارتفع عدد سكانها وفرض وجودها ، واجبات نافذة في كل من التنظيم الاداري والتنظيم السياسي ، وتوجب عليها تأمين سبل العيش لمجاهير غفيرة وتوجيه وتنسيق نشاط اعضائها الاقتصادي سعياً وراء هذا الهدف ، كما حدث في مصر مثلاً . ومهما يكن من الامر ، فان هذه الدول ، العظيمة بمساحاتها الشاسعة وبارتفاع عدد سكانها ، والمعرضة ، من حيث هي دول برية ، لاطماع وتهديدات جيرانها الذين تغلقهم تارة ويقلقونها اخرى ، والمجرورة جراً الى حروب لا تستطيع ان تحجم عن خوضها ان هي لم ترض بالزوال ، قد واجهت مشاغل عسكرية خطيرة لم تسعج جن كالوسها الا مصر وحدها لمدة طويلة . وهكذا تضافرت فيها اسباب مختلفة ادت الى اعلاء شأن وسلطة ملك يسمو فوق المستوى البشري قد يؤله احياناً ، والى انصهار الفرد في جمهور الرعايا . ان هذه الحضارات لم تستهدف الانسان بل الدولة المتمثلة بشخص الملك .

اذما ما اخذنا بعين الاعتبار القوة التي بلغتها هذه الامبراطوريات والنفوذ الذي تمتعت به بفضل هذه القوة ، يصبح من الطبيعي الا نرى حضارات معاصرة تمتد مثل اعلى آخر ، او تتكرر به مجرد تفكير فقط . وبالْحَقِيقَةُ ، ان النزعة الانسانية ، التي حررت الفرد فنانطت بالدولة مهمة مساعدته في تفتح كيانه المادي والروحي ، لم تبرز ، بشيء من اللاوعي ، الا بعد زمن ، ولم تحظ بالفوز الا بعد زمن اطول ، عاجزة في التاريخ القديم عن ارساء فوزها على اساس وطيد ودائم . ولكن المهم في ذلك ليس عدم الاكتمال وعدم الاستقرار ، بل تلمس جرثومة على الاقل ، هنا وهناك ، مصيرها الاجهاض حيناً والنمو حيناً ، وسماع صدى آخر مختلف ، حتى ولو تضخم في غير مكان ، او انطلق ببعض السرعة . ولكن استيلاء هذه المقدمة ليس بالامر اليسير . فقد تختلف

جوهرأ وتكون سياسية او اقتصادية هنا ، او اخلاقية او عقلية او فنية هناك . وقد يحدث احيانا كثيرة الا يكون هنالك شيء ملموس ، فنجد انفسنا امام دلائل لا امام حقائق ، او امام وريث بعيد يشوّه الارث الذي انتقل اليه . ولكن لا نهتمن للامر ، بل فلنمسك بالفارق الذي تضفي عليه دقته قيمة كبرى .

ويودنا ان نجد خطوطا اخرى مشتركة بين هذه الحضارات التي صنفناها على حدة ، ولكننا لا نكتشف الا خطأ واحداً ، جديراً بالتالي ببعض الاعتبار ، وهو ان جميع هذه الحضارات قد نمت في كنف شعوب تؤلف جماعات اقل عدداً من تلك التي الفتها الشعوب الامبراطورية ، وتقيم في رقعة اصغر مساحة ، ويعيش بعضها في مناطق مختلفة لا تخضع لوحدة سياسية . وهي لم تواجه ، بصورة عامة ، معاضل تنظم ملحة ، وقد عاجلت ما واجهته منها مجاول غير عسيرة . وقد اضطرت الدولة بحكم الضرورة ، فيغالب الاحيان ، الى التراجع عن المطامع الكبيرة ، فوقفت من هذه المعاضل موقفاً حكيماً ، حاصرة مطالبها ومطلقة للانسان حريته في العمل . اجل ، قد فرض عليها التهديد الخارجي ، احياناً ، تعبئة جميع قواها الشعبية ، متجاوزة في ذلك محاولات اعظم الملكيات شأناً ، ولكنها سلكت حينذاك اوفق السبل امامها ، اعني التوجه المباشر الى الفرد وارقتاب الحصول ، ولو جزئياً ، من قبوله الاختياري ، على ما يعجز اي قسر عن تحصيله . وهكذا تخرج الدولة والانسان ، من هذه الازمات نفسها ، اوثق ارتباطاً وتضامناً .

يصح تطبيق هذه المحاولة التحليلية على اليونان بنوع خاص . ولا يزال من المستحسن تطبيقها ، كما وردت ، على حضارات الدول الصغيرة التي سنستعرضها استعراضاً سريعاً في الصفحات التالية ، لان العموض ما يرح يكتنفها بظلمته . ويجوز لنا الاعتقاد بان الصلة التي تقوم بين واقص الدولة الصغيرة وبين بعض الفوارق الحضارية المعينة ، قد تقابل حقيقة ثابتة ، اذ اتنا رأينا ، في حالة خاصة نعرفها تماماً ، ما يبرر منطقياً قيام هذه الصلة . او ليس من الممكن ايضاً ، والحالة هذه ، ان تكون هذه الصلة قد قامت في غير مكان ، بكثير او قليل من الاسترخاء ؟



الشكل ١٨ - المسام الابوي

الحضارة الأيجية

قد يبدو غريباً ان نفرز للحضارة الايجية فصلاً خاصاً في سلسلة الفصول التي سنسندھا الى هذه المحاولة . ولكننا نمتقد مع ذلك بان لهذا التصنيف ما يبرره . فبالرغم من ان الكلام عن «الامبراطوريات» عند الاييجيين تقليد موروث وامر مشروع ، فليس المقصود بهما سوى دول صغيرة يكاد مجموع مساحة اراضيها لا يذكر اذا ما قورن بالامبراطوريات البرية الكبيرة ، ولا تعوض السيطرة التي بسطتها هذه الدولات على البحر عما تتصف به من تواضع نسبي . والمقصود ايضاً هو حضارة يرتبط نشاطها الاقتصادي الرئيسي ارتباطاً متيناً بالتجارة؛ وخصوصاً بالتجارة البحرية التي تترك للانسان ، او لفرق صغيرة من الناس ، استقلالاً اوسع من ذلك الذي تتركه الزراعة ، لا سيما في المناطق التي تقتضي رياً منظماً . وقد عبّر عن هذه الحضارة ، من جهة ثانية ، فن اكثر انفلاتاً وعفوية من فنون الشرق القديم جميعها ، حتى عندما اوجبت على الفنانين معالجة بعض المواضيع الملكية او الدينية . وهي قد تركت اخيراً للحضارة اليونانية ، التي كرس ازدهارها اللاحق انتصار الفردية ، تراثاً اهم من تراث الشرق او اسرع نضجاً على الاقل ، بفضل المجاورة الجغرافية والتنضيد الجغرافي احياناً .

١ - وحدة الحضارة الايجية وازدواجيتها

الحضارة الايجية واحدة ومزدوجة مماً .
العهد الكريتي
ولدت في كريت ، اكبر جزر البحر المتوسط الشرقي ، وهي الجزيرة الوحيدة التي تتغلخها بعض السهول وتنشط فيها بالتالي الاعمال الزراعية . وعلى الرغم من جودة مناخها ، فان الانسان لم يظهر فيها الا بعد ظهوره في مناطق الشرق الأدنى الاخرى بزمن طويل ؛ ولم يترك في الواقع اي اثر قبل عهد الحجر المصقول ، في حال ان آثار عهد الحجر المشطوب وافرة جداً في مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين . وهي لم تسجل ، طوال قرون عديدة ، اي تقدم على ارخبيل السيكلاد . املت ، وهذا الارخبيل ، بالعنصر البشري نفسه الذي يغلب ان سواحل

آسيا الضغرى اهلت به ايضاً ، وهو عنصر لا يمت بصلة الى العناصر المعروفة الكبرى واطلق عليه لذلك لقب «المتوسطي» . فالاحرى بنا ، كي نفسر هذه المقابلة ، ان تفكر بسهولة الملاحظة بين جميع اجزاء هذا العالم الاليمي الذي تنتثر جزره هنا وهناك وتكثر فيه الاجوان والحلجان وتهب عليه ارياح منتظمة في فصل الصيف. بيد ان جزيرة مياوس وحدها ، في مجموعة السيكلاد ، حوت طبقات وافرة من حجر بركاني اسود اشبه بالزجاج (الابوسيدن) توفر بيعه وتصريفه صفائح رقيقة دقيقة الزوايا ، ولذلك ربما كانت في البدء اكثر ازدهاراً من جزيرة كريت . ويصح القول نفسه عن جزيرة قبرص الغنية بالنحاس الذي عرف باسمها والقريبة من آسيا التي كانت حضاراتها بمثابة المرشد لها .

اما كريت فلم تأخذ في البروز الا في النصف الاول من الالف الثالث ، اي قرونًا طويلة بعد مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين اغدقت الطبيعة عليهما نعمها . فها هي تتطلق فجأة في السنة الالفين تقريباً فشيء القصور في كنوسوس وفايستوس وماليا بنوع خاص . ولكن هذه القصور تهدمت حوالي السنة ١٧٠٠ ، بفعل كارثة شاملة قد تكون زلزالاً ارضياً او غارة صاعقة قام بها الاعداء . ثم اعيد تشييدها وابتدأ حينذاك عهد ازدهار كريت عامة وكنوسوس بنوع خاص التي كتب البقاء لقصرها وحده في الجزيرة منذ السنة ١٥٠٠ تقريباً .

ذاعت حينذاك في كافة أنحاء المتوسط الشرقي شهرة كريت ، ولا سيما شهرة مينوس ، الملك الاسطوري الذي تكلم عنه الاغريق والذي يغلب انه اسم لاحدى السلالات لانه لا يعقل ان يكون من اكتشافات غيلتهم فقط . وقد بدا اثر هذه الشهرة في جنوبي اليونان وفي البلوونيز بنوع خاص .

لم تعرف مناطق شبه الجزيرة اليونانية حتى ذاك التاريخ سوى حضارة فقيرة ومدنية . وقد تعرضت منذ اوائل الالف الثاني تقريباً ، بفضل اتصالها بالمناطق البلقانية الاخرى ، لغزوات دورية متكررة قام بها الهنود الاوروبيون الذين كثيراً ما نجحوا في الاقامة في البلاد . ومنذ القرن السادس عشر توصل المستوطنون الجدد الى تسلّم السلطة ، على الاقل في منطقة ارغوس ، في الشمال الشرقي من البلوونيز ، وهؤلاء هم الاخيون الاغريق ، او بالاحرى احدى المنصريات التي ستكون الشعب الاغريقي فيما بعد . وقد تأثروا بنفوذ الكريتيين واخذوا ينقلون الكثير عن حضارتهم ، محتفظين في الوقت نفسه باكثر من ميزة من ميزاتهم الخاصة . بيد انه قد مر عهد حققت فيه كريت سيطرة نافذة عليهم تكاد لا تختلف عن السيطرة السياسية ، لاسيا وان كريت وكنوسوس كلتاهما حينذاك في اوج ازدهارهما .

غير ان الاخيين بفضل صفاتهم الحربية واستخدامهم العربات التي تجرها
العهد الميسيني
الخيول والقوى التضخيمية التي تجيش فيهم ، وبفعل سحر الثروة التي ينعم بها
مربوهم ، قد انتهوا الى مهاجمة هؤلاء المربين. فذلك قصر كنوسوس دكا حوالي السنة ١٤٠٠ ، ولم

يكتب له ان ينهض بعد ذلك . ويمكننا ان نحدد بهذا العهد اقامة شعب جديد ، كرقي حسب رواية الكتاب المقدس ، في الشاطئ الجنوبي من بلاد كنعان ؟ ويرجع ان هؤلاء الفلسطينيين الذين حلت فلسطين اسمهم من بعدهم ، مهاجرون هاريون من بلاد عمها النمار . اما الارغوليد ، على تقيض ذلك ، فقد اخذت في الوقت نفسه تتقدم وتزدهر . فكيف لا نجتمع بين هذين الواقعين ، الهبوط في الجزيرة والتقدم في شبه الجزيرة ، بافتراض حصول حملة منصورة واستلاب منظم ؟

ويدعم هذا الاعتقاد ان في الحضارة التي نمت حينذاك ، لا سيا في ميسين - التي اعطتها اسمها التقليدي - وفي تيرنوس ، اثرأ كبيراً للحضارة الكريتية . وليس من ريب في ان الأخيين ، في غزوم الجزيرة والقضاء على الحياة النشطة فيها ، نقلوا منها الكنوز والفنانين والعمال بغية تحسين حياتهم المادية الخاصة ؛ ولكن وجود هذه الأشياء وهؤلاء الأشخاص عندهم ما كان ليقى دون نتيجة في الحقل الأدبي ، لا سيا على الصعيد الديني .

وقد استثمروا ما ورثوه من كريت على الصعيد الاقتصادي ايضاً . فسيطروا على البحر ومارسوا التجارة مندفعين فيها شطر مناطق جديدة كاليونان وغربي المتوسط مثلاً . وكانوا اكثر خشونة من الكريتين فجاروا ونظموا جماعات من المستعمرين ووجهوها هنا وهناك ، الى قبرص وربما الى شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية حيث استمت دولاً جديدة . وقد نهض الأخيون جميعهم بعمل مشترك ضد مدينة طروادة عند مدخل المضائق ، وهو ذلك الحصار الطويل الذي خلدت ذكره الملحمة الهوميروسية . أما تاريخ هذا الحدث فلا يزال موضوع خلاف وجدل ؛ فهل هو وقع في أوائل القرن الرابع عشر ، أم في أواسط القرن الثالث عشر ، أم في أواخره ؟ ولا اتفاق كذلك حول الاسباب التي أوجبت النهوض بهذه الحملة . ولكن ليس من شك في قيام الحملة وانتصار الأخيين .

غير ان هذا الانتصار لم يحل دون تسرب الوهن الى الحضارة الميسينية منذ السنة ١٢٠٠ . لم تصب هذه الحضارة بانهار مفاجيء سريع ، بل اعترها هبوط تدريجي سببته موجات يونانية جديدة آتية من الشمال هي موجات الدورين . وقد توفر لهؤلاء الحديد الكافي لان يصنعوا منه جميع أسلحتهم فتغلبوا على أسلافهم المتسلحين بالبرونز الذين بسطوا سيطرتهم على العالم الايبي طيلة قرنين كاملين .

وهكذا نرانا امام حضارتين متميزتين بالرغم من صلة القرى بينهما . أجل وحدة وازدواجية انها تجاورتا في المكان مع ان المسافة الفاصلة بين مركزيهما تتجاوز ثلاثمائة كيلومتر . وتجاورتا في الزمان ، الى حد ما ، ايضاً ، لا بل ان تحديد تاريخ زمنها التقريبي يلخص علاقتها الواحدة بالآخرى . فقد دامت الاولى من السنة ٢٠٠٠ حتى السنة ١٤٠٠ ودامت الثانية من السنة ١٦٠٠ حتى السنة ١١٠٠ قبل المسيح . نشأت الاولى ببطء في جزيرة متوسطية ، فاثرت في ولادة الثانية أولاً ، ثم امتدت في وريثتها بعد زوالها ؛ ووقفت الثانية بين ما تقبلته

أو استلبته وبين ما جاء به افرادها من السهول الشالية . الأولى عملية ومستقلة والثانية تساج المهاجرين الذين بنوها بمستوردات خارجية . الأولى تفرغت للتجارة بنوع خاص ، والثانية زعت الى الحرب واصتفت بانها بحرية وبرية على السواء . الأولى أنيقة ورقيقة ، والثانية أكثر قسوة وسعياً وراء الذهب .

فجئلي اذن ان هاتين الحضارتين تتكاملان جزئياً وتتقابلان ايضاً . وليس من سبيل لدرسهما مجتمعتين .

حدود المستندات بيد انه يجدر بنا ، قبل الشروع بهذا الاستعراض المزدوج ، ان نلفت النظر الى واقع يفسر نواقص هذا الاستعراض والتحفظات التي استتخله أحياناً كثيرة : ان حل رموز الكتابات التي استعملها الايجيون لم يتوصل بعد الى النتائج المتوخاة . وليست المستندات ما يعوزنا ؛ فهناك ، على الأخص ، أكثر من ١٥٠٠ سبورة غرينية مجففة بالحجارة اكتشفت في اطلال كنوسوس وحدها ، وعدة مئات اخرى عثر عليها في بيلوس من اعمال البلوونيز . ويستدل من ذلك ان القصور كان لها مكاتبها ومحفوظاتها وربما مكاتبها ايضاً ، ثم ان كريت قد زودتنا ، بالإضافة الى ذلك ، بالكثير من العاديات ، لا سيما الاختام والخزفيات التي تحمل رموزاً كتابية . فالكتابة اذن لم تكن وقفا على الادارات ؛ واذا اعتمدنا على وجه استعمال بعض هذه العاديات ، جاز لنا الاستنتاج ان الافراد ، حتى في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، كانوا يفهمون هذه الرموز . وقد اعتمدت في الكتابة ثلاث طرائق على الاقل احداها هيروغليفية والاخران كتابيتان ، وقد بذلت جهود كثيرة غير مثمرة لكشف سرها . فقبل : « فتنظر كريت شمبوليونها » وغيران شمبوليون قدوقف الى حجر الرشيد الذي نقشت عليه كتابة في لغتين مختلفتين ، وهذا ما لا يتوفر هنا . ولكن العلماء البريطانيين ، في اواخر السنة ١٩٥٣ ، قد كشفوا عن النتائج التي انتهوا اليها في تطبيق اساليب جديدة على احدى الكتابات . وما لبثت هذه النتائج ان فرضت نفسها على المعنيين بهذه الكتابة . ويمكن القول اليوم ان الأحيين تكلتوا وكتبوا ضرباً من ضروب اللغات اليونانية التي اصبحت بعض مفرداتها ، منذ اليوم ، سهلة القراءة والفهم . وليس من ضرورة للتنبؤ بالأمال المعلقة على هذا الحل . فاذا ما استعطي واكتمل وتساؤل المستندات الاخرى ، قد تنقلب النظريات المأخوذ بها رأساً على عقب ، حتى تلك التي اوجزناها في الصفحات السابقة . ولكن الحل لا يزال في بدايته .

لذلك يجدر بنا ، في الوقت الحاضر ايضاً ، ان نكتفي بالتقاليد التي نقلها الأغرريق وشووهوا احياناً وما اسفرت عنه اعمال التنقيب من آثار وافرة منذ السنة ١٨٧٥ في البلوونيز ومنذ السنة ١٩٠٠ في كريت .

٢ - الحضارة الكريتية

الملكية المينوسية ليس لدينا من الحفائق الثابتة حول الملكية المينوسية الا الزر اليسير .

قتعدد القصور في النصف الاول من الالف الثاني يحدو بنا الى الاعتقاد بتعدد الممالك . ومع ذلك فليس من مدينة احيطت بالاسوار، ولم تظهر القصور بظهور الحصون الا لفترة قصيرة . فلم تكن الجزيرة اذن ساحة حرب بين اطماع متنافسة . ومهما يكن من الامر ، فان كنوسوس قد ضمنت لنفسها الغلبة الاخيرة كما يشهد بذلك الازدهار الذي انتهت اليه والذي بثبت سيطرتها على الجزيرة بأكملها . اما الحياة النشطة التي استمرت في المساكن القروية الغنية فلا يجب ردها بالضرورة الى الملوك الصغار ، بل الى الاحكام الذين تمنيم السلطة المركزية . وان الغنى المادي الذي تتصف به الحضارة الكنوسوسية لدليل ثابت على غنى هذه الملكية . وكان للقصر مصانعه ومخازنه وجمهور غفير من العمال والخدم . واذا ما استندنا الى اهمية المكاتب والمحفوظات الكتابية ، جاز لنا التأكيد بان الملكية قد سمت لتحقيق نوع من المركزية . بيد انه يتعذر علينا الادلاء بشيء عن الاساليب الادارية المتبعة .

لا تجوز المغالاة هنا في الكلام عن ملكية قوية او عن امبراطورية مينوسية . اما القوة البحرية فلا يرقى اليها شك ، اذ بدونها يصبح تحصين المرافئ والمدن والقصور امراً لا مفر منه . ويعتبر مينوس في التقليد اليوناني مؤسس اول ملكية بحرية ايجية . ويثبت اتساع حركة المقايضات ، مع جميع بلدان المتوسط الشرقي ، ان هذا البحر ، كما يؤكد توسيديد ، قد طهر من القراصنة . ويضيف المؤرخ نفسه ان مينوس قد اقام «ابناؤه» رؤساء للمستعمرات في معظم جزر السيكلاد ، مما يجعل على الاعتقاد بسيطرة سياسة على الجزر . غير ان علم الآثار لم يكشف عن اي نقود هام خلال عهد الازدهار في كنوسوس . ولولا اسطورة المينوطور ، وهو مسخ مينوس الذي توجب على الاثينيين ان يقدموا له كل سنة ضحية بشرية ، لكننا اكتفينا بالقول ان اثر الحضارة الكريتية في اليونان قد اقتصر على الاشعاع فقط . فهناك اذن صلة اتساع وخضوع لم ينج منها ، بالتأكيد ، سوى الارغوليد وقبرص والساحل الآسيوي . اما تلك المواقع القليلة المتشتمة التي احتفظت باسم مينوس فلا تكفي لان نرسم عليها القول بامبراطورية كبيرة حقيقية .

وعلى نقيض ذلك كانت القوة العسكرية اقل شأنًا . اجبل ، ان على «ابناء الرئيس» رسماً لضابط صابرٍ على حمل الاسلحة ، وان اخيرة كنوسوس حوت مخازن للأسلحة . ولكن هذه الأدلة تبقى محدودة الاهمية . فالملكية الكريتية اعتمدت على بحريتها ، ولم تقو بحريتها على ان ترد عنها هجمات الغزاة المستلبين ولا الكارثة الكبرى النهائية .

كان للملكية صفة دينية . وليست الرسوم التي ترين قاعة العرش في كنوسوس والغرف الملاصقة لها مجرد رسوم جمالية فحسب . الملك يقبض على صولجان وتحيط به بعض الرموز : زهرة الزنبق وخصوصاً الفأس المزدوجة التي كثيراً ما رسمت على الأعمدة والجدران ايضاً . وكانت هذه الفأس ، عند بعض شعوب آسيا الغربية ، شعاراً دينياً وخاصة من خاصيات بعض الآلهة كـ «تيشوب» الحوري و«حدد» الدوليكاني . وقد نقل الأوغريق اسمها الآسيوي «لاپريس»؛

وليس ما أطلقوا عليه اسم « لايرنت » سوى قصر كنوسوس ، قصر الملكية التي ترمز إليها الفأس المزدوجة . فليس من ريب إذن حول العلاقة بين هذه الملكية والديانة . ولكن لا شيء لدينا يساعد على توضيح هذه العلاقة ، حتى تلك القصة التي رواها أفلاطون .

لسنا بحاجة الى التقليد اليوناني كي ننسب الى الملك مهام قضائية . فهو قد تدخل ، في كل مكان ، في واقع السلطة الملكية وجوهرها . ولكن هل يجوز لنا ، اذا جعل الاغريق من مينوس قاضياً للبحيم لا تلين له قناة ، ان نستنتج ان سلطته من بعده قد اشتهرت بتقشف خاص ؟

ويستدل من قلة ما نعرفه وكثرة ما نجده ان الملكية المينوسية ، حتى لو حملت الحضارة الكريتية طابعها واستحال ادراكها بدونها ، أبعد في الوقت الحاضر من ان تجعل درس هذه الحضارة أمراً مفريماً يوجب الاهتمام .

النشاط الاقتصادي
بيد ان الأمر على خلاف ذلك في بعض مظاهر الحياة الاقتصادية على الأقل . ويمكننا القول ان الزراعة كانت مزدهرة ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار نسبة الجودة المحدودة في تربة البلاد الاقليمية ، واحتلال الجبال للقسم الأكبر من مساحة الجزيرة ، واستطالة فصول الصيف الجافة فيها ، والحاجة للري بسبب فقدان الانهار الكبيرة .

ولم تتمكن الديانة نفسها وتستقر الا بتأثير الحياة الزراعية دون غيرها تقريباً . ولم تتطور بعد ذلك حتى عندما تنوعت اعمال الانسان ومشاغله . وقد اشتهر الكريتيون الى حد بعيد في الاستفادة من كل الموارد الطبيعية ، ويشير حذقهم ، مع حفظ الاقيسة ، الازعاج نفسه الذي يثيره العمل الزراعي المنظم في الودية النهرية الكبيرة من الشرق . يغلب على الظن ان انتاج الجبوب ، ابان عهد الازدهار ، لم يكن ليفي بحاجة السكان ، في حال ان انتاج الاشجار المثمرة ، الكرم والزيتون خصوصاً ، يفيض عن الحاجة ويصدر بعضه . وقامت ، الى جانب ذلك ، تربية المواشي حتى الايقار منها ، وقد كسب بعض الفلاحين حياتهم ، بفضل المساكن الفصليّة ، وفاقا لحركة ارتداد الكلا بين السهول والجبال . وعرف الحمار منذ زمن بعيد ، ثم ظهر الحصان قبيل الالف الثاني غير ان استخدامه لم يصبح شاملاً . وكان الصيد ناشطاً جداً في بعض النقاط من الشاطئ ، يستهدف ، بالإضافة الى سدّ حاجة من حاجات التغذية ، الحصول على صدف « الموركس » الثمين الذي يستخرج منه الأرجوان . وفي استطاعتنا ان نطيل هذا الشرح الموجز بالكلام عن القفران والازهار والاحراج وغيرها . ولكن هذه الاشياء كلها ، ولو بمجموعة ، ابعدها من ان تملئ اذهار كريت الذي ارتكز دوماً ريب الى قواعد اخرى راسخة .

يؤيد نشاط الصناعة اكتشاف المعامل الملحقة بالقصور ومدينة اصحاب الحرف ، غورنيا ، في أقصى الخليج القائم الى الشمال الشرقي من الجزيرة . وقد اكتشفت واستغنت في جميع حقول الانتاج تقنيات على قسط كبير من الكمال . ويستدل من دقة الحزفيات ان الكريتيين استعملوا مغرطة سريعة الدوران . وقد توصلوا ، باكراً جداً ، في حقل التعدين ، الى

اقتان التنزيل والتغشية والاحلام . اما الصياغة وصناعة الاسلحة من البروز والمعادن الثمينة فلم تكن اذنى مستوى من اجود الصناعات في مصر وبلاد ما بين النهرين .

وأفضت الصناعة الى تجارة عارمة لم تموزها التجهيزات الفنية اللازمة . أجل ليس الانسان من أنشأ المرافىء ، فلم يقتض للملاحة سوى الشطآن الطبيعية : ونحن لا نعلم شيئاً عن المراكب التجارية ، ولكن يكفي ان نحط علماً بالمراكب الحربية ، اذ ان الاعمال الانشائية قد تعقرت لها وحدها في البدء . وقد توفرت في الداخل شبكة من الطرقات المرصوفة بالألواح الحجرية والمعدّنة في الأساس للحيوانات قبل العجلات ، تؤدي الى المدن التجارية والقصور . وقد عمل في الجزيرة ، على غرار الشرق ، بنظام معين للميازين والمكاييل ، فكانت هنالك سبائك من نحاس واسطوانات من معدن ثمين تسهل المقايضات ، وقد سميت احياناً بعلامات خاصة للدلالة على قانونيتها ، ولكن لا شيء ، ويا للأسف ، يخبرنا عن القانون التجاري . فكيف نتصور ان كريت التي ربطتها بعالم ما بين النهرين علائق ثابتة قد املتت المقارضة على انواعها : المقايضة والشراكة وغيرها ؟ ولا يمكن ادراك تطور هذه التجارة دون جهاز قضائي يراعي الظروف الخاصة للتجارة البحرية .

فكان من الواجب ، وذلك عن طريق البحر فحسب ، تومن الصناعة بالخامات غير المتوفرة في الجزيرة وتصريف انتاجها في الخارج . وقد أمّن النقل البحري خير تأمين هذه المهمة المزدوجة ، فلم تعوز الفنانين الكريتيين الحجارة ولا المعادن المختلفة . وقد عثر على بعض مصنوعاتهم في مصر وقبرص وعلى الشاطئ الفينيقي (جبيل وأوغاريت ورأس شمرا) وعلى شواطئ آسيا الصغرى وفي اليونان ، كما عثر على الكثير منها في جزر السيكلاذ حيث كانت جزيرة ميلوس خاصة ، على ما يبدو ، فرعاً اقتصادياً تابعاً لكريت .

لقد استهدفنا قبل اي شيء آخر ، من هذه العلائق المتعددة ، تفسير طريق بحر ايجه المعرّضة الثروة البادية في الحضارة الكريتيّة . ولم ينطفئ الاثر الذي تركته بل اتسع مكانه في التقليد اليوناني حتى ان هوميروس سيتكلم عن الجزيرة . « الجميلة والحصيبة والمروية والآلهة بسكان لا حصر لهم وذات المدن التسعين » .

وهنالك أكثر من هذا . فمع هذه الحضارة تبرز للمرة الأولى في العالم القديم ، حياة اقتصادية تسيطر عليها التجارة البحرية . وتضفي عليها هذه الميزة جدّة أكيدة بين الحضارات الشرقية التي تمت إليها بأكثر من صلة . وكان ذلك يحكم المهتم في جزيرة فرضت الطبيعة فيها على الانسان ظروفاً حياتية تختلف كل الاختلاف عن تلك التي فرضتها عليه في وادي النيل والفرات وقد اعدّها موقعها لدور قامت به خير قيام ، وهو انها ، تسهلاً للاتصالات والمقايضات المتنوعة ، فتحت طريقاً جديدة تمر في المتوسط الشرقي من الشرق الى الغرب وتلتقي ، عند قبرص ، الطريق الشمالية الجنوبية الموازية للشواطئ الاسبوية والمعروفة والمتبعة منذ امد بعيد ،

كما تشهد على ذلك علائق مصر جيييل . قبل ذلك ، كان الاتصال التجاري بين أوروبا وآسيا يتم عن طريق المضائق بنوع خاص . وإنما «طروادة الثانية» ، إحدى المدن التسع المشيدة فوق مرتفع هيسارليك ، مدينة لهذا الاتصال بازدهارها حوالي السنة ٢٣٠٠ قبل المسيح تقريباً ، وإن كانت مدينة به أيضاً لعلاقتها ببلدان البحر الأسود . غير أن هذه الطريق ، عندما سيطر الكريتيون على البحر ، لم يسلكها تقريباً سوى جماعات الهنود الأروبيين المصميين على استيطان آسيا الصغرى . وهكذا فإن كريت قد ابدلتها بطريق أقصر جداً لأن مراسي سفنها في الشرق أكثر قرباً من مواطن الحضارة الكبرى في الشرق الأدنى .

لا نعلم الكثير عن الحياة الاجتماعية ، ولذلك فإن ما سنديلي به عنها سيكون على المجتمع كثير من الاجترار والنقصان .

إنه لمن الأهمية بكان أن نستطيع سبيلاً إلى تعقب خروج الإنسان من الجماعة الكبيرة وتوزع المجتمع إلى أسر صغيرة . ويعتقد البعض بأن في علم الآثار دليلاً على ذلك . فقد عثر بالفعل على بعض المساكن القديمة الوضيعة المقسمة غرفاً حتى العشرين تقريباً ، في حال أن البيوت العادية ، بعد ذلك ، كلها بيوت لأسرة واحدة . ولكن الغموض لا يزال يكتنف حقيقة تحليل هذه المساكن الجماعية . ومن خطئ الرأي ومزيد الجرأة أن تتكلم عن الأحزاب في جزيرة كريت .

وهناك ، في موضوع الأسرة ، واقع يبرز ميلاء من المستندات ، وهو أن المرأة في المجتمع الكريتي تتمتع بمركز وبحرية لم تعرفهما في ذلك الزمن نفسه ، في أي مكان آخر ، وسيقتضي لها وقت طويل جداً حتى تبلغها . فسواد الآلهة من الإناث واللاهات الدور الأول في الاحتفالات . وغالباً ما تظهر الرسوم نساء خارج بيوتهن ، في الساحة العامة والمسرح وحلبة الملعب . ولكن علينا الاكتفاء بالتأكد من حقيقة هذه الأعراف الخاصة ، دون محاولة تحليلها . نحن نجمل كل شيء عن النظام الزراعي وعن تنظيم الطبقات الاجتماعية الدنيا التي نهضت بالإنتاج الزراعي والصناعي وعباء النقل التجاري . ويعطينا تراكم البيوت - المصانع الصغيرة التي تتدرج المنحدر إلى الورا من غورنيا ، الدليل على واقع غني عن البيان ، وهو وجود الفقراء في كريت كما في كل مكان .

لن نتوقف هنا سوى أمام المساكن الكبيرة والقصور . فهي قد زخرت بحياة متألفة بهجة صافية ، أي بحياة بلاطية . وقد وفّر الذهب والفضة والبرونز والآلئ والحجارة النادرة المادة الضرورية لأسلحة الأبهة والحلى والجواهر والحواتم والفصوص التي جمعت الذوق اللطيف إلى كمال الصنع . وقد شاع زي نسائي مستحب يستلزم «التنانير» الناقوسية ذات الأطار ، والصدّر التي تكشف العنق والكتفين ، والأكام الفضفاضة . وقد استعمل الرجال حلام أيضاً ورغبوا في الأقمشة والجلود الملونة ، ولكن تبرجهم كان أقل تعقيداً . وكان للشرفات والأزهار وسعة العيش مركز مفضل . وكانت هنالك اقلية محكمة التصميم لتوزيع الماء على المساكن التي لم تخجل

حتى من البواليع ؛ وسينقضي بعد ذلك وقت طويل قبل ان يفكر الانسان ، من جديد ، بالاهتمام للتدابير الصحية المعتمدة الى حد بعيد ، في كريت. المينوسية ، اكثر من ألف وخمسة مائة سنة قبل المسيح .

ولكن كل هذا ، بالرغم من فتنه هذه الأدلة ، لا يتعدى المظهر المادي لحياة اجتماعية تنمى لو نستطيع تحليل اجزاء نظامها المختلفة .

يصح القول نفسه تقريباً عن الديانة التي لا سبيل للدنو منها إلا من خلال الفن .

ان اسهام كريت في النظريات الدينية التي اخذت بها الحضارات الشرقية المعاصرة لها ابعاد من ان يكون شاملاً . بيد انه يمكننا ان نحاول ، انطلاقاً منه ، لتليل وفرة الكائنات الوهمية الشيطانية ذات الوجه الاصفر : رجال ونساء برؤوس حيوانات ، ابو الهول ، العنقاء المغربية ، الجنّ المجنّح . وما المينوطور في علم الاساطير اليونانية ، على الأرجح ، سوى اثر من آثار هذه الكائنات المسخية . ويبدو بصدد الآلهة انفسهم ، ان الكريتين أخذوا يبدأ التشبيه . ويغلب ان الاسلحة (الترس والفاوس المزوجة) والطيور والحية والثور لم تكن سوى خاصيات أو رموزاً . بيد ان الامعان في تمثيل الشجرة وسط الاحتفالات الطقسية او على المذبح احياناً يحملنا على الاعتقاد بانها كانت موضوع عبادة مباشرة هي من رواسب الوثنية البدائية . وعلى كل حال ، فليس هناك ، على نقيض الشرق وعلى ما نعلم ، أي جرم مؤله ، كما ليس من إله الهواء أو إله البحر ، وهذا ما يثير العجب اذا ما اعتبرنا دور البحر في الحياة الكريتيّة . ويغلب ان الديانة انما تستهدف تعجيد خصب الارض المغذية . فوفرة الرسوم النسائية ، والميل للموس الى ابراز الكشحيين وتعرية الثديين بوضع اليدين متشابكتين عليها احياناً ، وإشراك هذه الرسوم برسم الشجرة والحية التي هي حيوان ما تحت الارض الاول ، كل ذلك يحيد بنا الى الاعتقاد بوجود عبادة اولى تتجه الى ما يمكن ان نسميه « بالأم الكبيرة » ، اعني بها إلهة الارض والاختصاص . والإله الذكر المفروض وجوده الى جانبها لا يتمتع إلا بمركز ثانوي اكيد . ولكن هل يجوز لنا ان نرد كل ما لدينا بعض آثاره الى هذه الازدواجية؟ يجب علينا قبل الاقدام على هذه المحاولة ، ان نتمكن من قراءة الاسماء الالهية .

ان المعبد الذي لا مناص عنه العبادة في غير مكان لا أثر له هنا . ولسنا نجد سوى بعض المساجد الصغيرة قائمة في المساكن الكبيرة أو منتشرة في البلاد، أو سوى المذابح وحدها احياناً . وهكذا فان العلاقة بالشرق لم تقض الى اعتماد الابنية المخصصة لسكن الاله . اما الاعياد ، على نقيض ذلك ، فأكثر تشابهاً بالعادات الشرقية . فهي تظهر ، هنا ايضاً ، المراحل الكبرى للحياة الزراعية ، ولا سيما الحصاد وجني الاثمار ، وتتخللها التطوافات والرقصات المقدسة السريعة احياناً على انغام الموسيقى . بيد انه لا يمكننا ان نستنتج من ذلك ان هنالك نقلاً أو اقتباساً . ويتخلل

الأحتفالات النبيلة مشهد غريب ، غير المسرحيات التي درجت عند المصريين أيضاً ؛ بل الالعاب العامة مع ما يرافقها من معارك الملاكمة والمصارعة وسباق الخيول بنوع خاص ، ولم يعرض ذلك الموت على ما نعلم ، بل كان فرصة يظهر فيها اللاعبون خفتهم ومهارتهم . ولم تتردد بعض النساء انفسهن في الاشتراك في هذه الالعاب .

احرزت هذه الالعاب نجاحاً كبيراً . ولكن هل كان لها ، عملياً على الأقل ، معنى غير ديني ؟ لا نستطيع ثبت ذلك او نفيه . ويبدو على كل حال ان المثل الأعلى الطبيعي للكروي هو نفسه المثل الأعلى للرياضي . واذا ما استندنا الى الرسوم المصورة فليس من بدين واحسد في البلاد التي اكتسب الكل فيها قدماً نحيفاً جداً . وما من شك ايضاً في ان هواية الرياضة هذه ، حتى ولو ارتبطت بالديانة ، تم عن الأخذ بمفهوم جديد للانسان المدعو لتمام صفاته الطبيعية في سبيل هدف غير الحرب وتحضيراً لجهود فردي بالضرورة .

ولا نترامى الآراء حول الموت إلا جزئياً أيضاً . فلا يقتصر على دفن الجثة في قبر على هذا المقدار من الغنى أو ذلك . بل توضع على مقربة منها أدواتها المألوفة أي كل ما قد تحتاج اليه في المداومة على حياة لا يضع الموت لها حداً . وتخصص الجثة بعد ذلك التقادم الغذائية وغيرها ، تلك نفسها التي يستحسنها الاله . وهكذا فان الحياة الثانية قد يرافقها شيء على الأقل مما يدنياها من العالم الالهي . ان ناووس الثالث المقدس الشهير المستغشى بالرسوم المصورة يرينا الميت منتصباً أمام قبره ناظراً الى حاملي القرابين وهم يتقدمون نحوه . ويرينا ايضاً عربية قطر بها الاحصنة من جهة والمنقوات من جهة اخرى . ولكن هل تنقل هذه العربية الميت ؟ الحكمة أولى في هذا الموضوع أيضاً .

الفن ان الفن ، مع التجارة البحرية ، هو النطاق الذي اثبتت فيه الحضارة الكريتية صفاتها المعيزة واحرزت اكمل نجاحاتها التي ليست بحاجة الى توضيح بقراءة النصوص لان صفة الجمال فيها تسحر كل من يشاهدها . هنالك فنون معاصرة تفرض الاحترام بسعة المفاهيم التي تعبر عنها وقوة الوسائل التي تستخدمها ، في حال ان الفن الكريتي لم ينهض باي شيء عظيم ، بل كأنه يتشكر لكل ماهو عظيم متحاشياً تحقيق المواضيع الكبيرة ، ولكنه يستعص عن ذلك باحساس حاد حيال الحياة وملاحظة الواقع ، وبقابلية لاكتشاف الناحية التزيينية التي يمكن استخلاصها من كافة الأشياء ، وبذوق سليم مكتمل حيال الالوان والاشكال ، وبجيموية عجيبة في الاكتشاف وبمهارة فنية مدبوخة . ان الفنانين الذين انبثقوا من هذا الشعب ولم يتبنوا نوعاً ما عن جمهور الفنانين الآخرين ، لم يروا ما هو عظيم بل رأوا ما هو جميل .

فلا معابد إذن ، ولا مدافن كبيرة ولا مساكن رائعة أيضاً . واكثر القصور اهمية ، بما فيها قصر كنوسوس نفسه ، لم تشيد وفقاً لتصميم مدروس . لا بل انها تولف عوام قارب بناؤها المتعاقب اقسامها المختلفة التي لا يتسرب اليها حتى النور الخافت من الفناءات الداخلية او من

أروقة مطلقة السواء . ويتصل الواحد بالآخر ، كيفما اتفق الاتصال ، بشبكة مستقلة من الممرات والأروقة ذات الأعمدة - وهذا هو « اللابيرنت » الذي تتكلم عنه الاسطورة . ولكن هذه العيوب في الفوارق بين مستوى وآخر قد سترتها المهارة في انشاء السطوح . ولم يُعبأ قط بإعطاء هذه المجموعة البنائية الجليلة بقياساتها - يبلغ ضلع قصر كنوسوس الاخير ١٥٠ متراً ، وكان مؤلفاً من طبقتين أو ثلاث طبقات - أي تناسق يوحى النبيل والجلال . وكان بالإمكان ، للاستعاضة عن الوحدة الداخلية ، ان تشيد « واجهة » رئيسية وينشأ فيها باب فخم ينتصبان امام القادم الى القصر . غير ان الواجهة والباب لا وجود لهما ، بل هنالك ابواب عدة في الاسوار الخارجية تشم خط النظر العام .

ولكن حداً أدنى من التنظيم يسهم في التقسيم الداخلي . فهناك هو كبير في الوسط : ٦٠×٢٩ م في كنوسوس . وهو ليس مقفراً ، بل فيه المذابيح وما تستتبعه من حفر للضحايا . غير ان « الواجهات » المطلة عليه تكاد تكون رتيبة . وترى حوالبه بعض « الاحياء » : حي قاعات الالهة والاسلحة وأحياء المساكن الخاصة والمكاتب وعمامة الشعب . وان في تجمعها بعض التلاحم ، ولكن التشويش يظهر داخل كل حي من الاحياء التي تتوسطها فناءات ثانوية صغيرة جداً أشبه أحياناً بالآبار .

على الرغم مما يبدو في هذا التكديس من مغايرة للمنطق ومن ان هذا العالم المشوش يعوزه الجلال ، ومن ان اكبر القاعات - قاعة الأعمدة المزدانة بالفؤوس المزودجة في كنوسوس - لا تتجاوز ١٢ متراً طولاً و ٨ أمتار عرضاً ، فان في الابتكارات الهندسية الجزئية أحياناً انسجام اناقة يستوقف الناظر بسحره : تصميم بعض السلام وتنظيمها ، إحكام الأعمدة التي تقوم مقام بعض الجدران الجانبية ، الوقع الموفق والمقصود في توزيع الظلال والاضواء .

وهناك بنوع خاص زخرف الجدران ، لا سيما في قصر كنوسوس الاخير الذي ثبت ، بذلك وبقياساته ، تميزه عن القصور الأخرى . ولا وجود للنائيل في هذا الزخرف ، فالجزيرة كلها لم توفر لنا على هذا الصعيد سوى حطام وضع . وليس من نقوش ثابته على الحجر ايضاً ، بل هنالك رسوم ملونة على جص ادخل عليه بعض التلوين قبل الرسم . والزخرفة عرف قديم جداً لن يلبث التصوير على الجدران ان يحل محلها ، مع الزمن ، بمشاهد الحياة .

عندما يصور الفنان كائناً بشرياً ، يستأثر الوجه كل اهتمامه فيطبعه بالحياة وقوة التعبير والصفات المميزة التي تحملنا على ان نرى فيه رسماً لاجد الاشخاص . وهو لا يهتم ، فيما عدا ذلك ، للتفاصيل التي يعالجها بسرعة . « فباريسية » كنوسوس مثلاً ليس لها اذان ، كما اهتمل في كل الصور تكوين الجذع والاعضاء . فالهم هو الحركة حين حدوثها واختلاجها ، ولذلك يتسرب الى المراكب نفسها بعض عدم التناسق والتشويش . وان ما يلفت النظر هو التصمم على الحرية . فلإنسان لا يتقيد بالقدسيات ولا بالأوضاع التقليدية او الاصطلاحية ولا بالحرقات المفروضة ،

ولا يخضع إلا لقانون حياته الشخصية . وإذا كان الأمر على ما هو عليه بالنسبة للرسم التي يحققها الفنان ، فهل يمكن ان يعترف بقانون آخر بالنسبة له شخصياً ؟

نشط الفنان إذن في تصوير حركات الفرد حين حدوثها وعلى طبيعتها ، ولكنه كان أكثر براعة في تصوير الحيوانات فحقق في هذا المجال روائع لا تنسى : الثور الرائب ، والنمر القانص ، والقرود المتقدم بين الأزهار ، والطير عند هبوطه ، والسحكة الطائرة عندما تنثني جوارحها كحي تغطّ في المياه الزبيدة ، والأخطبوط بمجاسته المتأوجة . ليس ثمة من وضع جامد ، بل حركة توحى بما سبقها من حركات وما سيتبعها منها ، أو عمل مختلف المراحل بفضل رسم حيوانين أو ثلاثة في فترات مختلفة من العمل نفسه ، أو استعادة بالغة للحياة في تغيرها ونشاطها ولينها .

بيد أن هذا السعي وراء تصوير الحركة لا يفقد الصورة شيئاً من قيمتها الزخرفية التي يتوصل الفنان الى تحقيقها دونما اعتبار لأي تناسق . ففي سبيل التواء القرن مثلاً ، نراه يحطم حاشية الاطار ، وهو لم يكتف بمراقبة « العدو الطائر » المزعوم عند بعض رابعيات القوائم الكبيرة - وهذا الخطأ الذي يعود إليه قد استمر حتى « ماراي » قبيل السنة 1870 - بل جوتف احقاء الحيوان وأعلى منه الردف بغية ابراز رشاقة خط الظهر . ويقدر انه استوحى من العالم البحري الذي يعرفه تمام المعرفة ، بفضل وجوده في جزيرة ضيقة ، أكثر من نصف الحيوانات (أسماك وأصداف وغير ذلك) التي صورها ، وان ما يقارب نصف الباقي هو من ضروب المصافير . ومرد ذلك انه يجد عند هذه وتلك أشكالاً أوفر لدانة وتوجاً تضع امامه المزيد مما يشبع نهمه للتناسق الزخرفي . وهو يستوحى ، من البحر ايضاً ، غالبية المناظر الطبيعية التي يجعل الكائنات الحية تتجول فيها بين التواءات الأمواج وتحطمها ، الأشن الرخصة ، والصخور النائمة . وتستويه ، في عالم النباتات البرية ، الجذوع والأزهار كمواضع تزينية ايضاً . ولكنه لا يستسلم لفتنة الوصف ولا للإكثار على غير نظام . فإن ما انطبع عليه بالفطرة من اتران وتميز يجنبه ركوب الشطط والزخرفات التافهة . فالطبيعة ، الى جانب الحركة ، تغذي بنفسها إلهاماً أحسن هو رقابته ، حتى في ميعة الدوار .

وقد برهن عن المزيد من الجرأة في معالجة الألوان التي جهل منها الباهت ، ولجأ الى الجارح دون أن يعبا بالألوان الثانوية التكيلية او بالألوان الواقعية . فالصفر والقرود أخضرا اللون مثلاً في « بيت الصور » في كنوسوس ، كما أن خطأً قمرزياً يحيط ببقع من لون واحد. وما كنا لنصف ذلك بغير البرقشة ، لو لم تكن هذه الالوان مختارة عن قصد وتصميم توصلنا الى الفتنة والسحر في الزخرف .

اعتمدت طريقة تعدد هذه الالوان ، أول ما اعتمدت ، منذ القرنين الثامن عشر والسابع عشر في الأواني الخزفية المنسوبة لـ « كاماريس » . ولكن هذه الطريقة لم تلبث ان أهملت في الخزفيات ودام استخدامها في الصور الجدرانة ، في حال ان طريقة التصوير وفقاً للأشكال قد

خضعت لتطور واحد في الصور الجدرانة والأواني الفريزية ، وفي حفر الحجارة ونقش الأواني المعدنية . بيد ان ما قلناه عن المواضع المطروقة وأساليب طرقها ينطبق على عهد ازدهار الفن الكريتي بنوع خاص ، في القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر . وبعد ذلك تهذب هذا الفن وانقاد لنظامية قد تقسرها نجاحات الملكية الكنوسوسية . وفي التعبير التقليدي « نط القصر » اشارة واضحة الى مغايرة هذا الخط للخط الطبيعي الحر المستعذب الذي سبقه . وقد أفضى التهذيب تدريجياً الى تبسيط الأشكال دونما قاعدة او منطق . فأحل القرد محل الفرس ، وفصلت المجسة عن الأخطبوط فعدت مجرد طريدة متناوذة فحسب . ولكن هذا التصنع المنحط قد برز بعد انهيار كنوسوس على الأخص في الحزفيات الميسينية التي بقيت رائجة ، بالرغم من ذلك ، في اسواق الحزفيات الكريتية في حوض المتوسط الشرقي .

٣ - الحضارة الميسينية

ان الإرث الكريتي الذي انتقل الى الميسينيين من الأهمية بحيث أننا سنقتصر ، تجنباً للاعادة النافلة ، على الفوارق الملموسة بين الحضارتين ، اي الأشياء الجديدة التي أضافها الأخيون . وليس هؤلاء مدينتين بهذه الأشياء الجديدة للبلاد التي عاشوا فيها . فبين جنوبي اليونان وكريت فوارق طبيعية لطيفة لعل أهمها ما ينتج عن التفاوت في شدة البرد في فصل الشتاء . فلا شيء من شأنه ان يؤثر جدياً في تطوير الظروف الحياتية ، ثم ان الحضارات التي ظهرت في اليونان قبل مجيئهم لم تترك لهم شيئاً يذكر ، لا بل لم يكن لديها إلا القليل مما تستطيع ان تتركه ، إذ لا شيء فيها يضاهاي الحضارة الكريتية . واذ لم يقبلوا بأن ينقلوا تنظيمهم وحياتهم عن الكريتين ، فمرد ذلك الى انهم قد جاؤوا بنظريات وأخلاق وعادات خاصة بالهنود الأوروبيين ، وبأناس قضاوا زمناً طويلاً في بلدان اخرى لا سيما البلدان الشمالية .

تظهر الجودة ، أول ما تظهر ، في التنظيم السياسي والاجتماعي ؛ لأن الآثار الامراء المحرابين
المادية التي خلفها كبار هذا العالم أبعد من أن تقارن بآثار كريت .

ان القصور والمدافن الكبرى تقرض الاعتقاد بتعدد الامراء . وكان منهم في ميسين وتيرنتوس ، وهما موقعان غير بعيدين عن بعضها في الارغوليد . بيد ان شهرتهم لا تقرض الاعتقاد بعدم وجود غيرهم في غير مكان : في الارغوليد نفسها ، في غربي وجنوبي البلوبونيز ، في القسم الأعلى من أثينا ، في بيوسيا . ولم يوجد بين هذه المجموعات السكنية المتشعبة مجموعة بأهمية كنوسوس . أما ثروة ميسين الذهبية الطائلة فقد يكون الفضل فيها لمجرد الاتفاق في اكتشافها ، وهي على كل حال مقتصرة على المصنوعات دون غيرها ، لا يرافقها اي تفوق في الهندسة والزخرف . وفي القصائد الهوميروسية نفسها ، حيث الخيلة تعظم الواقع ، ليس اغا ممنون ، ملك أرغوس اي ميسين ، ملك الملوك إلا بصورة مؤقتة وجملة عسكرية معينة .
ويصبح التباين أكثر وضوحاً حين ننظر الى القصور نفسها . فهي حصون قبل كل شيء وآخر ،

شدت في موقع تسهل طبيعته الدفاع عنها . وغالباً ما يكون هذا الموقع مرتفعاً مشرفاً على السهل المحيط به . يصعد الى هذه الحصون بسلام خارجية تتخلها العراقل . والابواب ، وبسلام محفورة في الصخر وبأبواب خفية . وقد أتى الصخر من كل مكان لتشييد تلك الجدران التي سيصفها الاغريق « بالسكلونية » أي الضخمة ، لأن حجارها ستبدو لهم هائلة . ففي جزيرة « غلا » في بحيرة كوبابيس البيوسية يبلغ محيط السور ثلاثة كيلومترات ، وفي تيرنثوس أنشئت سراديب معقدة في الجدران التي تبلغ سماكتها ستة امتار .

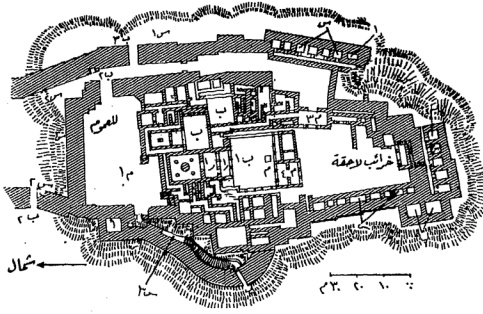
فلا سبيل ، والحالة هذه ، الى الاعتقاد بملكية واحدة حتى ولو افترضنا انها منحت بعض اصحاب الاقطاعات اجزاء من اراضيها . لذلك وجب القول بقيام امارات مستقلة يغلب على ظننا انها تنافست وتصارعت . اما القول بالولوية شرفية معترف بها لأحد الامراء تولى حتى القيادة في المشاريع الجماعية ، فلا يستند الا الى الالباذة . ربما استلمت الارغوليد زمام الامور في النهاية ، لكن ميسين وتيرنثوس قد استمر بقاؤها جنباً الى جنب ، مما يضمن امام معضلة مستصعبة الحل .

فمن الثابت ان الامراء هيون الحرب ويخوضون غمارها في ظروف كثيرة ويدفنون مع اسلحتهم وخوذهم وسيفهم الثقيلة وخناجرهم وحرابهم . وقد أتاحت لنا الرسوم التي بلغت الينا معرفة دروعهم وتروسهم ايضاً ، التي كانت كبيرة الحجم اولاً ، يبدو الانسان فيها وكأنه في احد الأبراج ، ثم اصبحت سهلة الاستعمال بعد ان استديرت واستصغرت . وكفوا بين حرب وحرب يواظبون ، بغية الإبقاء على قوتهم الجسدية ، على ممارسة القنص . وقد أحاطهم الفن الخاص بهم بمشاهد تم عن نشاط عنيف قلما نرى لها مثيلاً في الفن الكريتي . وأعمال النصب هي مصدر ذهيبهم جزئياً . وكل شيء يدل على ان هؤلاء الهنود الاوروبيين الذين بلغوا جنوبي اليونان ، بعد ألف مغامرة ومغامرة مجهلاً ، وبشق طريقهم بين شعوب طال عهد اقامتها في هذه المناطق ، يحتفظون بيوهم الحربية التي اقرنت ببيل الى الجمال الشرقي الذي استوحوه من الكريتيين . فالسلطة عندهم تنبأى بالقوة اللفظة ، وتلجأ اليها عند الحاجة .

لم يتيسر كل ذلك إلا على حساب المجتمع .
 بالرغم من الرغبة الواضحة في التقليد ، أقلته في معالجة المواضيع التي لا تنطبق على معطيات التاريخ ، فإن الحياة في البلاط اقل بهاء منها في كريت . وتذهب النساء ، في ملايسين وترتيب شعرهن وحلاهن مذهب نساء كنوسوس ، ويظهر احد الرسوم الجدارية في ميسين بعض هذه النساء يتبخرن في المسرح عند مقدمة مقصوراتهن . ولكنهن أهملن التآرين الرياضية ، ويرجح ان ذلك قد أثر في قوامهن وحرية سلوكهن الخارجي . ويرجح ايضاً ان الحياة داخل هذه الحصون الضيقة (اقل من ١٥٠ × ٥٠ م في تيرنثوس) ، أي القصور ، لم تشهد احتفالات على درجة عالية من اللطف والاناقة ، وليس من

شك أيضاً في ان الرجل ، بفضل دوره العسكري ، قد فرض نفسه على الحياة الاجتماعية .
ويمكننا ، بالمقارنة مع مجتمعات الهنود الاوروبيين المحاربين الاخرى ، وبلاستناد الى بعض
الخطوط المستتارة من المجتمعات الهوميروسية ، يمكننا ان نعتقد بوجود جماعات من « الرفاق »
تربطهم بالامير صداقة شخصية او مقاسمات أحياناً .

يمكن القول نفسه عن العلائق بين الطبقات الحاكمة والطبقات الكادحة . فالقصور المنتصبة



الشكل ١٩ - قصر تيرنتوس

م ، مذبح ؛ ب ، جيو ؛ ١ ب ؛ ١ جيو رئيسي ؛ س ، سرداب معقد ؛ ا ، آبار ؛ س ١ ،
السور العلوي ؛ س ٢ ، السور السفلي ؛ س ٣ ، سلم ؛ ١ م ، الميغارون الرئيسي ؛ ٢ م ميغارون
النساء ؛ ٢ ب ، ابواب ؛ ٣ ب ، باب خلفي ؛ ٣ م ، مدخل كبير ؛ ٤ م ، مدخل صغير ؛ ١ ر ،
٢ ر ، ٣ ر ، اروقة تؤدي الى الميغارون .

على المرتفعات أشبه بملاجيء يراقب الاسياد منها عمل مماليتهم في السهل ، لا سيما واننا لا نعلم
شيئاً عن العلائق بالسكان السابقين الذين لا يعقل ان يكون الاحتلال قد قضى عليهم قضاء تاماً ،
وبستوينا جداً ان نتصور الباقين على قيد الحياة منهم خاضعين خضوعاً كاملاً للفاتحين . بيد ان
الشيء الواحد الثابت هو أن اسواراً خارجية كانت تحيط بالقصور والمدن على السواء . ولكن
هذه الاسوار محدودة الطول على العموم (٧٥٠ متراً في تيرنتوس ؛ اكثر من ١٢٠٠ متر بقليل في
ميسين) ، مما يحد من مساحة المدينة . فمن الطبيعي إذن ان يتوزع السكان الباقون في الارياف
او ان يقيموا عند حلف المرتفع بحيث يلجأون الى داخل الاسوار طلباً للحماية في ساعات الخطر .
وكل ما سوى ذلك فمجرد نظريات .

التجارة والثروة ويقوم التناقص هنا ، في ان مثل هذه الدولات ، وهذا المجتمع قد تماطت في آن واحد الزراعة والصناعة والتجارة على نحو تماطياهاها . أجل ، قد جرى ذلك ببطء ، وعلى غرار كريت التي ما لبثت هذه الدولات ان حلت محلها ، بعد قرنين من التدرب تقريبا . بيد ان نشاطها الاقتصادي قد توسع الى حد بعيد بعد انهيار كنوسوس .

فأنشئت الطرقات وربما المرافئ ، ولم يشعر سكان الحصون ، القريبة كلها من الساحل ، بانهم غير قادرين على مراقبة الحياة البحرية وحتى على الاشتراك الفعلي فيها . مارسوا القرصنة أولا ثم سيطروا على البحر فحلت الأسفار التجارية محل الغزوات الاستلابية . وكانت هذه الأسفار بعيدة أحيانا : فاستورد التصدير الغربي بكميات كبيرة بالإضافة الى تصدير القفصا واستخدم لصنع المزيد من الشبهان ، كما استورد - ولا نعلم بأية واسطة - ندى البلطيق الذي لم يعرفه الكريتيون والذي قدر الهنود الاوروبيون حق القدر انمكاسه الشاحب الحفي . وقد جابت المراكب اليسيلية البحار القريبة أيضا : وتؤيد المصنوعات المميزة المكتشفة ، بما توفره من معلومات ثابتة ، أهمية واتساع انتشار الانتاج المعدني والحزفي . فلما كانوا قد أتوا من الشمال ، حيث المناخ أشد قساوة ، فإنهم قد أحضروا معهم المشابك المعدنية (الدبابيس) القعينة بإيشاق ملابس الثقل وزنا . فقلقلها عنهم سكان البحر المتوسط . وقد ظهر الكثير من مصنوعاتهم الشبيهة وجواهرهم وحجارتهم المنقوشة ، ولا سيما خزفياتهم ذات الرسوم المبسطة التي تشبه الرسوم الهندسية ، في مواقع كثيرة جداً : في صقليا وإيطاليا الجنوبية والسيكلاد وسواحل آسيا الصغرى وفيقيقيا أخيراً حيث غدت لهم « مينة البيضاء » ، مرفأ أوغاريت - رأس شمرا ، مستودعاً عارماً بالنشاط يرجع انه كان بمثابة مستعمرة انطلق التصدير منها الى كل مكان حتى بلغ بعض النقاط في وادي الفرات .

غنيمة حرب وقرصنة ، جزية ، صناعة ، تجارة ، كل ذلك أدى الى الثروة . ولم يبط أي موقع في العالم اليوناني كمية الذهب التي اعطتها ميسين (١٤ كيلوغراماً قبل اكتشافات ١٩٥٢) . وحفظ الاغريق ذكرى هذا البلخ ؛ فالقصائد الهوميروسية تمتت ميسين ، بالنية بالذهب ، على انها تقهرت فيما بعد حتى اصبحت قرية صغيرة في ارض ارغوس . ويجب عملياً انتظار العهد الهليني ورواج الكنوز الفارسية حتى تدخل البلاد كمية كبيرة من معدن هو اثن المعادن .

يبدو ان الديانة لا تختلف كثيراً عن ديانة كريت . ولكنهم يولون عبادة الفن المسيحي الاموات اهتماماً أكبر شأنًا ، لا سيما ما يتعلق منها بأموات عائلات الامراء . وقد افضى هذا الفرق الى تنمية هندسة مدفنية على قسط كبير من الجدة . اعتمدت في البدء « المدافن ذات الآبار » الخاصة بميسين التي تحفر بأعداد كبيرة داخل اطار مستدير من الحجارة المنتصبة ، وقد اكتشفت مجموعة ثانية منها حديثاً .

ثم خلفتها « المدافن ذات الحجر » حوالي السنة ١٥٠٠ ، واخيراً المدافن ذات القباب . فكانوا يحفرون في منحدر المرتفع سرداباً يؤلف مع المنحدر زاوية مستقيمة ثم ينشئون حفرة مستديرة الشكل يعززون جدرانها بسافات حجرية محكمة الترتيب تضيق تدريجياً حتى تكون سقفاً للحفرة . ثم يردمون كل شيء باستثناء السرداب الذي ينتهي الى باب . ويكتفي للدلالة على سعة الاعمال المنجزة ، ان نذكر ان السرداب يبلغ حتى ٢٥ متراً طولاً والقببة حتى ١٥ متراً قطراً وارتفاعاً .

في هذه « القفران » ، اي في القبور الجانبية ، توضع الجثث باعداد كبيرة أحياناً . فهل تعني هذه الكثرة ان ضحايا بشرية كانت تقدم اثناء الاحتفال بالجنائز ؟ لا شيء يحول دون الاخذ بهذه النظرية في بعض الحالات . ومهما يكن من الامر ، فإن الميت يستمر في الحياة بعد موته . وقد اكتشف في حفر الذبائح تحت السرايب عظام حيوانات وتقدم للميت . وقد عثر في المدافن ذات الآبار على الاقنعة الذهبية التي تظهر خطوط وجه الميت بما فيه اللحية . كما عثر فيها ايضاً على الاسلحة والجواهر والحلي والسكاكين والمحلق وغيرها من الادوات المختلفة . وفي اواخر القرن التاسع عشر أثار اكتشافات « شلبان » دهشة العالم بأسره . وقد حصلت بعد ذلك اكتشافات اخرى عرف بعضها الشهرة كالاكتشاف الاكواب الذهبية في « فاقيو » جنوبي البالونيز ، ويستحق بعضها الشهرة كالاكتشافات دندرا في الارغوليد التي تعود الى خمس وعشرين سنة تقريباً ، كما قد تبلغ الشهرة ايضاً بعض الاكتشافات الحديثة العهد .

لا شيء في هذه المصوغات يظهر تغييرات جوهرية بالنسبة للفن الكيريتي . ويمكن القول نفسه عن الفنون الاخرى لا سيما التصوير الذي ازدانت برسومه جدران القصور . فقد اعيرت بعض المواضيع اهتماماً خاصاً كالحرب - اقله في البداية - والقنص مثلاً . ولكن النزعات الجمالية قد بقيت هي نفسها دون تغير . ولا غرابة هنا اذا ما لاحظنا ان هذه النزعات ما زالت تلهم الفنانين الكيريتيين الذين راج انتاجهم في اليونان ، او الذين اتوا الى اليونان للعمل فيها مختبرين او مسيرين فدرّبوا تلامذة بقوا أوفياء لهم .

على تقييد ذلك ، ادخلت على الهندسة المدنية بعض التجديدات التي لا تقل اهمية واثراً عن تلك التي ادخلت على الهندسة المدفنية .

وقد تناولت هذه التجديدات البيت بنوع خاص الذي كَيْفَ وفاقاً لمتاح البلاد . فبينما كان مسطحاً في كريت ، غدا هنا ذا منحدرين تسيل عليه بسرعة مياه امطار اقل ندرة . ثم كانت من الممكن في كريت ، حيث البرد اقل شدة ، ان تنتقل العائلات من مسكن الى آخر . ووقضت الضرورة هنا باعتماد المسكن الواحد الثابت لا سيما وان السكان قد هبطوا البلاد من مناطق مناخية اخرى وخضعوا لعادات اخرى ايضاً . فنشأ عن ذلك عنصر البيت الاسامي : « المغارون » الذي ظهر في العالم المتوسطي قبل الاخيين . فاننا نجد في « طروادة الثانية » التي ترقى الى الالف

الثالث ، وفي تساليا وبيوسيا في أوائل الألف الثاني. ولعل منشأه شمالي آسيا الصغرى التي انتقل منها الى اوروبا عن طريق شمالي بحر ايجه ، ولكن المسيحيين هم الذين وضعوا له شكله النهائي الثابت وعموا استعماله وطريقة بنائه ، فظهر في السيكلاذ حوالي السنة ١٥٠٠ ، وفي كريت بعد هذا التاريخ .

قوام الميغارون بناء مستطيل . ويقوم امامه في الخارج ، بعد الأعمدة التي يستند اليها قسم ناتىء من السقف ، رواق بمثابة مدخل يلججه النور والهواء ويفصله جدار ذو باب واحد عن قاعة كبرى هي الميغارون نفسه الذي تتوسطه موقدة ثابتة مستديرة . وليس هنالك من مدخنة لتصرف الدخان ، بل كوة في السقف تستند الى أربعة أعمدة تحيط بالموقدة على الأرض . وبفضل هذه التدفئة يصبح هذا المكان قاعة للابهة تزخرف جدرانها ويستقبل فيها الضيوف . وسرد في القوائد الهوميروسية ان الولايم تقام فيها ، كما ان «أوليس» سيوتر قوسه ضد الطامعين في الملك في ميغارون قصر ايطاك . ومن وحي الميغارون أيضاً سيشتق المعبد اليوناني .

منذ ذلك الحين اصبح البيت مركزه ثم انتظمت اقسامه الاخرى كالحققت له . وصدق ذلك في القصور أيضاً التي استازمت ، بسبب أهميتها ، قاعتين ذات موقد أو ثلاثا . ولذلك فهي قد كانت أقل تعقيداً وتشويشاً . ثم خضع البهو الوسطي لقاعدة محددة مع مساقطه من اروقة ومداخل تحف بالأبواب . وان خرائب تيرنتوس ، حتى بدون الاسوار ، خرائب مساكن توحى العظمة والتنبل .

ثم ان الذهنية العامة قد تطورت من جهة ثانية . فليس هناك بعد من جوح إلا في حقل التزيين . وقد بذل الملوك المسيحيون مجهوداً بغية تحقيق الجلال الخارجى الذي امله الكريتيون فأثبتوا مرة اخرى انهم لا يأفنون من اظهار قوتهم .

وتحت تأثير هذه الذهنية نفسها ، طاب لهم تنفيذ الأعمال العظيمة التي تبدو وكأنها تفوق الامكانيات البشرية . وقد توفق المهندسون في بناء الحصون و « القفران » الى استعمال فدرات حجرية ضخمة جداً . ومهما كان من خرق المحاولة التي استهدفت النقاشة على الحجر والنقاشة الكبيرة - وهذان فنان جليلها الكريتيون ، ولكنها عاجلا في هذا الحقل موضوعاً كريتيياً أيضاً - ومهما كان من قبح وترهل وثقل الوحشين المتقوشين في « باب اللبوءات » في ميسين ، فان هنالك جدة تتصل اتصالاً وثيقاً بنزعة الأخيين الى ضرب من العظمة فيه الكثير من التيه والمجاهمة . وللمرة الاولى نرى ، خارج القارة الآسيوية ومصر ، محاولة لتحقيق مثل هذه التصاميم العظيمة توصلا الى مقصد ديني وزخرفي في آن واحد . أجل فشل المحهود من الناحية الجمالية ولكنه قد نجح من الناحية التقنية ، اذ ان رفع هذه القدرة والاسكفة التي تركز عليها فوق جانبي الباب لم يكن من الامور اليسيرة .

بالرغم مما انطوت عليه الحضارة المسيحية من قوة وإقدام في الحروب ، فقد إرث المسيحيين وجدت من هم أكثر قوة منها واقداماً ، أعني الدوريين ، وهم أيضاً من

الاغريق ، الذين سبوا انحطاطها أولاً وزوالها فيما بعد . ولكن هل يمكن ان تزول حضارة ولا تترك للاحقاقتها شيئاً سوى آثار مادية ؟

تسلت الحضارة الميسينية قسطاً كبيراً من الارث الكريتي وعنت به . كذلك لم يتح كل شيء منها في اعصار الغزوات الجديدة . فان في اللغة اليونانية بعض المفردات التي ليست بسامية ولا هندية - اوروبية ولعلها تنتسب الى لغة قد تكون هي نفسها اقدم عهداً من اللغة الكريتية . ومهما يكن من أمرها ، فان الكريتين والميسينيين قد استخدموها . كذلك احتفظت الديانة اليونانية بتأليه مبدأ الحصب وبممارسة الالعب الرياضية . وانما هم الآخيون الذين آمنوا استمرار كل ذلك وانتقاله الى من بعدهم .

لم يقصر الآخيون أنفسهم على دور الوسطاء في هذا المجال . أجل لا يمكن ان ننسب اليهم كل ما أصبح يونانياً فيما بعد ، اذ يجب الانغفل القسط الذي أداه كل من العناصر التي ستكورت الشعب اليوناني . ولكن ذكرى حريهم ضد طرواده واسفارهم في المتوسط وثوراتهم وأسلحتهم وحلام تلهم القصائد الهوميروسية . وقد ذهب البعض الى القول إن هذه القصائد قد تأثرت مباشرة ، من حيث الوزن والمبنى ، بقصائد ميسينية مماثلة ، ولا يخفى ما في ذلك من جرأة ومغالة . اما نحن فلنكتف بملاحظة على نطاق أوسع . كان الكريتيون قد فتحوا طريقاً معترضة في المتوسط الشرقي فكان ذلك خدمة لبحر ايجيه وجزره . فحافظ الميسينيون على هذه الطريق ، وكان ذلك هذه المرة خدمة لليونان البرية . ولن يعوز الاغريق طاقة بشرية ومهارة ونشاط كي يستمروا في السيطرة عليها قومياً واستعادة السيادة عليها اقتصادياً . وخلال قرون طويلة سينشطون الى ابقائها مفتوحة وسالكة خدمة لمصالحهم على غرار ما حدث في عهد ملوك ميسين وثيرنثوس .

الفصل الثاني

كنعان وسوريا

ان جوار البحر المتوسط ، وارتفاع سلاسل لبنان يطبعان بطابع خاص المنطقة التي هي امتداد لصحاري البلاد العربية نحو الغرب : كنعان في الجنوب وسوريا في الشمال . وتشد هذه المنطقة الى هذه الصحاري صلة دائمة من حيث انها تتعرض لهجمات الاريح المحرقة المفاجئة ومن حيث انها تستهوي البدر الرّحل قبلغتها منهم موجات متعاقبة واقامت في اقسام كبيرة منها أحياناً . فإلما هي لهم الأرض السعيدة بفضل امطارها وانهارها وينابيعها : الزراعة ممكنة فيها وجبالها مكسوّة بالأشجار . ثم ان الطرقات المختلفة تؤدي اليها وتمر فيها . وهي المسلك الطبيعي الوحيد بين مصر وجميع بلدان الشرق الأدنى . اجل قد يلفظ البحر فجأة القراصنة ورائدي المغارات ، ولكن هذا البحر نفسه طريق تؤدي الى البلدان المختلفة . وهناك اخيراً طرق القوافل التي تصلها بأسفل الفرات وبلاد ما بين النهرين . فهي بلاد صغيرة اذنت لحدود طبيعية لها ولا وحدة فيها ولا ادارة مركزية تجمعها ، ومفترق مستطيل قسمته طبيعة الأرض الى طرائد طويلة تتجه من الشمال الى الجنوب . وهي الى ذلك مفتوحة أمام كل سيطرة وتأثير ، طمعت فيها كل الامبراطوريات العظيمة والجماعات البشرية الناشئة التي رغبت في ان تقنطع فيها لنفسها مكاناً .

بيد ان هذه الجماعات قد برهنت في ضعفها عن انها اكثر تصلباً من جيوش الفاتحين المتعاقبين الذين خلدوا مرورهم بكتابات على درجة كبيرة من التصلف فطبت تاريخ البلاد بطابعها الخاص . وباستثناء الفلسطينيين ، كانت هذه الجماعات كلها سامية ، مع انها انتسبت في الحقيقة الى اصول سامية متنوعة دخلت البلاد في عهد مختلفة . وبالرغم من تنوعها هذا ، فانها قد مارست ، أقله في البداية ، الديانة الكنعانية الشديدة التأثير بالطبيعة والزراعة . ولكنها سلكت في تطورها طرقاً متباينة وكوّنت فينفسه معقدة ، لذلك لن يستوقفنا منها سوى بعض جماعات كان لها اثرها في تطور الحضارة القديمة اللاحق .

١ - الفينيقيون

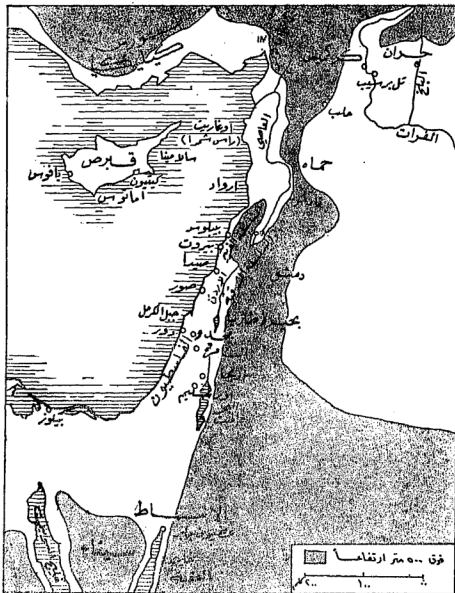
الفيينيقيون ساميون استقروا في السواحل . وزام منذ زمن مبكر في الساحل الجنوبي الذي يتقدم منه ، فيا بعد ، نحو الشمال . ومنذ اواخر الألف الثالث كأبعد حدّ نزام في اوغاريت (رأس شرا الحالية مع مرفأ مينة البيضاء) ، قبالة رأس قبرص الشرقي . ولكنهم لن يتوغلوا الى ابعد منها نحو الشمال . وعلى نقيض ذلك ، فإن الساحل الجنوبي الذي كان ساحلهم قد أفلت من ايديهم وانتقل الى سيطرة العبرانيين والفلسطينيين . ولم يحتفظوا إلا برقعة ضيقة من الارض جنوبي الكرمل . اما نحو الداخل فيبدو ان توسعهم كان محدوداً ولم يبلغوا جبل لبنان الشرقي الا في نقاط نادرة . بيد انهم توقفوا الى الاحتفاظ بعلاقت طيبة بالسوريين .

الحياة السياسية طوال الألف الثالث ومعظم الألف الثاني، توطدت علاقتهم بمصر بنوع أخص ، وكان مركزها بيبولوس ، وهو الاسم اليوناني لجبله الفنيقية وجيبيل الحالية . ولكن أسيا بلاد ما بين النهرين ، من جهتهم ، بسطوا نفوذهم على اوغاريت . ولم يتح للمدن الفنيقية ان تتمتع بالاستقلال إلا بعد انهيار الامبراطوريتين العظيمتين المصرية والحثية في اواخر القرن الثالث عشر . ولكن هذا الاستقلال كان قصير الامد اذ خضعوا فيما بعد على التوالي للسيطرة الآشورية والبابلية الجديدة والفارسية قبل ان يدخلوا في فلك اليونانيين والرومان من بعدهم . بيد ان هذه الطريدة الساحلية الضيقة لم توفر الارض الكافية لتشييد دولة كبيرة ، بل كانت تحت رحمة الامبراطوريات القوية بسبب ضعف دفاع حدودها البرية .

ولم يكتب لهذه الطريدة ان تتوحد بسبب امتدادها الى اكثر من ثلاثمائة كيلومتر وصعوبة مواصلاتها البرية التي تعترضها وديان ومرقعات كونتها السيول الجحافة المنحدرة عرضياً من الجبل الى الساحل . لذلك توزع السكان فيها على عدد من المدن احتل كل منها موقعاً مؤقتاً للنشاط البحري : جزيرة صغيرة قريبة من الشاطئ أو أرض داخلية في البحر . ولم يجمع بينها اتحاد أو تحالف بل تأكلها التجاسد والتنافس اللذان قاداها الى التحارب احياناً . فتناصبت صور وصيدا بنواقيسها ، ان تبسط نفوذاً واسعاً أو دائماً . ولكن ما بلغت النظر هو ان المدن الفنيقية ، على نقيض المدن اليونانية ، لم تنهك قواها في هذه المنازعات . ويبدو ان الاسياد الغرياء الذين بسطوا عليها حمايتهم قد فرضوا عليهم الاخلاص الى السكنينة . ولعلها ايضاً قد انشغلت بمصالح اخرى واستهوتها الآفاق الواسعة فلم تنجرب في تيار الخلافات المحلية . والجراح البالغة التي اصيبت بها صور وصيدا ، فسببت هبوطها ، انما هي نتيجة ضربات عدو خارجي لا انقسامات داخلية .

لا نعلم الشيء الكثير عن تنظيم هذه المدن وعن الحياة فيها . ونحن نرجح ان هذا التنظيم وهذه الحياة قد اختلفا من مدينة الى مدينة ومن عهد الى عهد في تاريخها الطويل . وليس من سبيل الى المقارنة بين مفهوم المدينة عند الاغريق والمفهوم نفسه عند الفنيقيين . ولم تحمل بعض الفوارق الطفيفة دون سهولة تطور المدن الفنيقية ، بعد فتح الاسكندر ، الى مدن من الطراز.

اليوناني ، على تقييض بعض المدن الآسيوية الأخرى . لذلك يتوجب علينا الاقتصار على بعض الأنظمة الثابتة . فيمكن الجزم ، بنوع من الشمول ، ان المدينة الفينيقية قد خضعت دائماً للملك



الشكل ٢٠ - كنعان وسوريا

يرأسها، وتنتقل الملكية عادة الى ذريته من بعده. والملك يتمتع احياناً بسلطة مطلقة ، كما هي حال حيرام في صور في عهد سليمان ، ولكن عليه نظرياً وعملياً في اغلب الاحيان ان يحسب

حساباً لقوى اخرى . فكان من إله المدينة الرئيسي ينعم بنفوذ واسع يحدث أحياناً ان يستخدمه لاغتصاب الملك . وقد ثبت خصوصاً استمرار وجود مجلس من « القدماء » والقضاة ، كما درجت على ذلك صور مثلاً حيث تمثل القضاة بشخصين هما « الصافطان » . ويشترك في هذه الأجهزة ممثلون عن طبقة الأغنياء دوئماً تميز بين اصحاب الاملاك واصحاب المراكب ، مما يبرهن ان للعائلات الكبرى مصالحها المشتركة . أما الشعب ، حتى ولو قام مجلس يمثله ، فلا كيان له إلا في ظروف البلبله والفوضى ، إذ يلجأ إليه الزعماء المتنافسون والأحزاب المتناهضة . ولكن هذه الجمهوريات الملكية الارستوقراطية النزعة تمثل ، بالرغم من ذلك ، الى جانب الملكيات الشرقية الكبرى ، شكلاً متكرراً في التنظيم السياسي .

الحياة الاقتصادية ولعل حياتهم الاقتصادية أكثر ابتكاراً أيضاً .
 فالزراعة ليست مهمة . وهنالك على منحدرات الجبال جلول منضدة هي ثمرة عمل شاق طويل . ويسدّ محصول الحبوب القسم الأكبر من حاجات السكان الغذائية ، وتربية المواشي بعض حاجاتهم من المنسوجات ، كما يصدر ما يفيض عن حاجتهم من خمر وزيت .
 الصناعات المهنية ناشطة جداً في المدن . وقد قصد الصيادون شواطئ ثانية جداً فبلغوا افريقيا سعيًا وراء طلب أصداف « الموركس » التي يستخرج منها الارجوان ، مما أتاح للفينيقيين ، زمنًا طويلاً ، التفرد تقريباً بصناعة الامتشة الصوفية الملونة . ولم تواجه خزياتهم منافسة تذكر في الفترة التي تفصل بين هبوط الميسينيين واتساع حركة التصدير في كورنثوس . وقد اكتشفوا أو اكملوا افضل التقنيات لصناعة ادوات الترف والجواهر والزجاجيات والطبوب والمفروشات المزلزة معدناً أو عاجاً . وفي هذا الحقل ، حتى في العهد الروماني ، سترام يتنازعون الأولوية مع الاسكندرية .

ثم ان بحثهم عن المواد الخام وعن الأسواق لبيع سلعمهم قد دفع بتجارهم دفعا الى الامام . فتعاطوها منذ عهد سحيق : قائمين ، بالإضافة الى مقتضيات ضرورياتهم الخاصة ، بدور السامسة ، فجنوا الارباح من سلع غيرهم ايضاً التي أخذوا على انفسهم امر تصريفها : هكذا سلك الجبيليون مع مصر منذ الألف الثالث ، وهكذا غدت أوغاريت في الألف الثاني مستودعاً حقيقياً للعالم الابيحي . أما في البر فلم يتولوا بأنفسهم نقل البضائع بواسطة القوافل ، ولكنهم أقاموا حيث تؤدي طرقات هذه القوافل وحرصوا على ان تقوم أحسن العلاقات بينهم وبين السوريين والعبرانيين . وإنما انقطعوا الى التجارة البحرية مستفيدين من موقع مرافئهم ومستثمري الموارد التي توفرها احراج لبنان لبناء مراكبهم . كان سكان بلاد ما بين النهرين قد اكتشفوا الأصول القانونية والمالية للتجارة البرية ، بينما نحن لا نملك قوانين ولا عقوداً فينقيّة ، ولكننا أكيدون من انها قد وجدت واعتمدت في التجارة البحرية أصولاً مماثلة . وعلى كل حال فإن الفينقيين قد برزوا في تقنية الملاحة التي تفوقت على كل تقنية اخرى ما بين القرن الثاني عشر وأواخر

القرن الثامن . وقام بعض ملاحهم من كانوا في خدمة نخاور ، أحد فراعنة سايس ، « بجولة » حول افريقيا مروراً بالبحر الأحمر وجبل طارق استغرقت ثلاث سنوات . وسلكوا بجرأة ، لحسابهم الخاص ، طرقاً غير مطروقة مندفعين بعيداً نحو الغرب ومكتشفين مصاباً الأهر والمواقع الصالحة للجوء المراكب وللذئب من الشاطئ ومستطلعين ، بتوقفهم الاضطرابي كل مساء ، شواطئ مجهولة ، حرصوا على الاحتفاظ بأسرارها . وقد نشطوا في كل مكان الى إقصاء كل من توسل له نفسه منافستهم ، لاجئين الى القوة حين يرون للقوة سبيلاً ، مستعدين لكل مقايضة ، مقدمين على الاستلاب أحياناً ومعرضين انفسهم لسطو المستلبين أحياناً أخرى . فقد التجروا ، بالإضافة الى ما التجروا به ، بالأرقاء من رجال ونساء واطفال باعهم اسياهم أو هم خطفهم بالحيلة أو بالقوة . أما ما جاء في ملحمة « أوليس » عن خطف راعي الحنازير البافع ، « اوميوس » ، بينما كان ذوهه يتباحثون مع احدالتجار الفينيقيين في ثمن عقدهم الذهب والندى ، فيبدو ان الخطأ فيه مشترك بين الطرفين إذ ان الامة الصيدونية المسؤولة عن الخطف قد خطفت هي ايضاً على ايدي قراصنة من الاغريق . ولكن الفينيقيين قد عرفوا تمام المعرفة ان الاتفاق الجبهي مع اهالي البلدان الغريبة اولى .

الاستعمار وقد توصلوا في اكثر الاحيان الى تحقيق هذا الاتفاق وتمكنوا من تحويل الاسا كل للبئدهة الى اسواق تجارية دائمة ما لبثت ، بفضل ظروف عملية مؤاتية ، ان اصبحت مدناً جديدة أحياناً . بيد انهم قد صادفوا مقاومة جديده من قبل الاغريق الذين لم يسمحوا بأن يس حرهم الايجي ، بل هم أنفسهم خرجوا منه لتأسيس اسواق خاصة بهم . فقسّمت قبرص فيما بينهم على ان الفينيقيين قد حصلوا منها على الشطر الأكبر : فكان لصيدون فيها ، في القرن الثامن ، « قرط حدثت » أو قرطاجنة ، أي « مدينة جديدة » . وقد وجب التوافق في صقلية ايضاً . ولكن الفينيقيين لم يواجها منافسة ما في سردينيا ولا في شبه الجزيرة الايبيرية ولا في افريقيا الشمالية . ولكن ذلك لم يفض الى قيام امبراطورية بمفهومها المعروف ، بل الى سلسلة من المستعمرات الفينيقية ، قد تتقارب حلقاتها او تتباعد ، ينتظر احداها ، قرطاجنة الصورية في افريقيا ، مستقبل باهر جداً . وقد نشرت هذه المستعمرات أحياناً الحضارة الفينيقية في اوساط على كثير من التخلف والتأخر .

يتناقض عدد هذه الاسواق وتشتتها تناقضاً كلياً وضيق بلاد مؤسسها الأم . وهذا دليل على كثافة سكان هذه البلاد حتى ولو سلمنا بالتحاق مهاجرين جدد من هنا وهناك بالنازحين المؤسسين . وهذا ما يعلل ايضاً امتناع المدن الفينيقية عن التوسع في آسيا وريضا عدم نشوب أزمات سياسية واجتماعية خطيرة في تاريخها الداخلي . ولكن هذا النشاط قدا أدى الخدمات الجلتي للعالم الشرقي القديم . فقد أسهمت التجارة الفينيقية ، بفضل انتشارها في الغرب المتوسطي وبفضل اسواقها التجارية في شرقي اسبانيا وفي قادش بعد مضيق جبل

طارق ، في تومين الشرق بالمعادن النادرة لاسم القصدبر المستخرج من الجزر الكسيتيرية .
وهكذا فإن هذه المدن الصغيرة القائمة على شاطئ صخري قد وفرت للأمبراطوريات العظمى
بعض المواد اللازمة لتشييد حضاراتها .

وبالذاتة والفن
جوهراً معتقداتهم ، ديانة تتسم بطابع زراعي يميز فيما يتعلق بألهاها وخرافاتها
وطقوسها ، مما يثبت انهم تماطوا الزراعة دون غيرها قبل ان يصبحوا تجاراً وملاحين .

اطلقوا على إلههم الرئيسي اسم العلم « ايل *EI* » الذي ليس سوى اسم نكرة معناه « إله » . وقد
رأوا فيه خالق كل شيء ، وسيّد الآلهة . ويأتي بعده بعل (السيد) وهو يمثل « حنّاد » المقتبس
عن سوريا الشمالية أثناء الاستيطان وكان إله الصاعقة والرعد والمطر . اما ابنه « أليان بعل »
فيمثل الآبار وينابيع المياه الجوفية . وكان « داغون » إله القمح و « موت *Mot* » إله الحصاد ونضج
الأثمار . وغدت « عشترت » إلهة الحصب وهي لا تختلف عن عشتار بلاد ما بين النهرين كما
يتضح من اسمها . وهناك مجموعة آلهة آخرين كثيرين طرأ بعض التطور على نظرة الناس الى
جواهرهم وتسيقهم . فاستقر ملقرط (ملك المدينة) في صور ، وجع ادونيس (سيدي) اليه
« أليان » و « موت » . ولا ذكر لهؤلاء الآلهة في نصوص اوغاريت - رأس شمرا ، ولكننا
نجد ، في الاساطير التي تروىها هذه النصوص ، الخطوط المميزة الدائمة . منذ القرن الخامس عشر
قبل المسيح ، « موت » واليان يوتان مناوية ثم بقومان كما سيفعل « ادونيس » في اعياد جبيل التي
وصفها « لوقيانوس » في القرن الثاني للميلاد . وكذلك نرى ان العالم الفينيقي قد مارس طقوساً
لازمته زمناً طويلاً بموجبياتها الأصلية . فقد اثبتت اعمال التنقيب ما جاء على لسان المؤرخين
الاغريق ، اذ ان القرطاجيين قد قدموا في عهد متأخر ضحايا بشرية من الاطفال لأيل الذي عرف
عندهم « ببعل هامون » . ولعل اسم هذه الذبيحة (ملّقت) هو الذي حدا بالعبرانيين لأن
ينسبوا للفينيقيين إلهاً اسمه مولوخ .

تمكنا من معرفة الفن الفينيقي عن طريق المدافن التي يثبت قدمها وغناها اهمية عبادة
الاموات . ولكنه ليس بالفن المبتكر ، لا بل انه يكشف عن الاثر البعيد المهام الذي اضفته
عليه فنون اجنبية عدة ، وهو حين يؤلف بينها لا يتوقع الى تحقيق صهرها . المدافن في اوغاريت
معددة ويتقدمها سرداب على الطراز المسييني . ويمثل ناووس الملك احيرام في جبيل ، تحت
افريز من البردي ، الميث مرتدياً ثياباً مصرية وجالساً على عرش يجانبه تمثالان لاني الهول ، امام
منضدة للتقدم مصرية ايضاً . اما في صيدون ، فان بعض نواميس القرن الرابع على الاقل التي
قد صممت على شكل معابد يونانية صغيرة ، هي دون ريب من صنع النقاشين الاغريق ، وكتاوس
« الباكيات » مثلاً الذي سبق وعولج موضوعه ، بكثير من الحرق ، على ناووس احيرام ، ولعله
موضوع فينيقي صرف . ولكن أجل وأثن الادوات الموضوعية في المدافن مصدرها اجنبي ،

وهو ، في جبيل كما في اوغاريت ، مصر والعالم الأيحي . وقد زودها هذا الأخير بنوع خاص
بمعالجات تلت الانظار . ففي هذا النطاق ايضاً جمع الفينيقيون ثرواتهم من التجارة الخارجية .

بيد ان لهم فضلاً خاصاً في تحقيق اكتشاف على جانب كبير جداً من الامة هو
الايجدية . لقد سبق ورأينا ان المصريين ، وربما سكان ما بين النهرين ، قد
اعطوا بعض رموزهم قيمة حرف صحيح ، وتمكنوا بالتالي من تحليل الاصوات الاولى . ولكن
هذه الرموز قد احتفظت في الوقت نفسه بقم اخرى كما ان رموزاً اخرى كثيرة ، لا سيما المقطعية
منها ، قد استمر استعمالها في آن واحد بقم مختلفة . ويبدو اليوم ان الخطوة الفاصلة قد خطاها
الفينيقيون . فالنصوص الدينية في اوغاريت - رأس شمرا التي ترتقي الى القرن الخامس عشر قد
كثبت انطلاقاً من ثلاثين رمزاً مسبارياً فقط يمثل كل منها حرفاً صحيحاً . وكانت هذه الرموز
معقدة جداً وصالحة للكتابة على الفلين فقط . ويرجح ان النجاح الاخير قد احرز بعد ذلك
بقليل وكان مكتملاً عندما اودعت جملة احيرام ناووسه في جبيل : فقد استخدم في الكتابة
المحفورة على غطائه اثنان وعشرون رمزاً اصطلاحياً تقابل اثنين وعشرين حرفاً صحيحاً . فتى
عاش احيرام يا ترى ؟ هنالك آنية من حجر الشطوط تحمل اسم رمسيس الثاني وضعت على مقربة
من الناووس مما يجعلنا على الترحيح انها معاصرة للقبر تقريباً . فلا يرتقي هذا القبر والحالة هذه
الى ما بعد آخر القرن الثالث عشر . وهل اشتقت هذه الرموز من اسلوب كتابي غريب ؟ كل
ما نتحققنا منه هو انها لا ترد الى تبسيط الرموز الهيروغليفية او المسارية . ولكن هذا يهيب بنا
الى الاعتقاد بان الفينيقيين قد ابتدعوها بمزل عن أي تأثير . ويتضح بالتالي ان التقليد اليوناني
الذي نسب اليهم اكتشاف الايجدية قد صادف تأييداً ركيناً بالاكتشاف الذي طلعت علينا
به جبيل .

ويستدل من مقارنة الرموز ان ايجدية ناووس احيرام كانت مصدر الايجديات المعتمدة في
كتابة لغات الشعوب السامية والمجاورة : الأرامية والعبرانية . ثم استوحاها الاغريق بدورهم
مضيفين بعض العلامات النافذة او الجديدة الى اشكال حروف ايجديتهم الخاصة ، لا سيما حروف
العلمة منها . وما الاسماء التي اطلقوها على هذه الحروف سوى اسماء سامية كالف التي تأتي من
ألف مثلاً ، وغيرها ... ثم نقل كل العالم المتوسطي الايجدية عن الاغريق .

فلا خوف اذن من المغالاة في اطراء امة هذا الاسهام يحققة
دور الحضارة الفينيقية التاريخي
الفينيقيون في الحضارات القديمة . وان لهم عليها فضلاً اخرى
أتاح العرض السابق تقديرها وتوقعها : استكمال التقنيات البحرية التي لا نعرفها تماماً على كل حال ؛
استكشاف شواطئ المتوسط الغربي ؛ تنظيم المقايضات فيما بين المناطق والحضارات النائية .
واذا اعوزم النقد الذي لم يظهر في مدنتهم قبل العهد الفارسي ، فانهم حريصون على ان يكتبوا
لبحارة التجار ، في تعاملهم والشعوب المختلفة ، بالمقايضة دون صعوبة . وقد استمرت امة

دورهم الاقتصادي، حتى بعد ان دخلوا في فلك الامبراطورية المقدونية والامبراطورية الرومانية من بعدها ، وحتى بعد ان اشتركت البلدان الغربية اشتراكاً مباشراً في الحضارة العامة . وقد حافظت صناعاتهم الإخرافية على نشاطها الواسع ، وقد انتشر تجارهم الذين لم يميز بينهم وبين « السوريين » في كافة انحاء العالم الروماني ، وأسهموا في اشاعة بعض العبادات الشرقية فيه . بيد ان انطلاق هذه الاشاعة يعود لى عهد مبكر جداً اذ قد مهد لها الطريق وجود البجارة الفينيقين في كل المرافىء . ففي السنة ٤١٥ قبل الميلاد ، احتفل بعيد ادونيس في البيرة بحضور جماهير شعبية غفيرة ، وكانت النساء تتحسرن على موت الاله الذي لن يلبث ان يقوم ، حين اقلع الاسطول العظيم شطر صقليا حاملاً معه آمال اثينا والقيسادياس .

٢ - الأراميون

وراء الطريدة الفينيقية الساحلية ، تقوم سوريا التي هي ملتقى طرق وملتقى شعوب أيضاً . فقد استوطنتها شعوب عدة وتناوبت السيطرة عليها تاركة فيها عنصرات مختلفة القوميات انصهرت رويداً رويداً في كل متجانس وتاركة أيضاً بقايا أثرية يحاول المعاصرون تنسيقها . ولتقتصر بين هذه الشعوب على الاراميين دون غيرهم ، اذ ان حضارتهم تنطوي ، في بعض مظاهرها ، على اهمية راهنة .

الحياة السياسية
الأراميون أيضاً ساميون جاؤوا من احدى مناطق الصحراء السورية العربية . كانوا في البدء بدواً رحلاً منتظمين قبائل ، هاموا على وجههم حتى بلغوا الاصقاع العليا من بلاد ما بين النهرين حيث نجدهم ، على بعض الكثافة ، مستقرين في حران أولاً . وقد جاء في سفر التكوين ان يعقوب قد اقام طيلة عشرين سنة عند لابان على بعض المسافة من هذه المدينة . ثم هاجروا ، ابتداء من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الى سوريا حيث أسسوا مستعمرات حضرية . بيد انهم لم يقدموا يوماً على طرد قدامى السكان كلياً ، ولم يتوصلوا الى غرهم عدداً ، كما انهم لم يؤسسوا يوماً دولة واحدة ، بل بمالك متعددة قد تتحارب احياناً . ولعل أهم ممالكهم تلك التي قامت في واحة دمشق الكبرى عند لحف جبل لبنان الشرقي ، وهي مملكة اسرة « بن حدده » (ابن حدد) ومملكة هازائيل (ايل بنظر) . وبإستطاعتنا ان نذكر ، الى جانب مملكة حران ، ممالك اخرى كثيرة : في حلب ، وحماة على العاصي ، وزنجري على لحف اماوس ، وغيرها .. وتعدد التوراة ثلاثة وثلاثين ملكاً حليفاً في القسم الثاني من القرن التاسع . ويمكن القول انهم بلغوا اوج الازدهار في القرنين الحادي عشر والثامن اذ سدوا الطريق امام الاشوريين نحو الغرب والشمال الغربي . غير ان الملوك الاشوريين منذ اواخر القرن العاشر ، عندوا في تسديدهم الضربات يوم كانت لهم منازعات مع العبرانيين . وفي اواخر القرن الثامن تم القضاء على استقلالهم ، فخضعوا باستمرار بعد ذلك التاريخ الى الدول الاجنبية .

كان لكل مملكة أرامية عاصمتها وملكها وسلالتها ومفتصبوها أيضاً . وقد فرض الآشوريون الجزية والتفاد على هذه أو تلك من الممالك محاولين حل الملك على القبول بدور صاحب الإخاذة الموظف في آن واحد . ولكن هذا الملك كان يهب عند أول سائحة ، لاستعادة استقلاله . وجلي ان لا جديد غير عادي في كل ذلك . بيد انه يجدر بنا ان نذكر الكتابة التي يجدها فيها أحد ملوك زنجري احسانات سياسته الداخلية ، بعد انتصاراته الخارجية : « كان « المشكب » يطوفون كالكلاب . أما أنا فقد كنت لهذا أباً ، ولذاك أم ، ولذلك أخاً . وذلك الذي لم ير في حياته رأس خروف ، جعلته يملك قطعاً من الماشية الصغيرة . وذلك الذي لم ير في حياته رأس ثور ، جعلته يملك قطعاً من الماشية الكبيرة ويملك الفضة والذهب . أما الذي لم ير القميص منذ حداثة سنه ، فقد ألبس الخنزير في ايامي . أنا امسكت بأيدي المشكب الذين كيفوا نفسهم كما يكيف التبع نفسه حيال امه . فاذا ما جلس احد اولادي على العرش بعدي وأقدم على اطلاق هذه الكتابة ، فليضن المشكب باحترام الباربر وليضن الباربر باحترام المشكب ، . وانما المهم في هذا النص ، ذكر المشكب ، وهم بلا ريب عمال زراعيون ، وربما فداديون ، حسن الملك وضعهم تحقيقاً للالفة بينهم وبين الباربر ، «القناة» ، أي القناة أو الاشراف . وقد يكون لهذه الفكرة سابقاتها في الحضارات الشرقية الاخرى . ولكن قوة التعبير فيها تبدو حديثاً جديداً . ومن سوء الحظ ان ليس من نص حتى الآن يلقي ضوءاً آخر على الحياة الداخلية في هذه الدول الصغيرة .

الدور التجاري
أما دورها التجاري فأقل غموضاً . فالواقع الجغرافي لسوريا وشمالى بلاد ما بين النهرين ، الذي جعل منها طريقاً طبيعياً للتجارة بين الساحل الفينيقي وآسيا الصغرى من جهة وبين مناطق اسفل الفرات ودجلة من جهة اخرى ، قد سمح لها ، كوسطاء ، باظهار المزيد من النشاط الواسع . فقاموا برأ في بعض اقطار الشرق الأدنى بما قام به الفينيقيون بجزر . وما لبثت الصناعة والتجارة في سوريا ان طبقت اصولاً تقنية افضل فتألت شهرة كبرى وأسهمت في ثروة دمشق . ولكن القوافل كانت قد تقاطرت على هذه المدينة منذ قبل الفتح المقدوني . ثم ان تغلات الاراميين قبسل اقامتهم الحضرية المستقرة ، واقدام الملوك الآشوريين مرأراً على تفهيم ، وهجرة تجارهم الطوعية الى الامبراطوريات الواسعة الارحاء التي انخرطوا في عداد رعاياها ، كل هذه الاسباب قد أفضت الى احلال جماعات ، كبيرة أو صغيرة ، من يتماطون التجارة ، في مدن عديدة نائية جداً في بعض الاحيان . وقد استفادوا من هذا الوجود المتزايد في كل مكان ، حتى في عهد السيطرة اليونانية ، وسيصبحون ، في ايام الامبراطورية الرومانية ، التجار في كل امصار العالم القديم تقريباً .

وكانت اولى نتائج ذلك انتشار لغتهم التي انصهرت لهجاتها المتعددة في الآرامية لغة الشرق
لغة آرامية عامة . وهم لم يكتبوها بحروف مسبارية ، بل طبقوا عليها ايجدية مشتقة من الايجدية الفينيقية . فحملت سهولة استعمالها الملوك الآشوريين على استخدام

الكتابة الأرامية المنتشرين هنا وهناك، في اداراتهم ، للكتابة على البردي. وذهب الاخمينيون الى أبعد من ذلك فجعلوا من الأرامية لغة امبراطوريتهم الادارية . واذا ما اضفنا الى ذلك نشاط الأراميين التجاري يتضح لنا كيف ان لغتهم قد عم استعمالها وحلت محل لغات اخرى كثيرة . وتبين لنا نجاحاتها اسباب اضمحلال اللغات القديمة الخاصة في بلاد ما بين النهرين . فأصبحت العبرانية بالشلل حتى في فلسطين . لذلك نرى في التوراة بعض المقاطع الأرامية . فكتاب دانيال قد وضع كله بهذه اللغة ، ولم ينقل الى العبرانية جزئياً إلا بعد ذلك بزمن . وكذلك فان يسوع وتلاميذه لم يعملوا بالعبرانية بل بالأرامية . وكذلك أيضاً فان اللغة السريانية وهي لغة المسيحيين في سوريا وبلاد ما بين النهرين طيلة احقاب طويلة، تشتق من اللغة الأرامية . ولم يحدث من انتشارها أولاً، وبسبب زوالها ثانياً، سوى الفتح العربي وحده، في القرن السابع بعد المسيح . ولكنها قبل ذلك لعبت في الشرق الأدنى كله ، باستثناء مصر وآسيا الصغرى ، دوراً كبيراً جداً : تجارياً وثقافياً وحتى أدبياً وسياسياً من حيث هي اداة توحيدية .

ليس ما يلفت النظر في فن الأراميين طيلة هذا العهد القديم . وما كانت الديانة الديانة تلتفت الانظار وتسلم ببعض الأهمية لولا الشهرة التي سبغها بعض عبادتهم في عهد الامبراطورية الرومانية .

فديانتهم هذه لا ابتكار ولا تفرّد فيها ، بل هي مزيج جوهره كنعاني انضمت إليه تأثيرات ميثانية وحثية وفنيقية . وبما سهل استساعة هذه التأثيرات ان العبادات التي عكستها تتحدر هي نفسها من العبادات الكنعانية . وهكذا فقد عرف ايل هنا وهناك ، كما ان إله الزوبعة ، « حدد » ، خصوصاً - واسمه رامون اي « القاصف » في دمشق - يعرف باسم بعل في اكثر الأحيان . وكذلك فإن عشتري هي المثلل الأصلي لأغلبية الآلهات . ثم ان آلهة ما بين النهرين للكثيري العهد ايضاً لم يتميزوا عن الآلهة الكنعانيين ، باستثناء بعل حران الإله القمر سين Sîn الذي جاء من أور في بلاد الكلدانيين وأكرم في هذه المدينة منذ عهد سحيق ، محافظاً على اسمه دون تغيير .

فسوريا إذن كانت ملتقى دينياً ايضاً . وفي عهد متأخر ، أي في أوائل العهد الميلادي ، حولت وبالأحرى صهرت ما تجمع لديها من نظريات ، عن طريق التوحيد ، في اللاهوت الشمسي . وقد صدرت الكثير ايضاً عن طريق تجارها الموجودين في كل مكان وجنودها الذين انخرطوا في خدمة روما والجنود الغرباء الذين أقاموا في ارضها . « فالإله السورية » ، « أثارغائيس » ، وبعل دوليكبه ، وبعل هلبوليس ، وبعل حصص ، الذين انتشرت عبادتهم في اوروى ، انما خرجوا منها . وفي اوائل القرن الاول قبل المسيح كانت عبادة اثارغائيس راسخة في ديلوس .

في تلك الازمنة التي بسطت فيها روما سيطرتها على العالم ، لم يوجد ، منذ زمن بعيد ، من يأبه الملوك أشور العظام أو لحضارتها . وعلى تقويض ذلك لم يشمل تأثير الأراميين الحقيقي ، في

يوم من الايام ، المناطق الشاسعة التي شملها حينذاك . ولعل مرد تأثيرهم هو في الاصل فقدان استقلالهم السيامي حين قمع سرجون الثاني الانتفاضات الثورية الاخيرة في حماة ودمشق . وفي التاريخ اكثر من مثل على هذا التناقض الظاهر .

٣ - العبرانيون

ان هذا الشعب السامي الذي عاش زمنا طويلا حياة البدو الرحل ، المتشردين احيانا ، والذي تعنى واستوطن فلسطين نهائيا ، بعد خروجه من مصر ، في اواسط الالف الثاني قبل المسيح قد عرف مصيرا خارقا غريبا . وهذا المصير ليس خارقا بمجد ذاته ، اقله حتى متازعاته مع الملوك المقدونيين الاخيرين ومع روما ، فان شعوبا شرقية صغيرة اخرى قد اصابها ما اصابه من تقلبات الدهر المائلة ، وانما الفارق الكبير الوحيد هو اننا اكثر معرفة باحوال الدهر فيه منها في سواه ، ثم ليس تاريخه كتاريخ ، ما يجب ان يستوقفنا هنا . لكن مصيره الخارق قائم في غرابة تطوره الديني والاخلاقي وفي اتساع وعظمة دوره في تاريخ البشرية الروحي .

أ - التقلبات الزمنية

يكفي اذن ان نرسم بسرعة الخط البياني المنحني لتنظيمه السياسي ولنشاطه القضاة ، اذ ان الاشكال التي تلبسها لم تبق دون نتائج في النفوس .

فرضت الحياة البدوية على العبرانيين نظام القبائل الجماعي . ثم فرض عليهم الصراع ، وبغية احتلال ارض الكنعانيين ، والمنازعات مع الفلسطينيين بنوع خاص ، تنظيماً آخر جانباً ظهور الروح القومية وسيراً في مدرج التقدم : فالجرب تتطلب رؤساء يستطيعون جمع الحد الاقصى من طاقات العمل والنشاط في مجهود مشترك .

كان الرؤساء الاول « القضاة » ، وهو الاسم الذي اطلق على القضاة المدنيين في المدن الفينيقية . وقد تسربت الاسطورة الى التقليد الذي تكون هولهم . ولكننا نلصق فيهم ، دون عتاء ، رجالاتهم الاخطار ويمتعون ، بفضل صفاتهم الشخصية ، بنفوذ وفتح عسكري وسياسي وديني معا . وقد اعتبرهم الناس اقرب الى الالهية من باقي البشر ، بما اركن سلطتهم على اساس وطيدي . ولكن هذه السلطة اقتقرت الى ادارة منظمة واكتفت بالاساليب البدائية . « وقضى صموئيل لاسرائيل كل ايام حياته . وكان يذهب من سنة الى سنة ويدور في بيت ايل والجلجال والمصفاة ويقضى لاسرائيل في جميع هذه المواضع . وكان رجوعه الى الرامة ، لان بيته هناك ، وهناك قضى لاسرائيل » . اما شاوول ، فكان يشاور مع معاونيه جالسا تحت الالة في جيمة فوق المرتفع ، « رحمه في يده وجميع عبيده وقوف لديه .

الملكية الاتحادية وما لبث شاوول ان منح اللقب الملكي في اواخر القرن الحادي عشر ، على الرغم من المعارضة التي صادفها هذا الحدث . ولكن الملكية لم تصبح اتحادية حقاً الا في ايام منافسه وخلفه داوود الذي حدّد لها اورشليم مركزاً . ثم سلها لابنه سليمان الذي عرفت في ايامه ، في اواسط القرن العاشر ، ازدهاراً باهراً حقيقياً .

ولكنها لم تميز باي تفرد خاص في تنظيمها السياسي والاداري ، اذ كانت من المحم عليها ، حتى في نطاق شعب صغير ، ان تستوحي المثل الشرقي العظيم . وكان داوود يحسب حساباً للقبائل والمدن التي كانت لها بمثابة عواصم صغيرة . اجل انه جسد مجلساً من الموظفين مع رئيس كنية ومسؤول عن اعمال السخرة وقواد وحرس ومرتزة ، ولكنه كان يستدعي مندوبي القبائل ايضاً التي يلجأ اليها عند تعبئة الجيش . واحرز النظام المركزي تقدماً كبيراً في عهد سليمان ، وازداد عدد موظفي البلاط الذين يعملون الى جانب الملك في ادارة المملكة . وقسمت البلاد الى اثني عشرة مقاطعة اسند امر ادارة كل منها الى « وكيل » وفرض على كل منها تأمين المواد الغذائية للقصر الملكي طيلة شهر كامل . ونظمت اعمال السخرة وثقلت وطأتها ، مما اثار شكوى الشعب المريرة الحادة . وان الفارق الاساسي الوحيد الذي ميزها عن الملكيات المجاورة ، لا سيما مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين كانتا لسليمان مثله الاعلى ، كان في الحقيقة فارقاً دينياً . فلم يكن الملك يوماً من الايام ابن الاله او نائبه على الارض ، بل اقتصر على ان يكون « مسيحه » . واذا كان ذلك قد اضفى عليه صفة مقدسة ، فانه ، مع ذلك ، لم يتصل مباشرة وبصورة عادية بالاله ، كما انه لم يمارس قط ، ولو نظرياً ، سلطات رئيس الكهنة . ولكن المركزية قد رافقت ، على الاقل ، تقدم ملوس نحو المركزية الدينية . فاقام داوود ، من قبل ، ثابت العهد في اورشليم ، وحين توفق سليمان الى تشييد الهيكل ، سعى جهده لان يتخلى الشعب عن المعابد العديدة المنشأة في زمن الحياة البدوية .

وقد اعارت الملكية الحياة الاقتصادية اهتماماً كبيراً ، سعياً وراء توفير مواردها . فحرت العبرانيون ازدهم واحرزوا نتائج حسنة ، حتى في الحبوب ، فاستطاعوا ان يصدروا الى الفينيقيين القمح والزيت والعسل والشع والطيوب . وقد حالف سليمان حيرام ملك صور ، على المتوسط ، كما نشط لاجتذاب تجارة القوافل من شرقي الاردن . وقد انشأ في الجنوب قاعدة عاصيون جابر البحرية في اقصى خليج العقبة رغبة منه في ان يحول اليها شطراً من التجارة مع الجزيرة العربية التي احتكرتها مصر حتى ذاك التاريخ . ثم بنى المراكب وقدم له حيرام الملاحين . ولعل من اسطورة ملكة سبا احياء لذكرى العلاقات التي ربطت العبرانيين بدولة زخرت بالكثير من المحصولات المرغوبة . وقد جاء في التوراة ان سليمان « جعل التنقيب في اورشليم عاديّاً كالحجارة » .

وقد استجند ثرواته لا لتقوية جيشه فحسب بل لتجميل عاصمته ايضاً . فاقام على رابية

صهيون الهيكل و « بيت الملك » الذي اكمله بقصر للملكة التي قبل عنها أنها اميرة مصرية . ولكن التنقيب عن الآثار لم يتوصل الى اظهار هذا او ذلك من هذه الابنية . ولذلك فان كل محاولة لتحقيق تصميمها تكون مجرد اجتهاد . غير ان المعلومات التي توفرها التوراة (الملوك الاول ، الفصلان السادس والسابع) تتيح لنا بسهولة التأكد من واقع تأثير مصر وبلاد ما بين النهرين ، على الرغم من ان الكاتب يشدد باعجاب على المساعدة الفينيقية وعلى الاسراف في البذخ . وقد استعمل ، بسخاء كلي ، خشب الارز والصندل ، والحجارة المنحوتة ، والذهب ، والفضة والشبهان . وصنع العرش الملكي من العاج المغشى بالذهب : « لم يسبق ان صنع شيء مماثل في اية مملكة » . « ما من اناة فصي » في آنية المائدة الملكية : « اذ لا اعتبار لها في ايام سليمان » . وقد قدم حيرام ملك صور كثيراً من هذه المواد ، كما قدم بدون شك عمالا اختصاصيين . ولم يزدهر الفن عند العبرانيين الا في هذه الفترة القصيرة . ولكن يتعدن تكوين فكرة واضحة عن الاعمال المنجزة حينذاك ولنا نعرف معرفة ثابتة سوى الامور التالية : غنى المواد ، والسعي المقصود وراء العظمة والبذخ ، وفقدان الابتكار والقرود .

الازمات والتبوقراطية يبدو ان عهد الظلم هذا لم يدم طويلا ، اذ ان اولوية اورشليم قد اثارت الشكاوى ، لاسيا من الضرائب الباهظة والمركزية . فتفجرت الازمة السياسية منذ موت سليمان في السنة ٩٣٥ وادت الى انقسام البلاد الى مملكتين : يهوذا ، وعاصمتها اورشليم ، التي التحق بها سبطان فقط ، واسرائيل ، وعاصمتها السامرة ، التي التحق بها الاسباط العشرة الاخرى .

وجاءت الازمة الاجتماعية اكثر عمقا واشد خطراً . كانت الحياة البدوية قد فرضت نظاما حياتيا ، ان لم يكن ديموقراطيا بالمعنى الصحيح ، فقوامه المساواة بين الشعب ، وذلك بفضل اشتراكية الاموال والاملاك . فزالته الحياة الحضرية رويداً رويداً ثم افضى الاقتصاد التجاري الذي شجعتهم الملكية الى التفاوت الاجتماعي ، وذلك بوضع الاغنياء والفقراء جنباً الى جنب . فهاج في النفوس الحنين الى الحياة البسيطة . وكان سليمان واورشليم وحدهما في البدء موضوع انتقاد ، اي ان الانتقاد تناول الملكية التوحيدية وانشاءاتها البنائية التي جسّمت ، بلجوتها الى المحصولات الاجنبية ، الاقتصاد الجديد وعواقبه الاجتماعية الوخيمة . ثم شمل الانتقاد ملوك اسرائيل ايضا الذين لم يبرهنوا قط عن انهم اكثر عدلا واسمى اخلاقا من ملوك يهوذا .

ولاح الخطر الخارجي اخيرا ليس من سكان الساحل والملوك الاراميين فحسب كما في الماضي بل من الملكيات العظيمة التي استمادت قوتها على النهوض بالمهام خارج حدودها . فقدت فلسطين فريسة للدسائس الدولية وساحة حرب تصادمت فيها الجيوش الاجنبية . فحالقت المملكتان ، على التوالي ، هذه الدولة او تلك ، وبجست دون جدوى عن دولة حامية تكون اقل خطراً ، غير انها انتهت الى الزوال .. فقد فتح سرجون الثاني السامرة في السنة ٧٢١ ونفى ٢٧٢٩٠

شخصاً من السكان الى بلاد اشور وقضى على اسرائيل. وفي السنة ٥٨٧ كان نبوخذ نصر اشد قسوة في اورشليم اذ انه دمرها نهائياً واجلى عنها كافة السكان الذين نقام الى بابل .

بعد ان كورش الاخميني ، بعد ذلك بخمسين سنة تقريبا ، وضع حداً لهذا النفي وأذن للebraيين بإعادة بناء اورشليم . ولكن لم يكن هنالك بعد اي عضو من الاسر الملكية القديمة . ولم يكن الفرس ، ولا المقدونيون من بعدهم ، ليرضوا بقيام ملكية قومية جديدة . لذلك لم تعرف فلسطين بإشراف المرازية ، سلطة غير سلطة الطبقة الكهنوتية . وكان على رأس هذه الطبقة رئيس كهنة يدير شؤون البلاد ، يعاونه مجلس اعيان من المدنيين والكهنة ما لبث ان اطلق عليه اسم « سنديرين Sanhédrin » (من اليونانية سنديرون مجلس) اي المجلس الاعلى . ودام هذا النظام التيوقراطي الذي جعل من الدولة القديمة كنيسة ، بعد ان اصبحت دائرة في ولاية حتى القرن الثاني قبل المسيح ، اذ انتهت انتفاضة المكابيين على السلوقيين باستعادة الاستقلال وارجاع الملكية .

اولوية الديانة
ان هذه العجالة التي توجز ، على الرغم من اسبابها ، تاريخنا كثير التقلبات ، تتيح لنا منذ الآن بعض الاستنتاجات .

فالebraيون لم يدخلوا سياسياً ، شيئاً جديداً يستحق الذكر ، على تاريخ الحضارة . فالتيوقراطية نفسها ليست نظاماً جديداً في حياة الشرق ، حتى ولا النظام القبلي من قبل ، وتكون الوحدة الوطنية بقيادة شخصيات بارزة ، والازدهار القصير الامد الذي عرفته الملكية القائمة على مبدأ المركزية .

وكذلك فان اسهامهم الفني ، بقدر تخيلنا له على الاقل ، مفقود تماماً ، ولم يكن له ، على كل حال ، اي اثر في الخارج .

اما الادب فأكثر حظاً من الفنى . فنحن نعرف تاريخ العبرانيين بفضل التوراة في الدرجة الاولى . واذا كان لهذا المؤلف من قيمة تاريخية ، كثيراً ما نتمنى من جهة ثانية لو تكون اكبر ، - ولكن اي شعب اهتم للتاريخ حينذاك؟ - فان اكثر من صفحة فيه تم عن نفعة ادبية رقيقة . فان القوة التي توحىها الصورة والعزم الذي تنبض به الكتابة والحياة التي يمحس بها التعبير ، كل ذلك يجعل من بعض القصائد روائع أدب يغذي نضارته نسخ شعبي ايضاً . ومما يلفت النظر ان عدداً كبيراً من اجمل القصائد القديمة تنسب لداود نفسه : لا سيوا نشيد القوس ، في صموئيل الثاني الذي أُلّف بعد موت يوثان وشاول ، و ٧٣ مزموراً من اصل ١٥٠ . وبلغت النظر ايضاً ، على ما في ذلك من استبعاد ، ما ينسب الى سليمان من مؤلفات شعرية كثيرة جداً - اكثر من الف - بالإضافة الى « الامثال » و « نشيد الاناشيد » و « الحكمة » التي لا شك في انها احدث عهداً . وان الصلة المقامة بين الادب والملكية تثبت المركز الرفيع الذي خصّ به الادب ، وهو ، من حيث جوهره ، لم يفتصبه اغتصاباً . ولكن بعض علماء الآثار المصرية قد

يرهنوا ان ادب التوراة هو ، اكثراً من مرة ، صدى للادب المصري . فالزمور الرابع والثسعون مثلاً مستوحى ، بصورة ظاهرة ، من النشيد لأتون المنسوب لامنوفيس الرابع والموضوع منسجماً القرن الرابع عشر . ثم ان الشعر العبراني لم يترك في الخارج ذلك الاثر الذي لا يزال حياً حتى اليوم ، الا بفضل صلته الوثيقة بالحركة الدينية التي ألبسها زينة رائعة : وماذا كان مدى اشعاعها لولاه ، في الزمان والمكان يا ترى ؟ وهكذا فان الحضارة العبرانية ، على هذا الصعيد ايضاً ، مدينة بالكثير من عظمتها الحقيقية الى الديانة التي هي ملازمة لها .

ويجب ان ننتهي الى الاستنتاج نفسه حيال التطور الاجتماعي . فامية هذا التطور ، مجرد ذاته ، قائمة في ترضيع الانتقال من اقتصاد جماعي وراعي الى اقتصاد فردي وتجاري . ولا يلبس هذا الانتقال ، في غير مكان ، بمثل هذا الوضوح وفي مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن . ولكن اذا ما نظرنا الى الدرس الذي استخلصه منه الشعب العبراني ولقنه غيره من بعده ، فان الأهمية الحقيقية الكامنة في هذا التغيير الخطير تبرز في النتائج الدينية التي افضى اليها .

ب - الديانة وتطور النظريات الاخلاقية

ان الديانة العبرانية تنفرد ، منذ نشأتها ، بميزة خاصة . فليس من النادر ، في العالم ، ان يعترف شعب باولوية الهه من الآلهة . ولكن ليس من شعب يأبى ان يعبد آلهة آخرين في الوقت نفسه . والى ذلك ، فان العبرانيين ، بالرغم من مخالفتهم للشعوب الاجنبية ، يسرون قدامي تحديد عقيدتهم الدينية الخاصة . ومن الجلي البين هنا انهم ينتقلون من عبادة اله واحد الى الايمان بوجوده واحده ولكن هذا الاله نفسه يتحول ايضاً .

اثناء مرحلة « الخروج » التي انتقل العبرانيون فيها من مصر الى كنعان ، جعلهم يهوه القديم رئيسهم ، موسى ، يماهدون لها ظهر له في سيناء ولعله بالاحرى ذلك الذي أكبرم في واحة قدش جنوبي فلسطين . وقد اطلق هذا الاله على نفسه اسم « يهوه » اي « الكائن » او « المكوّن » . وقد دعوه ايضاً « ايلوهم » وهي صيغة الجمع لكلمة « ايلوه » التي معناها « اله » ، لانهم جعلوا منه مجموع كافة القوى الالهية .

كان هذا الاله ، من نواحي كثيرة ، شبيهاً بالآلهة آخرين كثيرين . فكان اله الحياة والنبات والحصب والمعاصرة والنيوم ايضاً . وكان حاملي النظام البشري يقتص من الجريمة ويقضي بالعدل ، اوحى الشريعة ولا يزال يمكنه الاستمرار في اجلائها ؛ وهذا ما صنعه شمش مع حورابي . وقد فرض الحتان . نعم ، لم تعمل شعوب آسيا الاخرى بهذه الفريضة ، باستثناء بعض القبائل العربية ، ولكن عمل بها في مصر حيث عاش العبرانيون . وقد استازمت عبادته ، شأن العبادات

الأخرى ، المابد المختلفة والاعباد والطقوس والذبايح الدموية . وكان يكشف سر المستقبل ، اما بظهوره للبشر ، لا سبياً في الاحلام ، واما بواسطة « قرع » خشبية يسترئها الكهنة . ثم ان هؤلاء الكهنة قد جسدوا في البدء من مختلف الاسباط ثم انحصر انتخايمهم ، نظرياً على الاقل ، في سبط لاوي . ولكن كم من الشعوب كان لها طبقها الكهنوتية ايضاً ؟

ولكن يوه ، مع كل هذا ، يبقى متميزاً عن كافة الآلهة الآخرين لانه اله العبرانيين ويفرض على اسرائيل ان لا يكون لها اله سواه . وليس في ذلك نكران لوجود آلهة آخرين ، غير ان هؤلاء لا يمكن ان يكونوا الا آلهة شعوب اخرى . وقام بينه وبين العبرانيين « عهد » حصري الزامي لكلا الطرفين . وقد رمز الى هذا العهد « التابوت » ، اي الصندوق الذي اودعت فيه « لوحات الشريعة » ، والذي رافق العبرانيين في حلهم وترحالهم ، حتى اليوم الذي اقام فيه داوود في اورشليم . اما الاعباد التي تمت في البدء بصلة الى الحياة الراعية والزراعية فقد غدت حفلات تذكارية لاحداث تاريخ العبرانيين وشدت بالتالي وفاق العهد بين العبرانيين وبين يوه . وهكذا فان الفصح ، وهو عيد كثير الرموز يرتبط في آن واحد بعبادة قمرية وبقرية الحملات وبيده حصاد الشعير ، كان يذكر ، على نحد قولهم ، بالخروج من مصر . وهكذا ايضاً فارت تخم عيد « المظال » الذي يحتفل به في الحريف للدلالة على نهاية الحياة النباتية ولاستئزال المطر الضروري للمواسم المقبلة ، كانت تذكر بظروفهم الحياتية اثناء اجتياز الصحراء . فالتفسيرات النوعية حوّرت اذن معنى الطقوس التي لم تنطو مجد ذاتها على اي تفرد وابتكار ، واسهمت في ابعاد العبرانيين عن الشعوب الاخرى وابعاد يوه عن الآلهة الآخرين .

ولكن يوه من جهته لم يبد وكأنه إله شامل يهتم لشؤون الشعوب الاخرى بل خص العبرانيين وحدهم بحبته وعدله وعضده وقدرته الحامية مبغضاً جميع اعدائهم . وقد تجلى ، حيال هؤلاء ، تحيزه وعنفه وتعطشه للدم . وحبّد كل مكيدة وارصى بكل اباداة واسترذل كل شفقة . وهو انما كان « اله الجنود » لاقامة شعبه في كنعان ولتصرته على الفلسطينيين .

ذلك كان الاله الذي تطوّر .

اشطار التأثيرات الخارجية

كان بالإمكان - ومن الطبيعي - ان يتجه هذا التطور نحو تقارب من الآلهة الآخرين ، وقد توفرت لذلك ظروف كثيرة . فاقامة العبرانيين في كنعان ، وتشتمهم واستبطانهم في وسط شعوب كان لها آلهتها وعباداتها ، وصفة هذه العبادات الزراعية ، وروابط هؤلاء الآلهة القديمة بالواقع والنباتية والاشجار والصخور والجبال ، كل ذلك كانت عبادة لإجداء شبه حتم . وبالفعل فان العبرانيين لم يقفوا احياناً عند حدّ التأثير بتفريات بعسل وعشيرة الكنعانيين ومعابدهما واصنامهما وطقوسها ، بل تجاوزوها الى البلدان النائية التي اثر آلهتها في الملكية نفسها ، حتى في ايام مجدها ، كما في عهد سليمان مثلاً . فالعلائق التي ربطتهم بالعرب والفينيقيين بنوع اخص لم تقم دون مقابل ، ففرضت عليهم مصلحتهم التجارية المسيرة

والاغضاء عن بعض العبادات . وبعد ذلك ، لم يكن وجود الجيوش الأجنبية المصرية والآشورية والبابلية ، واقدام الفاتحين على انشاء مستعمرات في البلاد ، واقامة المتقين في بلاد ما بين النهرين ، لتبقى دون نتائج . فكيف سمح اله العبرانيين لنفسه بالتهرب من واجبه في حماية شعبه وتزول كل هذه المصائب به ؟ أفلا تكفي هذه الاحداث كلها للدلالة على تفوق قدرة الآلهة الاخرين الساحقة على قدرته هو ؟ وهكذا فان العهد القديم كان عرضة للنكسات الدائمة .

اورشليم ولكن قوى اخرى اشدّ قدرة قد نشطت في عملها من جهة مقابلة .
نذكر منها اولاً اولوية اورشليم . ويعود الفضل في هذه الاولوية لبادرة الملكية التوحيدية . وليس من شك في انها بدت كملحق طبيعي لكنينة هذه الملكية وبرامجها السياسي القائم على المركزية . ناهضت الملكية ، بعد ان استقرت في اورشليم ، المعابد المحلية رغبة منها في احتكار نفوذ العبادة لمنفعة عاصمتها اي لمنفعتها الخاصة ، وتوصلاً لمراقبة الكهنة مراقبة اجدى . وكانت الغاية البيئنة من تشييد الهيكل الفخيم تسهيل حصر العبادة في مركز واحد ، لا سيما وان الحصر يؤدي بالضرورة الى زيادة عدد التقادم ومحصولها .

ولم يفض قيام المملكتين الى النتائج التي توقع حصولها . ففي مملكة اسرائيل الراسعة ، وجد اتباع يوه انفسهم اكثر ميوعة وانفلاتاً ، فزغوا الى التظاهر فيها باستعدادهم لتقبل التأثيرات الخارجية ، ولا سيما الكنعانية منها . فبدا ايمانهم وما يستازعه من طقوس اقل نقاء وصفاء . ولم يقدّر يوماً للسامرة ، على الصعيد الديني ، ان تنافس اورشليم ، اذ ان سياسة المركزية ، في مملكة يهوذا ، قد أمنت لها الفوز في هذا المجال . ثم ان السامرة ، من جهة ثانية ، قد سقطت نهائياً في ايدي الاجنبي ، مائة وخمسة وثلاثين سنة قبل اورشليم ، واخضعت لسيطرة اطول مدى اخذت على نفسها افساد الاخلاق . وحين استطاع احفاد المتقين القدماء العودة الى البلاد ، كانت القضية القومية في حكم المشبهة .

استأثرت اورشليم اذن بالعبادة الحقيقية . ولم يوجد ، خارجاً عنها ، سوى اماكن للصلاة المشتركة . ولم يشذ عن هذا المبدأ ، خلال التاريخ ، سوى تجاوزات نادرة حصلت كلها في العصور القديمة . وبالرغم من تشتت الشعب فقد توجب الاحتفال بالاعباد الكبرى ، ولا سيما الفصح ، وفاقاً للطقوس ، على رابية صهيون ، مما جرّ الى فريضة حجّ دوري سنوي الى الهيكل . وهكذا فان اسم يهوذا ، وهو اسم السبط الذي خرج منه داوود واسم المملكة التي كانت اورشليم عاصمة لها ، قد تخلّد في ما نسب اليه ، وهذا هو منشأ كلمة «يهودي» .

فكان على اورشليم بالضرورة ، والحالة هذه ، ان تسمى جاهدة للابقاء وللتشديد على ميزة الديانة التي كانت هي مركزها والتي لم تتميز عنها عملياً . فكل تقرب ، ولو بعيد ، من عقيدة دينية غريبة ، وكل تبني ، ولو بعيد ايضاً ، لممارسة طقسية غريبة ، يثيران الريبة والشبهة . ثم ان عبادة المعبود من الآلهة ، خارج اورشليم ، وهي نتيجة شبه حتمية للايمان بتعدد الآلهة ،

كانت لهذه الديانة بالرصد . ولذلك فان هذا الاستثثار من قبل صهيون لم يجد ما يبرره سوى
الابقاء على العهد وشدّ اواصره .

الانبياء : يجب إذن ألا نهمل دور العوامل الزمنية . ولكن العوامل المقابلة ، وقد سبق
تعدادها ، تكاد تكفي لابطالها . لذلك تحتم علينا البحث ، في غير مكان ، عن
قوى اخرى حاسمة ، هي القوى الروحية التي احاطت العبرانيين ، بوجودها وبعملها ، بهذه
الهالة من الامة التاريخية الحقيقية ، لانها حجر الزاوية في تقدمهم ، وبالتالي في اشاعتهم المستمر .
وقد تجسّدت هذه القوى في الانبياء الذين تنسب اليهم التوراة ، عملياً ، كل الفضل في الانتصار
على التيارات الدنسة والنجسة ، وليس من شك هنا في انها جمّلت دورهم ايما تجميل . ولكنها ،
من جهة ثانية ، لا تقول شيئاً عن التطور . بيد ان التطور يتراءى بالرغم من صمتها . وبالرغم
من صمتها ايضاً ترى ان الانبياء هم باعثوه الرئيسيون .

الانبياء عنصر حضارة العبرانيين الجوهري والمميز . وليس من حضارة ، على ما نعلم ،
توفر لها مثل هذا العنصر . فقد قدّموا لهم ، على كل حال ، الخير الذي أدّى اختاره الى ابعادهم
وفصلهم عن الحضارات التي عاصرتهم والى تأمين عظمتهم ووحدتهم . وطبوعوا بطابعهم الخاص حتى
الادب نفسه الذي سموا به الى مرتبة الآداب الرفيعة .

لقد كثر عددهم جداً منذ القرن الحادي عشر حتى قبيل العهد الميلادي ، بحيث ان عددهم
هذا واستمرارهم جعل منهم مؤسسة حقيقية خاصة بالعبرانيين لا يمكن ادراك العبرانيين بدونها .
وقد خضعت هذه المؤسسة للتطور شأن كل ما يمت الى الانسان بصفة . ولكن الانبياء ، بالتحديد ،
هم « الملهبون » - وهذا هو معنى اسمهم الجماعي نبييم *Nebim* - او « الراؤون » او الذين
يسكن الإله فيهم . لا يعوزهم جهد حتى يسموا اليه : فانما هو فيهم ؛ يستولي عليهم ويثلي عليهم
كلماته التي يميزونها بتأكيداتهم : « وحي يهوه » و « هكذا تكلم يهوه » . ولا حاجة للقول ،
من جهة ثانية ، ان اكثرهم قد تكلموا ، في جوّ شامل من القفلة ، دون ان يكون لكلامهم اي
تأثير . واذا وجد منهم من فرض شخصيته ، فكذلك غيره مرّوا ولم يُشعر الناس بهم ؟

منذ البداية ، وقبل داوود نفسه ، ظهروا بشعر طويل اشمت ونفروا من المجتمع وكثيراً
ما أثاروا الفضائح ، لانهم لا يراعون احداً ، لا الملك ولا الكهنة ولا الشعب . فان يهوه الذي
يتكلم بلسانهم يميز لنفسه الجسارات وحتى المبالغات . ولم يتعموا لكتابة خطبهم قبل او بعد
الغائبا . وهكذا فاننا لا نعرف شيئاً عن قدامى الانبياء ، حتى ولا اسماءهم احياناً كثيرة .
واوسعهم شهرة ، مثل ايليا واليشع في القرن التاسع ، اقرب الى ابطال الاساطير .

ولكنه وجد في بعض الامكنة ، حتى في ايامهم ، ما يمكن ان نعرف عنه بدارس إهداد
الانبياء . وقد استمرت هذه المدارس حتى القرن الثامن ، وبغلب انها هي التي باشرت جمع
الكلام الذي يجب ألا يطويه النسيان . فالكلف الالهي ما زال ، من حين الى آخر ، يُنجم

منها ، ومن الجماهير المعنوية أيضاً ، رجالاً خاضعين ليهوه ، غير مكترئين بكل شيء سواه ، عاجزين عن مقاومة القوة التي تدفعهم وتحملهم فوق طاقتهم . ولكن عنفهم لا يلين ولا يخف . فان عاموس ويوشع واشعيا في القرن الثامن ، وارميا في القرن التالي ، وحزقيال إبان النفي – ولا ضرورة لاطالة القائمة – يوجهون الى المجرمين انفسهم المذمات نفسا والتنبيهات نفسها والنداءات نفسها التي نستطيع اليوم قراءتها في قصائد ملتبهة طويلة او قصيرة .

اما بعد النفي ، فان هذه المؤسسة قد فقدت بعض الالهاب الذي احياها حتى ذاك التاريخ ، فأصبح الانبياء اشدّ ارتباطاً بالكهنوت وبدوا لاهوتيين أكثر منهم انبياء .

المثل الاعلى والعمل النافذ في مثل هذه الظروف ، يتضح ان لشخصية كل نبي اهميتها الخاصة التي كان من الجدير بنا ان نتوقف عندها ، لو امكن ذلك . ولكن هناك ، بالرغم من بعض الفوارق الخاصة في التعبير ، نزعات مشتركة بينهم هي التي سنقصر الكلام عليها وعلى اهم النتائج التي حققوها .

ان بعض اهدافهم لم يتحقق قط . ولا يعني ذلك ان الاضطهادات التي تعرضوا لها قد حطمت يوماً وثبتهم او خففت من تديبتها . ولكن كيف نسقط من الحساب عامل الضعف البشري وتمذر مخالفة تيار الزمن . فان الكثيرين منهم نبضت قلوبهم بالحنين الى الحياة القديمة وما رافقها من مساواة . والاولون منهم حقدوا على اورشليم وعلى الهيكل الوافر الثروة ؛ ولم يتعلموا بحبته إلا بعد ذلك بزمن بسبب الفوائد التي جنتها منه وحدة العبرانيين ، وهي شرط قيام العهد بين العبرانيين ويهوه . ومقتوا التجارة والثروة لانها من اسباب افساد المجتمع وتفاوت طبقاته . وبالغوا في تجديده موجبات ملثم الاعلى فاخفقوا في تحقيقه . ولكن الهزائم لم تقمس مهمهم فاحرزوا بعض النجاحات .

ولعل اهم نجاحاتهم واكملها ، وهو ذاك الذي سعوا وراءه يجهد لا يعرف الكلل ، ابقاء العبرانيين بعيدين عن اغراء العبادات الاجنبية ، واعادتهم الى إلههم وحده ، عندما يجيدون عنه . فتوجب عليهم ، لبوغ هذه الغاية ، تمليل الولايات النازلة بالعبرانيين التي من شأنها ان تثير الشك حول قدرة يهوه على كل شيء وعزمه على حماية العهد . وقد توصلوا الى ذلك بانهم العبرانيين ، او بعضهم ، بتقويض المهسد عن طريق الخروج على الشريعة . فغدا اشهار الاخطار المرتكبة ، في الحفليين الديني والاخلاقي ، موضوعهم المفضل ، الى جانب القصص المقاتس او الداني ، وهو دليل الغضب الالهي . فشقوا بذلك الطريق امام تطور عميق تناول في آن واحد ، يهوه وعبادته ، والاخلاق والتشريع ، وجميع النظريات التي شيدت عليها حضارة العبرانيين .

واكثر ما يتجلى هذا التطور ، بحسب التوراة ، في التدابير المنسوبة ليوشيا ، ملك يهوذا سنة ٦٢١ ، اذ اخرج كافة الآلهة الغريباء ، واقفل كل المعابد ، وحصر العبادة نهائياً في اورشليم دون غيرها . ولكن التوراة تنسب اليه ايضاً نشر سفر « تثنية الاشرع » ، وهو ليس

بالشريعة « الثانية » بل « نسخة » موجزة عن الشريعة القديمة . وقد وُصف هذا النص بأنه « كتاب الشريعة الذي عثر عليه رئيس الكهنة في بيت يهوه » ، وهو ينطوي على بيان الأوامر والنواهي التي وجهها موسى الى الشعب باسم يهوه . بيد انه ، في الواقع ، يختلف عن الشريعة القديمة ، حتى في معناها . وما من شك في انه يمثل مجموعة قانونية لقرارات صدرت في توارخ مختلفة ولاقت ما يبرها في نظرة الى الماضي . ويحدد بعض المؤرخين زمن صدور هذه المجموعة بالسنة ٦٢١ ، بينما يحدده غيرهم بمنتصف القرن الخامس . ومها يكن من الامر ، فان التطور الذي تكرر من النتائج يحمل طابع تأثير الانبياء .

يهوه والعبادة
وهكذا فقد اصبح يهوه إلهاً شاملاً .
نعم ، لا يزال حزقيال يؤكد انه « مع اسرائيل » وان « الاسرائيليين خرافته » و « انه إلههم » . ولكنه يكتفي بان يجب العبرانيين فوق محبة للشعوب الأخرى ، اي انه لم يعد واحداً معها . لم يعد يتحيز لها ولا يتردد في الاقتصاص منها في ثورة غضبه من كبائرها . وعضواً من ان يؤمن لها السعادة الزمنية المستعجلة ، فانه وكل إليها رسالة حددت بعد النبي بما يلي : « انها امتي المختارة التي سكبت عليها روحي حتى تكشف الستار للامم عما هو عدل » . وايضاً : « ستكون نوراً للامم واداة خلاص للجميع ، حتى اقاصي الارض » .
فأي موضوع افضل من موضوع الشعب المختار يمكنه ان يعزي شعباً مستضعفاً ومستعبداً؟ ولكن هذا الموضوع يستلزم يهوه آخر تعالت قدرته وريداً وريداً واتسعت آفاقه . فهو لا يزال ، في نظر انبياء القرن الثامن ، اعظم الآلهة ؛ ومن حيث انه خالق العالم ، فانه يستطيع ان يخاطب العالم بأسره : « انصتي أيتها الشعوب ، انصتي جميعاً ! واصغي أيتها الارض ، انت وكل ما تحتون عليه » . ولكن هذا لا يحول دون وجود الآلهة الآخرين . فان ارمينا يؤكد ان « ليس من نسمة حياة في كافة الآلهة » ؛ كما يؤكد سفر تثنية الاشرع ان « يهوه إله في السماء وعلى الارض وليس من إله سواه » ؛ وينسبون اليه بعد النبي قوله : « انا إله ، وليس من هو شبيه بي » . وهكذا تم انتصار الايمان باله واحد .

وقد جرى هذا بصورة حتمية الى تهذيب اخلاق يهوه وتحويله الى روح . اجل انه يبقى اله « الجنود » ولكن هؤلاء هم الجنود السايون ، جوقات الملائكة . وهو أكثر من اي وقت آخر ينادي بالعدل : « ان يهوه الجنود سيرتفع بالقضاء ، والاله القدوس سيتقدس بالعدل » . وقد تبرز أحياناً الفكرة القائلة ان السعادة المادية ليست دليلاً على عطفه ؛ وهكذا تميزت الروح عن المادة .

فليس ، بعد ذلك ، من محرقات في القرايين . والتقوى الحقيقية انما تقوم في قلب المؤمن لا في الطقوس التي يتمشى عليها . فقد قال يوشع : « انا احب التقوى لا القرايين واؤثر معرفة الله على المحرقات » . وقال عاموس : « أبغضت ، كرهت اعيادكم . ولست التذ باعتكافاتكم ..

وذبايح السلامة من مسمتانكم لا التفت بها . ابعد عني ضجة اغانيك ، ونعمة ربابك لا اسمع .
وليبر الحن كالمياه والبر كنه دائم . وقال اشعيا : « ازيلوا من امام عيني خبث اعمالكم ؛
انقطعوا عن عمل الشر ؛ تعلموا عمل الخير ، اطلبوا العدل ؛ احوا اليتيم ؛ اعطوا اليتيم حقه ؛
دافعوا عن الارملة » .

ثم ان التطور ، في موضوع الطقوس ، لا يقف عند هذا الحد ؛ فتخفف فيما بعد مقاومة
البذخ في الهيكل ، لان العبادة فيه قانونية وبعيدة عن التدنيس . وبالإضافة الى ذلك ، فان
النظام الكهنوتي ، بعد النفي ، يؤدي الى حلة محتمة في سبيل طقوس تصنف بالمزيد من الایجاز
والدقة والمراقبة . وتتخذ الفرائض الغذائية وحفظ يوم السبت ، بنوع خاص ، صيغاً بالغة
الشدّة قد يفضي الخلاف حولها ، في نقاط طفيفة غالباً ، الى اطلاق العنان للبحث والتميز
والجدل . ولكن الفريسيين لن يكونوا يوماً كل ديانة اليهود ، وستترك الوثبة الادبية التي نهض
بها الانبياء ، في هذه الديانة ، أفرأ لا يمحي .

وهذا ما حدث للشريعة أيضاً .

الشريعة
فان العبرانيين يتفردون منذ ايامهم الاولى بانهم ادخلوا ، اكثر من اي شعب آخر ،
الاخلاق في صميم شريعتهم ، وشريعتهم في صميم ديانتهم . فاللاهوتي فيهم لا يتميز عن المشرع
ومهذب الاخلاق . وهكذا فاننا نتمس العهد في كل مكان . بيد ان تطور الشريعة يمكن أيضاً ،
بمحكم الضرورة ، بالتنظيم الاجتماعي وردة الفعل التي تثيرها تغييراته . فان هنالك تطوراً في
الواقع ، كما ان الفرائض الالهية التي تولف الشريعة (التوراة) قد جمعت من مصادر مختلفة في
تواريخ لا يمكن تحديدها . لذلك فاننا سنقصر الكلام على الخطوط الكبرى .

ليس من شك حول مبدأ التأثيرات الاجنبية ، والبابلية منها بنوع خاص ، إذ ارت وصايا
موسى العشر نفسها حديثة العهد اذا ما قورنت بالقوانين الشرقية الاخرى . وكذلك فان
الشريعة القديمة قد تأثرت بالتنظيم القبلي . اجل ان الدائرة قد اتسعت حتى شملت الامة بكاملها .
ولكن الشريعة لم تتفك شريعة شعب جعلتها مصانبه تميل نحو كره الاجانب . فمها كان من
رحابة آفاق هوه مثلاً ، فان الزواج من الاجنبيات قد بقي محرماً ، والربي ممنوعاً بين
المواطنين ، واستعباد الاجنبي غير محدد بزمان ، في حال ان استعباد الاسرائيلي يجب ان ينتهي
في اول السنة السابعة كاقصى حد . بيد ان النزعة المقابلة قد استمرت ، لا سيما خارج التوراة .
فقد جاء في الامثال : « لا تقرح بسقوط عدوك » ، « واذا جاع عدوك ، فاعطه طعاماً واذا
عطش فاعطه ماء ليشرب » . ولكن الغلبة لم تكن لهذه النزعة .

وما يلفت النظر ان الشريعة القديمة قد نخلت بالساح للعادات الطقسية بان تتسرّب الى
وصاياها . فالوصايا إنما تختص باستعدادات الانسان الداخلية الخاصة وبسلوكه الاجتماعي ولم
تدخل عليها سوى حد ادنى من واجب الاحتقالات والمظاهر الخارجية . فبالمقابلة لمهوم

الطهارة الجسدية ، افمحت مقاماً واسعاً للطهارة الروحية . فاتيح للانبياء إذن ان يشدوا بسهولة على هذا التمييز . وقد اظهرت عدة نصوص مما سبق الاستشهاد به الاتجاه المتبع في ذلك . ولنصف هنا اللوم الموجه للفني والمقتدر اللذين يضران بالفقير ويسئان استعمال ما اوتياه من سلطة . فقاموس يصم بالعار اولئك الذين « باعوا البار بالمال والفقير بعميلين » . « يردون على امرتهم ؛ يستلقون على فراشهم الوثير ؛ يأكلون حلال القطيع والمعجول المسمنة ؛ يشربون الخمر في الكؤوس الكبيرة . مسحون اجسامهم بافضل الزيت » . ويتوجه يوه ، بقم نبي آخر ، الى الرؤساء والامراء قائلاً : « ألستم انتم من يجب ان يعرف العسقل ؟ انتم تبغضون الخير وتحبون الشر . انتم تسلمون لهم الجسد واللحم من فوق العظام . هم يفترون لحم شعبي ... » وهكذا فان الجهد المبذول في سبيل تهذيب الاخلاق قد شارف الثورة الاجتماعية التي كان من شأنها ، لو حصلت ، ان تهدم نتائج التطور الاقتصادي .

وقد انتهى هذا الجهد ، في الواقع ، الى تشريع رائف بالمواطنين والضعفاء ، لنا عنه في ثنية الاشرع اكثر من مثل : « لا تهم اجرة مسكين ولا فقير من اخوتك او من الدخلاء الذين في ارضك في مدلك . بل ادفع له اجرة في يومه ولا تقب عليها الشمس لأنه فقير وبها يعول نفسه ... لا ترهن ثوب أرملة ... اذا حصدت حصادك في حقلك فليسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها ، انها تكون للغريب واليتيم والارملة ... واذا فرطت زيتونك فلا تراجع ما بقي في الاغصان ... واذا قطفت كرمك فلا تراجع ما بقي منه .. » انها لعمرى آراء أخلاقية انسانية غدت تشمل السخيل نفسه . نعم قد يكون لها سابقاتها في الشرق ، ولكن لم يسبق ان عبر عنها بمثل هذا الحزم ومثل هذه الدقة .

بيد ان التطور قد أصيب بالركود بعد ان أثبتت نتائجه في نصوص التوراة النهائية . وقد تضافر كل شيء لإيقاف هذا التطور بعد تهدئة الحركة الاجتماعية التي أثارها العودة من النفي : التنظيم التيقراطي الذي اسبل نفوذاً وقوة على كهنوت حارس الشريعة ، وبالتالى محافظ بالضرورة ؛ مفهوم الشعب المختار الذي جمّد العبرانيين في انفرادهم المله بالتجدي لكل ما هو جنبي ؛ تجديد العهد بينهم وبين يوه الذي احال جودهم فضيلة . عند ذلك بدأ الجفاف ، اذ ان الامانة للحرف قد جرت الى خيانة المعنى .

التفرد الديني والاخلاقي غير ان النتيجة كانت ، على كل حال ، فتحاً بالغ الاهمية : التفرد . اول من سلك طريق التفرد هم الانبياء . فلم يقم بينهم وبين يوه ابي حاجز ، شيئاً كان ام شخصاً . والروح الالهية كانت حالة فيهم فعدوا عبيدها . وقد حاول بعضهم مقاومتها ولكن دون جدوى . ولكن عبوديتهم كانت عبودية مباشرة لا تحمل اى وسيط ، بحيث ان كلاً منهم قد تصرف حيال غيره من البشر بكل حرية واستقلال .

ويدهي انه لم يعط لكل انسان ان يطعم بمثل هذا الاستقلال لان العبودية تلك لم تتوفر

للجميع . ولكن تعلم الانبياء قد فرض على كل انسان ان يتوق اليها بكل قواه وفضيلته ، كما ان تطور يوه وعبادته قد جعلنا من هذا التوق امرأ واجباً . وقد اصبحت الديانة ، قبل اي شيء آخر ودون اي شيء آخر تقريباً ، داخلية وفردية وذاتية ، حيبال اله روحاني ودمت الاخلاق . فقد ورد في ثلثية الاشرع ان الشريعة «قريبة جداً منك ؛ بل هي في قبك وفي قلبك» . فوضعت بذلك قاعدة يمكن ان ينجم عنها نتائج لا تحصى .

بيد ان اسرائيل قد اقتصرتها منها على هذه النتيجة : وهي ان كل انسان يجب ان يكون مسؤولاً عن اعماله وحدها دون غيرها . فحكمت بذلك على المسؤولية الجماعية التي تترتب على المجرم في شخصه وفي شخص انساله واسرته على السواء . وكانت هذه المسؤولية ركناً من اركان هيكल التنظيم الاجتماعي القديم ، ولكنها لم تكن لتتنق والتعلم الاخلاقي الجديد والفكرة الدينية الجديدة ، حتى والظروف الحياتية الجديدة ايضا ، لان موجبات التفرد الاقتصادي ، على هذا الصعيد ، تتسجم وموجبات التفرد الديني والاخلاقي : فكيف يجوز تماطلي التجارة دون تحديد مسؤوليات الافراد ؟ وكيف يمكن ، من جهة ثانية ، ان يستمر العمل بالقاعدة القديمة ، في حالة التشتت التي وصلت اليها اسرائيل بفعل الإحن التي نزلت بها ؟ لذلك فلا عجب ان في ان نرى ارميا اولاً وحزقيال ثانياً يتنكران للمثل السائر القائل إن قهرس الاولاد مرده الحصرم الذي يأكله آباؤهم : « انما يتخرس آكل الحصرم نفسه» . فانتبت ثلثية الاشرع من ذلك الى الاستنتاج التالي: « لن يُبأت الآباء بجريرة الابناء ولن يُبأت الابناء بجريرة الآباء ، بل كل يمات بجريرة خطيئته » .

ولم تحجز الفردية نجاحات اخرى . لا بل كان من الواجب ايضا ، لو امكن ذلك ، تقديم البرهان على ان الفضيلة ، تلقى ابداناً ثوابها والرزيلة تلقى ابداناً عقابها في شخص من تستبان اليه دون غيره . ولكن شتان ما بين هذا التمني والواقع . فمعضلة وجود الشر المفضة كانت حينذاك مطروحة دون حل . فبعد النفي ، اي بعد ان ظهر اثر الثنوية الابرائية ، وضع بعضهم الشيطان او بليال بازاء يوه ولكن دون مرتبة . وكانوا قبل ذلك يجهلون كل شيء عن ذلك وعن الابالسة ؛ فاسم الابليس ازمودي مشتق من الفارسية مثلاً . وشدّد غيرهم على فكرة الدينونة الاخيرة ؛ تلك الكارثة النهائية التي ينال فيها كل شخص جزاءه . وفي هذا ايضا يبدو الاثر الابرائي . ولكن هذين الحلين لم يخرجا عن اطار النظريات التي لم تصادف تأييداً اجماعياً ولا تأييداً رسمياً . فقد ولّى زمن التطور الخلاقي .

ولكن هذه المساعي توضح الطريق الطويلة التي سلكها العبرانيون . قسط العبرانيين الكبير
تميز العبرانيون بتفردهم منذ البداية ، ولكن هذا التفرد المحدود نوعاً ما لا يكفي لان يبرر القسط الذي تدن به الانسانية للعبرانيين . فان الامية العظمى لدورهم المقبل نشأت من حيث انها باشرت اخراج الانسان من الحقل الديني نفسه الذي كانت

الانسان فيه اكثر ما يكون انصاراً في هذا المجموع. وقد توفقت الى هذه النتيجة ، مثبته ، في الوقت نفسه ، الانسان في ديانه . اما تفسير هذا التناقض الحقيقي ، في الظاهر على الاقل ، فيجب ان يبحث عنه في ما قام به العبرانيون ، بتأثيرات شتى ، من تنقية واستقصاء المشاعر الدينية .

وقد اصطدمت هذه النزعة بالمقاومات في بلاد العبرانيين نفسها ، حتى انها ، حوالى او اخر القرن الخامس قبل المسيح ، بدت وكأنها تغلبت عليها النزعات المضادة المتسكة بالشكليات وبالشرعية . ولكن بذاراً لا يفنى كانت قد القى في الارض ستزيد من قوته تأثيرات اخرى فينبت في المستقبل حصاداً روحياً لا تزال ملايين البشر تتغذى به حتى يومنا هذا .

الفصل الثالث

الحضارة اليونانية القديمة (أي السابقة للمهد الكلاسيكية)

لننظر الى الاغريق بعد ان تنظم هذا الشعب واستقر في الرقعة المعدة لان تكون وطناً له : جنوبي شبه الجزيرة البلقانية ، والجزر الايحية ، وساحل آسيا الصغرى الغربي الذي سيقم فيه حتى اوائل العهد المعاصر . انتهت حينذاك في تاريخهم حقبة كثيرة الغموض يزيد في بدائية حضارتها ان هذه الحضارة خلقت الحضارة الايحية المزدهرة . والكلام هنا عن «القرون الوسطى» اليونانية ليس بالتسمية التاريخية الكيفية . وفي اوائل القرن الثامن قبل المسيح تبدأ حقبة اخرى .

لما كان من الضروري ان يطلق عليها اسم ما ، وصفت بـ « القديمة » للقابلية بينها وبين الحقب اللاحقة . وفي هذا الوصف تشديد على الاوصاف الوثيقة التي تربط الاغريق حينذاك بالماضي وتعميق حركاتهم . وهم لن يفوزوا بالحرية إلا في اوائل القرن الخامس ، فيستثمرونها ايما استثمار . ولكن طاقات فنية برزت ، حتى في ذلك العهد ، فحدثت في البلاد تغييرات على درجة من الامة . وبانت على الخريطة نفسها تبديلات محسوسة . فتوسع العالم الاغريقي مرة اخرى ، وتأنست اسواق تجارية جديدة على جميع شواطئ البحر المتوسط والبحار الملحقة به تقريباً ؛ وفرضت الامبراطورية الفارسية سيطرتها على الممتلكات الاغريقية في آسيا . ولا حاجة هنا للكلام عن المنافسات التي قامت بين بعض الدول الاغريقية الاخرى . ولكن سرد هذه الاحداث لا يدخل في ما يستهدفه هذا الكتاب ، بل يجدر بنا ان نشدد على احداث اخرى تكشف لنا عن تغييرات في الصميم من هذا الشعب ، لا سيما وان الموضوع يعود بالنتيجة الى يقظته . تلك هي التحقيقات الاولى لحضارة ستعرف مثل ذلك المستقبل الباهر ومثل تلك التثمينات البعيدة . وتلك هي الوعود والدعائم التي اخذ الانسان يكتشفها فيها كي يخرج شخصيته من المجموع أو لا يتركها محتنتن فيه على الأقل . وان وجود كل ذلك في طيات هذه الحقبة لبشر بان ايمانها لن تطول .

لذلك فان كل من وجد آنذاك اجماع الحضارة اليونانية قد اهتم اهتماماً حقيقياً للتطور البادي . والتطور ، بحد ذاته ، أمر محتوم يعم كل الشعوب . ولكن الجميع لا يحققونه بمثل هذه السرعة

ويمثل هذا الشمول . ولا يعي الجميع خصوصاً معلولاته المتداخلة ونتائج الطائفة ؛ أو انهم اذا رأوها يشعرون في اغلب الاحيان بميل طبيعي لان يرثوا له . نعم ، لقد وجد بين الاغريق أيضاً من استاء وأبدي استيائه . ولكنهم ، شأنهم في غير مكان ، لم ينجحوا في منع أي شيء ، لا بل انهم لم يلقوا هنا الاذان الصاغية التي لقوها في غير مكان . وقد وجدت خرافة العصر الذهبي ، في هذه الحضارة ، الدواء الناجح الذي تمثلته في قوق جديد الى التغيير . فقد جاء الاغريق ، بالفعل ، بجدة روحية هي خيال يمنح لم يخفه اقدام ولم يراجع عن اكتشاف الوسائل الكفيلة بتحقيق احلامه . ولكنهم لم يكتفوا بوضع دستور للتقدم او لما اعتبروه تقدماً : فسيأتي يوم يتيهون فيه ويتخلون « المستحيلات » الاولى . غير انهم لم ينتظروا ذلك اليوم لتحقيق اشياء جديدة كثيرة . ولكن يجب الانغالي في اهمية هذه الحقيقة حيال هذا العهد . فنجد اوائل القرن الثامن حتى اواخر القرن السادس ليس هنالك سوى مقدمات فقط جعلها القسم الاكبر من العالم الاغريقي أو لم يابه لها . ولكن يكفي ان تؤخذ بعض المناطق اذ ذلك بسحر هذه المقومات حتى يكون اتساعها المقبل جديراً باهتمام خاص .

فبرضنا لهذه الحضارة لا يمكن ان يعتبرها ، حتى في العهد القديم ، كعطية ثابتة . بل سيمت فيها عن قصد ، لكل ما يتطور وينبئ بالمستقبل . ولذلك فانه سيهمل اشياء كثيرة ستسبح الفرصة المؤاتية لتوضيحها عندما يكتمل تفتح الحضارة الاغريقية ويصبح باستطاعتنا ان نأخذ لها رسماً اكثر استقراراً .

١ - التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

ان عوامل التطور السياسي متعددة . ففي الخلايا الصغيرة التي كانت المدن اليونانية قوامها والتي انتظمت في عهد مبكر اجهزة شديدة الحرص على استقلالها والتي اهلته بضعة آلاف من السكان فقط - عشرة آلاف على الاكثر - ، يمكن لاسباب عابرة او محدودة الاهمية بحد ذاتها ان تفعل فعلها وتترك أثرها : كسيكولوجية الانسان الشخصية مثلاً ، أو حرب تثير الحمية على الرغم من هزال غايتها ، أو تهديد يصدر عن جار قوي الشكمية . واذا ما ألقينا نظرة شاملة على العالم الاغريقي بأسره ، تبنت لنا العوامل الاقتصادية والفنية والاجتماعية المتداخلة والمتفاعلة . ولكن التطور السياسي الذي تسببه هذه العوامل يمكنه بدوره ان ينعكس عليها .

المجتمع القديم ريفي قبل كل شيء من حيث انسه وليد مجازفات الغزو
ومعارك الفتح وتسويات الاستيطان . ومثلُ الانسان الأعلى ، الذي
تثبت قوته دلالات كثيرة كتبت لها حياة طويلة احياناً ، هو الاستقلال
الاقتصادي الضروري للاستقلال الادبي : فلكي يستطيع الانسان ان يعمل او يتجول على عهوه ،
يجب الا يكون مقيداً باهواء زيون أو صاحب عمل . ولم يكن تحقيق هذا المثل الأعلى ممكناً ؛
لذوي الاملاك الواسعة ، وهم إما أبطال حروب وإما انسال هؤلاء الابطال ، وقد نعموا في الوقت نفسه

بثروة وفيرة . كان تملك الارض ، بالفعل ، عنوان الثروة الوحيد تقريباً ، وكان هنالك اصحاب حرف لا شأن لهم وتجار لم يصل النينا منهم شيء يذكر . فالتجارة البحرية التي مارسها الميسينيون على نطاق واسع قد اصبحت بنكسة اكيدة على الرغم من استيطان الاغريق الباكر في شواطئ آسيا الايجية . واحتفظ الفينيقيون لانفسهم آنذاك بالمتوسط الغربي وكلوا يظهرن حتى في بحر ايجه . ولم بشر هيزود ، في القرن الثامن ، بالسفر بجزراً إلا على الفلاح التاعس الرازح تحت عبء الديون ، وتجدر الاشارة هنا الى ان الغاية من ذلك انما هي بيع جزء من الموسم لا لزوم له في الاستهلاك يمكن التصرف به ، في الاوقات العادية ، للهدايا والمبات . وكان هنالك فلاحون صفار يتلكون بحرية بعض الاراضي ، ولكنهم عاشوا عيشة قاسية في ارض قليلة الخصب حيث تحدد الحرارة الجافة المكثرة من انتاج الحبوب . وقد قام قسم من سكان الارياف باعمال مأجورة في حقول ذوي الاملاك الزراعية الواسعة .

استطاع هؤلاء وحدهم لا ان يتغذوا عن سعة فحسب - وقد اطلق عليهم ، حتى في العهود المتأخرة ، اسم « البدن » - بل ان يكرسوا ايضاً لارضاء شهواتهم قسماً من مواردهم . وقد برهنوا في مراحل تاريخهم المختلفة عن ميل للبذخ والزينة ابرز ما ينطوون عليه من رغائب بدائية . فقد حرصت هذه الارستوقراطية على ان تتميز في استعمال الاسلحة وان تعنى بالمحافظة على صفاتها الجسدية لاجل القمص . وأصبحت الولايم الفاخرة والمشروبات الروحية . وقد سخرت لخدمتها في مساكنها الرخوة الكثير من الأرقاء الممثلين لهوائها . وقد طاب لها عرض ما تنعم به من قوة وفرة . ولكنها اجلّت ايضاً الاقمشة والحلي النادرة ، والموسيقى والشاد المغنين . فكانت مثلها الأعلى ، الذي لم يقو تطورها الاجتماعي اللاحق على ازالته ، ولم يتسكن له على كل حال ، بل عمل جاهدأ على تعميم نفعه على الطبقات الأخرى ، يجمع بين جمال جسماني متناسق وتهذيب اجتماعي رفيع ومستوى ثقافي لائق . وكان هذا في الحقيقة المثل الاعلى لإغريقي نفسه : انسان حر يمارس حرته لتنعمة وارضاء مثل هذه النزعات فيه . ولكن استقلال الاشراف قد قام على ارتباط الغير بهم .

لذلك فان هذه الامتيازات لها ما يبررها غير التملك : فالقيمة الشخصية انما تتجلى في الحرب . كان لذوي الاملاك الواسعة وحدهم متسع من الوقت لاقتان التمرن ، والموارد الضرورية لاقتناء سلاح كامل ثقيل وغالي الثمن ، وامكانية لتربية الأحصنة . وسبقي رياضة ركوب الخيل ، خلال قرون طويلة ، شهادة في الارستوقراطية لأن الارستوقراطية وحدها في البدء تمكنت من الانقطاع بها . وكان على المحارب الحقيقي المجهز بأسلحة ثقيلة ان ينتقل الى ساحة المعركة على غربة ، يقودها حوزي تم يقوم بجراستها ، بينما تستخدم المعركة بين سيده وعدوه الراجلين . أما المواطنون الآخرون فكانوا ينخرطون في الجندية كشاة ويفتنون الانلحة التي تمكنهم مواردهم من اقتنائها وقد لا تعدى المقالع أحياناً . ولكن عددهم لم يرتفع قط علباً : فمصدر المعركة يتوقف الى حد كبير على ماثر الاشراف .

كان هؤلاء ، اذا ما حاربوا ، يخدمون الدولة ، فيوليم ذلك حقاً بإدارتها . ولكن الحرب من جهة ثانية كانت تعطيهم حق الانتفاع الشخصي بالنعمة والرهائن . وكان يطيب لهم مزاوله القرصنة . فهناك مشاهد إجماعية مرسومة على آنية « الديبيلون » المدفنية الكبيرة في أئينسا : مراكب حربية واعمال نهب وعرض محاربين وعربات عسكرية . تذكر هذه الصور بطبقة عسكرية تطلب الجند في نشاطها الحربي وتبهاى بعرض قوتها وثروتها .

أراصر الدم حدث إذن توزيع اجتماعي فعلي على أساس الثروة والقوة ، رافقه توزيع آخر على أساس الأصل والانتساب . ولكن هذا التوزيع الأخير يكتنفه الغموض لأنه على جانب كبير من الاصطناع ؛ بيد ان نتائجه ثابتة لا يرقى اليها الشك .

وأخذ المواطنين ، داخل المدينة ، ينتظمون جماعات يتدنى عدد افرادها يوماً بعد يوم : القبيلة ، ثم « الأخوية » وأخيراً « الجينوس » الذي يأتي مباشرة فوق الأسرة ، وهو القبيلة المحدودة أو الأسرة الكبيرة . ويبدو ان القبيلة والأخوية قد انتظمتا في كل مكان تقريباً ، في حال ان الجينوس لم يتأكد وجوده سوى في مدن معدودة . ويضم كل من هذه الجماعات مديناً ، في درجات نسبية مختلفة ، أولئك الذين ينحدرون من جد واحد والذين يتوجب عليهم ، بالتالي ، الاشتراك في عبادة جماعية . غير ان هذا التفسير ينطوي على الكثير من التبسيط ، إذ انه لا يوضح لنا ، بنوع خاص ، لماذا يسجل المواطنون دون استثناء في القبيلة في حال ان الكثيرين منهم لا ينخرطون في أي « جينوس » أو ليس لهم به سوى علاقة غير مباشرة كزبن لأحد الاشراف .

سنقتصر ، اختصاراً في الجدل ، على التثبت من واقع ، وهو ان النسب قد ناه يتقله على التوزيع الاجتماعي وبالتالي على وجود المواطن . فليس لهذا الأخير شأن ، كفرد ، بل كعضو في جماعة يصهره فيها انتسابه اليها وتقوم هي بدور الوسيط بينه وبين المدينة . ولكن شخصيته تعيقها أبداً أواصر الدم التي لم يكن ليتمحرر منها إلا بفقدان حسنات تضامن الجماعة بينما يستمر غيره في الافادة منها . ويفلغ ان هذه الحسنات قد اختلفت باختلاف الدول ، ولا تتوفر لدينا بعض الدلائل ، في هذا الصدد ، إلا لأئينسا فقط . فقد كان محظراً على من يموت دون تحقيب ان يوصي بتقواته الى غير أعضاء الجينوس ، مما يميز لنا الاعتقاد بان البيع لم يكن مسموحاً به ايضاً . ومن حيث ان القضاء الجنائي الرسمي لم يكن موجوداً ، فان الاحانة اللاحقة بأحد اعضاء الجينوس انما تلتحق بالجينوس بأسره ، مما أفضى الى قاعدة الأخذ بالتأثر . فكان المواطن بالتالي امام قياس ذي حدين : البقاء خارج الجينوس والقبول بالمعجز ، أو الانخراط في الجينوس والقبول بالخضوع .

وانما تتكلم عن الخضوع لان ذوي الاملاك الواسعة في كل هذه الجماعات ، قد نعموا بنفوذ مسلم به . والثروة العقارية لا تميز عن النبيل والشرف . فقد طاب للأغنياء التباهي بنسبهم

البطولي ، وحشى الإلهي ، رغبة منهم في الارتقاء الى عالم الاسطورة . وقد هدفوا كلهم من وراء هذا النسب الى الدلالة على الدم الكريم الذي يجري في شرايينهم ، حريصين على إحلال الإبرار في المرتبة الاولى . وهكذا فان رؤساء الامر الكبيرة ، باعتبارهم على انسابهم وعلى كل من يرتبط بهم بفعل مكانتهم الاجتماعية وطاقاتهم الاقتصادية ، تمتعوا بنفوذ لا يعادله نفوذ ، وكانوا أسياذ « جينوسهم » .

لم يكن من العسير في هذه المدن الصغيرة ان يعرف المواطن جميع المواطنين الدولة الارستقراطية الآخرين . ولذلك لم يعوز الدولة تنظيم قومي متين . فلا ادارة ولا موظفين ، بل بيت مال محدود ، يشرف عليه عدد محدود من المسؤولين لأن النفقات تكاد تنحصر في نفقات العبادة ؛ ولا جيش كثير النفقات لان الجندي هو الذي يؤمن شراء اسلحته ؛ ولا قضاء يستحق الذكر لان الدولة لا تمنى بتوزيع العدل إلا نادراً جداً . وقد أفضى ضعف الدولة هذا الى تقوية نفوذ راهن استأجر به رؤساء طبقة الاشراف ولم يكن باستطاعة احد ان يراقبه او يحد منه .

وكانت الدولة نفسها ، على كل حال ، في قبضة يدهم . اجلس قامت الملكية في كل مدينة تقريباً . ولكنهم توصلوا الى حصرها في لقب لا حول لها او الى ازلتها تماماً في بعض الاحيان . واذا ما حدث واستمر بقاء الملك ، فإن هذا الملك يكون عملياً بمثابة قاض سوني لا تسند اليه سوى مهام دينية . اما الأشراف فهم الذين يحكون ، ولا تلتئم جمعية المواطنين الا شكلياً اذا طاب لهم احترام مبدأ السيادة الجماعية . فالسلطة الحقيقية يتمتع بها « المجلس » المؤلف من اعضاء وارثين او منتخبين وفاقماً لأصول هي في الحقيقة مجرد مظاهر خارجية . وكانت مظاهر خارجية ايضاً الاصول المعتمدة لتعيين القضاة السنويين الذين يشرف المجلس على ولايتهم ايضاً . وفي الواقع كان اعضاء المجلس والقضاة ينتخبون من طبقة الأشراف دون غيرها وخصوصاً من كبار هذه الطبقة . وكان القضاء ، مع ان القضاء الرسمي شبه مفقود ، من امتيازاتهم ايضاً ، لاسيما وانه لم يستند الى قوانين مكتوبة ، بل الى اصول تقليدية ، إلهية المنشأ بحسب اعتقادهم ، ينقلها الآباء شفاهياً الى الابناء في أسر قروية جداً من الآلهة بفعل نسبه وحكمتها الدائمة الصيت . فيتضح ان الاشراف امنوا بذلك ، عملياً ، احتكار القضاء ، وضموا اليه تدرجاً بالاسباب نفسها ، احتكار المهام الكهنوتية الرئيسية . وكان من الطبيعي ، بعد ان سيطروا في ساحات الحرب والمجتمع والحياة الاقتصادية ، ان يسيطروا في الدولة ايضاً .

هكذا كان النظام السائد في كل مكان ، بالرغم من بعض الفوارق المحلية التفصيلية . وهذا هو نظام « الارستوقراطية » أي حكومة الأفاضل (نسباً وصفات) ، أو « الأوليغارشية » أي حكومة العدد القليل ، كما سميت ازدياً في تاريخ لاحق . غير ان هذا النظام لم يفرق الهدوء والراحة . فالطامع والاحساد والاحقاد قد أدت الى انقسام هؤلاء المحظيين . ولجمل فقدان

الثقة فيما بينهم سبب من أسباب رغبتهم عن توسيع سلطات الدولة . وكان التحيز في القضاء مدعاة للشكاوى وللإتهام بالرشوة . فهيزيد يصف العطاء « بأستكته الهدايا » . وكان الفقراء والمستأثرون ينزحون عن الاوطان ساعين وراء الاراضي أو مخاطرين بحياتهم كمرتزة في خدمة السلاطين الشرقيين . ولكن الاسباب الحقيقية لتقلبات الاحوال خارجة عن النظام نفسه .

اسباب تقلبات الاحوال: الحروب .
 هذه الاسباب متعددة . ولن نهمل منها التطور الذي طرأ على تقنية
 تقنية الحرب

اصبحت عدة الحرب اخف وزناً ؛ فخفضت قياسات الترس وادخل
 المزيد من الجلد على الدرع . وتعود المشاة من جهة ثانية تشكيل وحدة متراصة ، الكتبية ، التي
 يصعب اختراقها بفضل سور الحراب الموجه نحو الخارج . فقدت العربات دون جدوى حياها ،
 ولم تظهر بعد ذلك الا في الاحتفالات الدينية المحافظة على الماضي او في الجيوش القائمة عند حدود
 الشرق . وظهر الفرسان الذين اختيروا بين النخبة في المجتمع . ولكنهم لن يصعبوا ، الا بعد
 زمن طويل ، ووحدة قادرة على النهوض بالكرات المنيفة . ولذلك لم يلعبوا سوى دور الكشافة
 او اكتفوا باعداد الجياد في الواكب . وغدا مثال المحارب ، منذ ذاك الحين ، «الموبليت» ، اي
 «الرجل المسلح» ، وفاقاً لاشتقاق هذه الكلمة . ولكنه عملياً كان ذلك المواطن المنتمي الى الطبقة
 الوسيطة القادر على تحمل نفقات عدة حربية اقل كلفة وخادم يساعده في المسير والحياة المادية .
 وتكامل المركب الحربي ايضاً فضرر وسهلت ادارته واستخدم فيه المزيد من الجذافين الذين
 انتظمو صفوفاً يعلو بعضها البعض الآخر . وقد تحققت في كورنثوس ام هذه التحسينات التي
 تعود الى السنة ٧٠٠ كما يؤكد «توسيديد» . وظهر بعد ذلك «التريار» وهو النموذج المعروف
 للمركب الحربي الذي اعدت فيه ثلاثة صفوف للجذافين ويتسع ل ١٧٠ جذاً اقسماً موزعين ثلاث
 فرق ولمشاة يتعاون الى حيث تدعو الحاجة .

فقد ذلك من احتكار الاشراف للدفاع عن المدينة ، فاضطروا للتنازل عن القسم الاكبر من
 امتيازاتهم لطبقة الموبليت الوسيطة ، وقسم اصغر سيتسع مع الزمن في المدن البحرية ، للطبقة
 الفقيرة التي ينتمي اليها الجذافيون وهم اقوياء البلية بالرغم من انهم شبه عراة . فتعذر عليهم بالفعل
 نفسه ، ان يبرروا عملياً استئثارهم بالسلطة السياسية .

اسباب تقلبات الاحوال: الثورة الاقتصادية
 يكشف لنا تطور المركب الحربي ان اهمية الامور البحرية قد زاد
 شأنها . فحق ذلك العهد كاد الاهتمام لها ينحصر في ناحية الغرصة . ولم
 يتماط التجارة البعيدة ، في حدود اشتراك الاغريق فيها ، سوى المغامرين

العادمي الاعتبار الذين رفضت كل المدن تبني منازعاتهم . ولكن تطوراً اقتصادياً قد حدث ،
 منذ اوائل القرن السابع بنوع خاص ، هو في الحقيقة ثورة لا تطور .

بدأ الاستعمار اليوناني حوالي اواسط القرن الثامن وقد اتصف في اول عهده بطابع زراعي .

وقد هاجر الذين هاجروا تخلصاً من نظام اقتصادي واجتماعي انتهى بهم الى اليأس او الى الخمول. وقد استست اقدم المستعمرات ، في ايطاليا الجنوبية كما على اليوسفور ، في افضل المناطق تربية ، دونما اعتبار رئيس للتركز الهام على طريق بحرية عظمى. وهكذا فان خليفيدونيا، على الشاطئ الاسيوي ، قد استست سبع عشرة سنة قبل بينظيه ، على الرغم من افضلية موقع هذه الاخيرة ، مما جعل احد الفرس الذين علموا بهذا الفارق الزمني ، يتهم الاغريق بالعمى . ولكن الامور تبدلت بفعل الاستعمار نفسه ، فوفّر المزيد من المواد الغذائية . وزود الصناعة بالخامات فنهضت واتسعت اسواقها . وازدهرت التجارة . وبرزت المنافسة . وكيفت بعض المدن سياستها وفاقاً لاغراض جديدة فاخترت للاقامة مواقع هامة يتحتم مرور الطرقات فيها ، بغية مضايقة المنافسين ، وبدأت في الظهور «نزعة استعمارية» لا تزال بدائية الى حد بعيد ، على اصطبغها بمشاعل اقتصادية .

واتفق في الوقت نفسه ان فقد الفينيقيون دورهم كوسطاء وحيدين تقريباً مع الشرق . فاستوطن الاغريق نهائياً على ساحل آسيا الصغرى الغربي الذي تقوم وراه المملكة اليلية حيث استقبلوا على الرحب والسعة ايضاً . واستولوا على الجزر الايحية وعلى رودوس بنوع خاص ، وسيطروا على قسم من قبرص وانتهوا الى تثبيت اقدمهم في دلتا النيل ، فاقصوا بذلك ، بصورة مباشرة أحياناً وغير مباشرة ابدأً ، بالحضارات الشرقية . فجاؤوا منها بالمواد والمصنوعات والتقنيات والمعارف المختلفة . وصرفوا بسهولة مصنوعاتهم الخاصة .

وحددوا ، في عهد مبكر نسبياً ، احتذاءً بالشرق ، أنظمة الميزان والمكاييل التي لم يتوصلوا يوماً الى توحيدها . ولكن بعض هذه الانظمة عرفت انتشاراً واسعاً . وأوجدت معادلات مختلفة ، باضغاف الوحدة واجزاها ، لا سيما في حقل النقد . فالنقد قد ظهر ، هو ايضاً ، في اوائل القرن السابع . اما بصدد نسبة ابتكاره الى اغريق آسيا او اغريق أرغوس او الليديين ، فلا يسعنا الخيار بين التقاليد المتناقضة التي يتعمد الجزم في نصيبها من الصحة . ومهما يكن من الامر فان استعمال النقد قد انتشر ، فضربت المدن الاغريقية في آسيا اللكترون (الكهرياء) خصوصاً ، وهو مركب معدني طبيعي متفاوت العيار . اما في أوروبا فقدضربت الفضة بالنظر الى ندرة الذهب . فسهلت بذلك المبادلات التجارية الى حد بعيد .

انطعت الثورة الاقتصادية بهذه التقلبات المتعددة ، ولكنها لم تغمّ كافة المدن الاغريقية حينذاك . لا بل ان مدناً كثيرة امتنعت عن ترويج القطع النقدية او لم تقرر ذلك الا في عهد متأخر . ففي أثينا مثلاً لم تظهر القطع النقدية الرسمية ، حاملة شعارات المدينة دون شعارات الاسر الكبيرة ، إلا خلال القرن السادس . وقد حافظ الشطر الاكبر من بلاد اليونان البرية ، حتى عهد لاحق متأخر جداً ، على اقتصاد زراعي صرف . ولكن الاقتصاد الصناعي - التعدين والمسوجات والحزفيات - والتجاري قد احرز الغلبة في بعض النقاط ، دون ان يضحى عن قصد ، بالزراعة يوماً من الايام .

تتحقق من ذلك في آسيا الصغرى ، لا سيما في المنطقة الوسطى من الساحل الابحجي ، أي اليونيا . وكانت « ميله » بلا مراء ، اوسع مدن هذه المنطقة نشاطاً ، عند مصب نهر المياندر (مدرس) . فقد نعمت ، وحدها ، بالقوة الكافية لان تفرض حتى النهاية على « المرناد » في مدينة سارد عقوداً بالتفاوض . وقادت حركة التوسع والامتداد نحو المضائق والبحر الاسود فتوصلت ، على ذمة الراوي ، الى تأسيس او استتباع تسعين مدينة أو سوقاً تجارية في هذه المنطقة . واشتركت في الحركة الجماعية التي أدت ، في دلتا النيل ، الى تأسيس نوكراتيس من قبل اثنتي عشر مدينة يونانية منها احدى عشرة شرقية وواحدة اوروبية . وصرفت محصولاتها الى ايطاليا ايضاً ، عن طريق سيبارس المدينة بثروتها الاسطورية لهذه التجارة . لكن جيرانها حاولوا الاحتذاء بها ، ويكفي ، اختصاراً في التعداد ، ان نذكر ان مرسيليا اسمها ايونيو « فوقيا » في السنة ٦٥٠ وحافظت على علاقتها التجارية الوثيقة بايونيا حتى احتلال الفرس لهذه البلاد .

أما في اوروبوفاكانت الحركة أقل اتساعاً، ولكنها برزت مع ذلك في القسم الاوسط من ساحل اليونان الشرقى الذي يعدّه مركزه ، بالتفضيل على غيره ، للعلائق مع آسيا . وقد ظهرت نتيجة ذلك في الازدهار الذي حققته جزيرة « اوبيا » على ضفة المضيّق المستطيل الذي يفصل هذه الجزيرة عن اليابسة . بيد ان هذه الحركة تميزت بالنشاط في منطقة برزخ كورنثوس التي أعدها موقعها الممتاز لمقايضات بين الشرق والغرب ، في منتصف الطريق بين آسيا الصغرى والمستعمرات في ايطاليا وصقليا . فبدلاً من الدوران حول البلونيز ، آثر التجار ان ينقلوا البضائع من مركب الى مركب عن طريق البرزخ . وقد توصلوا الى اكثر من ذلك بعد حين اذ نقلوا المراكب نفسها على طريق خشبية . فأفادت كورنثوس من ذلك كثيراً لا سيما وان لها مرفأً في كلا الخليجين . فكانت خزفياتها ، لمدة طويلة ، اوسع الخزفيات انتشاراً كما تؤيد ذلك مكتشفات ايطاليا . ولكن النشاط التجاري امتد حولها كما تمتد بقعة الزيت فشمّل « سكيوني » نحو الغرب ، و « مينغارا » او « ايچينا » نحو الشرق . وكانت ائينا ايضاً على مقربة منها ، ولكنها لم تستيقظ من سباتها إلا في القرن الرابع . غير انها تقدمت تقدماً حثيثاً ، وعند نهاية العهد القديم كانت قد اخذت محل مدن « اوبيا » في التجارة وكانت خزفياتها قد تفوقت على خزفيات كورنثوس . وخلال الفترة الممتدة بين الحربين الماديتين ، اتاح لها اكتشاف عروق جديدة ، في مناجمها الفضية ، بناء اقوى اسطول حربي في ذلك العهد ، ذلك الاسطول نفسه الذي لعب ، في السنة ٤٨٠ ، الدور الاول في سلامين ضد الاسطول الفارسي العظيم .

اما في « العالم الجديد » اليوناني الذي ابصر النور بفضل الاستعمار ، فان مستعمرات صقليا وايطاليا الجنوبية وحدها قد لعبت دوراً اقتصادياً مستقلاً جديراً بالذكر في هذا العهد . ولكن يجب ألا ننزلق الى المغالاة . فلا شك في ان ازدهارها العام قد فات ازدهار مدن اليونان نفسها .

ولكن مرد هذا الازدهار الاول زراعة انتجت ، في سهول اوسع منها في اليونان ، محصولاً اوفر لكثافة سكان دنيا ، فابكن بالتالي تصدير الفائض . وكانت بعض المدن بمثابة مستودعات فنهضت بدور الوسيطات لتصريف المحاصيل اليونانية عند ابناء البلاد الاصليين . ولكن اثنتين منها فقط ارتفعتا الى مرتبة المراكز النشطة بصناعات محلية ناشئة حينذاك ومدعوة لان تنمو وتتقدم : «طارتنا» في ايطاليا وخصوصاً «سيراكوزا» في «صقليا» .

بيد ان الاعتقاد بان الاقتصاد الجديد في العالم اليوناني اتصف باهمية عظمى من حيث قيمته المطلقة او النسبية ، فخطأ جسم جداً . فلم يرافق نموه شيء من الذبول التي يمكن ان يذكرنا بها درس الحضارات العصرية . ولم يكن هنالك «رأسمالية» ولا «اتحاد» مؤسسات للحيولة دون المنافسة . وقد بقي الانتاج حصيلة المشاغل الصغيرة ، كما ان التجارة لم تكن وقفاً على مؤسسات كبيرة معدودة . ويجب القول تكراراً ، من جهة ثانية ، ان الشطر الاكبر من العالم اليوناني قد استمر مرتبطاً بحياة منكمشة على نفسها .
غير ان الزمن القديم قد ولّى على غير رجعة .

الازمة السياسية والاجتماعية
فمنذ ذلك الحين لم تمثل الثروة العقارية الثروة الوحيدة الممكنة . نعم انها بقيت فوق غيرها اعتباراً واحتراماً لانها اثبتت من كل ثروة ولائها وحدها تتبع مقاربة المثل الاعلى للانسان الحر الذي ما كان الرأي العام اليوناني يوماً ليتخلى عنه تحلية ثامة . ولكن واحداً لم يستطع عملياً ان يهمل الثروة المنقولة . وقد حدث في اغلب الاحيان ان هذه الاخيرة لم تتجمع لدى الاشراف الذين أبقتهم اعتبارات قديمة بعيدن عن الصناعة والتجارة ، طالما لم يشعروا بحاجة الى تجديد ثروتهم . وكأنت أكثر الاغنياء الجدد غرباء عن ارسوقراطية النسب ، ويرجح ان حالات الزواج المختلط لم تعد الاحداث العابرة ، فتوجب على الطبقة الحاكمة ، والحالة هذه ، ان تحسب حساباً لرجال جسرهم نجاهم المادي فرغبوا ، هم ايضاً ، في الاشتراك في شؤون الدولة .

ولم يكن المعارضون ، من جهة ثانية ، ليقتصروا هجومهم على الناحية السياسية وحدها حيث التحق بهم اعضاء الطبقة الوسطى العاملين كبوليت في خدمة الدولة . فبفصل النشاطات نفسها التي تفرغوا لها ، بدا لهم تنظيم القضاء وتنظيم المجتمع على اساس الجينوس غير وافين والغرض الذي وضع له ، لانها لا يتلاءمان والاقتصاد الجديد . فهذا الاخير يستلزم قواعد قانونية واضحة تكون بآمن من هوى القاضي . ويجب ايضاً ان تظل المسؤولية المالية في المشاريع الفردية محصورة في الفرد دون غيره . وهكذا فقد اصبح كل شيء موضوع انتقاد وتجريح .

وقد حدث ما هو اشد وادمي . ففي بعض المناطق على الاقسل ، لا سيما تلك التي تجلت تربتها بانتاج الحبوب ، اضطروا الفلاحون الصغار للاستدانة ، ويرجح ان منافسة المحاصيل الزراعية المستوردة قد ثقلت وطأها . ولكن الاستعداد بسبب الديون ما فتىء سباري المعول . وكأنت

المدين العاجز عن الوفاء ، على كل حال ، يفقد حقه في تملك ارضه . فاشتدت الازمة الاجتماعية اذن في المناطق الريفية . ومن حيث ان اليد العاملة في المدن تتمثل بالعبيد جزئياً فلم يبق امام منكودي الحظ الا احد حلين : النزول الى مرتبة المزارعين الذين يعملون بكل قسوة ، او الهجرة اما شطر المدن الجديدة النائية واما شطر مغامرات الارتزاق في الجيوش الاجنبية . وقد برز بعض الثوريين الاجتماعيين ببرنامج مؤلف من بندين لن يعتا ان يصبحا تقليديين : توزيع الاراضي و إلغاء الديون . فاصابت سهام هذا البرنامج مصالح كل من الثروة القديمة والثروة الجديدة ، على ان ما اصاب هذه دون ما اصاب تلك .

تقاوت حدة الازمة وفقاً للمناطق والمدن . فادت احياناً الى حروب اهلية وهيبة استباح فيها الطرفان حتى التقتيل وتقرر اجمالاً في نهايتها نفي الخصوم وحجز ممتلكاتهم . بيد ان نصاً ثورياً واحداً لم يصل الينا عبر القرون ، في حال ان لدينا قصائد نظمها بعض الحكام من الاسترقاطيين كدألفيا و وثيوغنيس ، وكي نكوّن فكرة عن حدة الاحقاد النائرة ، يكفي ان نستشهد ببعض المقاطع من ثيوغنيس : «ان مدينتنا لا تزال مدينة ؟ ولكن السكان قد تبدلوا ؟ فاولئك الذين لم يعرفوا قياً مضى لا حقاً ولا قوانين ولم يصلحوا الا لإخلاق جلود الماعز حول كسوحهم للرعاية خارج الاسوار شأن الايائل ، قد غدوا وحدهم الصالحين بينما فقد شرفاء الماضي مكانتهم واصبحوا لا يبلون على شيء ... لست اتراى العقاب يجلب من انتزعوا مني بالقوة ممتلكاتي ... آه لو يتاح لي ان اشرب دهمهم الاسود ! »

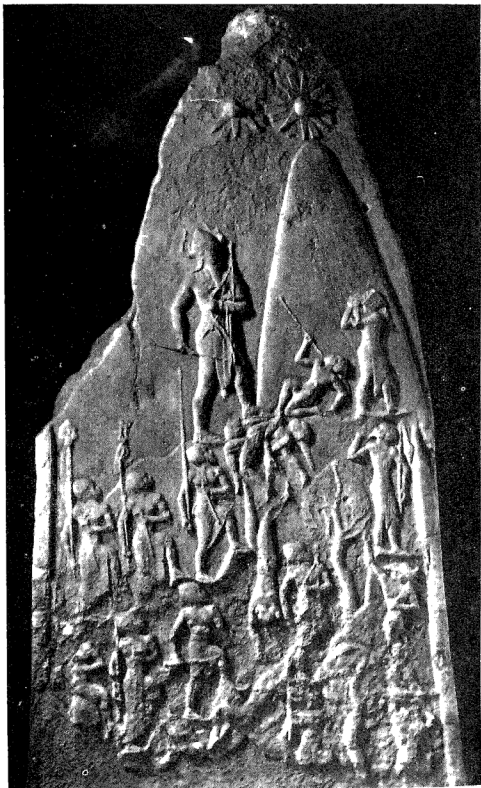
وهكذا فقد طرأ التغيير ، في اكثر من مدينة ، على الوضع القديم القائم . وقد اختلفت اساليب هذا التغيير اختلافاً بيناً . فنحن ولو وضعنا جانباً الحرب الاهلية ، وأخذنا بعين الاعتبار النواحي الكثيرة التي نجعلها ، يحق لنا الجزم بأنه لم يحدث ان تعاقبت مراحل التغيير وفقاً لنظام واحد او في تاريخ واحد . واختلفت الوسائل ايضاً ، فهي شرعية حيناً وعنيفة حيناً آخر ، وقد تعاقبت هذه وتلك تعاقباً مطرداً .

فكُلِّف إذ ذاك بعض ذوي الاعتبار ، وغيرهم أحياناً من اختيروا من خارج المدينة لتجردهم ، مهمة وضع شرائع مكتوبة . وتحقيقاً لهذا الهدف ، لم يقتصر احد من «المشارعين» على تدوين الاعراف الراهنة ، بل ادخلوا كلهم نصوصاً جديدة يرجح انها اخذت بعين الاعتبار التطور العام . ومهما تكن الاحتياطات التي اتخذوها بغية الحؤول دون التحويرات اللاحقة - اذ انه من الطبيعي ان يعتقد كل مناهم بأنه قام بعمل نهائي - فان الشرائع الصادرة عنهم لم تبد وكأنها تعبير للارادة الالهية ، أو انها بدت أقل تعبيراً لهذه الارادة . فلا يمكن باني وجه وسمها بانها لا تمس . ومن جهة ثانية ، حدثت هذه الشرائع من مدى تعسف القضاة .

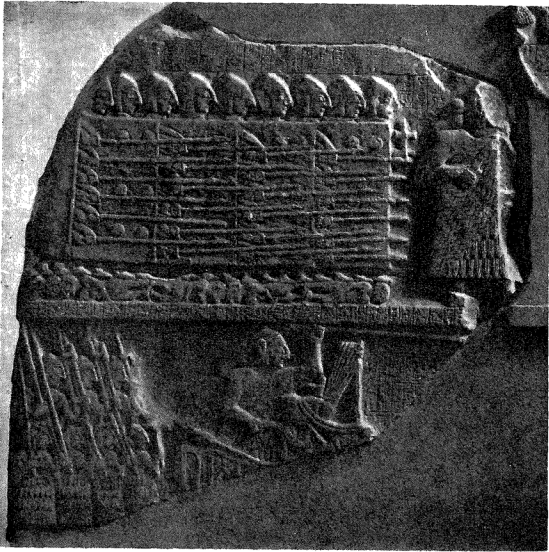
في غير مكان ، أو غير زمان ، انتزع «المستبدون *Tyrans*» السلطة بالقوة القاهرة . والكلمة ليست يونانية الاصل بل انها



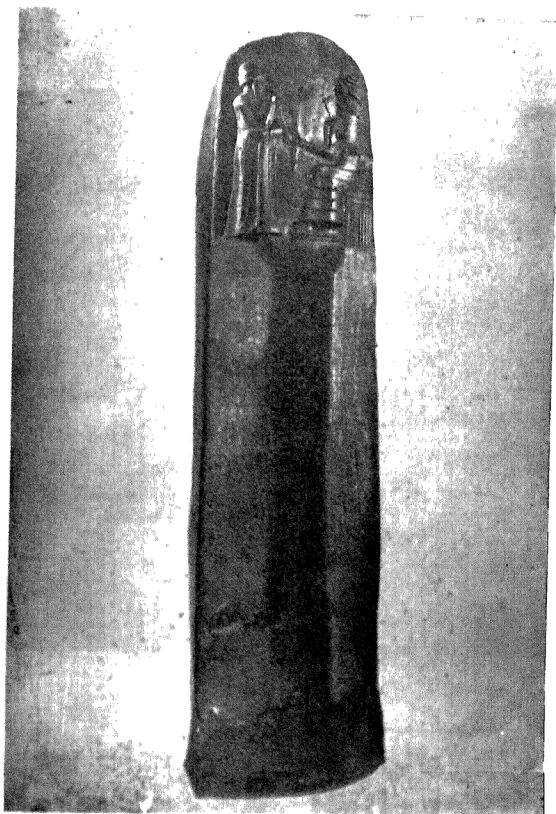
١٧ - أور - نانتشي ، ملك لاغاش ، وعائلته (حوالي السنة ٢٨٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر.



١٨ - نصب نصر لنسارام سين ، ملك أغادي (القرن
السادس والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .



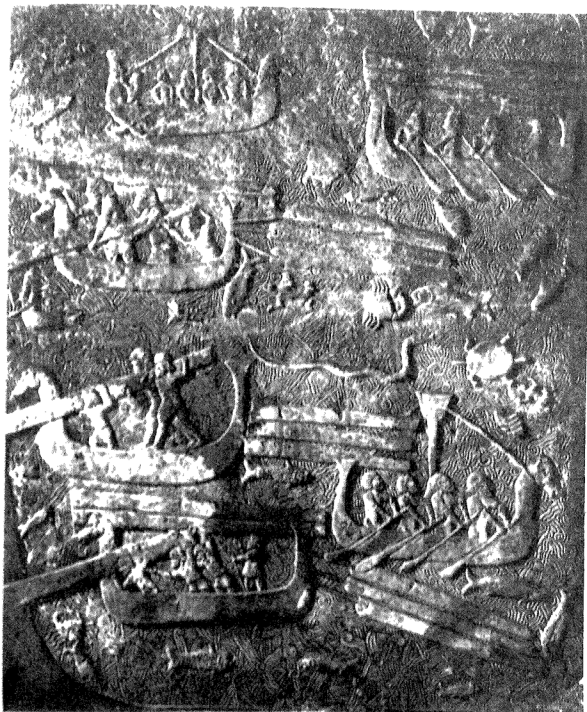
١٩ - سومريو لاغاش ، بقيادة ملكهم ايناتوم ، يندوسون
الجثث في سيرم الى المعركة (القرن الثامن والمشرون قبل
المسيح) . متحف اللوفر .



٢٠ - دستور جوراني ، ملك بابل (حوالي ١٨٠٠) (؟)
قبل المسيح) . متحف اللوفر .



٢١ - كودورو بابلي . الملك مليشيباك الثاني يضع ابنته
تحت حماية احدى الآفات (حوالي ١٣٠٠ قبل المسيح) .
متحف اللوفر .



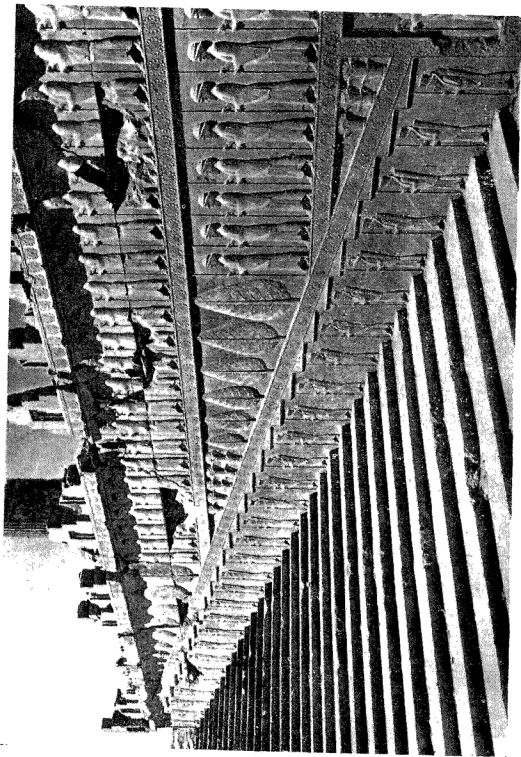
٢٢ - النقل البحري . نقش ناتىء من الابدتر مصدره
قصر خرسياد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .



٢٣ - ثور بجناح ذو وجه بشري مصدره قصر سرجون
الثاني في خرمسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف
اللوفر .



٢٤ - الملك اشوربانيبال في عربة أبهة . نقش ناتوء
مصدره نينوي (القرن السابع قبل المسيح) .



٢٥ - نقش في الإبادانا في برسيوليس (القرن الخامس قبل المسيح) .

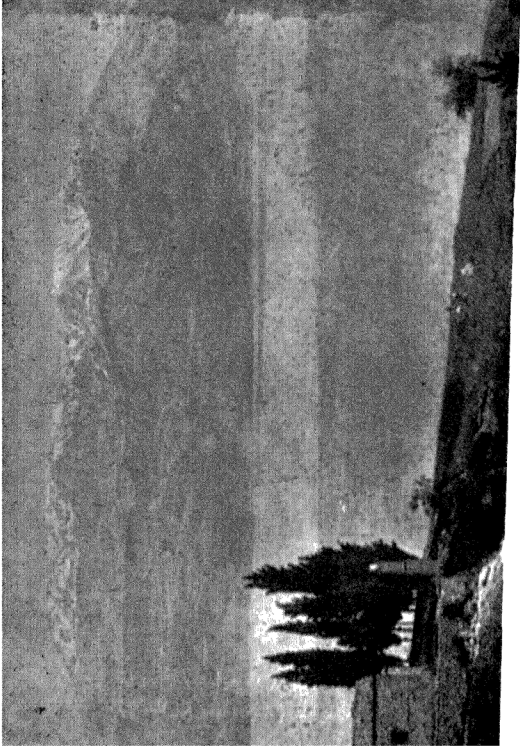


٢٦ - « الملك الكاهن » أو « الأمير ذو زهور الزنبق » في كندوسوس (كريت) . نقش
جصي ملون ، بعد ترميمه (حوالي ١٦٠٠ قبل المسيح) .

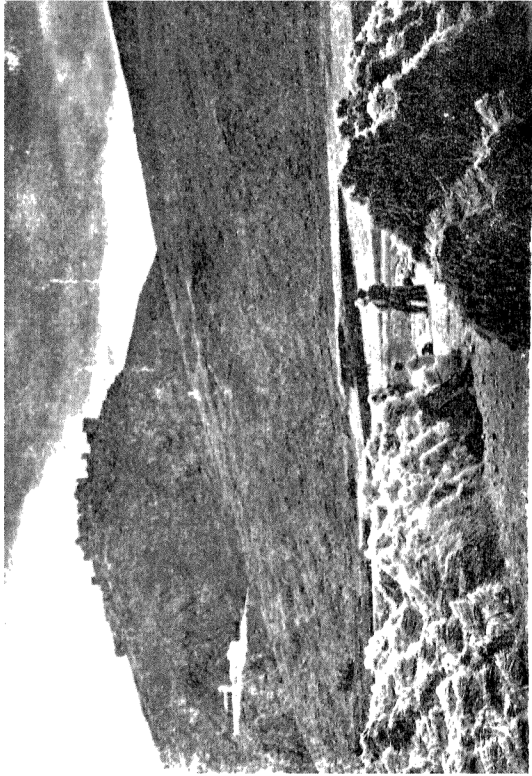


٢٧ - باب اللبوات في ميسين .





۲۹ - البرانس کا پری من زمینوں .



٢٠ - عند حلف حصون ارغوس . في المؤخرة أكمة لاريسا (٣٠٠ م) . في القدمة أكمة سيس (٨٠ م) .



٣١ - طريق اللبوءات في ليتوون ديلاوس (القرن السابع

قبل المسيح) .



٣٢ - مشهد وليمة هيراكليس عند أفريتيوس . رسم نوح طابع كورنثي (القرن السادس قبل المسيح) . متحف اللوفر .

تشق من اللغات الشرقية ، والأغريق يعتبرون جيفيس الليدي المستبد الأول لأنه كان أول ملك غير شرعي . ويبدو ان بعض مدن آسيا الصغرى لقتت العالم اليوناني امثولة اللجوء الى الاستبداد . وكان هنالك مستبدون يدعهم أو يفرضهم الاجانب : الملوك الليديون وداريوس الاخميني . وتسلم غيرهم السلطة في صقليا أو رسخوا اقدامهم فيها ، باستثمار تهديد العدو الخارجي للمدينة . وبمحملنا كل ذلك على الاعتقاد بان نظام الاستبداد يحمل طابعا غربيا عن الذهنية اليونانية . فان هذا النظام ، في الواقع ، يتناقض ومفهوم المدينة نفسه القائم على مبدأ المساواة بين مواطنين احرار لا فرق بينهم إلا في المقياس الوصفي ، وبالتالي في العدد . وهذه النزعة ، المموسة حتى في الارستوقراطية ، قد افضت من قبل الى زوال الملكية . ولكن مها يكن نصيب هذه الملاحظات من الصحة ، فان امتداد نظام الاستبداد ونجاحه ييزان ، مع ذلك ، القسم الثاني من العهد القديم ، أي من منتصف القرن السابع تقريبا حتى نهاية القرن السادس . ولا شك ، والحالة هذه ، في ان الاستبداد قد قابل واقعا داخليا لم يستطع الاغريق انكاره .

لقد برز في كل مجتمع وفي كل زمان رجال استلموا لطموحهم نحو السلطة وشغفهم الفطري بها وتحملوا بقوة الجاذب والنجر الضروريين لاستقالة الانصار المتحمسين . وان المجتمعات الشرقية نفسها قد عرفت الاعتصابات من قبل . ونحن نرجح ان عددها قد يرتفع كثيرا لو قدر لنا ان نعرف تاريخ هذه المجتمعات معرفة أعم وأوفى . ولكن الرجال فيها راقبتهم السلطة عن كسب وحالت دون طموحهم وتحمسهم . وقد قامت فيها ايضا صلة بين الالوهة والسلطة ، مما حوى هذه من المغامرات الجريئة . أما في اليونان فقد احرزت نجاحات اكثر عددا ، مما ثبت وجود نزعات فردية اعمت منها في الشعوب الاخرى التي لعبت دورها حتى ذلك التاريخ . فالحضارة اليونانية هي الاولى التي استساعت فكرة « الانسان المتفوق » الذي يفضل معاصريه مهارة وسعادة . قد يثير هذا القول دهشة وعجباً ، لأن الرأي السائد هو ان الحضارة اليونانية لا تتميز عن حضارة العهد الكلاسيكي الذي توسل الى حجب هذه الفكرة . ولكنهما حجبتها حجباً فحسب دون ان تزيلها . فقد ظلت هذه الفكرة كامنة في الحضارة اليونانية ثم ظهرت مرة اخرى ، بقوة نادرة ، في الحضارة الهلينية . ومن حيث انها قد برزت من قبل في العهد القديم ، فلا ريب في انها انطوت على فردية عميقة الجذور في السيكولوجية اليونانية .

وكانت الظروف ، على كل حال ، مؤاتية جداً حينذاك ، فالاضطرابات منهجية الاستبداد و
السياسية والاجتماعية اتاحت لذوي الخبز ان يبرزوا في صراع الاحزاب . فأفادوا في آن واحد من عيباه المتبدلين ومخاوفهم ومن غرارة الطبقات الاجتماعية الدنيا في السياسة . وكانوا ينتمون في الغالب الى الارستوقراطية . ولكن الارستوقراطية ، المتحيزة والمترتبة ، لم تكن لتساندهم بكليتها ولمدة طويلة . ولذلك فهم لم يلبثوا احقادها ، مؤثرين على نقض ذلك ، التعرض لمدائها ، باستثناء فترات تقارب قصيرة الامد فرضتها عليهم الانتهازية . وقد اعوزهم

العطف الشعبي للاستقرار في الحكم الذي عنى ، علياً ، استلامهم القلعة والعيش فيها محاطين بحرس من المرتقة . فليس من النادر اذن ان يكونوا تزعموا الحزب الثوري قبل تولي الاحكام . ولكنهم ، اذا ما استقرت الاحوال ، يظهرون ، بالتميز ، بظهر المحكّمين المصلحين ، رغبة في طمأننة المعتدلين . فيزعون السلاح من ايدي المعتسفين ، ويحرسون ، ما امكن الحرس ، على العمل بموجبيات الدستور ، ويقصرون ، بالاستناد الى نفوذهم الشخصي والى نفر من الرجال المخلصين ، على القيام بمراقبة فعالة لحسن سير كافة الاجهزة السياسية . وقد سعوا ، في الحقل الاجتماعي ، وراء معالجة أكثر الآفات ظهوراً ، بفضل حجز ممتلكات خصومهم العنيدين ، اي بعض اسر الاشراف . ولكنهم يكتفون باعتدال التدابير الجزئية التي تحمّد انصارهم قبل غيرهم . اما البرنامج الثوري فقد لفه النسيان . فالالغاء الوحيد للديون الذي وصلت الينا اخباره - ولعله مجرد تخفيف عن طريق اسقاط قيمة النقد - لم ينهض به مستبد ، بل مشرع يوناني هو صولون . اما اعادة توزيع الاراضي بصورة شاملة ، فلم يجرؤ احد ، لا مشرع ولا مستبد ، على التوغّل فيها . لذلك فان الانتهازية والمصلحة الشخصية هما اللتان سبّرتا عمل المستبدين . وبالتالي ، ارتبط هذا العمل بصفتهم الفردية وبالظروف المحلية . ولكن القوى المتشابهة التي واجهوها املت عليهم مواقف مشتركة .

كان لبعض هذه المواقف اثر حاسم في تطور الحضارة اليونانية . ففرّج المستبدون العسكرية عن صفار الفلاحين وجعلوهم اكثر استقلالاً حيال ذوي الاملاك الواسعة في جوارهم ورفعوا مستوى حياتهم المادية . واذا ما استندنا ، في حكمنا ، على اثينا ، نرى ان هذه النتيجة الاخيرة قد احرزت بفضل تشجيع زراعة بعض الاشجار المثمرة ، كالكرمة والزيتون ، التي ثبت ان انتاجها ، في هذا المناخ ، افضل من انتاج الحبوب . وكان صولون ، قبل « بيسيستراتوس » ، قد وجه الزراعة ، في منطقة اثينا ، شطر هذه الناحية . ثم جاء بيسيستراتوس وسلك الطريق نفسها ، حتى انه سلّف المالكين الصغار بعض الاموال . وقد قوّل المستبدون ، في المدن ، الى التوفيق بين زرعتهن الى النفوذ الشخصي وبين تصميمهم على تهدئة من خابت آمالهم بايجاد العمل لهم . ولذلك نراهم يتعمدون بلاطاً بهجاً ، ويمحون الادباء والفنانين ، وينموت الاعياد الدينية ، ويمحقون الاعمال الكبيرة في البناء والتجهيز ، ويدعمون التوسع الاقتصادي .

اجل ، لم يفلح احد منهم في تأسيس سلالة تدوم طويلاً ، في حال انهم ، ولا ريب في ذلك ، قد استهدفوا هذا المطلب . فلم تتجاوز اسرة واحدة من اسرهم الجيل الثالث ، حتى في افضل الظروف مؤاةة . وقد كان لانهارهم اسباب متنوعة ، عرضية او خارجية في اكثر الاحيان . بيد ان هذا الانهيار قد وافق تباراً عاماً : ففي السنة 510 لم يبق مستبد واحد في اليونان البلقانية ، كما زال المستبدون الاخرون ، في صقليا ، بعد ذلك بحوالي خمسين سنة . وقد اصدر عليهم الحكام والفلاسفة احكاماً قاسية . وقد وسم فلاسفة الاخلاقيات كلمة «مستبد» ببدول

ازدراني ، بينما لم يميزها من قبل ، اذا وجد التمييز ، عن كلمة «الملك» ، سوى فكرة الاحتصاب .
فدلت في النهاية ، على الحاكم الفرد الذي يعتمد العنف ويحتقر القانون ، على تقيض من لا
يستهدف سوى الخير العام والعدالة .

ولكن الاستبداد سواء كان شجبه مشروعاً ام لا ، قد افضى ، حيناً وجد ، الى الاسراع في
تطوير المدينة نحو نظم سياسية واجتماعية لن يلبث المستقبل القريب والبعيد ، ان يعممها ايضاً .

لم تزل النظم في آخر القرن السادس متنوعة جداً .

الوضع في آخر العهد القديم

ولكن يجب ان نستثني سبارطة . فهي ، وان كانت نقطة الانطلاق
فيها مماثلة لما في سواها ، - وهذا غير محتمل - قد عرفت تطوراً خاصاً جداً . وهي تقتصر
بتميزها الذي لا مرأه فيه . اجل نحن نرى في كريت اثرأ لنظمها الاجتماعية ، لا سيما تلك التي
تولي الدولة حق المراقبة على تربية وحياة مواطنيها الجنود . ولا يتناسى مبدأ هذا الحق ومبدأ
المدينة اليونانية بوجه عام . ولكن استخدامه في سبارطة قد ارتدى طابعاً من العنف يضفي على
هذه المدينة مظهراً قريداً .

ففي كل مكان آخر تترك الدولة ، كدولة ، حرية أوسع للمواطنين . ولكن الا يخضع هؤلاء
لتأثيرات قوى اخرى ولضغط الجماعات التي ينتمون اليها لاعتبارات اخرى غير صفتهم كمواطنين؟
ثم من هي الدولة ومن هي الطبقة الاجتماعية التي تستطيع اخضاعها لنفوذها المسيطر ؟ ان محاولة
الاجابة عن هذين السؤالين تضمننا وجهاً لوجه امام آراء مختلفة تكاد لا تحصى ، ولكننا نראה
منذ الآن اتجاه التطور المقبل .

لا يزال عدد من المدن محتفظاً بحياة ريفية بحثة ، بعضها على الطراز القديم يتحكم بها اشراف
مقتدرون ، وبعضها الآخر تعيش فيها طبقة من الفلاحين تتمتع بقسط من الحرية أوفر . فحينما
تطور الاقتصاد ونمت الصناعة والتجارة ، تعذر على ارسوقراطية النسب ان تبقي على امتيازاتها
القديمة وتوجب عليها رفع عدد المحظيين . وقد اقدمت على ذلك إما اختياراً وإما قسراً . ولكن
هذا التوسيع كان متفاوتاً ، فلم يستفد منه ، ثارة ، إلا ذور الثروات المتقولة ، فانضموا منذ ذلك
الى الاشراف ووقفوا الى جانبهم في وجه مطالبات الطبقات الشعبية . ففي ميله *Mile* مثلاً ، وطيلة
ستين سنة في أول القرن السادس ، اصطدمت فئة «اولئك الذين يجارون بأيديهم» - أي الفقراء
العاجزون عن شراء السلاح - بفئة «الثروة» أو «اولئك الذين يركبون البحر دائماً» أي مجهزي
المراكب . وقد اشرك ، ثارة اخرى ، اعضاء الطبقة الوسطى في الحقوق السياسية . وقد مارس
الفقراء انفسهم ، احياناً ، بعض هذه الحقوق ، واننا نشاهد ، اذ ذلك ، قيام مؤسسات تنفرد
بها الانظمة الديموقراطية ، في كيتوس مثلاً منذالسنه ٦٠٠ قبل المسيح ، وفي أثينا بعد ذلك بزمن قصير .

خلال القرن السادس ، برزت أثينا ، في الواقع ، بروزاً ملموساً . وليس هذا

تعدم أثينا التأكيد نوعاً من تقدير الشيء بعد حصوله أو وهماً جرتنا اليه وفرة نسبية في

المعلومات . فقد بدأ التطور فيها بعد مدن كثيرة غيرها ، ولم يتحرك شيء فيها ، على هذا الصعيد ، قبل السنوات الاخيرة من القرن السابع . ولكن الحركة فيها كانت أكثر عمقا وسرعة ، فحققت في قرن واحد نتائج أهم منها في أي مكان آخر .

تبدل الاقتصاد في الدرجة الاولى . فتكونت طبقة ثابتة الاركان ومستقلة اقتصاديا قوامها فلاحون من اوساط الناس يتجون غذاءهم ويبيعون النيد والزيت والثمار والبقول . وفي اسواق حوض البحر المتوسط ، احتلت صناعة خزفيات اثينا المركز الاول . وسبق ذلك ان غر البحر اسطول تجاري . وضرب النقد بوفرة ، منذ ذاك التاريخ ، واكتسب شهرة طيبة بررتها قانونية وزنه وارتفاع عياره من الفضة . ثم ان تقهر المدن اليونانية في آسيا الصغرى ، على اثر الفتح الفارسي ، الذي أصبح امراً مفعولاً بعد ان قمع داريوس الاول ثورتهم ، قد افسح مكاناً أخذت اثينا تحتله ، على صعيد التجارة في البحر الابحطي والعلاقات ببلدان البحر الاسود ومصر والغرب . واذا لم تبسط بعد سيطرتها الاقتصادية ، فان انطلاقتها قد برزت منذ الان .

ورافق هذا التطور الاقتصادي تطور اجتماعي وسياسي . فنذ السنة ٦٢١ حتى السنة ٥٠٦ ، كانت شرائع « دراكون » و « صولون » ، واستبداد بيسستراتوس وأولاده ، وشرائع « كليستين » ، بمثابة اوتاد رسمت بها بسرعة طريق طويلة تقراءى في آخرها امكانات وآفاق كلتية الجدة . وبما هو ام من ايجاد بعض الاجهزة السياسية ، ان يحضر المجال القانوني والاجتماعي للديموقراطية كما سفيهاها الاغريق . ولم يُقص الاشراف عن السلطة ، بل انهم سيقدّمون لاثينا ، طبقة سبعين سنة بعد ذلك ، خيرة حكامها : ميلتيادس وديمستوكلس واريسيتيدس وكيمون وبريكليس نفسه . ولكننا نمتقد ، على قدر امكانية الحكم في هذه الامور ، انهم مدينون بتولي السلطة الى صفاتهم الشخصية قبل كل شيء آخر . ولعله يجوز الاستنتاج ، حبال هذه القضية ، ان الشرائع تقدمت الاعراف والتقاليد ، لان الشرائع لم تتركس سلطة الاشراف قط ، واذا تبقى هنالك من امتيازات ، فانها هي امتيازات واقعية فحسب ، وليست بعد امتيازات قانونية . وهكذا فقد شقت الطريق لارتقاء طبقات اجتماعية جديدة تتولى ادارة الدولة وسيرمز الى هذا الارتقاء بعد موت بريكلين مباشرة ، اسم الدبّاغ كليون .

وقام ايضا ، منذ دراكون ، قضاء جنائي رسمي . ثم جاء صولون فتبسط فيه . وبالاضافة الى ذلك اعطى صولون حق الشهادة لمن لم يرزق ولداً شرعياً ، وشجع تجزئة الثروات العقارية ، وحظر المظاهرات الصاخبة في الجنائز . وحقق كليستين اخيراً اصلاح الحامم بان اوجد ، بموازة توزيع المواطنين القديم المبني على النسب ، سلسلة جديدة من الفئات البشرية على اساس اقليمي : عشر قبائل « ديوس » تقريباً . ولم تعتمد الدولة الاثينية ، بعد ذلك ، في تأليف كافة اجهزة الحياة السياسية ، سوى التقسيم الكليستيني .

لقد اوحى هذه التدابير كلها تصمم واحد : انتزاع الدولة من قبضة المائلات الكبيرة بالانتقاص

المنظم المرسوم من امتيازاتها وتلاحمها الداخلي. فوسعت الدولة سلطاتها على حساب هذه العائلات ، لا سيما بإنشاء القضاء والجيش ، والاسطول بعد ذلك ، فلم تمد الدولة حرماً لها. ولكن الطريقة التي سير عليها لتحقيق هذا التحرير قامت - ولم يكن بالإمكان ان تقوم على غير ذلك - على تحرير الفرد من تضامنه الوثيق مع الفئة التي ادخله نسبة فيها . وقد هدفت الدولة ، من وراء ذلك ، الى ان تجعل من الانسان مواطناً لا عضواً من اعضاء العائلة . ولعل ما يجب معرفته ، بعد ان ساعدته على امتلاك هذه الحرية ، هو ما اذا كانت ستجيز له استخدامها على هواه او ستحاول قيادته وتوجيهه او ستنوء عليه بسلطتها . ولكن طرح هذا السؤال سابق لأوانه . فالشيء المهم الآن هو حقيقة تحرير مزدوج يبدو مظهراً المترابطان كنتيجة لتطور واحد : تقهقر التوزيع الاجتماعي القديم .

وتجدر الإشارة هنا الى ان الشطر الأكبر من هذا التطور قد تحقق في اثنينا منذ الآن ، ويكفي الاستمرار فيه دون التهرب من ذيله : وقد قدمت اثنينا ، في عملها هذا ، مثلاً سستير عليه كافة المدن اليونانية . وسيكون لسحر مثلها قوة لا تقاوم ، لا سيما وان اثنينا ، في القرن التالي ، ستمني قوتها العسكرية والسياسية وستحتل ، في الوقت نفسه ، المرتبة الاولى على صعيد الفكر والجمال حيث تكتفي الآن بان تبقى مع سواها على مستوى واحد .

٢ - التطور الادبي

لم يكن التطور الادبي في العالم اليوناني ، طوال هذا العهد اقل عمقاً او اقل تحضيراً للمستقبل. ولكنه يبدو اكثر تمقيداً ، في اسبابه وخطوطه العامة والاشكال التي اتخذها ، من التطور الزمني. لعلم النمو الاقتصادي دوره بفعل الثروة التي وفرتها والصلات التي عرامل التطور الادبي اوجدها او وثقتها بحضارات اخرى لا سيما الحضارات الشرقية . وكلت عتوماً على الحضارة اليونانية التي هي آخر ما جاء الى حوض المتوسط الشرقي ان تفسد من الاختبارات والتحقيقات التي كدستها حضارات ارسخ منها قديماً وأوفر ثروة واسبق فناً وتقنية . فاقبست عنها الكثير مما سبق واثرتا اليه . ولا حاجة بنا الآن لان نجتمع هذه الاقتباسات في لائحة طويلة كي ندلل على اهمية مجموعها . وقد درج المؤرخون منذ زمن بعيد على الانتقاص من مدلول القول المشهور «الاعجوبة اليونانية» بمحصر هذا المدلول في تأويل الاغريق لما تسلموه من الغير ، وقد يتنوع بعضهم عن استعمال هذا التعبير اطلاقاً .

ولكن هذا لا يعني وجوب التسليم لسراب الشرق ، لان الشعب اليوناني ، في اعماقه ، غني بالامكانات المميزة التي يمكن التعرف الى القسط الذي ادته دونما عناء. فليست الارستوقراطية القديمة ، كما رأينا ، لامة من الاجلاف ، بل هي تستهدف بلوغ مثل اعلى في الحياة الفكرية والفنية تدرجت نحوه ، مع الزمن ، طبقات اجتماعية كثيرة . وقد اثبت المستبدون انفسهم ، باهتمامهم لنفوذ بلاطاتهم ومدنهم ، انهم استهدفوا بلوغ هذا المثل ايضاً . لا شك في انهم اقتدروا

بالسلطين الشرقيين ، لا سيما اللبيين ، اقرب الماوك في الزمان والمكان ، الى العالم اليوناني الذي عرفهم معرفة تامة دون غيرهم . ولكنهم صموا ايضاً على ان يتفوقوا ، ببهاء وجلال حياتهم ، على اشهر الارستوقراطيين ثروة وسخاء ، متبئين على غرارهم ، المثل الهوميريوسي الاعلى الذي يجعل منهم «رضعاء زفس» يملكون قصوراً غاية في الزخرف ويحسون وفادة الشعراء المغنين . ثم اذا نظرنا الى الشعب اليوناني كجموع ، نوجب علينا الاعتراف بما يتحلى به من جرأة فكرية ورغبة دائمة في الاستطلاع واهلية لخلق كل جديد ومن ضمن الاحترام المتطير للتقاليد . ويمكننا رؤية هذه الحرية الفكرية في التقلبات التي طرأت على تنظيمه الاجتماعي والسياسي . وهو لم يتوان عن التجديد حتى في النطاق الديني الذي يتصف بالجمود اكثر من غيره .

ولكن هل كانت الذنعية اليونانية واحدة يا ترى؟ بفرينا جداً ان نرى فيها نزعتين متزاحمتين : الاولى ذات منطوق بسيط سليم وتفكير رصين متناسق ، والثانية ذات جمال يدغدغ بئائره الحواس والشهوانية . فلما رآه في انا هاتين النزعتين ، الاولى والثانية ، موجودتان في الحضارة اليونانية . ولكن غالباً ما جعل المؤرخون من تزاوجهما الصفة المميزة للعهد القديم ، وهو عهد تأسيس وتلس وتردد ؛ فقابلوا القساوة الحازمة البارزة في التيار «الدوري» بالسحر الحلال والطلاوة النسائية في التيار «الايوني» ، الى ان جاءت اثينا ، في فجر العهد الكلاسيكي ، وحققت جمعهما في تيار واحد . لا ريب في ان تأثير الشرق الذي استهوى الاغريق بنبات يوضح خطوطاً كثيرة في التيار الايوني . ولا ريب ايضاً في ان الكلام عن هذا التمييز انما يصح عن الفن خصوصاً ويستلزم بعض التبسيط . فالمدنية الدورية الاولى ، سبارطة ، قد تأثرت الى حد بعيد بمجاذب الشرق ، خلال فترة طويلة على الاقل . اما ايونيا الاسوية ، فاذا صح ان فيها ينبع عن رغبة في الاقتان المتأنتق ، فقد كان لها فلاسفتها وعلمائها . لذلك لا يجوز الكلام عن «الايونية» والدورية» إلا بكل حكمة ، اذ ان الاولى والثانية ، على كل حال ، لا تتلان بالضبط النزعتين اللتين ستظهران بوضوح ، في عهد لاحق ، في تطور الحضارة اليونانية .

تبدو الديانة كعنصر وحدة في العالم اليوناني المقسم مدناً عديدة . ولكن التنوع الديني الالهة الذين عبدتهم ينتسبون الى مصادر مختلفة . فبعضهم استوردتهم الهنود الاوربيون : آلهة السماء مثلاً ، ولا سيما زفس ، إله النور والزوينة . وجمعت البعض الآخر من الارث الايجي : آلهة الارض ، كاثينا وديميتر . وجاء غيرهم اخيراً من الخارج : من آسيا كافروديت ، أو من تراقيا كآريس أو ديونيسوس . ومن العسير غالباً تبيان هذا المنشأ لان هذه العناصر قد اختلطت ببعضها اختلاطاً غريباً ، فقد احتفظ احياناً بذكر حدث اغتصاب . وهكذا فان ابولون الذي جاء من آسيا قد وضع يده على معبد «دلفي» المكرس للإلهة الكريتية العظيمة . واعتمد الصهر احياناً اخرى ، اما باعتبار اوجه الشبه في اختصاصات الالهة واما بطريقة اكثر بساطة تقضي بان تمزيق لاله الواحد خاصيات آلهة مختلفين ؛ وهكذا فان الحصان يشير الى الاله الشمالي في يوزايدون ، بينما يشير الخطاف الثلاثي الشوكات والسلطة على البحر الى

الإله الجنوبي . ووزع الآلهة أخيراً عائلات مختلفة هي نفسها معقدة التركيب . وقد تم كل هذا العمل في الوقت نفسه الذي تكوّن فيه الشعب اليوناني ، فلا نعرفه ، إذن ، إلا بواسطة نتائجه . وقد اكتمل في أوائل القرن الثامن ، حيث انتصر تشبيه الآلهة بالإنسان أيضاً ، فلم يبق للأصنام والحيوانات ، الى جانب الآلهة ، سوى قيمة الرموز أو الخاصيات .

تتضح إذن حقيقة مجهود قديم مثمر استمر في العهود اللاحقة ، فبرى هيرودوتس ان الشعارين القديين هوميروس وهيزيود ، قد « حدّدا نسب آلهة الاغريق ، ووزعا عليهم صفاتهم وخصوا كلا منهم بإجماده وصلحاياته ، ورسعوا صورهم » . وفي الواقع كان للشعراء اثر بعيد في الديانة اليونانية . فإليهم يعود الفضل في انهم اختاروا ، من الكثرة الاولى ، آلهة كباراً يحملون اسماء عالية الشهرة ، ويتحلون بشخصيات مميزة ، ولهم عائلتهم وتاريخهم ، وانتظموا مجتمعاً على غرار المجتمع البشري . وقد ذهب هيزيود الى ابعد من ذلك ، بانقطاعه عن ادخال الآلهة مباشرة في اوساط البشر ، وبالتشديد على دورهم كحراس للآداب ، وحتى بتأليه بعض التجريدات الادبية كالدالة (ديكي) والمنافسة (ايريس) ؛ وغالباً ما كانت هذه الشؤون غريبة عن القصائد الهوميروسية .

ولكن هذا المجهود لم يكتمل قط بالنجاح التام . فكان في الواقع لكل معبد إله الخاص به التميز بأحد الفوارق او احد النعوت او احدى الاساطير المحلية . وقد ارضى المؤمن بهذا التميز البالغ لانه يطلب عوناً واضحاً مادياً جيداً . وقد بقي دائماً للطقوس نصيبها الهام ايضاً . فبرى ، والحالة هذه ، ان نقل الديانة الى الصعيد الروحي كان وفقاً على نخبة فحسب .

الطقوس مكونة الوحدة :
المباريات

لماذا احرزت بعض هذه الطقوس مزيداً من النجاح وصادفت قبولا وتأيداً ؟ ان تضامن الشعب بكليته قد اتضح اخيراً بالاستراكية في الاحتفالات العامة . وهذا التضامن ابعد من ان يكون شاملاً منذ البداية ، لا بل نحن نستطيع تتبع تدرجه الصاعد من خلال اتساع هذه الاحتفالات نفسه . ولكن ، من حيث ان التضامن السيامي المقابل لم يجرز اي نجاح ، يتوجب علينا الاعتقاد بان طبيعة هذه الاحتفالات استجابات لميل عميق في النفوس .

وانما المقصود هنا الالعاب الموروثة فكترتها ، دونما ريب ، عن الكرتيين . ولكننا نرى بجلاء ان نجاحها يتفق والمثال الاعلى للإنسان كما تراهي للادواق الارستوقراطية : فهو يدعو كل فرد لان ينمي في شخصه ما يمكن ان يميزه عن غيره . وانما اللعب مباراة تنجلى فيها صفات الفرد وتفوقه على امثاله . ولكن ما يلفت النظر هوتلك المشاعر والفكر التي تلابس هذه الفردية وتحد من نتائجها . فهناك الفكرة الدينية اولاً : يقدم المتبارون مجهودهم قرابين لاله الذي يعين من يتقبل قربانه بالرضى ، بإبلائه النصر المين . وهنالك ايضاً الفكرة الاخلاقية المرتبطة بالاولى : فالإبعاد يصيب الحدّاع وخرارق القديسات والقائل ؛ اما المكافأة ، وهي تاج من اوراق الشجر ،

لئیس لها من قيمة مادية . وهناك اخيراً فكرة المدينة : فهي تذبج الى جانب اسم المنتصر ،
سم وطنه ، وتقبر الاكرام الذي ينال المواطن من وطن يقاسمه مجده .

نحن نجهد كل شيء عن كيفية تكوّن هذه الفكر وهذه المشاعر . ولا نرى سوى توسع اطار
هذه المباريات المطرد . فان اشهرها واقدمها ، على الاطلاق ، مباريات اولمبيا التي جرت كل
اربع سنوات في واد صغير الى الشمال الغربي من البلوبونيز ، اكراماً لزمس الاولمبي . ولعلها
تقررت للمرة الاولى في السنة ٧٧٦ ؛ وتكشف لنا لائحة الفائزين عن اتساع اشعاعها المطرد :
الجوار القريب ، ثم البلوبونيز ، ثم اليونان البلقانية ، ثم آسيا ، واخيراً المستعمرات الغربية .
وتكشف لنا ايضاً عن الاطراد في ارتفاع عددها وتنوع عالمها : سباق الركض ، ثم سباقات
القوى الاخرى ثم سباق العربات . وعلى غرار مباريات اولمبيا تنظمت مباريات اخرى ، على
مقربة من معابد اخرى ، في تواريخ مختلفة . ومن اكثرها رواجاً ما اقيم اكراماً لبوزايدون
في مضيق كورنثوس ، ولزفس في نيميبا بين كورنثوس وأرغوس ، ولابولون في دلفي . وقد
جمعت مباريات دلفي بنوع خاص بين سباقات القوى والسباقات الموسيقية . وقد وضع مثل
هذا البرنامج المتنوع ، اكراماً لابولون ، في جزيرة ديوس الصغيرة الواقعة في وسط السيكلاد ،
وهي الجزيرة التي ابصر فيها النور . ولكن ديوس لم تجذب اليها عملياً سوى الايونيين
دون غيرهم .

نظمت هذه المباريات لمناسبة عيد الاله المحلي . وكان لكل اله عيده اي «بانيجيريا» التي
تعني بالاشتقاق «الاجتماع العام» الذي يضم مؤمنيه ، وهم قديتفاوتون عدداً وقد يأتون من قريب
او بعيد . وكان لبعض الاعياد الاخرى مبارياتها ايضاً : كعيد «أثينا» لاله مدينة اثينا مثلاً الذي
ظهر قبيل منتصف القرن السادس مع تطواف الـ «بيبلوس» . ولكن عند الاعياد التي تترامى
فيها المنافسة على الفوز ما زال ، حتى ذلك العهد ، محدوداً جداً . ولكنه سيرتفع فيما بعد دون
ان يؤثر على مكانة الاعياد الاولى الوحيدة التي بلغت مرتبة يمكن وصفها باليونانية الشاملة .
وقد بلغ سحرها الاوج ، لا سيما سحر مباريات اولمبيا ، في اواخر العهد القديم ، وكانت شهرتها
ادبية اكثر منها مادية . وقد قضى العرف ، في مرحلة انتقال المتبارين والحجاج ، ان تعلن في
كل مكان «الهدنة المقدسة» التي يتقيد بها الجميع خير تقيد . وقد حق لكل يوناني حر ان يشترك
في هذه المباريات . فكانت هذه المباريات اذن مظاهر جليلة لحضارة يونانية قائمة بذاتها تنصف
بالخيلاء في وحدتها المتسامية فوق التقسيمات السياسية وفي تناقضها مع «البرابرة» اي مع الاجانب .
وعممت ممارسة الموسيقى والتبارين الجسدية والعري نفسه الذي اهتم الفنانين ، واثرت بالتالي على
تطور الحضارة اليونانية . ولكنها لم تخلق فيها تيارات جديدة بل اقتصرت على تقوية بعض
تياراتها القديمة . ولم تقو على القضاء على تيارات اخرى . فان صفتها اليونانية الشاملة مثلاً لم
تتغلب يوماً على انقسام المدن .

لم يختص كل ذلك ، شأن الذبائح ، الا بالطقوس . اما الديانة ، على نقيض ذلك ، التصرف فقد تأثرت ، في النصف الثاني من القرن السابع وفي القرن السادس بقوى بعيدة القمر يكتنفها الغموض . فاضطرت لان تقسح مكاناً لتصوف جهل الشعز الموميروسي جهلاً تاماً ولم يتخذ ، في شعر هيزيود ، سوى شكل ميول ادبية رفيعة . ولم يكن فيها حتى ذلك العهد ما يشبع الميول العاطفية عند الكائن البشري . ولم تفتح عبادة الاموات نفسها ، التي كانت تمارس بالولائم الجنائزية وبالافراط من شرب الخمر على المدفن الذي يعلوه اثناء دون قعر ، الا افاقاً كالحلة عبوسة ؛ ولم يكن استحضر ارواح اكثر الاموات شهرة ، كما تصفه الاوديسه ، ليطمئن احداً عن حقيقة الخلود الكئيب والواهي الذي ينتظر الادميين في عالم مس تحت الارض . فالتقوى البشرية تتطلب حقائق اخرى ، حتى ولو اقتضى ذلك موجبات اخرى . لذلك فهي قد استقبلت بجرارة الآراء والمراسم الجديدة او المجددة المستوردة من تراقيا او آسيا والمرتبطة بالتالي باتساع أفق الاغريق الذي يدينون به لأسفارهم ونشاطهم الاقتصادي .

كان لديونيسوس مكانه الخاص في جميع مظاهر هذه الذمنية الجديدة فعدا الوارث الرئيسي لهذه الحركة الراسمة . فمارة عمل مباشرة على امتداد عبادته : وهكذا فان الاستبداد الاثيني جعل من اعياده اعياداً رسمية ونظم الاحتفال بها ، وهي التي ستبثق عنها التمثيليات المسرحية . وأثر ك تارة اخرى في عبادات او عقائد انتشرت حينذاك . فكان له مثلاً مكان في معبد آلهة « الفيسس » الذي وجب توسيعه بفعل ازدياد عدد المؤمنين الذين استهدفوا ، من وراء الاطلاع على اوليات علم « الأسرار » ، المزيد من الاطمئنان حيال الحياة الثانية . وقد خصته أيضاً الأساطير الاورفيوسية بالمركز الاول .

شرت هذه الأساطير جميعيات انتسبت الى اورفيوس المغني التراقي . وقد روت كيف ان ديونيسوس قطعه التيتان ارباً ارباً ، وهم الشر المتجسم ، وكيف ان أباه زفس قد بعثه حياً . اما الذين نشرها ، تدفهم الى ذلك غيرة تبشيرية تتنكر للحدود السياسية والاجتماعية ، فقد استغلصوا منها مشلاً وعبرة . فوعدوا بالسمادة الابدية كل من يسلك سبيل تقشف اخلاقي وجسدي نصحوا به الى كافة البشر الذين سيفصل الموت ارواحهم عن أجسادهم النجسة . ولا ريب في ان الاورفيوسيين قد جمعوا في صفوفهم دجالين وعرافين يميزوا الاشباه بهم . ولا ريب أيضاً في ان السحر كان له مكانه في كتبهم المقدسة . ولكنهم جاؤوا بأراء جديدة كثيرة كان نجاحها في البدء باهراً ثم تدنى طليقة العهد الكلاسيكي ، على الرغم من استمرارها المستتر ، الى ان عادت وظهرت في العهد الهليني ، فلم يكن ممكناً ، في الواقع ، ان يبقى دون اثر الوعظ الديني الذي لم يفترق بين يوناني و « بربري » اي بين الحر والعبد ، والذي لفت النظر الى تركيب الانسان ، في ان واحد ، من عنصر فان ومن روح ترتبط بمبدأ آخر ، وتكلم عن دينونة الهية تقال الروح بموجبها ، بسبب مسؤوليتها على الارض ، اما ثواباً واما عقاباً . وحين زالت الجمعيات

الأورفيومية السجسة ، استمرت نظرياتها موسعة وموضحة مفهوم الإنسان الذي اعتمده الاغريق حتى ذلك التاريخ .

هتافات الغيب يبدو ان هذا التيار التصوفي الذي دفع بالمتصوفين الى الانحطاط أحياناً، قد كان خير معوان لتجاع هتافات الغيب . وتعود هذه الهتافات الى ما قبل الاغريق الذين ورثوها عن الحضارات السابقة . غير ان القصائد الهوميروسية تكاد لا تتكلم عنها ، خاصة بالذكر الاحلام والدلائل الطبيعية عن المستقبل التي فسرها العرافون . اما بعد ذلك فوجود الكثير من هاتفي الغيب يصبح امراً واقعاً وطبعاً يستشيرهم الأفراد والدول في مواضع مختلفة فيجيون بطرائق متنوعة ، وما العرافة الملهمة سوى احدى هذه الطرائق ، ولا يرتقي الشك الى نجاحاتها خلال القرن السادس . غير ان الانبياء في الشطر الآسيوي من العالم اليوناني ، هم غالباً من الرجال ، بينما هم كثيراً ما ينتمون الى النساء في الشطر الاوروبي: ففي كلاروس في ايونيا يصرف الكاهن تصرف العرافة في دلفي . فيمكن بالتسالي ان تقسّر بعض المراسم ، على هذا الصعيد ، كمظهر من مظاهر تيار ديني قديم تأصل في القرن السادس وقبل به الاغريق اخيراً بعد ان لطفوه بعض التلطيف .

أما الإله الذي كثيراً ما رافق اسمه فن العرافة هذا فهو ابولون الذي لا تقع مراكز الهاتفين بالغيب باسمه تحت عدد أو حصر . وفي أواخر القرن السادس ، ذاعت شهرة بعضها حتى بسين الشعوب البربرية ، فيستشير الملك الليبي كرزوس عدداً منها ويعترف داربوس الأول بان ابولون « قال للفرس الحقيقة الكاملة » . وبين هذه المراكز التي كان ابولون سيدها ، تمثل دلفي اشهرها فحسب . وهو قد طرد منها بالقوة إلهة « الأرض » الكريتية . ولكنه اضطر لان يفسح في معبده مكاناً متعاضلاً لديونيسوس . ولا ريب في ان هذه الشراكة قد خدمت نفوذه الذي بلغ الأوج قبيل الحروب الميديه . غير انه لم يستخدم هذا النفوذ على الصعيد السياسي او انه اساء استخدامه . أما على الصعيد الديني فكان هذا النفوذ أكثر فعالية بتنظيمه للعبادات والماراسم أو بإطراء الطهارة الجسدية ، منسجماً في هذا مع الاورفيومية . وقد تطرق الى الصعيد الاخلاقي نفسه ؛ فعبرت النصوص الظاهرة في معبده عن بعض اصول الحكمة ، كان هاتف الغيب ، في بعض الحالات ، يوصي باحترام الميدين وتأدية واجبات الضيافة .

ولكن كل ذلك لم يدم طويلاً . فلم يلبث عمل هتافات الغيب ان يحد في التسلط الزمني . وسيتقضي للديانة اليونانية تطوّر روحي آخر كي تصبح قابلة لان تنفذ اليها النظريات الاخلاقية .

لم تعرف الحياة الفكرية ، لزم طويلاً ، طريقة تمثيل ثابتة غير الشعر . فالوزن الشعر المعجمي يسهل الحفظ عن ظهر القلب . واذا افترضنا ان الكتابة عرفت قبل اعتماد الايجدية المشتقة عن الايجدية الفينيقية ، فان استعمالها لم يترك أي أثر ولم يتح له الشبول إلا في عهد متأخر نسبياً . ثم ان هنالك مصطلحات ، بعضها ديني على الأقل ، قد لعبت دورها ، وهي

تترامى في بعض الأوزان الشعرية الخاصة وفي استعمال لغة صنعية وصيغ كلامية ، لا سيما في أقدم القصائد الشعرية عهداً ، أي الملحمة .

يمثل هذا الشعر الملحمي عظمة اوائل العهد القديم .

فهناك أولاً هوميروس بل بالأحرى القصائد الهوميروسية . فالتقليد اغنى بالمتناقضات حول الشاعر الذي نسبت اليه من ان نستطيع ان نستخلص منها فارقاً واحداً لا عدة فوارق . ثم ان التشريع الذي اخضعت له هذه القصائد منذ اكثر من قرن ونصف لم يفض بعد الى نتائج اجمع عليها العلماء . « فالقضية الهوميروسية » ليست وشبكة الحل والحالة هذه . غير انه يبدو من الامور المفروغ منها ان الالياذة والوديسه عبارة عن قصائد مجموعة مكرسة في الأصل لحوادث متفرقة ومختلفة ومؤلفة على حدة . ويصح ذلك بصورة جليئة عن « غضب ايشيل » في الالياذه و « عودة اوليس » في الالوديسه مثلاً . ومن المفروغ منه ايضاً ان هذه القصائد قد مضى عليها زمن مديد وادخلت عليها بعض التحويرات ، قبل ان تجمع في كتاب واحد ، كما ادخلت عليها بعض التحشيتات حتى في تاريخ نشرها في اثينا ، يامر المستبدن ، في النصف الثاني من القرون السادس . وفي ما عدا ذلك فالخلافات القائمة بين الاختصاصين كثيرة جداً ، ولكن القسم الاكبر منهم في الوقت الحاضر يعتبر ان الملاحم ، في جوهرها ، قد صبت في قالبها في القرن الثامن ، على ان الالياذه قد سبقت الالوديسه بخمسين سنة تقريباً . ولكن مهما يكن من أمر هذه الالريات ، فانها لا تتال من صنعة العمل الذي يعود الفضل فيه ، باستثناء بعض القطع الرائعة ، الى الجامع أو الجامعين . ففي الملحمين انتظمت الحوادث التي غلب عليها التشوش في البدء ، حول شخص وعمل : اوليس نفسه يروي اسفاره ، وما مغامراته سوى تحضير لمأساة ثاره النهائية . واذما ما اضفنا الى ذلك ان الملاحم الهوميروسية تنطوي على ديانة وميثولوجيا اضفت عليها سحرها الشعري ، وتحدد علماً اخلاقياً أو أقله مثلاً بطولياً للانسان ودستوراً للأدب والانس والجمامة ، نرى كيف انها ، حتى آخر التاريخ القديم ، استطاعت توفير أساس تربوي لفتيان الاغريق .

أما هيزود ، في أواخر القرن الثامن ، فوجه واضح الخطوط لا يمكننا وصفه بالتاريخي لان واحداً من الشعراء الاغريق لم يعيش الحياة المتواضعة القاسية التي عاشها بعيداً عن القصور . وهو قد اعتمد اساليب وأوزان الشعر الهوميروسي ولكن بذهنية اخرى وببساطة تخيلته على معطيات الواقع اليومي ومعطيات التقوى الراسخة : فلم يكن أدب مدن آسيا وقصور العطاء ، لا ولا السخرية الباسمة ليعرفنا سبيلاً الى مسكن هذا الفلاح المتواضع الذي يببالغ في التردد الى المعابد المجاورة . ولعل ما يحرك منا الشعور فيه هو فظاظته الحرقاء نفسها ، بالإضافة الى اهتمامه للأخلاق والعدالة ، وثقته بالآلهه لفنان قصاص الأشرار ، واستجارته بالخرافات لتفسير وجود الشر على الارض ، ومواعظه الهازمة في سبيل عمل الانسان وواجبه وكرامته . وفي

« نسب الآلهة » ، حيث يهتف يحاول تنظيم تسلسل الآلهة ، يهبط هذه الآراء والتفكيريات . ولكنها تبرز مجموعة بشكل أفضل نجفاء في كتابه « الأعمال والأيام » . وقد عرف الفلاح في هذا المؤلف المستعذب على ما فيه من خشونة ، ان يبقى ريفياً على الرغم من تجليه شاعراً ومهذباً ، ووصف جهود المالك الصغير وارشاداته التقنية ومعتقداته وخرافات واضطرابه لان يوفق بين حياته وقوى الطبيعة .

نشأة الشعر الغنائي ونضارته
اصيب الشعر الملحمي بذبول سريع . ولكن شعراً آخر قد نشأ
حاملًا ، في الوقت نفسه ، طابع الموسيقى الشرقية وطابع فردية
الاغريق : الشعر الغنائي .

أما بصدد الموسيقى ، أدوات وأنغاماً ، فالعلائق يلبديا التي هي نفسها وريثة فريجيا ، كانت حاسمة بلا مراء . واذا نسب الاغريق هذا او ذلك من الاكتشافات الفنية لبعض مواطنهم ، فليس من شأن ذلك ان يخفي واقع استعارات تقدمتها بلاريب متروكات الحضارة الكريتية . وقد استقر كل ذلك في التركة اليونانية بدخوله في طقوس الاحتفالات الدينية . اما الغناء الجوقي الذي ترافقه الرقصات والحركات الايقاعية التي تقوم بها فرق من الرجال والفتيات والاولاد فلم يلاق في أي مكان ما لاقاه من اكرام واعتبار في سبارطة . وغدت الموسيقى مادة اولية في منهج تربية الفتيان الاغريق ، حتى سن الثلاثين احياناً .

وبالإضافة الى ما اوجده الاغريق لشعرهم الغنائي من اوزان كثيرة ، فقد اقدموا على تسخير ه للتعبير عن مشاعرهم الشخصية ولاتقاء هم التهمين ولتوجيه التهم لغيرهم ولحاولة الظهور دونها حياة وللتغني باحتقادهم واهوائهم وآلامهم وافراحهم . ووجدت ، منذ القرن السابع ، المراثي والاناشيد والقصائد الانتقادية خاضعة باستمرار للتكسيف والتكسيف ، فنظمت شعراء عديدون لم يصل البناء منهم ، لسوء الحظ ، أية قصيدة كاملة . وقد لجأ المشرع صولون الى الشعر لدعم عمله السياسي والاجتماعي ، وأفرغ ثيوغنيس الميغاري جام غضبه شعراً ، ووجدت سبارطة في بعض الاجانب افضل شعرائها في حقل التربية المدنية . بيد ان غالبية الشعراء الغنائيين ، الذين ولدوا أو عاشوا في مدن آسيا الصغرى أو في الجزر ، تغنوا بافراح وحرارة الحياة الشوانية التي فتحتها فيها ثروة الشرق القريب منها . وأشهر هؤلاء الشعراء هم ألقيا والشاعرة صافو الميتيلينيات في أوائل القرن السادس اللذان لا يعرفان لضبط النفس من معنى ولا يتقيدان في هيجانها بمصطلحات أدبية تافهة : صافو تتظاهر بشهوة معثرة منذ التاريخ القديم ، ويعبد ألقيا موت مستبد مكروه ينداء الى معاقرة الحر .

نشأة العلم والفلسفة
كان الشرق اليوناني اذن مهد الشعر الغنائي ، وكان أيضاً مهد العلم والفلسفة . كانت الحضارات الشرقية السابقة ، اقبله بصدد العلم ، قد جمعت المواد الاولية . ولا ريب في ان الاغريق استعاروها عنها . فان ايونيا ، حيث ظهرت هذه الانظمة

العقلية ، كانت على اتصال بكافة الشرق . وقد أهلها موقعها الجغرافي لان تطلع على جميع تحقيقاته . فمن طريق ليديا التي خدم تاليس الميلي سيدها ، لا عن طريق رحلته الى مصر فقط التي ينسبها اليه التقليد ، تمكن من معرفة علم الفلك وعلم الحساب اللذين اشتهر بها كهاًن بلاد ما بين النهرين . واذا ما عدنا بالذاكرة الى هؤلاء ، لن يدهشنا ان يكون ثلثاً بكسوف الشمس الذي حصل في ٢٥ ايار من السنة ٥٨٥ . ويمكن القول نفسه عن التقنية ايضاً . ويمزى الى تاليس انه اشرف على حفر احدى الترع لتجفيف مسيل احد الانهار . وبنى مهندسو ساموس رصيفاً في البحر بلغ ٣٦ متر ارتفاعاً و ٣٦٠ متراً طولاً لتوسيع المرفأ في الجزيرة ، وحفروا قناة لجر المياه بلغت ١٠٠٠ متر طولاً . ولتستن هذه الاعمال الباهرة التي بدت للاغريق وكأنها معجزات لا تصدق سبقها منذ زمن بعيد اعمال مماثلة في الشرق . ولم تكن الطرائق التقنية الممتدة ، من حيث مبدأها على الأقل ، الاكتشافات بالمضى الصحيح . اما التجديد الحقيقي فهو انصرافهم ، بجهود منطقي ، الى مباشرة تنظيم هذه المعارف علماً مجرداً . فحيث لم يتجاوز الشرق التجربة والاختبار ، ولدت الهندسة مع تاليس ، كما قيل ، فدفع بها بيثاغور الى الامام ، اذا لم يكن هو نفسه قد اكتشفها ، وأوجد في الوقت نفسه علم الاعداد .

ولم يكن دور الايونيين في الفلسفة اقل اهمية . وكان يمكنه الشرق هنا ايضاً ان يوفر لهم بعض الشيء ، اي نظرياته في تكوين العالم التي انطلقت جميعها من مبدأ اولي بغية تحليل خلق العالم . ولكن المبدأ ، وفاقاً لتعلم هذه النظريات ، لم يتميز عن الاله ، كما لم يتميز الخلق عن ظهور آلهة آخرين . اما فضل الايونيين فهو انهم واجهوا المعضلة نفسها منعتين من الفكرة الدينية ومستندين الى عقلم فحسب . ولكن قد يصح ان يقال في هذا العقل الذي لم يزل بعد في عهد الفتوة انه انما يسكر من تلميذ نفسه . فحاول تاليس وتلميذاه اناكسيندروس واناكسيمينوس اكتشاف ابدأ الواحد الذي ادت تحولاته الى ولادة الاشياء والكائنات . واقترح بدمها هيراكليت الافرسي ، وهو ايوني ايضاً ، عنصراً اولاً هو النار ، ولكنه اضاف الى نظريته هذه فكري الصراع الدائم والتطور المستمر . وقد ذهب بعض الايونيين الى ايطاليا الجنوبية بشعروث فيها تعلمهم ؛ فأسس كسينوفانوس الكولوفوني ، الهارب من السيطرة الفارسية ، مدرسة ايليا ، كما اسس بيثاغور الساموسي ، الذي رفض الخضوع للاستبداد ، ندوات للتلاميذ في مدن خليج طارنتا حيث استمر تعليم نظرياته حتى القرن السادس .

اما شهرة بيثاغور الطولية فيفسرها غنى مذهبه حيث رافق تعليمه حول النفس وتعاقب مجسدها . . . التمتع ... علم اخلاقي وقانون حياتي ، بينما كانت فلسفته ، في سعيها لاكتشاف سر الكون الذي وجدته في تناسق الاعداد ، مثاراً للابحاث العلمية . ولكن حتى ولو لم تمش طويلاً مدارس الفلاسفة الايونيين الذين لم يفرقوا بين بحوثهم وبين العلم الذي انقطعوا اليه ، فانهم اول من اطلق الفكر اليوناني وشق الطريق امام اقداماته القلعة .

اصبحت الحياة العقلية عند الاغريق ، منذ آخر العهد القديم ، ابيه حياة اولوية الفكر اليوناني عقلية في العالم المتوسطي . ولم تكن اية حضارة شرقية حينذاك لتتمكن من الاتبان بشيء حي جديد تنافسها به . كان كورس الاخميني قد طلب طبيب عيون من فرعون مصر ، ولكن خلفه الثاني داريوس قد احتفظ في بلاطه بالطبيب ديموسيديس الكروتوني الذي سبق وتنازعته مدن يونانية عديدة والذي توسط لديه ، بعد ان شفاه من التواء في مفاصله ، خدمة للاطباء المصريين المحكوم عليهم بالتعذيب تكفيراً عن جهمهم . فيتضح من هذه الروايات ان انتقال الاولوية منذ ذلك العهد قد غدا محتوماً .

انزل الاغريق الشرقيين عن عروشهم ولكنهم لم يعملوا الاستفادة من اختراعاتهم واكتشافاتهم ؛ لابل انهم سيستمرون زمنياً طويلاً في الافادة منها ، بمقدار تمكنهم من اتقان معرفتها . ولكنهم يتهجون فيها نهجاً آخر مستيرين العقل البشري ، بقيادة منطقهم الفطري ، في الطرق الجديدة التي تقراى امام فضولهم النهم . وليس من اتفاق الصدق ان يظهر ، في العهد نفسه وفي ايونيا نفسها ، علماء الجغرافيا والتاريخ . ولا يزال هذان العلمان متعثرين ومليئين بالاساطير عند واضعها ، « الناظرين » الذين كانوا اول من اقدم على التخلص من الايقاع الشعري . ولكن احدهم ، هيكاثة الميلي ، قد وضع المبدأ التالي : « اكتب ما يبلي لانني اعتبره حقيقة » اذ يبدو لي ان روايات الاغريق المتعددة جذرية بالسخرية . فاذا كان فضله لا يوازي فضل مواطنيه العلماء والفلاسفة ، فانه ، باسناد ابحاثه الى النقد كما اسندوها هم الى العقل ، انما يشق الطريق نفسها امام خلفائه .

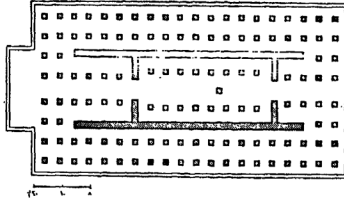
يصح القول نفسه في الفن الذي انتهى ، خلال هذا العهد ، الى ايجاد طرائقه الهندسة المعمارية وتأمين نموه المقبل .

تتحصر الهندسة المعمارية القديمة في المبد ، باستثناء بعض التجهيزات الصغيرة – الينابيع والاقنية وتزيين الاماكن العامة والشوارع – في المدن المتوسطة المشيدة دون تصمم سابق . ويشتق المبد ، المصمم كمكن للإله ، اشتقاقاً مباشراً من الميفارون الميسيني : سقف ذو منحدرين وأعمدة امامه وقاعة في الوسط يوضع فيها التمثال . ولكن قياساته قد تجسمت منذ القرن السابع بعد ان اعتمد الحجر مادة للبناء . فأحيط بصف من الاعمدة وزيد على طوله بحيث تخصص في آخره مذخرة للكنوز ، وزيد في عرضه ايضاً بحيث اسند السقف الى صفوف من الاعمدة .

فهل من اثر للشرق في مجهود التوسع هذا الذي لم يبلغ حد الضخامة ؟ ان اليون ، على كل حال ، يبقى شاسعاً جداً . ومن الافضل ان تفكر بالحري بازدهار المدن وتفخاها وتنافسها . فأغريق الغرب لا يعترفون بآية افضلية لاغريق الجزر والساحل الآسيوي ، لا سيما وان معرفتهم بابنيصة الشرق الضخمة نفسها لم تكن لتؤثر فيهم . وفي هاتين المنطقتين المتقابلتين من العالم اليوناني ،

تقاربت قياسات المعابد المشيدة حينذاك : ١١٢×٥٦ م في ساموس ١١٣×٥٤ م في سيلينونته من اعمال صقلييا . وقد حدث احيانا ان بعض المعابد لم يكتمل بناؤها أو تأخر وقتا طويلا بسبب نفاذ الموارد المرتقبة . اما اليونان الاوربية فلم تسوخ لنفسها هذه القياسات ، فاكثرت الاستبداد الاثيني ، على الرغم من رغبته في التظاهر بالتقوى والقوة ، ب ١٠٨×٤٤ م لمعبد زفس الاوليبي الذي أسسه والذي لم يكتمل تشييده إلا بعد ذلك بستة قرون ونصف القرن .

لقد يرهن الاغريق على كل حال ، في حساب القياسات لأدق عناصر المعبد ولإحكامها ، عن شعور بالانسجام والتوازن بلغت الانظار ولا يتوفر لغيرهم . الى ذلك العهد يعود قياس « النظامين » : الدوري والايوني . ويتصف الاول بأنه أقل تكلفاً وأكثر نقاء واداء ، ويحتفظ



الشكل ٢١ - معبد ارتميس في افسس
 شرع في تشييد هذا المعبد الكبير في القرن السادس . ازدان بالقرش ٣٦ عموداً من اعمده المائة والسبعة والشرين . اسم الملك اليميني « كيرزوس » في الاتفاق عليه . ازدان بالقرش ٣٦ عموداً من اعمده المائة والسبعة والشرين .

في الحجر بذكرى الخشب ؛ عموده لا يرتكز الى قاعدة ويعلوه تاج بسيط جداً ؛ وفوق صف الاعمدة ، تمثل المجموعات الثلاثية التجويف تنوء روافد الصحن المعترضة ، وتمثل اللوحات الرخامية المنقوشة المسافات الجوفاء التي تفصل بينها . أما النظام الايوني فأوفر زينة واكثر أناقة ومجسداً ، كما يليق بمنطقة اشتهرت حضارتها بالرقه والذوق ؛ عموده اكثر رشاقة ويرتكز الى قاعدة ويعلوه تاج منقوش نقشاً حلزوني الشكل ؛ ويتسد فوق صف الاعمدة افرز طويل يتسع للنقش . ولكن مهما كان النظام ، فقد قامت نسب دقيقة بين قطر العمود وارتفاعه وفي غلظه الهدب وعدد تجويفاته المستطيلة والمسافات الفاصلة بين الاعمدة . فكل شيء في المعبد اليوناني يخضع ، منذ اواخر القرن السادس ، لحسابات دقيقة يجريها مهندس متمكن في آن واحد من علم الحساب ومن دستور للذوق على بعض التجرد .

أسهمت النقاشة مع الهندسة المعمارية في تزيين المعبد . فقد وضع هذا الاخير امام التناح مساحات حجرية يجب تزيينها بالرسم . ومن الشذوذ عن القاعدة ما حدث في افسس ، عند اعادة بناء معبد ارتميس الذي حرص كيرزوس على الاشتراك في اكلافه ، من

تزين قسم من الاعمدة بنقوش ناتئة في قاعدته السفلى . فان هذه الطريقة ، المستوحاة مباشرة من الشرق ، لم تعرف الشمول . ولم يفسح المعبد اليوناني مجالاً للنقوش إلا في أمكنة حددها تصميمه الهندسي نفسه . فاتفق النظامان على ان يكون هذا المجال جبهة المعبد المثلثة الامامية وجبهته المثلثة الخلفية وآثرها ، بالتفضيل على النقوش الناتئة ، وضع تماثيل لا ترى ظهورها أمام الجدار الداخلي . اما في الامكنة الأخرى فقد وجب استعمال النقوش الناتئة : فأفسح لها النظام الدوري مستطيلات لوحاته الرخامية والنظام الايوني افرزه الطويل .

وضعت الجبهات المثلثة واللوحات الرخامية الفنان امام مشكلات دقيقة بسبب قياساتها المزعجة . فحيال الجبهات وجب عليه ان يوفق بين النقوش وبين الزاويتين الجانبيتين الحادثتين جداً ، مما فرض عليه الانتقال التدريجي من الاشخاص الواقفين في الوسط الى الثلاثينات النائمة او الزاحفة . وحيال مجموع اللوحات الضيقة وجب عليه تصميم مشاهد صغيرة تملأ المساحة ضمن الاطار دون ان تتخطاه . فممكننا والحالة هذه تتبع جمود النقاشين الذين كلوا مترددين 'خروقاً في البدء ثم استخلصوا من الصعوبة نفسها قوانين الهامهم وفنهم .

اما حيال الافريز الايوني فكان عمل النقاشين اكثر سهولة لان المساحة تلتسع لاشخاص عديدين . ولكن وجب عليهم توزيعهم دون تشويش وفاقاً لموضوع عام ، وتنويع الاوضاع والمشاهد دون ضرر بالفكرة العامة . فتوصلوا الى ذلك بعد جهود ناشطة مستوحين ، من جهة ثانية ، طريقة الرسم على الآنية الذي استلزم هو ايضاً توزيع المشاهد في عصابات دائرية . ومنذ الربع الثالث من القرن السادس ظهرت في «مذخرة» معبد دلني ، التي شيدها اهالي « سينوس » القائمة على جزيرة والغنية ببنائها الذهبية ، مشاهد ميثولوجية وبطولية عظيمة ، كصراع الالهة والجبابة او كاجتماع الالهة الاولمبيين لتتبع تطورات معركة امام طرواده . وستستمر معالجة هذه المواضيع على افريز المعبد حتى العهد الهليني نفسه . وتبدو الاوضاع منذ ذلك الحين بتنوعها . والدالة العائلية فيها – يد تلقى على ركبة زفس ؛ ابولون يلتفت الى شقيقته ارميس التي تلامس كتفه بيدها – وفنتها وطبيعتها ، خليفة بالمعبد الكلاسيكي نفسه .

اما صناعة التماثيل المستقلة عن البناء فقد كانت هي ايضاً مرتبطة بالديانة لان كل المواضيع التي عالجتها تحمل طابع الديانة وتمثل الالهة ومقدمي القرابين والحيوانات الرمزية . وقد تلمذت في البدء على الفن الشرقي ، ولا سيما المصري ، الذي اعتمدت بعض مصطلحاته ، فبرز خرقها في جمود الاوضاع وفقدان النسبة الصحيحة في القياسات . ولكن النجاسات ، في هذا المقفل ، كانت حامية ايضاً . فتنحصر الفنانون من الانقياد للتقليد دونما توغل في الحركة العنيفة ، اذ قد حالت دونها الديانة وحسبهم المرفه بالنبل والتناسق . غير ان الجسم لم يخضع لقاعدة التناسب ، مع ان درسه التحليلي الدقيق ، الذي سهله ميل الى العري فرضته التارن الرياضية ، قد اتاح بروز العضلات تحت الجلد . ثم دب الحياة في الوجه وريداً وريداً ، فانتهى وقار التائيسل الدورية

الاولى وتصنع التماثيل الابونية وتكلفتها وابتسامتها المفنجة احيانا الى الانصهار في التعبير عن مشاعر رقيقة يهتز لها الناظر .

كان نتاج هذه المرحلة التفتحية القصيرة ، في النصف الثاني من القرن السادس وفي السنوات العشر الاولى من القرن الخامس ، غنياً جداً بالتحف المختلفة . وقد اختلفت آراء الاختصاصيين حول نسبة هذه التحف الى فئة معينة ، وحول المكانة التي تحتلها فيها . فكان ان اسهمت حدة الجدل في ذبوع شهرة عدد كبير منها ، لا سيما بعد الازل الذي احدثه اكتشاف كثير من القطع الاصلية - بيتا هي نادرة جداً في العهود اللاحقة نفسها - اثناء اعمال التنقيب في قلعة ائينسا ودلفي وديلوس : فكان لأعمال « البرابرة » هنا نتائج خيرة . ولا ريب من جهة ثانية في الازل البعيد الذي تركه ، على كل حال ، نشأة فن عظيم يفوز ، في اقل من قرنين ، بالسيادة الفنية ويحقق ارتفاعاً في الحياة . ومن حيث ان هذه التحف ، البديعة احيانا ، اكثر من ان تعد وتعرض فاننا نكتفي بالاشارة الى روائعها التالية : اللبوءات الذابلة المنتصبة على قوائمها الامامية الضخمة والمصطفة خطأ مستقيماً في رصيف على مقربة من بحيرة ديلوس المقدسة ؛ ابو الهول في دلفي الذي اجشمه « التاكسيون » في اعلى عمود يبلغ عشرة امتار ارتفاعاً ؛ أحصنة افريز مزخرفة سيفنوس واللوحات الرخامية في مزخرفة « سيكيوني » أو اللوحات الرخامية في سيلينونته حيث نصب الهوليت الأثيني ، اريستيون .

سنتقصر اذن على ايجاز تطور طرازين من التماثيل لا نغالي اذا قلنا عنها ، بقطع النظر عن مصادرها ، انها لم يتميزا عن الحضارة اليونانية ولن يتميزا عنها . وقد رأى بعضهم مرة اخرى في تضادهما ، التضاد القائم بين الدورية والابونية . ان هذا التضاد قائم بالفعل في النفاضة : تصمم أوفر منطقاً وتقشراً وخشونة من جهة ، وأناقة اكثر لباقة ومزيد من التخثت من جهة ثانية . ولكن ، بصرف النظر عن نسبة هذه التحف التي تثير الشكوك ، لم يرق بين فرعي الشعب اليوناني الرئيسيين حاجز فاصل عمك : فالفنانون كانوا ينتقلون حيث يُطلبون والمزارات التي قصدوها الاغريق من كل حذب وصوب كانت توفر الالتقاء والتجاور . وان هذين الطرازين وما عرفاه من ازدهار متواز ليرتبطان في الحقيقة بيوهر الحضارة اليونانية المشترك .

فالطراز الاول هو الشاب العريان ، الـ « كوروس » . فهل هو ابولون ، أم مصارع مثالي ، أم مصارع معين ؟ لا فرق . انه يوناني بعريه التام ، على الرغم من الطابع المصري الذي يميز التحقيقات الاولى . ويمكن تتبع تدرج اكتماله في واقعته التشريحي ورشاقة قوامه ورقة عواطفه . في البدء - شأن الارغوسيين كلويبيس وبيتون ، وهما مثالا حب الوالدين في دلفي - كان الجسم ربعة والكتفان كتفي حمال والنراعان قصيرين والبطن اصطلاحياً والركبتان كذلك ، والساقان مشدودين والعينان بارزتين . ثم دبب فيه الحياة وتلين وتنتقى ، فقدت تروءات عضلاته خطوطها الهندسية كما فقدت مفاصله ما فيها من تبسيط ودخلت عيناه في

حجاجيها ، واستعصم عن الابتسامة الجامدة ، على شفاة « المراهق الأشقر الاثيني » ، وفي نظره ، بنوع من الحزن الحالم .

أما الطراز الثاني فهو المرأة المتحففة التي أفضت الى مثال الـ « كورا » . وكان هذا الطراز قديماً ، كما يتضح من تمثال « سيدة أو كسير » المعمّاة أو إلهة ساموس ، « هيرا » ، بلباسها الطويلة المشدودة التي تتخذ ، مع ذلك اشكال الانحناءات في الصدر وفي الظهر . ولكن الأبوثة تبرز بقوة وتنتصر بغلبة ثم تعتدل حياء في وفرة تماثيل الفتيات التي انتصبت في قلعة أثينا منذ القرن السادس . غير ان نجاحاً نهائياً قد أحرز ، يؤيده علم يتقدم تقدماً مطرداً ، أعني به علم اشكال الجسم التي يتهدل على استداراتها الموزونة الـ « بياوس » الطويل أو الخلالة القصيرة . ولكن هنالك علوماً أخرى لا تزال تتعثر في ترددها . فكان الاهتمام بالزينة الزاهرة يفرض غنج الحضاب ، وتنوع الألوان في الالبسة وأقسامها المطرزة ، واحكاماً معقداً في مطايرها المتضادة الانحناءات ، والغنى في الحلي . ثم تنظّم هذا الاهتمام ، فغدت الالبسة اكثر تواضعاً في اللون والزينة ، وزاد فيها التهدل ، وقلّت المطايري ، وخفت تجعد الشعر ، وأصبح الزي اقل صخباً منه في أيونيا . وحدث التبدل نفسه في الوجه حيث انخفضت الوجنتان وزالت الابتسامة المسايرة وحل محلها تحفظ « الحارده » الوقور : التي يربح انها غير حارده ، على كل حال . فليس يعد من أمر مشكل : حتى ولو كانت هذه التماثيل مصمّمة بغية تمثيل الفتاة كنموذج للجنس اللطيف ، فإن لكل تمثال ، مع ذلك ، شخصيته الطبيعية والأدبية .

وهكذا فقد يكون الشرق الذي ساعد الخطوات الأولى ، قد وجهها ايضاً . ولكن النقاش اليوناني ، بتحريره جسم وروح الـ « كوروس » العاري ، وجسم وروح الـ « كورا » التي سينتهي خلفاؤه بتعريفها ايضاً ، قد قام بعمل يفوق مجرد تحسين التقنيات القديمة : فهو ، شأن الفيلسوف والعالم ، قد خضع لمثل أعلى جهله الناس تحت سموات أخرى .

طراً على صناعة الخزف ايضاً مثل هذا التطور الهام والحاسم . ولم يكن في صناعة الخزف الحقيقة ليتاح إلا للمعجزة تطوير زخرف هذه القطع السريعة العطب والمصنوعة من مادة حقيرة ، اذا نحن لم نعتبر ان الاهتمام التجاري ، حيالها ، منذ ان تمت الملائق البحرية ، قد رافق الاهتمام الجمالي . اما نتيجة الابتكار ومراعاة الذوق العام والتأثير عليه باستباقه أحياناً ، فكانت ، في احوال النجاح ، زيادة في المبيعات وخسارة للنفاس .

لم يعرف القرنان التاسع والثامن هذه المشاغل لأن التصدير ما زال خلالها على نطاق ضيق . غير ان وحدة العالم اليوناني قد ظهرت مع ذلك في المبادئ الزخرفية المشتركة : كان ذلك عهد النمط الهندسي . ولا يمت هذا النمط بأية صلة الى التبسيط الذي تسيطر فيه الانحلال المنحنية كما درج في آخر العهد الكورتي وفي العهد الميسيني ، ولكنه يذكّر بوشي تتداخل فيه الخطوط والزوايا بحيث لا تترك مكاناً خالياً منها . أما رواثمه فهي الأواني الكبيرة العائدة الى مقبرة

ال « ديبيلون » في أثينا ، التي تتعاقب على بطونها ، بين الخطوط المتقاطعة والمعينات والمثلثات واشكال الساعات الرملية والخطوط المموجة والصلبان المعقوفة ، مشاهد لاشخاص عديدين ، مبسطين عن قصد لا عن خرق ، يتصفون بطول الساقين ونحافتها ويقوم الزناوير وجذوع مثلثة الزوايا ، ولأحصنة قوائمها شبيهة بقوائم الجراد الكبير وأعرافها منتقشة تليات .

ثم ظهر ، في القرن السابع ، النمط الاستشراقي ، المعاصر لازدهار أيونيا وللأواصر الوثيقة بشرق غني بالزخرف التزييني وبالحيوانات والموخ أيضاً . فعالج الرسامون على الغربيين المواضيع التي عالجها نقاشو المعادن على الذهب والعاج ، وهي مواضيع نباتية كالبردي والزمان ، وخطوط متشابكة ورسوم وردية الشكل وخطوط حازونية ورسوم سفينة الشكل ، وكلها مشتقة من الجذوع والازهار . وهي مواضيع حيوانية أيضاً بعضها خيالي كأبي الهول والعنقاء المغربية والتنين والحصان المنحج وبنت البحر ، وبعضها واقعي كالأسود والثيران والكلاب والخنازير البرية والأرعال والوز ، وكلها منقولة عن تقاليد الشرق الخفيفة ، فرسمت بخطوط واشكال أنيقة توافق تخيلة شعب لم تبد له الحياة خفيفة مهما كان من قساوتها . وما لبثت رسوم الاشخاص ان تسربت تدريجياً الى هذه المواضيع . فبرهن الخزافون الكورنثيون بنوع خاص ، عن مهارة كبيرة بإرازم في هذا الفيض الزخرفي وباطهارهم في اوضاع متنوعة ويجمعهم في مشاهد مستوحاة من الميثولوجيا وبحفر شق حول رسومهم التي يصفون عليها بعض التنوء بواسطة بقع وخطوط حمراء او بيضاء . وهكذا سيطرت الخزفيات الكورنثية ، منذ اواسط القرن السابع حتى اواسط القرن السادس ، على اسواق حوض البحر المتوسط ولاسيا الاسواق الإيطالية .

بيد ان الاولى انتقلت اخيراً الى اثينا المدينة بذلك الى فنانيين متميزين بالاتقان والحذق والابتداع . ويعود اشهر نجاحاتهم الاولى ، « اناه فرنسوا » ، الى السنة ٥٦٠ تقريباً ، وقد رسم عليه ، في عصابة دائرية يبلغ محيطها مترين وارتفاعها ستين سنتيمتراً ، مائتان وخمسون شخصاً ناشطين في اعمالهم وموزعين على مستويات مختلفة بتنوع مدوّخ . ويرمز اكتشاف هذا الالاء في اتوروا الى نبوض اثينا بمنافسة كورنثوس منذ هذا التاريخ . ولكن نجاح هذه المنافسة المستند اساساً الى الطريقة الكورنثية ، قد تركز على قاعدة اثبتت مئاة حين استخدمت ، منذ السنة ٥٣٠ تقريباً ، طريقة جديدة فرضت نفسها تدريجياً ، الا في نواحي اختصاص معينة . فبدلاً من الاشكال السوداء البارزة امام خلفية حمراء ، اعتمد البرنيق الأسود للخلفية واللون الاحمر للرسوم التي يمكن ايضاح التفاصيل عليها بالوان اخرى . ثم اصبحت المواضيع في الوقت نفسه اكثر انسانية : فظهرت ، الى جانب الاساطير ، المشاهد العائلية والاعمال ومشاهد الحياة اليومية في الحقل والمدينة والريف . وهكذا احرزت اثينا اولوية ستدوم طيلة العهد الكلاسيكي . هنالك لوان لم تزين باي زخرف وقعها الخزاف الاثيني ، في المكان اللائق ، بزهو له

ما يبرره . وما لا ريب فيه ان تقدم الصناعة الفنية يلفت النظر بتناسق ونبل وبراعة الخطوط الخارجية وبميزة انواع البرنيق المستعملة . واذا ما ابتدأنا به إثناء فرنسوا ، قبل غيره ، نرى ان الرسامين لم يترددوا في كتابة اسمائهم على مصنوعاتهم كما درج النقاشون على ذلك ايضا . ان توقيعهم لرمز صغير ولا شك ولكنه ذو مغزى رفيع : فالفنان يشعر بفخار بفرديته ويعبر عنها . يستلهم موضوعه بحرية ويحققه بأساليبه الخاصة لا بأساليب تقليد مفروض . وفي الواقع اخذت بعض الشخصيات ، منذ ذلك الحين ، تثبت اقدامها في هذا الفن السريع الذي يوجب ملاحظة دقيقة ويذا براعة على السواء . وليس من اتفاق الصدق ان يتوصل هذا الفنان المتحرر الى تحرير حركات الانسان الذي يرسمه والقاء الضوء على حالته النفسية ، بوضع حركة او خط من خطوط الوجه .

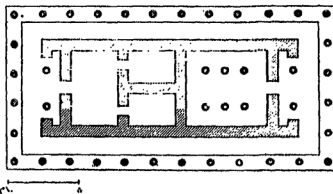
مراكز الاشاع
شق العهد القديم اليوناني اذن ، في كل نطاق ، الطرقات امام الكلاسيكية التي ستليه . ولم يتوفر لاية حضارة ، حتى ذاك التاريخ ، ان تسير ، بمثل هذه السرعة ، في رحاب تطور على هذا الشمول ، كما لم يتح لأية حضارة ايضا ان تحضّر بمثل هذا التفوق ، وينجاحاتها الخاصة ، بنجاحات المستقبل القريب : لم ينته شيء الى الكمال بعد ، ولكن اسس الكمال قد وضعت .

لم تتساو اجزاء العالم اليوناني في الاسهام بهذه التغييرات البعيدة القمر ، كما لم تتساو في الافادة منها . ولا تزال اكثر من منطقة ، في اوائل القرن الخامس ، جامدة في تأخرها ، قابعة في ودان لا يصل بينها غير مسالك البغال ، بعيدة عن التيارات الفكرية الجديدة . ولعب غيرها ، بفضل اتصال اوثنق بالعالم الخارجي وظروف اكثر مؤااة وخدمات بعض الافراد ، دورا يتفاوت اهمية واستمراراً . ولتجمع الآن حول بعض الاسماء ، ايجازا واستنتاجاً ، بعض المعطيات المبعثرة هنا وهناك في الصفحات السابقة . فمن شأن هذا التلخيص السريع ان يبين بوضوح مظهر آخر من « المعجزة اليونانية » لا يقل اهمية عن غيره ، اعني به تنوع الجهود ، اي الحيوية والتلاحم ، في شعب لم يحل ثقافته السياسي ولا منافساته الاقتصادية دون وحدته المعنوية . وقد سبق لنا ان اشرفنا اكثر من مرة ، بهذا الصدد ، الى عمل المستبدن الشخصي ؛ وعلى الرغم من ان اغريق العهد الكلاسيكي قد جحدوا ذلك وتكبروا له ، فان ما تدين به الحضارة اليونانية لباعثها الاول ، في غير اشكالها المادية ، لعظيم جداً . ولكن عمل المستبدن هذا ابعده من ان يفسر كل شيء لان مرحلة الحكم الاستبدادي لم تطبع بطابعها كافة المدن الهامة ، كما ان بعض المدن التي سيطر عليها هذا الحكم ، لم تجن منه اية فائدة ثقافية . ففرانا هنا ، اذن ، مها كان من تفوق الافراد ، امام واقع آخر هو اتحاد الشعب .

لعبت دورها ايضا المعابد التي شملت شهرتها اليونان : اولمبيا ودلفي لمجموع العالم اليوناني ، وديولس للايونيين . فقد اسهمت هذه المزارات بقوة ، كما رأينا ، في نشر العاب القوي والموسيقى والشعر الغنائي . وكان هنالك علم اخلاق اشتهرت به دلفي قرظله سقراط نفسه ، كما ان مؤلفين قدامى

كثيرين قد رأوا في بولون العراف احد المفضلين على الانسانية . وكان هنالك خاصة ، حول آلهة هذه المعابد ، تنافس المدن التقوي ، وقرايينها وابنتها المختلفة ، التماثيل والاعصدة والمذابح والمذاخر ، بشكل معابد صغيرة ، التي شيدها هذه المدن داخل الاسوار المقدسة . فقدت هذه الاسوار وبقيت ، حتى اليوم الذي هدمت فيه ، متاحف لم تتقابل فيها السخاوات فحسب ، بل الاذواق والمواهب ايضا . وعلى هذا الصعيد ، غدت المعابد اليونانية الشامة سببا فعلا ، مباشرا او غير مباشر ، من اسباب تقدم الهندسة المعمارية والنقاشة :

بين مجموعات المدن الاقليمية ، في هذا العهد ، يجب ان نحل ايونيا في المرتبة الاولى . فكل شيء قد ساعدها لمدة طويلة ، لاسيما قربها من الشرق . فكانت بوتقة سكب الايونيون فيها من أنفسهم واخرجوا منها مزيجا مضطربا طرّقه وكيفوه لاستخدامات جديدة .



الشكل ٢٢ - معبد الهيكلاومبيدون في قلعة أثينا
يبلغ طول المعبد القديم (المشار اليه باللون الاسود) مائة قدم ، ولذا أطلق عليه اسمه . وسعة أبنائه
بيستراتوس بأحاطته بالاعصدة .

اما في النطاق الفني ، فان اسهام المدن في صقليا وفي ايطاليا الجنوبية يوازن اسهام المدن الآسيوية . فكان النمط الدوري في الهندسة المعمارية والنقاشة ، من حيث الحياة والصفاء ، شبيها به في البابونيز نفسها . وتوجد ام مصنوعاته الميزة في بوزايدونيا (بيستوم) عند مدخل مقاطعة كيبانيا ، وفي سيلينونته على الشاطئ الجنوبي من صقليا . ولكن الغرب اليوناني ، خارج نطاق الفن ، لم يزل ، في اواخر القرن السادس ، في مستهل توسيع مكانه في الحضارة اليونانية ، فاقام فيه مؤسسو مدارسه الفلسفية الآتون من ايونيا .

وماجر كثيرون في الوقت نفسه من ايونيا الى امكنة اخرى ، لان العهد الذهبي لليونان الآسيوية كان قد زال عند نهاية العهد القديم . ودخلت ايونيا في سبات عميق بعد الفتح الفارسي اولا ، بعيد منتصف القرن السادس ، وبعد قمع ثورتها ثانيا ، في اوائل القرن الخامس ، الى ان ايقظتها انتصارات الاسكندر . ولكن اليونان البلقانية كانت خليقة بان تحمل عملها .

كان النشاط قد دبّ فعلاً في اليونان البلقانية . وليس باستطاعتنا هنا ان نحصي كافة المدن التي احتلت مقاما محترما في المجهود المشترك ، مع انه كتب لبعضها التواضع الدائم ولبعضها الآخر الاحتياط والسقوط . فعلى الرغم مما يحيط بشهرة البيوسيين من ازدهار مهين ، فقد كانوا يملكون سلسلة تماثيل ابولونية في معبد « ابولون بتويوس » ، كما كان لهم « بنداروس » ايضا الذي تعود اقدم « عرافاته » ، اكراما لاحد النبلاء التسالين ، الى السنة ٥٠٠ تقريبا . اما سبارطة التي سيغدو اسمها في وقت قريب مرادفا للشدة والحياة الضجرة ، فلم تنكش على نفسها قبل منتصف القرن السادس . فحتمت ذلك التاريخ استقبلت الشعراء واستدعت المهندسين والصياغ الايونيين وشيدت الابنية المبتكرة ؛ وهي ستحافظ دائما على اعيادها التي تحييها بالرقص والغناء الجوتي . وكان في سيكيوني وفي ايمينا اختصاصيون في صناعة البرونز ونقاشون مشهورون . اما كورنثوس ، وان كانت صبغتها اليونانية اقل صفاء بسبب الروابط التي شدتها الى الشرق ، - بعض السراري المقدسات تكرس فيها لخدمة افروديت - فقد كانت لها صناعتها الحزفية ايضا . وليست هذه الاسماء سوى قليل من كثير غيرها : فلم يكن لليونان عاصمة ثقافية بعد .

مرد ذلك ان اثينا كانت حديثة العهد في هذا المضمار . فلم يدفعا الى الامام دفعا حاسما سوى الاستبداد الذي ساعدته في عمله هجرة الايونيين اليها في اعقاب استتباب الأمر للسيطرة الفارسية على آسيا الصغرى . فلبسيستراتوس واولاده يعود توسيع معبد الـ « هيكاتومبيدون » القديم ، وتقدم صناعة الحزفيات التقني وانتشارها ، وتنظيم اعياد ديونيسوس ، ومباريات المآمي التمثيلية ، وغنائيل الفتيات العارية في قلعة اثينا ، ووضع النص النهائي للملاحم الهوميروسية . وبعد ابعاد آخر بيسيستراتوس في السنة ٥١٠ ، لم تحمّ المدينة من وثبتها الى الامام بل وجهتها فقط في اتجاه اكثر استقلالاً عن الطريقة الايونية واقل انقياداً لها ، لاسيا على صعيد النقاشة حيث برزت مرة اخرى الحشونة الدورية . ولكن كل هذه الدلائل عديمة القيمة والاهمية لمن لا يقف على التطور اللاحق . فلا مجال بعد ، في آخر العهد القديم ، للكلام عن سيادة اثينا الادبية .

فحتى تتركز الحضارة اليونانية نهائيا وتقف في وجه الحضارات الشرقية ، وحتى تغدو اثينا بمرکز هذه الحضارة دون منافس ، يجب ان تحدث ازمة الحروب الميدية .

الكتاب الثاني

المدينة اليونانية والانسان حضارة اليونان الكلاسيكية (القرنان الخامس والرابع)

الحروب الميدية صراع بين عالمين خاضا نغمساره على غير تساو . فالامبراطورية الفارسية لم تمبسه له كل قواها ، على الرغم من انها استهدفت من ورائه غير التوسع الاستعماري . اما اغريق شبه الجزيرة فقد توعدوا وعيا ناما ان مصيرهم يتقرر فيه . ولا يغالي أسشيل *Eschyle* حين يطلق هذا النداء الحار ، في يوم سلامين : « يا ابناء الاغريق ، اذهبوا ؛ حرروا الوطن ؛ حرروا اولادكم ونساءكم ومعابد آلهة آباؤكم واجدادكم جدودكم ؛ فانما القتال يقرر اليوم كل شيء » .

مهما يكن من الامر ، فان طر في هذا الصراع امبراطورية واسعة الأرجاء من جهة ، ومدن غاية في الصغر من جهة ثانية ، عقدت بينها حلقة سطحية فرضه الخطر المداهم ما لبث ان تفحشك غداة نصرها الذي يتحدى كل منطق . ومهما يكن من الامر ايضا ، فإن حضارتين تتقابلان : الاولى عساه مع ان الجرح الذي أصابها ليس ببليخ ، والثانية تسير قدما في وثبتها التي تتصف بالمزيد من القوة والسرعة .

انتصرت اذن المدينة اليونانية . فما عساها فاعة بقوتها ؟ أو ما هي ، بتعمير آخر ، علائقتها بالانسان ؟ ان الجواب النظري عن هذا السؤال لا يرقى إليه شك ؛ تحالف المدينة والانسان في سبيل تعاون متبادل على السراء والضراء ، في تنمية متوازنة . ولكن المعضلة في معرفة مدى مطابقة الواقع لهذا المبدأ النظري .

الفصل الأول

الشواذب الداخلية في الحضارة اليونانية المنصرة

مندوحة الحضارة اليونانية انتهت الحروب اليونانية بانتصار عسكري أتاح تفتح الحضارة اليونانية الكلاسيكية . ويبدو التطور طبيعياً لنا نحن الذين نستقرئ البراعم من خلال الثمار الناضجة التي احتضنتها هذه البراعم أملاً ووعداً . وكان من شأن انتصار الفرس ، لو قيّض لهم الانتصار ، ان يمتد هذا التطور ، لا بفعل تمسّف يلجأ إليه خلفاء كورش عن قصد وعمد ، بل بمجرد ارتباط الاغريق بالامبراطورية واسعة الأرجاء يحكمها سيد اجنبي ، ويفعل الصعوبات البديية التي كان من الطبيعي ان يوجد لها وضع لا يقوى اليوناني على تحمله . ويكفي ، للاقتناع بهذا الرأي ، ان ننظر الى مصير اليونان الآسيوية خلال سبعين سنة تقريباً خضعت فيها للامبراطورية الفارسية التي فتحتها في منتصف القرن السادس . فهي قد كانت ، حتى هذا التاريخ ، مركز الحضارة اليونانية المشعّ ؛ وحافظت بعده ، في المرحلة الاولى ، على بعض الحيوية والازدهار ، أقله في بعض أجزائها . ولكن ما لبثت انوارها أن انطفأت ، بعد نورتها التي قعها الفرس بكل شدة . وسصبح من المهم عليهما ان تنتظر الاسكندر حتى تنهض من الضربات التي كبلت لها حينذاك . وما كانت اليونان الاوربية لتعرف مصيراً آخر ، لو انها غلبت على امرها في سلامين ويلاتيا . فإذا كانت ، على الرغم من حريتها ، قد مزقت نفسها بنفسها بفعل جزع كياناتها المتحاسدة ، فكيف نتخيل ما كانت ستسببه السيطرة الأجنبية فيها من هزات وأضرار وتقتيل .

أما وقد نجمت اليونان من خطر الاستعباد ، فانها استعادت وحدة نطاقها العنصري ، غداة الانتصارات الحاسمة التي أحرزتها في الحرب الميدية الثانية . فانزعت من الضغط الفارسي القسم الساحلي الأهل بيوانيتها في آسيا الصغرى . وعاضدت هؤلاء في أسواق البحر الأسود وأطاحت

لم يتوصل الى نوع من الاتفاق على الأقل مع سكان روسيا الجنوبية الأصليين . وساندت انتصار الزعماء المصريين على الملك الفارسي ، إذ ان انكسار المصريين لم يمنع مصر من ان تبقى مستقلة عملياً ، ومن ان تفتح ابوابها لتجارتها والرحالة اليونان . اما في المتوسط الغربي فلم يتدخل اغريق اليونان نفسها بقوة السلاح ، ولكن المستعمرات المؤسسة في العهد السابق قد توقفت ، على الاجمال ، الى ابعاد خطر الأعداء عنها . فردّ المستبدون في سيراكوزا هجوم الساميين القرطاجيين على صقليا منذ السنة ٤٨٠ و هجوم الاترويين (الاتروسك *Étrusques*) بعد ذلك بزمان قصير في كمانيا . واستطاعت مرسيلىا ان تؤسس أسواقاً تجارية جديدة في سواحل غالبا واسبانيا ، أو ان تعيد تأسيس القديمة منها . فحافظت الحضارة اليونانية في كل مكان ، ان هي لم تتوسع بعد ذلك ، على أم ما بلغته وحصلته ، وأبعدت عنه الخطر الاجنبي المدام . واستعادت في كل مكان حرية حركتها واستطاعت ، في القرن الخامس ، ان تتطور وفقاً لسنة مصيرها الخاص .

لم يخلُ مصير الشعب اليوناني ، بأبعاد الخطر الاجنبي ، من الشواثب الداخلية . الحرية والتسلط فبعد أن ترك الاغريق وشؤونهم ، نسوا أنهم مدنيون الى اتحادهم بانتصاراتهم في الحرب الميدية الثانية . ويرهن السبارطيون الذين تسلّموا ، باتفاق الرأي ، زمام القيادة العليا في اليونان البلقانية ، عن عزوفهم او عجزهم عن استئثار الانتصارات التي قادوا اليها ، خدمة للخير العام . فوقعت الوثبة الجسورة التي تقاعسوا عنها ، في آسيا الصغرى ومصر واليونان ، على كاهل الاثينيين خصوصاً الذين حلّوا محلهم بعد خورم . أما في صقليا وإيطاليا الجنوبية ، فإن سيراكوزا ، بعد ان خاضت المعركة الحاسمة ، لم تتوان قط عن متابعة السير فيها حين دعاها الواجب الى ذلك .

بيد ان هاتين المدينتين ، أثينا وسيراكوزا ، انهما أعطتا درساً في العمل الجاهد وكرستا له خيرة قوامها ، فإن غيرهما على الخير الجماعي لم تكن منزهة وبجدة عن الغاية . فها ، يجرهما وراءها المدن التي يستهويها الصراع ، ويتخربير المدن المستعبدة ، وبمساندة تلك التي يهددها الاجنبي ، انما استهدفتا جمعاً تحت ادارتها لا بل ، قريباً ، تحت امرتها . فأسستا امبراطوريات ونزعتا دائماً الى بسط المزيد من السيطرة عليها . فحلت محل السيطرة الأجنبية الزائلة سيطرة اخرى هي يونانية ولا شك في ذلك ولكنها تتناقل ويصعب تحملها يوماً بعد يوم ، بعد ان ان غلبت صفة التلقائية على الالتفاف الأول العام .

وحاولت مدن عديدة ، على نطاق اكثر تواضعاً ، ان تحقق لمنفعتها الخاصة ما حاولته أثينا وسيراكوزا على نطاق واسع . فالخلافات حول الحدود ، والاحقاد بين الجيران والحسد التي انتهت أحياناً الى تصمير على التدمير ، كل ذلك لم يكن جديداً في العالم اليوناني . ولم يتوصل الخطر المشترك نفسه أحياناً لحتى هذه المراحل ، فما عسى الحال ان تكون بعد ان زال هذا الخطر . لقد خلا الجو لمنافسات لا يمكن التكفير عنها .

استهدفت المدن اليونانية جميعها ، كبيرة كانت أم صغيرة ، مثلاً أعلى واحداً ، هو الحرية . ولكنها فسرت هذه الحرية ، في آن واحد ، كاستقلال شخصي تام يفتت هذا الاتحاد الذي ، لولاه ، لخضعت لسيد أجنبي ، وكحق في التصرف بحري احقادها وفي ارواء غليل أطباعها من مدن يونانية اخرى . وسيكتب احد المؤرخين اليونانيين فيما بعد ، ما يلي : « لا أدري كيف ان البلوونيزيين ، وهم اكثر الناس ميلاً الى حياة هائلة انسانية ، كانوا في الماضي دون غيرهم تنعماً بهذه الخيرات ؛ ولكنهم ، كما يقول « اوربيد » خاضعون أبداً للأعمال الشاقة والرمح في يدهم . » . وأفضل تعليل في نظري هو انه هم يهون كلهم السيطرة والاستقلال ، حتى انهم لا ينقطعون عن التمارك بعنف في سبيل النفوذ . ولا يصح هذا التفسير في البلوونيزيين فحسب ، بل في كافة الاغريق ايضاً . « فاستهوا النفوذ والاستقلال » ، اي هذه الرغبة في امتلاك ما نريد ان نحرم منه الغير ، هو احدى الميزات الرئيسية في سياسة المدن اليونانية ، واحدى الميزات التي طبعت الى حد بعيد حضارة هذه المدن في القرنين الخامس والرابع .

حالة الحرب حالة طبيعيية كانت النتيجة المحتموة حروباً متعددة دأمة . فنذ مستهل القرن

الخامس حتى السنة ٣٣٨ ، قضت اثنيبا اكثر من ١٢٠ سنة في الحرب من أصل مائة وأربع وستين ، أي اكثر من سنتين من أصل ثلاث . ولم تعرف ، خلال هذه المدة ، فترة سلم تعدت العشر سنوات .

لا شك في ان مثل اثينا قد يبدو خاصاً ومفرطاً اذ انها ، بتسلم قيادة الصراع ضد الفرس ، وبتأسيس امبراطوريتها ، قد تعرضت لشق الخصومات واضطرت لقمع الانتفاضات . ولكننا نرى ، اذا ما اخذنا الدور السياسي بعين الاعتبار ، ان هنالك نزعة عامة بمائلة على الاقل . اجل ، ليست هنالك بعد تحروب تفرض على المدينة تعبئة جميع امكاناتها البشرية والمادية . فالمعارك لا تحصل عادة في فصل الامطار ، وكثيراً ما يقتصر الجهود الاثيني على تسليح خمسين مركباً حروبياً تقريباً وارسالها لمدة اشهر الى البحر . ولكن هذا الجهود المحدود نفسه يؤدي عملياً مع ذلك الى تجريد هذه الطاقة وتدميرها البطيء أو السريع ، بفعل التخصصات التي تمنح الى عشرة آلاف بحار تقريباً يسحبون من نطاقات عملهم المنتج .

تقوم هنا اذن عقبة كآداء في سبيل النمو الطبيعي لحضارة لم تكن الطبيعة سخية عليها ، على كل حال . فقد كرس الاغريق للتقاتل فيما بينهم قسماً كبيراً من القوى التي توصلوا الى تأمين استخدامها الحز . ودفعوا بذلك ثمن الاستقلال الذي ما كانوا ، لولاه ، ليحققوا امكاناتهم الكامنة . ولكن هذا الثمن نفسه قد حال دون تحقيقها كلها او دون تحقيقها على النحو الضروري لتلقين الانسانية درساً فكرياً وفتياً ايهي من ذلك الذي لغنوها اياه .

الحروب : الاساليب والحسائر بالارواح
لما كان للحزب هذا المركز الهام في حياة الاغريق ، اصبح من الواجب علينا ان نتصور ما كانت عليه حينذاك وكيف تخاض وما هي النتائج التي أدت اليها .

يجب الانغالي في ما تجر اليه من خسائر بالارواح . فلم يكن يمكن اية دولة يونانية ان تحوط هذه الحروب الطويلة لو ان هذه الخسائر بلغت ، بالنسبة للسكان ، الخسائر التي تبغها الحروب المعاصرة . وليس مرد ذلك الى فقدان الآلات الثقيلة ، اذ ان القتل بجذ السيف أو بإسلة الرشق ، ولو كان بطيئاً ، ليس بالضرورة عملية محدودة . فالسبب الرئيسي انما هو مفهوم المعركة وكيفية خوضها من جهة ، وعجز الدولة ، من جهة اخرى ، عن تجنيد كل الطاقات البشرية التي تستطيع نظرياً ان تصرف بها .

ولكن يجب استثناء الحرب البحرية . فالرجال الذين يخاطرون فيها بحياتهم أوفر عدداً على وجه العموم ، لان البحارة ، وهم بالدرجة الاولى جذا فون لا عدة لهم ، يحنون من الطبقات الاجتماعية الدنيا . ثم ان المركب الحربي المعتمد في هذه الحرب مركب ذو ثلاثة صفوف من المجاذيف يحض البحر برشاقة ، وقد زود في مقدمته « بمهاز » بروزي يحاول البحارة بواسطته شق مركب الاعداء . واذا ما حصل ذلك ، يقدر ركاب المركب المبقر في الماء لا زوارق نجاة لديهم ولا امل عندهم سوى التعلق بالحطام العام . واذا قدر لهم النجاة من القتل بضربات المجاذيف ، يتركهم لمصيرهم كل من الهاربين على غير هدى المغلوبين على انفسهم ، والمنصرين الذين يعنون ، أول ما يعنون ، برفاقهم الاحياء والاموات . واذا ما هبت ربح هوجاء ، كثيراً ما تحدث الكارثة حتى للاسطول المنتصر الذي تتعطل مراكبه وتضطرب مجاذيفه وينهب بجمارته فيذهب طعة العناصر الثائرة . فالعرب البحرية والحالة هذه اقل من الحرب البرية .

طيلة الشطر الاكبر من هذا العهد ، ووفقاً لسنة المعتقدات الدينية والشرف الحربي ، كانت عليه خصوصاً الدولة العسكرية الاولى ، لا كيديون ، نظر الاغريق الى الحرب نظرتهم الى المباراة . لا ريب في ان تصادم جيشين متواجهين صفوفاً متعددة على جبهتين متوازيتين يسفر عن ضحايا كثيرة بفعل عناد المتحاربين وشجاعتهم التي تشيد بها الكتابات المدفنية والحطاب .

ولكن ما ان تحرق الجبهة ويختل توزيع الجنود المشتركين في المعركة حتى يولتي المغلوب هارباً ، بينما لا يحاول المنتصر مطاردته . فعلى المنتصر الباقي في ساحة المعركة واجبات اكثر الحاحاً من استثمار النصر استثماراً عسكرياً سريعاً : عليه ان يشكر الالهة نصرتهم وان يقوم نحو الاموات بالواجبات الاخيرة . فكما ان المصارح الرياضي الفائز يكرس تاجه للإله ، كذلك يعبر الجيش المنصور عن شكرانه بالاناشيد وتقديم الضحية وجمع اسلحة العدو افتخاراً بالغبلة ، ويجمع جثث موته ويحتفل بيميناتهم احتفالاً يلبق بنهايتهم البطولية . وعلى العدو ، اذا سلمت نيته ، ان يخضع لحكم الالهة ويعترف بكسرتة ويلتزم هدنة لجمع موته واستلامه .

ولكن هذه الاساليب غير ذات فعالية . فالهاربون يلجأون الى اقرب مركز حصن يستطيعون الدخول اليه ويتجمعون فيه ويستعيدون قوامهم بسهولة ، لا سيما وان الوسائل التقنية في ذلك العهد لا تسمح بفرض حصار قوي وان أقل سور يوقف افضل الجيوش طيلة شهر كاملة . ويعتمد

المحاصر عملياً على المصاغة بنوع خاص ، عندما لا يجد خونة يسلمونه قسماً من السور . أجل قد تستنفد مؤن المحاصر ، ولكن مؤنه تستنفد أيضاً ، ولا مجال للاستعاضة عنها بمجسبة غزو الارياض المجاورة . وتنتشر الاربطة بين الجنود المنسكركين في الهواء الطلق . ويقرب فصل الامطار أو تشق التجعدات طريقها الى العدو . فيتوجب رفع الحصار ، اذا كان قد فرض ، ويجب العودة على البدء في السنة التالية .

يتضح ان حربياً على هذا القرار ليست على الاجمال دامية جداً . اما ما شذ منها عن هذه الوثيرة وعمل في قلب المعاصرين ، ففرده الى ظروف خاصة . من ذلك ان الاثينيين منوا بنسكة في صقليا في السنة ٤١٣ ، لان الجيش الذي قادوه حتى سيراكوزا لم يتمكن من النزول الى البحر للعودة الى اليونان . ومن ذلك أيضاً ، في السنة ٣٧١ ، ان اربعمائة مواطن سبارطي من أصل سبعمائة مجند ، ومن أصل ألفي رجل باقين على قيد الحياة ، قد استماتوا باجمعهم في لوكترا ضناً منهم بالشرف القومي الذي يحظر عليهم الهرب والاستسلام .

بيد ان تحولات جذرية سبق وطرأت على الحرب اليونانية في لوكترا وحتى قبل ذلك في السنة ٤٢٤ في ذيليون حيث أفني ألف هوليت أثيني من اصل سبعة آلاف . وتزداد هذه التحولات وضوحاً مستمرأ في القرن الرابع الى ان تصبح إلزامية في أيام فيلبوس المقدوني وابنه الاسكندر بنوع خاص . فيضمحل إذ ذاك التقيد بالمصطلحات التقليدية أمام الرغبة في فعالية تؤمن النتيجة . فتثبت المناورة المرنة تفوقها على تصادم جبهتين متواجهتين ؛ وتقتضي أحياناً الى التطويق ، أي الى تدمير قسم من الجيش المكسور في ارض مكشوفة . ثم يطارد الفرسان الهاربين بعنف ويقضون عليهم او يمنعونهم على الأقل من جمع شملهم . واعتمدت فيما بعد الآليات الضخمة المثقنة التي استخدمها دونيس السيراكوزي لأول مرة ضد القراطجيين فأناحت فتح ثلم في الأسوار ينقض منها المهاجمون .

استهدفت المعارك البرية منذ ذلك التاريخ لا اثبات التفوق على العدو فحسب ، بل افساء قواته المنظمة أيضاً ، فكانت النتيجة ان مني المغلوبون بخسائر بالارواح أفدح منها في السابق . ففي خيرونيا مثلاً خسرو الأثينيون ، وكان عددهم عشرة آلاف تقريباً ، ألف قتيل وألفي أسير ، مع أنهم لم يجعلوا عبء المعركة الثقيل . ولكن الحرب ، بتحولها الى تصادم حاسم يحمل أحد طرفي النزاع تحت رحمة الطرف الآخر ، قد اصححت بالفعل نفسه بالغة السرعة : لم يمض شهران مثلاً على الاعمال الحربية مع أثينا ، وسنة على الاعمال الحربية مع طيبة ، حتى استطاع فيلبوس ، بعد انتصاره الحاطف في خيرونيا ، فرض سلطته على اليونان بأسرها . ولذلك يجوز القول ، بعد كل حساب ، ان حملة عسكرية منفردة ، في حرب هي احدى مراحلها ، قد تؤدي بالنسبة للحرب كجموع الى خسائر اكثر فداحة .

تسبب الحرب ، مع ذلك ، المزيد من الدمار والويلات الفظيعة .
الحرب : قانونا وديلاتها

عرف القدماء وطبقوا قانوناً يقضي بنقل السيادة المطلقة الى المنتصر

بمجرد انتصاره . وحين قام الخطباء الاثينيون يناقشون فيلبوس ويؤمنون التمييز بين واقع الاحتلال والحق الشرعي بالملكية ، لم تنطل مفاصلهم على احد . وليس هذا التمييز ، افلته فيا يعود للأرض ، يقدم العهد في حقوق الشعوب المعمول بها حالياً . غير ان الملكية في التاريخ القديم تعدى الارض نفسها : فالمنتصر يغدو السيد بمجرد انتصاره ويصبح له الحق بالتصرف المطلق بالأشخاص والممتلكات المادية في البلاد التي يحتلها ، بمكنته التقتيل والهدم والحجز والاستهلاك والبيع على هواه . ومن حقه المشروع تقويض الابنية واحراقها دونما عذر أو حجة ؛ ولا يحدر به ان يحترم سوى الممتلكات المقدسة لان الآلهة يعاقبون الكافرين. اما الكائنات البشرية ، فمن حقه التعرف به ، نظرياً ، ان يفنيها دونما تمييز بين جنس ودين سن وسن . بيد ان فطاعة مثل هذا التقتيل الذي لا يحرق اي مقم تحول دون الاقدام عليه . ولكن استبعاد المفلوطين طريقة أقل شذوذاً يسهلا وجود تجار يلحقون بالجيوش ويشترون الاسلاب ، بما فيها الاسلاب البشرية ، ويؤمنون نقلها الى اسواق خاصة . ويعني هذا العمل بوضوح أيضاً ، من حيث المبدأ ، حق الناصر الكامل على كل ما استطاع الاستيلاء عليه من اشخاص واشياء .

أما عملياً فنادرأ ما يطبق قانون الحرب هذا بمخافيره . فالمدن المفتوحة عنوة ، بعد مقاومة طويلة اوغرت صدر المحاصرين غيظاً ، هي ضحايا الحروب العادية ، وقد سبق ورأينا ان عددها ليس بالعدد الكبير . ولكن هذا القانون واقع قائم ، ويكفي ان يلجأ اليه احد المتحاربين حتى يحتذي به الثاني ، عند أول فرصة ، ثأراً وانتقاماً . وهنالك ظرف واحد على الاقل يطبق فيه هذا القانون بصورة عادية ، اعني به ظرف اسرى الحرب الذين يلتظرم الاستعداد كخصير طبيعي . وليس سوى اقامة السلم ما يتلح لحكومتهم تحريرهم بتبادل الاسرى ، أو لاهاليهم واصدقائهم بمحاولة اقتدائهم بالمال . واذا ما فكرنا بقدية الاسرى التي استمر العمل بها حتى القرن الثامن عشر ، لن تدهشنا هذه الذهنية كثيراً . وعلينا ان نعيد لهذا القانون مفهومه النظري غير المحدود وتطبيقه العملي الواسع جداً ، حتى نقف على مدى الزيلات التي سببتها الحرب في العالم اليوناني الكلاسيكي .

بيد ان المحارب الذي يبقى في متأى عن الغزو لا يمتنى بحسائر كبيرة نسبياً ، مع انه يعوض بصعوبة عن نفقات جيشه ولا سيما عن العجز في الانتاج بسبب فقدان اليد العاملة المجتدة . اما المغامر فالقسم الأكبر منها يبذر تديراً ، ويجب ان يقتطع من القسم الباقي القران الواجب تقديمه للآلهة الذي يزيد من اهميته ، يوماً بعد يوم ، رغبة في النفوذ والدعاوة . ونادرأ ما تنتهي الحرب بالربح من الوجهة المالية . ولن تصبغ الحرب صفقة رابحة مثلاً إلا بقيادة الاسكندر ، الذي ينقلها الى بلاد مزدهرة حكاهما يكتزون الاموال . فسبارطة التي طالما احرزت الانتصار تلو الانتصار لم تكس الثروات قط ، وكل ما حققته من هذه الانتصارات انها استطاعت تأمين الانفاق على جنود جيشها الذين هم مواطنوها ، دون ان يقوموا الى جانب الجندية باي عمل مأجور . ولم تستطع اثينا كذلك ، بعد قمعها ثورة ساموس ، ان تستعيد ما انفقته ، على الرغم من تعويض

حرب فرضته عليها واستوفته طيلة خمسة عشر سنة تقريبا . اجل ، قد اطلحت لها قوتها ، من جهة ثانية ، تأسيس امبراطورية غذت خزانتها وأثرت تجارتها . ولكن هذه الامبراطورية لم تعمر طويلا .

اما الاراضي التي يمتاحتها العدو فتعاني الأمرين . وليس نصيب الارياف ، على الصعيد المادي ، سوى نهب المحاصيل أو اتلافها وتحطيم الاشجار المثمرة وتدمير الابنية . اما في المدن ، حيث يلتجئ الفلاحون وراء التحصينات ، فتفتك الاويثة والحرمات بالسكان ، حتى ولو لم يتعرضوا في النهاية لهجوم المحاصرين . ثم ما هي المدينة اليونانية التي لم تنقلب عليها الحرب في يوم من الايام يا ترى ؟ فقد اضطرت سبارطة نفسها ، التي طالما تباغت بانها تنقل الحرب الى البلدان الاجنبية وبان اسوارها الوحيدة هي صدور ابنائها ، ان ترضى صاغرة ، بعد هزيمة لوكرا ، بان يحتاج الطبييون اريافها الحصبة حيث يحرث الصعاليك اراضي مواطنيها . ولذلك يمكن تلخيص مأساة اليونان الكبرى بانها لم تستطع ، بسبب الاعمال الحربية المتكررة ، تأمين الاستقرار الهانئ لفلاحها .

التجنيد : مبدأ وراقع كان فلاحو اليونان ، من جهة ثانية ، قوام محاربيها ، اقلته في الجيوش البرية . فقد حافظ جيش المشاة ، كما سبق ورأينا ، على مكانته كملك المارك التي احتلها في العهد القديم . وكان الهوليت يبدأ الجندي المثالي في هذا الجيش ، ويمجد بصورة خاصة ، من طبقة المالكين الصغار الذين يزاولون بانفسهم حراثة اراضيهم .

لا ريب في ان مبدأ الخدمة العسكرية للواطن ولكل رجل يقم في مسكن ، حتى الاجنبي ، كان مقررًا ومعترفًا به في كل مكان . فكل رجل سليم البنية اذن قابل التجنيد . وكانت من الممكن بالتالي ان تنظم جيوش او فر عديداً وان تشمل التعبئة النبلاء انفسهم في حال فرضها على كافة الطبقات الاجتماعية . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث عملياً بسبب رسوخ التقاليد وعجز المدن في الموارد المالية .

استلزمات الخدمة المجدية في فرق الهوليت المشاة تربية عسكرية سابقة وعدة حربية . وكانت هذه العدة ، بالاضافة الى ذلك ، من ثقل الوزن بحيث يصبح من المرغوب فيه ، لا بل من الضروري أحياناً ، ان يعاون الهوليت خادم شخصي ، يغلب ان يكون عبداً ، في حمل اسلحته اثناء المسير وفي تحضير وجبات طعامه . وقد استلزم كل ذلك حداً أدنى من أوقات الفراغ والبحوحة مكنته من توفير بعض المال ومن تحمل بعض التضييحات المالية المباشرة وغير المباشرة . ولم تكن المدينة لتساعده في الظروف العادية ، عامدة ، بسبب فقرها ، الى رواسب المبدأ القديم الموروث عن الدولة الارستوقراطية الذي يوجب على المحارب شراء اسلحته وتحمل نفقات غذائه نفسها في أغلب الاحيان . وقد كان من الضروري انقضاء عدة عشرات من السنين ، بعد الحرب الميدي الثانية ، حتى تقدم أثينا ، اكثر المدن ديموقراطية ، على اعطاء مثل لم يتبعه غيرها إلا ببطء ، في التعويض جزئياً ، بجمالة يومية ، عما يتحمله جنودها من نفقات

وعما تحرمهم خدمتهم من ربح ، ولكن دولة واحدة لم تفكر يوماً بالتعويض على الفتيان أثناء مرحلة تدريبهم المختصر على دورهم العسكري المقبل ولا بالمساهمة في شراء العبد المعاون ، حتى ولا في تأمين العدة للهوبليت ، إلا في حالات الخطر المدام التي تضطرها الى تعبئة اكبر عدد من المحاربين . وانما سبارطة وحدها حلت هذه المعضلة المالية حلا غير مباشر بأن أمنت لواطنيها امتلاك الاراضي وخدمة الصعاليك ، بفضل فتوحاتها واجهزة امنها .

يستنتج من ذلك ، ان الفقير مدعوٌ لخدمة وطنه كجذّاف في الاسطول البحري أو كجندي في فرق المشاة الخفيفة مزوّدة بمدّة بدائية . فهو لا يملك المال اللازم للحصول ، لا على الرمح والسيف فحسب ، بل على الخوذة والدرع والترس والمسامي التي هي قوام عدة الهوبليت . وهكذا فإن طبقة صغار المالكين تمثل على العموم الطبقة الوسطى التي تقدم أوفر عدد من الجنود ، الى جانب المدن حيث يفضي النشاط الاقتصادي الى ايجاد طبقة من ذوي اليسار .

امام هذا الوضع ، لم يرَ فيه بعض المعاصرين ، ولا سوا الفنين منهم ، سوى الحسنات دون غيرها . ودرج التسليم بأن الفلاحين الناعمين بملكية بعض الاراضي يقدمون افضل الجنود . فمن الناحية الجسدية ، تحسّن الحياة الريفية اجسامهم وتدريبهم على التعب والاسفار الطويلة والعيش المتشقق ، وتمهد خفتهم بممارسة القنص . ومن الناحية المعنوية يشارك امتلاك الاراضي المصلحة الخاصة بالصلحة العامة . فالذي لا يملك شيئاً يذود عنه لن يحارب بعنف من يخاطر ، ليس بشخصه وعائلته فحسب ، بل بالمتلكات التي توفر له الحياة في الاستقلال الاقتصادي والتي يشدها اليها العناء الذي يبذله في سبيلها يوماً . ومن شأن قانون الحرب واعرافها ، وهي أشد صعوبة على الريفين منها على المدنيين ، ان تجعل الفلاح يعي بسرعة حقيقة ما يدور حوله الصراع . و تدفع الارض الفلاحين الى الذود عن بلادهم بقوة السلاح لان ثمار حقوقها تحت رحمة الاقوى ... لنفترض ان الاعداء يغزون البلاد ولتقسم الفلاحين والصناعيين الى فئتين ولنسأل هذه الفئة وتلك على التوالي عن رأيها في الدفاع عن البلاد المنبسطة أو في التخلي عن الارياف والحفاظة على الاسوار . في هذه الحال ... لا شك في ان الفلاحين يقرعون للدفاع عن الارض ، وان الصناعيين يقررون العزوف عن الحرب والاستمرار في عطلة تعودوها في منأى عن المتاعب والمخاطر .

من شأن هذه التأكيدات التي ينسبها كسينوفون الى سقراط ان تثير ابتسامة من يعين التفكير . كل حضارة مدينة لعاداتها وحالتها الاجتماعية وتقنياتها أو مفاهيمها العسكرية بمثل الجندي لا ترد في مقابلته بضده . فيقابل الجندي بالفلاح ، والبربري بالمنحط ، والفارس بالمشاة السجيين ، والابن الضال بابي العائثة ، والاختصاصي في الآليات بالصناعي المتمرن . وهي أبداً تجعل من هذه المقابلة مبدأ تسمى وراء نقله الى الصعيد الادبي . فكسينوفون يقتصر على اعطاء شكل منطقي لما كان في ايامه واقماً راهناً فقط : فلاحون من ذوي الاملاك الصغيرة يقدمون القسم الاكبر من الجيوش اليونانية التي كانت في غالبيتها نوعاً من « الميليشيا » المدنية . اما سبارطة فلا ينطبق

عليها هذا القول ، لان مواطنيها جنود مهنتهم الجندية من حيث انهم لا يجوزون الارض ولا يارسون اية مهنة اخرى على كل حال . ولكن نسبتهم تتدنى رويداً رويداً حتى تصبح قلة نادرة في الجيوش التي يطلق عليها اسم « السبارطية » والتي هي في الواقع جيوش بلوونيزية مشكلة من فرق المدن الحليفة او التابعة التي يغلب فيها العنصر الريفي . وهذا يعني انه لم يكن باستطاعة اية دولة يونانية ان تتعهد جيشاً كافياً من الممتهين . ولذلك فكل الدول مضطرة للجوء الى الطبقة الوسطى من مواطنيها ، أي الى فلاحها الاشداء القادرين على التسلح وتحمل مشاق الحملات العسكرية والمستعدين لبذل حياتهم ذوداً عن ممتلكاتهم ووطنهم على السواء .

غير ان هذه الطبقة ، والحالة هذه ، هي التي منيت بافدح الحاسائر في الارواح ، لا بل ان تكرر التجنيد ، بفعل تكرر الحروب ، قد اعاق هؤلاء الفلاحين الصغار في استثمار اراضيهم ، لا سيما وانهم اعجز ماليّاً من ان يؤمنوا كفاف يومهم دون ان يجهدوا بقوة سواعدهم وعرق جبينهم . فاقضت القومية التي لا تلتين في المدن اليونانية هنا أيضاً الى خلخلة التوازن الاقتصادي والاجتماعي القصم الذي كان مرتكزاً لحضارتها في ازهى عهودها .

هنالك سيئة اخرى ، ملازمة للذهنية اليونانية على ما يبدو ، حالت دون الثورات الدافقة
إثارة هذه الحضارة إثارة كمالاً : تعدد الحروب الاهلية في المدن .

بيد ان الحرب الاهلية ، طيلة البيطور الاكبر من القرن الخامس ، لم تقم ويلاتها الى ولايات الحرب مع الاجانب . فقد عرف العالم اليوناني بأسره حينذاك ، بعد ان مُزق شر تفرق في داخل الكثير من مدنه ، هدوءاً نسبياً استمر نصف قرن تقريباً . فما هو لتعليل هذه الاستراحة المحيرة في وقت توقف فيه النشاط الاستعماري وضول عدد المرتزقة الذين كانوا بمثابة دواء وقائي اثر الازمات الاجتماعية الخطيرة ؟ ليس تفسير ذلك ، في الحقيقة ، بالأمر اليسير . غير اننا نرجح ان الطبقات الاجتماعية الدنيا قد عرفت مصيراً اقل حقارة ، وذلك لاسباب وبوسائل تجهلها .

لكن هذه الاستراحة ، التي لا شك فيها ، تبقى قصيرة الامد ، اذ ان النزاعات الداخلية في المدن تعود الى الظهور قبيل الربع الاخير من القرن الخامس . ويقوم في الاساس من هذه العودة الصراع بين مذهبين سياسيين ، حكم الاقلية وحكم الشعب (اوليغارشية وديموقراطية) ، تمثلها وترمز اليها وتساندها المدينتان المتنافستان ، اثينا وسبارطة اللتان انتصبتا في حرب البلوونيز الواحدة ضد الاخرى وارغمتا عملياً كافة المدن اليونانية على الانتصار لهذه او تلك منها . ولكن النزاعات السياسية ، شأنها في القرون السالفة ، تعبر ، بمخاطورتها واستمرارها وشموها ، عن نزاعات اجتماعية أكثر عمقا . فانصار الاوليغارشية وانصار الديموقراطية انما هم ، اجمالاً ، الاغنياء والفقراء . ولاسباب غير واضحة ايضاً ، استصعب الفقراء حياتهم من جديد فحملوا بالبلبة والانتقابات .

بعد ان عاد الانشقاق الداخلي الى الظهور ، لم يعرف الى الهدوء سبيلاً ، لا بل انه ازداد مع

الأيام تآزماً وخطورة . فسيطرت الحرب في القرن الرابع سيطرة شبه دائمة ، لا على حدود المدن فحسب ، حيث لم تزل قائمة منذ زمن بعيد ، بل في داخل كل مدينة ايضاً . وقد حدث حينذاك ان المدينتين اللتين تلتقتان الانظار ، أثينا وسبارطة ، قد عرفتا سلباً مدنياً غير كامل على كل حال . ومن حيث ان هذا السلم قد ادت اليه ظروف خاصة جداً ، يجب علينا الا نفرغ نفسنا به . اما المعامات حول المدن الاخرى فمن الوفرة بحيث تكفي للدلالة على وجود نزعة عامة على الاقل ولاستعادة « مناخ » الامواء الثائرة فيها .

في الظروف المادية ، تمدد الاحزاب المتخاصمة - التي قد تتقاتل احياناً - الى فرض الابعاد . ويرافق الابعاد الطوعي والقسري حجز ممتلكات المغلوبين وتوزيعها على المنتصرين او بيعها لمصلحة الخزانة العامة . ولكن عضد الاجنبي ، اذا لم يكن من عضد غيره ، لا بد ان يتسع للحزب المغلوب ، في يوم من الايام ، ان يستعيد السلطة . وعندما يتسهم الحظ ، يعوض المبعدون عما خسروه بممتلكات خصومهم ويمارلون استعادة املاكهم ايضاً . وليست هذه الاستعادة بالأمر العسير للأملاك التي انتقلت الى أيدي الأعداء أو تلك التي لم تبها الدولة . ولكنها ، تصبح من العموية بمكان للأملاك التي بيعت أو رهنّت أو انتقلت الى شخص ثالث مهراً أو هبة بموجب وصية . ولذلك ، فإن كل ثورة سياسية تستتبع سلسلة لا حد لها من الدعاوى والمنازعات . واذا لم تتوفر الاموال للتويض عن الاضرار الحاصلة ، يندو الوضع مستمطقاً لا سبيل الى الخروج منه سوى القوة . واذا ما استخدمت القوة ، تدمر الحرب الاهلية الى مآل نهاية لها بصورة شبه حتمية .

المورد والتفهي، الارتاق
هدّد الحراب اذن الأملاك الموروثة عن والدين حتى تلك التي لا شأن لها . وأفضت تقلبات ونتائج الحرب الاهلية الموضعية الى ارتفاع عدد البائسين المبعدين عن وطنهم أو العاجزين عن أن يجدوا فيه أودم وأود عائلاتهم . فانضموا الى عداد من أفقرتهم غزوات الجيوش الأجنبية ومن تنتهي بهم طيبة ارض اليونان القاسية الى العوز والفاقة اذا لم يمسدّد النسل بحكمة . فانتشر الفقر باستمرار ، وقد زاد انتشاره ، وهو معاول وعلة معا ، في خطورة معطيات المعضلة الاجتماعية التي تضاعف حينها تناقص الاحزاب . و بانتظار معجزة او ثورة لتشلان المعوزين من هذه الضائقة ، لا يبقى امام سوادهم الأعظم غير مورد الخطرة بجهنم تأميناً لضرورياتها .

وهكذا يطل مرة ثانية الارتاق الذي ما كانت اليونان لتعرفه عملياً ، وعلى نطاق واسع ، منذ اوائل القرن السادس . وتبرز اطلالته ابان حرب البوبونيز ؛ ففي الأساطيل خصوصاً ، اطحّت له الامدادات الفارسية ، في السنوات الاخيرة من هذه الحرب ، اتساعاً كبيراً ، اذ ان اولئك الجذافين الذين تجعلهم زيادة أجر هزيمة ينتقلون من المراكب الاثينية الى المراكب اللاكيدونية ليسوا في الحقيقة سوى طغناات المرتزقة . أما في ما يتعلق بالجيوش البرية فلعوامتنا

القلبية لا تسمح لنا بإبداء رأي صريح . غير ان نهاية الحرب تليها ، بعد فترة قصيرة ، الحملة التي تقوم « العشرة آلاف » الى بلاد بابل اولاً ثم الى شواطئ البحر الأسود والتي يسرد وقائمه كتاب كسينوفون المعروف بـ « أناباسيس » . فما من ريب ان هؤلاء العشرة آلاف ليسوا جنوداً مواطنين قدماء فقدوا مذاق الحياة المنتظمة . فكم بينهم من رواد المغامرات الذين تركهم نهاية الاعمال الحربية دون عمل ؟

ثم يتسع الارتزاق بعد ذلك باستمرار بحيث يتوجب علينا ، تعليلاً لانتشاره المدهش ، ان نفكر بالمصادر العديدة التي استطاع التزود بالرجال منها . لا شك في ان الابعاد السياسي مصدر هام من هذه المصادر . غير ان المبعدين ليسوا جميعهم بصالحين للمهنة العسكرية التي تفرض بعض الصفات الجسدية . كان الاسكندر بين السنين ٣٣٤ و ٣٢٨ قد جتد تحت امرته قرابة ٤٥٠٠٠ مرتزق ، وأقام منهم ٢٥٠٠٠ في المدن الحديثة التي أسسها . وخدم غيرهم في امكنة اخرى ايضاً ، في صقليا وفي ايطاليا الجنوبية مثلاً . ولكن هذا « البزل » من مجموع المتفنين لم يمنع ٢٠٠٠٠ مبعدين الاجتماع في أولمبيا في صيف السنة ٣٢٤ حين شاع الخبر بأن أحد موقدي الاسكندر سيذبح فيها امرأة صادراً عن الملك وموجهساً لكافة المدن بفتح ابوابها للمبعدين . فيتضح من ذلك ان هنالك واقعاً اجتماعياً ذا أهمية كبرى ، هو احدى آفات اليونان طيلة القرن الرابع .

أضف الى ذلك ارت وجود المرتزقة الكثيرين المستعدين للدخول في خدمة من يدفع اجراً اعلى او من تسمح لهم شهرته ان ينتظروا منه السخاء والنظام المرن والنصر والغنيمة ، لم يمت عن اعراف سياسية فظة وعن وضع اجتماعي غير مستقر فحسب ، بل انه أسهم في تعميم الحرب ايضاً ، لأن الحرب اصبحت ممكنة بالمال اذا لم يتوفر لها الرجال ، وفي جعلها اكثر تدميراً وتخريباً لأن المرتزقة لا يميلون ، من طبعهم ، الى مراعاة جانب المدنيين غير المجهدين فهما كانت جنسيتهم .

يتضح من ذلك ان اليونان قد غذت في أحشائها أحقاداً دائمة الهياج . فافضت المنافسة ، التي ألتهها الشاعر القديم هيزيود بشخص « اريس » ، الى البغضاء التي أفضت بدورها الى التقتيل والتدمير . أجل ، قد تكون الروح اليونانية مدينة لها بقسط من وثبتها المتأججة . ولكن الاغريق قد حرموا ، بسببها ، حسنات السلم والطمأنينة والاستقرار .

بيد انهم ، على الرغم من ذلك ، قد انتقلوا بحضارتهم ، خلال القرنين الخامس والرابع ، الى طور النضج . فلم تعبق هذه الظروف المعاكسة ، في ارتقاها ، بقدر ما عجلت تقهقرها ، بحرمانها من الاستقرار .

الفصل الثاني

المثل الأعلى والوقائع السياسية

لن نغالي قط في الكلام عن أهمية الـ «بوليس» ، أي المدينة ، لأنها في الأساس من هذا الحضارة ، لا تكون إطارها فمضب ، بل تعطىها ميزاتها الرئيسية أيضاً . فالحضارة اليونانية الكلاسيكية ، يوجرها ، حضارة البوليس ، وقد نضب نسفا حين عجزت المدينة عن التغلب على الصعوبات السياسية الداخلية والخارجية التي واجهتها وعن ارضاء نزعات مواطنيها .

١ - سيادة المدينة

المدينة هي بالضرورة دولة محصورة الرقعة . ولا أهمية لهذه الرقعة في تحديدها .
المدينة
فهي ، في جوهرها ، المواطنون ، الشعب ، الـ «ديوس» . ولم تأت الكتابات
la città
الرسمية في يوم من الايام على ذكر « أثينا » أو «لاكيديون» أو «الجمهورية الأثينية»
أو الجمهورية «اللاكيديونية» ، بل اقتضت ابدأ على «الأثينيين» أو «اللاكيديونيين» ، «مدينة
الأثينيين» أو «شعب الأثينيين» ، «مدينة اللاكيديونيين» أو «شعب اللاكيديونيين» .
فالمفهوم اليوناني ، اذن ، انما يفرض على وحدة المواطنين حدوداً ضيقة بعض الضيق . فعدد
المواطنين المثالي ، في نظر فلاسفة القرن الرابع هو عشرة آلاف كحد أعلى (حتماً ان أفلاطون
قد حددته بـ ٥٠٤٠) ، وهم قد أخذوا على أثينا ، مسارحة او مداورة ، انها قد جمعت أكثر
من هذا العدد . فقد كتب أرسطو : «لا نستطيع تكوين مدينة من عشرة رجال» كما ان
عشرة آلاف لا يكوّنون مدينة أيضاً . . وجلي ان السبب الوحيد لهذا التعديد هو السباح لكل
مواطن بأن يعرف شخصياً كل مواطن سواه ، لا في شكله الخارجي فمضب ، بل في اخلاقه
أيضاً ، وفي طريقة وأساليب حياته ، وفي ارتباطاته العائلية ، وفي نشاطه اليومي تقريباً .

لوحدة المواطنين هذه مركز هو المدينة التي هي قلب الـ «بوليس» . وفي حالة الخطر ، تؤمن
أسوارها دفاعاً تؤلف القلعة (اكروبولس) مرتكزها الأخير . هنا تجري الاتصالات على

انواعها ، السياسية والاقتصادية والفكرية . وهنا تقم سلطات الحياة الجماعية . وهنا تقوم السوق التجارية والمدارس والمنتديات الرياضية والمسارح والمعابد الرئيسية .

ولا غنى عن هذه المدينة من الناحية النظرية ، مع ان وجودها لا يتوفر لبعض الشعوب اليونانية . ففي بعض المناطق الجبلية والثانية من اليونان الوسطى والغربية يعيش الرجال مشتمتين في مساكن منعزلة او في قرى صغيرة ، وليس لهم سوى معابد ريفية يجتمعون حولها في ظروف الاعياد التي هي أسواق دورية في الوقت نفسه . ولذلك فانهم يعتبرون متأخرين ، ولا تجتسي عليهم بهذا الاعتبار . فلن يتوصل بعضهم ، قبل اواخر العهد الكلاسيكي ، الى لعب دور سياسي او عسكري ، عاجزين ، على كل حال ، عن ترك اي اثر اقتصادي او ادبي حينذاك .

بيد ان هذه المجموعة السكانية ، حتى في المدن المتطورة ، ليست في الظروف العادية مكان اقامة كافة المواطنين ، باستثناء بعض الحالات التي تبررها حاجة للوقوف في وجه ثورة ممكنة يقوم بها السكان المُنحَصُونَ ، كما حدث في سبارطة مثلا او في بعض مدن المستعمرات اليونانية . فان نسبة كبيرة من المواطنين تبقى موزعة على الاراضي المجاورة . ولكن المهم من الناحية الحقوقية ان المدينة تعامل بالساواة المواطنين الذين يقطنون المدينة واولئك الذين يقطنون الاراضي المجاورة . فهي لا تكتفي بأن تترك للقرى الصغيرة امر ادارة شؤونها استقلالياً ولا تتدخل فيها إلا في الحالات الخطيرة وتكلفتها رعاية العبادات المحلية إلا اذا بلغت من الاشعاع ما يؤولها للارتفاع الى مرتبة العبادات الرسمية ، بل انها تعطي سكان الارياف ، مع مراعاة النسبة العددية ، حق الاشارة بحكومة المدينة كلها بالسواوي مع المدنيين ، وحقوقاً مدنية وسياسية لا تختلف بشيء عن حقوق هؤلاء . أجل قد تبرز عملياً بعض الفوارق التي تضر بسكان الارياف يجب ردّها الى تشتتهم وبعدم عن المركز المشترك . ولكن هذه الفوارق أعجز من ان تؤثر بشيء على المساواة النظرية .

للمدينة ، من حيث مفهومها ، السيادة المطلقة كدولة .
سيادة المدينة الخارجية لا تعترف ، خارجاً عنها ، بأي مبدأ اعلى يجتد من مندوحتها . فهي قتر ، لا بل تعلن ببعض التيه ، انها يونانية . غير ان انتسابها الى مجموعة عنصرية أكثر منها اتساعاً لا يفرض عليها سوى واجبات أدبية تكاد تفقد فعاليتها حين تعرض مصالحها للخطر . وليس سوى العبادات اليونانية الجامعة القليلة العدد ، كمادات اولمبيا ودلفي في الدرجة الأولى ، ما توصل الى فرض احترام بعض الانظمة . ولكن نفوذ هذه الانظمة لم يتمتع دائماً بقوة رادعة كافية ، فقد أدت بعض الحوادث الخطيرة الى نزاعات مسلحة لم يستطع القانون الديني قط الحؤول دونها او منعها .

ان لفشل دلفي ، في هذا الصدد ، لغزى كبيراً . كانت اولمبيا مرتبطة بمدينة بلوونيزية صغيرة هي « ايليس » التي فرض عليها ضعفها موقفاً حكيماً . اما المعبد الدلفي فقد قامت على

ادارته جمعية شعوب « مجاورة » او مجلس اتحادي . نعم كانت هنالك مجالس اتحادية اخرى في العالم اليوناني . ولكن مجلس دلفي لم يكن أشهرها فحسب ، بل اوسمها حظوة بسبب شهرة هتافات الغيب الصادرة عن عرفاتها ، واوسمها نفوذاً بفضل القوة العسكرية التي يتمتع بها هذا المجلس مبدئياً . وكانت الميمن التي يقسمها اعضاء المجلس ، وفاقاً لصيغة قديمة ، توجب عليهم ان يدافعوا كلهم وبكل قواهم عن مصالح الإله ، وتحظر « تدمير أية مدينة اتحادية وقطع المياه الجارية في أيام الحرب وایام السلم على السواء » ، وتواجه امكانية شن الحرب الجماعية على كل من يخالف هذه الاوامر . وكان مجرد اجتماع مندوبي الشعوب الاتحادية ، مرتين في السنة ، مدعاة للمفاوضات حول المصالح المشتركة . وكان من شأن هذا التصميم الایجازي ، لو اكتمل ، ان يفضي الى نتائج بعيدة الأثر : ومن الجائز ان نفكر هنا بتلطيف قانون الحرب وتحكيم أعلى يتولاه جيشات اتحادي وحتى بتوحيد تدريجي . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق . فقد نشبت أربع « حروب مقدسة » ، واحدة منها في القرن الخامس واثنتان في القرن الرابع ، لم تختلف قط عن الحروب الأخرى ، إذ ان الهجة الدينية المتدورح بها لم تخف ، كل مرة ، حقيقة تصادم المصالح السياسية . فدمرت مدن اتحادية وقطعت المياه عن المدن المحاصرة ، دون ان يعترض على ذلك معترض . اما المجلس الاتحادي نفسه فلم يوسع تنظيمه توسعاً كافياً ولم يكتف قط وفاقاً للواقع السياسي في العالم اليوناني . ولم يكن في الواقع سوى أداة طيعة في ايدي السلطة النافذة في اليونان الوسطى أولاً ، والتسالين *Thessalians* قبل الحروب المديية ، وسبارطة وطيبة بعد ذلك ، والملك المقدوني أخيراً . وهكذا فان الامكانات التي قد تكونت في دلفي قد أجهضت إما اجهاض .

من حيث ان المدينة خلية صغيرة شريعتها الالانية ومثلها الاعلى الاستقلال التام ، فانها لم ترتبط الا بتعهدات دولية تراها متوافقة ومصالحها ، ما لم تضطرها قوة قاهرة الى تعهدات اخرى . وعندما ترى ان مصالحها قد تبدلت ، لا تحترم اي ميثاق معها كانت نصوصه قطعية ومهما كانت الايمان التي رافقتها مغلظة . ولم تختلف معاهدة الصلح ، زمناً طويلاً ، عن هدنة قضيرة الأمد . ففي السنة ٤٤٦ مثلًا ، عقدت أثينا وسبارطة الصلح لمدة ثلاثين سنة ، وفي السنة ٤٢١ لمدة خمسين سنة ، ولكن ذلك لم يمنعها من استئناف الاعمال الحربية منذ السنة ٤٣١ والسنة ٤١٣ . وفي القرن الرابع ، تمدد فترة السلم المتفق عليها وتبرز لأول مرة الصيغة « دائماً » المنفولة عن معاهدات التحالف والمعدة لأن تصحح دارجة الاستعمال ؛ ولكن لم ينخدع احد بهذه التعهدات السريعة الزوال . فهي انما كانت احدى المعطيات البدائية للدبلوماسية اليونانية ، بل النتيجة الحتمية لمفهوم الـ « بولس » نفسه .

بيد ان بعض المدن كانت اعضاء في اتحادات اقليمية لها صفة الدولة ، لا صفة الحلف فقط ، بفضل أجهزتها السياسية الدائمة . لنهمل الدول البدائية حينذاك التي تجمع شعوباً كالفوسيديين

والإيتوليين الذين لم يكن لـ « بولس » عندهم حيوية او وجود أيضاً . ولكن الدولة البيوسية ، التي لعبت ذلك الدور الكبير في القرن الرابع ، اختلفت في الحقيقة اختلافاً كبيراً عن هؤلاء . فقد تكونت من مدن لا تقتصر على ولاية جامعية للمصالح الدبلوماسية او العسكرية المشتركة . وكان للندن البيوسية مؤسسات متشابهة ، ومنحت كل منها بعض الحقوق لمواطني المدن الاخرى . فحققت اذن فيما بينها وحدة يجوز لنا الاعتقاد بأنها ، لو قبض لها نمواً طبعياً ، لانتهت الى الانصهار : فالمنطق يقضي بشد الروابط العضوية ، والانتقال على التوالي من الجبهة الدفاعية المشتركة الى التحالف ومن التحالف الى الدولة الاتحادية ومن الدولة الاتحادية ، بالتدرج ، الى الدولة الواحدة . ولكننا نعلم علم اليقين ان حالة على هذا الوضوح وهذه المؤاتة لم تبرز في غير مكان . ففي الاطوار الجغرافي الكبير الآخر ، أي سهل تساليا الواسع ، لم تظهر دلائل تطور ممكن نحو الوحدة ، قبل خضوع البلاد لفيلبوس المقدوني ، الا بسرعة البرق الخاطف . ولكن انفراد مثل الدولة البيوسية واقع لا يرقى إليه الشك .

ليس في الحقيقة ، في هذا المثل ، ما يحمل على البحث عن الفوارق ، لا بل انه يؤيد ما يرى في غير مكان . وبما لا شك فيه ان الاختبار البيوسي هذا قد اعترضته القوة الاجنبية فأوقفته : فاذا لم يؤد الانتصار المقدوني الى زوال الدولة البيوسية زوالاً قانونياً ، فانه قد أفضى ، على الأقل ، الى ارتخاء روابطها الداخلية وازعاج بل تدمير طيبة ، مدينتها الرئيسية ، التي كانت قد نظمت هذه الدولة وأشرفت عملياً على ادارتها : ولكن مجرد شجاع اقتصاص فيلبوس والاسكندر من طيبة في ايقاف تطور انطلاقة مشجعة لدليل واضح على ان هذا التطور كان مصطنعاً . ويبدو ان المدن البيوسية الاخرى لم تسر سيرة مع التيار الذي اوجدته طيبة . فلو اتاح للدولة البيوسية ان تعيش ، لغدت الدولة الطيبية فحسب .

يجب في الواقع انتظار العهد التالي حتى ترضى بعض المدن ، عن طريق القسر ، بالتضحية بشيء من سيادتها النظرية ، التي دافعت عنها دفاعاً حريصاً حذراً حتى ذلك التاريخ ، بغية إيجاد دول اتحادية حقيقية . ولكن هذا المثال الاعلى ، الذي لن تسمح له القوة الرومانية بالتحيز طويلاً ، غريب عن اليونان الكلاسيكية . فهو انما أوجده اخفاق « البولس » ، واملته الضرورة ، لانه يحاول بشق طرق المحاولة لتحقيق توازن الممالك الهلينية الكبرى بوضع حد نهائي للتمتدات الاقليمي الخاص .

المدينة سيّدة ايضاً ، داخل اراضيها ، على الاشياء والبكائنات على السواء ، المدينة والفرد وقد تمتعت بهذه السيادة ، نظرياً ، منذ البداية وفي كل مكان . وقد استمرت في الواقع ، بفضل تقدم الديموقراطية ، في توسيع النطاق العملي لسيادتها . فالديموقراطية لا تعني قط تراخي سلطة الدولة . ومن حطّل الرأي القول بغير ذلك ، انطلاقاً من مثل سبارطة . فحلفاء سبارطة ، في القرنين الخامس والرابع ، المدن (الاوليفارشيّة) التي تحكمها الاقليات ،

والاوليغارشيون ، في كل مكان ، يشهونهم ، على الاقل ، الاعجاب بؤسائهم . ولكن ذلك ليس سوى انتهازية ، او بالحري اختيار اهون الشرور . فإذا ما نظرنا الى مبادئ تنظيم سبارطة ، بدت لنا هذه المدينة ، في النطاق الاجتماعي خصوصاً ، ومن بعض النواحي السياسية ايضاً ، كأكل الديموقراطيات اليونانية . وفي الصفة « متسارون » التي تمتع بها مواطنيها برهان قاطع على ذلك . فالاوليغارشية الحقيقية تقوم على اسس اخرى . وهي لا تربط المواطن بالدولة مباشرة ، بل تضع بينها هيئات وسيطة او اطارات اجتماعية منظمة ، ليس الفرد فيها سوى عنصر من عناصر الجماعات المشكّلة وفاقاً للنسب ، والمصونة بفضل المحافظة على عبادات البنوة الحقيقية او الاسطورية ، وهذه العبادات أفضل ما يصون تقاليد الجدود . بهذه الهيئات الوسيطة تصطدم الدولة عندما تقرر العمل ، وعندها من القوة ما يجعلها غالباً تسيطر على الدولة نفسها . لذلك يجب ان يتم التطور الديموقراطي على حسابها . اجل ان هذا التطور يحرم المواطن من الروابط التي تقيدته . ولكن المدينة ايضاً تقيد منه لأنها تصبح أمنع قوة وطليقة في ممارسة سيادتها المباشرة الفورية على الافراد المتعزلين . حينذاك ، وحينذاك فقط ، يقوى عند الاوليغارشين ميل نحو سبارطة سبق وتما عندهم بفضل عداوتها للاستبداد ، فيحولون انظارهم اليها ، لا سيما وانها لم تعرف قط هذه الهيئات الوسيطة ، وان الدولة فيها تضع كل طاقتها بالتالي في خدمة المحافظة على التقاليد الادبية التي فتحت فيها السلم في غير مكث ؟ ولكن مساندة سبارطة قد اظهرت في النهاية انها عاجزة عن ايقاف التطور العام .

تفرض المدينة ، باسم « نواميس » ، « شرائع » و « عادات » ، كتابية او شفوية ، تسمو على الارادات الفردية او الحالات النوعية . أما القرارات التي تعود الى هذه المبادئ ، فلا يجوز ان تدعى إلا « مراسم » ، وتؤخذ كافة الاحتياطات كي لا تتعارض والشرائع . فقد جاء في الكتابة المحفورة في الترمويل على نصب ليونيداس ورفاقه : « أيها المار ، اذهب وقل لسبارطة اننا متنا اطاعة منا « لنواميسا » . ويضع أفلاطون ، على فم سقراط المحكوم بالموت ظليلاً وعدواناً منلجاة « النواميس » القمينة بتذكيره ، اذا ما حاول الهرب ، بواجبه في الخضوع خضوعاً أعمى حتى الى اخطائها ، تحاشياً لاحداها ، شأنه في تحاشي احداً ابيه وامه . وتقوم سيادة « البولس » الداخلية على نفوذ « النواميس » والاحترام الذي توحيه والذي لا حياة جماعية ممكنة بدونها .

لا شك من جهة ثانية في ان « الشرائع » ، التي تسمح بموجبات المدينة ، تجدها بالفعل نفسه ، لانها تفرض على المدينة العمل ببعض التواعد او بعض الطرائق على الاقل . فعقوبة الابعاد مثلاً التي توجد ، بأسماء اخرى وبكيفيات مختلفة ، في مدن غير أثينا ، تجيز ان يفرض على المواطن ففي لمدة عشر سنوات دون تقديم أي مبرر ، ودون دعوى او مناقشة ، ودون اتهام أو دفاع . وقليلة في الواقع هي المؤسسات التي تبرز بهذا الوضوح سلطة المدينة البالغة على مواطنيها لانها

مذلك اعطت لنفسها وسيلة ، يحدث ان تلجأ اليها عملياً ، لتتال ، بمجرد هواها او تخوفها ، من رجل لا تهم حتى لاعلان ذنبه . ولكن الأبعاد لا يجوز تقريره الا بعد اجراءات خاصة ، يوفر القيام بها ، للضحايا الممكنة ، حداً أدنى من الضمانات . وفي بعض النواحي ، كذلك ، قد تتعدى مفاهيمنا العصرية للدولة المفاهيم اليونانية . فالمدنية التي غالباً ما تقرر حجز ممتلكات محكوم ما تجهل الاستملاك باعتبارات تقتضيها المنفعة العامة . فـ « النواميس » ايضاً اذن قد لا تمنح « البولس » ، احياناً .

ولكن لا شيء ، نظرياً ، يحظر التحوير ، والتوسع في الشرائع . وفي سبيل اعطائها المزيد من النفوذ ، تطبع بطابع ديني او اكرامي على الاقل . ولكن الجميع يعرفون انها في الواقع عمل بشري لانهم يذكرون واضعيا المعتبرين اشخاصاً حقيقيين حتى ولو تسربت الاساطير الى تاريخ حياتهم ؛ لأن إعادة النظر فيها امر ممكن شريطة العمل باجراءات محددة . فليس اذن ، من حيث المبدأ ، اي حد لنفوذ الشرائع الذي قد يتناول جميع مظاهر الحياة البشرية وجميع مراحلها واعمالها ، كما حدث في سبارطة حيث اخضع المواطن للدولة منذ السنة السابعة حتى السنة الستين . اما في غير مكان فيبقى هذا النفوذ اكثر استتاراً ، ويطلب لللاتنيين ان يتباهوا به . ولكن شرائع أثينا نفسها - وقد عدلها كليستين للمرة الأخيرة في اواخر القرن السادس ، ثم اعيد النظر فيها واضيفت بعض الشرائع الجديدة اليها - تتناول ألف ناحية من نواحي الحياة الخاصة والحياة الجماعية على السواء . فهي تحدد الواجبات الدينية والمالية والعسكرية حيال المجموع كما تحدد شروط الزواج الشرعي والعقود التجارية وتربية الاولاد . واذ لم تواجه استملاك الممتلكات العقارية ، فحفاظة على الاستقرار الاجتماعي وتنفاداً لاستغلاله استفلالاً ثورياً ممكناً . وكان باستطاعتها التدخل في كل الحقول التي اهتمتها دونما تعرض لاي مبدأ اساسي .

فلماذا لم تفعل يا ترى ؟ هل ان الضرورة لم تقتض بذلك ام ان مرد ذلك الى قوة التقليد ، او التحفظ الفطين ، او الاشمئزاز بتأثير المثالية ؟ قليل من كل ذلك في آن واحد . اجل لقد شدد العقائديون القدامى على الفكرة التي لاقت ارفع اصداها واجملها في التأبين الذي ينسب توسيديد الى بريكليس في السنة ٤٣١ : ليس لسلطات المدينة من مبرر سوى حماية المواطن من الضغط الداخلي والضغط الخارجي ؛ تحاول المدينة ، مقابل ذلك ، اتاحة الفرص لتمتحن شخصيته الفردية تفتحاً كاملاً ؛ تستهدف المدينة تأمين الحرية والعدالة للمواطن . وهذا لعمرى هو المثل الاعلى للحضارة اليونانية الكلاسيكية . ولكن كم من الناس رأوه ولو رؤى غامضة ؟ وحكم منهم كانوا مستعدين لتكليف اعمالهم عليه .

من حسن الطالع ان الظروف اتاحت ، خلال وقت قصير وفي بعض المدن المحظية ، ترائي ذلك التعاون العجيب بين المجموع والفرد ، النافع لهذا وذاك ، ومباشرة تحقيقه وتحجيزه . . .

وعلى الرغم من بقاءه نظرياً في غالب الأحيان أو من صيرورته نظرياً بسرعة ، فإن هذا المثل الأعلى يمثل واحدة من أثن معطيات لتضارة اليونانية الكلاسيكية التي عرفت ، خلال القرون ، حيوية ناشطة مستمرة .

٢ - خطوات التنظيم السياسي العامة

المدينة والسلطة الشخصية
بديهي ان تنظيم المدن متنوع جداً . فسيادة المدن ، بالإضافة الى مرونة الفكر اليوناني واختلاف الحالات التاريخية تستلزم هذه النتيجة . ولكن هنالك بعض الميادين العامة المشتركة أملاها الاختبار او تولدت من تقاليد العهد القديم .

المدينة اليونانية جمهورية اولاً . أجل ، لقد قامت الملكية في كل مكان في البداية . وإذا لم تزل قائمة في اليونان الحقيقية ، فان وجودها إسمي فحسب ، وهي اقرب الى ولاية محدودة الصلاحيات والمدة ينتخب من تسند اليه دونما اعتبار الى منشأه العائلي . وتقدم لنا أثينا أجلى مثل على ذلك : فالملك (الفاسيلتس) فيها واحد من مجلس الأراكنة العشرة الذين يجري انتخابهم كل سنة ، ولا يلعب سوى دور ديني وقضائي غير ذي اثر في الواقع ، ويجري تعيينه بالقرعة كباقي الأراكنة وفاقاً لطريقة أدخلت عليها تحويرات شتى في القرن الخامس بقية الحد بصورة نافذة من امكانات الخاتمة والضغط . لكن سبارطة هنا أيضاً تشد عن القاعدة . وليس من أقل مميزات ان تحتفظ بملكين مدى الحياة ينتسبان وراثياً الى أسرتي « الأجياس » و « الأرييونتس » ، ويتولى أحدهما بالضرورة قيادة الجيش ؛ ولكن الملكية قد ضعفت في سبارطة نفسها . وانظمة الخلافة الوراثية من التعقيد بحيث يتوجب احياناً على المدينة الاختيار بين طلاب هذا المنصب الكثيرين . وقد أعيد النظر بنوع خاص في مبدأ مسؤولية المملك حتى كقواد جيوش . ونظمت رقابة على أعمالهم خلال الحملة العسكرية ، فدفعتهم بعض السوابق الرهية الى الامتثال بحكمة لتعليقات السلطات الادارية . فشتان ، في سبارطة نفسها بين ، ملكية اليوم وملكية الأزمنة الغابرة .

لم يكتب البقاء للملكيات الأزمنة الغابرة سوى في المناطق البعيدة عن اليونان الأم ، بفعل اتصالها بالشرق الملكي ، كما في قبرص ، ولاسيا في الشمال من شبه الجزيرة اليونانية ، بفعل اتصالها بالقبائل البلقانية البربرية ، كما في الأبير ومقدونيا وتراقيا . فهنالك تلعب التأثيرات الشرقية دورها ، ولا سيما الحاجة الى الوقوف في وجه منافسة الفيليقين الساميين القوية ، المقامين ، هم أيضاً ، في الجزيرة . وهنا ، بالإضافة الى البعد عن التيار العام للتطور اليوناني ، حافز الرغبة في الوقوف في وجه غزوات الجيران الشتميين . فالملكية في العالم اليوناني ، خلال القرن الخامس والنصف الاول من القرن الرابع انما هي نظام مناطق الحدود . ومما يلفت الانتظار ان هؤلاء المملك ، في شمالي شبه الجزيرة على الأقل ، لا يطلقون على أنفسهم ولا يلتقبون ، في علاقتهم

بالأغريق ، بلقب « الفاسيفس » الذي هو من خاصياتهم والذي أحبط نهالة من الإجلال في الملحم الهوميروسية . ولن يعم استعماله من جديد إلا بعد الاسكندر . فكان مفهوم الملكية حينذاك اعتبر ، بالأجماع ، مفهوماً غربياً عن الحضارة اليونانية وميزة من ميزات البربرية .

ولم يقف جهل المدينة اليونانية عند الملكية فحسب ، بل تعداها الى الحكم الفردي بوجه عام . أجل انها عرفت الاستبداد احياناً في العهد السابق بشمول كافٍ لأن نرى ، في نظام الحكم هذا ، مرحلة شبه طبيعية من مراحل التطور السياسي . ولكن هذه المرحلة قد دخلت في التاريخ . فالاستبداد ، حيثما قام بفعل ظروف الوضع الداخلي ، قد زال منذ أواخر القرن السادس . اما في غير مكان ، كصقليا وابطاليا الجنوبية مثلاً ، فقد استمر هذا الاستبداد بضع عشرات من السنين بفضل الاسباب نفسها التي أتاحت له تسلم الحكم ، اي الخطر الخارجي . ولكن زوال هذا الاخير يسبب زواله ايضاً . فبعد ان كسر القرطاجيون في هيميرا (٤٨٠) والاوريون في كومس (٤٧٤) ، حكم على عهد سلالة الدينومينيس بالزوال في سيراكوزا . وقد انهار بالفعل في السنة ٤٦٦ ، فعرفت المدينة الصقلية الكبرى سيادة « النواميس » مرة اخرى ، بعد فترة من البلبلية والتشويش . فبدأ الاستبداد حينذاك ، وحتى السنوات الاخيرة من القرن الخامس ، وكأنه مرحلة سحيقة من تاريخ العالم اليوناني القديم . ولكنه لن يلبث ان يعود الى الظهور ، في سيراكوزا اولاً ، مع دونيس الاول الذي تسلم السلطة في السنة ٤٠٥ مستموراً خطورة التهديد القرطاجي الذي لاح في الأفق مرة ثانية ايضاً . ويتوسع الاستبداد في القرن الرابع ويبدأ رويداً برويداً بفضل الخطر العسكري اولاً والمتاعب الداخلية ثانياً . ولكن عودته الى الظهور وتوسعه انما هما من ذبول الأزمة التي تمر بها المدينة ، إذ ان المفهوم الكلاسيكي للمدينة يتعارض والاستبداد تعارضاً كلياً .

ف « البولس » الكلاسيكية تخشى الفرد المتفوق الذي قد تكلفها خدماته ، اذا كان له من خدمات ، ثمناً غالياً جداً في النهاية . ويقلقها كل نفوذ فردي ، لانها لا ترى كيف يمكنها ان تضع له حدوداً لا يتخطاها . لذلك فليس من احتياطات لا ترى حاجة اليه ، وليس من ظئفة مهمة في نظرها . فلا يدون اسم القائد في النذور والانصاب التذكارية الاخرى للانتصارات ، بل اسم المدينة دون غيرها . وسرد على لسان ديموستينس ما يلي : « ما كان لخطر على يال احد ان يدعو انتصار سلامين باسم تيمستوكلس لأنه عرف بانتصار الاثينيين ، ولا ان يدعو انتصار ماراتون باسم ميلتياداس لانه عرف بانتصار المدينة . ولا يمكن لأي رجل في وظيفة عامة ان يطمئن لفته او ان ينجو من المراقبة الدقيقة في نطاق عمله . فمهما كان من احترام بريكلين لسيادة الشعب ومن مراعاته لها بكل خالص نية في تعامله مع المجلس ، فلم يتردد خصومه في ان يصموه بالاستبداد ، وقد جاء اخيراً يوم قلبه الشعب فيه وحكم عليه . وقد قوّى التطور اللاحق هذه النزعة . ايجل ان تقدم التقنية العسكرية وتكاثر الحروب وتزايد صعوباتها قد

أطحت للقواد المنتصرين مزيداً من الشعبية . فإن حرب البلوينز التي انتهت بانتصار أحاط
ليسندروس بشهرة وتفوق لا مثيل لها ترسم بهذا الصدد عطفة حاسمة في تاريخ العادات والاخلاق.
وهكذا غدا القواد منذ ذلك الحين موضوع اكرام فردي لم يكن ليخطر على بال . ولكن هذا
الحماس الشعبي الهائج يقابله في حالة الهزيمة ، او خيبة الأمل فقط ، انهيار ضم الأمس مع ما
يرافق هذا الانهيار من حيا غضبة وهيجان . وقد نال بطلا عظيمة طيبة ايباميتونداس
وبياوينداس ما نال غيرها من ذلك . وليست حياة كل من يتعاطى السياسة في أثينا . سوى
سلسلة طويلة من الدعاوى يكون فيها اما مدعياً واما مدعى عليه . ونادرون جدهم رجال
الدولة العظام الذين لم يتعرضوا للفرامة او النفي . أو حتى لعقوبة الاعدام احياناً .

لقد قيل عن هذه الظنّة انها من قبيل الحسد الذي يتأكل النخبة . وفي هذا القول بعض
الحقيقة لأن الجماهير في كل زمان ومكان متقلبة متلونة متحفزة لإسقاط اولئك الذين تبدو
وكأنها لم تضعهم داخل الهيكل إلا لتجعل منهم هدفاً لحزرها . وتجدر الاشارة هنا الى ان
هذا السلوك لم يكن قط وفقاً على المدن الديموقراطية حينذاك . فقد سلكته المدن الاوليغارشية
ايضاً حيث تسمي الطبقات الحاكمة الظن في من يسعى وراء الظهور من اعضائها . لقد قيل
الكثير عن الحسد الديموقراطي او بغضاء الجماهير الطبيعية لكل من يلتفت الانظار بسوءه عن
المستوى السام . ولكن الجدير بنا ، اذا كان لهذا الحسد من اثر ، ان نقول عنه انه يوناني
المشأ وانه جزء لا يتجزأ من سيكولوجية «البولس» . ويجب في الحقيقة ان نبحت عن اصله
في اختبار عهود الاستبداد السابق ، الذي يكفي للوقوف موقفاً حاداً من الشيميات الكاسحة
التي يستطع من يتمتع بها ان يفرض سلطته الشخصية ويستبدل التواميس بإرادته . فقد قدرت
سبارطة حق قدره الضزر الذي أنزله بها كبرياء الوصي بوزاناس الذي انتصر في بلاتيا ، كما
ان أثينا لا تزال تخشى قيام بيسستراتوس جديد .

ان عودة السلطة الملكية ، ودخولها مرة ثانية في صميم الحضارة اليونانية سيتفق حدوثها
مع نهاية الحضارة الكلاسيكية . كما ان في هذه العودة وهذا الدخول أوضاع مصداق لهبوط
الحضارة الكلاسيكية وزوالها .

ان هذه المبادئ العامة التي اتفقت الاوليغارشيات والديموقراطيات على الأخذ بها
الجمعية
قد أفضت بالضرورة الى تشابه في تنظيم السلطات العامة . فليس ، على الخصوص ،
من مدينة حقيقية بدون ثلاثة أجهزة سياسية : الجمعية والمجلس والقضاة المدنيون . وقد تتفاوت
الأهمية العملية النسبية لهذه الأجهزة لا من حيث توزيع الكفاءات المختلفة فحسب ، بل ، بنوع
خاص ، من حيث الذهنية والعمادات التي تسيطر نشاطها . ولكنها موجودة في كل مكان .
ويؤيد شمولها سابق راسخة في القدم . ففي الدولة الهوميروسية نفسها لا يقدم الملك عادة
(وهو يوازي القضاة المدنيين بمفرده) على اتخاذ أي قرار قبل الاستئناس بأراء مستشاريه ، وفي

الظروف الهامة يدعو الجمعية للالتزام . وقد جعل التطور اللاحق هذه الاجهزة اكثر متانة ،
إذ ان افضل وسيلة للحد من تجاوزات السلطة هي في وضع السلطة تحت رقابة وسيطرة اجهزة
جماعية . لذلك فان الشروط العامة لملائقتها المتبادلة قد فرضت نفسها في كل مكان .

تقوم في الاساس جمعية المواطنين ذات السيادة من الوجهة النظرية . وستلقت انظار الرومان
الذين يخضعون لعادات اخرى ملاحظة تأقمة لها مغزاها ، وهي ان اعضاء الجمعية اليونانية
يشتركون في اعمالها جالسين على مقاعد خشبية ، أو درجات معدة في الارض المنحدرة .
فتثبتت الجمعية بذلك رمزياً ، أمام المكتب الذي يرأسها ، سلطتها الاولى النافذة ، كما سيخال
لشيشرون . ولا يمكننا ان نتصور في غير سبارطة الحق القانوني الممنوح للمجلس والملوك في رفع
جلسة الجمعية اذا ما اتخذت « قراراً موعجاً » . ولكن لم يعمل قط بهذا الحق حينذاك . فقد
آخر الحكام في سبارطة والمدن الاوليغارشية تجنب الصعوبة على مجابتهها . فالجمعية ، وفاقاً
للانظمة ، قد تتسع لكثير أو قليل من الاعضاء ، وقد تتعدد اجتماعاتها أو تقل ، وقد تفعل فيها
أو لا تفعل تأثيرات تجعل من سيادتها النظرية سيادة واقعية متفاوتة المدى . ولكن المبدأ سليم
ولا اعتراض عليه إلا في سبارطة بفعل تسريعها القديم .

اما الخلافات البيئية فتدور حول دخول الجمعية الذي وضعت له في المدن الاوليغارشية
شروط مقيدة ، متفاوتة جداً على كل حال . يطيب لهذه المدن مثل تأخير السن القانونية التي
يحددها غيرها حوالي العشرين ، وتوجد الفوارق بين المواطنين في ما تفرضه عليهم من رسوم
مختلفة للاشتراك في الاقتراع ، ويذهب بعضها أحياناً الى حرمان الذين يمارسون ، أو حتى الذين
مارسوا ، مهنة أو تجارة صغيرة ، من هذا الحق . فينتج من ذلك ان سيكولوجية الجمعية وسلوك
اعضائها يختلفان كثيراً باختلاف المدن . يتمتع المشتركون الحاضرون مبدئياً بحقوق متساوية
داخل الجمعية لا سياحق ابداء الرأي . ولكن مراعاة الفوارق الاجتماعية تجعل من هذا المبدأ
حرفاً ميتاً في المدن الاوليغارشية ، مما يبرر تباهي الأثريين بأن ديموقراطيتهم مبنية على
« المساواة في حق الكلام » التي هي بالفعل عندهم واقع راهن .

على الرغم من هذه الفوارق ، ليس شمول وجود الجمعية مجرد تشابه سطحي فحسب . فانما
هو يعني ان حق الاشتراك في حياة المدينة السياسية حق شخصي لا يفرض به احد : فاليونان
الكلاسيكية تجهل النظام التمثيلي ولا تدرك معنى لغير ممارسة السيادة المباشرة . وليست هذه
الطريقة بالطريقة السهلة ، على الرغم من انكباثن رقمة المدينة العادية . وقد تفضي أحياناً الى
مجرد نظرية ، كما حصل للمواطنين الذين اسكنتهم أثينا في خلقيدونيا أو في الهلليسيونت
(الدرديل) ، محتظة لهم بمفهوم النظري في الاشتراك في اعمال الجمعية . قبل مرد هذا الى قوة
الاستمرار ؟ ربما كان ذلك ، ولكن يجب ان نضيف الى هذه القوة سبباً آخر هو في الاساس
من نفوذها ، أعني به الحثوف من ان يقوم ، بين المواطن والدولة ، وسيط لا لزوم له لكن لا

يرعبه الحضور شخصياً ، او وسيط يهدد بالخطر استقلال المواطن وسيادته .

لا ريب في ان اليونان الكلاسيكية تتشابه في ذلك بكثير من المجتمعات القديمة ، ولا سيما روما ، حيث يؤدي فقدان النظام التمثيلي الى نتائج أشد مفاقمة وتناقضاً . ولكن طريقة التصويت ، على تنوعها في المدن المختلفة ، وفي المدينة الواحدة احياناً ، تكشف عن ميزة خاصة بالأغريق دون غيرهم . فالجمعيات الرومانية تصوت بفئاتها التي تتمتع كل واحدة منها بصوت ، دونما نظر الى عدد الاعضاء الحاضرين ؛ ولذلك فالساواة المعترف بها قائمة بين الفئات كقائمات ، لا بين المواطنين كأفراد . اما في الجمعيات اليونانية فالتصويت ابدأ فردي فقط ، على ان ينصهر كل عضو ، عند جمع الآراء النهائي ، في مجموع واحد . واننا لنلس هنا ايضاً ذاك الحرص نفسه على المساواة بين المواطنين المنعزلين وذاك التصمم نفسه على حماية الاستقلال الفردي وتلك الحشية نفسها من ان يقوم بين المواطنين والدولة جهاز يستطيع الحد من التماسك المباشر المتبادل بينها .

المجلس قد يبرز المجلس ، وهو الجهاز السيامي الثاني المشترك بين كافة المدن اليونانية ، أكثر اهمية ايضاً من الجمعية . فليست هذه الاخيرة ، في بعض الاوليفارشيات المتطرفة ، سوى جهاز شكلي فحسب . اما المجلس فيعقد اجتماعات متكررة في كل المدن ويلعب دوراً هاماً في المدن الديموقراطية ودوراً رئيسياً في المدن الاوليفارشية من الناحيتين النظرية والعملية .

انه في كل مكان يراقب نشاط القضاة المدنيين ، ويؤمن الاعمال الادارية الجارية وتنفذ مقررات الجمعية ، ويعد هذه المقررات ويوجه بالتالي سياسة المدينة . ولكن الانظمة الاوليفارشية توليه ، بالاضافة الى ذلك ، صلاحيات قضائية واسعة في الحقلين المدني والجناي ، ومهمة العناية بالمحافظة على العامة والخاصة ، وهي مهمة يزيد في اتساعها غموض الكلام الذي يحددها . وبما يجعله ذا حظوة لدى هذه الانظمة ويحدو بها لتوسيع صلاحيته او بالاحرى للامتناع عن تخفيضها ، كونه هيئة استشارية محدودة العدد ، لانه بذلك اقل تعرضاً للانجرافات الطائشة ، ولان تشكيله ، بنوع خاص ، يمكن ان يمحصر في حدود آمنة . وقد يعين اعضاؤه احياناً مدى الحياة ، ولكن يجب ان تتوفر فيهم لذلك بعض الشروط ، لا من حيث السن والثروة فحسب ، بل من حيث النسب احياناً ايضاً . وهكذا يتاح للتأثيرات الاجتماعية ولقوة التقاليد ان تلعب دورها فيه بيزيد من السهولة .

بيدان الديموقراطيات ، اذا هي خففت هذه الحواجز وحاولت بشتى الوسائل تشكيل مجلس يكون صورة مصغرة عن مجموع المواطنين ، تشعر بحاجة لان تتحاشى ، بوجود هذه الهيئة المحدودة وصلاحياتها ، الاخطار الرئيسية العملية لسيادة « ديموس » (شعب) بعين عن آرائه في جمعية مرجحة وسريعة الزوال . فالمجلس الذي يمارس صلاحياته سنة كاملة يؤمن حداً ادنى من الاستمرار ويدرس مسبقاً في الوقت نفسه القضايا المعروضة للمناقشة او تلك التي يجب البت بها .

وهكذا فإن الواقع يفرض على المنطق المجرّد تسليّات وتنازلات لا مناص منها .

القضاة المدنيون لكل مدينة يونانية ، أخيراً ، قضاتها المدنيون الذين يختلف اسمهم وعددهم وطريقة وشروط تعيينهم وتوزيع الصلاحيات فيما بينهم . ولكن بعض الخطوط مشتركة بينهم في كل مكان ، ويستخلص منها - وليس هذا الاستخلاص بالانطباع الفرار - ان القضاء موضع شبهات مركزة وان ما من احتياطات الا ويتخذ حياله .

يعين القضاء لسنة واحدة فقط ، وبإستثناء الرؤساء العسكريين - وقد تأكد هذا الإستثناء في اثينا - لا يعاد انتخابهم أو لا يعاد فوراً على الأقل . وهم كثيرو العدد في كل مكان حتى في الوظيفة الواحدة ويخضعون لنظام جماعي يوزع السلطة بين عدّة قضاة اصليين . وقد تمتثت روما ايضاً على هذه المبادئ الحكيمه . ولكن الاغريق قد ذهبوا في حذرهم الى ابعد من ذلك . فلا يستطيع القضاء في اي مكان ان يتخذوا ، مبادمة ، قراراً هاماً . وليس سوى الضرورات العسكرية ما يوجب ، حين يقودون الجيش ، اعطاهم المزيد من المندوحة . ولكن دورهم العملي في الحقل الدبلوماسي والشؤون الداخلية ، يقتصر في كل مكان على التنفيذ فقط . يخضعون في كل مكان لمراقبة المجلس ولرقابة الجمعية أحياناً . وهم في كل مكان مسؤولون عن اعمالهم ، حتى اثناء ولايتهم في اغلب الاحيان ، ولكن دائماً بعد نهايتها . وليست الامثلة ما يعوزنا ، حتى في المدن الاوليفارشيّة ، عن الاحكام القاسية الصادرة ضدهم .

ان في هذا الاكثر من فوارق عارضة بين اجهزة مختلفة . ان فيه لعمري دلائل على مفهوم منطقي خاص بالمدن اليونانية . فالمفهوم الاكمل للقاضي ، الذي يستلح سلطة مستقلة ملازمة ، روماني لا يوناني . وما كانت المدن ، ككل جماعة بشرية مصممة على العمل ، لتستغني عن « طليعة » . ولكنها لم ترض قط ان تكون هذه « الطليعة » أو ان تصبح سيّدة . ولذلك فقد سعت دائماً الى تجنب هذا الخطر الممكن .

الاوليفارشيات والديموقراطيات :
المواطنون الايمابيون
والمواطنون السيبويون

اذا ما اقتصرنا على الخطوط الكبرى ، اتضح لنا ان اوجه التشابه بين الاوليفارشيات والديموقراطيات لا تتعدى ما ذكرنا . ومرد اكثرها ، كما سبق ورأينا في سياق هذا البحث ، مثل اعلى مشترك للاستقلال والحرية هو ، كما يبدو لنا ، هدف الاغريق

الرئيسي في العهد الكلاسيكي . وهذا يعني استقلال وحرية المدينة والمواطن على السواء . وفي سبيل توفير هاتين النعمتين الكبيرتين للمدينة والمواطن يتوجب على المجموع والفرد التضامن والتعاوض المتبادل ، فصولنا للاستقلال ، تحتاج المدينة الى تقاني مواطنيها الفعّال الحر . وهي مقابل ذلك تسعى بشتى الطرق وراء توفير استقلالهم الفردي والمحافظة عليه .

يحل التناقض محل التشابه وتوسع الحفرة بين الاوليفارشيات والديموقراطيات حين يتوجب تحديد المواطن الحقيقي ، اي ذاك الذي له من الحكمة والخبرة والمصالح ما يكفي لمنحه حقوقه السياسية بكاملها . هنا لعمري يمر الخط الفاصل بين النظامين .

رفض الديمقراطية التفرقة بين مواطنين إيجابيين ومواطنين سلبيين ، فالقاعدة فيها هي « الايزونوميا » أي المساواة أمام « الناموس » . ومن الطبيعي ان تقدم أننا المثل للهوة منطقي لا يتناقض مع حدّ ابدئي من التسليم للصرورات العملية بنوع خاص . فيكفي ان يكون الإنسان مواطناً حتى يتاح له دخول الجمعية وحق ابداء الرأي فيها والفوز بعضوية المجلس وممارسة اكثرية مهام القضاة . ولا ريب من حيث المبدأ ان هنالك بعض الشروط المالية لوظائف القضاة او لأهمها على الأقل . ولكن هذه الشروط يدركها العفاء ، فبإخص الأراكنة ، منذ منتصف القرن الخامس . وليس سوى أمناء الخزينة من يجب ان ينتسبوا الى الطبقات الثرية حتى يتمكنوا من تقديم الضمانات اذا اساؤوا التصرف . اما قواد الجيش والاسطول الذين يتصرفون بالاعتبارات العسكرية والدبلوماسية فيكفي ان يملكوا عقارات في الاثنيك وانت يكون لهم في الوقت نفسه ولد شرعي . ويستدل من هذا الشرط الاخير ان الغاية المتوخاة ليست تأمين رهن احتياطياً لدعوى ممكنة ، بل ضمان مرشحين يهتمون لأمر المحافظة على ارض الوطن بحافز غيرتهم على عائلة واملاك غير منقولة ، وكلاهما معرض جداً للخطر في ظروف الكوارث العسكرية: فالهدف اذن توفير الرؤساء المستعدين لكل تضحية ، تهرباً من اولئك الذين لا تشدهم الى الوطن صلة العائلة والبيت . تلك هي اهم الفوارق في المساواة النظرية بين كافة المواطنين . ويجب ان نضيف الى ذلك ان القرعة قد اعتمدت قاعدة في تعيين المشائرين والقضاة باستثناء اولئك الذين تستازم مهمتهم معارف فنية ، كالرؤساء العسكريين مثلاً . ولادراك ظهور هذه الطريقة ، يجب ان نعود بالذاكرة الى مبررها الديني ، كما يجب ، لادراك شمولها ، ان نفسح مكاناً خاصاً لكأبوس التأثيرات المالية والتسسية والدساسة العادية والمخاللة نفسها ، وكان من شأنها كلها ان تقضي على المساواة التي هي محك الديمقراطية وإثمن فتح حقيقة « الديوس » .

على تقييد ذلك ، تفرق الاوليفارشيات بين المواطنين ، آخذة ، بأعتبرات السن والملكية العقارية ومجموع الثروة والنسب ، وفاقاً لطرائق متنوعة جداً ، متأثرة بهذا او ذاك من العوامل على حدة او بعدة عوامل في آن واحد . وليس هنالك نموذج للأوليفارشية ، بل اوليفارشيات قد يتفاوت عدد حكامها ، حتى ان بعضها قد اعتيز ، في نظر المصنفين الاقدمين ولا سيما ارسطو ، كديموقراطيات معتدلة . ولكنها انتهت كلها الى تخفيض عدد المواطنين الذين يحق لهم الاشتراك في الحكم بالنسبة الى عدد المواطنين العام . وتشعر كلها ، في اعماقها ، بمجئ دائم الى الانظمة القديمة ، اذ كان الاشراف ، بفضل تفوقهم ثروة و « صلاحاً » ، يسيطون حولهم ، بقوة التقاليد والاعراف ، نفوذاً مسيطراً . وهي لا تسلّم إلا بما هو ضروري للتطور العام . فحينئذ تبدلت الحياة الاقتصادية بعض التبدل وتوسعت بعض التوسع ، اضطرت هي للاعتراف ببعض الحقوق للثروة حتى المنقولة منها . غير ان الفقر ، وهو عيب لا دواء له ، لا يحرم من الوظائف العامة فحسب ، بل غالباً ما يحول دون دخول الجمالية التي لا دور نافذ لها على كل حال . وهكذا

تكوّنت المعادلة العملية « اوليفارشون -- اغنياء » التي تحوّل النزاعات السياسية الى منافسات اجتماعية ، منذ نهاية القرن الخامس بنوع خاص .

٣ - الديموقراطية اليونانية

تقدم الديموقراطية من الخطأ الفادح ان تصور ، انطلاقاً من اولوية أئينا الفكرية والفنية في عهد بريكليس ، ان الديموقراطية سادت العالم اليوناني منذ القرن الخامس . فما زالت الانظمة الاوليغارشية ، حتى في ذلك العهد ، كثيرة وقوية ، لا بل انها تسيطر سيطرة تامة في اليونان البرية على الاقل . بيد ان النصر الشامل الذي عرفته ، لسنوات معدودة ، بفضل هزيمة ائينا في حرب البلوپونيز وبفضل نشاط سبارطة العطوف بعد انتصارها ، لم يدم سوى فترة قصيرة الأمد جداً . فلم تلبث الديموقراطية ان استقرت في ائينا ، وكانت المصاعب الاولى في سبارطة التي اصطلمت بتصميم الحكومات ، حتى الاوليغارشية ، على الاستقلال ، كافية لأن تتنفس الديموقراطيات الصعداء في كل مكان .

استمر تقدم الديموقراطيات طيلة القرن الرابع الذي هو قرن انهيار سبارطة بعد انكسارها في لوكرا في السنة ٣٧١ ، وفي الوقت نفسه قرن تسرب الديموقراطية الى اليونان البرية حيث تتوسع لتوسّع بقعة الزيت . ويعود الفضل في وثبة الديموقراطية هذه ، قبل ائينا ، الى طيبة التي تتبنى الانظمة الديموقراطية وتعممها في كافة أنحاء بيوسيا ، بعد تحريرها من الاحتلال اللاكيدوني في السنة ٣٧٨ . وبعد معركة لوكرا ادخلت جيوش طيبة هذه الانظمة الى قلب البلوپونيز ، في اقل المقاطعات أجنبية تطوراً حتى ذلك العهد .

بيد ان التدخل المقدوني ، الذي يخطيء من يعتبره خدمة جلّسى للاوليغارشين ، قد اخر هذا التطور تأخيراً امراء فيه . فمن المحتوم على فيلبوس ، في صراعه ضدّ المدن اليونانية التي يحكمها الديموقراطيون اجمالاً ، ان يستميل عطف خصومهم ؛ ومن المحتوم ايضاً على هؤلاء ، شأن كثير من الاغريق الذين يؤثرون الحزبية على الوطنية ، ان يستجيبوا بصورة عامة لدعوته ، بحيث ان انتصاره هنا او هناك يغدو بالتالي انتصاراً لهم . ولكن بالرغم من هذا الحادث العارض الذي افتملته انتهازية دبلوماسي وقائد واقعي الى اقصى حدود الواقعة ، فان مصير الصراع الذي قام ، منذ قرون ، بين هاتين المثلتين لا يدع مجالاً للشك عند نهاية العهد الكلاسيكي . فالاسكندر يقيم انظمة ديموقراطية في المدن اليونانية التي حررها في آسيا من السيطرة الفارسية . ويستأقب بعض المتنافسين ، ممن سيتنازعون ايرته ، في المبادرة الى مجاملة الديموقراطيين في اليونان نفسها . ولن يبقى للاوليغارشين حينذاك الا ان يتدبروا امرهم المفعول بايجاد انظمة مبتكرة كي يخفوا ، وراء ستار ديموقراطي ، واقعاً آخر غير ديموقراطي .

فما هو لتعليل اندفاع الديموقراطية هذا ؟ لقد لعبت الظروف الواقعة دورها ، واهما هبوط سبارطة . ولكن نظرة واحدة الى التطور الذي رسمنا خطوطه الكبرى تكشف لنا عن اهمية حرب البلوپونيز . فإن هذه الحرب ، بمجد ذاتها ، تفرض نفسها على التاريخ بتوسعها وطول امدها .

ثم انها ، بنوع خاص ، كانت منطلقاً لسلسلة حروب القرن الرابع التي عقبتها وأثرت على ما سلم من التدمير في كافة مناطق العالم اليوناني دون استثناء . وقد ضعفت هذه الحروب ، في كل مكان ، التوازن السابق ، وحررت قوى مستقرة ، جهلت نفسها فيما مضى وقدّرت ، منذ ذاك الحين ، الخدمات التي قدمتها للمدينة . وأفقرت الطبقة الريفية المتوسطة التي كانت تدعم ، بعدد افرادها وثباتها ، التقاليد القديمة . وأبرزت أو زادت الخصومة بين الأغنياء والفقراء التي لم تكن من قبل سوى مظهر من مظاهر الخصومة بين النظامين المتقابلين ، والتي غدت اليوم مظهرها الرئيسي . فإذا ما عرضت المشكلة على هذا الشكل بحدتها ، موجزة وعميقة من عناصرها المعنوية التقليدية ، يتحتم والحالة هذه ، تغلب الديمقراطية لأنها تتفق ، أكثر من منافستها ، مع بعض النزعات العميقة الجذور ، على الأقل في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فالحرية وفتح الشخصية الانسانية يستجمعان بالضرورة فكرة المساواة ، كما ان المفهوم المتبع للمدينة والمواطن يوصي منطقياً بأنظمة سياسية تمنح الحقوق نفسها لجميع اعضاء الهيئة المدنية . وكان من الواجب ، لإيقاف الدفعة الديمقراطية ، تبديل مثل « البولس » الأعلى بالذات ، وهذا ما لا يتوقف إليه ، على الرغم من حداثة هجماتهم ، فلاسفة القرن الرابع المشهورون اجمالاً برغبتهم عن الديمقراطية . فكانت دعاوتهم ، عند سواد معاصريهم ، صرخة في واد ..

بيد ان الديمقراطية اليونانية لم تسر في المنطق الى ابعاد من هذا الحد . وقد يستويونا ان نصعبا بالتناقض لانها حصرت في مواطنها دون غيرهم ، حقوقاً كان من المتوقع ان تمنحها لغيرهم بزيادة من السخاء . أجل يبدو في تعاليمها بعض دلائل الشمول . ولكن هذه التعاليم لم يتسع نطاقها ، لا بل انها لم تشمل أناساً يقيمون في اراضيها ، منذ اجيال أحياناً ، ويمارسون عملياً حياة المواطنين اليومية . ان هذه الثغرة ، في الناحية الانسانية من الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي تشدنا إليها ألف صلة وصلة ، من الخطورة بحيث لا يجوز ان نشير الى وجودها مجرد اشارة فقط .

صحيح ان أثينا ، مثال الديمقراطيات اليونانية ، لم تفكر هنية واحدة بغلاء الرق . واكتفت من هذا الأمر ببعض المستحبات الشرعية التي رافقت بعض ما طرأ على الأخلاق من رفق وخففت بعض الشيء من مصير الأرقاء فيها بالمقارنة الى المدن الأخرى .

صحيح أيضاً ان أثينا قد اعتمدت ، حيال الأجانب ، حرماناً شرعياً رافق تقدمه تقدم الديمقراطية . ففي اوائل القرن الرابع ، فكر صولون باعطاء صفة المواطن لمبعدي المدن الأخرى وللأجانب الذين يأتون مع عيالهم للعيش والعمل في « الأتيك » . وحين قام كليستين ، بعد ذلك ، بإعادة توزيع المواطنين الطبقي ، استفاد من الظرف لتسجيل مقيمين أجانب عديدين كمواطنين . ولكن هذه المعاملة الكريمة زالت خلال القرن الخامس ، ومع ذلك فقد بقيت أثينا مضيافة . وعاش هؤلاء المقيمون على اراضيها بأعداد كبيرة وكالوا بنشاطهم عنصراً

ضرورياً لازدهارها الاقتصادي . فاختلفوا بالمواطنين وعاشوا مثلهم على مساواة في المهنة والثروة ، أقلت في المدينة ، إذ ان الريف لا يستهويهم بسبب حرمانهم من حق التملك . وتلقى اولادهم تربية اولاد المواطنين نفسها ، وفي المدارس نفسها . واخضعوا للواجبات العسكرية والمالية نفسها التي أخضع لها المواطنون ولم يميز عنهم ، على هذا الصعد ، سوى رسم سنوي طفيف فرض عليهم . وحوكموا أمام المحاكم نفسها ، ووفقاً للقانون نفسه . واشتركوا أخيراً اشتراكاً وثيقاً بحياة المدينة الدينية والأدبية . ولكن لا مكان لهم في حياة المدينة السياسية . فلا يسمهم الاشتراك فيها إلا بمصولهم على صفة المواطن ، وقد تجلت أئنيها بهذه الأعطية . وفي الظروف العادية لا تمنحها ائنيها إلا لبعض الأفراد مكافأة لهم على بعض الخدمات الجلّسى في مختلف الحقول . ومن النادر جداً ان يكون المنح جماعياً .

من أوجه التناقض ايضاً ، أن تتسنى أئنيها ، في عهد متأخر ، بناء على اقتراح اوسع رجال الدولة الديموقراطيين نفوذاً وأشهرهم ذكاه ، تشريعاً يتصف بنزعة العنصرية الظاهرة . فخلال وقت طويل - وفي غير أئنيها ايضاً - حق لمن كان ابوه مواطناً وأمه أجنبية ان يكون مواطناً : وهذه كانت حال كليستين وحال كيمون بن ميلتيادس مثلاً . ولكن القانون الصادر في السنة ٤٥١ - ٤٥٠ والذي اقترحه بريكليس نفسه يقصر المواطنة على الاولاد الشرعيين على ارت يكون كلا الوالدين أئنيين . اما الاولاد الآخرون فلا يستطيعون الحصول عليها إلا بقرار فردي لأن القانون يجعل منهم أنغلاً أو اجانب . وليس استصدار هذا القرار بالأمر السهل : فقد وجب ، بصورة خاصة ، ان يفقد بريكليس اولاده الذين أنجبته لهم أهم الأئنية حتى يصدر مرسوم يمنح صفة المواطن للولد الذي أنجبته له أسبانيا الملية .

كان بريكليس هذا نفسه منشىء الامبراطورية الأئنية الرئيسي في الديموقراطية والاستعمار
القرن الخامس التي قضت عليها حرب البابونيز والتي أراد أئنيته
القرن الرابع ، الذين ما فتئوا يحنون اليها ، إعادة انشائها . ومن النافل هنا ، ان نسهب في محاولة رسم صورة للاستعمار الأئني . فإن قسوته التي لا تعرف الشفقة ، وتتصف بالمكر في القرن الرابع ، وتجاوزاته المستمرة على حريات اولئك الذين تعاملهم أبداً معاملة « الرعايا » على الرغم من انهم يحملون اسم « الحلفاء » ، وعبء متطلباته الثقيل في شتى الحقول ، خطوط لا يستطيع احد ان ينكرها ، ولا ينكرها احد بالفعل . يحاول البعض العثور على خشبة الخلاص في ديوسستينس الذي توقع فعلاً ، في بعض نقحات خطبه الرائعة ، الى وضع برنامج اتحاد حر تدخله الدول اليونانية للدفاع المشترك عن استقلالها . ولكن خطباً اخرى للخطيب نفسه تعبر عن التأسف على سيطرة سالفة ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن المشاريع في سبيل تأمين المساواة بين المشتركين في الجهود العام لم تكن سوى مجرد حيل اخيرة فرضها تهديد فيلبوس المتفام . واكثر عدداً هم المؤرخون الذين يجارلون ، دفاعاً عن أئنيها ، الاستشهاد بالأمثلة الرائعة ، من فكرية

وفنية ، التي وقّرتها الحضارة اليونانية : فقد سبق لـ « ليزيكليس » ، إذا صدقت رواية « نوسيديد » ، ان قال : « أثينا مدرسة اليونان » . أجل ، ولكن المعلم قد قفاض بشئ الوسائل من تلامذته رسوماً مرتفعة . فليس بعد الميان بيان : اذا كانت هنالك مدينة يونانية توفرت لها الامكانيات ، بفعل قوتها ونفوذها والمبادئ ، نفسها التي اعتمدها في تنظيمها الداخلي ، لتعظيم الحواجز التي قسّمت العالم اليوناني مدناً متعدّدة والسومّ بهذا العالم الى وحدة سياسية عليا ، فان هذه المدينة دون ريب هي أثينا . وقد يستهوي انسان اليوم ميل دائم الى الاعتقاد بأن الواجب كان يفرض على أثينا القيام بذلك ، بمجرد تمكّنها من محاولة القيام به . ولكنه مضطر للاعتراف بأنها تهربت من هذا الواجب . فكما كنا نتمنى التوفيق الى بادرة او بداية ، ولو وضيمّة ، تم عن توسع المدينة الأثينية وافتتاحها ، ولكننا لا نرى ولا نلص شيئاً يذكر يوازن ابقاء المقيمين الاجانب في ظل نظامهم المتأخر أو قانون السنة ٤٥١ - ٤٥٠ .

تبرز الديمقراطية الأثينية ، والحالة هذه ، اذا ما نظرنا إليها بمفاهيمنا الديمقراطية اليونانية المصرية ، وكأنها أوليغارشية فعلية لا يميزها عن الأوليغارشيات الحقيقية سوى انها اوسع عدداً . ولكن المفاهيم المصرية لا تكون قياساً كاملاً . والدليل على عدم كمالها يتضح بتسلم كافة المجتمعات القديمة بالرق كضرورة طبيعية او كواقع أساسي . فمن حيث التحديد ، يجب ان يتمتع المواطن بحريته الشخصية . فكيف يمكن ان يصبح العبد مساوياً من الناحية السياسية بمن يبقى سيده ، وكيف يمكن تجنب هذه الفظاعة دون قلب التنظيم الاجتماعي رأساً على عقب .

اما من حيث موقفها من الاجانب ، فيجب النظر الى الديمقراطية اليونانية كما هي ، مع ما تستلزمه من ضيق أفق وأنانية ، ولا غرابة بالتالي في ان تكون احدى الأوليغارشيات اكثر ترحيباً بهم ، اذ ان المواطنة السلبية ، لم تحظ بأية مكانة في نظرها . ثم ان عطاء الامتياز من جهة ثانية ، كانوا ابعد من ان يرضوا بمحصر تعطشهم للنشاط والمجد ومطامحهم الزوجية ووشائج قربانهم في حدود « البولس » والضيق . وقد استهدف صولون ، من استمالة الاجانب ، انهاء النشاط الاقتصادي ، كما استهدف كليستين ان يصهر ، في الهيئة المدنية التي فرض عليها نظاماً جديداً ، عناصر معادية للنظام القديم . فحين تحررت الديمقراطية المنتصرة من نفوذ العائلات الأرستوقراطية الكبرى ، وحين أفضى الازدهار الاقتصادي الثابت الاقدام الى تكاثر المقيمين الاجانب ، كان من الطبيعي ان يتبدل سلوك الاثينيين .

بالاضافة الى ذلك ، وفوق الاعتبارات الانتهازية ، يجب ان ننصح مجالاً للمثل المدينة الاعلى بالذات . فيجب ألا يغرب عن بالنا ان المدينة اليونانية ليست اقلم المواطنين بل مجموعهم . لذلك فسلامة حدودها البشرية اهم من سلامة حدودها الإقليمية . ثم ان المدينة اليونانية لا تعتبر استقلالها سليماً ومؤمناً إلا اذا اعدته على سيادتها . فإنما هي انانية المدينة الطبيعية على

الصعيد الدولي التي تزدي ، بانتقالها الى الصعيد القومي ، شكل انانية المواطنين. وبمقدار ارتفاع قيمة حسنات المواطنة المادية والمعنوية ، يتوجب التمسك الحريص بحق الانتفاع بها . وبمقدار اقبال الاجانب على عاصمة الامبراطورية وعلى وسط ايمه التجاري وعلى مركز اشعاع الحياة الفكرية والفنية ، يزداد خطر ادخالهم في نظام المواطنة ، لأن من شأن هذا الادخال ان يعتمد المدينة ويقضي على صفاتها المميزة التي تجعلها هي بالذات لا غيرها . فماذا نقول اذن عن صهرها في دولة أرحب اتساعاً يصبح فيها جميع الاغريق مواطنين والمدن ذات السيادة مجرد قرى ؟ لو ان هذا الحلم ، الذي زاه اليوم طبيعياً في خضم الوحدات القومية ، راود ففكر اغريقي في ذاك العهد ، لرأى فيها فظاعة ما بعدها فظاعة ، لأن البولس كانت في نظره المعطية الاساسية والاطار الطبيعي لكل حياة متحضرة .

فلا تناقض اذن في الديموقراطية اليونانية التي حققت المثل الاعلى الكلاسيكي باقامة المساواة بين جميع المواطنين وانقادت له ايضاً باقصار هذه المساواة عليهم وبشؤونها في وجه تسلسل الاجانب ؟ كما ان بريكليس ، بقانون السنة ٤٥١ - ٤٥٠ وبسياسته الاستعمارية ايضاً ، لم يناقض عمله الداخلي ، بل اكمله على فناعة منه انه إنما يعمل على توطينه .

التوصل للشاهد

الحياة المادية والاجتماعية

١ - المجتمعات الريفية

من حيث ان اليونان تجزأت سياسياً الى مدن عديدة ، ظهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها بمظاهر متنوعة جداً . فالأشجار بحرية على العموم بسبب فقدان الطرقات . ولكن مدناً كثيرة نائية عن المرافئ، تنضل بهذه المرافئ، ومدن داخلية اخرى برأسطة مسالك سيئة فقط . لذلك ، وباستثناء بعض النقاط المحظية ، لا يمتزج الرجال والأفكار ولا 'تفاضيل المحاصيل إلا بقدر محدود جداً . فنصر الرخدة الفريد ، اذا ما اردنا ، بأي ثمن ، اكتشاف مثل هذا العنصر ، يكون والحالة هذه سيطرة الحياة الريفية في كل مكان تقريباً ، اذ ان سواد سكان اليونان يعيشون في الريف ومن الارض . اما توسع بعض المدن وتجميلها وحيوية نشاطها البحري فيجب ألا تكون عنها صورة خادعة .

ولكن هذه الحياة الريفية نفسها ، على الرغم من مماثلة ظروفها العامة تربة ومناخاً ، لا تتخذ الأشكال نفسها في كل مكان .

ان في بعض المناطق ثروات عقارية طائلة . وهذه المناطق انما هي تلك التي كبار الملاكين تتميز ارضها بالحصب اقله لزراعة الحبوب ، او تكثرت فيها المراعي التي تسمح بتربية المواشي الكبيرة لا سيما الخيل ، أي ، على العموم ، المناطق السهلية التي يجري فيها نهز دائم الهمي تقريباً . ويتمتع المحظون مالكو الارض بقدر من الثروة يتيسر لهم اجراء الاختبارات فيها واعتماد الأساليب الزراعية الجديدة . فالبيهم يعود الفضل في انتشار اشغال الاسمدة والمروج الصنعية في القرن الرابع ، فأفضى ذلك الى تخفيض مساحات الارض البور والانتشار تربية المواشي . ويرسم كسينوفون في كتاب ' الاقتصاد ' صورة مثالية للسيد النابيه

الذي يتلطف ذهنه كل جديد ويهتم بفهم لمصالحه ويدير بحزم شؤون بيته بواسطة زوجته التي يغدق عليها النصائح الحيرة وشؤون اراضيه التي يرافق استثمارها عن كتب .

ان كبار الملاكين هؤلاء لا يعملون بأيديهم . فهم النخبة الاجتماعية في الارياف وحتى في المدن ، لانهم ، بفعل نبلهم ، مدينون بأملآكلهم لجدودهم . يقضون اطيب ايامهم ، بعد الاستسلام لأهواء شبابهم في المدينة ، في بيئتهم العائلي القديم المتوسط عقاراتهم . وما مثل الارستوقراطية القديمة الاعلى في الحقيقة سوى مثلهم بالذات : فلا تمنعم هوية التارين الطبيعية والصيد والفروسية والاطعمة الفاخرة من تقدير قصائد بنذاروس ، حتى ولا مآسي أوريبيد التمثيلية في مقدونيا الشديدة البرد . ومن حيث انهم اشراف محليون ، فانهم يهتمون بحياة القرية او المقاطعة الصغيرة اللتين تتقدم فيها عائلتهم على غيرها وللتين ينظر الجميع الى عبادتها كإرث خلفه لهم جدودهم . ويلعب اشهرهم نسباً واغنائهم ثروة واكثرهم إقداماً وذكاء دوراً هاماً في حياة المدينة نفسها . ولكن نفوذهم حاسم في دائرة اقل اتساعاً . فالعمال الزراعيون المرتبطون بهم بمثابة زبن يتفانون بالضرورة في سبلهم . ويتأثر بهم ايضاً فلاحو الجوار الاحرار حتى ولو لم تربطهم بهم اية رابطة قانونية . وقد يصح ان تتكلم ، في بعض المناطق المتخلفة كإسبانيا ومقدونيا ، عن الاسياد واصحاب الاخاذاث لان هؤلاء قد توصلوا ، عند الحاجة ، لان يجندوا الزراعين في اقطاعاتهم لاجل الحرب الخارجية او الاهلية .

وهناك اكثر من ارتباط اقتصادي أو امانة في الخدمة احياناً . فليس من مكان الفداية قط يجري فيه الاستثمار على نطاق واسع بواسطة الأرقاء الموزعين فرقاً براقبة رئيس العمال : لان هذه الطريقة لن يعتمدها احد قبل الرأسمالين الرومان . ولكن الفداية واقع رامن هنا و هناك ، وهي تعني استثمار الارض بواسطة رجال مرتبطين بها غير مسموح لهم بمغادرتها . واذا كان الفدايون ، في تساليا او كريت مثلاً ، ملك صاحب الارض ، فان اكثر الحالات غموضاً هي حالة الفدايين الرسميين في سبارطة .

للدولة وحدها حق تحرير فداييينها ، وهي التي وضعت نظامهم وألحقتهم باقطاعات لم تنسح مواطنيها مبدئياً سوى حتى الانتفاع بها . ينشئ الفدايون عائلاتهم بحرية ويزرعون على هوامم قطعة الارض التي أقاموا فيها . ولا يتوجب عليهم ، للمواطن الذي نُصِّتَ به هذه الارض ، سوى فريضة عينية سنوية تحدد مرة واحدة ، ويحتفظون بحق التصرف تصرفاً كاملاً بالفائض من المحاصيل .

يبدو مصيرهم ، من الناحية الاقتصادية ، محتملاً على الأقل . والدليل على ذلك ان ستة آلاف فداي ، في اواخر القرن الثالث ، يمتلكون المال الكافي لشراء حريتهم من الدولة بدفع مبلغ يوازي ، في ذلك العهد ، السعر الوسطي لعبد جيد . اجل هنالك واجبات اخرى تنوء عليهم بتقلها : الخدمات المنزلية التي تجهل نوعيتها ، وتقديم الخدام للمساعدة على حمل العدة وحتى

تقديم المشاة الخفيفي التسليح الذين يرافقون المواطن في الحملات العسكرية . ولكن ما يصعب حالتهم ، على ما يبدو ، هو التدابير الشرطية التي تتخذها سبارطة بمقهم : كاطلاق الحرية للفتيان السبارطيين ، خلال خدمتهم العسكرية ، يقتل كل فدادني يتجول ليلاً ، وكتحطير حمل الاسلحة عليهم . ولعل المسؤولين في سبارطة كانوا يشتهبون خاصة بالمسيئين الذين استعبدوا منذ القرن الثامن واثاروا بعد ذلك اكثر من مرة . ولكن اضطراب جبل الامن قد استمر حتى بعد استعادة مسينا استقلالها على يد ايبامينونداس في السنة ٣٧٠ ؛ كما ان الملوك الثوريين ، كليومينوس الثالث ونابيس ، في سبارطة الهلينية ، قد لاقوا عضداً لدى الفداديين . فليس الفدادني ، كزارع مضطر لدفع فريضة غير مرهقة ، من تألم بنوع خاص من هذا الوضع وهذه القسمة ، بل الفدادني كإنسان يتزايد إحساسه بكرامته في عالم تسير فيه الفردية بخطوات حثيثة .

غير ان مناطق الثروات العقارية الطائلة ، حيث تزرع الارض بواسطة عمال صغار الملاكين زراعيين او فداديين ، لا تغطي سوى قسم ضئيل من مساحة ارض اليونان . فهناك نظام زراعي آخر يسود البلاد بشكل ظاهر جلي ، اعني به نظام الثروة العقارية المحدودة التي يستثمرها مالكيها بالذات . نعرف هذا النظام معرفة تامة في افريقيا ولكننا نعرف انه يسود في غير مكان ايضاً ويكون بلا مرأه المثل الاعلى لسواد الاغريق الاعظم . وهو نفسه تلك الحياة التي سمى وراها في القرنين الثامن والسابع من هاجر منهم الى المستعمرات المؤسسة حول حوض البحر الابيض المتوسط . وهو نفسه الحياة عينها التي سيسعون وراها في الشرق ، متبعين خطى الاسكندر ، او ملين نداء الملوك الهلنيين .

اما في أثينا فإن اعادة نظام الاملاك الصغيرة وحمايتها فيها مآرة القرن السادس ، والقرن الخامس هو عصرها الذهبي . فلا أجنب في الارياف لأن المبدأ الرئيسي هنا ، شأنه في كل النواحي ، يقصر على المواطنين حق تملك العقارات . ثم أدى توزيع الارث بين البنين الى تجزئة الارض . ففدا اكثر من نصف المواطنين يملكون شتبا من قطع الارض النائية عن منزلهم الحقيقي . وكثيراً ما طرأت هذه التجزئة نفسها وهذا التشتت عينه على مجتمعات الدولة والجماعات والمعابد . فاستطاع الفلاح بسهولة ان يوسع ملكه الخاص باستئجاره ، عن طريق التعاقد الحر ، قطعاً قريبة منه قد تبقى باثرة لولاه .

ولكنه ، على الرغم من عمله الجاهد ، لا يحقق الثروة فيها . وفي المناطق الجبلية يعيش بالتقير حطابون وفحامون تمودوا شطف العيش او رعاة ينتقلون بقطعانهم حيث الكلاً والزرع . فالمرج الجيدة نادرة جداً . ولا تعطي الارض الزراعية نفسها سوى انتاج متدن من الحبوب بسبب جفاف ونحر الصيف الباكرين وفقدان رؤوس الاموال والنسق المطرد الواحد . وتحول الأدوات البدائية دون الفلاحة المتينة . وتفرض الحاجة الى الاسمدة ، بسبب ندرة

المواشي والتقمشة المتأخرة، ترك الأرض بوراً سنة بعد سنة وحرارة الحقول المزروعة ثلاث مرات في السنة، ربيعاً وصيفاً وخريفياً، تأميناً لاستمرار الرطوبة فيها. وليس بمكنة الفلاح عملياً ان يبيع الحبوب ولا يوفّر له فائضاً انتاجياً، وبالتالي بعض المسال، سوى الأشجار المثمرة كالتيين والكرمة والزيتون. فكان عمل جدوده وحرمانهم في هذه الحقول المشجرة، بمثابة رؤوس أموال يتنفق هو بفائدتها السنوية. ولكن المال يعوزه لتحسينها، او لتجديدها فقط، إذا ما عثت بها ايدي الغزاة. ولا مطمع عنده، من جهة ثانية، سوى تحصيل ما هو ضروري لحياته ولا يقبل بأي شكل بإهمال زراعة الحبوب. لذلك فانه يتعنى كثيراً، تعاونه عائلته التي تفرض عليه ظروف حياته بأن يقصرها على عدد محدود: بعض الاولاد وعبد او عبدان، لانه يعجز عن استخدام واعالة عدد اكبر.

ولكنه بذلك سيد نفسه، يشعر، في استقلاله، باعتزاز حلال. ويضيف النظام الديموقراطي الى هذا الاعتزاز حيوراً يولده فيه تمكنه من الاسهام في ادارة الشؤون العامة كعضو في الجمعية الشعبية ومختلف اوقاض صغير. وتقريه هذه الوظائف بنوع خاص، عملياً، حين تحول سنة دون قيامه بالأعمال الزراعية الشاقة، فلا يرى ضيراً إذ ذاك، في ان يسير قبل الفجر، يقوده احد الاولاد على ضوء فانوس خافت، في الطرقات الموحلة المؤدية الى المدينة حيث تبدأ جلسات الجمعية والمحكمة في موعد مبكّر. اما في شيخوخته فيؤثر العمل في املاكه على ضياع يومه سعياً وراء ربح بعض الدرهميات. ولكنه، حتى في الانظمة الاخرى التي تقصيه عن الحياة السياسية بسبب ضعة نسبه او هزال ثروته، او في تلك التي تخضعه عاداتها للنفوذ المطلق الذي يمنعه به اشرف وافراء الجوار، يعمل على هواه، لا يتلقى الاوامر من احد، في الأرض الموروثة عن آباءه والمعدّة لابنه. وفي زمن الحرب، يرتدي دون تلمل، في سبيل الدفاع عن ذويه وبيته واشجاره وحصانه، عدّة الهوبليت التي هي إرث والدي أيضاً. ولكنه يتوق بالسليقة الى السلم الذي يتيح له حياة تميز بالبساطة والقناعة يرضى منها بأكل شعيره المسلوق ويصل حديثه وعسل قفيرانه وتين وزيتون بستانه، مقصراً طهي الطعام على ايام الاعياد فقط التي يتناول فيها، مع بعض الاصدقاء من جيرانه، وجبة تستلزم لحم الخنزير وقارورة نبيذ من كرومه، متبادلاً معهم احاديث غالباً ما تسيطر عليها الساحة. ورغباته المتواضعة وافراحه المبتدلة وشقارته هي التي احاطها أرسطوفانوس بشعره فيه نضارة ندى الصباح وحسيس خفقان أجنحة النحل الطائر.

٢ - المقايضات

لم توفر هذه الحياة الريفية للاقتصاد اليوناني سوى قاعدة ضيقة جداً، للاقتصاد المركب: شراء وبيع
حتى عندما امنت شرّ ويلات الحروب والاضطرابات الاهلية، في اثناء ايام العهد الكلاسيكي. وعلى الرغم من قناعة السكان لم تستطع اليونان تأمين غذائهم بمواردها فقط، باستثناء بعض المناطق التي اغدقت الطبيعة عليها العطاء، او تلك

التي ضلّت فيها كثافة السكان . فتوجب عليها . في المناطق الاخرى استيراد المواد الغذائية من صقليا وايطاليا الجنوبية ومصر وشواطئ البحر الاسود الجنوبية ، ولكنها اضطرت لأن تصدّر محاصيلها الى هذه البلدان كي تسدّد اثمان المواد المستوردة منها . فباعتها التبيد والزيوت ، وهما الانتاجان الوحيدان اللذان يفيضان عن استهلاكها . وباعتها مصنوعاتها ايضاً ، وهي ضرورات اساسية فرضها عليها « القفر » شقيقها الرضيع » كما قال هيرودوتس ، وأدت الى نمو اقتصاد كثير التعقيد .

فازدياد النشاط الصناعي يستلزم الحاجة الى الخامات التي لا يسدها غير الاستيراد . والبيع والشراء من الخارج يقتضيان اسطولاً تجارياً لا تكفي موارد اليونان القديمة ، اذا ما بلغ اهمية معينة ، لأن تؤمن المواد الضرورية لبنائه وصيائه . ولكن هذا الاسطول نفسه مورد ارباح لأنه يتيح لقادة المراكب القيام بدور الوساطة والسماسة في جميع أنحاء حوض البحر المتوسط . ومن شأن حركة التجارة المتزايدة اخيراً ان تضاعف عمليات الصرافة ونقل الاموال وان تدفع الى الامام ، بالتالي ، بتجارة النقد التي تتحول الى نشاط مصرفي .

لم يتغلب هذا الاقتصاد المتنوع على الاقتصاد الريفي الا في نقاط
المراكز الاقتصادية الكبرى :
معدودة من البلدان اليونانية ، أي في بعض المدن وبعض المرافئ القائمة في
أثينا
مواقع جغرافية متميزة والأهلة بسكان عالي الهمّة او كثيرون التعرض
للفاقة ساعدتهم ايضاً ظروف سياسية مؤاتية .

وتبرز في هذا العهد ، من جهة ثانية ، نزعة واضحة الى التجمع والمركزية . ففي صقليا تسير سيرا كوزا قديماً في تفوقها السابق الراهن . وفي مناسبات عدة ، يتيح لها تفوذها وقواها العسكرية ، التي امنت لها الانتصارات على قرطاجة ، انشاء امبراطورية ابعد من ان تكون سياسية فحسب ، فتدمر او تخضع مدنا اخرى او تستفيد على الاقل من تدبير الغير لها . وتساعد الهجرة ، الطوعية تارة والقسرية اخرى ، التي يسهلها او يفرضها المستبدون الذين يوزعون المواطنين بسخاء ، مستهدين القضاء على تلاحم رعاياهم المعنوي ، على ازدياد عدد السكان ، ازدياداً عظيماً . وفي ايطاليا الجنوبية ، نرى طارئاً ، وان لم تعرف مثل هذا النصب ، تجزئ هي ايضاً بروزاً نهائياً خدمتها فيه تأخر جيرانها الذين يقرض بعضهم بعضاً او لا يتمكنون مثلها من مقاومة ضغط الايطاليين . وفي اليونان نفسها تصبح مراكز ازدهار الحياة الاقتصادية اقل عدداً من ذي قبل . فقسقط خلكيس وايرتريا وايجينا او تزول امام نمو أثينا المطرد . وتعيش المدن اليونانية الآسيوية في ضيق ، حتى بعد ان انتهت الاعمال الحربية مع الامبراطورية الفارسية بتحريرها وبعد ان فتحت آسيا اسواقها لتجارها . اما كورنثوس فتحافظ على مكانتها ، بفضل موقعها الممتاز للتجارة مع صقليا وايطاليا ، ويفضل توسطها بين بحر ايجه والبحر الغربي لاسيا وان الدوران حول البلوبونيز يخيف الملاحين ، ولكن هذا التجمع كان جليل الفائدة لاثينا بنوع خاص

اذ انها تتقدم تقدماً مطرداً يكاد لا يتوقف حتى حلة الاسكندر وتلعب بلا مراء دور العاصمة الاقتصادية للعالم الابيجي .

يعود الفضل في هذا التقدم الى قوتها والسيادة البحرية التي يُعترف بها او تُفرض فرضاً غداة الحرب المينية الثانية ، والى « الامبراطورية » التي تسيطر عليها حتى هزيمتها في السنة ٤٠٥ ، و « الاتحاد » الذي استه في السنة ٣٧٧ والذي يدوم رسمياً حتى السنة ٣٣٨ . فهي تستحلب من حلفائها او رعاياها ، باسم « جزية » او « مساهمة » ، امدادات نقدية تغذي خزانتها بصورة مباشرة . تجمع الملاحين لمرأكبها في كافة المدن البحرية الخاضعة لها وتحصل فيها على تسهيلات تجارية وامتيازات حقوقية لمواطنيها . ويساعد النفوذ الذي تتمع به على ذبوع طرائقها الفنية وبالتالي منتجاتها الصناعية ، فيثبت الاسطول الحربي منذ ذلك الحين انه اداة دعابة نافذة . تساند قوتها السياسية نمو قوتها الاقتصادية ، وتعاضد قوتها الاقتصادية بالمقابلة نمو قوتها السياسية . فائتينا مدينة لازدهارها بطاقات مادية وبشرية تتيح لها بناء وصيانة اسطول هو في الاساس من قوتها ، كما ان مكائتها التجارية تضعها في مركز تستطيع معه القيام بالضغط وقطع بعض موارد التموين عن اعدائها ، وحتى فرض حصار شديد حولهم . فيتضح اذن ان هنالك ، في كلا الاتجاهين ، صلة وثيقة بين السياسة والاقتصاد .

ان اثينا التي تستورد المواد الغذائية والخامات على نطاق واسع تصدر نبيذ وزيت حقول الأتيك ومنتجاتها الصناعية ولا سيما خزفياتها التي تكتشف اليوم كسراً على الشواطئ الممتدة من غاليه حتى روسيا الجنوبية . ويغدو مرفأ البيره بفضل اسطوله التجاري الذي تحميه قطعاتها البحرية ، بشهادة ايزوقراط ، « سوقاً تتوسط اليونان ... يسهل الحصول فيها ، بسبب وفرة البضائع ، على المصنوعات التي لا يمكن وجودها في غير مكان الا بصعوبة وبكيات قليلة جداً » . واذا ما أردنا الاقتصاد على النواحي الرئيسية ، نقول ان اثينا تصدر المسكوكات اخيراً . فالفضة المستخرجة من مناجم الـ « لوريون » تسمح لها بان تضرب ، باعداد كبيرة وبيع قيم ، نقوداً مرتفعة العيار ودقيقة الوزن تعرف الرواج في كل مكان وتطمع هي ، اقله في امبراطوريتها خلال القرن الخامس ، بان تحنكر بواسطة النقد الدولي المتداول .

وهكذا تكون ، في شبه الجزيرة الاثينكية هذه ، السقي لم تحبها الطبيعة بأية مزية طبيعية ، بفضل تضافر ظروف بشرية مؤاتية جداً ، مركز اقتصادي يتصف بتنوع ونشاط وازدهار لم يعرفها مركز من قبل . ولكن هذا المركز يتصف بالهشاشة ايضاً لانه تحت رحمة كارثة بحرية - ايغوسبوتامي في السنة ٤٠٥ - او رقابة يفرضها عدو برّي - الملك المقدوني فيما بعد - على طريق المضائق والبحر الاسود التي لا غنى عن سلامتها وحريتها لتموين سكان المدن .

٣ - المجتمعات المدنية

لم يؤد اقتصاد المقايضات اذن ، بفضل الحصاره في مراكز معينة ، الى الاقلال من اهمية دور

الحياة الريفية في مجموع أنحاء اليونان . ولم تنشط الحياة المدنية الا في بعض الامكنة فقط دون غيرها .

فالمدن اكثر من ان تعد في اليونان ولكنها وضعت في اكثر الاحيان . وهي تؤمن لسكان الارياف ، في ظروف الغزو ، ملجأ اسوارها وقلعها . أما في ايام السلم فلا تنشط الحركة فيها الا في ايام الاسواق والجمعيات والاعياد الدينية . واذا ما حدث ان كان المعبد الرئيسي خارج المدينة ، تتعرض المدينة لان تهجر عملياً . وهذا ما جرى بالفعل لـ « ايليس » التي استت في اوائل القرن الخامس والتي ارتبطت بها اولمبيا اولاً . ولكنها لم تستطع منافسة نفوذها لدى مواطنيها انفسهم . فكان في اولمبيا في اواخر الالف الثالث ، كما يقول « بوليب » « عائلات على كفاف من الثروة لم يذهب احد من اعضائها ، منذ جيلين او ثلاثة ، لحضور جمعية في المدينة » ، لأن العدل تقرر اجراءه في الارياف . فيمكننا ان نستخلص ، من هذه الحالة النادرة جداً ، الحياة الهادئة ، والحامدة غالباً ، في غالبية المدن الصغيرة .

اما في المدن الكبيرة فتعرف ، على الاخص ، طرازين حياتيين هما طراز سبارطة وطراز اثينا .

ان سبارطة التي ادهشت الاقدمين حتى الاعجاب قد حيرتهم في الوقت الحياة في سبارطة نفسه بظهورها الحقيق . اجل قامت فيها بعض الابنية ، التي شاهدها زائرون قليون جداً على كل حال ؛ لانها منذ القرن الرابع لم تعد تلك المدينة المضافة التي كانت . ولكنها ما كانت لتتجاوب مع الفكرة التي كونها الاغريق عن المدينة . فلم تتوسطها القلعة ، ولم تحط بها الاسوار الا في تاريخ متأخر ، بل كانت اشبه بمجموعة قرى كبيرة .

يمارس مواطنوها ، منذ سن السابعة حتى سن الثلاثين ، التدريب والجندي ، ومنذ الثلاثين حتى الستين ، يتمتعون الى قوة الاحتياط الدائمة التأهب المستعدة ، في النهار نفسه ، لتلبية نداء التعبئة ، والمفروض على افرادها ايضاً ، الا باذن استثنائي ، ان يتناولوا وجبة العشاء مع اولئك الذين سيكوون رفاقهم في الحيم اثناء الحملات العسكرية . يحظر عليهم كل سعي وراء الكسب ، وكل عمل غير التمرين الرياضي والعسكري . لا تضرب الدولة سوى تقود حديدية ، ويجب الا يقتني السبارطي الحقيقي معادن ثمينة . فالفریضة العينية المتوجبة على الفدائيين في املاكها تكني نظراً لاعالته وإعالة أسرته دون ان يقوم باي عمل .

كان من نتيجة هذا النظام العسكري والاجتماعي الصارم ان يضاعف ، الى جانب فئة « المتساوين » ودونها ، اي الى جانب المواطنين الكاملين ، فئات اخرى متدنية : الفدائيون في الارياف ، و « المهنيون » في اطراف الارض اللاكيديمونية الذين يجمعون في مدن صغيرة ويتعاطون الزراعة الحرة والصناعة اليدوية والتجارة ، و « المتدنون » في سبارطة نفسها ، اي المواطنون المنحطون والانغال والمحروون وغيرهم كثيرون ممن يتوقون الى مثل اعلى هو العودة او الانضمام الى طبقة المتساوين . ولكن هذه العودة وهذا الانضمام ما كانا ليمنحا الا بقرار من

السلطات ، على ان يملك المستفيد منها ارضاً منتقلة اليه بالوراثة او بالزواج من وريثة غنية ، لان الفقر الذي يفرض العمل عقبه تتناهى مع وجوده في عداد المحظين .

ان تعداد نتائج مثل هذا النظام ، الموضوع ، وفاقاً لمنطق لا يخلو من الخطأ ، بغية توفير جنود على مستوى عال من التدريب ، لسبارطة ، يؤدي بنا الى إطالة لا موجب لها . فيكفي ان نشير الى المظاهر الشاذة في الحياة السائلية : العزوبة المتكاثرة وإعالة الاجوة المحرومين من الاملاك والفدايين في بيت البكر ، والتحديد الطوعي للنسل الذي يسبب ، مع التقصان في الرجال ، هبوط سبارطة النهائي بعد انتصارها في حرب البلونينز ، واقدام الدولة على انتزاع الفتيان من والدهم وانرافها اشرافاً كلياً على تربيتهم ، والسلطة التي تمارسها المرأة في عائلة غالباً ما يكون رها غائباً وتؤمن هي إعالتها بثروتها او بعملها .

لنصف الى هذه المظاهر وتيرة الحياة اليومية الواحدة . فهي توفر ، في الايام العادية ، ملذات محدودة في نادي الرياضة وحقل المناورات وغرفة الاكل . ولا يدخل عليها التغيير بصورة عارضة الا رحلة القنص التي تحسن حصيلتها ، عند المساء ، اصناف وجبة العشاء . ويدخل عليها التغيير ، بنوع خاص في مواعيد معينة ، الاعياد الدينية التي يُحتفل بها بكل دقة وفاقاً لطقوس قديمة غريبة تنظم تعاقب قيام الجوقات بتوزين مقاطع شعر قديم . فبسبب جودها في تقاليد تلباهى هي بالبقاء عليها ، وابتطاعها التام تقريباً عن العالم الخارجي الذي لا تربطها به سوى طرقات سيئة او مرفأ « جيثيون » الصغير في خليج بعيد عن بحر ايجي ، وبتحضير السفر الى الخارج على مواطنيها والاقامة فيها على الغرباء ، لم تستطع سبارطة الاسهام بشيء في وثبة الحضارة اليونانية .

فستان ما بينها وبين أثينا .

هناك منطقة واحدة في أرياف الأتيك عرفت حياة ريفية تختلف مناخ رعيه الـ «لوريون» عن تلك التي وصفناها سابقاً ، هي جبل الـ «لوريون» جنوبي شبه الجزيرة . فقد ادى استثمار المناجم الرصاص المزوج بالفضة ، هنا ، الى تجمع بشري تباينت اهميته وفاقاً لنشاط الادارة او اهمالها ولوفرة العروق المعدنية المكتشفة او نضها .

كانت الدولة الاثينية ، من حيث انها تملك الامتيازات ، توجرها للمستثمرين محتفظة لنفسها بالفضة التي تجمع بعد معالجة المعدن الخام . وكانت تركز لهذا الاستثمار اموالاً هامة يؤمن المستأجرون بواسطتها خفر الدهاليز ، واثان المواد وأجور اليد العاملة . المتمثلة بالعبيد . وقد حدث ، توصلاً لهذه الغاية ، أن اسست شركات احياناً . بيد ان بعض الرأسماليين ، من امثال نقياس الذي لعب دوراً سياسياً كبيراً في أثينا ، ابان حرب البلونينز ، فضلوا تأجير الملتزمين عبيداً يعملون في المناجم لقاء اجر يومي . اما كسينوفون ، فقد اقترح في كتابه حول «المداخيل» الاحتفاظ بهذا الاستثمار للدولة التي كان بإمكانها ، بفعل قدرتها على تخصيص الاموال الكافية

لشراء المزيد من العبيد ، ان تضمن ، لا مجموع نفقات تأجيرهم للتميزي المناجم فحسب ، بل المداخيل المتزايدة بفعل توسع الاستئثار الذي تقضي إليه زيادة اليد العاملة . ولكن هذا المشروع الغريب لم يتحقق قط .

يمكننا ان نتصور ، والحالة هذه ، مصير هؤلاء العبيد العاملين في المناجم بإشراف ملازم يسمى وراء الكسب السريع ، ولا يتم لاستبقاء طاقتهم على العمل ، ويدفع لهم أجوراً لا شك في انه يقدرها بدقة حتى لا يتأخر استهلاكها . كانوا يعملون بأدوات بدائية في دهايز ضيقة تديرها مصابيح زيتية مدخنة . وكانوا يجمعون ، خارج المنجم ، في « معسكرات » حقيرة ، دون عائلاتهم ، طعاماً في تجنب نفقات تغذية اضافية ، تحيط بهم طبيعة كثيفة قضت الغازات الكبريتية المتصاعدة من المعدن المذوب على كل اثر للحياة النباتية فيها . وقد استهوى الحرب هؤلاء الاشقياء : فخلال حرب البلوونيز ، واستجابة لنداء الاعداء الذين احتلوا قلعة في الأتشيك في سيرم للقضاء على أثنيا ، حطّم عشرون ألفاً منهم قيود إقامتهم الجبرية وانتشروا في الارياض التي ألقوا الرعب فيها . وفي هذه المناجم أيضاً انفجرت ، بعد ذلك بزمن ، ثورات عمالية كانت مقدمة لتلك التي ستواجهها روما في صقليا وإيطاليا الجنوبية . لذلك فإن منطقة اللوربون وحدها في اليونان الكلاسيكية ، تتيح لنا تخيل ظروف اجتماعية شبيهة بظروف بعض المناطق الصناعية الكبرى في عالمنا المعاصر .

العبيد اللنديون في أثينا ان العبيد في المدينة ، اذا ما وجد العبيد ، لا يجمعون بأعداد كبيرة فيه مكان واحد ، بل هم ، على العموم ، عبيد منزليون مشتتون ههنا وهناك . فالبيت الذي يخدمه عشرون عبداً تقريباً ، يخرج بعظمته عن النطاق العادي . وفي فقدان العبيد من البيوت ، دليل على الفاقة القصوى . ولكن البيت العادي ، لا يزيد عدد العبيد فيه عن الثلاثة او الأربعة ، وهم نساء بنوع خاص . ويعتزح هؤلاء العبيد بالحياة العائلية ولا يعملون معاملة سيئة . ويحسد وجود الزوجة شبه الدائم في البيت في بعض تجاوزات الزوج . وليس من النادر ان ينشأ تعلق متبادل بين المرخصة او « المري » وبين الولد الذي رافقه هذا المري في زهراته وعني بتربيته وتعليمه . وقد تسهل في عقد الزواج في البيت الواحد بين عبد وعبدة تربي ابنها الذي لن يعرف الحرية ، على كل حال ، شأنه في ذلك شأن والديه .

استخدمت الصناعة والصناعة اليدوية الأرقاء أيضاً . ولكن اكبر معمل وصلت إلينا . أخباره ، وهو مصنع اسلحة في أيام الحرب ، لم يتجاوز العبيد فيه مائة وعشرين عبداً . وليس من تجميع صناعي حقيقي في اي مكان . ففقدان الآلة لا يساعد على ذلك واليد العاملة الكثيرة تستوجب رؤوس اموال ضخمة . فمثال المعمل الذي تصوره لنا الرسوم على الآنية هو معمل الصناعي المهني ، كالحديد والسباك والخزاف ، الذي يعمل شخصياً مع بعض العبيد . فقيم

الحياة اليومية والعمل المشترك بين هؤلاء وبين سدهم: علائق لا تخلو من عاطفة إنسانية .

وقد يذهب بعض الاسياد الى ابعد من ذلك ، مستوحين في ذلك حرصهم على مصلحتهم الحقيقية . فبعد ان يدركوا ان هذا او ذاك من عبيدهم سيعمل باندفاع اذا ما كان حراً عملياً وأفاد من عمله إفادة شخصية ، يأذون له ان يمارس ، لحسابه الخاص ، مهنة صغيرة او تجارة صغيرة او يؤسس عائلة ويميش « على حدة » . غير انه يتوجب على هؤلاء المهظيين ، الكثيرين في مدينة ناشطة كأثينا ، ان يدفعوا فريضة يومية لسيدهم . فيميلون أنفسهم بعزل عنه ويمجعون ثروة صغيرة بما يفيض عن كسبهم .

في مثل هذه الظروف ، يصبح من الطبيعي ان يتدنى الحاجز الراهن القائم بين الفقراء من الرجال الاحرار وبين العبيد . ولا يميز هؤلاء سوى شعر قصير . وهم لا يرتدون اي لباس خاص ، وكثيرون منهم اغريق أقحاح لم يفرض عليهم العبودية سوى ملابس الجروب . وأخذ عليهم بعض المراقبين الشكسين صراحتهم الكلامية الوقحة . وقد حماهم القانون من شراسة الغير ولم يفته ان يحدّد مجسمين جلدة العقوبات الجسدية التي يستطيع القضاة أنفسهم ان يحكمهم بها في حالة ارتكاب الجرم . واذا ما كانوا محقين في التشكي من مساواة سيدهم ، جاز لهم اللجوء الى بعض المعابد وطلب عرضهم للبيع ؛ واذا ما اقتنع الكاهن بحقيقة شكواهم ، يرغم السيد ، عملياً ، على القبول بهذا البيع ويمدّد اجل وفادة الشاكي . فأثينا في هذا المجال ، قد سبقت المدن اليونانية الاخرى اشواطاً بعيدة : الاخلاق فيها اكثر عدوية والقانون نفسه أخذ لتأثر بالاخلاق . وعلى الرغم من ذلك فان التحرير فيها لا يزال امراً نادراً ، كما لا تزال استثنائية نجاحات بعض العبيد المتميزين بنشاطهم وذكائهم الذين يتوصلون الى جمع ثروات حقيقية في التجارة والاعمال المصرفية ويحصلون لا على الحرية من اسيادهم فحسب ، بل على صفة المواطن من الدولة ايضاً التي يؤدون لها الخدمات المالية .

يدخل في عداد السكان الاحرار، من الناحية القانونية فئتان من الاشخاص:
الاجانب المقيمون .
الاجانب المقيمون والمواطنون .

يقم الاولون في مساكن خاصة بهم . يوجد منهم ، بهذا الاسم او بغيره ، في كافة المدن اليونانية تقريباً ، باستثناء سبارطة التي تَحَرَّز منهم ، وباستثناء بعض المدن المتأخرة جداً ايضاً التي تعتمد على الاقتصاد الريفي دون غيره . ولكن عددهم لم يتجاوز في اي مكان ، بصورة مطلقة او نسبية ، عددهم في اثينا حيث يوجد منهم واحد مقابل مواطنين اثنين او اكثر من واحد ايضاً اذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى الرجال . ومرة ذلك ان الشهرة الفنية والفكرية التي تنعم بها المدينة ، بالإضافة الى نشاطها الاقتصادي ، تستهوي اولئك الذين يطلبون الاستزادة من المعرفة والشهرة ، ورجال الاعمال المقدامين ، والمهنيين النشيطين الذين يسعون وراء كسب عيشهم .

وهم يلقون في المدينة ضيافة عطفية ، دون ان يشعروا بالضعة بفعل تمييز مهني . واذا ما استثنيوا حرمانهم من الحقوق السياسية والملكية العقارية والرسم السنوي الضليل الذي يدفعونه ، فلا شيء مما تبقى يفرقهم عن المواطنين ، اذ انهم يؤدون الواجبات العسكرية والمالسة نفسها ويمتعون بتسهيلات كبيرة في ممارسة عباداتهم الخاصة ويحضرون ، الى ذلك ، الاحتفال بالاعياد الدينية الرسمية ، ويستفيدون اخيراً من حماية القانون لاشخاصهم وممتلكاتهم .

يمارسون مهناً متنوعة جداً ، جرة وصناعية وتجارية . فليس تقريباً من فنان او اديب او عالم يوناني غير اثيني ، الا وقضى في اثينا شطراً هاماً من حياته قصيراً او طويلاً . وبين اشهر خطباء القرن الرابع ، الذين حافظ النحويون الاسكندريون على مؤلفاتهم ، لانيها خليقة بان تدون في مجموعة « خطباء الأتيك » ، كثيرون ممن شرفوا بلاغة المحاماة في اثينا ، ك « ليزياس » و « ايزيا » ، كانوا اجانب مقيمين . وكانوا اجانب مقيمين باكثريةهم ايضاً ، لا سياً في القرن الرابع ، اولئك الذين مارسوا المهن الصغيرة والتجارة التفصيلية (المفرق) واولئك الذين اداروا مشاريع اعظم اهمية ، بحرية وحتى تجارية . فمالك مصنع الاسلحة والمائة وعشرين عبداً الذين عملوا فيه كان سيراكوزياً ، وبالتحديد والد الخطيب ليزياس . وهكذا فان مجد وازدهار اثينا مدينان ، الى حد بعيد ، لعمل الاجانب المقيمين .

أجل ان في هذا الوضع لمغارة للرأي العام إذ انه ، في الحركة الاقتصادية التي تسهم هذا الاسهام الكبير في ثروة وقوة أثينا ، يولي الاجانب اهمية لا تتناسب وعددهم . ولكن له ما يبرره ، دون ريب ، تفرد المواطنين في حقول اخرى . فهم اولاً ينعمون وحدهم بحق الملكية العقارية الذي يقصر عليهم استئجار الارض وما تحت الارض ، الا اذا حصل المواطن الاجنبي على مثل هذا الحق في ظروف نادرة جداً . وينعمون وحدهم ، ثانياً وخصوصاً ، بالحقوق السياسية ، وبالتالي بالمكسب المتواضع الكافي لعيشتهم الذي توفره نجاحات الديمقراطية لمن يمارس هذه الحقوق .

منذ القرن الخامس ، توصل بريكليس الى اقرار هذا التعويض ، الذي بتأثير التعويض اليومي تتولاه الدولة ، للقضاة واعضاء المجلس ومخلفي الحاكم الشعبية والمجندين . وفي اوائل القرن الرابع شغل هذا النظام اولئك الذين يشتركون في جلسات جمعية الشعب . وكان الهدف من ذلك السماح للمواطنين الفقراء ان يكسروا وقتهم لخدمة المدينة وان يشتركوا في الحياة العامة شأن المواطنين الذين تجنبهم موارد المضمونة وسواس الميزانية العائلية اليومي . غير ان هذا التعويض قد بقي طفيفاً على الدوام ، دون اجر العامل الممتاز .

كان المهم ، على كل حال ، لا ان يسدّ وحده حاجات حياة متنوعة ، بل ان يساعد على ذلك كدخول اضافي . ومن حيث ان عدد المستفيدين منه كان مرتفعاً بفعل زيادة القضاة والمحاكم ، اذ كان يعين ستة آلاف مخلف سنوياً - افضى هذا التعويض تدريجياً الى إنشاء المواطنين عن

الاعمال المهنية . فقد بدا لهم الأسهام في تسيير أمور الدولة أكثر بساطة واستأالة من العميل
اليدوي . وقد هاجم خصوم النظام بمنف هذه الطريقة التي رأوا فيها ، على حق ، احد الاسس
الرئيسية للديموقراطية . ولكن العناية المقصودة من انتقاداتهم يجب ألا تحفي احدى النتائج
المباشرة لتعمم التمويضات : نفوذ الاجانب المقيمين المتزايد في صناعة ائينا وتجارتها .

وبفعل استمرار الاعتبارات القديمة ليس من شك في ان عوامل اخرى قد فعلت فعلها في
الموضوع نفسه ، لا سيما استمرار الاعتبارات القديمة التي

لا تستسيغ عملاً يُنفذ لخدمة وبأمر احد الزين ، او بانتظار زبون ممكن فقط . فقد جاء في التأين
الذي ينسب توسيديد الى بريكلس : « لا غضاة في ان يعترف الانسان بفقره ، ولكن العيب
كل العيب في التقاعس عن تجنب الفقر بواسطة العمل » . وان في هذا القول لاكثر من صدق
لاقوال ميزيود الذي عبر في « الاعمال والايام » عن رأي مماثل . افليس الهدف الحقيقي ، في هذه
الحالة وتلك ، تقويم رأي عام لا يشجع العمل؟ وفي الواقع ، اذا ما تقدم لنا ، بصد ائينا
الكلاسيكية ، ان القانون يعاقب من يأخذ على غيره مهنته ، فمن الامور الثابتة ان ديوستين انما
يستهدف الخط من شأن خصمه ، اسثن ، حين ينوه بان والديه قد تعاطوا مهنا وضعة .
فالتقاليد القديمة التي لا تزال تسيّر الاخلاق تثبت اذن انها اقوى من الارادة الرسمية التي تعبر عنها
خطب الحكام والشرايح ، كما تثبت ايضاً ان التطور ابطأ من هذه الارادة بالذات .

ان شؤنا كثيرة تصرف اغريق ذلك العهد وستصرف اغريق العهد اللاحق والرومان ايضاً
اعن ان يستخدموا في اختراع الآلات وصناعتها ، مهارتهم العظيمة ومعارفهم العمالية التي كان
من شأنها ، في اكثر من حالة ، ان تحقق هذا الغرض بسهولة . كثيرا ما يقلل المؤرخون هذا
الاهمال بوجود الاستعباد الذي يؤمن بقليل من المال ، آلات بشرية واقرة العدد . ويعللونه
ايضاً بفقدان اسواق البيع الواسعة التي كان من شأنها ، لو توفرت ، ان تزيد الطلب وتحمل على زيادة
الانتاج . غير انه يجب علينا ، بالاضافة الى ذلك ، ان نفكر بالمثل الانساني الاعلى الموروث عن
العصور السابقة الذي يحل ، في الاساس من استقلال الفرد الحقيقي ، خيار العمل الحرلنتفخته
الشخصية دون اهتمام للمساومة او البحث عن الزين .

لذلك نرى خصوم السفنطين يثور ثائرم عندما يرونهم يطلبون اجراً من تلامذتهم ، اذ ان
تعاطي النشاط المأجور من الامور الملية . ولا ينجو من هذا الانتقاد سوى المالك الذي يشرف
على استثمار ممتلكاته الخاصة . وفي المدينة يستسلم الغني والفقر للبطالة غير ساعين على العموم وراء
استثار ثروتها : فستشجري عدوى مثلها ، لا سيما وان المواطنين اقليية في طبقات العمال في
المدينة ، فيسيطر الاجانب المقيمون في الاوساط التجارية ، اعني بهم ذوي اليسار والطبقة
العمالية . ولن يلعب مالكو المصانع المتوسطة دور الادارة في السياسة الاثنية الا بعد موت
بريكلس والاضطراب الذي خلقته حرب البلوينيز والذي جرف الى داخل اسوار المدينة
الريفين الذين هدمم الغزو وافقرم . ولعل افضل مثل للذين لعبوا هذا الدور هو « كليون » ،

ولكن السهام الساخرة التي وجهها اليه ارسطوفانوس تعبر عن احتقار الاوليفارثيين وعدم الثقة بالريفيين . وفي الواقع فان الطبقة الاجتماعية التي مثلها كلبيون ما لبثت ان غمرها النسيان في القرن الرابع . اما ديموستين ، وهو ابن صناعي مشهور يملك معملين ، فكان الفضل في بروزه للحمامة شان اكثر الرجال السياسيين في عهده . فقد مضى زمن طبقة ذوي اليسار من رجال الاعمال . وكان سريع الزوال لان نسبة المواطنين في هذه الطبقة المتوسطة قد غدت ضعيفة جداً .

نرى ، والحالة هذه ، ان الظروف الادبية تحالف الظروف الفنية في فقدان الثروات الطائفة نحو المشاريع الصناعية والتجارية . ومن حيث ان الاستثمار الزراعي لا يساعد على جمع الثروات الطائفة ، يصبح من الطبيعي ان تكون هذه الثروات الطائفة نادرة جداً .

كان « كالياس » ، في عهد بريكليس ، أوفر الاثنيين ثروة : فقد بلغت ثروته ، الناشئة عن استثمار المناجم بنوع خاص ، مائتي مئناً من الفضة (اي ما يوازي ١٠٢٠٠٠٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤) . وفي عهد لاحق اعتبر نقياس غنياً جداً من حيث ان دخله السنوي بلغ احد عشر مئناً تقريباً بفضل العبيد الالف الذين كان يؤجرهم للمتزمي اللوربون . فالاول والثاني يهتان كلاهما ، اذن ، للصناعة المنجمية ، اي للناحية الاقتصادية غير الزراعية الوحيدة المحرمة على سواد الاجانب المقيمين . وبعد هزائم حرب البلوپونيز تدنى الحد الاقصى للثروات . ففي القرن الرابع لا يملك الاثينيون الثلاثة او الاربعة الذين اشتهروا بالثروة اكثر من خمسين مئناً . وقد اكد ديموستين ، بضع سنوات قبيل السنة ٣٥٠ ، ان في اثينا ثروات توازي او تكاد توازي مجموع ثروات كافة المدن الاخرى . اجل يجب ان لا ينظر الى هذا التأكيد كحقيقة راهنة . ولكنه اذا كان له ما يبرره ، فلا يمكن ان يصح ذلك الا بالنظر لمجموع سكان المدينة الذين يعيش قسم كبير منهم في البحبوحة واليسار الكريم . ويكفي فقر الطبقات الاجتماعية المتدنية ، التي تعيش يومها بالكفاف ، لان يوجد تبايناً ثابتاً بينها وبين الاغنياء . ولكن تكديس الثروات لم يتجاوز حدّاً معقولاً .

فهل كانت هذه حال المدن الاخرى في العالم اليوناني ؟ ان التفاصيل الدقيقة التي قدمناها بصدده أثينا تقدمو ، بصددها ، نادرة جداً . يروى ان لحد رجال المصارف في سيراكوزا توصل في اوائل القرن الرابع الى احتكار الحديد ، بجمعين مئناً ، وربح في هذه العملية مائة مئناً . ولكنها مضاربة استثنائية قد تبرر نجاحها الحاجات الناتجة عن الحرب ضد قرطاجه . وليس من المعقول ، على كل حال ، ان تكفي اموال هذا الرجل لتحقيقها او ان يكون بالتالي المستفيد الوحيد منها . ثم ان التساهل حيال الاجانب ، خارج اثينا ، اقل منه في اثينا ، كما ان الدولة لا تدفع اي تمويض لقاء الاشتراك في جلسات الحاكم او الجمعية . لذلك فالمواطنون اقل انصرافاً عن النشاط الاقتصادي ولا ينافسهم المقيمون الاجانب منافسة ذات شأن . واذا ما استثنينا

كورنثوس ، استناداً لما يؤكده هيرودوتس ، - وهذا يعني اننا امام حالة شاذة - فان الصناعة والتجارة اقل اعتباراً في هذه المدن منها في اثينا .

نستنتج من ذلك ان الثروات الخاصة الطائلة لم تعرف قط في جميع انحاء العالم اليوناني الكلاسيكي . فهي ستبقى لزمن طويل وقفاً على الشرق . ولم يصعب على هيرودوتس ان يدesh مواطنيه بسرده امامهم ارجحية ذلك الليدي الذي اعترف لكسركسيس ، في السنة ٤٨١ ، ان ثروته النقدية ، دون عقاراته وعبيده ، تبلغ الفي منأ من الفضة وقرابة اربعة ملايين قطعة نقود ذهبية اي ما يساوي مجموعه مائة مليون فرنك في السنة ١٩١٤ . فعند تفكيرهم بهذه الكنوز الاسطورية ، وعند رؤيتهم الماوك والمرازبة الفرس يدفعون الاجور المرتفعة للمرتقة الذين يخدمونهم ، وعند سماعهم روايات الرحالة عن عظمة البلاطات والمدن ، ينظر الاغريق الى الشرق حينئذ نظرهم الى بلاد تفيض بالذهب . وقد اقتنع اكثر من واحد ، في القرن الرابع ، ان احتلال الشرق من شأنه ان يكون ، لمعالجة الآفات الاجتماعية والاقتصادية التي يتألمون منها ، دواء انجع من ثورة داخلية يدفع اليها الحسد ، محدودة في نتائجها بفعل ضآلة الثروات النسبية التي ستتيح تقاسمها . وسيسهف هذا الشعور في تكوين الرأي العام الذي سيرافق الاسكندر في آسيا .

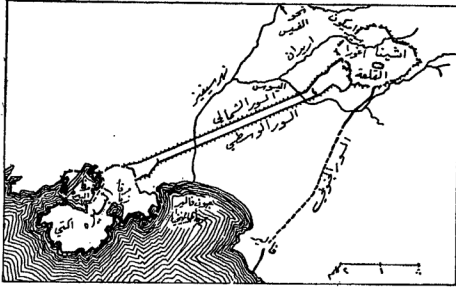
ولكن هذا الوضع يسمح ايضاً بادراك احدى الميزات الجوهرية في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فان تحقيقاتها التي تستلزم نفقات ضخمة تخضع لاشراف الجماعات دون الافراد . لذلك فان هذه التحقيقات انما تعبر عن حاجات ومقاصد الجماعات دون الافراد ايضاً .

٤ - المدن والحياة الخاصة

يتضح لنا والحالة هذه سبب الاعتدال العام في مظهر المدن ، اقله فيما يتعلق بالبيرو رأينا حياة السكان الفردية والخاصة .

ان اكثر المدن سكانا واكبرها واغناها على الاطلاق هي اثينا التي نكلها ، على مسافة سبعة كيلومترات ، مدينة أتيكية اخرى هي البيرو . تحيط باثينا نفسها اسوار محصنة ؛ ويحتمي البيرو سور آخر يحيط بشبه جزيرة لـ « اكي » ، وتربط بين المدينتين اخيراً وتصل أثينا بالبحر « الجدران الطويلة » او « السيقان » . ولم تخصص اية مدينة اخرى حينذاك مثل هذه العناية والجهد والموارد لايتناق الصلة بين مراكزها الحيوية وللدفاع عنها . فقد توصلت اثينا بذلك الى تحسين مركزها البري والتحوّل الى جزيرة توحد بين اسطولها وجيشها توحيداً لم يعرف له مثيل في مكان آخر ، حرصاً منها على ضمان سلامتها . وفي الواقع فانها ، طيلة العهد الكلاسيكي ، لم تستسلم سوى مرة واحدة تحت ضغط الحصار والجماعة بعد تدمير اسطولها . وقد اعطاها هذا التصميم الدفاعي الجباز ما اعوز اكثرية المدن الاخرى ، اعني الرحابة وراء الاسوار التي كثيراً ما تكون ضيقة بسبب الحاجة الى المال ، اي الرحابة الضرورية لراحة السكان . ولكن اثينا لم تحسن قط الانتفاع بهذه الرحابة .

أجل ، ليس المكان ما ينقص في البيرة . فالمدينة حديثة العهد ، بليت في اواخط القرن الخامس ، وفاقاً لمبادئ تنظيم المدن في ذلك العهد ، تنفيذاً لخطط هندسي . وهي تحيط بالرفأ التجاري الوحيد في الأتيك وأحد المرافئ الحربية الثلاثة المعدة حول الـ « اكي » والمجهزة بلجئ للراكب ودور الصناعة البحرية . وتجاور الارصفة ، حيث تفرغ المراكب الآتية من كافة المرافئ المتوسطة البضائع على انواعها ، السفائف والمستودعات ومكاتب المحرك والصرافين



الشكل ٢٣ - أثينا والبيرة في القرن الرابع قبل المسيح .

والمصفق (البورصة) . وتمتد الى الورااء المدينة نفسها السني يتألف الشطر الاكبر من سكانها من اجانب ينتمون الى كل التابيعات ويتكلمون كل اللغات . ويعد البحارة فيها كل اسباب اللهو التي طالما حملوا بها في عزلتهم وأسفارهم المحفوفة بالاططار . يعناش السكان المقيمون فيها من المرفأ وتجارة المسافرين والبضائع فيه . ولكن الطبقة الراقية لا تطيل الاقامة فيها لانها تجمع كافة طوائف البشر الذين لا يتكلمون الا عن المال ولا يهتمون الا للتجارة . ومن حيث هي شبه متروكة للاجانب وللواطنين الذين يتوجب عليهم الخضوع لاوامر وليتهم او لأهواء زينهم ، فان البيرة اقطاعة ديوقراطية : فيها يجتمع خصوم النظام الارهابي الاوليغارشي الذي اقامته منابرطة المنتصرة ، لاستعادة اثينا بقوة السلاح .

لم تحاول اثينا القديمة اذن التوسع نحو البيرة والبحر داخل التحصينات الجديدة حيث لا تزال مساحات كبيرة خلوا من البناء . فضواحيها تمتد نحو الشمال خصوصاً كأنما تشدها الحياة الريفية التي ما فتء العديد من المواطنين متعلقين بها بتأثير من مثلهم الاعلى ووشائف قرباهم ومصالحهم كملاكين . وهي قد ضاقت بسكانها في نطاق أسوارها السني اعيد ترميمها بسرعة غداة الحرب

الميدية الثانية ، قبل قتمش نشاطها السياسي والاقتصادي والفكري . ولكنها على الرغم من ذلك لم تمتد الى حيث يبدو ان مصيرها قد دعاها للامتداد .

انها لا تطابق قط ، بسبب قدمها ، الفكرة التي نكوّنها عن مدينة كبيرة ، على الرغم من ضخامة القلعة وبعض المعابد او الابنية العامة المشيدة في المدينة المنخفضة . تمر فيها شوارع ضيقة يحظر بناء الشرفات البارزة فوقها ، لا بلاط عليها ولا ارضفة على جوانبها ولا يواليع تحتها ، تتوسطها مجرات خزفية لتصريف المياه . ليس فيها سوى ينبوع ماء واحد شيده المستبدون في القرن السادس ، ولكن فيها آباراً كثيرة تميل الى الاعتقاد بأن مياهها لم تكن نظيفة وصحية . الساحات العامة قليلة وأهمها الـ « أغورا » التي تظلها اشجار الصنّار . حول الاغورا تنتشر الاسواق : سوق مواد التغذية بفروعها المختلفة لكل فئة من هذه المواد بما فيها لحم الحمار والسملك المحفف ؛ سوق الخيل والعبيد ؛ اسواق الخزفيات والألبسة والاحذية ، حيث يتعاطى الصناعي عمله في حانوته امام عين الزبون ، كما هي الحال في الاسواق الشرقية في ايامنا .

يتكلم كسينوفون عن عشرة آلاف مسكن في اوائل القرن الرابع . ان هذا المسكن الرّم لمرتفع جداً بالنسبة لمساحة ضيقة ، وهناك حدائق في الضواحي التي تتسع خارج مداخل المدينة بين المدافن القائمة على جوانب الطرق ؛ ولكن المجتمع الراقي لا يقبل بالسكنى إلا داخل المدينة . ليس لهذه المساكن الوضيعة ، على العموم ، سوى جدران من الطين المحفف يسهل على اللصوص ان يفتحوا فيها ثغرة . ولا تظهر البيوت المولفة من عدة طبقات سوى في القرن الرابع ، وكانت الغاية الاولى منها التباهي والتفاخر . اما الغرف فضيقة جداً وارضها ترابية جامدة . أسباب الراحة مفقودة تماماً . ولم تشكل المراحيض معضلة قط لأن النظر قد صرف عنها في كل مكان .

ولا افضلية لبيوت الاغنياء سوى في رحابتها واتساع غرفها الموزعة حول فناء تحف به بعض الاعمدة . فلا يظهر البذخ إلا في عهد متأخر مقتصر على قاعات الاستقبال التي ألّسبت سقوفها بالخشب وازدانت جدرانها بالمديجات والرسوم . وقد كشفت اعمال التنقيب في منطقة خلقيس ، في موقع مدينة أولنثوس ، التي دمرت في اواسط القرن الرابع ، عن استعمال الفسيفساء الترينينية المصنوعة من الحصباء المستطيلة لا من المكعبات الصنعية ، والتي ترجح ظهورها هناك في اواخر القرن الخامس . وباستثناء هذا الفارق فقد أيدت هذه الاعمال الفكرة العامة التي تكونها عن أئتنا النصوص الكتابية . ولا تفخّل البنة في الاثاث . فان أثاث القبياسد نفسه الذي يتألف ، بإعداد محدودة على كل حال ، من الصناديق والمقاعد والطنافس والأسرة والواواني ، لم يوفر اماناً مرتفعة حين باعته الدولة بالزاد العلني .

ما ان يبلغ البيت حداً ادنى من السعة والرفاهية ، حتى يفصل بين الغرفة او سيدة البيت
الغرف المخصصة للحياة العائلية البحتة ، اي نطاق الزوجة ، وبين الـ « اندرون »
اي نطاق الزوج .

تنتقل الزوجة مباشرة من البيت الوالدي الى البيت الزوجي ولا تخرج منه الا نادراً . وقد نسب توسينيد الى بريكيليس قوله ! « ان ميزة هذا الجنس قائمة في ان تبلغ اذنى شهرة ممكنة بين الرجال ، خيراً او شراً . » اما واجبات الزوجة الاولى فهي ادارة شؤون البيت الداخلية والاعتناء بالملابس والعناية باولادها : الذكور الذين يخرجون من ولايتها في سن السابعة والاناث اللواتي يبقين معها حتى زواجهن . فالشؤون الاجتماعية والفكرية ، ولا سيما السياسية ، لا تعود اليها ، اذا قصدت تحاشي الفضيحة . بيد ان الشاعر لم يتردد ، في الملحة الهوميرومية ، في اعطاء المركز الاول لوالدة « نوزيقا » في الولايم التي دعا اليها « القينوس » . ولكن هذا المشهد ما كان يلقي تأييداً في اليونان الكلاسيكية . فجل ما نتراماه في تمثيلات اوربيدس وهزلية ارسطوفانوس وبعض المناقشات الفلسفية هو ان تقدم الفردية كان مدعاة اولي لوضع قضية شخصية المرأة وتحريكها على بساط البحث . ولكن هذه الجسارات لم تخرج عن نطاق النظريات ولن تظهر نتائجها قبل العهد الاخرى .

ان الحياة الخارجية كلها ، مما فيها المشتريات الغذائية من السوق ، حياة الرجل تعود للرجل .

فهو سيد بيته قانوناً ، الا اذا الجأ حرصه على السكنية الى ان يتراجع ، شأن سقراط ، امام زوجة شكسة عالية الصوت . يستطيع ان يطلق امرأته دون ان يقدم اي مبرر او عذر ، شرط ان يعيد لها البائنة فقط . ويستطيع ان يقرر اجمال « تربية » اولاده ، اي تركهم والقاهم على قارعة الطريق في الايام الاولى بعد ولادتهم . وكثيراً ما اتبعت هذه الطريقة فعلاً ، لا سيما حيال البنات ، لاعتبارات اقتصادية في بلاد فقيرة كان من شأن ارتفاع كثافة السكان فيها ان يؤدي الى كارثة كبرى . ولكن الحياة في هذا المسكن الضيق ، مع امرأة لم تتقنها التربية والملائق الاجتماعية ، لا توفر له مزيداً من اللهو . لذلك فانه يقضي معظم نهاره خارج البيت ، في الاماكن العامة ، حيث يصادف اناساً ذوي معرفة يجادلهم ويستطلع آراءهم ويوثق عرى الصداقة معهم وعرى علائق اكثر خلوصاً احياناً .

البنيات اكثر من ان تعد . ومنهن من اشتهرن بثقافتهن الرفيعة . فهذه « اسباسيا » المليية التي لم يستتفك سقراط من اكرامها والتي جعل منها بريكيليس رفيقة حياته بعد ان طلق زوجته الشرعية ، والتي لا يحيط من منزلتها في اعيننا سوى العلاقة التي ربطتها ، بعد وفاة عاشقها العظيم ، بتاجر اغنام استهوته السياسة هو ايضاً . غير انه لا يجوز لنا ان ننسب صفة الكمال لواقع غالب ما يكون قدراً ، برفع جميع البنيات ، حتى الاثينيات منهن ، الى مستوى اسباسيا . فقد جام في احدي خطب ديموستين وصف تدخل معه الى عالم كله محاولات اختلاس ومساومات تقز منها النفس . ولا مراء في ان هذا العالم المريب الذي تتخرج منه المغنيات والراقصات ، كان في الواقع اكثر اتساعاً .

اضف الى ذلك ان الحب اليوناني واقع رامن ، منشأه رفقة السلاح ومشهد العري اليومي في

نوادي الرياضة والرغبة - التي ليست دنساً كلبها - ، عند « العاشق » ، في الحماية والترفية ، وعند « المشوق » ، في التعجب والاطلاع . ففي مجتمع يجعل من مثل الرجل الأعلى ، كلما سمح له وقته بذلك ، تفتح طاقاته الفردية وأداء الجسم والعقل في توازن متوائم وخدمة الوطن في المجلس وفي ساحة القتال ، وفي مجتمع تقضي عاداته بفصل الذكور عن الإناث بالقدر الذي تسمح به الضرورات المادية ، وتحمل الرجال على أقصا معاشرتهم على الرجال وتجعلهم يتباهون بمزايا جنسهم الحشن ، يستحيل ان ينطبق علم الاخلاق على العلم الذي طبعته فينا ديانة وعادات مختلفة .

يتوسع الأثر في هذه العلاقات الخارجية بدعوة اصداقهم مساء الى ولائم يحضرونها لهم في منازلهم . ففي « الأندرون » الذي وضعت فيه اجمل مفروشات البيت ، يقدم الداعي ، دون ان تعاونه زوجته في ذلك ، الى اصداقائه في الندوة السياسية او الأدبية ، في الرياضة او الفجور ، ما لذ وطاب من الطعام الشهي والنبيذ الفاخر . ويتبادل المدعون اطراف الحديث على هوام حتى ساعة متأخرة من الليل ، مستلقين على الأسرة ومتوكئين على مرافقهم يخدمهم العبيد وتلقي البهجة في قلوبهم الإلهي المختلفة ولا سياً لاعبات الزمار والقيثارة والرباب التي يحدد القانون أجورهن القصوى . وينغاب ان تتحول هذه الاجتماعات المسائية الى مشاهد سكر ومثل تقزز النفس يخرج منها أكثر من واحد في حالة يرثى لها . ولكن ليس ما يمنع الاعتقاد بحقيقة او احتمال ما يرويه كسينوفون وافلاطون اللذان يقولان ان إسطار « الوليمة » البهج قد اتسع لمناقشات رفيعة المستوى في السياسة والفلسفة والعلم يشترك فيها سقراط نفسه الذي يبدي من جهة ثانية تصلباً عنيداً في مقاومة السكر .

كثيراً ما شبه المجتمع اليوناني في العهد الكلاسيكي بـ « ناد الرجال » . وان في هذا التشبيه لكثيراً من الحقيقة . فهو في الواقع مجتمع مدن تتأثر انظمتها وعاداتها لا بمصادرها البعيدة فحسب ، بل بشبه ديمومة الحرب ايضاً . فلا تستطيع المدينة الاعتماد الا على الرجال لتأمين سلامتها والدفاع عن استقلالها وكلاهما عرضة لتهديد دائم . لذلك فهي تشجعهم ، بحصر الحقوق السياسية فهم ، على حياة خاصة تبعدهم عن العواطف المصطنعة الخنثة وتغذي فيهم المشاعر التي تعتقد هي بفائدتها منها . وتسير سبارطة حتى النهاية في هذه الطريق بنظامها العسكري ووجوباتها المشتركة الاجبارية كل مساء . غير ان المدن اليونانية الأخرى لا تتبعها الا من بعيد : فالمثال أبعد من ان يدعو الى الاقتداء به اقتداء كاملاً ، بسبب شكاسته . ولكننا لا نستطيع ولا تريد ان توغل في اتجاه معاكس تماماً ، فتكتفي بمحاولة تسوية ما بين هذا المثال وبين نزعات الفرد .

الفصل الرابع

الكلاسيكية الروحية والجمالية

ان تقدم الحضارة ، في أزهي ما لهذه الكلمة من معنى ، قد انطوى في تبين التقدم الثقافي اليونان الكلاسيكية ، في مثل هذه الظروف ، على فوارق ملوثة . فاليونان هذه متباينة الثروات ، لا تتساوى فيها كثافة السكان ، ولا يتساوى هؤلاء حذقاً وبراعة . وقد اعتمدت فيها جنباً الى جنب ، حتى في اضيق الدول حده دأ ، النواحي الاقتصادية المختلفة على انواعها . فنهض اكثرها تطوراً في جوار اكثرها تحلقاً . وهي متباينة التعليم والانفتاح على حياة الفكر والنظريات العقلية . وهي اخيراً متباينة الانفتاح على التأثيرات المفيدة ، او الحافزة على الاقل ، التي تشع بها عوالم وحضارات اخرى ، وبالتالي متباينة الانتفاع باقتباساتها واتصالاتها : فالفلاح الذي يتغذى من محاصيل ارضه لا يهتم للاهوت كهنة هليوبوليس او للعلوم البابلية اكثر من اهتمامه لتصدير «سلقون» كلوس او «قار» مقدونيا .

يكفي ان نتذكر الصورة الهزلية المؤلمة التي رسم ارسطوفانوس سقراط بها في مدينة استطاع جميع سكانها ان يروا سقراط ويسمعوه ، حتى تترامى لنا ضالة النخبة التي تذوقت أحاديث هذا الفيلسوف . وكلتنا يعرف ان هذا الفيلسوف ، الذي تبدو لنا صفاته المدنية سامية جداً ، قد اصدرت احدى المحاكم الشعبية عليه حكماً بتجرح الشوكران السام ، فكان اول واشهر ضحية من ضحايا عداة الجماهير للذين لا يفهمونهم . وفي مباريات اثينا المسرحية لم توزع الجوائز وفاقاً لاقتراح المشاهدين بل وفاقاً لاقتراح لجنة تنتخب بالقرعة من اصل لائحة روعيت في وضعها الكفاءات . وهكذا فان ارفع نظام ديموقراطي في اليونان كان ابعد من ان يملثل نفسه بالاوهام ، بل طابقت تلقائياً وضعاً ، أدركه هو خير ادراك ، تسبب في ابقاء مجالات واسعة في ما تكان . رواثع هذا العهد ان تحملنا على الاعتقاد بأن الاضواء الساطعة تغمره بصورة متساوية . فان شطراً كبيراً من اليونان ، وشطراً كبيراً من السكان في اكثر المناطق حظوة ، لم يشتركوا في عيد الروح والفكر والمثل .

أولوية أثينا ان تتفوق أثينا على هذا الصعيد ، لا هشاشة فيه . وقد تحمل بعض تصريحات الخطباء الأثينيين على الابتسام بإفراطها الساذج الذي يتخلله الكبرياء والصلف أحياناً . وان ما يخرجون فيه عن الاعتدال هو في الحقيقة . محالته استنار هذا التفوق استناراً سياسياً ، كما يخرج عن الاعتدال أيضاً المعاصرون الكثيرون الذين يبرون الاستعمار الذي نهضت به مدينة « أثينا » باسم نجاحاتها واثرا في حقول الفكر والفن . بيد ان أشد خصوم هذا الاستعمار حساساً لم ينكروا قط هذه النجاحات ، لا بل انهم أدوا لها شخياً ما تستحقه من اكرام بمحاولة السمو بالمدينة التي حققتها الى هذا المستوى . ولكنهم لم يستسيغوا ان تنتزع أثينا من حلقها او رعاياها اليونانيين قسماً كبيراً من الموارد المالية التي أتاحت لها الاتفاق على اعبادها وانشاءاتها البنائية . وان اولئك الأثينيين انفسهم الذين عارضوا بريكليس لاعتبارات سياسة داخلية ، قد اخذوا عليه استخدام الاموال التي يدفعا حلفاؤه « لتتويه وتزين المدينة كالمعجزة وإثقالها بمجارة كريمة وتمثيل ومعابد تبلغ كلفتها ألف منا . وهذه المعابد انما هي البارثون مع تمثال الإلهة « أثينا » المصنوع من الذهب والعاج ، وكثيراً ما ندى ، عند الكلام عنها ، اولئك الذين تكبدوا في الواقع ما اقتضته من اموال . فإن أثينا ، في الوقت عينه ، كانت تنتزع من امبراطوريتها نصف مداخيلها تقريباً . ولولا هذا الخرج الذي لم تتردد أثينا في استخدام وخدامها البحرية لاستيفانه ، لما قام البارثون على القلعة .

وقد رافق هذا الاستثمار المالي المباشر ، من جهة ثانية ، أشياء اخرى كثيرة . فبالاضافة الى مظهرها السياسي ، ارتدت الامبراطورية الاثينية مظهراً اقتصادياً ، اذ ان وجودها يفسر ، أقل ما يفسر ، نمو مرفأ البيرة الذي لم يستعد ازدهاره بسرعة منذ القرن الرابع ، بعد انهيار الامبراطورية ، الا بفعل التفوق الذي احرزه قبلاً على جميع منافسيه . وهكذا فان نشاط البيرة يوفر مداخيل الجمرك ويؤمن الحامات والاسواق للصناعة ، مضاعفاً بذلك موارد أثينا . ويكثر هذا النشاط ، على صعيد اوسم ، من الاتصالات البشرية باجتذاب الاجانب وتسهيل انتقال الاثينيين ، فتتأثر حياة المدينة شيئاً فشيئاً بنتائجه حتى في الحقول التي لا تمت الى الماديات بصلة .

بيد انه يتوجب علينا الاعتراف بفضل بعض الاسباب الخفية : المؤهلات الطبيعية التي تحلى بها شعب معتدل أدت به صدف الهجرة والانصهار العنصري الى الاقامة في شبه الجزيرة هذا المتصل باليونان الوسطى ؛ وتحلى ذلك الرجل ، بريكليس ، الذي ادار دفة الحكم في المدينة خلال السنوات الحاسمة التي احتلت فيها الحضارة الكلاسيكية مركز الصدارة ، بالواهب السياسية التي فرضته على مواطنيه ، وبعزات عقلية سامية ، في وقت واحد . ولكن يجب ان لا ننسى مثل « ميله » في العهد السابق ؛ فها أيضاً صادف النشاط الاقتصادي والثروة والعلائق المتنوعة المختلفة الاتجاهات وثبة ثقافية ليست نشأة الفلسفة الايونية سوى اشهر ظاهراتها . ولا يمكن ان يكون تكرر هذه المصادفة مجرد اتفاق ؛ فان الحضارة الاثينية في القرنين الخامس والرابع ، شأن

الحضارة الميئنة في القرن السابع والسادس ، لا تتفصل عن التيارات المختلفة التي تغذيها والتي جعلت حينذاك من المدينة التي نشأت فيها اوسع مراكز الحياة المادية نشاطاً وازدهاراً في المتوسط الشرقي .

لذلك فان كل ما يرتبط اذ ذاك باثينا ويبدو كأنه جزء من رصيدها ليس بالضرورة أثينياً . بنوع خاص . فالاجانب المقيمون وغير المقيمين يلعبون فيها دوراً سبق فوهنا به قد تكون اهميته النسبية كبيرة احياناً . وبين رجال الادب والعلم والفكر بنوع خاص ، تجذب اثينا او تضم اليها كل ذي مكانة . فبعد تحصيل العلم على ايدي الاساتذة ، يأتون اليها لتتيف التلامذة او اقله للبحث عن تثبيت مركزهم لدى النخبة التي نشأت او اجتمعت فيها . فندوة بريكليس واصدقائه مثلاً ، بما فيهم اسبانيا ، والمهندس هيوداموس الميلي ، والفلاسفة وذوو النظريات اناكساغور الكلازومييني وپروتاغوراس الابديري وپيتوكليس الكايوسى ، والمؤرخ هيودوتس الهايكارناسي ، تشمل بين اعضائها الاجانب والمواطنين على السواء . اجل لم يفض هذا الاجتذاب الى احتكار الثقافة ، فقد بقيت هناك مراكز اشعاع مستقلة . ولكن هذه المراكز لا تخرج البتة عن نطاق الاختصاص يدفعها تقليد عملي او تأثير رجل زائل . وقد شبه ايزوقراط اليونان بمدينة واحدة ، فتكلم عن « القرى » الريفية و « المدينة » . ولكن الرقائع العصرية الراهنة تضطرتنا الى تجوير التشبيبة : مراكز اقليمية تكسها العاصمة التي يهاجر اليها غير عناصرها . وهكذا فان اثينا التي قيل عنها « مدرسة اليونان » و « يونان اليونان » هي عاصمة اليونان الروحية ايضاً .

١ - الديانة

لا تتجدد الديانة اليونانية مجدداً عميقاً خلال العهد الكلاسيكي ، بل تبقى ما وصلت اليه في العهد السابق ولا تفقد اية نزعة من النزعات التي ظهرت فيها . ولكن حيوية هذه النزعات متباينة وسناها الخارجية غير متساو وتطورها يخرج بالبعض منها عن النطاق الديني بمعناه الحصري .

ان الورع الشعبي ، الذي لانعرفه جيداً لأنه قلماً يستهدف لنظر الناس ولأنه متواضع جداً في مظاهره ، يحافظ على حرارته وعلى كل ما يستتبعه من خرافة ووظاظة احياناً . وتشمع الطبقات الاجتماعية المتدنية ، ولا سيما الريفية منها ، حاجتها الى الايمان والحماية ، بممارسة بعض الطقوس التي غالباً ما يجهلون مغزاها الاصيلي وبالتردد على معابد محلية كثيرة يكتبني آلتها المؤلفون ، الذين اوجدتهم تقاليد قديمة جداً ، بنذوراتهم المتواضعة . ويخلو عليهم هذا من ابي سمو ، وما الغاية منه سوى الحصول على عدون فوري في الصعوبات اليومية ووقاية الوارثي والحصيد المتقبل والتخفيف من ألم ورهبة مراحل الحياة البشرية ، منذ اوجاع الولادة حتى احوال الموت . ولا يخرج علمهم هذا عن مستوى العقول البسيطة التي تحس باستمرار وغموض بوجود قوى فائقة قريبة منها لا سبيل الى ارضائها الا براسم لا مكان للناطق فيها . فانما الخوف هو

الذي يوحي بهذه المراسم، لا الشعور الديني بالمعنى الحضري. ومن شأن قدمها وقفاها ان يدهشا كل من لا يفكر بوجود المجالات المظلمة في ارفع الحضارات بهاء .

بيد انه يحدث ان تتغلب هذه الحرافات وتقيّد النخبة على الرغم من اشعثازها. ففي صبيحة يوم سلامين، كما جاء في بلوتارك، اذ كان تيمستوكليس يقدم الذبيحة، احضر امامه ثلاثة اسرى من ذرية كسر كسيس . فشاهد احد العرافين اذ ذاك شهابا يرتفع من وسط الذبايح وسمع عطسة عن يمينه . فأمر في الحال « بالتكريس » اي بتضحية الاسرى لديونيوسوس « اومستيس » « آكل اللحم النيء » . فمانع تيمستوكليس اولاً ثم اضطرته الجماهير اضطراراً الى التسليم بذلك . وباستطاعتنا ان نستشهد بأمثلة اخرى كقضية بتر اعضاء نمائيل هرميس ودعوى القادة في جزر « ارجينوز » والحكم على سقراط بالاعدام بتهمة « انكار آلهة المدينة وادخال آلهة اخرون جدد إليها » . وليست الصوفية ما يبعث انفجار الغضب الشعبي هذا ، وباستطاعتنا ان نتصور والحالة هذه عنف ثورة تميز ببطرة وحشية يندفع فيها الشعب الاثيني نفسه ، في ساعات الشدة ، على الرغم من اشتهاره بالحلم والشفقة ، ومن السمو الفلسفي والجمالي الذي توصلت اليه ديانتة الرسمية .

ولا تزال هنالك عبادات شاملة أيضاً ، على ما في ذلك من تناقض ، في عالم العبادات الشاملة مزقته الحروب بين مدينة ومدينة .

اجل ، ليست هتافات الغيب أقل منها رواجاً في الماضي . فجل ما هنالك أن الدول أقلت من استشارتها أو من التأثر بأجوبتها . ففي سبيل دعم بعض التدابير السياسية، استعان بريكيليس بدلفي وحصل على عونها فعلاً . ولكنه لم ينتفع بذلك انتفاعاً يذكر لأن الشعور قد ساد بان هاتف الغيب انتباري أو أنه يستنشق الريح أو يخضع لتأثيرات يصعب الاعتراف بها دون مس الشرف . فقد اتهم بالرشوة والخضوع للمعطاء . ولم يستنكف الرأي العام من الاعتقاد والتصريح بان عرافة دلفي ، بعد أن سايرت الفرس قبل سلامين ، سايرت على التوالي سبارطة وبيوسيا وقيلبوس . وليس في الحقيقة باستطاعة المعاصرين أن يدركوا « الحروب المقدسة » ، الاولى في القرن الخامس ، والثانية ولا سيما الثالثة والرابعة في القرن الرابع ، التي اعلنت باسم الاله على مدنسي القديسات ، الا كحروب عادية تسببها شهوات السيطرة المتقابلة وتستتبع أحلافاً دبلوماسية وعسكرية ليست الديانة لها سوى حجة واهية فحسب . وقد كان من سبارطة نفسها، المشهورة بتعبدها العميق لأبولون المنتصر على الحيّة الاصلية، أن ساندت، تشفقاً من طيبة، الفوسيديين المقيمين في دلفي على الرغم من استنجاها المرتقة بأموال الإله . وحين قام قيلبوس المقدوني في حربه ضد مدنسي القديسات ، بتتويج جنوده بغار ابولون، لم ينخدع احد بهذا المشهد التمثيلي . وقد اتفق قيام وضع مماثل لوضع دلفي في مكان آخر من اليونان . فقد بلغ من تشيع معبد دياوس لأثينا ما حال دون استمراره في تقبل اكرام الايونيين التلقائي . وليس غير القسر ما

حفظ لأعياده ظاهر الاجتماعات الدولية ، التي تتفاوت في الحقيقة تفاوت نفوذ المدينة الحامية وقد بلغ من ادراك الديلويسيين لهذا الواقع انهم حاولوا ، دون جدوى على كل حال ، حتى قبل انتصار فيلبوس على أثينا ، ان يتوجهوا الى دلفي ، أي عملياً الى الملك المقدوني ، لنيل استقلالهم . وعلى الرغم من بعدها عن الطرق الكبرى المطموح فيها ومن كونها أكثر المعابد حياً حتى ذلك العهد بين معابد الدرجة الأولى ، تطرأ على أولمبيا نفسها ، في القرن الرابع ، تبدلات سياسية المصدر . فقد فرضت سبارطة الطاعة بالقوة على المدينة التي يرتبط بها العيد . ثم سكّنت كنوز المعبد نقوداً للانفاق على الحرب ، وقد كان من حدّة المنافسات ان جرت المعارك حتى داخل الأسوار المقدسة .

الالعاب الكبرى
فالعبادات الشاملة إذن لم تحدم قط قضية تهديم العالم اليوناني ، بل أدخلت عليه جذوات انشقاق جديدة ، إذ ان التنافس بين الدول قد أفضى الى تحطيم الحواجز المعنوية التي كانت تكبحه فيما مضى ، باستثناء حالات نادرة مشينة .

ولكن ذلك لم يمنع هذه العبادات من الاستمرار في البقاء . فما زال الاحتفال بها يجري بأبهة ، وان في التنافس الحاد حيال الاشراف على معابدها لدليل على ثروة كنوزها وعلى النفوذ الذي لا يزال عالماً باسماها . ولا تتنهد التقوى الفردية بنفوس الدول ، فتنهمر الاكتنابات لإعادة بناء معبد دلفي الذي دمرته الزلازل في السنة ٣٧٣ . ويرافق ابدأ مواعيد الاحتفال بالالعاب الكبرى مهذبات مقدسة لا تحرق إلا في ظروف استثنائية . وتجذب هذه الاعياد ، أكثر من اي وقت مضى ، جماهير الحجاج الذين يعرفون أنهم في امان على طرقات السفر الطويلة أحياناً . وتزداد شهرة الفائزين بإطراد ، كما تزداد بإطراد أيضاً مظاهر التكريم التي تحيطهم بها مواطنهم الفخورون بمجد ينمكس عليها . وتطلب من الشعراء قصائد مناسبات للاحتفال بما أكرم . وفي السنة ٣٥٦ ، سار فيلبوس المقدوني على غرار مستبدي القرن السادس واولئ القرن الخامس وعلى غرار القيسياس أيضاً الذين استثمروا لشهزتهم نجاحات جيادهم ، فابتهج بثلاثة احداث تلقى اخبارها في وقت واحد : الهزيمة التي أوقعا احد قواده باللاتيين ، وولادة ابنه الاسكندر ، وفوز جياده في الالعاب الاولمبية .

بيد أن استمرار النفوذ وازدياد الأبهة لا يخفيان حقيقة الواقع . فالمشاهدون والمتبارون يتناسون وريداً وريداً والاله الذي تؤلف المباريات أهم مرحلة من مراحل الاحتفال بعيدة . وتصحب المباريات مجرد مشهد وتقد عملياً صفة الاحتفال الديني . ويبتهج الخطباء فرصة وجود الجماهير ، لإلقاء ، أو أقله لثشر خطب صرفوا الوقت الطويل في صقلها : فليس من ظرف أفضل لبلوغ الشهرة واجتذاب الزين أو التلاميذ . ويحرص المنظمون على الاكثار من المباريات وتويعها حتى لا يبقى عيديم دون الاعياد الأخرى وحتى يأسروا انتباه المشتركين ويضاعفوا عدمهم . ويكفل المصارعون تقنيتهم ويخضعون انفسهم لتعمرن شاق ، ويحترفون المصارعة ، متأكدين من الانتفاع مالياً فيما بعد بالمجهود الذي بذلوه .

وهكذا فان روحية الالعاب الكبرى قد تبدلت . اجل ، لا يزال الأغريق ، كما في الماضي ، يحسون فيها بوحدهم العنصرية واللغوية ، وحتى القومية نوعاً ، على ان هذه الصفة الاخرى غير ذات أثر . ولكن العيد الديني لم يلبث ، يوماً بعد يوم ، أن أصبح مجرد فرصة أو حجة لمظاهر الاحتياج الجماعية . وزالت حرارة التقوى ، وفقدت المباراة مغزاها كتقدمة مجهود تلقائي لاله يولي النصر لافضل المتبارين ويعين بذلك ، لا اسرعهم او اقوام ، بل اكثرهم اعتباراً وتقديراً في نظره . ولا شك في ان ابولون دلقي كان ينشر ، بفضل المزيد من الحكمم القصيرة ، تعليماً اخلاقياً موجزاً : « اعرف نفسك » ، « لا شيء يتجاوز الحد » ؛ ولم يقصر مفهوم الرجس على الصعيد الطبيعي دون غيره . ولكن زفس اولميا لم يأت شيئاً من ذلك ، واذا استطاعت الالعاب الرياضية التي تبناها ان تمزج الصفات الجسانية في الشعب اليوناني ، فانها قد فقدت ، خلال العهد الكلاسيكي بالذات ، الصبغة الدينية التي اصطبغت بها في الاصل .

ادام تزل هذه الصبغة الدينية تترامى في بعض المعابد التي يتجاوز فيها مؤمنون
 اسرار الفيس
 Eileusis
 مختلفو التابميات ، فان ذلك محصور في المعابد التي تلقن فيها اوليات بعض الاسرار .
 وعدد هذه المعابد كبير في اليونان . ولكن واحداً منها فقط يجمع اتباعه
 في دائرة تتسع باطراد ، هو معبد الفيس ، في الأتيك ، على مسافة كيلومترات من اثينا .

لا عقبات تعترض الدخول اليه . فالعيد انفسهم يُقبلون فيه ، ولا توصل ابوابه الا في وجه المجرمين والبرابرة . نحن لا نعرف احتفالاته معرفة تامة ، ولكن ما نعرفه عنها يكفي للقول ان كشف بعض اسرار الحياة الثانية كان يتخلل بعض الطقوس المنقولة عن العبادات الزراعية ؛ فقد اشرك في عبادة الفيس ثلاثة آلهة من آلهة النباتات : « ديميتير » وابنتها « كورا » وديونيسوس . وكان ذلك عاملاً هاماً ثابتاً من عوامل نجاح هذه الاسرار . وقد اتفق اسمي مفكري العصور القديمة على تقريرها ، مما يحملنا على الاعتقاد بانها قد انطوت على تفسير رمزي عن طريق عرض غير مثير وتمثيل مختصر . غير ان ذلك كله كان يستدعي فكرة الموت ، مصدر قلق الانسان الدائم . وكان المشترك في هذه الاسرار يغادر المعبد مطمئناً الى المصير الذي سيكون مصيره بعد الاجل المحتوم . فقد كتب « سوفوكليس » ، وعلى غراره كثيرون : « طوبى ، ثم طوبى لارثلك البشر الذين سيذهبون ، بعد مشاهدة هذه الاسرار للقابة « هاديس » . اما الآخرون فكل شيء سيكون لهم عذاباً . اما معرفة طبيعة كشف الاسرار هذا فن اشد مشاكل الديانة القديمة اغلاقاً . فهل هو وسائل آلية لاتقاء الاخطار الرهيبة ، ام تعلم عقائدي قين يارضاه القابليات العقلية المختلفة ؟ يتعهد المشتركون بحفظ السر ، ولم يحدث ان حفظ سر كهذا الذي اؤتمن عليه ، طيلة قرون ، عشرات الالوف من البشر .

من خواص عبادة الفيس انها توجهت الى الفرد كفرد ، بعيداً عن كل نظام قانوني وعن كل أثر عائلي او مدني ، الى الفرد وحده كما سيكون يوم موته . ولذلك كان نجاح هذه الاسرار

موازينا لنجاح الديموقراطية الاثنية نفسها التي حققت النصر بشحريها المواطن من ضغط الجماعات العائلية . فاصبح نجاح أثينا ، بفضل الفيسس ، منقطع النظير . فهي قد توصلت الى خلق عبادة شاملة من عبادة تحميسا المدينة ويشرف عليها القضاة ويحتفل بها في معبد هو ملكها تتخذ هي حيال ادارته مقررات نافذة . وقد اقتضى منها ذلك الاعراض عن بعض ادعاءاتها ، بدليل فشلها ، في القرن الخامس ، حين اهابت بكافة الاغريق لأن يكرسوا بواكير حصائدهم لآلهات الفيسس اللواتي اطلعن البشر على اسرار زراعة القمح . ولم يصبح النجاح دوليا الا بعد ثبوت الحيد السياسي وبعد الاقتناع بان عبادة الفيسس ليست عبادة مدنية على الرغم من كونها عبادة المدينة .

العبادات المدنية تربط الديانة اليونانية الكلاسيكية ، على العموم ، ارتباطا وثيقا خاصا بالمدينة نفسها . ويسم هذا الارتباط الى حد كبير ، والحالة هذه ، في جعل الحضارة اليونانية حضارة « البولس » بالذات ، لان تفتح هذه الديانة يسبب بدوره تفتح مظاهر اخرى في الحضارة .

ان للمدينة آلهتها وعباداتها ، وكلاما متفاوت مرتبة ومنشأ واهمية حتى في نظرها، ولم تثبت ما تبنت منها الا في عهود حديثة نسبيا ولاسباب مختلفة كثيرة . فهناك في الدرجة الاولى الآلهة « البولياسيون » اي المفروض فيهم ان يحموا البولس بنوع خاص ، لان المدينة تملن انتسابها اليهم معتبرة عبادتهم كنظامها الاساسي وكمنوان وضمانة لميثاقها الاجتماعي . وهكذا فان اثينا هي مدينة الإلهة « اثينا » التي تعبد بهذه الصفة وتدعى لذلك « اثينا بولياس » . ولكن « اثينا » نفسها تعبد فيها ايضا بصفتها « اثينا ارغاني » (العاملة) و « نقي » (النصر) و « هيجيا » (الصحة) ... فباية نسبة تبقى « اثينا بولياس » في جوهرها ، والحالة هذه ، ياترى ؟ ومن جهة ثانية ، فان العبادات « البولياسية » لا ترى ضيراً في قيام عبادات اخرى متوازية كثيرة .

تتنوع طبيعة هؤلاء الآلهة تنوعاً كبيراً جداً . فبعض آلهة الاولمب العظماء الذين قديمهم صفة عبادة يجاورون بعض آلهة العائلات القديمة ؛ وبعض الابطال المرتبطين بتاريخ المدينة يجاورون آلهة غرابة توحى الاغريق من تكريمهم تجنب عداوتهم . ولم توضع قط لائحة نهائية بالآلهة ؛ فلا يحددها فيها ، أقله نظرياً ، خوفاً من استياء قوة فائقة الطبيعة ؛ وليس ما يحول دون اطلالها . لذلك فليس هنالك عبادة مدنية بل عبادات المدينة . وقد يترابط بعض هذه العبادات ، على تفاوت في قوة الترابط ، تقرب بينها الاسطورة او ظروف تبتني الدولة لها . ولكن ليس ما يوحدنا كلها في مجموع نظامي . فقد جعلها قرار المدينة تتجاور دون انصهار ، وليس ما يجمع بينها سوى الجوار الجغرافي في ارض واحدة وفي بوادر - وربما نفوس - جماهير واحدة .

وتتنوع هذه البوادر نفسها تنوعاً لا نهاية له . فالاعباد والذبايح والقرابين والصلوات واحدة

في جوهرها ولكنها تختلف بتفاصيلها وتنظم وفقاً لبرامج لا تحصى . لا بل ان الانظمة المتملكة بكل عبادة لم توضع بصيغة لا تقبل التغيير . فهي لا تلتفي البتة إلقاء رسمياً بل يكتفى باملها الى ان تسنح فرصة ممكنة للعمل بها . ولكنها توسع وتحوّر ويضاف إليها : ويكفي لحدوث ذلك ان تلمية تقلبات الذوق أو الشعبية او السياسة أحياناً .

يتضح من هذه الميوعة في لائحة العبادات المدنية وطقوسها ، ان الآلهة التصلب والتسامح البولياسيين لا يهتمون لا لإبعاد حسود ولا موجبات مازمة . فتعدد الآلهة مدعاة للتسامح . وليس هناك طبقة خاصة بالكهنوت يميل أفرادها بالفطرة الى العناية بمحقوق الآلهة . فالكهنوت وظيفة عامة تسند ، لفترة محدودة ، الى مواطنين لا يفرض فيهم معارف خاصة يعينون بالانتخاب أو بالقرعة وفقاً لطريقة أشبه بطريقة تعيين القضاة . ويحدث غالباً ان يضيف هؤلاء القضاة الى صلاحياتهم الادارية او السياسية صلاحيات دينية يتبعون في استخدامها ارشادات موظفين ضليعين في معرفة الطقوس والصيغ . ولا وجود للعقائد الايمانية نفسها لأن الاساطير التي تقوم مقامها تنطوي على فوارق لا عدتها .

يجمي التشريع الديانة المدنية . وذلك ثابت فيما يخص أثينا على الاقل حيث يواجه القانون جريمة « الزندقة » التي تعرض مرتكبها لأقسى العقوبات . أجل لم يعمل بهذا القانون إلا نادراً ، ولكن هذا القانون واقع رامن ، وهو سلاح رهيب لا يتردد المسؤولون في شهره عندما تبدو الدولة في خطر او عندما يمتبرون ، مخلصين او غير مخلصين ، بأن بعض الممارسات التقوية تسيء بشكل فاضح الى الاخلاق العامة : فقد استصدر ديموستين ، مثلاً ، حكماً بالإعدام على امرأة وجميع اعضاء عائلتها بتهمة تعاطي السحر والتسميم . فلا يصح اذن ان ننسب ، حتى لأثينا الديموقراطية نفسها ، روح تسامح مثالية .

غير ان ما لا شك فيه هو ان العبادات الاجنبية المنشأ ، لا تتعرض البتة للتحريم ، بهذه الصفة ، لا بل تكاد لا تكون موضوع شبهة او ريبة . فان إله الواحة اللبية ، آمون ، مثلاً ، الذي تمثل يرفس دونما صعوبة ، قد انتقلت عبادته ، عن طريق كيريبي الى القارة الاوروية حيث أقيمت له المعابد ، ولم ينتظر بعض مشاهير الاغريق ، من امثال ليسندروس ، مثل الاسكندر لاستشارة عرفائه . وقد اضطرت أثينا ، بسبب مرفأ البيره الذي يؤمه البحارة والتجار والمسافرون من كل البلدان ، ان تتألف في التساهل . فسمحت في الدرجة الاولى بأن تؤسس جمعيات خاصة يعبد أفرادها الآلهة الغريبة كالإلهة « بنديس » التراقية و « إيزيس » المصرية و « الوالدة الكبرى » الفريجية و « أدونيس » و « عشتار » السورين : ومنذ البدء ، انضم بعض المواطنين ، دونما تستر وتعرض لأي لوم ، الى صفوف الاجانب المقيمين وغير المقيمين في هذه الجمعيات . وأقرت أثينا بعد ذلك دخول العدد الاعظم من هؤلاء الآلهة الى العبادة الرسمية .

ان في هذا التساهل ، أو بالأحرى هذه الغالبية للتسرب ، ما يشيخ الدهشة . فالمدينة التي تصلبت ذاك التصلب في الدفاع عن استقلالها السياسي والحفاظ على قسامة مواطنيها العنصرية فتتحق الشعور ببديها في تقردها الديني ولا ترمي ضيراً في ان تصاب بعدوى ديانات البرابرة . وقد برهن أفلاطون مرة أخرى عن منطق السلم في حكمة القاسي بالغاء العبادات الاجنبية . غير ان الدولة اليونانية قد استسلمت ، في الحقيقة ، لتيار لا يقاوم ، كما استسلم له الدولة الرومانية فيما بعد . فقد كان كافياً لعامة المواطنين ان يتخلصوا بعض الشيء من خرافات الورع الشبي حتى لا يجدوا في الآلهة اليونانية الحرارة والحمية اللتين تستطيمان اشباع نهمهم للتأثر الداخلي الخالص . لذلك فقد بجثوا عنها في غير مكان وفرضوا على الدولة العبادات التي وجدوها فيها .

انقضت الديانة المدنية ، ظاهراً ، على الطقوس . ففي حوار وضعه النخبة والديانة المدنية
أفلاطون ، يحيل سقراط محدثه على التصريح بما يلي : « ان التقوى والاعباد
وضمان خلاص العائلات والمدن في معرفة قول ما يرضي الآلهة أما بتأدية الصلاة واما في تقديم الذبيحة . فلم تكن عامة المواطنين لتري أبعد من هذا . ولم يتح لغير الفلسفة ان تعمد الى هذه الديانة الآلية عاطفة أكثر عمقاً . وفي القرن الخامس على الاخص ، اكتشف قسم من النخبة - وفي طليعتهم بريكليس - مفتاح سر ذلك في التفسير العقلي : فهو يصعد ديانة المدينة بتجريد روحي واخلاقي يحافظ على بعض البرودة في الأعالي التي تسمو الديانة إليها . اما في القرن الرابع فتستخدم الاساطير ، بفضل أفلاطون بصورة خاصة ، دعامة لصوفية تحاول خلق وحدة بين نزعات النفس الخالصة وبعض المبادئ المجرّدة . ولكن هذه النزعة وتلك تعديان كلتاها امكانيات المواطن العادي .

بيد ان المشرفين على إدارة البولس قد حاولوا احاطة طقوس الديانة المدنية بهالة من البهاء والنضارة . فان توسيديد ينسب الى بريكليس قوله : « نحن قد وفرنا للروح سبل اراحة لا تحصى عن طريق الالعاب والذبائح الدورية المنتظمة » . وكان في الواقع للتسوية والراحة الضروريتين للسكان اهميتها الخاصة لا سيما وارت الاغريق قد جهلوا « يوم الأحد » الذي يجدد تعاقب اسابيع العمل . ولكن اعتبارات اخرى كان لها اهميتها ايضاً . ويأتي في الدرجة الاولى منها الحرص على تقريب وبالتالي على توحيد جميع اعضاء المدينة في بادرة تكريم جماعي لآلهتها الحامين ، اي للمدينة نفسها عملياً : وهكذا ، تسير الديانة جنباً الى جنب مع الصلحة الانانية ، التي هي مرتبطة بها على كل حال ، وتقوم مقام الاساس بالنسبة للوطنية . وتأتي في الدرجة الثانية الرغبة في استمالة هوة المشاهد الجميلة واعلاء شهرة المدينة في حرارة التقوى في عين الاجانب ، وذلك توطيداً لأركان نفوذها وخضوعاً لطمع مستمر في رفع العيد البلدي الى مرتبة الاعياد الشاملة .

وهكذا فان كل المدن قد اندفعت في المنافسة . فاحتفلت سبارطة نفسها ، التي سخر

خصومها من خيبتها المستوحشة الضجورة - وللملة بزيكيس التي سبق واستشهدنا بها ما يبررها ويرتّب التأين الذي وردت فيه مقارنة ضمنية لتسير مصلحة العدو - بأعياد كثيرة تتخللها الحركات واغاني الجوقات للمتعاقبة التي أطلب المعجبون في تجسيد نقاوتها القديمة . غير ان أثينا ، بفضل ثروتها وذوق حكامها وبفضل شمول وقيمة ما تركته للأجيال اللاحقة من مستندات اديبية وفنية قد كسفت كل منافساتها على هذا الصعيد ايضاً . ولكن نجدد الاشارة ، اذا ما استثنينا اعياد الفيسس التي نوهنا بنجاحها النادر ، الى ان قيام الامبراطورية الأثينية هو وحده الذي استطاع ، بصورة عابرة بالتالي ، ان يطبع اشهر اعياد اثينا بطابع شامل جزئياً . وما كانت التقادم التي أتت بها وفود حلفائها الى إلهتها « أثينا » سوى تعبير عن اعترافهم بقوتها المادية : فان تأدية الاكرام فيها لإلهة مدينة اجنبية ، لم يكن ليوافق النزعة الى الاستقلال التي تجيش في كل مدينة مهما بلغ من ضعفها .

اشهر عيد « أثينا » الكبير باسم « بانائيسا » وكان يذكر بتأسيس
عبدالإلهة أثينا الكبير المدينة نفسها، بتوحيد كافة الاثينيين سياسياً .

كان الاحتفال به سنوياً ولكنه يحاط بجلال خاص كل اربع سنوات . وينسب احداثه الى صلون او بيسيستراتوس في الربع الاول من القرن السادس . وضع برنامج المتنوع المستبدون اولاً وسارت الديوقراطية على خطاهم واصبح يستغرق في النهاية تسعة ايام . وكان يستأتم المباريات المختلفة : المباريات الفنية من إلقاء او « موسيقى » أي غناء على ألحان آلات موسيقية ؛ والمباريات الجيادية او الرياضية ؛ ومباريات الافراد او الجماعات ؛ ومباريات القوى او الحفنة ؛ والاختبارات المناسبة واعمار المتبارين من فتیان وشبان ورجال : السباق على ظهر الجياد والرقص بالاسلحة والسباق بالمشاعل . وكان الفائزون في اشهر المباريات يُعطون الجوائز قوارير مملأ بزيت زيتون الإلهة ، وهي القوارير البانائينية الذائعة الصيت المصنوعة والمزدانة خصيصاً لهذه الغاية .

ويترك المشهد الرئيسي من مشاهد هذا العيد لليوم الاخير . وهو تطواف طويل تسير على رأسه الشخصيات الرسمية ويشترك فيه المقيمون الاجانب انفسهم . ينطلق من شمالي غربي المدينة مصطحباً معه ، حتى معابد القلعة ، الذبائح والقرايين . وبين القرايين قطعة فاخرة هي « البيلوس » المدة لتمثال « أثينا » ، تحميكها وتطرزها ، طيلة سنوات اربع ، فتيات العائلات الكبرى وفاقاً لقواعد تقرها السلطات تدور حول موضوع دائم هو صراع أثينا ضد الجبارة . ويشكل هذا التطواف وهذه التقادم اكراماً يؤديه ، للإلهة البوليسية الاولى ، المدينة كلها وكل من يرتبط بها توحد بينهم فكرة واحدة : عرفان الجميل والامل .

اعيد ديونيسوس
والتمثيليات المسرحية
اذا كان تطواف عيد « أثينا » الكبير ، الذي يذكرنا به افرز
البارثون ، يحملنا على الاحساس فوراً بالصلة القائمة بين الديانة والفن ،

كانت اعياد ديونيسوس، تثقل بنا ، عن طريق المسرح ، الى الجساسة الادبية .
كان لديونيسوس عدة اعياد في السنة ، خلال الحريف وفي اوائل الربيع . يحتفل بعضها في القرى الاقليمية ، اي في الارياف حيث عرفت الوجود ، وفي المدينة ايضا . وقد نظمت في القرن السادس ، خصيصاً لأحد هذه الاعياد في المدينة ، التمثيليات المسرحية التي شملت فيما بعد اعياداً اخرى ، واهتمت الاقاليم نفسها خارج المدينة ، لا سيما في البيرة ، لتنظيم مثل هذه التمثيليات ، بالنظر للنجاح الذي كان يصادفه مثل هذا المشهد في العيد . وكانت هذه التمثيليات في الواقع ، بعد التطواف ، مباريات موسيقية ، مأساتية او هزلية . وقد اخذ بعض اغنياء المواطنين ، « الحوريفي » ، على انفسهم لباس وتدريب الجوقات الموضوعة تحت تصرف المؤلفين الذين وقع اختيار احد القضاة على مؤلفاتهم . وكانت الجوقات ، في المباراة ، تنصّر لقضية قبيلة « الحوريفوس » ، وكان فخر النجاح ، بعد قرار الحكام ، يعزى « للحوريفوس » والمؤلف على السواء . وهكذا يتضح نشوء المسرح الاثيني ووثيقته السريعة .

تطور الأعياد
يتضح أيضاً من العناية الفائقة التي احاطت بها الدولة هذه الاعياد ومن الاكلاف التي كانت تقتضيها أنها تتخطى الاطار الديني تحطياً بعيداً ، اجل ، انها تحتفظ ، عن اصلها ، بالخطوط الاساسية : الذبائح والتقدم والتطوافات وشكل المباريات . وتستجيب المباريات ، في المجهود الذي يبذل اكراماً لاله ، لفكرة التنافس نفسها في المباريات الرياضية والالعاب في الاعياد الشاملة . ولكن ميزات اخرى ، فرضت بعضها النخبة الحاكمة ونشأ بعضها الآخر بفعل التطور الطبيعي ، تظهر باكرأ جداً ولا تلبث ان تتغلب رويداً رويداً . وتخدم الاعياد الدعوة دولياً للمدينة وتقوي التحام الشعب ادبياً وتوفر لهذا الاخير ، بالإضافة الى اسباب الراحة ، عناصر ثمينة للاستقصاء الفكري والجمالي .

وقد حرص حكام الديموقراطية الاثينية على ان لا تقتصر الافادة من هذه الاعياد على الطبقات المسورة دون غيرها لاقتناعهم بنتائجها الخيرة على هذا الصعيد . فنذ عهد بريكلبس تلقى الفقراء مساعدة من الدولة لتتيح لهم دفع رسم الدخول الى المسرح الذي كان اذ ذاك مجرد مدرج خشبي يجهزه الملتزمون - اذ ان المسرح الرخامي والحجري الدائم لم ينجز ، في منحدر القلعة الجنوبي ، قبل اواخر القرن الرابع ، بعد ان انجز اقليم البيرة اعداد مسرحه . ولكن ما لبثت ان رفعت قيمة هذه المساعدة ودفعتها لمناسبة اعياد لا توجب على المشاهد اي انفاق ، باستثناء اجره عن يوم يعطله . ففقدت هذه المساعدة ما يبررها وغدت في الواقع مساعدة مالية من شأنها اذا ما اضيفت الى تعويضات الاشتراك في الحياة السياسية ، ان تشجع بطالة المواطنين وتسهم في صرفهم عن العمل المنتج لمصلحة الاجانب المقيمين وتقتطع في الوقت نفسه قسماً من الموارد العامة كان بالإمكان الانتفاع به في حقل آخر .

في الوقت نفسه تقريباً من القرن الرابع انخفض عدد التمثيليات الجديدة المعدة لاعياد

هويينسوم ودرجعت العادة على انه تعتمد ، في كل عهد ، تمثيلية متباعدة بين التمثيلات التي عرفت شهرة واسعة في القرن الخامس . وكان لهذه العادة ما يبرها تدي مستوى التمثيلات الجديدة ، ولكنها لم تتلاف قط هذا التدي . فكانت النتيجة ان اقضى الحرص على ارضاء الجماهير بما تنتظره الى اقصار المباراة على التنافس في الاخراج والجوقات والممثلين .

واقضى تطور موازين الى اعطاء الممثل مركزاً اكبر في المباراة المسرحية . وكان هذا المركز في البداية على درجة قصوى من الاغفال اذ كان المؤلف نفسه يقوم بدور الانشاد . ولكن ازدياد عدد الأشخاص في التمثيلية قد رافقه ازدياد الاقتناع بما يمكن لموهبة وخبرة الممثلين ان تضفيها من اهمية على التمثيل ، لا بل من قيمة للتمثيلية احياناً ؛ فظهر حينئذ الممثل الممتحن كما ظهر من قبل ، في الألعاب ، الرياضي الممتحن . ثم شملت المباراة المسرحية الممثلين الذين نالوا التيجان على غرار « الجوريجي » ، المؤلفين والذين انتظموا فرقاً وانتقلوا من مدينة الى مدينة عاقدين اتفاقيات كثيراً ما تحدد فيها الغرامات التي يتوجب دفعها على من يخل بشروط العقد . وقد عرف بعض هؤلاء الفنانين شعبية دولية . وقد ألتحت لهم تنقلاتهم ، والعلاقة الطيبة احياناً التي ربطتهم بالحكام ، ان يتدخلوا في الظروف السائجة في المفاوضات الدبلوماسية . وبما لا ريب فيه ، على كل حال ، ان شهرتهم ، قبل ايمانهم ، هي التي اجتذبت الجماهير الطامعة بالمشاهد الرقيقة النادرة .

تمت هذه التبدلات المتجانبة عن المحرف في الفكرة التي نهضت ، في البداية ، بالاعياء الدينية ، فقدا فيها جوهرها ما كان في البدء مجرد مشاهد فانسوية او ملحقات فقط . واخذت صبغتها الدينية المميزة امام قيمتها المسلية والجمالية والادبية والسياسية . واصبحت الديانة مجرد فرصة وحبية .

٢ - الفن

ان هذا العهد لاجل عهود الفن اليوناني الذي تفيض تحقيقاته اذ ذاك باسمي المعاني الانسانية ، وقد فرضت اهمية تعاليمه العامة والدائمة ان ترى فيه ، حتى في ايامنا هذه ، الفن الكلاسيكي بالذات . وهو ينم عن ألمية وملكية قياس وانسجام خليقتين بارضاء الانسان في كل زمان ومكان شريطة اطلاق العقل فوق المادة . غير ان هذا الفن مرتبط « بالبولس » وديانتها وظروف حياتها الجماعية ونظرتها الى الانسان ارتباطاً من الوثوق بحيث يفقد عظمة شموله عندما تتخطى « البولس » ووجها وتتحدر في طريق الهبوط . وان إعجب واحب مظهر في « المعجزة اليونانية » هو هذه الموازنة بالذات بين النزعات الجمالية عند جماعة بشرية في فترة من وجودها وبين نزعات الانسان الدائمة . ويجب البحث عن سر ذلك في مجهود التعبير والتنظيم المنطقي الذي يخضع الفنانون اليونانيون الواقع له لينتقلوا به ، فوق العرض والتركيب والصورة ، الى مستوى مثالي وحققيقي مما يستطيع فيه بلوغ جمال غير عابر .

لن تكن هندسة العمارة ، كما سبق ورأينا لتعير كبير اهتمام للسكان التنافس في مجهود
البشرية ، لا بل انها تكاد لا تهتم لحاجات المدينة الدنيوية . فقد بقيت الابنية هندسة العمارة

التي شهدها المستبدون من ساحات عامة وبنابيع واقنية جر المياه دون منافس في ظل الانظمة التي خلفتهم والتي اقتصرت عملها ، في هذا الحقل ، على الابنية ذات المنفعة الفورية كلاسوار ودور الصناعة والمخازن العمومية التي لا اهتمام فيها البتة للناحية التزيينية . فقد كرست المدينة مواردها لخدمة وتكريم آلهتها متجملتها بما يعبر عن ورعها الخاص .

لا بل انها تدخر مجهودها الرئيسي لمساكن الالهة اي المعابد . ولا تهمل الابنية المقيدة للاحتفالات او الاعياد الدينية ولكنها تحلها في الدرجة الثانية . ولا يظهر المسرح كبناء دائم ثابت ، على الرغم من فائدته لراحة المشاهدين ، قبل اوائل القرن الرابع . ومما كان من روعة اعياد ديونيسوس ، فان اثينا قد تأخرت على هذا الصعيد ، عن عدة مدن اخرى .

ومما تجدر ملاحظته من جهة ثانية ان المعابد الكبرى الجامعة تحاول ان لا تتأخر عن ركب المدن . اجل لا تزال بعض المدن تشيد الابنية في حرم بعض المعابد . ولا تزال بعض المذاخر ، من امثال تلك التي كرسها الاثينيون لدلفي بعد انتصارهم في ماراتون ، تتبع تقليد القرنين السابع والسادس . ولكن هذه الطريقة تحف رويدارويدا مفسحة المكان لتقدم أكثر تواضعا كالتماثيل والنذورات المختلفة . غير ان المشرفين على ادارة المعابد الكبرى يعوضون عن تقاعس المسدن باقدامهم على البناء بفضل ثروات الاله الخاصة التي لا تزال تغذيها هبات تأتيا من شتى المصادر . وهكذا فان معبد ابولون ، في حرم دلفي ، بعد ان تهدم في السنة ٣٧٣ ، قد اعيد بناؤه بفضل الاعطيات الدولية . واذا حصل بعض التأخير في هذا العمل — اربعين سنة تقريبا — فمرد التأخير الى اضطرابات الحرب المقدسة الثالثة . وقد بذلت الجهود نفسها وحقت النتائج نفسها حيث تعود ادارة المعبد الى المدينة ، لا الى المقاطعة كما في دلفي ، فأمنت الموارد الضرورية اذ ذلك تبرعات الحجاج التقوية الكثيرة . وهذا ما حدث في اولمبيا حيث شيد معبد زفس قبيل السنة ٤٥٠ وخيث تعددت الابنية في الـ « ألتيس » . وحدث هذا ايضا في مدينة « اينذورس » الصغيرة في « الارغوليد » التي استطاعت ، بفضل الشعبية المتزايدة التي عرفتها معجزات ايلها الشافي « اسكليبيوس » ، وبسرعة مدهشة ، ان تجهز معبدها وتنشئ هيكلها والبناء المستدير السري . ومرسحها الذي يتسع لـ ١٤٠٠٠٠ مشاهد .

بيد ان الغلبة تبقى للندن التي تقدم لنا اذ ذلك ، على الرغم من ضعف نفوذها الديني ، مشهد تنافس في حقل البناء يزيد في وقعه المؤثر انها مجاحة الى مواردها المحدودة لمطلبات اخرى كثيرة . لا شك في ان للجد الباطل بعض الاثر في ذلك ؛ ولكن هذا الجدل لا يكفي لتعليل كل شيء ، لاسيا في مدن بعيدة عن طرقات انتقال المسافرين الكبرى ، تعلم علم اليقين انها مغمورة وانها ستبقى مغمورة . فيجب ان نفرز فيها مكانا للتقوى الصادقة ولتذوق الاشياء الجميلة . وقد حدث الاطلاق ، في العهد السابق ، من مناطق تكاد تكون خارجة عن العالم اليوناني ، اي من آسيا الصغرى والغرب حيث كان الازدهار الاقتصادي قد بلغ شأواً بعيداً . غير ان هبوط هذا

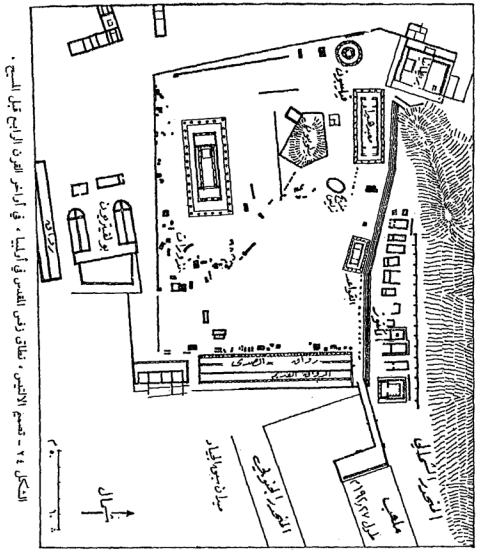
الازدهار ، في اعقاب تهديد او واقع ضغط البرابرة قد افضى الى اضعاف هذا الانطلاق . وما ان انتهت الحروب الميدية ، حتى استلمت اليونان الاوروبية القيادة في هذا التطاق وغيره ، ومنذ اواسط القرن الخامس تقوتت أثينا على كافة منافساتها بشمول ونجاح بمجهودها . وجدير بالاجارة هنا ان ايقاف هذا المجهود ، في السنوات الاخيرة من حرب البالوونيز ، بعد ان اتمت اثينا « الايرخشيون » ومعبد « اثينا نيقي » لم يثن أوروبا اليونانية عن متابعة السير قدما . ففي اوآخر القرنين الخامس والرابع ، تنفرح الوثبة وتشمل مدنا صغيرة كقرية « باسي » الاركادية ، وتنقل في الوقت نفسه الى آسيا الصغرى بفضل النجاح الذي صادفه نشر الحضارة اليونانية بين البلدين . وفي حركة الجزر هذه نحو المركز الذي بدأ وكأنه يجتذب اليه كافة التيارات الكبرى في الحضارة اليونانية كي يسمو بها الى القمة ، ثم في هذا المد الذي يبعد الفعل الحلاق الى اصغر الحلايا والى مناطق الحدود التي دب فيها الانتعاش ، يحق لنا ان نرى شبه رمز مختصر للتاريخ اليوناني .

التقليد والكمال في مهابا يمكن من تنوع نشاط الهندسة المعمارية في المناطق الجغرافية المختلفة فانه هندسة العمارة لا يفضي الى اشكال اقليمية مختلفة الجوهر .

فالمعبد انا يحافظ على المنظر العام الذي خلفته له القرون السالفة ، والذي لم يخالف الا في حالات خاصة جداً لا نستطيع اليوم تمييزها بصورة كاملة ، على كل حال . ويبدو هذا الحرق في ابنية ابيندورس المستديرة وفي معبد مرماريا الصغير داخل حرم دلفي مثلا . ويبدو كذلك في بناء الايرخشيون الاثيني المعقد ، المد لا يواءم الاثر القديمة واقدام التقاليد العائدة للمدينة ، برواقه الرائع المزدان باعمدة على شكل تماثيل نساء يستند اليها ساكن المعبد لا يخفي سحرها ما فيها من غموض واهام . وتمثل هذه المخالفات نزولا عند متطلبات قاهرة خاصة لا احداثا يستجيب لتصميم على التجديد كان من المحتوم ان تقاومه قوة التقليد .

لا تبديل في الرسم العام الذي يؤول ابدا ، بالتبسيط ، الى قاعة مستطيلة تتقدمها ، عند طرفها ، اروقة تعلوها « الواجبات » الثلاثية الشكل . ولا حل جديد بلعضة السقف الذي يفرض ، كما في السابق ، تحديد العرض بين الجدران او اللجوء الى الاعمدة الداخلية . ولا يحول هذا التشابه الجوهرى دون الفوارق الخاصة : كوجود الاعمدة حول المعبد او فقدانها ، والمسافات بين الاعمدة وارتفاعها ، وقياسات وترتيب المساحة الداخلية ... غير ان بعض المعابد يحافظ بدقة ، في النسبة بين اعمدها ، وفي تضديد الاقسام الستة تعلو الاعمدة ، وفي توزيع النقوش الزخرفية ، على مبادئ الطراز الدوري او الطراز الايوني . وهناك معابد تؤلف بين الطرازين تأليفاً زاد في تنوعه ظهور عمود جديد في القرن الخامس هو العمود الكورنثي ذو التاج المثلث بالنقوش الذي صادف نجاحا متزايدا . ولكن كل ذلك مجرد فوارق لا يمكن نعت اي منها بالثورية .

بذل مهندسو العمارة جهداً حقيقياً في محاولة تحقيق التناسق العام والكمال في ادق الاجزاء .



الشكل ٢٤ - تخطيط الأبنية . نطاق زفس الماس في أريحا . في أواخر القرن الرابع قبل المسيح .

وإذا ما حصل ، في هذا المجال ، ان الحزبت ابنية أكثر تألقاً ، في مجال اجزائها الدقيقة ، من البارثونون في اثينا ، فانه ليس من بناء اعظم منه جلالاً عقلياً في المطابقة النسبية ، ولا ازهني في انتقاء المرمر المستخرج من الـ « بنتليك » ولا اروع في تحت هذا المرمر وتضصده ولا اعرق دروساً في تصحيح الاخطاء التي قد يسببها بعد مرمى النظر او تأثير النور الساطع . كل شيء فيه حتى قياسات اصغر حجر ، قد صمم بقوة منطق تحير المخيلة بشمولها وافرطها في الدقة ، ونفذ بمهارة تدهش العقل مجردتها على الكمال . ولا يمكن ادخال اية شفرة سكين ، مهما بلغت دقتها ، بين القطع التي تتألف منها الاعمدة والتي تربط بينها ككلايب معدنية . وتنحني سافات الاساس التي تستند اليها الاعمدة الخارجية ، من كلا طرفي المحورين ، بمقدار ٠.٠٥٩ م و ٠.٠٦٧ م في اوجه البناء التي يبلغ طولها ٣٠.٨٦ م ، وبمقدار ٠.١٠٧ م و ٠.١٠٩ م في الواجه الطولية التي تبلغ ٦٩.٥١ م : وليس المقصود من هذا التحدب الخفيف تصريف مياه الامطار بل تجنّب الشعور بالانخفاض الذي يحدثه ، في وسطه ، خط اقضي طويل ، لا سيما وان هذا التحدب يقابله تحدب مماثل في السالكف فوق الاعمدة . وباستطاعتنا الاستشهاد بأرقام اخرى كثيرة تثبت ، شأن الارقام السابقة ، ضبط الدقة الفنية الذي توصل اليه منفذو الاعمال وسيادة اولئك الذين صمموها في الفكر ، كلياً وجزئياً ، العمل الواجب تحقيقه .

تووع النقاشه
 اما النقاشه فاكثر تنوعاً . لا شك في ان الديانة لا تزال مصدر الالهام الاكبر للفنانين ، فهي تقدم لهم المواضيع ، بصورة شبه دائمة ، مباشرة او غير مباشرة ، للتأثيل والنقوش الناتجة على السواء كما تقدم لهم ايديتها او معابدها الامكنة المعدة لها هذه النقوش . ولكن مصدر الالهام قد يكون غير ديني احياناً . فيمثلون شخصيات سياسية او قوادا عسكريين ، على قيد الحياة احياناً — اقله منذ اواخر القرن الخامس . ويمثل النقوش على النصب المندفي الميت في حياته اليومية . ويفرض تشبيه الالهة بالبشر ، حتى في اقدس المشاهد ، نقل الامثلة الالهية عن الدنيويات ، وليس المغزى الديني في هذه الامثلة احياناً سوى عذر وحجة : فهل تفقد افروديت ، التي مثلها براكسيثيل ، انوثتها مثلاً عندما لا يطلق عليها اسم البغي « قريفي » ؟

ثم ان هذه المواضيع الدينية نفسها اكثر تنوعاً من الابنية التي شيدها المهندسون . فالاسطورة توفر مشاهد تعالج بالتفضيل : اعمال « هيراكليس » والصراع بين شعب « اللايث » وشعب « الصنطور » ومعارك « الازازون » .. . وكم مشهد آخر اختاره الفنانون من الامثال والالهة ااضف الى ذلك مشاهد الحياة الدينية ، الذبائح وعدتها والتطوافات والمباريات على اختلاف انواعها واورضاعها . ثم ان المعبد الدوري اخيراً قد فرض وجود النقوش في لوحاته الرخامية ، كما فرضه المعبد الايوني في افريزه وكما فرضه كلاهما في المثلثين المتقابلين فوق الاعمدة الخارجية ؛ وكان كل بناء ، او كل حرم مقدس ، يتقبل ، اذا ما صادف الاله فيه بعض الاكرام من قبل الافراد والجماعات ، التذورات والتأثيل التي يعتمد الشهبان في تحقيقها بالتفضيل على المرمر .

وهكذا فان النقاش قد اتبح له المزيد من الامكانات المادية التي حق لمهندس العبارة ان يحدها عليها بسبب تقيده ببعض امثلة الابنية التقليدية .

استمر الفنانون هذه الوفرة استثاروا واسعا كما يفيد منها مؤرخ اليوم . فان التنوع الذي كان نتيجتها الطبيعية يسمح له بان يكتشف ، بوضوح اجلي منه في دراسة التحقيقات الهندسية ، الخطوط الكبرى لتطور راقى ، دون شك ، التطور العماس في الاذواق والعواطف والاخلاق والافكار . ومن جهة ثانية ، اقله في بعض الحالات الخاصة ، يتاح لنا ، بفضل بعض القطع الاصلية النادرة ، او بفضل النسخ التي نرجح مطابقتها لهذه القطع والتي لا تراها غير لائقة بها ، او بفضل ايضاحات موثوق بها تركها لنا المؤلفون القدماء ، ان نترامى او ان نفس احيانا نزعات الفنان الخاصة ونبوغها المميز واسهامه الشخصي في تطور فنه .

أرج الكلاسيكية كان التطور ، في الدرجة الاولى ، تسامياً نحو اوج الكلاسيكية الذي أدرك خلال الربع الثالث من القرن الخامس . فما زالت هنالك ، حتى السنة ٤٥٠ ، بعض آثار العهد القديم : الابتسامة المصطنعة التي يتأخر زوالها على الرغم من تطفها التدريجي ، ولا سيما بعض الجمود في اوضاع الاجسام واسترسال الالبسة وبعض الحرق في تنسيق المجموعات النقشية . ولكن تحقيق المهاراة الكاملة يتم بسرعة بفضل « ميرون » و « بوليكليت » و « فيدياس » .

توفق الاول الى ان يظهر بصورة محسوسة ، في جمود المادة ، الحركة المنتهية والحركة المبتدئة . ويزيد في قيمة هذا التأليف ايضاً ، مع انه بالغ الاتقان بمحد ذاته ، ما يوفره في التمثيل للتعبير عن العواطف تعبيراً أخفياً : ازدراء « أثينا » الفتية الفطرية التي كأنها توقف سيرها هنيهة وتدير رأسها لتتنظر باستخفاف الى طمع « مارسياس » المرثي والمخزي الذي يسرع الى تناول الاداة الناقصة التي احتقرتها ، والتوتر المعنوي والجسدي على السواء البادي في تمثال « رامى الاسطوانة » « ديسكوبول » الراقب في اعطاء افضل ما عنده في جهد اخير تستعد له كافة عضلاته .

و درس بوليكليت جسم الرجل درسا مستفيضاً ؛ وألف كتاباً حدد فيه « قانون » هذا الجسم وقياساته المثالية . وقد طبق مبادئه في تماثيل المصارعين الشبان ، كالجندي (دوريفوروس) الذي يحمل ، في سيره ، الرمح على كتفه ، او كذلك الرجل (ذياذومينوس) الذي يلف رأسه بعصية المنتصر . ولكن العنف في ضبط نقاشة العضلات في هذه التماثيل يلفتنا تناسق حتى لم يستطع تقدم العلم ان يقضي على بداهته واثر خفي تركه ايسط حركة في الجسم كله .

اما فيدياس ، الذي يجب ان لا تتسينا شهرته الساطعة اننا لا نعرف بصورة اكدية تمثالاً صنعته يده ، والذي تقاس عبقرية مع ذلك بما تبقى من نقوش البارثون التي صمها هو ونفذت تحت اشرافه ، فانه قد استطاع ان يضيء على الالهة والالهات جلالات لا مثيل له ، وعلى الالبسة رشاقة تليق بالجسم الانيق الكريم الذي يرتديها وعلى الوجوه وقاراً يعبر عن المثل الاعلى

الديني عند النخبة . وقد توافق الناس في الزمن القديم على الاعتراف بان من يشاهد تمثال زفس الكبير ، وهو الذي قد حققه جميع الصفات الذهبية والماغية واقامه على عرش من الابنوس في معبد اوليسا ، لن يكون بعد ذلك شقياً . وفي هذا الحكم اعتراف بفخامة هذه الطرفة وصفاتها التي لا تنسى . ولكن فيه ايضاً اعترافاً بالثقة التي توحىها للمخوق الوضيع الطمأنينة العميقة والتبل العظيم والابوي مما الذين استطاع فيدياس ان يرسمها على قسبات زفس الاولبي سيد الآلهة والبشر . اما نقوش البارثون الرخامية التي تمثل ، في المثلثات ، بعض المشاهد من اسطورة « اثينا » إلهة المدينة ، كولاتها الاعجوبة بسلاحها الكامل من جبهة زفس وظهور شجرة الزيتون فجأة حين انكرت على بوزايدون حقه في تملك الأتيك ، والتي تبسط ، على الافريز البالغ متراً ارتفاعاً و ١٦٠ متراً طولاً ، تطواف عيد هذه الإلهة الذي يشمل أكثر من ٤٠٠ شخص و ٢٠٠ حيوان ، فانها بلامرأه ارفع تعبير مصور عن الديانة المدنية ، ذلك التعبير الذي حاول حكام أثينا بواسطته توحيد « البولس » كلها في عبادة إلهتها الحامية .

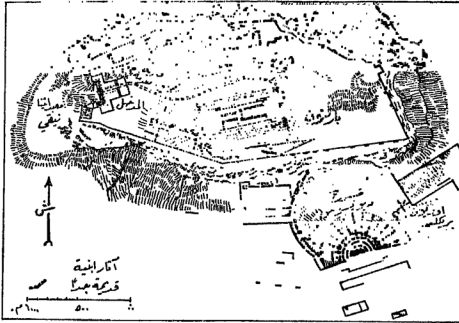
هؤلاء هم كبار الفنانين . ولكن هنالك اسماء لا تحصى الى جانبهم ، كما ان هنالك ايضاً عدداً لا يحصى من الفنانين الذين لا نعرف اسماءهم ، كالولئك الذين عملوا في البارثون تحت اشراف فيدياس ، وعدداً ضخماً ، اخيراً ، من التحف التي قد يتطلب عددها صفحات وصفحات . وان الشيء العجيب الذي يضيفي على نقاشه ذلك العهد ميزتها الكلاسيكية ، هو ، بالاضافة الى كمالها الفني وما تعبر عنه من تحكم الفنان بأنامله والاداة والمادة ، قيسنها العامة المرتكزة الى الاعتدال والنطق . لأشيء فيها يفرض فرضاً عنيفاً او مباشراً على اعين المشاهد : فان أكثر الارضاح هدوءاً يسمح له بتراخي الحركة ، كما ان الايماءة في اول انطلاقها والتبدل الخفي في الوجه يكفيان لان يوحيا له العاطفة الخالصة . ولا يردّ فيها شيء الى المصادفة : فانها توحى ، باتزانها وانسجام صناعتها ، ان الفنان قد حقق التناقض القائم في ان يفكر ابدأ دون ان يوقف دقيقة واحدة ارتجاج الحياة . وليس فيها شيء مستملح او عارض : فانها تتسامى حتى الأمثلة الطبيعية او الأدبية التي لا أثر في قيمتها المثالية للزمن والبيئة . وجلي انها تتوافق في كل ذلك مع النزعات الواعية التي تجيش في قادة الرأي في « البولس » والنزعات الغامضة التي خضع لها الانسان اليوناني باعطاء « البولس » الشكل الذي كان لها في القرن الخامس . وهي توجب على المدينة ايضاً ان تكون جسماً معتدلاً ، متناسباً ومنظماً من الناحية المنطقية ، ومركباً وفاقاً لغاؤون داخلي ، ومنقاداً للمقل ، وطامعاً في الانتقال بالمواطنين الى انسانية افضل . وليس من قبيل المصادفة اذا كان فيدياس ، في آن واحد ، معاصر بريكلليس وصديقه ومثابة وزير الفنون الجميلة عندهم .

ولكن هذه المفاهيم الجمالية قد اشتقت من مثل أعلى أرفع سموّاً
وتجريداً من ان يوفر ارضاء دائماً . فينبينا كانت الاحداث تثبت ان

التعاضد في القرن الرابع

مثل البولس الأعلى ، الثاني والرعداً ، قد اخفق أذ ذال إلهي تخفّيق وحسدة المواطنين
الادبية السائين من موجباته وعدم اهليته ، برز تطور مماثل في النقاشة التي عنت ، منذ ذلك
الحين ، بالاستجابة لنزعات انسانية اخرى ليست دونه واقعية ، على الرغم من انها دونه تحليفاً
عقلياً . فبجاء التبدل سريعاً على غير شكاسة .

على الرغم من ذلك ، نقشت في اثينا ، خلال حرب البويونيز ، تماثيل النساء التي تقوم



الشكل ٢٥ - قلعة أثينا في أواخر القرن الرابع قبل المسيح

مقام الأعمدة في منبر « الإبرخشيون » ، وهي خليفة بفيدياس بتناسقها وجلال وقارها . ولكن
نقشت فيها أيضاً مجموعة آلهة النصر التي تقوم على الدرزين الخارجي في معبد « اثينا نيقى »
الصغير ، فوق مدخل القلعة الى الجهة اليمنى ، وقد مثلوا منشغلين في جمع الاسلاب واعداد
الذبايح . فبين افريز البارثنون ، الواحد في تنوع مشاهدته التي تحييا فكرة مشاركة تشرق كافة
الأوجه والحركات ، وبين هذا الافريز المتكوّن من مشاهد متلاصقة تسرح بما تنطوي عليه من
دالة طبيعية وانس جامع ، لاشك في ان هوم ولي العمل والفنانين قد سارت في اتجاه مختلف آخر .
وسيقوى هذا الاختلاف مع الزمن بإطراد .

ان العواطف ، وهي عواطف انسانية اكثر منها دينية ليس للعقل مراقبة على اثرها في
النفس ، تقرأ بسهولة اكبر على الاوجه التي يجرؤ الفنان على اظهار آثار تعذيب الهوى فيها ،
بغية خلق التأثير دونما لجوء الى التفكير . وتظهر اشكال جسم المرأة اكثر فأكثر دقة ووضوحاً
واكثر فأكثر شهوانية ، في البدء تحت اللباس الخفيف الذي يلصقه الهواء بها ، وبعد ذلك في

عربها المنتصر ، بفضل أرميل براكيشيل ، ويغير النقاش نفسه ، على كل حال ، عن شهوانية مائلة ، في دراسة جسم المراهقين المشوق الأنيق على بعض التختنث . ثم تتلى الحركات حياة ، لا بل تتخلص من قيودها ، كحركات « الراقصة » التي مثلها « سكوباس » دائرة مضطربة ، أو كحركات «الامازون » والاغريق أيضاً الذين يضربون ويدافعون عن انفسهم بشراسة ، على افريز ضريح هاليكارناس الفحم . وفي كل مكان يبرز الحرص على الواقعية التي تجعل حقيقة الحياة أكثر ظهوراً وتعطيها ميزة أكثر شخصية : فأنف الملاكين مسطح واذنهم منتفختان وعنقهم ضخم ، وإذا أطال « ليسبوس » ساقى تمثال « إوكسيومينوس » ، المصارع الذي يكشف العرق عن جسمه بعد الجهد ، فانه لا يتردد في اعطائه شعرا اشعث وعينين جزعتين وفي يكاد يكون منقبضاً لا يفتح الا جزئياً لفت قصير لم يستعد بعد انتظامه .

لا شك في اننا نتخطى مع ليسبوس المثال الرسمي للاسكندر ورفاقه ، في الشرط الثاني من حياته الخلاقة ، عتبة العهد التالي . ولكن هذه الدلائل القصيرة تظهر بما فيه الكفاية ، منذ قبل الاسكندر ، ان الزعات التي ستطبع النقاشة الهلينية بهذه القوة ، لا تراهى تراثياً فحسب ، بل تقرب أكثر فاكتر الى فن لا يفقد شيئاً من مهارته الفائقة ، ولكنه ينصرف عن المثل الأعلى الكلاسيكي ، الذي يعمل منذ ذلك الحين ، لأنه لا يتفق مع تيار يدفع بالاغريق الى عالم جديد .

نحن نرى ان الفنون الأخرى دون هندسة العمارة والنقاشة بدرجات . وقد يكون رأينا خاطئاً ، على كل حال ، اما بفعل جهلنا ، واما بفعل تسلسل جهله اليونان ووجدناه نحن بين نشاطات فنية تستهدف كلها اضافة الجمال على الحياة الفردية او الجماعية .

لا نزال في جهل مطبق حيال فن التصوير اليوناني لان تحفة واحدة من تحفه لم تصل الينا . ولكن واقع وجود هذا التصوير في ذلك العهد لا يرقى اليه شك ، وقد ارتدى اشكالا متنوعة جداً انطلاقاً من التصوير على الجدران لتزيين الأبنية ، وبنوع خاص الرواق والمعد ، حتى لوحه المسند الحشمية . ففي مدخل القلعة الكبير الذي شيّد في عهد بريكليس خصصت إحدى القاعات متحفاً للتصوير . وهذا يعني ان هذا الفن كان موضوع تقدير سام ، وسيعرب الرومان حيال الحصول على تحفه ، عن رغبتهم نفسها في الحصول على التماثيل . وقد وردت اسماء اشهر المصورين ، « بوليغوت » و « زفكسيس » و « باراسيوس » في القرن الخامس « وابيل » في القرن الرابع ، محاطة بمدح كبير وبطرف تؤيد شهرتهم . وقد حظي « ابل » لدى الاسكندر بالتقدير نفسه الذي حظي به ليسبوس . وباستطاعتنا ان نتبع على وجه التقريب تقدم فهم الذي لم يزل ، في اوائل القرن الخامس ، اولياً جداً وبطيء التحسن . فبوليغوت قد جهل التصوير بحسب الرؤية واهمية الظلال والصبغ المدرج ، وهذه كلها اكتشافات لم تتحقق الا في النصف الثاني من القرن الخامس . وكان « ابل » اول من أكثر مسن استعمال الالوان الشمعية بفضل طريقة

جديدة تسمح بتلين الشمع . فهل أمكن التعويض عن هذه التوائص الفنية بفضل مهارة الفنانين وتناسق تفهمهم ومعرفتهم للاشكال البشرية ودقة سيكولوجيتهم ؟ هناك من يؤكد لنا ذلك ولكن اصدار حكم ، انطلاقاً من التحف نفسها ، لا يزال مستحيلاً علينا .

ليست هذه ، لحسن الحظ ، حال صناعة الخزف التي لا يأتي المؤلفون القدماء عسى ذكرها الا قليلاً ، ولكن تحقيقاتها قد وصلت بنا .

اما عهد هذه الصناعة الذهبي فهو القرن الخامس الذي احتلت خلاله اثينا ، مرة اخرى ، مرتبة اولى لا شك فيها . وقد ساعدها في ذلك ، على الصعيد المادي ، سعة تجارتها ، وبنوع خاص تصدير الزيت والنبينا ، اذ ان نقل السوائل قد اوجب عليها ، بالضرورة ، النهوض بصناعة الفخار . ولكن الآنية الفخارية الصفيقة كانت في الحقيقة كافية لهذا الغرض ، وليس ما يستلزم ، والحالة هذه ، انتاجاً رقيقاً . ولكن هذا الوضع قد اسهم في تسهيل ظهور هذا الانتاج ، بتشجيع التقدم الفني ، وبإزالة الكفاءات بين الصناعيين العديدين ، وبزيادة امكانات البيع . ولذلك فان الاهمية الجمالية التي وفرها قسم من الانتاج ترتدي قيمة دليل هو أوضح وأصح من ان نستطيع اهمال دلالته .

فهو يثبت في الدرجة الاولى وجود مواهب فنية فطرية يلفت نحوها الانظار عند بعض العناصر على الأقل من العمال البدويين . وقد حرص بعضهم على توقيع مصنوعاتهم ؛ ولكن الروائع المغلفة ليست ما ينقصنا ؛ ونحن نراهى من خلال هذا التواضع ، رجالاتاً مكين ، في وسط الطبقة العمالية ، على عمل يتنافس في انجازهم اهتمامهم في تأمين خبزهم اليومي ومشاكل اخرى اقل صبغة تجارية .

ثم ان رواج هذه المصنوعات لبرهان على سلامة ذوق زين الخزافين . وكان هؤلاء الزين من المواطنين في الدرجة الاولى . فالخزفيات المزخرفة كانت دارجة الاستعمال ، ونادرة هي البيوت التي اكتفت بالفخاريات الصفيقة ولم تفتن منها بعض القطع . ومن حيث ان الصفة الفنية لم تتأثر بذلك على العموم فيجب الاعتقاد -- مقارنة بالجماهير العصرية -- ان الجماهير الاثينية لم تكن متبذلة . وهذا في نظراً استنتاج لازمي يفرضه ، بصورة اكثر جلاء من درس الفنون الاخرى التي لا شيء يثبت لنا انها لم تقتصر مبدئياً على ارضاء النخبة ، درس الخزفيات التي يعتبر شراؤها اوسع استنطاق يومي يمكن تصوره . ولكن الزين لم ينحصروا في الأتلك بل كانوا موزعين وممتشزين حتى خارج بلاد اليونان . فنند العهد القديم ، صدرت روائع خزفية يونانية كثيرة الى البلدان النائية ، كإيطاليا الوسطى والقرم ، حيث عثر على بعضها . وقد حدث الشيء نفسه في ذلك العهد . فقد صدرت اثينا مصنوعات ، في القرن الخامس ، الى شواطئ البحر الاسود . واذا فقدت اثينا ، في القرن الرابع ، كثيراً من منزلتها في الغرب الذي تزعت مصانع صقليا وإيطاليا الى سد حاجاته ، فان رؤساء قبائل روسيا الجنوبية ما زالوا زبنها الاستخياء . وانما

متحف اللد « اوميتاج » في ليننغراد مدين جزئياً لمداقتهم بغنى مجموعاته النادر . وان في نجاح هذا الفن الرقيق لدى نخبة المجتمعات الاجنبية التي لها وحدها من الثروة ما يتيح لها اقتناء هذه القطع المتأثرة ، لبرهاننا جديداً على انتشار الذوق اليوناني الذي هو رائد الحضارة اليونانية والتعبير عنها في آن واحد .

اعتمدت من الوجهة الفنية ، طريقة تغلبت على غيرها منذ اواخر القرن السادس . وهي تقوم في خلفية سوداء ومساحة جراء للمشهد تعين الرسم فيها خطوط دقيقة سوداء . اما الطريقة القديمة التي كانت تعتمد البصير السوداء على خلفية جراء فقد زالت الاعلى بعض الآنية القليلة الطلب او ، احتراماً للتقليد ، على القوارير التي تقدم جوائز للفائزين اثناء المباريات في اعياد الالهة « اثينا » . وقد خرجت عن القاعدة السائدة فئة اخرى من الآنية هي تلك التي تودع المدافن وبعض الاكواب النفيسة ذات الخلفية البيضاء والمتعددة الالوان الكامدة بسبب استعمالها المدفني .

ولكن الصفة الفنية في اجل هذه المصنوعات غير ناشئة عن مبعيتها ، بل عن شكلها وعسن التحديب النقي الاينق الذي اعطي لمادتها الطيبة القابلة التمديد . ومرد هذه الصفة خصوصاً الى الالهام وسلامة الذوق في الصورة التي تزيناها . وتصلح كل المواضع للفنانين : تمثل الميت بهيئة مثالية ، والاساطير الخرافية والبطولية ، ومشاهد الحياة اليومية . ولتقت الانظار هذه المشاهد الاخيرة ، المليئة في اغلب الاحيان ، بقيمة كاستندت اكدية وبدايتها كرسوم اعدادية سريعة وايحائية معاً . فمعرفة حياة الاغريق الخاصة ، الاستعدادات للزواج والاحتفال به ، اعمال النساء في الحذر ، اجتماعاتهن عند الينبوع ، التهايرن في مكان الرياضة ، تسليات الولايم ، الاعمال في المدرسة والمصنع والريف ، توفر الفخاريات رسوماً تفوق المستندات الادبية تنوعاً وتفصيلاً وافادة وحياة . فقد برز في اثينا اذ ذاك ، بصورة نادرة ، عدد كبير جداً من المصورين الذين لا نعرف ماذا يوجب الاعجاب بهم في الدرجة الاولى ، خصب ورشاقة الخجلة ، ام حدة الملاحظة ، ام الدقة والضبط والاناقة في التنفيذ السريع . ويضاف الى ذلك احياناً ، وينحصر ذلك في ارباب الفن ، قوة الياجاء ، والخط الذي يحمل الناظر بعيداً ويوحى حالة نفسية شعر بها الفنان في اعماقه وادائها تأدية لطيفة : سرور الجهد الطليق والمنتصر ، ام الام المتضرعة امام جثة ابنها ، استسلام الضحية وشقعة من يضرب الضربة القاضية ، حنان الوداع الذي قد ينذر بخطر انفصال نهائي لا يخفف من احواله اي ايمان يقين بحياة ثانية .

ييز الاختصاصيون ، في مجد القرن الخامس ، عوداً وطرائق يطيب لهم ربطها بتطور النقاشة وتصور المواضيع الكبرى . ونحن يكفيننا هنا ان نلفت الانظار الى ما ظهر منذ اواخر القرن ، وازداد جلاء فيما بعد ، من اضافة مواضع مبسطة ، تدريجياً ، على الرسوم التزيينية ، ومن تمديد في الرسم واستعمال صبغ متنوعة بما فيها التذهيب . وقد فقدت خزفيات القرن

الرابع البساطة التي اتصفت بها في القرن السابق ، اذ ان الذوق قد تطور على هذا الصعيد ايضا . وليس من المهم ان يكون الذوق قد تقدم او تقهر بفعل هذا التطور ؛ فاذ لم يزل هنالك صناعيون ماهرون ، فلم يبرز فنانون مخلوقون في تصوير الآنية .

ان صناعة الخزفيات ، على ما نعلم ، قد احتلت اعلى مرتبة في تزيين الحياة اليومية . ولا شيء تقريبا يسمح لنا بابداء رأي في تجارة الابنوس والصباغة . وهنالك بعض القطع الرائعة في المسكوكات ، لاسبابعض تلك التي ضربت في سيراكوزا حاملة رمحا جانياً نقياً للحرورية اريتوسا ، بينما تبقى اثينا امينة للقاعدة القديمة في رسم البومة الصمعا و رأس « اثينا » . ولكن ما يجب ذكره حقاً هو التماثيل الفخارية . اجل انها صنعت في امكنة كثيرة ومنذ ازمة بعيدة ، ولكنها تتميز ، في القرن الرابع ، وفي بيوسا خصوصاً ، بصفات جديرة بالاعتبار . واذ اعوزتها العواطف القوية والغنية ، فان فيها من الرشاقة والاناقة والسحر ما يأخذ بمجامع القلوب . وتؤلف هذه التماثيل مع المشاهد المصورة على الآنية ، مستندات ثمينة بحقيقتها ومستغنية بظرافتها البديعية لازياء المرأة وحياتها في البيت وفي الحارج — لان القسم الاكبر منها يمثل نساء .

ان هذه الروائع الصغيرة التي تمتاز بدقة الملاحظة والابتكار البديع واتقان التنفيذ تقودنا الى خارج اثينا . ومن الموافق على كل حال ان يأتي اسم « تناغرا » المدينة البيوسية الصغيرة الذي اشتهرت به ، لان ادق هذه التماثيل واجملها من صنع هذه المدينة ، مناقضاً للغلاظة التي طاب للاثينيين ان ينتموا بها البيوسيين جيرانهم ، واعداءهم في اكثر الاحيان . ولكن مهما يكن من هذا الامر ومن غيره فان لإسهام اثينا في تحقيقات الفن اليوناني الكلاسيكي الرائعة تتفوق على اسهام كافة المدن الاخرى تقوفاً ساحقاً يصعب من التهور معه ان تنهي هذه العجالة باسم غير اسمها .

٣ — الحياة الفكرية

ان النعت « كلاسيكي » غني بالمعاني التي يصعب الاحاطة بها كلها . ولعله من الثابت ، على الاقل ، ان ليس من حضارة كبيرة جديرة حقاً بهذا النعت اذا لم يقترن بهاء مصنوعاتها الفنية بهاء مؤلفاتها الفكرية ، واذ لم يمس فيها ، من جهة ثانية ، بعض الانسجام النظري بين النزعات التي يخضع لها المبشكرون في هذين المجالين . هذه هي بالضبط حال العالم اليوناني في القرنين الخامس والرابع . فالحياة الفكرية لم تكن اقل سناء فيها من الحياة الفنية . وفي كلا الحياتين كان ما خلفه الاغريق للاجيال اللاحقة ذا اهمية رئيسية ، واذا نحن اوغلنا اليوم في بعض الطرقات ، فالفضل يعود لهم في شق اكثرها امامنا . اما تشابه المثل العليا فليس فيه ما يثير الدهشة اذا ما فكرنا ملياً بكل ما بذله الفنانون من مجهود عقلي في فنهم : ومن الاكيد الثابت ، في اوج الكلاسيكية ، ان الفيلسوف اناكساغوروس والشاعر سوفوكليس والمؤرخ هيرودوتس قد عرفوا فيدياس في بطانة بريكليس ، وان سقراط فيما بعد قد سأل الفنانين عن كيفية ادراكهم للجمال . لذلك فان المشاغل الهامة كانت متجاورة وقد تم تطورها خطأ منحنيماً واحداً . فكان

الهم الاول الحصول على معرفة منطقية ، اي تنظم الانسان والطبيعة وفاقاً للعقل ، فاذا بقيت
 هذا المثل الاعلى العامة تولى المجهود اليوناني قوة نافذة متيادية . ثم ساد الاقتناع ، بفعل التعمق في
 هذه المعرفة ، بان العقل لا يفسر كل شيء ولا يتحكم بكل شيء ، وبان هنالك قوى اخرى
 تعمل عملها لا تقل عنه واقعية واهمية .

يتوجب علينا ، في هذه الظروف ، ان نحلل الفلسفة في المرتبة
 الاولى بالاستناد الى تأثيرها اذ ذلك في كافة النشاطات الفكرية
 الفلسفة : التعاليد
 والجدد في القرن الخامس
 الاخرى : ومن النادر جداً ان نرى كاتباً يونانياً لا نفس عنده
 طابع المفكرين الذين قرأ مؤلفاتهم او استمع الى احاديثهم .

كان فلاسفة القرن الخامس اوفياء لحلم الطموح الذي دغدغ مخيلة فلاسفة القرن السابق ،
 فتابعوا في الدرجة الاولى البحث عن تفسير منطقي لطبيعة الاشياء . ولم يختلف امبيدوكليس
 واناكساغوروس وليسيوس وديموكريت اختلافاً حقيقياً عن الايونيين من حيث الطرائق المعتمدة
 التي كثيراً ما لجأت الى الخيلة والى الاسطورة احياناً بسبب افتقارها الى وسائل البحث الصحيحة ،
 ومن حيث صفة الحلول التي تبناها . فهم ، شأن الايونيين قد تحاجتوا حول عدد وصفة العناصر
 الاساسية والقوى التي تؤلف وتفصل بينها لتكوّن منها الاشياء وحركتها الدائمة في آن واحد .
 وتكفي الاشارة هنا الى ان حدسهم لم يخطيء احياناً ، دوماً حاجة منا الى الدخول في تفصيل
 نظرياتهم الذي لا نعرفه معرفة تامة على كل حال . فنحن نعلم مثلاً ان اناكساغوروس الايوني المنشأ
 والمقيم في اثينا قد اقيمت عليه الدعوى لانه عّلم ان الشمس كتلة متأججة ، نافية عنها بذلك
 صفة الاولية . وبما يلفت الانظار اكثر من هذه النظرية ، وهو موضوع الساعة اليوم ، نظرية
 الذرات التي تخيلها ليسوس وتوسع فيها تلميذه ديموكريت . فالذرات ، في نظرهما ، صغيرة جداً
 ولا عدّها ، ولكنها متشابهة من حيث تركيبها ولا تختلف الاحجاماً وشكلاً ووزناً . ومن شأن
 الذرات الثقيلة منها اذا ما سقطت ، ان تسبب ، بفعل الصدمات وتفاعلها ، حركة لا نهاية لها .
 تتولد منها الاشياء في مظاهرها المتنوعة . وقد كتب لهذا المذهب مصير نادر بفعل قصائد
 « لوكريس » وبفعل جهود علماء الطبيعة المعاصرين لجهة مبدأ الذرة . ولكن هذا المذهب واحد
 من مذاهب اخرى كثيرة وهيمية وغاشمية ، لا فرق اذا كانت هذه المذاهب توحيدية او ثنوية او
 تعددية ، واذا ما استندت ، في تحليل نظام الحركة ، الى التضاد بين المحبة والبغضاء او الى
 ال «نوس» (Nous) (الفكر) باعث الانطلاق الاولى او الى بعض الامور الالية . وقد اخطأت كلها
 بالثقة العمياء في طاقات الفكر البشري الاعزل من كل سلاح ، اذ ذلك ، امام معاضل شبيهة بتلك
 التي لم تحس الفلسفة اليونانية ، في اوائل عهدها ، من مواجهتها ومعالجتها .

وحدثت حينذاك ، في النصف الثاني من القرن الخامس ثورة السفسطيين الفكرية والاخلاقية معاً .
 وليس لاسم السفسطي في حد ذاته اي معنى محط ، اذ انها تعني في اليونانية « رجل المعرفة » .

ولكن الحملة المفرضة اللاذعة التي قام بها ضدهم افلاطون بنوع خاص قد أصدقت بهم سمعة سيئة .
وهم قد تفرّوا من جبهة ثانية معاصريهم ، المتمسكين بأراء الزمن الماضي ، بفعل تجاسرهم ونجاحهم
والإرباب الطائفة التي جنوها من تعاليمهم منزلة التعليم العالي المجرد عن كل غاية ، حسب الاعتقاد
السائد ، الى مستوى نشاط تجاري عادي ، وكلها مأخذ تثير الإبتسامة اليوم ، لا تنحو شيئاً من
اثر ما حققه السفسطيون وأهميته التاريخية .

فهم قد تجاوزوا إطار الفلسفة تجاوزاً واسعاً متناولين جميع نواحي المعرفة ومتمدين فيها
طريقة واحدة . وهي طريقة ثورية في جوهرها لانهم لم يهتموا للمواضيع المجردة بسبل اعلناؤا ،
كما قال برونغوراس ، احد مشاهيرهم ، « ان الانسان هو قياس كل شيء » . فبسل عنوانا بذلك
الانسان الحقيقي بكليته ، اي الانسان العاقل والعاطفي معاً ، العضو في الجماعة والكلان الفرد ؟
يرجع انهم قد شددوا ، على سبيل رد الفعل ، على المظاهر المهمة حتى ذلك العهد . ومهما يكن
من الامر ، فان ما نهضوا به فوز لروح النقد التي استسلموا لها ، محقرين التقاليد احتقاراً كلياً ،
واخذ يبدئ الذاتية على اساس استحالة اية معرفة موضوعية . وكان من شأن هذا المبدأ ان
يذهب بهم بعيداً : فلا سبيل اذن لاثبات او نفي وجود الآلهة ؛ ولا سبيل لاعتبار الشرعية ،
« الناموس » الذي تأسست عليه « البولس » ، كواقع غير بشري او بنأمن من التقلبات البشرية ؛
ولا سبيل لمرفة حق مطلق وعدل مطلق يسموان على ما هو مفيد ويتميزان عنه . وهكذا فان
كل شيء قد اصيب بهزة عميقة . فقد حث السفسطيون تلاميذهم في الوقت نفسه على استهداف
النجاح قبل كل شيء . وتحقيقاً لهذا الغرض رضوا جدلهم ولقنوم صينفا خطابية بارعة استطاب
اكثرهم درسها وتعلمها وحددوا لهم كمثل اعلى ، لا سيما امام المحاكم ، وتحويل اقوى حجة الى
اضعف . جنة .

لجأ المؤرخون الالمان ، في تعيين هذه الثورة العميقة الجذور الى الكلمة نفسها التي استعملت
في تعيين ثورة « الانوار » في القرن الثامن عشر : *Aufklärung* . وان هذه المقاربة لواجبة
في الحقيقة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اتساع الحركتين ومغزاهما العام . فقد كان لعمل السفسطيين
اهمية عمل « الفلاسفة » بعد ذلك بثلاثة وعشرين قرناً . فأثروا مباشرة في نخبة المجتمع ، وعن
طريقها في طبقات اكثر اتساعاً ، ونشروا ما يجب تسميته بالثقافة التي كانت وقتئذ على دوائر
ضيقة ، اي ، فيما يعنيننا هنا ، تذوق بعض القضايا والاهتمام بجميع مظاهر الحياة الفكرية .
وادخالوا ، على الفلسفة والعلم ، روحاً نقدية عميقة وخشية من تجريد لا رادع له ، ان يستطيع احد
بعدهم ان يخرجها منها . وقد كانوا اخيراً في الأساس من انطلاقة الفردية المنتصرة التي لن تلبث ان
تبدل الحضارة ، بادئة في جعل « البولس » نفسها تترجج على اسسها .

جعل ارسطو قانون من سقراط ، في كتاب « النجوم » ، احد السفسطيين لا بل شرهم في نظره .
ولم تنقض اربع وعشرون سنة حتى حكم على من سخر منه بالموت ، فشرب الشوكران السام من

الكوب الذي قدمه اليه الجلاد . فاذا سلمنا ان ليس هنالك اخطاء اعظم من الجرائم ، فما عسانا نقول عن الاخطاء التي تسبب في الجريمة ؟ فالضحك عند قراءة « الغيوم » يستازم في الحقيقة استعداداً نادراً للنسيان .

يتعذر ، في الحقيقة ، فهم سقراط بدون السفسطيين ؛ فهو على غرارهم ، وبعدهم ، يتحول عن البحوث النظرية حول المادة والحركة التي يعتبرها على جانب كبير من الطموح وعدم الثبات ؛ وعلى غرارهم وبعدهم ايضاً ، يكرس جهوده واجتهاده للانسان . ولكنه يفتقر عنهم بساكنة وطريقته . فمن حيث انه اثيني - وهم ليسوا بأثينيين - ومواطن متواضع ومثالي ، لا ينتقل من مدينة الى مدينة للبحث عن المستمعين يلقي عليهم محاضرات جاهزة . وهو يريد في الدرجة الاولى وفاقاً للحكمة الدالفة ، ان يعرف نفسه ويرى جلياً في داخله ويقنع بحقيقة ما يشعر ويفكر به . وهو يعلم هذا المبدأ بالمثل معتمداً حيال كل شخص مبدأ « السخرية » وطارحاً على محدثه اسئلة يتظاهر فيها بالجهل حتى يعلمهم « يولدون » ما هو كامن فيهم . ويفتقر عن السفسطيين ايضاً بتعليمه الاخلاقي والديني ؛ يؤمن بوجود الآلهة وتدخلها لدى البشر والامور البشرية ؛ ويعتبر ان السعادة الحقيقية مرتبطة بممارسة الفضيلة التي يمكنها ان تسيطر على الجميع اذا توصل الجميع الى التغلب على الاوهام المشتركة ونبذ الآراء السائدة دونما تعليل . وهكذا فانه يلقي بالذاتية جانباً ويعيد مفاهيم الواجب والعدل التي سعى غيره الى ابدالها بمفهوم المنفعة ، تلك المنفعة التي يكفئه ان يحسن ادراكها حتى يتخطاها .

كل من اراد ان يوغل في عرض آراء سقراط الجوهرية الى ابعد مما قدما ، يحتاج الى اثبات غير متوفر . ولكن ما نراه لكاف لان ندرك كل ما أحدثه في الحياة الفكرية اليونانية . هذا السابق المهد الطريق امام الشك المنظم والتأمل الباطني ، وامام علم الاخلاق العقلي وحتى امام اللاهوت الادي . أضف الى ذلك ان تضحته بجياته على مذبح شرائع وطنه قد جاءت ، بقوة المثل ، تكمل تعليمه وتخلّده ، مع أنه لم يختلف اي مؤلف مكتوب .

يسطر سقراط ، في الحقيقة ، على فلسفة القرن الرابع ؛ وانما يختلف الفلسفة في القرن الرابع اتجاه تلاميذه ، الذين لا يقيدهم أي تعليم محدد ، وفاقاً لاستيحاءهم بجهود معلمهم المستمر توصلاً لحقيقة أكثر عمقاً . وبصرف النظر عن الشبه المطلق في انتسابهم الفكري ، فانهم جميعاً يتشابهون في كونهم مؤسسين او أقله معلمين لمدارس معدة لتقدير واسع وحياة طويلة ، وفي ذلك ظاهرة واضحة للاهتمام الذي أثارته منذ ذاك العهد معاضل فلسفية طرحت بشكل جديد على بساط البحث .

فمن تلاميذ سقراط ، أنتستين ، الذي يعلم في ملعب « سينوسارغيس » الأثيني ، الذي سيشتق اسم مدرسته منه (*Cynique*) ، ان سر السعادة قائم في احتقار حاجات تولدها في الانسان ممارسة حياة تبعده عن الطبيعة ، ولن يلبث هذا المبدأ ان يؤدي الى تظاهرات

« ديوجين » التي دعت معاصرة ونشرت المحافظين على التقاليد . ولكن في هذه التظاهرات شيئاً آخر غير المناقضة المتجبرة والخارجة عن المألوف : ان فيها نوعاً من حفيظة تلك الفردية المستمرة في تقدمها منذ منتصف القرن الخامس التي بلغ منها هذه المرة ان احتججت على عادات المجتمع وعلى التقسيمات التي يفرضها وحتى على فكرة الوطن كبيراً كان أم صغيراً . فلا قيمة للانسان ، في حالته الفطرية ، الا بصفاته الفردية ، دونما تمييز في مرتبته الاجتماعية وقوميته . وكان ديوجين منطقياً مع نفسه حين نحت ، في زمن الاسكندر ، كلمة « كوزموبوليتس » « مواطن العالم » التي وقعت موقعها الحسن في تقهر وهزيمة « البولس » بينما اتسعت الآفاق اليونانية اتساعاً كبيراً .

ومن تلاميذ سقراط ايضاً ، اريستيبوس ، الذي تنشأ السعادة في نظره ، من قطاف السلة حتى الشوانية منها ، المنتخبة ، والحق يقال ، ببصيرة عقلية واهتمام لتجنب سيطرة الاهواء على الانسان . وسينقل « ابيقور » عن نظرة اريستيبوس ، خصوصاً ، ذاك الحد الذي وضعه للاختلال الاخلاقي والذي كثيراً ما امله خصومه في انتقاداتهم .

ومن تلاميذ سقراط اخيراً افلاطون على الرغم مما نجد عنده من تأثيرات أخرى لا سيما البيثاغورية ، ومن ان قترده القوي ، خصوصاً ، يجعله يسبق معلمه اشواطاً ، في حواراته التي يعطيه فيها ، بمجاز تقوي ، الدور الاول . كان اثينياً ومن عائلة شريفة وقد قترت نفسه منذ البدء من رد فعل الارهابيين اعداء الديموقراطية ، ومن الديموقراطية نفسها ، ومن العمل السياسي في وطنه ، وخيب امله اخفاقه في العمل الذي حاول القيام به كـمستشار لمستبد سيراكوزا ، فاعتزل الحياة السياسية بعد اسفار كثيرة الى اثينا ونظم ، في الاربعين من عمره ، عند مداخل اثينا ، في حديقة البطل اكلاديموس ، مدرسة اشقت اسمها (اكاديمية) منه ، بشكل طائفة تؤدي العبادة لألهات الشعر . فأقبل عليها التلاميذ من كافة مناطق العالم اليوناني وقد اتى بعضهم حتى من الشرق ، من بلاد ما بين النهرين ومن ايران . ثم جاءت كنبه ، وهي روائع في الحداقة الجدلية والسحر الشعري والطلاوة الانيقة في خدمة فكرة لا تضحى بالفروق الدقيقة على مذبح الحزم ، فنشرت تعليمه الشفهي وابتقه حيا .

ان آراء افلاطون تتحدى التلخيص بتنوعها وغناها وعمقها . ولكن التشديد على ما فيها من روح دينية زاخرة ليس في الحقيقة مما يزورها . فالفيلسوف يحاول التوفيق بين العقل والعاطفة الدينية ونزانا ميالين تقريباً للقول انه انما يحاول التوفيق بين العقل ودفقت الروح والقلب : فالحاجة ، أي تلك النزعة الحارة نحو الجمال المطلق ، القريبة جداً من الخير المطلق ، هي في نظره معيار الفضيلة ، ويكاد علم المعقولات يختلط عنده بالصوفية . ويستحيل التأكيد ان علم الفلك نفسه لا يجاور التنجيم عنده . لذلك فقد رأى بعضهم فيه المسؤول الاول عن « الانهيار

العصبي ، الذي يعزى إليه انه صرف الفكر اليوناني عن متابعة اليهود لمنطقي الذي قاده حسق ذلك التاريخ يمثل هذا النشاط وهذا النجاح . ولكن هذا الرأي لا يأخذ بعين الاعتبار كل ما قام في اعظم عهود الكلاسيكية ، الى جانب وخارج مذهب العقلين من النخبة القليلة العدد ، والمعجز الذي واجهته همة النخبة ، حتى قبل افلاطون ، في الحد من ازدياد وثبات نزعات مالت هي بالفطرة الى اعتبارها اقل نبلا . ولكن ما لا شك فيه ، على الرغم من ذلك ، ان افلاطون قد سلم هذه النزعات نهائياً شهادتها في النبيل .

ليست ديانتته على كل حال الديانة التقليدية الزاخرة بالاساطير التي حكم عليها بأنها غير محقولة . واذا ما بقي وبقياً لمذهب تعدد الآلهة ، فإنه قد صحّحه بتدريج ينتهي ، عند القمة ، باله كامل لامتناء يكون إحكام التأمل فيه اسمى مكافأة ممكنة . وهو يؤمن بخلود النفس والتقمص وهما ذبول لازمة لنظريته حول « المثل » وعلم الاخلاق . فالمثل ، وهسي جواهر الاشياء والتصورات ، التي ليس مثل « الخير » بينها سوى الاله المطلق ، موجودة في عالم سام ، وليس باستطاعة الانسان ان يرى ، في العالم الارضي والمحسوس ، سوى انمكاساتها الغامضة . ولكن نفسه ، قبل ان تتجسد فيه ، قد عرفت العالم السامي والمثل . وهسي بالتالي ، وفاقاً لصفقتها ، وبقوة متفاوتة ، تذكر هذا العالم وهذه المثل ونحن اليها . فيها نفسها ، وبالجملة التي هي خليقة بها ، وبالحرارة التي تشدها الى الفضيلة ، يتعلق امر تخلصها رويداً رويداً ، في تجسّدات متجدّدة متعاقبة ، من عالم الصور ، حتى تتقرب الى الله .

يستحيل التفكير هنا في استعراض المظاهر الكبرى الأخرى لرأي افلاطون : شغفه بالعوام وخصوصاً بالرياضيات ، نظريته حول الاعداد المرتبطة بنظريته حول المثل ، نظراته الاجتماعية والسياسية . فهو لا يزال في الدرجة الأولى ، خلال الاجيال المتعاقبة ، « المثالي » الذي يرى في الفضيلة وثبة نحو الألوهة ويوجب على الألسنة التي شعر الانسان ابدأ بإقضاها بقوله المطمئن ان النفس ، اذا ما انفصلت عن الجسد الناقص والمحسوس ، تستطيع ان تجرد ، في الموت ، وبفضل الموت ، فرصة للسمو الى عالم أعلى .

ولم يتردد ارسطو ، وهو تلميذ افلاطون ، في انتقاد ونحطي معلمه . فهو يرى ان المثل ، الحالة في الاشياء والكائنات ، تتحقق في المادة بانحازها شكلاً يزداد تكاملاً بازدياد مطابقتها لعلته الغائية . فالمادة والشكل والغاية اذن ثلاث معطيات لازمة ، على تباين في اهميتها ، بسبب اختلاف مراتبها ، تستتزم الدرس لتدرك ادراكاً تاماً . فلا يحتفظ ارسطو بعد ، شأن افلاطون ، بالدور الأول للمحبة والحس في سير الانسان نحو الحق بل للاستدلال والمجهود التجريدي . وهو لا يوجب بعد بين الله والخير بل بين الله والأدراك الخالص ، واذا كان كل شيء ينزع نحو الله بالارتفاع درجة فدرجة في سلم الكمال والعلل الغائية ، فان النفس لا تدنو منه الا بانقيادها للعقل ، وعلى العقل ان يرشد ، بين تقصّتين متناقضتين ، الى « الحد الوسط » الذي هو الفضيلة ،

فضلة عملية قبل كل شيء ، إذ أن مصير الانهيار يتحقق على الأرحس .

تبرز بذلك القوة التي تقفصل بين أرسطو وأفلاطون . فقد أدى الخلاف العميق في طبيعتها التي تقوم على الاحساس والحجة عند أفلاطون ، وعلى الملاحظة الدقيقة عند أرسطو ، الى خلاف جوهرى في المنهجية والروحية . فقد اراد أرسطو ان ينطلق من الواقع الحسى ليأتى بالبنات الملمزة التي تسمو الى ارفع تجريد ، فجعل نصب عينيه أولاً ادراك هذا الواقع . اما المدرسة التي أسسها في اثينا في ملعب ابولون ليكاوس (*Le Lycée*) حيث افضت احاديثه مع تلاميذه ، في الممرات الضيقة ، الى اطلاق اسم « المتزهين » عليهم ، فقد كانت قبل كل شيء ، في ايامه ، مركز اجات منظمة على أعلى مستوى ممكن من الدقة والشمول . ففي جميع الحقول ، من علوم وادب واخلاق وسياسة ، انكب هو نفسه وحمل غيره على الانكباب على البحث عن الوقائع وتنسيقها ، سعياً منه وراء اسناد جده في الاستدلال والتعميم على اسس وطيدة . وهكذا فانه يبدو بلا مراء ، كواضع حجر الزاوية ، في العصور القديمة ، لاحدى القواعد الرئيسية في الاسلوب العلمى الحديث . وهو غير مسؤول عن الخطأ الذي ارتكب زمناً طويلاً في جعل تحقيقاته المرجح الاخير في كافة العلوم : فالروح نفسها التي سيرته كانت تقضي لا ينقطع غيره عن توسيع وتعميق تحقيقاته .

يفضل أفلاطون وأرسطو ، اللذين سيستمر أثرهما طويلاً ، حافظت فلسفة القرن الرابع على مستواها في القرن الخامس ، لا بل ان هذا النظام الفكرى لم يسهم يوماً في سناء الحضارة اليونانية بمثل ما اسهم به اذ ذلك . وقد احتلت اثينا على هذا الصعيد ، منذ ذلك العهد ، مركزاً لم تعرفه من قبل . فسقراط وانتستين وأفلاطون كانوا مواطنين اثينيين ، وفي اثينا اسس الفلاسفة الأجانب مدارسهم التي اقبل عليها تلاميذهم . وقد ثبت واقع سيدوم طويلاً ، هو ان اثينا اصبحت عاصمة الفلسفة في العالم اليونانى .

منذ البداية نظر الاغريق الى الفلسفة نظراً الى العلم المبدأ لأن يؤلف
العلوم منها النتائج في تفسير اجمالى . غير ان التيار الفلسفى اذ ذلك قد سبق التيار العلمى اشواطاً بعيدة . وفي الواقع تأثر التيار العلمى بدروس نظرية عقائدية ، ان لم تكن لاهوتية . وعلى الرغم مما في ذلك من تناقض ، فان علم العقول (ماوراءالطبيعة) قد تكون قبل علم الطبيعيات ، حتى اذا استندنا الى هذه الكلمة معناها الواسع جداً ، الذي ربما انطوت عليه في ذاك العهد كهدرس للطبيعة ، ويجب انتظار أرسطو حتى يولى بحث الوقائع المحسوسة البتقيق كل الهمية التي يعطيها للعلم . ولكن هذا العلم قد اعاقه من جهة ثانية فقدان الاهتمام لتطبيقاته العملية ، ويبرز هذه الحالة الفكرية تتكرر المجتمع الراقي لبعض النشاطات المأجورة . ثم ان العلم قد اعوزته الادوات الفنية لأن الصناعة لم تكن ناشطة بعد ، وهي مساعد العلم وحافزه معاً . وبسبب افتقاره الى نهج اختبارى لم يتصوره تصوراً قط ، ربما لأن الوسائل المادية لم تتوفر له

هذا العرض ، بل العلم الى التجريد او اقتصر على الملاحظة . وقد حمله البلاغات السائدة في الفلسفة على ان يفضل ، زمن طويل ، اولي الطريقتين المفتوحتين امامه .

فن الطبيعي اذن ان تكون النجاحات الباهرة قد تحققت في حقل الرياضيات وملحقاتها . فالمدرسة البيثاغورية التي ما زالت ناشطة ، لا سيما في ايطاليا الجنوبية ، على الرغم من الصعوبات التي اقامها في وجهها عدااء شطر كبير من الرأي العام ، قد بقيت امينة للابحاث الحسابية والهندسية التي جعلها مؤسسها متممة لعقيدة الطائفة المشايعة له . وقد برز في هذا الحقل اسمان ، كلاهما في القرن الرابع ، هما اسم « ارخيتاس » وهو بيثاغوري لا غش فيه كان حاكماً لطارتنا وطنه واسم « افدوكس » الكينيدي الذي افضت ابحاثه الى تقدم المعارف الرياضية تقدماً حقيقياً . ثم ان افلاطون نفسه ، الذي اطلق على احدى محاوراته اسم المهندس الاثيني « ثييتيت » والذي كان على صلة بالبيثاغوريين في الغرب وفي اليونان حيث انتشر مذهبهم ، قد اهتم اهتماماً حاراً بهذه الابحاث واحلها عملاً مرموقاً في اكاديمته . كذلك استهوى علم الفلك جميع هؤلاء الرياضيين الذين تفتنوا في ابتكار النظريات حول نظام الاجرام السماوية . فحالهم التوفيق في احدى المرات . وقد سبق ان اشرنا الى الفكرة التي كونها اناكساغوروس عن الشمس . لاشك ، والحق يقال ، في انه قد اقتصر ، في الالماع الى ضخامة كتلتها المتأججة ، على القول انها « اكبر من البلووينز » ولكنه قد علم أيضاً ان القمر شبيه بالأرض تقوم على سطحه ، على غرارها ، الوديان والجبال ، ويتلقى ، على غرارها ، نوره من الشمس . وقد قال احد بيثاغوريي القرن الخامس بدوران الارض والكواكب الأخرى حول نار مركزية . ولكن نظريته التي اسرع من جهة اخرى الى ربطها بنظرية ايقاع الافلاك الموسيقي لم تصادف ابي نجاح . فان افدوكس قد انهمك اذ ذلك في ان يثبت ، بوسائل مختلفة ، دوران الكواكب حول الارض . وقد اصطدمت كروية الارض نفسها وقتئذ ببعض معارضات المعارضين . بيد ان هذا الرأي المنبثق عن البيثاغورية قد حظي اخيراً بانضمام اكثرية العلماء اليه . واذا كان الفضل يعود لأحد الايونيين من مدرسة « كيوس » في اثبات انحراف محور الارض على سطح مدار الشمس المستوي ، فان ارخيتاس وافدوكس هما اللذان حققا الطريقة التي تسمح بحساب قياسات كوكبنا ، واخفقا من جهة ثانية في تطبيقها عملياً .

والعلم الوحيد الأخير الجدير بالذكر هو الطب الذي نرى فيه النتائج الخسيرة لبدء العقلي الكلاسيكي الذي هو مدين له بنشأته كعلم . اجل ، مارس الاغريق الطب ابدأ ولكن بشكليه : « الوصفات » الاختبارية وقد استعيرت احياناً من مصر الغنية بها جداً ، « والوصفات » الدينية او السحرية احياناً . ففي اماكن مختلفة كان للآله او الأبطال الشافين معابدهم المتباينة الشهرة ، وكان اوسعها شهرة معابد اسكليبيوس ، ولا سيما معبد ابيدورس في الأرغوليد . وكان الطب فيها عن طريق هتاف الغيب ، فيأتي المرضى الى الكهنة ويطلبون منهم تفسير الاحلام التي انعم الاله

بها عليهم اثناء ليلة قتلها تحتة فلرواقي . ولم يكن هؤلاء الكهنة بالاغبياء . فان خبرتهم ، على الأقل ، قد سمحت لهم بارشاد المرضى الى طريق الشفاء . فاستثمر الاطباء هذه الاختبارات العملية . ثم تأسست المدارس ، ولم ينفك ملوك الفرس ، منذ اواخر القرن السادس ، عن تعهد اطباء يونانيين في بلاطهم . فحصل في القرن الخامس المجهود المنطقي الذي يلفت الانظار بنوع خاص في هذا الحقل .

وقد يكون احد اعضاء مدرسة « كروتون » في اليونان الكبرى اقدم على ممارسة التشريح . ومهما يكن من الامر فانه قد اكتشف ان الدماغ مركز الحس والفكر . وقد حدث خصوصاً ان ظهر « ابقراط » في مدرسة « كوس » وهي جزيرة في بحر ايجه قريبة من آسيا الصغرى . وكان ينتمي الى الاطباء الاسكليبيين التي تباهت باخدارها من الاله وخدمت معبده المحلي . ولكن منشأه الكهنوتي لم يمنعه من ان يخلق حقاً العلم الطبي بتطبيقه المبادئ العقلية دون غيرها على الطب . فأبعد عنه النظريات الفلسفية والحرفات التقوية ، واعلن ان ليس من مرض سببه فائق الطبيعة ، حتى داء الصرع الذي انتقد اسم « المرض المقدس » المشتهر به ، ناعماً اياه بكذب المخرقين والجهلة ، وعني وأوصى بمتابعة درس الانسان وحتى البيئة الطبيعية التي لمس ما تنطوي عليه من اهمية بسلسلة من الملاحظات قام بها اثناء اسفاره . وان في اعتباره ابا الطب لاحقاً واجب الوفاء .

بيد ان الجرأة التي ألهمت هذا العقل الحازم لم تتوفر لخلفائه . اصف الى ذلك ان المبدأ العقلي قد فقد مرتبته كنزعة سائدة . ولذلك فان القرن الرابع يبدو وكأنه ، في حقل الطب ، عهد ركود ان لم يكن عهد قهقري . واكتفى الاطباء الاسكليبيون في كوس بحرف تعليم معلمهم الذي نظروا اليه نظرتهم الى عقيدة ايمانية . ولكن المعرفة الاختبارية وحدها قد تقدمت في المعابد حيث ازداد اقبال المرضى رائدي الاحلام الشافية . وقد اقتضى حافز جديد لبعث البحث العلمي ، فتوفر هذا الحافز ، على غرار كافة علوم الطبيعة ، في العهد التالي ، عن طريق اسلوب ارسطو – ارسطو ذلك الذي عاد الى خطأه السابق بأن نسب الى القلب الدور الذي سبق لاحد الكروتونيين ، قبله بقرن كامل ، ان تحقق من انه دور الدماغ .

ولو ان القلب قام مقام الدماغ ، والمعاطفة مقام العقل ، لاستهوانا ، في اكثر من مظهر من مظاهر الحضارة ، ان نولي هذا التغيير قيمة الرمز وان نمجد بواسطته ، دونما اعتبار لفوارق كثيرة ، والتناقض القائم بين القرن الرابع والقرن السابق المكب على المنطق . ولعل ذلك لم يكن خطأ في كل الحقول ، ولكنه كان خطأً فادحاً في الحقل العلمي .

لا شك في ان التاريخ لم يكن علماً في ذلك العهد ، وهمل يمكن ان يكونه التواريخ بكل ما للكلمة من معنى ؟ ولكنه مدن لاغريق العهد الكلاسيكي بوعي تدريجي الرضوح لهدهف وواجباته ، لمبادئه الفكرية والمنهجية ، وبكلمة مختصرة لئله الأعلى

المكوّن بحيث ان التاريخ يصبح اقل بعداً عن الأنظمة العلمية من اي نشاط فكري آخر .

كان هيكله المبني ، في أواخر القرن السادس ، كما سبق ورأينا ، قد برهن عن ملكته النقدية : « انني اكتب ما يلي لأنني اعتبره حقيقياً » . ولكنه يتعذّر علينا ، لسوء الحظ ، الحكم على كيفية تطبيقه لهذا المبدأ . وبعده بجمعين سنة تقريباً يبدو هيرودوتس ، وهو اغريقي آسيوي قام بأسفار كثيرة وظهر في اثينا في بطانة بريكلليس ، وكأنه يعود خطوة او خطوات الى الوراء . فقد اعلن ان دوره يقتصر على رواية ما نقل اليه : « ان لمن يرى هذه الامور جديرة بالتصديق ملء الحرية في قبول قصص المصريين ؛ اما انا فأقصد من خلال تاريخي الطويل ان ادوّن كتابة ، وفاقاً لما سمعت ، ما قاله سواي » . ولكن مثل هذه التصريحات ، مهما بلغ من عددها وجزمها في كتابه ، يجب الاتخذ لحدأ . فالحقيقة هي ان هيرودوتس ادهى من ان لا يكون له رأيه الشخصي ، وغالباً ما نراه يستسلم للرغبة في الامساح اليه ، وحتى للتعبير عنه احياناً بحيث تراقفه الابتسامة الدائمة . فهو ، عندما يروي ، يضطر الى تقديم الشروح ، ويبدو كأنه يفسح مكاناً واسعاً لدور الألوهة في الأحداث البشرية . ولكن من لا تحذعه الظواهر يستطيع غالباً هنا ايضاً ، ان يتلمس بعض الارتباب والتشكك ، اذ ان اضخم سذاجات هذا الرجل الذي يصعب ادراكه ، وهذا الراوي المدهش ببرونته ، نادراً ما تخلو من سخرية مستترة يتعذر اكتشافها على من يقرأ كتبه قراءة سريعة . ان مؤلفاته تأخذ بمجامع القلوب بملاحظاته التصويرية حول اصل الشعوب وعاداتها ، وبصفاته الأدبية الرفيعة ، وبسحر الاستطرادات التي يستهويه اللجوء اليها دون ان تؤثر في تلاحم روايته ، وبسلاسة لغة مستعذبة يستثمر مواردها ببراعة يتظاهر بها من شأنها ان تطلي على الكثيرين وتحول غالباً دون تذوق فنه الرقيق . ولكن فضله الاكبر ، كمؤرخ ، يقوم في انه رأى وأدرك المعنى العميق لثلاثة ارباع القرن التي شهدت طفولته نهايتها . وكان الاول في ادراك العالم اليوناني الشرقي في الوحدة التي وفرها له الاتصال بين الحضارات ، والهجرة ، ومجازفات الفتح . وكان الاول ايضاً في النهوض بمركبة تاريخية شعر باميتها وسعى جهده في اكتشاف اصولها ورواية نشأتها وتعقب نموها . وتقوم وحدة عمله ، في الحقيقة ، في مصير الامبراطورية الفارسية نفسه التي نظر اليها نظرتة الى محاولة لم يسبقه احد في اعطائها هذا الشمول ، ترمي الى توحيده الشرق اولاً والسيطرة على العالم ثانياً ، تسير بخطى حثيثة من نصر الى نصر حتى تتعظم باخفاق الحروب الميدية . فهز من تلقاء نفسه ، ودوناً قدوة سابقة ودوناً خبرة تاريخية ماثلة ، ودوناً تأليف سابق او فلسفة سابقة للتاريخ ، قد ادرك وعرض ، ككل ، تطوراً على هذه الوحدة وهذه العظمة وهذا التعميد وهذا التأثير ؛ وهذا في الحقيقة هو فضل وفخر ذلك الذي كان شيشرون محقاً في تسميته « ابا التاريخ » .

وقد كانت ثلاثون سنة كافية لأن يحقق التاريخ نجاحات أخسرى عظيمة بالنظر الى تفوق « توسيديد » على هيرودوتس بقوة عقله وعمق تحليله السيكلولوجي ومعرفته لدوافع المعامل

السياسي والعسكري . فبواسطة توسيديد تبدلت الذهنية تبدلاً كلياً . فلا طرف بعد ، ولا اساطير ، ولا تلكؤ ، ولا احقاد نيمسيس ولا توبيخ هتافات الغيب . وبعد اقصاء الحجج الثقافية والأسباب المباشرة ، اعطت الدولة والانسان وحدهما الاسباب الحقيقية ، الدولة بمنظها العبوس وانيتها المقدسة ، والانسان ، فردا كان ام خلية لكائن جماعي ، بأهوائه القطرية : فالبصرة الحادة هي التي تكتشف ترابط العلل والمعولات . اصف الى ذلك ان موجبات الطريقة النقدية قد وضعت ونفذت بكل دقة : « اما بصدد الأحداث ، فلم ار من الموافق نقلها عن اي راو يرورها لي او بحسب تأثيراتي الشخصية ، بل بمشاهدتها بنفسي ، او باجراء تحقيق دقيق جداً حيال كل نقطة ، اذا اتصلت بي عن طريق شهود آخرين . وكان البحث عسيراً لأن زوايات هؤلاء الشهود للأحداث نفسها لم تتشابه قط ولأن الشهود ، وفاقاً لمظنهم او لذاكرتهم يتلون بين هذا الحزب او ذاك » .

الاجعية هي ان توسيديد يضع هذه الطريقة المزمعة ويمس على تطبيقها على حوادث معاصرة له هو احد ابطالها ، لا بل احد ضحاياها . فهو اثني استلم قيادة عسكرية في اثناء حرب البالونين وحكم عليه بالابعاد للتكفير عن هزيمة عسكرية ، ولذلك فهو انما يريد فهم هذه الحرب وافهامها غيره عندما يروها . فأتضح له باكرأ جداً ان الصراع يهدد بالخطر سياسة التوسع الاستعماري التي يبنض بها وطنه ، لا بل سياسة التوسع الاستعماري التي تمهض بها البولس في كيانها ، وتابع بشغفه العقلي المتكبر نفسه التصميم الاول الذي وضعه وبدأ بتنفيذه قبل ابعاده . فاستعاض بجهده العقلي الملح عن الفاصل الزمني الذي توفر لغيرودوتس بنقل تماقب الحوادث التاريخية وبداية حياته كانسان .

ولكن طموحه يتخطى الى حد بعيد حرصه على الحقيقة حيال الاحداث التي يروها . فهو يستهدف « الفائدة لكل من يريد الحصول على رأي حقيقي في الحوادث الماضية والحوادث المتشابهة او المماثلة التي ستسبب عودتها دوافع الطبيعة البشرية » ، وهذا هو الذي يقصده في كلامه عن « خير مكتسب دائم القرار » . وهو بذلك يعبر عن مفهوم للتاريخ لم يفقد حيويته حتى اليوم : مختبر لاختبارات قابلة للتجدد ، ومجموعة دروس ودليل للسايسين والمفكرين . فشتان ، في الحقيقة ، بين هذه النظرة وتلك التي تستهدف ، اول ما تستهدف ، ارضاء نهم القارئ ، في مجته عن آفاق اخرى ومغامرات قام بها آخرون .

نرى بذلك تفرّد مقصد « توسيديد » وسوصفته المنطقية المطابقة لزعرة عصره العامة . لاشك في ان ذلك يفضي به الى رؤية الواقع رؤية ناقصة : فهو يمسّل القضايا الاقتصادية ؛ ثم ان عمق تجزيده وتصميمه الفظ على بلوغ ماهو دائم يجدان عنده حتى المغالاة من دور ماهو عارض . ولكنه يبقى مثلاً فريداً للورخ الفيلسوف او بالأحرى السيكلوجي ، موغلا في تشريح وتحليل بعض الحقول بثقة لم يبرهن عنها مؤرخ بعده .

كان من العسير جداً المحافظة على مستوى مثل هذا المعلم ، ولم يلبث الهبوط ان ظهر في القرن الرابع . اجل يبدو التاريخ حينذاك مثيراً لاهتمام عدد اكبر من القراء بسبب ازدياد عدد المؤرخين ومؤلفاتهم . ولكن الذوق والعقلية نفسها قد تغيرا ، بمقدار ما يجوز لنا الحكم على القليل مما نعرفه من هذه المؤلفات التي فقد اكثرها او تقتصر اليوم على شذرات لا اهمية لها .

كان كسينوفون ، بهذا الصدد ، اوفر حظاً من غيره ، لان وضوح واثافة وظرف اسلوبه الكتابي ، قد حافظت ، بإطالة شهرته ، على مؤلفاته المتنوعة ، من فقدان . ولكن هذا المؤلف الذي لم يكن مؤرخاً الا في فترات معينة والذي طرق مواضيع كثيرة تفصله مسافة بعيدة عن توسيديد الذي طمع هو في اكمال المحاولة التي توقفت بماته . اجل انه ذو بصيرة نيرة ، ولكنه لم يكن بعيد الغور في ادراك الاخلاق والحوادث . يتصف بفهم الحياة ويستوقف القارىء ويشير اهتمامه ، ولكن ميله الى تهذيب الاخلاق مما يثير الابتسامة ، على انه سطحي على كل حال ، كما ان تحيزه مما يثير القلق والريبة . ويبرز بعده اثر مسيطر تركه ايزوقراط معلم البيان ، ويكون ثيوپوموس ، من التطور الذي تم امام ناظره ، رأياً كافي الوضوح ليجعل من فيلبوس المقدوني الموضوع الرئيسي في أحد مؤلفاته . ولكن الشذرات التي لدينا من هذا المؤلف كافية لأن تبين لنا انه لا يتقيد بتأليف مدقق . ويصبح التاريخ بنوع خاص ، كما كتبه هو وايفوريوس ، قطاعاً من قطاعات البيان ، يهدف الى الزهرمة والحدة وتحريك العواطف ولا يأنف حتى مما هو مدهش وعجيب : فلم يلبث هو ايضا ان انحرف في التيار العام . ولن يتحرر من هذا التيار لا بسهولة ولا بسرعة ، على الرغم من مثل ارسطو الذي كان ، في هذا الحقل كما في غيره ، يجمع الوقائع بانتظام ويوحى ، ان لم يؤلف دائماً ، سلسلة من كتب في مواضيع واحدة حول التاريخ الدستوري للمدن اليونانية . ولم يبلغنا من هذه الكتب سوى « دستور الاثينيين » الذي اكتشف بأعجوبة في اواخر القرن التاسع عشر . ولكن هذا الكتاب ، المؤلف بسرعة ، في موضوع عسير ، أدخل عليه الغموض نشره السابق المتعاقب الذي شوهته الروح الحزبية والحرافات الدينية او الفطرسه العائلية ، ابدت من ان يعبر عن روح نقدية متزهة عن الضلال . بيد انه ، بصرف النظر عن الخدمات التي يؤديها للمؤرخين المعاصرين ، قد اهاب بالمؤرخين القدامى ، الى الحذر من تفخيم في الكلام مستعذب آنذاك والنهوض بمجهود استقصائي دقيق . وهكذا فان ارسطو قد وجه التاريخ نحو العلم الواسع ، واذ لم يجرز فوزاً اكداً ، فان اثر توجيهه سيظهر في العهد التالي .

الشعر : الشعر الفناني
لم يشذ الشعر عن القاعدة العامة . ويمكننا ان نتتبع فيه ، بين الاجيال المتعاقبة ، تطوراً أقل بروزاً في الشكل منه في الروح يسير بخطى حثيثة ويتفق ، في خطوطه العامة وفي اكثر من قمة من قممه ، مع التطور الذي يجيى مظاهر أخرى من الحياة الفنية والفكرية .

مهما بلغ من ازدهار الشعر الغنائي خلال العهد السابق ، فإنه قد تسامى حتى القمة في النصف الأول من القرن الخامس ، مع بنذاروس . فقد عبر هذا الطيبي المحافظ ، الذي مارس الغناء في خدمة الملوك والمستبدن والعائلات الكبيرة النسيبة ، عن المشل الأعلى للمجتمع الارستوقراطي المنتشر التقاليد الدينية والمتجسد في مثال من امثلة الانسان وفي نوع من انواع الحياة . فهو يمجّد ، في الاغاني التي تؤلف جوهر مؤلفاته المعروفة ، هذا الفائز او ذاك في مباريات الفروسية او العاب القوى . ويلجأ الى المزيد من الاساطير في مديحه ومديح عائلته ووطنه . ويدبج حكماً ملهمة من مبادئ ديانة واخلاق الزمن الماضي التي هي في نظره حقائق خالدة . ولا يمنعه بهاء استعاراته الجريئة عن ان يكون ممثلاً للماضي في مستهل قرن سيفيوس جدّة في كل الحقول .

وهو على كل حال آخر اسم بارز في الشعر الغنائي اليوناني . وانّ في هبوط ، بل في زوال هذا الشعر ، اذا جاز التعبير ، لشيئاً من اللغز . فقد كان من الممكن ان يعرف البقاء ، ويكتشف بسهولة مصادر الالهام ، في عاطفة الفرد المتحرر شيئاً فشيئاً من القسر مثلاً . ولكنه لم يسر في هذا الاتجاه الا بعد العهد الكلاسيكي ، ولعل السبب في ذلك انه لم يصادف الا في ذلك الحين ، لدى البلاطات الهلينية ، جمهوراً جديداً من الهواة المتذوقين خليقاً بأن يحل محل ذلك الذي حرمه منه تطور المدينة المتزايد نحو الديمقراطية .

المرح
من المستحيل ، على كل حال ، الا نغزو الى هذا التطور الراج المتزايد الذي عرفه الشعر المسرحي . ويستلزم الشعر المسرحي باستمرار ، من جهة ثانية ، اقساماً غنائية موكولة الى الجوقة ، ويظهر بالتالي كوريث وبديل الشعر الغنائي الصرف الذي هو اكثر انسجاماً مع ادوات الندوات الضيقة في المجتمع العالي . لذلك ليس من العجيب ان ينتج الشعر المسرحي روائعه في اثينا ، في المدينة التي اعطت المثل في الديمقراطية والتي لم تتفوق عليها اية مدينة اخرى في رونق الاعياد الدينية .

بين هذه الاعياد ، احيطت اعياد ديونيسوس ، التي تميّزت بالتمثيل المسرحي ، ببهاء خاص لا يمكن تعليه اذا نحن لم نربط بينها وبين مفهوم المدينة الديمقراطية بالذات . فليس في الواقع شيء افضل من المسرح ، الذي تراه الجماهير بما فيها الفقراء الذين كانت الدولة تدفع لهم رسم الدخول ، بلع شعب بكامله وتجريكه بمشهد واحد يشير فيه الضحك او القشعريرة من هول المساة ، ووضعه ، بشكل جذاب حي ، امام معاضل هو مدعو للتفكير بها في مكان آخر غير الجمعية السياسية ، وبكلمة موجزة « لتجميل الحياة » عن طريق السموم بالافكار ، وفاقاً لحلم رجال الدولة الديمقراطيين آنئذ . وهذا ما يفسر ضخامة التضحيات المالية التي فرضتها هذه الاعياد على الخزانة العامة وعلى المواطنين الأغنياء المنوط بهم انتقاء الجوقات واكساؤها . وتدريبها : وهذا ما يفسر ايضاً ترايد نجاح وعدد التمثيليات . وهذا ما يفسر اخيراً مجد المسرح .

الآثيني الذي بقي زمنًا طويلًا دون منافس والذي أدى القسط نفسه الذي أدله ابنة الفلعة في القرن الخامس ابيداترس الفلسفة والبيان في القرن الرابع في سبيل اشعاع مركز الحضارة آنذاك ، مدينة الألهة « اثينا » .

لا ريب في ان المسرح انتاج ادبي ، ولكنه يستلزم موجبات فنية مادية ايضا تتعقد يوما بعد يوم . كان المسرح في القرن الخامس مجرد صقالة خشبية تقام لايام معدودة ، ثم اتخذ ، في القرن الرابع ، وفي كل مكان ، شكل البناء الحجري الثابت ، وحتى الرخامي في بعض اجزائه ، واعدت لاستقبال السوف المشاهدين (١٧٠٠٠ في اثينا) . ويجهز لهذه الغاية منحدر احسدى التلال ، ويجري التمثيل في الهواء الطلق . ولم يؤمن المسرح المزيد من الراحة لان الجلوس على دكات مزعجة ، دون وقاية من الحرّ والمطر ، سحابة عشر ساعات في اليوم لمدة ثلاثة ايام ، كان يقتضي في الحقيقة جدلاً عظيماً . وقد حاول الفرجون ، في مكان التمثيل ، ايجاد الصورة الخادعة بالترتين الصور الجزئي وتحسين الأدوات المبتكرة التي كانت بدائية جداً . وكانت الجوقة التي تجول في القسم المستدير من المسرح امام الدكات ، موزنة المقاطع الايقاعية ، اكبر عناصر الفرقة عددا - ١٢ ، ثم ١٥ للمأساة ، و ٢٤ للمهزلة . ولكن اهميتها تتدنى ، لأن عدد الممثلين يرتفع بسرعة ، منذ اواسط القرن الخامس ، من واحد الى ثلاثة : وبعد ان كان الممثل مجرد « مجيب » على الجوقة ، اصبح بذلك شخصاً يقابل اشخاصاً سواء ، كما ان الرواية دبّت فيها الحياة بفعل التمثيل المباشر وتصادم الآراء وتعاقب الأسئلة والأجوبة السريعة .

بيد ان هذه التغييرات لم تحل دور استمرار مصطلحات مرتبطة بنشأة المسرح وظروفه المادية على السواء . فنحن لا نعلم مثلا ماذا توجب على كل مؤلف ، في مباراة المآسي ، تقديم ثلاث روايات فاجحة كان من الضروري ، لمدة قصيرة ، ان تؤول كلاً واحداً . ولكن الرغبة في ان يكون لديونيسوس نصيبه من التمثيلات المعدة لأعياده فرضت على المؤلف ان يرفق هذه الروايات الثلاث بـ « مأساة - مهزلة » مكرسة لأحد احداث اسطورة الاله . ولتضاف الى ذلك مثلا آخر هو تقنع الممثلين . فعند الشعوب المختلفة ، وحتى في ايماننا ، عند الشعوب البدائية ، درج استعمال القناع في الاعياد الدينية او استغيض عنه باعتقاد الموثقات المختلفة على الوجه . انه ينزع عن الممثل شخصيته وفرديته وينتزع من الواقع اليومي ويرفعه الى مرتبة المثال العام ، ويسهل الابهام الذي يتبع له لعب ادوار مختلفة في التمثيلية الواحدة او دور ليس الانسان معداً له بالفطرة كدور الاله او البطل او الامراة - اذ ان العادات لا تجيز للامراة مثل هذا العرض امام الجماهير . ثم ان القناع يضخم الصوت ويعمله اكثر جلاء لجمهور غفير . فليست الاسباب اذن ما يعوزنا لتليل هذا الاستعمال ، وهو واحد من كثير غيره ، الذي تدعشنا غرابته اليوم .

لا يتجلى المسرح اليوناني بكل معانيه الا اذا اعيد الى جوّه الديني والاخلاقي وحتى

السياسي ، ووضع في اطاره المادي . غير انه يرتفع ، اذ ذلك ، لاسيا المأساة ، الى مستوى القمم
الجامعة والحالدة .

ليس في الحقيقة ما يشير الاعتبار كروية الشعراء مؤلفي
المأسى ، في اثنا القرن الخامس ، يعرضون امام ضمير
المشاهدين اعظم المعاضل اممية . فبفضلهم ادتى المسرح قسطه
الرئيسي في مهمة التربية الفكرية والاخلاقية التي استلزمها المفهوم البريكليسي للديموقراطية .
وهم يقتبسون مواضعهم ، على العموم ، من الاسطورة الخرافية . وقد نلس عند بعضهم ، لاسيا
في البداية ، ميلا الى معالجة الاحداث الغريبة العهد . واذا لم يكن اسثيل اول هؤلاء الشعراء
المؤلفين ، فانه كان الاخير في الاستسلام لهذا الميل ، على الرغم من قسوة التجلي البطولي في
روايته « الفرس » التي تستعيد ، بعد ثمانى سنوات ، معركة سلامين التي اشترك فيها كما اشترك
في معركة ماراثون حيث قتل اخوه . غير ان هذا الميل ، الذي كان من العسير جداً ان ياتلف مع
ميزة التمثيل المسرحي والفكرة الدينية فيه ، لم يجرز الغلبة ومالبت ان انتهى الى الزوال .
وقد وقرت العقيدة الخرافية ، على كل حال ، بما يتخللها من فوارق كثيرة يختار الشاعر منها
بله حرية ، ينابيع حية لا تحصى للالهام الشخصي والتفسير الشخصي ايضاً . فالأسطورة
الواحدة ، كاسطورة « اورستس » مثلاً ، تتناولها على التوالي المعالجات المختلفة ، فتثار
حولها مناقشات هي ابعد من ان تنتهي بتوحيد وجهات النظر المختلفة . وتعتبر هذه الفوارق ،
شأن ميزة الشعراء الفردية ، عن التطور الفكري والاخلاقي السريع الذي طبع الاجيال
اللاحقة .

ان اسثيل الذي حارب في ماراثون يمثل الماضي والخضوع التقليدي لقوى فائقة الطبيعة : فهو
قد ولد في الفسيس وامتلت روحه بتدين قديم . وهو يقبل الاعتقادات القديمة ويظهر ، بعظمة
منقطعة النظر ، تأثير الالوهة على المصير البشري تأثيراً مباشراً فعلاً لا يبالي للعند والرحمة .
ومن حيث خضوع هذا المصير للعنات الوراثية ولثأر وحسد الآلهة ، فانه ينتقل من امتحان الى
امتحان . ويكاد لا يجد بعض التعزية الا في الشفقة التي تثيرها مصائبه والتي نادراً ما تفعل فعلها ،
على كل حال . وقد اخذت تظهر ايضاً ، بكل صعوبة احياناً ، فكرة تعليل العقوبة بالكبرياء .
ولكن ، اذا حصل اورستس على الغفران بفضل محكمة « الاروباغوس » وتمكن من تقديم
الذبيحة الى الالهات بنات الارض ، فان « بروميثاوس » ، « التيطان » المحسن للبشر ، سيرف
العذابات الابدية التي استحققتها له جسارته كئاثر والحكم المبرم القاسي الذي صدر عمن آلهة
ارفع من العالم وابدع بالتالي من ان يرمونوا عن روح انسانية . وهكذا فان مذهب اسثيل
قوامه الهول والتواضع .

ولكن الامور قد تغيرت مع سوفوكليس . اجل ان هذا لا يعمل شيئاً من التدين التقليدي ،

ولكنه لا يحتفظ في مآسيه بالمركز الأول للآلهة . فالقدر يبقى سيد الانسان ويفرض عليه الاتقياء الدائم ، لا بل الذل نفسه امام مساواته القسوى . ولكن القدر يصبح اقل ظهوراً وتضيقاً ، واكثر انفتاحاً ، في الوقت نفسه ، على مفاهيم العدل والمسؤولية . اضافة الى ذلك ان ما أورده سوفوكليس في مأساة « انتغون » لم يورده عبثاً : « هنالك اشياء مدهشة كثيرة ، ولكن واحداً منها لا يوازي الانسان » . فان سيكولوجيته تتعمق في الاستقصاء وتتوسع متدرجة من العنف الحاد حتى ارفع العواطف رقة . وبدلاً من ان يتصلب الاشخاص عنده في مخالفة بعضهم بعضاً ، شأنهم عند اسثيل ، فانهم قد اخذوا شيئاً فشيئاً بتقديم البراهمين والحجج ، رغبة منهم في التعريف عن انفسهم تعريفاً اكثر مرونة وفي ابعاد التهم الملصقة بهم . ومن حيث انه عاصر بريكليس الذي زامله في القيادة العسكرية في السنة ٤٤٠ ، فانه يدخل على لاهوته خبرة اوسع تنوعاً وارتفاع انسانية وينقل في الوقت نفسه الى الشعر فن فيدياس المتميز بالجلال والبساطة معاً .

ثم يبرز ، على غيرة كبيرة ، اوربيد الذي يفصله عن سوفوكليس فرق خمسة عشر سنة في السن فقط ، هي في الحقيقة ثورة فكرية ، ثورة السفطين . فهو لا يتردد في الانتفاض بصراحة على الاعتقادات القديمة وفي انتقاد التقاليد المستعبدة او المثافية للاخلاق . فليست الاسطوره في نظره سوى حجة فقط وتقتصر الرواية المستندة اليها على مستوى الحياة العائلية . وقد تمتع بمخيلة بالغة الحسب وباحساس فائق الحدة في اشد الظروف عنفاً آدمها وهزاً مشاهدي هذه المآسي التي اصبحت مآسي بورجوازية او ريفية احياناً . لا بل يحدث احياناً ان يسمو احقر الناس ، نبلا وفضيلة ، على الابطال والبطلات الذين تحركهم بالمقابلة الاهواء البشرية والضعف البشري . فاطار رواية « اليكترا » ليس قصر ارغوس الملكي ، بل قرية وضعة في الارغوليد تكون فيها ابنة آغاممنون زوجة لفلح غفل هو نفسه الذي يتجه اليه عطف الشاعر بصراحة . وقد ذهب اوربيد الى ابعد من ذلك . فمن حيث هو « الصدى الرنان » لزمانه ، فانه يعلم على الاقل بالمناقشات الفلسفية الكبرى ، وحتى ببعض المعاضل السياسية الراهنة ، مضطراً احياناً لايقاف سير احداث الرواية ، ومبرهنناً على الدوام عن بصيرة دقيقة اخذت بجمع قلوب الهواة انفسهم . ويقال ان سقراط قد داوم على حضور كافة تمثيلياته . ولا شك في ان التمسكين بالتقليد قد نادوا بالويل والثبور ، ولكن ليس من استجابة افضل لادواق الجمهور الاثيني الجديدة من مآسي اوربيد .

ولدت المهزلة ، شأن المأساة ، من ظرف اعياد ديونيسوس نفسها ، « المهزلة القديمة » ولكنها استهدفت إثارة الضحك . ولذلك فهي منذ البدء قد نعمت بجرية اوسع . وهي ليست على كل حال شبه احتكار اثيني ، بما ادخل عليها المزيد من الترحيح . وكان هنالك في الواقع في النصف الاول من القرن الخامس ، مهزلة « دورية » *Dorienne* في سيراكوزا ، اشتهر « ابيخارموس » بمثلها الرئيسي ، استوحى مواضيعها من الحياة الشعبية والملاحظة

اليومية ، ثم استمرت في التمثيل « الایماثی » . وليس من ريب في انها لم تبق دون تأثير في التطور اللاحق الذي عرفته التمثيلات . ولكن هذه المؤلفات قد فقدت كما فقدت مؤلفات الهزليين الاثنيين المعاصرين : فلا شيء يمنع بالتالي ان تكون « المهزلة القديمة » في نظرها ، مهزلة ارسطوفانوس بالذات الذي غطى نشاطه شطراً من القرن الخامس وآخر من القرن الرابع .

ان هواء ومداعبته حتى وغلاظته ايضاً لا تعرف حدّاً . فهو يلجأ بصورة طبيعية جداً الى المداعبات البذيئة وحتى الى القذارات نفسها . ويزدري بالآلهة الذين يصورهم في اوضاع مضحكة احياناً . ويتناول ، شأن الهزليين الاخرين الذين تهكموا تهكماً لا دعماً من بريكليس نفسه ، الرجال الاحياء المعروفين المشهورين الذين يصورهم صوراً هزلية تعجز قوة الخيال فيها عن ان تسي ما فيها من تظلم فظيع . ويظهر في النظام الديموقراطي معارضاً رجماً . وينادي بالسلام حتى في خضم الحرب القومية . وينتقد اوريبيد وجرأته الاحادية ، ولكنه لا يتمتع عن تقليد رفته المجددة . ولا يتم للتناقض ولا للشطط . ولكن هذه الغرابة المنفلتة ، وهناس المعجزة ، يرافها شعر بالغ الرقة واحساس فائق اللطف يحمالات الطبيعة التي يعبر عنها بمهارة نادرة في السبك والايقاع . وليس سوى مؤلفاته المدهشة ما يتيح ادراك مرونة الفكر اليوناني والمناقضات التي اصطدمت فيه بميوعة الحياة . فكيف يتذوق هذا الشعب ويتوج مثل هذه التمثيلات ، وجب ان يكون قريباً من الارض ، على انه كان خبيراً سريع الاحساس قادراً على الضحك الكثير والتأثر بما يشاهده ذوي الاحساس الرقيق ومستعداً للابتهاج بالوادع الموجهة الى آراء وزعامات يحضها ثقته في غده وامسه . اجل لم يكن متشككاً ولكنه ، في يوم عيد ، طيب له استقبال مناقضاتٍ شعرٍ بغليانها في نفسه دون ان يضطرب منها .

المرح في القرن الرابع بلوغ تذوق المسرح الذروة . فتعددت الابنية المسرح في القرن الرابع والاعباد ، ونمت شعبية الممثلين نمواً بالغاً ، وزاد الانتاج زيادة كبيرة لا سيما وان شعراء كثيرين قد برزوا في غير اثينا . وعلى الرغم من ذلك فقد كان التطور عظيماً .

هبطت المأساة هبوطاً لن ترتفع بعده . ولن يكفي لتجديد قوة الحياة فيها ان يتفرغ لها احد عطاء هذا العالم ، مثل دونيس المستبد في سيراكوزا ، ويفوز دون دهشة بالجائزة في اثينا في السنة ٣٦٧ . فؤلفات القرن السابق العظيمة تتوه بسحرها على المؤلفين وتضطرم الى التقليد . لذلك فان الجمهور يستطيب تكرار التمثيلات السابقة ولا سيما تمثيلات اوريبيد التي تعرف شهرة لم تعرفها من قبل : وقد سبق لبعض الاثنيين الساقطين في ايدي الاعداء ، ابان حروب البلورينز ، ان كانوا مدينين بنهاية عبوديتهم لمعرفتهم بعض المقاطع لهذا الشاعر ، وستكون مؤلفاته ، بعد ذلك بقرن تقريباً ، احدى مطالعات الاسكندر المفضلة . وقد فرض القانون الاثيني ان تثل رواية ، من لائحة مقررة ، خلال مباريات المساعي المفعلة . فكتب بذلك البقاء هذه المباريات .

اما المهزلة فقد احتفظت بحيويتها ، ولكنها تحولت تحولاً عميقاً . فان المركز الذي احتلته فيها الجدل الكتابي الراهن قد طبع بالهرم والبطلان . الروايات القديمة التي كان من شأن فسادها العام ، على كل حال ، ان يبدو منذئذ معبثاً ومشينا . فأصبح من الضروري ان يؤتى بشيء جديد اكتشفته المهزلة « المتوسطة » أولاً والمهزلة « الجديدة » ثانياً في طريقة ابخارموس وحقق في اوريبيد نفسه ، الباعث الأول للأساسة البورجوازية . وقد استلهمتا الحياة الاجتماعية في عهدهما وخلقتا نوعاً جديداً سندرسه في الصفحات التالية عند كلامنا عن « مينندروس » الذي يكفي اسمه وحده ، مع أسماء « بلوت » و « ثيرنس » وحقق « مولير » التي تردّد صدى اسمه ، لئذكرنا بمن انتسب اليه بعده بزمن طويل .

اصول ونشأة البيان
 حظيت الفصاحة ، شأن المسرح ، بتقدير اعريق العهد الكلاسيكي
 وانتجت روائع مدهشة .

كان ميل الاغريق للخطابة متأصل النبل فيهم: فهو يُردّ دونما ريب ، الى نجاسة عنصرهم العميقة . فمثل الأعلى للنبل الهوميروسي يوجب عليه اثبات الخبرة نفسها في تدبير الكلام وفي استعمال السلاح . وقد عمدت كل الأنظمة القديمة ، ملكية كانت ام ارسوقراطية ، الى تعميم مبدأ المناقشة في المجالس والجمعيات . ولكن فضل الانظمة الديمقراطية ، التي رفعت عدد اعضاء هذه الاجهزة ، انها جعلت من هذه المناقشات عاملاً حاسماً . فهي قد احتفظت بالسيادة الفعلية لجمعية عموم المواطنين وخولت حق البت بالدعوى الهامة ، العامة او الخاصة ، لمخلفين شعبيين لا يقل عددهم عن بضع مئات من المواطنين . وهكذا في المدن التي غدت اثينا قدوة لها في القرن الخامس ، اصبحت الحياة السياسية كلها ، وشرط كبير من المصالح الفردية ، خاضعين للاقتراع الذي يلي المجادلات الخطابية . ولذلك كان من حق ديموستينس ان يتكلم عن دول « يرتكز الدستور فيها على الخطب » ، وهو لم يكن ليقتصد تحقير هذه الدول لانه يستهدف بذلك وطنه في الدرجة الاولى . وقد بلغت اهمية الكلام شأواً لا نستطيع معه استغراب نجاحاته المستمرة التي تسمو بالفصاحة الى مرتبة الانواع الادبية : فالصكالم الفني فيها يسير بمحاذاة الصكالم التقني الذي يؤول في النهاية الى تحويل الفصاحة الى بيان .

تعذر علينا في الحقيقة ، لمدة طويلة ، ان نبدي رأينا في هذا البيان . فنقدّر ان تيمستوكليس قد تمتع ، بغية التوصل الى السيطرة ، بموهبة خطابية نادرة . ولكنه لم ينشر شيئاً قط ولم يدون احد كلامه . اما بريكليس ، فيستحيل ان نركن الى الخطب التي نسبها اليه توسيديد والتي هي في الحقيقة من وضع المؤرخ . فالتصرف الفوري كان كافياً آنئذ للخطباء .

ولكن الرغبة في زيادة فعالية هذا التصرف ، في منتصف القرن الخامس ، هي التي حملت بعضهم في سيراكوزا ، حيث حل النظام الديمقراطي محل الاستبداد ، على محاولة اكتشاف وتعميم اسرار النجاح . في البدء كان السفسطيون ، الذين جاء العديد منهم من الغرب ، ابتداء من

« غورغيانس » الصقلي الشهير ، اساتذة في علم الفصاحة ، وقد انبثقت الثورة الفكرية التي مهدوا لها الطريق انبثاقاً مباشراً من تعليم الخطابي الذي نشروه في المدن المختلفة . فهم لم يكتفوا بالتمادة بالصنعة الانشائية وينشر بعض الصيغ الكتابية بسبل رغبتوا في ان يظهروا ايضاً ، واظهروا فعلاً ، كيف تغلب البراهين على الحُجْم وروضوا بالتالي عقول تلاميذهم ومرنوم على عرض كل قضية باجلى بيان واقوى اسئلة وعودوم اكتشاف الاجمال والخلاف في البراهين والآراء . وهكذا فان الروح النقدية التي تشك في كل شيء قد ولدت من الحاجات العملية التي تطلبتها المجادلة امام الجمعيات والمحاكم الشعبية .

اقبل الاثينيون باعداد كبيرة على دروس السفسطيين ولم يلبثوا ان اصبحوا ، منذ اواخر القرن الخامس ، اساتذة في الفن الجديد . وتعود الى هذا العهد الخطب الاولى التي نشرها واضعوها الزاغيون في استمرار اثرها ولا سيما في اركاز شهرتهم : فاصبحت اثينا في القرن الرابع مدينة مدارس البيان كما كانت في الوقت نفسه مدينة مدارس الفلسفة .

نرانا لأول مرة - وللامر اهميته في تاريخ المجتمع والاخلاق - امام الاساتذة وبمعدو الضبط في اثينا نشاط فكري وعمل حرقمين بتوفير الأرباح الطائلة للذين يمارسونها . فان عادة مكافأة الاستاذ على دروسه التي ادخلها السفسطيون وانتقدنا خصوم تعاليمهم الاخلاقية والفلسفية قد درجت بسهولة كلية في تعلم البيان الذي يؤمن لطالبيه عدة نافعة لكسب دعائهم الخاصة . وكان هنالك اكثر من هذا . فاذا كانت الاصول القضائية تمنح اللجوء الى المحامين ، فانها قد سمحت باللجوء الى « سينيغوروس » قد يكون خطابه اكثر استفاضة من الفريق ذي المصلحة في الدعوى . وقد سمحت للمتقاضى ، بنوع خاص ، بان يستعين بـ « ميميد » الخطب ، الذي يحضر له سلفاً خطاباً يلقي امام المحكمة والذي يتقاضى بحكم الطبيعة اجر عمله . وهكذا فان الخطباء المتهنين اذا ما بلغوا الشهرة ، كانوا يجمعون الثروات . وهكذا ايضاً فان ديموستينس قد استعاد الثروة التي بددها اوصاؤه بفضل هذه الطريقة ، لا بفضل الذهب الفارسي والاختلاس الذي اهم به . ولكنه ، في اثينا القرن الرابع ، لم يكن الوحيد الذي عرف النجاح المادي .

اقبل الاساتذة والطلاب من الخارج الى المدينة التي تحتل فيها الفصاحة مثل هذا المركز . فبين الخطباء « الاتيكين » الذين احتفظ الاسكندريون باحسانهم في « قانونهم » اي في مجموعة مثلهم ، يوجد اجانب مقيمون كثيرون : فان ليزياس وايزيدا ودينارخوس ينسبون الى سيراكوزا وخلقيس وكورنثوس . واذا انصف الاولان منهم بالباطة المقصودة والوضوح المستلطف في انشائها والحدة في اقامة براهينها ، فهذا لا يمنعها من ان يكونا مثاليين لما اطلق عليه اسم الطريقة « الاتيكية » حيث تسمو الملاحظة الاخلاقية الدقيقة والظرف اللطيف والمرونة المستهله الى مرتبة الفن العاري الذي يستغوبنا دائماً ويقنعنا احياناً . ولذلك فان

مؤلفاتهم ، تضاف إليها « المرافعات المدنية » المعاصرة التي لا تجزم في صحتها والتي تظهر في مجموعة خطب ديموستينس ، ليست فقط شهادات ذات أهمية رئيسية حول القانون المدني أو التجاري وحول الاخلاق في المجتمع الاثيني . فهي تعبير حي عن مثل ادبي اعلى يستجيب ، على الرغم من وفرة زينهم ، لنوع سليم بالغ الرقة .

كان لبعض الخطباء من جهة ثانية طموح اسمي فتركوا اثرأ اطول بقاء .
البيان - الفلسفة
خضع ايزوقراط بينهم الى شواغل جمالية ملحة اضطرته الى صرف
الاقوات الطويلة في تحضير اقل خطبه مهمة التي نشرها دون ان يلقيها
لانه لم يستطع التكلم امام الجماهير او لم يتجاسر على ذلك . فذهب الى اقصى حد في البحث عن
التناغم في خطابه الكامل وفي كل من اجزائه حارصاً على توفير الوزن في جملة المتضادة وعلى
تحاشي التقاء حرفين صائتين فيها . فابعد بذلك نوعاً جديداً مدعواً لان يدوم ما دام العهد
القديم ، اعني به الخطبة الخيالية التي تستهدف الابهة . وغداً باقائه لتوازن توسيع فكرته وحسن
انتقاء مفرداته القدوة المثالية « للخطباء » الذين كان دورهم الفكري عظيماً جداً طيلة
قرون وقرون .

فالبنى جوهري في نظر ايزوقراط . وقد لجأ هو نفسه الى استخدام الفصاحة لتوجيه مصائر
اليونان جمعاء . فقد بثّر دونما ملل بالمصالحة والتهدنة بين الاغريق وبالحرب الجماعية ضد الملك
الفارسي . اجل ان هنالك ، في نظرها ، كثيراً من الحشو في العدة الميثولوجية والتاريخية التي
ينقل عنها جزءاً كبيراً من براهينه ، ولكن كل ذلك لم يكن بعد ميثاً لقرائه . لا بل ان في
مؤلفاته مقاطع كثيرة تكشف لنا عن قدرته على التدقيق وحتى على الفراسة في تحليل الآفات
التي أمت باليونان آنئذ وتحديد الانحاء الممكن ان يبحث فيه عن الدواء . فليس اذن هذا الخطيب
الاول بين الخطباء كاتباً سياسياً يستهان به ، على الرغم من انه يتعذر النظر اليه كمفكر كبير .
وليس هذا ما يقصده عندما يدعي انه « فيلسوف » وينسب الى فلسفته ، التي ليست سوى
الفصاحة كما هو يفهمها ويمارسها ، قيمة تهذيب فكري وحق اخلاقي . فهو يعتبر ان الكلام هو
مزية الانسان الاولى وان استخدامه استخداماً كاملاً لضمانة لفكر كامل وفضيلة كاملة وحضارة
كاملة . وان اتقان الكلام يؤول بالضرورة الى اتقان التفكير ، لانه يرغب على البحث عن الافكار
ووزنها وتوضيحها بانتقاء المفردات وتنظيمها منطقياً وجمالياً . فلم البيان اذن مفتاح كافية
التعاليم : انه في الحقيقة يتناولها جميعاً لانه يشتمل على جميع الصفات الانسانية . ومن ثم فان
ايزوقراط يجعل نفسه مزاحماً لافلاطون ، وقد تكونت من تعليمه نظرية تربوية لم تدم دوام
الحضارة اليونانية فحسب ، بل دوام الحضارة الرومانية ايضاً ، وقد استمرت آثارها بادية حتى
يومنا هذا . فان تعلم اصول البيان وممارسته ممارسه طويلة قد اعتبرا بمثابة التنوير للتربية الفضلى .
فهل من غرابة والحالة هذه في ان تطبع عقول الرجال المثقفين بمثل هذا الطابع ؟

لم يمنع ذلك من ان يكون للفصاحة الاثينية، في القرن الرابع ، رجالها ومؤلفاتها في العمل المدني والصراع المباشر . فقد وجه بعض الخطباء ، فعلاً، سياسة المدينة تاركين لرجال الحرب المهتمين مهمة تنفيذها. ولم تكن هذه حال القرن السابق عندما كان بريكليين يوحى مراسم الجمعية ويأمر الاساطيل : ان النجاحات التقنية في هذين الحقلين من النشاط قد فرضا التخصص .

ان اعظم خطيب بين هؤلاء الخطباء الذين اثروا مباشرة بكلامهم هو ديوسيوس ، بلا منازع . قد يمكننا مناقشة الرجل السياسي ، لا بل الرجل فحسب ، وبعد نظره ونزاهته . فان اسشين يفوقه مرونة وظرفاً ، كما يفوقه « هيبيرس » فنا أكثر استسهالاً وحادقة ، ومع ذلك فإنه سيد الجميع . فنصاحته عملى وحياء ومنطق وحما . تقنع بقوتها وعمقها السيكلولوجي وبراعتها السهلة التي لا تم عن الجهد وتأخذ بجماع القلوب برصاتها التي تعترضها نزاعات تمزق القلب . امام هذا القدر من الكمال الطبيعي والقوة المؤثرة ، ينقاد بعض القراء العصريين انقياداً للاخذ بوجهات النظر التي دافع عنها ديوستينس : فكيف الحال ، كما سبق وقال اسشين المهزوم امامه ، « اذا ما سمعت النمر يلحمة ودمه ؟ » ؛ واذا ما وصف خطيب سواه بهذا اللقب فيما بعد ، فلم تتوفر عند غيره ، وام الحق ، ميزة خلق الاضطراب في انفس قرائه طيلة القرون المتعاقبة .

لاشك في ان طابع المأساة الذي طبع به مصير ديوستينس قد أسهم نهاية الكلاسيكية اليونانية في اعلاء عظمته . فمن حيث انه وجه صراع وطنه ضد مقدونيا ، جرح السم كمي لا يقع حياً في ايدي اعدائه . وبذلك يتحد موته ذاتياً بهزيمة « البولس » ، اي الحضارة التي كانت البولس لها السند والاطار ، والمشجع والمنافع . قد حققت هذه الحضارة اشياء عظيمة ورفعت الانسان عقلياً . وتسامت الى قمم لا تستطيع اية هزيمة عسكرية ان تمويهها منها . فهل كان بإمكانها أن تحافظ على قوتها الخلاقة نفسها ، يا ترى؟ وهل كانت تُقدّر لأثينا ، لو انتصرت ، ان تستمر في اغناء تراث الانسانية الثقافي؟ انه لمن الجرأة بكان أن نغامر في اثبات ذلك أو نفيه . يجب علينا الاكتفاء بأن نلاحظ ان القرن الرابع كان أقل خصباً من القرن الخامس وان أثينا ابعد آتند من ان تلعب ، في حياة العالم اليوناني الطبيعية ، دور التوجيه الذي لعبته فيما سبق . فالفلسفة والفصاحة هما الحقلان الوحيدان اللذان أظهرت العبقرية اليونانية فهما ، داخل أثينا ، حيويتها بمؤلفات من المرتبة الاولى . وهذا لعمرى ليس بالقليل ، ومن العبث التساؤل عما اذا كان يرازي البارثون وفيدياس ، ومؤلفي المآممي العظام وتوسيديد . ان معركة « خيرونا » التي سلّمت أثينا واليونان الى مقدونيا ، واخفاق الثورة التي انفجرت بعد الاسكندر ، يقللان نهائياً عهداً من تاريخ الحضارة . وبين هذين الحدثن فتح غزو الشرق عهداً آخر جديداً .

الملكية الهلينية والانسان الحضارة الهلينية (من القرن الثالث حتى القرن الأول)

هزمت المدينة الجمهورية وانتصرت الملكية . فقامت دول واسعة الارحاء كثيرة السكان على انقاض مقاطعات صغيرة ارتفعت فيها التواءات ومزق البحر شطأها، لم تكن كافية لاعالة بضع عشرات الالوف من السكان . وانتقل مركز الثقل في العالم اليوناني نحو الشرق . وانتظم نوع من التعايش الخالص بين اليونان الاوروبية والشرق .

غدا تطور الحضارة اليونانية امراً واجباً ، ولكن في اي اتجاه ياترى ؟

لا ترتضي الملكية مبدأ الحرية السياسية : فأصبح المواطن تابعاً ، وحل القصر الملئكي محل جمعية الشعب . اصف الى ذلك ان الشرق قد ناء على الحضارة اللبونية يجماهيره النفيرة وثرواته وتحقيقاته الضخمة ودياناته الجذابة وكافة تقاليدته التي تخنق الفرد خنقاً .

بيد ان الحضارة الهلينية حققت معجزة الترعع والنمو في العالم اليوناني - الشرقي تحت حماية الملكيات ، مستمرة ، في الوقت نفسه ، في تسهيل تقمع الانسان .

الفصل الأول

الاسكندر

باعت حضارة جديدة

فتح الاسكندر الشرق ، ويغلب على الظن انه كان يستعد ، عند موته ، لفتح الغرب : ومن اجلناز جداً ان تقاس الامبراطورية العالمية وحدها بمقياس روحه الفائقة الطبيعية واقتناعه الرطيد بان زقس يعاون ويلهم ابناً بشخصه هو . بيد انه اذا لم يكن لا اول ولا آخر من دغدغته مثل هذا الحلم ، فليس لعمري من فاتح غيره ترك عمله اثرًا يجمل هذا الاستمرار ، وفي نطاق جغرافي يمثل هذا الاتساع ، وعلى نواح من النشاط البشري يمثل هذا التنوع ، على الرغم من انها ، في طبيعتها ، قليلة التأثير جداً بحيلة خاطفة يقوم بها قائد عسكري . فهو ، بنتائج فتوحاته غير المباشرة قبل الفورية منها ، باعت حضارة جديدة تقوم اهميتها ، في نظرنا ، على ميزتها المسكونية او بالاحرى على طموحها المسكوني .

رأى الامبراطورية السياسية تقسمت امبراطورته سياسياً . فقد توفقت بعض قواده الى تأسيس ملكيات متميزة ، واضطر ابناءهم الى التخلي عن الامل الذي راود رفاق القائد العظيم ، الواحد بعد الآخر ، في استعادة الوحدة الاولى لمصلحتهم . وقرضت وقع هذه الملكيات . منافسات المنافسين على انواعهم ، والانتفاضات القومية التي نهضت بها شعوب يديّة عاصية اصلا او تائرة على اسيادها ، والنزعات الجائشة في المدن اليونانية الى الاستقلال . وينتهي تاريخ سلالات عديدة ، لاسباب مختلفة ليس اقلها المنازعات العائلية ، في حالة من الفوضى يرفى لها . ومن ثم فان تفكك امبراطورية الاسكندر ، الذي بدأ غداة موته ، يستمر ، دونما انقطاع تقريباً ، حتى قيام السيطرة الرومانية .

بيد ان هذا المظهر السياسي في التطور يضل ويجدع لانه يجب الامل بخطه المتخفي العام ويزداد الاشمزاز بما يستتزمه من بلبلة متزايدة . وان حصر البحث فيه يؤول الى تبسّع ازدياد

الخراب ، في حال ان هذا العهد ينهض بعمل بناء ، والمعنى الحقيقي للبناء الذي يخرج من الارض وتمجيز قواه عن اتمامه اعظم ما يمكن تصوره .

مسكونية الحضارة الهلنينة
ان الاهمية الحقيقية لجملة الاسكندر تقوم في انها تدفع ، بقوة وجزم ، حركة بدأت قبلها ولكنها انحصرت حتى ذلك العهد في دائرة ضيقة ، اعني بها انتشار الاغريق وحضارتهم خارج العالم اليوناني القديم . ونحن نعت « بالهليني » العهد الذي يبتدىء بانتصار مقدونيا على الجمهوريات البلدية في اليونان القديمة ولا يلبث ان يتوسع بضم الامبراطورية الفارسية . وتشتق هذه التسمية من اسم « الهلنيين » الذي اطلق على الشرقيين ، ولا سيما اليهود منهم ، الذين اقتبسوا الثقافة اليونانية . فهي تشدد اذن ، وبمحت ، على الفوز في استمالة الشعوب التي كانت موضوع الفتح العسكري . وللمرة الاولى في التاريخ بدأ البشر وكأنهم يسلكون طريق وحدة عظيمة في الحياة والاخلال والاذواق والاعتقادات ، على الرغم من تعدد التخوم التي ما لبثت ان عادت الى الظهور مرة اخرى . ليس من ريب في ان الاسكندر اراد هذه الوحدة ، فجاء خلفاؤه ، عن قصد او عن غير قصد ، تلقائياً او بقوة الاستمرار ، يسلكون الاتجاه نفسه او يوجهون سوام فيه .

ليس من ريب ايضاً في ان الحضارة اليونانية ، في نظر الاسكندر ، يجب ان تؤمن لهذه الوحدة عناصرها الجوهرية . فالاستشراق الذي عبره به بعض رفاقه بكل مرارة ، وثبهم التقليد القديم في ذلك ، لم يكن الا سطحياً . فهم قد اغتاظوا بنوع خاص من تسميته على تحقيق العصر العنصري الذي نفذه عملياً بزواجات فخمة وانعامات اغدقها على من انضم اليه من الايرانيين : مهما كانت الديانة التي اراد ان يحلها المرتبة الاولى ، فان هذه التدابير كانت ضرورية لخلق الوحدة البشرية التي بدونها يضع كل امل بالوحدة المعنوية . ولكن الاسكندر الذي تلمذ على ايدي ارسطو لم يخن الحضارة اليونانية ؛ فهو قد اكتفى بأن يطرح عنها ما يتعلق ، مطبقاً على الظروف الجديدة ما كان منها وثيق الارتباط باشكال سياسية اعتبرها هو باطلة بسبب قدم عهدها : وكانت الملاحم الهيرميرسية ، في نظره ، كافية للدلالة على ان الملكية ، شأن « البولس » ، تؤلف جزءاً من الارث الذي آل امره اليه . ومن ثم فانه التربية اليونانية هي التي فرضها على ابناء الاشراف الايرانيين المدعويين ، شأن ابناء الاشراف المقدونيين ، لان يكونوا رجال الغد في جيشه وامبراطوريته . وقد خضع للزعة نفسها خلفاؤه اليونانيو الاصل والمفاجرون يونانياتهم حتى انقراض سلالاتهم . ولكنه ان من المهم على الحضارة اليونانية ، بفعل توسيع نطاقها الجغرافي واتصالها اتصالاً متزايداً بحضارات سبقتها زمن طويل وتكيفها وفقاً لبيئات جديدة ، ان تتطور وتتسرب اليها التأثيرات الاجنبية . وهكذا نشأت وترعرعت الحضارة الهلنينة ، اقل نقاء يونانياً من الحضارة الكلاسيكية واقل سمواً ايضاً واقل قوة منطقية ، ولكنها اكثر مرونة وانطباقاً على انسانية متنوعة واسعة طمحت هي الى استجابة حاجاتها المشتركة .

التناجح من نافل القول ان محاولة هذه الوحدة الادبية ، ينهض بها الاغريق ، قد عرفت غير النجاحات . فان الحركة ، المنطلقة من بلاد صغيرة جداً وقليلة السكان ، قد تناولت على غير تساوي وبصورة سطحية عموماً ، كئلاً بشرية متراصة مرتبطة بمحضاراتها القديمة ومتأثرة بها الى حد بعيد . ولذلك فكثيراً ما استمرت هذه الحضارات القديمة ، على الرغم من انها لم تحرز تحقيقات هامة . فهي قد برهنت منذ زمن متفاوت القدم انها عاجزة عن اي تحقيق جديد . اذف الى ذلك انها ، مجرمانها من قادة الفكر والمجتمع الذين تواروا او انضموا الى الفاتحين ، قد اضطرت الى البقاء مغنورة ، برواسبها القديمة ، في ظلام الطبقات الشعبية ، لا سيما الريفية منها ، المتدنية الثقافة التي لم يعرها الاغريق اهتمامهم ولم يريدوا ان يروا فيها سوى يد عاملة احتياطية يمكن الاستفادة منها في اعمال استثمارية مجدية . فكان من الممت ان تبوء المحاولة بالفشل ، ان هي لم تقم بانقلاب جذري . وهي لم تتج قط من هذا المصير . فبعد قرون من الخضوع الظاهر ، سببرز قوميات محلية بلغاتها واخلقتها ودياناتها الخاصة .

بيد انه من الزيج ان لا نفر بضخامة مجهود الاغريق وبواقس بعض النجاحات المحققة . وتبرز هذه النجاحات داخل الاراضي التي اشرف الاغريق عليها سياسياً : فالمكاسب في بعض الطبقات الاجتماعية على الأقل ، ولا سيما في الطبقات العليا وفي المدن ، لا محاجة ولا جدال فيها ، وهي تزداد كلما اقتربت من الساحل المتوسطي حيث تجري وتستمر الاتصالات الحميمة . وتبرز ايضاً نجاحات اخرى خارج هذا النطاق مردها جوار احدئ الحضارات العظمى وجاذبيتها الطبيعية . فهناك سلالات شرقية المنشأ ، كسلالة « المتريديات » في كبادوكيا البوننتية او سلالة الاراسيين عند الفارثيين مثلاً ، تنبأى بميوها للحضارة اليونانية وتقتبسها فعلاً اقتباساً يختلف عمقه باختلاف السلالات . وقد امتدت الحضارة الهلينية نحو الغرب بنوع خاص . فانطلقت من مرسلها واخذت تشع في غالبا . وقد بدا اثرها في قرطاجة ايضاً بفضل الحروب في صقليا والتجارة . ولكنها تحرز الانتصار الادبي الفعال في روما بفضل علائق هذه باغريق ايطاليا الجنوبية وحملاها العسكرية وفتوحاتها في حوض المتوسط الشرقي . وكان من اهمية هذا الانتصار ان روما ، بعد ان تغدو وريثة الملوك الهلنيين ، ستسهل ، عن غير قصد اولاً ، وعن تصمم في عهد الامبراطورية ، نجاحات هذه الحضارة التي استساغت هي جوهرها . ومن ثم فان الوثبة التي وثبتها بفضل الاسكندر ، ستدوم ، بفضل روما ، حتى فبجر عهد الاممخاطط في الامبراطورية الرومانية .

الفصل الثاني

المثالية الملكية والحكومة الملكية

كان بالإمكان تحديد الحضارة الكلاسيكية بأنها حضارة « البولس » . اما الحضارة الهلينية ، اذا ما حاولنا ان نجد لها تحديداً عاماً ، فتبدر وكأنها حضارة « الفاسيلس » (الملك) ، اي الحضارة الملكية . فقد فرض على البشر اطار سياسي جديد ، اوجدته القوة دوتاريب ، ولكنه جاء موافقاً تطور علاقتهم الاجتماعية وحتى مفاهيمهم الاجتماعية .

١ - الرواسب والاقتباسات الجمهورية

المخطاط البولس ليس المقصود بذلك ان المدن قد زالت او فقدت طموحاً ، هو مبرر وجودها ، الى الاستقلال والسيادة . فهي ، في اليونان نفسها ، تحافظ على ديمومتها ، ولكنها منحطة تلبجاً الى التسويات . وقد فرض عليها هذا المصير ضيق اراضيها وقلة سكانها ومواردها ؛ وهي آنذاك دون مستوى القوى التي أوجدها توسع العالم اليوناني : فكيف يمكنها والحالة هذه الوقوف في وجه ملوك الدول الكبرى ؟ غير ان خضوعها لم يكن يوماً تلقائياً ودائماً ؛ فهي تثور كلما سنحت لها الظروف ، وتتحرر أحياناً ، ولكنها لن تلبث ان ترضى ، صاغرة ، بإقامة حاميات عسكرية جديدة في حصونها ، ودفع الفرائض المالية ، وحتى قيام مستبدن يحكمونها متمهدين بإخلادها الى السكينة .

المدن والحرب فقد اضمحلت قوتها الماضية المطلقة ولا سياً النسبية . وحدت انتقال التيارات الاقتصادية من مواردها . وكما في السابق ، استمرت الحرب ، وهي ابدأ ضحيتها ، وسببها في اكثر الاحيان ، في اضعافها وتحريبها . فالحرب تتطلب وسائل ترققع نفقاتها يوماً بعد يوم . وتزداد قياسات البوارج الحربية ، فقتلك أئينا نفسها اولاً ثم تعزف نهائياً

عن الاحتفاظ بمرتبتها في هذا التسابق الى التسليح الذي ينتظرها فيه فشل أكيد . وقد بلغ من تقدم التقنية في البر ، بفضل استخدام الفرسان والآليات ، وحتى الفيلة ، وتدريب الجنود ، ما جعل المتطوعين المدنيين عاجزين عملياً عن مقاومة الجيوش النظامية . واحتفظ المقدونيون بأولويتهم المعترف بها منذ عهد ديوستينس وفيلبوس الثاني . ومن حيث ان الروح الوطنية الحلبية وروح التضحية قد خفتنا عند المواطنين الذين خيبت البولس آمالهم في ميولهم وحاجتهم الى الأمن والطمانينة ، فقد تزايد يوماً بعد يوم ، كما سبق وحدث في القرن الرابع ، اللجوء الى المرتزقة الذين يجدّ من عددهم الانفاق الباهظ عليهم . فاضطرت المدن ، كما لم يسبق لها قط ، ان تحاط بالاسوار - وقد عقدت سبارطة نفسها العزم على ذلك - وان تحسن سلاحها الدفاعي على الرغم مما جرّه عليها ذلك من نفقات طائلة : وغالباً ما كانت هذه الاسوار وهذا التحسين دون جدوى بالنظر للتحسن المتزايد في نهج الحرب والحصار .

أضف الى ذلك ان صرامة قانون الحرب لا ترحم مدناً آلت نوائياً الى الضعف على الرغم من تضحيتها المالية والبشرية الكثيرة . والمدينة التي تفتتح عنوة تصبح تحت رحمة المنتصر . ففي السنة ٣٣٥ مثلاً ، أمر الاسكندر بتقويض طيبة ، ولم يستثن فيها سوى بيت واحد هو بيت الشاعر بنداروس ، احتراماً منه لذكرى هذا الشاعر . وبعد قرن تقريباً ، اعتمد فيه ساوك أقل فظاظة ، عادت الى الظهور ، وتزايدت بفعل أخذ الثأر ، أعمال الإستلاب المنظم والتقتيل والنخاسة . وإذا كانت هذه حال المدن ، فماذا عسانا نقول عن الارياف حيث تضيف اللصوصية الموضوعية المسلحة اعمالها التخريبية الى ويلات الحرب ؟ وليست روما ، المحروسة على وضع حد مريع للعمليات العسكرية النائية وعلى تكنيز خزائنها ، ما يمكن ان يعطينا درساً في الحزم والرفق : فهي قد توصلت بكل صعوبة الى أن توفر ، متأخرة ، عن طريق خضوع صامت أو مبتمكت ، سلباً محوماً لم تلبث أن عكرته المنافسات بين قوادها الطامعين .

وهكذا فان المدن اليونانية التي أفقدتها قوتها السياسية مقدونيا أولاً وروما ثانياً ، لم تحصل مقابل ذلك على الازدهار والهدوء اللذين كان بالإمكان ان يفسحا لها مكاناً اوسع في نشأة وترعرع حضارة لم تطبع بطابعها .

الامحادات
بحث بعضها عن الخلاص في نظام سياسي جديد ، إن لم يكن من حيث مبدأه ، فأقله من حيث تطبيق هذا المبدأ تطبيقاً أكثر شمولاً ومرونة .

منذ زمن طويل ، أتاح صهر دويلات مستقلة في جهاز واحد تكوين مدن أكثر سكاناً وأوسع رقعة ، وبالتالي أقل ضعفاً : فهكذا استفادت أثينا من الاندماج الذي وحد حولها كل الأتيك . والمدينة اليونانية الوحيدة التي تمثل قوة حقيقية ، أقله خلال النصف الاول من العهد الهليني ، هي رودس . ولكنها هي نفسها أيضاً حصيلة اندماج المدن الثلاث التي تقاسمت أرض الجزيرة وبقيت مستقلة حتى أواخر القرن الخامس إلا فيما يعود لعبادة الإله هيلبوس ، المشتركة.

وقد حصل الانصهار فيها ، على كل حال ، باحتراز اكثر منه في أثينا ، لأنه جاء في عهد لاحق . ولم يكن « لمدينة » رودس نفسها وجود قبل الوحدة التي تحققت من ثم دور تفضيل مدينة على أخرى ودون إثارة حسد أية مدينة من المدن القديمة الثلاث . أضف الى ذلك أن هذه المدن قد حافظت ، في الدولة الجديدة ، على استقلال اوسع منه في قرى الأتيك . ولا ريب ايضاً في ان السر الحقيقي لقوة رودس يكمن في سبب آخر ، أعني به مركز الجزيرة على طرق التجارة الكبرى في المتوسط الشرقي . فرودس مدينة لهذا المركز بإزدهار تجارتها وبثروتها التي أتاحت لها ان تتعهد اسطولاً حربياً حسبت له اعظم الدول حساباً ، وعند الاقتضاء جيشاً برياً توفق الى النزول في آسيا الصغرى ووطئ أقدامه فيها على الرغم من الصعوبات التي اعترضته . غير أن مثل رودس ، التي يعود الفضل في توحيدها الى وجود عبادة مشتركة سابقة ، خلقت بأن يثبت للجميع بأن التضحية بالسيادات الفردية يمكن ان يقابلها ما يعوض عنها الى حد بعيد .

بيد أن الشركة التي اعتمدت ، على العموم ، آتئذ ، وبصورة فعالة ، لم تسلك هذا الاندماج المتحرف المفضي الى البولس . وقد أدى نجاحها الاكيد ، الذي تبرره رغبة في تنظيم دفاع مشترك ، الى تكوين دول «مركبة» ، أو «بتعبير ايسط» الى «اتحادات» ، دون ان يستوقفنا معنى هذا التعبير الخاص الذي يبين المؤرخون ورجال القانون المصريون المضادة التي بينه وبين معنى « الدول الاتحادية » . فقد يشكل علينا ، أكثر من مرة ، توزيع الدول المركبة بين هاتين اللغتين الكبيرتين اللتين لا تعطياننا في التاريخ القديم ، باستثناء بعض الحالات النادرة ، تخوماً اوضح منها في ايماننا الحاضرة . وليست الكلمة اليونانية المستعملة للدلالة على هذه الدول ما يسهل بمحاولة هذا التوزيع لانها كلمة غامضة قد تنطبق على الاتحادات بانواعها بما فيها الاخويات الدينية نفسها .

ليس التجديد الهليني في ظهور هذه الاتحادات : فقد وجد منها في اليونان منذ أمد بعيد؟ وقد يمكننا اطلاق هذا الاسم على « احلاف » سبارطة واثينا اذا ما نظرنا الى بعض مظاهرها . إنما التجديد في تعددها : وقد بلغ من كثرتها ان بعضها قد كوّن اتحاداً آخر يجمع بينها . والجديد فيها ايضاً هو المساواة الحقيقية التي توصلت ، إلا في حالات نادرة جداً ، الى تحقيقها بين المدن المتدججة . وهي قد اخذت درساً ، بهذا الصدد ، من خبرة الماضي . فقد اعترفت الاتحادات السابقة أساساً ، أو تأثرت سريعاً ، « بسيطرة » إحدى المدن ، وحتى اذا كانت انضمامها اختيارياً فان المدن الأخرى قد انتهت أخيراً الى التشكي من تجاوزات المدينة المسيطرة وحاولت خلع نير طاعتها . فكانت النتيجة العملية لهذه الاتحادات الاكثار من المنازعات وزيادة الضعف العام . أما آنذاك فقد اعتمدت أساليب أخرى . فليس هنالك من سيطرة ، بل شعور بمساواة حقيقية قد تؤخذ بعين الاعتبار فيها أهمية الإسهام في الجهود الجماعية .

كانت النتيجة المحتومة لهذا الاحتياط ان المدن القديمة الحاكمة قد نظرت شذراً الى هذه الاتحادات التي ليست مستعدة لأن تعترف لها بمرتبة ممتازة . وكانت نقطة انطلاق الدول الجديدة ، المدعوة لمستقبل زاهر ، في مناطق لم تلعب حتى ذلك العهد سوى دور وضع جداً في تقرير مصير العالم اليوناني سياسياً وأديباً . فبرزت شعوب جديدة لم تسهم سوى جزئياً في التطور العام للحضارة اليونانية ، شأنها في ذلك شأن المقدونيين قبل فيلبوس الثاني . وكانت لانزها هذا الفضل في المحافظة ، أكثر من سواها ، على تضامنها بفضل العبادات المشتركة بينها ، وبفضل ضعف الاقبال على الحياة المدنية ، مما حال دون قيام المدن ، او أقله دون تمتعها باستقلال متعجرف . وكان له الفضل أيضاً في الإقلال من استنزاف قواها في المنازعات العنيفة وفي ابعاد الشبهات الحاسدة عنها .

هذه هي ، بصورة خاصة ، حال الشعبين الذين كانا الخلايا الأولى للإتحادين الهلنسيين الرئيسيين في اليونان القديمة . فقد توصل الإبتوليون الذين أقاموا مغمورين على الساحل الشمالي من خليج كورنثوس الى ضم الشطر الأكبر من اليونان الوسطى إليهم بما في ذلك قسم كبير من تساليا . وقد برز أيضاً على الساحل المقابل ، في البلوبونيز ، من مقاطعات جبلية لا ماضي مجيد لها ، اتحاد الآخيين الذين استفادوا من انتصارات روما وتوصلوا الى ضم البلوبونيز كلها .

ما أن ارتسمت حركة الاندفاع هذه بالانتصارات الأولى حتى تجاوزت هذه الانظمة الاتحادية الشعوب حدودها العنصرية . فارتضت أو فرضت أن تضم اليها مدن غريبة عنها حتى ذلك العهد . وقد حدث ، حتى في افضل هذه الاتحادات تنظيمياً ، أن يكون للوطنين هويتان لا بل جنسيتان في الواقع ، الأولى محلية تحدد المدينة التي ينتسبون إليها ، والثانية اتحادية يكون اسمها اسم الشعب مؤسس الاتحاد . فالمواطن الذي من فرسال في تساليا يبقى « فرسالياً » ، ولكنه يصبح بالاضافة الى ذلك « أيتولياً » ، على الرغم من المسافة التي تفصله عن أيتوليا نفسها . والمهم في هذه التسمية الحداعة من الناحية العنصرية انها لا تعني مجرد الضم ، إذ أن النظام المعتمد ، بهذا الصدد ، يعطي ضمانات جدية .

لا ريب في ان المدن المنضمة تتخلى عن قسط من استقلالها . فهي مبدئياً تدير شؤونها بحرية ؛ وتفرض الحياة المشتركة عملياً ، حتى على هذا الصعيد ، حداً أدنى من التناقص لا ينطوي ، في أغلب الاحيان ، على مستلزمات خطيرة . بيد أن التخلف الحقيقي يتعلق بالشؤون الخارجية ، والدبلوماسية والحرب ، التي تصبح وقفاً على الحكومة المركزية المنوط بها أمر الاحتكام في الخلافات الممكنة بين المدن المنضمة وتحديد العلاقات بالاجانب وتنظيم الجيش الاتحادي واستخدامه . ولكن لا تستطيع مدينة واحدة او مجموع مدن متحالفة التمتع بمركز ممتاز في الحكومة المركزية .

تؤلّف الحكومة المركزية على غرار حكومة البوليس . ولنصرف النظر هنا عن التفاصيل.

والفوارق المختلفة وغير الثابتة غالباً . هنالك في الدرجة الاولى جمعية شعبية في أيديها زمام الامور أبوابها مفتوحة لكافة المواطنين البالغين السن القانونية : وهي جمعية البولس نفسها التي لا تتميز عنها إلا بفوارق فنية نادرة . ومن نافلة القول ان مكان الاجتماع قد يتغير احياناً وان المدن تقترح لا المشاؤون ، ولكنه بتعذر علينا الجزم ، بسبب افتقارنا الى الدلائل ، بأن هذه التداير ، القمينة بضمان المساواة بين المدن ، قد اعتمدت في كل مكان . ويقوم الفارق الرئيسي ، وهو طبيعي بفعل المسافات الواجب قطعها ، في ان الجمعية الاتحادية لا تلتزم إلا نادراً . فليس هناك سوى دورات معدودة في مواعيد محددة ، اثنتين او اربع في السنة ، على ما نعلم ، واذا ما واجهت امكانية اجتماعات طارئة ، فان العمل بهذه الامكانية كان نادراً . وما من اتحاد حر واحد ، نستطيع ان نبدي رأينا فيه ، أقر النظام التمثيلي رسمياً اي مجلس النواب : فالاعراف القديمة الاستبدادية تقف في وجه هذا الحل الذي كان من الضروري ان يفرضه اتساع رقعة الاتحاد .

يتضح من ذلك ان سيادة الجمعية لا تبرز الا بصورة عرضية ، وان اشرافها يتراخي ، وان الاجهزة الحكومية الاخرى تتمتع في الواقع بمجربة عمل اوسع منها في البولس الديموقراطية القديمة . وهذه الاجهزة هي اولاً مجلس او عدة مجالس يتفاوت عدد اعضائها ، وثانياً قضاة يعرف القاضي الاول بينهم باسم « ستراتيجوس » اي قائد الجيش . وقد يحدد القضاة ، او التقليد في بعض الحالات ، توزيع المراكز في المجلس بين المدن . وحتى اذا لم يحتط لهذا الامر ، فان تعيين اعضاء المجالس والقضاة يتلافى كل اخطار السيطرة .

من المؤثر حقاً ان نرى الاغريق ، الذين بقوا جمهوريين ورغبوا في الافلات من سيطرة الملكيات الكبرى ، ينلسون الطريق بغية التوفيق الى حل جديد . فالحق المدني عندهم لم يكن نظاماً قوياً وطيداً كما كان في روما منذ عهد مبكر . ولكن الحق العام قد استأثر بتفكيرهم منذ امد بعيد . وعديدة هي الكتب النظرية او التاريخية المتعلقة بالانظمة التي وضعها اشهر الرجال احياناً . وحين وضع ارسطو او اشرف على وضع ال ١٥٨ دستوراً للندن ، التي لم يصلنا منها سوى « دستور الاثنيين » ، لم يبتكر قط ناحية قانونية تاريخية . ومن المسلم به ان الطريقة المتبعة بالتمييز ، ايمان العهد الهليني ، - وهي تستمر زمنياً طويلاً حتى في الامبراطورية الرومانية - تقضي بوضع المقالات عن « الملكية » ، وهي على كل حال مقالات فلسفية اكثر منها عملية . ويفسر هذا الاهتمام المستمر ، عند الاغريق ، لعلم الانظمة السياسية ، تنوع الانظمة المعتمدة في الاتحادات . ولكن هنالك ، الى جانب الابتكارات الاربعة والمعادلات الثاقبة ، احترازات يلمها الماضي وعادات موروثه عن « البولس » وتقاليده مرفوعة الى مستوى المبادئ ، تلجم الهمة الجارحة وتمنع بعض الجسارات التي قد تبررها ظروف كلية الجدة .

ما يسترعي الانتباه ، في المدن الهلينية والاتحادات الحرة على السواء الديموقراطية : ظواهر ورائع ان مظاهرها النظام الجارحية ديموقراطية ابدأ . فالشريعة لا تقنع ، في

الظروف العادية ، اي شرط مالي للتمتع بحقوق المواطن المطلقة وبمارستها ، وهي من حيث المبدأ متساوية للجميع. فالجمعية العمومية ذات سيادة مطلقة . والقضاة الذين ينتخبون كل سنة ، لا يعاد انتخابهم فوراً ، وذلك لتجنب الاستبداد العملي ولاتاحة الادعاء على ادارتهم. اما اثنا الكلاسيكية ، فقد استنتجت قوادها العسكريين من هذه القاعدة ، رغبة منها في الاستفادة بحريّة من خبرتهم العسكرية . ولكن هذا الاحتياط الصارم ، على الرغم من حرجة الاخطار الخارجية شبه الدائمة ، وعلى الرغم من تقدم فن الحرب واهمية الدور الذي يلعبه فيها المهتمون ، لم يستثن منذئذ قواد الجيوش انفسهم .

فاذا ما استندنا الى التنظيم النظري ، نرى صحة ما تعبر عنه النصوص المعاصرة ، الرسمية وغير الرسمية ، التي تشدد على « ديموقراطية » هذه الانظمة . اجل ان هذه الكلمة في معجم ذلك العهد لا تعني احيانا سوى « الجمهورية » التي تقابل الملكية السائدة اذ ذاك ، ولكنها في حالات كثيرة ترتدي معناها القديم الذي يقابل « الارستوقراطية » . ويبدو في الواقع من كل القرائن ، في الصراع القديم ، الطويل والدامي ، بين المثاليين ، ان الديموقراطية هي التي تغلبت في النهاية ، بفضل نفوذ اثنا وتقهر سبارطة ، كما تراه ذلك من سير التطور منذ القرن الرابع .

بيد ان ذلك لم يكن الا ظاهراً فحسب . فحينما نستطع الوقوف على سير الامور العملي نرى ان هذه الأنظمة لا تطبق إلا ديموقراطياً . فحتى في المدينة التي كانت مقررّة فيها ، كأثينا مثلا ، الغيت التعويضات التي أتاحت للمواطنين الفقراء تكريس وقتهم لخدمة الدولة سياسياً ، كقضاة او أعضاء مجلس او أعضاء جمعية . وقد أفضى زوال هذه التعويضات من الواقع الديموقراطي الى زوالها بصورة طبيعية من المثل الأعلى الديموقراطي الرسمي أيضاً. وليس العجز المالي دائماً السبب الحقيقي لهذا الإلغاء ، إذ أن المسؤولين لا يترددون في شجبا شجبا مبدئياً ، ناظرين إليها نظرتهم الى نظام فوضوي يدعو الى الأسف ؛ وقد حدث ان رفضوا رؤوس أموال هامة مقدّمة لإيجاد هذه التعويضات . فأصبح محتمّاً والحالة هذه على ممثلي الطبقات الشعبية المرغمين على العمل الدائم لتأمين أودهم وأرد عائلاتهم ان يبعدوا عملياً عن الوظائف العامة ، وفي أغلب الاحيان ان لا يشتركوا في أعمال الجمعية ، لاسيا في الإتحادات حيث يستوجب حضور الجلسات اجور نقل باهظة بسبب بُعد المسافات . ولكن هذا التغيير على كل حال ليس سوى أبرز وأهم ما حصل من تغييرات . فهناك اساليب أخرى كثيرة قد لا تكون كلها صادرة عن تدابير مكرية بل عن التطور العام في المجتمع والاخلاق فقط ، ولكن نتائجها كلها تتجه نحو وضع خاص لا جدال فيه: ان هذه الأنظمة الجمهورية الهلنستية ، الديموقراطية نظرياً ، تؤمن في كل مكان تقريباً احتكار السلطة لطبقة اهل المدن المسورين المثقفين ، المتكثرين لإصلاح اجتماعي من شأنه ان يضرب بمصالحهم .

لما كانت الازمة الاجتماعية قد تقامت إذ ذاك لازتباطها بالوضع الاقتصادي ، لم يكن

التوجه الطبيعي للسياسة الداخلية ليسهل تهدئتها . فرسخت الروح الثورية ، وبعنف في أغلب الأحيان ، في نفوس المستأثين الذين ليس امامهم أي مخرج شرعي منفتح ، ففعل هذا التوتر فعلة في مصير اليونان . وكان خطر الاضطرابات الاجتماعية ، وقيامها الفعلي احيانا ، عامل بلبلة اضافياً في العلائق الدولية . فهي تسبب او تعقد الحروب الأهلية والحروب بين الدول ، وتجزىء ، وبالتالي تضعف المقاومة في وجه العدو . وهي تفسر جزئياً الاخفاق النهائي الذي منبت به الحركة الاتحادية التي بدت قوية في منتصف القرن الثالث ولم تفلح مع ذلك ، في انقاذ استقلال اليونان القديمة . وقد استفادت روما بنوع خاص من هذه الشقاكات العميقة الجذور .

٢ - مثالية الملكية الهلنستية

اصول الملكية الهلنستية بيد ان النظام الجمهوري ، بلدياً كان ام اتحادياً ، لم يستمر إلا في جزء صغير جداً من العالم اليوناني الذي وسعت تحوموه فتوحات الاسكندر : فان الملكية هي ما يسيطر على العهد ويميزه سياسياً من كافة الوجوه .

على الرغم من ان الاغريق قد عرفوا الملكية في بلادهم في العهود القديمة ، فانهم قد نظروا اليها ، أثناء العهد الكلاسيكي ، نظرتهم الى نظام أدنى ، خليق بالبرابرة وغريب عن الحضارة اليونانية ، لانها قامت حينذاك في مناطق بعيدة عن اليونان الوسطى ، متاخمة لعالمهم الأصلي . ولكن الفردية ، منذ أواخر القرن الخامس ، قد حطمت طوق المساواة الذي جمعت «البولس» داخله عموم المواطنين ، وذلك بتأثير استهواء الحروب للرأي العام وتأثيرها العميق المتزايد في الأنظمة الاجتماعية والذهنيات . فالجاهل نظرت الى القائد المنتصر نظرتها الى بطل ، مستعدة من جهة ثانية لافقاده حظوته عندها بمثل السرعة التي رفعته فيها الى الأوج . فالقبيبادس وليساندروس مثلاً ، وتكتفي بذكرهما لأنها أشهر القواد ، قد نجوا من القسر المدني ، ورمزت أعمالهما التي لا تضاهي الى قدم المفاهيم الكلاسيكية . أضف الى ذلك ان بعض كتّاب القرن الرابع المتكبرين ، بفعل نزعاتهم الشخصية ، للديموقراطية ، والسريعي التأثير بنقائصها قد باشروا تصميم المثل الأدبي والعملية الأعلى للملك ، جاعلين منه رجلاً فوق الرجال بعدله وعقله ومواهبه وسعادته كرجل دولة وقائد عسكري وصلته بالالوهية في آخر المطاف .

جاءت الاحداث فجأة تؤيد وتمزز هذا المثل الأعلى . فمن إحدى المناطق المتاخمة ليونان ، برز ملك هو فيلبوس الثاني المقدوني الذي انتصر على المدن . وفتح ابنه الاسكندر الشرق وحقق مآثر بدت وكأنها تفوق الاقيسة البشرية . فتخلص التنافس بين الاطباع الشخصية من قيوده ؛ ولكن اتى له تسهيل عودة النظام والاعراف القديمة ؟ فان هذه الاطباع ، من جهة ، استندت الى وجود جيوش تختلف كل الاختلاف ، بضمخامتها وتكوينها وانظمتها ، عن

جيوش المدن الجمهورية ، ولم يكن باستطاعة احد قط ان يعيد تكوين هذه الجيوش الملكية لجعلها ماثلة لجيوش المدن . ولم يكن باستطاعة أية مدينة ، حتى اذا كان لديها من الثروة ما يسمح باستخدام احد هذه الجيوش ، ان تؤمن قيادته . فاذا كان طمع الزعماء قد افضى ، والحالة هذه ، الى بقاء الجيوش ، فان هذا البقاء نفسه قد جعل من الملكية شيئاً لا مناص منه وواجد الزعماء الطامعين . ومن جهة ثانية ، اشتمل إرث الاسكندر ، الذي لم يكن اي اغريقي ليرضى بالتنازل عنه ، على اراض شاحمة- وشعوب غريبة عن الحضارة اليونانية الفت السلطنة الملكية القمينة وحدها بتنظيم استنهارها : فمن الجلي مثلاً انه يستحيل على مدينة ان تحكم مصر وبلاد بابل . ثم ان الملكيات الهلينية التي تباهت بيونانياتها لم تتبثق عن ملكيات شرقية . وهي لم تقتبس سوى الزر اليسير عن الملكية الفارسية التي اعلن الاسكندر نفسه خلفها المباشر . وقد اعتبرها سكان المنطقة الاصليون ، الذين احببتهم بعض الشبيء ، بمثابة الملكية الفرعونية او الملكية البابلية اللتين زالتا منذ زمن بعيد . ولكن واقسع السيطرة اليونانية على الشرق له من الاهمية ، لتفسير قيام الملكيات الهلينية وبقائها ، ما لواقع منشئها العسكري .

كانت النتيجة رجحان النظام الملكي ، في كافة انحاء العالم الهليني ، حتى امتداد وقوة الواقع الملكي قيام السيادة الرومانية . وقد تغير توزيع اراضي هذا العالم بين الملكيات لا سيما خلال نصف قرن من عدم الاستقرار بعد موت الاسكندر . واذا ما نظرنا نظرة شاملة الى العهد ، تبين لثان عدد الملكيات قد تزح باستمرار الى الازدياد . فلنسا نشاهد ان ذلك حصر السلطة السياسية ، بل تقتتها ، وهذا يثبت بعد الملكيات عن الكمال .

من الممل والحالة هذه ان نحاول احصاء الملكيات احصاء كاملاً . ولكن الواجب يقضي بان نذكر اهمتها . فقد كانت ملكيات الاتيونيين في مقدونيا السباقة في الزوال حين قضت عليها روما في السنة ١٦٧ . وقد تأخر الاطاليون في آسيا الصغرى في الحصول على اللقب الملكي في « برغاموس » ، وساعدهم تحالفهم مع الرومان في السنة ١٨٨ على توسيع اراضيهم توسيعاً هاماً ، ولكن وصية « اطال » الثالث الذي مات دون عقب في السنة ١٣٣ جعلت من روما وريثة ممتلكاته . وكان السلوقيون في البداية ، يفعل سيطرتهم على آسيا الصغرى وسوريا وبلاد بابل وايران ، الحلفاء الرئيسيين للسلوك الفرس ؛ ولكن ممتلكاتهم ، منذ بداية القرن الثاني تنكش بسرعة لمصلحة الاطاليين والفارتين ، ولم تكن الملكية سوى مجرد ظل حين ازلتها روما في السنة ٦٣ . وفي مصر اخيراً كانت سلطة البطالسة او اللاحيين الاولى في بلوغ الاستقرار ، قامت في القرن الثالث امتداداً بعيداً في المتوسط الشرقي ، ثم انحصرت في وادي النيل ولم تعش بعد الملكيات الاخرى الا بفضل روما التي لم تقرر ضمها اليها الا في السنة ٣٠ بعد موت كليوباتره .

ان هذا الاستعراض السريع الذي جعل ، في ما جعل ، سيراكوزا والملوكيات الثانوية في

شمالى اليونان كالألبان التي اشتهرت بفضل « بيروس » ، او في آسيا الصغرى كيبثينيا والبونت ، بما يجعلنا نحس بإحباط شبه متواصل ينتهي الى ضعف لا علاج له . ولهذا الاحساس ما يبرره على الصعيد العسكري باستثناء بعض وثبات عارضة . فان روما ، حتى عندما اضطرت في اوائل القرن الثاني الى توجيه الضربات الحاسمة التي كان الضم نتيجتها ، لم تحتج الى بذل جهود بمائة لتلك التي فرضها عليها صراعها ضد قرطاج . ولكن هذا الانحطاط العسكري يستثنى على الاقل قرنا من العظمة والمجد هو القرن الثالث . وحين اخذت الحضارة الهلينية تعطي ثمارها ، كانت جذورها قد بلغت عمقا استطاعت هي معه البقاء على الرغم من هزائنها . فقد تأثرت هذه الحضارة اذن ، في تكوينها ، بالملكية القوية والغنية آنذاك والمسيطر على اراض واسعة تحمي وتنتشر فيها الحضارة اليونانية بين البرابرة : ولم يعد للمدينة امامها سوى دور ثانوي .

من نافل القول ان لكل من هذه الملكيات مميزات الخاصة . وتقوم بينها اختلافات
 المثالية الملكية
 مبدئية احيانا . فالأبير ومقدونيا ، وهما منطقتان كان سكانها يونانيين او اقله متأثرين بالحضارة اليونانية ، تعرفان ملكيات قومية كان رعاياها في الوقت نفسه مواطنين اعضاء في جماعة : فان الملك رئيس وحامي هذه الجماعة يخضع لعرف تقليدي يجعله خادما لها اكثر منها خادمة له . اما الملكيات الاخرى القائمة في الشرق فملكيات شخصية . لا شك في ان بعضها قد خلف ممالك محلية : فالسوقي يطلق على نفسه ، في بعض الاحيان النادرة ، لقب « ملك بابل » ؛ واللاجي يلقب بصورة عادية ، كفرعون ، بـ « هوروس - رع » ، وملك الجنوب والشمال ، وهوروس الذهبي ، وملك مصر العليا والسفلى ، وابن رع ، ويخضع منذ اواخر القرن الثالث تقريبا لمراسم التتويج في منف . ولكن هذا المظهر ، الذي يختلف كليا عن ذلك الذي يصفه على الملكية الانتغونية لقب « ملك المقدونيين » ، لا قيمة له الا للمواطنين الاصليين دون غيرهم . فالاغريق لا يعرفون سوى « الملك (فاسيلس) بطليموس » او « الملك ساوقس » ، وتشير هذه التسمية الى الصفة الشخصية في الملكية ، اذ ان الكلمة الاولى ، التي تقوم مقام الاسم الشخصي ، انما تحدد صفة لا وظيفة : فمن حيث ان الدولة لا وجود خاص ومستقل لها عن الملك ، فانها لا تعتبر الا ملكا له فحسب .

انتشر هذا المفهوم انتشار بقعة الزيت فتسرب الى الملكيات القومية نفسها . وهو يعبر عن مثالية واسعة الانتشار ايضا . فان الفلاسفة ، الى اية مدرسة انتموا ، قد تأهبوا عمل مفكرو القرن الرابع وتعمقوا في النظرية الملكية وتوصل بعضهم الى مثال ملك سيد العالم ، فريد في نوعه ، مماثل للحكيم بالذات ، اقله في نظر الرواقيين . ولكن نظرية متوسطة واسعة الانتشار قد برزت ، صارفة النظر عن المبادلات وعن هذه الآفاق الواسعة التي تصطدم ، في الواقع ، بتعدد الملكيات .

الملك هو ذو الخطوة عند الإله الذي يعضده ويلهمه . وتظهر المواهب النادرة التي هو مدين للإله بها ، ظهوراً لا جدال فيه ، في الانتصار الذي هو افضل قياس لتفوقه . فالانتصار الذي

يريده الإله ويعطيه يثبت في آن واحد التمتع بالمواعب العسكرية وقوة الأشعاع على الجنود الذين لم يحب إخلاصهم الوفي .

ان الملك هو بالضرورة قائد جيش - كما يؤيد ذلك مثل الاسكندر والنازعات التي عقبته موته . عليه ان يسير على رأس جنوده في اشد الظروف خطراً ؛ فمن أصل ؛ ملكا سارقيا ، لاقى عشرة حتفهم في ساحات الوغى . وعلى الملك من جهة ثانية ، بفعل السلطة المتبقة عن صفتة وعن شخصه ، وبفعل الاعجاب الذي يشد اليه رجالا آخرين ، ان يحيط نفسه باصدقاء ورفاق وجنود لا يترجعون ، في سبيل مساعدته ، امام التضحيات على أنواعها ، ويؤيد ثباتهم ، في اشد الساعات حرجا ، صفاته التي لا تضاهيها صفات .

لو طبقت هذه النظرية بصورة الزامية لأفضت الى جعل الفلقة عقيدة ايمانية . فان هذه النظرية هي التي بررت الاغصاب ومجزئة الملكيات الكبرى ؛ وقد بنى الثائرون ، على الانتصار وهتاف جنودهم حقهم في لقب « الفاسيفس » وهم انما اعادوا بذلك ما فعله قواد الاسكندر عند نشأة هذه السلالات الملكية . ولكن المسؤولين لم يلبثوا ان تقادوا أخطار الفوضى الملازمة لهذه المثالية عن طريق مبدأ الشرعية . فحاولوا بالفعل ان يبدلوا ، لمصلحة السلالة ، مفهوم الانسان المتفوق الحائز على العطف الالهي ، ونثروا الاساطير حول دور هذا او ذاك من الآلهة في مولد احد الجدود . اجل لم يكن النجاح كاملا ولكنه لم يكن دون اثر : فقد اانتساب الى سلالة من الملوك المتعاقبين عنصراً طبعياً من عناصر صفات الفاسيفس الشخصية .

كثيراً ما يعبر عن هذه الصفات بلفظة « اريتي » التي لا يعبر تعريبها بلفظة « فضيلة » عما تنطوي عليه من اهام وغنى في المعاني . فلفظة « اريتي » تشتمل في الحقيقة على صفات من كل نوع ، عسكرية ، وسياسية ، وفكرية ، وأخلاقية أيضاً . وتستازم الشجاعة والعدل والعقل التشريعي والاداري والعزم والرفق و « محبة الناس » والتقوى . واذا ما اضيفت كل هذه الصفات الى القوة والثروة اللتين ينطوي عليها المثال الملكي أيضاً ، فانها تصبح ملموسة في « احسانات » الملك نحو أعضاء بطانته ورعاياه . فالملك اذن ، في جوهره هو « المحسن » و « النصير » و « المتخلص » كما درجت العادة في تسميته رسمياً . وهناك لفظة أخرى ذات معنى شامل ومبهم أيضاً استخدمت لغايتين : « افنوبيا » أي العطف أو بالأحرى الارادة الحسنة والامتدادات الطيبة . فقد استعملت لتحديد سلوك وعواطف الملك حيال الناس الآخرين ، الأصدقاء والجنود والرعايا والشعوب الخليفة ، ولتحديد سلوك وعواطف هؤلاء الناس أنفسهم نحو الملك .

لا حاجة لفت النظر الى ما تتطلبه هذه المثالية من اضافة صفات كالية ، مع ان الملوك الهلثيين بشر ، وبشر حقيرون في أغلب الأحيان . وليست الدعاوة بالزلفى وحدها ما أحاطهم بمثل هذا التجلتي . فان المواطن الوضع الذي تعترضه صعوبات الحياة وتجاوزات

المستبدين المحليين قدرأى في الملك الملجأ الأخير ، الوحيد ، الذي يمكنه أن يضع آماله في عدله وكرمه . فكل شيء إذن قد تبدل وانهار في المبدأ الأساسي للخضارة اليونانية الكلاسيكية المبني على المثل الأعلى للإنسان ، المواطن الحر ، المساوي لغيره من البشر الأحرار ، والمتمتع في وحدة المدينة ، بالحماية والبيئة الفضلى لعمله ونموه . فالإنسان ، في العهد الهلنستي يرتفع بأنظاره المليئة بعرفان الجميل والأمل نحو إنسان يعترف ويعجب بتفوقه . أجل ، ان الحكم – وهذا ما انتهت إليه عدة مدارس فلسفية – يحافظ على حرته ، ولكنه يعطي هذه الحرية معنى عقلياً ولا سبياً جمالياً : أي ان المقصود هو حرية الفكر ، وحرية الروح حيال الأهواء . فالحكيم ملك والحالة هذه ، أقله على نفسه . ولكن الإنسان الوحيد الحر بكل ما للتعبير من معنى ، والقادر وحده على تحقيق كمال نحو طبيعته الانسانية ، هو الملك .

ان النتيجة العملية لهذه المسالية هي السلطة الملكية المطلقة . لا الحق الملكي والاخلاق الملكية شك في ان الملك مقيد بواجبات ، وبواجبات أدبية في الدرجة الأولى ، ولكن تقيده بها لا يخضع لأية رقابة . فقد درجت العادة يوماً بعد يوم على القول إن الملك هو « الشريعة الحية » ، وسيصادف هذا التعبير نجاحاً متبادلاً . وهو ينطوي ، في أقوى معانيه ، على ما يقصد اليوم بالتعبير : « الإرادة المطلقة » وقد أيدته تأكيدات مثل هذا : « ان ما يقره الملك هو عادل أبداً » .

وقد بلغ من أمر السلطة الملكية المطلقة انها تغلبت على حق سلافي هو حق « مطيل » على كل حال ، وغير مجموع في كتاب . فالخلافة الطبيعية تنتقل الى البكر بين الذكور ، ولكن خيار الملك قد يقف حاجزاً دون ذلك . وكذلك أيضاً ، إذا كانت وحدة الزواج هي القانون وإذا احتلت الملكة مرتبة تفوق مرتبة السرايري الى حد بعيد ، فاننا نعرف أبناء زنى أقر بهم شرعاً فضّلهم آباؤهم على الأبناء الشرعيين . وقد اعتمدت أحياناً الشراكة في الملك : نادراً بين الاخوة – وتبدو إذ ذاك مفروضة فرضاً على البكر – وأكثر حدوثاً بين الأب وابنه – وهي إذ ذاك في الدرجة الأولى ، حيلة غايتها تجنب شغور مركز الملك حتى لفترة قصيرة . ولكن ما حدث لا يخرج في الحقيقة عن مجرد ولاية مشتركة لا تؤدي الى قسمة المملكة لمدة طويلة . فالميوعة إذن هي الميزة الرئيسية لهذا الحق السلافي الذي هو في طريق التكون البطيء وتعرضه دساتر البلاط وبوادر العصيان أو الثورات ، والذي يخضع فيه نفوذ الحق العائلي اليوناني لصلحة السلالة التي تقضي باستبعاد قسمة الخلافة ، ولسلطة الإرادة الملكية أحياناً .

ومن الصعوبة بمكان أيضاً ان نحتمل أحد أغرب مظاهر الملكية الهلنسية ، أعني به اشتراك الأخ واخته ، المتحدن بالزواج ، في الملكية . ليس من ريب في ان بعض الظروف الطارئة تفسر قيام هذه الشراكة التي يتعذر علينا تعليلها إذا ما أغفلنا حياة ارستينوي السابقة وطباعها الشخصية وطباع بطليموس الثاني الذي خالف ، في زواجه منها ، الأخلاق اليونانية التي اعتبرت

الزواج بين الأخوة عمل زنى . ولكن لماذا اتبع البطالسة فيما بعد ، باستثناء حالات نادرة ، هذه الخطة يا ترى ؟ يستحيل ، بكل تأكيد ، ان لا نسلّم هنا بتأثير العادات المصرية التي لم تنتكر للزواج بين الأخوة . غير ان الملكية السلوقية نفسها قد تأثرت بهذا الغرض الذي انتقل اليها من الاسكندرية : فنذ عهد مبكر نسبياً ، لقبّت الملكة السلوقية ، مع أنها غريبة ، بلقب « الشقيقة » الرسمي ، وقد حدث فعلاً في أوائل القرن الثاني ان زوج احد الملوك ابنه من إحدى بناته التي تزوجت على التوالي ، بعد ارحامها ، من أخوين آخرين عند تسلمها زمام الملك بدورها . هذه هي الحادثة الوحيدة على ما نعلم ؛ فقد حالت المصادفة والاعتبارات الدبلوماسية دون رسوخ وشمول هذه الأعراف خارج مصر . ولكن لهذا الإعداد مغزاه على الرغم من سزعة زواله : ان الحرص على نقاء الدم والاحتياط لمطالبات ممكنة قد يقدم عليها أنسابهم بعبود قد لعبا دورها في تحطيم موجبات الأخلاق اليونانية . وبذلك اثبت الملوك مرة أخرى انهم رجال يختلّفون عن البشرية المتوسطة .

أما اشارات الملك الخارجية فانها تدعو في الحقيقة الى الدهشة ببساطتها ورسالتها . فالزينة الرسمية هي أبداً البزة المقدونية التي هي في الواقع بزة الميدان أي الشوق والمعطف المتسدل والخوذة أو القبعة الواسعة الأطراف ؛ ولم يكن اللون الأرجواني نفسه في المعطف والقبعة وفقاً على الملك ، إذ ان استعماله قد جاز لبعض أفراد البطانة الملكية . وبعض السلالات اشاراتها الخاصة : الصولجان للآشمين ؛ والحاتم المزدان بنقش المرساة للسلوقيين ، ويطلق عليه اسم هبة ايولون . ولكن الشارة الوحيدة المشتركة حقاً بين كافة الملوك هي التاج الذي بلغ من سعة انتشاره أنه أصبح معادلاً للفظ « ملك » ودخل في سلسلة من التعابير الدارجة ، على غرار كلمة « العرش » في أيامنا هذه . نقله الاسكندر عن الملكية الفارسية واستخدمه كل خلفائه من بعده . والمقصود بالتاج عصبية بيضاء ، أو بيضاء وارجوانية معاً أحياناً ، تحيط بالرأس وتجمع الشعر وتعدّد الى الوراء تاركة طرفيها يسترسلان فوق الرقبة . فهل من اشارة أقلّ لعماننا من هذه ؟

أضف الى ذلك ان شخص الملك لا يحاط بعد بمعاملات شكلية خاصة . لا بل إننا نلصق استعراار البساطة المقدونية عوضاً عن المراسم الشرقية ولا سيما الفارسية منها : فقد كانت الغلبة على هذا الصعيد للنفور الذي صادفه الاسكندر لدى رفاقه في السلاح . وإذا أخذت العادة تدرج ، في الاحتفالات الرسمية ، على حمل شمعة أمام الملك ، فإن الأجانب وحتى الرعايا يحظون دونما صعوبة بمقابلة الملك . وإذا ما ساعدت الضرورات الدبلوماسية واختبرت خطبة الملك إجمالاً ، منذ البداية ، من أسرة ملكية ، وإذا كان عقد الاتفاق نتيجة مفاوضات ، وإذا احتفل بالزواج باهبة عظيمة ، فقد يحدث أحياناً ان يتزوج بعض الملوك من بنات الطبقة المتوسطة ، ان لم يكن من الراعيات أحياناً . غير ان الملوك الذين يرتدون الألبسة البسيطة

ويختلطون بالجمهير قد أصبحوا موقع زلّة منذ أواخر القرن الثالث .
وليس من أقل مظاهر أهمية العهد الهليني ان تتكون فيه ، حول واقع الملكية الحديث العهد المطبوع بقوة بالأخلاق المقدونية على شيء من المساواة وفاقاً للطريقة اليونانية ، نواة أولى من التقاليد والاعراف والمصطلحات القانونية والازياء في الملابس وغيرها . وستنمو هذه النواة رويداً رويداً بفعل تائسيرات غير التأثيرات الهلينية أيضاً . ولكنها ستنتقل من ملكية الى ملكية حتى بينظية وما بعدها أيضاً بواسطة روما .

٣ - الأنظمة الملكية

لا نستطيع ان نقدم هنا سوى تليخيص عاجل وعمومي للأنظمة الملكية ، اذ ان فقدان التوازن في التوزيع الجغرافي لمستنداتنا يحول دون الاستفاضة : فقامم غزارة البرديات المصرية ، ليس لدينا ، عن مقدونيا والمناطق السلوقية التاسعة مثلاً ، سوى كتابات نادرة متفرقة . أضف الى ذلك ان عدد وخطورة المعاضل التي يستعصي حلّها أو عرضها عرضاً على بساط البحث ليسا بعقبات أقلّ شأنًا . لذلك يتوجب علينا الاكتفاء باستخلاص بعض الخطوط العامة التي تتيح لنا ادراك الملكية الهلينية ، في حد ذاتها ، اذراكاً أفضل .

السلطة الملكية الملك غير مقبّد ، وهو بهذه الضفة القائد الطبيعي للجيش . وهو المشارع الوحيد : يصدر أوامره في شتى المواضيع ويوجه الكتب الدورية الى الموظفين ويحجب على أسئلتهم . وهو أعلى سلطة قضائية : ولا يشذ عن ذلك سوى الحق المعترف به تقليدياً للجمعية العمومية في الملكية المقدونية - وهو كثيراً ما يخرق عملياً - في ان تنظر في دعاوى الخيانة العظمى . ولكن القضاء ليس مفصلاً آنذاك فصلاً تاماً عن الادارة ؛ لذلك فان الملك يتلقى في شتى الأمور عرائض لا تخصه يقدمها له حتى الرضعاء من رعاياه : وان هذه العادة التي تأيدت ، فيما خص مصر ، ببرديات تعبير عن آمال كلها سداجة أحياناً ، قد اتبعت في مناطق أخرى أيضاً . يبدو ان بعض الملوك قد برهنوا في النهوض بهذه المهام ، تساعدهم الفلسفة على ذلك ، عن شعور الواجب ووعي لكرامتهم بلغا أحياناً مستوى رفيعاً جداً . فقد نسب لأحد الانتيفونيين المتأثرين بالرواقية أنه قال يوماً لابنه : « هل أدركت جيداً ان ملكيتنا انما هي عبودية محاطة بالتكريم والتجلة ؟ » ولكن الملك بحاجة الى العون والمساعدة مما كان من تقيده برحي ضيره . ويتمتع الملك مبدئياً بحرية كاملة في اختيار معاونيه واسناد الأعمال اليهم . ويجري بهذا الاسناد ، كما يطيب له ، دوناً اعتباراً للثقافة والمراتب والأقدمية : ليس من مقياس سوى رضاه أي الثقة التي يوحى بها اليه .

بيد ان سمعة الملك تتوطد ، الى حد بعيد ، بنسبة اهلية واخلاق اولئك بطانة الملك والسياسة . نندين بلجاً اليهم لمعاولته . وعليه في الواقع ان يحسب حساباً لرأي الجنود ، ولا سيما الحرس ، واهل البلاط . ويحتل بعض معاونيه مراكز شخصية رفيعة ، فيضطر

للتراث والركون الى الجلية للقضاء عليهم : وقد ارغم احد الملوك السالوقيين ، قبل الفوضى النهائية بزمن طويل ، على التآمر ونصب كمينين لاغتتيال وزيره الاول . ففلسطة المطلقة حدودها الواقعية اذن ، وليس في ذلك ما يثير الدهشة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار للمكانة التي منحها لها للمثالية البائدة صفات الفرد وما توفره له من تسلط على البشر الآخرين .

من حيث ان البلاط ، وهو ذليل من ذبول الملكية ، وبالتالي تجديد هينتي ، واقع اجتماعي في الدرجة الاولى ، ينعم بنفوذ فكري وفني عظيم ، فانه يثبت من ثم وجوده على الصعيد السياسي . ومن نافل القول ان الديسيسة ، ولا سيما ديسيسة الخادج ، تلعب فيه دورها بصورة حتمية . غير انه يندر جداً ان يكون هذا الدور موقع زلة . ولكن السراري والغلمان والحصيان الذين لعبوا دوراً سياسياً لم يتجاوزوا عدداً ضئيلاً ، حتى اذا اطماننا الى المستندات الطريفية التي تنتقد ، الا في الملكية اللاجية التي غدت ، منذ اواخر القرن الثالث ، العوبة بين أيدي مشرط هذه الجماعات . بيد اننا نخطيء ان نحن شبهنا بهم تلك الملكات الزواني ارتقن الى مرتبة المدافعات عن فكرة معينة في المنازعات بين الملكيات الهلينية ، من أمثال اولميا والدة الإسكندر ، وكليوباتره العظيمة ، وارسينوي شقيقة بطليموس الثاني وروجته ، ولا وديسكي زوجة لنيطيوخوس الثاني السالوقي ، وكليوباتره « الالهية » التي كانت « ابنة ملك وشقيقة ملكين » من اللاجيين ، و « زوجة ثلاثة وأم أربعة » ملوك سالوقيين . وانما الأمر . يعود الى تطور عام في المجتمع حيث أصبح للمرأة مكانة أرفع منها في السابق : فمكنة الشخصيات النسائية القوية أن تلعب منذئذ دورها بسهولة ، لا سيما وأن وجود البلاط يولي الملكة مرتبة رسمية .

وما يلفت النظر أيضاً ان النسب والثروة ليسا من العناصر التي تقرر الأوضاع الشخصية في البلاط ، على ان لها بعض الأثر مع ذلك . فـ « الأولاد المكيون » ، المختارون في العائيلات الكبرى يريون في القصر ويخصصون لخدمة الملك ، وتسهل عليهم التربية التي يتلقونها وبالتالي على الأمير الفتى ، ملك المستقبل ، دخول الوظائف العسكرية والادارية . ولكن هذه الوظائف لا يحتفظ بها لهم . ولم تتكون قط ، في أية ملكية ، طبقة من « الكبار » . فان حظه منوط بالواهب دونما تمييز اجتماعي أو جغرافي أو عنصري . فالعالم الهليني يتخطى الحدود ويؤلف وحدة بشرية كبرى يتجول الأغر يق داخلها دونما صعوبة عارضين خدماتهم على أسياذ مختلفين . الضمان الضروري الوحيد هو الانتساب الى الحضارة اليونانية ، أو الأخذ بها فقط . أقلته بالنسبة لبعض الملوك . فقد أجاب أحد الأتيقونيين طالب مصلحة من ذوي النسب . « لا شأن عندي للقيمة الوالدية بل للقيمة الشخصية » .

الفاسيلس ، مبدئياً ، رجل ذو مواهب عالية قادر على إيقاد التفاني وبسلك الحكومة المركزية الذات ، أكثر من أي رئيس دولة . لذلك فان المعبونين الذين يسند اليهم المهام الحكومية الكبرى يعدون بين « البطالة » جنباً الى جنب مع خدامه . الخوصيين . وهم

يؤمنون غالباً وظائف بلاطية . ومحصلون ، على الأقل ، على لقب يربطهم شخصياً بالملك ويتيح لهم التحدث إليه بمزيد من الدالة . فقد درجت في البلاطات الهلينية تسميات بطانية ظهرت سابقاتها في الملكية المقدونية القديمة والملكية الفارسية على السواء ، ثم تعددت وطرأ عليها نوع من التخصيم المفرط في الاكرام بسبب ابتذال التعابير البسيطة . فهناك « أهل » الملك و « آباؤه المليون » و « مهذوبه » و « اخوته الرضع » أو « تلاميذه » ، ويمكن تقديم الدليل في بعض الحالات على ان المقصود بذلك ألقاب شرفية فقط . وهناك خصوصاً « الأصدقاء » المنتظمون جمعية حقيقية بدرجاتها المختلفة : « الأصدقاء » دوغما صفة ، وفوقهم تسلسل الاصدقاء « المكرمين » و « الأولين » ، و « الأولين والمكرمين تكرماً خاصاً » . ويوزع الانعام الملكي هذه الألقاب لقاء شتى الخدمات مع ما يقابلها من شارات أكثرها رواجاً المعطف الارجواني . ولا توجد هذه الألقاب سوى روابط شخصية بين من يوزعها ومن توزع عليهم إذ ان « صديق » الاب ليس بالضرورة « صديق » الابن .

وهكذا فان عدد رجال البطانة قد يكون مرتفعاً جداً . وتحمل بعض التعابير الرسمية على الاعتقاد بأنهم يشتركون في السلطة الملكية ، شأن الجيش أيضاً ، كان هنالك ملكية جماعية . ويتباهى الملك في الحقيقة ، بعدد ووفاء « أصدقائه » وجنوده لأن في ذلك خير برهان على السحر الذي يشع منه ، وعلى سخائه و « انعاماته » ، وبكلمة ، على ما يكسبه نظرياً سلطته كفايلاس .

لذلك كان من الطبيعي ان يختار الملك بين هؤلاء الاشخاص من يلبس فيهم الكفاءة لمعاونته . فالمشورات مرغوب فيها أبداً حتى ولو لم يكن هنالك مجلس استشاري دائم ومنظم . ويتلقاها الملك من يريد وبالشكل الذي يوافق . ومن المسلم به أنه غير مقيد بها ، ولكن الاستشارة ضرورية ، إذ ان الملك الذي لا يعبأ بهذه الحيلة يعرض نفسه لأن ينعت بالاستبداد .

ينتخب الملك أيضاً بين بطانته القواد والسفراء والوزراء ، وليس من الضروري ، على كل حال ، ان ينطبق هذا الترتيب المنطقي على الواقع . فالرجل الواحد قد يكون تارة قائداً وأخرى سفيراً ووزيراً ، وقد يحدث له أيضاً ، بعد ان يتولى قيادة عسكرية هامة ، ان يسلم قيادة دورها أهمية ، حتى ولو لم يفقد الحظوة التي يتمتع بها . غير ان الشؤون الادارية على الأقل ، أي الحرب والدبلوماسية ، قد أصبحت من التعقيد بحيث انها فرضت حدداً ادنى من التخصص والاستمرار . لذلك فاننا نرى في كل ملكية تقريباً رئيس ديوان ورئيس قضاء ومفتوض مالية . وقد يحدث احياناً ان يبرز ، بين جميع الشخصيات الكبيرة ، شخصية أكثر نشاطاً ومهارة يشيرون اليها بتعريض غامض في الكلام ، « المفتوض بالشؤون » ، الذي يبدي رأيه في كل القضايا ويبت في أكثريتها باسم الملك : ذلك هو المستشار الرئيسي والوزير الرئيسي . ولكن جميع هذه التعابير المستعمارة من قاموسنا السياسي لا تعبر التعبير الصحيح عن ميوعة التنظيم في الحكومة

المركزية لبلاد واسعة ، والتنظيم شيء حديث جداً بالنسبة للاغريق .

الإدارة المحلية
من الامور المسلم بها ان الادارة المحلية قد كانت ، في ما يظهر ، ارسخ
استقراراً من الحكومة المركزية . ولكن معرفتنا بها ضئيلة جداً اذا ما قارناها
بالحكومة المركزية ؛ ويبدو الاختلاف بين الملكيات ، في هذا النطاق خصوصاً ، عظيماً للغاية
لان كل ملكية مرعجة على تكييف انظمتها ومصطلحاتها وفاقاً لميزات الاراضي والرعايا التي
تشرف على ادارتها .

لنأخذ مثلاً مصر اللاجية ، وهي الملكية التي نعرفها اكثر من غيرها . فقد احتفظ فيها
بالتقسيمات الادارية التقليدية المعروفة بـ « الاقاليم » مع بعض الفوارق الطفيفة الناتجة عن التطور
الاقتصادي او زيادة عدد السكان في منطقة من المناطق مثلاً . وقد عيّن في كل اقليم ، في البداية ،
حاكم مصري وقائد عسكري يوناني ؛ ثم توارى الحاكم رويدا رويدا وراء القائد حتى زال
نهائياً . وتشتمل المراتب الدنيا على رؤساء الاقضية ورؤساء القرى . ولكن المشاغل المالية
قضت منذ البدء بان يعين ، الى جانب كل من هؤلاء الموظفين ، عميل يرتبط مباشرة بوزير المال ،
هو « الكاتب » الذي يعرف عنه بمركز وظيفته ، فيقال كاتب القرية ، وكاتب القضاء ، وكاتب
الاقليم او الكاتب الملكي .

ليس في هذه اللوحة البيانية شيء من الخطورة . ولكنها لا تنطبق إلا على مصر ، أي على
بلاد تسهل فيها المركزية بفعل طبيعتها وتاريخها السابق . أما في الملكيات الأخرى فالأمور
تختلف اختلافاً بيناً . نحن لا نعلم في الواقع شيئاً عن مقدونيا ، كما نكاد لا نعلم شيئاً عن الملكية
الاطالية . أما الساقيون ، وهم الخلفاء الرئيسيون للملوك الفرس ، فقد حافظوا على اسم وواقع
« المرزبانيات » القديمة ، باستثناء تقسيم بعضها الى اثنتين أحياناً . وقد تولى أمور كل مرزبانية
قائد عسكري . فهل قام الى جانبه « مرزبان » وكلت اليه الأمور الادارية ؟ نحن نشك في ذلك ،
ولا نعلم على كل حال بوجود موظف أطلق عليه هذا اللقب في عهد من العهود أو في منطقة من
المناطق . وقد قسمت المرزبانية أخيراً الى أقضية تختلف أسماءها الرسمية وفاقاً للمناطق ، وبالتالي
أيضاً أسماء الموظفين المكلفين ادارتها .

بدلاً من ان نضع هذه القائمة الطويلة التي تثير مجادلات شتى وتفضي الى اعترافات بالجهل ،
يحدّر بنا ان نعرف كيف سارت هذه الادارة المحلية . ويمكننا في هذا المجال ان نستخلص بعض
النظرات العامة .

من الجلي ان كل المراكز الرفيعة وجلّ الوظائف الملحقة بها قد احتفظ بها للاغريق في
الملكيات الشرقية . أما في البدء ، وفي مناطق لم تخضع لإخضاعاً نهائياً كاربينيا وكبادوكيا
وبيثينيا مثلاً ، فقد وجب مراعاة الأوضاع المحلية والقبول بإبقاء بعض المرازبة الشرقيين الذين
ما لبثوا في النهاية ان أعلنوا الانشقاق فعدوا في الأساس من تكوين الملكيات الثانوية . أما في

المناطق التي شعر الملك اليوناني بأنه سيدها المطلق ، فلم يعول إلا على الاغريق أو الليريقين « المستعرقين » فعلاً ، وكانت اليونانية اللغة الرسمية ، فأقضي بالتالي البلديون الجهال . أضاف الى ذلك ان الاغريقي ، بفعل ثقافته والاستعداد الفكري المفروض فيها ان تجده فيه ، قد اعتبر موظفاً أوفر نظفياً ودقة وأمانة أيضاً ، لأن الواجب يقضي عليه ، بالتضامن مع الملك أمام رعايا يارسون حضارة أخرى .

فهل كان هؤلاء الموظفون عند حسن ظن الملك بهم يا ترى ؟ يمكننا التسليم بذلك ، بصورة عامة ، لجهة الامانة السياسية ، على الرغم من بعض الثورات التي أفضت الى الاعتصابات : وهي تقريباً وقف على الملكية السلوقية التي كانت أراضيها أوسع من ان تتمكن مراقبتها مراقبة تامة دائمة . ولكن الامر على خلاف ذلك من ناحية الفعالية الادارية . فالحقيقة هي ان الاغريق الذين دخلوا في خدمة الملوك المستقرين في الشرق كانوا حتماً أقل من ان يتاح انتقاء العدد اللازم بينهم . وكثيراً ما أظهرت نزاهتهم الربية والشك . بيد ان الكتابات الخاصة بآسيا ، وهي على الأغلب نصوص رسمية وتكرومية ، قد تحملنا على الاعتقاد بان الوضع فيها وضع مثالي . أما في مصر فالبرديات التي تصف واقعاً يومياً ومتواضعاً تحتوي على شكاوى أو تأنيبات كثيرة وتطلعنا على سرقات ومحاولات سلطة لا تدع مجالاً للشك . وان الادارة الحسنة تستنزم ، على كل حال ، خبرة وتقاليده وموظفين لم يتوفروا لهذه الملكيات الفتية التي قامت بعيداً عن الأرض الأم .

وتستنزم هذه الادارة الحسنة أيضاً مواصلات سهلة بغية نقل الاوامر وممارسة رقابة الحكومة المركزية بسرعة . غير ان المركزية في ملكيات ذاك العهد ، والرقابة منبطة بها ، تؤدي الى التعقيد وبطء المعاملات . وهذا البطء جليّ في مصر حيث تتطلب اقل معاملة تحقيقات شتى ومراسلات بين مكتب ومكتب ومرؤوس ورئيس . أما في الملكيات الأخرى فان المستندات المتوفرة لدينا ، وان كانت أقل جلاء ، تضعنا أحياناً أمام وقائع على مثل هذه الغرابة . ففي شهر آذار ، بينما كان احد الملوك السلوقيين في آسية الصغرى - في عصر السلالة الذهبي - اتخذ قراراً هاماً لمصلحة الملكة ، وكان على الموظفين المعنيين ان يسرعوا في إبلاغه ، غير ان القرار لم يصل الى الدرجات الدنيا من الادارة في احدى المرزبانيات المجاورة إلا في شهر أيار كما ، لم يصل اليها في غربي النجد الايراني إلا في شهر تموز . ويتراءى لنا من ثم ما يمكن ان تقول له ، مع الخطاط الملكيات ، ادارات على مثل هذا النقص ، حين سلبت روما نفوذ الملوك

لذلك ، وفي كل زمان ، لم يتح لسلطة الملك ، وبالتالي لسلطة ادارته ،
الوساطة والامتيازات المحلية
ان تثبت وجودها في كل مكان بشكل متكافئ وقوي . وفي هذا
الجمال ، يبدو اللاجيون - في مصر لا في ممتلكاتهم الخارجية - في وضع موافق جداً ، ولكن
عليهم ، حتى في وحدة وادي النيل ، ان يحسبوا حساباً لثلاث مدن يونانية . أما الملوك الآخرون
فيصطدمون بمواجز شتى قوامها التقاليد المحترمة أو التنازلات . ويمكن مبدئياً نقض هذه

التنازلات أو التسليبات ، ولكن القوة غير متوفرة غالباً لتقصها فعلاً ، حتى ولو توفر المبرر المعقول لذلك . ثم ان الفاسيفلس قد يعرض سمعته للتحطيم اذا تقض « انعاماً » دون تبرير معنوي يختار النعم عليه بحكمة ساعة توفيره له .

بما لا ريب فيه ، ربما باستثناء مقدونيا حيث يخيم الغموض على الادارة الداخلية ، ان الملك قد مارس على الدوام سلطة لا حد لها ، بواسطة عملائه وحدها ، على أعظم أجزاء مملكته اتساعاً . وغالباً ما أطلق المعاصرون على هذه الأجزاء اسم « خورا » أي « الريف » أو « الأرض المنبسطة » لظهار المضادة بينها وبين المدن المحصنة . ولكن أجزاء المملكة الأخرى التي لا جدوى فيها للسلطة المباشرة ، أو التي يجب على السلطة أن تحتال فيها على العقبات ، تشتمل على مناطق أخرى كثيرة غير المدن أيضاً .

ان هذه العقبات على أنواع كثيرة جداً وتختلف الاهمية النسبية لكل فئة اختلافاً عظيماً وفقاً للظروف المحلية . ففي مناطق الحدود ملوك ذوو اخاذات يكتفون بتأدية واجب الطاعة حين يمر الملك بالقرب منهم على رأس قوة مسلحة : فيطيب للرسمين ان يصفوا « بالجزية » ما يطلق عليه ذوو الاخاذة اسم « الهدية » . وهناك « السلايون » الذين يسيطرون على مناطق أقل سكاناً وثروة من أن يتجاسروا على اعلان نفوسهم ملوكاً عليها . وهناك بعض المعباد التي يدير كهنتها أملاكاً عقارية تؤلف دولاً ثيوقراطية . وهناك « شعوب » أو قبائل بلدية تخضع لشرائعها الخاصة وتعين رؤسائها : وأشهر مثل عنها الشعب اليهودي مع شريعته الموسوية ومجلسه ورئيس كهنته . وهناك المدن أخيراً . فان ذوي الامتيازات هؤلاء ، أفراداً كانوا أم جماعات ، تزعوا بالسليقة الى الاستقلال . ولا ينم موقفهم من الملك ، عملياً ، سوى عن نسبة القوى الراهنة . لذلك فان الفوضى الداخلية كانت بالمرصاد للملكيات المتعقبة وأسرع في تفككها .

ان ما يستوقف انتباهنا بنوع خاص هو دور المدن في الحضارة الهلينية . أجل قد تكون هنالك بعض المدن المحلية البلدية . ولكن المدن التي يمكننا ، بفضل الكتابات ، مرافقة حياتها ، هي المدن اليونانية ، أو المدن « المستغرقة » كما في فيليقيا . ويوجد بينها مدن قديمة ومدن حديثة العهد . ولكن جميعها مثلاً أعلى واحداً لا يستطيع أي اغريقي أن يتنكر له ، هو « البولس » . فهي بمجسوتها وأسوارها وساحاتها العامة وأبنيتها تؤلف أشخاصاً طبيعية . وتؤلف أشخاصاً معنوية أيضاً بالدستور الذي ينظم مواطنيها جماعة مستقلة ، أي ناعمة بوسائل عمل وقضاة ومجلس وجمعية تستطيع بها أن تدير شؤونها وشؤون البقعة المرتبطة بها .

ويطرح هذا الدستور والزعاعات التي من شأنه ان يهد لها ، على بساط البحث ، العلاقات بين المدينة والملك . فالملك لا يستطيع القبول بقيام علاقات مع اجني ، هو ابدأ عدو ممكن ، ولا المخاطرة بان يرى يوماً ابواب المدينة تقفل بوجهه او القلعة تستخدم مركزاً حصناً من قسبل الثائرين . فهو بحاجة الى ضمانات . ولديه سلسلة مختلفة من المسكافات والعقوبات ، يعامل بها

المدن وفاقاً لاستحقاقها ، فيرسل إليها حامية او يسحبها ، ويثقل الجزية او يخففها او يلغها ، ويمنح الامتيازات التجارية او الدينية ، الى ما هنالك . ولكن الطريقة التي كثر العمل بها قامت على ان يرسل الى المدينة « مفوض » يكسّف ، دوغماً ضرورة لوجود الجيوش ، مراقبة الحياة المحلية ، وابداء الرأي في اختيار القضاة وفي قرارات الجمعية او المجلس ، ويوحى او يحرر احياناً مشاريع المراسم التي يوافق عليها فوراً . ومن الطبيعي ان تفرض رقابة شديدة خاصة على المدينة التي يقم الملك فيها او على مقربة منها ، كلاسكندرية عند اللاجين وبرغاموس عند الاطاليين ، فيتولى بعض الموظفين الذين يعينهم قطاعات معينة في الادارة ، ويصبح الاستقلال الاداري مجرد ظاهر فحسب . وتكون هذه المدن الاولى في الاستفادة من سخاء الملوك في توزيع المال وغلوائهم في تشييد الابنية . ولكنها تدفع ثمن هذه الانعامات بفقدان حرياتها ، ولم يحل ذلك قط دون انفجار السخط الشعبي احياناً ، اقله في انطاكية والاسكندرية منذ القرن الثاني ، وتحوله الى شعب صاحب قد يؤدي الى تقتيل المقربين الى الملك ، وطرده للملك نفسه ، وعلان سواه مكانه . فعلى الرغم من الانظمة الاربية المعتمدة ، لم تتوصل الملكية المحلية الى ازالة الاستقلال الاداري الذي اظهر المضادة بينها وبين « البولس » : فان فورة الاستقلال التي جاشت في « البولس » لن تحمدها سوى قبضة روما بعد اكثر من انتفاضة .

كثرت اذن الصعوبات التي وجب على الملوك محاولة التغلب عليها لفرض الطاعة
الثروة وتأمين العنصرين المتلازمين آنئذ لثالث الملكية : الثروة والقوة العسكرية .

جاء القسم الاكبر من مواردهم المالية من استثمار « الريف » الذي لم يكن ملكهم المباشر فحسب ، بل ملكهم الخاص ايضاً . وفي كل الملكيات ، حتى في مقدونيا ، كانت اهمية الممتلكات الملكية من العقارات والاحراج والمناجم ، وحتى المصانع ، عظيمة جداً ، لا يقلل منها سوى « الهبات » التي يطيب للملك ان يقتطعها فيها كمكافأة تقاني المتفانين في خدمته او لبعث هذا التفاني . وتملكوا عبيداً يتيحون لهم احياناً استثمار هذه الممتلكات استثماراً مباشراً بأشراف القهارة . ولكن طريقة الاستثمار العادية ، للاملاك الزراعية بنوع خاص ، هي التلزم الذي قد يفرض فرضاً على سكان « الريف » الذين ، حتى ولو نجحوا من العبودية ، يبقون خاضعين لموجبات لا يعين حدودها سوى رضى الملك وحده . وما كانت هذه الممتلكات لتصبح شيئاً يذكر لولا اليد العاملة التي تحرثها .

الى موارد الملاك هذه اضيفت موارد المليك المتمتع بالحق السامي الذي توليه اياه الفتوحات وصفته كفاسلفس ، اعني بها الضرائب بخصر المعنى . وهي على انواع كثيرة تختلف باختلاف الملكيات وداخل الملكية الواحدة ، اذ ان على الملك ، بصددها ، ان يأخذ بعين الاعتبار الامتيازات المحلية . واكثر الضرائب رواجاً واعظمها دخلاً الجزية ، رمز السيادة المعترف بها ، التي وُردت عن الامبراطورية الفارسية واعتمدت اخيراً في مقدونيا نفسها . والمقصود بها مبلغ

من المال - يضاف اليه احياناً بعض المساهمات العينية - يحدد تحديداً اجمالياً لكل جماعة ، او اقطاع ، او قبيلة ، او مدينة ذات امتيازات ، او قرية في « الريف » . ويترك الخيار لكل جماعة ، لدفع هذه الضريبة سنوياً للخزانة ، في ان تجمعها كما يطيب لها وان توزعها على هواها بين اعضائها . اما ضريبة الاعناق والرسوم على المواشي والاشجار المثمرة فتبدو اقل شمولاً ، اذا انها تستلزم احصاءات لا تستطيع كافة الملكيات اجراءها بانتظام . وهناك ايضاً الضرائب غير المباشرة ، الجمارك الخارجية والداخلية والمكس والرسوم على المبيعات الخ ، ولكنها تختلف عدداً وشدة . وهناك اخيراً ، فوق كل ذلك ، المصادرة والسخرة ، اذا ما مسّت الحاجة ، وحتى « التيجان » اي الهبات الطوعية والاستثنائية في زعمهم التي كثيراً ما كانت تفرض فرضاً في الواقع في اوقات معلومة ، لمناسبة عيد سنوي او انتصار او ، على العموم ، اي حدث موافق للتعبير عن تعلق الرعايا بالملك .

لا يوحى هذا النظام ، في أي مكان ، بمثل كاله المنطقي ودهائه وشدته في مصر . فهو يتفق فيها والمشاغل الاقتصادية التي تقضي الى سياسة تجارية وموجبة معاً . فان الملك اللاجي الذي يملك القسم الاكبر من أرض البلاد يحصل دخل تلزم الاراضي ويستثمر الامتيازات التي تعود له واقماً أم قانوناً . ومن شأن الرقابة الدقيقة التي تقود هذه العمليات وكلاءه الى ممارستها حيال الناس ونشاطاتهم وحيال المحصول والتجول ان تجعل جباية الضرائب أكثر سهولة وفعالية . وقد اكثر من هذه الضرائب مخيلة هي أخصب وأسلس مخيلة مالية عرفها التاريخ . فبلغ من كمال هذا النظام ان الجزية ، وهي ضريبة جماعية كما رأينا ، قد أمكن ابدالها بضرائب شخصية ، كالرسوم العقارية أو المهنية .

كانت النتيجة ثروة الملوك الهلنيين . وأذهلت هذه الثروة اغريق اليونان القديمة الذين لم يعرفوا سوى الميزانيات الفقيرة في مدنهم الصغيرة . وغدت لهم طعماً جاذباً يحملهم على الهجرة والبحث عن العمل والمال الوفير في الملكيات . وقد تعهد الأتثيونون أنفسهم ، وهم أقل هؤلاء الملوك حظاً ، اذا ان اقتطاع الأراضي والسخرة لئسا بالأمر اليسير عند المقدونيين ، بلاطاً بلغ من بذخه انه اقتضى عدة أيام لفاتح « بيدنا » كبي يعرض مغائنه في روما بعد انتصاره . وليس ما يضاهاى شهرة ملوك الشرق المشروعة ، لاسيا شهرة اللاجيين الذين ساورت كنوزهم الاسطورية ، في القرن الأول ، مخيلة الطامعين وأفراد العامة في روما .

في الحقيقة كانت النفقات الملكية باهظة جداً . فان تعهد الموظفين والبلاط ، وسياسة السخاء ونصرة الآداب والفنون ، « والهبات للندن وعبادة الآلهة » التي اعتبرت اذ ذاك دليلاً على « ذهنية ملكية حقاً » ، كل هذا كان الثمن المحتم لثروة توفرها سلطة الملك . ولذلك فان كل مجهود عسكري غير عادي يفرض اللجوء الى استنباط الخيل : إحداهن رسم اضافي كذلك الذي فرض لمبارنة « الغالطيين » النازحين الى آسيا الصغرى والذي أبقى ، بعد

استيطانهم النهائي فيها ، لضمان هدوئهم ضماناً غير ثابت ؛ حجز الثروات المشيئة مع ان الانعام الملكي هو مصدرها ؛ استلاب كنوز المعابد الذي أدى في النهاية الى ثورة المؤمنين ، في مقاطعتي سوسة واليهودية مثلاً ؛ تضخم النقد النحاسي المتداول في مصر . ولكن الرحلة لم تجهد ، فلم يمض وقت طويل حتى عجزت كل الملكيات ، الا اذا حدث من نفقاتها الاخرى ، عن تمهيد جيوش تناسب حاجاتها .

قال مؤرخ معاصر : « العالم الهليني عالم عسكري » . ان مثالية « الفاسيلفس » القوية العسكرية نفسها تفسح للقوة مركزاً ممتازاً . وعلى كل ملك ، في الواقع أيضاً ، أن يكون قوياً للدفاع عن نفسه ضد جيرانه والاحتياط لهجراتهم ، ولابقاء رعاياه البلديين الشرقيين تحت نير الطاعة أيضاً . وقد احتاجت الملكيات ، لهذه المهمة الجديدة ، الى جيش دائم استطاعت المدن قديماً أن تستغني عنه ، هو الحرس الملكي والحاميات الموزعة على الحصون . وهكذا فقد أعرض اعاضة عريضة عن الفترات السلمية التي كانت ، باستثناء ولاية الملوك المتعطين « للبعد » - وهم كثر آنذاك بين خلفاء الاسكندر - أطول منها في العهد السابق ، بين حرب وحرب .

غدت الحرب عملية معقدة . فقد استازمت جيوشاً أضخم عدداً : أجل لم يبلغ أفرادها المائة ألف رجل الذين جمعهم الاسكندر في النهاية ، ولكنه ليس من النادر أن يجمع أو يقاد منهم خمسون ألفاً . وقد سار التقدم التقني بطراد . فاستخدمت وسائل مادية قوية في محاصرة الحصون والدفاع عنها ، وظهرت الآلات الحربية على المراكب وحتى في ساحات الوعى . وزاد بحمول البوارج الحربية وعدد جذافيتها ؛ ولكن الاساطيل قد اشتملت أيضاً على مراكب خفيفة للفناوشات والمهاجمات والانتقال السريع . وتنوعت الجيوش كذلك بالوحدات المختصة بالمهام المختلفة : الاستكشاف ، المهاجمات الفجائية ، الالهاء ، الاصطدام العنيف ، الملاحقة . وأصبح لديها فرق الفرسان لاستثمار النصر : فان معركة بين جيشين متقابلين تقرر في أكثر الاحيان مصير حملة من الحملات . وكلها استطاع ملك الاتصال بالمناطق التي يسهل عليه فيها القاء القبض على القبيلة ، كان له فيلة يديرها ويستخدمها في الحرب .

كانت هذه التجسينات وهذه التجديدات نتيجة قيام الملكيات الكبرى التي توفرت لها وحدها وسائل تطبيقها . ولكنها استنزفت فيها جهداً أضنانها .

أجل لم تكن الملكيات بحاجة الى الرجال . فللملك الحق بتعبئة رعاياه . ولكنه لم يلجأ الى هذه التعبئة على نطاق واسع . فان في تدريبهم أو إعادة تدريبهم على مهنة السلاح بعض المآذير والاضطراب . وللشركيين بنوع خاص طرائقهم الخاصة في التسلح ونحوض المعركة ثبت تأخرها . فباشر الاسكندر توزيع الاسلحة المقدونية والتعلم العسكري المقدوني على الفرس . وتزداد خلفاؤه في متابعة الاختيار الذي استاء منه رفاقه . فقام بالعمارة أحد الملوك اللاجيين ، في أواخر القرن الثالث ، وألف « كتيبة » مصرية . ويضيف المؤلف اليوناني الذي أعلمنا بذلك ان

المصريين ، وقد انتفخوا كبرياء بفعل النصر الذي ساعدوا على احرازه ، امرعوا الى اعلان الثورة . ولم ينخرط البلديون عملياً الا في فرق المشاة الخاصة الخفيفة وفرق الفرسان ولم يترك بعضهم بالنقل الى الوحدات اليونانية الا نادراً وبصفة شخصية .

بما لا ريب فيه ان خير الجنود ، ومن الطبيعي ان يثق بهم ملوك من أصل يوناني ، كانوا الجنود اليونانيين ، وفي طبيعتهم المقدونيون الذين دلت انتصاراتهم على المدن اليونانية وعلى الامبراطورية الفارسية على تفوقهم العسكري . فهم في فرق المشاة أخف تسليحاً من « هوبليت » العهد الكلاسيكي ، تؤلف « الكتيبة » وحدتهم القتالية الرئيسية ، وهي كتلة متراصة من صفوف الجنود المتوازية التي تخفض الصفوف الاولى منها نحو الخارج وراحها التي تتجاوز خمسة أمتار طولاً . وارتدى المقدونيون الدروع في فرق الفرسان ، وتألفت منهم أيضاً فرق الفرسان الثقيلة التي تولت الهجوم بقيادة الاسكندر وجعلته يحرز جميع انتصاراته . وقد اثبتت الخبرة - أو هكذا ساد الاعتقاد اذ ذاك - ان الكتيبة لا تتغلب عليها سوى الكتيبة وان الفرسان المقدونيين لا يتغلب عليهم سوى الفرسان المقدونيين . لذلك ففي كل جيش ملكي كتيبته المقدونية وفرقه وفرسانه المقدونيون . ويجب لتأمين التفوق اما زيادة عدد الجنود في هاتين الوحدتين واما اللجوء الى الاغريق في حال عدم توفر العدد الكافي من المقدونيين . فالاغريق أيضاً ، وهم أخف تسليحاً من الهوبليت وأفضل تدريباً ، كفرسان ومشاة ، من حيث أنهم على العموم جنود محترفون ، يؤلفون وحدات ضرورية لمعاونة الوحدات المقدونية ويقدمون الفرق المتخصصة في مهام الاستكشاف والمفاجأة .

قامت المشكلة اذن في الحصول على المقدونيين والاغريق . وهي لم تواجه الاثينيون العقيمين في مقدونيا؛ ولكنها لم تحل بسهولة في الملكيات الاخرى ، فقد احتفظت هذه بكل من أمكنها الاحتفاظ به من جنود الاسكندر وجنود خلفائه المباشرين . واستمرت في اجتذاب واستقبال المهاجرين . وقد وزعت هؤلاء أفراداً أو جماعات مسكنة ايام في اراض تؤمن لهم أودهم وأود عائلاتهم . واحتفظت لهم هويتهم الأصلية ووفرت لهم كل التسهيلات كي يؤمنوا لأبنائهم التربية الجسدية والعسكرية التي تجعلهم قادرين على الخدمة العسكرية . ويبدو أن هذا النظام قد طبق في آسيا الصغرى وفي مصر على الجنود الشرقيين أيضاً ، لا سيما على «الفرن» الذين يقبل أنهم أسكنوا بعيداً عن نجد إيران قبل الفتح اليوناني ؛ ويعود لمثل هذا الاستمرار الفضل في وجود « المقدونيين » في آسيا حتى في ظل الامبراطورية الرومانية . وكان لهذه الطريقة حسناتها للملوك الهلنستيين : فهي توفر لهم الرجال دونما عناء للوحدات الذائعة الصيت في جيوش ذاك العهد . ويأتلف هذا الاستعمار العسكري بأشكاله المختلفة مع الاستعمار الزراعي الهام جداً في ملكيات غنية « بالأراضي الملكية » المفتقرة الى اليد العاملة .

بعد تقلبات الخمسين سنة التي عقب موت الاسكندر مباشرة والتي كثرت فيها الهجرة من

اليونان القديمة، وانتقلت الجيوش من قائد الى قائد ، أصبح من الصعب ، يوماً بعد يوم ، على الملوك المقيمين في الشرق تجنيد الاغريق ، ولاسيا المقدونيين تجنيداً نهائياً . أجل لم تعوزهم الحيلة – التي لجأوا اليها فعلاً ، لاسيا اللاجيون ، منذ أواخر القرن الثالث – في ان يعطوا البلديين جنسية أرفع شأنًا، سعيًا منهم ورا ، امتزاج كاذب. ولكن الحل الذي فضله هو اللجوء الى المرتزقة . وقد اتاحت تجنيدهم وسائل عديدة كالالتحاق ، بفضل دبلوماسية سخية ، مع دولة لديها المزيد من السكان ، او استئجار فرقة احد قواد المغاور ، او ارسال من يجند الرجال ، مع كثير من المال ، الى المناطق التي يكثر فيها طالبي التطوع : فقد قامت لمدة طويلة في رأس « تيناروس » جنوبي اليونان ، ثم في افسس على ساحل آسيا الصغرى ، اسواق يتجمع فيها الرجال الذين يطلبون عملاً . ويجند هؤلاء المرتزقة في وحدات خاصة اغربها ما يعرف عنه باسمها القرمي ، فلبعض الشعوب صيت او اختصاص عسكري يُرغَّب في استخدامها على الرغم من انها دون صيت واختصاص المقدونيين . فكان من الضروري ان يفهم كل جيش جنوداً كريتيين نبشالين بنوع خاص ، وفرساناً طارتيين مشهورين برشاقتهم ، على انهم اوفر عدداً من ان يكونوا كلهم من مدينة طارنتو . لا بل كان من الضروري ان يضم كل جيش وحدات بربرية من التراقيين ولاسيا من الغالاطيين ، وكان هؤلاء « كلتيين » جاؤوا من شمالي البلقان وأقاموا على مقربة من مقدونيا وفي قلب آسيا الصغرى حوالي السنة ٢٧٥ ، وقد حسب لهم جيرانهم حساباً بسبب شغبهم . ولكنهم قدموا محاربين جليلي الفائدة بصفاتهم الطبيعية واحتقارهم الموت وشغفهم اللفظ بالقتال .

ألفت جيوش الملكيات الهلينية ، بالتالي ، أجهزة كلية التعقيد . فقد اشتملت على وحدات دائمة : الحرس والحاميات ، المؤلفه من المرتزقة في أغلب الأحيان ، في الحصون الصغيرة القريبة من الحدود وحصون المدن المهمة . ولكنه يقتضي أشهر طويلة ، اذا ما لاح خطر الحرب ، لتعبئة وجمع القوى التي ستشارك في الأعمال العسكرية . فان تعبئة الجنود الفلاحين وتجهيز الفرق البلدية ، ولاسيا تجنيد وحدات جديدة من المرتزقة ، قد تتطلب سنتين أو ثلاثاً في بعض الأحيان. أضف الى ذلك ان هذه الجيوش تورث أعباء مالية مرهقة ، فتضطر كل ملكية الى تعهد ادارة مالية عسكرية ، مها قل شأنها ، ومرابض للخيول ومستودعات للذخيرة والمرائب للآليات ، وعليها أيضاً ان تعطي من محارب لأجلها أراضى وأجوراً . وهي تؤثر ، على كل حال ، في الظروف المادية ، اعطاء الاراضي على دفع الاجور ، لأنها أوفر ثروة عقارية ولأنها ترى في ذلك طريقة فضلى لأن تقيم في أراضيا رجالاً لا تتطلب تعبئتهم وقتاً طويلاً ويمكنها بعد ذلك ان تستخدم أبناءهم. ولكن مشاكل مادية خطيرة تواجهها لن يسمح لها ضعفها الداخلي والفوضى المتزايدة ، بعد فترة من الزمن ، ان تتغلب عليها .

ثم ان تفوق روما العسكري ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، سيتولد بشكل ساطع .

فتقاوم الملكية المقدونية خير مقاومة. ويعود الفضل في ذلك الى ارتفاع نسبة العنصر المقدوني الخاص في جيشها . ففي التي تعني، في اسرع وقت وبأقل كلفة جنوداً يتحلون بالصفات العسكرية . ولكن الكتيبة المقدونية نفسها التي فقدت الكثير من مرونة اشتهرت بها في عهد فيلبوس والاسكندر، وغدت على قسط كبير من الالتهك والجهود، وعجزت عن المحافظة على تلاحمها في ارض غير متساوية ، قد برهنت اذ ذلك انها اداة حرب دون الجودة الرومانية . اما الملكيات المقيمة في الشرق فليس لديها سوى عناصر مقدونية ويونانية قليلة العدد جداً . وقد أكد أحد القواد الرومان ، بالاستناد الى تأثير الارض والمناخ : « ان المقدونيين الذين يحتلون الاسكندرية في مصر وسوقية في بلاد بابل والمستعمرات الاخرى المتناثرة هنا وهناك قد انحدروا الى مستوى السورين والفارثيين والمصريين » . هنالك بعض الحقيقة وكثير من المغالاة في هذه التأكيدات المحقرة . ولنتكف نحن بالملاحظة ان الملوك اليونانيين لم يبدلوا جهداً كافياً في تنظيم المتطوعين البلديين تنظيماً عسكرياً . فبدلاً من ان يعينوا الجنود المتمازين ضباطاً ليجيش محتلت ، ابقوهم جنوداً في وحدات خاصة . وهكذا جارت سياستهم الاجتماعية كبرياء الاغريق وحرصت على استئثار سلبية الشرقيين وطفغت على سياستهم العسكرية وأدت بها الى الإخفاق .

٤ - العبادة السلافية

العبادة السلافية : هل يحدد بنا اخيراً ان نربط بالانظمة الملكية ، لا بالديانة ، العبادة السلافية اصولها التي تؤلف بالفعل واحداً من اغرب تجديدات العهد الهليني؟ لا ريب في انها تحتل هنا مكانها الافضل لانها نتيجة مثالية الانسان المتفوق الناعم برضى الإله واقرب الناس اليه، أي المثالية الملكية السائدة . ومن الجدير بالملاحظة ان العبادة السلافية لم تتسرب يوماً بشكل من الاشكال الى مقدونيا ، أي الى الملكية التي لم تتسرب اليها مثالية الانسان ، سفير العناية الإلهية، الا تسرباً نادراً وبطئاً ، لانها اصطدمت فيها بمفهوم آخر هو مفهوم الملكية القومية . فبين الملكية الشخصية والملكية القومية يكن الخلاف الحقيقي مرة اخرى .

اجل قد يستهوننا ان نبحت عن هذا الخلاف في مكان آخر اي ، عندما نلاحظ ان الملكية المقدونية قد حكمت ارضاً اوروبية، ان ننسب، الى نشأة العبادة السلافية ونموها، تأثيرات شرقية نهالمتخطت البحر الابيبي . ولكن هذا التفسير غير مقبول اذ ان ملوكاً مقدونيين عديدين يرجح كانوا موضوع عبادة في اوروبا، ولكن في اليونان لا في مقدونيا، في مدن قد تكون ارتبطت به سياسياً ولكنها غريبة عن المملكة المقدونية بالمعنى الحضري ، واذا ان العبادة السلافية ، كما مورست في الشرق نفسه ، ليس لها سابقات محلية . فالفرعون وحده ، بين كافة الملوك الشرقيين ، كان موضوع عبادة قبل الاسكندر . وقد استمرت هذه العبادة التقليدية بأقدم مظاهرها . فاعتبر اللاجيون ، شأن الفراغة ، ابناء آلهة وآلهة، ولكن لرعاياهم البلديين فقط .

ثم انتظمت في الوقت نفسه عبادة موازية جديدة في مفهومها ومظاهرها نرى عبادات اخرى مماثلة لها في الملكيات الشرقية الاخرى حيث لم يعتبر الملك من قبل اكثر من وسط بين الالهة والشعب . وهكذا فان العبادة السلالية ، التي هي العبادة الهلينية الحقيقية ، قد اشتقت من اصول يونانية بوع خاص

وقربت لها العادات اليونانية مرتكرا كافي المسانة والاتساع لتحقيق النهو الذي اجرزته . وكان هذا المرتكز معقداً على كل حال ، أو بالأحرى كثير الأجزاء . فهناك في الدرجة الأولى مثال نغامض جداً وقابل بالتالي لشتى التفسيرات هو مثال الـ *Daimōni* و *Iyche* (الحظ) والروح أو الكائن الإهني الذي يجي ويذهب ويحمي كل فرد : فعند من يستطيع هذا الجزء الصغير من الالوهة ان يظهر أعظم قوة ويجدرة بالعبادة منه عند لفاسيلس ، وهو يوفر له النجاة والسلطة ؟ وهنالك في الدرجة الثالثة عبادة الاموات التي يقوم برأبها أحفاد لم تعودم ، وبناتل في هذا المجال ، لاستمالة أصدقائهم والمعجبين بهم بغية الحصول على اشتراكهم فيها ، وهنالك أخيراً عبادة « البطل » ، ذلك الانسان العظيم الذي أتى المعجزات وانتقل بعد موته الى نجوم الآلهة ، ولاسيما البطل « المؤسس » ، مؤسس المدن بنوع خاص ، أي ذلك الذي أوجد مجموعة بشرية جديدة تعبر له ، في تادية عباقتها له ، صور فقواها توشكرها ، وتضمن في الوقت نفسه تلاحمها الداخلي ووثوق الصلة التي تشد جميع أعضائها : فهل ياترى من ابطال يفوقون الملوك الهلنيين بما آثم وتشبيد المدن الكثيرة ؟ كل ذلك قد اتحد بنعضه ببعض ، وربما بغناض اخرى أيضاً ، وأعطى المور للعبادة السلالية في كافة الملكيات المقيمة في الشرق .

جرت من قبل محاولات رضي عنها الاسكندر وشجعها لإقامة عبادة لشخصه وهو بعد في قيد الحياة ، غير أنها لم تجز على العموم نجحاً باهراً . ولكنه كان من الطبيعي ، بعيد وفاته ، ان تضعف أعظم المقارمات شدة ؛ نظراً لصفاته ومآثره التي فاقت مقاييس الطبيعة البشرية . فقامت المنافسة حول إرثه الروحي وحتى حول بقاياه الفانية . فحرب « أفينوس » رئيس ديوانه القديم ، في وسط المسكر ، الخيمة الملكية وأقام فيها مذبحاً وعرشاً وضع عليه شارات الملكية : وقد اعتبر الاسكندر مقرباً عليه بشكل غير منظور وملهماً المذاكرات الجارية بحضوره وأفطح مزمزبان مصر ، بطليموس الأول القبسل ، في ان يستولي بخدعة على رفات الاسكندر ونقله الى الدلتا . وشيد أخيراً في الاسكندرية ضريح ضخم غداً مركزاً لعبادة الاسكندر الي فرضت عبادة رسمية على كافة سكان مصر

ولكن عبادة الاسكندر ، اذا هي كانت سابقة ، لم تكن مثلاً وقيرة . ففي مصر نفسها ؛ حيث نستطيع تتبع تطور العبادة العام ، ظهرت عبادة السلالة الالاجية . ونعت دون ان ترتبط بعبادة الاسكندر .

ان وضع تاريخ هذه العبادة يذهب بنا بعيداً ويغدو بالنتيجة مستحيلاً . لا بل ان درس الأشكال التي انطوت عليها لا يمكننا أن نسير فيه الى حيث تنتمى . ولكن هنالك حقيقة راهنة أعني بها تنوع هذه الأشكال الكثيرة تنوعاً غريباً .

هنالك تنوع في غاية ممارسة العبادة . فيمكن ان تؤدي لهذا الملك الميت أو ذاك من السلالة أو لمجموع ملوكها الموتى أو للملك الذي على قيد الحياة وحده أو للملكة أو لأعضاء آخرين من الأسرة الملكية على السواء ؛ لا بل ان السرايري الملكيات أنفسهم ، وحتى غلام الملك ، قد حظوا أحياناً بمظاهر التكريم الالهي .

وهناك تنوع في العبادة نفسها . فالشخص الذي هو موضوعها قد يشرك بالالوهة التي قد تتنوع هي نفسها الى ما لا نهاية له ، ولكن التفضيل يكون ظاهراً وطبيعياً لمصلحة أفروديت عندما يكون هذا الشخص امرأة . ولكن مرحلة الاشرار هذه ، وحتى مرحلة المائة ، لا يقتصر عليها ؛ فالعبادة تؤدي الى ملك أو كما في مصر ، الى ملك وزوجته يؤلفان شخصياً ويضاف الى اسميهما الشخصيين لقب أو عدة ألقاب عبادية أو لقب « ثيوس » ، الاله ، أحياناً .

وهناك تنوع في مظاهر العبادة : معبد خاص أو مذبح فقط ؛ تمثال مزدان بجصاصات مختلفة أو موضوع في معبد إله آخر ؛ صلوات وذبايح وتقادم في مواعيد قد تكون قريبة أو بعيدة يقدمها كهنة أو قضاة من مراتب مختلفة ؛ أعياد خاصة ترافقها احتفالات ومباريات تختلف نوعاً وفخضة باختلاف الأمكنة .

ان تنوع الاشكال هذا له ما يبرره تنوع المؤمنين والحرية التي تطلقها الحكومة في مبادعات لا يمكن ان تقع منها موقع الاستقباح . ويعلم بعض الأفراد وبعض الجماعات المحدودة العدد عن تقوam بتقادم متواضعة . وتتشء المدن عبادات بلدية - وهي اكثر اشكال العبادة رواجاً - باقرار مراسم أبعد من ان تقتفي المراسم التقليدية ، ولكن ذلك لا يمنع الملوك عن الاسهام في التفقات هبات هي في الغالب لوقاف تستخدم ايراداتها لتوفير المزيد من الزهو والعظمة للاحتفالات . ويقدم الملوك أنفسهم اخيراً على بعض المبادعات ، اما اكراماً لجودهم ، واما اكراماً لأنسبائهم ، او اكراماً لأنفسهم احياناً . وهم يتصرفون في علمهم هذا تصرف الأفراد ، والفارق الوحيد هو ان لديهم وسائل دعاوة وعمل لا تتوفر للأفراد . فلهذه النقذ الذي تتداوله كافة الأيدي والذي يتقون له على هواهم الرسم والحاميسات والنصوص ، ولديهم الأراضي والموارد لتشييد المعابد ومكافأة خدامها وإقامة الأعياد . ولديهم « الاصدقاء » والموظفون الذين لا يرضون إلا بالاشترار بحماس في هذه العبادات ؛ ولو كانت عبادات خاصة هبدياً .

عند هذا الحد وقفت سلالة الاطالين ، وقد برهنت على كل حال عن ترزّن نادر في هذا المجال إذ انها ، من جهة ثانية ، لم تؤله سوى الملوك الموتى ولم تسمح بتأليه غيرهم . ولكن بعض :

الملكيات الاخرى قد ذهبت الى ابعده من ذلك لا سيما وانه ليس هنالك من حد طبيعي بين الملك في حياته الخاصة والملك في حياته العامة ، لا ولا بين املاك الملوك والملكة . فقد اضيف في مصر الى عبادة الملك كفرعون التي استمر البلديون في ممارستها ، وفاقاً لطقسهم التقليدي ، عبادات يونانية فرضت على جميع السكان وسهرت الادارة على الاحتفال بها بالغة اليونانية ووفقاً للطقس اليونانية : عبادة بطليموس الاول وعبادات سلسلة الازواج الملكيين الموتى واخيراً عبادة الزوج الملكي الذي على قيد الحياة اي الاخ والاخت المتحدن بالزواج والمشاركين في السلطة . اما في اوج سلالة السلوقيين ، في اواخر القرن الثالث ، فاننا نعرف ، بأقل تفصيل ودون جزم في استمرارها للاحق ، عبادة الجدود وعبادة الملك الحي وعبادة الملكة التي تنظمها الدولة معينة في كل مرزبانية رئيس كهنة ورئيسة كهنات . وهكذا فان اللاجيين والسلوقيين ، على الأقل ، قد اضافوا الى عبادات متنوعة جداً ، عبادة رسمية متشابهة الشكل ، شاملة ارض المملكة بكليتها ، موزعة على مقاطعات هي المقاطعات الادارية نفسها ، يخدمها كهنوت قد يشرف زواؤه على الكهنة المحليين والعبادات المحلية ، وتستأزم موجبات تقرض على عموم الرعايا . وان هذه المرحلة نتيجة منطقية للنظام السائد ، اذ مولاة السلالة تستبغ في النهاية التعبد للمالك سيداً .

العبادة السلافية : لفت بعض المعاصرين النظر الى انه ربما كان هنالك ، في بعض مظاهر التقوى منازها ورميانيا نحو الملك ، شعور ، برز بقوة عظيمة عند نشأة شعوب كثيرة ، ثم استمر أرواح الى الظهور ، في أن حيوية الملك ضمانته للخصب العام ، وبالتالي لرخاء مملكته وسكانها . وهذا أمر ممكن اذ ان الفكرة تترامى فعلاً في بعض الصيغ النادرة على كل حال . ولكن صدق هذه الصيغ موضوع شكوك مشروعة : فكيف السبيل الى اكتشاف المشاعر الصادقة حقاً في سير ادارة يرضى عنها الولاة حتى ولو لم يستخدموا سلطتهم لفرض الاشتراك فيها ؟ أضف الى ذلك ان ما يعوزنا بنوع خاص هو الصلة الضرورية بين هذه الفكرة والتأليه . فقد كان يكفي الملك ، حتى يكون ضمانته ورمزاً ، ان يكون وسيطاً دونما حاجة لأن يصبح لها ؛ ولنا في أكثر من بلاد من بلدان الشرق القديم مصداق على ذلك .

في الحقيقة ، تعبّر العبادة السلافية نظرياً عن عواطف المؤمنين لا من حيث هم رعايا بل من حيث هم بشر . وتشمل هذه العواطف الاعجاب المبهوت أمام هذا القدر من العبقرية ، وهذا القدر من السلطة في جميع الحقول ، وهذا القدر من السعادة ، وهذا القدر من الانعامات يهبها الآلهة بشرناً سفير العناية الالهية ، وعرفان الجميل للخدمات المؤداة ، والأمل الوطيد بإحسانات مقبلة أعظم شأناً أيضاً ؛ وبكلمة موجزة تشبه مثالية الفاسيلفس نفسها كما وردت في اللغة الرسمية بتسميات « المخلص » والمحسن التي ترددي قيمة عبادية في الدرجة الأولى . وهنالك لقب أقوى ايماء : فمن حيث الملك هو ال « ايفانيس » . أيضاً ، فانه إله « يتجلى » .

ومن ناحية نظرية أيضاً ، يبقى انشاء أكثر هذه العبادات واسهام المؤمنين فيها أعمالاً حرة

وبديهية : فالعواطف التي سبق تحديدها ليست من تلك التي تستطيع سلطة سياسية ان تفرضها. وكانت هذه القاعدة مطردة بإستثناء حالتين : حالة العبيد الملكيين المرغمين بالضرورة على ممارسة عبادات سيدهم الخاصة ، مع اننا نجمل ما اذا كانت سلطة هذا السيد قد امتدت اذ ذلك الى فدائي الأراضي الملكية ؛ وحالة العبادات الرسمية ، مع اننا لا نعلم شيئاً عن مدى موجباتها حيال الرعايا : فواقع الموجبات المالية نفسه لم تتحقق منه الا في مصر فقط . وان فكرة العبادة السلالية ، في الحقيقة ، تذكرنا بالعبادات البلدية العديدة التي ليس من ريب في ان انشاءها يعود الى قرار السلطات في كل مدينة ، كما يتضح ذلك من تنوع أشكالها ومن اختلاف تواريخ انشاؤها .

حري بنا ، بموازاة الناحية النظرية ، ان لا نهمل وضوح الناحية العملية ، فما لا ريب فيه ان بداية عواطف المؤمنين ، الراغبين في الاعراب عن تملقهم أو الخاضعين لضغط ليس . ضغطاً معنوياً فقط ، لم تكن في أكثر الأحيان سوى ظاهر بداهة فحسب . ويجوز القول نفسه عن بداهة عواطف المدن التي تنشأ أبداً الانعامات الملكية والتي تدرك ادراكاً مسبقاً أحياناً إجماعات المراجع العليا . وهكذا فان العبادة السلالية تعبر عملياً عن عواطف كثيرة الفارقات يتعذر علينا ان نميز بين نصيب الصدق ونصيب التملق فيها ، لا سيما وليس أمامنا سوى المستندات الرسمية التي انتقلت البنا عن طريق الكتابات .

فمن حيث ان العبادة السلالية تحمل ، بمثل هذه القوة ، طابع المثل السياسية والواقع السياسي ، فهل هي تعبر عن عاطفة دينية حقيقية يا ترى ؟ قد يكون من الحكمة ان لا ننفي ذلك نفياً باتاً . وسنعود الى هذا الموضوع في سياق البحث . ولكن الشيء الثابت هو أن الاحتفال بالعبادة قد اقتصر في أغلب الأحيان على القيام بطقوس اصطلاحية لا تعدى قيمتها قيمة الحركات الرمزية . ولعله يجدر بنا ان نفسر بذلك كيف ان اتساع العبادة السلالية ، وحتى تميمها كعبادة رسمية ، لم يصادفها مقاومة ، على ما نعلم . فان الوثنية ، التي لم تنجم حدوداً واضحة المعالم بين ما هو بشري وما يفوق قوة البشر وما هو إلهي ، قد أوجدت ، بهذا الصدد ، حقلاً مؤاتياً جداً . أجل كان هنالك شعب يؤمن بالله واحد ، هو الشعب اليهودي . ولكن السلطة قد سلكت حيله سلوكاً حكيماً ، وان هو تار على الملكية السلوقية بعد السنة ١٦٦ ، فالعبادة الملكية أبعد من أن تكون السبب الرئيسي للثورة ، لأنها لم تدخل أورشليم الا بمظاهر عيد لمناسبة ذكرى جايوس الملك ، وليس لهذه المظاهر ، بالضرورة ، أي مغزى ديني . أما في المناطق الأخرى فلم تقم أية صعوبة بوجه السلطة على الرغم من أنها كانت حرة طليقة في تصرفاتها .

اضف الى ذلك ان تادية العبادة ، سواء كانت بديهية او موصى بها او مفروضة فرضاً ، لم يكن لها ، في ما يظهر ، فعالية سياسية . ولا يعجب من ذلك إلا من ينسى ان الاغريق قد جهلوا ابدأ النظام الشيوقراطي وان آلهة مدنهم لم يتدخلوا قط في شؤون مدنهم وان اعظم هاتفي

الغيب شهرة قد اخفقوا على العموم عندما خرجوا عن تحفظهم المتحذر . ولعله من المرجح ان الملوك ، بقبولهم تعظيم هؤلاء الهاتفين او بلجوئهم اليه قد استهدفوا اعلاء شأن نفوذهم الشخصي واثاق تعلق مؤمنينهم بهم . ولكن هذه الطريقة قد بقيت دون جدوى لأنها طبقت على جميع الملوك دون استثناء ففقدت بالتالي قوتها . فالقرارات الشرعية والمظاهر المؤثرة ، مهما بلغ من امرها ، لم تجد احدًا . ولم تحل دون اقدام المؤمنين على العصيان والثورة عندما تتعرض مصالحهم للضرر او عندما تعطيهم الظروف الراهنة بعض الامل بالنجاح . ومن الامور الثابتة ان كمال تنظيم العبادة هنا او هناك لم ينجح في تأخير انحطاط أية ملكية من الملكيات .

الخصائصة

ان قدرة الاغريق على الابتكار السياسي لم تنطو إذن ، في العهد الهلنستي ، على أي دليل من أدلة النهضة ، فهم قد حاولوا انقاذ المثال الجمهوري بتنظيم الاتحادات وتوسيعها . ولكنهم ابتكروا ، مع الملكية ، أشياء جديدة تنطبق على الظروف التي نشأت عن الفتوحات .

ألتفت الملكية ، اقله في الشرق ، بين مثالية الانسان المتفوق وبين النظرية القانونية للشرعية أي نظرية الحق السلافي في التملك . وتكون هذه النظرية قاعدة متينة للسلطة المطلقة كحق إلهي وبشري معاً من جهة ، وللخلافة الوراثة التي تجتنب الفوضى وتتيح تلافى نتائج الكوارث من جهة أخرى . وانطلاقاً من هذه السلطة تكون جهاز اداري ومالي وعسكري كامل توجهته العبادة السلافية بغية ضمان تنفيذ قرارات الملك وجمع القوى المادية والأدبية في أراضيه بين يديه ، وهو جهاز على قليل أو كثير من التعقيد لأنه يأخذ بعين الاعتبار الظروف المحلية ، ولكنه يقرب من الكمال أحياناً . وفي الحقيقة برهنت العبقرية اليونانية ، في الملكيات ، عن امكانيات عقلية وتقنية فائقة .

غير ان الملكيات كلها قد أخفقت . وقد بدأ الانحطاط يدب فيها جميعاً في أوائل القرن الثاني كأبعد حد ، وبرز مادياً في عجزها عن مقاومة قوة روما . فكان أمر زوالها المبكر منوطاً بروما دون غيرها : ولم تضمن هذه أو تلك من الملكيات بقاء أطول الأفضل تزدادات روما فحسب . ولكن هذا الانحطاط يبرز أيضاً في حقول أخرى من التنظيم الملكي .

يجب الاعتراف هنا بأن الاغريق قد أخذوا على عاتقهم ، بسبب قلة عددهم ، وفي وجه الكتل البشرية التي كان من الواجب عليهم تحريكها وتطويرها ، مهمة ثقيلة جداً ، لا سيما على الصعيد الاجتماعي .

الرئيس الثالث

الاقتصاديات والمجتمعات

لم تكن ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية دون ظروف الحياة السياسية تغيراً ، وإنما الجدة الكبرى هنا هي توسيع النطاق الجغرافي المفتوح أمام مشاريع الاغريق والاتصال الذي أقيم ، للمرة الأولى في التاريخ ، وبهذا القدر من التألف ، بين اقتصاديات ومجتمعات مختلفة في الأصل اختلافاً كلياً . هذه هي النتيجة المباشرة لفتح الامبراطورية الفارسية على يد الاسكندر ، وقد أبقى عليها ، في جوهرها ، طيلة قرون عديدة ؛ خلفاء الفاتح . وقد شبه بعضهم حملة الاسكندر باكتشاف أمريكا الذي كان منطلقاً للأزمة الحديثة . ولكن في هذا التشبيه بعض المغالاة ، لأن الامبراطورية الفارسية لم تكن « أرضاً مجهولة » للاغريق قبل ان يمسا أسياها . غير أن المقارنة بين الحديين أمر ممكن من حيث اتساع نتائجها وديمومتها في بعض النقاط .

١ - العالمان

فقد أصبح هنالك عالمان متشاركان بفعل تفوق أحدهما العسكري . وقد اختلف اليونان القديمة وضعها وحاجاتها الخاصة اختلافاً شديداً .

في العالم اليوناني القديم ، ظهرت بوادر الهبوط على الحياة الاقتصادية منذ منتصف القرن الرابع ، او اقله لم يعد هناك التام خالص بين المجتمع وبين التطور الاقتصادي . فقد صعب على صغار الملاكين ، يوماً بعد يوم ، ان يؤمنوا معيشتهم بتعاطيهم شخصياً زراعة أراضيهم الريفية . وغدت المنافسة بين المدن الصناعية أشدّ عنفاً ، بينما غدت الطلبات الخارجية نادرة ، على اثر ظهور صناعات محلية ، لا سيما صناعة الخزفيات ، في ايطاليا وخلقيس وفي روسيا الجنوبية نفسها . وجاءت الحروب الخارجية او الأهلية ، الى جانب ذلك ، تزيد البؤس وتساعد على ازدياد الارتباك : فارتفعت ارقعاً تصاعدياً نسبة السكان الاحرار في اليونان القديمة الذين لم يؤمنوا بعد ذلك في وطنهم معيشتهم ومعيشة عائلاتهم ، فأرغوا على المخاطرة بحياتهم في خدمة دول اجنبية

قد تكون أحياناً في عداد اعداء الاغريق . فلم يكن لهذه الازمة من حل سوى عن طريق ثورة اجتماعية او عن طريق العودة الى الاستعمار الذي توقف منذ قرنين . فجاءت السيطرة المقدونية على المدن التي مزقتها المنازعات الداخلية تسدّ المسافد أمام الثورة الاجتماعية . ولكن حملة الاسكندر فتحت الشرق أمام الهجرة اليونانية .

اختلف هذا الشرق اختلافاً لا حدود له .

الشرق

قامت فيه اراض بالغة الحصب استثمرتها منذ زمن بعيد استثمراً جيداً جاهير مجتهدة نشيطة اعتادت العمل الدليل تنفيذاً لأوامر السيد : هذه الأراضي هي مصر وبلاد بابل ، درنا الفتح الفريديتان . وقامت فيه مناطق اخرى اقل خصباً لزراعة الحبوب اعتمدت فيها جزئياً زراعة افضل تلاؤماً مع المناخ وضعف الموارد المائية وموجبة شطر زراعة الاشجار المثمرة ، الكرمة وشجرة الزيتون بنوع خاص : كالشواطىء المتوسطة في آسيا الصغرى وسوريا - فيبقيا مثلاً . اما في واحات سوريا وفي بلاد الفرس ومنطقة البختيار التي لا نعرف عنها الشيء الكثير ، فاننا نعتقد على الاقل باستخدام مياه الينابيع والآبار فيها استخداماً دقيقاً لزراعة البقول والحضر . ولكن ما زالت ، بين هذه المناطق الزراعية المتطورة الى حد بعيد ، مساحات شاسعة بقيت الحياة الريفية فيها بدائية جداً غير مختلفة احياناً عن المظاهر الراعية والبدوية .

ونشاهد التناقض نفسه بصدد الإنتاج الصناعي . فكانت هنالك يد عاملة واسعة الاختبار لديها تقنيات ابعد تقدماً احياناً من تقنيات الاغريق تعمل في حوانيت المدن وحتى في المصانع الملحقة بالمعابد حيث الاشغال خدمية بنوع خاص . ولكن القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية ما زال في مرحلة العمل غير المتقن بغيره سدّ حاجات العائلة أو القرية .

وتوفرت للتجارة بعض الطرقات لسير القوافل والوحدة اللغوية التي تحققت في هذا الحقل كما في الإدارة لمصلحة اللغة الآرامية . ومن الثابت ان التجارة قد انصفت ، هنا او هناك ، ببعض النشاط ، لا سيما في جوار البحر المتوسط ، على الرغم من ان المرافىء اليونانية في آسيا الصغرى والمرافىء الفينيقية قد فقدت الكثير من ازدهارها الماضي . ولكن مناطق واسعة لم تزال تعتمد في معيشتها اقتصاداً شبه مغلق ، منكشة على نفسها ، جاهلة النقد تقريباً . وكانت المعادن الثمينة متوفرة في كل مكان ، باستثناء الفضة في مصر . وقد ضرب الملك والمرابزة الفرس نقوداً ، وبعض المدن التجارية ايضاً ، ولكن بكميات غير كافية . وكثيراً ما لجأوا الى تخزين المعادن الثمينة بشكل سبائك في حصون العواصم وبشكل مصوغات في القصور ومسكن الاثرياء والمعابد التي 'سقف بعضها' بقراميد من الفضة والذهب . وعلى الرغم من النقود اليونانية ، لا سيما الاثينية منها ، التي انتشرت في بعض الاحيان بعيداً في الداخل ، كان الاقتصاد النقدي ابعد من ان يجرى الانتصار في كل مكان ويبرز اثره في إنماء اشكال تبادل غير المقايضة الأولية .

ويمكن القول نفسه عن التفاوت الاجتماعي في البلدان التي احتلها الاسكندر . فكانت آسيا

الصغرى الغربية وسوريا وفينيقيا ومصر وبلاد بابل مناطق عرفت فيها الحياة الحضرية ، وهي على العموم قديمة جداً ، نهضة لأمعة أحياناً . غير ان هذه الحياة كانت في هبوط في كل مكاتب تقريباً . اضيف الى ذلك انها لم تبد في كل مكان بمظهرها في اليونان . فالطبقة الكهنوتية قد لعبت فيها دوراً اعظم اهمة ولم تسيطر عليها قط فكرة وحدة المصالح بين المواطنين المتساوين حتى ولا مجرد فكرة المواطن . وقد خضع القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية خصوصاً لنظام اجتماعي آخر . فالناس توزعوا فيها اجهزة ثيوقراطية مرتبطة بالمعابد ابي بكنهتهم وحتى برؤساء كهنتهم ، او قبائل تخضع لرياسات شبه اقطاعية تشمل ذوي الاخذات والزعماء وقتلهم عند القعة بشخص الملك . وارتسدت الفدادية اشكالا مختلفة ، حتى العبودية احياناً في جوار المعابد ، وكانت عملياً نظاماً لكتل عمالية كثيرة ، كما كانت ، في كل مكان تقريباً ، نظاماً للفلاحين المحققين بالأراضي التي يستثمرونها بمراقبة الوكلاء . وقد شبه اغريق القرن الرابع « البرابرة » بفدادي مدينة سبارطة ، وهم لم يأتوا بهذا التشبيه عملاً اعتبارياً .

شركة ام استثمار ؟ كان العالمان مختلفين إذن . فهل كانا متكاملين يا ترى ؟ يمكننا اثبات ذلك لحاجات الاغريق . فان اراضي واسعة الارحاء قد توفرت لشاطهم وهجرتهم واستعمارهم وتقنيتهم الزراعية والتجارية والهندسية والادارية . وكانت اليونان بحاجة الى الشرق لتأمين بقائها بكل ما في كلمة « الحاجة » من معنى مادي . ومهما كان من قلة عدد مرشديها الذين وعوا ذلك ، فانها قد شعرت شعوراً غامضاً بهذه الضرورة وانتهزت الفرصة السالحة . فما القول عن الشرق اذن ؟ انه لدن قابل للمعالجة غني بإمكانات التطور . يقدم اراضيه وموارده الطبيعية ، وهو بحاجة لمرشدين كي يحسن استثمارها واستخدامها . ويقدم طاقاته البشرية ايضاً . ولكن الخيار الذي سيتوقف عليه المستقبل يجب ان يتم عند نقطة الانطلاق . باستطاعة الاسياد الجدد ان يسيروا بهذه الطاقات البشرية شطر تطور مماثل لذلك الذي سبق لجودهم اليونانيين ان قطعوا مراحلها ، بغية اشراكها في الانتفاع بالخيرات البادية التي سيكثرها الجهد المشترك . واستطاعتهم ، على نقيض ذلك ، ان يحاولوا حصر البلبلة الاجتماعية بالاحتفاظ لانفسهم بفوائد استثمار اقتصادي اقل شهولاً لانه يرتكز على عمل يد عاملة متدنية ، ولكنه يكفي لسد حاجاتهم الحالية الملحة .

ان التجربة الهلنسية ، التي كان من شأنها ان تؤدي الى نتائج تفوق أهميتها كل تصور ، قد اضرارها تردد الاغريق أو أنانيتهم . فبمقدار رؤيتهم للحلثن واختيارهم بينها اختياراً واعياً - ولم يحدث ذلك باستمرار - قد اختاروا بالفضل الحل الثاني الذي كان يجد من نشاطهم . ولا ريب في ان الاسكندر كان اثر الحل الأول ، كما يبدو ذلك من الميول التي يتم عنها سلوكه الشخصي وأعماله السياسية حبال البلديين . ولكن العدد الأكبر من مراقبيه لم يخفوا استنكارهم ، فكان الامل ، بعد وفاته ، نصيب بمحاولاته الامتراجية . ولم تعمد هذه المحاولات الى الظهور الا في عهد متأخر ، تحت ضغط الظروف ، ودون هدف معين اجمالاً ، ولكنها لم تجر ، على كل

حال ، على النطاق الواسع الذي كان من الواجب ان يفرضه عدم توازن الظروف الجغرافية والبشرية . وهكذا فان الاغريق قد ألزموا أنفسهم بعمل يتجاوز حدود طاقتهم ، لأنهم آثروا ، اعتداداً بتفوقهم ، الاستثمار على الشركة .

٢ - الاقتصاد والمجتمع في اليونان القديمة

لم تحن اليونان القديمة فائدة طويلة الأمد من استثمار الشرق هذا .

١ - التطور الاقتصادي

انصهرت اليونان منذئذ في وحدة اقتصادية أعظم اتساعاً ، الى حد بعيد ، منها في السابق . وحدثت المسافات وصعوبات النقل البري من مدى هذه الوحدة نحو الشرق . ولكن هذه الوحدة تضم مع ذلك ، بأقل تقدير ، المتوسط الشرقي بأكليته - مع بعض التمديدات نحو صقليا وقرطاجة ، وحتى نوميديا ماسينيسا - حيث تسهل المواصلات البحرية وحيث نستطيع التأكد من مطابقة التطور في الأسعار . فالعالم اليوناني القديم يتأثر اذن بمنافسة بلدان ان لم تكن « جديدة » فان الطبيعة كانت لها أكثر سخاء على الأقل وتوفرت لها ، على كل حال ، يد عاملة ألفت مستوى حياتيا متديناً .

وبث الاقتصاد اليوناني في البداية وثبة قوية . فالحرب نفسها التي تفرقت البحيرة الأولى نسبياً آنذاك باليونان وعانت فساداً في البلدان الأخرى ، وحاجات الجيوش المتنقلة ، التي تستهلك كثيراً ، والاضطراب وحتى الشلل التام أحياناً اللذان يصاب بهما الانتاج وتيارات المبادلات العادية ، كل ذلك ساعد على عودة الازدهار الى حين . وارتفعت أسعار كافة الحاصلات الزراعية والصناعية بسبب تضاؤل العرض وازدياد الطلب ونحو التداول النقدي بفضل ضرب المعادن الثمينة التي كانت تكمن في الشرق قبل ذاك العهد . أجل طرأت على الأسعار تقلبات كبيرة ومفاجئة . فكان لنشاط بعض المضاربين أثره أحياناً : من ذلك أن مرزبان مصر كليومينوس قد احتكر في أيام الاسكندر القمح المصري الممد للتصدير فأسهم بذلك في رفع أسعاره في جميع حوض بحر ايجيه بغية تحقيق أرباح طائلة . ولكن هذه المضاربات لم تكن سوى ظروف عارضة أظهرت اتجاهاً عاماً نحو رفع الأسعار . ومن حيث أن اليونان تستورد القمح ، فانها قد تضررت من هذا القبيل وشكت من القحط . ولكن ذلك ليس بالنسبة اليها سوى الوجه الثاني المحتمل لوضع جزيل النفع على العموم . فهي تجدد وتنتج لمستهلكين أوفر عدداً لا يعوزهم المال . أضف الى ذلك ان مبيعاتها وعودة الجنود والمهاجرين اليها تنقل اليها قسماً من ثروات الشرق ، فتحصل من ثم على رؤوس أموال يساعد توفرها على انماء حركة الانتاج .

لذلك عرفت عهداً من البجوحة . ولكن هذا العهد لا يدوم عملياً الى ما بعد السنة ٢٨٠ ، أي الى ما بعد استقرار العالم الهليني . فحوالي هذا التاريخ قام توازن اقتصادي جديد وطابق الانتاج الحاجات وانتظمت التيارات التجارية . وان اليونان القديمة ، التي لم تضمحل الحروب فيها بل تعددت وغدت أشد قسوة ، لم تستمر بعدئذ المستفيدة الأولى ، عن طريق الرجال الذين غادروها ، من العالم الشرقي الذي فتحه الاسكندر أمام مشارعها .

منذ السنة ٢٨٠ تقريباً تدنت الأسعار ، وقد دام هذا التدني حوالي ثلاثين سنة ، أقله للنتوجات الزراعية التي ترتدي وحدها صفة الديمومة بطبيعتها ونوعها ، والتي يمكن بالتالي مقارنة أسعارها . وبعد منتصف القرن الثالث ارتفعت بعض الأسعار مرة أخرى . ولكن القسم الأكبر منها لم يطرأ عليه أي تغيير وبقي متدنياً . غير أن اليونان ، في كلا الحالين ، لم تستفد قط .

مزاحة الزراعة والصناعة المتدني الذي بلغته حينئذ من الزمن ، وهي بالضبط ما تفتقر اليه اليونان . وليس لدى الريفيين منها سوى كميات فائضة قليلة للبيع . لذلك فان ارتفاع الأسعار لم يؤمن لهم الثروة بينما هو أضر بسكان المدن . فبرزت مشكلة التموين في مدن عديدة بشكل مستعص حاد . فاستند أمر حلها أو بالأحرى تخفيفها الى بعض القضاة وأثرياء المواطنين الذين تعهدوا ادارة أموال خاصة كثيراً ما تغذيها الأكتنابات وسعوا وراء زيادة الاستيراد وتنظيمه محاولين تأمين المواد الضرورية للأسواق وبيعها بأسعار معقولة للفقراء . وقد لجأ بعض الملاك الراغبين في اجتذاب احدى المدن اليهم الى اهدائها شحنات من الحبوب أو الى توفيرها لها بأثمان منخفضة ، لأن السخاء سلاح من اسلحة دبلوماسيتهم . ولكن مها كان من أرابة رجال الدولة اليونانيين ، فانها لم تقض على المشكلة التي تصحح مقضه عند اقل تغير مناخي أو اقل حدث عسكري . وقد اشتكى سكان مدن عديدة من غلاء الغذاء الرئيسي ومن الفاقة أحياناً . وقد جاء على لسان احد الهزليين في اواخر القرن الرابع قوله ان الناس الجائعين في اثينا يتعدون املاً وهواء عليلاً .

مقابل هذا القحط في انتاج القمح ، اثبتت تربة اليونان جودتها لزراعة الاشجار المثمرة ، واهما آئنذ ، كما في السابق ، الكرمة وشجرة الزيتون . ولكن الزيت لم يرتفع سعره عملياً بعد السنة ٢٥٠ ، واذا ما بدا بعض الارتفاع في سعر النبيذ ، وهو ارتفاع ممتدل على كل حال ، فهو لم يتناول نيدياً تنتجه اليونان القديمة . ومرد ذلك الى ان زراعة هذه الشجيرات او النباتات الزيتية السنوية ، كالسمسم مثلاً ، قد نمت نمواً كبيراً ايضاً وانتقلت في البلدان الشرقية . وثبتت النصوص النادرة التي لدينا مييزات طرائق الاستثمار الريفي المعتمدة في اليونان الاوروبية او في الجزر . بيد ان ذلك لا يعني ان طبقة صغار الملاكين لا تتعنى ، ولا يوفر لها دخلاً كافياً من اراضيها ،

ولا يحول دون اضطرابها للاستفادة ورهن ممتلكاتها ، أي ان الاثرياء بكلمة موجزة ، قد استطاعوا على حسابها توسيع اراضيهم . فتحسين التقنيات واللجوء المتزايد الى استخدام العلف الاصطناعي خلال سني استراحة الارض وتقدم تربية المواشي التي توفر مزيداً من اللحوم والاسمدة في آن واحد ، كل ذلك عاد امره للملاكين الميسورين المستعيرين ذوي رؤوس الاموال . اما الباقون فقد نهكوا انفسهم في الاحتذاء بهم .

ولم تكن الصناعة اوسع ازدهاراً .

فالاتقادات القديمة لا تزال مهيمنة والطبقات الاجتماعية العليا لا تزال قليلة الاكثارات بها . غير ان هنالك ظروفًا كثيرة مؤاتية لها . فرؤوس الاموال متوفرة . والشرق يجاهره الغفيرة ، مها كان من قديمي مستواها الحياتي ، سوق تجارية لا تحد حاجاتها . ويكفي لتأمين هذه الحاجات بأسعار تستحيل معها المنافسة ان تحسن وتستخدم ، بشكل آلات ، التطبيقات العملية التي توصل العلم اليها حينذاك . ولكن الاغريق لم يسلكوا هذا السبيل . فبقيت الصناعة صناعة يدوية : لا بل اننا لا نعرف ، في بلاد اليونان آنذاك ، مصانع يدوية يبلغ عمالها المائة والعشرون كما سبق ورأينا في معمل والد ليزياس .

ليس عجيبياً من ثم ان تتحمل الصناعة اليونانية ، شأن الزراعة ، بصعوبة ، منافسة الشرق . فقد توصل الشرق الى ان يكفي نفسه بزيادة وتحسين انتاجه الخاص . فأقفلت السوق التي بدا وكأنه فتحها . لا بل انه توقع الى ان يصدر الى اليونان بعض مصنوعات النخفخة التي توفرت له خاماتها او حصل عليها بسهولة . فاستحال الصراع ، او بالآخرى مجرد البقاء ، ما لم يسلمهم الاغريق بعض التضحيات في الارباح المعتبرة ومشروعة حتى ذلك العهد ، أي ان حالة الصناعي او العامل الجرد قد تدنت وكادت لا تفضل حالة العامل العبد .

تطور التجارة أما التجارة فما من ريب في انها نمت نمواً عظيماً اذا ما نظرنا الى مجموع المتوسط الشرقي الذي تجتازه مبادلات لم يعرف لها من قبل مثيلاً ، من حيث النشاط والانتاسع . ومن ناقل القول ان هذه المبادلات لم يجر كلها خارج شبه الجزيرة اليونانية .

نلاحظ بالفعل ، في اليونان ، فقدان مركزية التجارة البحرية التي نزع مرفأ البيرة من قبل الى اجتذابها اليه . فقد دبت الحياة في مرفأء صغيرة عديدة اقتصر نشاطها في السابق على المساحة المحلية فنجمت في اقامة العلاقات المباشرة مع البلدان النائية . غير ان تجارة اليونان قد هبطت من حيث قيمتها المطلقة وقيمتها النسبية . وبعدت عنها الطرق الرئيسية للتجارة البحرية . فانخرقت نحو الجنوب بسبب الأهمية الاقتصادية التي أحرزتها مصر ، وازداد عددها بفضل بروز نشاط المدن اليونانية في آسيا الصغرى ، ولم تتجه بعد ذلك نحو ما كان ، بمفالطة جغرافية ، بمثابة القلب لبحر إيجه ، فتلاقت منذئذ ، بشكل أقرب الى المنطق ، في جزر السينكلاد نفسها .

كان من شأن فقدان المركزية وانحراف الطرق ان سبباً ، مجتمعين ، تأخر اثنيان . وهذا

التاخر واقع لا ريب فيه . فقد أتى مسافر تجول في أنحاء اليونان الوسطى في القرن الثالث على ذكر بعض المرافئ الصغيرة دون ان يخص مرفاً البيره بكلمة واحدة وأشار الى وجود أجانب كثيرين في اثينا ولكنهم من السائحين والطلبة . أجل بدت الحركة المرفئية والتجارية وكأنها تتجدد في القرن اللاحق . فعاد الازدهار الى اثينا كما يتضح ذلك من ضرب النقود الوفيرة التي اشتهرت « بالطرز الجديد » لأن رسم « اثينا » فيها قد فقد طابعه التقليدي القديم . وصدر مرسوم عن الجمعية المدلفية يقضي بأن تقبل ، في كل مكان ودون مضاربة ، النقود الاثينية من قطع الدرهم الاولى . ولكن هذه النهضة في مدينة كانت العاصمة الاقتصادية للعالم اليوناني الكلاسيكي قد بقيت محدودة : فالنقود الاثينية التي انتشرت في الشرق انتشاراً واسعاً في عهد الاسكندر لم تشاهد فيه عملياً بعد ذلك .

وحلت مرافئ أخرى آنذاك محل مرفاً البيره .

فهناك أولاً رودس ذات الموقع الممتاز ، جنوبي البحر الابيحي ، على طريق ، هي محور حوض المتوسط الشرقي ، تبدأ من البحر الأسود شمالاً وتنتهي الى سوريا ومصر جنوباً . وقد اتضحت اهميتها منذ اواخر القرن الرابع بعد ان كانت وضعية في اول امرها . فصدّرت الزيت والتبنيذ في القوارير الرودية التي اكتشفت حتى في نجد ايران وفي قرطاجة . وجمعت في مستودعاتها بنوع خاص منتوجات كافة أنحاء العالم المتوسطي التي قوت هي توزيعها . فأنتجت لها الأرباح التي جنتها الدولة والأفراد ، على غرار اثينا في القرنين الخامس والرابع ، ان تشيد الأبنية الفخيمة — ومنها « الجبار » الشهير الذي هو تمثال لإله المدينة « هيلوس » اي الشمس — وتمهد اسطولاً حربيّاً يحسب له اعظم الملوك حساباً ، وتفرض سيطرتها على بعض الرعايا في المناطق الآسيوية المجاورة لجزيرتها ، وتبسط نفوذها على مدن كاريا واربونيا .

ويعد رودس بزمن ، تأتي ديلوس في المرتبة الأولى . فديلوس هذه جزيرة صغيرة تعجز عن التوصل بنفسها الى القوة المادية . ولكنها جزيرة قائمة في قلب اربخيل السيكلاذ ، وخصوصاً جزيرة مقدسة ساد الاعتقاد بأن البضائع ورووس الأموال تكون فيها بأمن من اعمال القرصنة والحرب . خضعت فيما مضى الى حماية اثينا ثم حصلت على الاستقلال بانعام من احد القواد في اواخر القرن الرابع ، ثم عادت الى الخطيرة الاثينية في السنة ١٦٧ بانعام من روما ، فعدت اذ ذاك ، بنوع خاص ، مركزاً تجارياً هاماً لأن روما جعلت منها في الوقت نفسه مرفاً حراً . منذ ذاك التاريخ قوافد اليها التجار من كل البلدان ، لا سبياً الآسيويين والمصريين والاطاليون . وقد اعتمدها الايطاليون الأقوياء سوقاً رئيسية لهم في الشرق . وهم لم يبيعوا فيها بضائع كثيرة ولكنهم وظفوا رؤوس اموالهم واشتروا فيها المواد والمصنوعات التي كانوا يصدرونها الى الغرب . وكانت ديلوس ، على الاخص ، سوقاً كبيرة للرق ، قد يباع فيها ١٠٠٠٠٠ عبد في اليوم كما يثبت ذلك سترابون ؟ وقد اجبر منها ، نحو مصائر جديدة وبائسة ، عدد كبير جداً من العبيد

اليونانيين - أسرى الحروب وأسرى القراصنة - والشرقيين الذين كانوا جماهير الفدائيين في صقليا وإيطاليا .

يتضح من ذلك ان النشاط التجاري المستمر او المستعاد في اليونان البلقانية والبحرية تزداد سيطرة روما عليه يوماً بعد يوم . ومرد يقظة ازدهار اثينا في القرن الثاني الى رضى روما بنوع خاص التي لم تكن لتخشى بعد مدينة عديمة القوة تعيد لها ديوس فتجعل هي منها قاعدة لعملياتها المالية في الشرق . وانما جرى كل ذلك ضد رودس التي ارادت روما الاقتصاص منها لأنها لم تثق بأمانتها السياسية . وقد حاول موفد رودسي ، بعد انشاء مرفأ رودس الحر بزم قليل ، ان يثير الشفقة في المجلس الروماني باعلانه ان دخل الجمارك السنوي قد هبط من مليون درهم الى ١٥٠.٠٠٠ . اجل ليس من ريب في ان هذه الارقام مغالى فيها . ولكن مهما يكن من الامر ، فان تقهقر رودس قد سار سيراً مطرداً . وقد انتهى نشاط روما الى النتيجة نفسها في كل مكان آخر ، وفاقاً لكيفيات مختلفة وفي تواريخ على كثير او قليل من الوضوح وبصورة مباشرة او غير مباشرة . فان كورنثوس ، التي يبدو انها حافظت على نشاطها حتى ذلك التاريخ ، قد نهبا ودمرها الجيش الروماني المنتصر ، في السنة ١٤٦ ، ولن تستيقظ قبل قيصر . وفي اوائل القرن الاول ، دمرت ديوس واثينا ايضاً : الاولى تدميراً كاملاً لن تنهض بعده ، على يد انصار ميثريديا الذين أرووا فيها غليل حقدهم على الرومان ؛ والثانية تدميراً جزئياً بسيطاً على يد سيللا الذي عاقبها بذلك على مناصرتها ملك البونت .

أكمل التطور الاقتصادي دورته حينذاك : فلم تبع اليونان القديمة الى الاجانب سوى دروس أساتذتها في الفلسفة والبيان والروائع الاصلية لفنھالسالف أو نسخاً عنها ؛ وليست اثينا ورودس بعد ذلك سوى مدن جامعات ومناحف ؛ وانجرت الاسكندرية والمرافئ الآسيوية مباشرة مع روما .

٢ - الطبقات الاجتماعية

كان لهذه الظروف الاقتصادية ، بالضرورة ، ردة فعل على المجتمع اليوناني . طبقة ذري اليسار في المدن اليونانية ففي كل مكان تقريباً بدا زور اليسار باعداد اكبر منها في العهد السابق . وقد شدد المؤرخ الكبير ميخائيل روستوفتريف (Rostovtzeff) ، بحق ، على نحو ما اسمها بكلمة « بورجوازية » الفرنسية . وان هذا التعبير لأفضل في الحقيقة من « الطبقة الوسطى » لأن تركيبها الاشتقاقي يلفت النظر ، على الاقل ، الى الصيغة المدنية و « التمذنة » يجمع ما لهذه الكلمة من معان - التي يصطبغ بها اولئك الذين تعنيهم . وسنشهد هذه البورجوازية في مدن الملكيات الشرقية حيث يؤلف وجودها وتحقيقاتها وقائع قد تكون أبعد تأثيراً . ولكنها تبرز وتتمو ايضاً في المدن اليونانية القديمة .

يجب ان لا نتكلم بصدها عن الثروات الكبيرة . فلم تتكون اذ ذلك ، كما لم تتكون من قبل ،

ثروات طائلة ، و « النباب » المتمولون موجودون في غير مكان ، أي في الشرق . وقد أوضح « بوليب » ان اعظم اغريق اليونان ثروة ، في اوائل القرن الثاني يملك ٢٠٠٠ مقال (٢٠٠٠٠٠) فرنك في السنة (١٩١٤) اي بالضبط ما ملكه كاليباس اغني أثيني في القرن الخامس . وتتميز هذه الطبقة ببسار كريم يسمح للشخص بان يعيش وتعيش معه عائلته ، وفاقاً لتواعد الاعتدال ، دون فخفة صاخبة ، ودون اهتمام كبير للاعمال ، مع بعض العبيد البيتين الذين يؤمنون أعمال المنزل .

فما هو في الاصل مصدر هذا اليسار يا ترى؟ لا نعلم ذلك بزيد من التفاصيل ، وليس باستطاعتنا سوى الاعتقاد بكاسب تجارية ، وبنشاط مثمر ، عام او خاص ، في الشرق احياناً . فقد خلقت مهزلة ذاك العهد مثلاً جعلته موضوع تهكم هو مثال المتظاهر بالشجاعة أو بالاحرى قائد الجنود المأجورين الذي يتباهى بارباحه الضخمة في خدمة الملوك : انه انتقام البورجوازيين ، البشري ، من ضباط ضاجين متعجرفين يخدمون في الحامية الملكية المقيمة في حصن المدينة . ولكن هذا الانتقام يحمل على الظن أنه اذا كان لأحدهم جد من أمثال « بيرغوبولينقوس » ، « المنتصر على مدينة حصنة » ، فانه يسهل ولا يأتي على ذكره . ولا يشار كذلك الى جد طيب أو محام أو استاذ ؛ ويغلب على الاعتقاد ان هذه المهن الحرّة ، مع انها اسمى اعتباراً من ذي قبل ، لا تؤمن ، إلا بصورة استثنائية ، ثروة كافية للسوء بالعائلة الى المجتمع الراقي . غير انه من الواضح ان الازدهار الاقتصادي في اوائل العهد ، ودخول رؤوس الاموال الشرقية المستلبة أو المضروبة الى اليونان ، والخدمة في الادارات والجيش الملكية ، كانت الاسباب الرئيسية لنمو البورجوازية اليونانية . وحين نصبت موارد الاثراء ، كان المهم الجوهرى قد تحقق ، فتمكن الاغريق حينذاك من قصر عملهم على الانتفاع بفائدة أموالهم . وقد تم ذلك بان وظفوا معظم رؤوس أموالهم في المشاريع الزراعية وقسماً ضئيلاً منها فقط في المشاريع التجارية . فعاشت البورجوازية في اغلب الاحيان من المداخل العقارية ، اما بتأجير اراضيها واما باستئجارها مباشرة .

ولم يرتفع قط ، في الحقيقة ، عدد افراد هذه الطبقة المدورة الذين عاشوا في الريف . فالمدنية هي محل اقامتهم العادي . وهم الذين اداروا في الواقع شؤون المدينة حيث غدا المواطنين الفقراء لا يلعبون سوى دور عرضي . ومرد هذا التطور السياسي الى إلغاء التعويضات في كل مكان حتى في اثينا ؛ فقد امسى مجرد اسمها مجداراً ، او رمزاً ، كما يقول الكاتب « بوليب » في القرن الثاني ، لفوضى الحكم الجامحة . وقد قابل هذا التطور ، بالضرورة ، شيء آخر : فقد توجب على الحكام ان يدهنوا عن سخائمهم ، ويكتبوا للقروض البلدية ، ويقدموا ، على الاقل ، سلفات لمخصصات التموين بالحبوب ، ويتحملوا ، عن طريق الخدمات العامة كما في العهد السابق ، او عن طريق الهبات ، اعباء بعض النفقات الجماعية . ولكن كيف لا نشك شكاً على الاقل ، كما تجبئ لنا ذلك بعض النصوص ؛ في ان ادارة المدينة ، وخصوصاً ادارة املاكها العقارية ، قد تفر

الارباح احياناً بفضل التلزمات الموافقة ؟

من الطبيعي والحالة هذه ان يكون هنالك مثال يورجوازي معين وان
المثل الوردجوازي الأعلى : يكون له اثره في كل مكان . فالطبقة اليسورة نزعته الى سعة العيش
المدينة والبيت وفاخرت بمدنتها في آن واحد .

تبدلت المدن مادياً . فانتشر البناء في كل مكان : الحصون المتقنة والمعابد والمسارح والملاعب
ومحلات الرياضة والاروقة وغيرها . وفي كل مكان اعيد الاحتفال بالاعباد القديمة وقررت
اعباد اخرى جديدة : الولايم العمومية ، المباريات ، الالعب ، التمثيليات المسرحية . وعرفت
هذه الاخيرة ، بنوع خاص ، شهرة ورواجاً يفسران شمول بناء المسارح وتنظيم فرق من الممثلين
لمتهمين والمتفليين اعني بها الاخويات المنتسبة الى ديونيسوس . وغالباً ما اقتصرت الفكرة
الدينية الاصلية على مجرد حجة . واهتمت المدن اهتماماً كبيراً في الواقع بمنافسة بعضها البعض
بنسخها والألهي التي ترفه بها عن حياة مواطنيها . فأصبح مثال اثينا القديم مثلاً مشتركاً عاماً .

وهكذا فان الملوك الهلندين لم تعوزهم الظروف لاطهار سخائم الذي ينطوي في الوقت
نفسه ، من جهة اخرى ، على غاية دبلوماسية وعسكرية . فأسهوا بنفقات كل هذا البذخ .
واسهموا بهباتهم المالية او الفنية في تشييد الابنية حتى ولو لم يتولوا وحدهم الاتفاق عليها .
وقدموا الزيت لمحلات الرياضة حيث يستهلكه الفتيان بكيات كبيرة للاعتناء بأجسامهم .
واسوا اوقافاً تقوية او علمانية خصصت عائداً لشتى المشاريع . وقد اخذ « بوليب » على
المدن انها امتهنت كرامتها بتأدية واجب الشكر لهم عن طريق المراسم التقرظية واقامة التائيل
وحتى التكريم « الألهي » احياناً . وهذا مظهر غير نادر لتجاوب اثرنا اليه اكثر من مرة ،
بين « الانعامات » و « عرفان الجليل » .

ولكن هذا الاسهام الخارجي ابعدهم من ان يكفي . فالنفقات الرئيسية مطلوبة من موازونات
الجماعات التي تصاب بالأرهاق والتي لا تبقى متاعبها دون انعكاس على الشؤون العسكرية
والسياسية . فيتوجب على المواطنين الأغنياء القيام بتضحيات مالية تكافؤ ، شأن تضحيات
الملوك ، بالمراسم التكريمية . وهم يقومون بها بداعي التفاني المخلص والمجد الباطل . وتترايد
الاقواف المختلفة ، عن طريق الوصية او غيرها ، وتستثمر بشتى الطرق في البيع او التلايم او
الاعارة مقابل رهونات او استثمار الدخل من قبل قيسميين يعينهم الواهبون او تنتجهم المدينة .
وهكذا تتكون يوماً بعد يوم أنظمة بالغة التعقيد احياناً تتعلق بشتى مظاهر الحياة المحلية ،
وحتى حياتها الاقتصادية ، الريفية والمصرفية بنوع خاص . وفي المدن التي يعطيها احد معابدها
شهرة كبيرة خاصة ، كدلفي ودبلوس ، لا تتوقف اعمال التجميل في الابنية ويزداد عدد الاعياد
ازدياداً مطرداً ، فيؤمن شطر كبير من سكانها ، بفضل تحضير هذه الاعياد وتهاقت الحاجاج اليها ،
سبل معيشتهم . ولكن كل ذلك ، بطبيعة الحال ، عرضة للزوال السريع لانه تحت رحمة

الحروب والانحطاط الاقتصادي . وقد بدأت الازمة فعلاً منذ اواخر القرن الثاني قبل المسح
ثم اخذت تزداد خطورة حتى تنظم الامبراطورية الرومانية التي ستؤمن البقاء لهذه الحضارة
وتنتشر مثالها لعدة قرون .

كان للمثال البورجوازي اثره الجلي ايضاً على صعيد الحياة الخاصة . فاذا جمّلت المدن ، فان
المساكن الخاصة قد جمّلت ايضاً . ولم يكن البذخ رائد البورجوازيين لأنهم افقروا الى الوسائل
المادية الضرورية لتحقيقه . ولكنهم رغبوا ، بصدد رفاهية ولذة حياتهم العائلية ، في جو اوسع
رحابة وأوفر هواء واجل منظراً . لذلك فقد اتضح آنذاك ، في الاحياء الجديدة اكثر منه في
وسط المدن القديمة ، مثال البيت المنظمة اجزائه حول فناء تحف به الاعمدة : وهو مثال اتقن
درسه في ديلوس وانتشر في « بومباي » ، اي في اكثر اجزاء ايطاليا انفتاحاً على التأثيرات
اليونانية ، واثربعد ذلك في « مقصف » العهد الامبراطوري . وقد ازداد هذا البيت باللوحات
الرخامية والرسوم والفسيفساء والتأثيل الصغيرة والتأثيل الكبيرة . وتووع اثائه وتحسن نوعاً
وشمل الاسرة التي نزل فيها العاج والمعادن الثمينة ، والمشاجب ، والشععدانات ، والمصوغات .
وكان للأطعمة الفاخرة وبعض خور الجزر وآسيا فيه تقدير عظيم ، في اللوام التي قضى قانون
تقييد النفقات المفرطة ، في اثينا ، بتحديد عدد مدعوها بثلاثين شخصاً .

راقق هذا الاهتمام بالرفاهية اهتمام بالثقافة . وقد تجاهت البورجوازية
المثل البورجوازي الاعمى :
الهلينية بالثقافة المجردة عن الغاية . وسهرت على تربية اولادها واقدمت
راضية على الانفاق عليها . وكثيراً ما اهتمت المدينة بها بنية تنظيمها
- وقد ارغمتها على ذلك بعض الاوقاف احياناً - ومراقبتها ، مع انها لم تتول الانفاق عليها الا
في حالات نادرة . وقد عين قضاة خصوصيون لهذه الغاية . ومهما يكن من الامر ، فان المدارس ،
عمومية كانت ام خاصة ، قد ارتفعت عددها ، كما ارتفع عدد محلات الرياضة وازدادت ، في اعلى
الدرجات ، دروس البيان والفلسفة التي ألقاها اساتذة لم يستغرب احد ارتفاع اجورهم . وإذا لم
يفرض المثال المسلم به تعمقاً في المعارف فانه قد انطوى منذئذ على رشاقة فكرية حقيقية او اقله
على رشاقة في التعبير الشفاهي او المكتوب .

وقد حدث تغيير أكثر ظهوراً : لم تعد تربية البنات محصورة في الامهات وحدهن في
الحرم الذي ليس له أي اتصال بالخارج . فبين على غرار اخوتهن يحتلن الى المدارس وحتى الى
محلات الرياضة : ولم يعد مثل سبارطة امرأة شاذة على هذا الصعيد . فنتج عن ذلك ان حياة
النساء ، في الطبقة الميسورة ، غدت اوفر حرية . اجل لم يتلق كثير منهن العلوم النظرية العالية .
ولكننا نعرف عدة شاعرات ، وليس الحديث ، بعدئذ ، في الأدب والفلسفة والفن وفقاً على
بعض المتحجرات المتقدمات . فقد بدأت اقتسارات الزمن الماضي بالتراخي . أجل لم تظهر
سيدات المجتمع الراق في اللوام ، ولكن اصبح باستطاعتهم ان يخرجن الى المدينة دون ان يرافقهن

أحد ، وقد سمح لمن ازواجهن بالتقاء رجال غير انسابهم . ولذلك فقد تطورت الاخلاق نحو ادب اسمى رقة : وتعود الى هذا العهد بعض عادات المجاملة ، كتقبيل الأيادي .

تعنى لو أننا نعرف جيداً أيضاً وضع وحياة الطبقات الاجتماعية الدنيا . ولكن المعلومات بصددها نادرة جداً كما سبق ورأينا أكثر من مرة . غير انها كافية لاطهار تناقض بين مصيرها ومصير البورجوازية اعظم بروزاً منه في الزمن القديم . فقد تمتت البورجوازية بقسط أوفر من اليسار وتأثر بذلك مثالها وحياتها العملية تأثراً سريعاً . اما الطبقات الاجتماعية الدنيا ، فإما استمرت في عيشتها الماضية واما عرفت ظروفها مادية أشد قسوة - وهذا ما حدث غالباً - في ما يظهر .

تألم صغار الفلاحين والصناعيون المدنيون أيضاً بسبب منافسة حاصلات الشرق ومصنوعاته . واتجهت الاجور نحو الهبوط كما يتضح من حسابات قهرمة ديولس المقدسة حيث يتقاضى نقاش الكتابات ، مثلاً ، درهماً مقابل ١٠٠ و ١٣٠ حرفاً في أواخر القرن الرابع ، ومقابل ٣٠٠ حرف فيما بعد ، دون ان يحبط مستوى عمله في هذه الأثناء . ولكن الأرباح ، حتى اذا نحن املنا مثل هذه الحالات القصوى ، لا تتناسب وتقلبات اسعار المعيشة . فان ارباح الزامرة أو « خادم » المبدد مثلاً ، أي ارباح غير اهل الكفاءات ، قلنا تتجاوز ١٢٠ درهماً في السنة ، يضاف اليها تعويض لباس فتصبح ١٤٠ او ١٥٠ . ولكن غذاء البافع دون غيره يكثف ، شرط ان يكون معتدلاً ، ١٥٠ درهماً في السنة ٢٨١ ، واذا ما هبطت كلفته الى ٩٠ درهماً في السنة ٢٥٠ فانها قد ارتفعت بعد ذلك الى ١٣٠ درهماً في اوائل القرن الثاني؛ وفي التواريخ نفسها تبلغ كلفة غذاء عائلة مؤلفة من اربعة اشخاص ٤١٠ و ٣٤٦ و ٣٥٨ درهماً . لذلك كان العمل أمراً واجباً على كل شخص في العائلات الوضيعة ، وعلى الرغم من تصافر هذه الجهود ، فان البؤس كان في اغلب الاحيان شديد الخطورة . ويتضح لنا أمام هذه الارقام المشاغل التي واجهتها حكومات المدن بسبب ندرة واسعار الحبوب في السوق المحلية .

ويتضح أيضاً كيف ان مصادر الارتزاق اليونانية لم تنضب . ففي اليونان القديمة ، بقي الارتزاق ، حتى اواخر القرن الثالث ، ظاهرة اجتماعية على نطاق هام ، استفادت منها الملكيات الثمينة في الشرق كل استفادة ممكنة . واذا ما هو اخذ يخف فيما بعد ، فليس السبب الرئيسي لذلك نقصان عدد المرتزقة . بل يجدر بنا ان نرى في ذلك نتيجة لنقصان طلب المرتزقة ، اما بفعل تراخي الروابط السياسية بين الملكيات واليونان ، وأما بفعل منافسة المرتزقة البرابرة وهم محاربون لا يكلفون كثيراً ولا يرضون بدمائهم ، واما ، خصوصاً ، بفعل افتقار الملكيات وضعفها . ولكنه من الجلي ان احتلال الاسكندر للامبراطورية الفارسية ، الذي اطلع للاغريق الهجرة باعداد كبيرة الى ما وراء البحر المتوسط ، لم يكن الدواء الناجع لهذا الداء ، لأنه لم

يصلح لمدة طويلة الحالة الاقتصادية والاجتماعية في اليونان .

ان الصعوبة التي تعترض المؤرخ المعاصر تقوم في كيفية تحليل استمزار البؤس في بلاد العبيد اصبحت بمثل هذا النقص في سكانها . يجب علينا حقاً ان نبحث عن سبب ذلك في ظروف سوق العمل . فالنشاط الاقتصادي في هبوط على العموم : وهذا يستتبع نقصاً في الحاجة الى اليد العاملة . ولكن ديوس التي جاءتنا منها اهم مصادرها حول الاسعار والاجور تشذ في هذا المجال عن القاعدة العامة ؛ فانه كان من شأن وجود معبد ابولون فيها ، وارتفاع عدد الاعياد وتهافت الزائرين من جهة ، والنشاط التجاري من جهة اخرى ، ان توفر فيها بسهولة سبل العمل والموارد للذين تعوزهم هذه السبل . لذلك يستهوننا ان نبحث عن التعليل في مبررات اخرى ، لا سيما في ازدياد عدد العبيد وفي التنافس الذي يبين المضادة بينهم ، شأن الحرّين ، وبين العمال الاحرار .

هنا ايضاً ، تمنى لو ان لدينا معطيات واضحة ، ولكننا مضطرون لسوء الحظ للاكتفاء ببعض التأثيرات .

بما لا ريب فيه ان العرض في اسواق الرق قد ازداد ازدياداً عظيماً ، واتسع نطاق « التزود » بهم اتساعاً كبيراً ايضاً ؛ فالحرب والفرضة اللتان ما زالتا على عنقهما مونتاً بهم التجار . ولكن اسعار العبيد ابعث من ان تتدنى ، ان لم يكن في مناطق الاحتلال وراء الجيوش ، فأقله عند عملية البيع الاخيرة للشترى المباشرة : فان رجلاً في شرح الشباب ، دون ميزات تقنية خاصة ، ولا سيما اسير الحرب ، يباع بـ ٥٠٠ درهم تقريباً . ولم تتدن اسعار النعد ، كما يبدو ذلك منطقياً ، لأن نطاق توزيع العبيد قد اتسع بمقدار لا بل فوق نطاق التزود : فان روما وايطاليا اللتان لم تكونا بائعتين ، قد اشترتا العبيد ، في حوض المتوسط الشرقي ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، بأعداد تزايدت باستمرار .

اما في اليونان القديمة فلا يجوز الجزم بارتفاع عدد العبيد إلا في المناطق الشمالية والشمالية الغربية ، كالأبير مثلاً ، ، بسبب حدائثة عهد الحضارة المدنية فيها . وليس ما يثبت ذلك في المناطق الاخرى . اصف الى ذلك ان المزيد من العبيد الذين امتلكتهم البورجوازية ، بعد ان ارتفع عددها وتكامل يسارها ، قد كانوا عبيداً منزليين بنوع خاص لا يرهق وجودهم ارباح الرجال الاحرار بل يخفف عن المرأة ، التي تتحرر ، اعباء الاعمال العائلية التي كانت تمهض بها فيما مضى . فيجب والحالة هذه ان تكون الصلة بين العلة والمعلول اشدّ تقيداً .

لذلك يجدر بنا ان ننظر الى حالتي العبد العامل لحسابه الخاص والعبد الحرّ . فعلى هذا وذاك تلقي بعض الضوء وثائق التحرير التي انتقلت اليها عن طريق كتابات المعابد ، لا سيما دلفي الذي وصلت اليها اكثر من ألف وثيقة . وقد اخذ التحرير الفردي ، لا الجماعي الذي سنشاهده في روما ، يشق طريقه الى اخلاق الاغريق . ولا يستلزم هذا التطور ، على كل حال ، ازدياد

عدد العبيد : بل يدل غالباً ، بصرف النظر عن ثور روح التساهل ، على ان سيد العبد يستفيد من تجريره ، لأنه من النادر جداً ان يحدث ذلك دون مقابل مالي . والاعتقاد السائد هو ان الاله يشترى العبد من سيده ويعطيه حريته ضامناً تنفيذ شروط العقد : هذا هو مصدر الحرص على حفظ نص هذه الشروط في الحرم المقدس .

اما في الواقع فقد قسام كل شيء بطبيعة الحال على الاتفاق السابق بين العبد وسيده . فالسيد يرضى بشمن وبظروف تختلف باختلاف الحالات النوعية التي لا نعلم شيئاً عن عوارضها . غير انه من المفروض في العبد ، كي يستطيع دفع المبلغ المتفق عليه فوراً ، ان يكون قد جمع بعض المال وان يكون قد تصرف ، في عمله المتفاوت حرية ، مجد ادنى من الربح . فان العرف الذي سمح للعبد بان « يعيش على حدة » والذي عمل به في اثينا قد عرف الانتشار والشمول ، في ما يظهر . ومن المفروض في العبد ايضاً ، حتى يرتبط بتعهدات وحتى يقوم بها على الاخص ، ان يكون متأكداً ، بعد تجريره وتصرفه بكافة ارباحه ، من ان يجد عملاً وزبناً . اليك مثلاً عبداً لم يدفع شيئاً عند تجريره ولكنه سيدفع ١٠٠ درم لمدة ١٣ سنة ؛ والسلك آخر يمارس ، في ما يبدو ، مهنة تفقد عليه الارباح ، يدفع على الفور ٦٠٠ درم على ان يدفع ٢٠٠٠ درم في المستقبل ، مع انه يعد بالقيام « بكل اشغال » سيده ؛ على اننا نرجح ان هذا الوعد لا يتناول من الاشغال إلا ما هو من اختصاصه ولحاجات عائلة سيده المباشرة فقط . ويغلب ان هذه التعهدات تنفذ بمجدافيرها لأنها لم تلغ . واكثر من ذلك : فاننا نرى العبد المحرر نفسه في بعض الحالات ، بعد عشر سنوات تقريباً يجرر يدوزه عبيده : وهذا يعني انه استطاع ان يفي سيده حقه ويؤمن المعيشة لعائلته ويقنتي عبداً ويسمح له بالعمل لحسابه الخاص . ولكننا نتصور ما يتطلبه ذلك من عناء ضار ومن حرمان يدوم سنين طوالاً ، ولا نستغرب المنافسة الشديدة التي يصادفها عامل حر لا يشجع مجهوده مثل هذا الامل .

لا يفربن عن البال ، مع ذلك ، ان معظم هذه المعلومات لا تتناول سوى جماعات بشرية تعيش على مقربة من المعابد . ففي دلفي يؤلف الحجاج ومستشيرو هاتف الغيب ومشاهدو الأعياد زبناً كثيرين يميلون الى الاتفاق بسعة اوفر منها في محلات اقامتهم ويمطوفون على ممارسة المهن الصغيرة والتجارات الصغيرة المزدهرة . لذلك يستحيل ان نعمم هذه الظروف الاستثنائية على كافة أنحاء اليونان . وليس تفسير البؤس عن طريق العبودية بالامر الاكيد ، ولو بدا محتماً ومنطقياً .

اضف الى ذلك ، كما سبقت الإشارة ، ان الركود الاقتصادي والمهبط الاقتصادي الذين يكوّنان السبب الرئيسي للوضع المتعاطم خطيرة في الطبقات الاجتماعية المتدنية ، كان من السهل تلافئها لو ان الاغريق استفادوا من تفوقهم العلمي لتحسين تقنيات انتاجهم ، ومن وجودهم في الشرق لرفع مستوى المعيشة عند طبقة البلديين ، أي لزيادة طلب أصناف الاستهلاك . ومن ثم

فان البورجوازية المملية قد وقفت في وجه مصلحتها الشخصية بعدم تحويل مآلها الثقافي وعدم اكثراتها بالانتاج الصناعي ، ان لم يكن الزراعي أيضاً .

٣ - الآفات والاضطرابات الاجتماعية

كانت نتائج هذا الوضع على جانب من الخطورة .

تدني عدد السكان
كان من شأن نوع معيشة و اخلاق البورجوازية ، دونما ريب ، ان يكدر معاصري بريكليس لو انه ساد البلاد في ايامهم . وهو قد كدر ايضا ، في هذا العهد نفسه ، رجالاً لم يتبنوا تعليم الاخلاق ولكنهم عزوا اليه احدى اذن اليونان التي شكوا منها بعنف ، اعني بها تدني عدد السكان . ولعل اشهر هؤلاء الكتاب هو « بوليب » الذي عاش في القرن الثاني والذي وصف في صفحة شهيرة الداء باسمه الكلاسيكي « اوليفانروبيا » أي « نقص الرجال » ، موضحاً ما كان سببه في ما ارتأى : « نلاحظ اليوم ، في كافة أنحاء اليونان نقصاً في الاولاد والرجال تقفر معه المدن ويشل انتاجها ... أما السبب فواضح والدواء ففي أنفسنا . ان الرجال يعزفون عن الزواج وعن تربية اولادهم حباً بالتظاهر وحباً بالمال وجبناً : فهم ، ان ربا ، لا يرتون اكثر من ولدين حرصاً منهم على الحفاظ على الثروة وعلى تربيتها في ظل حياة هانئة متخنة . وهكذا فان الداء الحفي قد برز فجأة . فاذا لم يكن هنالك سوى ولد او ولدين واذا ما قضت الحرب او المرض عليها فمن الجلي المم ان تقفر البيوت ... ولا يختلف اثنان على القول ان تلامي ذلك منوط بنا وحدنا ، اما بتغيير ما هو هدف التنافس بيننا واما باعداد شرائع ترغم على تربية الاولاد الذين يبصرون النور » . وقد حاول بعضهم احباط الانتقاص من اهمية هذه الصفحة باعتبارها بياناً اخلاقياً . قد يكون في ذلك بعض الحقيقة ، ولكنها تنطوي على اهمية لا تتكرر .

انها تكشف عن استمرار عادة « اهامال » الاطفال حال ولادتهم التي انتشرت في العهد السابق . وانما هن البنات ، كما في العهد السابق ، اللواتي يرفض الأب تربيتهن . فهل ان هذه العادة ، التي هي اشد خطورة في نتائجها العملية من تحديد النسل الاختياري ، قد أصبحت شاملة حينذاك ؟ ان بوليب يثبت ذلك ضمناً ؛ ولكن الاسباب التي يعزوها اليها لا تتناول سوى الطبقة المسورة ، وهذا هو العيب الاكبر في استدلاله . والحقيقة هي ان الطبقات الاجتماعية الدنيا تبدو متأثرة بهذه العادة المتفشية تأثر الطبقات العليا نفسها . فلم نر في وثائق التحرير في دلفي أي ذكر لعائلة كثيرة الافراد بين المحررين . وقد اتخذت مدن عدة احتياطات لزيادة عدد مواطنيها بقبول الاجانب في هذه الدرجة الممتازة . وقد نصح ملك مقدوني الى احدى المدن التساليسية بالتشبه بسجاء روما في هذا الموضوع . وقد اقام الملك نفسه في مملكته جماعات من البرابرة البلقانيين

« وأرغم جميع رعاليه على المحاب البنين وتربيتهم ، كما كتب احدهم دون ايضاح الكيفية . وكان بوليب على علم بهذه السابقة حين اشار باعتبار مثل هذه الشرائع . ولكن رأيه ومثله فيلبوس المقدوني الخامس ، على ما نعلم ، لم يعمل بها في اي مكان . لذلك يتعذر نكران تدني عدد سكان اليونان منذ ذلك العهد . ولا مبالاة الحكام الشاملة تقريباً أو اقله عجزهم امام وضع كان يهدد بالخطر لا استقلال دولهم سياسياً وعسكرياً فحسب ، بل حيوية وحتى وجود حضارة يباهاون بها أيضاً .

وعلى نقض ذلك لم يتوصل بوليب ، في تحليل الأسباب إلا الى حقيقة جزئية ليست أبعد الحقائق اهمية . ولكننا لا نستطيع إهمالها لا سيما وانه يعطينا في غير مكان تفاصيل دقيقة حول « التخنت » واستهواء الأعياد والولائم . فعندما يتكلم عن البيوسين – الذين لا يجهم – في أوائل القرن الثاني ، يجزم قائلاً : « ان اولئك الذين لا أولاد لهم يوصون بممتلكاتهم للأكل الفاخر والسكر ويجعلونها مشاعاً لأصدقائهم ، بدلاً من ان يتركوها لأنسابهم ... وأخذ كثير من اولئك الذين أنجبوا أولاداً ينفقون على الولائم معظم ثروتهم بحيث ان بيوسيين عديدين أقاموا في كل شهر ولائم تفوق بمدها أيام الشهر » . هذا هو التشويه المحتم لحياة اجتماعية جعلت مطابقة لمثل أعلى في الفرافية والذلة . وبديهي ان يصعب التوفيق بين هذه الحياة وواجبات العائلة العديدة الأفراد وان تقضي بالضرورة الى استحالة التعويض العديدي الطبيعي عن جيل سابق بالجيل اللاحق . وكان للطبقات الدنيا أعذار أخرى كثيرة للتهرب من الواجبات العائلية المرهقة .

يتوجب علينا ، مع ذلك ، دون ان نتوقف عند الحقائق الاخلاقية للمسلم بها ، كما فعلنا ، ان نضيف شيئاً الى تفسيرات بوليب .

ففي الدرجة الأولى كانت اليونان منطلقاً ، نحو الشرق الذي احتله وأداره ملوك يونانيون وانتشر فيه واستمره الاغريق ، هجرة عارمة حرمتها من عناصر فنية أي من ام ابنائها نشاطاً وتدبيراً . ولا ريب في ان هذه الهجرة التي كانت في البدء على نطاق واسع قد خفت بعد ذلك رويداً رويداً ؛ ولكنها لم تنقطع قط انقطاعاً تاماً ولم يعوض المهاجرون العائدون قط عن المهاجرين النازحين . واذ ما نحن أغفلنا هذه الحقيقة استحال علينا إدراك التوازن في مجتمع كان « يربي » ذكوراً أكثر من البنات . فجلى ان الرجال هم الذين هاجروا بنوع خاص كمرتزقة وموظفين وفنيين ومستعمرين واتخذوا لهم زوجات شرقيات .

ثم ان الصناعات الاقتصادية المتزايدة التي عرفتها اليونان لم تبق دون نتيجة في هذا المجال أيضاً . فقد ظهر أثر التأخر الزراعي والصناعي والتجاري في البورجوازية نفسها . وحين نضبت المصادر الطبيعية للثراء رأت البورجوازية نفسها مرغمة على عدم زيادة عددها ، ان هي أرادت الحفاظ على مستوى اليسار الذي بلغته ؛ ولم يكن من المستطاع عملياً ان تحافظ عليه ، بسبب هباتها للعدن ، إلا بانقاص عدد اعضائها وجمع ثرواتها بفضل الإرث والهبات عن طريق الرعايا .

ولكن الفقراء خصوصاً ، الذين لم ترافق مواردهم ارتفاع الأسعار ، اذا لم تخفص أحياناً ، لم يتمكنوا من العيش إلا بفرض الحرمانات على انفسهم ، وكان أقلها صعوبة مباشرة ، وبالتوالي أول ما يقبل به منها ، يستهدف الأولاد . وهكذا فان « نقص الرجال » من حيث هو علة ومعلول في آن واحد قد زاد بدوره من انحطاط اقتصاد البلاد ، وذلك باقلال طلب السوق الاقليمية التي كانت هي في افضل وضع لسد حاجاتها .

هنالك آفة أخرى ، هي نتيجة تنحدر مباشرة من بؤس الوضعاء ، الاضطرابات الاجتماعية ااضنت اليونان ايضاً ، اعني انها خطر الثورة الاجتماعية الذي ليس جديداً ولكنه ، بعد هدوء العهد الكلاسيكي ، برز مرة أخرى مزيد من الخطورة الهائلة . انطوى برنامج ثوار القرنين السابع والسادس على بندين تقليديين : توزيع الاراضي والغناء الديون . ويرى هذان البندان نفسهما الآن اكثر شعبية من اي وقت مضى . كلاهما يستهويان الريفيين الذين ارغموا على مغادرة اراضيهم او يمشون ، بفعل الديون المتراكمة عليهم ، من ان يطردها منها ، او حتى من ان ينتهوا الى السجن بفعل عجزهم عن الدفع . واذا كان فقراء المدن اقل اهتماماً للديون — اقل اهتماماً فقط ، لأن الفقير المدمم وحده يعجز عن ان يتوفق الى من يقرضه مالا — فانهم لم يملوا الاامل بأن يصبخوا يوماً ملاكين صغاراً .

غير ان هذا البرنامج الذي لم يفقد شيئاً من عنفه ، اضيفت اليه آنذاك مطالب تتعلق بالعبيد الذين لم يسبق في الماضي ان احيطوا بأي اهتمام . قد يكون مرد ذلك الى التضامن في البؤس الذي يقوّيه انتساب عبيد كثيرين الى الاصل اليوناني كأمرى الحرب ومخطوفي القراصنة . ولكن الارجح انهم يمثلون قوة لم يأنف آتئذ احد من اللجوء اليها في ساعات حدة الصراع .

وم الوحيدون ، على كل حال ، الذين لا يتجاسرون على الحركة . اجل قد تحدث عرضياً بعض الثورات كما جرى في الستين ١٣٠ و ١٠٣ في أثينا ، وفي السنة ١٣٠ ايضاً في ديلوس . ولكن هذه « الحروب الفدادية » المحصورة في المناطق التي كثيراً ما تخضع فيها جماهير غفيرة من العبيد لنظام شديد القساوة — كديلوس ، تلك السوق الكبرى التي تصدّر الى الشرق البعيد دون امل بالعودة ، واثينا حيث لم تتحسن ظروف العمل في مناجم « اللوريون » — لا تحدث من جهة ثانية الا في عهد متأخر جداً ، وليست سوى صدى الثورات التي اندلعت في صقليا وآسيا الصغرى في الستين ١٣٥ و ١٣٣ . ولكن الحركات الثورية التي كانت من الخطورة بكان هي تلك التي نهض بها الاحرار والعبيد جنباً الى جنب يوحد بينهم البؤس المشترك والحقد المشترك على الملاكين : وان هذا الاتحاد لجدة يعود الفضل فيها الى العهد الهليني .

لم يكن لمثل هذه الاضطرابات دافع عقائدي على ما نعلم . اجل لقد نادى بعض الفلاسفة بالمساواة بين البشر . ولكن هذه المساواة في نظرم ، شأن حرية الشخص البشري ، كانت شيئاً داخلياً اكثر منه اجتماعياً لأنها تتعلق بالقوة المعنوية الفردية اكثر منها بالنظام القانوني : فالرجل

الحر والغني قد يبقى دون العبد ان لم يكن سيّد نفسه . لذلك فان مثل هذه الآراء لم تدفع الى العمل . وكذلك ، اذا وجد بعض المؤلفين لذة في وضع نظريات خيالية ، فان هذا الفن الاديبي الذي درج حينذاك ، لم يكن ليحرّك الجماهير . وهناك بعض تنف لشاعر بلوينيزي من القرن الثالث هي في الحقيقة فريدة من نوعها والوحيدة التي تنبض بروح ثورية في الادب اليوناني ؛ ففيها ان على الغني ان « يتقياً » ، وان للتوزيع صفة إلهية ؛ ويتسامل عما اذا كان للإله عين خلد لأنه يعزف عن اخذ خيرات المرابي لاعطائها من يعجز عن سد جوعه . ولكن الشاعر ، مرسيداس ، قد لعب دوراً دبلوماسياً وعسكرياً ناشطاً ضد الثورة حين كانت على وشك النجاح ، بحيث لا يمكن اعتباره سوى مناصر التحق بها في الساعة الحاسمة . وبكلمة موجزة ، فان الثورة الاجتماعية في اليونان قد افترقت الى رئيس روحي من حيث انها افترقت الى برنامج عقائدي .

بيد انها ، في بعض الظروف وبعض المدن : قد وجدت رؤساءها اثناء العمل الثوري نفسه . وغالباً ما كان هذا العمل غير منظم ، و نادراً ما كان منسجماً وغير منقطع ، وقد تحطم ابدأ على صخرة مقاومة البورجوازية والتدخل الاجنبي . وقام عند الايتوليين رجال سياسيون من المرتبة الاولى يقترحون الشرائح حول الدين ، فانتهوا الى الإبعاد . وفي بيسيا توقف سير القضاء عملياً لمدة خمس وعشرين سنة ؛ فكان ذلك فوضى فاضحة جاءت جزيلة الفائدة للدائنين . ولو توفرت الماومات لدينا ، لاتضح لنا دوغما شك وجود وتمثل حركة اصلاحية ، ان لم تكن ثورية ، في كل مكان تقريباً .

الثورة الاجتماعية في سبارطة كانت الازمة خطيرة جداً في سبارطة حيث تقسر خطورتها ظروف خاصة جداً . ومعوماتنا عنها اوفر منها في اي مكان آخر . سعت سبارطة تقليدياً وراء مثل اعلى لمساواة حقيقية بين المواطنين المتمتعين بحقوقهم الكاملة ، « المتساوين » . ولكن عددهم قد انخفض انخفاضاً هائلاً ، فعدوا سبعمائة فقط في اواسط القرن الثالث بعد ان كانوا تسعة آلاف في الاصل على الأرجح . وقد ادى الى هذا الانخفاض تحديد النسل الاختياري الذي هو النتيجة الحتمية غير المباشرة لتسريع حظر على المواطنين كل نشاط مأجور ووصم بعدم الاهلية كل من يتدنى دخله الى ما دون حد ادن . قانوني . وادى اليه ايضاً ارتفاع نسبة الوفيات في ساحات الوعى بسبب تقيد السبارطيين بقانون قاس جداً خاص بالشرف العسكري . وقد ادى اليه اخيراً ازال الذين يخالفون واجباتهم كمواطنين ، مها كان السبب ، لا سيما الفقر ، الى الفئات الدنيا . فلم يبرز « نقص الرجال » ، في اي مكان برونه في سبارطة .

افضى هذا التطور - البليّة الى الانحطاط العسكري والى نتائج اجتماعية هامة . فالمساواة ، العملية او النظرية ، قد قضى عليها منذ زمن بعيد . وتجمعت الثروات ، بما فيها الممتلكات العقارية ، في العائلات المحظية ، ولا سيما في ايدي النساء ، الوارثات الغنيات . ولكن قيام

الارستوقراطية الضيقة قابله في الجهة الثانية فقر بقيتة السكان . فكثيرون منهم كانوا مدينين مهدين بخطر الحرمان من الحقوق السياسية وبعض الحقوق المدنية ؛ وكثيرون من أصبوا بهذا الحرمان راودهم الامسل في اعادة توزيع الاراضي الذي سيؤمن لهم حياة سبارطية حقيقية ويعطيهم حقوقاً لم يعتبروا انفسهم غير اهل لها . وقد دفعهم استيائهم الى البحث عن حلفاء، ان لم يكن بين العميد القليلين عدداً في سبارطة، فأقلته بين الفدادين الرسميين المتطرفين ، الذين كانوا يتوقون ، هم ايضاً ، الى وضع قانوني وادي افضل . فظهر الاختيار منذ اوائل القرن الرابع وافضى الى اضطرابات عنيفة في النصف الثاني من القرن الثالث .

كان الرؤساء في البدء ملوكاً يتمتعون بشريعة تامة : « أغيس » الرابع و « كليومينوس » الثالث . فشل الأول بسرعة وحكم عليه بالموت . اما الثاني فهو ذو حنكة سياسية عرف كيف يرضي الزهو القومي وبين الفائدة العسكرية من الاصلاح ويستثمر النفوذ الذي اكتسبه بانتصاراته ، فقد حقق انقلاباً : فأمر بتقتيل القضاة وأبعد الممارضين . فاستطاع بذلك إلغاء الديون واعداد توزيع الاراضي وزيادة عدد المواطنين . ورفع عدد الجنود ايضاً ووسع انتصاراته الخارجية وبدأ قادراً على ان يعيد الى سبارطة عظمتها السالفة ، لأن العدو البلوونيزي الرئيسي ، الاتحاد الآخي ، قد دب فيه الانهيار بانتقال العدوى الثورية اليه . ولم يتمكن الحكام الآخيون من التغلب على كليومينوس وإرغامه على الحرب إلا بفضل التدخل المقدوني الذي دفع المقدونيين ثمنه غالباً على كل حال .

هكذا أعيد النظام المحافظ الى سبارطة، ولكنه لم يدم طويلاً فعدت الأزمة أشد عنفاً منذ السنوات الاخيرة في القرن الثالث . وكان نابيس زعيم العصاة الاول ، وهو رجل من اصل ملكي توصل الى الحكم بطريقة غير قانونية . وتمن المصادر التي لدينا والتي تكرهه في الروايات الخفية عن قساوته حبال الاغنياء في سبارطة او في المسدن التي استولى عليها كأرغوس ، وعلاقاته بالقرصنة وقطاع الطرق المحتلتي الجنسيات ، والانعامات التي أغدقها على اقل اتباعه اخلاقاً حسنة . اجل يترامى لنا ، من خلال هذه البغضاء ، رئيس فظّ ولكنه مدفوع الى القسوة بسبب الحرب الاهلية والحارجية ، ومصالح جريء يتناول في اصلاحه ، لا الديون والاراضي فقط ، بل رؤوس الاموال المتقولة ايضاً ، ويرفع عدد الموظفين الى حدّ بعيد باختيارهم بين المرتقة والفدادين الرسميين وحتى بين العبيد . فهل من استغراب والحالة هذه لما أثاره سلوكه من فضيحة ورعب في اليونان ، ولا سيما في الجوار القريب ، بين اولئك الذين يدعوم بوليب ، المؤرخ الآخي المحافظ ، بـ « ذوي التفكير السليم » ؟ وروما هي التي تدخلت هذه المرة ، دون ان تقرر سقوط نابيس . ولكنها أضعفته إضعافاً كافياً لحرمانه من نفوذه . وما لبث ان مات قتلاً ، فانتقلت عن سبارطة صفة المنجم الثوري التي اتصفت بها طيلة نصف قرن .

تبين هذه الامثلة بوضوح كيف تكونت المعضلة الاجتماعية في اليونان الهلنستية : فهي لم تبرز يوماً متعزلة مستقلة بل متشابكة أبداً بمعاصل سياسية . وبسببها انها تشابكت بالسياسة الداخلية لانها في جوهرها ،

المعضلة الاجتماعية
والمعاصل السياسية

وفي الدرجة الاولى ، احد عناصر هذه السياسة . ولكنها تشابكت بالسياسة الخارجية ايضاً ، وهذا هو الدليل على خطورتها لان الخوف من العدوى قد لعب دوره في العلاقات الدولية اكثر من مرة . فقد استفادت الدول العظمى ، الاكثر اتصالاً وثيقاً بالشؤون اليونانية ، أي مقدونيا وروما ، من البليلة التي خلقتها هذه المعضلة : فساند الملوك المقدونيون ، دون سابق تصمم ، هذه النزعة هنا وتلك النزعة هناك ، غير مبتغين سوى المنافع الفورية واجتذاب الحلفاء ؛ اما روما ، التي ارتبطت دبلوماسيتها وجيوشها حينذاك بنبلاء مجلس الشيوخ دون غيرهم فقد أبدت نفوراً ظاهراً وفعالاً في أغلب الأحيان من كل ما من شأنه ان يعكس النظام التقليدي ولكنها تورطت أحياناً في تسويات املتها عليها الانتهازية .

كانت نتيجة ذلك الانقسام الذي قاست منه الامرين طبقة الحكام اليونانيين في كل مكاث تقريباً . فقد اضطروا ، في هذه الفترة أو تلك ، الى الاختيار بين مخاطر الثورة الاجتماعية وبين السيطرة الأجنبية ، وقد انحصرت مأساة بوليب وأصدقائه السياسين ، لا سيما بطله ومعلمه فيليبومين ، وآخر الاغريق ، كما يتضح ذلك مما تبقى من مؤلفاته ، في أنهم لم يستطيعوا ، على الرغم من كل جهودهم ، التخلص من ضرورة هذا الاختيار . ففضل بوليب قبول السلطة الرومانية التي لا تقاوم . وصرف بورجوازيون آخرون كثيرون ، أخيراً ، النظر عن مصالح طبقتهم . ولكن المصيبة ، بالنسبة لاستقلال اليونان ، أنهم لم يقرروا هذا الاختيار في كل مكان وفي وقت واحد قبل ان يفوت الأوان : فقد أدى به انقسام البلاد الى دول كثيرة ومنازعاتهم القديمة والجديدة الى خوض المعركة الحاسمة بنظام غير موحد . ولم يقرر الزعماء الآخيون إلا في السنتين ١٤٧ و ١٤٦ خوض حرب لا هوادة فيها ضد روما ففرضوا تأجيل دفع الديون وقرروا مساعدات للفقراء وحرروا واصلحوا ١٢٠٠٠ عبد . فقبلوا بذلك حلاً لا آثر خلفاؤهم عليها ، فيما مضى ، ضد رأي كليومينوس الثالث ، الحماية المقدونية ، وضد نابيس ، الحماية الرومانية . ولذلك لم يكن لتدابيرهم الصدى اللازم حين كانت لا تزال هنالك ملكيات عظمى قادرة على موازنة قوة روما .

بعد ان انتصرت روما على هذه الانتفاضة التي أعوزها التلاحم والعهد الخارجي وطدت حينذاك ، في كل مكان ، النظام الاجتماعي وسيطرتها . ولكن التسليم للأمر الواقع ، في البورجوازية كما في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لم يتم إلا بكل بطء . ولا نلنسه حقاً إلا في عهد الامبراطورية حين اتاح للبلاد ، التي اضعفتها تناقص سكانها من جهة ثانية ، ان تعرف ، بالإضافة الى السلم ، ادارة لانقصة ، وان تتوصل الى التوازن الاقتصادي بأكال مواردها الطبيعية بفضل استئثارها السياحة وتصديرها الى الغرب الروائع الفنية والرجال الذين ثققتهم حضارتها ، الاطباء والاساتذة والصناعيين اليدويين الماهرين .

٣ — الحياة الاقتصادية في الشرق الهليني

كانت الظروف مختلفة كل الاختلاف في الملكيات القائمة في الشرق . فمن الناحية الاقتصادية ، زخرت

اراضيها الشاسعة والواسعة الأفق بالزبد من الثروات ، وبشوع خاص تانك المرفان اليتيماتان اللتان وهبتها طبيعة سخية العطاء وكيفها عمل الانسان الجليلد طيلة آلاف السنين ، اغني بها بلاد مصر وبلاد بابل . ومن الناحية الاجتماعية ، ألتف الرعايا كتلا ضخمة ، لم يكن للفرد فيها كبير اعتبار ، اعتادت الخضوع بانقياد الى اوامر السيد مها كان من امر متطلباته . لذلك فان المعطيات الاولى للاختبار الهليني قد تباينت تبايناً كلياً في الشرق عنها في اليونان . وقد رافق هذا التناقض تناقض آخر اسامي في الظروف التي جرى فيها الاختبار . فبينما بقي الاغريق في اليونان وحدهم لم يدخل عليهم عنصر خارجي آخر غير العبيد ، فانهم لم يؤلفوا في الشرق ، على العموم ، سوى الطبقات الحاكمة وضباط الجيوش . اغريقاً ، اصلاً وحضارة ، كان الملوك الذين اتجهت انظارهم ابدأ نحو اليونان . واغريقاً كان المهاجرون الذين اتوا يبحثون ، في ما وراء المتوسط ، كبطانة وموظفين وقديين وجنود ومستعمرين وتجار ، عن قرص عمل او يسار مادي لم تتوفر لهم في بلادهم . وكان من شأن الاختبار ان يفضي الى نتيجتين قصويتين على طرفي نقيض: اما استثمار الشرق واما نشر الحضارة اليونانية فيه . وقد توصل في الواقع هنا او هناك الى هذه النتيجة او تلك . ولكن اتساع الشرق وتنوعه يجعلنا نرى ، بين هذين النقيضين ، فوارق وسيطة كثيرة .

إسهام الاغريق
في نمو الشرق الاقتصادي

لم يصب اليونان سوى الزر اليسير من عطاء الطبيعة . وكذلك لم يتساور هذا العطاء في جميع مناطق الشرق : فقد قامت فيه جبال مجدبة ومناطق صحراوية او بورية . غير ان المناطق الخصبة لم تكن قليلة فيه : فنظر اليه فاتحوه بسببها نظروهم الى جنة نعيم . فعمدوا ، اول ما عمدوا ، الى النهب والتبذير . ثم جاء الاستثمار المنظم ، مرتكزاً الى الاستفادة من الثروات الطبيعية وتجديدها وفاقا لتعاقب الفصول .

لم يكن كل شيء بدايئاً في هذا المجال . ففيما خص بعض اشكال الحياة الزراعية على الاقل ، ولا سيما تلك التي استخدمت الري ، وحتى فيما خص بعض التقنيات المهنية ، ولا سيما صناعة النفاثس والاقمشة والمصوغات والزجاجيات ، لم يكن الشرق دون اليونان تقدماً ، لا سيما وان اليونان لم تعوض عن كل تأخيرها على الرغم مما حققت من اقتباسات خلال العهد القديم . ومع ذلك فان كفة الميزان اليونانية كانت راجحة بشكل واضح . فاسهم الاغريق الى حد بعيد في نمو الشرق الاقتصادي .

فقد وفرت سيطرة الملوك الهلنيين ، اولاً ، ان لم يكن السلم الشامل ، فاقله سلماً اقل نقصاً . سبق للامبراطورية الفارسية ان تعرضت لاكثر من ازمة داخلية ، كانت نتائجها الثورات والحروب والضرائب . وحدثت ازمات اخرى زاد من خطورتها تنافس الملوك ودياسهم وحملاتهم العسكرية وحتى غزوات « البرابرة » من امثال الغاليين الذين اتوا في اوائل القرن الثالث

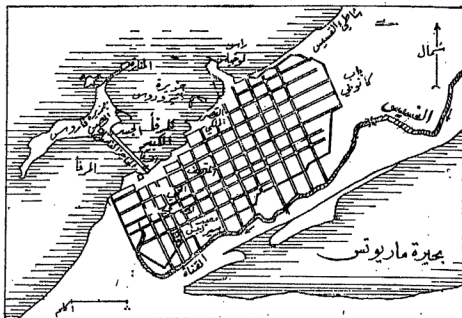
وأستقروا في قلب آسيا الصغرى حيث غدا سحسهم شغلا شاغلا خطيرا للسكان المجاورين. ولكن الامن، على الاجمال، كان اعم منه في الماضي.

سهل هذا السلم التسيي عمل الادارة الحيزر . لم تبلغ الإدارة اليونانية يوماً الكمال التمام، ولكنها برهنت، دون كبير عناء، عن انها اذق من الادارة الفارسية وافضل منها فنياً: فلم ترتبط الادارة الفارسية عملياً، في النهاية، سوى بالمرازية، الاقطاعيين الايرانيين الذين تراخت رقابة الملوك الاولى عليهم. واستعادت بلاد بابل ومصر، بنوع خاص، النظام الطبيعي والتنظيم الضروري لحسن استعمال مياه انهرها ولاستثمار خصبها الطبيعي ابتماراً منطقياً.

ترتب على الادارة اليونانية واجب اول طبيعي هو انشاء او اصلاح وسائل المواصلات. فبدون هذه الوسائل تصاب السلطة الملكية بالشلل؛ وبدونها تتوقف التجارة أيضاً. فرمت الأتنية والجسور والطرق التي تضررت كثيراً بفعل الاهمال والقروض السابطين. وتتوفر لدينا، في هذا النطاق وغيره، المعلومات الكثيرة، لا سيما حيال مصر، بفضل استخدام البرديات وحفظها: عناية بأقنية الري القديمة وحفر أقنية أخرى جديدة؛ تجديد العمل في الاراضي المهمله؛ توسيع الاراضي الزراعية، لا سيما في النجوم؛ بناء الارصفة والسدود والابار والمخازن؛ إكمال أو إعادة فتح القناة التي تصل دلتا النيل الشرقية بجلج السويس؛ انشاء ورقابة طرقات القوافل التي تجتاز الصحراء العربية حتى البحر الاحمر... الخ.

يدل هذا التعداد الممكن إطالته ان الملوك قد اقتصرُوا في أغلب الاحيان على ترميم أو متابعة عمل أسلافهم القريبين أو البعيدين؛ فنحن نعلم أنه سبق للانسان، في عهد السلالات القديمة جداً، ان اخذ يحسن في الفيوم الاراضي الجديدة للزراعة. ولكن الاغريق أخذوا أشياء جديدة أحياناً بفضل تقنية وعلم مهندسيهم الذين برهنوا عن مقدرتهم في بلادهم ووجدوا هنا الآن السيد العاملة والمال بوفرة كلية. كانت المرافىء بنوع خاص أحد تحقيقاتهم الرئيسية: مرافىء عديدة على كل الشواطىء، وحسنتها انشاءات ضخمة احساناً على غرار رصيف ساموس الذي أحدث منذ القرن السادس. ولعل أهم نجاح في هذا المجال انشاء مرافاً لا بل مرافىء الاسكندرية. فعند رأس جزيرة فاروس شيّدوا برجاً يبلغ علوه ١٢٠ مترًا تشتمل فيه نار يراها البحارة على ابعد من خمسين كيلومتراً؛ وان شهرة هذا البناء، الاول من نوعه حتى ذاك العهد، قد حولت اسم الجزيرة الى اسم نكرة (Phare). وقد وصل الجزيرة باليايسة سد يتجاوز طوله ١٢٠٠ مترًا عند كل من طرفيه يمر للراكب يعلوه جسر، فتكوّن بهذه الطريقة مرفأً واسعاً ومجهزاً بالارضفة. كما وصلت إحدى الاقنية بحيرة داخلية بالنيل. وهكذا فان المهندسين اليونانيين قد حققوا، قبل المهندسين الرومان بزمن بعيد، اموراً عظيمة اثارَت دهشة العالم القديم وكانت له مثلاً يحتذى به. وفي هذه الامور دليل على عظمة اتساع مجهود التحيز الذي بذله في الشرق اسياهد الجدد والذي لم يلبث اثره ان برز في نشاط الحياة الاقتصادية.

كانت اقامة المهاجرين الاغريق في الشرق وتأسيس مدن كثيرة جديدة كسباً آخر للتجهيز الاقتصادي ، اقله من بعض الاوجه . فالاغريق ، على العموم ، وفروا الاجهزة الفنية لاستثمار الموارد الطبيعية استثماراً افضل . اما المدن فقد غدت اسواقاً ومراكز تجارية في مناطق كثيرة



الشكل ٢٦ - الاسكندرية الحديثة

القسم الاخير من القناة غير معروف ؛ ولا نعلم الى أي المرفأين كانت تنتمي

ما كانت محرومة منها . واشترى سكانها المحاصيل الزراعية من الارياف المجاورة التي ارتفع انتاجها بفضل هذه الاسواق الجديدة ، بينما قدم صناعيو المدن للريفين مصنوعات علمهم . فبلغت اراض كثيرة ، لا سيما في آسيا ، مستوى اقتصادياً ابعد تطوراً واعظم نشاطاً .

ادخل الاغريق ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، وبفعل مجرد وجودهم وحاجاتهم واقامة العلاقات مع البلدان النائية ، طرائق استثمار مجهولة ، او حسنوا الطرائق القديمة . فأخذت زراعة الكرمة تنتشر في كل مكان تقريباً ؛ اما زراعة شجرة الزيتون ، المتعدرة في وادي النيل ، فقد انتشرت الى حد بعيد في آسيا الصغرى . وقد اظهر ملوك عبيدون اهتماماً بالغاً لهذه الامور العملية . فاشترقت الادارة في مصر على زراعة الاشجار وقدمت بذار القمح الاجنبي الممتاز ؛ واصدر احد الملوك امراً الى احد المصريين اليه بالسعي سعياً جثيشاً منظمًا للحصول على موسم سنوي فان ؛ واستحضر احد كبار الملاكين ، وهو موظف ذو نفوذ ايضاً ، من آسيا الصغرى ، اغناماً اصيلة ورعاة اخصاصيين . وقد احتفى احد الملوك الاطاليين ، في جبال ايدا ، الحرجية ، التي استخرجت منها اششاب وصمغ بطمية شهيرة ، بـ « الصنوبرة العظيمة » التي يبلغ ارتفاعها ٢٠

متراً ودائرة جذعها ٧ أمثار ؛ واشترى آخر ، بأسعار مرتفعة جداً ، خنازير ذات قامات وأوزان استثنائية ؛ ونشر ملك ثالث « بحشا في الحدائق » مكرساً لعلم النبات وللأشجار المثمرة بنوع خاص . وكان لجميع السلالات مصانع ملكية حيث تعنى البد العاملة الفدائية بإنتاج مصنوعات الفخفخة التي تندو في الأساس من انتشار الأزياء . وكثيراً ما قورن هذا العهد بعهد المستبدن الرواسمي العلم في القرن الثامن عشر : ان ما يبرر هذه المقارنة خير تبرير هو عناية الملوك الخاصة بنمو دولهم الاقتصادي .

مها بلغ من جدة هذه الجهود وتنوعها ونشاطها ، فان تقنية اثر العمل السياسي على العمل الاقتصادي ما زالت ، بسبب بدائيتها ، ابعد من ان تكون فعالة في جميع الحقول . وان العمل في حقل النقد قد فاق اهمية ، بنتائجه العملية ، جميع الاعمال الاخرى : ويمكننا الكلام ، في هذا المجال ، عن ثورة حقيقية . فالشرق لم يستخدم النقود الا نادراً قبل الاسكندر ؛ ولم تضرب الحكومات منها الا كميات قليلة : حتى ان النقود لم تكن متداولة في مصر علباً . فالعلائق التجارية مع اليونان واجور المرتوقة هي وحدها التي اوجبت استخدامها ، وقد قامت القطع النقدية الاثينية - بصعوبة ، كما هو طبيعي - مقام القطع النقدية المحلية النادرة . وكان هذا النقص حاجزاً في طريق نمو المبادلات ، وبالتالي في طريق الانتاج . ولكن كل ذلك تبدل تبدلاً عميقاً في ايام الاسكندر وخلفائه الذين ألقوا في التبادل ، بفضل ضرب المزيد من النقود ، السبائك المكدممة على غير جدوى في مستودعات الملك الفارسي والاواني والقرامد الذهبية والفضية الموجودة في المعابد . ولكنهم لم يحققوا يوماً وحدة عيار ووزن النقود . فساد في آسيا النظام الاثيني الذي اعتمده الاسكندر في مقدونيا ، بينما كان لمصر نظامها الخاص . غير ان تشابه النظام المصري بالانظمة الفينيقية والرودية قد سهل العمليات الحسابية التي تسبق المبادلة . وهكذا فقد حذا الاطاليون حذو المدن اليونانية في شاطئ آسيا الصغرى وضربوا ، وفاقاً للنظام الاثيني ، قطعاً نقدية كثيرة تبلغ قيمتها ثلاثة دراهم ولكنها توازي علباً قطع الاربعة دراهم المصرية ، كما توازي قطع الثلاثة دنانير الرومانية . وقامت هنالك صعوبات اخرى كثيرة . فقد اضطر اللاجيون ، للحصول على معدن الفضة الذي افتقرت اليه مصر ، للجوء الى سياسة تجارية . وقد طرأ على نسبة القيمة بين المعادن المضروبة ، لاسيا بين الذهب والفضة المستخدمين للعلائق الدولية من جهة ، وبين النحاس للتداول المحلي من جهة اخرى ، تغييرات هامة عديدة . فقد انخفضت قيمة النقد النحاسي على الاخص في مصر حيث أكثر الملوك ، لتلافي عجز الخزنة ، من اصدار تلك القطع التي ألفها رعابايم البلديون فانتقلت النسبة الاولى ١/٦٠ بين الفضة والنحاس ، اكثر من مرة ، منذ السنة ١٦٠ قبل المسيح ، الى ٤٠٠ وحتى ١/٥٠٠ . ولكن نتيجة سيطرة الاغريق ، على الرغم من هذه السيئات ، كانت عظيمة على هذا الصعيد . فقد ارتد الشرق جميعه الى اقتصاد نقدي ، بينما لم تعتمد مناطق واسعة جداً في ما سبق سوى الاقتصاد الطبيعي والمقايضة . وجلي ان التجارة قد وثبت بفضل ذلك وثبة كبيرة الى الامام .

النشاط الاقتصادي : الزراعة والصناعة

لذلك فان ثمر الحياة الاقتصادية مما يلفت الانتظار اذ انها قد بلغت نشاطاً لم يسبق لها ان عرفته من قبل . غير ان المعلومات تومزنا لوضع خريطة للمحاصيل الزراعية . فيجب علينا ان نكتفي بذبوع البهرة الذي عبر عنه آنذاك في ما يمكن ان ندعوه اليوم بالكلام السائر ، وبالصادرات التي من شأنها ان تترك مزيداً من الآثار في مستندائنا . تفوقت مصر بوفرة الموارد التي حصلت عليها من أرضها . وحري بنا القول انها تبدو متفوقة فقط لانه يجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار جهلنا المطبق بحيال بلاد البختيار التي ترجع انها كانت كثيرة الانتاج ، وجهلنا شبه المطبق حيال بلاد بابل ، باستثناء ثروتها في زراعة النخيل والقمح . اما المملكة اللاجية فقد كان لديها كميات كبيرة من الحبوب للتصدير ؛ والمحاصيل الارضية الوحيدة التي اضطرت الى استيرادها ، الى جانب الخشب والمواد الصمغية الضرورية لاسطولها الذي لا وجود له في بلاد تفتقر الى الاشجار ، هي المحور المشهورة او زيت الزيتون المفضل على زيت النباتات السنوية كالسمسم او الخروع . وتمتعت حينذاك اشجار فينقيا وسوريا ببهرة ستستمر قرناً طوالاً . اما المناطق الساحلية في آسيا الصغرى فقد اضطرت الى استيراد القمح ، ولكنها باعت النيذ والزيوت والعلس ، بينما وجدت المناطق الداخلية في تربية الغنم تكتله لانتاجها الزراعي .

كذلك لا تترامى لنا الصناعة الا من خلال صادراتها اي من خلال مصنوعاتها الترينية . وفي هذا الحقل ايضاً يتضح تفوق مصر الغنية بالمواد الأولية الثمينة وباليد العاملة الاختصاصية : فهي تباع البردي الذي تكاد تحتكره احتكاراً ؛ وتبيع المصوغات والعمود والمنسوجات والحزفيات والزجاجيات والبرونزيات . ولكن فينقيا تنافسها في اكثر هذه المصنوعات كما تنافسها « برغاموس » في الرق والحزفيات التي تقلد البرونز والعمود والمنسوجات التي تتخللها الحياطة الذهبية والتي تنتجها المصانع الاطالية .

واليك مثلاً محسوساً ابلغ من هذا التعداد بريك وقرة الانتاج في الشرق . في اعقاب زلزال دمر رودس حوالي السنة ٢٢٥ قبل المسح تسابقت كافة الدول الهلينية في اظهار بوادر السخاء نحو المدينة المنكوبة . فلنكتف باهبات العينة التي ارسلها الملكان اللاجي والسلوقي فوراً او وعدا بارسالها في اجل قريب جداً . فقد قدم الاول ٤٠.٠٠٠.٠٠٠ لتر قمحاً ، وكية من الخشب تكفي لبناء ٢٠ مركباً و ٢٠ متر من عوارض خشب الصنوبر و ٣٠٠٠ وزنة من الدسار و ٣٠٠٠ قطعة قماش للأشربة ، وقدم لاعادة صنع « الجبار » ٣٠٠٠ مثقال من البرونز ، بالاضافة الى مساهمة ١٠٠ مهندس و ٣٥٠ مدير اشغال ، كما قدم ٤٨٠٠٠٠ لتر قمحاً للباريات المقدسة والذبايح و ٨٠٠٠٠٠ لتفذية بحارة عشرة مركب . وقدم سلوقس الثاني من جهته ، بالاضافة الى عشرة مركب مع عدتها ٨٠٠٠.٠٠٠ لتر قمحاً ، و٥ خشباً وقطراناً وشعراً تبلغ عدة عشرات الآلاف من الاذرع وعدة آلاف من الوزنات . فيمكننا انطلاقاً من أهمية هذه الهبات ان نقدر أهمية الانتاج والصادرات .

النشاط الاقتصادي :
التجارة

كفى كل هذا لتغذية تجارة ناشطة جداً . ولكن التجارة قد فقدت ميزتها الخاصة في الوقت الذي تطورت فيه . ففي المتوسط الشرقي عجزت الزراعة والصناعة اليونانيتان عن الوقوف في وجه منافساتها التي لم يعوزها من قبل سوى التجهيز والتقنيات ، وهي التي وفرها لها الاغريق انفسهم . والشرق الذي كان حتى ذاك العهد سوقاً لمصنوعات اليونان القديمة قد اقلل لأنه غدا يسد بنفسه اغلب حاجاته . لا بل اصبح باستطاعته ان يناقش المصنوعات المحلية في اليونان نفسها . اضيف الى ذلك انه تعلم كيف يلجأ مباشرة ، دون وسيط اجنبي ، الى المبادلات التي استلزمها فائض انتاجه . فجماعت النتيجة ثورة تجارية حقيقية كانت أثينا اولي ضحاياها .

استمرت اليونان في الاستيراد ، أقله في استيراد الحبوب ؛ ولكن صادراتها تدنت ، ولم تعد تجارة بحر إيجه وقفاً على اسطولها . لا بل ان هذه التجارة قد انتقلت بمعظمها نحو الشرق وأمست تسير في اتجاهين ، شمالي جنوبي وجنوبي شمالي ، بين البحر الاسود ومصر بمحاذاة الشواطئ الشرقية . واستيقظت المرافئ الآسيوية من سبات عميق ولعبت رودس دور الوسيط بفضل موقعها عند ملتقى كافة الطرق البحرية : وقد أطلق على جزيرة في أحد مرفأئي الاسكندرية اسم « انتيروودس » أي مقابل رودس . ولكن الاسكندرية ، بنوع خاص ، عرفت نشاطاً غير مألوف غربي الدلتا . فبفضل تيار بحري قريب من الساحل حماها من غزو الرومئ الروسية ، وبفضل اتصالتها بالنهر الكبير الذي هو شريان مصر كلها ، غدت مرفأ مصر الوحيد ومركز جميع المبادلات الخارجية . فكل ما يخرج من مصر أو يدخل إليها يجب ان يمر في أرصفتها ، وإليها تنتهي ومنها تتفرع الملاحة الداخلية التي كان من شأن سهولتها ان تفوقت مصر تفوقاً عظيماً على منافساتها . كان عمر الاسكندر أربعاً وعشرين سنة حين أصدر امره بتأسيس الاسكندرية : ففي ذلك اليوم ، كما في أيام كثيرة من حياته القصيرة ، غير وجه ومصير العالم الذي تناوله نشاطه .

ولكن المتوسط لم يحدد افق الشرق التجاري . فالاسكندر قد توسع هذا الافق بإندفاعه حتى تركستان ونهر الهندوس والخليج الفارسي . أجل كانت الفتوحات العسكرية عرضة لزوال سريع : فقد اضطر خلفاؤه ، الى الشمال والشرق من ايران ، الى التخلي بسرعة عن بعض المناطق . وقد فقدت هذه المناطق الثانية قدماً نهائياً منذ أوائل القرن الثاني ؛ ثم جاء الفارتيون من تركستان وتقدموا نحو الجنوب وأقاموا في بلاد بابل عازلين بذلك اغريق البخيتار عن باقي العالم الهليني . ولكن هذا التراجع السياسي لم يجل دون استمرار العلاقات التجارية .

فقد اتاحت هذه العلاقات للمتوسطين الحصول على المصنوعات النادرة التي طبعتم بطابع العظمة حياة العلية من الطبقات الاجتماعية . ربما كان من الممكن استحضار بعضها من افريقيا الوسطى أيضاً ، كالعلاج والاشخاب النادرة ، ولكن نقلها عن طريق المحيط الهندي كان اسهل

منه عن طريق الصحراء او السودان ، وقد وفر عالم الشرق الاقصى اللثائي عطور وبنجور البلاد العربية ولآله الخليج الفارسي ولآله الهند الحلية والماس والحجارة الكريمة . ثم ظهرت الافاويه فأحرزت نجاحاً مطرداً . واستورد القطن بكيات ضئيلة ، والحبر ايضا الذي فاق ما كانت تنتجه دودة برية هنا وهناك ؛ وقد نسج الحرير في صور وفي جزيرة كوس فأعجب به كل ذي ذوق مرهف ولكنه اخذ ، يوماً بعد يوم ، ينفتر الفبارى على الاخلاق . ولم يكن لدى العالم المتوسطي شيء يبيعه بالمقابلة ، سوى الاقمشة الملوثة وانتاج صناعته الرائجة . ولا شيء من هذا يصدر بعيداً على العموم ، على الرغم من توفر الادلة على وصول الاقمشة السورية الى بلاد المغول . ولكن العجز يسد بتصدير النقود ، فتكوّن منذئذ وضع سينتصر حتى في العهد الروماني .

بيد ان هذه التجارة كانت جزيلة الفائدة لجميع المعنيين ، لا سيما للوسطاء ، على ما نرجح . وقام تنافس شديد بغية الاشراف على طرق هذه التجارة ، وحاولت كل بلاد اقبال هذه الطرقات السبا ، لتأمين الحامات الثمينة ولجني الارباح الطائلة من اعادة توزيعها او تحويلها . وقد تعددت هذه الطرقات . ولم تكن الطريق البحرية في ايدي الاغريق لأن اكتشاف الرياح الموسمية لن يحصل الا بعد زمن . فقد سيطر عليها البحارة العرب ، وحاول البطالسة توجيه معظم تجارتها نحو مرافقهم في البحر الاحمر ، وغالباً ما افلحوا في محاولتهم ، بينا عني السلوقيون ، في أقصى الخليج الفارسي ، بمرافق « الاسكندرية خاركس » التي سيطر عليها فيما بعد اسم انطاكية . وكانت هنالك طريق برية تمر في تركستان وتبلغ بحر قزوين ثم تنتهي الى البحر الاسود بعد ان تجتاز اودية القفقاس ؛ ويبدو انها قد اهلكت . وانطلقت الطريق البرية الرئيسية من البختيسار وانتهت ، بفضل القوافل الايرانية ، الى بلاد بابل ، واسس السلوقيون هنا مدينة « سلوقية دجلة » التي هي عاصمتهم الشرقية والتي استخدمت مستودعاً لكل البضائع التي تنقل برأ او بجزأ . ثم تفرعت الطرقات نحو الغرب . ولكنها تبعت كلها - بسبب قلة استخدام وادي دجلة وبلاد ما بين النهرين العليا - مرحلة مشتركة هي وادي الفرات الذي سارت فيه صعداً مسافات تتفاوت طولاً وقصراً . وقد افترق بعضها بسرعة عن هذا الوادي واجتازت الصحراء التي اخذت تزدهر فيها « مدن القوافل » واتجهت بخط مستقيم نحو مرافق فينيقيا . وافترقت طريق اخرى عن الفرات في سوريا الشمالية واتجهت نحو انطاكية ، عاصمة السلوقيين الغربية ، ومرافق « سلوقية بيبريا » واتجهت اخيراً اطول هذه الطرق الى ميله وافسس بنوع خاص ، على بحر ايجه ، مروراً في كيليكيا ووسط آسيا الصغرى . فأثارت هذه النقاط المتوسطية التي انتهت اليها الطرقات اطباع الدول المختلفة ؛ فقد تنازع اللاجيون والسلوقيون بعناد السيطرة عليها . وكانت الغلبة للسلوقيين طيلة القرن الثالث . فسيطروا اذ ذاك على سوريا الجنوبية والشاطىء الفينيقي ، كما سيطروا على سلوقية بيبريا حوالى ثلاثين سنة . اما في الشمال ، فانهم قد أمّنوا ، حين لم يسيطروا مباشرة ، حماية او تحالف معظم الطريق الساحلية في آسيا الصغرى . ثم قلب السلوقيون الموقف رأساً على عقب ، واذا طردتهم روما من آسيا الصغرى اصلحة الاطالين ، فانهم قد احتفظوا ، حتى

الفوضى النهائية ، بسوريا وقينيقيا. واستهدفت حروب كثيرة فتح او اقفال نوافذ آسيا على البحر المتوسط : فقد حرص الملوك على الاشراف على المرحلة الاخيرة من التجارة مع الشرق البعيد بالاضافة الى العلائق المباشرة مع اليونان القديمة .

وفي ذلك ما يلفت النظر الى صفة بارزة من صفات الحياة
رجحان السياسة على الاقتصاد :
الاقتصادية في الملكيات الهلنسية . ففي كل الحقول تلقى
الملوك يضعون يدهم على الحياة الاقتصادية
الانتاج والمبادلات احتاثا قويا كانت نتيجته نموًا عظيمًا .
ولكن الدولة تدخلت في كل مكان لتوجيه هذا النمو توجيهًا يتلاءم ومصالحها .

كانت هذه المصالح ، في أغلب الأحيان ، أميرية ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، تستهدف زيادة دخل الضرائب او لإقامة احتكارات لمنفعتها الخاصة أحيانًا . وكانت أحيانًا تجارية أيضاً تستهدف زيادة الحزوز من المعادن الثمينة في أراضي الملكية . فان زيادة انتاج بضائع الاستهلاك لا تهم الملوك إلا بالنسبة لحاجات الاغريق الذين رغبوا في إرضائهم لاجتذابهم اليهم او لابقائهم على مقربة منهم ، ولكنها لا تهمهم بالنسبة للجواهر البلدية . وكان المهم في نظرهم ، كما كان في نظر المستعبدين المستعبرين من قبلهم ، الموارد والمصنوعات الممددة للتصدير التي يجب الحصول عليها بأدنى سعر ممكن ، كي يستطيعوا التغلب على المنافسة . فلم يستهدفوا اذن رفع مستوى حياة الطبقات الريفية الدنيا ، التي تؤلف سواد رعاياهم : فإن إبقاؤه منخفضاً ، على نقص ذلك ، شرط لسعر الكلفة المنخفض . وقد سبق ورأينا ان هذا المفهوم الضيق كان نكبة للاقتصاد اليوناني ، فنتب أيضاً ضعف السيطرة اليونانية على الشرق . فلم يكن الشرق ، في نظر الملوك ، سوى ارض للاستثمار سعوا جهدهم ، بتحسين المناهج ، الى زيادة دخلها بغية زيادة وسائل عملهم السياسي . وقليلون جداً هم الملوك الذين لم يكتفوا بالدخل المباشر القريب ، بل فكروا بالمستقبل ولعلمهم السالوقيون دون غيرهم ؛ ولكن الهزائم التي منوا بها لم تسمح للمستقبل بأن يبرهن أنهم كانوا على حق .

لم يبلغ الاهتمام بالدخل المباشر القريب وتحسين مناهج الاستثمار في أية ملكية ، ما بلغه عند اللاجين . فقد اقاموا في مصر نظاماً يصح في تحديده التمييز « اقتصاد مباشر » بالترفضيل على « اقتصاد موجه » ؛ والمقصود بذلك اضيق تدخل دولي مباشر لا يهتم إلا لجباية الاموال الاميرية . وقد مهدت الطريق امامه كل تقاليد البلاد الناشئة من الظروف الجغرافية نفسها التي فرضت وجوب مراقبة فيضان النيل والاستفادة منه الى ابعد حد ، وهو في الوقت نفسه علة ومعلول لانقياد الفلاحين المنتظم . ولكن الملكين الاولين من الملوك البطلمية استفادوا منه بصرامة منتظمة ومرور في الابتكار ودقة في التنظيم تثير كلها دهشة المعاصرين الذين قطعوا ، على صعيد « الاقتصاد المباشر » ، المرحلة التي تجوز فيها الدهشة . فتوصلا ، لخبر خزائنتهم الاكبر ، الى التوفيق بين « التصميم » والسلطة والمراقبة والتزام والضرائب والاحتكار .

القسم الأكبر من مصر مُملك الملك المباشر . يازم قطعاً صغيرة وفقاً لدفتري شروط دقيق جداً ، ويستثمر ، فيما يخص الزراعات الرئيسية ، وفقاً لأوامر الملك . يجدد وزير الاقتصاد كل سنة المساحة الواجب بذورها في كل مقاطعة ، اقله فيما يخص القمح والنباتات الزيتية والسكران . ويوزع الموظفون الاموار العائدة للبذر بين المزارعين ويتأكدون من تنفيذها . وتسلّف الدولة حبوب البذار . ويصدر الامر بجمع المواسم التي تحجز وتخزن في مكاتب عمومي تحت حراسة اشخاص مسؤولين يصادرون في كل قرية . وهكذا تحصل بالتفضيل حقوق الدولة بنسبة متساوية تحددها هي : إعادة البذار مع فائدته ، استيفاء المتأخرات المطلوبة للخزانة ، دفع الضرائب وقيمة التازيم . ثم يرفع الحجز ويستطيع الفلاح التصرف بما تبقى له . . . اذا لم يكن الصنف خاصاً باحتكار ما . وهنالك في الواقع اكثر من احتكار ، لا على الحبوب ، بل على الزيت مثلاً الذي نعلم عن احتكاره الشيء الكثير بفضل برديّ يحمل نص امر صادر عن بطليموس الثاني . ويتضح من هذا الأمر ان الحبوب الزيتية يجب ان تباع كلها ، دون أي استثناء ، الى ملازم ، وانه يحظر على الفلاح ان يفتني في بيته هاوئاً او معصرة او اي شيء آخر من هذا النوع . وتخضع العمليات اللاحقة كلها ، منذ نقل الحبوب الى معصرة الزيت حتى بيع الزيت الى المستهلك ، مروراً بعملية السحق والنقل ، الى سلسلة من التازيمات التي تقرض عليها الضرائب واعمال الرقابة التي تعاقب ادنى مخالفة بالجزاء التقدي . اصف الى ذلك ان الدولة تحدد السعر في كل مرحلة من هذه المراحل فتستطيع من ثم ان تعين حداً ادنى لأرباح الملتزمين . فنتج عن ذلك انه كان بالامكان الحصول على زيت الزيتون ، مع انه مستورد من الخارج ، بسعر دون سعر الزيت المحلي بمرحل ، لو لم ترقب الدولة استيراده وتقرض عليه رسوماً مرتفعة جداً .

تعفينا هذه الأمثلة من استعراض الاحتكارات والضرائب التي لاحد لها . وهي تظهر ، بما فيه الكفاية ، ان الحياة الاقتصادية كلها في مصر اللاحية ترتبط بالملك ، وان نموها لا يفيد سوى الملك . وقسد يؤدي رضى الملك ، الذي يظهر باقطاعات عقارية قابلة الابطال توجب استثمار الاراضي الجديدة ، الى اثره بعض المقربين المحظيين . واستطاع الاغريق النشيطون الماهرون ، الذين لقوا كل ترحيب في المملكة ، ان يحصوا فيها بسهولة على قسط وافر من اليسار . ام الجماهير البلدية فقد اضطرت الى العمل كي توفر لسيدها سبل اثبات سلطته وسخائه ، في حال انها لم تتأكد يوماً من انها ستبلغ اوضاع مستوى حياتي .

لم يبلغ « الاقتصاد المباشر » هذه الدرجة من الاحكام في الملكية الاطالية التي ارتفعت فيها ، على كل حال ، نسبة الاغريق والشرقيين « المستقرين » الذين يصعب تطبيق هذه الاساليب الشديدة حياتهم . غير ان اختلاف الاساليب لم يجل دون وجود نزعة عامة ماثلة . ان المثل اللاجي لا يمكن تحقيقه الا في ارض الفراعنة : ويبدو ان الاطاليين قد حاولوا الاقتراب منه جهد استطاع . فهم قد امتلكوا قسماً كبيراً من السهول واستثمروها بواسطة فلاحين فداديين

ينقلونهم من ارض الى ارض كما يطيب لهم . واقتنعوا قسماً من الحصاد في الاراضي المقطعة للفلاحين اليونانيين . وقرضوا اموالاً اميرية باهظة حتى على المدن اليونانية التي حدث ان حجزوا ممتلكات معابدها مقابل مساعدة سنوية للخدمة الالهية . وكان لهم مصانع ملكية يعمل فيها العبيد رجالا ونساء . وتصرفوا بواد، خامية او مصنوعة، التجروا بها او وزعوها لدعم دعاوتهم ودبلوماسيتهم . فلم تستطع الطبقات الاجتماعية الدنيا عندهم ، كما عند الإيجيين ، ان تشعر بأي تغيير في مصيرها المادي ، بفعل السيطرة اليونانية ، غير وطأة ادارة اشد حرصاً على مصالح الملك المباشرة واكثر دقة في تحصيل مطالبتها .

لا نجد التراخي في هذا المجال الا عند السلوقيين . ولا يعني ذلك ان هذا المثل الأعلى بالغريب عنهم . فمن حيث هم ملاكون كبار ايضاً ، فان لديهم وكلاء يراقبون استثمار اراضيهم بواسطة فلاحين مرتبطين بها . وقد حصلوا ، اقله في بعض المناطق ، كبلاد بابل التي تتوفر لدينا المستندات حيالها ، ضرائب تستلزم رقابة الاشخاص والمواشي والاشجار والحاصلات وكافة المبيعات . فلم يأتوا اذن من رقابة النشاط الاقتصادي رقابة شديدة . ولكن اتساع رقعة مملكتهم قد وفر لهم دخلاً كبيراً دون اللجوء الى الرقابة التي لجأ اليها اللاجيون . لا بسل ان مملكتهم اوسع من ان يكون ذلك ممكناً ، لانه يفرض عليهم اختصاصيين وموظفين كثيرين جداً . فاضطروا والحالة هذه الى تنازلات عديدة تاركين لجماعات بشرية مختلفة حياتها الاستقلالية شريطة دفع ضريبة اجمالية سنوية هي رمز خضوعها . ويبدو ، حتى في الاراضي الملكية ، ان ادارة قرى الفلاحين لم تكن شديدة ولا مزعجة . وتمتع ، بقسط اوفر من الاستقلال ، السكان المرتبطون بالامراء ذوي الاخاذات او بالمعابد التي يدير كهنتها « الارض المقدسة » ، وخصوصاً « القوميات » المحلية التي سارت في حياتها ، كاليهود مثلاً ، على شرائعها الخاصة ، اي وفاقاً لتقالدها ، والمدن ايضاً يونانية كانت أم غير يونانية . اجل قد يحدث ان تلج الحاجة الى الضرائب وان يفرض تخمين الجيش ، مثلاً ، بعض المساعدات العينية ، او ان يقرر الملك مؤقتاً ، بسبب حاجته الى المال ، وضع اليد على كنز معبد من المعابد . ولكن ذلك لم يعتمد قاعدة ولم يصطبغ بصبغة النظام اللاجى : فليس ما يقيد عمل الرعايا اليومي بتنظيم دقيق معد للتمهيد لما يشبه مصادر ارباحهم .

٤ - الاتصال بين المجتمعين

من المحتم ان يترك هذا الخلاف اثره في الحياة الاجتماعية . اجل باستطاعتنا ان ننظر الى هذه الحياة من زوايا عديدة . ولكن الجدة الكبرى ، في هذا النطاق ، مردها الى دخول الاغريق بين الاجانب بنسبة متفاوتة الارتقاء . فقد برزت من ثم معضلة عظيمة الاهمية هي معضلة الاتصال بين حضارات متباينة الجوهر واستساغة جماعة بشرية لجماعة اخرى وتبادل التأثيرات والانتعالات . غير ان معطيات هذه المعضلة تختلف اختلافاً كلياً اذا الملك شجّع هذا الاتصال وهذه الاستساغة او لم يشجعها .

انما المقصود هنا هو المدينة اليونانية .

لا يستطيع الملوك الهلينيون ، لاجتذاب الاغريق الذين لا غنى لهم عنهم ولا يبقاهم عندهم ، ان يكتفوا بتأمين الفوائد المالية لهم . فالاغريقي لا يشعر حقاً انه في جوهه إلا كواطن في مدينة ، اي ليس فقط كساكن مدينة تتوفر فيها بعض الابنية والتجهيزات المادية ، بل ايضاً كعضو ، بكل ما للكلمة من معنى قانوني ، في جماعة تدير شؤونها بنفسها : بهذا الشرط وحده يمكنه ان يتوق الى تحقيق المثل الاعلى للانسان الذي يكن في جوهر مثله الاعلى للحضارة . وبهنا هنا ، دون ان نعود الى امر العلاقات السياسية والادارية بين المدينة والسلطة المركزية الذي يطرحه هذا المثل الاعلى على بساط البحث ، ان نستخلص نتائجه حيال المجتمع البلدي .

تريد هذه المدن ان تكون ديموقراطية ، وهي ديموقراطية في الواقع . ولكن كما ان المبادئ ذات الاهمية العالمية في الظاهر لم تتناف ، في المدينة الديموقراطية الاولى التي هي أثينا ، مع وجود الاجانب المقيمين والعبيد ، كذلك لم ير الاغريق ، في المدن التي أسست في الشرق ، ضيراً في ان يوجد الى جانبهم في مدنهم نفسهم ، سكان ينتسبون الى طبقة اجتماعية يعتبرها القانون متدنية . ومعظم هؤلاء السكان عملياً من البلديين المنقطعين للمهن المدنية الحقةرة وللعمال الزراعية في الاراضي الريفية التي تمتلكها المدينة . ولهذا التخلف القانوني ما يبرره في نظر الاغريق التخلف الحضاري ، وقد وجدت فيه غطرستهم ومصالحتهم ارضاء كافياً لكي ينتقلوا من فكرة الحضارة الى فكرة العنصر : فالبلديون ، بالتحديد ، أدنى من الاغريق وعليهم ان يخدموهم كما يخدم العبيد اسياهم . تلك هي العقيدة الصافية التي طلع بها العهد الكلاسيكي والتي تركت رواسب عملية كثيرة في العهد الهليني على الرغم من بروز مثاليات تناقضها تناقضاً كلياً .

ولكن الاتصالات تم على الرغم من كل شيء . فالرجال بين الاغريق أنفسهم كانوا الى حد بعيد أكثر عدداً من النساء : فاقترض في أغلب الاحيان السباح بالزواج المختلط . اضع الى ذلك ان الحياة اليومية جعلت الشرقيين الذين يعيشون في المدينة يمتكون ، احتكاكاً على الاقل ، بالحضارة اليونانية . وألف الاغريق في المدينة بورجوازية تسيطر الامور على هواها ويقضي الآخرون أوقاتها في اللغة والزي والاعدادات . وتوصل البلديون أحياناً الى دخول بعض الجمعيات والى اذخار اولادهم في الاندية الرياضية التي توزع فيها التربية اليونانية الاصلية . وفي الظروف الملحة ، كالغرب او تدني نسبة الاغريق مثلاً ، استفاد بعضهم من تخلفوا بالاختلاخ اليونانية من الترفيع رسمياً الى مستوى اعلى بما فيه مستوى المواطنة . انصف الى ذلك ان الملك ، دون ان يتقيد بهذا الشرط ، قد لس فيهم معاونين جليلي الفائدة عطف عليهم ورفعهم احياناً الى اعلى المراتب .

كان قيام المدن اليونانية وتمدها ، بالضرورة ، اذن ، عاملاً قوياً من عوامل نشر الحضارة

اليونانية . ولكن ذلك لم يكن كله لمصلحة الملوك . فالمدينة تولت شؤونها الخاصة ، مما بسط جهاز ادارة الدولة ؛ ولكن ذلك لم يعف من مراقبتها وحتى التفاوض معها ، مما أخر تنفيذ الاوامر . ولم تنشأ ، مادياً ، اية مدينة حديثة الا بنفقات باهظة تتحملها في البداية الخزانة الملكية . وكانت اراضيها تقتطع من الممتلكات المستمرة لحساب الملك ، في حال ان الرسم السنوي الذي تدفعه يبقى ابدأ دون دخل هذه الاراضي فيما لو بقيت تحت تصرف الملك ؛ فاهيك عن الاحسانات التي سيري من الموافق فيها بعد ان يتكرم بها عليها . ثم ان البلدي « المستغرق » كان مدعوا ، عاجلاً أم آجلاً ، الى ان يصبح يونانياً ، مما يوفر عليه بعض الواجبات المالية ويخلصه من العبودية الاقتصادية التي كان نظامه السابق يخضعه لها .

كان من ثم على الملوك الهلينيين ان يختاروا احد امرين : اما ترسيخ نتائج فتح الاسكندر عن طريق تشجيع « الاستغراق » بتعمير مملكتهم على الطريقة اليونانية ، واما الابقاء جهد المستطاع ، لا سيما بتحديد انشاء المدن الجديدة ، على الحاجز الفاصل بين المجتمعين مع فوائد ذلك للخزانة الملكية . وبديهي انهم لم يختاروا كلهم حلاً واحداً ، وباستطاعتنا ، انطلاقاً من النزعات الاقتصادية ان نستخلص نزعات السياسة الاجتماعية عند هذه السلالة او تلك . وهنالك في الواقع زعتان : نزعة اللاجئين ونزعة السلوقيين .

١ - الحل الايجي في مصر

الاغريق والبلديون في مصر : احتاج اللاجئون الى الاغريق ، شأن الملوك الآخرين ، فاجتذبهم الى مصر بتأمين تسهيلات المعيشة لهم ، وبتوفير اجور مرتفعة جداً احياناً اذا كان هؤلاء الاغريق موظفين او عسكريين ، اقله لكبار الرؤساء بينهم . وقد اختلفت علاقات هؤلاء الاغريق بالبلديين خارج المدن عنها في المدن نفسها .

قامت في مصر بعض المدن اليونانية اقتصرت فيها السلطة الملكية ، التي وضعت لها نظامها الاسامي والتي كان باستطاعتها تحويره ، على مراقبة الادارة التي هي مشتركة مبدئياً . وكانت الاسكندرية بين هذه المدن « على مقربة » من مصر لا في مصر نفسها . وألقت هذه المدن ، من الناحية النظرية ، مناطق حرّة داخل البلاد المصرية شعر الاغريق فيها كأنهم في بلادهم . وكان في عداد سكانها جماعات غير يونانية : اجانب وخصوصاً يهود جاؤوا باعداد كبيرة لا سيما وان فلسطين قد خضعت لللاجئين حتى أواخر القرن الثالث ؛ وبلديون أيضاً ، كما هو طبيعي ، حفظ لهم مؤسس الاسكندرية نفسه مكانهم يجعل أسوارها تضم قرية راكوتيس المصرية . وحدث من ثم في هذه المدن التطور المحتوم . فتأثرت العناصر غير اليونانية بسرعة بالحضارة اليونانية مما أرغم منذ البداية على محاولة الحد لا من اقامة هذه العناصر في المدينة بل من تسربها الى المجتمع اليوناني . وتتناول معلوماتنا الاسكندرية بنوع خاص حيث تجلّي الخطر جسيماً بفعل

نشاط الحركة التجارية التي توفر المزيد من ظروف العمل الحر . ولكن هذه المعلومات تكشف الستار عن ذنبة عامة . فقد حرم الزواج المختلط بين الاغريق والبلبيين وقسم سكان المدينة الى فئات متميزة أخضع الانتقال . من احداها الى فئة اخرى لتنظم شديد ليس الحداع معه بالامر اليسير . ولم يمنح حق « البورجوازية » بمعناها الحصري دون احتياطات حتى للاغريق العريقين . وما لبثت الاسكندرية ان أمست احدى كبريات مدن العالم القديم ، فأمست بالتالي أكثرها هياجاً بسبب وجود القصر الملكي فيها وما يستتبعه هذا الوجود من صخب سياسي ، وبسبب تنافس الجماعات البشرية التي يبرز اتصالها اليومي الفوازيق بين أوضاعها القانونية : وسيلغ هذا الهياج ذروته في القرون الاولى بعد المسيح في الاضطرابات المعادية لليهود .

وتقع مسؤولية هذا الوضع في المدن على الاغريق أنفسهم أكثر منها على الحكومة بسبب تمكهم بامتيازاتهم . ولكن الملوك من جهتهم يتحاشون زيادة عدد المدن اليونانية . فقد قام منها ، أولاً واخيراً ، ثلاث في مصر : نوكراتيس ، المستعمرة القديمة على الدلتا ، والاسكندرية التي أسسها الاسكندر ، وبطوليبيس ، المدينة اللاجية الوحيدة ، التي أنشأها بطليموس الاول في مصر العليا . ولا يعقل ان يكون الملوك اليونانيون قد اكتفوا بهذا العدد إلا عن قصد وتصميم ، للحد من « استغراق » البلبيين والحوول دون قيام مناطق حرة كثيرة في مملكتهم تجردت من سلطتهم المطلقة . فان رعاياهم يفلتون من أيديهم بعد ان يقيموا في المدن . لذلك بدأ الابقاء على الوضع الاجتماعي لسواد المصريين شرطاً للابقاء على وضعهم الاقتصادي : فاللاجيون كانوا بحاجة الى يد عاملة يحصلون عليها ويسخرونها على هوام .

ولكن وجد أيضاً اغريق في مصر في غير هذه المدن الثلاث . ولم يحدد شيء من الريف حريتهم في الإقامة والانتقال . غير ان مشاريع الدولة الاحتكارية لم تقسح سوى مجال ضيق لاقدامهم ومبادياتهم التجارية . لذلك فان أكثر الذين عاشوا في الريف المصري لم يأتوا اليه من تلقاء انفسهم : فالملك الذي يقدر تفوقهم التقني قد اقامهم فيه لاعتبارات مختلفة . وقد استخدمت الادارة ، التي لا تعترف بغير اليونانية لغة رسمية ، عدداً كبيراً منهم حتى في مراتبها الدنيا . وقد اقطع بعض المحظيين منهم اراضي واسعة نشطوا في استجارها بمساعدة قمعين يونانيين وفاقاً لمناهج افضل . واعتمد اللاجيون اخيراً على نطاق واسع نظاماً استعمارياً عسكرياً لمصلحة الجنود اليونانيين في الدرجة الأولى .

ان هذا النظام يعفي الملك من دفع الاجور بين التبعئة والتبعئة . وله الفضل بالاضافة الى ذلك في ابقاء رجال الجندي المميزين في مصر وفي حملهم على الزواج وانجاب الأولاد فيها . يبقى الجندي مرتباً بوحدة معينة من وحدات الجيش تحت امره رئيس معين ولكنه في الوقت نفسه يتصرف « بقطعة » ارض تؤمن له زراعتها أوده وأود عائلته وحتى أود حصانه اذا كان فارساً . وتتفاوت مساحة القطعة بتفاوت مرتبته ومركز الوحدة التي ينتمي اليها .

وعلى الرغم من ارتفاع عدد هذه القطع في بعض المناطق لا سيما في القيوم حيث افضت الاعمال الى توسيع رقعة الاراضي الزراعية ، فانها قد كانت مع ذلك منتشرة هنا وهناك يخضع توزيعها لعاملي الترفيع والشعور ، ونادراً ما عاد التصرف بها لشخص واحد ، كما لم يكن من الضروري ، من جهة ثانية ، ان يتجارر فيها الجنود المنتمون للوحدة نفسها في الجيش . وتبقى الارض مبدئياً ملكاً للملك ولا يتصرف بها الجندي إلا تصرفاً مؤقتاً : عند وفاته تستعيد الادارة القطعة ويمكنها ان تسلمها لمن تشاء . ولكن تطوراً محتوماً أدى بسرعة الى التنكر لهذا الوضع القانوني . فالملك يكون سعيداً جداً في ان يبقى في القطعة الابوية ابن الجندي المتوفى شرط ان يصبح هو نفسه جندياً . وهكذا غدا الجنود رويداً رويداً يوصون بأراضيهم لأراملهم أو يرهونها أو يبيعونها للغير : فأصبحت الارض المقطعة للجنود ، عملياً ، ملكاً خاصاً في النهاية .

وهكذا أقام الاغريق في أملاكهم في الريف المصري . عاشوا فيها بين البلديين ، وقد زاد من الاتصال بينهم انه تعذر تشييد بيوت جديدة كافية لجميع هؤلاء السكان الجدد . واستعمل الملك لاسكانهم حق في المصادرة : ففرض على ملاكي البيوت ان يتنازلوا عن نصفها للجنود ، تنازلاً مؤقتاً في البدء ما لبث ان اصبح نهائياً كتملك الارض المقطعة . واذا أدى هذا الوضع أحياناً الى تساكُن حقيقي ، فانه كان أبعد من ان يجعل هذا التساكُن ذا فعالية من حيث التقارب العنصري . اجل لم يبيغض المصريون الاجانب بغضاً مبدئياً ، ولكنهم رأوا في هؤلاء الجنود دخلاء يجرمونهم من قسم من بيوتهم ، وزاد في حقدهم التصادم اليومي المتعدد الذي يسببه الجوار القريب : ولم يرضوا مرغين بهذا التدبير إلا بعد زمن طويل .

اضف الى ذلك انهم نظروا الى الاغريق نظرتهم الى من يحسم ادارة مزعجة متطلبة يشغل مثولها المباثرون والملتزمون مطالبها بتجاوزاتهم . ومن حيث ان البلديين ، من جهة ثانية ، فاقوا الاجانب عدداً الى حد بعيد ، لم ينتشر الاستغراق انتشاره في المدن . لا بل غالباً ما تأثر الاغريق أنفسهم بالاخلاق المصرية ، لا سيما وان الزواج المختلط الذي حرّم في المدن ، قد سمح في الارياف في ما يظهر . ولكن نظاماً شبه مدني خاصاً بمصر ظهر مع ذلك ببطء ، أقله في القرى الكبيرة ، ولا سيما قواعد الاقسام الادارية الهامة : بورجوازية حاولت الاحتفاظ بطابعها اليوناني بفضل جمعياتها وتربية أولادها في الاندية الرياضية وبلغت تقريباً ما حاولته ، ولكن بكثير من الزيف والافساد .

من حيث ان الفلاحين لم يستغرقوا ، فانهم لم يخلصوا يوماً لسلالة كانت أبعد من الملكية اللاحية والمجتمع البلدي ان تصبح سلالة قومية بسبب اعتدادها في الحرص على البقاء يونانية . ومهما بلغ من امر انقيادهم السليبي ، فان هدوءهم كان منوطاً بالوضع المسادي الذي يوفر لهم . وقد رعى الملوك ذلك ، وانسجاماً منهم مع المثالية الملكية ، من جهة ثانية ، وأوصوا عملاهم بالعدل والسزاةة وتقبلوا شكوى رعاياهم وتباهاوا بتقويم الاخطاء وتوزيع السعادة .

ولكن شتان بين النظرية والواقع لأنه قام بيئتها هوة لم يتح لتقنية الادارة اذ ذلك ان تربلها . فلم تحمل الرقابات على انواعها دون تجاوزات الموظفين ولا دون اختلاسات ملتزمي الضرائب أو الاحتمارات المسؤولين شخصياً عن كل نقصان والمفضي عليهم من ثم لا فلاس اذا ما برهنوا عن نزاهة كلية . ومن حيث ان النظام الاقتصادي والمالي كان مصمماً بحيث لا يترك البلديين إلا الحد الأدنى من كفاف العيش ، فقد آل مصيرهم الى بؤس لا يطاق بفعل التجاوزات أو التخطط وكلاهما لا مناص منها بين آونة وأخرى .

أخذت الآلة بالصريف باكراً جداً . فليجأ الفلاجون المصريون ، بصورة فردية ومتفرقة أولاً وأكثر تواتراً ثانياً ، الى ابسط وسائل الاعتراض : الاضراب . وليس المقصود بالاضراب رفض العمل والبقاء في المنزل ، اذ ان للملك حق المصادرة والسخرة ، بل الاختفاء او الحرب الى مكاتب تجعلهم امتيازاته بأمن من ملاحقة الشرطة ، اي الى أحد المعابد على العموم ، فحاولت الادارة مكافحة ذلك بالحد من الحق الممنوح للمعابد في الحماية وبإضافة قسم على عقود العمل بمتابعة العمل حتى النهاية « وبالامتناع عن الذهاب الى معبد إله او مذبح ملكي او مكان حماية او مكاتب حصن » . ولكن ذلك لم يمنع انتشار المقاومة السلبية .

وقد حدثت في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الثاني ، ثورات عنيفة في مصر العليا وفي الدلتا . وكان مصدرها ، كما يقول بوليب ، غطرسة المصريين الذين ارتكبت الدولة خطأ في تسليحهم وتدريبهم كالجند المقدونيين لمواجهة ضرورات الحرب ضد السلوقيين والذين نسبوا لأنفسهم الفضل في احراز النصر . ليس من ريب في ان هذه التدابير العسكرية كانت بمثابة اعلان الانتفاضات . ولكن سبب الانتفاضات البعيد العميق كان وطأة الرسوم على انواعها التي اثقلت كاهل البلديين .

التف الثائرون حول زعماء اطلق بعضهم على انفسهم لقب الفرعون ، فاقبهم اللاجيون عقاباً صارماً . ولكن ما ان تم اخضاعهم حتى عمد عدد من الملوك الى سياسة التنازلات ، لا سيما حيال الطبقة الكهنوتية التي اعادوا اليها امتيازاتها وتكرموا عليها بهبات سخية . ووسعوا مساحة الاراضي المقطعة للجند المزارعين الذين من اصل مصري ، حتى دون الحاقهم بوحدة عسكرية ارفع شأناً عن طريق تغيير قوميتهم الرسمية . وخصوا ببعض الامتيازات المصريين الذين قبلوا بالاستغراق ، وقد بلغتنا اخبار بعض حالات ذات مغزى في هذا المجال . فاتخذ مصري يدعى « نختسافيس » اسم « مارون » اليوناني ثم حصل على لقب « مقدوني » . وقد حصل مصري آخر يدعى ديونيزيوس - بيتوسارابيس على لقب « صديق الملك » ، غير ان كل ذلك لم يكن سوى امور استثنائية . فالسواد الاعظم لم يؤخذ بهذه الغريات التي لم تفره قط . ولعله لم ير في مثل هذه التنازلات سوى دافع آخر جديد للاستمرار في تعلقه بتقاليدته .

وإذا حدثت من جهة ثانية ان ضعف السلطة الملكية المتزايد ، الذي أدى الى الفوضى الادارية

وعظم الانظمة الشكلية ، ، قد خفف من الظلم الذي شكاه الفلاح ، فانه قد سهل في الوقت نفسه اختلاسات الموظفين التي ما زال الفلاح ضحيتها ، دونما ملجأ بعد بروز هذا الضعف . واستمر الحرب الذي غدا ، عند الريفيين المصريين ، تقليداً لم تقوروما نفسها على استئصاله .

يستحيل إذن نكران الفشل النهائي في كافة الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذي منيت به الإدارة اليونانية في مصر : وكان يوسع روما ان تقطف هذه الثمرة الناضجة للفتح ، قبل ان تقدم على ذلك بزمن طويل ، والشيء الخطر في هذا الصدد هو ان اسباب الفشل كانت داخلية بنوع خاص : فالصعوبات الجديدة لم تأت من الهزائم التي اوقعها باللاجئين العدو الخارجي ، بل من داخل مصر ، لأن انضواء الرعايا لم يحصل . ورد بعض المؤرخين المتأثرين بالاقتصاد الحر هذا الضعف الداخلي الى مبدأ النظام المباشر والموجه نفسه الذي اعتمدته الملكية مثلاً على ولكنه لم يازم باستمرار الانسان ولا الأشياء . ان هذا الاستنتاج مغالى فيه اذا كان المقصود اعطائه صفة الشمول والديمومة . فالاقتصاد اللاجبي لم يكن بعد ليستطيع الحصول والاعتماد على جميع الوسائل التقنية ، البشرية والمادية ، الضرورية لبلوغ الهدف . فالأجدر ان يرد هذا الضعف الى التصميم على اقصى استثمار اثافي الذي ساد تطبيق هذا النظام ، لأن اللاجئين لم يسعوا الا الى زيادة مواردهم المباشرة التي جنوها من احتلالهم ومن رعاياهم ، ولم يريدوا استخدام هذه الموارد الا لمصلحة الملك وسلطانه الذي هو اداة سياسته الخارجية بدلاً من استخدامها لرفع مستوى حياة المصريين ابي لضمهم الى الأغرريق تحقيقاً لمصلحة هؤلاء واولئك المشتركة .

٢ - الحل السلوقي في آسيا

كانت سياسة السلوقيين ارحب آفاقاً . ولعلمهم ادركوا مهمتهم منذ البداية ادراكاً يختلف عن ادراك السلوقيين . وهنالك حالة عائلية تقدم دليلاً ذا مغزى على هذا التباين . في السنة ٣٣٤ ارغم الاسكندر ، في « سوزة » ، ثمانين من كبار ضباطه على الزواج من نساء ايرانيات ، كما فعل هو نفسه . فكل الذين وصلتنا اخبارهم ابطلوا زواجهم بعد موت الفاتح ، متنكرين بذلك لسياسة الامتزاج التي ارادها الاسكندر ، ومرتبدين الى عصبية عنصرية اكثر انسجاماً مع التقاليد اليونانية . ولم يشذ عنهم سوى واحد فقط هو سلوقس نفسه الذي كان مدعواً لأن يؤسس السلالة التي كان القسم الأكبر من آسيا الغربية من نصيبها . فهو لم يطلت « افاميا » البختيارية او انه لم يطلقها الا في عهد متأخر ؛ واطلق اسمها على عدة مدن انشأها بكاد يوازي عددها عدد تلك التي اطلق عليها اسم والدته « لاونديكي » ، كما سلم ملكته الى ابنسه انطيوخوس الذي انجبه منها . فلم يأنف السلوقيون فيما بعد ، اقله في بعض الظروف ، من تزويج بناتهم الى بلاطات ثانوية في آسيا الصغرى او التزوج من بنات هذه البلاطات التي لا ريب في انها استغرقت باطراد ولكنها من اصل محلي ، لا سيما أسرة الـ « متريدات » الإيرانية ، اسباد كبادوكيا البوتنية . وليس من ريب في انها مصاهرات

دبلوماسية ، ولكنها تناقض بوضوح حرص البطالسة في العهد نفسه على نقاوة الدم التي كان من مبالغتهم في المحافظة عليها انهم رأوا خير حل لها في زواج الملك من شقيقته .

بيد ان الواجب يقضي بأن لا نبالغ في اهمية هذا التفرد من الوجهة العملية . وان هنالك في الحقيقة اسباباً اخرى لسياسة السلوقيين : فهي لا تخضع لمبادئ مقرررة في الحرية حددتها الوراثة خضوعها لضرورات ملحة . فالسلوقيون ايضاً يستهدفون الثروة للتمتع بالقوة . ولكن مساحة مملكتهم وعدد رعاياها ، وكلاهما يفوق مساحة وعدد رعايا مصر ، اذ احاط لهم تأمين موارد كافية دون ائثار مطالبهم . اضافة الى ذلك ، وهذا هو الامر الجوهرى ، انهم لم يحكموا ، شأن اللاجئين ، شعباً واحداً ، واحداً بخضارته التقليدية ، ومرغماً على الوحدة بوحدة ظروف المعيشة نفسها وبالنظام الذي تفرضه عليه الطبيعة . فليس ما يشبه دولتهم في اختلاف عنصرياتها : الاغريق والاسبانيين والساميين والايرائين ، وكلهم شعوب يختلفون جنساً ولغة وديانة وتنظيماً اجتماعياً ومستوى تقنياً ونوع معيشة . القوة العسكرية واتفاق الظروف هما الذاران جمعا هؤلاء الرعايا المختلفين تحت سلطة سيد واحد . غير انه لا يعقل ان يتوق هذا السيد الى مراقبة حياتهم اليومية باقامة ادارة تتوفر لديها وسائل العمل والموظفون للسيطرة على هذا الواقع المتعدد الاجزاء ، فاضطر اضطراراً لاعتماد اساليب اخرى .

لا تترك اعمال السلوقيين مجالاً للشك حول الاسلوب الذي اعتمدهوا بالترفضيل على غيره : نشر الحضارة اليونانية . فهم لم يروا فيها حضارة متفوقة تقنياً في الحقلين الاقتصادي والعسكري فحسب ، بل العاد الاكبر المشترك الوحيد بين رعاياهم . اجل بقي امامهم ان يحولهم اليها . ولكنهم لم يخشوا نتائج هذا التحويل بل شجعوه وفقاً لحطة مرسومة بالاقدماء على انشاء المدن وبالتاثير على النخبة الاجتماعية بين الشعوب البلدية .

السلوقيين والاكثر من المدن بلغت جهودهم في سبيل « تمدن » مملكتهم على الطريقة اليونانية شأواً بعيداً يقع في النفوس موقعاً جليلاً : وهم قد برهنوا في هذا المجال ايضاً ، وللأسباب نفسها ، عن تقديمهم بمثل الاسكندر ، ولكن بصورة اكثر ظهوراً واستمراراً منها في الزواج المختلط . ومن اشهر ما انشأوا مدينة « انطاكية - على - العاصي » في سوريا ، ومدينة « سلوقية - على - دجلة » في بلاد بابل . ولكنه من السهل علينا ان نذكر مدناً اخرى كثيرة ، ويعزو التقليد الى سلوقس الاول وحده تأسيس ٥٩ مدينة : ١٦ انطاكية (على اسم ابيه) و ٩ سلوقية و ٥ لاذيكي الخ ... اجل قد خف هذا النشاط بعد ذلك ؛ ولكن انطيوخوس الرابع ، حوالى السنة ١٧٠ ، قد جده بعض الشيء .

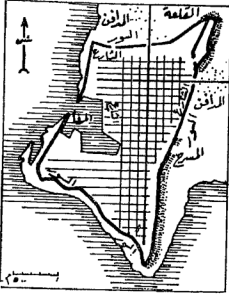
من الثابت ان الملكية قد سيطرت ، اقله في قسم كبير من القرن الثالث ، على الساحل الايحيى في آسيا الصغرى الذي سبق له ان كان يونانياً او مستغرماً ، وانها استطاعت بالتالي ، باكثر سهولة من المملكة اللاجبية ، ان تجسد الاغريق في اراضيها نفسها : فعند ما رغب انطيوخوس

الرابع في توسيع مدينة انطاكية في بلاد فارس ، ارسلت له مدينة « مغنيزيا - على - مندريس » ،
جهوراً من المهاجرين المزارعين ، وهي نفسها التي ارسلت مهاجرين آخرين لتأسيس انطاكية في
بيزيديا . ومن الثابت ايضا ان عدداً من هذه المدن لم ينشأ من العدم ، اذ كثيراً ما يقصد بالانشاء
ابدال اسم او وضع ، او رفع مدينة بلدية راهنة الى مرتبة المدن اليونانية . ولكن مها بلغ من
امر شكلية هذا الانشاء فانه قد انطوى دائماً ، اقله ، على اقامة سكان جدد ، اغريق او مستعرقين ،
يكتسبون صفة المواطنين ويفقدون قوميتهم السابقة ، وما كانوا ، بالتالي ، ليرضوا بهذا التغيير
لو لم يجدوا فيه افادة مادية ، اي ملكاً عقارياً في ما يعنيننا .

لذلك يجب الاتساع للصعوبات التي تتطوي عليها سياسة تطبق بمثل هذا الاتساع . فحتى
اذا لم تكن المدينة جديدة بالكلية - وهذا ما نواجهه احياناً - فانها تخضع لبعض التجديد على
الاقبل : اذ ليس من مدينة يونانية لا تضم في وسطها أسواراً وحصناً وساحة عامة وشوارع
ومعابد وأبنية عامة اخرى ؛ وليس من مواطنين اصليين دون بيوت وارايس . وانما يقع عبء
كل ذلك على الملك الذي يتخلى عن قسم من اراضيه ويتحمل نفقات التأسيس الأول . ولا نعجب
من ان يكون التصميم على مثل هذه البساطة - مربعات هندسية تتفق على كل حال مع مبادئ
التجميل الهليني منذ القرن الخامس - وان تكون قياسات الساحات العامة والشوارع موحدة
تقريباً : ويجب ان نمتدده انه قد قامت ، في خدمة الادارة ، مكاتب دروس ومصالح هندسة
عمارة نرجح ان مهامها كانت مرهقة لأنها حاولت ، بنجاح شبه دائم ، التوفيق بين الخطوط
الرئيسية للتصاميم الموحدة وبين الظروف الخاصة بكل موقع . فكان الجهد المبذول عظيماً ؛
وعظيمة ايضاً كانت الكلفة التي جرت بها ضخامته ومدته في الأزواج والأموال .

وبالاستطاعة تقدير تجرد هذا الجهد تقديراً افضل ، اذا لم تنس ان المدينة ، من حيث هي
مدينة ، تتمتع بجد أدنى من الحريات الادارية والسياسية احياناً . فالملك ينشئ المدينة في
اراضٍ تخضع لسلطته المطلقة : فهو يتخلى اذن ، لهذه الغاية ، عن قسط من سيادته . وغني عن
القول انه لا يتوخى مما يقدم عليه مجرد الحسارة . فالمدينة الجديدة التي يقيم فيها حامية عسكرية
تؤلف نقطة دفاعية يتوقف امامها غزو الاعداء . ثم ان المدينة تدفع له الجزية ؛ فهي تنشط
الحركة الاقتصادية في المنطقة المحيطة بها ، فتزداد بالتالي الموارد الاميرية عاجلاً أم آجلاً . ولكن
ذلك لا يوازي ما ينطوي عليه قيامها من انتقاص للسلطة الملكية التي تضطر لأن تحسب حساباً
لجهاز يتمتع بنظام خاص ، بعد ان تكون من قبل سلطة مباشرة . فتزول الإدارة المباشرة
ويصبح على الملك ان يلبأ الى الدبلوماسية حيال رعاياه انفسهم . وحيث كان يكفيه ان يصدر
أمراً لفرض ضريبة جديدة او طلب قرض او جمع متطوعين ، اصبحت عليه ان يدرهن عن كرمه
او ان يركن الى الحيلة للاحتفاظ بتأثيره ونفوذه وان يوجد التوازن في الاستقلال الممنوح
للأجهزة البلدية برقابة « وكيل » وان يحاول ضمان ولاء وخوف المواطنين كي يفوز بأيديهم في

حالة الحرب او ان يتلافى ثورتهم فقط . لذلك فان نظام المملكة نفسه قد تبلبل وانقلب بفعل الاكثار من المدن . ولوان « التحضير » على الطريقة اليونانية نفذ تنفيذاً كاملاً لأدى الى جمعية من الدول الصغيرة المستقلة المتحاذية لا يكون الملك فوقها سوى عنصر توحيدى مهمته الإبقاء على الوحدة وادارة الشؤون العامة اى الدبلوماسية والحرب . ولعل السلوقيين ناقوا الى هذا الهدف توفراً لاوعياً على الرغم من انه لا يعري الملوك اصلاً .



الشكل ٢٧ - خريطة لارذيكيا البحرية السلوقية (وتعرف اليوم باسم اللاذقية)

غني عن القول ان
المدن اليونانية
والبورجوازية اليونانية في آسيا
النتائج جاءت
متباينة وفاقا
للنطاق .

كانت المهمة على بعض السهولة في الشطر الغربي من المملكة، لا سيما في السواحل المتوسطة حيث سبق للحضارة اليونانية ان تأصلت وحيث لم يأنف الاغريق ، على انهم كثر فيها ، من ان يأتوا من اليونان نفسها للاقامة فيها . فالواقع هنا لا يجيب الآمال . لذلك فان جميع المنطقة الغربية من آسيا الصغرى وساحلها الجنوبي وكيليكيا ، شرقي بحر ايجه ، قد غدت ملكاً للمدن اليونانية؛ ويميز القول نفسه عن سوريا الشمالية حيث اطلقت على الجبال والأنهار والمناطق الطبيعية اسماء جغرافية مقدونية . في هذه المنطقة من سوريا ، وبين مدن اخرى كثيرة، شيدت انطاكية، أشهر العواصم الملكية، وقامت على مقربة منها صاحبتها « دفسى » حيث انشئ معبد الإله السلالي بولون . وقد ازدادت اهمية هذه المدينة ، مادياً وسياسياً ، بعد ان ضاقت اراضي دولة السلوقيين الذي اصبحوا في النهاية « ملوك سوريا » فحسب : فمقت حتى آخر العهد القديم احدى اكبر عواصم الشرق المتوسطي ، منافسة الاسكندرية ومشتهرة بثروتها وبذخها، ونشاطها وحتى سحسباً ، وملذاتها وحتى فجورها . وتابعت المدن الفينيقية القديمة ، ابعد الى الجنوب ، تلقى الحضارة اليونانية الذي اقدمت عليه بخيرة منذ قبل الاسكندر . ويميز التأكيد ان النجاح في كافة هذه المناطق قد بلغ الكمال الممكن بلوغه ، ولكن يجب ألا ننسى ان العمل المنجز ، الذي كان منقوصاً عندما استلمت روما الارث السلوقي ، قد اتته روما مجزء ، واليه يعود بالتالي بعض الفضل في تحقيقه .

يجب ألا نغفل أيضاً ان ساحل آسيا الصغرى الجنوبية وساحل فينيقيا وفلسطين قد بقيا في

السابق ، طيلة قرن تقريباً في اوائل العهد الهليني ، في ايدي البطالسة وباشرا خلاله تطبيق هذه السياسة . وبدل تناقض عملهم هذا لسلوكمهم في مصر انه استحال على ابي ملك الوقوف في وجه نشر الحضارة اليونانية حيث كشف التطور السابق ، التلقائي ، عن ان امكانات هذا النشر لها ما يبررها جدياً . ولكن السلوقيين قد بذلوا الجهود نفسها في مناطق اخرى ، مما ثبتت انهم خضعوا لدافع غير ذلك الذي خضع له البطالسة .

ومع ذلك فان الظروف كانت اقل مؤاتة في وسط المملكة وشرقيها . فلم يتوفر الرجال المهمة على هذا الشأن في مملكة على هذا الاتساع . وقد نفر الاغريق من الابتعاد عن البحر ، كما ان طبيعة الحضارات المحلية وميزاتها الخاصة التي لم يسبق لهم ان واجهوها من قبل قد زادت من شعورهم بابتعادهم عن بلادهم . بيد ان مدناً جديدة كثيرة قد انشئت في بلاد ما بين النهرين وبلاد بابل وبلاد سوزا وحتى في قلب ايران . اما المدينة التي عرفت اعظم نمو فهي « سلوقية - على - دجلة » المؤسسة لمنافسة بابل التي أبعد شطر من سكانها لتكثيف السكان في المدينة الجديدة . واعتبرت بابل ، بسبب صبغتها الشرقية العميقة ، ابعد من ان يمكن نشر الحضارة اليونانية فيها ، مما لم يمنع انطيوخوس الرابع ، من جهة ثانية ، من ان يحولها هي ايضاً الى مدينة يونانية بعد ذلك بقرن ونصف . ولكن سلوقية - على دجلة ، في هذه الاثناء ، امست مركزاً تجارياً كبيراً ومستودعاً للتجارة مع الشرق الاقصى واحدى اكثر المدن سكاناً في العالم القديم . وقد ذهب « بلين القديم » ، في القرن الاول من العهد الميلادي ، الى القول ان سكانها يبلغون ٦٠٠.٠٠٠ . وهذا ما يوازي ، على الأرجح ، سكان انطاكية وسكان الاسكندرية ، ولكنه دون سكان روما .

كانت النتيجة المباشرة والملموسة لهذه الجهود انتشار الاغريق في كافة انحاء المملكة . بيد ان نسبة توزيعهم بقيت متفاوتة فكانت مرتفعة هنا ومدنية هناك ، على ان منطقة واحدة خاضعة للسلوقيين لم تخل منهم . واذا ما حدث ان وجدوا منعزلين ودون تنظيم ، فان ذلك لم يقتصر على المملكة السلوقية ، بل حدث في كافة الممالك الهلينية . كانت ابواب الشرق مفتوحة على مصراعها امامهم ، وكان باستطاعتهم ان ينتقلوا فيه ويتعاطوا التجارة ويتملكوا الاراضي شأن الرعايا الاخرين ، شرط التقيد بالأنظمة ودفع الضرائب . اما ما يميز المملكة السلوقية عن مصر اللاجية ، فهو انهم استطاعوا من جهة ثانية ان يتلاقوا فيها في كل مكان ، منذ البداية ، مؤلفين جماعات منظمة ، بصفة مواطنين لمدن تتعم « بشرية » هي دستور يحدد حقوقهم وواجباتهم ، وسكان مدن تتوفر فيها المعابد والمنتديات الرياضية الضرورية للابقاء على حضارة يونانية يستطيعون ان ينقلوها بكل حرية الى اولادهم . وان ما لم يحصل عليه اغريق عواصم المقاطعات المصرية الا ببطء ، حصل عليه اغريق المدن السلوقية فوراً ودونما جهد .

كلوا اذن في الواقع ، منذ البداية ، يورجوازيين محظيين وقر لهم تملك قطعة ارض يساراً كريماً ، لا باستئجارها بأيديهم ، بل بمساعدة بعض العبيد او يد عاملة لا يدفعون لها اجوراً

مرتفعة . فكانوا بالتالي بوجوازيين يكادون يتساوون ، من حيث المستوى الحيائي ومن حيث ميولهم للحياة الجماعية والحياة الخاصة على السواء ، مع أولئك الذين انتسبت إليهم في الوقت نفسه الطبقة الحاكمة في مدن اليونان القديمة : فقد مهم كثيراً ان يتشبهوا بهؤلاء وان تتفوق مدنهم على مدن اليونان القديمة بنفخحة ابتيتها واعيادها وبشهرة مدارسها وقنائها . وقد توصلوا الى مبتغاهم في أكثر من حالة ، بمساعدة الملوك أو دونها ، اقله على مقربة من المتوسط . وهكذا فان ازدياد البورجوازية اليونانية وتفرقها في آسيا يمثلان احد تحقيقات العهد العظمى وحدئا اجتماعياً كانت نتائجه كبيرة الامة على الحركة الفكرية ، كما سرى . بيد انه من الجلي ان السلوقيين ، بفضل سياستهم التحضيرية والتضحيات التي تحملوها في تنفيذ هذه السياسة ، ان لم يخلقوا هذا الحدث الاجتماعي الذي لاحت دلائله قبلهم ، قد اسهموا على الاقل اسهاماً بعيداً في الاتساع الذي اتسم به في مملكتهم .

عمل المدن اليونانية
 قبل ، نشر الحضارة اليونانية . وقد بدا لهم اجتذاب الشرقيين الى حضارتهم الخاصة وسيلة لضبان ولائهم . وهي وسيلة مريبة على كل حال لأن السلوقيين لا يستطيعون الزعم بأنهم الاسرة الوحيدة التي ينتسب اليها فاسيلس يوناني ، ولأن زعماء آخرين ، اقله في بلاد البختيار ، لم يقلهم السلوقيون على الرغم من انهم نظروا إليهم كمتصين ، قد استمروا في بذل جهود بمائة . وقد صادف السلوقيون في النهاية متاعب سياسية حتى في المدن الملكية ، كالعاصمة انطاكية مثلاً . فهل يستنتج من ذلك ان مصلحة الحضارة اليونانية تغلبت ، عند بعض ممثلي السلالة ، على مصلحة السلالة نفسها ؟ ولكن المرجح انهم اعتبروا ان المصلحتين تتلاقيان ، وفي هذا الاعتبار كل الحق لو بقيت السلالة قوية . وكان العدو الحقيقي ، العدو المشترك ، في الواقع ، البدوي او الجبلي السجس المستلب الذي رفض الخضوع لادارة منظمة والاكتفاء بعمل منتظم والتكيف وفاقاً لمقتضيات تقنية زراعية عليا ، معترضاً بذلك ما تنوق اليه كافة الحكومات ، اي النظام وزيادة الانتاج والمبادلات . ففي هذا الصراع ضد العاصي ، كانت المدينة افضل سلاح ، لا مركز رقابة عسكرية فحسب ، بل مركز اشعاعي تنتشر منه العادات الواجب نشرها ، اي كقدوة واداة تحويل وارتداد .

جعل عدد المدن التي انشئت أو حوّلت وفاقاً للطريقة اليونانية ، من المملكة السلوقية ، حقلاً اختبارياً واسع الأطراف صادف فيه كسب البلديين اديباً ظروفأ أكثر مؤاظة منها في مصر اللاجية . أجل لم يحصل كل البلديين القيمين في أرض مدينة من المدن على المواطنة الكاملة . فان المنطقة الريفية التابعة للمدينة قد أمنت استثمارها باستمرار حساب الملاكين ، وهم مواطنون في أغلب الأحيان ، يد عاملة من الفلاحين الذين لم يطرأ على مصيرهم الفسائوني والعملي أي تغيير . وكانت في المدن نفسها فئات من السكان الى جانب المواطنين ذوي الحقوق الكاملة ، أي جماعات

ذات وضع أدنى كالأجانب المقيمين مثلاً . غير اننا لم نر في أية مدينة آسيوية أنظمة أشد تدقيقاً وعدهاء لقطع الحدود القانونية منها في الاسكندرية . أجل كان الاستغراق بالفعل أمراً محتوماً بسبب الاتصال اليومي وبسبب الاطوار المادي نفسه للمدينة ولكل ما يستلزمه زخرفها البنائي ويدخله من عادات شأن المثال الانساني وبسبب الانسجام البيئي الذي كان بالنتيجة لمصلحة الطبقة المحظية الممثلة بالاغريق : كان التطور في كل هذا مماثلاً لذلك الذي حدث في المدن المصرية الثلاث . ولكن الاستغراق القانوني ، خلافاً لما جرى في هذه المدن ، قد تم ، في ما يظهر ، دونما صعوبة ، بعد جيل أو جيلين .

تكوّنت اذن في المدن طبقة من البلديين المستقرين الذين رفعوا رويداً رويداً الى مرتبة المواطنين أي أصبحوا رسمياً من الاغريق . وقد استازم ذلك من جهتهم حل اسم يوناني ، على اثنا نرى ، في هذا المجال ، كصفات كثيرة كان من شأنها تخفيف أثر الانتقال . فلدنيا أمثلة عن أشخاص عرفوا بإسمين واحد يوناني وآخر سامي . ولدنيا كذلك أمثلة كثيرة عن أسماء يونانية مركبة يدخل فيها اسم أحد الآلهة ، وهي طريقة تسمية قلّما لجأ اليها الاغريق وكثيراً ما اعتمدها الشرقيون فيما سبق : وليست هذه الأسماء في الغالب سوى أسماء سامية محرّرة بعد تمثيل إله شرقي بإله يوناني . واستازم الاستغراق أيضاً اعتماد الزي اليوناني والأخلاق اليونانية واللغة اليونانية : ونفس ذلك على كثير أو قليل من التمكن وخلوص اللينة أو من الشمول لأن القسائم يتأثرن كثيراً بالترعة اليونانية لأنهن لا يخرجن كثيراً ويحافظن على التقاليد القديمة .

بيد ان الاستغراق ، عملياً ، كان شاملاً في أكثر من حالة لاسيما بين الطبقات المسورة التي كان لأبنائها متسع من الوقت للتردد على المدارس والأندية الرياضية . فتكوّنت بوجوازية من أصل محلي لم يكن لها وجود من قبل في القسم الأكبر من الشرق حيث كادت الحياة المدنية تقتصر على فينيقية وبلاد بابل ، وكان تكوّنهما أسهل وأوسع منه في مصر . وقد توصلت الى الانصهار في البوجوازية اليونانية الأصل التي كانت مثلاً لغيرها واستطاعت بفعل تنظيمها ان تحافظ على حضارتها . وهذا ما يفسّر ميزة التطور الاجتماعي في المملكة السلوقية : فان هذه المملكة قد اتسمت بالحضارة اليونانية بنسبة تحضّرها أي بنسبة اتسائها الى البوجوازية بنوع خاص .

اختلفت النتائج العملية اذن وفقاً للمناطق أي وفقاً لكثافة الاغريق والمدن . وجاءت النتائج جدية بالاعتبار في غربي المملكة . فقد بلغ من تأثر مناطق واسعة في آسيا الصغرى بالحضارة اليونانية ان شعوبها التي اعتبرت « برايرة » في السابق لم تتميز عملياً عن الاغريق بشيء : كالكارين والبيديين بأجمعهم ، والفريجيين والكيليكين بأكثريةهم . أجل ان هذا التطور الذي بدأ من قبل لم يبلغ الكمال الا في عهد السيطرة الرومانية . ولكن العهد السلوقي أدخل المزيد من السرعة على حركته . ويصح القول نفسه عن الساحلين السوري والفيلقي وعن جزيرة قبرص . أما في شمالي سوريا فقد تولدت الحضارة اليونانية في المدن فقط ، اذ أن ظهور اللغات

المهلية فيما بعد، بفعل اندفاع الديانة المسيحية، يدل على أن الأرياف لم تتأثر كثيراً بهذه الحضارة؛ ولكن الريفيين قد حُرِّموا بسبب ذلك من نخبة اجتماعية كان باستطاعتها لو وجدت، أن تنظم مقاومة حضارتهم التي كتب لها بالتالي جود قائم.

أما في المناطق الأخرى فكان الأغرريق والمدن أقل عدداً وعلى شيء من التشتت والانعزال. ففي بلاد ما بين النهرين الوسطى والسفلى لم يثلوا سوى جزر صغيرة في محيط المساحات الشاسعة المتروكة لجمهير البديين. أضف إلى ذلك أن روما لم تستطع مواصلة عمل السالوقيين فيها لأن قسماً كبيراً من إرثهم، حين استلمته، كان قد انتقل إلى الفارقيين الأرساسيين الذين استقروا في بابل منذ السنة ١٢٩ قبل المسح والذين اضطرت أكثر من مرة لأن تدافع بصعوبة كلية عن حدود الفرات ضد هجياتهم. فالحضارة اليونانية اذن لم تشع عملياً سوى في مدن نادرة لم يتوفر الوقت والطاقة البشرية للاكتثار منها في ما دعي بحت « الشرق الأقصى السالوقي ».

وتجدر الإشارة مع ذلك، أقله في بعض المدن، إلى مقاومة الأغرريق المدهشة والنسافة لاستئراق كُن من الطبيعي أن لا يقف عددهم الضئيل في وجه مجاحه السريع. وإن البورجوازية اليونانية، تساندها البورجوازية المستغرقة على الأرجح، قد دافعت طويلاً عن حضارتها وأبقت عليها على الرغم من تفوق عددي ساحق تمتع به السكان الريفيون الذين حافظوا على قسم كبير من أنظمتهم الاجتماعية التقليدية والذين أعادت لهم انتصارات الفارقيين انظمة غير يونانية. أجل ساندت روما بعض الوقت الحضارة اليونانية في مدينة صغيرة كـ « دورا وأروبروس » على الفرات الأوسط التي كانت إحدى حصون حدودها. ولكن بعض الكتابات المكتشفة في بابل وسوزة القديمة التي أصبحت « سالوقية - على - الأفلابوس » تكشف عن استمرار اللغة والتنظيم والأخلاق اليونانية زمنًا طويلاً بعد أن حلت السيطرة الفارقية محل السيطرة السالوقية. أضف إلى ذلك أن هؤلاء الملوك الجدد قد أطلقوا على أنفسهم اسم « أصدقاء الحضارة اليونانية »؛ وفي السنة ٥٣ قبل المسح أرسل البريد الذي اشتمل، فيما اشتمل، على رأس كراسوس الروماني، إلى « ملك الملوك » في أرمينيا حيث كان يمثلون يونانيون يمثلون باللغة اليونانية، أمامه وأمام بطانته، لمناسبة عيد سلافي، رواية كاهنات باخوس لأورييد: فيفرض هذا السلوك المستهجن، يسلكه أولئك الذين كانت انتصاراتهم بمثابة عودة هجومية لحضارة إرانية هزمتها الإسكندر، بقاء عناصر يونانية في المدن تتمتع بنفوذ كاف للتأثير على الملوك وربما بقدر من القوة الفعلية بيد ومن المفيد معه مراعاة جانبهم. وماذا نقول عن بلاد البختار النائية التي حال الاحتلال الفارقي دون كل اتصال مباشر بينها وبين باقي العالم اليوناني والتي بقيت مع ذلك، حتى بعد العهد الميلادي، مركز إشعاع لحضارة يونانية نبضت بحموية كافية لأن تبسط نفوذها حتى على المناطق الشمالية الغربية من العالم الهندي؟ وهكذا فإن المدن اليونانية، حتى حيث حالت ضالة كشافتها دون استئالة البديين الكثيرين إليها، قد دامت مع ذلك في أكثر الظروف مناقضة للنطق. فليس من

دليل أفضل على حيوية مشاغل رخصة وزعها الملوك طيلة قرنين كاملين بسخاء وجرأة نادرة على هذه الأراضي البعيدة : فمما عسى النتائج ان تكون لو ان هذه المشاغل حصرت في مكان واحد واقتصرت على غربي الفرات مثلا .

اذا كان تأسيس المدن اليونانية عمل السلوقيين الرئيسي ، فانهم مع ذلك البلديون خارج المدن لم يكتفوا به لأنهم قد حاولوا ، في ما يظهر ، التأثير ، خارج المدن ، أقله على بعض طبقات المجتمع البلدي .

انطوى هذا المجتمع على مظاهر مختلفة جداً بسبب تنوع الشعوب التي تألف منها . بيد ان نظامه ، على العموم ، كان خلواً من كل شيء ديموقراطي : فقد أخضع ، في كل مكان تقريباً ، جماهير غفيرة محرومة من اليسار المادي ، وحتى من الحريات القانونية غالباً ، الى سيطرة نخبة مختلطة . أما فضل هذه النخبة على من سواها فقد يكون النسب ، اذ قد قامت امارات وارستوقراطيات وراثية . وقد يكون المراتب الدينية ، اذ قد قامت ديوقراطيات أفستت الوراثة منها المبدأ على كل حال . ولكن فضلاً آخر أكثر ظهوراً خارجياً ، بسيطاً وحتى بدائياً ، هو الثروة ، قد رافق في كل مكان الحالة الاولى او الحالة الثانية . فالملكية اليونانية وجدت اذن أمامها في آسيا مجتمعاً بلدياً أكثر تفارتماً منه في مصر حيث كان مستوى حياة كافة السكان وبقي متديناً جداً ، باستثناء الكهنوت الذي وجه اللاجئين لامتيازاته ضربات قاسية بغية اخضاعه للقانون العام . وفر هذا الوصح للسلوقيين امكانات مناورة واختيار : ولكنهم منذ البداية لم يعيروا اهتمامهم ، عن قصد ، سوى الطبقات الاجتماعية العليا .

كان باستطاعتهم محاولة مزج رعاياهم واعتاد نوع من الاستعمار الداخلي مثلاً للتوفيق بين السكان والموارد المحلية ، ولكنهم لم يفعلوا . أما الحالات الوحيدة التي نعرفها عن « مستعمرين » بلديين فردها الى أسباب أخرى ، عسكرية قبل كل شيء . وهكذا فان انطيوخوس الثالث ، اذا ما اعتمدنا عل ما أورده مؤرخ يهودي ، قد أصدر أمراً ، في السنة ٢١٠ ، في أعقاب الاضطرابات التي حدثت في ليديا وفرجيا ، بأن ينقل اليها ٢٠٠٠ عائلة يهودية من بلاد بابل يكون أفرادها رعايا أكثر اخلاصاً ويحملون السلاح عند الحاجة للدفاع عن وحدة المملكة . وكذلك أنشأ السلوقيون « مراكز » في غربي آسيا الصغرى ، حاذين بذلك حدو الملوك الفرس الذين سبق لهم وأقاموا هناك بعض الإيرانيين . ولكن كلمة « مراكز » كلمة غامضة قد تعني وقائع مختلفة جداً : قد تكون مستعمرات عسكرية كما قد تكون قرى تقام فيها بعض العائلات وتخضع بالتالي لاحصاء سنوي يتناول الشبان البالغين سن الخدمة العسكرية . ومهما يكن من الامر فان المستفيدين من هذه المراكز قد ألفوا جماعات بشرية مترافقة في حال أن اللاجئين قد وزعوا جنودهم المزارعين وفاقاً لشغور الاقطاعات الفردية . وهكذا فانتابنا نعرف جماعات مسن الفرس والكردوك الآتين من أعالي دجلة ، والغلاطين والميسين ، دون ان يتيسر لنا التمييز بين

ما حققه الاخيمينيون والسلوقيون والاطاليون في ذلك . ونعرف بنوع خاص « مراكز » المقدونيين لأن الطريقة قد اعتمدت هؤلاء . بما أفضى بعد ذلك احياناً ، الى ولادة مدن تباهت بأنها استطاعت ، حتى في عهد الامبراطورية الرومانية ، ان ترم على تقودها خوذة رفاق الاسكندر . ولكن هذا الاستعمار الريفي كان استجابة لمشاغل عسكرية : فهو قد استهدف اما ان يوطن في أرض المملكة الجنود الذين تخشى هجرتهم واما ان تسهل تعبئة الجيش وإما ان يحفظ الأمن في المناطق المضطربة أو الحدود . ولم يفكر السلوقيون في عملهم هذا بتحسين حال المحرومين من رعاياهم ولا بتخفيف ما يقوم بينهم من فوارق عنصرية .

لا ريب في ان توحيد اللغة قد استمر في ظل سيطرتهم . أجل ان الآرامية قد استمرت في الانتشار ، شأنها في عهد الفرس ، في مناطق واسعة من المملكة لم تقتصر فيها الحضارة اليونانية : فقد حلت أخيراً محل اللغة العبرانية في فلسطين . ولكن الادارة الملكية بقيت اذ ذاك بعيدة عن هذا التطور : فهي لم تعرف ولم تستعمل سوى اليونانية التي لم تتوطد الا في المدن الكثيرة السكان .

ان الوحدة التي كان السلوقيون يرغبون في تحقيقها هي الوحدة في الحضارة اليونانية ، وهي الوحيدة التي كان من شأنها تطوير السكان والبلاد تطويراً حقيقياً . ويمكن ان تقدم دليلاً على ذلك انهم قد سعوا مباشرة ، أقله هنا وهناك ، الى طبع البلديين بالحضارة اليونانية دون ان يستمينوا بالمدن . ولكن نشاطهم لم يتناول في هذه الحال سوى أعضاء الطبقات الحاكمة . فان نصفاً مسبارياً يعود الى السنة ٢٤٣ قبل المسيح يضيف الايضاح التالي الى اسم « أنو - اوباليت » ، « ذي المركز الثاني » ، في مدينة أوروك من أعمال بلاد بابل السفلى : « الذي اعطاه انطيوخوس ، ملك البلدان ، اسماً آخر هو نيكارخوس » . وبعد ذلك باثنتي وأربعين سنة ، اطلق على شخص يحمل هذا الاسم ، قد يكون من أحفاده ، ويحمل اسم سيفالون اليوناني أيضاً ، لقب « زعيم أوروك » . وهكذا أيضاً فان انطيوخوس الثالث يعهد بقيادات عسكرية رقيصة الى بعض البلديين كان أحدهم ميتريدات ابن شقيقته . وحين أصبحت فلسطين في أوائل القرن الثاني مملكة سلوقية انضمت الانتماءات الملكية على أعضاء الاستوقراطية اليهودية الذين عرفوا ان يبرهنوا انهم يقدمون تقوى الحضارة التي يمارسها الملك . فقد كان هنالك اذن ضغط على النخبة الاجتماعية التي هي أسهل منالاً وأشد تأثراً باغراء ما تستطيع حكومة ملكية ان تغدق على رعاياها الخالصين ؛ ويغلب ان هذا الضغط قد اختلف باختلاف المناطق .

اعوز السلوقيين في الواقع ، للتأثير على الجماهير الشعبية ، جراً لم يقدموا عليها . فهم لم يحوروا نظام اولئك الذين اطلق عليهم الاغريق اسم « الشعوب » ، لاسيا شعوب الريفيين ، المنحطين ، الذين يقابلهم الجنود . فقد استمرت العبودية والفدائية والتبعية التي تنظمها الاعراف دون أي تغيير . واحتفظت مصانع المعابد بما لها كما احتفظت الأملاك الريفية بفلاحها المرتبطين

وراثياً بالأرض . واحتفظ كذلك الحكام القدماء براكزهم على الرغم من توصل بعض الاغريق الدخلاء الطموحين الى احتلال مكان لهم بين المحظيين . ولم يضع الملوك في أي مكان نصب أعينهم تحرير العبيد الذي كان مع ذلك شرطاً أولاً لاستمالتهم الى الحضارة اليونانية .

من الجلي انه كان أسهل على الملوك ان يبقوا على الأنظمة الاجتماعية القائمة ويحسروا مجهودهم في احتلال النخبة احتلالاً أدبياً . فان فكرة انقلاب شامل ، أو مجرد اصلاحات تدريجية ، لم تراود قط أفراد اسرتين شريفيتين احدهن مقدونية والأخرى ايرانية . ولو راودتهم لكات الواجب قضى عليهم باهمالها لأن الأنظمة الادارية كانت أوهى ، بسبب بدايتها ، من أن تقوم مقام الأنظمة الاجتماعية التي يجب القضاء عليها ، ولأن الملكية ، المهذبة أبدأ بخطر أعدائها الخارجيين ، كانت عاجزة عن الاقدام على عمل داخلي هام .

فهل نجحت هذه السياسة الاجتماعية ، الحرية بأن تمتعت بالتحرز لو كان باستطاعتنا النتائج المتناهي عن تأسيس المدن اليونانية ، في توفير الهدوء الذي صبا اليه الملوك السوقيون على الأقل ؟ علينا هنا ان نعطي بعض الايضاحات .

لم يحدث ، على ما نعلم ، ثورات حتى ولا اضطرابات بسبب البؤس ، على تقيض مصر والمملكة الاطالية بنوع خاص حيث عقب موت آخر ملوكها ، في السنة ١٣٣ ، اضطرابات ذات طابع اجتماعي ، جزئياً على الأقل ، إذ أن عبيداً ثائرين قد لعبوا فيها دوراً كبيراً جداً . وإذا لم يحدث ذلك عند السوقيين فلأسباب بسيطة . فقد سهل عليهم أكثر من الملوك الآخرين ، كما رأينا ، ان لا يتفعلوا كاهل رعاياهم بالضرائب . ثم ان ابقاهم على النظام الاجتماعي التقليدي قد تلافي خطر الثورات : اذ جاء تواطؤ الأسياد الأجانب مع الطبقات المسيطرة يوفر السلامة لهؤلاء واولئك .

ولا يعني هذا ان الملكية السلوقية لم تعرف الصعوبات الداخلية الناشئة عن البلديين . ولكن هذه الصعوبات تبدو لنا ، بنوع خاص ، وكأنها ردات فعل ضد محاولات النيل من ديانة بعض الشعوب . وليس ما يوازي ، في هذا المجال ، من حيث الشهرة — وهي على كل حال شهرة . تبالغ في أهمية الاحداث الحقيقية اذا ما قسنا هذه الاحداث بمقياس المملكة الكبرى — ثورة اليهود التي تعظمها كتب المكابيين كلمحة وطنية . ومن الخطأ ان نتوقف عندها هنا لأننا لا نجد في هذه الثورة مكاناً محترماً لأسباب اجتماعية حقيقية . فهي لا تثبت بأسبابها وتطورها سوى الحقيقة التالية : ان استقالة شطر كبير من الارستوقراطية الحاكمة لم تجدد فتيلاً حيال شعب يتميز بمثل هذه الفردية الفظة وتحتلظ عنده الفكرة الدينية والفكرة القومية وتؤلف حضارته التقليدية جزءاً لا يتجزأ من النظام الذي أراداه الإله . لذلك فان مثل اليهود كان استثنائياً بفعل وثوق هذا الاتصال ، كما كانت استثنائية أيضاً الاخطاء الحرقاء التي ارتكبتها ضدم بعض الملوك السلوقيين في القرن الثاني . ولكن كيف يمكن ، آنذاك وفي المشرق ، الفصل بصورة مطلقة

بين الديانة والحضارة ؟ فتورة المكابيين تثبت اذن أنه استحال على الملوك اليونانيين اعطاء سيطرتهم اسماً واسعاً ، لا بل اسماً متيناً فقط ، باكتفائهم بأخذ النخبة الاجتماعية ، أخذاً يشك بإخلاصه ، بالحضارة اليونانية . وقد اتضح ذلك في سوريا الشمالية نفسها حيث أضح عدد المدن اليونانية استمالة هذه النخبة بكليتها : فالقاومة قد انفجرت ، عاجلاً أم آجلاً ، من الجماهير الشعبية المهملة الحام .

فلا يجب بالتالي ان نخذعنا لنجاح المقاومة في فلسطين . وليس الفضل فيه لعزم الثائرين وحده ، وهو عزم يثير الاعجاب على كل حال . فقد تلقى الثائرون عوناً غير مباشر من الخلافات العائلية التي مزقت السلالة في انحطاطها ومن تدخل الاجنبي أيضاً ، فقد ساعدتهم روما في الدرجة الاولى ، وهي التي عطفت على كل ما من شأنه ان يزيد ضعف الملكية . وساعدهم الفارتيون خصوصاً الذين انطلق هجومهم من حدود ايران الجنوبية وأفضى بهم الى احتلال بلاد بابل نهائياً . وخلافاً لما حصل في المملكة اللاجية ، فان المملكة السلوقية قد انهارت لأسباب خارجية أكثر منها داخلية .

غير ان الشيء الاكيد هو ان الفارتيين قد استفادوا من الوضع الاجتماعي القائم في الشرق الاقصى السلوقي . فاذا لم يثر البلديون قط على الضغط الاداري ، كما حدث في مصر ، فانهم ، على الاقل ، قد استقبلوا ييمود عدو أسيادهم اليونانيين الذين لم يهتموا بعض الاهتمام إلا للطبقات الحاكمة . ولكن هذه الطبقات ، باستثناء بعض الحالات الفردية المتحصرة عملياً على العناصر الثمينة في المدن ، لم تثبت سوى حضارة يونانية للمجاملة ، أي ظاهرياً فقط . ومن حيث هي بقيت سليمة واحتفظت بسلطتها ، فقد سببت دونما صعوبة ، بانتقالها الى الاعداء ، انتقال المجتمع البلدي كله اليهم ؟ ففي نجد ايرن بنوع خاص أعلن الفارتيون عن أنفسهم جنوداً للمعصرة الايرانية وخلفاء للاخمينيين .

يتضح بعد ذلك حساب ان سياسة السلوقيين الاجتماعية قد أفضت بهم الى خيبات أمل خطيرة كما جرى للبطالسة في مصر . فهم شأن البطالسة لم يهتموا قط لرفع مستوى حياة عامة الشعب . وعلى غرارهم أيضاً - وكان الامران مرتبطين على كل حال - لم يفكروا بان يوظفوا ، عند هذه العامة ، الفردية التي تحرر الشخص البشري ، وهي مفهوم أسامي في الحضارة اليونانية . أجل ، بنا أخص البطالسة رعاياهم للرقابة الشديدة ولاشراف ادارتهم المطلق ، اقتصر السلوقيون على إيقاظهم خاضعين للارستوقراطيات الكهنوتية أو العلمانية ، ولكن الحفوض هما كان من اختلاف أشكاله واختلاف المستمدين منه ، قد أفضى في النهاية الى نتائج ماثلة . وقد سبق لنا ورأينا ان الازدهار الاقتصادي في العالم الهليني قد تضرر بفعل ذلك ، لا سيما ازدهار اليونان القديمة الذي قوّضته منافسة الشرق وحرمته من سوق استهلاك كبير لصناعتها ، أعني بها هذه البلدان الجديدة . ولكن الملوك اليونانيين ، بالإضافة الى ذلك ، في مصر كما في آسيا ، باستثناء المنطقة المتوسطة في هذه القارة ، لم يحاولوا ، بفعل معاقبتهم وأنانيتهم وعدم ادراكهم ، ان يستميلوا بهم اديباً الطبقات الوضيعة بين السكان البلديين ، فدفعوا عن هذا الاهمال غالباً لأنهم لم يستطيعوا يوماً إزالة اعداء الخاضعين لهم الذين قامت قوتهم على اخلاصهم ونشاطهم .

الفصل الرابع

المعتقدات والأذواق والأفكار

إذا ما بقي اتساع وفاعلية الاختبار الهليني ، في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، دون الامكانات التي بشر بها عمل الاسكندر المحدود ، فالأمر على خلاف ذلك حيال المظاهر الأدبية في الحضارة . وانه لمن الصعب علينا ان نحيط علماً بكافة التجديدات الثورية المدعوة لمستقبل باهر التي جاء بها هذا العهد المضطرب في حقول الديانة والفن والفكر . فهو قد كَيْفَ ، لقرون طويلة ، روح وفكر البشر وفاقاً لمثل جديدة ، بينما سعت الحضارة الكلاسيكية جاهدة الى اخضاعها لأولوية عقل مجرد ، متوفقة في ذلك الى ما هو جوهرى . وقد شق بصورة نهائية طرقاً لم تُعرف من قبل .

الحضارة اليونانية والملكية
من الطبيعي ان هذه الوثبة قد ارتبطت بالنظام المادي الجديد الذي فرضته على العالم اليوناني الظروف والتطور التاريخي .

بقي المثل الأعلى ، في تحديده الجوهري ، مماثلاً لمثل العهد السابق : فالهدف هو أبدأ تشجيع تفتح الفرد وتحقيق أفضل الامكانات المدين بها لطبيعته البشرية خير تحقيق وأكماله . ولكن هذا المثل الانساني الذي بشرت تصميئه ومواصلة تحقيقه ما ينطوي عليه التاريخ اليوناني من ركازة واخفاق ، قد تجمل اذ ذاك . كانت حضارة البولس ، بتوجيهها إياه وفاقاً لحاجاتها الخاصة وبمحصره في إطار ضيق ، قد وضعت له حدوداً هي حدود الشرائع المبنية على العقل وعلى مصلحة المجموع الحقيقية ؛ فكان من المهم ، في العالم الهليني الذي وسعه فتح الشرق توسعاً مفرطاً ، أن تمدد هذه الحدود وأن تتراخى الاقتسارات ؛ فالرقابة والادارة ، اللتان تؤمنها سلطة أكث ، بعداً ، أقل ثقلاً على الفرد . وليست الانطلاقة بعد اليوم للامكانات التي تتفق مع العقل ، أي الامكانات الجسدية والفكرية فحسب ، بل أيضاً للامكانات التأثرية والمعامدة القياس .

هذا أيضاً طبعت الملكية بطابعها ، الى حد بعيد ، حضارة الأزمنة الجديدة . وان المثالية التي بنيت عليها قد أسهمت في تطوير النزعة الانسانية القديمة بتوسيعها . فقد أحاطت الملك بهالة ،

لا بل بالكيل من نور ، يخضع فيه العقل للصوفية ، والبرهان للثقة بقوى فائقة الطبيعة . وقد بدأ الملك ، بفضل هذه المثالية ، كمثل يقتدى به وكنموذج للإنسان المتجمل بالחסن والمواهب بما فيها نعمة الإله الذي يمنحه حرية ووسائل عمل تتيح لشخصيته أن تتفتح في كاملها .

أجل ليس باستطاعة الجميع بلوغ الدرجة القصوى من درجات الملكية بكل ما تطوي عليه هذه الكلمة من معنى . ولكن خبرة نصف القرن الذي عقب وفاة الاسكندر تبين ان بلوغها ليس وقفاً على أبناء الملوك ، والتوق الى مثل أعلى لا يستلزم الأمل الوطيد في تحقيقه . ولا ريب أيضاً في أن وجود ملكيات على قليل أو كثير من التنظيم هدد الحد من حرية الفرد . ولكن هذا الخطر لا يطال سوى الحرية السياسية . وإذا ما نظرنا الى النزعات الشاملة في البولس الصغيرة ، التي تبرز في شرائعها ، والتي غالباً ما يكفي ضغط الرأي العام لتقريرها ، اذا لم تقررها المحاكم ، يصبح من الصعب ان لا نعتقد واقع تجرير في نطاقات أخرى ذات ارتباطات لا تحصى ، أو لها النطاق الديني . فالتساهل يغدو أمراً واجباً على ملوك مدينتي للفتح ، بالتحديد وفي أكثر الأحيان ، بممارسة الملك على رعايا غرباء يمارسون شتى العبادات . أضف الى ذلك ان الاعتراف بتفوق يبرهه كل شيء ليس مرادفاً للاستخزاء : فلماذا لا يجدر بالإنسان الحر ان يعجب ويحب ويبدل نفسه يا ترى ؟ ومن ثم فان الواقع الملكي يقود الى مفهوم نزعة انسانية أعظم اتساعاً وتنوعاً من النزعة القديسة ومثل أعلى يهز أوتاراً أكثر عدداً فيوظف اصداه أطول مدى ، لأنه لا يحنق ، باسم عقل متفوق ، بعض النزعات العميقة في الطبيعة البشرية .

ثم ان الملوك قد ناصروا الآداب المناصرة محسوسة جداً بغية احاطة بلاطهم وملكهم بمجد يشعرون أنه أعظم ديمومة ونبل من المجد العسكري أو السياسي . وقد حرصوا ، حيال الحضارة التي تباهوا في الدفاع عنها ضد البرابرة ، لا على تأمين انتشارها فحسب ، بل على التوسع فيها أيضاً . وقد اهتموا ، بفعل ثقافتهم الشخصية وذوقهم المرفه أحياناً ، بأبحاث هذه الحضارة ونجاحاتها ، وكرموا الذين حققوها وساعدوهم مادياً ، مرتاحين ارتباطاً تاماً في اجتذابهم اليهم ومعاشرتهم . فواصلوا بذلك تقليد الاستبداد اليوناني وتقليد الملكية المقدونية القديمة التي سبق لها واستقبلت اوربيد في شيخوخته وغمرته بمظاهر الحفاوة والتكريم ؛ كما ساروا على مثل أقرب عهداً هو مثل الاسكندر الذي أحضر معه أو استحضر الى آسيا كتباً وفلاسفة وفنانيين وعلماء . وليس من اغريقي حقيقي أبعد النزعة الانسانية عن مشاغله : فأسهم هؤلاء الاغريق عن قصد في إعطاء هذه النزعة مزيداً من الفتنه ووسائل العمل وقوة الجاذب . فمن هذه الزاوية أيضاً تبدو الحضارة الهلينية كحضارة ملكية .

لم تتوفر هذه الرعاية . دون مقابل ؛ ولكن أنظمة أخرى كثيرة قد تحملت مقابلاً أشد ارهاقاً . ففي هذا النظام نال الهجاؤون - وهم قليلو العدد على ما نعلم - عقوبة قتلهم ؛ وكان هنالك فنانون وشعراء بلاط اتقنوا فن التملق . ولكننا لا نرى تنسيقاً علمياً يجب التساؤل ،

في حال وجوده ، عما اذا كان مفروضاً أم تلقائياً ؛ كما لا نرى كلاً عقائدياً يدخل فيه كل مظهر من حركات النفس والفكر في تلاحم مجموع واحد . فالعاصمة هي في التنوع الحر للاضطرابات والمحاولات الشخصية ، ولم تعرف النزعة الانسانية انطلاقتها العجيبة الا لأن نشاط الملوك لم يتعرض للشرط الأول للنزعة الانسانية .

وهناك ارتباط آخر بالظروف الزمنية يترأى في التوزيع الجغرافي لمراكز لامركزية ووحدة اشعاع الحضارة الجديدة .

كان للحضارة الكلاسيكية مركز رئيسي هو أثينا . واحتفظت هذه المدينة ببعض سناها الغابر : وقد حرصت كل السلالات ، في فترة أو أخرى من تاريخها ، على اظهار « عطفها » نحوها ونحو ما تمثله . لم تعد تخلق الا نادراً ؛ ولم تعد الانطلاقة الخلاقة تصدر عنها . فمعظم نفوذها يأتيها من ماضيها ومن استثمار هذا الماضي على يد رجال مهرة نشيطين . فأخذت في احتلال المركز الذي ستحافظ عليه حتى آخر العصور القديمة ، أي انهاعدت مدينة يأتي اليها أبناء الأعدائات اليسورة لا كمال دروسهم في البيان والفلسفة والهواة الأثرياء لاختيار النسخ عن الروائع الفنية المشهورة في مصانع الفنانين أو المصنوعات التي يكرسها مصدرها . وقد نعتها أحد المسافرين في القرن الثالث نعتاً ساخراً بقوله عنها أنها « مدرسة لرجال المرمر » : أي ان الحياة الجريئة قد هجرتها .

أما في العالم الجديد فقد لعت إحدى المدن لمعناً خاصاً نعتيها الاسكندرية . وقد بلغ من لمعناها هذا ان التعبير التاريخي السائر ، « الحضارة الاسكندرية » ، أصبح مرادفاً لـ « الحضارة الهلينية » . فغظمة المدينة المادية وسحر دورها وازدهارها الاقتصادي وثروة ملوكها العجيبة النادرة وتفتل بلاطها المهرف ودارا كتبها وآثارها ، كل ذلك أعطاها نفوذاً واسعاً لم يضاهاها نفوذ واشعاع آنذاك . ولكن مهما يكن من أهمية أثرها فانه أقل توجيهاً شاملاً من أثر أثينا في العهد السابق .

وكانت هنالك عواصم وبلاطات أخرى . وبذلت سلالات أخرى جهوداً مماثلة لم تبق نجاحاتها ، في هذه الحقول أيضاً ، نجاحات يستهان بها . فاسم برغاموس بنوع خاص قد لفت الأنظار منذ أعمال التنقيب الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر . وكذلك فان انطاكية في سوريا ، وحتى بيلبا في مقدونيا التي كان ديوسينس الأخير في وصف سكانها وملوكها بالبرابرة ، قد تحتلان المركز نفسه ، اذا ما أسفرت أعمال التنقيب فيها عن مكتشفات على أهمية مكتشفات برغاموس ومكنت من وضع بيان كامل بتحقيقاتها .

ويجب خصوصاً ألا ننسى مراكز اقامة الملوك دون غيرها . فهناك ، الى جانبها ، المدن الكثيرة الأهلة والمتعشة بتلك البورجوازية التي يؤلف انتشارها أحد الأحداث الاجتماعية الرئيسية في العهد الهليني وتجديداً لم يبق دون نتائج ثقافية . وكان لهذه المدن ، على العموم ،

صفات مميزة ، وقد توصلت ، بفضل جهود أقل تشكلاً ، الى الاحتفاظ باستقلالها في بعض الحقول الاختصاصية . أما أعظمها شهرة وازدهاراً ولعناً فمدينة رودس التي بدأت منافستها لأثينا ، منذ القرن الرابع ، في حقل مدارس البيان ، وشملت في النهاية حتى حقول النشاط الفني . ولكن كل مدينة ، في الواقع ، في العالمين اليونانيين القديم والجديد على السواء ، تمتاز بكبرياء وتنشئة المزيد من المعابد والأبنية والمدارس . فابتعدت الحضارة اليونانية عن مركزها في مناقشة ليس حب التظاهر فيها ، في حال وجوده ، الباعث الوحيد ، ولا الباعث الرئيسي . وكان الحضارة اليونانية تستهدف ، من وراء ذلك ، توزيع ثروتها توزيعاً أفضل على الأراضي الشاسعة التي انتشرت فيها خلاياها الحضرية .

ما يثير الإعجاب ان هذا التنافس لم يقوّض وحدة الحضارة الهلينية . فهي من أقصى النطاق الجغرافي الذي انتشرت فيه الى أقصاه ، تنطوي على مميزات عامة ماثلة ترددي مظاهر خاصة ليس وجودها نفسة قاعدة مطردة . فكما أن الاغريقي يستطيع السفر وتعاطي التجارة في كل مكان ، كذلك فانه يشعر وكأنه في بلاده عندما يلتقي اغريقاً آخرين . وقد انتهى التطور ، الذي استهدف في القرون السابقة إزالة الفوارق الاقليمية في وحدة ثقافية ، الى نجاح يكاد يكون كاملاً . إذ ذلك ، وإذ ذلك فقط ، توحدت القومية اليونانية على أسس أدبية واسعة جداً . أجل لم يكن لهذه القومية وجود سيامي ، شأنها في الماضي على كل حال . ولكنه أصبح من واجبها أن تتكوّن ثقافياً بسبب التمازج بين الاغريق في الأراضي التي هاجروا اليها وبسبب التضامن الذي أوجده بينهم اختلاطهم اليومي مع ممثلي الحضارات الأخرى ، فإذا كانت الحضارة اليونانية عادةً أكبر مشتركا لرجال يأتون من مناطق نائية جداً ، فانها بالإضافة الى ذلك المقياس الوحيد الذي يميزهم عن أولئك الذين ينظرون اليهم كمرؤوسين . فهم يتقاربون حتى تبرز المضادة بينهم جيداً ، إذ ان هذه الثقافة المشتركة ، في نظرهم ، تبرز امتيازاتهم .

بيد انه من الخيلاً الاعتقاد بأن هذه الثقافة المشتركة ، التي يفسر ظهورها تضامنهم واعتزازهم ، لا تمثل سوى نمالة الحضارة الكلاسيكية التي ورثتها ، بعد إزالة الميزات الاقليمية . فهي لم تسلم كل شيء من هذا الارث ؛ وقد تحملت ، راضية ، تضحيات لم تقتصر على الفوارق فقط . ومقابل ذلك ، فانها قد اغنتت بالامتدادات أو الاكتشافات بفضل جسارات أتاحها لها توسع إظهارها القديم وازدياد مواردها المادية . أضف الى ذلك ان الحضارة ، أية حضارة ، لا تحيا بلا ضرر في التعايش مع غيرها ؛ فالحضارات التي تنتسب اليها النساء والحسد والشعب تسرب ، أقله بواسطة الولد ، الى الحضارة التي ينتسب اليها السيد . ثم ان تصدع وتشتت الشعب القديمة المحصورة وضرورة ارضاء رغبات بورجوازية تكاثر تكاليفاً عظيماً تبرز كموامل تجديد أيضاً . أجل قد يكون المستوى الفكري الوسط تضرر هنا أو هناك بهذه الظروف العامة . ولكن قيماً عاطفية مهمة حتى ذاك التاريخ قد وجدت لها مكاناً أوسع في نزعة انسانية أكثر انطباقاً على تركيب الانسان .

١ - الديانة

لم تجر السيطرة اليونانية نتائج خطيرة على العبادات التي كان يمارسها البلديون
العبادات المحلية الشريكون، إذ أن هذه العبادات قد حافظت، على العموم، على ميزتها
الخاصة وحيويتها.

ففي مصر بقي كل شيء دون تغيير ظاهر. الملك يراقب الكهنتون عن كثب تلافياً لمقاومته
الممكنة التي يخشى أثرها على السكان. ويكلف موظفيه مراقبة ادارة ممتلكات المعابد، لا ليعد
من ثروتها فحسب، بل ليجعلها مرتبطة به وليدخل « الأرض المقدسة » نفسها، أي أملاك
الآلهة العقارية، في النظام الاقتصادي الموجه الذي أخضع له كل وادي النيل. ومنذ أواخر
القرن الثالث على كل حال، حين بدأ البلديون يشعرون بالصعوبات الخطيرة، ارتخت هذه الرقابة،
فحصلت الطبقة الكهنوتية، التي أمسى عطفها أكثر ضرورة، على حصانات وامتيازات
واعطيات جديدة شتى. ومارس البطالسة، من حيث هم فراعنة، حقوقهم كآلهة وكوسطاء
بين مصر وأهلها. ولكنهم لم يهملوا واجباً واحداً من واجباتهم. فرُتمت المعابد القديمة وشيدت
المعابد الجديدة ونقرت في الجدران النقوش البارزة والكتابات الهيروغليفية التقليدية، وتؤلف
كتابات معبد. هوروس في ادنوا التي تعود الى هذا التاريخ أحد مصادرنا الرئيسية حول ما كانت
عليه الطقوس المصرية منذ أقدم العهود. ومن ثم فقد تأمن الاستمرار الديني، أو بالأحرى أعيد
الى حاله، لأن إعادة ضم مصر الى الامبراطورية الفارسية، قيل: فتح الاسكندر، قد رافقتها
أعمال عنف واكراه حتى حيال الآلهة. فقد خلف الاسكندر سيداً بغيضاً، ثم جاء الأباطرة
البرومايون وبنهجوا هذه السياسة. فشعر الفلاحون شعوراً ينطبق على الواقع ان ديانتهم القومية،
المجددة، تواصل حياتها الدائمة.

أما معلوماتنا عن آسيا، حيث جاءت النجاحات التي أحرزتها الحضارة اليونانية في بعض
المناطق بفوارق دقيقة، فنادرة جداً إذا ما قيست بمعلوماتنا عن مصر. وعلى كل حال فإن
السلطة الملكية لم تبلغ، في أية منطقة من مناطقها، تلك القوة التقليدية على كافة مظاهر حياة
البلاد، كما لم تبلغ الإدارة المحلية فيها كمال الإدارة اللاجية. فهنا أيضاً برهن الاسكندر عن
احترامه للمعتقدات والطقوس، لا بل انه تظاهر في بلاد بابل بمظهر المصلح الذي يعرض عن
كفر ملوك الفرس الآخرين، والصعوبات المالية وحدها، في ظروف نادرة نسبياً على كل حال،
هي التي دفعت بمخلفاته الى أعمال العنف. فقد وضع الملك يده، هنا وهناك، أو حاول أن يضع
يده، على كنوز المعابد. وأقدم انطيوخوس الثالث بكل قحة على انتزاع الذهب والفضة من
معبد اكباتان في السنة ٢١٠، ولكنه قتل على أيدي بعض الجليليين بعد ان نهب أحد المعابد في
بلاد سوزة. وبعد ذلك بعشرين سنة تقريباً اضطر ابنه انطيوخوس الرابع الى الانسحاب حين
عزم على القيام بعملية مماثلة. وانفجرت الحصومات الأولى بين السلوقيين واليهود حول موضوع

كنوز معبد أورشليم . ولكن هذه السياسة لم تطبق وفقاً لتصميم أو قاعدة ، لأن المستندات الوفيرة العائدة للعهد الهليني التي اكتشفت في مدينة أوروك الصغيرة من أعمال بلاد بابل السفلى تجعل الافتراض الثاني أكثر احتمالاً . فالملوك الذين لم يحملهم شيء على شمل هذه المدينة الصغيرة بعطف خاص قد أصلحوا وأنشأوا بعض المعابد فيها . وقد بقيت هذه المعابد مراكز اقتصادية يبدو أن نشاطها قد تمتع بامتيازات مالية . وعاش الكهنة باستمرار عيشتهم الماضية : فقد استنسخوا كتب الطقوس ووضعوا مجموعات الملاحظات الفلكية بصورة أعظم وفرة وانتظاماً منها في عهد السيطرة الفارسية . وما لا ريب فيه ، إذا تأخرت الديانة المحلية في بلاد بابل ، ان مسؤولية هذا التأخر ، الذي لا تزال أسبابه الحقيقية سرّاً خفياً ، لا تقع على عاتق الملوك اليونانيين . وفي غير مكان أيضاً لم تتل موجبات الخزينة ، حتى إذا عمل بها ، من الحرية الدينية . ولم يحصل أي اضطهاد ، وقد مورست الديانة المازدية بحرية مثلما في نجد إيران ، على الرغم من أخطار ارتباطها بالأساد المعزولين وبالروح القومية الإيرانية التي من شأن التهديد الفارقي ان يجعلها مريبة : وفي بلاد فارس ابقى بعض الاخمينيين كرؤساء محليين واطلق عليهم لقب ، « حراس النار » أى أنهم لعبوا بالتالي دوراً دينياً .

لم يسبب استغراق البلديين نفسه ، حيثما حصل ، أية مشكلة دقيقة ، لأن هذا التطور لم يستلزم أي ارتداد بما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى عصري وديني . أما الاغريق فعلاً ما أعطوا المثل وتبنتوا بعض الآلهة الشرقيين أو حاولوا أن يستكشفوا فيهم مظاهر بعض آلهتهم الخصوصيين ، كزفس بنوع خاص الذي تمثلوه في كل « بعل » سوري أو فينيقي . ومن حيث ان لائحة آلهتهم كانت قابلة الاطالة فقد بلغ منها ان الشرقيين المستغرقين وجدوا فيها آلهتهم دوئماً جيد . ولم يحدث في غالب الأحيان أي تغيير جوهري في الطقوس أو في الواجبات المفروضة على المؤمنين . ومن ثم فقد حدث التطور في كل مكان تقريباً دوئماً صعبة .

المحنة اليونانية والديانة اليهودية
 ولم يشذ بصورة خطيرة عن هذا التعايش ذي الطابع السلمي وحتى الودي في أغلب الأحيان ، سوى فلسطين ، حيث جعل طابع الشريعة الدينية الخاص والسلطة التي كانت لهذه الشريعة على كافة أوقات وعادات الحياة اليهودية ، التعايش أمراً دقيقاً للغاية .

سارت الامور على خير ما يرام طيلة قرن ونصف في عهد سيطرة البطالسة أولاً والسلوقيين ثانياً . فأدار اليهود شؤونهم بحرية ، ولم يكتف الملك بان لم ينل من عبادة المعبد ، بل تحمل نفقات ذبيحة يومية تقدم باسمه ، واستفاد الكهنة من بعض الاعفاءات المالية . ولكن الديانة اليهودية القديمة ، بفعل اتصالها بالحضارة اليونانية التي كانت آخذة في التقدم حول فلسطين ، قد تأثرت بصورة حتمية ، أقله في أوساط الارستوقراطية اليهودية ، التي استهوتها هذه الحضارة ورغبت في إرضاء الملوك اليونانيين . وانتشرت الحضارة اليونانية انتشاراً أوسع في مجتمعات

اليهود المهاجرين المقيمين في مصر أو في المدن الآسيوية . ولكن التطور قد ظهر في فلسطين نفسها أيضاً ، ففسر بعضهم الشريعة على هوام ، حتى قيل انهم اهلوا الحتان ، ولبسوا ثيابهم وكسوا رؤوسهم ، من جهة ثانية ، على الطريقة اليونانية ، وشجعوا التربة اليونانية التي تعلم في الأندية الرياضية : أعني بذلك ممارسة ألعاب القوى في حالة فاضحة من العري . وبكلمة مختصرة فان تباراً استغراقياً ، هو تبار « المستغرقين » ، قد نما شيئاً فشيئاً في أورشليم ، فكانت ودة الفعل ولادة شيع مختلفة متفاوتة في استقامة رأيها ازدادات كراهيتها لكل تسوية يوماً بعد يوم .

انتهت الحوادث المختلفة الى النزاع الدامي . فصمم أحد الملوك السالوقيين على ان يضع يده على كنز الهيكل ، فكان حادث الوزير هيليوذوروس الذي قلبه وطرده فرسان سمايون . ثم أعدم الملك انطيوخوس الرابع على عمل انتقامي يهدف الى نشر الحضارة اليونانية ، فعين رئيساً للكهنة يستجيب لجميع رغباته ، وظن بأنه أفلح في مجهوده فأطلق على أورشليم اسم « انطاكية » وشيد فيها حصناً أقام فيه حامية عسكرية وانتكح حرمة الهيكل بذنانع دموية وبإدخال تمثال زفس الأولي اله وكروس معابد محلية بأسماء آلهة يونانيين وأراد فرض أكل لحم الخنزير . فانفجرت اذ ذلك ، في السنة ١٦٦ ، من أعماق الشعب ، ثورة المكابيين التي استهدفت الملك والمستغرقين معاً والتي انتهت ، بفضل ضعف المملكة السلوقية ، الى قيام دولة يهودية مستقلة .

لا ترد هذه الأزمة الى تصلب الاغريق بقدر ما ترد الى تناقض الحضارتين وما أوجده من سوء تقام متبادل بين المسؤولين عنها . وقد كان لحرق انطيوخوس الرابع دور كبير فيها ، أو بالأحرى لحطائه في تقدير نضج التطور الذي تحقق والانتقياد الممكن لأوامره . ولكن الشر الأكبر مردّه بنوع خاص الى اغراء الحضارة اليونانية لبعض اليهود والى ان الشعبين لم يضعوا الحد نفسه بين الحضارة والديانة . فاستهوى الاغريق ، بالتالي ، أن يفسروا التمسك بالدين كبرية متصلة ، كما استهوى الملوك ان يفسروا المقاومة الدينية كعارضة سياسية .

أضف الى ذلك ان التعاش ، على الرغم من شتى أعمال العنف ، لم يبق دون ثمرة حتى عند اليهود . فقد انتهت دولتهم المستقلة ، في أواخر القرن الثاني قبل المسيح ، الى ملكية حمل أول ملك فيها اسماً يونانياً هو ارسطوبولوس . ويكفي هذا الحدث للدلالة على ان مناهضة الحضارة اليونانية التي بدأت بثورة المكابيين قد اخفقت ، أقله في هذا الموضوع . ثم ان الأدب اليهودي الذي عرف حينذاك تجديداً أكيداً قد تأثر ، مع محافظته على طابعه الديني ، بالفلسفة اليونانية كما نرى ذلك في كتابي « الجامعة » و « الحكمة » . ويتضح ان واضع هذا الكتاب الأخير ملم بالاقلاطونية من مفهوم الألوهة التي لا تتصل اتصالاً مباشراً بالعالم . وهكذا فقد تمهدت الطريق لولفات « فيلون » في العهد التالي .

يبد ان مثل هذه الاتصالات ، التي تأثر بها اليهود العائشون بين « الأمم » خصوصاً ، لا سياً

في الاسكندرية حيث نقلت التوراة آنئذ الى اللغة اليونانية على يد السبعين ، كما يؤكد التقليد ، الذين وكل اليهم بطليموس الثاني هذه المهمة - لم تحل دون استمرار سوء التفاهم ، أقله بين الجماهير . فقد سبب سوء التفاهم هذا ، حتى آخر العهد القديم ، مآسي كثيرة أخرى . واستمر تمسك اليهود بديانتهم بفضل الشيع المعادية لكل خروج على الشريعة التي تفسر تفسيراً حرفياً مازماً . ثم أكمل السخط والثورات على الملوك اليونانيين او المسترقين وعلى روما ما كان ناقصاً : فتنقلت الشريعة في النهاية على الرغم من ضغط الحضارة والجيوش الاجنبية .

هكذا استمر وجود أشد الديانات الشرقية تميزاً ، في حركة انتفاضية لم يبد الاسياد اليونانيون أي تصلب مقصود أو أية دعاوة دائمة لحلقها أو لتفاتها . واذا ما استثنينا العبادة السلافية ، التي لم يكن لياأف منها غير اليهود ، لم يفرض الملوك موجبات دينية في الشرق فبقيت الديانات المحلية على ما كانت عليه .

سنى الديانة اليونانية الخارجي
 أما معتقدات الاغريق أنفسهم وطقوسهم الدينية فقد طرأت عليها تغييرات عميقة . فلم تعرف الديانة اليونانية التقليدية ، ديانة آلهة الاولمب وآلهة المدن ، مثل ذلك السنى الخارجي . وقد أقضى انشاء كل مدينة جديدة في الشرق الى تشييد معبد على الأقل لأن حماية الجماعة الجديدة وتلاحها يستلزمان عبادة إله مدينة على الأقل . وكثرت الهبات للمعابد المتمتعة ببعض الشهرة : فازدادت الثنورات والتأجيل والمذابح في ديلوس ودلفي وأولمبيا . وأخذ الاثرياء والملوك على أنفسهم ، ولا سباً للملوك رغبة منهم في الدعارة ، تخصيص رؤوس أموال ضخمة للقرض أو للأعمال العقارية فأوجدوا بذلك أوقافاً تقوية يستخدم ريعها للتقادم أو للأعياد الدينية . وفي كل مكان زادت الاعياد عدداً وعظمة ترافقها الذبائح والصاوات والتطوافات والالعاب التي حاولوا نقلها ، من حيث أنظمة المباريات والمكافآت ، عن الالعاب الاولمبية أو الدلفية ، بغية تأمين الشهرة نفسها لها . وقد اسند تبرير هذه المظاهرات التقوية الى انعامات الآلهة ومعجزاتهم ، لا سباً للخلاص الذي تم على يدهم في ظرف خطير او ظهورهم للبشر . وسعوا آنذاك الى الحصول على معاضدة هاتف غيب ، لا سباً هاتف غيب دلفي الذي يبدو نشاطه المتزايد في هذا المجال وكأنه يواصل عمل المنظم الاكبر للحياة الدينية اليونانية . ثم أرسلوا السفراء الى المدن والاتحادات والملوك بغية الحصول على امتيازات للاعياد والمعبد ، وللمدينة نفسها اذا امكن ذلك . وخير مثل معروف هو مثل « مغنيزيا - على - المنديرس » حيث تتبح كتابات عديدة تتبع المساعي المحققة في أعقاب ظهورات أبولون وإلهة المدينة الرئيسية ، ارتقيس لفكوفرييني (« ذات الحواجب البيضاء ») . فبعد السفراء الاول بأربعة عشر سنة أرسل سفراء جدد حصلوا على نتائج باهرة : إذ جمع أربعة ملوك وخمسة اتحادات وأكثر من ستين مدينة التصريحات والتعهدات العاطفة على عيد الإلهة الدلفي وعلى المدينة نفسها . وما هذا سوى مثل بين أمثلة كثيرة .

جرى كل ما جرى وكان الديانة اليونانية، التي استعادت شبابها بفضل الانتصارات السياسية التي حققها ممارسوها، تثير في أتباعها تقوى أشد حرارة من أي وقت مضى وتحقق بإجماع الرأي على الحمد والشكر، احتلال عالم جديد احتلالاً أديباً.

بيد ان ازدهار الديانة الكلاسيكية هذا لا يمثل سوى مظهر فقط مسن المخطاطا الراحن
مظاهر الحياة المدنية أي مظهر من ظاهرة عامة ومميزة في العهد الهليني .
وليس هذا المظهر أشدّ وقعاً في النفوس من كثير غيره ، ولكنه أكثر صنعة الى حدّ بعيد .
فالتقوى نحو آلهة المدن كانت تولف جزءاً من مصطلحات الحياة المدنية ، ولم يستهدف التنافس في الظهور بين المدن ، في هذا المجال ، سوى غايات زمنية جداً . فهي إنما ابتغت امتداد شهرتها واجتذاب الزائرين والحجاج وتشجيع التجارة المحلية وإلهام السكان ومحاولة تجنب بعض الحملات عن طريق الاعتراف بـ « قدسية » المدينة و « حقها بالحماية » ، أي ، عملياً ، الاعتراف بمصاصتها حال شتى أعمال العنف . وعملياً لم يكن لهذا النشاط ، المرهق للدخل المحلي ، أي شيء مشترك مع العاطفة الدينية الحقيقية . وهل كان بالإمكان ان تكون الامور على غير هذا الوضع حين تقتصر حياة المدينة نفسها أيضاً ، في غالب الاحيان ، على ظواهر شكلية ؟

أضف الى ذلك ان أدلة عدم أهلية الديانة الكلاسيكية. قد برزت بشكل جلي أكثر من ذي قبل . فقد أضرّ بها على الدوام انها لم تستجب لاضطرابات قلب الانسان وعقله . ولم تأت إلا بتعلم اخلاقي فردي بدائي ، دون اهتمام بما هو عادل وغير عادل ، مكتفية بالنشاط الخارجي ، لا بل متخذه ، في غالب الاحيان ، شكل ومعنى صفقة تجارية يعقدها المؤمن مع الإله . وقد تركت الفرد دون سند ودون وعد ودون امل مطمئن أمام شبح الموت المقض . ولم ترتبط أو أنها لم ترتبط ارتباطاً جيداً بمفهوم عام للكون وجوهره وتنظيمه . وقد اضيف الآن ، الى هذه العيوب الدائمة ، حقيقة ومشهد ضعف المدينة أي الاطار البشري الرئيسي الذي ترعرعت فيه وارتبطت به ارتباطاً قلبياً . وقد برهن اخفاق المدينة السياسي للجميع ان الآلهة الذين التمس منهم الحماية لا يستطيعون أو لا يريدون تأمين السلامة والسعادة لمواطنيها . فتعلم الانسان ، على حسابها ، ان مفهوم المواطن لا يحدّده تحديداً كاملاً ويعمل منه بعض مظاهر كيانه ، تلك المظاهر بالذات التي يجعلها شقاؤه أبرز ظهوراً .

وكانت روابط الآلهة الاولمبيين بآلهة المدن أوثق من ان تبقى بعيدة عن هذا الفتور . بيد ان بعضهم ، وزفس بنوع خاص ، قد بدا وكأنه لم يتأثر به ، ولكن السبب في ذلك هو ان اسمهم قد استخدم لاستغراق آلهة شرقيين . ويبدو في الحقيقة ان ديونيسوس قد تمتع بتعلق أشد قوة . فالنجاحات التي احرزتها عبادته ، وهي مدهشة انما فكرنا بالمرکز الثانوي الذي احتله في السابق ، لم تناسب مشاغل زمنية فقط . اجل اعتبره اللاحيون والاطالليون جداً لهم ، ولم تكن السياسة بعيدة عن التقوى التي تباهاوا بها حياله . ولا ريب أيضاً في ان صفته

كإله المسرح قد عينته بصورة طبيعية كي يصبح شفيحاً لجمعية الفنانين الذين تفسر كثرة التمثيليات آنذاك نجاحهم وأهميتهم . ولكن هنالك أسباباً أخرى لنجاحات عبادته . ومن حيث ان هذا الإله تراقي المنشأ ، فإنه كان أقرب الى الآلهة الشريرين من جميع الآلهة اليونانيين الآخرين الذين دخل بينهم في عهد متأخر . فنذ الاسكندر ، وعلى خطاه ، انقضت اسطورة أسفاره ونجاحاته في آسيا وتوسعت بعد ان كانت اسطورة موجزة : فكيفته تكييفاً أفضل يتفق وظروف العالم الهليني . اصف الى ذلك اخيراً ان « طفولته » قد أوجدت حوله ، بالتفضيل على ابي إله آخر ، جوّاً من العذوبة الرقيقة النضيرة قادراً على استغواء مشاعر ذلك العهد . فلو كان على الديانة اليونانية ، ان تستمد من ذاتها ، دون ابي اكتساب جديد ، وسائل تجديدها ، لأمسى ديونيسوس ، على الأرجح ، اعظم الآلهة أهمية . وهو الوحيد ، على كل حال ، الذي ابرز عند اتباعه ، آنذاك ، في ما يظهر ، شيئاً آخر غير الحركات الاصطلاحية الحالية من المعنى الديني الحقيقي .

حدثت مع ذلك تجديدات متفاوتة الاهمية لارضاء ميول البشر العاطفية واحتلت كلها مكاناً في الحياة الدينية وعبرت أحياناً عن العبادة الملكية والسلاية :

إيمان عميق حقيقي .

فهنالك في الدرجة الأولى العبادة الملكية والسلاية . وقد عالجنا فيما سبق أصولها اليونانية والاشكال التي تلبستها وتنظيمها حيث انتهت الى عبادة رسمية . وقد رأينا ، لمحبة العواطف التي تتعلق بها ، توافقها العميق مع نظرية الفاسيلفس أي الانسان المتفوق على البشرية المتوسطة تفوقاً يصحح من الشرعي معه ان يمثل بالإلوهة التي يمتلك قوتها . فهي قد عبرت في الوقت نفسه عن الاعجاب وعرفان الجميل واستئزال الانعامات الجديدة .

ولكن هل كل هذا يكاف للكلام عن عاطفة دينية ؟ انه لمن المفالة نفيه نفياً باتاً شاملاً . فاذا كان التطور اللاحق قد عمق وعقد ادراكنا لمثل هذه العاطفة فمن الجدير بنا ان نعود الى الفكرة المكونة عنها سابقاً . لنصغ الى النشيد الذي ألفه أحد الشعراء والذي أنشد في أثينا اكراماً لأحد الانتغونيين : « الآلهة الآخرون بعيدون ، وهم اما لا آذان لهم وإما لا وجود لهم واما لا يعبرون حاجاتنا أي اهتم . أما أنت فنحن نراك هنا ، لا من خشب أو من حجر بل حاضراً حضوراً فعلياً . لذلك فنحن نبتل اليك انت أيها العزيز بين الأعزاء ؛ اعطنا السلام قبل كل شيء ، لأنك أنت سيد السلام » : تعبر . هذه الجملة عن روحية نفعية لا يقبل بها ذوقنا . ولكن هذه الروحية أقرب الى الايمان اليوناني الذي انتظر أبدأ من آلهته انعامات مباشرة ملموسة : وقد انقضى وقت طويل قبل ان تبدو مثل هذه الملاحظات ناقصة وغير كافية ، فجاءت خبرة الشرق الدينية فتعمل فعلها في هذا المعنى بالذات . بيد ان فجاجة الاعتراف ، من وجهة النظر اليونانية ، وفي أوائل العهد الهليني ، لم تنتقص من تأثيره على الجماهير .

فليس اذن باستطاعتنا ان ننكر ان العبادة السلاية ، في حضارة وفي نظر أئاس عزوا الى

القوة ، كقوة ، مصدرأ وطبيعة الهَيِّين ، ربما جاءت تعبيراً عن تدنٍ لا يقل واقعية عن التدنٍ الذي عبّر عنه من قبل في عبادات آلهة المدن . فهذه العبادات الأخيرة أيضاً كانت رسمية ومفروضة ومتحجرة في طقوس اصطلاحية . فلم تضاف العبادة السلالية الى هذه النقصان سوى التسهيلات التي وفرتها لتمتق خسيس ولخضوع أكثر سلبية لأوامر سلطة أعظم قوة : وهذا التباين تباين في الدرجة لا في الجوهر . فيجب من ثم ان تفسر هذه العبادة كاستعاضة عن العبادات القديمة التي غدت آنذاك غير كافية لإيقاد ايمان الجماهير . وان هي لم تتدخل على الحياة الدينية عواطف جديدة فقد وفرت لها على الأقل أشكالاً جديدة .

لم تحل الفلسفة الهلينية ، أقله في بعض مدارسها ، من الاصداء الدينية .
 التجديدات الدينية .
 عبادة إله الحظ
 فقد ساعد نجاح تعليم افيمبروس الذي زعم ان اقدم الآلهة اليونانيين ، بما فيهم زفيس نفسه ، قد عاشوا حياة البشر ، لا بل حياة الملوك المحسنين ، فألهم رعايهم الشاكرون ، على تقبل وازدهار العبادات السلالية . وذهبت تعاليم أخرى الى أبعد من ذلك . فانتهمت الرواقية مثلاً الى مفهوم إله واحد ، خالق سيد الكون ، ولا يمثل الآلهة المعروفون سوى مظاهره التي يسهل على الانسان الوصول اليها . فتوقفت بذلك الى الاحتساق بالاساطير مفسرة إياها كرموز . ولكن هذه النظريات السامية لم تكن لتبلغ وترضي سوى نخبة قليلة العدد .

أما الديانة الشعبية فيبدو انها لم تنقل عن الفلسفة سوى مفهوم واحد هو مفهوم « إله الحظ » . وقد نشأ هذا المفهوم عن المدرسة المشائية التي واصلت تعليم ارسطو ، وعرف نجاحاً كبيراً جداً عند اغريق يتفاوتون مستوى عقلياً . وقد مثل هذا المفهوم حظاً عاماً يرتبط به مصير الانسانية جمعاء ، وليس قط مرادفاً للصدفة الخرقاء أو الحتمية لا تعفو . وعزيت اليه بعض الاهواء ، ولكن عزيت اليه أيضاً بواعث أملها عقل لا يدركه الفكر البشري لسوء الطالع . واذا لم يكن هنالك أية طريقة لتلينته ، فانه لم يكن من المنوع الإبتهاك اليه فحسب ، بل التفكير في اسباب المصائب أيضاً وفي استخلاص النتائج الضرورية : وقد سيطرت فلسفة الحظ هذه على مؤلفات يوليپ التاريخية في احدي مراحل تحضيرها . ولكن قد سلّم بالاضافة الى ذلك ، لاسيا في الأوساط الأمية او شبه الامية ، بوجود حظوظ كثيرة ، واحد لكل فرد وواحد لكل جماعة فتمكنت التأثيرات الشريقية ، أقله في هذا الحقل ، من ان تفعل فعلها عن طريق مفهوم « *ind* » السامي ، الحامي الخاص لكل مدينة . وقد درجت عادة مدعوة لديومو نادرة ، عن طريق تشخيص إله الحظ في انطاكية الذي ذاعت شهرته بفضل تمثال لافتيخيداس ، تقضي بتشخيص المدينة بصورة امرأة تتوج رأسها الابراج . ومن المسلم به ان التقوى كانت أكثر حرارة نحو الحظوظ التي تبدو اعظم قوة ، وبنوع خاص حظوظ الملوك التي كانت موضوع عبادة وتقسيم الأيمان باسمها . ويمكن القول ، على العموم ، ان عبادات قليلة عرفت الانتشار الذي عرفته هذه

الديانة : فلم يكن في الحقيقة من ديانة افضل انسجماً مع اختبار عالم مجهول شاهد الكثير من الارتقاعات الفجائية التي عقبها كوارث فجائية ايضاً .

التجديدات الدينية :
القلق والخلاص
نتلمس دون صعوبة ، مع العبادة الملكية ، بقدر بعدها عن مجرد التملق ،
وفي عبادة إله الحظ ، اجماع الرغبة في تأمين السعادة بفضل قوى متفوقة .
فقد نصكّد الاضطراب النفوس وبجث الناس عن الخلاص بقلق شديد .
وقد عبروا عن هذه النزعة بقوة نادرة في لقب « المخلص » الذي اطلق آنذاك على الكثير من
الآلهة القدامى والجدد ، والكثير من الملوك ايضاً : فكان شعورهم بأنهم في مأمن من اخطار الحياة
والموت الشرط الأول للسعادة .

وقد ابتلوا بجرارة الى اسكليبيوس ، الإله الشافي ، للتخلص من الآلام الجسدية . فهو قد
قبل منذ زمن بعيد في مصاف الآلهة اليونانيين وكان له معابده ، وأشهرها في كوس احدى جزر
بحر ايجه ، وفي ابيندورس من اعمال الارغوليد. فتوافدت اليها جماهير غفيرة لم يسبق لها مثيل من
ذي قبل . وكانت شهرة مؤسسته الطبية الدينية التي تخرّج منها الأطباء للكثيرون احد مقومات
ازدهار كوس حيث حرصت الدولة على حمايتها واستمرارها عن طريق المساعدات المالية . اما
في ابيندورس فقد اقتضى توسيع الابنية حيث كان المرضى يقضون ليلهم ويمعمون ، في الاحلام
التي تراود سباتهم ، الدلالات التي يفسرها الكهنة لتوجيههم في معالجة آلامهم : وتشهد اليوم
نذورات كثيرة ، ترافقها الكتابات التفسيرية ، يحيل المرضى المدينين لجود الإله بشفاء عجائبي .

ومن الآلهة النصرء والرحماء والمخلصين ، على غرار غيرهم لا بل اكثر من غيرهم ، اولئك
الذين استضعوا ظمأنة الانسان حيال اخطار الحياة الثانية . وتوصلوا الى ذلك بإيقاف المؤمن
على امرارهم . وقد سبق للحضارة اليونانية الكلاسيكية ان عرفت هذا الشكل من الحياة
الدينية التي انتشرت في حينه انتشاراً غريباً في معابد يونانية وشرقية قديمة وجديدة . فعلى
بعض المسافة من أثينا حافظت الفيسس الرسمية على زينها واستالت الكثير غيرهم ؛ ولكن
الفيسس جديدة قد انشئت على مقربة من الاسكندرية لم تقم ، والحق يقال ، الا بنشاط ثانوي .
غير ان السوق التي راجت هي سوق امرار اخرى بسبب ما انطوت عليه احتفالاتهم من
مسرحة وتأثير ، حتى انها قد اهتمت بالشعوذة والدعارة . وكان لديونيسوس ، الذي سبق
تكريمه في الفيسس ، امراره الخاصة التي اصبح لها فروع كثيرة . واذا وجد الاغريق هذه
الامرار في تراث اجدادهم الديني ، فانهم لم يأنفوا من الاشتراك بغيرها بما يمت بصلة الى العبادات
الشرقية كمعابدات « انتيس » و « وسيليل » في آسيا الصغرى وعبادات اوزريس وايزيس
في مصر .

نحن لا نعلم حق العلم تفصيل هذه الاحتفالات التي توجب على المشارك المبتدى ان يعتم
بالصمت حيا لها . ليس من ريب في ان الطقوس والصبغ قد اختلفت باختلاف الآلهة . غير ان

المؤمن قد وجد في كل مكان تهذبة لاضطرابه وقلقه : فانه كان يحضر قيامة إله ميت ، فيقف بذلك على اسرار ألوت والتجدد . قد تكون اسرار الفسيس قد وقفت عند هذا الحد . ولكن الاسرار الاخرى قد قادت المشترك الى ابعد من هذا . فبعد تطهيرات مختلفة كان يتمثل بالإله ويشترك في طبيعته الإلهية . وكان أيضاً بتمود حالات نفسية جديدة كالانحطاف وحببة الإله المتألم الذين من شأنها إدخال الذهول الى قلب أكثر الناس خشونة . كما كان يواجه مفاهيم جديدة لم تتعرض لها العبادات اليونانية قط عملياً ، كمفهوم الخطيئة ، ومفهوم الطهارة ، لا الطهارة الجسدية التي يحصل عليها بالاستحمام والصوم فحسب ، بل الطهارة الأدبية أيضاً . فوقرله كل ذلك ، بالإضافة الى الوعود التي لا تقدر بثمن ، تنمية حياته الداخلية ، التي كانت متروكة لنفسها فعدت مذ ذاك مستنيرة وثابتة . وهذه كلها فتوحات لم تكن النفس البشرية لتقبل بالتخلي عنها بعد الآن .

أضيف كثير من هذه الاسرار الى عبادات آلهة شرقيين : ولكن
 التجديدات الدينية :
 الاغريق ، على الرغم من ذلك ، لم يجيدوا عنها . فقد برهنوا
 العبادات الشرقية وسيرايبس
 أبداً ، على الصعيد الديني ، عن قابلية للاقتباس ، معترفين
 بنواص معتقداتهم الخاصة ومستعدين للاستعاضة عنها باقتباسات عن الشرق . بيد انهم ، عندما
 تبينوا رسمياً عبادات غربية ، بذلوا الجهد لتكييفها ولتطهيرها ، اذا صح التعبير ، باخضاعها
 للعقل : هذا كان مصير عبادة ديونيسوس في قلب اليونان الكلاسيكية ، اثينا . اما العبادات التي
 بقيت هي هي ، محتفظة بيزاتها وطقوسها الاصلية ، فقد استطاعت التسرب الى بعض المدن ،
 لاشيا الى الرافء ، ولكن احساناً وبصورة خاصة فقط : هكذا استفادت عبادة إيزيس ، في
 البيرة ، من بعض التسامح ، ولكنها لم تحظ بالاعتراف الرسمي . وتبدل الوضع منذئذ بتبدلاً
 كلياً . فأقيمت الاتصالات بالإله الشرقيين بصورة حتمية مباشرة وعلى اوسع نطاق ، شاءت
 الدولة تسهيلها أم ابت . ولم تحاول الدولة ، في اي مكان ، من جهة ثانية ، التعرض لها
 فسححت للاغريق فرصة تميمات روحية كثيرة قد تبدو خيانات محضة في نظر الحضارة
 اليونانية الكلاسيكية .

وقد حدثت تقاربات مذهشة : فتعرض يوه نفسه للضم ، على الرغم من تميزه وارتباطه
 الوثيق بشعب معين . فإن كلمة « الاعلى » كانت منذ قبل ذلك صفة لزفس . فاعتمدت لاسم
 اكثر غموضاً هو « ثيوس » (الإله) ، فوجد بذلك إله جديد ، شبه غفل ، يسهل التوفيق
 بينه وبين بعض التعاليم الفلسفية ، لم يتردد الكثيرون ان يروا فيه إله اليهود . وآثر غيرهم تمثيل
 إله اليهود بدونيوسوس ، باسمه التراقي ساباديسوس ، الذي كان من السهل ، بصدده ، تلبس بعض
 الكلمات كسبت وصباؤوت . وحملت استدالات أخرى على الكلام عن زفس الدمشقي وزفس
 الدوليكاني الذين ليسا سوى الإله حدد في دمشق ودوليكي . ودفعت إذ ذاك نزع غريزية النفس

اليونانية على البحث عن إله كلتي القدرة يستجيب الصلوات ، وعلى خلقه عند الحاجة . وهكذا فقد شئت الطرق ، ولو بصورة غامضة جداً ، التي كان باستطاعتها ان تؤدي الى التوحيد .

جاول البطالسة توجيه هذا المجهود وفي الوقت نفسه توحيد الاغريق والبلديين المصريين في عبادة مشتركة . فأوجد بطليموس الأول ، توصلاً لهذه الغاية ، إلهاً جديداً هو سيرابيس ، ونظم عبادته بعد ان استشار اغريقيا والكاهن المصري مانيتون ، وهو الذي عهد اليه وضع موجز لتاريخ مصر الفرعونية باللغة اليونانية . وقد شيد المعبد الأول للاله الجديد في منف البلدينة المصرية الصرفة ؛ ولم يشيد له معبد آخر إلا في عهد بطليموس الثالث في الحي البلدي من الاسكندرية المعروف باسم راكوتيس . ولم يكن اسم الإله نفسه سوى إله الأموات في منف ، « اوزيريس - أبيس » الذي شوّهه الاغريق فدعوه اوزورابيس وسارابيس وسيرابيس . وقد احتفل بعبادته في هذه المدينة ، وفاقاً لطقوسها الخاصة ، الكهنوتان اليوناني والمصري ، وكان الكهنة المصريون أكثر عدداً الى حد بعيد . غير ان النفوذ اليوناني لم يلبث ان وطد سيطرته ، لا سيما بفضل تماثيل النقاش « براكسيس » الذي ابتكر طراز الرسم الاصطلاحي للاله ، كما يغلب على الظن . فهو قد سكب: فيه خاصيات منقولة عن آلهة يونانيين عديدين كزفس ، بسبب قوته ، والإله الشافي اسكليبيوس وإله الأموات هادس : فاذا به قد مثل انساناً مهيأ ، يفيض بحياه عطفاً ورحمة ، كثيف اللحية وأجعد الشعر ، يكسو رأسه المكيبال رمز الحصب ، جالساً على عرش ، قابضاً على عصا طويلة بيده اليسرى وملقياً يده اليمنى على كلب . واذا كان الإلهان المصريان ايزيس واثوبيس قد اشتركا مع الإله في معبد منف أيضاً ، واذا دفن فيه كل : ابيس « موت » فقد وجد فيه من جهة ثانية هيكل لديونيسوس ، كما قام امامه بناء سداسي الشكل أحيط فيه تماثيل هوميروس بخمسة تماثيل لفلاسفة يونانيين وخمسة تماثيل لشعراء يونانيين أيضاً . فكان الإله والعبادة ، بالتالي ، يونانيين ومصريين في آن واحد ، يغلب فيها طابع الحضارة اليونانية التي لم ترض يوماً بالتسكّر لما كان ولا يزال سبب عظمتها . ولذلك فليس من الغريب اذا لم يكثر البلديون المصريون عملياً لسيرابيس ، في حال انه تمتع بمرکز ممتاز في الأوساط اليونانية ، بفضل ما انطوى عليه من خصائص غريبة عن الحضارة اليونانية الكلاسيكية ، كما ترجح . وقد كرس له ، في كل مكان تقريباً ، معابد احتفل فيها بالأسرار أيضاً : في آسيا الصغرى ، وديلوس ، وتراقيا ، واليونان نفسها . وهو الذي مهد الطريق أمام انتشار عبادة وأسرار ايزيس في الامبراطورية الرومانية جمعاء .

على الرغم من ان الاحتياطات المتخذة للحفاظ على نصيب العناصر اليونانية ، استمر إذن استقلال ونفوذ الشرق دينياً بلا منازع . وقد اجتذبت عبادته ، دون أي تساهل ، العديد من المؤمنين اليونانيين الذين وصلتنا منهم ، باللغة اليونانية ، شهادات تقوى لا تحصى نحو آلهة « برابرة » لا غش فيهم . فامتدت عبادات هؤلاء الآلهة ، بواسطةهم ، نحو الغرب ، الجزر ولا سيما ديلوس

أولاً ، واليونان ثانياً . وقد أسهمت بعض الاسهام في هذا الغزو بلاد بابل نفسها التي فقدت ديانتها القديمة كل قوة توسعية واقتصرت في نشاطها على محاربة الفناء ، وذلك بواسطة التنجيم والسحر اللذين مارسها من أطلق عليهم اسم « الكلدانيين » او « المجوس » أيضاً — لأن هذه العلوم الباطلة قد أشيعت ، على العموم ، باسم زرادشت — وتجدر الاشارة هنا الى ان جميع الديانات الشرقية ، التي ستتقاطر الى روما فيما بعد وتنتشر منها في المقاطعات الغربية من الامبراطورية ، قد بدأت تتوسع حتى قبل الفتح الروماني : فلم يكن دور السيطرة الرومانية ، على هذا الصعيد كما على غيره ، سوى توسيع نطاق التطور السابق .

فلا يبدو إذن من الغلو بشيء التكلم ، بصدد الاغريق ، عن ثورة دينية كان فتح الاسكندر منطلقاً لها . فان هذا الفتح ، بتخليصهم من اقتسارات الديانة المدنية ، قد حرر فيهم احساساً وصوفية خفيين ولكن مكبوتين . وقد أتاح لهم ، باقامتهم في عالم اتسعت آفاقه تمكنوا فيه من اغتراف الدروس ، اختبارات أثارت حماسهم الحاد . فاكشفوا في آن واحد ثروات الشرق المادية والروحية التي سحرتهم لفترة طويلة . واذا لم يفرض عليهم استخدام الثروات المسادية أي تمرين ، فقد توجب عليهم ، حيال الثروات الروحية التي كانوا أمامها شبه مبتدئين ، ان يرضوا بالتلذذ لرعايهم . فقد أحسوا نهائياً ، في هذه المدرسة ، بما يجعل نفوسهم غير راضية وتململوا تقوى جديدة قوامها القلق والهمية .

٢ — الفن

باستثناء بعض التقنيات ، لم يكن الشرق ، في الحقل الفني ، ليبرز الفن اليوناني والفنون البديعة معلماً حيال الاغريق الذين ثبت تفوقهم فيه منذ زمن بعيد . لا بل ان أثر الفن اليوناني ، منذ قبل الاسكندر ، قد تسرب الى أماكن كثيرة من ساحل آسيا المتوسطي وحتى الى البلاط الفارسي . فكان الفن الهليني بالتالي فناً يوناني الجوهر بصناعيته وبتحقيقاته . ولم تحافظ الفنون المحلية على حيويتها إلا في بعض المناطق المحدودة جداً . واذا ما نظرنا الى الشرق في مجموعه ، رأينا ان هذه الفنون لم تجد عملياً فرصة سانحة للظهور ، إذ انت النخبة الاجتماعية ، التي كان باستطاعتها احياءها عن طريق طلباتها ، قد افتقرت او أعرضت عنها بعد ان فقدت روحها القومية .

ولم يخرج عن قاعدة هذا الخطاطب العام سوى شواذ نادرة . وبالإضافة الى اوروك في بلاد بابل ، حيث يسر استمرار حياة كهنوتية يعطف عليها السلوقيون تشييد وترميم المعابد التقليدية ، تكون مصر الشذوذ الرئيسي . وفي وادي النيل تساوى تصميم الملوك اليونانيين على الابقاء على التقاليد الاجتماعية في الحقل الفني وفي الحقول الأخرى . فشيدت المعابد المصرية وزينت جدرانها بالمشاهد الكلاسيكية : ولكن هنالك فوارق طفيفة ، كالسعي وراء التناسق في القياسات ، تحمل على الاعتقاد بجوار بل باشتراك اغريق يخضعون لمعلم آخر في سنن الجماليات . أما البناء

الوحيد الذي يبرز فيه الاثر اليوناني بروزاً محسوساً ، بتمثيل أشخاص يرتدون الألبسة اليونانية ، وبعض الجزئيات ، كتكريم ديك أو وجود طفل على ذراع أمه ، فهو مدفن « بيتوزيريس » ، المصري الذي ينتمي الى اسرة كهنة ؛ وقصد يكون هذا المدفن سابقاً لفتح الاسكندر أيضاً .

تجديد الفن اليوناني
سيطر الفن اليوناني سيطرة لم ينازعه فيها منازع ، ولكنه خضع لتجديد عميق الجذور . بيد ان ذلك لا يعني أنه نقل عن الفنون الشرقية فوق ما نقلت عنه . ويفسر تحويلاته ، التي دلّ عليها تطوره السابق ، الظروف المختلفة التي كانت على نشاطه ان يبرز فيها .

نشأ التجديد عن المدد الذي وفره ، لبعض النزعات الظاهرة منذ أواخر العهد الكلاسيكي ، الميل لاحساس جديد . فادخلت على الفن المعاني الروحية والقدرة على التأثير الديني . فاصطبغت الوجوه ، وحتى المناظر الطبيعية أحياناً ، بصبغة صوفية . ولم يكن كل شيء ، من جهة ثانية ، من النوع نفسه في الميل العاطفي الذي أعرب عنه زين أقل اهتماماً من ذي قبل بالتناسق المنطقي . وكان من شأن التأثر ان ينقلب اضطراباً وعنفاً ، حتى بشكل خارجي . فاستفاد الفن من ذلك عند الاقتضاء ، غير مقتصر على إعادة الأزمام والآلام النفسية ، باحثاً في قوة التأثير والوضوء عن وسيلة للتعبير عن هوى النفس .

تحسنت الظروف المادية للحياة الفنية تحسناً عظيماً . فمهد العهد الكلاسيكي شرعت المدن اليونانية في التزيين والتجميل . واستمرت هذه النزعة ، لا بل توطدت ، وخضعت لها المدن الجديدة العديدة في الشرق على غرار مدن اليونان القديمة ، واعتزت كلها بهذا التنافس . وأفضى نحو البورجوازية الى ازدياد عدد الزين الميسورين الراغبين في البذخ الكباري واللذة في الحياة الخاصة والعامية . فنتج عن ذلك ازدياد عظيم في الطلب وارتفاع في عدد الفنانين المهنيين الذين غدت حياتهم اليومية أكثر سهولة ، وأكثر ازدهاراً في غالب الأحيان . غير ان جودة المصنوعات قد تدنت دوماً ريب بفعل ظهور وانتشار ما يمكن تسميته بالناذج القياسية الموافقة لأذواق طبقة اجتماعية أمست اكثر عدداً من ان تبقى نخبة ثقافية واصبحت هي نفسها « قياسية » ، اذا جاز التعبير ، إذ اننا زارها متشابهة جداً في جميع مناطق العالم اليوناني .

أجل كان هنالك ، في الوقت نفسه ، زين آخرون مولعون بالثقافة العليا ومنتعمون غالباً بالوسائل اللازمة لبواغها ، يطلبون من الفنانين ارضاء أذواق اخرى اعظم رقة ، أعني هم الملوك وبلاطاتهم . وقد انطوت طلباتهم على البذخ والعظمة ايضاً اللذين من شأنها اعلاء شأن جلال السلطة . ولكن التربية التي أعتني بها اعتناء خاصاً منذ ان استطاعت السلالة تأمين بعض الاستقرار ، والبطانة التي حرصت على استمالة اولئك الذين يستطيعون ، بفعل شهرتهم ، تجديد حكم الملك ، قد أدخلتنا عليها مشاغل وتصنعات تفوق الى حد بعيد تلك التي اكتفت بها البورجوازية

المدنية . وقد حلت نصرة الفنون هنا كافة مشاكل الفنانين المادية حلاً أكثر شمولاً منه في المدن، غير أنها قد وجهتهم شطر تحقيقات، اما فخمة واما بالغة في الدقة، لم تكن دون غيرها مناقضة لتحقيقات العهد السابق .

١ - هندسة العمارة

كان باستطاعة هندسة العمارة الهلينية أن تنقل عن الشرق القوس والعقد الابنية الكبرى والقبة مثلاً . غير انها، على معرفتها بها، لم تستخدمها إلا نادراً جداً، متمسكة بالاساليب الكلاسيكية التي حصرت جهودها في اتقانها . واذا كان عدد الابنية المشيدة آنذاك عظيماً جداً فلم يأت سوى القليل منها ، في تصميمه وتحقيقه ، ببعض الجودة . وما تجديده هندسة العمارة اليونانية ، خصوصاً ، سوى في جمع العناصر القديمة لتحقيق مجموعات عظيمة .

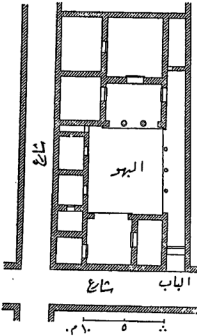
يبرز هذا الاستمرار في طراز المعبد الذي شيدت منه نماذج لا تحصى بسخاء أمله مصطلحات التقوى الرسمية . والجدير بالملاحظة ان الفنانين ، ان هم اعتمدوا في بناء المعبد مواد وتزييناً غالباً ما تم عن غنى نلمس فيه التباهي ، لم يعودوا به الى القياسات الضخمة التي أمهلها الذوق السليم في العهد الكلاسيكي . أما تصاميم المعابد الكبيرة التي عكفوا على تنفيذها ، دون التوصل الى إتمامها قبل زمن طويل ، أي في القرن الثاني بعد المسيح للشم الأكبر منها ، فقد وضعت أقله في القرن الرابع ، كتصاميم معبد زفس الأولي الذي يعود الفضل في الشروع فيه في أثنينا الى بيسستراتوس . وقد يفرض هذه التصاميم أحياناً استخدام بقايا أبنية سابقة تهدمت عرضاً .

وبما لا ريب فيه ان الابنية المستهجنة الطراز قد بقيت نادرة جداً . ولعل أغرب مثل عنها، أبرزته اعمال التنقيب ، هو معبد « ديديموس » الذي تعهدت « ميله » إعادة بنائه منذ الاسكندر وواصلتها طيلة قرون . بلغت قياسات أساسه ١١٦ × ٥٢ مقابل ٧٠ × ٣٠ للبارثون . وانتصبت أمام مدخله عند وجه البناء اعمدة اشبه بالحرج بسبب كثرتها، موزعة على خمسة صفوف؛ واحاط بالبناء صنفان آخران أيضاً . وفي داخل الجدران ، أدت اثنتان وعشرون درجة تتجه الى الاسفل الى فناء طلق قام فيه معبد صغير لأبولون . لا يمكننا ، امام هذا الخروج عن المألوف ، إلا ان نفكر بالشرق ويقاعات الاعمدة في المعابد المصرية وبالقبائات الداخلية في معابد شرقية كثيرة . ولكن الى أي تاريخ تعود هذه التأثيرات يا ترى، ما دام العمل قد تناول إعادة تشييد بناء التهمته النيران ؟ فقد ابقى مثلاً على التماثيل الجلجلة القديمة جداً ، العائدة لأسرة البرنحيين الكهنوتية ، المرتبة على طول الطريق المؤدية من المرفأ الى المعبد وفاقاً للطريق المصرية التي تحف بها تماثيل ابي الهول والكباش .

وعلى تقيض ذلك فقد برز هنالك طراز جديد ، يوناني بحت ، على الرغم من خصائصه المميزة ، ان لم يكن لمعبد فأقله لعمل هندسي غايتة دينية : المذبح الضخم لزفس المختص في برغاموس . ارتفع على مقربة من اعلى قمة في المدينة ، داخل شبه مربع واسع يحده رواق

مزدوج من جهاته الأربع . وقام المجموع على اساس ذات درجات وادى اليه من جهة الطريق المقدسة سلمٌ عظيم يشارف عليه جناحان من الرواق . ولكن هذا لم يكن بناء بالمعنى الصحيح بل تنظيماً لمساحة خالية من البناء ؛ وفي الحقيقة كان المهندس المعمار ، هنا ، مهندس تجميل .

يبين هذا المثل ان هندسة العمارة الهلينية لم تنفر فوراً مبدئياً من التحقيقات الفخمة التي من شأنها ان تدمش العقول بقياساتها غير العادية . لا بل كان من المهم ان تخضع لهذه النزعة التي تتفق كل الاتفاق والوقائع السياسية والجغرافية والمالية السائدة التي اتسع نطاقها الى ما لا حد له . اجل لقد صمّم « جبار » رودس الجوّف كتمثال هليوس ، الإله الشمس ، إله المدينة ، وصنع من عدّة فدرات ضخمة . ولكن يجب ان نخص بالذكر البرج الثلاثي الطبقات البالغ علوه ١٢٠



الشكل ٢٨ - بيت هلي في برينا (يونان)

متراً الذي شيده المهندس المعمار سوستراتوس الكندي عند مدخل مرفأ الاسكندرية وكان معداً لأن يرشد ، بواسطة النار المشتعلة في قمته التي تمكس المرايا لمعانيها الى مسافات بعيدة ، المراكب المتوجهة نحو المرفأ . (انظر الشكل ٢٦ - ص ٤٥٧) .

وهناك نزعة تجديدية اخرى في هندسة العمارة البيت الهلينية تفسرها زيادة الامكانات المالية أيضاً . نحن نجهد كل شيء تقريباً عن القصور الملكية التي لم يكشف التنقيب فيها عن شيء حتى الآن . ويجب في ما يظهر ألاّ نتصور أبنية عظيمة ، بل أبنية متنوعة ، زاهية ، مجهزة لرخاء العيش اكثر منه للأبهة الرسمية ، موزعة في رياض غناء فتنت الملوك الشرقيين أبداً بنضارة اخضرارها . والوصف المفصل الوحيد الذي لدينا يعود للسرادق المعدّ لبطليموس الثاني لمناسبة عيد سلالتي كبير ، ولقصر عائم معدّ لنزه بطليموس الرابع وبطائنه على النيل : وكلاهما مظهر عظيم وتعبير مؤثر عن الملكية اللاجبة ، ولكن هذا المظهر وهذا التعبير زائلان او عرضيان لا يدان فراغ القصر الكبير الذي احجمت عن تشييده ، لأنه ما كان يستجيب لرغبات ملوكها لو شيّد .

على نقض ذلك ، أظهرت اعمال التنقيب ، لاسيما في المدن الأميرية كيه وبرينا ، او البحرية كديلوس ، بيوتاً خاصة لا تحصى . وطبيعي ان المساكن الضيقة الفقيرة التي ازدحمت فيها عائلات الطبقة الشعبية قد ألفت سوادها الأعظم . غير أنه قد برز الى جانها طراز سكاني جديد درج الكلام معه عن « البيت الهليني » تمييزاً له عن بيت العهد

الكلاسيكي . وليس من شك في ان البورجوازية ، الراغبة في سعة العيش والرفاهية ، او المخفضة احيانا ، والمزودة بالوسائل اللازمة لادخال البهجة على حياتها اليومية، هي التي روّجت اعتماده . يشغل البيت الهليني مساحة اكبر : فمساحات البناء كانت اوسع من ذي قبل في المدن الحديثة وفي المدن القديمة ايضاً التي ضمت اليها احياء جديدة . ولم تفتح فيه نوافذ تطل على الخارج ، بل باب واحد فقط يؤدي الى امر جانبي مظلم : فالبيت الذي هو ملجأ الحياة الخاصة يجب ان يكون في مأمن من المذال . ولكن الغرف – وهذا هو التجديد الكبير – كانت مفتوحة على فناء وسطي مجهز في الغالب برواق ذي أعمدة يقي من المطر والشمس ، او اقله ، ببعض الاعمدة التي تنتصب أمام مدخل القاعة الرئيسية .

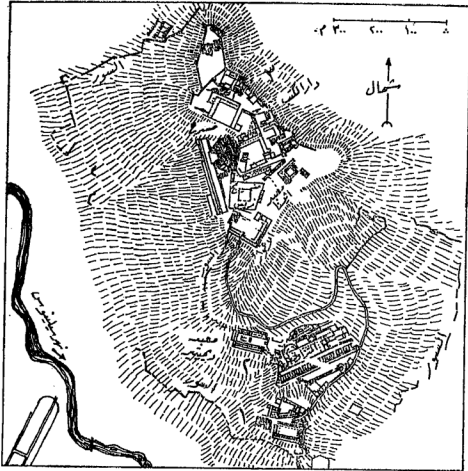
كان هذا البيت كبيراً وحسن التهوية . وكان مزيناً ايضاً . فقد رصفت ارضه بفسيفساء ملونة اعتمدت فيها الرسوم الهندسية او مواضيع تزيينية اخرى . وكثيراً ما ألبس القسم السفلي من الجدران بالصفائح الرخامية . وقد أبدل الرخام النادر احيانا ، في دلتا النيل مثلاً ، بالجبص الملون . ولم يكن من النادر ان تزين الجدران برسوم تمثل الحدائق او المناظر الريفية .

هكذا نشأ في الشرق المتوسطي ذلك المسكن الخاص الذي سيتوسع ويتزوق مع الزمن ، وتضاف اليه احيانا حديقة كبيرة ، والذي سيغضي الى بيت بومبي الذي تحملنا المقارنات الكثيرة على الاعتقاد بأنه كان يونانياً أكثر منه رومانياً .

المدينة اذا ما نظرنا الى كل مدينة على حدة ، لم يظهر لنا أي تغيير هام في عناصرها التقليدية ، الاغورا والمتازوف والمسرح الخ ، التي كوّنت على الدوام الاطار المادي لحياة الاغريق الجماعية . ولكن تجديداً قد حدث مع ذلك : فان هذه العناصر التي كانت مستقلة حتى ذلك العهد قد جمعت كي تؤلف كلاً واحداً وخططت وأعدت وفقاً لرسم عام وحوّلت الى اجزاء من كل منظم تحقياً لأهداف جمالية ومادية . اما قسط الهندسة الهلينية في هذا التجديد فهو مفهوم المدينة : فيبدو انها اكتشفت وجود المدينة ووحدتها ككائن مادي لا يختلف في تميزه وتفوقه على مجرد تلاقق الأبنية العامة والمساكن ، عن تميز البولس وتفوقها على مجرد تجاور الافراد . فنشأ من ثم التجميل الذي برز منذ البداية كفن وعلم وتقنية ادارية .

اذا ما استثنينا بعض المدن التي انشئت في عهد متأخر نسبياً – كمرفأ البيره واولنثوس – اتضح لنا ان المدينة في العهد الكلاسيكي قد بنيت بلا تبصر ولا قصد ولم يواجه فيها المستقبل كما لم يهتم فيها لغير المشاكل الخاصة الحالية . أما المدن الهلينية ، باستثناء بعضها – كديلوس مثلاً – ، فقد صممت وفقاً لمخطط كان تنفيذه من الأمور السهلة لأنها على الغالب مدن جديدة . وقد أخذ بعين الاعتبار ، في مخططها الهندسي وشوارعها المتوازية المكونة بتقاطعها زوايا مستقيمة ، توسعها اللاحق ، فأفسحت مساحات طليقة للساحات العامة وللأبنية الضرورية لتفتح الحياة الجماعية ، ووزعت الأبنية العامة توزيعاً منطقياً وفقاً للغاية الموضوعة لها . فأوجب ذلك نوعاً من الوحدة

في القياس والقاعدة. غير ان طبيعة الأرض قد أخذت بعين الاعتبار، أفقه، لتحديد تخطيط السور وموقع كل من القلعة والمسرح الذي كان من شأن اسناده الى منحدر احدى التلال ان يخفف نفقات بنائه. ومهما يكن من الأمر، فقد كانت هنالك مشاغل جماعية، جديدة في كثيرها وشموها، أوجب ذوق ذلك العهد النزول عندها.



الشكل ٢٩ - برغاموس الهلينية

ثلاث مدن اضيفت الواحدة منها الى الأخرى : المدينة السفلى (١) ، المدينة الوسطى (٢) ، المدينة العليا (٣) . وقد استازم توسع المدينة وتحداها نحو السهل تعاقب تشييد أسوار أعظم اتساعاً.

مشاغل رفاهية في الدرجة الأولى . فقد حدد عرض اكبر للشوارع ، عشرة أمتار تقريباً للشوارع الرئيسية ، وستة الى ثمانية أمتار للشوارع الثانوية . ووضعت أنظمة للأبنية ، حفظت لنا الكتابات ما تعلق منها ببرغاموس ، قضت بالنظافة والتقيد بمجد أدنى من المسافات بين البيوت : وقد عين قضاة وموظفون خصوصيون ، نقلت روما تنظيمهم فيما بعد عن الاسكندرية ، مهمتهم السهر على تطبيق هذه الأنظمة وتأمين السلامة ليلاً ومكافحة الحرائق . واحيطت الساحات العامة المتميزة بالانتساع بأروقة تتفق مع متطلبات المناخ الشرقي ويحلو للكسالى التنزه فيها . وانشئت المجرات والاقنية لتأمين حاجة المدن من المياه . وإذا ما عرفت المدينة الازدهار

وسام الملوك والوطنون الاثرياء بسخايم ، برز البذخ بصورة ابنة جديدة ومعابد ومتراوفات ومذابح وخصوصاً تماثيل برونزية او رخامية غدا عددها في النهاية عظيماً جداً . ومن الجلي ان البورجوازية المدنية المزودة ببيوت انيقة التزيين قد اعارت جمال المدينة الاهتمام نفسه : فكلت للتنافس شأنه على هذا الصعيد . ايضاً .

اضف الى ذلك ان التجميل الهليني قد خضع لهمّ جديد هو وقع المنظر العام الذي يحصل عليه بتنظيم المدينة تنظيماً جالياً والتوفيق بين مناظر الأشياء البعيدة توفيقاً متناسقاً وتوزيع الخطوط والمسطحات والمجموعات التي تنتج عن هندسة العمارة توزيعاً متوازناً معتدلاً . ويبدو في هذا الصدد ان مدينتين ، هما مقران ملكيان ، قد انشئتا بنجاح كامل . فيها قد حددتا على كل حال لأجيال واجيال من الفنانين ، النقاشين والنحاتين والرسمين ، موضوعين من مواضيع مناظر الخلفية . وهاتان المدينتان هما الاسكندرية وبرغاموس . أما الأولى ، وقد بنيت في ارض سهلية ، فقد اعطت الخطوط والمشهد التقليدي لمنظر المرافئ الذي ألفه جميع المتوسطين والذي بلغ الكمال هنا بفضل تقدم الاساليب التقنية التي اعتمدت اذ ذاك في كل مكان تقريباً ولبكنها لم تعتمد في أي مكان على مثل هذا النطاق الواسع : الجزر الصغيرة والارصفة والبرج المضيء وشتى انواع المراكب ونشاط حركة التحميل والتفريغ ، وتشرف على كل ذلك قم الاشجار الخضراء في الحدائق الملكية وسقوف الابنية العامة . واما برغاموس ، وقد بنيت على منحدر تلة تشرف على سهل يلتقي فيه نهران ونضدت وفقاً لمسطحات تقصل بينها سطوح افقية تترامى خلالها جدران واعمدة وسقوف المتراوفات والملاعب وتوجت اخيراً بسلاسل المسرح الحجرية وباعمدة المعابد ، فقد اعطت المنظر المدني يحرص معناه ، من حيث انها شيدت كستار خلفي في مسرح ، منظوية احياناً على كل معنى العظمة الملموسة ومذكرة تذكيراً مؤثراً بالمجهود البشري الذي فرض نفسه على الطبيعة وبلغ الذروة في التعبير عن جميله نحو الآلهة : فان منا بدأت أئينا في اعطاء مثل عنه في منحدر القلعة قد ظهر هنا على نطاق اوسع بفضل اضافة باقي المدينة الى هذه التقدمة التقوية الجبارة . فقد ولد حقاً فن جديد هو في الوقت نفسه نتاج وغذاء احساس جديد .

٢ - الفنون التصويرية

ان الظروف العامة التي كان لها أثرها في الفنون التصويرية تختلف اختلافًا الظروف العامة بيننا عنها في العهد الكلاسيكي .

ويظهر التغيير بنوع خاص في الظروف المادية . فقيام الملكيات الكبرى وسياستها في نصرمة الفنون الجميلة وتضخم الثروة والتنافس بين الجماعات وميل الافراد الى الفخفة ، كل ذلك أحدث ازدياداً عظيماً في طلبات المصنوعات الفنية . واليك بعض الأرقام المدهشة المذكورة عرضاً في الكلام عن بعض أعمال النهب . فيؤكد بوليب ان «ألفي تمثال على الاقل» انتصبت

في ثرموس ، المركز الديني والسياسي للاتحاد الايتولي . واستطاع القائد الروماني الذي دخل امبراسيا عنوة ، وهي مدينة في غربي اليونان كانت مغمورة في القرون الكلاسيكية وبقيت ثانوية بعد ذلك على الرغم من انها أصبحت مقراً للملك بيروس في فترة من الزمن ، ان يعرض ويسير لدى انتصاره ٧٨٥ تمثالاً من البرونز و ٣٣٠ تمثالاً آخر من المرمر، داركا التماثيل الخزفية في أمكنتها مع انها من انتاج زفكسيس . وضم موكب النصر الذي راقق فاتح مقدونيا ، بولس اميلوس ، ٢٥٠٠ عربة ملأى باللوحات والتماثيل والمنسوجات الثمينة والأواني الذهبية والفضية والشبهية والعاجية . وبدت المعابد الكبيرة الجامعة ، دلفي وأولمبيا وديلوس التي اثبتت الكتابات والاكتشافات عظمتها ، وبعض المدن كالثينا ، اكثر من أي وقت مضى ، وكانها متاحف او معارض دائمة . وتاقمت كافة المدن الاخرى الى بلوغ هذا الهدى وتوصلت كثيرات الى تحقيقه ، لا سيما تلك التي كانت مقراً للملوك فاستفادت استفادة كبرى من سخائم وتنافسهم في التباهي والظهور .

كان لهذا الكلف العام اثره الطيب في حياة الفنانين المادية وفي مرتبتهم في الطبقات الاجتماعية وفاقاً لتطور شبيهه بذاك الذي حدث لمصلحة رجال الفكر كما سنرى . فلم يرتفع عددهم فحسب ، بل زادت ظروف العمل لكل منهم ايضاً . فاستخدموا مواهبهم ، اكثر من ذي قبل ، في معالجة بعض الخاميات النادرة الثمينة التي رفعت من شأن مصنوعاتهم في نظر زبنيهم . فظهرت إذ ذاك تجارة المنسوعات الفنية بما تنطوي عليه من نتائج حتمية : تقليد الروائع الشهيرة وأرباح الوسطاء وتوسع الاوساط المهتمة للمشاكل الجمالية واتساع اسواق التصريف وتضائل الأوهام الاجتماعية القديمة . وبجوازاة زيادة موارد الفنانين ، شملت الشهرة المحدودة اسماء اكثر عدداً وبقيت الشهرة الكبيرة مقتصرة على نخبة قليلة العدد . في العهد السابق شدّ فيدياس ، المقرب الى بريكليس ، عن القاعدة العامة ؛ اما اليوم ، فعلى غرار ليسبوس الذي لحق بالاسكندر الى آسيا، كان لفنانين كثيرين علاقة بعظمة هذا العالم . وزادت دعوات هؤلاء من تنقلات الفنانين التي عمدت معرفة المنسوعات والتقنيات الفنية فأسهمت إسهاماً عظيماً في الحفاظ على وحدة الفن الهليني .

وهكذا خضع هذا الفن ، بفوارق واشكال خاصة بهذا المركز وذاك، الى زعات مشتركة موافقة لميول مجتمع قوسى التطور المادي والادبي التحامه الاوّل . اجل سبق لكثير من هذه النزعات ان ظهرت ولكنها انتصرت الآن . فعبرت واقعية الصورة عن الفردية العمامة التي لم ترض ان تنظر الى الانسان نظرتها الى مثال مجرد . وتوافق البحث عن التأثير ، والتعبير عن العواطف الحادة ، والميل الى الجمال حتى الشهواني منه ، والتلهي الزائل ، مع المذهب الذي ناهض مذهب العقلين في ذلك العهد . وبرز اثر الثورة الدينية ايضاً ، فمكس الفن إيماناً يتميز بيزيد من الفردية والعاطفة وتوجه الى النفس والاحساس ، اقله بواسطة موحيات التفسير الصوفي .

وردد هوى الطبيعة والمناظر نفسه صدىً يختلف عن صدى نداء سكان المدن للآفاق العريضة والماء الجارية والأخضرار ؛ فعبّر أيضاً عن تقوأم نحو القوى العظمى سيدة الحياة الأرضية والحياة الثانية .

ويجب من جهة ثانية الى جانب عوامل التجديد هذه ، ان نفرز مكاناً لتقليد الماضي . فان سحر روائع العهد الكلاسيكي لم يزل يفعل فعله في الهواة ، لا سيما الملوك الراغبين في اعلاء مقرم الى منزلة المناظر التي هي أشبه بالمتاحف في اليونان القديمة . فتكونت إذ ذاك قطعة قطعة المجموعات الاوى التي كلفت رؤوس أموال باهظة . غير ان تعذر اخراج الروائع الاصلية من المعابد والمدن قد أرغم على الاكتفاء بنسخها . فارتفع انتاج هذه النسخ ارتفاعاً مطرداً ، لا سيما عندما فتحت اسواق جديدة ، في ايطاليا اولاً وفي مناطق الغرب الروماني ثانياً . فاضطرت مدينة كاثينا مثلاً ، منذ عهد باكر ، الى ان تخصص لمثل هذه الطلبات قسماً وافراً من نشاط مصانعها ، واذا ما استطنعنا اليوم محاولة تحجیل تمثال « أثينا » الذي حققه فيدياس للبارثون ، فنحن مدينون بذلك ، بصورة خاصة ، الى النسخة التي اكتشفت عنه في برغاموس . ومن الطبيعي ان امانة هذه النسخ لم تكن مطلقة ، إذ ان تقنيسة التقليد مع ما تستلزمه من افراغ في القوالب وصقل لم تكتشف بسرعة وان الفنان قد تأثر بالذوق السائد في ايامه او لم يكبح ، كما يجب الكبح ، جراح إلهامه الشخصي . وهذا ما يحمل اليوم على التردد والجدل في تحديد تاريخ ، حتى تقريبي ، لعدد كبير جداً من التطلع الأثرية . وهذا أيضاً ما أوجد ، أقله منذ القرن الثاني ، ردة فعل بالعودة الى الفن القديم اخذت في البروز شيئاً فشيئاً حتى بلغ منها انها عبرت عن الاهمال حيال النزعات « العصرية » . وليس من شك في ان هذا التطور ، الذي لا يكون حالة وحيدة في تاريخ الفنون ، انما هو ثمّن نمو العلم الواسع الذي احتل هو أيضاً ، كما سنرى ، مركزاً هاماً في الحركة الفكرية : فقد حدث كل شيء ، في النطاقات التي لمعت فيها الحضارة الكلاسيكية بمثل هذا السنى ، كأن الحضارة الهلينية شكّت في نفسها فحضمت لتقليد الماضي تقليداً معجباً .

ليس في عداد النقاشين الهلنيين الكثيرين سوى اسماء بارزة قليلة هي بالنسبة لنا اليوم النقاشة غير مجرد اسماء .

واشهرها على الاطلاق هو اسم « ليسبوس » . بدأ نشاطه قبل الاسكندر ، ولكنه غدا النقاش الرسمي لهذا الأخير في آسيا وعرف ان يطبع الصور الرسمية التي نقشها بالمية سيكولوجية جنبتها عبقريته الاصطلاح . وهي هذه اللمية التي تجيز لنا الاعتقاد بأن تمثال « هرميس ازارا » في الوفر ، الذي تؤكد كتابة تحملها قاعدته انه تمثال للاسكندر ، نسخة عن احدى روائع ليسبوس . ومهما يكن من الأمر ، فان ليسبوس ، ببحته عن الحركة والاقناع ، وبتحليله الحاد للمريكة والمواطف ، قد شق نهائياً ، أمام خلفائه ، الطريق التي سلكها براكسيتيل وسكوباس من قبله .

إذا كان هذا الأخير قد علّم برياكسيس وأضع التمثال العبادي الأول لسيرايس ، فارت
خاريس ، وأضع جبار رودس ، إحدى « عجائب الدنيا » ، وافتخيداس ، وأضع مجموعة إله الحظ
في انطاكية ، قد تطلّما على يد ليسوس . ولكننا لا نعرف سوى هذه المجموعة بأحدى نسخها
التي تتيح لنا تقدير قيمة تصميمها العام : وفرة وبساطة الرموز — تاج الأسوار المسننة ، حفنة
السنابل ، السبّاخ الفتي القوي الذي يمثل نهر العاصي منفتحاً من تحت الصخر — ، ومعرفة الحركات
كما يتضح من تعقيد وطبيعة الوضع الذي يرفع الرجل اليمنى على كتف السباح واليد اليمنى
الغابضة على السنابل حتى مستوى الرقبة ، بينما تترك اليد اليسرى على الصخر ، والغوارق
الرفيعة التي تعبّر عن الجلال والراحة في جلسة كلها مرونة ، وعن العطف والوقار في وجه يتّسم
بالعدوية الحاملة .

بقيت فيما بعد أسماء كثيرة يتعدّر علينا ان تربط بينها وبين روائع نعرفها . ومما بلغ من
شهرة هذه الروائع ، كفينوس ميلو وإله نصر ساموتراس الفاتح الذي اهدي تقدمه بعد انتصار
بحري إحرز في القرن الثالث أو القرن الثاني ، فان التماثيل قد كتب لها الاغفال والتباس التوثيق .
وهنالك عدد لا يحصى من تماثيل افروديت في متاحفنا ، لم تكن صناعتها سوى حجة لتعمية جسم
المرأة ، حيرت علماء الآثار ، تشهد بما انطوى عليه الزين الذين اقتنوها من ميل شواني يفوق
حرارة ايمانهم ، وقد تذهب أناقّة تماثيل ديونيسوس طفلاً وإفعلاً ، وجلال تماثيل زفس الملتحية ،
وعضلات تماثيل هيرا كليس القوية المرهقة أحياناً ، الى ابعد من ذلك لو لم تفرّض نماذجها المحيدة
امثلة اصطلاحية .

في هذا الفيض من الانتاج ، تراءت بعض النزعات المحلية ، فهل كانت هذه النزعات من القوة
بحيث نستطيع الكلام عن « مدارس » ، كما جازف بعضهم مراراً كثيرة ؟ التعبير مبالغ فيه دون
ريب لأن التنقلات الكثيرة قد مزجت فنانيين يختلفون منشأً جغرافياً ، ولأن مدرسة واحدة لم
تأمرس احتكاراً ، حتى فيما يبدو لنا ممكناً ان نجعله مقرأً لها . بيد انه يتوجب علينا الاعتراف بأن
هذه او تلك من النزعات الكثيرة في النقاشة المحلية قد برزت ، وفاقاً للأمكنة ، في تحقيقات
منفردة او مجموعة على درجة رفيعة من التميز .

وتتحقق هذه الحالة في برغاموس بمزيد من الوضوح ، ولعل ذلك بسبب تأكيد الترجيحي
من نسبة الروائع الصادرة عنها . كان الملوك الاطاليون يهون روائع العهد السابق ويقتونها ،
وقد أسوا مدينة — متحفاً لا تضاهيها مدينة في العالم الجديد آنذاك ، فأكثرنا من الطلبات
لتزيين عاصمتهم ولتوزيع العطايا الثمينة المفيدة لدعواتهم على عدد من المدن اليونانية في اوروبا
وأسيا . وقد استفادوا منها للاحتفال بنزاعاتهم مع الفلاطيين السكثيين الذين غزوا شمالي اليونان
وأقاموا في قلب الانجاد الأناضولية فأرهبوا الجوار بسجسهم النهاب . ولم يكن ذلك دون بعض
التساهل ، إذ ان السلالة ، بعد ان وجدت فيه فرصة لتوطيد سلطتها وتوسيعها ، لم تتردد في

استخدام الغلاطين ضد اغريق آخرين ، فسرت هذه النزاعات كصراع الحضارة ضد البربرية . فأحيت بعض النقوش هذه النزاعات احياء مباشراً وأشارت إليها نقوش اخرى اشارة رمزية بواسطة مشاهد ميثولوجية او تاريخية . وهكذا فان بعض المجموعات ، في اسفل الجدار الجنوبي من قلعة اثينا ، قد مثلت ، لا هزيمة الغاليين على يد اطال الاول ، بل هزيمة الجبابرة ايضاً على يد الاوليبيين وهزيمة الأمازون والفرس على يد الأثينيين . وكذلك فان صراع الجبابرة هو الذي أوحى ايضاً موضوع نقوش الافريز الكبير في مذبح برغاموس .

وهكذا فقد استقر مثال افصى نجاحه الى انتاج المزيد من نسخه ، هو طراز الجندي العالي ، الحارب ، الجريح ، المشرف على الموت ، المنتحر بعد قتل زوجته كي لا تقع في العبودية ، المخيف بعريه وشعره الأشعث وهمة القساء ، المؤثر بخيلانه في الشقاء ، القادر بعد كل حساب على ارعاب وطمأنة المدنيين الهانئين بسعة عيش مترفة . ومع ذلك فان الانتاج الأعظم هو الافريز الذي ازدادت به ، على ١٣٠ م طولاً و ٢٠٣٠ م عرضاً تقريباً أساس مذبح زفس الضخم في برغاموس . فان هوى النفس الذي يبلغ فيه حدّ العنف المفرط في المحاربين يتمثل في هيجان الأوضاع وتشنج الأوجه والمعضلات المتكشحة في مجهود حاقق . وتبرز براعة الفنانين الخلاقة في تنوع الأمثلة البشرية او المسخية ، وفي قرينة لا تنضب تنوع المشاهد الكثيرة - فحتى الجبار الفتي نفسه يخفض رمحه أمام جبال افروديت الرائع - ، وفي دقة رسم الأسلحة وحتى الملابس والأحذية . وبالتالي فان النقاشة الهلينية ، على تقيض النقاشة الكلاسيكية وتحفظها الكالنج ، تفضي ، بما تنطوي عليه من تفخيم وواقعية فظة ، الى مأساة قاسية جسدية وأخلاقية معاً .

ويبدو مع ذلك ان البحث عن تحريك العواطف قد بلغ أوجه في رودس ، بعد ذلك بوقت قصير . وان اشهر التحقيقات فيها ، اعني به مجموعة لاوكون وابنيه المشنجن تحت تأثير التفاف الثعابين عليهم ونهشها ، الذي أثار اعجاب ميكال المجلو وليسينج والذي يتهمه تطور الذوق المعاصر بالعنف المسرحي يبدو اسمى تعبير للألم الجسدي في خير بحث تشريحي . فقد استهوى النقاشة الهلينية ان تنقل عن الميثولوجيا مشاهد الاحتضار هذه ، تعذيب « ديريكي » - موضوع المجموعة المشهورة باسم « ثور فارنيز » - او موت النبوين . وقد حاولت ان تمثل ، تصويرياً ، آلاماً اعتمدت المأساة تمثيلها منذ زمن بعيد ولم تبد لها وسيلة من الوسائل غير الاناقة بها للتأثير في المشاهد رعباً وتقوى .

اما الاسكندرية فقد كانت بلا مرء مركز فن نزعاته أشد تنوعاً . وغالباً ما ينتقص المؤرخون من اهميتها باقتصار انتاجها الممتاز على الفنون المعروفة بالفنون الصغرى . وفي الحقيقة لم يظهر النقاشون وعماهم ، في أي كان ، على المواد الثمينة - ذهب وعاج وجوهر وجزج - مثل هذا الخيال الخلاق والمهارة التقنية لارضاء بذخ واناقة زين اسمى رقة . غير ان الطرف الرقيق ، المسترخي احياناً ، في كثير من هذا الانتاج ، قد أخفي نوايا ارفع مستوى ؛ فهو قد عبث بتدين

على كثير أو قليل من الغموض والواقعية والصوفية ؛ وقد أوحى ، بكثير من الرصانة ، بتقوى ورحمة خفيتين . والسيدة ، اذا كان هناك من سيئة ، تقوم في ان الابداع في الشكل وغرابة الابتكار تحمّلان على الاعتقاد بلعبة لا بتأمل مراقب .

ان النقاشة الهلينية أحبت الواقعية فدفعت بهسا عن قصد الى فن تصويري في الموضوع والاملوحة ، محاولة الأضواء نارة والاضحاك او التعطيف نارة اخرى . وكان الولد لها موضوعاً مفضلاً تؤثر فيه تطهّم الوجنتين والإليتين ، رمز الطهارة الصافية ووعده القوة : فكانت نتيجة هذا التفضيل تهايل ديونيسوس وصغار آلهة الحب والولد الذي يصارع الازرة برصانة مضحكة . وقد دعا تقليد الفن المصري القديم الى السخرية الداعية التي لم تتراجع احياناً امام التصوير الهزلي : اقزام سمجون ، راقصون وراقصات مضحكون ، من شأنهم تفكّهة هواة اشمأزوا من الجمال الفني . فلوحظت الأمثلة الشعبية ملاحظة دقيقة ، المصارعون من الدرجة الدنيا ، والفلاحون ، والشيوخ ، والعبيد ، فاكشفت فيها ظروف انتقادية على شيء مما يثير الأشفاق . وقد حرص النقش النسائي ، الذي تأثر تأثراً قوياً بفن التصوير ، على وضع المشاهد الميثولوجية ومشاهد الحياة اليومية في منظر مرفأي او مدني او ريفي . ولم ينفصل التمثال الرمزي نفسه انفصلاً كلياً عن الطبيعة ، واننا لنجد الى جانب اولاد يلهون بحرية ، نباتات مستنقعات الدلتا على مقربة من شخ جليل يمثل النيل ؛ وهذه مجموعة شهيرة اسهمت الى حد بعيد في نشر فكرة تشخيص الانهار ، إن لم تخلفها خلقاً على غرار ما فعلته للندن مجموعة إله الحظ في انطاكية .

التصوير والتخريف والصياغة
ان ما نعلمه عن تحقيقات فن التصوير الكبرى في العهد الهليني لا يتعدى عملياً ، كما سبق وقلنا عن فن العهد الكلاسيكي ، ما بلغنا عنه بالحبر المتقون . فقد عاش ابييل في عهد الاسكندر ولم يستحق احداً من خلفائه ، فيلوكسينوس او ايسيون او ثيون ، مها بلغت شهرتهم ، ان يحاربي ذلك الذي حقق التحفة الرائعة التي لم تضاهها تحفة من بعده والتي تمثل افروديت خارجة من الماء وهي تعصّر شعرها . وكي نكوّث اليوم فكرة عن نتاج هذا الفن يجب ان نتطرق نحيلتنا من بعض قطع الفسيفساء او الرسوم الجدرانبة الكبانية ، لا سيما في بومبيي ، التي ليس من شك في انها تقليد لما لحقق منها في السالم اليوناني .

واننا نرى فيها دون عناء بعض النزعات الظاهرة في النقاشة ، وليس هذا بالأمر المستغرب اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اشتراك الفنين لا بل تتافسها في تزيين الأبنية . وهذا ما يبرر موازاة تطورها ، على الرغم من ان المصورين قد سبقوا النقاشين ، كما يبدو ، في اصطناع بعض التأثيرات . وبرز معنى الحركة العنيفة في فسيفساء متحف نابولي التي تمثل هجوم الاسكندر الصاعق على داريوس في معركة ايسوس . وقد قدّمت الميثولوجيا بوفرة المواضيع الحركة للمواطن التي عولجت بالتفضيل على غيرها . ولكن الفنانين لم يهملوا وضع الأشخاص في منظر راعوي او غامض ، في

جال ان الواقعية الدقيقة او التخيل المبتكر قد رافقا معالجة الرسوم الرمزية . وكان للروحانيات وكابوس الموت والفلسفة والأدب أثر في تصميم بعض الزخارف التي يرفع المبدع وتمثال الإله والرمز النباتي او الحيواني من تفهها الراعي، وفي تمثيل ربان وحسي الأدياب والفلاسفة والعلماء والحاصلات المسرحية والعلمية . وكان من شأن الانصاب المدفنية المصورة التي اكتشف عدد كبير منها في تساليا وفينيقيا ومصر ان تخرج من الإبتدال الاصطلاحي احساناً بفضل طابع الصورة الفردي ، حتى اذا استخدمها زين من الطبقة الوسطى . وكان فن التصوير الهليني على العموم فناً عظيماً من شأنه ان يساعدنا على فهم الفنون الاخرى فهماً افضل فيما لو أحسنا معرفته .

اما فن التصوير على الخزف فقد تقهقر تقهقرأ واضحاً في اعقاب توزع المصانع والجاذب الذي أحدثته مصنوعات ترفية اخرى . فقد فقدت ائتنا امتيازها وأنشئت مصانع كثيرة في كافة أنحاء العالم اليوناني ، وحتى في خارجه ، واستخدمت بدأ عاملة أقل نجابة ومهارة . أضف الى ذلك ان الزين ، وهم أوفر ثروة ، غدوا يفضلون الأواني المعدنية التي تؤلف أبداً قسماً هاماً من المغائم التي يهر استعراضها الجماهير الرومانية في مواكب النصر الكبرى غداة حروب الشرق . وقد نشئت على البرونز والفضة مشاهد نائثة ، ويصح في المواضيع المعالجة ، وفي طريقة معالجتها ، معظم ما قلناه عن التصوير والنقاشة . وهنا ايضاً تكشف اثاره الذكريات الفكرية والدينية والمدنية وحتى المأتمية عن ميول راسخة في هواة يميزون بذوق رقيق . اما الزين المتوسطون فيكتفون بالخزفيات النائثة التي قلدت الأواني المعدنية وازدانت بالمشاهد نفسها وعرفت إذ ذاك رواجاً مطرداً . فلم يعد الخزف مادة لفن مستقل بل غدا تدريجياً بديلاً رخيص الثمن للمعدن .

حدث الشيء نفسه للتماثيل الصغيرة ايضاً . ففي بوسيا وغيرها ، وفي آسيا الصغرى بنوع خاص ، ما زالوا يصنعونها بالتراب . ولكن دقة صنعها تدنت فأكثرها ، الى جانب البورجوازيات الأنيقات والفتيات النضرات ، من تماثيل مستهجنة تستهدف اثاره الضحك . فليس من ريب في ان مستوى الزين الاجتماعي قد تدنى ايضاً ؛ وزاد تقدم اليسار من طلب مصنوعات تكون مادتها أرفع ثمناً .

لذلك أصبح الحد الفاصل بين هذه الصناعة والصياغة غير واضح تماماً . واحتاج سبك المعادن من برونز وقضة او ذهب والعاج والزجاج والجوهر ، ونقشها وتزييلها ، الى قريحة ومهارة وتقنية فنانين في خدمة أعلى الطبقات الاجتماعية . وتفوقت الاسكندرية على برغاموس ومدن فينيقيا في هذا الانتاج الشرقي . فان عظمة البلاط اللاجي ومبالغته في الترف ، اللتين قامتتا على ثروة لم يضاها ثروة في أي مكان ، قد خلقتا نمطاً يفسر نجاحه التصديرات المبيدة - اكتشفت أو انب زجاجية اسكندرية حتى في افغانستان - والأثر المستمر الذي فعل فعله بعد ذلك في ذوي الثروات من سكان روما . اجل ان في هذا النمط مجاهمة وتصنعاً واستهجاناً . ولكن فيه ايضاً ، في بعض الأحيان ، شعوراً رقيقاً يراققه ثقافة وتدين ليسا بسطحيين . ويظهر هذا الشعور نفسه

على وجه بالغ الصفاء تمزوه بعض روايات النقود الذهبية الى بعض ملكات البطالسة .
فقد توصلت هذه الحضارة ، أقله في أرفع نجاحاتها كالأ ، الى تشريف استخدام المواد التي
وفر لها فتح الاسكندر امتلاكها .

٣ - الحياة الفكرية

كثيراً ما يُبغض حق الحياة الفكرية ، في العالم اليوناني ، بتجاهل حيويتها وتجديدها . اجل
انها لم تعط نتائجاً أدبياً عظيماً ، ولكن قوة الفكرة وجرأة الرأي لم يعوزاها . ولا نستطيع ،
اذا ما أردنا اصدار حكم شامل ، ان نتكلم عن تدني القوة الخلاقة ، بل عن اتجاهها تماماً آخر
فقط . أضف الى ذلك ان هذا النطاق هو الذي اثبتت فيه الحضارة الهلنسية قدرة كبرى على
الانستاعة .

١ - رجال الفكر والمجتمع الجديد

لم يكن تأخر البولس ليعنى دونما أثر . وليس من المستغرب مثلاً ان تزول
الظروف العامة الفصاحة السياسية والقضائية بانهاء القرن الرابع لأنه لم يبق في الظاهر ظرف
واحد من الظروف التي دانت لها بنشأتها وسناها .

قدّمت الملكية ، منذ ذلك العهد ، إطاراً جديداً فرض تكييفاً خاصاً وأحدث كثيراً من
الموجبات والتسهيلات . فنصرة الآداب حدثت من حرية المؤلف او وجهتها . وبلغ من السلطة
المطلقة احياناً ان لاشتها ، واننا نعرف بعض حالات سببت فيها الانتقادات اللاذعة موت الشعراء
بعد تعذيبهم . ولكن العلائق طيبة اجمالاً ، وعلى فوارق كثيرة ، على كل حال ، تتفاوت بين
التملق والكرامة عند هذا ، وبين التنازل والاعجاب عند ذلك . وكثيراً ما لعب التنافس دوره
بين الملوك في اجتذاب فيلسوف او كاتب شهير ، وقد حدثت في نهاية وليمة من الولائم ان منح
انطيوخوس الثالث هدية ولقب « صديق » لشاعر ألقى ابياتاً من الشعر بعد ان رفض الرقص
مدججاً بالسلاح على غرار المدعوين الآخرين . وقد تألف البلاط الملكي على العموم من افراد على
ثقافة عالية لم يكن اعتداهم بظرفهم الأدبي مجرد ادعاء فقط ؛ فهم قد يتصنعون ، ولا ريب في
ذلك ، ولكنهم يدركون خبير ادراك النوايا الخفية التي ينطوي عليها القلب والقالب على السواء .
وحلّ اللطف والرقّة فيه محل الشدة الحازمة التي كانت توافق في الماضي جمهور المواطنين الحشّين .
واذا تأتى من ذلك بعض الضرر فيجب ان لا ننسى المساعدة المادية الكبرى التي منحت للأدباء
والعلماء والأعطيات السخية التي سهلت معيشتهم والمؤسسات التي سهلت أبحاثهم .

نتج عن ذلك ، على غرار ما حدثت في الحياة الفنية ، ازالة المركزية بشكل بيّن . ففقدت

أثينا نفوذها الفكري السابق . أجل أنها ما زالت مدينة جامعية شهيرة بمآهد الفلسفة والبيسان التي أخذت العائلات الثرية ترسل إليها إبنائها لإكمال تربيتهم . وقد تباهى الملك المقدوني أنتيغونوس غوثاناس بإعلان ما هو مدين به لإقامته يافعاً في أثينا وللمعلمين الذين تلمذ عليهم . ولكن لأثينا منافساتها حتى على هذا الصعيد ؛ فان شهرة رودس مثلاً كادت توازي شهرتها . وقد تأثرت أثينا ، بنوع خاص ، في البحث العلمي عموماً وفي أكثر التحقيقات الفكرية والأدبية ، بإستثناء الفلسفة والمهزلة ، بنافسة العواصم الملكية الكبرى التي كانت أوفر ثروة وفضل تجهيزاً وأقرب الى العالم الجديد . وكانت الاسكندرية وبرغاموس على الأخص بفضل مجموعات المخطوطات في مكتباتها وسخاء ملوكها ، أقوى استمالة وأهز لمسانة : فلم تعد أثينا « مدرسة اليونان » ، او مدرسة العالم اليوناني المتسع على الأقل .

هنالك سبب آخر من اسباب التبدل ، اعني به امتداد وانتشار البورجوازية المتوسطة في المدن . فلم تبلغ هذه الطبقة الاجتماعية إلا نادراً مستوى ثقافياً عالياً . ولم يستهوا التصنع المفرط الدقة الذي قد يستهوي القيمين في البلاطات . ولكنها كمجموع احترمت الامور الفكرية . تمثل الاغريقي « الوسط » في العهد الكلاسيكي بالفلاح الذي لم يكن أمياً عمرياً ، ولكنه كرس بالضرورة ، منذ عهد باكر في حياته ، شطراً كبيراً من مشاغله للنشاطات اليدوية . اما منذ اليوم فقد تمثل ، اقله في الشرق ، بالمدني الميسور ، الملاك ، التاجر ، او الموظف ، الذي يتصرف بزيد من اوقات الفراغ دون ان يبقى عاطلاً . ويفسر هذا التطور تحسن المصير المادي وبالتالي ازدياد عدد من يتعاطون نشاطاً فكرياً . وقد أثبت هذا النشاط انه لم يكن قيناً بتقنية متعاطيه فحسب ، بل بإيلائه ، بصورة شبه آلية ، حدّاً أدنى من المكانة الاجتماعية .

ان تعلق الاغريق بمحاضرتهم المتفوقة ، سواء انتسبوا الى الطبقة العليا أم الاغريق والشرقيون ، قد حدّ من الاقتباس عن الحياة الفكرية في الشرق .

م يظهر الاغريق عموماً ، حيال هذه الحياة ، مزيداً من الفضول ، مع ان كل شيء قد توفر ، لا لتشجيعها فحسب ، بل لفرضها فرضاً ايضاً . فقد جمع مانثون احد كهنة هليوبوليس ، بإيعاز من بطليموس الأول ، كل ما كان معروفاً عن السلالات الفرعونية ، ولا يزال الترتيم الذي اعتمده متبعاً حتى اليوم من قبل المعاصرين . وقد قام بالعمل نفسه « بيروز » احد الكهنة البابليين تلبية لطلب الملك السلوقي انطيوخوس الاول . ولكن الاغريق لم يقرأوا مؤلفاتها ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأساطير التي ما زال هؤلاء يتناسقونها . وحتى في القرن الاول قبل المسيح ، اي بعد معاشره طويلة ، لم يتردد اسكندر يوليبيستور ، عندما وضع تاريخ اليهود ، في جعل موسى امرأة سويّة . وقد بقي محدوداً ايضاً الاقتباس عن العلوم الشرقية المشهورة بتقدمها لا سيما علم الفلك . اعتمد اللاتينيون والسلوقيون الروناتين المصرية والبابلية ، ويتيح لنا اليوم استخدامهم الرسمي لها ان تحدّد توارينهم بدقة تامة ، شريطة ان تكون هذه التواريخ قد بلغتنا كاملة .

ولكن الأغرقيق في جميع المناطق الأخرى قد اكتفوا بروناتهم التقليدية على الرغم من تأخرها . ولم ينتشر حساب خسوف القمر ، الشائع في المعابد البابلية ، إلا في وسط نخبه يونانية محدوده العدد : فحتى في ٢١ حزيران من السنة ١٦٨ ، ألقى اختفاء القمر الربع في الجيش المقدوني .

فماذا تقول بعد ذلك عن جهل أحاطوا أنفسهم به ، عن قصد ، حبال امور الهند يا ترى ؟ كان الاسكندر ، مع ذلك ، قد تجاوز نهر الهندوس ؟ ولكنه مع رفاقه قد اكتفى بالقرائب السطحية دون ان يبذل جهداً جدياً لإدراك خوافي الامور . فقد شبهوا بالفلاسفة الوقحين اولئك الذين اطلقوا عليهم اسم « الحكماء العراء » ، متعجبين بنوع خاص من الموت الطوعي الذي اقدم عليه احدهم ، كالانوس ، باعلاء النار المتقدمة ، عندما رفض الاضفاء الى الأطباء اليونانيين في معالجة مرض اعتبره هو غير قابل للشفاء ، بعد ان التحق بالجيش ، وهو في طريق عودته ، حتى بلاد فارس : وكانت الدهشة كبيره ، بعد موت الاسكندر في بابل ، من انه وعد الملك بأب يراه ثانية في هذه المدينة . وسنحت بعد ذلك فرص أخرى . فقد اقترب بعض الملوك السالوقيين من الحدود الهندية . واستحضر احد سفراء سلوقس الاول ، ميغاستينوس ، كتاباً غنيا بالملاحظات الدقيقة والتصويرية حول الرحلة التي قام بها حتى عاصمة المملكة المورية ، « باثاليوترا » (باتنا) على نهر الغانج ، حيث استطاع ان يرى بعض البراهمة . وطلب احد ملوك الهند ان يرسل اليه بعض النبيذ والتبن واحد الفلاسفة . وفي أواسط القرن الثالث ، اوفد آخر ، يدعى « اسوكا » ، وهو بوذي مولع بالتبشير ، مرسلان الى انطيوخوس الثاني وبطليموس الثاني وحتى الى « انتيغونوس غوثاس » في مقدونيا والى « ماغاس » في كيرينا . ولكن هذه الاتصالات لم ترد سوى اهمية عرضية .

كان الأغرقيق ، المقيمون في شرقي ايران ، الذين يبدو ان عددهم قد أولاهم مركزاً على بعض القوة في بلاد البختيار ، افضل استعداداً لمعرفة الهند . وقد استفاد بعض زعمائهم من انحطاط الامبراطورية المورية وتوصلوا الى ان يقتطعوا لهم ممالك في البنجاب . وكان « مينانديروس » اشهر هؤلاء الملوك الهلنيين الذين تولوا الحكم في بلاد غربية . وتدعوه النصوص الهندية ميلندا ، ويظهره احد هذه النصوص ، « قضايا ميلندا » ، مستعملاً الحكيم « ناكسينا » عن الديانة البوذية . ولكن المملكة الفارسية الفتية ، منذ هذا التاريخ ، قد اندفعت الى الجنوب من بحر قزوين وقطعت الاتصالات بين اغريق الشرق الاقصى ومواطنيهم في جوار البحر المتوسط . ولم يعد باستطاعة التأثيرات الفكرية ان تنتقل الى هؤلاء : لذلك فان الحضارة الهلينية ، من حيث هي لم تعرف الهند ، لم تقبس عنها شيئاً ذا اهمية حقيقية .

اما الشرق المتوسطي وبلاد ما بين النهرين فيجب الاعتراف بأن الحياة الفكرية فيها كانت على العموم اضعف من ان تستهوي الأغرقيق . وعلى نقيض ذلك فان الحضارة اليونانية هي التي استألت الكثير من الشرقيين . ويكُون هذا الانحطاط وهذه الاستساعة مظهرين من حدث

اجتماعي واحد لان الاستغراق قد حصل بنوع خاص عند النخبة البلدية التي كثيراً ما أغرمتها السلالات ، ولدى سكان المدن الذين كانوا على اتصال بالبورجوازية اليونانية . ويستحيل احصاء اولئك الشرقيين الاصلين الذين تكلموا وعلّموا وكتبوا باللغة اليونانية بحيث لا يمكن تمييزهم عن الاغريق الحقيقيين . اجل كان عددهم قليلاً في مصر بسبب سياسة التمييز العنصري التي طلع بها وطبها البطالسة الأولون على الأقل ، وفي بلاد بابل بسبب بعدها وبفعل الفتح الفارقي . ولكنه كان غفيراً في آسيا الصغرى وسوريا وفينيقيا وفلسطين على الرغم من العراقيل التي وضعتها الديانة في طريقهم . ويكفي هنا ان نذكر زينون الذي ولد في كيتيون من اعمال جزيرة قبرص والمحدث من وسط سامي ولم يتوصل يوماً إلى احسان التكلم باللغة اليونانية ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يؤسس المدرسة الرواقية الكبرى التي لا يرى فيها شيء مما هو شرقي . وهناك مثل آخر كلتي الوضوح هو اضطرار يهود الاسكندرية لنقل كتب التوراة العبرانية إلى اللغة اليونانية ؛ فان هذا النقل لم يتم ، كما جاء في التقليد ، على يد السبعين ، بناء لأمنية بطليموس الثاني الملحق ، بل اقتضى زمناً طويلاً واستجاب لرغبة محتمة اعرب عنها اليهود المقيمون في مدينة يونانية بعد ان بدأ يسون استعمال لغتهم القومية . لا بل ان اكتشافاً حديث العهد (ايلول ١٩٥٢) حصل في مغارة قريية من الشاطئ الغربي للبحر الميت يثبت ان استعمال التوراة اليونانية قد جرى في فلسطين نفسها احياناً .

كان نشر الثقافة اليونانية ، إذن ، جدّياً في كافة انحاء الجزء الغربي من امبراطورية الاسكندر القديمة ، وتقع على الاغريق انفسهم ، كما رأينا ، مسؤولية حصر ذلك في بعض الفئات الاجتماعية . فهل تموّض هذه الفتوحات الفكرية عن انضواء اغريق كثيرين إلى الديانات الشرقية ؟ يستحيل في الحقيقة احصاء او وزن هذه الارتدادات التي لا تتناهي على كل حال بمجرد حدوثها في اتجاهين متعاكسين . وحين بسط السيطرة الرومانية ، وحتى طيلة عهود الامبراطورية الاولى ، كان ما بقي من الشرق الهليني ، في الواقع ، سائراً تدريجياً نحو حضارة يونانية في الحقل الفكري ، ونحو حضارة شرقية في الحقل الديني . فليس من سييل والحالة هذه إلى الشك في نجاح اليونان على هذا الصعيد ، وهو نجاح غير مقصود على كل حال . ويبرز هذا النجاح اكل منه في الحقل الفني . فما زالك هنالك فنون محلية تقليدية بفضل مساندة الديانة ، في حال ان جميع الشرقيين الذين اضطروا إلى التفكير والتعبير عن فكرهم قد انضوا إلى الثقافة اليونانية ؛ ويزيد هذه المكاسب الأدبية ، التي حققت دونما اكراه او ضغط ، من رصد الحضارة الهلينية . اجل انها لم تعد منطوية على نبل ونقاوة الحضارة الكلاسيكية . ولكن الحضارة الكلاسيكية نفسها تعكرت منذ قبل الاسكندر وخضعت لتطور مماثل حتى في اليونان القديمة حيث كانت بعيدة عن الإعداد الشرقي . ويجب بنوع خاص ان لا نحكم باستخفاف على حضارة حققت مثل هذه النجاحات لدى شعوب مغلوبة على نفسها : فهذه الحالة من الندرة بحيث لا يجوز ان نمر بقدرتها على الاستساعة مرور الكرام .

٢ - في خدمة النشاط الفكري

الوحدة الفكرية : امتدت الحياة الفكرية الهلنسية في الشرق وتوقفت على الحضارات المحلية ، غير مقتبسة عنها سوى القليل ، فليس من العجيب من ثم ان تحتفظ بوحدة « الكيني »
Lu « koinè » تستحق الاعتبار . وتوطدت هذه الوحدة عن طريق اللغة بنوع خاص .

لم يكن هنالك بعد لغة يونانية ، بل لهجات يونانية ، وحتى عدة لغات كتابية . ولم يكف ان يكون كثير من الكتبة المشهورين اثنيين او ان يعيشوا ويكتبوا في اثينا حتى تصبح اللغة الاتيكية اللغة الادبية الوحيدة : فقد كتب بنذاروس باللغة الدورية ، وهيرودوتس ، على الرغم من الروابط التي شدته الى اثينا ، باللغة الايونية . فاللغة الاتيكية لم تكن سوى اعظم لهجات « الثقافة » سحراً في العالم اليوناني . ولذلك فهي قد تجتهد نحو الانتشار ، يساعدها في ذلك تقبلها لبعض خاصيات اللغة الايونية ، ولا سيما اهمية الدور الذي لعبته اثينا في الحياة السياسية والحضارة العامة . وهكذا فقد جعلت منها السلالة المقدونية ، قبل الاسكندر بزمن بعيد ، لغة القصر والادارة : وقد تكلمها الاسكندر في حياته الرسمية واليومية مقصراً تكلم لغة مواطنيه القومية على بعض الظروف الاستثنائية .

قدمت اللغة الاتيكية ، بفضل ذلك ، جوهر الـ « كيني » ، اللغة « المشتركة » ، التي تكونت تلقائياً وباكراً جداً بعد الفتح . واستجابت هذه اللغة لحاجات ملحجة في عالم تجول فيه الاغريق بحرية ، دونما تمييز في مناشأهم الجغرافي ، وألفوا فيه جماعات جديدة بوحدها الشعور بتضامنهم في وجه البلديين . ولم تكن هذه اللغة ، على كل حال ، اللغة الاتيكية الخالصة . فقد ظهر فيها اثر اللهجة الايونية ، اوسع اللهجات انتشاراً في الشرق منذ زمن بعيد . واتجه الصرف والنحو إتجهاً دائماً الى التبسيط ، بالاستغناء عن بعض الصيغ المعقدة النادرة الاستعمال . اجل ان الادارة اللغوية قد فقدت بذلك بعض مرونتها وبعض ميزاتها الدقيقة . ولكنها اسهمت اسهاماً فعالاً ، حتى أواخر العصور القديمة ، - اذ ان روما قد تركت هذا التحقيق الهليني لبيزنطية - ، في خلق واستمرار وحدة العالم اليوناني الادبية والفكرية .

كانت الكيني اذن لغة الدواوين والادارة ، ودرج استعمالها في المدن المجددة والجديدة ايضاً . وقد جعلت الاغريق المسافرين او المهاجرين ، شأنها في ذلك شأن وحدة الاخلاق وتشابه الزخرف المادي في البيوت والابنية العامة ، يخالون انهم في بلادهم ، حتى في مناطق الحدود النائية . وقد سهلت في الحقيقة انتشار الحضارة اليونانية في اوساط الشرقيين ، ولكنها لم تغلب في الارياض خاصة ، على السنة لم يأخذ الاغريق على انفسهم استئصالها استئصالاً جذرياً . واذا حدث ان اندثرت اللغات القومية القديمة في الشرق الآسيوي - باستثناء اللغة المصرية - ، فقد تم ذلك ، في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لصلحة اللغة الارامية . واستمرت نجاحات الارامية داخل المملكة السلوقية على الرغم من انها لم تبق لغة الادارة . ولم تبق اللغة العبرانية في فلسطين

الكلفة لاهوتية، بنا اصحت الارامية في النهاية لغة الشعب . ولكن لغة « السبعين » ولفة الالاجيل ، علياً ، هما « الكيني » نفسها . وكذلك فان الرومان ، هواة الحضارة اليونانية ، تعلموا وتكلموا وكتبوا « الكيني » .

ثم أمست اللغة الادبية الوحيدة في النثر . أجل لم يحدث ذلك فوراً : فقد احتفظ العالم اليوناني العربي ، خلال بعض القرون بعد الاسكندر ، باللغة الدورية التي لم يستعملها ثيوكريتوس مثلاً ، على لسان الفلاحين الصقليين فحسب ، بل كانت لغة ارخميدس ايضاً . ولكن هذه اللهجات المحلية قد اندثرت تدريجياً او انها لم تستمر إلا بجملة . وقد استعملت جميع الازواط المثقفة ، علياً ، اللغة نفسها ، واذا سهلت هذه الوحدة التنقلات الكثيرة التي قام بها اولئك الذين تفرغوا لنشاط فكري فانها قد ، ساعدت الى حد بعيد على انتشار الثقافة .

يؤلف هذا الانتشار احدي ميزات العهد الرئيسية .

انتشار الثقافة

لقد جاء المثل من فوق ، من الملوك والمقربين اليهم الذين اعتبروا الجهل أمراً مخجلاً لأن المواهب السياسية والعسكرية لا تكفي لتحقيق مثال الانسان . فان هذا المفهوم لم يغرب عن البال حتى في فترة انقلاط اطامح السيطرة بعد وفاة الاسكندر : فقد برز مؤسس المملكة الالاجية ، بطليموس الأول ، كاتباً موهوباً وحرراً تاريخ الاسكندر بشكل مذكرات شخصية - إلا اذا كان الامر على نقيض ذلك -- فقدت لسوء الحظ ولكنها كانت ، للمؤرخين اللاحقين ، احد أهم المصادر فيما يعود لحياة الفاتح وحملة العسكرية . ولم يتلاش التقليد حتى بانحطاط الملكيات : فقد كتب آخر الملوك الاطالين الذي توفي في السنة ١٣٣ مجتأ في علم زراعة البساتين . ولذلك فان الدور الملكية قد اشعت على كافة الطبقات ولا سيما على بورجوازية المدن اليونانية .

وارتدى الالامية نفسها المثل الذي اعطته النساء في البلاطات الهلينية . اجل غالباً ما اهتمت بعض الملكات عن كتب السياسة . ولكنهن قد اشركن بالإضافة الى ذلك ، بفضل حرية السلوك التي وفرها لهن نسيهن ومزنتهن ، في حياة القصر الفكرية ، وهذا ما لم تستطعه نساء المجتمع الراقى في اليونان الكلاسيكية ، بعيداً عن مخالطة الرجال . ففي الاسكندرية ؟ على الاخص ، أكرهن الشعراء في قصائدهم ، فأكرم ثيوكريتوس ارسيوي ، وكلهايخوس بيرينيس . وانشغلت حاشياتهن بشاغل بمائة امنتت الى اوساط أكثر اتساعاً . وهكذا قامت تدريجياً ثورة في الاخلاق التي اقتصت النساء الشريقات ، حتى ذلك العهد ، عن امور الفكر . فاختلفت بعض الفتيات هنا وهناك الى المدرسة متملصات من الحرم الذي اكتفت فيه والدتهن بتعليمهن ما كانت تعلمته هي بالاختبار . فسببت بعض الحالات نفوراً في الرأي العام ، كحالة « هيبارخيا » التي ضغظت على والدها للتزوج من الفيلسوف الوقح « كراتيس » وعاشت إذ ذاك مثله عيشة علنية وقبلت الدعوات الى الولايم وناقشت الحضور في الفلسفة والإداب . غير ان ابيقور ايضاً قد جمع

بين تلامذته نساء مصونات تزوجت ابنة احداهن من ضابط سلوقي واصبحت نجمة لاحدى الملكات . وكان هنالك اكثر من شاعرة ، حتى في مدن اليونان القديمة ، في اللوكريد او في البلوبونيز . لذلك فان بداية تحرر المرأة الفكري يجب ان تدخل بلكيتها تقريباً في رصيد الحضارة الهلينية .

ومن حيث ان الثقافة لم تعد وفقاً على جنس واحد ، فهي لم تعد بالتالي وفقاً على نجبة معدودة . ويجب علينا هنا ان نشدد مرة اخرى على اهمية الواقع الاجتماعي الذي تمثل إذ ذاك في انتشار البورجوازية وتطور ادواقها . فقد تكاثرت الطبقة المسورة في آسيا وحتى في اوروبا حيث اتسع الافق ونشطت العلاقات الاقتصادية فحدث شبه اكتشاف لبعض المناطق المتأخرة والمغلقة تقريباً في اليونان الوسطى او الغربية . وقد اجتهدت هذه الطبقة في كل مكان تقريباً ان تترك لأبنائها ، بالإضافة الى امتيازات المواطن اليوناني القانوني ، تربية فكرية تبرز ، في نظرها ، هذه الامتيازات .

كان هذا في الأساس من تعدد المدارس ، او بالأحرى من إيجاد نظام مدرسي التربية الهلينية أخذت الجماعات تهتم له ، يوزع تعليماً تحقق حوله الاتفاق العملي . وكان هذا التنظيم المزدوج احد التحقيقات الهامة في العهد الهليني ، وقد اعتمد عملياً حتى اواخر العصور القديمة . حتى ذاك العهد ، اذا ما استثنينا كريت وسبارطة بنوع خاص ، حيث عهد بالتربية الى المدينة دون غيرها ، نظرت المدينة الى التربية كما الى شأن خاص واكتفت بالانقصاص من سوء اخلاق المعلمين . فبدأ هذا النظام ، الذي كلف العائلات اموالاً كثيرة ، غير ذي فعالية حتى اذا لم يؤد الى المهذبين الفرديين . فعينت مدن كثيرة قضاة خصوصيين عهدت اليهم مراقبة المدارس ، حتى الخاصة منها ، التي ازداد عددها ازدياداً عظيماً ، واقتصرت استخدام المهذبين على العائلات المشهورة بثرواتها الطائلة اى عملياً على العائلات الملكية تقريباً . ويدل هذا التطور ان اهتماماً جديداً قد برز الى الوجود . اجل لم يفكروا بالاعتراف بحقوق الولد ، الذي هو رجل بالقوة ، وبتفتح امكاناته . ولكنهم أرادوا ، بردة فعل طبيعية للدفاع عن حضارة كانت على اتصال بحضارات اخرى وتباهت بتفوقها وعيندت في الحفاظ على نفسها ، ابقاء الولد في حضن الاسرة اليونانية التي يوليها نسبة حقوقاً عليه ويفرض عليها واجبات نحوه .

وهكذا يتضح من جهة ثانية . كيف ان الملوك ، كملوك ، قد فوضوا امرهم في ذلك الى المدن : فلم يقدم احد منهم على سن الشرائع في الحقل المدرسي ، لأن التربية تتعلق بالاغريق دون غيرهم ، ولأن المدينة ، نظرياً ، ما زالت إطار حياة الاغريق ، حتى داخل الملكيات . وقد حدث ان حرصت المدن في ظروف غير نادرة ايضاً ، او تظاهرت اقله انها تحرص على ولاء الشباب للملكية بتشجيع تأسيس ونشاط جمعيات « شبان » تؤدي الاكرام ، بأشكال دينية مختلفة ، للملك ولعائلته . ولكن هذه المؤسسات ، شأن كل ما اختص بالعبادة السلافية في الاطار البلدي ،

لم يفرضها الملوك رسمياً. وإذا ما أتيح للسياسة ان تتسرب الى نظام التربية فانها لم تحتل فيه سوى مركز ثانوي جداً .

لم يبلغ من مشاغل المدينة هذه ان أمنت مجانية التعليم : اذ ان ذلك يقتضي موارد لم تتوفر لميزانية الجامعة . ولكن العائلة قد ارتاحت مع ذلك ، بهذه المواردية او تلك ، اقله من جزء من العبء المالي الذي تحمّله وحدها من ذي قبل .

اما مؤسسة الشباب الرسمية فقد كانت مجانية بالضرورة بسبب طابعها العسكري الأصلي . وهي قد اشتهرت في أثينا ، حيث نشأت على ما نرجح ، وتوصلت الى نفوذ عظيم واستقبلت الشبان من سن الثامنة عشرة حتى سن العشرين لتربيتهم تربية عسكرية . ولكن واجب الانتباه الى هذه المؤسسة الذي لم يكن إلزامياً ، على ما يبدو ، إلا خلال فترة قصيرة من النصف الثاني من القرن الرابع ، قد زال وأهمل : ولم يستمر في التقيد به سوى المتطوعين دون غيرهم ، أي بالتالي ابناء العائلات الميسورة. ثم تبدلت روح المؤسسة في العهد الهليني ، فسمح للأجانب بالانتماء اليها . وحلّت فيها التهارين الرياضية في النهاية محل التهارين العسكرية . وظهرت في القرن الثاني المحاضرات الأدبية والفلسفية . فعدت المؤسسة ، من ثم ، بالنظر لسن الذين اختلقوا اليها ، ان لم يكن بالنظر لمستوى الفكري الذي بلغته ، شبيهة بالجامعات . وقد أنشئ مثل هذه المؤسسة في مدن اخرى كثيرة غير أثينا ، فكانت ، شأنها في أثينا ، مجانية ايضاً ، باستثناء النفقات التي فرضها العرف على الشبان المنتهين الى طبقة اجتماعية عليا .

لم يكن الاغريقي ليتصور التربية دور التدرّيب الرياضي الذي يجري في المتزاوف . وكان الانتساب الى المتزاوف بمثابة شهادة في الحضارة اليونانية التي يتربن الشاب بها بكبرياء وطيلة ايام حياته ، لا سيما في مصر حيث حرصوا مبدئياً على اقضاء سكان البلاد عنها . ولكن المتزاوف غدا اذ ذلك مؤسسة بلدية . فأصبح لكل مجموعة يونانية متزاوف واحد على الاقل بشيّد ويعني به على نفقتها ويراقبه قاض اختصاصي يطلق عليه اسم « حاكم المتزاوف » . أما الادارة المالية ، ولا سيما تقديم الزيوت للمصارعين ، فقد سهلتها عطايا الاثرياء السخية الذين لم يكن الملوك في المؤخرة منهم . فكان تقديم الزيت او تأسيس وقف معد لتقدم الزيت « للمتزاوف » او « للشبان » احد الاشكال التي اتخذتها في غالب الاحيان عادة شاملة في الكرم نحو المدن اي نحو مواطنيها اليونانيين .

وقد بلغتنا ايضاً اخبار بعض الأوقاف المؤسسة للمدارس نفسها . وهكذا فان الرودسين قد قبلوا - ما جعل بوليب يلومهم - بالنظر لثروة دولتهم والمكانة التي نعموا بها بفضل هذه الثروة - من احد الملوك الاطالين هبة توازي ١٥٠.٠٠٠ هكتوليتراً من الفعج : فكان عليهم ان يوظفوا المبلغ الذي يتجمع من البيع ويستعملوا فوائده السنوية لدفع اجور المعلمين . اما في بعض الامكنة الاخرى فكان الراهبون افراداً . ومن الطبيعي ان هذه الاعطيات قد استبعت تعيين

المعلمين من قبل جامعة المواطنين التي كان لها الحق ايضاً في عزلهم . ولكن عدد مثل هذه الهبات ، في ما يظهر ، قد بقي ضئيلاً جداً ، فاستمر اهالي الاولاد في دفع رسوم مدرسية . ولذلك فان المجهود الذي فرضه تعمم وتنمية التربية قد مثلث بالتالي تضحية حقيقية من قبل العائلات : وقد برهن الاغريق بقبولها - متذمرين احياناً ، كما نرى ذلك في إحدى مهازل هيرونداس الايمائية - عن الامة الكبرى التي اناطوها بديمومة حضارتهم .

افسحت هذه التربية مكاناً عريضاً للاهتمام بالتنمية الجسدية التي توفرها تمارين المتزاوف . بيد ان المباريات الرياضية القديمة قد استمرت ودخل بعضها في برامج اغلبية الاعياد المستحدثة الكثيرة : ففي جميع هذه الاعياد مثلاً اجريت امتحانات خاصة للفتيان والشبان . فعدت الرياضة اكثر من اي زمن مضى ، بعد ان جردت تدريجياً عن غايتها العسكرية ، جزءاً لا يتجزأ من تربية الاغريق ؛ وقد حفظ عنها اكثر من يافع طعمة دائمة .

اما على الصعيد الفكري فتظهر لنا الاطباع اليوم على كثير من التحديد . فليس هناك علوم ، او ليس هناك سوى علوم قليلة . وقد اصيب رواج الموسيقى الالية او الغناء الجوقي ، الذي كان كبيراً جداً في ما مضى ، بنكسة اسف لها المحافظون على التقاليد : واذا لم يعرف هذا الفن القائم بنفسه المخطاطاً اذ ذاك ، فانه قد غدا وفقاً على المحترفين . اما الملاحم الهوميروسية فكانت تقرأ وتعلم وتلقى وتستنسخ دون انقطاع ، كما تشهد بذلك مكتشفات لا تحصى بين البرديات المصرية ، وبقيت في الاساس من تربية الولد : ونادراً ما تجاوز درس الشعراء هذا الحد . وفي آخر الدراسة كان الاهتمام يتحول الى علم البيان .

توفّق علم البيان تقوفاً واضحاً في ما يجدر تسميته بالتعليم العالي . فهو بفعل تنوّعه ، وعلى الرغم من تدريسه على يد معلمين ذاتي الشهرة احياناً ، ومن التخصص الصارم في قواعده ، قد بقي ناقصاً جداً . اما بين العلوم التطبيقية فقد انفرد الطب دون غيره في اجتذاب الطلاب الى مدارس شبه مغلقة على كل حال اشبه بالجمعيات الدينية من حيث هي ملحقه بمعابد اسكليبيوس . وخارج هذه المدارس ، تلقى عامة مهنيي المستقبل علومهم على ايدي اطباء يمارسون مهنة الطب ، اذ ان ممارسة هذا النشاط قد بقيت حرة تماماً . اما التقنيات الاخرى فلم تعلم في اي مكان بسبب استمرار التقليد القديم الذي حرّمها لأنها تقود في النهاية الى نشاط تجاري . ولم تشمل العلوم المجرّدة الا بالرياضات وعلم الفلك ، وكان عدد المتخصصين فيها قليلاً ، كما لم يتردد اليها سوى عدد قليل من التلامذة . اما الفلسفة فكان طلابها كثيرين ، مستفيدة في ذلك من النفوذ الذي نعمت به طلبة العهد الكلاسيكي ، لا سيما في اواخره ، بفضل افلاطون وارسطو . غير ان شغفاً عاماً دفع الشبان بالترفضيل نحو علم البيان الذي بلغ الشهرة في عهد السفسطين اولاً وفي عهد خطباء القرن الرابع الاثينيين ثانياً الذين سبق لهم جميعهم ايضاً ان علموا الفصاحة . اجل لم يعد من شأنه ان يؤدي خدمات عملية كبرى ، بسبب المخطاط الحرة السياسية . ولكن نجحاحه لم

يشمئز عن لمباح تعلم ايزوقراط الذي مثل علم الادب ، في نظره ،الفلسفة الحقيقية ، لأنه يستلزم وضوحاً في الافكار وبرهنة سليمة وامتلاك فن الكلام الذي هو امتياز الاغريقي على البربري . وقد علم قواعد ، هي اشبه بـ « الوصفات » ، معتمداً ، في وقت واحد ، التعليم النظري ، ودراسة روائع الفصاحة الاتيكية ، واجراء التارين على مواضيع خيالية لم تلت أن ألفت مستودعاً كبيراً . فافضى الى تثقيف عقول رشيقة اتصلت بالمثُل العامة ، لاسيا في الحقل الاخلاقي ، وقابلة لأن تقيم البرهان بقرن ، ودون تصنع ، في شتى المواضيع ، ومتوخية ، عند الحاجة ، حتى التوصل الى النتائج المتناقضة .

قد يبدو ذلك اليوم موجزاً وسطحياً . ولكنه طابق مثلاً اعلى للانسان المثقف المد جسدياً وعقلياً للتكيف وفاقاً لشتى المهام التي قد تفرضها عليه الحياة . وقد استمر هذا المثل ، دون تبدل يذكر ، حتى آخر العصور القديمة . ويعود الفضل الى الحضارة الهلينية في توضيح مفهومه وجعله سهل المثال بتشديد نظام تربوي متلاحم الاجزاء .

ما كانت الثقافة المنتشرة هذا الانتشار لتجاوز ثقافة وسطاً ؛ ومن جهة
 نصرة الآداب والفنون ثانية ، ما كانت الثقافة التي احدثت ورسخت سوى تراث الاساتذة
 ومؤسسات الأبحاث العظيمة . اما التقدم الفكري الحقيقي فقد تم على مستويات اخرى
 بالبحث الخلاق الذي تعهدته نخبة معينة . لم يخل العالم اليوناني يوماً من هذه النخبة التي وجدت
 إذ ذاك لدى الملكيات الكبرى عضداً ماديّاً وأديباً معاً من نوع جديد . وهناك مؤسسات
 شهيرتان ، المتحف ودار الكتب ، هما افضل مثل عن نصرة الملوك للآداب والفنون وعن التسهيلات
 التي وفرتها لانطلاق الحركة الفكرية . غير انها لم تكونا المؤسستين الوحيدتين في العالم الهليني .

المتحف ، بالتحديد ، هو معبد آلهات الفنون الحرة التي كان من الطبيعي ان تحظى باكرام
 رجال الفكر . فخصص لمن مذهب على الأقل . في حدائق « الاكاديمية » (المجمع العلمي)
 و « الليسى » (المدرسة) حيث علم افلاطون وارسطو في اثينا . ثم أسس اصداقاً ومعاونو
 وتلامذة هذين الفيلسوفين جمعيات استهدفت رسمياً تنظيم العبادة ، على انها استهدفت في الواقع
 تأمين ديمومة هذه المدارس التي كانت في الوقت نفسه معاهد أبحاث ، بشراء وصيانة العقارات .
 وقدمت الدولة الأثينية في أواخر القرن الثالث ، برئاسة الفيلسوف ديمتريوس الفاليري ، الذي
 سبق له واسهم في اعمال خلفاء ارسطو ، كل التسهيلات اللازمة على الصعيد القانوني ، دون ان
 تقدم مساعدتها المالية .

يرجح ان ديمتريوس الفاليري الذي حكم عليه بالنفي والتجأ الى بطليموس الاول في مصر قد
 اقترح على هذا الأخير انشاء مؤسسة شبيهة ، على ما فيها من اختلاف بين . فتلقى متحف
 الاسكندرية من الملك مساعدات اكبر ، ولكنه ارتبط ، بالمقابلة ، بالذي احسن اليه . وعوضاً
 عن ان يكون معهد فلسفة ينشر تعليمياً ويتعمق فيه ، فانه قد غداً بجمعاً لكتبة وعلماء يعينهم

الملك ويعين رئيسهم أيضاً . ووضعت تحت تصرفهم إبلية مختلفة قائمة على مقربة من القصر معدة لحياتهم المشتركة ولشواطهم . وتمهدت الخزانة الملكية كافة النفقات ، فاستطاع الكتبة والعلماء ان يكرسوا وقتهم للأبحاث دونما اهتمام للساديات او لأي واجب آخر . فكرسوا في الواقع وقتهم لمناقشاتهم أيضاً التي سخر منها بعض الهجائين ، بدافع الحسد على الأوجح ، بكلامهم عن « معجون الطيور الذي يوزع بسخاء على العديد من كتبة الدرجة الثانية وأكلة الكتب القديمة التي لا قيمة لها الذين يتخاصمون دونما انقطاع في قفص آلهات الوحي » . وكرسوه احياناً حتى لمجادلتهم مع البلاط التي كانت السبب ، في القرن الثاني ، في تفرقهم المؤقت . وكانت هذه المؤسسة لا تزال قائمة في القرن الرابع الميلادي ، متحولة الى جامعة على كل حال ، إذ انت أعضاءها كانوا يعلمون رهطاً من التلامذة .

وقامت في الاسكندرية ، على مقربة من المتحف ، مؤسسات ملكية اخرى سهلت عمل العلماء : حديقة الحيوانات ، وحديقة النباتات ، ودار الكتب بنوع خاص . اما هذه الاخيرة التي أسسها بطليموس الاول ، على مقربة من القصر أيضاً ، فقد أمت مجموعاتها انما مطرداً بأن اشترت ، في جميع انحاء العالم اليوناني ، المخطوطات المروضة للبيع وبتنظيم استنساخ المخطوطات الاخرى : وقد سهّل ذلك انتاج البردي الذي كان وقفاً على مصر تقريباً . فبلغت محتوياتها ، منذ السنة ٢٨٥ ، على ذمة الرواة ، ٢٠٠.٠٠٠ مجلد ، اي لفافة من البردي ، و ٧٠٠.٠٠٠ في السنة ٤٨ قبل المسح ، حين شبّ فيها حريق في ايام قيصر فائى على جزء منها . وكان هنالك بالإضافة الى هذا العدد ، حوالي ٥٠.٠٠٠ مجلد في دار كتب ثانية كانت منذ بطليموس الثاني ملحقة بمعد سيرابيس . وقد عين الملك لدار الكتب موظفين كثيرين دفع لهم اجورهم : فقتلسم أمانتها شعراء من امثال ابولونيوس الروديسي وعلماء من امثال ايراتوستينوس .

حذت سلالات اخرى حذو اللاجيين الاولين . ولكن تحقيقاتها لم تبلغ مثل هذه الامية وهذه العظمة . ولم تؤسس واحدة منها متحفاً آخر : وليس ما أطلق عليه هذا الابنم في عهد متأخر ، أي في ايام الامبراطورية الرومانية ، سوى مؤسسات بلدية للتعليم العالي . غير ان جميع البلاطات قد حاولت ، عن طريق الفوائد المادية ، اجتذاب الكتبة والفلاسفة والعلماء . أضف الى ذلك ان بعض الملوك أسسوا وتعهدوا دوراً للكتب أيضاً . فكان للسوقيين مكتبتهم في انطاكية ، عاصمتهم السورية . ولكن اهم مكتبة قامت في برغاموس ، وقبل انماها الاطاليون إغناء مطرداً أيضاً : وعلى الرغم من ان البرديات ما زالت اكثر المواد استعمالاً ، فلا يمكننا هنا إلا ان نذكر بالجلد « البرغاموسي » الذي اشتق منه اسم (Parchemin الرق) والذي لم يكن اختراعه ، من جهة ثانية ، لا اكتشافاً ولا احتكاراً برغاموسياً . وكانت مجموعات هذه المكتبة قد بلغت ٢٠٠.٠٠٠ مجلد حين أهداها انطونيوس لكليوباتره تمويضاً عن الأضرار التي لحقت بمكتبة الاسكندرية بفعل الحريق .

لم تكن نصرمة عظاه هذه الارض شيئاً جديداً؛ فقد سبق لمستبدي العهد القديم ان تمهدوها، اما الشيء الجديد فكان هذه الطريقة في فهمها وممارستها اتي في وضع وسائل العمل والبحث تحت تصرف المستفيدين منها . ولا يكفي احترام الشؤون الفكرية ، المنزه عن كل غياية ، لتبرير تضحيات الملوك المالية . ولكن المجد الباطل وحده لا يكفي لذلك ايضاً ، في حال ان الاهمية السياسية المولاة لتوجه الدراسات العليا ليست موضوع بحث . اجل لقد ادخلت بذلك وثبة نافذة على بعض الابحاث التي كانت مستحيلة بدون هذه المؤسسات والتي ولدت من وجودها وكان لها أثرها على الحركة الفكرية في مجموعها . ولكن هذه الابحاث ، بحد ذاتها ، بقيت عادمة الاثر سياسياً ولم يكن باستطاعتها خدمة المثالية والبرنامج الملكيين .

٣- الشفغ الفكري والروح العلمية

ان المقصود في الدرجة الاولى هو ما نعرف عنه اليوم بالاسنية والعلم
الاسنية والعلم الواسع .
الواسع .

استازم جمع المخطوطات تنسيقها ودعا لمقارنتها ولاختيار افضل الدروس ولتوضيح النصوص بكل ما من شأنه ان يسهل فهمها . وكان هذا الجمع والبحث والتعليق متفقاً والطرائق التي سبق لارسطو ومعاونيه ان اعتمدها . اما انشاء دور الكتب ، ان هو جعل هذا العمل اشد الحاحاً ، فانه قد بسطه ايضاً يجمعه قسماً من المواد اللازمة للمقارنة وجمع المعلومات وجعلها في متناول اليد . وقد قام بهذا العمل رجال من الطراز الاول ، فكرس له بعضهم كل نشاطهم واشتهر بعضهم الآخر ، من امثال كليساخوس وايراثسينوس ، في حقول اخرى ايضاً .

من نافل القول انهم انقطعوا بالفضل الى اللامح الهوميروسية التي افضت اهميتها في الحياة المدرسية وفي ثقافة الاغريق العامة الى الاكثار من نسخها المغلوط فيها او المحشوة بالتذييلات في اكثر الاحيان والتي جعلت في الوقت نفسه الحاجة الى التوضيح امراً ملحاً . فأنجز عمل عظيم جداً بنشاط ومعرفة ، وذوق سليم غالباً ، يثير الاعجاب : فانه شرح الالسي الى النقد الادبي . وغدا اسم احد امناء دار الكتب في الاسكندرية ، ارسطارخوس ، اسطوريا من هذا القبيل : وان ما نراه من مؤلفاته المندثرة ، في « دروس التدوات » المتأخرة ، ليم عن ألمعيته الفارقة ؛ فهو انما أثار معاضل كثيرة لا يزال العلماء المكبون على دراسة هوميروس يحاولون حلها ، غير قادرين على اجمال شكوكه واحكامه .

يمكن القول نفسه عن الخطب ، بسبب الاهمية المولاة لعلم البيان ، وعن نصوص اخرى كثيرة . وقد وضعت اذ ذاك - ولعب ارسطارخوس فيها دوراً كبيراً - « القوانين » الاسكندرية ، ابي مجموعات المؤلفين المتبرين قدوة يقتدى بها ومجموعات مؤلفاتهم التي اعتبرت اصلية . ونحن مدينون هذه الجهود التي لم تعرف الكلل ليس بالمحافظة على نصوص صحيحة جهد

المستطاع فحسب ، بل بتعليقات تجلو غموض مقاطع كثيرة . فقد وضع كلياخوس وحده ١٣٠ « مجلداً » ، تولى جدولاً بكل الأدب اليوناني كما تمثل في أيامه في المكتبة الاسكندرية ، مورداً فيها نبذة تاريخية عن حياة كل مؤلف ولائحة بمؤلفاته ومعلومات تاريخية عنها . ثم اكمل خلفاؤه هذا الجدول .

قادت مثل هذه الأبحاث بصورة حتمية الى دراسات نظرية وعملية في علم البيان وعلم الصرف والنحو وفقه اللغة وعلم تاريخ الأزمنة . وقد يتطلب تعداد الاسماء الجديرة بالذكر ، في هذا المجال ، صفحات كاملة . فانتهل رواد الندوات في العهدين الروماني والبيزنطي باستمرار ، مما جمعه هؤلاء المؤلفون بفضل علمهم الجليل ، ومعلومات ذات قيمة عظيمة ، مضيفين اليها أحياناً ملاحظات واخطاء شخصية . ولتكثف باسم واحد هو احد اعظم الاسماء ان لم يكن اشهرها من غير الاختصاصيين : ديدموس الاسكندري ، معاصر شيشرون وقيصر — اذ ان انطلاقة اوائل العهد الهليني قد دامت طويلاً . ان هذا الرجل ، الذي لقب بـ « ذي الاحشاء القاذية » ، بسبب طول أناة في التهام الكتب وتأليفها ، قد وضع ٣٥٠٠ « مجلد » طرقت فيها شتى المواضيع التي واجهها في معالجة النصوص . فلا يجوز ان نستزىء بهذا الجامع الجرح في وضع واستخدام البطاقات ، لأن مجموعاته التي لا تحصى من الحشو والتطويل ، تحتوي على ما هو حسن لا بل ما هو جيد أحياناً . وقد كرس ثلاثة من كتبه لحطوب ديوستينس ضد فيلبوس ، وكان من شأن اكتشاف بردي دوت فيه مقاطع هامة من احد هذه الكتب المحتوي على التعليق التاريخي ، ان يسجل ، بصدده معاضل سياسة أثينا الخارجية في القرن الرابع ، حدثاً هاماً في علم التاريخ المعاصر .

لقد غدا تقليدياً ان يجمع هؤلاء العلماء الواسع الاطلاع تحت اسم « الاسكندريين » . بيد ان نزاعهم الفكرية لا تؤلف كل ما غدا تقليدياً أيضاً ان يعرف عنه بـ « المدرسة الاسكندرية » . اضيف الى ذلك انهم لم يعيشوا كلهم في الاسكندرية وان بعضهم لم يقيموا فيها قط ، ولا يجوز ان ننسى ظمناً ان كراتيس العظيم ، الذي نشأ في مالوس في كيليكيا ، قد كان ، في القرن الثاني ، أمين مكتبة يرغاموس ومقرباً من البلاط الاطالي . وليس من ريب مع ذلك في ان علماء الاسكندرية كانوا اكثر عدداً وافر انتاجاً ، وبالتالي أعظم تأثيراً ايضاً : فالإلهام يعود الفضل في إعطاء المثل وابتكار النهج . ولكن عملهم لم يخل من الصغارة التي برزت في مناسباتهم حتى الداخلية . وكان لتفاقمهم ، الكتابية الى حد بعيد ، مساوئها ايضاً . ولعل اخطر المساوئ ان هؤلاء العلماء الواسع الاطلاع ، قد أوجدوا ، يجعلهم من كتب العهد الماضي أمثلة لا يعلى عليها ، ويحصر الطموح المعقول في الاقتراب منها ، تياراً معدداً لأن يسود تدريجياً : هو تيار الاحتذاء أو بالأحرى التنظيم الذي جعل من التلقائية طرائق فسلّ بذلك الإلهام الأصلي . فكانت النتائج شبيهة بتلك التي لمسناها في الفن ، إذ ان الحياة الفكرية قد تأثرت بالجفاف الذي أوجده الاعجاب المنوط بروائع الماضي والذي كبح الجموح الخلاق . اضيف الى ذلك ان المؤلفات الكلاسيكية

الكبرى نفسها قد فقدت من نضارتها وقوتها المباشرة : فقد لقراءة التعليق او الخلاصة ، او المنتخبات أحياناً ، ان تجلّ ، او انها حلتّ فيما بعد ، مكان الاصل . ولكن هذه الملاحظات الانتقادية ابعد من ان ننسبنا أهمية الخدمات المؤداة واتساع معارف الكثيرين من هؤلاء الباحثين وشان الطرائق التي ثبتت صفتها العلمية — العمل الجماعي واستخدام انبساطات ووضع المراجع ، وملاحظة الرقائق بدقة ودرس ملابساتها والتأمل في كل منها لاستخلاص القوانين — والتي أقتنوها وطبقوها على الشؤون الادبية . ولم يحلّ شيء من هذا مبدئياً دون سلامة الذوق ورقة الحاشية اللتين احسن كبار المؤلفين التعبير عنها، هكذا أدركت وطبقت مبادئ « المدرسة الاسكندرية » التي مثلت ثورة في الحياة الفكرية والتي لا تزال تتأثر بنتائجها حتى ايامنا هذه . فما كانت عبقرية الاغريق الخلاقة لتموت بموت حريتهم السياسية ، وما كان دورهم كبري الانسانية ، حتى في مستقبل بعيد ، ليتمهي بانتهائها .

التاريخ
نشطت البحوث التاريخية مؤقتاً نشاطاً نادراً جداً بفعل الروابط الوثيقة التي تجمع بين الاطلاع الواسع والتاريخ : فإن موجبات الشغف الفكري والروح النقدية هي هي سواء تناولت فقه اللغة ، او العلم ، او التاريخ . وان جهود المعلقين في كشف وإجلاء كنهيات المؤلفات الادبية ، التي تتأصل في زمانهم ، قد قادتهم الى بحوث حول الماضي . ثم ما هي السبيل لفهم مؤلف ما دون الاستعلام عن حياة وأفعال وبيئة مؤلفه ؟ فقد سبق لارسطو وتلاميذه ان اعطوا المثل في بحوث دقيقة ونظامية تناولت كافة الحقول ، فانتهوا الى وضع كتب خصوصية ، أشبه بجدول للوقائع أحياناً ، يؤلف « دستور الاثينيين » افضل نموذج عنها في الحقل التاريخي . وتمشيا على الطريقة نفسها وانسجاماً مع الروح نفسها ، — لأن الكثيرين منهم انتسبوا الى المدرسة المشائية التي أسسها ارسطو — كان عدد رجال البحث مرتفعاً جداً خليفة العهد الهليني . لا بل ان بعضهم وضعوا مجرد مجموعات من الوثائق والمراسلات والمراسم . وانكب غيرهم بمناد على معاضل التاريخ التي من شأن حلها وحده ، قبل أي شيء آخر ، ان يوفر هيكلًا متيناً . ولم يكن هذا التعمق التقني ، من جهة ثانية، ليسجن القائم به في تخصص ضيق لأن واحداً لم يفقد الشعور بتعقب الظواهر الفردية او الجماعية وعليها . وعلى نقبض ذلك فقد تقدم التحليل السيكولوجي تقدماً مطرداً ، ولم تجمل قط دراسات الجغرافيا الوصفية ، التي توفر المعلومات حول الاخلاق والميزات المحلية وتوضح المسافات والموارد ، ما احتلته إذ ذاك من مكانة مرموقة . وهكذا فان العسوم الثناوية المساعدة قد جمعت المواد للمؤرخ ، من كل الجهات ، وسهلت مهمته الخاصة .

وكان هنالك ، للاهتمام بالتاريخ في مفهومه العلمي ، بالإضافة الى اوساط ذوي الاطلاع الواسع ، جمهور كبير تؤلفه تلك البورجوازية الوسطى التي كثيراً ما أبتنا على ذكرها . فانتشارها قد اكثر من القراء الراغبين في الاستطلاع والتفكير وأوجد في الوقت نفسه رأياً عاماً أقل انقساماً منه في الماضي بفعل تحوم المدن. فازدادت الدعاوة السياسية؛ التي اعتمدت منذ زمن

بعيد ، واذا ما اتخذت هذه الدعاوة غالباً أشكالاً لا تتفق مع التاريخ ، فعلينا ان نرى في ذلك شهادة في القوة الفكرية التي تمتع بها من استهدقتهم هذه الدعاوة . وهكذا نشأ مثلاً نط جديد هو نط المذكرات التي وضعت كذاكرات او كروايات للأحداث العظيمة التي اشترك فيها المؤلف . فظهر كثير منها حول حملة الاسكندر ، لا سيما مذكرات الملك بطليموس الأول . ثم أصدر رجال دولة آخرون مذكراتهم ايضاً : الأثيني ديمتريوس الفاليري ، وبيروس ملك الأبير ، وأراوس الحاكم الرئيسي في الاتحاد الآخي ، في القرن الثالث . ولكن مشاغل البورجوازيين وذوي الاطلاع الواسع ، في حقل الثقافة ، قد توافقت في غير هذا الاهتمام بالتاريخ السياسي . فن حين انتباه الاغريق الى حضارة حاولت جاهدة المحافظة على سلامتها امام الحضارات الشرقية ، كان من الطبيعي ان يعيروا اهتماماً متزايداً ، حتى في الماضي ، لمظاهر هذه الحضارة التي أوحث لهم المزيد من العجب للحلال . فلعلت من ثم اضاءة جديدة في الحركة التاريخية آنذاك وظهرت وتقدّمت دراسات جديدة كرسّت للتطور الفكري او الفني . وكان لذلك مغزاه الكبير ، أقبله ضمناً : فان جعل التاريخ يقوم بمهمة نقل وتعليل احداث الحياة الفكرية كان معناه ان هذه الحياة ، في نظر الشعب ، توازي في اهميتها منازعات الدول ؛ وان مفكراً كبيراً او فنانياً كبيراً يوازي رجلاً سياسياً او قائداً عسكرياً . وهكذا فان التاريخ — وهذا في الغالب دوره العملي ، إن لم يكن دوره المثالي — قد اسهم في ان قوّى ، بواسطة هيكل داخلي ، الشعور القومي او ما يقوم مقامه ، ابي وجدّة اناس تشدهم ، فوق الحدود ، لغة واحدة وتفكير منطقي واحد وتربية فكرية واحدة ، واذواق واحدة ، اي ، بكلمة موجزة : وحدتهم الأدبية .

كل هذا يفسر قوة العمل المنجز آنذاك والاستقبال الطيب الذي صادفه ، وبكلمة موجزة ، تقدم الشغف التاريخي الذي هو الشرط الاول لتقدم التاريخ . بيد انه بقي بعيد المثال . فقد احتوت مجموعات الرسائل كثيراً من الزيف ، حتى المفتضح احساناً ، وبوجه النقد في ايماننا ، اكثر من مرة ، مشكلة الحكم في صحة المقاطع الأخرى التي يشك فيها كثيراً . ويصح القول نفسه في مجموعات المراسم التي لم تصل بنا على كل حال ويبدو انها لم تكن كثيرة العدد : وقد نستهيونا ان نوجه اللوم لذوي الاطلاع الواسع في ذلك العهد لأنهم لم يلجأوا إلا نادراً الى مستندات المحفوظات ، او اقله الى الكتابات التي عرضت عدداً كبيراً منها على مرأى الجماهير . وقد أدخلت المذكرات ، بفعل تحميدها نفسه ، تشويهاً دفاعياً على الوقائع واسبابها الحقيقية . وأثر علم البيان ، بصورة حتمية ، في المؤرخين ، حتى ان الخطب التي استمروا في نسبتها الى بعض الأشخاص لم يكن لها ما يبررها ، كما هي الحال عند تومسيدد ، اجمال حالة عامة او عرض اسباب قرار ما : ففدت في اغلب الاحيان قطعاً صنعية جوفاء للأبهة فقط . ثم ان السعي وراء الأثر التصويري او المسرحي الخليلق بأن يسلي القراء او يشجعهم قد جعل من الانتاج التاريخي إنتاجاً أدبياً بمنهنا الازدرائي .

غير ان الرصيد الاجمالي ، مع كل ذلك ، يبقى ايجابياً الى حد بعيد . فقد ادخل النظام على

التأريخ القديم ، عن طريق البحث عن توافقت ولاية الملوك او القضاة ، في اللوائح المحلية : فنجد ايراتوسينوس على هذا الصعيد عملاً مجيداً وكان له الفضل في التأكيد ان التأريخ اليوناني ، قبل الشروع بوضع لائحة الفائزين الاولمبيين ، في السنة ٧٧٦ ، يفتقر الى الاروم . وقد ازدادت دراسات التخصص . فعلى غرار أثنينا ، استألت سبارطة ودوا، اخرى او مناطق اخرى من اليونان عدداً من الباحثين الشغفين بأصلهم وبماضهم . ووضع غيرهم التراجيح ، وهي لون جديد ، تأثر الى حد بعيد بالتقريب الخطابي الذي نشأ عنه . ووضعت تواريخ للفن والعلوم المختلفة والفلسفة والأدب : فمن اغرب الدلائل على سعة اطلاع بعض رجال ذلك العهد ان احد النقاشين الذين سبق لهم واشتغلوا في برغاموس ، اتيغونس الكاريسي (من جزيرة اوبسا) ، قد ألّف ايضاً تاريخاً للفن وتاريخاً لاهم الفلاسفة منذ ارسطو . ثم اقتضى بعد هذا كله القيام بمحاولة تأليفية في وضع تاريخ للحضارة : فكيف لا نذكر اسم ديكيارخوس المسيحي الذي كان الاول في الاقدام على هذه المحاولة ، باسم « حياة اليونان » ، غير متورع من الارتقاء الى ابعد الأزمنة رسوخاً في القدم ؟

لم نأت ، عن قصد ، على ذكر اسماء كثيرة ، على الرغم من وفرة ما نعرفه منها ، وحتى من المجد الذي أحاط ببعضها في العصور القديمة . فهي ليست جميعها في الحقيقة سوى عناوين لمؤلفات مفقودة ، او لمؤلفات لم يبق منها ، في احسن الحالات ، سوى مقاطع صغيرة جداً . وليس من شك في ان ما حققه المؤرخون الهلينيون كان عظيماً ، ولكنه اهم ، مادياً ، واضعف ، أدبياً ، من ان تنقلها البنا الاجيال اللاحقة . فقد اكتفت هذه الاجيال بأن انتهلت منه ، لأن كل ما كان بالامكان عمله لجمع ذكريات الماضي والحيلولة دون ضاعها قد انجز عملياً في هذا العهد . وقد استفاد المؤرخون واللغويون وغيرهم فيما بعد ، دوناً ملل ، مما غدا ملكاً مشتركاً . وما نحن نفتهل اليوم ، بواسطتهم ، من هذا الملك المشترك نفسه ، سعداء بانهم أشاروا احياناً الى المصادر او اقتنعوا بعض الاستشادات .

فشامت الصدف مع ذلك ان يصلنا قسم كبير من مؤلفات بوليب . ولكن هذا الواقع ليس وحده ما برغنا على اعتبار بوليب خيراً مؤرخ في هذه القرون الثلاثة .

لجأ في اسلوبه الأدبي الى صياغة الكلام وفاقاً للطريقة الرسمية آنذاك التي يزيد من ارتبائكها ما تطوي عليه من تعابير مجردة وصيغ بطينية . وكثيراً ما تناول موضوع الاخلاق معتمداً في ذلك قواعد اخلاقية غير شاملة أملت على كل حال مفاهيم فلسفية تطورت ولم يجهد هو ، او لم يتسع له الوقت ، للتوفيق بينها . وقد اتبع في عرض موضوعه تصميماً صارماً ، سنة فسنة ، ومنطقة فنتطقة ، وفاقاً لنظام جغرافي معين . وشغف بفن الحرب فوجد لذة خاصة في سرد تفاصيل الهجمات المفاجئة . بيد ان الدقة التي تباهى بها لم تكن إلا ظاهرة احياناً ، وعلى الرغم من تأكيدات ومن امتيازها عادة عن المصادر الاخرى ، فانه لم يخل قط من الخطأ والتحيز . فقد

صدرت عنه هفوات عرضية عموماً وخطيرة أحياناً حتى في موضوع جغرافية البلدان التي زارها مثلاً . ولم يتمكن من ان يتجرد من مواطنيته الآخية ويورجوازته الآخية وحتى انتهائه الى فئة من فئات البورجوازية الآخية .

ولكن هذه النفاض تتلاشى امام صفاته . فان نظريته في التاريخ ، التي لم يأل جهداً في عرضها واتقانها واعادة النظر فيها ، قد أصبحت نظرية علمية . اراد اللجوء الى جميع مصادر الاستطلاع بما فيها الدرس الشخصي للبلاد وحتى لمنطقة معينة فيها . واراد تاريخياً لا يكون صحيحاً ودقيقاً فحسب ، بل « عملياً » ايضاً ، اي قميناً بتربية الانسان النشيط الذي لم يميزه عن الانسان الثابت المضم على تعليل عمله المباشر واكتشاف المعنى الكامن في سلسلة من الاحداث . فقد اعترضته اذن معضلة الاسباب ، واذا هو لم يتمكن طيلة حياته ككؤلف ، وبالتالي في جميع مؤلفاته ، من السير في المنطق البشري حتى اقضاء الاثر الإلهي - اي اثر إله الحظ - فانه لم يلجأ اليه كتفسير يأس ، لأن الصلة الوثيقة ، في تعاقب الاحداث ، بين العلل الطبيعية ومعلولاتها ، كانت موضوع بحثه المستمر . ولم يكنف بالظواهر ولم يتأثر بمجادلات الدعوات المتقابلة ، بل دعا الى التمييز ، ويميز هو نفسه ، بين الاسباب البعيدة والاسباب القريبة والحجج التي تخفي الاسباب الحقيقية . وادرك معنى تطور المجتمعات حتى بلغ منه ان قرصل الى نظرية « دورية » تتعاقب بوجبه الملكية والارستوقراطية والديموقراطية وتؤدي حتماً في هذا المجال من واحدة الى اخرى لأنها ، كلها ، تقسد حتماً عند التطبيق . وهو لم يبتكر كل هذا ابتكاراً على كل حال ، لأن هذا الرجل الرفيع الثقافة قد نقل ما جاء به عن الفلاسفة وواضعي النظريات الذين سبقوه ، دون ان يتوصل الى نظام متلاحم جداً . ولكن واحداً غيره لم يفكر بمثل هذا الحزم في ان يستخلص ، مما نقله ، النتائج لدراسة التاريخ .

انصف الى ذلك ان الفضل يعود له ، من حيث انه عاش طيلة الارباع الثلاثة الاولى من القرن الثاني ، في انه ادرك الاهمية العامة التي انطوت عليها الاحداث التي شاهدها او لعب فيها دوراً ثانوياً أحياناً وهم على درسها كجموع . وقد خدمته مصائب حياته نفسها في هذا الدرس . فقد ارغم على ان يعيش ١٧ سنة منفياً في ايطاليا حيث تقرب الى شيبون اميليانوس وتعرف الى الاوساط الحاكمة في روما ، فاستطاع من ثم في روما ، لا ان يجمع جزءاً كبيراً من مستنداته فحسب ، بل ان يتأمل في الاحداث المتفرقة ويجد الصلة القائمة بينها . وهكذا انضحت له هذه الحقيقة التي شاهد جيله تحقيقها ، بين السنة ٢١٨ والسنة ١٦٨ اولا ، وبين السنة ١٤٦ والسنة ١٣٣ ثانياً وبصورة اكمل ، اعني بها وحدة العالم المتوسطي تحت سيطرة روما . ولح اهمية تلك الثورة السياسية والعسكرية التي انتزعت من الاغريق لا استقلالهم فحسب بل فهمهم للعالم نفسه والمقياس الذي قاسوه به ، لأنها قد اثبتت لهم ضيق الافاق التي عاشوا فيها وحقارة تحقيقات كافة الفاتحين الذين تمكنوا من معرفتهم ، بعد ان كانوا يعتبرونها بعيدة وعظيمة جداً . فان

الامبراطورية العالمية التي اكتسفت اعظم الرجال بأن يحملوا بها كانت في طريق التحيز امام ناظري البورجوازي الآخي الذي احفظه الثورويون السبارطيون والمستلبون الابتوليون . وهو قد آمن بجمتية مراحلها الاخيرة لأنه استحال عليه التفكير بأن الفارتيين سيستولون على شطر كبير من تراث الاسكندر الاقليمي . بيد انه ادرك ترابط الاحداث ولمس من نفسه القدرة على تحديد عليها . فاخذ على نفسه ان يبين ، وفاقاً لتحديده الخاص ، « كيف وبفعل اي نظام حصلت السيطرة على كل الارض المأهولة تقريباً التي امتت - وهذا حدث فريد من نوعه - ملك امبراطورية واحدة هي امبراطورية روما » . ولعل خير اكرام يجب تأديته لبوليب هو الاعتراف بأنه ، بعد تصميم هذا المشروع العظيم ، لم يكن دونه مستوى .

التقدم العلمي والتقدم التقني وحتى الدراسات التاريخية الى حد بعيد ، يبرز اثر الروح العلمية . وقد برزت هذه الروح ابدأ في ما مضى ؛ ولكن الجودة في دورها الناقد السريع واعتماد طرائقها في ما كان متعلقاً من قبل بالادب حين يفكر احدهم بالاهتمام له . ومن الطبيعي انها ارحت باستمرار الابحاث العلمية التقليدية التي ساعد شمول الشغف الفكري والانعامات الملكية على مواصلتها بنشاط وسهولة متزايدة ، وقد احتلت الاسكندرية ابدأ ، في هذا الحقل ، المركز الاول لأن ملوكها تفوقوا على غيرهم ثروة وكرماً . ولذلك فان الطابع الأزدرائي الذي ارتداه اسم « المدرسة الاسكندرية » في الكلام الدارج لا مبرر له في كافة الحقول تقريباً : ولا مبرر له في هذا الحقل بنوع خاص . وان اسم ايراتوشينوس وحده لكاف لاقصاء همة الانحطاط الموجهة الى الحركة الفكرية التي ازدهرت آتند بازاء قصور اللاجيين . ويكفي لذلك ايضاً ان تشريح جيش الموتى قد اجري فيها لأول مرة بصورة صحيحة . فقد اقتضى ذلك جرأة استقصاء وتجهيز مواد لم يعرفا كلاهما من قبل .

بفضل هذه الظروف المؤاتية احرزت بحوث العلماء نجاحات تلت الانظار . وما يدعو الى الدهشة هنا ، كما في جميع العصور القديمة ، ان هذه النجاحات العلمية لم تؤد الا الى القليل القليل من التطبيقات العملية . فما زال الاهتمام بهذه الاخيرة معتبراً دون شأن العالم ومقامه . بيد ان الطب وحده قد نجح من هذا الحكم الذي ليس من المعقول ، في الحقيقة ، ان يصدر عليه . ولكن ارخميدس لم يرض الا في ظروف استثنائية بالقيام بأعمال المهندسين . فهو لم ينزل مركباً الى البحر ، بواسطة جهاز من البكر والعتل ، الا اكراماً للملك السيراكوزي ، هيررون الثاني ، وبعد ان نسب اليه العجز عن تحقيق ذلك ؛ ولم يصمم الآلات المدهشة الاسمياً وراء فك الحصار عن سيراكوزا . وكان كل ذلك في نظره ، كما يؤكد بلوتارك ، « لعباً هندسية تلهي بها لتمضية الوقت » . فتفسر هذه العقلية تأخر « الفنون الآلية » التي لا تتطلبها سوى الحاجات الحربية تقريباً والتي تستلزم التجربة والاختبار . اجل لقد صنعت مراكب ضخمة ؛ ولكن

المركب الجبار « سيراكوزيا » الذي كان يتسع لثلاثة آلاف طن من البضائع ، ولستأفة بحار وثلاثمائة جندي ينعمون فيه براحة تامة ، تخلص منه هيرون الثاني بأهوائه لأحد اللاجئين ، بعد ان اتضح له عدم جدواه .

يجب في الحقيقة ان لا ننظر الى نتائج هذا التلمس المتردد بعين الاحتقار . وقد اقتضت العصور القديمة حتى بيزنطية على نقل او تطبيق التحقيقات الهلينية . ولم تحرز تقنية صناعة السفن اي تقدم بين ايدي الرومان ، لا بل انها ما لبثت ان اقتضت طموحها على طراز الـ « تريمر » التي لا تختلف عن « تريمر » الاغريق في القرن الخامس ، مع انهم صنعوا سفناً افضل منها منذ القرن الرابع ، ولاسيا في مستهل العهد الهليني ؛ ومرد ذلك الى ان روما ، بعد ان انتهت فتوحاتها ، لم تصطلم بأية قوة بحرية كبيرة . وقد احرز الشرق الهليني نجاحات فائقة في حقل تجهيز المرافئ ، لا سياً في الاسكندرية حيث لم يكن برج فاروس سوى العنصر الالم في مجموعة بقيت زمناً طويلاً دون منافس . وشيد هيرون الاسكندري بعد ذلك مسرحاً للتأثيل المتحركة ، وموزعين وحجاباً آليين ؛ وابتكر « فستقية » - تلك التي سيعرضها جان جاك روسو امام الفلاحين السافويين - توصل الى استخدام قوة البخار فيها . اجل لم تكن كل هذه الابتكارات سوى مجرد آله او بالاحرى حيل تتيح لبعض السحرة - المشعوذين استئثار سرعة التصديق المفرطة عند الشعب . ولكن تحققت اكتشافات مفيدة ايضاً . فقد استخدم لولب لا نهاية له ، اخترعه ارخميدس ، لتجفيف قعر السفن والاراضي المصرية بعد الفيضان . واكتشفت المطحنة المائية ، فحث احد الشعراء ربات البيوت على التضحي في نومهن لأن عرائس الينابيع اخذت على نفسها القيام بعملهن ؛ ولكن استخدام هذه الآلة العجيبة كان أبعد من ان يصبح عاماً . وان ما بلغت النظر بالتالي هو انه لم يتحقق سوى حد ادنى من تخفيف الشقاء البشري . اما الافتراض الذي افترضه ارسطو والذي بدا له غير قابل التحقيق على كل حال - « لو ان كل آلة تنفذ مهمتها بناء على أمر او اشارة ... ولو ان المكوك ينسج وحده والمضرب يعزف وحده على القيثارة ، لاستغنى المهندسون عن العمال والاسياد عن العبيد » - فلم يخرج عن اطار المستحلات التي لم يحلم بها احد . وبدلاً من ان يتماشى العلم والتقنية ، تراهما يستمران في تجاهل بعضهما البعض ، لا بل ترى التقنية عاندة في احتقار العلم .

انطلاقاً من شأن هذه اللامبالاة ان أبقى الادوات الضرورية للعلماء في حالة بدائية . فاضطروا ، بسبب حرمانهم من أدوات القياس ومن الحجر والمرقب ، الى الاعتقاد على حواسهم ، وعلى عقلمهم بنوع خاص . وهذا ما يطبع النتائج المحرزة بمزيد من العظمة .

وكان العالم المعروف قد اتسع اتساعاً نادراً . ففي الوقت الذي تخطى فيه الاسكندر ايران ، متقدماً في تركستان و الهند ، قام المرسلين ببياس بدورة حول اوروبا الغربية . فبلغ المضائق الدائرية والطرف الشمالي للجزر البريطانية . وحين روى ما علمه عن شمس نصف الليل والمحيط .

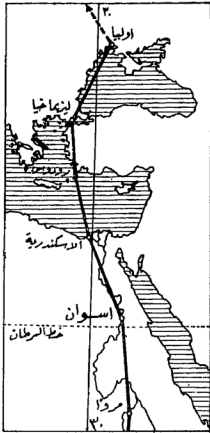
المتجمد الشمالي ، اهمة الرأي العام بالخرقة والهذر ؛ ولكن بعض العلماء قد استفادوا من رواياتهم . ولم يخاطر الملاحون اليونانيون بعد ذلك بنفسهم في السفر نحو الغرب البعيد الذي أقام القادسيون أنفسهم حجاباً لا يركن اليهم عند مداخلة . ولكن الملوك الهلينيين أوفدوا اكثر من بعثة الى بحر قزوين - الذي لم يستكشف كله على كل حال - والهند والجزيرة العربية والبحر الاحمر وأعالي النيل . فنشر بعض هؤلاء الأفئاقين رواية اسفارهم ، مما افرح الجماهير الشغفة بكل غريب عجيب . غير ان الجغرافية العلمية قد أفادت الى حد بعيد من الجغرافية الوصفية . وليس سوى الافتقار الى الادوات ، في ما يبدو ، ما يفسر عدم تقدير الحقائق التي تراءت فترة من الزمن ؛ بيد ان تراثها مما يثير الاعجاب .

فان ملاحظة حركة المد والجزر الهامة في المحيطات قد جعلتهم يراجهون بشكل جديد معضلة اسبابها . فاكشف بعضهم ، كبيتاس مثلاً ، انها مرتبطة بالقمر ، ولم يتمكن احد من يعدم ان يفي ذلك . غير ان الرأي لم يستقر على رفض دور الارياح التي نسب اليها ارسطو هذه الظاهرة : ومرد ذلك ان علم الفلك لم يكن بعد علماً صحيحاً .

وكانت كروية الارض امرأ معترفاً به ؛ فسعوا سعياً حثيثاً لتحديد قياساتها . وقد حقق ايراتوستينوس في هذا الموضوع لباب الامر ، ويعود اليه الفضل في اعتياد ايسط الطرق . فانطلق من اعتقاده بان اسوان تقع على خط الطول نفسه الذي يمر في الاسكندرية التي تفصلها عنها مسافة ٥٠٠ غلوة ، واكتشف ان أشعة الشمس ، في موعد انقلابها الصيفي ، تنحدر اليها عمودياً بينما تنحرف هذه الأشعة ، في الاسكندرية ، عن الخط العمودي مكونة معه في انحرافها زاوية تعادل $\frac{1}{2}$ من محيط الدائرة ؛ فان المسافة بين المدينتين ، بالتالي ، تعادل $\frac{1}{2}$ من خط الطول . أجل لم تخل هذه الطريقة من الأخطاء ؛ فان اسوان تقع في الحقيقة على مسافة ٥٠ كيلومتراً تقريباً الى الشمال من دائرة السرطان ، والاسكندرية على ثلاث درجات الى الغرب من خط الطول الذي يمر في اسوان ؛ أضف الى ذلك انه كان من الصعب قياس المسافة التي تفصل بين المدينتين . واذا ما افترضنا ان التنقيحات التقريبية التي أدخلها ايراتوستينوس على معطياته العددية جاءت صحيحة ، يبقى علينا ان نعرف ما هي الغلوة التي استند اليها عندما انتهى الى خط طول قياسه ٢٥٠٠٠ غلوة ، او ٢٥٢٠٠٠ غلوة بحسب « سترابون » . وما كان النقص النهائي لتجاوز ٦٢٥ كيلومتراً في حساب الاول او ٣١٠ كيلومترات في حساب الثاني على ٤٠٠٠ كيلومتر ، اي ما يعادل ١٥٦ او ٧٧ ٪ . ولكن غلوتين آخرين كانتا ممتدتين ايضاً توديان ، لو استند اليها ، الى فوارق اكبر . ومها يكن من الامر ، فان الطريقة جدرة بكل اعجاب .

بفضل هذا التقدم ، بذلت الجهود في وضع الخرائط . فجمعت ، في سبيل هذا الهدف ، المعلومات الوجيزة المتوفرة حول المسافات . وفكر هيبسارخوس ، في القرن الثاني ، بمراقبة

النجوم لتحديد خطوط العرض كخطوط الطول؛ ولكن الضرورة كانت تقضي بمقارنة الساعات، في حال ان آلات قياس الوقت لم تكن بعد مكتشفة. ومنذ القرن الثالث، قام ايراتوسينوس بمجهود تألّفني عظيم فتوصل، بواسطة الاحداثيات الحسابية، الى وضع خريطة عامة « للمسكونة » تلفت النظر، على الرغم مما تخلفها من اخطاء، في ما يتعلق فيها بالسواحل



الشكل ٣٠ - خط طول الاسكندرية
 كما رسمه ايراتوسينوس

المتوسطة وآسيا الصغرى، بينما لا تزال مبسطة جداً في ما يتعلق بالمناطق الاخرى. ثم ان معرفة المحيط الهندي، ورحلة بيتياس، والاعتقاد السائد بأن بحر قزوين ليس مغللاً من الشمال، بدت لبيتياس مصداقاً للنظرية القديمة القائلة بوجود محيط واحد دائري وبأن الاراضي المعروفة تؤلف حلقة حول البحر المتوسط الذي ليس سوى بحيرة وسطية؛ وهو قد افترض، من جهة ثانية، وجود قارة اخرى مماثلة في المنطقة الممتدة الجنوبية. اجل لا يعود اليه الفضل في الطواع بنظرية المساطق؛ ولكن علم الفلك أتاح له ان يرسم للمرة الاولى، وبشكل صحيح تقريباً الدائرة القطبية ودائرة الانقلاب وخط الاستواء. واذ قيل ان ايراتوسينوس يحتمل المركز الثاني لـكفوي ومؤرخ وشاعر، فانه يبدو في نظر المعاصرين، مسيطراً دون منازع على عهده في حقل الجغرافية العلمية.

لا ريب في ان علم الفلك قد استفاد من الملاحظات المتكدسة في المعابد البابلية. ولعل

تفسير هذه الملاحظات العلمي بلغ في الشرق نفسه شأواً بعيداً: فان كيدينيو، الذي يطلق عليه الاغريق اسم كيديناس، كان عالماً حقيقياً، حتى ولو لم يكتشف مبادرة نقطة الاعتدال التي تنسب الى هيبارخوس ايضاً. بيد ان تحقيقات علماء الفلك اليونانيين، على الرغم من اجهاض حدسهم المبكر، بلذير مع ذلك بكل اعتبار. فهم قد زفصوا نظرية الافلاك المجوفة التي طلع بها افدوكسوس في القرن الرابع. واقترح ارسطارخوس الساموسي في القرن الثالث نظاماً تكون الشمس نقطة الدائرة فيه تبناه في القرن الثاني اغريقي بابلي يدعى سلوقوس: اي ان الارض والسيارات تدور حول الشمس خلافاً للظواهر ولكافة الشروخ السابقة. ومما يلفت النظر ان هذا الافتراض لم يكن ليتفق مع الملاحظات التي سمحت بها الوسائل التقنية آنذاك.

لذلك فانه قد أثار معارضة الفلاسفة - ولم يتردد احد رؤساء المدرسة الزواقية في ان يتهم بمحرق القديسات كل من يجرؤ على ازاحة « مركز العالم » - واكثرية العلماء ايضاً من أمثال ارخميدس وهيبارخوس . واحتال هذا الاخير في تحمين النظام المقابل الذي يجعل من الارض مركز العالم والذي بقي بمثابة عقيدة ايمانية حتى كوبرنيك : ولم يكرس احد سواه ما كرسه من انتباه « للظواهر » ، وقد وضع جدولاً بأكثر من ٨٠٠ نجم ثابت . ولكن مبدأه بالذات ، بسبب حالة التقنية ، جتّم عليه الخطأ على هذا الصعيد .

اما في حقل الرياضيات ، فقد أخضع اوكليدس الهندسة ، او بالاحرى الجبر الهندسي ، لقواعد قياسية مترابطة دائمة . ولكن بعض العلماء الآخرين تفوقوا عليه عبرية . ولعل اعظمهم حقاً هو ارخميدس الصقلي الذي مرّ مروراً على الاقل في الاسكندرية . فقد أراد ان ينوّه النقاش على مدفنه بما اعتبره هو اهم اكتشافاته : نسبة ٢ الى ٣ القائمة بين حجم الكرة وحجم الاسطوانة التي تماسّ ضلعوها الدائرة . بيد ان رصيده ينطوي على اكتشافات اخرى كثيرة ، في الرياضيات والطبيعيات ، إذ انه وضع بصورة خاصة مبادئ حساب الكمية الصغرى وعلم توازن السوائل وضغطها . ويوجب ايضاً ان نذكر على الأقل اسم ابولونيوس البمفيلي المنشأ الذي اهتم ، الى جانب النظريات الفلكية ، بدرس قيمة (π) والقطع المخروطي وتجاوز فيها ما حققه ارخميدس نفسه .

واستفاد علماء النبات والحيوان من الاتصال بالعالم الغربية واستوقفوا انتباه مدرسة ارسطو بنوع خاص فوضع ثيوفراستوس ، خلفه المباشر ، « جغرافية النباتات » ومؤلفاً في « علل النباتات » ، فاحرزا بعض التقدم . ولكن علماء التشريح في الاسكندرية اقدموا ميراً على تشريح جثث الموتى وحتى اجسام المجرمين الاحياء كما جاء في التقليد . وهكذا توصل « هيروفيلوس » ، قبل « هارفي » بـ ١٩٠ قرناً ، الى ان يكتشف ان الشرايين لا تنقل الهواء بل الدم الذي يدفعه القلب . ثم عاد ايراستراتوس الى الهواء غير معترف بوجود الدم الا في حالة الجنى؛ ولكنه ميّز في الجهاز العصبي الذي تراءى لسلفه بين اعصاب الحركة واعصاب الاحساس . ولم يتردد الجراحون في اجراء عمليات هامة : فان ايراستراتوس نفسه لم يجهج عن التعرض للكبد . وقد اعتمدت مدرستان طبيتان ، عملياً ، طرائق الشفاء والصحة التي اطراها هؤلاء العلماء . ولكن مدرسة ثالثة فاقتها في النهاية : فقد عرّفت عن نفسها بأنها « اختبارية » واهملت التشريح والنظرية واكتفت بالبحث عن الادوية وتوصلت احياناً الى اكتشاف ادوية هامة ولكنها ارتكبت ايضاً اخطاء هي اقرب الى السحر منها الى الطب . لذلك ضاقت السحر نجاحاً متزايداً لدى جمهور المرضى حين لم يدفعهم ايمانهم القلق للتكال على الاحلام التي يروحي بها والمعجزات التي يمترحها الالهة الشافون : اسكليبيوس وسيرايس ، وامبحوثب بن هابي في اخرية المنبد الذي شيّدته حتشبسوت في دير البحري منذ ١٥٠٠ سنة قبل المسيح .

باستطاعتنا ان نرى في هذا الزيفان ، الذي لم يكن وحيداً من نوعه ، اكثر من حدث

عارض . فان الحركة العلمية في العهد الهليني ، لأعظم حركة علمية نشاطاً وحياءً وتنوعاً واثباتاً في كافة العصور القديمة . ففي حقول الجغرافية وعلم الفلك والرياضيات والتشريح والفيزيولوجيا ، طلعت باكتشافات ووضعت نظريات كتب للعالم المتحضر ان يتمشى على اخطائها نفسها قروناً طويلة . ولم يسبق للفكر البشري ان يربط ، كما انه لن يربط قبل زمن طويل ، بمثل هذا الإثبات ، بين التصميم على التجريد المنطقي وبين هوى المعارف العملية أي الخضوع للواقع . ولكن عجز التقنية قد حدث من فاعليته لأن هذا المعجز قد حال ، عملياً ، دون اللجوء الى الطريقة الاختبارية أولاً والبحث عن تطبيقات نجاحاتها العملية ثانياً . ولذلك فلم تصب هذه النجاحات سوى نخبة مثقفة محدودة العدد نسبياً ، وان كانت ارفع عدداً من ذي قبل . ولكنها لم تصب عامة الشعب حتى المتأدبين منها ، لا سيما وان نزعاتهم المخالفة للصواب ، وهي أقوى منها في أي زمن مضى ، لم تكن لتجعلهم يقدرون صرامة الروح العلمية . هذا هو مصدر الجاذب الذي استسلموا له بسهولة ، أعني به جاذب ما هو مستغرب ولا سيما جاذب السرّ الصعب المثال . وهكذا فان العلوم الطبيعية انخرقت نحو وصف الغرائب النباتية أو الحيوانية أو المعدنية التي قد تكون صححة أو لا تكون والتي كثيراً ما ينسبوننا الى قوى فائقة الطبيعية . وهكذا انخرط علم الفلك نحو التنجيم ، كما دعتنا الى ذلك السوابق البابلية . وهكذا انخرط الطب نحو المعجزة والسحر ، فتحطمت الانطلاقة العلمية الصحيحة وحلت محلها في غالب الأحيان شعوذة رخيصة هي أبعد من ان تبقي على النفوذ الذي تمتع به كبار الاسكندرانيين في القرن الثالث وان تنقله الى خلفائهم .

٤ - المدارس الفلسفية والألوان الأدبية

لازم العلم اليوناني الفلسفة منذ نشأته . ولكن الفلسفة نزعت ، بفعل التقدم الذي
 الفلسفة
 أحرزته ، الى ان يكون لها قوام مستقل . ولذلك تراخت الصلة بينها دون ان تنقسم : ولم تلعب مدرسة ارسطو دور الحافز الا في البداية ولبعض العلوم أو بالأحرى لبعض الاساليب العلمية فقط .

بقيت أثينا المركز الرئيسي للنشاط الفلسفي : ففيها قامت الاكاديمية الافلاطونية والكلية المشائية المرتبطة بارسطو ، متمشيتين على نظام جمهوري تنتخبان بوجهه ممثلها . وفيها أيضاً التقى الفينيقي القبرصي زينون دروسه في «الاغورا» تحت «الرواق» (Stoa) الذي كان في الأساس من اطلاق اسم «الرواقية» (Stoicism) على تعاليمه وتبعية مذهبه ، وفيها أيضاً جمع الانثيني ابيقور تلاميذه في الحديقة التي ما زالت اسماً لمدرسته . أجل لا نستطيع الكلام عن احتكار أثيني ؛ فكان لكل من هذه الجماعات فروعها في الخارج ، كما ان جماعات اخرى لم تتخذ من أثينا مركزاً رئيسياً لها . ولكن الفلاسفة وتلاميذهم ، مع ذلك ، لم يكونوا في أي مكان آخر اكثر عدداً منهم في أثينا . ولم يحظوا في أي مكان بالاكرام الذي حظوا به فيها . فقد عين احد الملوك

الاطالين ، في السنة ١٥٩ ، أمين دار الكتب في برغاموس ، كراتيس المالبي ، سفيراً له في روما ، وهو مشهور بسعة علمه فوق شهرته برواقيته ، ويعتبره سترايون واحداً من اثنين - الثاني هو ارسطارخوس - حلقاً في علم الصرف والنحو . ولكن الأثينيين عنوا ، في السنة ١٥٥ ، رؤساء المدارس الفلسفية الهامة ، للدفاع عن قضيتهم امام مجلس الشيوخ الروماني ، على الرغم من انهم ثلاثة اجانب : كرنياك الكيريني من الاكاديمية ، وكريتولاوس الفاسيلي من الكلية ، ودوجين البابلي من المدرسة الرواقية . وهكذا فقد غدت أثينا ، دون ان تقدم الدولة مساعدات مالية للأساتذة ، مركزاً لمعهد فلسفة لا يضاهيه مركز آخر حتى آخر العصور القديمة .

وإنما المقصود هو التعليم لا الحلق والابتكار . ومما يثبت سنى التعليم وشهرته انه كثيراً ما يشبه المحاضرات حيث تلعب النصائح البيسانية دورها ؛ اما الفلاسفة الذين يختارهم الاثينيون سفراء لهم في الخارج فقد كانوا في الحقيقة ، من هذا القبيل ، من المرتبة الاولى . ولكن النظريات الفلسفية ، بعد الازدهار الذي عرفته في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث ، فقدت الكثير من اخصائها . ولم يبق سوى الحرارة الاولى التي استطاع العهد الهليني بفضلها تنمية التراث الذي استلمته من العهد الكلاسيكي .

ويدهي انه نمّاه بتحويله إياه ، وليس عجبياً ان نرى ، في النزعات العامة لهذه الحركة ، انعكاس الظروف الجديدة . وبلغ من بعض المدارس ، كالمدرسة الكلية (الوقحة) ، والمدرسة الرواقية ، مراغة ، ان نادى « بالعالمية » مبنية المضادة بين « العالم » و « المدينة » ومستخلصة بذلك نتيجة توسع الاطارات السياسية . وقد قادتها وفرة وخواص الاتصالات بين الشعوب وبين الحضارات - فان اكثر من فيلسوف كان شرقي المنشأ على الرغم من اعتماد اللغة اليونانية - الى ان تكتشف مبدئياً أخوة البشر دونما تمييز عنصري او قانوني : غير ان المبدأ لم يطبق قط عملياً . ولكن ما يلفت الانظار حقاً هو ان علم المعقولات قد بدا أقل استهواء في تلك الأيام المضطربة التي ضل فيها الانسان طريقه . فان ما حاولوا تحديده بنوع خاص هو المثل الأعلى للانسان الحكيم ، سر السعادة الحقيقية ، في علم أخلاقي وعملي أقرب الى آراء السفستين وسقراط منه الى آراء افلاطون وارسطو .

لم تترك الاكاديمية والكلية أثراً يذكر في هذا العهد . اجل لقد تهافت عليها طلاب كثيرون ؛ وكان دور الكلية كبيراً في نشأة ونمو العلم الواسع ؛ ولكنها كلفتها حصراً نشاطها في تدريس وتفسير تعاليم مؤسسها . وبرز الاهتمام الحقيقي في غير مكان .

استمرت المدرسة الكلية بعد دوجين ، وأضاف عبدان سابقان ، « بيون » البورستيني و« مينوس السوري » الى وعظها ، كمتسولين تأهين ، ففوذ مؤلفاتها التي لم تراخ سخريتها السامة لا الآدميين ولا الآلهة : فندت « مقارعات » (*Diatribes*) (الاول واهاجي (*Satires*) الثاني في الاساس من لون أدبي عرف الكثير من الاتباع في العالم اليوناني ، وفي روما بعد ذلك .

ولكن وراء هذه الظواهر الخارجية التي تتعارض تعارضاً عنيفاً وكافة المصطلحات ، ووراء هذا التظاهر بالوقاحة التي بلغت حدّ التعثر المقصود ، أخفى أولئك الذين لم ينحدروا الى الشوذة ، مثلاً أعلى نبيلاً جداً للحكمة والتصميم على الجهد ، رمز اليه هيراكليس ؛ لتحرر من الأهواء وبما ليس هو يجوهر الطبيعة البشرية .

وشرعت المدرسة الارتيسابية أيضاً ، مع بيرون الذي تتبع الاسكندر في حملته على آسيا ، في الحث على دستور حياتي . فشددت ، في الأغضاء والخضوع للعادات ، على اتزان الروح ، والصراع التحريري ضدّ الاشياء ، وعدم الاضطراب ، وهناءة الحياة . ولكن هذا الدستور قد ارتكنز الى حقيقة فاز بها المنطق فعدت مذهباً ، وأعلن الارتيبايون ان الحكم يخطيء كما تخطيء الحواس . لذلك يجدر ارجاء الحكم والاعتصام بالصمت امام منازعات الفلاسفة الذين جعلهم « تيمون » ضحكة للناس باستهزائه برواد المتحف الاسكندري وبحروب العقائديين الكلامية . ويبدو ان هذا الانتقاد اللاذع كان له أثره في الاكاديمية ؛ ومها يكن من الامر ، فانه قد خدم التقدم العلمي بإبلاء الوقائع اهمية دونها اهمية النظريات وبالحث على ملاحظتها بتواضع .

بيد ان مذهبين جديدين تفوقا الى حد بعيد على كافة المذاهب الاخرى بامتداد واتساع ومدّة أثرها في أوساط اجتماعية متنوعة ، حتى خارج الأوساط الفكرية .

كان ابيقور ، بإشاعته الشخصي ، وبالمثل البطولي الذي أعطاه في آلام المرض ، في نظر تلاميذه ، المعلم الذي لم ينقطعوا ، في العالم اليوناني وروما ، عن ترداد وتفسير حكمه والتأمل فيها . واذا هو كوّن رأياً في العالم وعلم الطبيعة ، فانه لم يفعل ذلك ، في ما يظهر ، إلا لتحرير الإنسان من خوفه الرومي من الآلهة . انه لم ينكر وجودهم بل دورهم في الأمور التي تهم الانسان ، وجعلهم يعيشون في بطلالة دائمة ابعدت صفة ما فوق الطبيعة . واناط كل شيء بالمصادفة واعتبر الاجساد والأرواح مجرد كتل ذرات . وقد تبني ابيقور بذلك معظم نظرية ديموكريت الابديري . أما ما أدخله عليها بنوع خاص فهو حركة عامة للذرات من فوق الى تحت تفرضها الجاذبية وتتنوعا انحرافات لطيفة جداً عن خط الهبوط العمودي ووثوب الذرات بعد مسّها الكتل المتكوّنة . ويستلزم الموت في نظره انحلال الكتل : فليس بالتالي من حياة ثانية ويجب ان يزول الرعب الذي توحيه كما يجب أن يزول الرعب الذي يوحيه الآلهة .

فليس بعد ذلك ما يعترض سلوك حياة تصبح اللذة هدفها الطبيعي . ولكن مقياس اللذة الحقيقية هو عدم الشهوة والألم . فقد أعلن ابيقور : « لسنا نستهدف لذات الفساق ، لاولا اللذات التي يوفرها الاستمتاع » . ولذلك فان ثالي ابيقور ، من امثال هوراس الذي أسمى نفسه « خنزير » قطيعه ، قد تنكروا دوماً خجل لكل تعليم أخلاقي لا يوصي حتى بالأفراط في اللذات . أما الحكيم فكان عليه أن يعيش « متسراً » ، دون طموح ، مرضياً شهواته الطبيعية والضرورية معاً بأبسط شكل اذ أن الحبز الأسود والماء يكفيان لذلك ، ومكديساً الحواس الطيبة المعدة

لأن تستحيل ، في الذكرى ، « لذّة مستقرّة » لا تستدعي ، على نقیض « اللذّة العابرة » ، تجدد الشهوة ، ومن شأنها وحدها القضاء على الألم . وكانت تعالیم المعلم وأمثاله ، لهذه الغاية ، وإفرة جداً ، تؤلف إرشادات عملية هي في مجموعها نظام دقیق جداً : وكان من شأن تطبيق هذا النظام أن يوفر ، في هناء الأحاديث الجمیة ، ملاذاً ثمیناً وأمیناً في خضم الاضطرابات التي تهزها سائر البشرية .

أما الرواقیة فقد انكرت المصادفة التي لم ترد ان ترى فيها سوى ما لا يمكن تفسيره . وقد نظرت الى العالم كما الى كل ينظمه ويحركه عقل إلهي ، منطلقة ، كما فكر بذلك هيراكليت من قبل ، من النار الأولية . وكان الانسان نفسه في نظرها ، عالماً صغيراً منسجماً مع الكون ، مركباً من جسد تغلّت فيه روح هي نفة نارية متجملة بالذكاء . فتطابق تأليه الكائنات هذا والتفائل المطلق إذ أن كل شيء فيه يناسب تسلسلاً عقلياً . ولكن القدرة على نقیض ذلك ، لم تتناف وعلم الأخلاق ، إذ أن واجب الفرد قائم في أن « يعيش وفاقاً للطبیعة » أي بحسب نظام العالم بالذات ، حتى يتوق الى الكمال . ويؤمن الانسان السعادة ، بموجب تعاليمها ، باحتقار كافة الحیرات وكافة الآلام وكافة المشاعر ، أي بالخضوع الى العقل الذي يتيح له ممارسة الفضیلة : وان هو فعل ذلك ، فانه يكون غنياً في فقره ، وحرراً في عبوديته ، وسعيداً على الرغم من المرض والتعذيب وحتى الموت .

اقتضى في الواقع تحسین هذا المثال الازامي للتسامخ ، بالمزيد من البراهین البقّة . فقد أقروا بأن هنالك بعض الحیرات ، في المنطقة المتوسطة بين الرذیلة والفضیلة ، كالصحة والقوة والجمال والفرح ، ليست خلیقة بالاحتقار . ثم ان الرواقیة ، على نقیض الابيقورية ، لم توص باللامبالاة حبال الشؤون السیاسية : فان نظام العالم قد حال دون ذلك ، كما أنها قد حدثت على الجسد والنشاط باسم العقل والواجب . فاستطاعت بذلك اجتذاب التبعة والابقاء عليهم ، وقد بذل بعضهم جهداً كبيراً وبرهنوا أحياناً عن نبل نادر كي يكونوا أهلاً لمعتقداتهم . وعلى نقیض الابيقورية أيضاً ، لم تنزرو الرواقیة في عقيدة ضيقة تحدّها تعالیم مؤسسها زينون . فبعد هذا الأخير استحق شرقي آخر هو كريسبوس الكيليني لقب « المؤسس الثاني للرواق » ؛ ونستطيع الكلام في القرن الثاني ، مع « بابائيتوس » الرودسي ، عن الرواقیة « الوسطی » كما يصح بعد ذلك الكلام عن الرواقیة « الحديثة » . ومنذ العهد الهليني ، قبل كلون الاوتيبي ، خصم قيصر ، كان هنالك رواقيون جمهوريون نشيطون ، بنا كان هنالك أيضاً ، قبل الامبراطور الفيلسوف ماركوس أوريلوس بزمن بعيد ، ملك واحد على الأقل موسوم الى حد بعيد بالتعليم الرواقي ، هو المقدوني انتينغونس غوناتاس . وهكذا استطاع الرواق أن يترك أثراً كبيراً جداً بفضل رغبته في العمل بين الناس وبفضل مرونته في التفسير : ويحتل تبشيره بالجهد العقلي الطوعي الناصب مركزاً هاماً في التراث الذي تركته لنا العصور القديمة .

الادب
 لعل الحركة الفكرية تكشف حينذاك عن انها أقل ما تكون انتاجاً مفيداً في حقل
 الأدب . أجل كان الأدب في الحقيقة غصاباً ومتنوعاً وبديعاً . ولا ريب أيضاً في
 اننا لا نعرف جيداً مؤلفات هذا العهد التي فقد اليوم معظمها على الرغم من بعث بعضها بفضل
 دراسة البرديات التي كان لها شأنها الكبير في اشهار كليخوس وهيرونداس ومينانديروس .
 ولكننا نترامى النزعات العامة مع ذلك ، واذا نحن لم نستطع انكار الأثر الذي كان للحضارة
 الهلينية ، في الحقل الأدبي وجميع الحقول الأخرى ، على الحضارة الرومانية في آخر عهد الجمهورية
 وأوائل عهد الامبراطورية ، فانه يبدو لنا ان هذا الأثر قد افتقر الى الاستمرار والإعراق .
 ولا تشابه البتة بينه وبين الأثر الذي تركته الفنون والفلسفة . ولا تشابه أيضاً بينه وبين اصالة
 وأهمية تقدم الروح العلمية وانتصاراتها .

صم الادب الهليني في الحقيقة على أن يكون جديداً ، وقد حدث ان توفيق الى ذلك . وقد
 حاول ذلك في جميع الاتجاهات باحثاً عن الجدة في النوع والوزن والعاطفة والطابع . ولعل
 عيبه بالضبط ان الافراط قد سيطر على صيغته وتصنعه ورقته . فمن حيث انه اقصى ، بفعل
 الظروف الجديدة للحياة السياسية والاجتماعية ، عن الجماهير الشعبية ، فقد اتجه الى جمهور مفرط
 في الرقة أحياناً ، لا سيما في بطانة الملوك . ثم ان العلم الواسع والتأق في الكلام وقسا له
 بالمصاد فلم يقو على الدفاع عن نفسه ضد هما .

ويدو الانحطاط ، على كل حال ، أجلى وضوحاً في النثر منه في الشعر .
 النثر
 قد يجدر بنا ان نستذكر هنا بعض المؤلفين الذين سبقت الاشارة اليهم . ولعل أعظمهم
 شهرة من الناحية الادبية - إذ انه الوحيد ، في الواقع ، الذي بلغت مؤلفاته ، التي عرفت
 الحياة ، شهرة حقيقية - هو بوليب . ولكن مرد شهرته الى المعنى لا الى المبنى الذي تثقله
 الصيغ والمفردات المجردة في ما صحت تسميته بـ « الرطانة السياسية » ، وطانة دواوين ومراسم
 ذلك العهد . اما اللغويون وذوو العلم الواسع والعلماء والفلاسفة فليسوا أهلاً باستيقاننا . فالصفات
 الادبية ما كانت لتضر بمؤلفاتهم . ولكن ان هي لم تتحل بها ، فان صفاتها التقنية تجيز لنا ان
 لا نغالي في اتهامهم بالتقصير .

عانت الفصاحة سكرات الموت ، لمصلحة علم البيان الذي أقصر على الصيغ النظرية ، المطبقة
 بتصنع على المواضيع الرومية ، ما كان في الاصل الجمات واكتشافات فن في خدمة المعتقدات
 الراسخة . أضف الى ذلك زوال ذلك الميل الى وضوح نافذ قارب الجفاف ببساطته الذي كان
 في الاساس من أهمية ليزياس ، وتلك الجملة الطويلة المتناسقة التي اشتهر بها بزقراط او تلك القوة
 الثابتة التي اتصف بها ديوستينس . هذا كان الثمن المحتم لتعمع ثقافة متوسطة وزعها التعليم دون
 ان يجهزها بما يلزمها ضد النتائج اللهاعة الصناعية القادرة على التأثير والافتتان . ومنذ منتصف
 القرن الثالث برزت الفصاحة المعروفة بالـ « آسيوية » ، المنفخمة ثارة والمفصلة أخرى ، والمتكلفة

والموزونة أبداً . وعادت فيما بعد ، في عهد الامبراطورية ، الى تقليد كبار الكلاسيكيين . ولكنها أفلرت . اعجاب الرومان . فان هؤلاء ، حين كانوا يقصدون أثينا او رودس لتلقي دروس قفتقر الى الذوق السليم ، كان عليهم في أواخر العهد الجمهوري ، في روما ، ان يعالجوا مواضيع سياسية وقضائية حقيقية . ولم يتوفر هذا الحظ لأساتذتهم الذين لم يكن فيضمه ليستطيع الازدهار إلا على ما وصفه احد معاصري اوغسطس ، دينيز الهاليكارناسي بالـ « غباوات » .

مارس بعض المؤلفين نوعاً قريباً من القصة ، وربما شجعهم على ذلك النجاح المستمر الذي عرفته بعض مؤلفات كسينوفون ، لا سيما « كيروبيديا » . فليس بعيداً عن القصة مثلاً كتاب « افيبوروس » الذي تخيّل فيه بلاداً أسطورية استمرت فيها ذكرى حياة الآلهة اليونانيين البشرية والملكية . وليست بعيدة عن القصة أيضاً تلك « المعجائب الخارقة » التي تنقل القارئ الى بلاد تجمد الكلمات فيها شتاء ، او « الشاليات » ، او « المصريات » ، وكلها مؤلفات مجهولة لمؤلفين من الصف الثاني تكفي أسماؤها للدلالة على نزعتها . وهي ، من حيث فقدان عقدة القصة فيها ، قد حيرت القارئ ، بإدخال الخيال على الواقع ؛ وسامت على عيائه من حياته اليومية ومن رغبتة في الانفلات . فشقت الطريق بذلك أمام القصة الحقيقية التي لم تظهر إلا بعد زمن . ومنذ القرن الأول أقدم شاعر لم تصلنا قصائده ، هو بارثانيوس الذي اقتيد أسيراً الى روما ، على تأليف « آلام الحب » ، وهي مجموعة نثرية من ٣٦ قصة نقلها عن مؤلفين مختلفين . وقد قصد من وراء ذلك تقديم مواضيع رثائية لشاعر روماني نعم هو بمجايته . ولم يكن هذا الشاعر الروماني اوفيد بالذات : واذا حقق هذا الاخير هدفاً ماثلاً ، فان ذلك لدليل على النجاح الذي احرزه المشال الأدبي الهليني لدى المؤلفين اللاتين . ثم ان معظم هذه القصص قد حلت عقدها حلاً مسرحياً ، وان هذه المجموعة ، التي احتل فيها العشق مركزاً كبيراً ، لخليقة بأن تعتبر تمهيداً للون الحكاية . لجل انها في الحقيقة تبشير مترددة وركيكة أدبياً ؛ ولكن الأدباء الذين تعرضوا لها لم تعوزهم الرغبة في التجديد ، لا ولا الاحساس الثاقب بكل ما من شأنه ان يرضي جمهوراً كبيراً .

أما الشعر فيبدو أفضل تمثيلاً .

الشعر ليس من الأهمية بكان في الحقيقة ذلك اللون الشعري الجديد ، او المجدد بالأحرى — إذ ان العهد القديم قد اعتمده علم الأخلاق وللأهوت المرتبط بالعلم حينذاك — والمتلائم مع أوساط فكرية توسع الروح العلمية فيها نطاقه الى أبعد حد ، اعني به الشعر التعليمي المخصص لعرض المعارف العلمية . فظهرت قصائد من هذا اللون في مواضيع الزراعة — ودعيت « بالجيورجية » (الفلاحية) — والطب والنباتات المدّعة لتحضير العقاقير والتعابن السامة . الخ ... ولكن مؤلفاً واحداً ، بين هذه المؤلفات جميعها ، قد عرف شهرة عظيمة وأثار حماس أجيال كثيرة حتى في روما نفسها ، اعني به ذاك الذي خلّفه اراتوس الكيليسي السولي المنشأ . فلم يصلنا من

هذا اللغوي الذي نشر مؤلفات هوميروس وعلق عليها ، ومن هذا الرواقى المغرب الى الملوكة الذين تباروا في محاولة اجتذابه دون جدوى رابقتاه في بلاطاتهم ، سوى قصيدتين فحسب : الاولى في علم الحوادث الجوية ، والثانية ، وهي الأشهر ، وهو مدين لها بمجده ، اعني بها « الظواهر » التي تصف النظام السماوي مفسرة إياه وفقاً لنظريات افدوكسوس الفلكية التي كان قد فات زمانها حين تموضعها في النصف الاول من القرن الثالث . اما النظم فيتمصف بالمهارة وستى بالظرف ، وتستوقف القارئ احياناً بعض الاستطرادات الخرافية والفلكية او البحرية . ولكن هذا الانتباه لا يلبث ان ينهكه العياء في كافة المقاطع الاخرى التي يتعاقب فيها هذا القدر من الأبراج دون ان يبرز مرة واحدة ، لدى المؤلف ، أقل تأثير شعري عميق يجيش به مثل هذا الموضوع حتى للعالم . وان الاعجاب الاجاعي الذي أثاره هذا المؤلف العبوس الجلاف ، حتى في أوائل القرون الميلادية ، لسرّ مغلق لا يمكننا إدراكه .

نرى الجهد والمعارف الجدية ، الاسطورية او الشاملة ، في مؤلفات شعراء آخرين لم ينضب الهامهم بسبب ذلك . وهؤلاء هم شعراء البلاط او الندوة . تغذوا بالنظريات الجمالية والمطالعات المختلفة ، فأحيوا الكتابة التي بالغوا فيها ، حتى الغموض احياناً ، رغبة منهم في جعل القراء يشعرون بلذة ادراك معناها . اما مثلهم الهزلي ، على هذا الصعيد ، فهو ليكوفرون - ولكن أي ليكوفرون ؟ ومتى أُلّف ؟ أفي أوائل القرن الثالث ام في اوائل القرن الثاني ؟ - الذي وفر كتابه « الكمندرا » ، وهو مجموعة نبوءات اسندها الى « كستاندر » الطروادية ، للمفسرين القداماء ولعدد اكبر من المفسرين المعاصرين ، سلسلة من الأحاجي المستعمدة . ولكن الإيمجاز يفعل فعله ، عند افضلهم ، كما ان خالص ظرفهم ورقة ابتكارهم لا يبقيان دونما تأثير .

ان اطرفهم دون منازع هو كليماخوس الذي حدّد له اللاجيون معاشاً ، وهو فيلسوف كبير وشاعر بلاط ماهر ، في تلمّت الملكة ارسينوي وأخيها الذي هو زوجها ، بطليموس فيلدلفوس ، وفي التغني به « شعر بيرينيس » ، ولكنه الى ذلك مؤلف أناشيد ومراتٍ وملاحم صغيرة وأهاجر ولواذع . كان شغفاً بالأساطير والحوادث المجهولة ، يبذل الجهد في اكتشافها في الأدب القديم وتقاليدته المحلية ، ويصل بينها وبين نشأة مدينة او عائلة او احتفال غريب . فقد درج على القول : « لا أسلك طريقاً تسير عليها الجماهير ، ولا اشرّب من ينبوع عمومي ، فكل ما هو عمومي تقز منه نفسي » . ولكن هذا الباحث عن الغرائب كان عالماً بأصول الوزن وماهرراً في إيجاد التعبير النادر ومتمتعاً بمخادقة خارقة . اجل يجوز ان نأخذ عليه عدم تلقائته لأنت ابتكاراته على كثير من الأرابية والتصنع ؛ ولكنه يثير الاعجاب ابدأ بروثته ويحدث ، في افضل ما سلم من مؤلفاته ، الأناشيد الموجهة الى بعض الآلهة على الطريقة الهوميروسية ، ان يعبر عن عاطفة دينية ليست بالمعاطفة المتكلفة . واذا كان نفسه قصيراً ، فان في قصائده الصغيرة لطابعاً وسحرأ .

بعد قطعة صاخبة ، وجه سيل من التهمك الى احد تلاميذه ، ابولونيوس الذي أراد الانتساب

الى « رودس » ، على الرغم من ولادته في الاسكندرية ، امتثاناً منه لحسن الرفادة الذي صادفه في هذه المدينة حين اضطر لمفاداة البلاط اللاجي . اما سبب المأساة فهو بالضبط ملحمة « الارغونوط » التي بدت ألبانها الستة آلاف وكانها لا نهاية لها في نظر الاستاذ الذي تباهى بكرامته « للقوائد الطويلة طول الأنهار » . وقد روى ابولونيوس فيها مغامرات رحلة « جازون » ورفاقه ، على المركب « ارغو » ، الى بلاد « الكولخيد » ، بحثاً عن الجزرة الذهبية . فاستخدم يجد أساليب الملحمة الهوميروسية وأدخل على روايته ، عند كل ساحة ، معطيات فلكية وجغرافية وطبية أو سحرية ، وعرض بتفاخر تقنية وعلماً في غير محلها . أما ما يشفع بالمؤلف ويسمه بطابع جديد ، يؤسفنا ان يكون كلياخوس تنكّر له ، فهو شخص « ميداي » ودقة التحليل السيكولوجي التي امتاز باقناتها في وصف تكوّن الحب وصراعه واضطرامه وانتصاره النهائي في هذه النفس الغفلة والحياة معاً .

أقام ثيوكرت السيراكوزي في الاسكندرية أيضاً - ولكن لمدة أقصر على كل حال ، لأنه عاش في كوس أيضاً - ، واذا هو امتدح بطليموس الثاني وبيرينيس ، فانه لم يهمل طلب حماية سيد وطنه ، هيرون الثاني . لم يصلنا منه ، بالإضافة الى بعض الاهاجي ، سوى مجموعة من المختارات يبلغ عددها الثلاثين تقريباً تعرف باسم « قصائد زهرية » . ولا يعني هذا الاسم سوى « قصائد صغيرة » ، ويعود الفضل للنجاح الذي أحرزه بعضها في صفة « الراعية » التي أضفيت اليها فيما بعد . وانه لنجاح حلال في الحقيقة . أجل لم يخلق ثيوكرت لوناً جديداً لهذه القصائد ، واذا ما وجدنا القوة وطابع المأساة أحياناً ، فاثناً نلس ، أحياناً أخرى كثيرة ، بعض التفه لدى أبطاله الريفيين الذين أرضوا بعض المفرطين في الرقة الشغفين بالحياة الريفية . ولكنه ، بالإضافة الى مهارته في نظم الشعر واتقانه الهجات - الايونية والدورية والايولية - المتنوعة التي يظهر التصنع في استعمالها ، معجباً صادقاً بالطبيعة ، يحس بالعاطفة الدينية الشعرية التي تنبعث منها ، وقادر على الشعور بعدوتها وشهواتها وفظاظاتها وعلى إظهارها للقارىء بفن بالغ في الدقة . ومن الخطأ الاعتقاد بسذاجته . فان سحر الطبيعة التي يحن اليها في المدينة يؤثر فيه تأثيراً قوياً ينفذ الى اشعاره . ومن شأن التصنع الاصطلاحي الذي لم يتمكن مقلدوه الكثيرون التخلص منه ، ان يزيد ، بالمقابلة ، من حدة الاحساسات والمواطف التي لم تقض عليها أبحاثه حكاديب نبيه جيداً .

بدلاً من تعداد أسماء أخرى لمؤلفين كثيرين ولؤلئات كثيرة أيضاً ، نرى الاقتصار ، بعد هؤلاء ، على لون يميز نجاحه وصنعمته التقنيه وطبيعته نفسها الشعر الهليني المتوسط تمييزاً كافياً . سبق لكلياخوس وثيوكرت ان ألفوا أهاجي قصيرة ، فحذا حذوهما كثيرون . واشتقت هذه القطع الشعرية من الكتابات القياسية التي درج على حفرها منذ زمن بعيد على المدافن أو النذور واستوجبت مهارة كبرى للتعبير عن عاطفة لها قيمتها في أشعار معدودة وللإبقاء على بدايتها .

ولم يكن الحدائق قليلي العدد ، لا ولا القراء المستعدون لتقدير مجازاتهم حق قدرها . لذلك ظهر من هذه القطع عدد لا يحصى في جميع المواضيع : الغرامية ، والتذرية ، والمدفنية ، والاخلاقية ، والجدلية ، الخ . وظهرت حتى القطع الوصفية المكرسة لأحقر واقع أحياناً ، واقع المهن وادوات العمل مثلا . وألّفوا منها مجموعات مختارة ظهرت أولاها باسم « التاج » في أواخر القرن الثاني ، ثم خلفتها بعد ذلك بزمن بعيد ، في بيزنطية ، المختارات البلاطية . أجل ليست هذه المختارات بال مؤلف الكبير ، ويستحيل مطالعتها مطالعة متواصلة . ولكنه من المستطاب ، بفضلها ، استعادة ذكرى البيئته « الاسكندرية » مع رشاقتها في الكلام والوزن وبراعتها في الابتكار وثقافتها الواسعة وسحرها وروح نكتتها ورقمتها الشهوانية أو الشفوقة .

المسرح والمهزلة الايمائية
أظهر علم اللغات المكائنة التي احتلتها المسرح في الحضارة الكلاسيكية والروائع الشعرية التي تدن له بوجودها . فحاولوا استعادة نفس ذلك العهد العظيم بمحاولة تأليف التمثيليات الفاجعة أو المأساوية الانتقادية . وامتنح كليمخوس قلبه فيها وأحرز سبعة مؤلفين غيره ، في نظر الاختصاصيين ، شهرة كافية لضمهم تحت اسم « الثريا » . اتقن هؤلاء جميعهم درس نماذج الزمن الماضي ؛ واكتشفوا مواضيع مهمة في الميثولوجيا السنتي تفوقوا على كل من سواهم في فهمها أو في التاريخ البعيد - كان هنالك تيمستوكليس - والقريب ؛ ولم تعوز الارابة واحداً منهم . بيد ان واحداً منهم لم يتوصل الى ان يبعد الى المأساة حياتها وان يفرغ في قالبها إلهاماً مبرزاً . فما زالت تمثيلات أوربيد تستأثر بالنجاح وقد أعادت تمثيلها في كل مكان الجمعيات « الديونيسية » في البناء الضخم التي حرصت كل مدينة على تشييده . ولندكر هنا ان « كاهنات باخوس » قد مثلت في السنة ٥٣ قبل المسيح في اراكسا ، عاصمة ارمينيا ، مناسبة عرس ابن ملك الفارتيين وشقيقة الملك الأرمني ، بحضور الملكين : كان هذان « البربريان » المعجبان بالحضارة الهلينية يلجآن اذن الى أوربيد والى المثليين اليونانيين لاعلاء شأن الاعياد السلافية . فهل من برهان أفضل على انتشار الحضارة اليونانية وعلى جاذب المأساة التي هي أكثر ابتكاراتها تميزاً وعلى التوافق بين أوربيد والأجيال اللاحقة الذي استمر طيلة قرون وقرون .

أما المهزلة ، كما تصورها ارسطوفانوس ومعاصروه ، فأبعد من ان يمكن إعادة تمثيلها : فمن حيث هي انتقاد ملؤه التلميح الى الحوادث التي عاصرت التأليف ، يستحيل فهمها دون تفسير مستفيض . أضف الى ذلك ان لون المهزلة نفسه لم يكن لينسجم مع ذلك العهد . فان عنقها الجدالي وهواها الجامح يتناقبان واللطف الجديد الذي تحل به مجتمع هذب ذوقه تقدم الثقافة واليسار . وكذلك فان « المهزلة القديمة » تفرض ديموقراطية تعمي سيادتها وتحل بقسط من التساهل ترضى معه بان يُسخر من مناقشتها وبأن يوجه الانتقاد اللاذع حتى الى زعمائها : فقد زالت الآن هذه الظروف السياسية . فأصبح من الواجب ان تتطور المهزلة حتى تعرف البقاء ، وهي قد توقفت الى ذلك ، منذ أواخر القرن الرابع ، مع ميناندرس الاثيني الذي نعرفه اليوم

معرفة مباشرة ببلد وافرة وصلت اليها عن طريق البرديات وأخرى بلغتنا عن طريق الهزليين اللاتين، لا سيما « بات » .

تفسر شخصية ميناندروس نفسها أكثر من نزعة في مؤلفاته . فان الثروة التي أتاحت له ، في اليه ، الاستمتاع بمحبة بهجة ، دون الاضطرار للزول عند اغراءات بطليموس الثاني ، ليست بغريبة عن تقاوله المتساهل . بيد ان تقاوله هذا لم يخل من البصيرة : فقد كان على شيء من السخرية وحتى السوءاء أحياناً . ولكن جميع شعراء « المهزلة الحديثة » أحسنوا في الدرجة الأولى مراقبة وتصوير الحياة التي اكتنفتهم . فهل كانت عقد مهازلهم نفسها حقيقية؟ يجب علينا كي نعطي حكمتنا في ذلك ، ان لا ننسى ان أهال الاولاد ما زال حينذاك عادة سائدة وان المؤلف والمجهر لم يهتموا ، بصدد الخاتمة ، إلا لأن تكون ناجحة فحسب . وكان من الواجب ان تراعي الخاتمة الناحية الاخلاقية أيضاً لأن حياة غريباً فرض بعض المصطلحات : فليس من « حب يوناني » مثلاً ، على الرغم من أن الحب ، في غير مكان ، كان موضوعاً أدبياً كما يتضح من قصائد ثيوكرت الراعية ؛ وليس من زنى نسائي أيضاً ، واذا حدث أن سقطت إحدى الفتيات في زلة ، يجب ان تسمى الأمور في النهاية بالنهي هي أحسن . ولكن درس الطبايع والأمثلة الاجتماعية كان أم من المعقدة وطفورها السعني . فاقتبس ميناندروس طبايعه وأمثله عمن هم حواليه ، الاغنياء والفقراء ، الاسياد والعميد ، الشيوخ والشبان ، والبغايا والأمهات . ومن السهل علينا ان نتهدى حتى في مهزلة القرن الثامن عشر الى المزيد من ورثة الامثلة التي أوجدها : العاشق المتقلب ، السرف والحريص ، مستثمر عيوب الغير ، المتحدلق ، الطفيلي ، العبد الرجل والوقع . ولكن هذه الامثلة لم تكن عنده على شيء من التبسيط . فهو قد اهتم بها بعطف انساني ولون سيكولوجيتها بدقة وألف منها معرضاً بلغ من تنوعه وأمانته أن أحد المفسرين القدامى قد تساءل عما اذا كان هو الذي قلّد الحياة او الحياة هي التي قلّدته .

مارست صقليا واطاليا اليونانية منذ زمن بعيد لونا مسرحياً آخر يختلف كل الاختلاف ، مشاهدته قصيرة ، يقلّد المساة أحياناً ، لا ينطوي على عقدة ، يتصف باللفظاة الغنيقة وبالقدارة أحياناً . ومنذ القرن الخامس اقتبس بعضهم أشخاصهم عن الطبقات الشعبية الدنيا رغبة منهم في الاقتراب أكثر فاكتر من المشاهدين . فنشأ عن هذه المهازل المضحكة فيما بعد لون أدبي جديد ، هو « المهزلة الإيمانية » التي وضعت نثرأ في البداية وشعراً فيما بعد . فهناك ثلاث مهازل إيمانية بين « راعيات » ثيوكرت ، وأتاحت لنا البرديات بنوع خاص الوقوف على اثني عشرة منها لهروداس الذي يضيف اسمه سنى المهوبة الشعرية الى الشهرة الطبية التي يتمتع بها وطنه ، جزيرة كوس ، مركز مدرسة ابقراط .

اعتمد هيروداس شعراً « ذا وتد مجموع أعرج » اعتمده من قبل أحد هجائيي القرن الرابع . ولكنه لم يبعأ بالاخلاقيات ، جاعلاً من الواقعة شغل الشاغل . فان أشخاص مهازله الصغيرة

الذين لا يتجاوز عددهم الاربعة ينتمون الى الطبقة الفقيرة في حياتها اليومية : الام التي تطلب الى معلم المدرسة ان يضرب ابنها الشقي ، وزين الاسكاف ، و « السمسارة » التي تصرفها امرأة شريفة بدون غضب لا يبدي ، وغير ذلك مما هو أقيح. كلها تمثيلات صغيرة تفيض كلاماً مبتذلاً وقويحة وثرثرة وتدهش بمهارة الوصف . نرى فيها الحياة الشعبية البورجوازية كما هي في أيامنا تقريباً . فهل كانت هذه المهازل معدة للتشيل ؟ نحن نميل الى الاعتقاد بأنها أعدت للقراءة المسلية القمينة وحدها باكتشاف وتذوق النوايا الحفية التي تزخر بها ألاهي كاتب آثر على اللوحة الكبيرة لوحة صغيرة يستطيع اقتان كل جزء من أجزائها .

الخصامة

من نافل القول ان هذه الخلاصة ليست كاملة . ولكن الغموض الذي أملاه
 هموم ونجاح
 الحركة الفكرية
 علينا جهلنا أو ضرورات عرض الموضوع لم يستطع إخفاء طفوح ثروة الحركة
 الفكرية الهلسية . وقد حالت ثروتها في نفسها دون وحدتها . ويجب
 الاعتراف بأن التناقضات قد جزأتها . فهي قد أعجبت بروائع وحتى بمحاولات القرون
 الكلاسيكية التي حذت حذوها عن قصد ووفقاً لحطة مرسومة ، دون ان تتنكر لشيء من
 الماضي ؛ ولكنها عن قصد أيضاً المحرقت عنها بدافع بعض النزعات الجديدة . ومن حيث انها
 نعمت مادياً وأدبياً بمجاية وتشجيع النخبة ، فقد توجب عليها ارضاؤها بأفراط لم يكن مجرد
 إثرة ؛ ولكنها ارتكزت أيضاً الى شيء آخر هو أهم الى حد بعيد لأنه عملياً مرتكز كل النظام
 الهليني : ثقافة واسعة متوسطة كان عليها هي ان تدافع عنها وان تنشرها . وانتهت في القمة الى
 ندوات من هواة دقة الفكر وحدة التصور ، ولكنها لم تستطع إهمال الدرجات الدنيا من الهرم
 الاجتماعي ، - لأنها انتهلت منها في كل جيل قوى جديدة - تلك الطبقات البشرية المتزايدة عدداً
 وانتشاراً جغرافياً يوماً بعد يوم والمتتمعة باستعدادات وقابليات فكرية متنوعة جداً ، منذ
 التعليم الابتدائي تقريباً حتى مشارف أسمى المعارف وحتى تجارب ونشاط الواقفين على أسرار
 الفنون . فكان عليها بالتالي واجبات متشعبة : المحافظة ، والبحث عما هو جديد ، والتعميم في
 أفضل معانيه .

بيد ان اختلاف هذه المهام وتناقضها الظاهر على الأقل لم يشل عملها : فهي قد حاولت في كل
 مكان ونجحت في أكثر من حقل . فكيف نستطيع التنسيق بين قيم لا تخضع في جوهرها للقياس ؟
 ولكننا بالرجوع الى الوراء نرى ان أبعد نجاحاتها تأثيراً وفعالية وشهرة لعله في الحقيقة نجاحها
 في حقل التربية : فكل شيء في هذا الموضوع تقريباً ، باستثناء بعض المراكز المحظية ، كتب

بحاجة لأن يخلق خلقاً . وعلى الرغم من صعوبات الارتجال ، أعدت ووفرت الاطارات التربوية لجميع درجات التعليم ؛ فاستطاعت من ثم ، بفضل تعليم الوهوبين ، تأمين من يحل محل باعثيها أنفسهم . وبفضلها حافظ الاغريق أينا وجدوا ، وعلى مستوى كريم عموماً ورفيع جداً هنا وهناك ، على الثقافة التي كانت في الأساس من وحدتهم وعزمهم . أضف الى ذلك ان هذه الثقافة قد استألت عناصر بشرية جديدة : ومنذ عهد باكر أناب بعض البلديين المستغرقين من آسيا الصغرى وسوريا - فينيقيا عن اليونان القديمة . وبذلك استطاع رجال الفكر في العهد الهليني ، في آن واحد ، انقاذ ما أمكن انقاذه من الماضي وأنمو التراث الذي صار اليهم وحضروا المستقبل .

حضروا المستقبل في الشرق ، لأن الحضارة اليونانية ، التي استلمت بينظية إرثها فيما بعد ، لم يحافظ عليها إلا في الجزء المتوسطي من فتوحات الاسكندر . ولكنهم حضروه في الغرب أيضاً وبصورة أكثر جلاءً ، لأن العالم الهليني ، بسبب تفوق حضارته الفكرية والفنية معاً قد غدا مهذب روما .

القسم الثالث
آسيا الشرقية

آسيا الشرقية (من ١٤٠٠ الى ٣٠٠ ق.م)

تقاسم قطران في العصور القديمة رسالة اخضاع آسيا ، قطران يملكان قوى فعالة جبارة ، ولكن لكل منها أهواء وأساليب على طرفي تقيض : أنها الهند والصين . ولا حد لعوامل التباين بينها من حيث الشكل الجغرافي والأهداف والتطور . ومع أن كلا منها اتبع طرقه الخاصة فقد بقيا على اتصال لا بل تلاقيا مرارا - كما حصل في اندونيسيا - ولكن اختلفت أساليب توسعها حتى استحال على المرء ان يقارن بينها او يدرس في وقت واحد مراحل حضارتها . لذا سنعمد ، حبا بالإيضاح ، الى تحديد مدى كل منها ، والتدقيق في خصائصها الأساسية .

ان الهند^(١) قوة تحضيرية تدبج كما يبدو من طبيعة أرضها. وتفضل الهند ان تستعمر سلما، مع أنها عرفت حوادث دامية في مختلف مراحل تاريخها . وان الشبه الذي يظهر منذ طور ما قبل التاريخ بين الهند وبلاد آسيا الجنوبية الشرقية يستند في العصور التاريخية الى تعامل تجاري اتسع مداه مع الأيام ، وهجرة تزايدت فأنتجت من ثم أجيال خلاسين ، ودعارة دينية لخمها احترام الغير وسداها التسامح . وأخيرا هناك تأسيس « ممالك » مستقلة حسب النظم الهندية ولكن بشكل يتفق مع المحيط الذي قامت عليه . وهكذا فقد تدخلت الهند - ولكن على درجات متفاوتة - في برمانيا ، وفي معظم أجزاء الهند الصينية وفي جزر سومطرا وجافا وبالي الهندونيسية ، لا بل حتى في السيليب وپورنيو . وفرضت الهند نفسها بخاصة بتفوق ثقافتها

(١) اننا نشكر للسفارة الهندية الجليلة في بيروت حسن التفاتها لمساعدتنا عليها على نقل الاسماء الهندية التي وردت في هذا المؤلف الى اللغة العربية نقلا دقيقا من حيث اللفظ والكتابة . ونغتنمها ساحة سعيدة للشيد بلطف أحد ابناء سرها السيد راج لما أبداه نخوعا من عطف .
التاسر

ولكن عجزت عن الاستمرار طويلاً أمام كثر التقاليد الوطنية المحلية التي عرفت حياة جديدة .

واختلفت أساليب الصين اختلافاً كبيراً : فهي تخضع البلاد حربياً و تفرض عليها قوانينها وعواندها وديانتها ولغتها وكتابتها . وليست السيطرة بعرف الصين حصيلة تدخل وتسلل بل نتيجة غزو كامل تفرض معه ، وبالغنى ، مجموعة من النظم متناسقة تتوافق مع تقاليد وأخلاق الشعب المغلوب على أمره . ولم يجبر الذين أخذوا بعظمتها وبأسها وأرادوا حذو حذوها على تبني حروبها فقط بل أيضاً على تقليد نظمها وأساليب ثقافتها .

ولكن هناك مع هذا مناطق تقابلت فيها الصين والهند وتشابكت فيها آثار حضارتهما : كالهند الصينية ، ويدل بوضوح هذا الاسم المركب على اقتسام البلدين مناطق نفوذ هناك ، والتركيستان الصيني الذي قدر له تاريخياً ان يبقى دوماً مر عبور ، والنيبال حيث تشابكت الثقافتان بشكل يثير الإعجاب ، والتبت التي تستمد عناصرها الدينية والفنية من هذه الحضارة وتلك . وهناك مناطق عدة تبعد كثيراً او قليلاً عن حدود البلدين تثبت تفوق حضارة الهند او الصين فيها إن دقق المرء في خصائصها . وغدت الديانة البوذية أقوى عناصر هذا التلاقى ، وقد ولدت في الهند في القرن السادس ق.م . وأصبحت من أهم عوامل التوسع الهندي . وقد اقتبلت الصين البوذية في القرون التي تلت العهد المسيحي .

ولم تنفصم دون شك عرى العلاقات بين آسيا الشرقية والغرب طوال هذه الفترة التي حددوها اعتباراً من سنة ١٢٠٠ الى سنة ٣٠٠ ق.م . ولكن آثار هذه العلاقات هي أشد غموضاً وأقل عدداً من آثار الفترة السابقة حيث سجلنا نارة تسلل حضارة بلاد الرافدين الى زميلتها « حضارة الهندوس » وطوراً علاقات الصين في طورها السابق للتاريخ مع اوربوا الشرقية .

الفصل الأول

الهند

قد لا يقدرّون في الغرب أهمية الحضارة الهندية حق قدرها .
فهي رأّت ديانتين من أهمّ ديانات العالم تترعرعان على أرضها :
خصائص الحضارة الهندية الأساسية
البرهمانية والبوذية . ولعبت الهند في آسيا الدور الذي قامت به بلاد اليونان في أوروبا . ونسبة
إلى الحضارات القديمة التي تعدّ الحضارة الهندية جزءاً منها اذنبات في زمن مجدونه تقريباً ما بين
سنة ١٥٠٠ وسنة ٨٠٠ ق . م . فإن لهذه الحضارة صفة استثنائية اذ هي لا تزال حية حتى
أيامنا دون ان تتخلّى عن خصائصها الأساسية التي عرفت بها منذ أوائلها التاريخية ، ان « المعامرة
الهندية تتتابع أمام بصرنا اذ هي لا تستند فقط بكلّيتها الى الماضي السحيق ، كما يجد مصر
وبابل الميتة » (ب . ميل P. Melle) . ولهذا الديمومة بعض الاسباب التي يجدر تحديدها والتي
بدونها يصعب فهم تطور الهند القديم و تجددتها المستمر على مر القرون .

هناك ثلاث صفات رئيسية تحدد الهند وتفسر نوعاً ما هذه الديمومة : فالهند تحب التقليد
وهذا ما يسمح انتقال العادات من السلف الى الخلف دون تحوير ؛ وهي تصبو نحو الوحدة مع ان
التعقيد والتناقض هما من مقوماتها ؛ وهي تهوى التشريع والتصنيف والتقسيم ، وهذه عوامل
تهيّب بها الى اعتبار أعمال كثيرة تبدو شديدة الاختلاف كأنها أمور طقسية بما يخلق بينها من
ثم تجانساً أصيلاً . ولم تظهر هذه الخصائص بمثل هذا الوضوح منذ بدء تكوين الحضارة الهندية .
ولكننا نلاحظ تكوينها رويداً رويداً منذ عهد قديم ، ونشاهد تطورها بصورة حتمية نحو
القصد الذي يوافقون عليه في زمن لاحق ، لا بل نراها تتحد اتحاداً وثيقاً مع مجمل العناصر
الثقافية ، حتى انه يصعب جداً تحديد زمن ظهورها ومراحل تطورها .

ان للتقاليد في الهند قوة عظيمة يصعب على رجال الغرب ان يدركوا مداها . وهكذا فإن
النصوص الأدبية التي ترتكز عليها النظريات الهندية قد ألفت دون شك منذ عهد قديم جداً ،
وبقوا يتوارثونها بصورة شفوية مدة يعجب المرء لطولها قبل ان توضع كتابة . وان جرى في

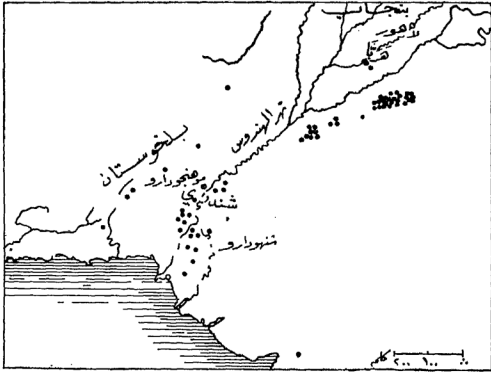
هذا المجال بعض التحوير، فانه يماثل دون زببة التحوير الذي تعودنا رؤيته في مضمار الفن الهندي أي أنه يظهر رويداً رويداً ، وقد حور شيئاً فشيئاً الموضوع الاولي ، ولكنه أبهى طوال آلاف من السنين على كنه الموضوع الأساسي .

أما اتجاه الهند نحو الوحدة فانه ينمو مع الزمن . ويفقه الفكر الهندي بدقة وسرعة صفة الكثرة والتعدد التي تشمل كل شيء . ولكن بدل ان يتكرر لها ! ويجوها الى مجار اخرى بقصد اذابتها فانه يكتبني بملاحظة نتائجها وكتابة بيانها . وهو يجد بين أجزاء هذه الكثرة عروة وثقى : أي الوحدة الإلهية . وهو يفسر هذه الكثرة بأنها تماوير مختلفة لنفس المبدأ الموحد . لذا سعى طوال القرون ان يصنف كثرة المظاهر في فئات محددة المعالم تصبح كلها متماثلة في الاصل . هذه هي حالة الزون الهندي يدور سكانه الإلهيون الذين لا حصر لهم ، في فلك بعض الآلهة الكبار ويصبجون من ثم تماوير مختلفة عنهم ، هذا مع العلم بأن هؤلاء الآلهة ليسوا إلا تجسيداً للكائن الأوحده .

ويستند طبعاً هذا الاتجاه نحو الوحدة على وجوب حصر كل المجتمع الإلهي والانساني ضمن القوانين . وخير مثال في هذا المضمار هو وجود الطبقات ، وهذا مظهر اجتماعي يختص بالهند ، لا سيما في الشكل الذي يرتديه : فالكلمة فرنا Varna ، أي « اللون » تدل بوضوح على المشكلة الاجتماعية التي يستند اليها التقسيم الطبقي والذي كان يقابل الغزاة المتسبين الى الجنس الابيض والمواطنين الأصليين ذوي اللون المشبع . وقد طبقت أولاً هذا المبدأ ، في مراحل التطور التاريخي ، على فئتين من الأشخاص ، هما طبقة رجال الكهنوت ورجال الحرب العلمانيين . ثم طبقوه على فئة ثالثة - فئة « الرجال الأحرار » - وعلى فئة رابعة - فئة « الفلاحين » - وتشعب أخيراً هذا المبدأ على أساس المهنة او الوظيفة ، وذلك بصورة حصرت تدريجياً مع الزمن حتى اعتبر الذين لم يصنفوا في طبقة ما بسبب « دنسهم » المفترض كمنبوذين . وان كان يبدو بأنهم لم يضعوا تدابير في غاية الشدة في بدء الديانة الهندية بين أفراد الطبقات النبيلة ، وإن سمحوا فيما بعد بالتزاوج بين أفراد ينتمون الى فئات مختلفة ، نشهد مع هذا اتساع ذلك المذهب حتى غدا تشريعاً جامعاً شمل مختلف تعاليم ما وراء الطبيعة والسنن الكونية . ونستطيع ان نتخذ أمثلة على وجهة النظر هذه من مختلف مرافق الحياة ، نسردها مثلاً مجال الاشارات « المتكلمة » (مدرا ، هستا ، أسانا الخ Mudrā, Husta, Asana) الذي يثبت لنا هذا التصنيف المسند الى الفنون الطقسية . انها اشارات طقسية عندما يقومون بها أثناء تقديمه الذبايح ، وتستمر على صفتها هذا إن نفذت أثناء الرقص او على خشبة الملهى ، او في فن الرسم الإلهي ، او في المواضيع المنقوشة والملوثة . ان الطقس الديني يشمل بصورة عملية أقل نشاط في العالم الهندي ، إذ لا وجود للشخص او للشيء إن لم يحمل اسماً (نام Nama) . ويدخلهم هذا الاسم ضمن حلقة يحدد جوهرها أحد الطقوس : وهكذا يستطيع المرء الذي ينتمي الى طائفة الغساليين ان يقوم بأي مهنة اخرى

شرط ان تغطي عليها صفة النساليين؛ فهو كآمن أقل شأنًا من غيره لأن مهمته مبتدئاً هي غسل الحرق التي تصبح وسخة أثناء الحفلات الطقسية .

لذا غدا لزاماً على المهنود ان يحددوا بكل دقة جميع الأنظمة التي تمت الى طقوس العبادة . وهذا ما سعت اليه كتب الأدب الهندي الكثيرة منذ مجيء الآريين حتى عصرنا الحاضر ، خصوصاً المؤلفات (شاسترا) التي تعنى بهذه الناحية التقنية او تلك . ومن العبث والحالة هذه



الشكل ٣١ - الهند في الزمن السابق للآريين . الحضارة المدعوة حضارة الهندوس .

اذن ان يسعى المرء لتفسير الحوادث الهندية خارجاً عن معانيها التقليدية ، وجلّ ما نستطيع القيام به هو ان نطبق على هذه المعاني أسلوب بحث علمي .

هناك عامل يجعل من هذه الدراسة مسألة دقيقة جداً : أذ لا يقيم الهندي تحديد الوقت والاصول
وزناً لمشكلة تحديد الوقت كما يفهم الغربي هذا الامر . ولماذا يهتم لهذا الشأن إذ ان لا قيمة للحياة الانسانية ولسرد متطلباتها إزاء السعي للوصول الى الكائن المجرد ، هذا السعي الذي تأمر به ديانة الهندي ومبادئه فلسفته ؟ وعلى من يريد دراسة إطار الهند التاريخي ان يكتفي ببعض المعلومات تكون كالأروم ، أو المقارنات مع حوادث لا تمت الى الهند ، أو

التخرصات أو الاستنتاجات. وان لم يرد التحيز عليه ان يبدي الكثير من أصالة الرأي ويكتفي غالباً بتخمينات تقديرية .

ولا يقدم لنا علم الآثار معونة تذكر حتى القرن الثاني ق . م . هذا ان استثنينا بعض آثار وادي الهندوس التاريخية . إذ لم يتصل بنا أي أثر من مواد صلبة يعود الى ما قبل هذا التاريخ الذي يتفق مع التفتح الأول للفن البوذي . ويظهر بأن استيطان الآريين كان سبب قهقري لفن البناء إذ لا نجد شيئاً مماثلًا لمدينتي موهنجو - دارو وهرابا Mohenjo-daro Harappa . وكانت مباني عهد الديانة الهندية الأولى من خشب وأجر ، ولم يبق لها أثر نسبة لطبيعة أرض ومناخ الهند . وما يثبت هذا الظن بقايا قصر أسوكا في باتلپترا (القرن الثالث ق . م) . والمباني الحجرية الأولى في القرن الثاني ق . م . التي تقلد بصورة واضحة المباني الخشبية

ولوضع دراسة عن هذه الفترة الطويلة جداً التي تمتد من مجيء الآريين (قبل القرن السادس عشر) حتى القرن الثاني ق . م . يضطر المرء الى استقاء معلوماته من النصوص الأدبية . ويطلق على هذه النصوص اسم فيدا Veda « المعرفة » وهي مجموعة المعارف التي أتت بها الآريون والتي ازدهرت رويداً رويداً على الأرض الهندية . وتستند هذه النصوص الى وحي هبط على الحكماء (ريشي Rishi) ونقلوه الى الخلف . وهي تقسم لثلاثة أسما : سمهتا Samhita أو « مجموعة » وهي تحوي خصوصاً على أناشيد دينية وصلوات وعبارات طقسية ؛ برهاما Brāhmana « شروح » أو تعليقات لما جاء في « السمهتا » ؛ وأخيراً أبنشدا Upanishad أو « دروس » لها صفة السر . وتضاف الى هذا كله الفيدانتا Vedānta أو ملحق للفيدا يوافق مضمونها التقليد والتي لا يزالون الى يومنا هذا يضيفون عليها .

ومن المجال تحديد تواريخ لأجزاء فيدا المختلفة إذ وضعت معظم النصوص وانتقلت الى الخلف بصورة شفوية وذلك حتى عهد قريب (القرن الحادي عشر المسيحي)؟ . ويجمعون على القول بأن السمهتا هي الأقدم عهداً ، وتعود الأفضلية في هذا المجال الى الريفيفيدا Rigveda التي تحتوي على عشر « حلقات » (مندولا Mandala) ، هذا مع العلم بأن الحلقة العاشرة هي الأقل قدماً من زميلاتها . وتعيد اليجرفيدا Yajurveda والسامففيدا Samaveda مقاطع عدة من الريفيفيدا مما يدل بأنها ظهرت بعدها . ومما لا شك فيه بأن الأتهرففيدا Atharvaveda التي تحتوي على عبارات سحرية هي أحدثهم عهداً . وان كان يمكننا ان نعيد تاريخ أقدم فصول السمهتا الى عهد وصول الآريين ، أي ما بين سنة ١٦٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق . م . فقد يبدو ان البرهمانا والابنيشاد لم تظهراً إلا في الفترة التي تتراوح ما بين القرنين العاشر والسادس ق . م . ثم رأت النور نصوص السوترا sūtra التي تعد جزءاً من الفيدانتا والتي ترتقي الى ما بين سنة ٤٠٠ وسنة ٣٠٠ تقريباً ، وهي سبقت بقليل الآثار الأولى للفن البوذي . ولكن نعود الى القول بأن هذه التواريخ ليست إلا تقديرية .

اللغات والمخطوط
 كما طغا الغزو الآري على كنه بلاد الهند العريق السابق ، هكذا فرض هذا
 الغزو لغته التي غدت بعد فترة قصيرة ، كما يظهر ، اللغة الكهنوتية : أعني
 السنسكريتية . ولا تزال قائمة عقدة معرفة لغة البلاد التي غلبت على أمرها . فهناك اعتقاد ، لا
 يرتقي الى عهد بعيد ، بأن هذه اللغة تمت الى اللغة الدرافيدية ان لم تكن شكلها الاسامي اذ
 لاحظ بعضهم وجود لغة درافيدية في عصرنا الحاضر في بلاد بلوخستان ، أعني اللغة البراهوي
 Braha التي تكتنفها من كل جانب اللغات الهندو - أوروبية . وبعد ان فصمت جحافل الآريين
 العرى بين هذه اللغة وأصولها ، غدت البراهوي شاهداً حياً على وجود لغة سادت ، قبل مجيء
 الآريين ، على جزء كبير من شبه الجزيرة الهندي .

وقد جلب الآريون أنفسهم اللغة السنسكريتية ، لغة فيدا ، وهي تعد الفرع الهندي من
 المجموعة اللغوية الهندو - أوروبية . وفي النصوص الاشد قديماً (الزيفيدا) تقسم لنا اللغة
 السنسكريتية القديمة تشابهاً بارزاً مع لغة افسته الايرانية ، تشابهاً يستمر ولو مجزئاً في النصوص
 الاخرى . ولكن يوجد اختلاف واضح بين اللغتين القديمة والاقستية بسبب التجديبات . وفي
 هذا المجال كما في مجالات كثيرة أخرى وفقت الهند بين الجديد والقديم وأثحت لها الاستمرار
 معاً مما ولد تعقيداً يدعو غالباً الى الدهشة .

والسبب هو نفسه الذي نجد دوماً والذي يظهر خصائص الروح الهندية : فالسنسكريتية
 هي لغة كهنوتية تحصر مهمتها في التعبير عن فكرة موجهة ذات أهداف سحرية .
 فلشكل أهمية اكثر من المعنى ، وللمعنى السحري أفضلية على معنى الكلمات ، وتخضع
 الكلمات لترتيب رمزي معقد (ل. رنو Em. Renou) . لذا نجد بكثرة التماييز القديمة وذلك
 حرصاً على عدم مس التقاليد مع ما هنالك من ضرورة ملحة للتجديد .

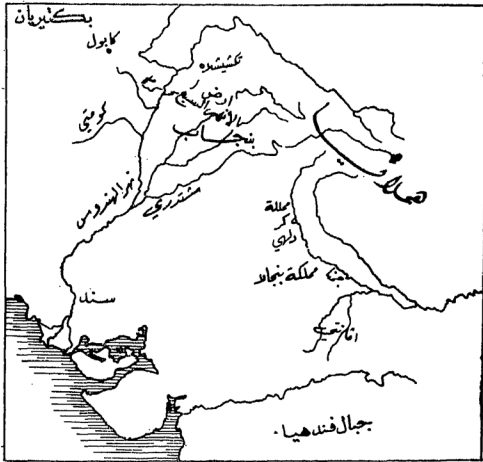
ولكن مع البرهانا تبدو اللغة السنسكريتية الكلاسيكية أكثر تحجراً إذ هي تستند الى
 قواعد محددة وكلمات دقيقة المعنى جداً . ومع الاوينيشاد تقترب هذه اللغة أكثر وأكثر من
 اللغة المتداولة . ولكن تجددت على حالها اللغة التي تكونت وقد وصلت البناء على أشكالها القديمة .

وبصورة موازية للسنسكريتية نجد عدداً كبيراً من اللغات الكهنوتية او العامية التي نشأت
 وعت وقد اشتق معظمها من السنسكريتية . ولكن احتفظ بلون محلي قد يكون أشد قديماً .

ويستعملون لكتابة السنسكريتية ٤٩ مقطعاً تحتوي على أحرف صوتية ونصف صوتية
 وغيرها ، وفي اللغة قواعد لتصرف الأفعال واعراب للأسماء . وهكذا فهي تدخل ضمن اطار
 اللغات الهندو - أوروبية وهي من ثم على طرفي نقيض مع اللغة الصينية التي ستأتي على
 وصفها لاحقاً .

يبدو أن انشقاقاً حصل ما بين القرنين الثامن عشر والعاشر ق. م. على حدود
 هضبة ايران الشمالية - الغربية بين القبائل الهندو - أوروبية التي كانت قد
 لغة تاريخية

استوطنت تلك المناطق . وكانت تطلق على نفسها اسم الآريين Arya أو Airya . ولا يزال الجدل يدور حول أصلها . والنظرية التي تلقى اليوم رواجاً تأتي بالآريين من روسيا الجنوبية .



الشكل ٣٢ - الهند البراهمانية قبل سلالة الموريا

وقد وصلوا الى ايران باجتيازهم القفقاز ، ودخل الآريون الذين انشقوا عن الفرع الابراتي الى الهند الشمالية - الغربية من منطقة ازيرستان الحالية او من وادي كابول ، وقد استوطنوا أول الأمر في البنجاب وهم الذين دمروا مدن وادي الهندوس ، خصوصاً موهنجو - دارو وهرابا ، وحصل ذلك حوالي سنة ١٥٠٠ ق. م .

واستناداً الى المعلومات التي تحتويها أقدم النصوص الفيدية التي يرجع عهدها كما يظن الى زمن استيطان الاوروبيين في الهند ، فقد سكن هؤلاء أول الأمر في المناطق التي تمتد من أنهر كابول وسوات Swat ، والكرُمُ Krumu (كورام Kurram) ، والغومتي Gomati (غومال Gomal) ، وبلاد الأنهر السبع في الشمال - الغربي حتى أنهر سرسفتي Sarāsvati

(سرسوتي Sarsūti) ، وشندري Cutudri (ستلج Satlej) ، واليمنا Yamuna (جمنا Gemna) شرقاً . وقد عرفوا شمالاً سلسلة جبال حلايا . وتذكر النصوص نفسها المحيط («مدرا Samudra») ، مما يحمل على الظن بأن الآريين عرفوا مجرى نهر الهندوس السفلي (السند Sindh) حتى مصبه الذي تخيلوه آتند في درجة عرض أرفع مما هي عليه اليوم . ولم يتقدم الآريون الا قليلاً نحو الشرق اذ لم يذكروا نهر الغانج Gange الا مرة واحدة . وحصل تقدم الآريين في هذه المنطقة الجغرافية المحدودة لانتصارهم في الحرب . وبعد ان انهارت كل مقاومة للسكان الاصليين اجبر هؤلاء على الخضوع لسيادة المنتصرين وأصبحوا لهم من ثم عبداً ، أو هجروا نحو الجنوب والشرق حيث سيخضعون للفتح الاوروبي في خلال القرون اللاحقة .

وبعد ان استقرت القبائل الآرية في منطقة البنجاب تألفت فكوئت أحزاباً ثم احدثت وأستت بمالك ، ومن المعتقد بأن هذه الأمور لم تقم دون معارك داخلية . وحوالي سنة ٨٠٠ ق.م (?) حيث ازداد تقدم الآريين نحو الشرق حتى انتقل مركز الثقل من البنجاب الى دواب Doab ، أعني الى المنطقة التي تمتد من سرسفتي الى ملتقى الغانج واليمونا . ولم يتم اخضاع هذه المنطقة عن تغلب الروح الآرية الا قليلاً اذ اعتبر السكان الاصليون كأنهم يؤلفون طبقة (فرنا : لون) وضيفة جداً . وباستطاعتنا منذ هذه الفترة ان نتحدث عن الممالك الآرية ، وقد غدت دولة الككرو (Kuru) أعظمها قوة وأشدّها مركزية . وقد تكون هذه المملكة قد أخضعت دولة البنكالا Pancala المجاورة وامتدت سيطرتها نحو الشمال - الغربي حتى وادي تكششلا Takshila (تكشسلا Taxila) ونحو الجنوب - الشرقي حتى ملتقى الغانج واليمونا .

ومن المقدر بأن تكون القبائل الآرية المستوطنة بين مجريي الهندوس والغانج قد بدأت تقدمها نحو الشرق حوالي القرن السادس ، فتأسست إذ ذاك بعض الدول والممالك في مناطق دلهي Delhi ، و « بلاد الوسط » (مدهيديشا Madhyadega) ، وفي اوده Audh (كوشالا Koshala و فيدها Videha) ، وفي البهار الجنوبي Bihar - (مغدھا Magadha) : وامتدت هذه الدول أيضاً جنوباً حتى جبال فنديا Vindhya وملكت معاً مدناً مهمة عدة منها كوسمي Kanagmbi على اليمونا وكاسي Kasi (بنارس Bénarès) على الغرنافي Varanāvati .

وبعد ان سعت مملكة الككرو (دلهي) في العهد السابق لبيسط سيطرتها حاولت الوصول الى الرئاسة ، وسعت للسيادة دولة مغدھا (البهار الجنوبي) وكانت قد تشربت أقل من المناطق الغربية الروح الآرية وبقيت متصلة فيها الخصائص الوطنية الأصلية حتى اعتبرها الآريون منطقة شبه بربرية . وأخذت على عاتقها الاستيلاء على حوض الغانج في الفترة التي تتراوح بين القرنين السادس والرابع . وفي هذا الوقت تغلبت سلالة الششناكا Cishnaka الآتية من أفانتي Avant (أعني من مملكة العهد الآري السابق التي تقع في أقصى الجنوب) على سلالة البرهدرتا

Brihadratha التي لا نعرف عنها في الواقع أي شيء . وأخضع ملوك السسوتاغا - ولا نعرف جيداً منهم إلا الملكين بيميسارا *Bimbisāra* (٥٣٨ - ٤٨٦ ؟) وأجاتشتر *Ajātaśatru* (٤٨٦ - ٤٥٤ ؟) وذلك للدور الذي لعباه في الأدب البوذي - البنغال ومنطقة كامبي (بنارس) وكوسالا (اوده) وفيدها (بهار الشمالي) . وبعد ان سيطرت مملكة مغدها على منطقة واسعة يؤلف مجرى الغانج محورها نقلت عاصمتها من راجغريها *Rajagriha* الواقعة في البهار الشمالي الى باتلبترا *Pataliputra* (باتنا *Patna*) على ملتقى السون *Sone* والغانج . وفي أواخر القرن الرابع ق . م . استبدل السيسوتاغا على عرش مغدها بالنندا *Nanda* . وسيتابع هؤلاء العمل التوحيدي ويستفزع عنهم الموريا *Maurya* الذين سينجحون حوالي سنة ٣٢٠ بتأسيس أول امبراطورية هندية .

وبينا كانت مقاطعات الهند الآرية الشرقية تسعى لتنظيم نفسها واكتساب وحدتها ، غدت المقاطعات الغربية عرضة لتهديد غزاة جدد: اذ أخذت الامبراطورية الفارسية على عاتقها إخضاع المقاطعات التي على حدود مملكتها وذلك أيام كورش (٥٦٠ - ٥٣٠) الذي استولى على كابيشا *Kapisa* (منطقة كابل) ثم زمن داريوس (٥٢١ - ٤٨٦) الذي ضم الى مملكاته الجديدة غندهارا *Candhāra* (منطقة بشاور) وبجمل بلاد بنجاب الوسطى حتى بياس *Bias* ، وأخيراً السند . وأصبحت هذه الحوادث بدء عهد اضطرابات أبقت مناطق الهند الشمالية - الغربية زمناً طويلاً على هامش الحياة الهندية السياسية الحقيقية ، إذ دامت السيطرة الفارسية زهاء قرنين وأعقبها تدخل جديد هو غزو جيوش الاسكندر الكبير (٣٢٧ - ٣٢٥) الذي سنأتي فيما بعد على دراسة نتائجه (انظر وجه ٦٠٧) .

لذا نستطيع ان نعتبر حكم الملك بيميسارا ذا أهمية إذ يكرس توحيد مناطق شاسعة في الشرق بينا يخلق انشقاقاً اجبارياً في المناطق الغربية تتسرب مرة ثانية من خلالها التأثيرات الايرانية كما حصل ذلك عندما أتى بها الآريون أنفسهم . ولكن يحمل هذا العهد أيضاً طابع حوادث دينية وروحية واجتماعية ستستمر نتائجها وقتاً طويلاً إذ حصلت تغييرات أساسية في الديانة الفيدية بتأثير البراهمة الذي تزايد مع الزمن . وبمناسبة هذه الحوادث ظهر تشريع حصر الجماهير في فئات وطبقات . وفرض البراهمة مبادئ روحية صارمة أخذت تحد من حرية الأخلاق . وبالاختصار فان مجموعة الحوادث التي تتكون منها الحضارة الفيدية أخذت تتطور نحو تشريع شكلي أو جب سلسة من « الاصلاحات » . وتعددت المذاهب ، يعرض كل منها وسائل مختلفة تتعلق باحترام التقاليد والكهنوت ونبيل التحرر ... وفي عهد ملك بيميسارا ظهر رجلان يعلان لهدف واحد : شاكيمني *Caikyamuni* الذي أسس الديانة البوذية وذاك الذي يطلقون عليه اسم مهافيرا *Mahāvira* ، مؤسس المذهب الجاياني *Jainisme* . وقد وجد كل من هذين المصلحين العقول الهندية مستعدة لقبول تعديل فكري بخصوص المسائل التي كانت تطرح

أكثر فأكثر مع متطلبات الفرد. وهذه المشاكل كانت دون شك أساس تحرير التعليقات والشروح (البرهانا) والدروس ذي الصبغة السرية (الأوبنيداد) التي زادت على نصوص العهد السابق الفيدية، وهي التي مهدت السبل أمام شاكيني وأعدت له تجارباً لدى الأمة للمبادئ الخلقية التي كان يبشر بها ، هذه المبادئ التي اتخذت لها أساساً محبة جميع الكائنات. وعلينا ان نتخيل اذن هذا العهد – الذي يشمل تقريباً القرنين السادس والخامس – كطور يقظة روحية حقيقية تسير جنباً الى جنب مع مساع حثيثة نحو الوحدة السياسية واتصالات أكيدة مع الغرب . ومع هذا علينا ان نتنظر ردىاً من الزمن قبل ان نشهد التناقض الحقيقي بين التقاليد الفيدية والبوذية . ولا يظهر في هذه الفترة الاختلاف العميق بينها إذ لا تزال البوذية في مستهل عهدها ، وهي تعتبر مجموعة مبادئ روحية أكثر منها دينية ولا تنفي من ثم الزون الشعبي كما لا تتنكر بأي شكل لأسس الحياة التي كانت مقبولة . ولن تظهر هذه الاختلافات بوضوح إلا في القرون الأولى للعهد المسيحي عندما يجعل منها تحرير النصوص البوذية وتفتح الفن البوذي مادة ملموسة . ومع هذا تبقى هذه الاختلافات متمسة بالطابع الديني والاجتماعي دون المادّي .

الفصل الثاني

الحضارة الهندية قبل عهد الموريا

عندما دخل الآريون الى مقاطعات الهند الشمالية - الغربية - بين سنتي ١٦٠٠ و ٨٠٠ ق. م. - وجدوا هناك سكاناً أصليين استرعت انتباههم خصائصهم العرقية ، إذ توافقت جداً ولا شك مع طباعهم . فقد كان لهؤلاء السكان بشرة دكناء ، وجعل منهم هذا اللون (فرنا Varna) أشخاصاً محترقين في نظر غزاة بشرتهم ناصعة البياض . وكان أنف السكان الأفطس على طرفي نقيض مع أنف الفاتحين الأتني ، وتكلموا لغة « معادية » أعني لغة لا يفهمها هؤلاء . وأطلق عليهم سادتهم الجدد اسماً شاملاً هو « الدرافيديون » ولكنهم حملوا أسماء في غاية الغرابة : آجا Aja (الماعز) ، سفرو Cighru (فجل حريف) ، دازا Dasa أو دازيو Dasyu ، باي Pani . وكان اسم دازا من الاسماء الأكثر شيوعاً ، وأصبح له في العالم الآري معنى في غاية الحطة أي عبد (المؤنث : دازي Dasi) . ولا نعلم إن كان اسماً الماعز والحريف يدلان على نظامين قد زالوا هما المبدأ التباتي Végétalisme والمبدأ الذي يجعل من الحيوان جد الخليفة (الطوطمية Totémisme) . ومع هذا فاننا نعلم بأن الدرافيديين كانوا يقيمون حياة الرعاة . ويصطادون الجاموس والأسد بالقوس والنبال ، ويمتصون وراء أسوار تعززها كوم من التراب والأوتاد . ونعتقد بأنهم كانوا يمارسون ديانة خاصة Pholique مع أن معرفتنا في هذا المجال محدودة جداً .

ويظهر ان دازا الذين استوطنوا السهول اعتصموا عند زملائهم الجلبيين وقاوموا بشراسة الآريين مدافعين بكل ضراوة عن مساكنهم وأسوارهم الثمينة . ومع أن إخضاعهم غداً مراراً صعباً جداً فقد أحال الغزاة رجالهم الى عبيد واتخذوا من نساءهم خليلات . ومع أن الآريين يتتخرون غالباً بأنهم أخضعوا مناطق أعدائهم بالقوة - ولنا أدلة تحملنا على صدقهم - فلا يظهر بأنهم عاشوا بحالة حرب متواصلة مع السكان الأصليين ، إذ تقف على حالات تراوج بين الفريقين مما يثبت بأن الفاتحين في ذلك الطور القديم لم يشعروا - كما سيحدث فيما بعد - بضرورة الحماية من شرور التزاوج الخلاصي المنتظرة .

١ - خصائص الحضارة القبطية

ان ابرز خصائص هذه الحضارة هي الحياة الزراعية المؤسسة على قوة الذبيحة المستندة الإلهية الفاعلة . ان عناصر ثروة السكان الأصليين وسادتهم الآريين تقوم خصوصاً على نتائج القنص والزراعة وتربية المواشي . وعلاوة على القوس والتبسال استعمل الآريون قاسماً من النحاس ، ولجأوا الى الفخاخ والحفر للايقاع بالطريدة الكبيرة (الفيل ، الأسد ، ثم النمر) والى الكلاب لاكتشافها والى الخيل للحاق بها ، كما استعملوا الشباك لاصطياد العصافير . ويظهر بأن صيد الأسماك لم ينتشر الا في عهد البراهمة ، ومع هذا فان الانهر وبحاري المياه التي عاشت بقرها القبائل الآرية الاولى كانت قليلة الاسماك .

وغدت الزراعة أهم أعمالهم . وتألفت قطعان الماشية من الابقار الحلوبة والثيران والعجول والاغنام والماعز . ولجأوا الى كلاب الحراسة لجمع القطيع ، وقاموا بهذا العمل مرة أقله في النهار ، عند الظهيرة . وكانت البقرة منذ البدء حيواناً شبه مقدس اذ غدا قتلها وأكل لحمها محرمين ، وقد حلبوها ثلاث مرات في النهار . واستعمل الثور لجر العربات وأعمال الفلاحة . وجمعوا شعر الماعز للنسيج . وادخل الحصان بعض المزارع ضمن حيوانات القطيع واستعملوه للحراثة ولجر العربات عند القيام بالأعمال الطقسية ، وكانوا يمتلونه ولكنهم لم يستعملوه في الحرب . ولم يصبح الفيل أليفاً الا منذ عهد البراهمة وغدا من ثم خير مساعد للانسان ولم يستعملوه في ذلك الوقت في الحرب . ولا يظهر بأنهم جمعوا من الهر في ذلك العهد حيواناً داجناً . وغدا القطيع ملكاً مشاعاً يجمعونه في بعض الحقول المسيجة وينزلونه معهم في البيت .

وتتم أعمال الحراثة - وللحراثة أسم مشترك بين الهنود والايانيين - بواسطة محراث يجره خروفان . ومع انهم زعموا في عهد البراهمة بأنهم يستطيعون ان يشدوا الى المحراث ٢٤ ثوراً فان هذه الآلة لم تتطور كثيراً خلال القرون اللاحقة ، اذ ثبتت رسوم هذا المحراث التي ترتقي الى القرن الثاني ق. م . (وهي أقدم زميلاتها) حالة هذه الآلة البدائية . ومنذ أقدم العصور اعتنوا بري المزروعات . وكانت أعمال حفر قنوات الري وصيانتها أعمالاً مشتركة . وفي وقت لاحق أضيفت خزانات المياه الى هذه القنوات . وابتداء من عهد البراهمة ، وكان قد توغل الآريون في مناطق بلاد الوسط الأكثر خصباً ، عرفوا مبدأ تسميد الاراضي واستثمار الطمي والانتفاع من الرياح الموسمية الحيرة .

وشملت المزروعات في أول الأمر الشعير (?) (يافا Yava) ، لتمتد فيما بعد الى الارز والقطن الذي غدا منذ ذلك اليوم أساس أعمال النسيج . ثم تطورت المزروعات وتزايدت فشملت الحنطة ، والحمص ، والسمن ، وقصب السكر ، وأنواعاً عدة من الخضار والزهور والتباز . ولا نعرف شيئاً أكيداً عن مزروعات الاشجار المثمرة ، ولكن نجد ذكر صنفين للتين وهما تين لن *Ficus religiosa* Linn وتين روكسب *Ficus indica* Roxb .

وتتألف مواد التغذية والحالة هذه من حبوب قد تحول إلى طحين ، وحبوب ، وسمن ، وعسل ، وخضار ، وثمار ، وحتى عهد البراهمة ، ولحوم (تيس وضأن وثور وحصان) ، إذ لم يحرم اللحم الحيواني الا حين أصدر البراهمة قانوناً صارماً بهذا الخصوص . وهناك نوعان من المشروبات المسكرة : السوما soma ويستخرجونه من نبات ايراني الاصل لم يجدد بعد ، ويستعملونه عند تقديمه الضيافة - والسورا sura يستخرجونه من نباتات عدة يشربه الشعب وان كان شبه محرم .

ولم تنتشر التجارة في أول الامر ، ولكن سرعان ما ازدهرت . وقد سهلتها اقامة طرق للبريات بنوها بصورة مشتركة وبنوا عليها منازل تستعمل كملاجيء للمسافرين في مختلف المراحل . والتنقل كثير الشيوخ يقوم به الشحاذون والبراهمة والتجار . وقد ألف هؤلاء نقابات وتجمعوا ضمن قوافل تنتقل على الطرقات والممرات وتصل المدن الرئيسية بعضها ببعض وتنقل من منطقة الى أخرى الاقضية - القطنية الموصلية والمزركشة والحريية - والطنافس والعساقيير والروائع والحلي والاسلحة والسكاكين . وقد تقوم هذه القوافل برحلات طويلة فتوطلد من ثم العلاقات مع المناطق التي تجاور الهند خصوصاً الاسواق الافغانية والارانية . وتجري التجارة في المدن في دكاكين صغيرة خشبية تفتح للجمهور او في الاسواق . وكثيراً ما يأتون على ذكر تجار أغنياء مما يثبت ازدهار التجارة . وتوجد أيضاً التجارة التهرية وهي تستعمل قوارب لها من الاهمية ما يوجب استعمال جذافين ومدير دفة .

ويعتمد القانون التجاري على المقايضة ، وقد مثلت وحدة التعامل في البدء البقرة وحلينة (نيكشا Niksha) من الذهب والفضة ، ثم استعملوا اللوزن نوعاً من الآلات (كرشنالا Kirsnaala) وصفيحة أو قطعة من الذهب (سبانا) تسوى مئة كرشنالا . وعرفوا « المقايضة » والدين والقرض . وأتوا على ذكر تجار جشعين ومرابين ، كما تكلموا عن الفائدة التي تتراوح بين ١/٦ و ١/٦ . وعقد الاتفاق أمر عادي يحيطونه بنوع من الافعال الطقسية . والدين الذي لا يسدد يعرض صاحبه لعقاب صارم : اذ قد يحكم على من يستدين بالعبودية أو بالعذاب .

وتقوم الصناعة على الصناعات الريفية . والصناعات المذكورة هي قليلة العدد في أول الامر : فالنساء تسج القطن وشمر الماعز ، وهي تخط وتطرز وتضع الفرش ؛ ويصنع النجارون الآلات الزراعية والعمارات وعجلات الحرب ويعدون الاخشاب ؛ ويشغل الحدادون في معادن النحاس والبرونز والحديد ، كما يعد الدباغون الجلود . وتتألف النقابات بطريقة مطردة ويصح لكل منها اختصاص استناداً الى المواد المستعملة : فالنجارون والنقاشون يستعملون الخشب ، ويذيب الحدادون والصاغة معادن الحديد والنحاس والقصدير والرصاص والفضة (وكتبتها نادرة) والذهب (وكتباته كثيرة جداً) ويصنعون منها الأشياء المختلفة ، ويستعمل اخصائيون العاج لصنع الاقواس والنبال . وتكون الآلات من خشب ونحاس وحديد . ونجد منها أخرى

كثيرة : فهناك العمال لأذر الحبوب والخبازين والصباغون والنساجون الخ . ويكثر جداً الهلاليون والنجيبون وكهنة الضعيف إذ لا غنى عنهم في كل أعمال الحياة ذات الأهمية . ولا كثر العملة المستقرأ . هم القباصون والضباون واللحامون وكل الذين توجب عليهم أعمالهم قتل الحيوانات (خصوصاً في الدول الشرقية) . وطبعاً هناك الرعاة والفلاحون ، كما يلجأ القوم الى الطيران والرسل ، ويذكرون طائفة من المهن التي لا يستقر أصحابها والذين يأخذون على عاتقهم التبسيلة والترفيه عن الغير : كالهراج والبهوان والممثل ونافر الدف والضارب على الزمارة . ويتوارث القوم أغلب الأحيان هذه المهن وقد نجد قري لا يسكنها الا الذين يتعاطون ذات المهنة . ولكن هناك صناعات بصورة عبارة يكونون عبيداً ويسمح لهم بالعمل ليستطيعوا تحرير ذاتهم وذلك من غرة انتاجهم .

ومن المحتمل أن تكون الحرب أيضاً سبب ربح ، خصوصاً لافراد طبقة الراجانيا ثم الكشتريا الذين يمينون على المجتمع الفيدي . ويرافقهم صناعيون وفلاحون سيحل محلهم فيما بعد الجنود المترتبة . ولكننا لا نملك معلومات تفيدنا عن كيفية اقتسام الغنائم .

٢ - الحياة الاجتماعية

تستند هذه الحياة الريفية والزراعية على المجتمع القروي الذي ينتمي الى ما يدعونه المجتمع بالامرة الابوية والذي يشمل مع هذا أفراراً من نظام الاسرة المنتسب الى الام . وتستند ادم أفعال هذا المجتمع الى الذبيحة . ومع انه منذ البدء اعتبرت فئناً الكهنة (البراهمة) والمهاجرين النبلاء (الراجانيا والكشتريا) الطبقتين الحاكمين فلا يظهر مع هذا بأنه كانت هناك دقة كبيرة في تقسيم المجتمع منذ أول العهد الفيدي . ولكن حصلت في وقت لاحق تجزئة أوضح وتكوّنت فئتان أخريات ، طبقة « الرجال الاحرار » (الفيشيا) وطبقة العبيد (الشودرا Gaudra) . ومع هذا لم تكن هناك طوائف محددة المعالم تفصل بينها حواجز منيعة كما سيحصل في العهود اللاحقة . ويصدق هذا بصورة خصوصية في الدول الشرقية حيث تغفلت الروح الاربعة بصورة سطحية . وقد كان لهذا العامل ولظهور البوذية الاثر في تخفيف قسوة المبادئ البراهمانية الحقيقية .

وتصل الفئتان اللتان توجدان على رأس المجتمع - طبقنا رجال الكهنوت والنبلاء - بعري وثيقة وتتمتعان بجمرة كبيرة . ويستطيع البراهمة والكشتريا ان يتخذوا لهم مهنة الزراعة أو التجارة ، ويهتموا بقطعان المواشي أو بالقوافل ، وينتشوا على الحطب الخ ويستطيعون أيضاً ان يتخذوا لهم زوجات ينتمين الى فئات دونهم شرفاً ، حتى ان كن من طبقة العبيد . ولكن لا يتعاطى البراهمة غالباً الا الاعمال الطقسية ، وهذا مما يقوي سيطرتهم لانه يتعذر على أي كان الاستغناء عن خدماتهم اذ ترافق حتماً الذبيحة كل عمل مهم ان كان في مجال الحياة الشخصية أو الرسمية . فالبراهمة « رجال الامور المقدسة » هم الكهنة المستديون ، وهم يديرون الاعمال

الطقسية. ويتفاضون نصف الأتعاب بينا يتفاضى النصف الآخر الذين يقومون بالأعمال الطقسية بصورة عابرة؛ وقد يختص كل منهم بعمل أو بعدة أعمال. وهم يقومون في القرى بدور الطبيب الساحر. ومن بينهم ينتخب كاهن الملك (البروهيت) الذي يصبح له المركز الديني الاول. واذ عينه الملك يصبح مرافق المعامل في جميع تنقلاته لا بل يذهب معه الى الحرب، ويتلو الصلوات ويتم أعمال الرقي ليضمن للملك النصر أو النجاح في الأعمال. انه ينظم أفعال العبادة؛ ويرأس الحفلات الطقسية ويقبل الهبات. ويمتن غالباً براهمة القرى مهنة تمت الى بعض الأشكال الطقسية، كمنهنة الحلاق والمنجم والفسال الخ؛ ونسبة اليهم يوجد نساك وزهاد عديدون أخذوا على عاتقهم بث الدعوة البوذية في الدول الشرقية منذ بدء انتشار تلك الديانة.

والكشترابم الحاربون الاشراف، يتعاطون الادارة والسياسة ويساهمون في الممارك ويكونون عادة طبقة الملاكين العقاريين في البلاد. وينتمي الملك الى هذه الفئة ومنها ينتخب نسبة لحقوقه الارثية والمائلية. وينتخب الشعب المعامل أو أقله يقبل به، اذ لم يتوج الكهننة الملك الا في زمن لاحق. وتنحصر مهنة الملك الاولى في الدفاع عن افراد الامة والقيام بأود طفعة من رجال الكهنوت يقفون أنفسهم في خدمته وخدمة شعبه؛ وهو يستثمر أملاكه التي تتألف من غابات و «أماكن صحراوية» لذا يفرض الضرائب بواسطة الآخرين. وبما انه كانت رئيس قبيلة أو جماعة أخذ يهيمن ويسيطر بصورة مطردة ويمزز سطوته بالذبايح العظيمة كتقدمة الحصان (اشميدها) وبجفلة تتويج زاهية (راجسوي)؛ وهكذا توطدت منذ البدء صفة الملك الإلهية.

وتشمل فئة الرجال الاحرار الفلاحين والتجار والصناعيين. وان توصل بعض منهم الى جمع ثروة طائلة فانهم يقفون مع هذا عرضة للضرائب والتسخير اذ هم فلاحون عند الكشتراب، يقدمون لهم الغذاء ويرافقونهم في الحرب. ويكون التجار والصناعيون نقابات يصبح رؤساؤها غالباً أصدقاء النبلاء.

والفئة الاكثر احتقاراً هي فئة العبيد، وقد شملت في البدء دون شك احفاد السكان الاصليين الذين غلبهم الآريون، على أمرهم. ويضاف اليهم الافراد الذين حكم عليهم لعدم تسديدهم ديونهم، أو أفراد آخرون أبدلت عقوبتهم بالرق، أو أسرى الحرب أو حتى رجال تخلوا بجله ارادتهم عن حقوق طبقتهم واعتبروا أنفسهم عبيداً رغبة في التكفير أو قهر النفس. والسودرا هو كائن دنس من طبيعة نفسه يمكن جرحه أو حتى قتله. ولا يحق له دراسة الفيدا أو تقديمه الذبيحة، ولكن قد يجمع ثروة من عمله فيسمح له اذ ذلك بتحرير نفسه. ولكن يمس المرء من خلال هذا التبذ والتبذ والتبذ الذي قد يؤدي الى الموت ذكرى الممارك المريرة التي خاضتها القبائل الآرية ضد السكان الاصليين في أيام الفتح.

وهكذا مع ليونة هذا النظام الاجتماعي نشهد محاولة صريحة لتقسيم المجتمع حسب الاعمال

والمنه ، هذا التقسيم الذي يستند الى الضرورات التي تفرضها طقوس العبادة ، وهكذا نرى بان مبادئ الحياة الاجتماعية الهندية أصبحت على وشك اكتساب كل الخصائص التي سنشهد لها في العهد اللاحق .

الدولة يستند هذا المجتمع الى نظام ملكي تتكافأ فيه ثلاث سلطات : سلطة الملك ، وسلطة رجال الكهنوت ، وسلطة الشعب . ويخضع الشعب والكهنة للملك ولكن بصورة غير مطلقة . وهناك عدد من الموظفين الكبار يؤخذون من طبقة الكشترية ، لا بل من فئة الغيسيا مراراً : قائد الجيش (سيناني) ، شيخ القرية (غرامني) الذي يصبح كئانب الملك ، أمير الأخور ، المتادي أو الشاعر (السوتا) الذين يكون لهم سلطة قضائية . وللشعب كلمة في الحكم . وهو يجتمع في مكان خصوصي ، تحت أشجار القرية أو في سرادق سقفه من عشب . ويحتوي مجلس الشعب هذا على الشباب والشيب ، أفراد القبائل وسكان القرى . وهو يعين مجلس الشيوخ ولجان تحكيم تتخذ القرارات بإجماع الاصوات .

وتقسم المملكة ادارياً الى غراما (القرية وجماعة مسلحة) ، وفيس (كور أو فيخذن قبيلة) ، وجانا (قبيلة أو مجموعة كور) . ولكن هذه المعلومات هي عرضة للتغيير والتبديل ولا نعلم في النصوص الا على القليل من الأوصاف التفصيلية بهذا الخصوص .

أما السلطة التنفيذية فهي منوطة بالملك ، وقد يصدر بعض الأحكام مجلس شعبي (سبها) . ولا نجد شيئاً واضحاً للنظام القضائي ، ولا يأتون على ذكر بعض العادات التي ستسود في وقت لاحق كاهمال الأيون المسنين ، والتخلي عن البنات ، وجمعيات الخليلات اللواتي ينتسبن الى أصل شريف ، ومع هذا فهم يمارسون الدعارة . وتخضع الجرائم للعقوبات التي يفرضها وينفذها الشخص الذي هضمت حقوقه دون أن يستطيع مع هذا الحكم بالموت . ويقدر ثمن دم الانسان بمئة بقرة عندما تحدث جريمة قتل ؛ ولكن في عهد البراهمة تغيرت هذه القوانين تبعاً للطبقات . وهم يعددون لوائح للجرائم دون أن نعرف مع هذا بصورة دقيقة العقاب الذي يتناسب مع كل منها . وفي بعض الأحيان كان يأمر الملك بتعذيب جسدي . وهم يعاقبون على السرقة والخلع واللصوصية والدين . وتكثر سرقة الماشية حتى انه يوجد أشخاص اختصاصيون للبحث عن الحيوانات المسروقة .

الاسرة ان الاسرة هي أساس المجتمع الفيدي . وتخضع الاسرة لسلطة رب المنزل الذي عليه ان يمارسها دون شراسة . وله الحق بتأنيب أولاده وقرير زواج بنيه وبنساته . وهم يفضلون ولادة الذكور ويستعدون لها بسلسلة من الطقوس تمت صراحة الى السحر . وعندما يولد الطفل يشعلون له ناراً خصوصية ويقدمون هدايا من السمسم والأرز مدة عشرة أيام ؛ وينفق فيه الوالد النفس ويخضعونه للجمام ثم يطلقون عليه اسمين : الاسم السادي والاسم السري الذي لن يكشفوه له بعض المرار الا في وقت لاحق عند حفلة الأشراك . وعندما يبلغ الثالثة من عمره

يقص له الخلاق شعر رأسه لأول مرة حسب الشكل الذي يختص بأسرته . وعند تنفيذ هذا الأمر يقيمون حفلة يطعمون فيها الشعر بعد ان يخلطوه بالأعشاب وزبل البقر . وعندما يبلغ الفتى السادسة عشرة من عمره يعيدون نفس الطقوس عند حلاقة لحيته ، وهذه الحلاقة هي رمزية فقط اذ يبقى رجال العهد الفيدي على لحيتهم بكاملها .

وعندما يبلغ الشاب سنًا يختلف باختلاف الطبقات والظروف يعهد به الى مرب . و يقيمون بهذه المناسبة حفلة تكون مقدمة لحفلة الاشرار الدينية ، وعندئذ يدخل الشخص في مرحلة جديدة من الحياة . وعليه ان يسهر ليلتي نار الاسرة مشتعلة ، ويشحن قوت معلمه وقوته ، ويفترش الأرض ، ويحافظ على العفة وطبيع طاعة عمياء ويبتنع عن أكل بعض الأطعمة . وتقام حفلات طقسية اثناء حياته الدراسية في بدء ونهاية الفصول . ولم تحدد مدة هذه الدراسة . وعندما تنتهي يستعد الشاب للعودة الى أسرته ، فيستحم ويعتق من نذور الدراسة ويطرح أمتعته في الماء ويلبس ثياباً جديدة ، ويصبح اذ ذاك أهلاً للزواج ويقوم بدوره باعباء ومسؤولية رب المنزل .

ويستند الزواج في العهد الفيدي الى انتخاب متبادل يجريه الزوجان وهناك أسباب جديدة بالاحترام تجذب الزوجين الواحد نحو الآخر . وقد رأينا بأنه يجوز عقد قران شخصين يتيمان الى طائفتين مختلفتين ، ولدينا أمثلة عدة تثبت بأن والده بعض الشخصيات كانت من طبقة العبيد ، دازي اوسودرا . ومع هذا غدا من المستحب في زمن البراهمة ان ينتخب الزوج زوجه من الطبقة التي ينتمي اليها . وتقع على عاتق الوالدة مسؤولية ايجاد زوج لابنتها ، وهي تقدم لها النصيح في هذا المجال وتشرف على زينتها لتجعل منها فتاة يرغب فيها أكثر وأكثر . وعلى طالب الزواج اذن أن يكسب عطف حماته المستقبلية ، ويتوجب عليه علاوة على ذلك أن يدفع لوالد خطيبته ثمناً كما لو كان يبتاعها الشلكا *Culka* أي مئة بقرة وعربة . ولا نعم ان كان هذا الأمر أصبح عادة أو غدا فقط شبه عقد . وكثيراً ما يشاهد الخطيب خطيبته دون أي قيد . وترتدي الفتاة ثياباً جميلة لتروق أكثر في عين من سيصبح لها زوجاً ، وهي لا تسام ملء عينها ليلاً بانتظار مجيئه ولا يفترقان الا عند الفجر . ويعتبرون هذه الاجراءات كطقس يسبق الزواج . واستناداً الى هذه المعلومات فلا يجري الزواج الا بين شابين بلغا أشدهما وهما في ريعان الفتوة ، ولا يذكرون حتى هذا التاريخ - الاحادثة يحيم عليها الشك - زوجاً يجري بين ولدين ، هذا الأمر الذي سيصبح عادة فيما بعد .

ويسير جنباً الى جنب نظام الزوجة الواحدة مع مبدأ تعدد الزوجات الذي لا ينفذ على كل حال الا لدى الطبقات الحاكمة . ولا يذكرون نظام تعدد الأزواج ، ولكن من المحتمل ان يكون قد عمل به في وقت سابق لهذا التاريخ اذ يجدون ذكره في بعض القصص الخرافية الإلهية . ويظهر بأنهم قبلوا في زمن متوغل في القدم بمبدأ نكاح الوالد لابنته أو الأخ لأخته ، ولكنه حرم في العهد الفيدي ، كما حرمت هذه العقيدة الزواج بين ذوي القرى في الدرجة الثالثة والرابعة .

ويسبب الزواج سلسلة من الحفلات الطقسية . ويحدد تاريخ النكاح بكل دقة استناداً الى ارشادات النجم . وعندئذ يرسل الخطيب رسلاً الى حميه السيد . ويمتدح هؤلاء الخطيب واسرته ويتمون المقدم . ويقودون بعد ذلك الخطيب الى بيت الفتاة وسط جمهور من النساء حيث يستقبلونه بمظاهر الحفاوة والتكريم كما يستقبلون زائراً مرموقاً . ويقابل الخطيب خطيبته ، ويقدم لها بعض الهدايا التقليدية (الثياب والمرآة) . وبعد ان تقدم الفتاة قرباناً من الحبوب المحسنة يرافقه الخطيب في جولة تستغرق سبع خطوات وهو ممسك بيدها وقد عقدت معها ثيابها . وهذا ما يكرس تلك الخطيب لخطيبته . ويرمز العمل الذي سنأتي على وصفه الى تحلي الفتاة عن اسرتها . فهي توضع في عربة أو تعلق جواداً أو فيلا . ويقودونها بوجك نحو بيتها الجديد ، ترافقها نار طقسية تصبح نار اسرتها . وهي تدخل المنزل دون ان تمس عتبهه ، ثم تجلس وتضع على ركبتيها ابن امرأة لم تلد الا ذكوراً أحياء . وفي الثلاثة أيام التي تلي يحافظ الزوجان على العفة بكل حرص . ولا تبتدىء فعلاً حياتها المشتركة الا في اليوم الرابع بعد ان يقوموا ببعض التقادم التكفيرية .

ان الزوج هو السيد مبدئياً ولكن للمرأة مع هذا دورها الهام . وتشير كل الكلمات الفيدية التي تدل عليها الى انوثتها وقدرتها على انجاب البنين وعاطفتها الودية . والزواج هو النهاية الطبيعية لحالتها ويصبح البيت الزوجي مستقرها اذ يستحيل على الزوج القيام بالطقوس العائلية والبيئية ان لم تكن الى جانبه . وان كان دور المرأة في هذا المجال سلبياً فهي تصبح مع هذا الكاهنة في بعض الحفلات الزراعية ان لم يكن لها زوج .

ولا تتوافق المعلومات التي لدينا عن شأن المرأة في العهد الفيدي . ولا يظهر مع هذا بأنهم أساؤوا معاملة البنات . فمن قبل زواجهن يساعدن الوالدة في القيام بأعباء المنزل ، ويجلبن الماء من الآبار بواسطة جرار يحملنها على رؤوسهن ، وينسجن الثياب ويطرزنها . والزواج هو سدرة الأمل عندهن ، وان لم يتزوجن يبقين عند والدهن ويعتنين بشؤونهن . والأخ هو حامي شقيقته ، ويتحدثون بسخرية أو بحسرة عن « الابنة التي لا شقيق لها . فالابن هو الذي يرث الوالد ويمارس سلطاته . ومع هذا نجد بعض النصوص التي تشير الى عوانس عرفن اليتيم وورثن الأملاك الودية وقد فضلن القانون على الأولاد المتبنين أو غير الشرعيين . ولا نعرف معرفة بينة اشكال الملكية . ويظهر بأن ثروة الأسرة استندت على ملكية الأراضي التي كانت تخص كما يبدو الوالد . وقد تكون أيضاً مشتركة تضاف اليها الممتلكات الحصوصية التي تشمل المواشي والأسلحة والحلى . وقد تتفتت بعض النساء ثقافة عالية جداً ، وتحفظ كتب الادب القديم بأثر تقليدية تدل على مركزهن الثقافي . ونجد نساء بين النساك (ريشي) لا بل بين علماء اللاهوت في عهد الاوبنيساد .

وقد تحيا الفتيات حياة هو واستخفاف ويثرن الشكوك بشيائهن الجم . ويراقب الوالد والأخ سلوكهن ، ولكن كانت الدعارة كما يبدو أمراً كثير الوقوع .

ويبدو أن زواج الأرملة إن لم يكن لها ورثة ذكور من زوجها الأول ولكن فقط (?) مع شقيق زوجها المتوفى بنية تأمين استمرار النسل . ولكن يظهر بأنه في وقت لاحق استطاع قريب المتوفى أو تلميذه أو حتى عبده إن يحمل محله لينجب أولاداً للأسرة التي غدت تمثلها الأرملة . ومن المحتمل بأن الأرملة ، مثل عهد الريفنداء ، كانت تحرق مع زوجها ، إذ يجدون أراً لهذا الأمر في المستندات الطقسية . وقد أُلغيت هذه العادة أيام الهند الفيدية ولكنها أعيدت ثانية في العصر البراهماني .

وتحدد طقوس منزلية حياة الأسرة بجميع مظاهرها . ومحور هذه الطقوس هو النار (اغني *Agni*) التي تشعل داخل البيت وسط إطار من الحطب أو خارج المنزل ، وتعد السيدة الحقيقية (جارهبيا) وقربها تقدم القرابين إذ هي السبيل إلى كل شيء ، وتمت هذه القرابين غالباً إلى أصل نباتي وليس حيواني ، كسمن يذوبونه ثم يصفونه . والطقوس هي في غاية البساطة يقوم بها رب الأسرة ، وقد تؤدىها الزوجة أو يتممها مراراً أحد البراهمة . ويقام عدد كبير من هذه التقدّم والقرابين في أماكن عدة من المنزل وفي مناسبات مختلفة (على العتبة ، أمام مقدمة السرير أو الجهة المناقضة) .

وهناك مناسبات عدة تعد ظروفها تستوجب القيام بأفعال العبادة أو أعمال طقسية منها أوجه الحياة الزراعية ، وعودة الفصول ، وإبعاد الحيات السامة ، واستقبال الضيوف ذوي المقام الرفيع ، وبناء منزل ... وللأعياد الزراعية أهمية خاصة إذ عليها يتوقف ازدهار الزراعة والمناخية . وهي تظهر أكثر من سواها تدخل الحياة الدينية المتواصل في حياة القرويين اليومية .

ولكن يوجد طقوس أكثر أهمية وعظمة تأخذ فيها الذبيحة كامل معناها ويظهر فيها مقدما بدوره الإلهي الحقيقي ، أي الوسيط بين الإنسان والإله ، وتثبت الذبيحة من ثم بأنها صلة الوصل بين الأمور المقدسة والعادية . وتستوجب هذه الطقوس الحافلة وجود الكهنة واستعمال عبادة نيران . وهناك أنواع مختلفة منها ما يقام بمناسبة ظهور الهلال وبدء السنة الجديدة ورجي الأوير الزراعية . ويبدو بأن بعضاً منها يعني اقتداء حياة رجل بتقديم تيس . وأهم هذه الطقوس هي تلك التي تستعمل السوما والتي تدوم مراراً أياماً عدة ، ومن أشهرها الفاججيا ولا تعرف النساء منها ولكنها تحتوي على أمور غريبة كسباق العربات الذي قد يرمز إلى الشمس ، والراجسويا أو التتويج الملكي . وهذه حفلة أقل قدماً من غيرها - حيث يعمد الكهنة ويمثلو الشعب الملك ويجلسونه على العرش ، والاسفميدها ، ذبيحة الحصان ، وهي من أكثر الطقوس كلفة ، تثبت قوة الملك المظفر وتهب السيادة المطلقة وتؤمن ازدهار المملكة . وتشير بعض هذه الطقوس - الاسفميدها والراجسويا خصوصاً وبناء هيكل النار - إلى تقادم بشرية ، ولكن يظهر بأن هذه العادة غدت أمراً رمزياً منذ تأليف أقدم النصوص .

ووسائل التسلية شديدة التنوع ، ومن أكثرها اعتباراً لعبسة الزهر التي يفشارون أسناد

مخاوتهم فيها على الرقم ٤ . ويستهوون كثيراً سباق العربات التي تجرها الاحصنة ، هذا السباق الذي لا يدخل دوماً ضمن نطاق الطقوس الدينية . وتشمل حفلات الفرح رقصاً يؤديه الرجال او النساء على انغام الغناء والموسيقى . ومن آلات موسيقى ذاك العهد الدف والعود والمزمار . وابتداء من عهد البراهمة يأتي اكثر فأكثر على ذكر المهرجين والممثلين والهالين وناقري الدف وعازفي المزمار .

وعند انتهاء الحياة تأتي طقوس الجنائز . فهم يقومون باللباس وتزيين الميت ثم يأتي به في موكب الى حيث ستحرق جثته ، اما محمولاً على الاكف او على عربة يشدون اليها غصن شجرة يمر على الارض ليمحو آثار ارجل الاقرباء الذين يكونون قد تقدموا الجثة . وعندما يصلون الى المكان المعين يجرون اللبث ، ولآخر مرة ، اعمال التزيين والتنظيف ثم يضعونه فوق كومة من الحطب . وتجلس امرأته بالقرب منه ثم يدعونها للتزول (وهي ستحرق حقاً معه في الازمنة اللاحقة) وقبول شقيق زوجها المتوفى بملأ لها . ويضعون بجانب الجثة اشارات الفته التي ينتمي اليها: قوس مكسور لأحد أفراد الكشترية، وادوات عبادة ان كان من البراهمة . واخيراً يحرقون مع جثة الميت تيساً او يضحون بقرة . ويقومون في فترة الحزن التي تلي الجنائز بسلسلة افعال تطهيرية (استحمام ، صيام ، تزهة الخ ...) ، ثم يجمعون العظام المحروقة ورماد الجثة ويطمرونها في حفرة يغطونها بالترية او الحجارة او باقامة بناء للذكرى . وهذا ما يستدعي ايضاً حفلة تنبها طقوس تطهيرية ، وهم لا يتناسون الاموات ، بل يقدمون لهم تقادم يومية ويقيئون لهم طقوساً احتفالية في بعض المناسبات (ولادة ، زواج الخ) . وتقلب طقوس الدفن هذه رأساً على عقب اشارات الطقوس المعادية وتأخذ اللون الاسود لوناً اساسياً .

وهذا الوصف الموجز لحياة الاسرة والمجتمع يشير اشارات عدة الى قوانين وعادات يشترك فيها الهندو - اوروبيون في مناطق شاسعة جداً . وهناك خصائص تنتسب الى ايران . وهكذا فان الحضارة الفيدية هي جزء من كل يصلها بحضارتنا ، ولكنها مع هذا تبدو منذ ذلك الوقت مختلفة جداً . ونلس من خلال النصوص التي عرفتنا بمبادئها الأساسية كثرة في الطقوس السحرية وتقدمة النتائج . وتكون هذه الطقوس لغة الحياة القروية او الرسمية وسداها ، وهي تبين عليها وتسيرها اكثر فأكثر نحو شكل محدود وتوجهها نحو قيود وقوانين تزداد مع الأيام دقة وحصرأ .

٣ - المدينة والريف

كانت مدن (يور *Yur*) الذازا تتألف من مجموعة منازل تملكها اسرة واحدة ، تتجساور داخل حوش تحيط به الأوتاد . وقد تحمي ايضاً بعض هذه البيوت حفر او كوم من التراب . ولا يبدو بأن الآريين قد غيروا كثيراً في هذه المساكن بل اكتفوا على ابعاد تقدير بتطويرها وذلك

بثوسيمها وزيادة عدد أكبر عليها من البيوت والدكاكين والمباني المعدة لاستعمال الجمهور والجماعات وذلك تبعاً لنمو التجارة واطراد الحضارة .

وتبدو المباني بدائية إن نحن صدقنا المعلومات التي تقدمها لنا النصوص التي تشرح لنا سيمة هذه المساكن (شالا) ودور العبادة (غربها ، أغارا) . ويفرض هذا البناء القيام بأعمال تهيئية عدة كانتخاب الأرض استناداً الى نوعية التربة ولونها وطعمها ورائحتها. ويقرر يوم البدء بالأعمال تبعاً لتخمينات المنجم . وبعد ان ينتخبوا الموضع يحددونه على شكل مربع او قائم الزوايا ، ثم يحفرون الأرض وينظفونها بكنسة (ادوها) ثم يقسمونها بصورة تسمح للياه ان تجري بموجبها بصورة طبيعية الى شمال غرفة النوم ، لذا يعدون بعض الحفر توصلاً لهذه الغاية . وأخيراً يحسبون الحساب لمطبخ في القسم الشمالي - الشرقي وردة اجتماعات حيث يجتمع رب الأسرة مع ذويه او يستقبل الضيوف .

عندئذ يتبدى البناء . ولا يدخلون فيه آجرأ او حجراً ، أقله في الاعمال العظيمة . ويحفرون في أول الأمر تسعة ثقوب (غرباً) يبلغ عمقها حتى الركبة يركزون فيها تسعة أعمدة (ستمها او ستونها) من خشب الادمبرا . وتوضع ثمانية من هذه العمود ابتداء من الواجهة التي تشرف على الشرق وتتابع من الجهات الجنوبية والغربية والشمالية . ويحمل العمود التاسع اسم «العمود الملكي» (سوثاراجا) ، ويقام آخر ما يكون في وسط (؟) المنزل . ويختلف عدد الأبواب كما تختلف وجهتها ، ولكن لا يجوز قط ان يكون المدخل من الجهة الغربية ، كما يمنع منعاً باتاً أيضاً فتح بابين على نفس النبط حتى لا يستطيع المرء اجتياز البيت بنظره ، ، وأخيراً يعدون العتسة ويحعلون للأبواب دقوقاً ومصاريح . وتتكون الأجزاء المرتفعة من عوارض خيزران (فشا) . وتشد هذه العوارض بحبل الى أوتاد الأساسات ويوجهونها من الغرب الى الشرق في دور العبادة ، ومن الجنوب الى الشمال في المساكن الأخرى . وهناك حواجز (كدي) تفصل بين الغرف وقد تستعمل كجدران . ويستند قسمها الأعلى الى العوارض . ويحمل هذا الكبل سقفاً من القش ينتهي على شكل ياقعة (ستوبا) .

وفرش المنزل في غاية البساطة كما هو البيت . وهو يتألف خاصة من مقاعد تكون أحقرها مساند من عشب . اما مقاعد العبادة فهي من الخيزران. ويظهر بأنهم ركزوا فيها قطعاً من الخشب او شداوا اليها قنداً من الجلد . وقد يطلون أحسنها بالذهب ، ويضعون بعض المقاعد ، إن كانت للآلهة او للملوك ، من الخشب وقد يحفرون عليها الرسوم . ولكن لا نجد في هذا العهد التنوع الذي سيصفونه لنا بصورة دقيقة في الأزمنة اللاحقة .

وبالقرب من المسكن يعدون مستودعاً للماء يستندونه الى أربعة حجارة . ويسكنون القطيع (البقر والثيران والعجول والاحصنة) في البيت او في اصطبلات مجاورة ويعودون به الى ذلك المكان كل مساء مع الاولاد . وهناك يسكن الخدم أيضاً .

ولدور العبادة هندسة شبيهة جداً بالهندسة التي وصفت أعلاه، ولكن هناك بعض الاختلافات مع هذا. وتمتد هذه الدور لإيواء من يقوم بالطقوس وزوجته والجماعة التي يحتاج إليها، والحيوانات والأدوات الضرورية للعبادة. ويمدون في هذه الامكنة ردهة (سالا) للحضور، وأثاراً لإعداد الأطعمة الطقسية التي يكون أساسها اللبن، وغرفة لزوجة القائم بالطقوس، وحجرات للاستحمام الديني تسورها حصر، وغرفاً صغيرة للتقادم، وجناحاً مخصصاً لطقوس الاموات، وحجرتين صغيرتين مربعتين متصلان معاً تصبح احدهما مسكناً لمن يقدم العبادة والثانية موضعاً للنضح، ثم رواقاً مخصصاً للعربات تحيط به حصر تمتد من عمود الى عمود؛ ومقابل هذا الرواق بينون «المركز» (سادس) وهو قائم الزوايا تعلوه ثلاثة سقوف متتالية.

واحدى الحفلات الاساسية التي تحتم اقامة مثل هذا البناء الديني هي ذبيحة الحصان (اشفمدهما) التي أتينا على ذكرها والتي يرتقي اصلها كما يظهر الى زمن اقامة الآريين في ايران، وقد يكون أيضاً أكثر قديماً. ولمراسم تقدمه الحصان اية خاصة اذ لا يستطيع ان يقوم بها الا الملك، او احد افراد الكشتريا الذي تقبل البركة الملكية، او «سيد الارض». والبناء قسبان عظيم. فالجزء الخارجي قائم الزوايا ويحتوي على غرفة لمقدم الطقوس، وحجرة استحمام له، وحجرة اخرى لزوجه، وهيكل النار للسيد، وبموضع تسند اليه الجرة الطقسية (أكها). وتحيط الازداد بالقسم الثاني الذي يحتوي على الهيكل (اغني - كشترا). وعلى طول جهة السور الكبير الشرقية ارتفعت احدى وعشرون ركيزة شدت اليها الحيوانات التي أعدت للتقدمة والتي انتخبوها من الماعز او البقر. وهيكل النار، كما الحال في سائر امكنة الذبائح، هو من الاجر ويسبب بناؤه - وغالباً على شكل عصفور - الى اقامة طقوس دقيقة جداً ابتداء من جمع الخبز حتى وضع النار باحتفال مهيب. ولهذا الهيكل خمس ركائز من الاجر (18000 قطعة) وقد علق على احد جدرانه رسم من ذهب يمثل رجلاً، وهذه ذكرى للذبايح البشرية القديمة.

وارتدى السكان في اول الامر جلوداً وثياباً من صوف، نسجوها من شعر الماعز. وسرعان ما اضافوا الى هذه الالقشة ثياباً من حرير وكتان وقطن وقنب وقد صبغت باللونين الاصفر والاحمر. وياتيونون بحلى يضعونها في جيدهم واذنهم وكأحلمهم، ويدمنون شعرهم بالزيت ويستعملون المنط. وتجمل النساء شعرهن اما الرجال فيحكون شعرهم بأشكال مختلفة وهم يدعون لحام تنمو مع انهم عرفوا الموسى وكان من المتداول جداً قصها او تخفيفها.

يعرف المرء مما تقدم الى اي حد تغلفت الديانة في حياة الفرد والمجتمع الفيديين. والقيام بأعمال العبادة على المرء ان يتقيد بقواعد وتقاليد في غاية الدقة - عدا العادات السحرية الكثيرة العدد. انها ديانة معقدة تعقيداً علمياً لا نجد فيها الا آثاراً طفيفة من عبادات «اولية» كالطوطمية او المبداء النباقي او الفتيشية. انها حلوية واسعة تنحض فيها الالهية

لارادة الأتسان الذي يؤثر عليها بأعمال الذبيحة أو التقوى . وهي تستند على ميثولوجية تكاثر جداً آلهة زونها . ان زعم الآلهة هو اندرا الذي قد يكون في البدء حارس احدى القبايل المنتصرة . ويرمز الى طبيعته المحاربة والمظفرة الثور الذي يمثله . ويضيفون اليه صفة شارب السوما وهذا ما يشده بعري وثيقة الى الذبيحة .

والفجر هو الربة الميثولوجية ، تمثلها بقرات ترندي نوباً وهاجاً والجلد (دبادس) والارض (برتوي) هما زوجان . ويقربها نجد الآلهة الشمسية : سوريا وبوشان وقشنو وميترا وفرونا ، وهي آلهة قديمة العهد جداً تتصل اسمائها وخصائصها بآلهة الزون الايراني كما ورد في الافسته . وتثبت هذه الحقيقة بنوع ادق فيما يختص بميترا وفرونا . ويعتبر هذا الاخير حارس النظام ، وإله الكون وينبوع كل حياة وخير . وهناك بصورة ثانوية آلهة الزوبعة ، رودرا وشيفا ، وقد تميل شخصيتاهما نحو الاتحاد فيحتلان اذ ذلك المنزلة الاولى وتظهر شخصية سفا بأشكال متعددة : وتريد آلهة الرياح ، فايو وقانا والماروت ، وآلهة المياه والانهار - التي ترمز اليها الحية بعض المرار - هذه المجموعة الربانية التي يجب ان تدخل فيها ايضاً الشخصيات التي تمثل الاغني والسوما . ويطلقون على هذا الاخير لقب برجباتي ، سيد مخلوقات الذي سيصبح بعد قليل وحدة خلقة وحامية جميع الخلائق الحية لا بل العالم بأسره . وهناك اخيراً جموع من الارواح الهوائية التي تكفل زون هذا العهد الاول : الريح ، والاسورا ، والغندهرفا ، والاباسراس ؛ والركهاسا وكلها بقايا معتقدات شعبية تعادي الذبائح معاداة شيطانية . ولا تزال هذه الارواح تراقى حتى يومنا هذا الآلهة الكبار وتنتج في كل الاساطير الهندية . ومنذ البدء ظهرت بمظهر الانسان ، وان هم ألقوا بها مظاهر حيوانية ، يبقى سلوكها مع هذا شبيهاً بسلوك الانسان .

وقد ينتمي هؤلاء الاشخاص الى اساس من المعتقدات الهندو - اوروبية كما تعود اليه الاساطير التي يلعبون دوراً فيها . ولكن مقارنة هذه الامور مع المعتقدات الايرانية هي اشد ثبوتاً ، وهكذا نستطيع ان نقارب اسماء اهورا وميترا وفايو وفريغزنا الايرانية مع اسماء اسورا وميترا وفايو وفرتزها الهندية . ويوافق ايضاً نبات هارما السوما ونجد في كل من الديابتيين عدداً من الافعال والتقاليد (عبادة النار ، تقدمه الحصان الخ) . وهكذا فبنسبة ما تتصل ايران بالوحدة الاوروبية وتمت الهند بايران يتأكد لنا بكل وضوح بأن الهند هي العضو الذي يقع في اقصى شرق المجموعة الارواسية الشاسعة .

وتجاه هذه المعطيات الدينية التي تحتل المركز الرئيسي فقد قل جداً اهتمامهم بالمسائل الكونية ومصير الانسان . واعتبرت الفيدية مسألة الخلق امراً لا يرقى اليه الشك ولكنها لم تسع مع هذا لاختراق مراحل ، بل نظرت اليه كأنه عمل محترف او نتيجة مسألة تقنية ، او صنع فسفاكرمان ، مهندس الكون . ويختلف كثيراً المعلومات التي تمت اليه وقد ينسونه ايضاً الى ذبيحة بروشا ، الكائن الكوفي والاولي .

اما مسألة جوهر النفس فهي مذكورة في أقدم النصوص بصورة بدائية ولن يتسع مداها الا منذ عهد الارينيثاد . انها مرتبطة بمشكلة الموت . ويقول الجميع بالحياة الاخرى كأمر طبيعي اذ تفتح امام الاموات ثلاث طرق : انهم يتحدون بالماء والنباتات ، او يمخون بهدوء في ملكة يسيطر عليها إما ، وهو اول من مات ، او اخيراً يعيشون في عالم واحد ولكن كل على حدة . ويظهر بأن مسألة انتقال الانفس (سمسارا) الذي هو ضرب من التقمص لم تكن قد اصبحت عقيدة بعد ، اذ ان النظريات التي ستحظى بالكثير من الاهمية منذ القرن السادس ق.م. لم تكن بعد الا في مهدها . ونتيجة الذبيحة الفاعلة هي ام بكثير في نظر هؤلاء الريفين الذين يأملون بواسطة ازدهار مزرعاتهم وهبوط الامطار المحضبة وتأمين حراسة مواشيهم ومختلف دلائل نجاح حياتهم الزراعية والصناعية . انهم يهتمون برفاية الاحياء اكثر بكثير من اهتمامهم بصير الاموات . ومع هذا يلبس المرء ايمانهم بمبدأ مكافأة الاعمال في عالم غير عالم الاحياء هذا : فالسماه هي عالم الاعمال الصالحة ، والجميع هو مستقر الاعداء والكفرة . وتجري الدينونة بواسطة ميزان او امتحان النار وتتحقق بالآلم وعذابات جسدية . ويدعون الموتى « الآباء » (بيتري) وهم يساوتهم بالآلهة الصغرى ان هم احرقوا ودفنوا وفقاً للطقوس . وقد رأينا اعلاه بأنهم يقدمون لهم عبادة ضمن الاسرة لا بل وبض الطقوس الاحتفالية ايضاً .

ومع الافعال الدينية نجد تقاليد سحرية تم انتقالها من الخلف الى السلف بصورة شفوية وسرية قبل ان تجر نصوصها بزمان طويل ، هذا التدوين الذي لا يرتقي إلا الى نحو ٦٠٠ او ٥٠٠ سنة ق.م . وتعنى هذه التقاليد السحرية بجميع اعمال الحياة الهامة كتشديد المنزل ، وانتخاب الزوجة ، وتوطيد الحب الزوجي ، وصيانة الطعام وتكثيرها ، والريح في الالعاب ، والنجاح في التجارة ، والنصر في الحرب الخ ... وهي تستعمل خاصة العبارات الممنمة (منقرا) ، والتحويل الى بعض الاشياء والحيوانات ، واخيراً تعاويذ وطلاسم تؤمن حياة طويلة ، وتشفى من الامراض او تقاومها ، وتبعد المؤثرات الشريرة ، وتأتي على الموموم والهواجس ، وتجلب محبة الشخص الحبيب الخ ... كثيراً ما يلجأون الى العرافة وهم يستنجدون لذلك بالاحلام ، و اشارات النجوم ، والدلائل التي يلاحظونها عند تقديم الذبيحة (اتجاه دخان النار ، حركات الحيوان) الخ ... ويدخلون في السحر بعض الضروب التشفية كراقبة التنفس ، والتسبب في العرق ...

وفي عهد يحدوده تقريباً حوالي أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس ق.م. ظهرت عقلية جديدة او بالأحرى استتببت فكرة كانت قد تطورت تطوراً جيداً . وتحتل الذبائح والتقدم المراكز الرئيسي وترافق كل عمل مهم من حياة الفرد او المجتمع . هي التي تحفظ النظام العام وتصبح الواجب الاول لكل انسان ، إذ تعد كدين يجب فرض تأديته نحو الآلهة . وهي التي تضفي على الكاهن سيطرة كلية . وللاحتفاظ بهذه السيادة يستغل البراهمة بعض الوسائل لإبعاد هجمات الشعب المحتمة والتي تساعدهم على حصر الامور المقدسة بيدهم : فهم يلجأون الى العبادات التشفية ، ويسجون حول معارفهم جواً سريعاً ، ويتخذون احتياطات دقيقة لإعلان

إجمادات الآلهة ، ويقون عمداً على الغموض في بعض الدروس التي يلقيونها ، ويفرضون على تلامذتهم عدم البوح بالأسرار . ومع هذا فانهم يقاومون التعاليم الجافة التي تتعلق بالنبأئع والتقدم ويتشبثون لأول مرة بالمبادئ الميتافيزيقية (الماورائية) ومع احتفاظهم بالزور القيدي فانهم أضعفوا فكرة الكائن الواحد ، وحدوده يقولهم هو الحقيقة الوحيدة في العالم وهو إله كلي القدرة يشمل سلطانه الكون بأسره . ويحمل هذا الكائن اسم براهمان (اسم نكرة) . وتمت النفس الفردية (أتمان) الى الجوهر نفسه : وفي « الدروس السرية » او الأوينشاد تظهر هذه الوحدة الجوهرية بين النفس العامة او براهمان والنفس الفردية او أتمان : « وانت أيضاً تكون هو » تقول الأوينشاد للمؤمن محققة والحالة هذه سبقاً عظيماً في التطور الفلسفي . وتحدد هذه النظرية المسندة الى وحدة العالم المجرسة في وحدة الفرد المبادئ المنطقية الميتافيزيقية (او الماورائية) وتتطلب من ثم حلولاً لمختلف المشاكل المطروحة ، لأنه إن كانت هذه الوحدة حقيقية فكيف نفس وضع الانسان 'وويلاته ؟ وتنسب الأوينشاد المصائب الى الفعل (كرم) . فضرورة القيام بالأعمال تولد الكنه الجسدي ، الذي بدوره ينتج العمل . وهكذا نجد حلقة تسمى الأتمان عبثاً للتخلص منها تعود الى حالتها الحقيقية اي لتذيق نفسها في البراهمان . ولأول مرة يظهر سياق المبادئ هذه التي لا يبحثون لها عن سبب آخر وتصيح من ثم نظاماً : انه انتقال الأرواح و التفتص (سماره) الذي لن يعرف نهاية إلا بالتلاشي في الكل الإلهي (براهمان) . ولكن العودة الى البراهمان لن تتم إلا بعد عدد من الولادات المتعاقبة . وكل مرة تظهر على الجسم دلائل الموت تولد حالاً الأتمان مرة ثانية او تبقى منتظرة في العالم القمري الى ان تتلاشى كلياً فاعلمتها مستطع . إذ ذلك الاتحاد جوهرياً في البراهمان . ويمتدرون هذا الامر الخلاص النهائي (موكشا) . وهكذا وضعت المبادئ التي ستبقى الى يومنا هذا شغل الفلسفة الهندية الشاغل . ونتائج هذا النظام بالغة الاهمية : إذ بعد تقرير مبدأ تجزئة المجتمع الى طبقات يندو منطقياً ان لا تنسب قوة الخلاص نفسها الى هؤلاء واولئك . وكيف نفسر هذا الفارق إلا اذا اعتبرنا بأن المقدرة على العمل قد ضعفت بدرجة مختلفة لقل او تكاثر : وان ولد شخص في طبقة البراهمة او فئة الكشترية فذلك يعني بأن اتمان قد أتمت عدداً من الولادات التي ضعفت من قوة الكرم وهذا يعني أيضاً بأنه يقترب من الخلاص النهائى . وهكذا تسمى براهمانية هذا العهد لتحديد معطيات مشكلة التفتص ، وتجعلها تتلاقى مع حالة اجتماعية مستقرة بدل ان تجرد لها الحلول . ونتيجة لهذا التلميع يعترفون بأنه كلما هوى المرء في سلم الطبقات الاجتماعية وغدا من ثم أشد ابتداءً واحتماراً كلما صعب ان يتلاشى الكرم الذي يكبله في سلسلة الولادات المتعاقبة . وإن أتبنا عن ذكر حالة بعض الافراد اليائسة عرفنا بصورة افضل مدى الاصلاح الذي اقترحه بوذا شاكين . وقد ورد هذا الاصلاح في الوقت الذي ظهرت فيه بعض الانتفاضات في العقيدة البراهمانية نفسها . واعتبر شاكين ، كما اعتبر معاصروه ، بأن السماره مشكلة أساسية إذ لا تمت فقط الى مصير الفرد بل أيضاً الى التكوين الاجتماعي بكليته . وهكذا اخذ بوذا يحل هذه

المشكلة بشعور انساني عميق ومتناهي في اللطف وهو يتعارض وقسوة البراهمة التي لا ترحم ، ويعتقد بأن قيمة الفرد لا تستند الى قوة افعاله بل الى مقدرته الشخصية في مجال الرحمة والمحبة والشفقة . انه لا يهتم كثيراً لزورن البراهماني ، وهو يبقه على حاله للذين بشرهم ، وهو لا يعنى إلا بألم الانسان ويسعى لإيجاد داء له . وهو يشرع بتفكير منطقي يستند الى امور يأنف منها كل كائن ذي احساس : الألم والموت . فالوجود ، كما يقول ، يحمل الالم في طياته ، وينتج الالم عن رغبة لا تتحقق ابداً ، وتتأتى الرغبة عن الجهل الروحي الذي يغرر بالمرء فيجعله يعتقد بأن الظاهر هو الحقيقة . وبالأتيان على هذا الجهل تتلاشى الرغبة وينعدم في الوقت نفسه الالم . ولا أهمية للموت ان لم تلتج عنه ولادة ثانية تعيد النظام الاولي الذي يجبر من جديد ان تأتي عليه حلقة حلقة . وللوصول الى الغاية القصوى ، « الزرفانا » ، الذي ينتهي بها كل شيء ، يجب ان تتسع طريقاً فيه التوازن الكلي الذي لا يقودنا الى التشوهات المغشالي فيها والتي يمارسها بعض النساك ، ولا الى الملاهي الجلوج التي تمزقل سير الروح ، انه « طريق وسط » يطبقه كل على نفسه ويتطلب من رجال الدين اكثر مما يفرض على المعلمانيين ، ولكنه يستند الى محبة الغير وعدم الاكترات بالذات والشفقة نحو الجميع

وكان مؤسس العقيدة الجاينية معاصراً لهذا العهد الذي أحدث تجديداً في المجال الفلسفي . وقد أتى بمبادئه ، إن قيست بالعالم البوذية ، تظهر اقل تناغماً مع الرغبات الشعبية . والحلولية التي تشمل الطبيعة بأمرها هي أساس ديانة مسافرا التي تستند اكثر ما يكون على الاعترف (أهيمسا) ، ومنع إيقاع الضرر بالحياة مها كانت مراحل تطورها .

وهكذا نرى بأن هذا العهد الذي يرتقي تقريباً الى القرن السادس ق . م . هو في غاية الاهمية لهم الحضارة الهندية . وفي هذه الفترة بدأ المجتمع يستقر ضمن اشكال ستسع فيما بعد ويستند عليها التطور اللاحق . وظهرت أسس الفلسفة الهندية نفسها التي ستضفي على الهند اهم خصائصها . واخيراً فان نشوء البوذية مهد طرق السيادة للعهد اللاحق الذي سيغدو فاتحة تطور فني وادبي يكون له صدى صاعق في كل مناطق النفوذ الهندي اعني آسيا بأجمعها تقريباً .

تبعاً لهذا التطور الديني والفلسفي بدأ يتسع مدى المعارف التي لها الصفة العلمية البحتة العام
مستعدة حيويتها من الرياضيات وعلم الفلك . وهكذا اذ كان الشعب يكرم زونا تؤلفه اغلبية من قوى الطبيعة المؤلمة اخذ « العالم » الفيدي يقسم الكون ثلاثة اقسام — ويميلون الى الاعتقاد بأن هذا التقسيم الثلاثي يتوافق مع وجهة نظر ايران الافستية . فالارض اولا ، وهي على شكل قرص الشمس وتستند الى المحيط ، ثم السماء او الجسد حيث تسبح الغيوم وتقيم الارياح وتقطن البروق ، واخيراً السماوات العليا التي تحتوي الشمس والقمر والنجوم والسيارات . وتكون الشمس ، وهي على شكل دولا ، القوة الفاعلة الكبرى في هذه المنطقة ، وهي التي تخلق الليل والنهار والشقق والشهر والسنة ، وتسبب هبوب الرياح وتبقى على التوازن بين النجوم

وتضيء وجه القمر . وتدور دورتها على اثنتي عشر مرحلة ، يمثلها اثنا عشر حيواناً ؛ ويعبر عن هذا الامر تقسيم السنة الى اثني عشر شهراً أو اثنتي عشر شهراً : ويظهر جلياً بأن هذه المعلومات تعكس حقائق أشد قدماً، إذ كانوا قد تحدثوا عن الاثني عشر شهراً شمسياً فهناك أيضاً ثلاثة عشر شهراً قرياً . وحددوا أيضاً بدء السنة عند الانقلاب الشتوي ، ولكن يحتفلون بهذا الحدث عند ظهور الربيع . وكان لهم في اول الامر ثلاثة فصول ثم غدت خمسة : الشتاء والربيع والصيف والامطار والحريف . وقسموا غالباً فصل الشتاء قسمين وعدوا كفصل سادس الفصل الذي يسبقه مباشرة ومن خصائصه الانداء .

وتعد ملاحظة كسوف الشمس وخسوف القمر متممة لمراقبة الانقلابات والاعتدالات . ويعزون هذه العوامل الى اسباب خرافية . وهم يعرفون الكسوف والخسوف الكليين ووجود سبعة وعشرين كوكباً سياراً يضيفون اليها الشمس والقمر . وهم يكتشفون الجهات الاربع الرئيسية بواسطة آلة خصوصية هي الغنومون .

والدور الذي يلعبه عالم الفلك - وقد احتكر النساك هذه الصنعة - هو عظيم جداً إذ يشترك في كل الذبائح الكبرى : فهو الذي يعين الوقت المناسب لتقدمتها ، وهو الذي يحدد انواعها عند تبدل الفصول وعند عودة بدء السنة . وهذه الذبائح هي الاكثر اهمية ، خصوصاً ذبيحة الربيع التي تفرض تقدمتها استحمام المرء وفقاً للطقوس .

وقد عمم معطيات علم الفلك مبادئ هندسية وحسابية مع انه من الصعب فرزها عن قبض المبادئ العلمية التي تحيط بها . اتسع كثيراً مدى اسماء الأرقام وعرفوا نحو ثلاثين اسماً اساسياً: واقروا النظام العشري ، معتبرين رقم المئة كالوحدة فيه . ويبدو بأنهم اهتموا جداً لايجاد كيفية يقسمون بموجبها رقم الألف ثلاثة اقسام متساوية . ولكن ازاء هذا النظام الذي يستند الى رقم ١٠ نعرف انظمة أشد قدماً : خصوصاً وحدة الوقت الذي تتخذ لها اساساً الرقم ١٥ والتي تجزىء مدة النهار الى $\frac{1}{10}$ (= برانا) .

وعرفوا علم النبات ومارسوه إذ يت بعري وثيقة الى العالم ، ومن الضروري الوقوف عليه لتبينة الذبائح ، وتركيب الادوية الخ . ويعتبر علم النبات مدمكاً في صرح حب الطبيعة الذي لم تنفض قط الحضارة الهندية يدها منه والتي زادت مدى شروط الحياة الريفية او التقشفية . لذا نرى منذ هذا العهد القديم بأنهم اعاروا اهمية قصوى بتحديد الاسماء النباتية ، الاشجار والاغراس ، وسعوا جهدهم لتصنيف هذه الخلائق . وفي الحالة الاخيرة اخذوا بعين الاعتبار علاقة النبات بالمبادئ الكونية والدينية اكثر من نظرم الى خصائصه الذاتية .

الفصل الثالث

خصائص الحضارة الصينية القديمة

على نقيض حضارة الهند التي كانت لها علاقات مع الغرب فإن الحضارة الصينية قد تطورت وهي تدبر ظهرها الى عالم البحر الابيض المتوسط ، (هنري ميساروا) . ولم يكن لها معه الا علاقات غير مباشرة بواسطة الجماعات السيبرية وقد اتجهت عمداً وقصداً نحو المحيط الهادىء، هذا العالم الذي يختلف كلياً عن العالم الذي حقق تطوره الثقافي (التطور الاوروبي) .

وبدل طباع الهند المتعددة والمتقلبة والتي قد يناقض بعضها بعضاً تقدم الصين تلاحماً متيناً يستند بقوة الى وحدة سكان الصين العرقية . وغدا نظاما الاقطاعي ثم الامبراطوري عـامل وحدة ايضاً في ثقافتها ونظمها اذ فرض بشكل مستديم مجموعة متناسقة من الافكار والتقاليد .

وتهمين الروح الصينية على هذه النظم والآراء ، وتحب هذه الروح الدقة - حتى عندما لا تستند الا الى امور خرافية - وتقدرها حتى قدرها في المكابيل والموازن والمقاييس وفي التواريخ والارقام ، في المسافات وفي المبادئ العلمية . ويقرب منطقها من منطق حضارات حوض البحر المتوسط الابيض . فالنظام الصيني هو اساس الحرية ، والسيطرة على الذات - التي توافق معرفة العالم - هي في الحقيقة حكمة وطمانينة في الحياة . وتمطى هذه الحكمة لمن عرف كيف يهذب نفسه ويتحرر بواسطة امور تقليدية قديمة : اذ وراء واجهة أدبية وتقليدية تحصل حرية المرء بصورة سرية ولكن كاملة الاستقلال . ولا نجد حياة روحية متقلبة : اذ لا يعترف الصيني للآلهة بأي تفوق . فهي كائنات مجردة ؟ بعيدة قد تثير السخرية ، وذلك لأن الصيني بطبيعته يميل نحو الكفر بكل شيء وذلك بصورة سمجة وضاحكة . وهو يعتقد بأن لعبر الماضي وأمثلة الجدود المتوفين أهمية أكبر بكثير ، اذ للتجارب التي تمت في القرون الغابرة قيمة عظمى - وهو يبني سلوكه وحياته على هذه السوابق والتاريخية ، والجديرة بكل احترام . لذا فهو يعشق جداً كتب حياة الاقدمين وسير أعمالهم التي ، على غرار كتاب «حياة الرجال العظام» لبلوترك ؟ تقوده في الحياة مها بلغ عمره وجنسه وحاله ودوره في المجتمع ، وهو اذ يجنح وحذوهم يكون

(١) يستند هذا الفصل على نطاق واسع الى نظريات مرسيل غرانه .

أكيداً بأنه يبقى جزءاً من كل ينتمي اليه ، اذ الفرد يعرفه لا يعيش وحيداً ، وهو لا ينفصل عن الطبيعة ولا عن المجتمع الانساني ؛ والهدف الذي يصبو اليه هو رفقة حسنة وصادقة - تستندان الى الآداب واللباقات - تؤمنان سلاماً سمحاً يندو وليد النظام . وتتلخص غايته بأمرين : فهم الغير والوفاق معه . وهكذا يحصل حسن تقام الانسان مع أخيه ومع الطبيعة ، هذا التفاهم الذي ينتج النظام الحثيث . ومع هذا لا نجد صلابة ، ولا قوانين دقيقة متحجرة ، ولا موجبات مطلقة : بل أموراً حسية ولكنها غير محددة حتى تأخذ الحياة مجراها « وتلعب لعبتها » من خلال اللباقات والتقاليد .

وتهمين فكرة « اللعبة » على النشاط الفردي والجماعي . وعليها تستند الطقوس التي تجدد ، دون انقطاع ، مختلف مراحل الحياة الجماعية واطوار التاريخ وتقلبات الزمن . وتتساقط هذه الفكرة مع قواعد علم الطبيعيات الصيني الذي يندو العالم الانساني صورة طبق الاصل عنه .

ويستند علم الطبيعيات هذا الى مبدأين اساسيين : الوقت والمدى . ويقسم هذان اقساماً متساوية لهما في الجوهر . فالمدى ، اي الارض ، هو محصور ضمن مربع ، ويميزاً اجزاء مربعة الشكل ايضاً : الحقول والمدن وهيكل التراب والمجالس والاملاك الملكية والامبراطورية بأسرها . ويوجدون هذا المربع بشكل يتلاقى معه كل ضلع مع احدى الجهات الرئيسية . وأحد الفصول . ولكل ضلع لون معين : فهو اخضر شرقاً (الربيع) واحمر جنوبياً (الصيف) وابيض غرباً (الخريف) واسود او اصفر شمالاً (الشتاء) . ويفصل المدى ، الذي عينوا له هذه الحدود وتلك الجهات ، اجزاء اجزاء يصبح وسطها المبدئي من املاك الساحل . وتعرض هذه النظرية بمثل القواعد الاجتماعية وتحفظ تناسق الدولة في مختلف اجزائها ؛ وبموجب طقوس محددة ومناسبة يحتفظ الوسط وحده بقوة المدى كله ، وعلى الاجزاء التي على الجوانب ان تأتي في أوقات معينة - بواسطة ممثلها - لتجدد قواها لدن المدى الوسطي . لذا وجب على حكام ورؤساء المقاطعات ان يأتوا كل سنة الى العاصمة يقدمون تقارير عن حكمهم وادارتهم الى الملك او الامبراطور . وحسب تقليد قديم يطوف الامبراطور مرة كل خمس سنوات على المقاطعات . وليرافق بين الزمن والمدى يتبع الامبراطور في عمله هذا نظام سير الشمس (شرقاً فجنوباً فغرباً فشمالاً) ويتوقف في كل جزء حسب احد فصول السنة الذي يختص به .

ويشبه نظام الزمن نظام المدى هذا . وكما يجب تجديد القوى في مجال المدى ، يجب ايضاً الاحتفاظ بحياة الزمن وذلك بتجديده . وتوزع مواعيد هذا التجديد على مددات غير متساوية ، ولكنها تتبع كلها نظاماً لا يتبدل : فقيام ملك جديد يلزم انشاء عهد جديد تعرف نهايته وتتوقع عودته ويعني طقسياً نهاية تقويم أتى الزمن عليه وبدء تقويم جديد يدوم ما دامت تلك السلطة قائمة . لذا تعطي الطقوس الملك او الامبراطور سلطة احياء الزمن والمدى لصالح اتحاد المقاطعات والمجتمع الفدرالي . وتشعر هذه المقاطعات وتلك الجماعات بضرورة تجديد دوري لا يستطيع

بدونه أي نظام ان يستمر. فالوقت اذن هو الهدب الطبيعي لكل أمر يريد الاستمرار ، وهذه رغبة الصينيين القصوى .

لذا لا تغدو العاصمة مركز الامبراطورية المحمي فقط، بل أيضاً المقام الوحيد للمدى والزمن. وتصبح مقدسة (حسب بعض التقاليد) ان كان لها « بيت التقويم » (مينغ فانغ) يمثل شكله بصورة مصغرة العالم : فهو يتألف من قسم أساسي مربع يمثل الارض وسقف من العشب على شكل نصف دائرة يمثل السماء. ويقع فيه الامبراطور الحفلات لافتتاح الفصول والشهور المتعاقبة. ولهذا الغرض يدخل تحت القبة السارية ، ثم يتجه نحو الشرق وهو يرتدي اللون المناسب ليتمم الطقوس التي تجدد الزمن في وسط المدى نفسه .

ونجد مبدأ الوسط هذا في المدى والزمن أيضاً ، والى هذه العقيدة تستند سلسلة المراتب التي اكتسبت أهمية كبرى في الصين الامبراطورية . ولكن هناك أيضاً مبدأ التعاقب والتناقض الذي ينعكس حتى على المعارك الطقسية والرفقات المتناقضة والذي قد يرقى الى تقليد اكثر قدماً . ويقوم مبدأ التعاقب هذا على أمر قوي يليه أمر ضعيف بصورة تتوافق مع مسافة ملاءى وأخرى فارغة. واذ نظم الصينيون العالم على هذا الشكل ادخلوا في الاجزاء الحسنة كل الطبقات الاجتماعية مع فضائلها وخصائصها ، والظروف ، والمواقع ، واشكال الفن النخ ، فحققوا والحالة هذه لكل القوى الفاعلة نظاماً لا شائبة فيه ، وقد اخضعوا هذه القوى الى ترتيب اعتبروه في غاية الدقة . وكان تلاحم هذا التقسيم المنطقي كافياً لتأمين فعالية كاملة لكل ما حواه .

ويلاقي التوافق الذي يهيمن على المدى والزمن جواباً له في نظرية « ين » و« ينغ » الشهيرة اللذين يجتمعان في « الطاو » او العالم. والى هذه النظرية يستند كنه الفلسفة الصينية. وقد فتح تحديد هاتين الكلمتين المجال واسعاً امام تفسيرات شتى . ويبدو بأن المعلومات التي تشير ان اليها موجودة في مجموعة المعارف التي تسيطر عليها فكرة التناسق . ولكن لم تظهر الرموز التي تجسدها - والتي اخذوها كما يبدو من مادة علم الفلك - قبل القرن الثالث ق. م. ومع هذا غدا لهاتين الكلمتين قبل هذا العهد بقرنين خصائص تناقض بعضها بعضاً ، كما هو ثابت في « شي-كينغ » مثلاً . ولا يجب ان نتقيد في هذا المجال بتحديد مجرد او شديد الدقة يمثل لنا اموراً متناقضة « ين » اي الشمال والظل والبرد والجنس الانثوي النخ ، وينغ الذي يمثل الجنوب ، والامكنة المشمسة والحرارة والجنس الذكر النخ) ولكن علينا ان نترك ليونة كبرى في هذا المضار ، « لعبة » تتناسب مع التفكير الصيني . اذ لا يفرق الصينيون بين والينغ عن الحقائق الاجتماعية التي تروحي هذه الرموز الى ترتيبها (مرسيل غرانه) . وقد لا يكون في الامر حقيقتان تتناقضان بل رمزان متحدان يلخصان في كنهها بقية الرموز . و « عنوانان اساسيان » يحتويان على كل شيء آخر . وهذا ما يفرض عليها القوة والسلطة اللتين يتمتعان بها اذ يرمزان وحدهما الى جموع المتناقضات والى التناسق الذي يكثف العالم . ولا تجعل منها صفاتها التي تبدو على

طريفي تقيض عددين متنافرين ؛ بل يؤمنان بالعكس اكتمال كلِّ مختلف اجزائه جوهراً وكنها .
ويبدو الين والينغ ، وهما صلة الوصل بين المدى والزمن التي تظهر على شكل (S) كأنها مبادئ
تعاقب الفصول ؛ هذا هو الاساس الجوهري للحياة الاجتماعية بكاملها . ويعود الى الرئيس انت
ينشط تعاقبها ، وينعش قواها العجيبة ، وينظم فاعليتها الشئانية . ويمثل الين والينغ ، وهما
الغريمان المتضامنان ، اختلاف الاجناس واتحادها ، اي اساس النظام الاجتماعي ومن ثم النظام
العام . فهما يعبران في الوقت ذاته عن تضاد وحدتين وعن كل يكونه نصفان . وهما لا يتمازجان
إلا ليتم احدهما الآخر ويكونا وحدة مستقلة .

وهذه الوحدة هي الطاو (الطريق ، الاتجاه) ، مبدأ نظام ذي فعالية عظمى ، وقوة
تنظيمية ؛ ولا تحتكر المدرسة الطاوية هذه النظرية بل هي ملك التفكير العام . ويتنظم كل شيء
في هذا المبدأ كما هو جار في المدى والزمن : ويحتوي الين والينغ ، وهما القسيان الكبيران ،
تقسيمات عدة ثانوية لكل منها خمسة اوستة حقائق تتجزأ بدورها حسب الجهات الاربع والست ،
فيقابل الشرق مثل الربيع واللون الاخضر وعنصر الحشب والعلامة الموسيقية الحامسة ، ويقابل
الوسط منتصف الفصول وعنصر التراب والعلامة الموسيقية الاولى الخ . وتجتمع هذه الاجزاء
المتضامنة وتتنظم معاً لتعطي الطاو وحدته . وهكذا يفسر النظام الكوني وكل مظاهر الحياة
مع اسبابها الموجبة . ونجد ايضاً من ثم حلا لكل وضع وساوك وتبديل . ويقرر الطاو التفاصيل
كما يحقق المجموع ، فنظفر من ثم بالنظام الذي ييمن على القوى العقلية الفاعلة كما يسيطر على حياة
العالم ، هذا النظام الفعّال والشامل الذي يمثل هدف النفسية الصينية الأعظم . والطاو ، وهو
الطريق والسبيل ، على علاقة وارتباط مع الطرق العظيمة الموجهة التي تنتهي الى وسط العاصمة ،
اعني الى بيت التكوين (مينغ تانغ) او الى العامود الذي نصبوه على مفترق الطرق الرئيسية ،
حيث - عند الظهر - لا يسمع اي صدى ولا يعطي ظلاً اي جسم وإن انتصب مستقيماً . وهذه
الصورة للوحدة المركزية التي تطفو على كل الخلافات هي ، حسب الحرافات ، صورة العالم حيث
ترتفع في وسطه شجرة عجيبة ؛ والامبراطور الذي ينتصب مستقيماً في وسط العالم هو المحور
ويسيطر على الطريق (الطاو) حيث تلتقي السماء والارض . وان وجدنا في هذه النظرية بعض
المبادئ التي لاقتها في الهند القديمة فمن بان الصين توصلت الى الشوط النهائي على مراحل مختلفة
وبفضل قياس حسي أكثر مما هو منطقي .

وداخل هذا البناء المتناسك أكثر الصينيون من التسيمات التي تختلف رتبة ومغزلة وذلك
بواسطة جداول وفهارس تحير مقياس المقارنة فيها الفكر الغربي ولكن تستوجبها فكرة وحدة
العالم الدقيقة وتضامن الأمور الذي يلعب دوره في هذا المجال . وتجد العقلية الصينية مداها
الرحب في هذا المضار .

ان معظم المعاوامات التي نعاثر عليها هنا وهناك والتي تتعلق بهذا الطور القديم
المطان والمستندت
تأتيان من النقوش المحفورة على العظام أو فلوس السلاحف أو قطع النحاس ،

أو من نصوص الأدب الكلاسيكي الكونفوشياني . وترتقي أقدم هذه النصوص الى القرنين الحادي عشر والعاشر ق. م . ولكن لا يعود أصداقها من الوجهة التاريخية إلا الى فترة تتراوح ما بين سنة ٧٧٢ و ٤٨١ ق. م . ونجد معها غالباً تعليقات خاصة في القرنين الثالث والثاني ، وعلى أساس هذه المظلمات سينسج بلا مثل فلاسفة وأدباء القرون القادمة دون ان يزيدوا إلا القليل القليل من الجديد . وتحوي الكتب المدرسية (كينغ) مجموعة كبرى من المعلومات المختلفة عبروا عنها بأساليب لا تقل عنها اختلافاً : أمور سحرية في « كتاب التفسيرات » (بي - كينغ) ، وخطب سياسية وقرارات وتفاصيل عن سير الاعمال الادارية في « كتاب التاريخ » (شو - كينغ) ، واغاني حب وترانيم دينية وقصائد طقسبة وانشيد للأعياد في « كتاب الشعر » (شي - كينغ) ، وسرد تاريخي في « كتاب الاخبار » (تش ، وان تس ، اياو وحرافياً فصول الربيع والحريف) الخ .

وهذه المستندات ادبية في مجملها ولها مسحة اكايدية ورسمية . وهي لا تدع المجال الا قليلاً للتفكير بالاساس الشمي ، وردة فعل الجماهير ، ولا تتقل البنا الا مظهر الحضارة الرسمي ، وكل ما يميز الارستوقراطية الصينية بما فيه مغالاتها في الدقة وتمسكها في المسائل الشكلية وحياتها المصطنع الذي يعتبر الياقات قوانين وقواعد . وفضلاً عن المعلومات التاريخية الدقيقة جداً التي يقدمها لنا « كتاب التاريخ » فإننا نستطيع ان نستخلص فكرة شاملة عن عقائد وتقاليد التشاو . لذا نرى في « كتاب التفسيرات » ظهور مبدأي بن وينغ اللذين يكونان العالم او الطاو . وفي « كتاب التاريخ » تأكيد مبدأ الموافقة بين الانسان والعالم بواسطة العناصر والجهات الرئيسية الخ . والطقوس ، اساس الحضارة الصينية ، هي في عهد نوها وتطورها ، ولن توضع لها نصوص كتابية الا ما بين القرن الرابع والقرن الاول ق. م . في ثلاثة كتب رئيسية هي « طقس التشاو » (تشاوي) ، « بي و لي كي . وترتقي هذه الكتب الى عهد لاحق بكثير لكونفوشيوس ولكنها تعبر عن تعاليمه .

وتهمين على عهد التشاو شخصية كونفوشيوس (حقيقية كانت او خرافية) وخلفائه كمنشيوس (مونغ تسو) الذي عاش في القسم الثاني من القرن الرابع ق. م . وسيوت كوانغ ما بين سنة ٣٠٠ و سنة ٢٣٠ ق. م .) وتتطور الآداب الكونفوشيانية مستندة الى الطقوس وساعية لنشر وتدعيم السلام في المجتمع وفي نفوس الافراد على حد سواء . وبالقبالة نرى مبادئ الفلسفة الطاوية تعرض في كتب ثلاثة تظهر في القرنين الرابع والثالث ق. م . وهي : كتاب الطاو والمو (لاو - تسو او طار - طو كينغ) وكتاب تشوانغ تسو ولي تسو . وتدعم هذه الكتب سلسلة من المنشورات العقائدية التي تسعى لاحياء السلطة الحكومية بواسطة قانون جزائي . ويعتق كتاب كيثرون يتمون الى مختلف العقائد الدينية « مدرسة القوانين » هذه ، التي يمثلها خاصة كونغ - سوان بنغ (ويعزون اليه كتاب تشاوانغ تسو) وبين ون تسو وهان في تسو .

وفي الوقت ذاته نجد عدة مجار فكرية اخرى : مدرسة موئي (بين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٩٠٠ ق. م) . ويعتقدون بأنه مؤلف كتاب موتسيو ، ومدرسة « الحكماء » المدعوة مدرسة الاسماء ومدرسة السياسيين ، ومدرسة الانتقائين ... وقد قالت كلها بالاصلاحات ، وبالرجوع الى الماضي السحيق او بالقيام بثورات . وهي تسند كل مبادئها الى السياسة والمعموم المسادية اكثر بكثير من اسنادها الى عقائد فلسفية مجتة .

وبواسطة هذه المجموعة الادبية ، المرسومة او المنقوشة ، نستطيع ان نعيد بناء صرح الحضارة الصينية . ولا يخفى هذا الامر من الخلل اذ يستعين بمطابق ومستندات عقلية وارستوقراطية اكثر مما يجب ؛ لذلك لا نستطيع الاعتماد الا بصورة جزئية جداً الى الاشياء والآثار المادية .

اللغة الصينية لغة ذات مقطع واحد ويعبر عنها بإشارات او « حروف » .
 واللغة والكتابية
 وتختلف اللغة المحكية اختلافاً كلياً عن اللغة المكتوبة إذ تخضع كلياً لكيفية النغم في اللفظ . وهي فقيرة جداً من حيث الحروف الصوتية ولكنها على نقيض ذلك دقيقة جداً من حيث استعمال التبرة . وتلاقي في حالتها هذه صعوبات كبيرة للاعراب بصورة واضحة عن الفكرة المجردة . انها لا تليق قط للامور العلمية ولا تصلح لتحليل الافكار بل تمجيد الحقائق المعاكسة . وهذا ما يفسر لنا جزئياً بعض تطورات الآداب الصينية التي سهلت هنا وتعمرت هناك . ولكن يستحيل فهم كنه الحضارة الصينية إن جهل المرء تماماً بعض خصائص اللغة الصينية . ويسهل هذا الامر عندما نعرف مثلاً بأن نفس الكلمة ، «وين» مثلاً ، تدل بالوقت ذاته على الكتابة والرسم والادب والحضارة .

ومع كل هذه الصعوبات بقيت اللغة الصينية لمدة طويلة لغة حضارة زاوية ووسيلة لنشرها في جزء فسح من آسيا .

لمحة تاريخية
 منذ زمن متوغل في القدم - لا نستطيع تقديره بالتدقيق - بدت البلاد الصينية وكأنها قسمان مختلفان : جزء من السهول المزروعة والتي تستثمرها جماعات من الفلاحين ، وقسم من المناطق الغفل حيث يعيش صيادون على شيء كثير من البداوة . وإن نحن قدرنا بأن حكم السلالات الأشد قدماً يرتقي الى ما بين القرنين العشرين والخامس عشر ق. م . استطعنا ان نعود الى هذه الفترة المصنوعات الخزفية الزينة « بالمشط » التي توافق بعض المواقف زميلاتها في روسيا الجنوبية او سيبيريا . وحوالي سنة ١٧٠٠ (?) تظهر لنا بعض المصنوعات الخزفية الأكثر تطوراً والتي عثر عليها في هو - نان (ينغ - شاو وكين - ونغ - تشاي) قدماً حضارياً محسوساً وذلك نسبة لتحسينها التقني ورسمها ، مع ان تلك الحضارة لم تزل في طورها والحرفاني السابق للتاريخ . ويعود هذا العهد كما يعتقدون الى حكم سلالة « هيا » . وتمقبتها سلالة شنغ (ما بين سنة ١٥٤٣ وسنة ١٠٢٨ تقريباً ؟) . وفي فجر حكم هذه السلالة تبرز مصنوعات من الخزف (دعوها مصنوعات بان - شان في كان - سو) وقد بلغ فن تزيينها دقة وجالاً لا نجد لها

مثيلاً في المناطق التي نستطيع ان نقارن بين مصنوعاتها الخزفية في الصور الذي سبق التاريخ وبين الخزفيات الصينية التي تتحدث عنها كبلاد اوكرانيا ورومانيا . وبعد فترة (حوالي القرن الرابع عشر ق.م.) تظهر فجأة عاصمة شنغية : نغان - ينغ الواقعة في أقصى شمال مقاطعة هونان الحالية (حوالي القرن الثاني عشر ق.م.) ولها جميع الخصائص التي تميز بها حضارة كثيرة التطور الى مبانٍ فسيحة ، وقبور ، وآثار قرابين ، وطقوس سحرية ، وأدوات عبادة ، وفنون استئجار النحاس والرخام واليشب ، وكتابات . ويضعنا فجأة علم الآثار وجهاً الى وجه أمام احدى عواصم الشنغ الاخيرة ، إذ لم يعثر بعد على العواصم التي سبقها في الزمن والتي ترتقي الى حوالي ثلاثة قرون سابقة . وهكذا دون ان نقف على جميع مراحل تكوين حضارة تسارعى الانظار ، نجتاز بصورة مفاجئة من مرحلة مصنوعات خزفية ترتقي الى ما قبل التاريخ الى مرحلة استعمال مواد صلبة كالرخام واليشب والعظم استملاً دقيقاً ، ثم الى فن استئجار النحاس الذي يتطلب أدوات خصوصية ويفتح مجالات رحبة عدة . ونصل بعدئذ الى فن اللإيقونات يدور كلياً تقريباً على اشكال حيوانية ويدل ، لكثرة الألغاز التي يثيرها ، على رموز ميشولوجية ، ثم اخيراً الى نوع من الكتابة التصويرية . سيتولد عنها رويداً رويداً نظام « الاحرف » الصينية . وتمثل لنا نغان - ينغ حقاً ذروة الفن الصيني القديم بما تقدمه لنا من نقوش رخامية وادوات نحاسية طقسية دقيقة الصنع وفائقة الجمال : ولن يتوصلوا قط في الازمنة اللاحقة الى روعة هذه الادوات النحاسية ، كما لن يتوصلوا إلا بعد مرور قرون عدة الى مثل هذه النقوش الحجرية الناتجة . وتتفق هذه الاكتشافات مع التقاليد الصينية التاريخية التي تبرز بكل وضوح أهمية وعظمة بلاط سلالة الشنغ .

ولكن لا تكتسب المعطيات التاريخية قوة ووزناً الا مع بدء حكم سلالة التشاو . وسمحت سيول المهاجرين الصينيين الذين تقدموا رويداً رويداً بفتحاتهم نحو الشمال والغرب والجنوب ابتداء من السهل الكبير ، نقطة انطلاقهم ، الى استقرار الاسر الارستوقراطية استقراراً ثابتاً . واستوطنت أسرة التشاو في وادي «وي» العالي في شن سي (العاصمة تشانغ - نغان) . وعاشت الحياة الاقطاعية المعروفة في ذلك العهد تسيرها ضرورات الانتاج الزراعي والبيع المسلح عن مناطقها ضد هجمات القبائل شبه البربرية التي كانت تحيط بالاراضي الزراعية . وقوت حياة التشقف والجد هذه أحد أفراد اسرة تشاو (وفا - ونغ) فنار على آخر ملوك الشنغ في القرن الحادي عشر ق . م . بعد ان لس منه ضعفاً ، ثم هاجمه وظهر به وأعلن نفسه ملكاً .

وغدا هذا الحادث فجر عهد سيدوم قرابة ثلاثة قرون تسيطر أثناءها السلالة الجديدة على مصير وتطور الحضارة الصينية . ولم يحدث هذا التطور دون عائق اذ لم يحصر التشاو بين يدهم السلطة المطلقة : لقد حكموا فقط أقوى مملكة في عهدهم واجبروا على خوض معارك دون هوادة ضد الامارات الثلاث الاشد قوة التي كانت تتفاسم بقية المنطقة « المتحضرة » . واتبوا حياة

إقطاعية تشبه كثيراً الحياة التي سيطرت في الغرب أيام نظام الفروسية. واصبحت تلك الحروب حروب إقطاعية ضد إقطاعية ومعارك إقطاعية ضد إقطاعية تتبعها سكينه التابع في بلاط السيد المتبوع في وسط أُنقى يشبه بلاط القرون الوسطى .

وسنة ٧٧١ ق . م سقطت عاصمة التشاو بيد « برابرة الغرب » أثر هجوم صاعق شنوه على حين غرة . واجبر التشاو على التقهقر نحو هو - نان و فقدوا في مقرم الجديد صفاتهم الحربية



الشكل ٣٤ - الصين حتى سقوط سلالة المان

وشكيتهم التي جعلت منهم اشهر زعماء الصين القديمة واستلموا لسلطان الامراء الإقطاعيين . واستمروا طويلا على هذه الحالة كملوك خاملين . ومع هذا ولد (٥٥١ - ٥٥٠) في مملكتهم و أيام حكمهم الفيلسوف العظيم كونفوشيوس (الذي غذا لتعاليمه الصدى البعيد الذي نعرف) . وسنة ٤٤٠ انقسمت سلالة التشاو الى دوجتين تتحكان في وقت اخذت فيه سائر الامارات تنقوى ، خاصة امارات تس إن وتشو وتسين التي كانت تخضع للتشاو . او تتقرب منهم . وتعددت الحروب الداخلية او المارك التي خاضتها اماره ضد الاخرى وهكذا جزئت التسين

وقامت على انقاضها ثلاث امارت اخرى،التشاور والهان و«وي». واستمرت هذه الحالة السياسية القلقة والمتقلبة وفقاً لاهواء واقدار القتال حتى سنة ٣٣٥ ق. م. : عندما حقق الامراء الاقطاعيون الأشد شكسية تجزئة المملكة واتخذ كل منهم لقب « الملك » : وهذا هو بدء عهد قيام «الممالك المحاربة» (التي وجدت بصورة عملية منذ سنة ٤٨١) . وهذا العهد هو فترة حروب متواصلة ، وغالباً غير مشرفة جندت لها الجماهير الشعبية كما جندت فرق المرتزقة ، ولكن بدأت مملكة تسين منذ سنة ٣١٠ توحيد البلاد لمصلحتها . وقد انتهت عملها هذا سنة ٢٢١ : « وقد اسست الامبراطورية الصينية في نفس الوقت الذي حققت فيه الوحدة الصينية » . (رنيه غروسه) .

الفصل الرابع

الحضارة الصينية أيام الشنغ والتشاو

١ - عهد الشنغ

مع انه يستحيل علينا تحديد المراحل الزمنية لهذا العهد فقد حصلنا على بعض التفاصيل التي تصفه لنا بصورة قد تكون مجدية . وتتألف الصين في هذا الطور من بقعة متحضرة وسط شعوب من البرابرة . ومن المحتمل بأن شعب هذه الجزيرة قسم قسمين كما سيحصل في الزمن اللاحق . وعلى رأس المراتب يوجد الملك (ونغ) الذي ينظم في الوقت ذاته الامور الدينية والمسائل المدنية والادارية . ولكن من المحتمل بأنه كان لموجباته الدينية ، كما حصل في ازمته ما قبل التاريخ - الافضلية على مهامه المدنية . وعاش الملك ، وهو شخص مقدس ، في قصر منفرد ، يقوم باتمام الطقوس الموسمية والرسمية ، اذ يستند اليه نظام العالم الطبيعي . واقم المقر الملكي ايام الشنغ ، كما كان ايضاً عهد التشاو ، في احدى ضواحي العاصمة الجنوبية - الغربية . ومع هذا يظهر بأن الملك سكن في العاصمة . وكانت سلطته مبدئياً مطلقة . ولكن بقي الملك مع هذا اساس نظام سياسي محدد ينقل الوزراء وكبار القواد والموظفين اوامره ، وذلك نسبة الى عزله المقدسة التي فرضت قديماً سطاء بينه وبين شعبه . ويقدم الملك كل الذبايح الكبرى الى الالهة او الجدود الاموات . وهو الذي يستشيرهم بواسطة السحر عن الحصاد وتربية المواشي وهبوب الارياح وهطول الامطار الخ ، وقد يقوم ، عندما يستلم زمام السلطة ، برقصة تذكر بانتصارات جودده الميثولوجية .

ويعيش الملك في قصر قائم في العاصمة . ويحيط به وزيره الاول (كنج - شه) وكبار قواده الذين يتقلون اوامره وقراراته ، ويسهرون على تنفيذ اصول اللباقات اثناء الاحتفالات الكبرى ، ويعدون ويحفظون المستندات الملكية ، ويقومون ببعض الطقوس ، ويسهرون على الكنز الملكي ويحفظونه . وهناك موظفون آخرون يساعدون كبار رجال الادارة هؤلاء . فهم

الذين يسهرون على تهيئة الطعام للقصر ، ونظافته وامنه . ويوجد بخدم (شو) مخصصون لخدمة نساء القصر .

ويتم الملك بالدرجة الاولى بالانتاج الزراعي ، فيعين مفتشوه البذار ويراقبون الحصاد . ولا تختلف حياة الفلاح اختلافاً كبيراً عن الحالة التي ستصبح عليها ايام حكم السلالات اللاحقة ، أو تلك التي سبق عليها حتى عصرنا الحاضر . ولكن مع هذا يجب الاقرار بأنها كانت اكثر بداءة . واشهر مزروعات الحبوب استناداً الى طبيعة الارض هي الجاورس والحنطة والارز . وتحمي الاراضي المزروعة كوم من التراب . ويسكن الفلاحون في مغاور يحفرونها في الصخور وقد تلامس اللس (الارض الرسوبية) في المناطق الشرقية . ولم تكن البيوت - ان كانوا قد عرفوها في ذلك العهد - الا من السياح ، ولا تستطيع مقاومة تقلبات الطقس . واعتنوا بتربية الثيران الداجنة والاحصنة . الحنازير والحرف ، التي كانت تقدم ذبائح .

ويظهر بأن الحرب والقنص كانا من امتيازات النبلاء . واستفتى الملك فلوس السلاحف المقدسة ليصرف اذا كانت الارياح ستعترض اعماله هذه او اذا كان عليه ان يتخذ قراراً بفرضه الحوادث . ويتألف الجيش من الخيالة وعجلات الحرب والمشاة ، وكان هؤلاء من الفلاحين بينا اتمى اولئك الى النبلاء . ويذكرون جيشاً يعد ثلاثة آلاف رجل ، وفرقة من الخيالة تنقسم الى ثلاثة اقسام يضم كل منها مئة خيال . والاسلحة على شيء كثير من الاختلاف والتطور ، ويصنعونها خاصة من النحاس اذ ان الحجر واليشب اصبحا يستعملان فقط للأسلحة الطقسية . ولن يظهر الحديد الا في أواخر عهد التشاو . ومن الأسلحة التي يعدونها السيف والقوس (التي تصلح لاطلاق النبال او الكرات) ، والسهم والفأس والحربة . . وكانت الورقة من جلد . وتعاطوا القنص في الادغال التي تحيط بالاراضي المزروعة ، ويقومون به بجيش من المساعدين يقتلون او يقبضون على النمر والفهد والهر البري والسبتي والدب والثور الوحشي والفيل والكركدن والذئب والحنزير البري والضبع . وكانت هناك اقل طرائد اقل شراسة تسرح زرافات زرافات كالابل والوعل والسعدان والارنب والمصفور . . .

وان احتلت الزراعة المركز الاول في الحياة الصينية كما تثبت ذلك السؤالات والاجوبة المتقوشة على الفلوس او العظام السحرية ، فان الآثار القديمة التي وصلتنا تثبت ايضاً قيام بعض الفنون التقنية ومن ثم بعض المهن التي لا نعرف عنها مع هذا اي ايضاح . فهم يشتغلون العظم والعاج ، ويستثمرون وينحتون اليشب ، ويحفرون على فلوس السلاحف وقرون الكركدن والعظم والعاج واليشب والنحاس والحزيران . وقد توصلوا الى اذابة النحاس واعطائه الاشكال التي يريدون ، وعجن الحزف وشبه واعطائه مختلف الهيئات .

ومن الصعب جداً ايضاً الوقوف على المتقدات التي سادت في ذلك العصر ، مع الجهود التي بذلت في هذا المجال منذ اقدم الازمنة . ولكن باستطاعتنا التأكيد بان المعلومات التي وصلتنا والتي تتعلق بالفلاحة والمهرات والطقوس والموسيقى والتقويم واعمال المساحة هي قريبة جداً

من الحقيقة ، ولكنها ستبلى أكثر أيام التشاور . لذا سنأتي فيما بعد على دراستها .

٢ - الحضارة الصينية أيام التشاور

ان توسع المجتمع أيام التشاور والتطور السياسي والاداري الذي حصل بصورة سريعة في بعض الامارات (كاماراة تس ين مثلا) منذ أواخر القرن الخامس ميلاد كل وصف يعطى بصورة قاطعة أمراً تحكيمياً . وعلينا ان نفهم بأن كل ما سنأتي على ذكره يختص بصورة اولية بالمناطق التي خضعت مباشرة للإدارة الملكية ؛ وسنقدر من ثم دون صعوبة مدى ما نحن مدينون به لكتاب هنري مسبرو « الصين القديمة » .

أصبح القنص والصيد وسيلتين للهو والتسلية أكثر مما هما وسائل لكسب العيش ، المستندات ولكنها يعودان مع هذا بالرياح الوفير . ويستعملون للقنص الحصان . أما الاسلحة فهي القوس والنبال ذوات الرأس المدني والشباك والمصائد . والطريدة متنوعة جداً : الرهو والتدرج والحضاري والأوز البري والساوي والأرنب وعتاق الأرض والبربوع والضبع والسنور البري والوعلة والأيل والخنزير البري والكركدن والثور والنمر الخ . والقنص هو لهُو النبلاء والسادة . وقنص الحيوانات المفترسة هو لهُوم المفضل ، وهو من الألعاب الرياضية الشرسة يقومون به جماعات جماعات ويشبهونه بأقامة اعياد يفرضون فيها أكلاً وشرباً . ويعتبره الفلاح عمل سخرة يقوم به لإعالة سيده .

أما الصيد فهو أقل ذكراً من القنص ويستعملون له القراطل والشباك الصغيرة والكبيرة . وهم يعددون نحو عشرة اصناف مختلفة من الاسماك التي تستعمل للغذاء .

ولكن تطفو الزراعة على كل نشاط آخر . فان الانتصار على الأرض ، وقد اشتد الصراع ضدها بكل شجاعة منذ عهد لا يدرك بدأه عقل ، لا يتبع حتى ذلك التاريخ تخصيص هذه المنطقة لنوع من المزروعات ، كما سيحدث فيما بعد : فالمنطقة الواحدة تنتج كل ما يحتاجون اليه . ومع تطور الجماعات الريفية كثر عدد الاصناف المزروعة ، واتسعت اعمال قطع الغابات ، وتزايدت افعال تهيبته الأرض للزرع بواسطة الماء والنار . وهم يستعملون الحراث والمنجل والفأس ، وكلها من معدن ، وخاصة المجرقة . ويسرون في زراعتهم على المبدأ المتبع في زراعة الخضار إذ ان الحقول هي قليلة المساحة ويستثمرونها كما يستثمرون البساتين . وتضد المزروعات حول الأرض المرتفعة التي يسكنونها ، تجاور البيت المزروعات الأكثر قيمة : بستان الخضار ثم الأشجار المثمرة ، وعلى بعض المسافة حقول النباتات الفسيحة وأهمها القنب ، ثم الخضار الجافة والحبوب ، واخيراً في أقصى جهات الأرض المروية حقول الأرز .

وأضافوا الى مزروعات العهد السابق (الجاورس والخنطة والشعير والأرز) الذرة والكوسى والخيار واللوبياء والحصى (وهم يعرفون الاحتماظ بهذه الاصناف يابسة) والبطيخ والتار التي تؤكل ، يضيفون اليها العنب البري والبصل والثوم وبعض انواع الاعشاب التي يستعملونها

كنوابل . وتنمو في البساتين شجرة التوت وانواع عدة من الأشجار المثمرة (كأشجار الكثرى والكرز والدرافق والمشمش والسررجل والخوخ والكستنا والعناب ، وقد أدخلوا هذه الثمار الثلاث الاخيرة في بعض ألوان الطعام) . واعتنوا بصورة خاصة بشجرة التوت ورسمة القنب وهما منابع مرائب . وتستثمر شجرة التوت لتربية دود القز التي تغذي خيوطها المستخرجة أيام الحرير أعمال النسيج طوال أسابيع الشتاء . وهم ينسجون القنب في الربيع . ويستثمرون أيضاً بعض أصناف اشجار الفسابات (كأشجار البندق والهور والسنديان والردار ...) . ويعتنون بتربية المواشي ، ولكن يظهر بأنهم لم يوجدوا قطعاناً كثيرة العدد . وقد تنحصر حيوانات هذه الاقطاع ببعض الأحصنة والثيران والخراف . ولا يعتمدون على هذه الحيوانات لجر العربات إذ يقوم الانسان بمعظم الاشغال مستعيناً بالسلال والقفف ، مع انهم عرفوا العربات . ويربون حيوانات داجنة للتغذية : كالخنزير والارنب والدجاج والعصافير . ولا بد من إضافة الهر والكلب والوعل الى هذه الاصناف ، وحتى القيل أيضاً في مناطق الجنوب .

ويختلف المتزوج الزراعي باختلاف المناطق ، وتبعاً لحسب الارض وأهمية اليد العاملة وحسن مناخ الفصول . وتنتج بعض المقاطعات الارز بكيات هائلة ، كنطقة تش رو ، وتستثمر غيرها للحبوب ، كنطقة تسين التي تستطيع ان تمون ، كما يقال ، المناطق الاخرى في السنين المعجاف . وهم يعتنون اعتناء خاصاً بأعمال الري التي تكون عنصراً أساسياً لهذا الازدهار .

وتعود ملكية الاراضي الى السيد . ويستغل الفلاحون هذه الاراضي لصالح المتبوع . واستناداً الى التقاليد الصينية ، التي تمكس كما يبدو الهدف الاعلى ، يوزعون الحقول على الفلاحين ، فتنال كل اسرة حقلاً . ولكل من هذه الحقول مساحة مربعة محددة ، تؤلف تسعة منها مجموعة واحدة . وتستثمر ثمانية من كل مجموعة لإعاشة ثماني عائلات ، اما منتج الحقل التاسع (ويعتبر من الممتلكات العامة) الواقع في وسط الحقول الاخرى والذي تعني به معاً العائلات ، فيخصص للملك او للسيد ويعتبر محصوله كضريبة .

وفي الصيف يسكن الفلاحون على الاراضي المزروعة في اكواخ مؤقتة . وعند اقتراب الحصاد يشددون الحراسة ضد السارقين والختازير البرية والطيور . إذ للمحصول دور رئيسي في هذا العالم الاقطاعي ، فإن أتى جيداً يعتبرونه علامة نصر أكيد ، وإن كان رديئاً جلب النساقفة والجوع وزرع نظام المملكة . ويكون هذا المحصول الهدف الذي يزو اليه كل جيش مظفر .

والصناع والتجار قليلو العدد ، ومع هذا فهم اساس الحياة الصناعية التي عرفت حتى في هذا الطور بعض الازدهار ، ولكنها ستغدو ، في وقت لاحق ، مناقسة خطيرة للزراعة . ويحتمل الدسج ، الذي تقوم به النساء ، المركز الاول : فيصنعن اقمشة حريرية وقد يطرزنها ، وقطعاً من القنب ، وثياباً من خيطان النباتات التي تعترش . وعرف القوم كيف يضفرون الاشواك والاقصاب والقرصا والتبن ، ويستعملون الخيزران ويستثمرون الجلود . ويصنعون من الخشب والمعدن

والخزف والحجر واليشب أدوات الفلاحة والمجالات والأسلحة (كالحراب والديابيس والأقواس والسهام والتروس وسلام المارك الخ .) وأدوات الموسيقى التي يكثر عددها حتى في ذلك العهد (كالطبول المختلفة الأنواع والمزامير والأعواد والطنابير والأجراس والصنوج الخ .) وأدوات متنوعة جداً للاستعمال (كديابيس الشعر والحارز والمقصص والملاقي والفؤوس والمراجل والطنابجر الخ.) وهم قد استعملوا النحاس إذ لم يظهر الحديد إلا في أواخر عهد التشاو .

وغدا استثمار الأملاح والمعادن أساس ثروة بعض المناطق ، خصوصاً مقاطعتي تس ين وتسين . وازدهرت أيضاً تجارة هذه المعادن .

ومع هذا لم تتسع التجارة إلا في وقت لاحق . وكان أساسها مبدأ الشراء والبيع أو المقايضة . وقد أتوا على ذكر الأرباح التي بلغت مراراً حداً عالياً إذ يؤكدون وجود تجار أثرياء ، أصحابا الأبرام الاقطاعيين ، وعاشوا حياة بئخ ورفاهية ، يرتدون الثياب الحريرية المركشة ويتنقلون في عربات يزيناها الذهب واليشب . وجرى التعامل التجاري بواسطة نقد كان ، أيام التشانغ ، عبارة عن نوع من الأصداف ، ثم أصبح قطعاً عظيمة ، الى ان غدا من النحاس وكانت وحدة هذا النقد أولاً (الوان) (نحو ثلاث اواق ؟) ثم - أيام التشار الشرقيين - الكين (نصف اوقية ؟) وقد جعلوه سبائك زن كل منها عشر اوقيات او اثنتي عشرة اوقية (؟) . ولم يسكوا النقود الاولى بأشكال مختلفة (كالسيف والجرس الخ .) إلا في أواخر القرن الخامس .

ومع نمو واطراد التجارة غدت مشكلة إيجاد طرق المواصلات وصيانتها هم الادارة الاكبر . ولا تسير فقط على الطرق قوافل التجار بل أيضاً العربات التي جهزت خصوصاً لتتنقل الجمهور . ولم يستعملوا الا نهر للتنقل قبل قيام الدول المحاربة . وكانوا يعبرون مجاري المياه سباحة او عند المجازات . وبواسطة وسائل النقل هذه تبادلت مختلف المقاطعات المواد الغذائية والاولية كالمسك والملح والنحاس والذهب والجلد والحيزران والحشب والزنجفر والحبوب .

ومع الزمن وتحسين سبل المواصلات وازدهار الصناعة اصبحت التجارة تنافس بصورة جدية الزراعة . ومنذ القرن الخامس ق. م. يلاحظ المرء سعي حكام المقاطعات لحفظ التوازن بين الزراعة والتجارة وميلهم المتزايد لمساندة سكان الأرياف وحمائتهم وتأمين الأرباح التي تعود اليهم .

وتشمل الحياة الاقتصادية التي أتينا على وصفها الضرائب والأرباح والخسائر التي تسببها الحروب . وهو يختلف باختلاف المناطق ويزداد كلما ابتعد المرء عن العاصمة . وتسد هذه الضريبة اكثر الاحيان باعطاء مواد طبيعية ، بينما تسدد الضرائب والمكوس في الأسواق بدفع قطع نقدية نحاسية . وقد تبلغ اكثر الضرائب فداحة ربع المنتج ، ولكن لا يصل منها الى الخزينة الملكية إلا جزء ضئيل بسبب بطء المواصلات وكثرة عدد الوسطاء الاداريين بين العاصمة والمقاطعات . ويفرض ذوو السلطة الاقطاعيون ضرائب مباشرة ، كما تجبى مكوس من أثمان

السلع المتبادلة كالسك والملاح . وتجني الدولة علاوات اضافية من الغابات والاملاح والمعادن التي تحتكرها . ومع هذا يبقى ريع الخزينة أقل من الربح الذي كان من الممكن ان يحققه نظام يقوم على المراقبة الدقيقة والجدية . وان هم أمنوا ما تطلبه الحياة العادية فان المصاريف الاستثنائية تجد خزينة فارغة .

يظهر أن المجتمع ، ايام حكم التشار الغربيين ، لم يقسم فئات محكمة الوضع كما سيجري ذلك بصورة مطردة عندما سيسعون الى تحقيق الوحدة السياسية وتثبيت السلطة المطلقة . فهناك طبقتان كبيرتان تضم أفراد المجتمع : طبقة الفلاحين السفلى ، وطبقة النبلاء العليا (شي *Chie*) وهم الأشراف بالوراثة . ولكن سرعان ما تشعبت الطبقتان فرقا فرقا ، تيز الواحدة زميلاتها حقوقا . ففي المقام الدون ، نجد العبيد والفلاحين ثم نرتفع تدريجيا الى العمال الصناعيين والتجار فالأدباء فالموظفين فالوزراء فالموظفين الكبار فالنبلاء فالأمراء حتى الامبراطور الذي يسيطر على هرم الرتب .

ان أساس المجتمع هو دون شك عامة الشعب . وللعامة هذه نظام يختلف في كل شيء عن نظام النبلاء . فالفلاحون ، وهم يشتغلون سوية ويميشون معا ، لا يتمتعون بشخصية ما ولا يأتون بمبادرة ما . انهم تبايع الارض التي يستثمرون ، وينتقلون معها من يد الى أخرى دون أن يصحبوا لها مالكين بالمعنى المصري . انهم لا يتبعون طقسا بل يخضعون فقط للتقاليد .

ومن المفروض ان يجني الفلاح من عمله كل ما يحتاج إليه ليقوم بأود أسرته ويبيع ما يفيض في اسواق المدينة . وهذه هي علاقته الوحيدة مع العالم الخارجي والادارة . ومع هذا فلا تختص هذه العلاقة بالفرد بل بالطبقة التي ينتمي إليها والتي لها وحدها شخصية معنوية أمام رجال الحكم والادارة . ان حياته رهن بالفصول . ففي الشتاء ينزوي الفلاح بحكم الضرورة ويعود الى قصبته مع أفراد أسرته ليعيش ضمن اطار بيته وبستانه الصغير ويقوم بالأعمال التي يتطلبها المسكن . وعند حلول الصيف يترك الفلاح قريته ويقم مع امرأته وأولاده على الأرض التي يزرعها ، وقد حمل أدواته الضرورية وأشعل ناراً جديدة في بقعة حددت خصوصا لهذه الغاية في الحقول . ومع الحياة هذه في الهواء الطلق تنكشف على نفسها نظم حياة الاسرة إذ يخضع كل شيء عندئذ للحياة الجماعية .

ولا يعرف أفراد العوام هؤلاء الزواج (هوان *Houan*) ، إذ لا طقوس خصوصية لهم ، بل موافقة الرجل على العيش مع المرأة معا (بن *Pen*) . ويجري بهذا الأمر عادة في الربيع ، وذلك استنادا الى رأي الوسيط ، في وقت يقيمون فيه اعيادا كبيرة تسعف اقامة الفلاحين على الارض التي سيستثمرونها . وهذا الاتحاد هو حر طليق من كل شرط ، يثبتونه ان تحقق الأمل بانجاب البنين ، أثناء حفلة عمومية .

وتختلف الطبقة الاجتماعية الاخرى ، فئة النبلاء ، عن العوام اختلافا أساسيا بمأثلتين

رئيسيتين : فلكل من افراد هذه الطبقة جدود ، وهو ينتسب الى اسرة . وتنتج عن هذه الحقيقة سلسلة اختلافات جوهرية : فالجد، وقد كان رجلاً نبيلًا ، او بطلا او امبراطورًا ، امتلك دون شك ارضًا او قام بوظيفة رسمية . واستناداً الى هذا الواقع فهو قد أدى طقوس العبادة واعطي اسم جماعة . لذا غدا من الطبيعي ان يصبح أحفاده اعضاء في قبيلة ما ، فيقيمون طقسًا ، ويمطون ارضًا او تسند إليهم وظيفة . وبينما يضيع الفلاح وسط جماعة لا اسم لها ولا خصائص ، يصبح للقرود النبيل شخصية محددة ضمن عشيرته .

ولهذه الجماعات ايام التشاؤم ، مهما كان اصلها ونسبها ، خصائص جماعية دينية تحرم على افرادها كل علاقة زواجية فيما بينهم . ويبدو بان عدد هذه الجماعات كان محدوداً ولم يتجاوز المئة . وكرّمت كل جماعة جدًا . كان يعرفها لها او بطلا (إله الجاورس ، إله قة الشرق الخ...) . وكان لبعض من هذه الجماعات جد واحد . ونجد في هذه العبادات التي قدموها للجدود ، وقد يكونون بعض المرار حيوانات او نباتات كالجاورس ، آثاراً قديمة جدًا ، ولكن يصعب الوقوف عليها في هذا العهد .

وان كان التقسيم العشائري يقيم من النبلاء جماعة دينية فان التقسيم الذي يسيطر على تنظيم الاسرة والفرع والبيت هو تقسيم اداري ومدني يحد ويعتبر فرعاً من الاول . ان رأس البيت او الاسرة هو السيد المطاع : فهو الذي يقرر الزواج أو يبطله والذي يقبل او يرفض الأولاد ؛ وهو يمثل بشخصه كل أفراد المجموعة ، ويقاضيهم ويعاقبهم مباشرة دون ان يتدخل قضاء الدولة . ولا يخضع لسלטانه فقط افراد الاسرة المقيمون معه بل ايضاً الذين استقروا بعيداً .

وامتياز النبلاء الأساسي هو تملك الارض ، إن أعطيت لهم على سبيل الاقطاع او الملك الصرف . والنبلاء فئات عدة تتفاوت أوضاعها ان كانوا نبلاء ريفيين او قواداً كباراً او موظفين ادازين . وهناك مبدئياً خمس درجات بين الاشراف توازي تقريباً فئات من ندعوم اليوم دوق ومركيز وكونت وفيكونت وبارون وتختلف مساحة تملكاتهم باختلاف ألقابهم . ومع هذا تختلف ثروتهم المادية باختلاف الظروف . فقد نجد نبيلًا وافر الغنى يملك أراضي تدر عليه أرباحاً طائلة ، كما نلاقي شريفًا ذا ثروة بسيطة او حتى فقيرًا جدًّا يمد نفسه مضطراً لخدمة سيده الذي يدافع عنه ويقدم له الغذاء وذلك بدل طاعته وخضوعه له : فهو يسير معه الى الحرب ويسلك في كل شيء كأنه تابعه ، ويقوم بوظائف مختلفة في بيت متبوعه كأن يصبح امير أخوره او سائق عربته او احد جنوده او حارس ثروته او احد طهاته الخ . وقد يختار بعض النبلاء القليلي المال أعمالاً اكثر حرية (كعمل في مدرسة قروية او كاهن او ساحر او منجم او طبيب الخ ...) كما يتعاطى بعضهم التجارة او يصبحون وكلاء عند كبار اصحاب الأملك ولكنهم يبقون ، مهما اصبح مركزهم ، أهلاً لتبوء اعلى الوظائف ولا يختلطون قط مع طبقة العوام إذ للنبلاء فضيلة

(طلو - طو) تمد اساس قوة وثروة الرئيس وهي التي تحمي بصورة معاكسة - ونستطيع ان نقول بالعدوى - البلاد بأجمعها من طبيعة الى حيوان الى انسان ، وتحفظ لكل شيء الازدهار وتبعده عن الوهن وحتى الموت . وهكذا يستند كل امر الى السيد وروحه هذه ذات المفعول السحري وهو يعد اساس هذا المجتمع الاقطاعي . انه يمتصر في ذاته كل القوى الفاعلة ويحددها بواسطة الطقس .

ان امتلاك الاقطاع التي يقرر الملك تقليدها ، يجعل من النبيل أميراً او تابعاً لسنده الملك او لأمير آخر اكثر قوة. وتجري هذه التولية أثناء احتفال مهيب وتمطي النبيل حقوقاً وموجبات جديدة فيما يتعلق باقطاعه وأتباعه وسيده .

ان الملك هو في الوقت نفسه أمير الأمراء ، والنبيل الاول ، وابن السباه الذي وكل اليه سيد الاعالي مهمة حكم الشعب النبيلة والابقاء على نظام العالم الطبيعي إذ تعادل فضيلته المهمة المستودعة اليه . وهكذا يتم التوازن ما بين سلطاته الكهنوتية والسياسية . فهو يحدد الوقت في كل شهر ، ويقر القوانين ، ويسمح بمقابلته ، ويلفظ الاحكام الخ . والسلطة الملكية اريثة يرثها الابن عن الأب . ويعتبر ابن الامراء الشرعية البكر الوارث للقانوني . وعلى النساء ان ينظرن ويقررن هذا الامر قبل حدوثه إذ لا بد من إقامة طقس خصوصي حتى ينقل اخو الملك المتوفى او ابن شقيقته ولو بصورة رمزية السلطات الي الوريث صاحب الحق .

المهنة الإدارية مع اتساع مدى الزراعة والتجارة والمدن غدا من الضروري ان تصحح الادارة ايام التشاؤ اكثر تنظيمياً . وشبهوا الادارة هذه بهم يسيطر على قمته الملك ووزيره الاول الذي لا يقل عنه بالواقع سلطة ونفوذاً خصوصاً اذا كان الملك ضعيف الارادة . ثم يلي الملك ورئيس وزرائه الوزراء الثلاثة الأكثر أهمية وهم وزراء الزراعة والحرب والاشغال العامة . ولوزير الزراعة دون شك الأهمية الكبرى في بلد زراعي وحضري في الدرجة الأولى . وهو يدير جهازاً محلياً يقرر بكل دقة أعمال الحقول ، وكيفية تصريف المحاصيل ، وبصورة أعم حياة الفلاحين أنفسهم ، وزواجهم وأعيادهم واجتماعاتهم . ويمتني وزير الحربية بكل الشؤون العسكرية كتجنيد الجيوش ومواسم الصيد والاستعراضات والتدريب الحربي : وهو يراقب مستودعات الخنازير والعربات والخيول ووزرائب الأحصنة الأصيلة . وهو الذي يمثل معنوياً الامبراطورية اذ يجمّل بكل عظمة وقت إحراز النصر ورتدي ثياب الحزن ان اندسرت جيوش الدولة . ولا يهتم وزير الأشغال العامة إلا في الحقول وما يعود اليها . فهو الذي يقس الحقول ويرزعا ويقم الطرقات ويسهر على صيانتها ، ويبني القنوات والسدود الخ . وعلاوة على هذا فهو يهتم أيضاً بشؤون الممال الصناعيين .

ويلي هؤلاء الوزراء ثلاثة وزراء آخرين يمتنون بأمر الملك الخصوصية والقضاء الجزائي . ويهتم الاول بصيانة القصر الملكي وتكوينه وقأمين سير الخدمة فيه سيراً حسناً ، وبالأموال الملكية

ويعتني الثاني بصورة خاصة بشؤون العسادة ويراقب الكهنة والمنجمين والسحرة والأطباء الخ . ويعود الى مدير الشؤون القضائية الجزائرية تطبيق القوانين وإزالة العقوبات . وترواح العقوبات ما بين أحكام الموت ووشم الوجه مروراً بقطع الاعضاء التناسلية والأرجل وجذع الأنف . وهو لا يتعاطى القضاء بصورة شخصية إلا متى عوقبت الجريمة بالموت . ومع هذا يمكن استبدال كل عقوبة بدفع بدل حسب معدل مقرر يبلغ ألف سبيكة نحاس لإنقاذ حياة الرجل . ويحيط هؤلاء الوزراء (وقد أطلقوا عليهم منذ القرن الرابع ق . م . اسم « الوزراء الستة ») عدد كبير من الموظفين . وهكذا غدا هيكل ادارة البلاد معقداً جداً .

ولا تقتصر بطانة الملك على من ذكر ، اذ نجد ايضاً مجلساً يحمل اعضاؤه ألقاباً شرفية دون ان تحدد مع هذا وظائفهم . وعلاوة على ذلك فهناك وظائف في القصر الملكي وهي غالباً ما تكون إرثية يسعون اليها بكل نشاط اذ تقرب أربابها من الملك : رئيس الخزان ، وأمناء سر المال ، وكبير الكتبة الخ . ولا يخلو نظام الادارة هذا من بعض الشوائب . وخطؤه الأكبر انه يعهد بوظائف مختلفة الى الأشخاص انفسهم . لذا - عندما يضعف الملك - تتفكك عرى هذا النظام وتعمق الهوة التي تفصل بين الواقع والمباذىء .

وتقسم ممتلكات الملك الى مقاطعات (هيانغ) يحكم كلا منها قائد كبير (تي - فو) . وتتجزأ هذه المقاطعات بدورها الى محافظات فتوابع فمديريات فمدن فقري يتولى شؤون كل منها موظفون تقل رتبهم بصورة تدريجية . وينتخب هؤلاء الموظفون من الاشراف والنبلاء المحليين ، وهم يهتمون تماماً على حياة الريف والمدينة فيقدمون الذبائح المقررة وينظمون اعمال المساحة واحتفالات الحياة الشخصية ، ويشرفون على عائدات المحاصيل الزراعية ويستوفون الضرائب . وهم يقدمون سنوياً تقارير لرؤسائهم عن اعمالهم ، ويوجد مفتشون يراقبونهم ويضعون التقارير عن كيفية ادارتهم ، ويساعدهم جيش من الموظفين ذوي الاختصاص يكون الشعب على اتصال مباشر معهم كالمشرفين على المستودعات والجباة والموزعين الخ . ولا تقتصر مهمة رجال الادارة هؤلاء على تصريف شؤون البلاد المدنية بل تتعداها الى الاعمال القضائية يساعدهم فيها قضاة محليون . وتخصم القضية التي تتجاوز صلاحياتهم الى سلطات قضائية اعلى . وتضاف اخيراً الى وظائفهم المدنية والقضائية هذه مهام حرية اذ يصبح رجال الادارة هؤلاء في زمن الحرب تحت تصرف وزير الحربية . والتتظيم الحربي هو صورة طبق الأصل للنظام المدني وقد كان ذلك مثلاً لهذا في القرون الغابرة .

ويتألف الجيش من رجال تجبر الأمر على تقديمهم (وعلى كل اسرة ان تقدم محارباً) . ويبلغ عدد الجيش (١٢ ٥٠٠) جندي يقسمون خمسة فيالق ، ويجزأ الفيلق الى خمس كتائب والكتيبة الى خمس فرق ، توافق كل منها منطقة . وللممتلكات الملكية ستة جيوش ، ولا يحق للاتباع إلا حشد ثلاثة جيوش . او جيشين او جيش واحد . ويشمل كل جيش ، علاوة عن فرق

الحياة ، عربات قتال تجرها الخيل . سلاح المعركة هو الحربة والقوس ، وتمتحن الأوامر بواسطة الطبول والاعلام . ويمهلون خطط القتال ، التي لن تعرف التطور والرقى إلا مع ظهور الممالك الحاربة ، عندما يحمل الحياة مكان العربات . ومع هذا فالجيش متزلة رفيعة في حياة الرجل النبل ؛ ففي هذا العهد الاقطاعي حيث تلعب المارك والفتوحات دوراً عظيماً غدت الحرب عمل بطولة شريفة تخضع لقوانين المدينة التي تنعكس أنظمتها على كيفية ترتيب المعسكر والتي توافق سلسلة درجاتها الادارية مع سلسلة المراتب العسكرية .

ولكل امارة واقطاعة نظام اداري يشبه نظام ادارة الأملاك الملكية . وسمى ملوك التشاو لجمع هذه المناطق وتوحيد حكمها : لذا قسموا البلاد الى تسع مقاطعات (تشاو) يعين على رأس كل منها حاكم (بو امو) يمثل السلطة الملكية ويحافظ على الأمن ويصدر الأحكام القضائية . ويكون عادة هذا الحاكم نبيلاً من المنطقة ، ويجبر بصفته من أتباع الملك المباشرين ان يقدم للعاهل الخضوع في اوقات محددة ويؤدي له ضريبة عينية - تتكون عادة من المنتجات التي تتفرد بها المنطقة - ويقدم له العون في زمن الحرب .

وهذا النظام هو بعيد عن الكمال والدقة إذ يسمى غالباً هؤلاء الحكام ، وقد غدوا بمنزل عن المراقبة الملكية ، للتحرر من السلطة المركزية لابل للتحالف ضدها احياناً . ولن تجدي مناعي التوحيد الاولي حتى ولو قام بها ملك متجبر وقوي الشكيمة إذ ان عزلة كل مقاطعة واستقلال الحكام وصعوبة المواصلات تؤلف عوامل تساعد الانتفاضات الفردية وتحول دون قمعها . ويقوم الأمراء انفسهم بأعمال الأمن ويفرض بعض منهم قوانين أشد صرامة من قرارات الحكم المركزي ، ومن اشهر هؤلاء الكونت هياو من تسين في القرن الخامس الذي أقام ، بمساعدة وزيره يانغ ، حكماً مطلقاً تعد اصلاحاته امراً ثورياً بالنسبة الى السلطة المركزية . ففي كل ناحية من نواحي الصين الغربية المتمدنة ظهرت اصلاحات مماثلة تهدف الى تعديل النظام الاجتماعي وتحسين انتاج الارض وتوزيع المهام الادارية وتأمين موارد منتظمة ، وهذه هي تباشير سقوط حكم التشاو وسيادة الممالك المتعاقبة .

ينقسم رجال الكهنوت فئتين لكل منها منزلة على طرفي تقيض مع الاخرى .
رجال الكهنوت ويتخذ افراد الفئة الاولي من النبلاء ويتفرون طبقات عدة فمنهم الكهنة الرسميون والمصلون والمنجمون والسحرة ومفسرو الاحلام والمظاهر الطبيعية والفلكيون ، وتشمل الثانية رجالاً ونساء ينتمون عادة الى فئة اجتماعية وضيفة لذا أعدوا محققين يتماطون السحر ويكونون كمن اعترافهم مس شيطاني .

ويتمني عادة رجال الكهنوت الرسميون الى أمر تحتفظ بكل ضراوة بامتيازاتها وخصائصها ويتدخل هؤلاء الكهنة في كل المناسبات الكبرى ، ولكل منهم اختصاصه الدقيق ولا يستغنى قط عن خدماتهم . فهم الذين يديرون اعمال الذبايح ، يتلون الصلوات التي تركز الاتفاقات

والمعاهدات، وراقبون حفلات الدفن، ويتنبأون عن مصير الحرب والصيد والزرع، ويفسرون الاحلام والعلامات والرقى (بواسطة اسفاط السلاحف كما جرى ايام الشانغ) ، ويسدون النصح للتبيل أو للملك عند اتخاذ القرارات العويصة .

ولرجال الكهنوت هؤلاء (وقد غدت بعض وظائفهم وراثية) عدد من المساعدين الثانويين يقومون بدور ما في اتمام اعمال العبادة : الموسيقيون والكتبة والخدام والموظفون ، وللصل اختصاصه ويرتبط بفئة معينة من فئات رجال الكهنوت .

ولا يؤلف رجال البيعة طبقة كهنوتية مع انه لا غنى عنهم نسبة لما يقومون به من وظائف، وان تنموا ببعض النفوذ في الدواوين فقد ألحق كهنة املاك الملك بوزارة الشؤون الدينية واعتبروا كموظفين . ولا يبدو بأنهم خضعوا لقوانين حياة معينة إذ لا يميزهم شيء عن النبلاء . إنهم رجال هنة يتوارثون فنهم اباً عن جد .

ويختلف عنهم كثيراً السحرة (هي) والساحرات (وو) الذين ينتسبون الى العوام او الى الطبقة النبيلة وتغدو مهنتهم كأنها دعوة ورسالة وليس إرثاً . والأطباء ومستدعو الامطار ومخرجو الأرواح النجسة الخ، هم وسطاء ينشئون علاقات مع الآلهة والأرواح فيصحبون مطية لهم، لذا يتخذهم الآلهة والأرواح أداة يعملون بواسطتها وينطقون بلسانها أثناء حفلات الاستلham التي تشمل حركات تمثيلية ورقصاً وأناشيد لم يعدوا العدة لها ، يقومون بها على أنغام الطبل والمزامير التي تثير حماساً جنونياً . وجمع أن رجال الكهنوت الرسميين قد استنكروا وجود السحرة (وقد يعمل هذا الاستنكار الى درجة حرقهم أحياناً !) فان هؤلاء السحرة يلعبون دوراً هاماً في حياة التبيل ويكونون من عداد بطانته . وتزداد اهميتهم في القرى حيث تعيش طبقة العوام الذين لا طقوس لهم ، لا بل نشاهد في بعض المناطق جماعات لتعاطي اعمال السحر .

اختلفت الثقافة وطرق الحياة اختلافاً بيناً تبعاً لطبقات المجتمع إذ ، كما سبق أسرة الفلاحين ورايينا ، يستحيل المقارنة بين العوام وطبقة النبلاء .

والفلاح هو ثمرة مجامعة (بن) وليس زواج قانوني (هوان) كما هي الحالة عند التبيل . ففي ربيع كل سنة ، بعد افتتاح موسم الزواج الذي يقوم به المعامل وقيل الخروج الى حقول الزراعة، يذهب الشباب والصبايا للغناء في الحقول اما جماعات واما ازواجاً . وتتم المجامعة في الهواء الطلق ولهم الحق في التلاقي كما يريدون طيلة موسم الاعمال الزراعية . ولكن عندما يحين موعد الرجوع الى القرية في بدء الشتاء وتعود كل أسرة الى الانزواء في بيتها وتنتهي إذ ذاك الحياة الجماعية يفتقر الأزواج ولا يستطيعون التلاقي بمدئذ إلا بصورة خفية . وعين عدة فصل الربيع اللاحق يتلقى الأزواج ثانية او ينتخب الواحد رفيقاً آخر . وعندما تبلغ الفتاة العشرين ربيعاً تتزوج — إلا اذا كانت قد حملت قبلاً — أما الفتى فلا يتزوج إلا في الثلاثين من عمره . ولا يتم اتحاد الأزواج لما يلاقي الواحد في الآخر من جاذبية شخصية ، كما قد يتبادر الى الذهن بسبب ما سبق قوله ،

ولكن لضرورة التقارب بين الأمر . ويبدو بأنه كان محرماً ان يتحد الشخص مع شخص آخر من قرينته . ويبدأ الوسيط المحادثات ويتابعها وتتم الحفلة برئاسته في الحزيف ، وقد يتعاقد الأزواج اثناء عيد جماعي واحد . إذ ذاك تغادر الفتاة قرية اهلهما لتلتحق بقرية زوجها وتقطع عن الغناء في أعياد الربيع . ويصحب اتحاد الأزواج من ثم غير قابل للانقسام .

وتحدد التقاليد بكل دقة علاقات الزوج بزوجه ، ويحرم التعاطي الجنسي مدة فترات عدة في غضون السنة . وتفترق الزوجين الواحد عن الآخر طبيعة الاعمال التي يقومون بها فتخلق من ثم مجتمعاً للذكور وآخر للاناث . فالرجال يقومون بأعمال الحراثة وتربية المواشي بينما تعتنى النساء بالمنازل (حيث لا يدخل الرجل إلا نادراً) والغزل .

ولا نجد تحديداً واضحاً للدرجات القربى او كلمات تميز بروض الانساء والاخوة وابناء العمومة . فهناك علاقات قريى جماعية تربط بعض الافراد فيما بينهم وتجعل منهم فئة اكثر وحدة وأقل افتتاحة . ويشارك اعضاء المجتمع العائلي الواحد أحزان بعضهم ويأكلون طعاماً أعد على نار واحدة .

وتتأثر حياة القرى بتتابع الفصول . ففي الحزيف والربيع يجتمع الرجال والنساء ويقضون وقتهم في اللعب والمصارعة : سباق للشور على بيض العصافير التي تهجر من بلد الى آخر ، ومصارعة ورقص وغناء وقطف الثيابات البرية وترشق بالزهور وصراع يتنافس فيه الشباب والصبيا وهم يرقصون على إيقاع أغان مرتجلة الخ . ويحتتمون هذه الملاهي بالأكل والشرب وقد يعقدون عقوداً ومبادلات كما لو كانوا في الأسواق .

وعندما تنتهي السنة الزراعية ويحين موعد الرجوع الى القرية يحتفل الرجال معاً بانتهاء الموسم ، ويقبضون الهدايا . ويبتدىء إذ ذاك الفصل الموات بإقامة حفلة الـ « نو الكبير » الذي ينذر بحياة الشتاء للانسان والحيوان . ولا يشترك في هذه الحفلة إلا الرجال فقط فيرقصون ، وقد تنكروا بأشكال حيوانية ، على نعم دف من الحزف ، وينغمسون في الأكل والشرب ليُنْتَهوا الى السكر والهجون بعد ان يكونوا قد انفقوا بسعة ؛ ويشرف الشيوخ على هذه المهازل العمومية . وتختتم اعياد باتشا اوقات العمل التي تسبق مباشرة فصل الشتاء ويقوم بهذا الاحتفال شيوخ القرية فيرتدون ثياب الحزن ويسكون بأيديهم العصي ويدعون الرجال لبدء فترة العزلة التي ستعد بدورها بعث سنة جديدة .

وترتبط الولادات عند الفلاحين بطقوس الماء ؛ وتتم عادة حفلة اشراك الولد عند الاحتفال بأعياد الربيع . وترمز كل مرحلة من مراحل الحياة الى الفصول وتبدلات الطبيعة المقدسة .

تحصر مهام حياة النبيل في ضرورة تأمين استمرار الطبقة وعبادة الجدود . حياة النبلا . لذا فان الزواج عمل ديني يخضع لضمانات محددة . وتمدد الزوجات هو القاعدة ولكن لا يستطيع النبيل ان يتزوج إلا مرة واحدة ، لذا يعقد قرانه في الحفلة نفسها على امرأته

الاساسية وعلى نساءه الثانويات . ويحرم على الزوج ان ينتخب نساءه من أسرته . ويختلف عددهن تبعاً لمقامه : فله الحق بأمرأتين إن لم يكن صاحب مركز مرموق ، وثلاث نساء إن كان قائداً ، ويتسع إن كان أميراً . وللملك الحق بائخاذ اثنتي عشر زوجة . ويضاف الى هؤلاء الحليلات عدد من الحليلات إن كان الزوج غنياً واستطاع ان يبتاعهن . ولا يكون الوسيط إلا احد الأقارب او صديقاً انتخب لهذه الغاية ، وهو يقوم بالخطوات الضرورية حتى اعلان الخطبة . ويوم الزواج يأتي الشاب ليأخذ الفتاة ويبدو كأنه يريد سوقها في عربة . وعندما يصلان الى البيت الزوجي يأكلان معاً طعاماً يتكون من ثلاثة صحون أريقت عليها ثلاث كؤوس من الخمرة . وتتكون الكأس الاخيرة من ثمرة كوسى قسمت قسمين . ثم يأتي العروسان الى غرفتها الزوجية حينها ينزعان ثيابها وفقاً لتقاليد خصوصية . وفي الغد يقدم الرجل امرأته الى أقاربه الأحياء والأموات؛ وبعد انقضاء ثلاثة اشهر على وصول الزوجة الى اسرتها الجديدة تصبح حقاً من افرادها إذ تشارك طقساً بالذبيحة الاحتفالية التي يقدمها الزوج لأجداده . وبعد الاشتراك فقط بهذه الحفلة تصبح الى الأبد زوجته الشرعية .

ولا تستدعي ولادة الاطفال ، شرعيين كانوا او لا ، إلا القليل من الطقوس . ولكن لن يترك جميع هؤلاء الاطفال على قيد الحياة : فهم يقتلون او يهلون المولود الذي يرى النور في وقت يحسونه شؤماً ، او في الشهر الذي ولد فيه ابوه ، او التوائم الثلاثة الخ . وعلى كل فالمولود، ذكراً كان أم أنثى ، يترك وحيداً في غرفة دون أكل ولا عناية ، وذلك طيلة الأيام الثلاثة التي تلي رؤيته النور . وإن صمم رئيس الأسرة بعد انقضاء هذه الفترة على قبول الطفل ، ينقل هذا الأخير إذ ذاك الى مساكن النساء ويرضع الحليب لأول مرة . وعندئذ يعلن الوالد رسمياً مولد طفله وذلك بتقديم ذبيحة للجدود ؛ ثم بعد ثلاثة اشهر فقط يعرض عليه ابنه .

ويقيمون أثناء عهد الصبا بعض الطقوس : حفلة قص الشعر ، وقد يترك للصبي خصلة شعر على قمة رأسه بشكل قرن وللفتاة على شكل صليب ، ثم حفلة انتخاب الاسم (منح) التي تدخل المولود حقاً في سجل الأسرة التي تهبه من ثم الوجود وتقرر مصيره .

وتختلف الثقافة باختلاف الجنس . فالصبي يتلقى العلم في مدرسة المنطقة اما الولد الكبير فله الحق بالذهاب الى المدرسة الملكية في العاصمة ، ويمنح هذا الحق أيضاً للمتوقفين من تلامذة المناطق . وتستمر سنة الدراسة من العاشرة حتى العشرين وهي تشمل الفضائل الثلاث والطقوس والعلوم الست (الرقص والموسيقى وقيادة العربة والرمي بالقوس والكتابة والحساب) . ولا يتعاطى قط التلامذة مع العالم الخارجي بل يسجنون داخل مدرستهم او جامعتهم . وعند انتهاء الدروس يصار الى اعطاء القبة الرجالية (كوان) التي ترمز الى انتقال الصبي الى عهد الرجولة؛ وعندما يرجع الى ذويه يدع شعر رأسه ينمو ويتنظر شهرين لاقامة هذه الحفلة الرسمية فيعطونه أثناءها اسماً جديداً (تسبو) . وتبقى الفتاة مع الذكور حتى ربيعها العاشر ثم تعزل داخل بيت

الحريم حيث يلقونها اساليب الطاعة والاعمال النسائية ويطلعونها على الدور الذي استدعى للقيام به في الحفلات الدينية . وعندما تبلغ العشرين من عمرها ، او قبل ذلك ان تخطبت ، تمز لمدّة ثلاثة اشهر في هيكل الجدود ثم تعطى ديوس الزينة للشعر (كي) واسماً جديداً .

ان واجبات وامتيازات التنبيل هي مبدئياً واجبات وحقوق المحارب . وهناك شبه دستور شرف يسيطر على اعماله مهابا كانت وظيفته : يحرم عليه قبل كل شيء مخاصمة معلم او مرب قديم . ومن اهم واجباته الثأر للأسرة ، ويؤزل امام هذا الواجب كل نفع شخصي وقد يؤخذ الثأر من الأموات . والذي يقبل اقطاعه يشترك في حفلة رسمية تعد حدثاً هاماً في حياته ، فيستلم من يسه بمثل الملك - وحسب طقس محدد - كومة من التراب وضعت على هيكل الارض الملكي ، ويعمل منها نواة هيكل إله الارض الذي سيقمه في ملكه . ولا تختلف موجباته وحقوقه عن حقوق وموجبات سائر الاشراف ما عدا العبادة التي عليه ان يقدمها لأرواح اقطاعه وحسن ادارة الجماعات التي تخضع له .

ولا تنتهي اعمال التنبيل الا عندما يبلغ السبعين من عمره ، لا بل غالباً ما يستمر في تأدية خدماته حتى موته وان كان قد اجبر على فقدان احد اعضائه التناسلية او بتر رجله ليتولى بعض الوظائف . وطقوس الحداد على التنبيل ودفنه محددة بكل دقة حتى تستطيع نفسه «العالية» ان تصبغ من عداد الجدود وتعم في مقرها السابري بالامتيازات نفسها التي تمتعت بها على الارض . ويفرض على جميع افراد الاسرة ان يساعدوا الشريف لبلوغ هذا الهدف بعد ان يكونوا قد تأكدوا من موته . واثاء غسل جثة الميت يضعون في كل من نوافذها حجراً صغيراً من اليبس ، ثم يلبسوها ثوباً خاصاً (منغ بي) ويسجونها على سرير مزخرف بالقرب من بندق عليه اسم الميت . واثاء التسمية - التي تختلف مدتها تبعاً لمنزلة المتوفى - يهرع الاقارب والغرباء يقدمون تعزيتهم الى اولاد الفقيد الذين يرتدون ثياب حزن بيضاء اللون . وتوضع الجثة في تابوت حشوا داخله بالحبر الاسود ثم ينقلونه الى مدفن مؤقت . ويعمل اولاد الميت اذ ذاك عصا الحزن ، رمز قنوطهم . ويتكون القبر الاصلي من غرفة تماؤها كومة من التراب ويتقدمها بحر مكشوف فرشوه بالبلاط . وبعد فترة تقصر او تطول نسبة الى مقام المتوفى يأتون الى هذا القبر بالتمش وقد لفوه بقماش ابيض . ويرافق التمش موكب كبير ينوح افراده ويصرخون وقد سار على رأسهم الساحر ؛ ويأتي المشرف على القبور لينزل الى جنب التمش في الحفرة الاشخاص الذين اعدوهم ليرافقوا المتوفى ويكونون له خدما اذ يجب ان يحيا الميت في عالمه الجديد حياته العادية مع اسلحته وبلاطه وخدمه . وعند الامر الفقيرة يستبدلون بدمى من القش او الخشب هؤلاء الضحايا الذين يدفنون احياء والذي يختلف عددهم استناداً الى منزلة الميت . وعندما تنتهي اعمال الدفن يذهب ابن المتوفى الى هيكل الجدود ليضع راحة ابيه الموقته ويقدم القران ، ثم يقم مأدبة يشترك فيها ممثل عن الميت (ش) . وهكذا تنتهي سلسلة حفلات الدفن .

وان كان الملك ، بصفته نبيلاً ، يحيا حياة خاصة لا تختلف الا قليلاً عن حياة افراد رعيته ،

فانه مع هذا ينسق منهجه كما تفرضه واجباته الدينية والسياسية فيقسم وقته بين الأدب الشهري والاستقبالات الحافلة واصدار الاحكام القضائية واقامة المآدب . فهو في كل صباح يبحث مع وزرائه شؤون الدولة ، اما الملكة فتقرر امور القصر . ويسبب موت الملك اقامة حفلات اكثر ابهة وشوفاً من وفاة النبيل العادي . وقبل ان يشعر الملك بدنو اجله يعهد الى الحارس الاكبر (وهو واحد من ثلاثة نبلاء يدعى كل منهم دوق) بتسليم الحكم الى الابن البكر من زوجته الشرعية . وبعد موت الملك يعد الحارس الاكبر حفلة الدفن ، ويسجل وصية المتوفى بواسطة الكاتب الاكبر ، ويرشد الامير الوريث في فترة الحزن ثم يعد العدة لحفلة تويجه . وتم حفلة التويج بنقل لوحة العشب ، رمز السلطة الملكية ، الى الملك الجديد .

يقتن الفلاحون في كهوف حفرت في التربة الصفراء ، او في اكواخ من مجتمع القرية والمدنية الاغصان اقيمت مؤقتاً في الاراضي الزراعية ، او اخيراً - في الشتاء - في بيوت جمعت فكونت قرى وديساكر . وتصنع هذه البيوت من الطين ، على شكل مكعب ، وتغطى بالقرش . وتحيط بكل بيت حيطان او سياجات تحمي بالوقت نفسه البساتين الصغيرة التي تؤمن العيش اثناء الشتاء . وترتفع القرى غالباً حول منزل سيد البقعة يحميها جيباً سور ، وارض البيت من التراب المرصوص ، وفيه موقد من حجارة يقرب بعضها من بعض ، وينطلق دخانه من ثقب احد في وسط السقف . ولا يحتوي المنزل الا على باب ونافذة اعدا على الواجهة الجنوبية . ويتألف الاثاث بنوع خاص من سرير بدائي هو سرير الزوجين . ومع بساطة وحقارة البيت فان كل جزء من اجزائه يرمز الى امر ما ، ويظهرون نحوه الاحترام العميق .

والقرية التي لها بعض الامية هيكل لاله الارض ومدرسة وسوق يتكون من مساحة مربعة يقعون وسطها مبدئياً فارغاً ويتوزع البائعون في الاحياء تبعاً لنوع بضاعتهم ، وتخضع كل فئة لرئيس المحلة الذي يأتمر بأمر مدير الباعة . ويقرر هذا الاخير الاثمان والضرائب التي يسهر على تطبيقها المراقبون ، بينما يعنى رجال الشرطة باستتباب الامن والنظام .

ويسكن في المدينة الرئيسية صاحب الاقطاع مع نسائه واولاده وخدمه وتابعيه ، وهي تضم ايضاً الكهنة والكتبة والهاربين . والقرية مساحة صغيرة (اذ لا يتعدى محيط العاصمة ثلاثة كيلومترات ونصف) يحيط بها سور جماعي يشدد او يقل مناعة ويرتفع في وسطه سور اقل شأناً هو سور بيت السيد . ويكوّن هذا المنزل مدينة صغيرة ضمن المدينة الكبيرة ، ويحتوي على عدة فسحات لكل منها باب عظيم وعلى ردهة الاستقبال التي يرتفع يجانبا هيكل الجدود وهيكل لاله الارض ، واخيراً على مسكن الزعيم . وحوالي هذا السور الداخلي تبنى بيوت تابعي السيد ابتداء من المستشارين حتى رجال الصناعة . ولم يتطور بعد نظام تنسيق المدن ، هذا النظام الذي لا نعتز عليه الا من خلال المبادئ التقليدية ، لذا نجد نقصاً كبيراً في تنسيق المدن الداخلي . ومع هذا فان المدن الكبيرة هي احسن هندسة يقسمونها احياء وحياء وتخترقها شوارع مستقيمة .

ولا يختلف قصر الملك عن منزل السيد الا بمساحته الاكثر اتساعاً وبعرض الابنية التي تضاف اليه . وهو يرتفع وسط العاصمة . وتحد هذه الاخيرة كوم مربعة من التراب تحيط بها الحفر . ويدخلون العاصمة من اثني عشر باباً - ثلاثة ابواب لكل جهة - ويخصص الباب الذي في وسط الجهة الجنوبية بالملك . وتحترق العاصمة تسعة شوارع تتجه من الشمال الى الجنوب تؤلف زوايا مستقيمة مع تسعة شوارع اخرى تتجه من الشرق الى الغرب . ونجد الاسواق في شمال العاصمة ، ودور الحكومة في جنوبها ، بينما ترتفع مساكن الموظفين وبطانة الملك في الجهتين الشرقية والغربية . وتشبه هندسة القصر الملكي هندسة بيت الزعيم . ففي الفسحة الاولى يلفظ الملك احكام القضاء ويستقبل الوفود ؛ وهو يجتمع مجلس وزرائه في الفسحة الثانية التي تحتوي على مذبح إله الارض وإله الحبوب وهيكلي الجدود ومذبح إله الارض للسلافة التي انتصر عليها التشاو . اما الفسحة الثالثة فهي مخصصة للدور الفخمة ولماكن الملك الحصوصية ولماكن الملكة ، ولقاعة تعقد فيها الاجتماعات لتقرير الامور الداخلية ، وليبيوت الخدم والسرايري ، كما نجد فيها منازل الحصيان والإماء والحازن والمطابخ الخ ... اما القسم الشمالي من القصر اخيراً فيبقونه للحدائق الكبرى .

ولقد اتخذ التشاو مثل هذا القصر المدني عندما استلموا الحكم ، ولكن بقي مع هذا القصر القديم المقدس (مينغ - تنغ) ، وهو يؤلف شواذا اذا قيس مع الابنية الطقسية . وهو يقع في الضاحية الجنوبية - الغربية ، ويتألف من بناء مربع ذي طبقتين او يعلوه سقفان من القش ، تحيط به اربعة ابنية اخرى يرتفع كل منها على جهة من جهاته الاربع . ويخصصون الجناح الذي في الوسط لجد السلافة الملكية «ون» الذي يقدم له المعامل ذبيحة كل سنة باحتفال مهيب . اما باقي الاقسام ، وقد طولوا كلا منها بلون يناسب احدى الجهات الاساسية ، فستعمل لاقامة الطقوس الموسمية التي يفتتح الملك بموجبها كل طور من اطوار التقويم .

ولا تحتفظ سائر الابنية المقدسة الا نادياً بصفة ثابتة ، اذ يقومون دوماً بأعمال العبادة في الهواء الطلق . ولا نجد مذابح وهياكل الا لآلهة الارض والسماء والجدود ، وليس لسائر الآلهة الا مذابح مؤقتة . ومذبح إله الارض هو كومة تراب مربعة الشكل ويختلف لونها باختلاف الاماكن التي يقام فيها . اما هيكل القصر الملكي فله اربعة ألوان ، فهو اخضر في الجهة الشرقية ، واحمر في الجنوب ، وابيض في الغرب ، واسود في الشمال . ونجد على كومة التراب شجرة ولوحة من حجر ، وهما رمز الإله ؛ وبالقرب من هذه الكومة نرى حفرة مربعة حيث يدفنون الذبيحة المعدة للطقوس . اما هيكل إله السماء ، ونجده في الضاحية الجنوبية ، فهو تلة مستديرة ذات ثلاث طبقات . ولا يعلوه شيء اذ لا يتلون هذا الإله .

وتشيد الهياكل المخصصة للجدود على الشكل نفسه في كافة انحاء المملكة . ويقم كل نبيل في بيته هيكل للجدود في الناحية الشرقية من عرصة القصر . ويحد الهيكل سور يشرف على الجهة

الجنوبية . ويحتوي هذا السور على فسحة اولى نصب في وسطها حجر على شكل عامود يرتبطون اليه الذبيحة قبل تقديمها وترتفع على جانبي هذه الفسحة الشرقي والغربي بنايتان لاعداد الحدمات اللازمة . ويشيد هيكل الجدد في شقة السور الشمالية ويكون بابه من الجنوب وهو عبارة عن بناء فسيح تكثر فيه العمد . وله سلمان ، احدهما نحو الشرق والآخر للغرب . وفي الوسط ، في المربع الذي يتسع بين العمد ، اعدوا معابد صغيرة يكون عددها خسا تحوي كل منها على لوحة احد الجدد ، وتوضع لوحة الجد الاكبر في المعبد الذي يقوم في الوسط .

ويتبرون كل بيت وكل مدرسة امكنة للعبادة . ولا تصح هذه الابنية المقدسة صالحة للعبادة الا بعد تكريس يلعب فيه دم الذبائح دور السائل المقدس . ويستدعي تشيد كل مدينة وكل بيت اقامة طقس خصوصي اذ ان كل قسم من البناء وكل شكل يعطى للأرض هماً من الامور الرمزية لا بل الالهية التي لها اهمية كبرى . ويقررون بكل دقة الترتيب الذي يتبعونه لتنفيذ الاعمال ، ويلتخبون المواد نسبة لدقائقها الرمزية . ويعيرون اهتماماً خاصاً الابواب اذ ان الالهة التي تسكن فيها هي قديرة جداً ، ويصدق القول هذا عن آلهة الجدران .

ان ديانة الصين القديمة تخضع لقوانين ورتب شبيهة بقوانين ورتب المجتمع الذي يغدو الديانة لها مثلاً . ان الحق بالاشترك بأفعال العبادة هو محصور بالنبل دون سواهم ، اذ ان افراد طبقة العوام يستفيدون من ثمار العبادة دون ان يشتركوا فيها . والأعمال العبادة والذبيحة هدف جماعي وليس فردي ، وهي لحير الامة او الجماعة وليس لمنفعة الفرد لذا ينحون باللائمة على من يتوخى منها فائدة شخصية لا بل يعاقبونه اذ يعتبرونه عنصر ضرر يقلل من الحيز الذي يرجونه من تلك الافعال ..

والآلهة - ولا حصر لعددها - اهمية اقل شأناً من تطبيق القوانين والتقيدها تقيدها اعمى ، اذ هي التي تحفظ النظام العام وتجدهه ؛ وليست الآلهة على كل كلية القدرة وهي تجسم عادة قوى العالم الطبيعي . ومنها ما يختص باجزاء البيت ، واعمال الحقول ، والاشغال النسائية ، والنقابات والحيوانات . ويضيفون الى هذا الزون العظيم ، وان كان جوهره قليل الشأن ، جيش الشياطين والأرواح الشريرة (كوي) . والانفس المهمة (لي) . ومع هذه المجموعة الالهية والشيطانية نجد رب الأعالي ، شنغ - تي ، وإله السماء وسيد الارض ، هيو - تو ، وإله أرض المملكة ، والجدود الملكيين .

ان رب السماء هو سيد الآلهة والإنسان ، وملك الموتى ، وصانع الملوك ، والاداري والقاضي الذي لا يعلى عليه . وهو يعيش في قصر شديد في مجموعة بنات نعش ويسدبر الامور بواسطة مندوبين مجهولين تقبل أهميتهم زمن التشار . ورب الأرض هو قبل كل شيء إله مساحة المملكة . وهو زعم آلهة أراضي التنبلاء وبرأس حفلات تقليد السلطة ؛ وهو يسهر على ازدهار المملكة ، وعلى محاصيل الزرع وجميع الحوادث التي تم حياة المجتمع . وهم يقدمون له كضحايا أسرى

الحرب (ويبدو بأن هذه العادة الدموية أخذت بالتضاؤل منذ القرن السابع ق.م .) ، وهو يسود على المذبح الذي يمدونه له في سور القصر الملكي . ولكل إقطاعة ريان للأرض وهما دون هيو - تورتيه : إله للأملاك الخصوصية وإله للأملاك المشتركة التي تخص الامارة؛ وكافوا يعتبرون الآله الاوّل مطارداً وبعيناً: عند تبديل السلالة ، ولكن استمروا مع هذا بتقديم العبادة له .

والجدود الأموات هم حراس الأسرة النبيلة المباشرون . وتكشف لنا حقيقة هذا المبدأ عقائد الصين القديمة بما يختص بغايات الانسان الاخيرة : فلكل إنسان عدة أنفس في الوقت ذاته ، وتفصل إحداها ، الهون ، عن الجسد حالاً بعد الموت وتقطع طريقاً مليئاً بالخطار قبل ان تصل الى السماء حيث تعطى المركز الذي يحث لها استناداً الى المركز الذي كان يحتله الجسم وهو على قيد الحياة . أما النفس السفلى «البو» ، فتبقى مع الجثة ويخشى ، ان لم تقدم لها الفروض المقررة ، ان تصبح شيطاناً ، كوي ، أو عائداً يهيم على وجه يزرع الرعب في أسرة الميت . وان بقيت بر ، تذهب لتحميها في عالم جوفي . وتحيا الانفس الهون والبو ، كل منها في عالمها الخاص ، حياة الانسان ذاتها محتفظة برتبها وخاضعة للفرض أيضاً . ولكن لا يهتم التشاؤ لمصير الأنفس اهتمامهم للعلم الذي يعيّل منها جدوداً . وهناك طقس في غاية البساطة يسهل هذا التحويل الذي يتم بعد انتهاء فترة الحزن التي تدوم مبدئياً ثلاث سنوات . وفي هذه الفترة الانتقالية تكرم لرحمة موقته في غرفة الميت ؛ وبعد انقضاء زمن الحزن تنقل اللوحة الى هيكل الجدود وتستبدل بلوحة نهائية تصنع من خشب الكستنا وعندئذ يقدمون لميت قرايين بصورة مستمرة فيصبح حامي الأسرة . ولكن تقل قدرته مع الزمن ويلقونه أخيراً بين مجموعة الجدود الذين لا تقدم لهم أي تقديمة شخصية .

وهناك اذن والحالة هذه عالمان إلهي وشيطاني يجب اكتساب عطفها . وقبل كل شيء ، على المرء ان يعرف معرفة دقيقة الآلهة والأرواح التي له علاقة بها بالنسبة الى مركزه الاجتماعي ووظيفته وواجباته . وبما أن الدقة في اقامة الطقوس وتلاوة الصلوات والمراسم هي أمر في غاية الخطورة وجب من ثم الاستعانة برجال كهنوت علماء يقظين .

وتقوم العبادة بصورة أولية على القرايين والصلوات والرقص ، مع ان التفاصيل تختلف باختلاف المكان والآله والظرف . وتقدم طقوس العبادة على أنغام الموسيقى . وتكون القرايين دموية بصورة شبه مستديمة ويختلف حيوان الذبيحة حسب الظروف ، ويكون لونها كما يفرضه مركز المقدم . وتكثر القرايين البشرية ولكنها تقتصر على بعض الطقوس الخصوصية : فتيات يقدمن كزوجات للآلهة ، أو أسرى الحرب يقدمون لرب الأرض والجدود ، أو سحرة ومشوّهون لاستدرار المطر في أوقات الجفاف الشديد ، أو بطانة النبيل أو الملك لرافقتها في قبرها . وقد تذبح هذه القرايين أو تحرق أو تدفن أو تغرق . ويقدمون أيضاً النباتات (الجاورس) أو الحرير أو الماء أو النار التي تنتج عن انعكاس الشمس على مرآة مقعرة الخ . وللصلاة قوة شبه سحرية

وثمر ثمارها ان تليت بصورة دقيقة وفي الوقت المناسب وفي الظروف المتوجبة . ويقوم الرقص على حركات مقدسة تمثل الامور التي يريدون ان تحدث، وتعبد الى الذاكرة المفامرات الميثولوجية التي يتوجب على المرء ان يحققها لنجاح المسالم . والموسيقى هي عربة الالهة ، فهي التي تجذبهم وتحملهم وتحفظ بهم ، وتشارك فيها الاصوات والآلات (العود والطبل والقيثارة) . وفي طقوس بعض القرايين كالتي تقدم الى الجدود يوجد وسط (شي ، جثة) ينتخب من اقرباء الميت الذكور يمثل المتوفى الذي ينطق بلبثانة ويتقمص فيه لمدة من الزمن . ونجد هذا الطقس في عبادة إله الارض الذي يعد كيت أيضاً .

ويتطلب تقديم الذبيحة بطبيعة الحال دقة وتقارة في الطقوس ليس فقط بما يختص بالأدوات والتقامد ولكن أيضاً بتقديم القرايين والاشخاص الحاضرين .. وينال الجميع هذه التقارة بطقوس تطهيرية وممارسة فترات تقشف تطول او تقصر .

وتقسم السنة فترات فترات أعياد وطقوس تتعلق بعضها بالمواسم الزراعية والاخرى بعبادة الجدود . وتضاف الى هذه الأعياد الموسمية الاحتفالات الطارئة وسائر احتفالات العبادة العادية التي تحيي بها الحوادث اليومية او الظرفية (الصيد والحرب ومراحل الفتوة الخ) . ولكل منها عبادة معينة ومقررة بكل دقة وقد يقدو وبالأا اقامتها في ظروف غير التي حددت لها . ولا يلحق هذا الضرر مباشرة بالفرد ، ولكن بتعاقب الفصول وبمسن سير النظام العالمي ، لذا غدا القيام بها فرضاً لازماً على الذين نيط بهم السهر على النظام الكوني ، اعني النبلاء وبالدرجة الاولى الملك . ويحدث موت الملك وحده بعض البلبلية في سلسلة الأعياد العادية اذ تتوقف بعضها أثناء فترة الحداد .

ان الملك هو دون شك مقدم القرايين الاول . فعليه وعلى فضائه يستد تنظيم السنة الزراعية . فهو يبدأ الربيع بتقديم ذبيحة كبرى لرب السماء ، ثم يقوم بأول عمل فلاحية فيشق ثلاثة أثلام في حقل مقدس ، ويجذو حذوه في هذا العمل الرمزي جميع اصحاب الارض النبلاء في كافة أرجاء المملكة . ويفتتح الملك أيضاً موسم الزواج ، ثم تقيم كل قرية حفلات ممائلة . ويجددون النار ويستعيدون من جديد النشاط في مختلف مرافق الاعمال . وفي الصيف تقدم القرايين الى آلهة الجبال والأنهار والينابيع والأمطار ، ثم تأتي أعياد الحصاد واختتام الحياة الزراعية . وتبتدىء فترة الشتاء بذبحة كبرى لإله السماء بواسطة جد السلالة ، الملك «ون» ، وقرأ أثر ذلك يذهب الملك الى الضاحية الشمالية لاستقبال الشتاء واصدار الأمر بحجز الفلاحين في القرى . ثم يأتي دور القرايين الملكية لرب الارض والجدود الى ان يجين أخيراً عيد الحصاد ، وهو من أهم أعياد السنة . وتعاد حفلات هذه الحفلات والأعياد في الربيع دون ان يتبعوا التقويم الرسمي الذي يحمل في طياته شوائب فادحة بل حلول الفصول الطبيعية .

وتنخلل هذه المواسم أعياد مقررة يحددون أوقاتها أيضاً تبعاً لحلول الفصول دون اعتبار

التقلبات الرسمية ، وهي تتعلق بصورة أولية بالحدود الذين تقدم لهم مع هذا عبادة يومية . ومن هذه الاعياد ما يقام مرة كل ثلاثة أشهر او كل سنة او كل خمس سنوات ، وأشهرها الذبيحة الملكية التي يقدمونها للحدود كافة بما فيهم الجلد الاول . وبهذه المناسبة 'تقام وليمة جماعية وحفلات رقص صاخبة يشترك فيها الملك وأولاد الأسر الكبرى الذين يقبلون في البطانة الملكية.

وهكذا فالحياة كلها في الصين القديمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأفهام دينية حددوا جميع دقائقها بعناية كلية ، وبدونها لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً منتظماً ومفيداً . والديانة ، وقد أسست على الامور الطقسية ، هي قبل كل شيء ديانة جماعية ترجى منها المنفعة وتوافق كلياً تقسيم المجتمع الى طبقات وفئات . ولكن نلاحظ تطوراً دقيقاً يظهر في منتصف دور التشاوسيقود الديانة القديمة الى حالة جود وتنظم عقيم يستبج معها الصينيون الذين وقفوا على مبادئ الفلاسفة ورجال الأدب بعض التحرر .

تشدد الحركة الفكرية منذ أواخر القرن السادس ق . م . اذ يظهر في هذه الحقبة الفلسفة الرجل الذي لعب أعظم الادوار في الحياة الصينية العقلية : كونفوشيوس (كونغ كيو المصعب بتشونغ - ني) ويميل رجال الأدب الأكثر تحمراً نحو الشك والارتياب في كل شيء حتى نفي وجود الآلهة والارواح واستنكار بربرية بعض طقوس العبادة كتقدمة الذبائح البشرية . ويسعى كونفوشيوس في تعاليمه للإبقاء على التقاليد مستنداً الى كتب العصور القديمة والى طقوس وسياسة العهد المنقرض . لذا فإن تعاليمه الروحية هي موجهة أساساً الى الطبقة الارستوقراطية وتهدف الى حسن قيادة وحكم الشعب استناداً الى الدرس وترويض النفس الروحي ، هذا الترويض الذي لن يعود بالنفع على صاحبه بل عكس ذلك على الآخرين فيستتب اذ ذلك حسن التقام الذي هو الدعامة الكبرى للنظام العام . والوسائل الكفيلة بالوصول الى هذه العناية هي طقسية ، كما كانت في عهد التنظيم الديني ، وتساعد الفرد ليصبح إنساناً أسمى ، وذلك لخير المجموعة ، ولخير الشعب بكامله . ويستند كونفوشيوس ببراهينه وإثباتاته وأمثلته الى ضرورة التشبه بقديسي العهود القديمة والوصول الى فضائلهم ، اذ هذا هو الشرط الاساسي لحفظ النظام والتوازن العالميين .

وقد أُنجبت تعاليم كونفوشيوس فيلسوفاً عظيماً هو موتي ، أو بالاحرى موتسو ، الذي عاش في القرن الخامس . وتصرف لديه المعطيات الميتولوجية أمام الاستنتاجات الفلسفية أو تفقد التقاليد الكثير من امتيازاتها اذ يكره تنظيم الطقوس المادي الذي لا روح فيه . واستناداً الى تعاليمه تفقد الديانة صفتها الجماعية والاجتماعية لتصبح حقاً ديانة الفرد اذ لا يؤسس تفكيره على نفوذ وسلطة قديسي العهود القديمة بل على قوة القياس الفلسفي . ان مبادئه محبة الغير التي نادى بها كونفوشيوس والتي كانت غايتها خير إحدى الجماعات أصبحت مع موتسو تعاليم المحبة الجامعة الشاملة حيث تتساوى كل الفئات الاجتماعية وطبقات الأفراد . وأساس تعاليمه هو الخضوع

لإرادة رب السماء وعبادة الألهة . ووافق هذه النظرية ، وإن كانت ثورية في بعض نواحيها ، التغييرات الجذرية التي شهدتها المجتمع في ذلك العصر ، كما أنها تتناغم مع الوثنية الروحية والحنو على الغير الذي كان يغذيها في الهند تلامذة شكيموني ، والتي لم تعرفها الصين إلا في وقت لاحق جداً .

ويجانب جهود هذين المعلمين الكبارين ، فقد قامت مدرسة ميتافيزيقية على مبادئ السحرة الأقدمين . وهم يقارنون بالعالم الحسي عالماً وهمياً ويؤكدون مبدئياً بأن الأساليب السحرية تؤثر على أحدها بواسطة الآخر . وهم يلجأون إلى الدين والبنج لتفسير تنابع السنة الزراعية وكل المظاهر التي تنتج عنه . ولا تتعدى هذه النظرية في أول الأمر محيط فئة مختارة من النبلاء ولكن منذ أواخر القرن الخامس ق. م. يمتنقها كل الفلاسفة ، ثم تتسرب رويداً رويداً إلى فئات أقل ثقافة ، وتستمر إلى يومنا هذا محوراً للفكرة الصينية .

وهكذا تتكون رويداً رويداً تفاسير دينية وفلسفية جديدة تؤلف وحدة منذ القرن الرابع قبل العهد المسيحي ، عندما تحدث العوامل الحضارية المتوسطة محوراً في الميثولوجيا وتأتي بمعلومات فلكية جديدة مختلفة . ويتألف مع الزمن هذان العاملان الطقسي والفلسفي دون أن يظهر بينهما تناقض ويكونان عقلية لا تزال الصين تحتضنها إلى عصرنا الحاضر .

ليس لدينا عن أبنية ذلك العصر إلا معلومات أدبية إذا ان المواد المستعملة - الطين
الفسن والخشب والأجر والقش - هي مجرد ذاتها مواد عرضة للتلف . ولا يبدو بأنه كانت للأبنية التي خصصوها للوثني حظ أوفر بالديمومة . ونعرف معرفة أكثر وضوحاً وثبوتاً الأدوات التي استعملوها في إقامة العبادة ومختلف الطقوس ، وهي تتألف ، كما كان الأمر في العصر السابق ، من أوان وأدوات نحاسية وأسلحة وأشياء رمزية من اليشب . ولا نجد إلا أدوات قليلة جديدة تمثل الانسان . ويتكون الاطار بصورة مستمرة تقريباً من عناصر حيوانية عبروا عنها بفن خصوصي وشملت حيوانات ميثولوجية وهمية نظروا إليها وجهاً لوجه أو من جوانبها . وقد نقشوا على سطح قطعة النحاس بكاملها نقشاً دقيقاً جداً ، تبدو عليها الحيوانات بصورة ناعمة بينما تتشابك على سطح المعدن خطوط ملتوية . اننا نجهد الرمز الذي يهدف إليه هذا النقش ، ولكن تساعدنا أشكال الأواني على تنظيمها فئات فئات محددة العالم ، توافق كل منها الطقس الذي صنعت لأجله . ولا جدل في حقيقة صفة هذه الأواني المقدسة . وكان الملك نفسه يجترها ومنها الآلات الشهيرة ذات الثلاثة أرجل التي حفظت في باب من أبواب العاصمة . ويصعب علينا ان نميز بوضوح مراحل هذا التطور الفني للنحاس منذ عهد الشانغ حتى أواخر زمن التشاو . ولكننا نستطيع مع هذا ان نلاحظ تطوراً فنياً بطيئاً تصبح تفاصيله رويداً رويداً جامدة لا حياة فيها ، ثم تتشابك وتتضخم إلى ان تصبح في عهد الممالك المتقاتلة أمراً بسيطاً جداً فيه عوامل تزين أكثر دقة وبساطة - وهي تظهر فعلاً ذوقاً أشد رسوخاً وأعمق دقة ولكنه ذوق يفقد في الوقت نفسه التعبير الصاحب والقلق الذي كان سائداً أيام الشانغ والتشاو .

الكتاب الثاني

من القرن الرابع الى أواخر القرن الأول ق.م.

ان كنا تسهلاً لسرد وقائع الجزأين الاولين من المجموعة قد اعتبرنا آخر القرن الاول ق.م. فاصلاً تاريخياً فلا يجب الاستنتاج من ثم بأنه من الهين إقامة مثل هذه المراحل الفاصلة عند درس الحضارات الآسيوية ، اذ لا يحق لنا ان نتحدث عن تغيير جذري في هذا الطور أصاب الهند والصين، لا بل نؤكد بأنه من الصعب جداً فصل العصر الذي سبق هذا التاريخ عن المرحلة التي تلته . ولكننا مع هذا عملاً بالخطة التي انتهجناها في وضع هذه المجموعة فقد سعينا جهدها في تأليف هذا الجزء بالاعتماد فقط على المعلومات التي سبقت أواخر القرن الاول ق.م. ولكننا لا نخفي مع هذا بأن مثل هذا الحد الفاصل لا اثر له تاريخياً وبأننا نجد وحدة حقيقية تستمر حتى حوالي القرن الثاني للمسيح فيما يختص بالهند وحتى سقوط الهان سنة ٢٢٠ بعد المسيح فيما يختص بالصين . لذا سنضطر ، لحسن اظهار تطور هاتين الحضارتين الآسيويتين ، ان نعود - في المجلد الثاني - الى بعض المواد التي بحثناها في المجلد الاول .

الفصل الأول

آسيا الشرقية من القرن الرابع حتى القرن الأول ق.م.

ان كان من خصائص العهد السابق تحديد مختلف معالم المناطق الآسيوية الحضارية السياسية منها والاقتصادية والدينية ، فان العهد الذي نعرض له الآن يزيد في هذه المزية لاتساع وتطور التبادل التجاري والثقافي ، ولقيام سلطات أكثر مركزية ولاتنشار الديانات الكبرى .

فقد انتهت في آسيا الازمة الكبرى التي سببت الاصلاحات الروحية والفلسفية والدينية كالبودية في الهند والطاوية في الصين . وبعد ان كانت الاصلاحات هذه مجرد بذور فكرية أصبحت عرى وثيقة بين شعوب متناقضة ، تعد لنفسها حياة تتلامم والمحيط الذي ولدت فيه وتتطور رويداً رويداً لتتوافق وميول كل قطر انتشرت فيه . وسيكون للبودية خاصة رسالة تبشيرية في القرون التي تهمنا .

ومن الناحية السياسية ستؤكد الصين والهند جهودهما في السعي نحو الوحدة : فستحرر الهند أرضها من الاستعمار الايراني وستقضي على غزو الاسكندر ذي القرنين لورادي الاندوس سنة ٣٢٥ وتدحر « الغزاة » نحو المقاطعات الهندو - افغانية . وبعد ان تكون الهند قد قطعت مرحلة الاستيطان الآري تصبح قادرة على تصدير حضارتها وقبول كل مستورد وتحقق وحدة سياسية في ظل سيطرة سلالة الموريا الوطنية . وفي الوقت ذاته تتخلص الصين من دياجير قرون الحكم الاقطاعي لتقيم ، ببطء وعناء ، سيادة وطنية سياسية ينتج عنها ازدهار تجاري وتوسع اقليمي يغدوان من بواكير عظمة مدهشة . ويبعث عهد الملكين اشوكا في الهند وتسن شة - هوانغ - في الصين ، وكانا متعاصرين ، حماساً نحو الوحدة والسيادة لم يعرفها من قبل البلدان الآسيويات الكبيران . وهناك اقطار عدة على حدود هاتين الدولتين العظيمتين او ضمن مدى منساعها تبرز من طبقات النسيان لتدور في فلك هذا النفوذ التاريخي او ذلك : كاهند الصينية والتركستان الصيني وكوريا ثم بعد فترة من الزمن اليابان .

وتتقوى رويداً رويداً العرى التي تشد مختلف هذه الاقطار الآسيوية الى بعضها البعض او توحد العلاقات بين آسيا واوروبا . وقد وجدت هذه العلاقات منذ تاريخ سابق كما تشير اليه أدلة

عدة ، ولكن لن تظهر بوضوح وجدية إلا منذ القرن الرابع ق. م. وبعد قطع البوسفور النقدية التي ترتقي الى حوالي ٤٠٠ سنة ق. م. والتي وجدت في منطقة ايلي ؛ فقد عثرت بعثة كوزلوف في شمالي اورغا على اشياء للفايضة والتبادل نستطيع معها ان نعتبر منغوليا احدى مناطق التقارب بين اليونان والشرق الاقصى . ان الأدلة التي تثبت لنا وجود مثل هذا التبادل لا تزال غير كاملة ولكنها مع هذا تجيز لنا الظن بأن الاتصالات بين الشعوب كانت أشد وأقوى مما نعتقد عادة وتكشف لنا من ثم سلسلة حوادث تتوغل في القدم . وباستطاعة علم الآثار ان يضيف الى أدلة المؤلفين التقليديين المعروفة اثباتات يكشف النقاب عنها مجرى سير الحضارات وتأثيراتها . وتنسج هذه التأثيرات شبكة يستعصى حلها على القارة الاورو - آسيوية وتظهر سلسلة من التصادم والتفاعل يصعب مراراً تقصي اتجاه حوادثها ويذهل المرء غالباً لتناجها ، ولكن كثيراً ما تبرزها العوامل السياسية . وهكذا فان الصين ايام حكم الهان ، وقد أرادت استخدام اليوتشي ضد الهيونغ - نو ، اتصلت بالغرب عن طريق منطقتي سوغديان وبكتريان ، وأقامت علاقات دبلوماسية مع هذه الأخيرة حوالي سنة ١١٤ ق. م. وعرفت من ثم بلاد فارس والشرق الروماني . وعندما تعدم الحقائق التاريخية - وهذا ما يحدث أكثر الاحيان لسوء الحظ - فان المفريات تسد هذه الثغرة وتأتي الاشياء التي يثر عليها لتثبيت حقيقة امتداد الحضارات وتنقل معالمها . فقطعة العاج مثلاً التي نقش عليها في الهند ووجدت في بومباي او نقود السلالة الانطونية التي اكتشفت مؤخراً في الكوششين ، او أواني ارزو الخزفية التي عثر عليها بالقرب من بونديشاري - وتقع هذه الأماكن على حدود القارة الاورو - آسيوية المتناقضة - كلها اثباتات وشواهد على تنقل الحضارات بسبب الحروب او التجارة او الاسعار .

ونعرف عدة طرق للقوافل لم تسلكها الأشياء المادية فقط بل سارت عليها أيضاً الافكار والروايات . وتبدو لنا اذ ذاك آسيا العليا كمر لا يعرف سكينه اذ تخترقها على أقل تقدير ثلاث طرق : يفصل احداها الى ضواحي بكين مخترقة منغوليا الشمالية بعد ان تكون قد مرت شمالي البحر الاسود وبحر قزوين ، وتصل الأخرى بشمالي الجبال السباوية بعد ان تكون قد لفت جنوباً صحراء منغوليا . ومنذ عهد الاسكندر ذي القرنين اتصلت الهند ببخر قزوين والبحر الاسود بواسطة الملاحه النهرية وخصوصاً مجرى نهر الاوكوس . وأشهر هذه الطرق لا بل أهمها كانت « طريق الحرير » وقد بدأوا بالاتيان على ذكرها منذ أواخر القرن الثاني ق. م ، ولكنها ترقى مع هذا كما يظهر الى زمن أكثر قدماً . وقد أقيمت عليها أسواق زاهرة وسلكت ممرات افغانستان الحالية واخترقت التركستان الصيني باتجاه مناطق الحدود الصينية التي بلغت أقصى امتدادها الى واحة تران - هوانغ التي أصبحت حتى القرون الوسطى ممرأ لجميع طرق القوافل الواصلة للصين ببلاد بكتريان ؛ وقد تفرعت عن هذه الطريق الاساسية مسالك ثانوية تتجه نحو الهند ، مخترقة بكتريان ، والبنجاب الخ ، ومنتهية الى الشواطئ الهندية الغربية حيث كان يزدهر الاتصال البحري مع الغرب .

وكانت بضائع مصر وسورية تصل بجرأ الى عراقيه المنسد على شواطئه ملايا ، وخاصة موزيريس ، المدعوة اليوم كرانفانور . وكانت هذه التجارة مزدهرة جداً دون شك وستزداد نمواً مع القرون اللاحقة .

وهكذا انتقلت الأشياء التي تمثل حقاً بلادها الاصلية من حوض البحر المتوسط الى آسيا ، والعكس بالعكس . وبهذه الواسطة بعثت الهند والصين ، البلدان الكبيران المتحضران ، نحو المناطق التي دارت في فلكنها التجاري والسياسي كل المؤثرات الحضارية التي وصلت اليها . ولم يكشف لنا علم المعاديات إلا آثاراً قليلة عن القرن الرابع ق . م . ولكن تعد هذه الآثار أدلة كافية مع هذا لنسب النتائج المتبادلة لهذا الاتصال الذي أتينا على ذكره : كآثار الحضارة الاخمينية على بلاد الهند وقد مهتت الاساليب الفنية أكثر من الاشكال ، وآثار الحضارة المكردونية والايونية كما تثبت ذلك بعض الادوات التي عثر عليها في تكسيلا ، ونقود البوسفور التي وجدت في منغوليا النخ ، وهذه هي الفترة التي يغادر فيها الاخينيون مناطق الهند ، في وقت يتوغل فيها الاسكندر ذو القرنين في غزوته حتى حوض الاندوس ، كما تتعرف فيها الهند الى وحدة سياسية حقيقية تحت حكم سلالة الموريا التي استولت على السلطات حوالي سنة ٣٢٢ ق . م . أي بعد سنوات قليلة من حدوث غزو الاسكندر .

وفي القرن الثالث ، اذ كانت روما وقرطاجة تتصارعان ، نعمت الهند المورية بفترة من الوحدة تحت حكم الامبراطور العظيم أشوكا الذي نشر في أرجاء مملكته قرارات روحية أوحث بها اليه الديانة البوذية التي كان قد اعتنقها . ولكن غدت هذه الفترة عهداً دموياً للصين في زمن حكم تسن شه هوينغ - في الذي كان يبني وحدة بلاده السياسية والذي بدأ حمايتها بتشيد السور الأكبر . وتأسست سلالة الهان سنة ٢٠٦ ، وستفتح هذه السلالة بلاد الصين على مصرعها للحضارات الاجنبية وتحفظ بالسلطة زهاء أربعة قرون .

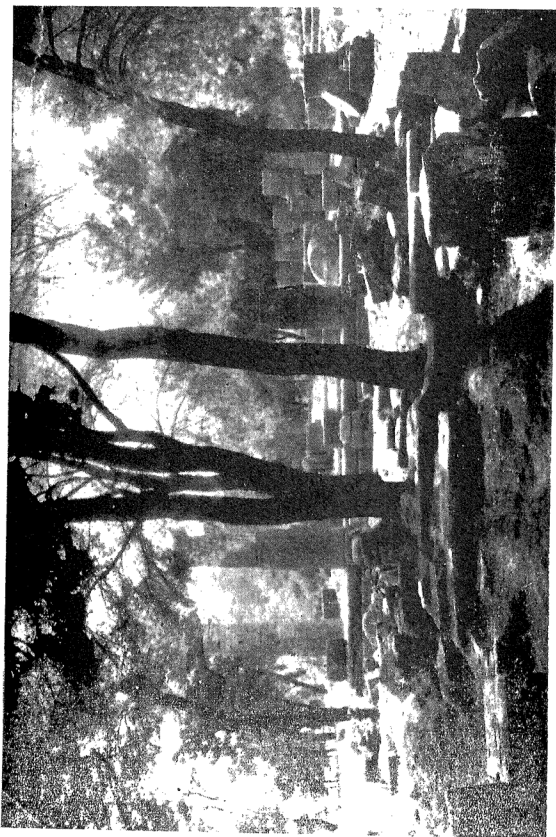
وسيشهد القرن الثاني ق . م . نمو اطراد مملكتي سوغديان وبكتريان الهندو - يونانيتين اللتين ظهرتتا بعد غزو الاسكندر ذي القرنين . وسيوسع الهندو - يونانيون ممتلكاتهم باتجاه الهند فيستولون على البنجاب ، في الوقت الذي تمدد الصين سلالة ملوك الهان فتوحاتها حتى كوريا شرقاً وواحة توان - هوانغ غرباً والتونكان جنوباً . وتعرض الشعوب المجاورة للصين لتقلبات مختلفة ، وهكذا يصل اليو - تشي ، وقد دحرم الهيونغ - نو ، الى بكتريان حيث يحولون الممالك الهندو - يونانية الى امبراطورية هندو - سينية (حوالي سنة ١٣٠ ق . م .) وهكذا يصبحون من ثم الوسطاء بين الصين والغرب . وسيساعد هذا الوسط الأورو - آسيوي أكثر من سواء على نشر مبادئ ثقافة القرون القديمة الكلاسيكية في وقت تشهد فيه الهند الجنوبية قيام حكم الاندرا الذي سيدهر خاصة ما بين القرنين الثاني والرابع المسيحيين والذي سيتأثر ، ولو بصورة لطيفة ، بالحضارة الزمانية .

وفي القرن الاول ق . م . ستتخذ العلاقات التجارية بين مصر والهند مجراها الطبيعي . وستطوّر وتزدهر بعد فترة قصيرة ونرى نتائجها في القرن اللاحق .

وستشهد لهذه العلاقات بعض الآثار في مجال الأدب والعلم ، وان كان يصعب تحديد تواريخ دقيقة لهذه الحقيقة . ولكن من الثابت بأن المسافرين « المتقنين » قد ساروا على الطرق التي خطتها التجارة . والاقتراسات التي أخذتها الهند عن إيران الاخمينية هي دون شك ذات أهمية كبرى وان كان يصعب اكتشافها جلياً لوحدة المصادر التي استقت منها حضارة كل من هذين البلدين . ولكن تظهر هذه الاقتراسات بكل وضوح في مضار الفن : إذ ان قصر اشوكا في باتلپترا مثلاً يظهر بعض الشبه مع قاعة العرش التي شيدها داريوس في برسبوليس . ويوافق الوصف الذي تركه لنا المؤلف اليوناني ميغستين بقايا القصر التي عثروا عليها . وهناك تشابه أيضاً بين تيجان العواميد التي نقش عليها اشوكا بعضاً من قوانينه والفن الذي كان سائداً في برسبوليس .

وتضاف الى شواهد تأثير الحضارة الإيرانية (التي يثبتها احتلال إيران للنهب حتى آخر القرن الرابع ق. م .) الآثار التي هي وليدة تأثير الحضارتين المكدونية والايونية والتي نشاهدها خاصة في مدينة تكسيلا .

ومن المعتقد بأن آسيا التي اقتبست الكثير عن الغرب قد وهبت بعض الامور بالمقابلة . ويتساءل المرء ان لم تكن بعض العادات الهندية هي التي أوحى بحفلة العرش الفارغ التي أقيمت في كيليكية للاسكندر ذي القرنين سنة ٣١٨ ق. م . - أي خمسة أعوام بعد موته - ويميل الانسان أيضاً الى الاعتقاد بأن هذه الناحية من القصة اليونانية او تلك النظرية الفلسفية هما من نمار تأثير الحضارة الهندية .



٣٣ - الميراياك في اولمبيا .



٣٤ - عداؤن اولمبيون . رسم على قارورة (القرن السادس قبل المسيح) متحف الفاتيكان .



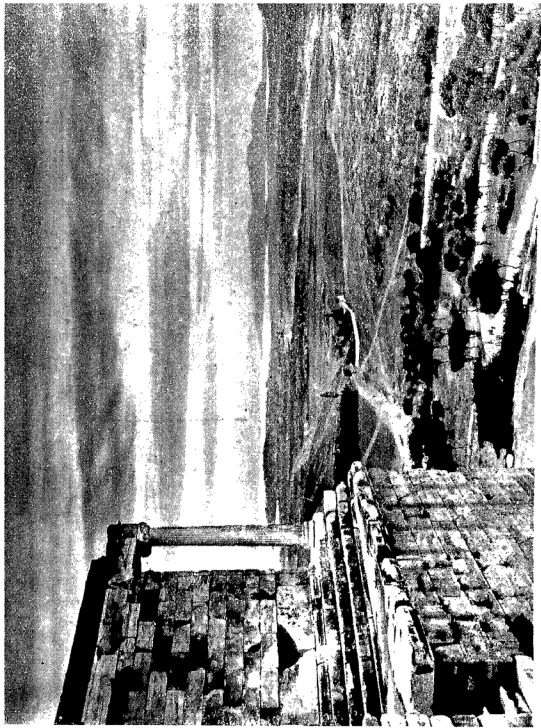
٣٥ - زفس هيسيتيا (ويعرف بزفس ارتميسيون ايضاً)، وهو من البرونز وينسب الى
كلاميس (حوالي ٤٦٠ قبل المسيح) . المتحف الوطني في اثينا .



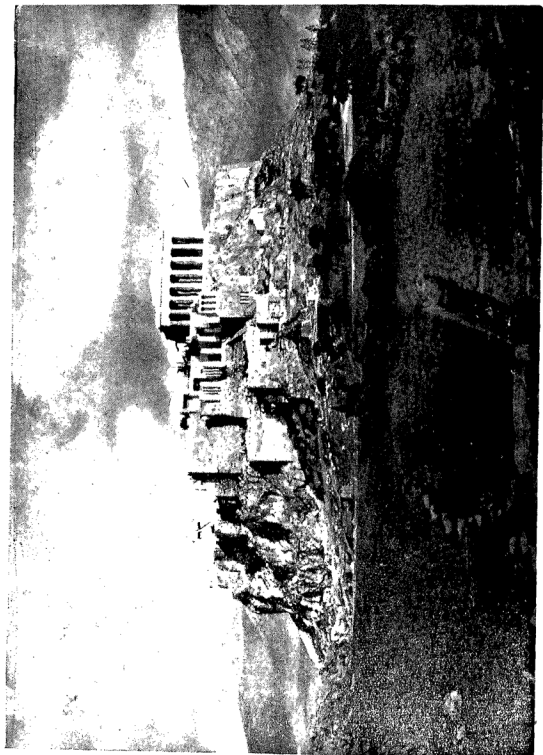
٣٦ - مسجد ابيوردین .



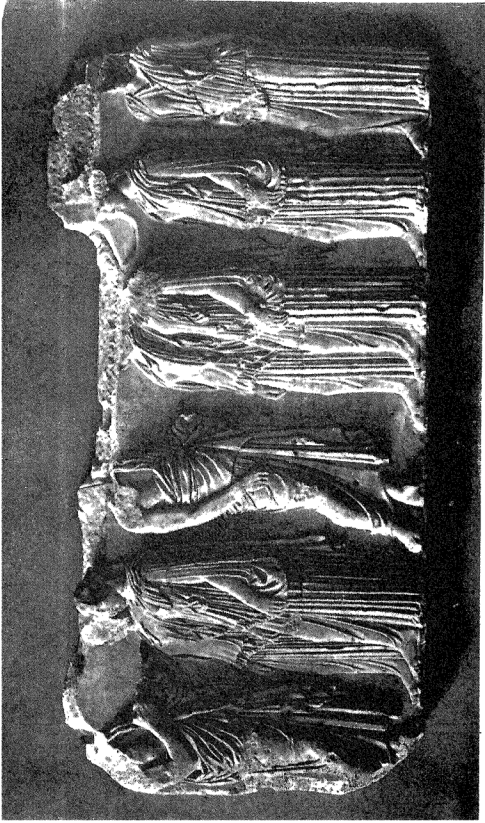
٣٧ - المعبد ذو الشكل D ، ويعرف بمعبد « جونون
الاداسينية » ، في اغريجنته (القرن الخامس قبل المسيح) .



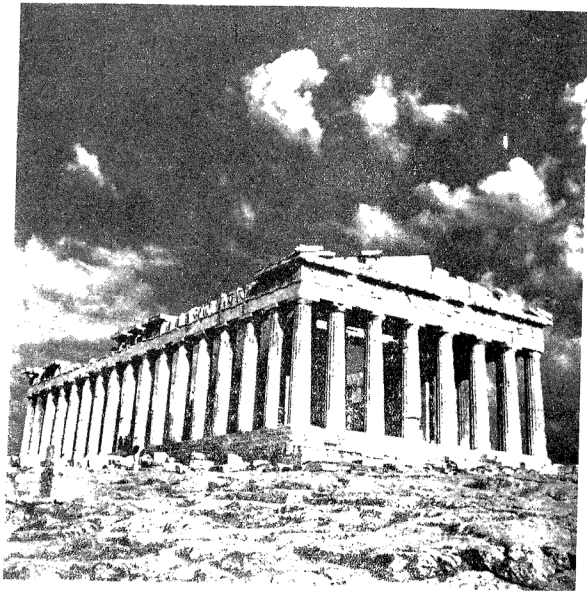
۳۸ - مرفأ سادمن الطیعی کا پری من برج اثینا نیکی .



٣٦ - قلعة اثينا .



٤٠ - تطواف عيد الآلهة « آتينا » . قسم من الفريز البرثنون . متحف اللوفر .



٤١ - البرثتون (في حالته الحاضرة).



٤٢- اثينا برثنوس .مدالية من البرونز المذهب ، ويرجع
انه مستوحى من تمثال فيدياس في البرثنون .



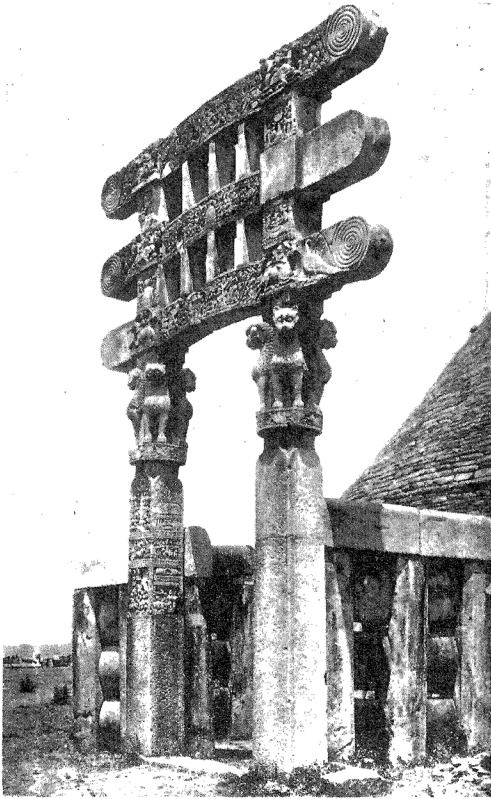
٤٣ - الاتيك او كورنثوس ، اواخر القرن الخامس او
اوائل القرن الرابع قبل المسيح الالهة « نيقى » في ساموتراس



٤٤ - اناه شنفي ثلاثي القوائم مصدره نغان - ينغ ، عهد شنغ .



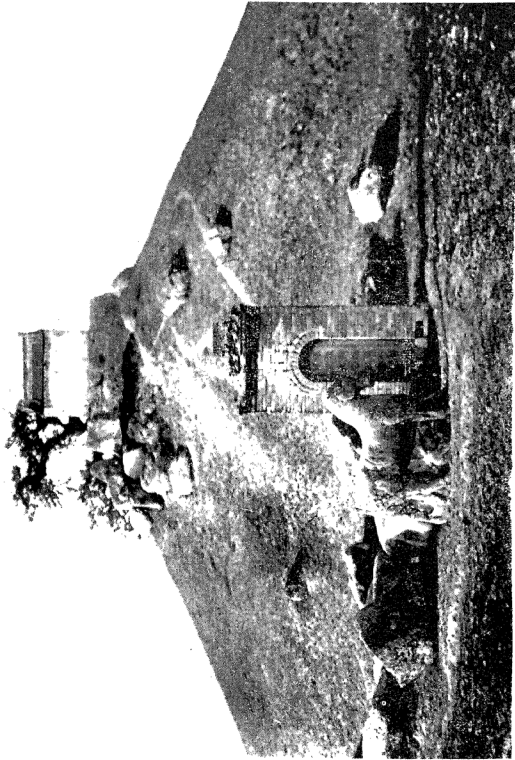
٤٥ - تمثال نصفي لرجل مصدره موهنجو - دارو .
الحضارة المعروفة بحضارة الهندوس . متحف الآثار ، نيودلهي



٤٦ - المدخل الجنوبي للشتوبا في سانثي (الهند) . القرن
الاول قبل المسيح .



٤٧ - اناة طقسي بشكل رأس رجل تعلوه الخوذة . طرف
قناة من البرونز عهد شنغ .



٤٨ - حصان من حجر وقبر هوو - كيو - بنغ الغروطي الشكل . هيان - ينغ ، مقاطعة شن - سي (السنة ١٧ قبل المسيح) .

الفصل الثاني

الهند أيام حكم الموريا وخلفائهم

استمرت حركة البعث التي أوجدها الموريا دون توقف مدة حكم خلفائهم المباشرين الشونفا والكانفا (حوالي السنة الخمسين ق. م.) . وغدت هذه الفترة عهداً بنسأءً ومن أغنى أطوار الحضارة الهندية وسبقي أثرها العظيم في التقاليد الهندية حتى عصرنا الحاضر . وإن كان مركز الثقل السياسي قد استقر منذ القرن الاول او الثاني للسيدية في منطقة غير وادي الغانج ، أي في شمالي البلاد والشمال - الغربي مع سلالة الكوسانا وفي الجنوب - الشرقي مع ملوك الاندهرا فان النتائج التي حققها الموريا لم تندثر بل مهدت الطريق امام ازدهار الدور اللاحق الذي سيبين عليه عمل الغوبتا التوحيدى المشر (القرن الثالث الى القرن الخامس) ، هذا مع العلم بأن هؤلاء الغوبتا سينتسبون الى الموريا لتثبيت سلطتهم .

ان أهم حداث هو دون شك سعي الموريا لتحقيق الوحدة السياسية التي شيذوا عليها امبراطوريتهم . فقد أوجدوا نظاماً سياسياً مستتبداً لتسهيل ازدهار البلاد الاقتصادي فدعموا علاقات الهند الدبلوماسية والاقتصادية مع سائر أقطار آسيا والغرب ، واستعملوا البوذية كأداة قوية نشرها بواسطتها في مختلف أجزاء الامبراطورية القوانين الروحية التي ستحقق الوحدة . وعموا هذه الديانة في سيلان ، وسينتشر هذا المعتقد بعد قليل من الزمن في آسيا الوسطى والشرق الاقصى . وعرف الفن نهضة مجددة واستعملوا لأول مرة مواد صلبة ، وسيفدو جمال هذه الحقبة أساساً للازدهار اللاحق . وأخيراً سبضي التأليف الأدبي قدماً في الازدهار ، حتى القرون التي ستلي ، كما سيحدث الفولكلور الوطني ومجاريه تحويراً عميقاً في الامور الرسمية . انتا امام عصر يدعو الى الدهشة ، تزدهر فيه مبادئ الفروسية ، وتصح فيه الثقافة ارسوقراطية ، وتستند فيه المذاهب الدينية الى عوامل التسامح واحترام المؤمن ، ويتصر فيه اللاعنف ولو أقله بصورة مبدئية . ومع هذا فان تاريخ هذه الحقبة السياسي لا يعرف استقراراً إذ تقوم في المناطق الشمالية - الغربية سلطات غير ثابتة تحدث تغييرات مستمرة في مجرى الفتوحات الهندية . وتدوم هذه الحالة قرناً عدة .

ويبتدىء عز الهند السياسي أيام شندراغوبتا موريا الذي عرفه اليونان باسم سندراكوتوس أو سندروجيتوس . انه أحد أفراد الكشتريا ، وقد ينتسب الى سلالة نندا التي كانت تملك في مغدها ، وقد خلقها على السلطة حوالي سنة ٣١٣ ق . م . (استناداً الى هيرتسالي) وقبل استيلائه على العرش من الجائز ان يكون قد تقابل مع الاسكندر ذي القرنين ، ورتزعم الثورة التي نشبت ضد حكام المناطق الشمالية - الغربية الهندو - يونانيين . وبعد ان أصبح ملكاً بدأ فتوحاته في كافة أرجاء الهند الشمالية . سنة ٣٥٠ أحسب سلوقس نيكاتور ، مؤسس المملكة البيلوتية ، على عقد اتفاق وأقام معه علاقات دبلوماسية بواسطة اليوناني مستين . وقد عاش هذا الأخير في عاصمة الملك الهندي ، باتليسترا ، وترك لها وصفاً شيقاً لها . وفي هذه الفترة عرف اليونان حقيقة حضارة الهند المورية وغدت لهم أنظمتها وثقافتها عامل دلشة وإعجاب . وهكذا عرف اليونان مبدأ تقسيم المجتمع الى فئات ، وسيادة البراهمة الوراثية ، وزعامة أفراد الثمرانا التي حصلوا عليها بنبوغهم وتفوقهم . ونقف في كتاباتهم على مدى تفوق حضارة الموريا التي سعت مصر وسورية لتوطيد علاقاتها لها . وسنرى فيما بعد دقائق هذا التنظيم (وجه ١١٢) .

وستبلغ سلالة الموريا ذروة عزها مع أشوكا بريدشين ، حفيد شندراغوبتا ، وذلك لكسالك ثقافته واتساع فتوحاته . وقد بدأ حكمه (حوالي سنة ٢٦١ - سنة ٢٢٧) بارتكاب جريمة اذ قتل أخاه البكر ليستولي على العرش . ثم قام بحملة دموية على كالنفا . ولكن سرعان ما اعتنق أشوكا البوذية وغداً مثال الامبراطرة . ومن الحق القول إن لا مثيل له بين معاصريه . وتظهر لنا تعاليمه الواصلة البنا بواسطة « قوانين النظام » التي نقشها في مختلف أرجاء المملكة سمو مبادئه الروحية وفضائل شخصيته الفذة . وان كانت هذه القوانين قد استلهمت البوذية فهي مع هذا هندية الروح ودون أي تحيز ديني ، تسند النظام الاجتماعي والسياسي والروحي حتى نظام الكون نفسه الى شخص الملك . ويحافظ على هذا النظام موظفون ومبعوثون ونظار ومراقبون عموميون الخ ، ومهمتهم حل القوم على احترام قرارات الملك وتوثيق العرى مع البلدان المجاورة . وأساس هذا الحكم - الذي ابتدأ مع هذا بالبطن واغتيال الأخ - هو مبدأ اللانف دون سواه . ويسعى هذا النظام جهده لاسعاد الجميع ، وعدم إزهاق الحيوانات ، وانزال القصاص العادل بمستحقه ، والسهر على صحة الافراد وخلصهم . ومع ان أشوكا أثار ضجة كبرى حول اعتناقه البوذية واتم الحجج الكبرى فإنه حتى المعتقدات الأخرى كما يؤكد ذلك ما قدم من هدايا ملكية عدة الى الاجيافكا . وقد يكون التأم أيام حكمه جمع بوذي كبير في باتليسترا ، وتأسس المعتقد البوذي في سلان (حوالي سنة ٢٤٥ ق . م ؟) التي ستغدو في القرون اللاحقة عاصمة البلاد الاندو - صينية الدينية .

وشملت مملكته عملياً كل أجزاء الهند الشمالية والشمالية الغربية . وامتدت جنوباً حتى منطقة الاندھرا . وأقام الملك علاقات دبلوماسية مع سوريا ومصر ومقدونيا والقيروان والأبير أو كورنثيا .

وبعد موت اشوكا تجزأت مملكته رويداً رويداً ، واستقر الحكم المركزي في مالفا ومقدها بزعامة الشونفا (١٧٦ - ٦٤ ق. م. ؟ بإعتاد على فيليوزات) ثم بزعامة الكانفا (٦٤ - ٥٠ ؟) الذين تولوا السلطة في ذات الوقت مع آخر حكام الشونفا ، بينما كانت الاضطرابات تغير من وضع الممالك الهندو - يونانية وتتقوى زعامة الاندرا في الجنوب - الشرقي . ومع أننا لا نستطيع ان نتحدث عن نظام مثالي أقامه الشونفا والكانفا كالنظام الذي حققه اشوكا نلاحظ بأنهم غنوا تقاليد ثقافية وفنية زاخرة في المناطق التي سيطروا عليها اذ ترقى الى عهد ملكهم آثار نهرهوت وسائتي البوذية الجميلة . وحذوا حذو سلفائهم قوطدوا العلاقات مع الغرب كما يشهد بذلك العامود الذي أقامه هليودوروس حوالي السنة مئة ق. م. (?) بالقرب من فيديشا ، وقد كان من مواليد تكسيلا ومنسوب الملك اتيالكيداس .

ولكن تتابعت أثناء القرن الذي دامت فيه سيادة الشونفا والكانفا حوادث في المناطق الشمالية - الغربية سيكون لها تأثير عظيم على مصير الهند بالذات . وبعد تجزئة مملكة السلوقين حوالي سنة ٢٥٠ ق. م. على يد البرثيين ظهرت دولة جديدة مستقلة في بكتريان يحكمها المرازبة وأجبر هؤلاء المرازبة للابقاء على استقلالهم على قتال البرثيين والارانيين واليونان الذين طمعوا يوماً بهذه المنطقة. ولكن كان هؤلاء المرازبة ذوي طموح وعقلية حربية لذا سعوا أيضاً لتوسيع مملكتهم على حساب المناطق الهندية ؛ وقاموا بغزوات عدة فاستولوا على غندهارا وتوغلوا حتى خليج كمي ، لا بل أخضعوا أيضاً لفترة من الزمن بالتييرا واحتفظوا في البنجاب بمملكة يسوسا الملك مناندر ، بطل « مسائل ميليندا » الشهيرة . وقد توفي هذا الاخير في الفترة الواقعة ما بين سنة ١٥٠ و سنة ١٤٥ ق. م. (?) . وحوالي الفترة نفسها حصلت اضطرابات سببتها غزوة هورت منغوليا الداخلية جرفت معها الى بكتريان جماعات مختلفة وعلى شيء من البداوة كانت قد أتت من آسيا الوسطى ، بينها شعب « السيت » الذي أطلق عليه الهنود اسم شاك . فتضعفت إذ ذاك تضعفماً شديداً مملكة بكتريان لقدم هؤلاء المهاجرين اليها بصورة جماعية ، إذ كان هؤلاء المهاجرون يتحاربون دون هوادة. وزالت هذه الدولة نهائياً سنة ٨٠ ق. م. في وقت استقر به الشاك تحت رعاية البرثيين ، في كشمير ثم في وادي الهندوس ووصلوا الى البنجاب ومالفا .

وهكذا حل محل تأثير الحضارة اليونانية في الهند تأثير سبتي - برثي ذو صبغة ايرانية حاملاً معه مبادئ وعوامل من آسيا الوسطى . وغدت قوى البرثيين والشاك المتكاتفين في الشمال - الغربي وقوى الاندرا في الجنوب سبب سقوط سلالة الكانفا .

١ - إطلار المدينة والريف

ان المدينة المثالية الموصوفة في كتب الأدب هي العاصمة الملكية او الامبراطورية . وتتوافق هذه الأوصاف مع الأشكال التي وجدت هنا وهناك في الرسوم المنقوشة ومع الآثار التي عثروا

عليها . وقد تغطي العاصمة بعض المزارع مساحة شاسعة كباتلييترا مثلا التي امتدت ، على ملتقى الغانج والسون ، على طول (١٥) كلم وعرض (٣) كلم . وللعاصمة مظهر مكان محصن ، تحيط بها حفر من الماء تزدهر فيها نباتات الخندقوق وتستعمل كبواليع عومية . وتتكون الأسوار من آجر غير مشوي وكبيسات هائلة من الخشب : وقد وجدوا لهذه الامور بعض الأمثلة ترتقي الى عصر الموريا في راجنيريا . وعلى مسافات متفاوتة ترتفع أبراج للمراقبة فيها الشرفات تظهر أثر الحضارة الايرانية ، وتشق السور أبواب ضخمة عدة (غوبرا) ؛ وإن نحن صدقنا مغستين فقد حوت عاصمة اشوكا (٥٧٠) برجا و (٦٤) بابا ! وتؤلف هذه الأبواب أبنية بكل ما في الكلمة من حقيقة إذ لها أساس من الآجر وينتصب عليها طابقان او ثلاثة طوابق أعدوا فيها منازل ومكاتب لضريبة المزيون واهراءات. وأمام الغوبرا يرتفع جسر فوق حفرة السور ويتصل عادة برواق يكونه عمودان متصل قمتها قطعة او عدة قطع من الخشب .

ويضاهي القصر الملكي أو الامبراطوري ، كما يقال ، قصور اكبتان او سوزة عظيمة ، إذ ان آثار قصر اشوكا التي عثروا عليها في باتلييترا تظهر تشابها مع قصر داريوس في برسبوليس . ولكن لا بد من القول بأن الهندسة هي من وحي هندي إذ دقائق التزيين والتجميل ، كتيجاجات العمدة مثلا ، تثبت فقط فنا أجنبيا . ومبدأ هندسة هذا العصر هو اقامة بناء محكم الاجزاء . وتتألف غالباً الأبنية من طابقين ، وتشقق على شكل قبة أو مهد . ويحيط بالحروق - أبوابا كانت أم نوافذ ام كوى - سهم على شكل نعل القوس ، تصل الى داخلها أخشاب تحمل طنفا بصورة مهد . وتسنده هذه المجموعة شبكة من الاخشاب ركزوها على عمودين أقاموها على جانبي المدخل . وللطوابق شرف . وتحيط بالقصر الملكي جنائن للترفيه جمعوا فيها المصايفر وأقاموا فيها الأحواض لتربية السمك . ومحافظه على سلامة وأمن الامبراطور فقد أعدوا داخل القصر دهاليز وأروقة أرضية .

وبيوت القرى هي دون شك أقل عظمة ، تتألف من بنناء مستطيل ذي طابق واحد من السباع ، ولا يقيمون له إلا باباً واحداً وكوة . وسقف هذه البيوت من القش يكون منحنيأ أو على شكل مهد . ولأبواب القرية والأبنية التي تضم غرف القبلة سقف منحني يحتوي على قطع من الآجر لم يحسن شيها ، وهي كبيرة الحجم (حوالي ٠.٣٠ × ٠.١٨) ، وتكون أكثر سماكة على أحد أطرافها .

ويوجد نوع من المساكن للنسك والزهاد ، وهي عبارة عن أكواخ من القصب أو الطين تغطيها الأوراق وتتفرد وسط الغابة أو الحقل . وبعض هذه الاكواخ هو أحسن صنماً ، يبنونها دون شك من الطين ويعلمو سقفا الذي يكون على شكل قبة وعاء أعده لجمع مياه الأمطار .

وكانت المعابد في أول الامر دون شك حقلاً يحيط به حاجز من خشب (فديكا) ويحتوي على

شجرة وويئد أو حجر مقدس . ولم تلسع كثيراً الهياكل الأولى . وعندما بدأوا يستعملون المواد الصلبة للبناء ، حوالي القرن الثاني ق . م . كانوا قد قصفوا دون شك فترة طويلة من الزمن لم يلجأوا فيها إلا إلى الخشب . واستعملوا حجارة صخرية وقد جوفوها ونقشوا عليها نقوشاً ساعين جدهم لإظهار دقائق مجموعة الأخشاب التي تشد إلى بعضها بعضاً وتساعد العملة عند تشييد الابنية . ومنذ هذا الوقت أيضاً أخذوا يبنون معابد ضخمة ، تدعى ستوبا ، تعبد ، بالحجارة والأجر ، شكل التومولي القديمة . وتشكون هذه الآثار من قبة نصف دائرية تستند إلى أسس قليلة السماكة ويعاوها سطح صغير مرتفع ترتكز عليه مظال عدة . ويحيط بهذا المبنى درابزون يضعون فيه خرقاً أو أربعة خروق بشكل ملتبس لكل منها باب (تورتا) . وترتقي لأجل أمثلة هذه للستوبا إلى القرنين اللذين سبقا العهد المسيحي وهي تقوم في بيهروت وسانثي .

وهناك نوع آخر من المعابد ، خاصة معبد بردهنايا ، من أجل موجوداتها الشجرة المقدسة التي تحت ظلها هبط الوحي على بوذا شكيمن . ولأن تلك الأشكال لنبيوت العبادة هذه إذ يرتقي المعبد الحالي إلى زمن لاحق جداً . وهو يبدو ، كما تظهر معابد أخرى تحضن آثار ذلك العهد الطقسية ؛ مستدير الشكل ، أي عبارة عن فسحة ذات أعمدة يعاوها سقف على هيئة مهد وتحيط بالشجرة .

وباستثناء الستوبا فانهم لا يتقيدون لتشييد المعابد بالمبادئ الهندسية ذاتها التي اتبعوها في الأبنية المدنية .

وتطور آثار هذه المعابد ففارق عظمة آثارها كل الطور الفيدي وقد أطنبت الآثار الأدبية بوضعه ، ولكن لا يبدو بأن أصناف الموجودات قد تغيرت كثيراً ، إذ تقوم أساساً على الأرائك والعروش والأمرسة والمقاعد . وهناك أوصاف زاهية لأواني الطبخ والمائدة . إن الأجسام متنوعة فمنها ما هو مخصص للأغراض الطقسية كالأواني الشجلاء (الكومبها) النحاسية ، والأواني ذوات القوائم والعنق (يورنا كلشا) ، والأباريق (كوندريكا) والأواني ماء النساك (كندالو) ... وكلها أوانٍ ستكتسب أهمية كبرى في المعتقد البوذي . وللملحق أيضاً غاية طقسية إذ تستعمل في تقديم الذبيحة البراهمانية . وللأكل يلجأون إلى الفصاع دون الصحون إذ عليهم أن يرموها بعد استعمالها ويستبدلوها بأوراق . وعندهم للشرب قناني وقوارير — يحاوتها في شباك — وأقداح وكؤوس . ويغربلون الحبوب بواسطة مذار مستطيلة (شورا) ثم يسحقونها في أجران بمدقة خشبية ، ويصنمون عجيناً للحلوى يسوتونها بمطلة على أخشاب تستند إلى الأرض بواسطة أربع قواعد قصيرة المدى . وهناك طباق وسلال من القش تتمم هذا الأثاث ؛ ويمكننا أن نضيف إليه الشماعد والقناديل وعدداً كبيراً من العلب والصناديق الصغيرة (المعدة لحفظ الأفاريه والطيب والحل والشباب والنخائر) والمرايا المصنوعة من قرص معدني مصقول مثبت إلى مقبض غالباً ما يكون من العاج . ويجب أيضاً تعداد المنذبات والمظال والإعلام التي تراقق المعامل في حله وترحاله

والتي تستعمل في تقديم بعض النبالح . وللغزال مقبض طويل من الخيزران تنطلق من قته قطع صغيرة تحفظ المظلة مفتوحة . وتتكون الاعلام من مقبض قد تؤلفه مراراً مجموعة من العصي تربط هنا وهناك . ويملو هذا المقبض رمز وتشد اليه خرقه طويلة نقشت عليها مراراً اشكال شمسية وقمرية أو نجمية . وللنسلية يصنعون ألعاباً من الزهر بواسطة أغمار مجففة او قطع خشب او عاج . وللموسيقى اخيراً مقام يمتاز ان كان في التطوافات الملكية والغدوات الحربية وأعياد القصور والهياكل . وتتألف المجموعات الموسيقية من النساء - للرقص - والرجال . ويحمل أفراد هذه المجموعات طبولاً مختلفة الاحجام والاشكال ينقرون عليها بمخاصر مستقيمة او معكوفة مشدودة الى معانق . وترافق الأناشيد التي يدعها نقر الدف أنغام المزمار والعود . وسيبقى العود ، وقد استعملته النساء خاصة ، الآلة المفضلة عند الفئة النبيلة وذلك حتى القرن السابع تقريباً .

وإلأسلحة مركز مرموق في هذا التعداد الذي يعكس حياة النبلاء - المحاربين اذن - أكثر من حياة العوام . السلاح الأساسي هو القوس ، ترافقها طبعاً النبال والأتراس . وعندما يترزون القوس يرفعونها الى مستوى الكتف ويشدون الوتر حتى الأذن . والنبال ذات رأس مثلث الزوايا قد يرشونها أو لا؟ وتوضع داخل جعبة يحملونها على ظهرهم دون ان تعرف شكلها اذ لا يظهر إلا أعلاها . ومن أسلحتهم « البيضاء » الحسام والسيف يضعونها في غمد تطويه قدد من جلد متشابكة . وتعلو رمانة السيف قطعة تقصل بينها وبين النصل وتزيد عنه قليلاً . وتبدو الشفار الحادة التي عثروا عليها ، خاصة السكاكين ، منفوخة في وسطها . ويجب عند جرد الأسلحة ذكر الحراب ذات الرأس المتناسق . ومن أصناف الأدوات نعرف الفؤوس ذات المقبض والمتاجل لقطع الاعشاب . ويستعمل الباحثون عن العاج منشاراً يدوياً صغيراً . ويلجأ عادة سواس الغيلة الى نوع من السباط محدة الرأس كالكلاب تنفصل اسنانه الحادة عن المقبض بشكل شبه عمودي . ولا نجد إلا أشكالاً قليلة للتروس ، وهي مستطيلة ، مستديرة في أعلاها ، مستقيمة الاضلاع في أسفلها نقشوا عليها رسوماً للترين او تحمل قدداً متشابكة على جبهتها الداخلية .

ويعد الفيل والحصان والجل من حيوانات الركوب . ويقبضون على الفيل البري بواسطة فيلة قد دجنوها وأعدوها لهذه الغاية . وقد يجمدون حركة الفيل لفترة ما يربط ذنبه الى خرطومه بواسطة حبل يمر تحت بطنه ، ويثبتون الخرطوم دون حركة بواسطة قطعة خشب تثبتها بدورها الربط . ويلبسون الحيوان لترزينه عقداً وتاجاً ، ويغطون ظهره بطنفسة تحمل رسوماً هندسية يثبتها في مكانها حبل قوي يمر تحت البطن ، ويشدون الى قدميه الجلجل ، ويلقون على عنقه وشاحاً طويلاً يحمل في طرفيه جرسين يتدليان حتى ركبي الحيوان الذي يصطدم بها عندما يسير .

ويلقى على ظهر الحصان وشاح قد يصل الى الذنب وتوضع عليه طنفسة كالبردة ، وحزام مزدوج قد يستعمل كربط ، ولكن لا يظهر أي أثر للركاب حتى ان استعمال الربط أمر نادر

ومشكوك فيه . وقد يظهر مراراً نوع من الفطاء على ركبتي الرجلين الأماميتين . ويجعل الرأس لهما تثبت فيه ريشة شبيهة بالمذبة وحككتين تثبتان أيضاً برباطين يمر أحدهما على الناصبة والآخر تحت العنق ، ورسناً و « سيراً للأنف » وهو عبارة عن رباطين يمر أحدهما على قسم الرأس الممتد من الأذنين حتى الحيشوم والثاني تحت الذقن ، وشكيمة في الفم .

وفي الشمال يركبون الجمل أيضاً ، وتوصلا هذه الغاية يربطون حبلاً بقطعة صغيرة من الخشب توضع في أعلى الحيشوم ، كما يفعلون اليوم .

والحصان والثور هما من حيوانات الجر . ويمر الفرس عرية لها دولابان يذكّر شكلها عرية الرومان . ويشدون الى هذه العرية حصانين أو أربعة على كلا جانبي بحر العرية المعقوف الذي يحمل نيراً عمودياً ، وتربط الأذنان بكل دقة الى جوانب الحيوانات ؛ ويحشاها على السير سوط من قدد الجلد المحبوكة والتي يربطونها مراراً بعضى . ويمر الثيران ، وقد زين جيدهم بعض المزارع بعقد ثقيل ، عربات من دولابين ، وقد يلتقون عليهم غطاء ويضعون على رقبتهم النير . أما الاحمال الخفيفة فينقلها الرجال على ظهورهم مستعملين قطعة خشبية مقعرة تثبت على جانبيها حبلان يحفظان التوازن .

ولا بد من الاشارة ، عند ذكر وسائل النقل ، الى المراكب والسفن التي لا تملك عنها إلا رسوماً نادرة . وللمراكب كوئسل معقوف ، ويرى المرء بوضوح الربط التي تشد قطع الخشب بعضها الى بعض : ويظهر بأنها كانت تدفع الى الامام بواسطة مجاذف يتمبر كالقذف الخلفي ودقة قصيرة على شكل الآلة التي تضرب بها الكرة الطائرة . ولبعض مراكب الأهبة جدران على شكل عقاب يستند اليها ضرب من السرادق ذي الأعمدة .

٢ - الحياة الاجتماعية

تحتفظ الزراعة بالمركز الاول في لائحة الاعمال الهندية ، ولكن تقدمت كثيراً مع المصادر هذه التجارة والصناعة حتى أصبحنا نؤلفان حقاً أساس ازدهار المملكة . فقد أحسنوا تنظيم التجارة أكثر من العهود السابقة ، وألّف التجار نقابات وخضعوا لقوانين وضعت بكل عناية . وهناك مراقبة على الائمان والموازن والمكاييل . ونظموا أيضاً أمور القوافل وفرضوا عليها دفع ضرائب ومكوس . وهي تتألف من عدد كبير من العربات يقودها ادلاء لاختراق الصحارى وترافقها الاطواف لاجتياز الأنهر . واشتد التبادل التجاري مع البلاد المجاورة كاستيراد الجلود والحرائر من آسيا الوسطى والصين وتصدير الحلى والأسلحة والافاويه . وازدهرت أيضاً التجارة البحرية في البحار او على الطرق النهرية . وألحقوا هذه التجارة بشؤون بحرية الدولة التي تقرر الملاحة وتمد المراحل وتراقب المرافىء وتدافع عن الشواطىء ضد القرصنة . وتشمل أيضاً الصناعة التي تغذي التجارة اعمال النسيج وتصنيع المعادن .

والصيد هو تسلية كبرى عند العطاء وأداة كسب القوات عند صغار القوم . ولومعه عز وعظمة عند الملك والنبلاء الذين يذهبون الى جولات شاسعة ترافقهم نساؤم وزرافات خدمهم ، ويتقدمهم رجال الموسيقى حاملين الدفوف والصنوج ، ويتنظمون مواكب مواكب علي بصوات الاحصنة أو ظهور الفيلة أو العربات يحيط بهم حراس مدسجون بالسلاح . وتجنّب من الحرب عندما تكون مظفرة فوائد كبرى ، وقد أتوا على وصفها أكثر فأكثر . ويستلم القيادة فيها رجال الكشتريا والملك بالذات اذ هو محارب لا بل مبدئياً المقاتل الاول . ويتألف الجيش من المشاة وفرق الخيالة وبمجموعات من الفيلة والعربات . ويكون الجنود من المرتزة أو من الرجال الذين يدعون للسلاح في الوقت المناسب . وهناك فرق مختصة للهجات في الجبال أو الغابات ، ويشمل فن الحروب ، في ما يشمل ، علم بناء الحصون الذي يفرض معلومات مختلفة ومتعددة .

وتكون الضرائب اخيراً مورداً خصباً يقررونها حسب معدل محدد وتستعمل للقيام بنفقات الملك والوزراء والموظفين والجيش والأرامل واليوساء . وتضاف هذه الضرائب الى الارباح التي يجنيها الملك من أملاكه التي تتكون من أراضٍ زراعية وغابات ومنابع ومصانع وسجون ، وينفقون أيضاً هذه الضرائب على الأشغال العمومية التي تهتم بالطرق وقنوات الري والخزانات النخ . ويستفيد البراهمة أيضاً من الضرائب ، وفي البلاد التي اعتنقت البوذية ، الرهبان الذين يعطون علاوة على ذلك التتادم والهبات . ويخصص الملك - وله وحده الحق بسك النقود - مبالغ كبيرة لتأسيس أماكن دينية وبهيا ملكية الاراضي الزراعية ويعين لها الأشخاص الذين يتطلبهم استئجارها . ويجذو حذوة النبلاء والتجار الأثرياء اذ يعدون من اعمال الرحمة والعبادة الهبات التي يقدمونها بصورة مستمرة لرجال الكهنوت .

المجتمع ان المجتمع هو أكثر تنوعاً وأحسن تقسيماً من مجتمع العهود السابقة ، مع أن التجزئة الطبقيّة لم تصبح بعد أمراً مؤكداً وهي تختلف باختلاف المناطق والمعتقدات السائدة . ويظهر عدد كبير من الوظائف في الحاشية الملكية أو الأوساط البوذية ، لم يأتوا على ذكرها سابقاً .

ومع ان رجال الكهنوت هم منافسون أشداء للملك وسلطته ، يبقى المعامل الشخصية الاولى في السلم الاجتماعي . ويتخبه مبدئياً النبلاء والشعب استناداً الى فضائله أو بعض العوامل الخصوصية ، ولكن غداً عملياً انتقال السلطة الملكية أمراً وراثياً . ويمسح ملكاً باحتفال مهيب ترافقه زوجته الملكة ، ويكون هذا التكريس برش الملك بالماء (ايهيشكا) يقوم به الكاهن المحتفل وكبار البراهمة والكهنة وجمهور الحاضرين . وتمشياً مع تقاليد العهد السابق يقدم الملك (ان كانت له المقدرة المالية) ذبيحة الحصان ، وهذه الذبيحة تثبت سلطانه . وللملك منازل عدة ، حتى في عاصمته ، ولا يقضي قط ليلتين في الغرفة نفسها . ويرقظونه من النوم كل

صباح في ساعة محددة وعلى أنغام الموسيقى ، ثم يأتي حالاً كاهن القصر ليرسي له التحية ، ثم يستمع الملك إلى تقارير وزرائه ويأتي إلى قصر العدل . وبعد ذلك يستحم ويتناول ويتناول طعامه .

وبعد ان يتم العاهل واجباته الدينية يستقبل مراقبي الدولة ورجال الاستخبارات . وبعدئذ يحق له اللهو والتسلية ، فيقوم ببعض الالعاب (رمي القوس ، لعبة الزهر الخ) ويتنزه في حدائق القصر ويستعرض الفيلة والحياة . ولكن يجب ان يطلعوه دوماً على أمور الدولة ان كان على مائدة الطعام او وجد في دار الحرم ، او في غرفته ، او في مزارعه ، او في العرية ، او في حدائقه . وللعاهل الحق في التقرير ايضاً كان ، ويجب ان تنفذ اوامره بسرعة كلية حتى ولو كانت شقية . واخيراً يحتفل بطقوس غروب الشمس ، ويستحم ويتناول طعامه ثم يختفي في جناحه ترافقه انغام الموسيقى . ويعتنون اعتناء دقيقاً بكل ما يمت إلى شخص الملك ؛ ويربون في القصر بنغاوات وطفولاً ويس بطاطا لتكشف بأصواتها عن وجود حيات سامة ، كما يعتنون بالتموس لقتل هذه الحشرات . وهم يخضعون للتفتيش الادوات التي يلجأ إليها العاهل لاستعماله الخاص كما يراقبون الاطعمة التي تقدم له والادوية التي يقرؤها له .

يرجى الملك حياة بذخ وعظمة ، ولكنه يبقى بالدرجة الأولى مقاتلاً يشترك شخصياً بأعمال الحرب والصيد . وأساليب لوه هي أساليب الرجولة تقوم على اعمال الصيد والمصارعة والالعاب اخرى مختلفة تشترك فيها غالباً معه نساء القصر . ولا يجب ان يصبح مطلق الصلاحية مسبقاً ، وهو يحكم المملكة يحيط به مستشاروه واصدقاؤه واقرباؤه ، ويأخذ بعين الاعتبار آراء رؤساء النقابات وفصائل رجال الامن . وتشدد النصوص كثيراً على صفته الملكية : فهو من اصل ديني ومحور العالم الانساني بصورة الآلهة على الارض وخاصة تجسيد رب الارباب ، اندرا ، الذي يعيد على الارض بلاءه في الحروب وعدالته ، كما انه يتصل اتصالاً وثيقاً بالكوسموس ويعكس من ثم في هذا العالم افعاله وخصائصه .

ويستند تنظيم المملكة الاداري والسياسي الى سلسلة رتب شبيهة بزميلاتها في العهد الفيدي : مختاير القرى فنواب اللدبرين فالمدبرون فحكام المحافظات فنواب الملك فالوزراء . ويقوم هؤلاء الاخرون بتسيير أمور الاشغال العامة والمسائل المالية والشؤون الداخلية ، ويحتكر الملك حتى سلك النقود . ويوجد مبعوثون ومراقب وحام يتجولون في فترات محددة (كل ثلاث أو خمس سنوات) في مختلف أرجاء المملكة للمراقبة والتفتيش .

وتشد وطأة المراقبة الملكية الدقيقة على كل شيء وفي كل مكان: في بيوت الحرم وفي الحقول حتى لبدن المؤسسات الدينية . ويقوم بهذه المراقبة مفتشون ملكيون لا يخضعون إلا لسلطة الملك ويحققون العدالة استناداً إلى أصول محاكمات موحدة . وللقضاء محاكم مختلفة يلحق بها قضاة اختصاصيون أنيطت بهم مهمة لإحقات الحق ومعاقبة الجرائم . ومع هذا فقد احتفظوا بمبدأ

العذاب الجسدي كالتعذيب وبتر الاعضاء . ويقررون السياسة الخارجية استناداً الى المعلومات التي يقف عليها الجوايسيس ورجال الشرطة . وتصلح جميع الوسائل للاستفادة من ضعف العدو مما يدعو من ثم الى تقدير امكانياته تقديراً دقيقاً ، كما يصدق هذا القول عن الشعوب الخليفة . وهم يحبذون كثيراً تنمية واستمرار الشقاق بين الاعداء الذين يكونون قد تحالفوا معاً . ويمتبرون الحيانة ويعترفون بها وسيلة على نفس المستوى الذي ينظرون فيه الى قوى السلاح .

ان وضع وطرق حياة الكشتريا ، من نبلاء ومحاربين ، هي شبيهة جداً بوضع وطرق حياة الملك . وللكتيرين منهم وظائف مهمة جداً كقائد الجيش الذي تמיד حفلة استلامه السلطات ذكرى حفلات تنويج المعامل . ويتمتع أفراد الكشتريا بأفضل الامتيازات فهم يستطيعون تقديم النبايح ودرس الفيدا وعلهم ان يميزوا العطاء المستمر لرجال الكهنوت .

ويتبر البراهمة غالباً أكثر قوة وأهمية من افراد الكشتريا وحتى من الملك نفسه . ومنذ العهد الفيدي ازداد سلطانهم وذلك بالاستناد الى معرفتهم فنون السحر الذي يسيطر على جميع أعمال الحياة الفردية والرعمية . وتزداد كثيراً ثروتهم للهبات التي يقدمها لهم باستمرار الملك ورجال الكشتريا والتجار . ويدعو أعظمهم سلطة كاهن الملك الخاص (يروهيتا) ويتخبونه نسبة لمعرفته معرفة دقيقة جداً الفيدا والسحر والسياسة . ويلعب البراهمة في الدولة دوراً عظيماً إذ هم الذين يقومون بأعمال العباداة والطقوس ، ويصبحون من بطانة الملك الخاصة ، ويقدمون له مستشارين . ومحترمتهم الشعب ويزهيم . وللناسك منهم ، رجالاً أكثر أو نساء ، الاحترام الأكبر ، وهم يقضون حياتهم في صوامع ويتبعون طرق عيش قشف .

وقد عاد نحو وازدهار التجارة بالغنى على فئة من التجار الذين ألفوا نقابات وانتدبوا رئيسهم ليمثلهم أمام الملك . وقد يصبحون من موظفي المعامل . ويتضح غنصام غالب الاحيان لكثرة وأهمية الهبات التي يقدمونها للأماكن المقدسة . ويتصل بهذه الفئة رجال المصارف الذين يملكون غالباً ثروة طائلة . ويؤلف عامة الشعب الفلاحون وكل الذين يرتزقون من تربية المواشي والصيد ، والعمال والصناعيون . ولا بد من الاضافة الى هذه الجماعات المهرجين والمصارعين والمغنين والسحرة والأطباء . وقد امتدح مغسطين مهارة رجال الطب الذين لا يستنكفون عن الاعتناء بالحيوانات ايضاً . ونجد في اسفل السلم الاجتماعي فئات عدة من الموظفين ورجال المن : سكان الأدهغال ، الغرياه ، الصيادين ، قاطعي الاعشاب ، سواقي العربات ، سواس الفيلة ، ساسة الحنيول ، حاملي وساملات المظال والمذبات والاعلام ، الجنود ، الموسيقين وأخيراً الذين يقومون بأعمال شاقة ، كالذين يفرشون البلاط في الحدائق ويمعلمون الأتقال النخ .

ومع الزمن وضعوا قواعد وقوانين لحياة الطبقات الرفيعة ، وان هي لم تتبدل بصورة جوهرية . ومنذ هذا العهد قسموها أربع رتب تدخل في اطارها مختلف مراحل حياة الرجل . ويتنقل أفراد هذه الفئات بصورة تدريجية من صفة طالب (براهشارين) الى منزلة رب البيت (غرهستا)

الى رتبة زاهد (فانبرستا) واخيراً الى سلك ناسك او راهب (سميتاسين) . والبراهماشارين هو فعلاً خليفة الطالب الفيدي . وتستمر دراسته على أقل تقدير اثني عشر عاماً وقد تدوم ثمانية وأربعين عاماً ، وبصورة استثنائية ، الحياة كلها ا وليقل الشاب في فئة البراهماشارين عليه ان يتقدم بطلب الى معلمه (غورو) ، وان يديه اطعمة وتقادم تمد لاضرام النار المقدسة . ويستفسر الغورو اذ ذلك عن مولد واسرة الطالب . وان أسفرت تحريات عن نتيجة حسنة يقبل الطالب اذ ذلك في بيته حيث يمتنع والحالة هذه اربعة او خمسة شباب . وتقام الحفلة التي ترمز الى بدء عهد التلذذة وهي تشير الى ولادة البراهماشارين الروحية . ومنذ ذلك الحين تصبح حياته ضعبة جداً ويأزم نفسه بفروض في غاية الشدة . ومن أسس المبادئ التي يخضع لها قهر الجسد والنفس والقيام بأعمال جسدية وعقلية . وفي كل حال عليه ان يطيع معلمه طاعة عمياء . وهو لا يلبس إلا رداء واحداً قائماً مصنوعاً من جلد وعل اسود ، ويبدأ يومه بالنهوض باكراً قبل معلمه ، فيقدم واجب العبادة للشمس ويكرّس قلبه للألهة ، ثم يذهب لتحية استاذة . وهو يستحم ثلاث مرات في اليوم ويأكل بعد معلمه طعاماً حددوه بكل دقة . ويقضي هذا الطالب نهاره واقفاً وليله جالساً ، وهو لا يسعى لإيجاد ملجأ عندما تنهمر الأمطار ولا يغطي رأسه عندما يشتد البرد ويمتاز الانهار سباحة . وعليه ان يحافظ على العفة بكل دقة ويتم بعض الاعمال اليومية كاستجداء الطعام لمعلمه والعناية بنار التقادم وتنظيف المنزل والاعتناء بالماشية وزراعة الحقول . وهو يرافق الغورو في اسفاره ويساعده في اقامة الحفلات الطقسية . وتصحب علاقاته مع الغورو كعلاقات الابن مع ابيه . وعليه اخيراً أن يعكف على الدرس . وتختلف الدراسة تبعاً للفئة الاجتماعية ، فان كانت من البراهمة أعدوه ليصبح معلماً ، وان كان من افراد الكشتريا علومه استعمال الغوس والسيف وحيل المصارعة والقتال وقيادة الفيل او العربة وركوب الخيل والقفز والسباحة . ويعلمونه ايضاً فنون الكتابة والرسم والتمثيل والطب . ويعدوناه ، ان انتمى الى طوائف البراهمة والكشتريا او الفيشيا ، ليصبح رب منزل ممتاز . وعلى كل حال عليه ان يحفظ عن ظهر قلبه الفيدا ويتمرن على حسن الالقاء . ومواد هذه الدراسة هي خاصة نصوص الريفندا والياجوس والسامن ، وعلوم اللفظ والطقوس والصدف والتفسير والقياس والفلك الخ . وطرق التعليم التي يتبعها الغورو لتدريس الطالب هذه المواد هي طريقة التعليم الديني اي القاء السؤال وسماع الجواب . وعلى هذه الطريقة ان تقود الطالب الى مراقبة ذاتية دقيقة تمت فيه كل هوى وتسير نحو السامنياسا او الى الستامل الروحي الذي يقتل فيه معنى الازدواجية ويقوده نحو اليوغا .

وتختلف مدة الدراسة عند البراهماشارين ، مع أنهم حددوها مبدئياً بثمانية أعوام ان كانت الطالب من الكاشتريا ، واربعة فقط ان كان من البراهمة . ولكن لا ينتهي طور التنقيف هذا على كل حال قبل ان يتم الطالب ربيعه السادس عشر . وعندما تنتهي سنة الدراسة يأخذ البراهماشارين حماماً طقسياً ويبدل ثيابه كما كان يفعل قبل الطالب الفيدي . ويتم البراهماشارين

رثة جامعية تتناسب مع العاوم التي يكون قد اقتبسها في سني الدراسة ، ويهجر اذ ذاك معلمه مقدماً له الهدايا .

وحالما ينتهي الشاب من حالة البراهماشارين يغود الى أسرته حيث يستقبل ببشكل حفاوة وبرحاب . ويكرمون وفادته ابناً حل ويعنون بأنه أصبح اهلاً للزواج . ويمكنه مع هذا ان يعدد سني تثقيفه ليصبح رب منزل (غريستا) ممتاز . ولبلوغ هذا الهدف عليه ان يتابع تعاليم اختصاصيين مشهورين وأدباء مشهود لهم يتجولون دوماً في انحاء البلاد . وبإستطاعته ان يذهب الى جامعات مختلفة (أشراما) حيث يلقتن الفن والأدب وأصول تجميل الجسم وعلم الحيوان والطبيعة والهندسة الخ ، وإمكانه ان يشارك في مجاهلات الاكاديميات التي تجتمع في مختلف المحافظات ، ويحضر المؤتمرات التي يدعو اليها الملك والتي تفتح له أبحاثها وتبادل الآراء فيها آفاقاً أوسع على ثقافته الفلسفية والطقسية .

وبعد ان يصبح غريستا عليه ان يؤسس أسرة ويتخذ زوجة تنتمي الى فئته الاجتماعية . وعليه ان يقوم بالطقوس الخاصة ، ويمتاش من مهنته ، ويكون مثلاً للفقوى وضبط النفس . وتخضع حياته كلها للقررات الطقسية التي لا حصر لها والتي تمنى بأدق الاعمال اليومية وأقل ظروف الحياة شأنًا . وهو الذي يريح أود أسرته ويعبد طعامه ويحرب بالشاذين ، ويقدم الهبات ويداوم كل صباح على درس الفيدا .

ولا يتميرون الغريستا رجلاً كاملاً الا اذا اتخذ له زوجة . ولكن لهذه الزوجة منزلة اجتماعية أقل امتيازات من زميلتها في اليهود الفيدية . ومع هذه يقبونها في «الأشراما» حيث تتلقى ثقافة عالية تكون موادها الرقص والفناء والفلسفة . وهي تخضع الخضوع الكلي لزوجها ، أو بحسالة موته ، لابنها البكر ، وان هي ساهمت مع هذا كليا بحياة الأسرة واحتفظت كأم بمرکز مرموق (حتى غدا لها في هذا المضار الاحترام الذي أبدوه للوالدة الإلهية او الآلهة الكبرى) . ومع انها تشارك في الطقوس اليومية وتبقى موضوع احترام عميق فهي لا تشترك قط في إقامة الذبائح الكبرى . ويحرم عليها بصورة جازمة ان تعقد زواجا آخر ان ترملت ، اذ ان الزواج سر لا يجوز هتكه . ولا تستتكمف الزوجات الأكثر صلاحاً من حرق أنفسهن على كومة الحطب المعدة لحرق جثة الزوج . وتجد في كتب الادب امثلة على نساء قد تكون على طرفي تقيض ، وخير مثال للمرأة هو « سينا » زوجة « راما » في الرامايانا التي تصبح مثلاً للسعادة الزوجية لأمانتها وجمالها وطهارتها وصفاتها العائلية . ولكن هناك تلميحات عدة تصور لنا المرأة شخصاً فاسقاً أصلاً وسيء الاخلاق وحبياً للشايرة وغير صادق لا يؤمن شره وتصعب قيادته . لذا ينصحون الزوج ليقى « على حذر من زوجته » . ولكن يجب دوماً مساعدة الزوجة حتى ولو تركت البيت الزوجي .

وينتقل المرء الى حالة ثالثة عندما يشعر باقتراب الشيخوخة اعني حالة الزاهد . فهو ينفرد إذ ذاك في الغابة ، وتستطيع زوجته اللحاق به . ويسكن في منسك يجاور نبع ماء ، ويكون

عبارة عن اكواخ من الاغصان او بيوت حقيرة من القش . وتخصص احدى الغرف لنار الذبيحة التي يكون الفانبرستا قد حملها من بيته عندما غادره . ويرتدي ثوباً من قشر الشجر تكون خيوطه قد اتخذت من ضغط قشرة بين حجرين . ويرخي شعر رأسه ويقنات من التار والجذور ويضيف جميع من ينزلون على الصومعة دون النظر الى قنمهم الاجتماعية . وهو يعيش بين عسافير وحيوانات الغابة يقيتها ويعتني بها . ويقوم عمله الاساسي بإيجاد الحطب لابقاء نار الذبيحة ملتئمة . وهو يرزم قطع الحطب هذه رزماً ويحملها الى الصومعة يغذي بها النار التي يقيم عليها الطقوس المقررة بواسطة ملاعق مختلفة الاشكال والاحجام . وعليه ان يحافظ على عفة دقيقة ، لذا فهو يحيا من جديد بعض مظاهر حياة البراهماشارين ، ويستحم ثلاث مرات في اليوم ، ويفترش التراب وينهك جسده بالتشف ، ويطالع الفيدا ويتأمل بمحتوياتها .

واسمى مرتبة يصل اليها الانسان هي السميناسين ، اذ يصبح ناسكاً متجولاً وشعاذاً . وهو يتدوأ اذ ذلك اعلی المراتب وأكثرها احتراماً . وهو يقر بذنوبه جهراً ويستوعب مبدئياً المعلومات الأكثر دقة وعمقا عن الفيدا والسحر والطب واساليب النسك .

وفي هذا العصر غدا سهلا على الفئات الشعبية ان تسام في اعمال العبادة . ولكن لن يعم هذا المبدأ ويبلغ الذروة إلا في العهد اللاحق . وتتبدل افعال العبادة الخصوصية اذ تحمل السمدھيا محل عبادة النار ، وهي تقوم على عبادة الشمس عند شروقها ، واعمال تطهير متنوعة ، وقارين تنفسية ترافقها التأملات . وتحتفظ تقادم الانواع النباتية بمركزها الرموق .

والارز هو اساس المواد الغذائية . وسيحرم اكثر فأكثر أكل اللحم ، وكان مادة غذاء في العهد الفيدى ، خاصة في الاوساط البوذية : فقد لاحظ اليونان بان الهند لا يتناولون اللحم ، وحرّم اشوكا ذبح الحيوانات في الطقوس وقتل الماشية . اما الارز ، فهو على قول اليونان ، عماد الغذاء . ولا يبدو بأنهم قد حرّموا شرب الكحول ، ولكن من الممكن ان يكون تعاملها قد حصر ضمن النطاق الطقسي . ويبقى الارز في هذا المجال الأساس أيضاً .

ان الجماعة التي سبق لمستين وعددها ستظهر بعد فترة قليلة على النقوش النافرة . الثياب والحلى
وباستطاعة المرء ان يتحقق بسهولة عن تقدم وتطور فن الحياكة والصباغة . وتبدو منوعات عدة من الثياب والحلى ، تبعاً للفئات والوظائف . والاقمشة الأكثر تدولاً هي من القطن والحرير . وقد استرعت نموئتها المؤلفين اليونان فامتدحوا صفات الثياب الموصلة . اما الثياب الحريرية فهي شفاقة ولينة وخفيفة الوزن جداً . والالوان كثيرة العدد ايضاً . وتأتي أشهر هذه الاقمشة الحريرية من الصين وبناريس .

ويرتدي الملك وأفراد الكشترية قطعتين من القماش : تلف الاولى حول العنق وتندلى حتى الكتفين (اوتاريتا) ، وترتبط الثانية حول الوركين وتمر بين الفخذين لترتفع الى الظهر حيث تثبت بواسطة زنار . وفي ذلك الزمن القديم استطال الثوب السفلي (حتى وصل الى الكمينين)

وتركوا فيه طيات ملتوية . ويحذو الموظفون الكبار وذوو المقام الرفيع والوزراء حذو العاهل او الامبراطور فيلفون حول رأسهم وشاحاً طويلاً يعطونه شكل العمامة . والعمامة اشكال مختلفة جداً تحمل عقدة كبيرة على قمة الرأس او على الجانب . ويحتذي الملك في بعض الظروف نغلاً يكون عادة من قطعة جلدية او خشبية ثبتت عليها قدة قر فيها الرجل .

ويرتدي الحباله والحراس والصيدون وسواهم الفيلة والعربات الخ . . غلالة ضيقة ذات اكام قصيرة او طويلة تحمي صدرهم ضد الجروح التي تصبغ من صميم وظيفتهم . وقد يكون لهذاه الغلالة ، علاوة عن الهدف التي اتخذوها لأجله ، اصل غربي تبنيوها في الهند كما كانوا قد اقبروها في ايران . ويضيفون الى هذه الغلالة ضرباً من التناير المسلثة او ذات الطيات والتي تستقر عند الركبة ، او من انتاريتا قصيرة . وهذا هوزي الجنود ايضاً الذين يبغون مراراً نصفهم الاعلى مكشوفاً ، ويلفون حوله مع هذا حبلاً ، وقد استمر الشيراسي على هذه الحالة حتى الفترة المعاصرة . وهذا هوزي « الغرياه » ايضاً : وهم غالباً سكان المناطق الشمالية والغربية حيث اهاب بهم المناخ وتأثير الوسط الايراني على ليس زي آخر يكون اكثر حرارة . فهم يرتدون ثوباً اطول ، ونوعاً من السراويل ونملاً تشدها الربط الى الساق ، وقبعة مخروطية الشكل تعيد الى الدهن لباس الرأس « السيتي » .

ويكتفي الفلاحون وسكان الغابات بوزرة بسيطة من القماش او الاوراق . اما النساء فيستعملون جلد الرعل او نسج قشور الشجر (فلكالا) . ويبقى الزهاد عراة (ديشبارا) او يكتفون بوزرة صغيرة جداً . وهم يمدلون شعر رؤوسهم الطويل على اشكال مختلفة ويبلعون بعض المرار على لحام . ويرتدي الرهبان الشحاذون ثياباً رثة يجيطنون بعضها فوق بعض على شكل معطف . اما رهبان المدن فيرتدون ثوباً (كشايا) صبغ باللون الأحمر . ولا يدعون وبراً على ابدانهم كما يملقون رؤوسهم .

ويتألف زي النساء من وشاح وتتورة خفيفة جداً . ويضعن على رؤوسهن عمامة كثيفة يعطونها شكلاً يخالف شكل عمامة الرجال او حجاباً يغطي الشعر بكامله ويتدل الى الظهر . وشعر النساء كثيف وطويل جداً وهن يصفغنه صفائر صفائر او يعقدنه عقداً تتخللها الازهار . ويضع سكان الغابات على رؤوسهم ضرباً من التبيجان ذات الريش (؟) ويقصون شعرهم حتى الكتف . اما النساء المتقشقات فيضعن على رؤوسهن ما يضعه الرجال المتقشون .

ويبقى الأولاد عندما يكونون صفار السن عراة او يضعون وزرة ضيقة . اما الصبيان والصبيا فيرتدي كل منهم ثياب جنسه كما يفعل الفتيان والفتيات . ولكن يضع الصبيان مع هذا عمامة خصوصية لها ريشة او شرابة تستوي على قمة الرأس ، كما سيفعل لاحقاً بمثلوا بالاكريشنا .

وتكفل هذا الزي اشياء عدة للزينة مصنوعة من الذهب او الفضة او العجاج او الصدف او قرون الحيوانات او الحجارة الملونة . ويتزين الرجال كالنساء ، ولا نجد فرقاً كبيراً بين ادوات

تبرج هؤلاء واولئك . وهم يضعون عادة عقدين ، ويكون احدهما ، وهو الاقرب الى العنق ، مستدير الشكل ، بينما يتبدل الآخر على الصدر .

ويحتوي عادة العقد الأول عامل زخرفة من الزهر ويربط الى الظهر بسلكين مقوودين ينتهي كل منهما ببلوطة مذهبة . ويتألف الآخر من سلاسل عدة ثبتت الواحدة بجانب الأخرى بواسطة قطع على شكل قلائس فاصلة عثرها على أمثلة منها في الحفر التي اجرها سنة ١٩٥٠ في موترياليون (مقاطعة بونديشيري) . ولدينا مجموعة كبرى من هذه العقود والقطع يتوافق بعض منها مع ما استعملوه لتزيين الثيران والجمال والأحصنة .

ويضع الرجال على سواعدهم بعض الاشياء وهي تتألف من حلقة تحمل سعة صغيرة تظهر على أعلى الذراع . ويلبسون أيضاً الى اساور تكون بعض المرار ضرباً من الاكام الصغيرة فتتألف من جواهر تتعاقب مع حلقات حلزونية الشكل او مفرضة . ويضع الرجال كذلك اقراطاً في آذانهم مربعة الشكل او على هيئة وقبقاب تلتف حولها شحات الأذنين الممددة . ويفرز سكان الاغفال في شحمة آذانهم القصيرة قطعة من العظم او الخشب او العاج . وقد تلاقى هنا وهناك بعض الحواتم في اصابع الرجال . ولا نجد حلقات في اكامب الارجل إلا بصورة استثنائية كلية .

ولا تريد كثيراً اغراض الزينة النسائية عن التي تقدم ذكرها : اذ نجد علاوة على ما سلف زانير للمناكب وعقوداً وحلقات لكعب الرجل قد تكون كبيرة جداً . وكثيراً ما تحمل العقود على الدهشة اذ تتدلى حتى السرة وتتألف من مواد عدة تغدو بعض منها رمزية دون شك . وتكون حلقات واساور الكعب على شكل حازوني تلتف حول العضو كما لو كانت آلة لولبية . وتضاف بعض المرار الى هذا « الكم » او ذلك « الحذاء » حلقة كبيرة . وتتألف زانير المناكب من مجموعة حجارة كريمة او مواد مذهبة يمر فوقها زار من القماش يعقد الى الجهة الامامية وقد يتدلى أيضاً الى هذه الناحية قسم من اسلاك الحجارة الكريمة . ويحمل الاولاد عقداً نشاهد عليه براتين حيوانية ، وهي كتميمة ضد المؤثرات الشريرة .

٣ - الديانات

يتميز العهد الذي همنا الآن بعاملين اساسيين : تحوير الديانة الفيدية (انظر وجه ..) التي تعرف من الآن وصاعداً باسم الديانة البراهمانية ، وتطور البوذية التي تصبح قوانينها محددة المعالم . ومن مميزات هذا العصر ايضاً استعمال الكتابة التي نعتز على اقدم امثلتها المؤرخة في كتابات اشوكا الحجرية . وقد لعب دون شك هذا الاستعمال دوراً عظيماً في تكوين المجموعة الأدبية الكبرى التي تم تأليفها ما بين القرن الرابع ق . م . والقرن الثاني المسيحي . وترتقي قوانين « مانو » الى حوالي القرن الأول ق . م . اما فيما يختص بالبوذية فانا نستطيع ان ننسب الى هذا العهد ايضاً اقدم كتابات قانون بابي (حوالي القرن الثاني ق . م .) والنص النهائي للجاتسكا (القرن الأول المسيحي) .

وتتسلسل الديانة البراهمانية من المعتقد الفيدي بشكل يضمن ملاحظته ، ولكنها مع هذا تختلف عنه روحاً . فموضاً عن التقيد بأساليب الفيدية الطقسية الدقيقة تمتد البراهمانية على الاختيار الروحي . ورويداً ورويداً تحمل اعمال العبادة (بوجا) محل الذبيحة . ومن الطبيعي ان يسدي هذا التطور على الآلهة الكبرى شخصية تتحدد معالمها اكثر فأكثر مع الزمن ، وتولد منه عقيدة عبادة الصور . ان الصفة الطبيعية للمعتقد الفيدي الذي دعا الى عبادة قوى الكون ممطياً إياها اسماء دينية لا تزال تهيمن على الآلهة ، ولكنها لم تمد تصلح فعلاً إلا لوصف الخصائص الميثولوجية لكل من هذه الآلهة . وقد عادت الى الظهور تقاليد شعبية عدة كانت الفيدية قد أهملتها ، ويشهد المرء إذ ذاك انتشار عبادات محلية لا عد لها وتكون مبدأ عبادة الصور التي ستلبور اكثر فأكثر إذ استنقسم الآلهة فئات فئات وتتخذ اكبرها اشكالاً فردية محددة . وسيرجون أيضاً المتقدمات والطقوس لخدمة اهل المذهب . ومع هذا ستظهر رغبة توحيدية تلحق الآلهة الصغرى بالآلهة الكبرى وتعتبر عن تطور حقيقي نحو الوحدة ، إذ امام عدد المتقدمات والعبادات التي لا حصر لها غدا من الضروري ان تستوعب الديانة الرسمية الأمامي الشعبية : فالتأكيد بوجود وحدة اساسية بين الآلهة كان السبيل المناسب الوحيد ، وعلى كل لم يكن هذا النهج غريباً عن النفسية الهندية .

وهكذا احتفظ الزون بالآلهة الفيدية الكبرى ، واقتبل عدداً وافرأ من الآلهة الثانوية ، ولكنه أشار الى الفروق التي تفصلها . وتصبح آلهة فيدية عدة في المرتبة الثانية كالنجر والساه والارض والشمس وبوشان وميترا وفرونا الخ ... في حين ترتقي آلهة اخرى الى المركز الاولي : اندرا ، ملك الآلهة ، فيشتو وشيفا . ويتحول موضوع الذبيحة الفيدية القديم ، براهات ، الى الإله براها وان لم تبلغ شخصيته المركز « الانساني » الذي احتلته الآلهة الاخرى الكبيرة . ويفقد الإله ، البطل ، كرشنا ، التجسيد الاكبر لفيلشتو ، وقد كان الموضوع الاناسي لقصيدة بهاغافا - جيتا الروحية . وتضاف الى هذه الآلهة الرئيسية الفيدية المذكورة أعلاه : القمر ، السيارات ، النجوم ، النار (أغني) ، إله الموت (ياما) ، إله الفنى (كوبرا) والحب (كاما) والحرب (سكتندا) ، الإله - الفيل (غنيشا) ، الربات التي ستعظم أهميتها مع الزمن ، جيش من الأرواح والشياطين كالاسورا التي تمت الى اصل فيدي ، والتانجا (الحيات) واليكشا والغندهرفا (الموسيقون الساويون) والابسرا (الراقصات ، زوجات الغندهرفا) وريات القرى والامراض الخ . وقد ألهمت أيضاً الحيوانات - خاصة البقرة والحسان والحيات - والنباتات والاشجار ومياه المحيط .

والميثولوجيا معقدة وغنية بالروايات المختلفة ، خاصة القصص التي تمت الى فيشتو إذ يعادلون به بعض الآلهة الثانوية بشكل « تجسد » على الارض (افتارا) . وقد أحدثت عبادته ، كما أحدثت عبادة شيفا ، ازدهاراً دينياً يثير الاعجاب في الاوساط الشعبية والايوساط الفلسفية على

السواء . وفي العهد الذي يستوقفنا هنا تظهر صفته الشمسية على شيء من الوضوح . ويلاحظون منذ هذا التاريخ اتجاهًا لجمعه مع شيفا وبراهما في ثلاثي ، التريمورتي ، الذي سيهيمن على الديانة البراهمانية في وقت لاحق .

وتعيش الآلهة كما يحيا الانسان وهي شبيهة به . وهي تحتفظ بمظهر الصبا ، متى بلغت اشدها ، باستثناء كريشنا الذي يعتبر كصبي صغير . ولها مزايا الجمال وتستخد حتى انتهاء هذا العالم . وهي تتميز بما يرافقها من حيوانات معينة تصبح كطية لها (فاهنا) وبما لها من صفات ذات مغزى رمزي . ومن العبث القول إن قدرة هذه الآلهة تفوق قدرة الانسان ، وهي تكبر او تصغر كما تريد ، وبإستطاعتها ان تصبح غير منظورة او تظهر في الوقت نفسه في اماكن عدة الخ ؛ وهذه الآلهة عرضة للشوائب نفسها التي تكون للانسان ، وقد تجبر بعض المرار على طاعته .

ومن خلال القصص الميثولوجية والنصوص « اللاهوتية » يقف المرء على الاتجاه مزدوج الذي تتميز به الروح الهندية الى يومنا (انظر وجه ٥٤٥) فتارة حلولية مبهمه وطورًا سعي للتوحيد ، وسينتهي هذا السعي ، في القرون الوسطى والحديثة الى مبدأ وخدوي نستطيع ان ننتعه بالتوحيد . وسيبرز عامل آخر مهم جداً سيكون له من الآن وصاعداً تأثير قوي : البسادة الروحية . وستتوجه هذه العبادة الى آلهة شخصية كفيشنو وكريشنا ، وقد اوجدها الاندفاع الشعبي الذي يتضح في المهاباراتا والاقبال على اليوغا . وتعتبر عنها نبرات شعرية زاهية ، خاصة اشعار بهاغافاد جيتا السبعمئة الموجودة في المهاباراتا . وهي ستتلور في عقيدة البهكتي « الاشتراك في الالهية » التي ستظهر حوالى القرن الثالث المسيحي بشكل تنظيمي عجيب .

وإزاء المشاكل الفيدية ، التي كانت نفعية فإن الطريق التي شقتها الاونيشاد والبراهمانا نحو المسائل الميتافيزيقية والنظرية قد وجهت الديانة البراهمانية نحو مبدأ التوحيد ونحو تجارب روحية تصبح مع الزمن اكثر عمقاً وتبلغ ذروتها في العهود اللاحقة . ولعلم « اللاهوت » الادبي مركز مرموق : فاللاعنف هو اساس التعليم الذي يهدف الى دستور حياة روحية وحياة روحية طبقية . ومع ان تحاديد الالهية قد اختلفت وتعددت يشعر المرء بأن هذا المبدأ غداً قوياً جداً يعطي نتائجه الكاملة ويصبح الهدف الذي يجب على كل فرد ان يصبو اليه . وبإستطاعة المرء ان يتبع طرقاً عدة للوصول الى الغاية : معرفة الامور المقدسة ، التشف ، العبادة او فقط الجهد الروحي والفردى . وعلاقات الفرد مع الآلهة هي أيضاً محدودة بأشكال مختلفة جداً ، إذ تصبح النفس موضوع جدل لا يسبر له غور بين الطوائف والمدارس الفلسفية : فالنفس جوهر غير مخلوق ، او هي ذرة من الالهية سجتت في الجسد وألقيت في خضم تيار الهجرات التي لا تعرف نهاية ، او هي مبدأ مادي غداً روحياً ... وهذه كلها نظريات توافق بالاعتماد الى القياسات الدقيقة صفات ودور الالهية .

وقما يظهر العلم الذي ينظر في غايات الوجود - والذي لم يطرأ عليه إلا تغيير طفيف منذ

العهد الفيدي - بأن العامل الشعبي هو على تناقض مع هذه المعطيات الفلسفية، تسيطر مشكلة التعصب (سمساراً) التي أثارها الأوينياد على الديانة البراهمانية ، ويصبح الفعل (الكارمن) نقطة العقيدة الجوهريّة. ولم يعد هذا العمل الطقسي كما كان في العهد الفيدي بل غدا الفعل والذي يلد من الفكر والقول أو الجسم. ويعتبرون الفعل كاملاً لا يسير له غور، يتسرب إلى الكون بأسره، ويلاحق الإنسان في مختلف مراحل تقمصاته وذلك رغم أنف الموت . وهو يكون حاضراً وقت الحمل ويبيع الأكتار منه الولادات المتتالية ولن يعد إلا بعد طول الزمن إذ لا يستطيع الإنسان أن يتخلص من مجموعة الكارمن إلا بمحاربهه بالتكفير . وهذه النظرية جعلت الفكر الهندي يتأرجح بين التشاؤم الكلي وجمال الكارمن . وبصورة متوازية لعقيدة الكارمن فإن الإيمان بالتناسخ قد تطور وغدت له أنظمتهم ؛ وهو يشبه دولاب الساعة الذي يدور دون توقف ويكون من ثم مجموعة ولادات لا نهاية لها على المرء أن يتقبلها يأتي على الكارمن متنقلاً دون هواده بين حالات النبات والصخر والحيوان والمرأة والرجل تبعاً للتقلبات التي تفرزها أعمال المرء الصالحة أو الطالحة ، دون أن يستفيد من ذكرى اختباراته السابقة .

وتختلف طرق الخلاص باختلاف المذاهب البراهمانية : فالعلم التقشفي ، والمعرفة الروحية ، والحب الروحي هي الطرق الرئيسية المعدة للخروج من هذا المأزق الذي يوصف بحق بالجنهمي .

وتكون هذه المبادئ التي عرضناها هنا بصورة مختصرة جداً المادة الأساسية للنظريات البراهمانية . ويضاف إليها اللجوء إلى استعمال الطقوس الجماعية والفردية ، وإلى فاعلية الصلاة والابتهالات شبه السحرية وإلى التلفظ الطقسي بالكلمات المقدسة ، وإلى قوة الإشارات (مودرا و هستا) والعلامات الدينية، هذا الاستعمال الذي أخذ ينتشر بإزدياد، وتكتسب الصور والمحاك أهمية تصاعديّة . ويبلغ التطور أشده في هذا العصر فننتقل من الشجرة والحجر المنتصب إلى الصورة والبناء . وتصف النصوص الأدبية العظيمة والفخامة اللتين توصلا إليها في هذا المجال بما عاد دون شك على العبادة بالشيء الوافر من حيث الآلهة . فهم يقيمون البوجا أو « الأكرام » الذي جعل الذبيحة الفيديّة في المنازل الحصوصية وفي المهاكل . وهم يحتفلون بهذه العبادة بأهية بحضور جمهور عظيم ويلجأون إلى التقادم والرقص والموسيقى. وهناك طقوس خصوصية لحفلات تكريس المهاكل والأصنام ، وتقديم الذبائح التكفيرية ، وتشديد الأبنية مها صغرت ، واستقبال الحوادث الجماعية أو الفردية ، والاحتفال بمسح الملك أو تسليم السلطات إلى الزعيم ، وبصورة مختصرة لكل ما تتألف منه الحياة الاجتماعية والفردية .

ويغدو الدين محور هذا العالم. ونجد تفسيراً لوجود كل شيء في قاعدة دينية تكون فيها حصّة اللاهوت أقل شأنًا مما كانت عليه في الطقوس السابقة . وهكذا تغدو البوذية في هذا العالم أصلاً اجتماعياً تؤثر على الحياة السياسية والأخلاق بما لها من مبادئ روحية ومنتافيزيقية وقياسية . ولا تتنكر البوذية لما كانت تحمله الديانة البراهمانية من خصائص هندية . ولكن خلافاً للبراهمانية التي

جعلت من واقع وجود الفئات مبدأ صارماً والتي أشادت كثيراً بالطبقتين الحاكميتين ، اي البراهمة والكشترية ، وتمتد البوذية القديمة على الفئات الاجتماعية الأقل شأنًا ، دون ان تسعى مع هذا للسواة بين مختلف الطبقات مبتدئة « من الاسفل » . وهي تنشب فقط بوجوب تخفيف سلطة البراهمة اللاحدودة إن لم يكن القضاء عليها . وتمتد البوذية القديمة بحقيقة التعمص والحياة الاخرى ، وتمتد مبادئها الروحية الى وجود الكارمن والمصير الذي يخضع له الانسان ، ولكنها تؤكد مع هذا بأن الاحتفال الطقسي العميق كما تقرره القوانين لن يوقف مجرى وعدد الولادات بل يؤثر عليها الخضوع للفضائل التي تنتج عن المسؤولية الشخصية . وهكذا يقضى قضاء تاماً على امتيازات الحسب والنسب الاجتماعية والوراثة الطبقية التي هي أسس المجتمع البراهمني ؛ لذا ترحب البوذية دون تفرقة بجميع الذين يودون نقض سلطة البراهمة - وتغدو من ثم ثورة اجتماعية .

وتستند تعاليمها الروحية الى مبدأ صراع الخير والشر وتصف كدواء لداء التعمص ممارسة فضيلة المحبة نحو جميع المخلوقات والتواضع والكفر بالذات . وغلاوة على ذلك فهي تأتي بنظرية الفداء: إذ دون غلص سيخضع الافراد دوماً الى نتائج أعمالهم . وهذا المخلص هو بوذا شاكيغي للطور الكوني الحالي ، يليه بوذا ميتريا الذي سيندو سيد العهد المقبل والذي سيسبق مجيئه زوال العالم . وتصف بوذية هذا العهد الى البوذيين السابقي الذكر كائنات من كنهها محبة الغير ، البودهستفا ، ولكن لا تزال عبادتها في مهدها ولم تبلور بعد ، وستكتسب هذه الكائنات أهمية متزايدة خلال القرون اللاحقة . وتصبح البوذية ، استناداً الى مبادئها ونظرياتها ، ديناً جديداً ، وهي تلجأ لتنتشر الى مختلف وسائل الدعاوة الدينية والتبشير ، ابتداء من اعطاء المثل الشخصي حتى وعظ المبشرين . وهي لا تستنكف ، مع ما تبديه الأوساط المحافظة من شديد استنكار ، من قبول النساء في عداد المؤمنين وارسال وهبائها ينشرون ممتدتها في مختلف أرجاء آسيا .

وخلال العهد الذي يستوقفنا نرى البوذية تنتظم وتثبت قديماً . وما يزيد أهميتها ونفوذها انتخاها كدين دولة من قبل الملوك كاشوكا مثلاً ، ولكن أدت هذه العوامل الى تحوير في مبادئها الاولية : وهكذا يصبح الملك ، وقد اعتمد على نظام اجتماعي يحكم الحلقات ، سيد الجميع يتحد ذاتياً مع بوذا الذي يفقد رويداً رويداً صفته كرجل قديس ليصبح ملك الملوك (وذلك بالاستناد الى نظريات مختلفة منها رأي جان برزياوسكي) . وهكذا يندو المجتمع البراهمني القسالب الذي يهر بشكله المجتمع البوذي .

ان هذا العهد الذي نخصه بدراستنا هو من أخصب العهود في مجال الفن التصويري : الفن فيه بلغ الامبراطرة الموريا وخلفاؤهم ذروة مجدهم ، وفيه استعمل الحجر لأول مرة بدل المواد القابلة للتلف ، وفيه تكونت الفنون العظيمة وولد الفن التصويري البوذي المقدس وتطور قليلاً ؛ وقد تقبلت هذه الفنون تأثير زميلاتها الغربية ولكنها أذابتها في مجموعة العناصر الهندية .

ويظهر التقليد ، وهو إحدى خصائص الحضارة الهندية ، بكل وضوح في الفن التصويري : فقد قلّت النفاشون على الحجر دقائق فن النقش على الخشب والعاج الذي سبق استعمالها دون شك استعمال المواد الأكثر صلابة . ونرى الهياكل المنحوتة في الصخر تعيد بكل دقة وأوصاف « الاسقالة » الخشبية بما فيها من فراض حتى أنهم يشيرون الى مواضع المسامير . وتعيد أيضاً الأبنية التذكارية (ستوبا) التي يبنونها من الحجر أو الحجر بشكل التومولوس الترابي الذي كان على هيئة نصف دائرة . وبعد ان اوجدوا الصور المقدسة التي مثلت الاشكال الانسانية استمروا زمناً طويلاً على تكريم الاشجار المقدسة والحجارة التي حولها الى مذابح او عروش إلهية ، كما استمروا على إقامة العواميد التي تنوب مناب أخشاب تقدمه الذبايح : وهكذا فإن الاشكال القديمة تبقى جنباً الى جنب مع الاكتشافات الجديدة ، وذلك مدة طويلة جداً .

وندهش لواقع قد نجد له تفسيراً من خلال كنه الديانة البراهمانية المجردة والجافة ، وهو ان آثار هذا العهد هي ذات صفة بوذية دون سواها . ولكننا مع هذا نستطيع القول ان تلك الآثار التي تضفي عليها المزاي البوذية رونقاً وحلاوة تجسد قبل كل شيء الروح الهندية وتصور لنا بكل دقة حياة سكان الهند وأخلاقهم .

ومع تطور الفكر واتساع انتشار البوذية غدا لزاماً على الفن ان يتقدم وينمو . ولم يعد باستطاعتهم الاكتفاء بأبنية وضيفة وسريعة الزوال وبأصنام لا شكل لها ولا جمال . انه يلزمهم صور مقدسة تدعوهم الى الصلاة ، وهياكل فضمة يلجأون اليها ، وقاعات فسيحة تتسع لجمهور المؤمنين الذي يتكاثر عددهم ، واديرة تستوعب الرهبان والراهبات ، وآثار تحمل طابعاً تاريخياً تنطق بفضل شاكمني التقليدي . لذا تظهر في وقت واحد المعابد (شاتيا) المنقورة في الصخر والآثار التذكارية (ستوبا) التي يشيدونها من آجر وحجر في الهواء الطلق . وعلى هذه الأبنية الأخيرة خاصة تزدهر النقوش التاريخية التي تعدو دون شك احدى جواهر الفن الهندي ، اذ تمثل لنا التقاليد البوذية بطلاوة وحرية تثيران السرور والاعجاب .

ان هندسة الأبنية الصخرية تعيد بأمانة — كما أمرنا اليه أعلاه — جميع دقائق ووصاف ما كانوا قد شيدهم من خشب . وهذه الأبنية هي غالباً ضخمة وشديدة الاتساع . ولأقدمها شكل اهليلجي ، وهي عارية عن كل فنون الزخرفة الداخلية ، وتطل على الجدار الصخري بسبب قنن يعلوه القوس الهندي . وتشبه هندسة هذه الأبنية الأكثر اتساعاً هندسة الكاتدرائيات ، تحيط بصحنها ساحتان تلتهبان بأعمدة على هيئة براميل منحوتة دون ان يكون لها تاج او قاعدة . وفوق افرز عريض يعلو الأعمدة يمتد السقف ، وقد أعادوا بكل دقة اشكال الاخشاب الأولية في القبة الصخرية . ووفي داخل المعبد نجد مصغراً للستوبا يدعونه داغوبا ينوب مناب المذبح ، يظهر ان احترامهم له بالدوران حوله دوراناً طقسياً (برداكشينا) ؛ واستعملوا ساحات المعابد هذه كأمكنة اجتماعات وصلوات ، وقد سكنها الرهبان الذين انصرفوا عن العالم ، وغدت دون

شك مزارات اذ بعدت عادة عن الوسط الأهل بالسكان وحفرت في مناطق برية . وبعد ان تقفنا في النقش على الحجر وازداد حبهم للزخرفة غدا داخل هذه المعابد اكثر زينة وفناً : فأصحى للعواميد قواعد على شكل اناه ولها تيجان قد تحفر عليها جماعات من الخيالة والمطايا ، كما يزينون بالنقوش الافريز والداغوبا . ومع الزمن تتسع الواجهة فتصبح والحالة هذه كطلف فسح تظهر فيه القود التي كان من المفروض ان تسنده .

وآثار الستوبا التي عثروا عليها في بهرهور وأمثلة الستوبا التي لا تزال قائمة في سانشي (بهوبال) هي شواهد ثمينة تدخل ضمن اطار هذه الهندسة الحجرية التي تعبد لنا فن البناء الحشي . وغطى ملاحظ مذهب وذو ألوان عدة القبة الحجرية النصف دائرية . وأقاموا من حجر الدرايزون الذي يحيط بها والأبواب الضخمة التي ترتفع في الجهات الرئيسية . وجعلوا للعصاريح والعوارض والعواميد والعتبات فراصاً كما كانوا يصنعون للقطع الحشبية .

وعلى درازونات وشرفات بهرهور وستوبا سانشي الثانية ، وعلى أبواب ستوبا سانشي الاولى والثالثة - خاصة - نرى نقوشاً نافرة تساعدنا مساعدة جلي على درس الحضارة الهندية في ذلك العصر . ونظير رجال العهد البدائية في الغرب فقد نقش رجال الفن أساطير او قصصاً شبه تاريخية يرتدي أبطالها ثياب معاصريهم ويتبعون أساليب حياتهم . وقد وصلوا الى درجة رفيعة من المهارة ، وإن كان فن رسم الأشياء بحسب رؤية العين لا يزال بدائياً في بهرهور فقد تقدم كثيراً في آثار سانشي الاولى والثالثة . ومنذ البدء يظهر في كل شيء ميلهم لاعطاء رسومهم الاشكال الحيوانية ، وهذه صبغة ستلازم رجال الفن طوال تطور وتقدم الفن الهندي . وإرت نظرنا الى نقوش بهرهور البدية التي تمثل لنا مراحل حياة بوذا القديمة حيث تظهر الحيوانات كأبطال الحوادث ، او الى ما حققه النحت على الصخر فلننا نعجب لما نشاهد من فن ينشد طبيعة الاشياء ، يضاف اليه تفهم حقيقي للجاءات وبراعة عفوية وساذجة تتم مع هذا عن ملاحظة دقيقة ورقيقة الطبيعية .

ولنا على فن نحت التائيل أمثلة صنعت من كتلة واحدة . وأقدم هذه التائيل (يكشا باركهام الخ) هي ثقيلة الصنع وقد أسدوا عليها مسحة دينية لا تخلو من عظمة . وقد أجادوا إجادة كلية في التعبير عن مختلف تفاصيل الثياب والحلي ، وذلك تشمياً مع عنايتهم للتعبير بدقة عن الاشياء ، هذا الاهتمام الذي نشاهده ايضاً في فن البناء .

وهكذا يبدو لنا الفن الهندي ، حوالي القرنين الثالث والثاني ق.م . ثابت الدعائم وان كنا لا نستطيع إلا ان نتخيل المراحل الطويلة التي سبقت هذا الطور إذ لم تبقى آثار عن تلك العهد السابقة نسبة للمناخ . ويظهر لنا هذا الفن قوي المعالم ومعداً بلوغ شأن خطير . ويستسيخ هذا الفن تطوراً ستثبت القرون اللاحقة قيمته وعظمته .

الفصل الثالث

صين ملوك التسين ولهان

بعد تجزئة الامارات التي انبثقت عن التشاو ابقث « الممالك الحقاتلة » تطور الصين التاريخي (١) الصين في حالة حرب مستمرة (من سنة ٣٢٥ الى سنة ٢٢١ ق.م.) وستنشأ عن هذه الاضطرابات وحدة البلاد. وتستوعى أنظارنا ثلاث من هذه الامارات - التشاو والتسين والتشو - ولكن استطاعت امارة التسين ان تستولي ، منذ سنة ٣١١ ، على المراكز الحساسة في البلاد وبدأت تخضع سائر الاجزاء . وقد أتم هذا العمل المجيد الملك تشنغ الذي اتخذ له فيما بعد اسماً غداً شهيراً هو تسن - شه - هوانغ - تي (٢٤٦ - ٢١٠) . ولد تسن سنة ٢٥٩ ولم يكن له من العمر إلا ثلاثة عشر عاماً عندما ارتقى العرش . ولكن منذ ان بلغ التاسعة والعشرين اخذ يجرز الانتصار تلو الانتصار على منافسيه : وهكذا منذ سنة ٢٣٠ الى سنة ٢٢١ كرس نفسه للحرب . وبعد ان عدا سيد الصين المعروفة آنذاك اتخذ لقب امبراطور وسعى لتحقيق وحدة بلاده السياسية والاجتماعية والفكرية .

وتظهر اعمال تسن - شه - هوانغ - تي كصدي لساقام به الامبراطور اشوكا في الهند ، وان لم يجر بين البلدين صلات او تبادل حقيقيين . وأوجبت ظروف الصين السياسية عملاً جذرياً عينياً لاقتلاع ما تبقى من آثار الحكم الاقطاعي . وخوفاً من رجوع مثل هذا النظام جعلوا الحكم مركزياً . وتسهلاً لتقارب المناطق فرضت على الجميع نفس الاساليب الكتابية . وأخذ الامبراطور الجديد على عاتقه تأمين السلام في بلاده والدفاع عنها ضد الغزوات التي كانت تهدد غالب الاحيان المناطق الشمالية والشمالية - الغربية ، لذا وحده في خطط دفاع الاسوار التي كان ملوك التسين والتشاو والدين قد اقاموها على طول الحدود . انه الحائط الكبير الذي يمتد على مسافة ثلاثة آلاف كم ، والذي يُعد من اعظم الافعال التي حققها الانسان .

(١) سبق ان اشرنا الى إته من التمنذر ان تضع الصين فاصلاً زمنياً في آخر القرن الاول ق.م. ومع قياس حكم ونغ ونغ الذي يقع في اوائل العصر المسيحي ، فان الحضارة الصينية ايام سلالة الهان من سلسلة مستمرة الحفلات دون تعاطف وتستند الى ذات المبادئ والصفات. لذا يمتد بجنتنا هذا حتى سقوط الهان سنة ٢٢٠ بعد المسيح.

ولكن مع هذا لم يستتب النظام في الامبراطورية إلا لسطوة شخصية تسن - شه - هوانغ - تي ، لذا غدا موته سنة ٢١٠ نذير قيام الثورات واشتعال الاضطرابات السياسية التي دمرت البلاد في فترة لا تتجاوز بعض السنوات . وسنة ٢٠٦ نشأت عن هذه الحروب الداخلية سلالة الهان التي ستحكم الصين حتى سنة ٢٢٠ مسيحية ، ما عدا فترة قصيرة تتراوح من سنة ٩ الى سنة ٢٢ بعد المسيح . وبأساليب لطيفة المظهر سعى امبراطور سلالة الهان الاول الى إعادة المركزية التي حققها تسن - شه - هوانغ - تي . واتبع مبادئ ادارة البلاد التي كان قد سار عليها هذا السلف . ومع انه منح امتيازات لبعض النبلاء فانه سعى لجعلها دوت خطر على سلطته . ولكن لم تستعد قط صين الهان الوحدة الداخلية التي كان قد حققها وابقى عليها تسن - شه - هوانغ - تي . بل غدت الصين ايام الهان مجموعة مقاطعات لا توحد اعمالها وجهودها إلا عندما يهددها خطر خارجي . وغدا هذا الخطر شبه مستديم وكان مصدره « البرابرة » الذين هددوا دوماً مناطق الحدود الشمالية والغربية والذين توغلوا مراراً في غزواتهم حتى داخل الامبراطورية . وقد تقافم هذا الخطر اذ لم يتردد بنض المغامرين من الاعتماد على هؤلاء البرابرة للاستيلاء على الحكم ؛ وعلاوة على هذا فقد تنافس امراء السلالة وتجاروا للوصول الى العرش . واستمرت سلالة الهان على هذه الحالة من قمع غزوة الى اخاد ثورة حتى سنة ١٤٠ ق . م . وفي هذا التاريخ ظهر الامبراطور « وو » الذي لم يكن له من العمر إلا ١٦ سنة عندما اعتلى العرش والذي سيستمر في الحكم زهاء ٥٣ عاماً ، متبعاً سياسة الحكم المطلق (١٤٠ - ٨٧) . انه استند الى اساليب غير مباشرة ولكن شديدة الوطأة للقضاء رويداً رويداً على النبلاء والاستعاضة عنهم برجال قانون ينتمي معظمهم الى عامة الشعب . وقد ثبت بؤاستمهم سلطة الحكم المركزي . ونشأت عن هذه التدابير طبقة جديدة من الاشراف ازدهرت الحضارة الصينية ازدهاراً عجبياً .

والى جانب أعماله الداخلية هذه أعد الامبراطور حملة ضد الهيونغ - نو الذين كانوا يهددون بصورة مستمرة حدود الامبراطورية . وأرسل لهذه الغاية بعثة استكشاف واستعلامات برعامة تشنغ - كين وقد استمرت هذه البعثة في مهمتها من سنة ١٣٨ حتى سنة ١٢٥ تقريباً ووصلت الى افغانستان . وأضفت اليها بعثات اخرى وقفت على حالة البلاد السياسية التي وقمت على الطريق التجارية الممتدة من كانتون حتى البنغال - وهي « طريق برمانيا » الحديثة . وغدا هذا العمل فاتحة هجرات مظفرة أسدت على الصين صفة الفاتح . واتسعت البلاد الصينية غرباً حتى تونغ - هوانغ (التي تشرف على مجازات ألتاي) وجنوباً حتى كانتون . وهكذا استعمرت منطقة كان - سو ، وخضعت بلاد يونان وشمالى آتام وفرغانا ، وأجبر الهيونغ - نو الأعداء على التزام السكينة ولو الى حين .

ومع انه حدثت اضطرابات بعد موت وو فقد تابع أحد حفدته سيوان - تي (٧٣ - ٤٩ ق . م .) الفتوحات الصينية في التركستان الصيني ، واستولى على النقاط الرئيسية في حوض تاريم

وقضى لقرون عدة على القبائل الهونية في منغوليا ، ولكن عقببت هذا العهد فوضى شديدة كادت تقضي على حكم الهان . وتعاقب على العرش في الفترة الواقعة بين سنة ٤٨ ق. م الى سنة ٩ ب. م . ثلاثة ملوك تحقق معهم المخطاط ووهن السلالة . واغتصب الحكم ونغ منغ وهو يمت بالقرابة المنحرفة الى الاسرة الامبراطورية، وسعى لاصلاح الامور معتمداً على الطبقة المثقفة (٩ - ٢٢) . ولكنه كان خيالي الاهداف ، وقامت ضده جوع الفلاحين وقد عضاها الجوع بنابه فتنازل عن العرش أمام مطالبة ذوي الحقوق الشرعيين . واغتمت الفرصة أحد الهان ليو سيو فأعاد سلطة سلالته واتخذ اسم كوانغ وو - تي (٢٥ - ٢٧) .

وبدا اذ ذلك عصر استعمار صيني زاهر : فأعيد السلام الى بلاد الالام والتونكين (٤٢) واخضع الهون في منغوليا الداخلية (٤٨) ، وثبتت الحماية الصينية على واحات تركستان اثر غزوات القائد بان تشاو المظفرة (وقد انتهت سنة ٩٤) . وهكذا انفتحت الطريق نحو الغرب واستطاعت الصين بواسطة الجيول المدرية والمحطات المتعددة ان تتصل مع افغانستان والهند ويران والشرق الروماني - وكان الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧) قد أوصل تأثير روما في آسيا الى الأوج . وستعدو هذه الطريق «طريق الحرير» ستمود بالثروة لمدة قرون عدة على البلاد التي استطاعت ان تسلكها، واصبح لها علاوة على ذلك اعظم الأثر الثقافي والفلسفي إذ بواسطتها أدخلت البوذية الى الصين حوالي ستين او سبعين سنة بعد المسيح .

ومع هذا عادت سلالة الهان الى المخطاط لن تقوم لها بعده قائمة . واعتاداً الى هذا الضعف استعاد الهون هجياتهم وعظم شأن الحكام المتنافسين في المقاطعات . وبعد معارك دامية - دامت حوالي خمسة وسبعين عاماً - عزلت رسمياً سلالة الهان (٢٢٠) واعترف اذ ذلك بثلاثة امبراطرة في لويانغ ، وتشنغ - تو (٢٢١) وفانكين (٢٢٩) . وهكذا جزئت الصين ثلاث ممالك واجتاح الهيونغ - نو شمالي الامبراطورية القديمة . وأعطيت السلطات الرئيسية اذ ذلك لاسرة التسين في نانكين (٣١٨ - ٥٨٩) . اما في الشمال فقامت مملكة بصلية - تركية عرفت باسم وي (٣٩٨ - ٥٨١) ستمد الطريق لقياس سلالة صينية جديدة، اعني سلالة التانغ التي ستخلف سلالة السوي (٥٨٩ - ٦١٨) .

عندما حقق تسن - شه - هوانغ - تي وحدة الصين طرأت على المجتمع السلطة الامبراطورية واحوال الملك تغيرات هامة وعميقة الجذور . اذ في زمن الممالك المتعارية لم ينفك النظام الاقطاعي عن ترسيخ قدمه ولم ينفك النبلاء عن اكتساب امتيازات في وقت ضعفت فيه السلطات الملكية وفسدت سيطرتها . ولم يستطع تسن - شه - هوانغ - تي فرض سلطانه المطلق إلا بالجوء الى اساليب عنيفة قلبت الوضع رأساً على عقب . وحذا تسن - شه - هوانغ - تي حذو المستبدن لترسيخ هذه النظرية الجديدة المتعلقة بسلطة وشخص الملك، ولكن عمد امبراطرة الهان، خلفاؤه الحقيقيون، الى اساليب أكثر نعومة والتواء لينعموا بتار ذلك الوضع .

لقد اختلفت حتماً وجهات نظرهم الى الامور ولكن تساوت اهدافهم : فقد عزف تسن - شه - هوانغ - تي ، وهو الكلي القدرة ، عن الطقوس - اذ اعتبرها بالية اكل الدهر عليها وشرب - التي كان ملوك التشاو والاقدمون يقيمونها بصفتهم ابناء السماء. ولكن يبدو مع هذا بأنه رغب في لقناع مروؤسيه بالصفة الالهية التي تلازم شخص الامبراطور ، لذا احاط نفسه بسرية كلية ، وعاش في قصر منفرد ، لا يراه شعبه . وكان يرمز قصره الى عالم الالهة ، وهو لم يظهر إلا في ظروف استثنائية رسمية كارتقاء جبال الامبراطورية المقدسة التي كانوا يقومون بها باحتفال مهيب .

اما امبراطرة الهان فأظهروا أنفسهم ببعثي النظام القديم . ولكنهم لم يتنكروا لمبدأ الوهية الامبراطور التي نادى بها الحكم المطلق وقد فطنوا للاخطار التي تتعرض اليها سلطاتهم بسبب طموح ومشاغبات النبلاء . لذا عمدوا الى الليونة والحيلة : فبدل ان يمحروا إقامة الطقوس الامبراطورية في المينغ تنغ (صفحة ٥٧٦) كما كانت الحال أيام التشاو فإنهم عمموها في مختلف أرجاء المملكة . وهكذا غدت جولات الامبراطرة الى جهات المملكة الأربع معادلة لدوران ابن السماء داخل بيت التقويم ، وتجسد نظيره تعاقب الأزمنة . ومع ان الخصائص التي ستحدد لاحقاً بصورة ثابتة ألوهية الامبراطور لم تكتمل بعد ، ومع أننا لا نزال في طور انتقالي فان كنه النظرية الصينية التي تتعلق بشخصية الامبراطور قد أثبتت مبدئياً . وستستمر هذه الميزات حتى سقوط الامبراطور سنة ١٩١٢ .

والى جانب هذه العقيدة تظهر فكرة الدولة وتفرض القوانين التي لا تقتصر غايتها على «معاينة الاشرار» بل ايضاً على «تشجيع الصالحين» .

وهكذا يتقبلون المبدأ القائل بأن عمل السماء يعود بالخير على النظام العالمي بينما يعنى الامبراطور بالنظام الاجتماعي . ويبدو الامبراطور عملياً أكثر أهمية من السماء ما دام قادراً على ترسيخ النظام الروحي اذ ان الامبراطور هو وحده المسؤول عن مثل هذه الامور ، وفضائله الشخصية هي خير كفيلاً لتحقيق سعادة الجميع . وتمثل مجموعة الموظفين خبير الامبراطورية . والامبراطور ورجال الادارة هم معدون لتثقيف الشعب وتوجيهه وابقائه في مستوى معيشي نبيل .

المصادر تهدف ادارة الامبراطورية والاصلاحات الى غاية رئيسية : الابقاء على الجيش الذي جعلت منه الحروب ضد البرابرة أمراً لا غنى عنه . وقد تطور الجيش تطوراً جذرياً منذ ان أصبح يتألف بكامله تقريباً ، في عهد المالك المقاتلة ، من فرق الخيالة التي خلقتها وسرعة تنقلها ، غدت تصلح أكثر من عربات التشاو الثقيلة لصد هجمات فوارس الهون الصاعقة . ومنذ هذا العهد أخذ الخيالة الصينيون يرتدون ثياب البرابرة ، اعني السترة القصيرة والسروال ، بدل ثياب خيالة العصور السابقة الفضفاضة . ويضعون ايضاً دبابيس وأقراطاً من المعدن وقد اقتبسوا هذا الامر عن أعدائهم ايضاً . ويتخذون كذلك القوس والنشاب فيقاتلون والحالة هذه الرماة البرابرة بنفس الأسلحة . ولتأمين انتصارات مستديمة لهؤلاء المحاربين يوجهون قسماً من

اقتصاد الامبراطورية نحو الانتاج بكميات هائلة : فرجال الحدادة يشتغلون لهم ، ويشجعون كثيراً الافراد لتربية الأحصنة التي تصاف الى جمبول الاصطبلات الامبراطورية ، وتقدم لهم المزارع العمومية الوفر من لحم الضأن والحبوب والعلف للحيوانات ، وتؤمن لهم مؤسسات النقل ، بواسطة قوافل من مئات العربات ، ما يحتاجون اليه من مواد واسلحة ورجال . واخيراً يعملون جاهدين في اهراء العاصمة ودور صناعتها وتخازن اسلحتها لتأمين ما يطلبونه من ذخيرة وميرة ، ويسهل تنقلهم في مختلف أرجاء الدولة ما يقيمونه من طرق جديدة وقنوات .

وتشجع كثيراً هذه الاحتياجات الزراعة وتربية المواشي. فهم يصلحون الاراضي التي لم تزرع ، وينشئون الممتلكات الفسيحة التي تأتي على الاملاك الصغيرة . وازدهرت أيضاً الملاحات وأكواد الحدادة . وتستدعي جميع هذه الاعمال توحيداً في بعض أمور الدولة : لذا فرضوا نظاماً واحداً للكتابة والموازين والمكاييل والمقاييس . وأثرى كثيراً بعض المواطنين خاصة بين الذين يملكون الاراضي ويتوسطون في الاعمال التجارية ويقدمون للجيش ما هي بحاجة اليه . وتكثر اليد العاملة المتوجة للقيام بالمشاريع العظمى إذ القضاء على الملكية الصغيرة والوسطى ألقى في أحضان الشقاء والعوز عدداً وافراً من رجال الزراعة والصناعة . وقد يسخرون العبيد كما تلجأ الدولة الى استخدام عدد من رعاياها الذين يكون قد حكم عليهم جزائياً لما اقترفوا من أعمال تخالف القوانين .

وتستفيد الدولة بأمواليها الخاصة من ثراء الاغنياء المتصاعد فتقر أساليب قاسية ثم تتقنها وتستبدلها بقرارات أشد وطأة : ملاحقات قضائية ، وضع اليد على الاراضي والعبيد ، ضرائب مختلفة ، غرامات ... وكلها طرق تعطي الدولة الحق بوضع يدها على جزء من الثروات التي اكتسبت. بوسائل تخالف كثيراً او قليلاً القوانين. وهكذا تتكون ثروة الدولة التي يتم بها رجال مال ينتسبون الى فئة التجار . وتتوالى التشريعات المالية لتزيد في كميات هذه الثروة : فهم يبيحون تارة سك النقود ويحرمونه طوراً ، ويحل النقد الخفيف محل الثقيل - وعند كل تغيير تفرض الضرائب على مخالف القانون .

وتساعد هذه العوامل كلها على خلق طبقة نبيلة في المدن ، تهوى البذخ ونجما حياة رفاهية وتستثمر اليد العاملة بأجر ينحس تعثر عليها بسهولة نسبة لغناها وفقير هذه الطبقة الساملة . وسيثير حتماً هذا التفاوت في الثروات ثورات واصلاحات سيجبر خلفاء الهان على تحمل نتائجها .

على أثر الحروب الاقطاعية والاستبداد حصلت تغييرات جذرية في تكوين المجتمع المتوسع الروح الاجتماعية : فينحي المغامرون والأثرياء الجدد والجنود والملاكون الكبار نبلاء العهد القديم عن السلطة ويعتبرون الثروة أساس النظام العالمي إذ يصبح الفنى الأداة المفضلة للنجاح . ويبتدئ اعظم رجال الدولة الجدد حياتهم بامتهان أحقر الأعمال : فيصبح راعي الخنازير مستشاراً أكبر ، والجندي البسيط مركزاً ، والأسير قيسماً على الامبراطورية ؛ ويندو

الاستحقاق والحظ والتفوق الحربي والريح الوافر عوامل تكفل النجاح أكثر من الحسب والنسب والامتيازات الارثية .

وتستفيد الصناعة والتجارة من حياة الترف التي يعيشها هؤلاء الأثرياء الجدد مها أسدوا لهم من نصح . ويعطي المثل القصر الامبراطوري وينشط الجميع لحذو حذوه على احسن وجه : ويتسابق القوم لإقامة الولائم والاعياد والصرف دون حساب . واعداد حفلات الصيد والقنص واحياء الروايات التمثيلية غير آهين للقوانين التي تحرم دعوة أكثر من ثلاثة ضيوف الى بيت واحد والتي تفرض غرامة على من لا يتقيد بها .

ومع هذا فان الامبراطور ورجال بطاتته - أيام الهان - يمحزون كل فرد على التقيد بأهداف الحياة القديمة والعودة الى بساطة العهود الغابرة . وقوانين الدولة الروحية صارمة وجازمة : فهي تؤكد سلطة الأب المطلقة ، وتستنكر الزنى وتحرم على الأرامل ان يتزوجن ، وتفرض عفة الاخلاق . وينشر التعليم هذه المبادئ . ويسعى لتعميمها في الملحقات أيضاً : إذ للدسائر والمرافق الحكومية مدارس يدرسون فيها المنهج نفسه الذي يسيرون عليه في العاصمة . ويدوم عهد الدراسة تسعة أعوام ، وتتناوب في كل سنة مجموعة « العلوم » استناداً الى الفصول وتنتهي بامتحان ؛ انه تدريس نظري فقط يعلم الأولاد الطقوس والموسيقى ورسي النشاب وقيادة العربية والكتابة والحساب وقواعد الآداب ، وتحتوي مواد تدريس الفئاة النسيج والخياطة والنقر على العود والشعر . والتاريخ . ومنذ هذا العهد نلس ميل الصينيين نحو البحث في الكتب المدرسية عن مبدأ الحكمة والفضائل الاجتماعية والشجاعة .

ولم تتغير إلا قليلاً نواحي الحياة اليومية : فالطقوس وحفلات الولادة والزواج والدفن تتبع القوانين التي ساروا عليها قديماً . وتستمر الحياة الزراعية على الخضوع لتقلبات الفصول وضرويات المزروعات . وما حياة النبيل إلا صورة مصغرة لحياة الامبراطور ، فهو يمتلك العبيد - ولا يجوز ان يتعدى عددهم الثلاثين - ويستأجر الخدم . ويحتوي قصره نساءه وخدمه وكل ما هو ضروري للحياة العادية من ألواح الجذود حتى المؤن . وهو يستيقظ باكراً ، وينسل يديه وفمه ويسرح شعره ويستحم مرة كل خمسة أيام . ولا يخرج من البيت في ذلك النهار . ثم يرتدي ثياباً تليق بمقامه ويتناول وجبة خفيفة ، ويستقبل أولاده الذين يقدون لتحتبه ثم يعكف على الدرس . ويمدته مدير أعماله عن مختلف الشؤون . وبعدئذ يرتدي ثيابه الرسمية لتناول الغداء ويكرس ما تبقى من وقت نهاره للأعمال التي تفرضا عليه وظيفته .

وتخصص النساء وقتاً أطول للاعتناء بتبرجهن . وتميش المرأة في غرفة خصوصية تحيط بها خادماها يعتنين بها . وهي في كل صباح تمشط شعرها بعناية وتضع في رأسها دبابيس طويلة . وتلك المرأة كل ما تحتاج اليه للزينة في صناديق من اللك نقش عليها بكل دقة : مسحوق الارز المدعو المسحوق البربري تبيض به وجهها وكثفها وظهرها بواسطة شرابة من وبر الحيوانات ،

ومسحوق الزنجفر او العصفور الاحمر تضعه بصورة مستديرة على وجنتيها ، ومساحيق قائمة تضع بواسطتها بقعاً تبعثرها على وجهها تبعاً للعادات المتبعة ، وهي تسود حواجبها بواسطة ابرة خشبية طويلة ومعقوفة .

وتتناول طعامها في غرفة منفردة بصحبة سائر نساء القصر . ويتألف الطعام من لحم الخنزير وضعوا عليه البصل . ويزيدون اليه بعض الانواع المجففة وأصنافاً من اللحم والجاورس والذرة والارز - ولكن لم يعرف الارز في ذلك العهد الانتشار الذي سلاقيه فيما بعد . وترافق الاطعمة الكحول التي يستخرجونها من الذرة ، او الماء او الشاي (في مناطق جنوبي النهر الازرق فقط) . ويقطعون غالباً اللحوم النيئة قطعاً نحيفة ويحفظونها ويطيبونها بالزنجبيل ، او ينقعونها في خل أضاقوا اليه البصل ، ويحتوي الولاثم على خسة اصناف من الطعام هي : المرق ، ولحم العجل والضأن أضيف اليه الارز ، ولحم الخنزير مع الجاورس ، والسملك ، والطيور . وتظهر على موائد النبلاء اللوس أصناف أطيب طعماً : حلزون تقع في الحل ، وخنزير صغير حشوه بالحمض ، وسلحفاة ، ولحم الكلاب ، ولحم فيء طيبوه بالزنجبيل وتبلوه ببيض النمل المحفوظ في الملح .

وتقام الولاثم على أنغام الموسيقى والرقص ، وقد يشارك فيه المدعون انفسهم . ولكن يأتي غالب الاحيان رب البيت بالرقاصين الذين اتخذوا الرقص مهنة لهم والبهاليل والبهالين .

ان كانت العاصمة الامبراطورية قد اتسعت اتساعاً كبيراً لتحتوي بين ظهرانيها ، إطار المدينة
كما صدرت بذلك ارادة الامبراطور ، أقوى أسر المملكة ، وان كان تسن - شه - هوانغ - في قد أبدع في تجميلها ، فان مدن الارياف تبقى مع هذا ضيقة . ويشبه القصر الامبراطوري قصور امبراطرة العهود السابقة ، وله باحاته وأبنيته التي أحسنوا اعطائها الوجهة المقررة . وهو يمثل بصورة رمزية العالم ، يقم في وسطه الرجل الأورحد ، اعني الامبراطور ، الذي يستمر على اتصاله مع قوى النظام العالمي .

ويعد بيت الغني أقسام القصر الرئيسية ، ولكنه يبقى مع هذا شبيها بمنزل الفلاح الذي طرأ عليه بعض التطور . وتشرف ساحته نحو الجنوب . وفي قعر هذه الساحة يمتد بناء طويل قسم ثلاثة أقسام : ففي الوسط قاعة الاستقبال ، والى اليمين واليسار الغرف ومستودعات المونة . وتحيط بالجناح الاساسي أبنية عدة : فالى الشرق بيوت الضيوف ، والى الغرب مساكن الاولاد المتأهلين ، والى الورا المراحض . ويحتوي البناء الاساسي على طابقين او ثلاثة : ويسكن رب الاسرة في الزاوية الجنوبية - الغربية ، وهي الجهة الأكثر شرفاً حيث تحفظ ألواح الجردود . وللنساء غرفة يستقبلن فيها تقوم عادة فوق القاعة الوسطى ، وتزينها عمد صبغت باللون الاحمر . أما الجدران فهي من الآجر المطلي بالكلس ، وقد يغطونه بالقماش في المناسبات الكبرى . وتظهر في السقف أخشاب ملونة ومنقوش عليها ، ويبسطون على ارض الغرفة طنافس كشميرية . ويتنصب مقعد رب الاسرة تحت مظلة أقيمت في وسط القاعة .

وأثاث البيت بسيط . والمضاجع هي عبارة عن لوح خشب أسند على اربعة قوائم قصيرة جداً ، يعلوه فراش ويمتد على مساحة الغرفة بكاملها ، ويمتد المرء عليه ملتصقاً بغطاء من القطن المبطن (ويكون من القماش عند الفقراء) اما الوسادة فهي من الخشب قد يضيفون اليها عوارض من الخيزران تخفف مرونتها وطأة تلك الوسادة . وتحجب السرير بعض السجوف وتعلوه مظلة عليها الستائر . ويجلسون على حصر . وما الطاولات إلا عبارة عن مقاعد طويلة ومنخفضة ، وهم يتكئون على مقاعد أقصر من السابقات . وحوالي القرن الرابع فقط تظهر الكراسي ذوات القوائم الاربع والمقاعد المشبوكة القوائم ، وقد اتخذوها عن الغرب . ومن أدوات الأثاث أيضاً القناديل : وهي عبارة عن مصابيح لها تسعة مشاعل او مصابيح زيت بسيطة وجيلة من السهل حملها . وتصنع هذه القناديل من الخرف او النحاس . وتوجد مكتبة في احدى غرف البيت وتتألف الكتب من قطع خشبية رقيقة ربطت الى قديتين من الجلد . وأدخلت عادة جديدة أيام سلالة الهان وهي استعمال لفات طويلة من الورق توصلوا مؤخراً الى اكتشاف المادة التي صنعت منها ، ويستعملون للكتابة حبراً ومراقم خشبية صغيرة محددة الرؤوس او مناقيش .

وأثبتوا مزولة على حائط في عرصة الدار . ويوجد في القصر ساعة مائية مؤلفة من عدة أحواض نحاسية تحدد الوقت بشكل علمي أكثر دقة .

وهناك اخيراً مكان هام خصصه للطابع . وفي البيوت الحقبرة نجد هذه المطابخ في قسم المنزل المخصص للسكن . ولكن في بيت النبيل او في قصر الامبراطور تتخذ هذه المطابخ لها موضعاً في أقبية قاعة الاستقبال، او بصورة افضل في أماكن معينة يكون قربها دوماً بشر ماء . ونجد في هذه المطابخ كوراً كبيراً له ثقبان تغلي فوقها مراجل كبيرة . ويملأون هذا الكور وقوداً من خلال موقد مربع الشكل ويؤججون النار بواسطة عصى طويلة مجوفة . وبالقرب من هذا الكور يملقون المونة على خشبة فيها كلاليب . اما أواني المائدة فهي في غاية التنوع : أكواب مختلفة الاجسام ، أوعية مستديرة القعر ، أجران وأحواض ، وتكل هذه الأواني أطباق وطاولات صغيرة يأتون بها بعد ان يكونوا قد أعدوها .

ولا تختلف كثيراً ثياب الرجال عن ثياب النساء . ويرتدي الرجال سروالاً داخلياً قصيراً من القماش وقيصاً قصيرة لا أجام لها ، ثم يضعون فوقها سترة وسروالاً طويل أو قصر . وترتبط النساء على قسم جسمهن الأعلى قطعة قماش اهليلجية الشكل تغطي صدرهن وبطنهن ، ولكنهن يتركن الظهر والجانبين بحالة العري . وتشبه ثيابهن الداخلية ثياب الرجال ولهُؤلاء ، علاوة على ما تقدم ذكره ، قطع من الجلد الأبيض على الركب ، وجوارب من حرير تثبنها الى الساق بعض الربط ، واحذية جلدية وقبعة او عمامة . وفيا يرتدي العملة ورجال العامة ثوباً قصيراً او يكتفون فقط بقطعة ضيقة من القماش تستر عورتهم يلبس النبلاء وخدامهم ثوباً طويلاً . اما ثياب رجال البلاط ، وقد استلهموا شكلها من ثياب رجال الأدب ، فتغطي الثياب الموصوفة أعلاه ، وهي

عبارة عن ثوب ذي مطاوتتناسب والقوام يبطنونه بجرير ابيض (باو) ، او عن ثوب فضفاض يتبدل من الكتفين حتى الرجلين (تشونغ - نان - ي) . ويشد الثوب الى الجسم زنار يرتبط بعقدة تمر في ابريم من المعدن المنقوش عليه ، وسيفضلون أكثر فأكثر الرداء باو الذي كان كثير الاستعمال في زمن الهان ؛ اما ابريم المعدن فهو مأخوذ عن عادة بربرية .

ان عهد الممالك المتقاتلة التي سادتها الاضطرابات ، وقيام الحكم الاستبدادي ثم تفشي الآداب الفوضى التي سبقت استرجاع الهان السلطة عوامل لم تخلق جواً يساعد على انتشار وازدهار الآداب . فتنس - شه - هوانغ - في مثلا الذي أراد فرض الوحدة على بلاد الصين أمر بأشغال نارأتى لميها على كثير من الكتب الادبية الكلاسيكية (سنة ٢١٣ ق. م) . ولكن نجت مع هذا المؤلفات الفنية (الطب ، والسحر ، والزراعة الخ) . وعندما أراد الهان بعث الأدب الصيني كانت الكتب قليلة جداً وقد زالت نصوص عدة . وسعى الأدباء الكونفوشيانيون لحياء جوهر الادب القديم . ولم يحقق هؤلاء الادباء ، عمداً او عن غير قصد ، إلا عملاً دعائياً وليس علمياً : وهكذا غدا لجهدهم غاية توجيهية ونادى بأهداف كونفوشيانية رسمية قالوا إنها تنتسب الى العهود القديمة ولكنها فرضت بالفعل فرضاً .

واكتسب منذ ذاك الوقت رجال الأدب أهمية كبرى كان قد حرّم منها شن - هوانغ - في وملوك الهان الأولون . وفرض الكونفوشيانيون على طلاب الوظائف الادارية تقديم امتحان ؛ وأضيفت الى الكتابة « العصرية » او الشعبية (كين - ون) - التي كانت قد ساعدت على ازدهارالتجارة - كتابة علمية (كو - ون) أدت الخدمات الى رجال العلم دون سواهم . ونالت المؤلفات « العلمية » - ولم يذكر غالباً اسم واضعها - استحساناً متزايداً . ولكن أفسح هذا الامر المجال رحباً امام المناقشات التي لا تعرف حداً ، والى الجدال المدرسي والتنافس السياسي إذ وقف الكونفوشيانيون جهدهم على خدمة القضيصة الامبراطورية . وتصارع بشدة مشايخو الكين - ون والمتحزون للكو - ون ومفسرو (وي - شو) النصوص القانونية الجديدة . وقد فاز المنتصرون للكو - ون (نصف القرن الثالث المسيحي) . وبما هؤلاء من نفوذ وسطوة غدت التعاليم الكونفوشيانية الفلسفة الرسمية ، وكوّن القائلون بها طبقة نيلية جديدة نفذ أعضاؤها الى مجلس الامبراطور ومهدت السبيل امام رجال الادب لمراقبة الحكومة . وقد رسخت هذه النظرية الجديدة على يد تونغ تشونغ شو خاصة (مات حوالي سنة ١٠٠ ق. م) .

وتشهد إذ ذاك ازدهاراً في الآداب الصينية : رجال نثر موهبون - ومنهم كيا بي (١٩٨ - ١٦٦ ق. م) - وناشرون (ليو هينغ ٧٧ - ٦ ق. م) - وشعراء (سو - ماسيانغ - جو الذي مات سنة ١١٧ ق. م . ويانغ هونغ سنة ٥٢ ق. م . الى سنة ١٨ بعدالمسح) - ومؤرخون ورواة (سو - ماتسيان ١٤٥ - ٨٦ ق. م) وهؤلاء الادباء جميعهم هم فخر عصر الهان . وعرف الشعر خاصة تجدداً ارسى أسس القصيدة الصينية للأجيال اللاحقة ، ونجدهم في الفترة التي

تقارح ما بين ١٩٦ و ٢١٩ بعد المسيح يخوضون في مختلف المواضيع التي سيعدون البحث فيها فيما بعد . وفي الوقت نفسه يتباور ميلهم نحو جمال الاسلوب فتظهر إذ ذاك « قواعد الألمان » — والتي تصبح اجبارية في الزمن اللاحق .

الفنون والتعبيرات
لنا نجد زعتهم الى الجمال الحسي في مجال الفن أيضاً وقد دعمتها امكاناتهم على تحقيق الأحسن، تلك الامكانات التي ساعدتها الظروف. وتحفظ المصنوعات النحاسية التي تلت عهد التشاؤ بنفس المواضيع الحيوانية وتخضع لنفس القوانين، ولكن هناك روحاً جديدة تثبت الحياة فيها : فموضاً عن نقوش فن التشاؤ النافرة وأشكاله اللفظة نرى رسوماً مستقيمة تتشابه فيها الاجزاء المستوية الشكل والاقسام التي تملؤها خطوط ملتوية فيظهر الفن في تناسق وتناغم الماء والفراغ واتحاد الأشكال الحيوانية والزخرفة الهندسية . انها نقوش قوية وحيوية كزميلاتها السابقة ولكنها أكثر وضوحاً وليونة، وأشكال الاواني هي أكثر بساطة واستدارتها أكثر نقاوة . ويبدو بكل وضوح في حلقات الزناير التي نقشت عليها نقوشاً دقيقة أثر علاقات الصينيين مع البرابرة الهون . وتثبت هذه الحلى والمرايا واواني المائدة النحاسية ذوقاً دقيقاً وشعوراً حقيقياً .

وتتكاثر التأثيرات الغريبة وتظهر بكل وضوح في صناعات عدة وذلك لازدهار التجارة الصينية أيام الهان واتساع الامبراطورية للعلاقات التي توطنها الصين مع الغرب . وقد صهرت هذه التأثيرات في البوتقة الوطنية وغدت صينية تماماً . ان الفن أيام الهان — أقله في الآثار التي وصلت الينا — هو أكثر تشعباً من الفنون السابقة : فقد أضافوا الى المرايا واواني المائدة النحاسية وأدوات الزينة التقليدية هندسة تشييد الابنية للموتى ، ونقوشاً نافرة ، وسلسلة أشياء صنعوها من الفخار المشوي ، ونماذج أولية للفن الخزفي المزخرفة بالينا ، وأقمشة حريرية ، وأدوات من اللك المزينة بالنقوش . وتميط هذه الصناعات اللثام عن تقدم كبير في استنثار المواد المختلفة ، وإبحاث سيكون لها نتائجها الباهرة ، وتقدير مستمر لحقيقة الأمر. وهكذا فانهم يزينون النحاس بالذهب والفضة ، ويرصونه بالينا واللك والحجارة الثمينة (الفبروز والدهنج واليشب) . ومن مميزات الفن أيام الهان حرية كبرى في التأليف وترسيخ الخطوط وحماة وحياة في الأشكال وتذوق عميق مليء باللونة للحقيقة الطبيعية. ان هذا الفن هو خير انعكاس لعهد جذاب تأسست فيه الوحدة الصينية بالاستناد الى مجتمع مجدد ، يجب البذخ والرفاهية ، ويعشق الجمال ، قوياً كان أو دقيقاً ناعماً .

الخاصة

ان هذا الكتاب يهمل درس أكثر من حضارة نسبة لانتساع العهد الذي يبحث فيه أعني منذ ان وجد الانسان على الارض حتى ظهور العهد المسيحي . وكان لا بد من بعض التوضيحية وذلك لانعدام الآثار والمصادر : ولن نستطيع إلا في زمن لاحق الكتابة عن بعض الشعوب التي عاشت في قارات فسيحة إلا بعد ان ينهتك سائر دياجيرها وتتشع عليها الأنوار التاريخية الأولى . وقد نفسر أمراً معقولاً فرض علينا توضيحات أخرى موقفة : إذ كيف لا نبقى لدراسة واحدة تاريخ روما وشعوب الغرب المتوسطي الذي غدت حضارتها ، في القرون القديمة ، صورة لحضارة روما تلك ؟

ومع هذا غدا زماماً علينا ان ندرس بالتتابع اثنتي عشرة حضارة . وقد أجبرنا على تتبع تطور البعض منها في مراحلها المختلفة ، هذا التطور الجذري العميق الذي يحرم علينا من ثم اعتبارها كوحدة لا تتجزأ . وفي مثل هذا المحيط الجغرافي الضيق لن يبرز قط درس الحضارات ، في عصور التاريخ اللاحقة ، مثل هذه الصفة في التنوع والتجزئة . وهذا الأمر أكيد لا ريب فيه . وان توغلنا في عصور ما قبل التاريخ الاكثر قدماً ، يصبح هذا الاعتبار أشد وطأة إذ ان نقطة الانطلاق كانت وحدة الشعوب في تكوينها الطبيعي وحياتها المادية والروحية . وهكذا يبدو بأن تطور الحضارة وتقدمها قد وضع حواجز بين الأمم ، واهابها بها الى تشييد حضارات استقرت على ما بينها من تضاد .

وقد حصل فيما بعد تقارب واندماج ، ولكن لم يمنع هذا المصير ، نتيجة الإرادة كان او عوامل الحروب ، من تكوين ثلاثة عوالم : عالم الشرق الأدنى ، وعالم الهند وعالم الصين . وعندما بدأ العهد المسيحي ، كان كل منهم قد أرسخ وجوده وخصائصه منذ قرون عدة : وباستثناء مقاطعاتهم المتجاورة لم تقم فيما بينهم إلا علاقات لم تمس الجوهر . ولم يكن هناك تأثير مشترك أصاب الكثرة . وعندما وجدت الامبراطورية الرومانية غدت هذه العلاقات اكثر عدداً وأوسع مدى ، ولكن بقيت مع هذا سطحية محصورة ضمن نطاق تبادل السفراء الوقي او المواد او المصنوعات الفنية القيمة . وسينقضي وقت طويل قبل ان تتخذ لها مجرى آخر . ان التناقض بين هذه العوالم الثلاثة قد أصبح ، مدة قرون . إن لم يكن آلاف السنين ، من المعطيات الأساسية لتاريخ الحضارات .

وهناك حقيقة أكثر رسوخاً إذ يخضع كل شيء انساني لظروف الزمان وتغير القوانين . فأثناء الفترة الطويلة جداً التي كانت موضوع بحثنا في هذا المؤلف خضع العالم الهندي مثل العالم الصيني للجزرات او تمتع باتساع الرقعة : وسيعرف كل منهما في القرون اللاحقة حركات اخرى من المد والجزر . وقد تطورت حضارتها وستطور أيضاً . ولكن منذ أواسر الألف الثاني ق. م . وعندما ثبتت القبائل الآرية قدمها في الهند حصل تطور هذين العالمين الثقافي دون حوادث تبدل او انقلاب فجائية ، وذلك بصورة مستقلة وتأثير القوى الداخلية وحدها . ولا نجد للصين او للهند ما ندعوه « القرون القديمة » اعني ذاك الطور التاريخي الذي يستعمل اسمه ان قابلنساء « بالفرون الوسطى » التي تلتها « النهضة » . فللهند وللصين بدء تاريخ فقط . وان كانت القرون التي سبقت العهد المسيحي تختلف عن سواها فذلك لأن هذه القرون شاهدت تكوين الحضارتين الهندية والصينية ، وكل منهما مدعو الى الاستمرار ، حتى زمن قريب جداً منا ، على نهج حياة قد تبدو ثابتة لا تتغير معالمها .

ويختلف الأمر إن نظرنا الى العالم المتوسطي . ففي مصر وبلاد ما بين النهرين خاصة كان لهذا العالم حضارته التي نشأت في اطار ضيق وعاشت على نفسها ومن حيويتهساً دون أي جلب من الخارج . لقد كان لهذا العالم نفس الحضارات تقريباً وهي استمرت زمناً طويلاً ، ولكنها انقضت منذ آخر القرون القديمة على أبعد حد . وقد قضت عليها شيخوختها دون شك ، هذا إن لم نقل بالاول بأنه قد أصابها الكسح ، وأذابت حيويتها وخنقتهما حضارات أقل عهداً وذات طاقات اكثر لقبول التجدد . ولقد نشأت هذه الحضارات الاخيرة في عالم غير العالم المتوسطي وفي زمن أقل قدماً . انها استثمرت تجارب الآخرين او بالأحرى كونت معظم أجزائها بما أخذته او ورثته عن الغير . ومع هذا لم تنف بميزاتها الجوهرية القليلة حائل دون انتصارها ، ولكن عرفت بدورها الاضمحلال بتأثير قوى خارجية وجديدة .

وهكذا منذ القرون القديمة يبرز عالماً الشرق الاقصى كعالمي الاستقرار والديمومة ؛ اما العالم المتوسطي ، مهد العالم الغربي الآتي ، فهو عالم الثورات الدائمة والتحول المستمر . وفي القرون الأولى المسيحية التي سنخصص لها كتابنا الآتي لن يخفف مصير روما او مصير المناطق الآسيوية من هذا التناقض البين .

المصادر

(١) الشرق المتوسطي واليونان

١ - دراسات شاملة

- L. DELAPORTE, *Le Proche-Orient asiatique* (3ème éd., 1948).
- E. DRIOTON et J. VANDIER, *L'Égypte* (3ème éd., 1952).
- R. COHEN, *La Grèce et l'hellénisation du monde antique* (3ème éd., 1948).
- P. LAVEDAN, avec la collaboration de S. BESQUES, *Antiquité* (1949), t. X, *Histoire de l'art*.
- L. DELAPORTE, E. DRIOTON, A. PIGANIOL et R. COHEN, *Antiquité* (1937) t. XII *Atlas historique*.
- J. DELORME, *Chronologie des civilisations* (1949).
- P. JOUGUET, J. VANDIER, G. CONTENAU, E. DHORME, A. AYMARD, F. CHAPOUTHIER, R. GROUSSET, *Les premières civilisations* (nouvelle rédaction, 1950).
- P. ROUSSEL, avec la collaboration de P. CLOCHÉ et R. GROUSSET, *La Grèce et l'Orient, des guerres médiques à la conquête romaine* (2ème éd., 1938).
- A. MORET, *Histoire de l'Orient*, 2 vol. (1929-1936).
- G. GLOTZ, avec la collaboration de R. COHEN, *Histoire grecque t. I., Des origines aux guerres médiques* (1952).
- t. II, par les mêmes, *La Grèce au V^e siècle* (1931).
- t. III, par les mêmes, *La Grèce au IV^e siècle ; la lutte pour l'hégémonie*, 404-336 (1936).
- t. IV, G. GLOTZ, P. ROUSSEL, R. COHEN, *Alexandre et l'hellénisation du monde antique* (1938).
- *Encyclopédie photographique de l'art* (éditions «Tel») (1935-1938).
- CH. PICARD, *La sculpture antique* (Paris, Laurens) t. I, (1923-1926).

٢ - حول ما قبل التاريخ

- G. GOURY, *Précis d'archéologie préhistorique; origine et évolution de l'homme*, 2 t.

- H. BRÉUIL et R. LANTIER, *Les hommes de la pierre ancienne, paléolithique et mésolithique* (Paris, Payot, 1951).
- J. DECHELETTE, *Manuel d'archéologie préhistorique, celtique et gallo-romaine*, 2 t.

٣ - حول مصر وبلاد ما بين النهرين

- H. FRANKFORT (1948), trad. par J. MARTY et P. KRIEGER, *La royauté et les dieux ; intégration de la royauté à la nature dans la religion de l'ancien Proche-Orient* (Paris, Payot, 1951).

٤ - حول مصر

- A. MORET, *L'Égypte pharaonique* (Paris, Plon, 1932): t. II de G. HANOTAUX, *Histoire de la nation égyptienne*.
- A. ERMAN, trad. par H. WILD, *L'Égypte des pharaons* (Paris, Payot, 1939).
- A. ERMAN et H. RANKE, trad. par CH. MATHIEU, *La civilisation égyptienne* (Paris, Payot, 1952).
- A. MORET, *Le Nil et la civilisation égyptienne* (Paris, A. Michel, 1926).
- P. MONTET, *Les scènes de la vie privée dans les tombeaux de l'Ancien Empire* (Strasbourg, Istra, 1925), et *La vie quotidienne en Égypte au temps des Ramsès, XIII^e, XII^e siècles avant J.-C.* (Paris, Hachette, 1946).
- J. VANDIER, *La religion égyptienne* (2^e éd., 1949).
- A. ERMAN, trad. par H. WILD, *La religion des Égyptiens* (Paris, Payot, 1937).
- J. SAINTE FARE GARNOT, *La vie religieuse dans l'ancienne Égypte* (Paris, P.U.F., 1948).
- CH. DESROCHES - NOBLECOURT, *Le style égyptien* (Paris, Larousse, 2^e éd., 1946).
- J. VANDIER, *Manuel d'archéologie égyptienne* (Paris, A. Picard, 2 vol., 1952-1953).

٥ - حول آسيا الغربية

- G. CONTENAU, *Manuel d'archéologie orientale, depuis les origines jusqu'à l'époque d'Alexandre* (Paris, A. Picard), t. I-III (1927-1931) ; t. IV, *Les découvertes archéologiques de 1930 à 1939* (1947).
- Du même, *L'art de l'Asie occidentale ancienne* (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).
- M. RITTEN, *Arts et styles du Moyen-Orient ancien* (Paris, Larousse, 1950).

٦ - حول بلاد ما بين النهرين

- L. DELAPORTE, *La Mésopotamie, les civilisations babylonienne et assyrienne* (Paris, A. Michel, 1923).

- Du même, les chapitres sur l'Elam ajoutés à la nouvelle édition de C. Huart, **L'Iran antique** (Elam et Perse) et **la civilisation iranienne** (Paris, A. Michel, 1948).
- G. CONTENAU, **Les civilisations anciennes du Proche-Orient** (Paris, P.U.F., 2^e éd., 1948).
- Du même, **La civilisation d'Assur et de Babylone** (Paris, Payot, 2^e éd., 1951), et **La vie quotidienne à Babylone et en Assyrie** (Paris, Hachette, 1950).
- SIR LEONARD WOOLLEY, trad. par J. LEVY, **Ur en Chaldée** (Paris, Payot, 1938).
- M. RUTTEN, **Babylone** (Paris, P.U.F., 1948).
- A. PARROT, **Archéologie mésopotamienne, les étapes** (Paris, A. Michel, 1946).
- H. R. HALL, **La sculpture babylonienne et assyrienne au British Museum** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).
- E. DHORME, **Les religions de Babylone et d'Assyrie, dans le fasc. 2 du t. I, Les anciennes religions orientales, de la collection « Mana »** (Paris, P.U.F., 1945).
- CH. VIROLLEAUD, **Légendes de Babylone et de Canaan, fasc. 1 de la coll. « L'Orient ancien illustré »** (Paris, A. Maisonneuve, 1949).

- ٧ - حول آسيا الصغرى

- L. DELAPORTE, **Les Hittites** (Paris, A. Michel, 1936).
- G. CONTENAU, **La civilisation des Hittites et des Hourrites du Mitanni** (Paris, Payot, 2^e éd., 1948).
- R. DUSSAUD, **Les religions des Hittites et des Hourrites, dans le fasc. 2 du t. I, Les anciennes religions orientales, de la collection « Mana »** P.U.F., 1945).
- Du même, **Préludiens, Hittites et Achéens** (Paris, Genhner, 1953).

- ٨ - حول فارس

- G. HUART et L. DELAPORTE, ouvrage cité plus haut pour la Mésopotamie (éd. 1952).
- A. T. OLMSTEAD, **History of the Persian empire, Achaemenid period** (Chicago, The University of Chicago Press, 1948).
- J. DUCHESSE - GUILLEMIN, **Zoroastre, étude critique avec une traduction commentée de Gâthâ** (Paris, G.-P. Maisonneuve, 1950).
- R. GROUSSET, E. BENVENISTE, etc., **La civilisation iranienne** (Paris, Payot, 1952).
- F. SARRE (1922), trad. par P. BUDRY, **L'art de la Perse ancienne** (Paris, Crès, 1924).

- ٩ - حول الأيبين

- G. GLOTZ, **La civilisation égéenne** (Paris, A. Michel, réédition procurée par P. Demargne en 1953).

- CH. PICARD, *Les religions préhelléniques*, fasc. 1 du t. II., *Les religions de l'Europe ancienne*, de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1948).
- J. CHARBONNEAUX, *L'art égéen* (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1929).

١٠ - حول كنعان، سوريا، العبرانيين

- G. CONTENTAU, *La civilisation phénicienne* (Paris, Payot, 3^e éd., 1949).
- R. DUSSAUD, *L'art phénicien au II^e millénaire* (Paris, Geuthner, 1949).
- A. DUPONT-SOMMER, *Les Araméens*, fasc. 2 de la collection « L'Orient ancien illustré » (Paris, A. Maisonneuve, 1949).
- R. DUSSAUD, *Les religions... des Phéniciens et des Syriens*, dans le fasc. 2 du t. I, *Les anciennes religions orientales*, de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1945).
- CH. VIROLLEAUD, *Légendes...* ouv. cité plus haut pour la Mésopotamie.
- A. BERTHOLET, *Histoire de la civilisation d'Israël* (Paris, Payot, 1929).
- AD. LODS, *Israël, des origines au milieu du VIII^e siècle, et Des prophètes à Jésus ; les prophètes d'Israël eles débuts du judaïsme* (Paris, A. Michel, 1930 et 1932).

١١ - حول اليونان

- J. HATZFELD, *Histoire de la Grèce ancienne*, réédition procurée par A. Aymard (Paris, Payot, 1950) et *La Grèce et son héritage* (Paris, éditions Montaigne, 1945).
- A. JARDE, *La formation du peuple grec* (Paris, A. Michel, 1923).
- M. CROISSET, *La civilisation de la Grèce antique* (Paris, Payot, 1932).
- G. GLOTZ, *Le travail dans la Grèce antique* (Paris, Alcan, 1920).
- P. CLOCHE, *Les classes, les métiers, le trafic* (Paris, Belles-Lettres, 1931).
- L. GERNET et A. BOULANGER, *Le génie grec dans la religion* (Paris, A. Michel, 1932).
- M. P. NILSSON, *Geschichte der griechischen Religion* (Munich, C. H. Beck, 2 vol., 1941 et 1951).
- H. MARROU, *Histoire de l'éducation dans l'Antiquité* (Paris, Editions du Seuil, 1948).
- A. et M. CROISSET, *Histoire de la Littérature grecque* (Paris, de Boccard, 5 vol., 3^e éd., 1910-1921).
- L. ROBIN, *La pensée grecque et les origines de l'esprit scientifique* (Paris, A. Michel, 1923).
- CH. PICARD, *Manuel d'Archéologie grecque. La sculpture* (Paris, A. Picard) t. I, *Période archaïque* (1935); t. II, *Période classique*, V^e siècle (2 vol., 1939); t. III, *Période classique* (IV^e siècle), première partie (2 vol., 1948).
- H. LECHAT, *Sculptures grecques*, album commenté (Paris, Hachette, 1925) et un exposé rapide et précis, *La sculpture grecque* (Paris, Payot, 1927).
- CH. DUGAS, *La céramique grecque* (Paris, Payot, 1924).

١٢ - حول اليونان في العهد القديم

- J. BURNET (1914), trad. par A. RAYMOND, *L'aurore de la philosophie grecque* (Paris, Payot, 1919).
- P.-M. SCHUHL, *Essai sur la formation de la pensée grecque*. Introduction historique à une étude de la philosophie platonicienne (Paris, P.U.F., 2^e éd., 1949).
- J. CHARBONNEAUX, *La sculpture grecque archaïque* (Paris, éditions de Cluny, 1939).

١٣ - حول اليونان في العهد الكلاسيكي

- G. GLOTZ, *La cité grecque* (Paris, A. Michel, 1928).
- V. MARTIN, *La vie internationale dans la Grèce des cités (VI^e-IV^e siècle avant J.-C.)* (Paris-Genève, 1940).
- CH. PICARD, *La vie privée dans la Grèce classique* (Paris, Rieder, 1931), ou *La vie dans la Grèce classique* (Paris, P.U.F., 2^e éd., 1949).
- J. CHARBONNEAUX, *La sculpture grecque classique* (Paris, Editions de Cluny, 2 vol., 1943-1945).

١٤ - حول اليونان في العهد الهليني

- M. ROSTOVITZEFF, *The social and economic history of the Hellenistic world* (Oxford, Charendon press, 3 vol., 1941).
- P. JOUGUET, *L'impérialisme macédonien et l'hellénisation de l'Orient* (Paris, A. Michel, 1926).
- W. W. TARN, trad. par E. J. LEVY, *La civilisation hellénistique* (Paris, Payot, 1936).
- E. BIKERMAN, *Institutions des Séleucides* (Paris, Geuthner, 1938).
- CL. PREAUX, *L'économie royale des Lagides* (Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth, 1939), et *Les Grecs en Egypte d'après les archives de Zénon* (Bruxelles, Office de Publicité, 1947).
- P. ROUSSEL, *Délos* (Paris, Belles-Lettres, 1925).
- A.-J. FESTUGIERE, *Epicure et ses dieux* (Paris, P.U.F., 1946).

٢) حول آسيا الشرقية

١ - دراسات عامة

- RENE GROUSSET, J. AUBOYER, J. BUROT, *L'Asie orientale des origines au XV^e siècle* (Paris, P.U.F., 1941).
- J. SION, *L'Asie des moussons* (Paris, A. Colin, 1929).

٢ - حول الهند

- L. BACHHOFER, *Early Indian Sculpture*, 2 vol. (Paris, 1929).
- G. COMBAZ, *L'Inde et l'Orient classique*, t. I, 2 vol. (Paris, 1930).
- G. COURTILLIER, *Les anciennes civilisations de l'Inde* (Paris, A. Colin, 1930).
- A. FOUCHER, *Beginnings of Buddhist Art* (Paris, 1917).
- A. FOUCHER et SIR J. MARSHALL, *The monuments of Sanchi*, 3 vol. (Calcutta, 1940).
- A. FOUCHER, *La vie du Bouddha* (Paris, Payot, 1949).
- L. DE LA VALLEE-POUSSIN, *L'Inde au temps des Maurya et des Barbares*, dans *l'Histoire du monde*, t. III, (Paris, de Boccard, 1930).
- E. MACQAY, *La civilisation de l'Indus*, trad. A. et H. COLIN-DELAUVAUD (Paris, Payot, 1936).
- P. MASSON-OURSSEL, H. DE WILLMAN-GRABOWSKA et STERN, *L'Inde antique et la civilisation indienne* (Paris, Albin Michel, 1933).
- L. RENOU, J. FILLIOZAT, P. MEILE, A.-M. ESNOL et L. SILBURN, *L'Inde classique*, t. I (Paris, Payot, 1947-1949).

٣ - حول الصين

- CREEL, *Naissance de la Chine*, trad. M. CLERC-SALLES (Paris, Payot, 1937).
- M. GRANET, *la civilisation chinoise* (Paris, Albin Michel, 1929).
- R. GROUSSET, *La Chine et son art* (Paris, Pion, 1951)
- B. KARLGREN, *Prehistory of the Chinese*, *Bull. of the Museum of Far-Eastern Art*, N° 15 (Stockholm, 1943)
- H. MASPERO, *La Chine antique*, t. IV de *l'Histoire du monde* (Paris, de Boccard, 1927).
- DU même, *La vie privée à l'époque des Han*, *Revue des arts asiatiques*, t. VII (Paris, 1932).
- Du même, *Les religions chinoises*, Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LVIII (Paris, 1950).
- Du même, *Le taoïsme*, Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LVII (Paris, 1950)
- Du même, *Etudes historiques*, Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LIX (Paris, 1950).
- A. RYGALOFF, *Vie de Confucius* (Paris, P.U.F., 1946).
- A. WALEY, *Trois courants de la pensée chinoise*, trad. G. DENIKER (Paris, 1949).

جدول زميقي مـقارن

- ان التوقيت القديم غير أكيد في الغالب . لذلك اضطررنا الى الاكتفاء ببعض الاشارات الغامضة من جهة والى بعض المصطلحات من جهة اخرى :
- إن كلمة « حوالى » بصدد العهود القديمة ، لا تشير الى التاريخ ، بل الى توقيت تعريبي : فالتفاوت قد يبلغ قرناً أو قرنين أو أكثر أحياناً .
- إن كلمة « تقريباً » تشير الى تفاوت أقل اتساعاً في الزمن : بين نصف قرن وعشر سنوات على وجه التقريب .
- إن علامة الاستفهام (?) تشير الى تاريخ متأرجح يبلغ التفاوت فيه عدة سنوات فقط

بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وإيران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناطول	مصر	التواريخ
اولى حضارات بلاد ما بين النهرين	بدء الحضارة العيلامية		الوقت الأساسي لتقرير التقويم المصري	٤٢٤٢ - ٤٢٤٥ حوالي ٤٠٠٠ حوالي ٣٥٠٠ حوالي ٣٢٠٠
الطور السوري الاول ؛ مدن لاغاش وأور وأرورك النخ تتحارب . تسلسل الساميين الى بلاد بابل			الملكة الموحدة في مصر	٣٢٠٠ - ٢٦٠٠ حوالي ٣٠٠٠
		بدء العلاقات الوثيقة بين جيبيل ومصر	ملكة منف القديمة	بدء الالف الثالث من ٢٨٠٠ - الى تقريباً ٢٢٠٠ ٢٧٥٠
		التاريخ التقليدي لتأسيس صور	السلالة الرابعة ، بريني مفوكها الثاني والثالث والرابع خوفو وخفرع ومنكورع الامرام الكبرى	٢٧٢٣-٢٥٦٣ (?)
			طور أكااد . في البدء يؤسس مرجون مملكة اكااد السامية، وله نفوذ كبير على آسيا الداخلية؛ تقضي على المملكة غزوة من القبائل الجبلية	٢٦٠٠ - ٢٤٠٠
	مرجون الاكادي يخضع بلاد عيلام			٢٦٠٠ حوالي ٢٥٠٠ - ١٥٠٠

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجيبي والعالم اليوناني
٤٢٤٢ - ٤٢٤٥			
حوالي ٤٠٠٠			
حوالي ٣٥٠٠			
حوالي ٣٢٠٠			
٣٢٠٠ - ٣٢٠٠			
حوالي ٣٠٠٠			استمرار حضارة العصر الحجري الجديد في اليونان، وبدا استعمال المعادن في جزيرة كريت
بدا الالف الثالث			
من ٢٨٠٠ - الى تقريباً ٢٢٠٠			
٢٧٥٠			
(?) ٢٥٦٣ - ٢٧٢٣			
٢٤٠٠ - ٢٦٠٠			
٢٦٠٠			
حوالي ٢٥٠٠ - ١٥٠٠	سلالة الهيا (? ١٩٨٩ - ١٥٢٣ ?)	حضارة وادي الهندوس (موهنجو - دارو ، هراپا) لم تقسربعد الكتابة	

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران	بلاد كنعان وسوريا والانباطول
من ٢٣٥٠ إلى ٢١٥٠ تقريباً	الغوصى في العهد الاوّل الذي يفصل بين الملكتين			
حوالي ٢٣٠٠		غرديا يملك في لاغاش ؛ سلالة أور الثالثة	السوريون يخدمون بلاد عيلام	
٢٣٥٠ - ٢٠٠٠	دولة طيبة الوسطى	الملود السوري الثاني		
من ٢١٥٠ إلى ١٦٨٠ تقريباً				
حوالي ٢١٠٠		خراب ملكة أور	الميلاجيون يقبضون على مملكة أور	
٢١٠٠ - ١٩٠٠		بيلايت ايسن وارسا وأزدياد نفوذ سلبي التوب ابو الامورين		ازدهار جماعة من التجار الاثوريين في كبادوكية
حوالي ٢٠٠٠			استقر الالفندو ساوريين في إيران	استقرار الحثيين في الاناضول . ازدهار ارغايوت في فينيقياء . توسع علاقاتها مع بلاد ما بين النهرين وخاصة مع العالم الايبى
من ٢٠٠٠ إلى ١٧٨٥ تقريباً	السلالة الثانية عشرة ، وأشهر فراعنتها هو منوسرت الثالث المعروف بسنوسرت عند اليونان (١٨٨٧ - ١٨٥٠)			
٢٠٠٠ - ١٦٥٠		السلالة الرابعة الاولى		
١٩٠٠ - ١٨٥٠				استيلاء ابي التوراة الميلانيون على ساردون سوردار فلسطين بطلو يقسم الى حجر
١٨٤٥		حكم حمورابي		الاشوريون سادة حاري على الفرات

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجيبي والعالم اليوناني
من ٢٣٥٠ الى ٢١٥٠ تقريباً			
حوالي ٢٣٠٠			عز طروادة الثانية
٢٣٠٠ - ٢٠٠٠			
من ٢١٥٠ الى ١٦٨٠ تقريباً			
حوالي ٢١٠٠			
٢١٠٠ - ١٩٠٠			
حوالي ٢٠٠٠			بناء القصور الاولى الكثرية
من ٢٠٠٠ الى ١٧٨٥ تقريباً			
٢٠٠٠ - ١٦٥٠			
١٨٠٠ - ١٩٠٠			
سنة ١٨٤٠			
أواخر القرن التاسع عشر			

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والأناضول
١٨٠٠	استناداً إلى التوراة، تقدم البرانيين إلى مصر			
١٧٣٠ تقريباً - ١٥٨٠	غزو وحكم المكسوس . الطور الثاني الفاصل بين الملكتين			
١٧٠٠ تقريباً				
القرن السابع عشر				تأسيس مملكة الهوريين في بلاد ميتاني ؛ ازدهار الامبراطورية الحثية
١٦٥٠		الغزوة الحثية على بابل وقيام السلالة الكاسية		
١٥٨٠ - ١٠٩٠	المملكة الطيبية الجديدة			
ابتداء من ١٥٨٠				حملات فراعنة مملكة طيبية الجديدة على بلاد كنعان
١٥٨٠ - ١٣٢٠	السلالة الثامنة عشرة			
حوالي ١٥٠٠				
القرن الخامس عشر - القرن الرابع عشر		تأثير مصر القوي على بلاد ما بين النهرين		
١٤٨٤ - ١٤٥٠ (?)	حكم تحوتس الثالث الذي بسط سيادة مصر حتى الفرات			
ابتداء من ١٤٨٣				غزوات تحوتس الثالث المظفيرة وهو ينشئ الامبراطورية المصرية في آسيا

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجيبي والعالم اليوناني
١٨٠٠			
١٧٣٠ تقريباً - ١٥٨٠			
١٧٠٠ تقريباً			ظهور الاخيرين في ارغوليد ؛ دمار القصور الكريتية الاولى يليه بعد فترة قصيرة تشييد القصور الثانية
القرن السابع عشر			
١٦٥٠			
١٥٨٠ - ١٠٩٠			
ابتداء من ١٥٨٠			
١٥٨٠ - ١٣٢٠			
حوالي ١٥٠٠	سلالة الشانغ (١٥٢٣ ؟ - ١٥٢٨) وقد دعوا الى «هن» منذ سنة ١٣٠٠	وصول الآريين الى حوض الهندوس	أرج عظمة دولة مينوس البحرية
القرن الخامس عشر - النصف الأول من القرن الرابع عشر			
١٤٨٤ - ١٤٥٠ (?)			
ابتداء من ١٤٨٣			

بلد عيلام و إيران (بلاد سوزه)	بلاد ما بين النهرين	مصر	التواريخ
		خروج العبرانيين	١٤٠٠ تقريباً
			١٣٨٨ - ١٣٥٠ تقريباً
	تضعف الامبراطورية المصرية في آسيا	حكم امنوفيس الرابع - اخناتون طور تل العمارنة	١٣٧٠ - ١٣٥٢ (?)
		السلالة التاسعة عشرة	١٣٢٠ - ١٢٠٠ تقريباً
			القرن الثالث عشر
	عصر العظيمة الأشورية الاول : حوالي سنة ١٢٧٠ يمتاز شلنصر الاول الفرات. من سنة ١٢٢٦ الى سنة ١٢٤٠ حكم توكولتي- نينسورثا الاول الذي ينتصر في كل جهة ريستولي على بابل . حوالي سنة ١١٠٠ يبلغ قنلت فلاحم الاول البحر الابيض المتوسط في فينيقيا		القرنان الثالث عشر والثاني عشر
		حكم رمسيس الثاني الذي ينتصر في قادش في فلسطين ويمقد تحالفاً مع الحثيين	١٢٩٨ - ١٢٣٢ (?)
			سنة ١٢٧٨
		هجمات « شعوب البحر »	ابتداء من ١٢٣٠

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجي والعالم اليوناني	بلاد كنعان وسوريا والاتاحول
١٤٠٠ تقريباً			دمار قصر كخنوسوس . ذروة ازدهار الحضارة الميسينية والملكة الآخية	نصوص ارغاريت الدينية . تحركات الشعوب الكبيرة . استقرار البرانيين في فلسطين . الشعوب البحرية تتسدىء بالتحرك . تزعم الامبراطورية المصرية
١٣٥٠ - ١٣٨٨ تقريباً				حكم الملك الحثي سوبيلولوما الذي يبسط سلطانه على ميتاني ويصل الى فلسطين
١٣٧٠ - ١٣٥٢ (?)				تضعف الامبراطورية المصرية في آسيا
١٣٢٠ - ١٢٠٠ تقريباً				
القرن الثالث عشر				ناورس احيرام في جيبسيل ؛ وجود الامجدية الفينيقية
القرنان الثالث عشر والثاني عشر				
النصف الثاني من القرن الثالث عشر			التاريخ الذي اعتمدته القرون القديمة لحرب طروادة	
١٢٩٨ - ١٢٣٢ (?)				
سنة ١٢٧٨				بعد صراع وعيسيس الثاني مع الحثيين تقاسم النفوذ بين الفراعنة والملوك الحثيين ؛ وقد هددتهم جميعاً حركات شعوب حوض المتوسط الشرقي
ابتداء من ١٢٣٠				

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والانتاشول
نهاية القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل ١٢٠٠				اقامة الفلسطينيين على شاطئ فلسطين والاراميين في سوريا
ابتداء من القرن الثاني عشر				تقهقر الامبراطورية الحثية ؛ انشاء الدولة الفرجية في وسط آسيا الصغرى
القرن الثاني عشر - القرن الحادي عشر				حروب العيرانيين ضد الفلسطينيين
١١٧٥		ملك عيلام شوتروك ناخوتشه الاول يغزو بلاد بابل		
انتهاء القرن الحادي عشر - ابتداء القرن العاشر				حكم الملكين داود و سليمان حكم احيرام ملك صور
القرن الحادي عشر - القرن السابع	فوضى ، حكم رؤساء كهنة امون ، السلالات الليبية والنوبية			
١٠٢٧				
٩٦٦(?) - ٩٥٩(?)				بناء هيكل اورشليم
بعد ٩٣٥ (?)				انقسام ممالك اسرائيل ويهوذا
من القرن التاسع - القرن السابع	الفتوحات الاشورية الكبرى	منذ القرن التاسع غزوات الاشوريين المتكررة على بلاد عيلام		غزوات الملوك الاشوريين اخضاعهم ارمينيا وسوريا وفينيقيا وفلسطين

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجيبي والعالم اليوناني
نهاية القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل ١٢٠٠			
ابتداء من القرن الثاني عشر القرن الثاني عشر - القرن الحادي عشر ١١٧٥	نغان يانغ عاصمة الهونان		الغزو الدوري
انتهاء القرن الحادي عشر - القرن العاشر القرن الحادي عشر - القرن السابع			
١٠٢٧	سلاة التشار (١٠٢٧ - ٢٠٠٦) الانتاج (?) الادي الاذل		
٩٦٦(?) - ٩٥٩(?)			
بعد ٩٣٥ (?)			
من القرن التاسع - القرن السابع			

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٧٠٠ -- ٩٠٠				
حوالي ٨٠٠				
القرن الثامن				نبوءات عافوس واشمب
٧٧٦				
٧٧١				
منتصف القرن الثامن - آخر القرن السادس				
النصف الثاني من القرن الثامن				
٧٤٧		اعتاد الحلقة المكونة من ١٩ عاماً للتقويم البابلي		
٧٢١ - ٧٠٥		حكم سرجون الثاني الاشوري		
٧١٥			ابتداء المملكة المادية	
٧١٠				سرجون الثاني الاشوري يقضي على دولة المبرانيين
آخر القرن الثامن				
القرن السابع				التنافس بين المصريين والبابليين في فلسطين . نبوءات ارميا .

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجي والعالم اليوناني
٩٠٠ - ٧٠٠			الأراني الحزفية الهندسية
حوالي ٨٠٠		امتداد المنصر الآري نحو الفانج. الاوليشاد الاساسية	
القرن الثامن			بدء جدول المنصرين في الالعاب الاولية
٧٧٦			
٧٧١	سقوط عاصمة التشار بيد برابرة الغرب . تأليف تقويم الربيع والخريف : بين ٧٧٢ و ٤٨١		
منتصف القرن الثامن - آخر القرن السادس			الاستعمار اليوناني . تأسيس كوم في كيانيا (٧٥٠) وسرقسطة (٧٣٣) وترنت (٧٠٨) وبيزنطية (٦٦٠) ومرسيليا (٦٠٠) ونكراتيس (بعد ٥٦٩) بقليل)
النصف الثاني من القرن الثامن			قصائد هوميروسية
٧٤٧			
٧٢١ - ٧٠٥			
٧١٥			
٧١٠			
آخر القرن الثامن			هسيود
القرن السابع			أدوات الفخار ذات الطابع الشرقي. ابتداء التقدي في اليونان

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاتانول
٦٨٥ ؟				ايام جيفس ، حكم سلالة المرماد في ليدية . ظهور التقودغري آسيا الصغرى
٦٧١	اسرحدوت الاشوري يخضع مصر السفلى			
٦٦٥	اشوربانيبال يخضع مصر العليا			
٦٦٨ - ٦٢٦		حكم اشوربانيبال		
٦٦٣ - ٦٢٥	السلالة السادسة والشرون الصاتية			
٦٤١			اشوربانيبال يستولي على سوزه ويدهرها	
٦٢٦ - ٥٣٩		الملكة البابلية الجديدة		
٦٢١				اصلاح عزيا الديني في مملكة يهوذا وكما تقول التوراة نشر سفر تثنية الاشتراع
٦١٤		الماديون يدسون اشور تحالف الماديين والبابليين ضد الاشوريين		
٦١٢		دمار نينوى على يد الماديين والبابليين		
٦٠٥ - ٥٦٢		ملك نبوخذ نصر في بابل		
القرن السادس يبدء القرن السابع				
القرن السادس				

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايبيري والعالم اليوناني
? ٦٨٥			
٦٧١			
٦٦٥			
٦٦٨ - ٦٢٦			
٦٦٣ - ٦٢٥			
٦٤١			
٦٢٦ - ٥٣٩			
٦٢١			(?) قوانين دراغون في اثينا
٦١٤			
٦١٢			
نهاية القرن السابع وبدء القرن السادس			سافو وألمني
٦٠٥ - ٥٦٢			
القرن السادس		التوسع الآري نحو الشرق والجنوب . زعامة مندعا	

بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران	بلاد كنعان و سوريا والاناضول	مصر	التواريخ
		استيلاء نبوخذ نصر على اورشليم		٥٩٧ ٥٩٤ (?)
		دمار الهيكل . « سي بابل » وثبوء حزقيال		٥٨٨
		الحرب ثم التحالف بين الماديين والبيديين		٥٨٥ ٥٦٦
		حكم كرسوس في ليديا		٥٦١ (?) - ٥١٠
	كورش ملك الفرس			٥٦٠ - ٥٤٦ (?) ٥٥٩ (?) - ٥٣٠
				٥٥٩ ٥٥٥ تقريباً (?) حوالي ٥٥٣ (?) ٥٥١ (?)
				التصف الثاني من القرن السادس
	العهد الفارسي			٥٤٩ - ٣٣٠
	إخضاع كورش لملكة الماديين			٥٤٩

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجي والعالم اليوناني
٥٩٧			
(?) ٥٩٤			قوانين صولون في اثينا
٥٨٨			
٥٨٥			٢٨ ايار : الكسوف الذي تلبأ به تاليس
٥٦٦			تأسيس اعياد بانثينا الكبرى
٥٦١ (?) - ٥١٠			حكم الظالم بسترات واولاده في اثينا
٥٦٠ - ٥٤٦ (?)			
٥٥٩ (?) - ٥٣٠		حكم كورش ، قاهر كيشا « كابل »	
٥٥٩		ميلاد بودا	
٥٥٥ تقريباً			ميكل ارتقيس في افسس
حوالي ٥٥٣ (?)		ابتداء حكم بيمبيارا	
٥٥١ (?)	ميلاد كونفوشيوس		
النصف الثاني من القرن السادس			روال عز الآلية الفخارية الكورنثية بعد خضوع آسيا الصغرى للفرس . هجرة رسال الفن والادب « كسنوفان » نحو اوربا
٥٤٩ - ٣٣٠			
٥٤٩			

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاتاضول
٥٤٦ (?)			استيلاء كوروش على آسيا الصغرى	
٥٤٠ (?)				
٥٣٩ - ٣٣١		السيادة الفارسية		
٥٣٩		كوروش يستولي على بابل		انتهاء سي بابل
٥٣٤				
٥٣٢ - ٥٢٢				
حوالي ٥٣٠			سنة ٥٣٠ موت كوروش أثناء حملة في الشمال الشرقي من إيران	
٥٣٠ - ٥٢٢			حكم قمبيز	
٥٢٥ - ٣٣٢	الحكم الفارسي			
٥٢٥	خضوع مصر للملك الفرس قمبيز			
٥٢٢ - ٤٨٦			حكم الملك داريوس الاول	
٥١٩ - ٥١٨	داريوس الاول في مصر - اصلاح القناة ما بين النيل والبحر الاحمر			
٥١٨			نقوش بيهستون	
٥٠٧				
آخر القرن السادس - بداية القرن الخامس			عملا باوامر داريوس رحلة سكيلكس	

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجي والعالم اليوناني
٥٤٦ (?)			
٥٤٠ (?)		ولادة جيتا مؤسس الديانة الجانية	
٣٣١ - ٥٣٩			
٥٣٩			
٥٣٤			ارل سباق دموي باثينا في اعياد ديونيسوس
٥٢٢ - ٥٣٢			طفيان بوليكوات في ساموس . ذعاب بيتاغور الى ايطاليا الجنوبية
حوالي ٥٣٠			الاراني الاول ذات الوجه الاحمر . توسيع هيكل هيكلومبيدون في اثينا
٥٢٢ - ٥٣٠			
٣٣٢ - ٥٢٥			
٥٢٥			
٤٨٦ - ٥٢٢			
٥١٨ - ٥١٩			
٥١٨		انتصارات داريوس في شمالي الهند	
٥٠٧			قوانين كليستين في اثينا
آخر القرن السادس - بدء القرن الخامس			لشاط هر كلت الادبي وهيكلته الميلي . تمثيلات اشيل الاول . قصائد بندار الاول

بلد كنعان وسوريا والآشور	بلد عيلام وایران (بلاد سوزه)	بلاد ما بين النهرين	مصر	التواريخ
				٤٩٠
	ملك كسرخوس الاول		ابتداء من سنة ٤٨٦ ثورة مصر على الفرس	٤٨٦ - ٤٦٥
				حوالي ٤٩١ او ٤٨٦ (?)
				٤٨٣
				٤٨١
				٤٨٠
				٤٧٩
				٤٧٨ (?)
				٤٧٧
				٤٧٤
				حوالي ٤٧٠
				٤٦٨
				٤٦٢

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايبسي والعالم اليوناني
٤٩٠			الحرب السادسة الاولى . هزيمة الفرس في ماراتون
٤٨٦ - ٤٦٥			
حوالي ٤٩١ أو ٤٨٦ (?)		بدء حكم اجاشترو	
٤٨٣			ثينا تبتدى ببناء اسطول حربي عظيم
٤٨١	الملك المتحاربة (٤٨١-٢٢١)		
٤٨٠	حياة الفيلسوف مودسو (سنة ٤٨٠ - ٤٠٠) تقريباً		الحرب المادية الثانية . انكسار الفرس في سلامين . وفي هذا اليوم انتصار حاكم سرقسطة على الفرطاحيين في هيار
٤٧٩	موت كونفوشيوس (?)		معركة بلاتيه التي تطرد الفرس من اليونان . معركة ميكال التي تخرد يوناني آسيا من حكم الفرس
٤٧٨ (?)		موت (زفانا) يونا	
٤٧٧			تأسيس حلف ديلوس الذي يهدو مستعمرة لاينا بسبب الحرب ضد الفرس ثم ضد سبرطة
٤٧٤			انتصار حاكم سرقسطة على الاثروسك في كوم
حوالي ٤٧٠			مولد سقراط
٤٦٨		موت جينا (?)	تفوق سوفوكل على ايشيل في المسرح التمثيلي
٤٦٢			اصلاحات افيالتي الديموقراطية في اثينا . باغتسال افيالتي بعد مدة وجيزة يصبح بركليس زعيم الحركة الديموقراطية . بدء حرب اثينا ضد سبرطة

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و ایران (بلاد سوزه)	بلاد کنعان و سوريا والاناضول
حوالي ٤٦٠				
٤٥٦				
٤٥١				
بعد ٤٥٠ بقليل				
٤٤٨				
٤٧٤				
٤٤٦ (?)				
٤٤٣				
٤٤٠				
٤٣١				
٤٢٩				
٤٢٧				
٤٢٣				
٤٢١ - ٤١٣				
٤١٥ - ٤١٣				
٤٠٦				
٤٠٠ - ٣٦٧				

التواريخ	الصين	المهند	العالم الايجي والعالم اليوناني
حوالي ٤٦٠			تأسيس المسابقات التمثيلية الهزلية في اثينا
٤٥٦			اولى مسرحيات اوربيدوس
٤٥١			قانون حقوق المواطن في اثينا
بعد ٤٥٠: بقليل			الصلح بين اثينا والفرس ثم بينها وبين سيرطة
٤٤٨			تمثال زفس بيد فيدياس في اولمبيا
٤٧٤			بدء اعمال الاكروبول في اثينا . تشييد البارثونون (٤٤٧ - ٤٣٨) والاركسيون (٤٣٥ - ٤٠٧) ويهيكل اثينا المنتصرة (بدء الاعمال به سنة ٤٢٠)
٤٤٦ (?)			ميرودوس يقم في اثينا
٤٤٣			بعد نفي زعيم المعارضة ، بركليس يتصرف بضرائب الامبراطورية لإقامة الاعمال العظيمة التي يشرها ويفقدو سيد اثينا . ويماد انتخابه زعيماً لمدة ١٤ سنة دون انقطاع
٤٤٠	انقسام التشار		
٤٣٦			بدء حروب البويونيز بين اثينا وسيرطة وخلفاء كل منها
٤٢٩			موت بركليس
٤٢٧			مسرحية ارستوفان الهزلية الاولى . اقامة الاديب جورجياس في اثينا
٤٢٣			نفي ترمسيديد الذي يقم في تراقيا وينهي فيها تأليف كتابه تاريخ حروب البويونيز
٤٢١ - ٤١٣			توقف القتال رسمياً بين اثينا وسيرطة
٤١٥ - ٤١٣			غزوة اثينا لصقلية التي تلتها بانكسارها امام سرقسطة
٤٠٦			موت سوفوكل واوربيدوس
٤٠٥ - ٣٦٧			طغيانا دنديس الفدح في سرقسطة وهو بحالة حرب مع قرطاجنة . افلاطون يسافر حراراً الى سرقسطة

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران بلاد (سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٤٠٤				
٣٧١ - ٤٠٤				
٤٠٣ - ٤٠٤				
انتهاء القرن الخامس وبده القرن الرابع			كتيسياس اليوناني طبيب في بلاد فارس	
أثناء القرن الرابع				ثورات المرازية المتعددة ضد ملك الفرس في آسيا الصفرى وفي سوريا
٤٠٠ - ٤٠١		غزوة العشرة آلاف		
٣٩٩				
٣٩٤				
٣٨٧				
٣٨٠				
٣٥٣ - ٣٧٧				موت موزول حكرزيان كارويه بعد موته تشييد قبره في هلكرناس
٣٧٧				
٣٧١				
٣٦٧		تقرير التتويج البابلي		
٣٥٩				
٣٥٤				

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجي والعالم اليوناني
٤٠٤			بعد انكسار اغوس بوموس زوال امبراطورية اثينا واستلام اثينا
٣٧١ - ٤٠٤			سيادة سبرطة في اليونان
٤٠٣ - ٤٠٤			اوليفرشية الثلاثين ثم اعادة الديموقراطية الى اثينا
انتهاء القرن الخامس وبدء القرن الرابع		كتاب القواعد بانيني	
أثناء القرن الرابع		بدء تنظيم مهاباراتا	
٤٠١ - ٤٠٠			
٣٩٩			عماكة وموت سقراط
٣٩٤			سبرطة تتخلى عن يوناني آسيا فيخضعون للفرس
٣٨٧			تأسيس الاكاديمية على يد افلاطون
٣٨٠			تأبين ايزوكرات
٣٧٧ - ٣٥٣			
٣٧٧			تأسيس الحلف الاثيني الثاني
٣٧١			انكسار جيش سبرطة في لوكترا على يد ايمينونداس الذي يبقى حتى سنة ٣٦٢ السيادة في اليونان لطيبة
٣٦٧			
٣٥٩			بدء حكم فيلبس في مقدونيا . لشوب الحرب مع اثينا (وبعد هدنة من ٣٤٦ - ٣٤٠) التي ستدوم حتى ٣٣٨
٣٥٤			ارل دفاع لديوستينوس أمام مجلس الشعب في اثينا

بلاد ما بين النهرين	مصر	التواريخ
بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزه)		حوالي ٣٥٠ ٣٤٣ ٣٣٨ ٣٣٦
بلاد كنعان وسوريا والاتاضول		٣٣٤ - ٣٢٣
سنة ٣٣٤ - ٣٣٣ تزول ذي القرنين الى آسيا الصغرى . انتصاره على الفراتيق. خادثة العقدة الغوردية . بعد انتصاره في ايسوس في كيليكيا ٣٣٣ يعود الى سوريا . ٣٣٢ الاسكندر يحاصر صور ويستولي عليها .	سنة ٣٣٢ - ٣٣٠ الدور اليوناني . سنة ٣٣٢ وصول ذي القرنين الى مصر . سنة ٣٣١ تأسيس الاسكندرية	٣٢٥
سنة ٣٣١ - ١٢٩ السيادة اليونانية . سنة ٣٣١ انتصار ذي القرنين على داروس الثالث في اربيل . دخول ذي القرنين الى بابل		٣٢٤
يخترق ذو القرنين إيران الجنوبية من الشرق الى الغرب . أمير مجريته تبارك يمارس مجرى الهندوس على الخليج الفارسي		٣٢٣
حفلة الزواج في سوزه	بظلموس حاكم مصر	٣٢٢
بعد سنة ٣٢٣ صراع قواد ذي القرنين	موت ذي القرنين في بابل	حوالي ٣٢٢ ٣٢١
	سلوقس حاكم بابل	٣١٢ - ٣١٢ (?) ٣١٠
استيلاء سلوقس على إيران . إبرامه تحالفاً مع الملك الهندي شندراغوبتا		٣١٠ - ٣٠٦

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجي والعالم اليوناني
حوالي ٣٥٠	حياة منشيوس (مونج - تسيو)		
٣٤٣			ارسطو يصبح معلم الاسكندر الذي بلغ الثالثة عشرة
٣٣٨			انتصار فيلبس في كرونه
٣٣٦			اغتيال فيلبس ، بدء حكم الاسكندر
٣٣٤ - ٣٣٣			سنة ٣٣٤ . ارسطو يستقر في اثينا وينشئ الأكاديمية
٣٢٥		سنة ٣٢٦ - ٣٢٥ غزوة ذي القرنين حتى ضفاف الهندوس	
٣٢٤			
٣٢٣			سنة ٣٢٣ - ٣٢٢ بعد موت ذي القرنين ثورة اليونان على مقدونيا ، قمع الثورة ، ديوسلتيوس يجوع السم
حوالي ٣٢٢		سلالة الموريا (٣٢٢ - ١٧٦)	
٣٢١			اول تمثيلية هزلية لميناندر
٣١٢ - ٣١٢ (?)		بدء حكم شندراغوبتا	
٣١٠	بدء تأسيس مملكة تسين		
٣٠٦ - ٣٠٠			

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وأيران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاتامبول
٣٠٦	يتخذ بطليموس لقب الملك	سلوقس يتخذ لقب ملك		
٣٠١				اتفاق يترك سوريا الجنوبية (سوريا الجوفى) الى بطليموس الاول ملك مصر
نهاية القرن الرابع وبدء القرن الثالث	تأسيس متحف ومكتبة الاسكندرية . مانتون الكاهن المصري يكتب تاريخ مصر الفرعونية ويمجد تعاقب السلالات	السكاهن الكلداني بيروسوس يؤلف تاريخ بلاد ما بين النهرين		يوطد بطليموس الاول حكمها المباشر او حاجتها على جميع شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية
٣٠٠ - ٢٣٠				
٢٨٧ - ٢١٢				
٢٨٥ (?) - ٢٤٦	حكم بطليموس الثاني . في بدء عهد هذا الحكم تشييد منارة الاسكندرية على يد المهندس سوستراتوس			
٢٨١				سلوقس الاول يخضع معظم أجزاء آسيا الصغرى ولكن السلطة على يرغام تبقى الى الملك الاول الاتليدي
٢٧٩ - ٢٧٨				
حوالي ٢٧٥				

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجيبي والعالم اليوناني
٣٠٦			
٣٠١			
نهاية القرن الرابع وبدء القرن الثالث			في أواخر القرن الرابع يتخذ بعض قواد الاسكندر لقب ملك. ازدهار رودس الاقتصادي وهي من سنة ٣٠٥ الى سنة ٣٠٤ تدافع ضد حصار مريم. يؤسس ابيكوروس وزينون مدرستها في اثينا. في بدء القرن الثالث يسيطر بطليموس الاول على بحر ايجه
٣٣٠ - ٣٠٠	سيون كوانخ	فسارة ميغستين في باتليرا (حوالي سنة ٣٠٠)	
٢١٢ - ٢٨٧			حياة ارخيدس
٢٨٥ (?) - ٢٤٦			
٢٨١			
٢٧٨ - ٢٧٩			
حوالي ٢٧٥			غزو السلتيين لمقدونيا حتى دلف. تثبيت العالم الهليني مع الممالك الثلاث : اللاجيبوت في مصر والساروقيون في آسيا والاقثيفونيد في مقدونيا. يحكم برغام ملك القلندي. وفي اليونان يتقوى الحلف الايتولي. أما الحلف الآخي الذي ألف منذ زمن قصير ، يتهدى بالازدهار في البونونيز

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران	بلاد كنعان وسوريا والناضول
٢٧٥ - ١٩٤				
القرن الثالث				تتيزاً مملكة السوقيين في آسيا الصغرى حيث يستقر الفلطيون وحيث يفوز بالاستقلال التام ملوك بيلينيا و كبادوكيا والبتس و برغام . وفي هذه المدينة يتخذ انوس الأول لقب ملك حوالي سنة ٢٤٠ . وبعد حروب طويلة «حروب سوريا» يمجز الملوك السوقيون عن استرجاع سوريا المجرقة من ملوك مصر الإحيين
٢٦٤ - ٢٦١ (?)				
٢٥٩				
٢٥٠ (?)			ابتداء من سنة ٢٥٠ بده حكم سلالة البرثين الارساسيد	
٢٤٦				
حوالي ٢٤٥				
٢٢٧ - ٢٢٦ (?)				
٢٢٣				ملك انطيوخس الثالث الذي سيميد عز السوقيين في آسيا الصغرى ويستولي على سوريا المجرقة منتصراً على بطليموس الخامس ويفقد هذا الاخير آخر الماقل المصرية في آسيا الصغرى
٢٢٢				
٢٢١				
٢١٣				

العالم الايبجيو والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
حياة ارتوستين			٢٧٥ - ١٩٤
	بدء تقرير الراماينا	تأليف فار - توكتنغ، مؤلف بيت الى الخرافة	القرن الثالث
	استيلاء اشوكا على العرش		٢٦٤ - ٢٦١ (?)
		مولد تشنغ (الذي سيصبح تسن - شه - هوانغ - تي)	٢٥٩
	اعتناق اشوكا البوذية . تصبح البكتريان مستقلة مع اليوناني ديودوت الاول		٢٥٠ (?)
		بدء حكم تسن - شه - هوانغ - تي (٢٤٦ - ٢١٠). البدء ببناء السور الكبير	٢٤٦
	تأسيس الكنيسة البوذية في سيلان		حوالي ٢٤٥
سنة ٢٢٧ اصلاحات الملك كليومين في سرطة	موت اشوكا		٢٢٧ - ٢٢٦ (?)
آخر القرن الثالث : انحطاط السلطة اللاجية التي لن يحسب لها حساب في اليونان وبجر ايمه			٢٢٣
			...
			...
الملك المقدوني يسحق كليومين في سلازيا			٢٢٢
		سلالة التسن (٢٢١ - ٢٠٧)	٢٢١
		حرق الكتب الكلاسيكية	٢١٣

بلد كنعان وسوريا والاناطول	بلاد ما بين النهرين	مصر	التواريخ
	غزوة انطيوخس الثالث الى الشرق		٢١٢ - ٢٠٥
			٢٠٦
			٢٠٧ - ١٩٢
		نقل التوراة العبرية الى اليونانية في الاسكندرية	انتهاء القرن الثالث وابدء القرن الثاني
			القرن الثاني
			٢٠٠ - ١٩٦
			النصف الأول من القرن الثاني
سنة ١٨٩ الرومان يتصرفون على انطيوخس الثالث في منفزيا . معاهدة ايمه (١٨٨) تفقد السلوقيين آسيا الصغرى ويعود قسمها الأكبر الى الاتليد.			١٩٢ - ١٩٨
			١٨٩
	موت انطيوخس الثالث في شرق ايران سنة ١٨٧ .		١٨٧
	انتهاء السيادة السلوقية على ايران . استقرار البرثيين واستقلال مملكة بكتريان اليونانية		
قبل سنة ١٧٦ بقليل يسمى هليودور . وزير سلوقس الرابع للاستيلاء على كنوز هيكل اورشليم			١٧٦

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
الحرب المقدونية الاولى بين روما و فيليبس الخامس. تعقد روما معاهدات مع العالم اليوناني وترسل سفنًا الى بحر ايجه			٢١٢ - ٢٠٥
		سلالة الهان (٢٠٦ ق.م - ٢٢٠ بعده)	٢٠٦
حكومة تايبس الثورية في سبرطة			٢٠٧ - ١٩٢
			انتهاء القرن الثالث وبيده القرن الثاني
	قوانين باي . اول ذكر لطريق الحرير	قوانين شه - كينغ	القرن الثاني
حرب مقدونيا الثانية. انتصار فيليبوس الروماني على فيليبس الخامس في كنفاليس (١٩٧) . السلم يطرد مقدونيا من اليونان			٢٠٠ - ١٩٦
بناء مذبح زفس العظيم في برغام			النصف الأول من القرن الثاني
الحروب السورية الاتلسدية . روما تنتصر على انطيوخس الثالث في ترموبيل (١٩٢) وتسيطر نفوذها على الحلف الاقليمي. سلطة الحلف الآخشي على جميع أجزاء البلوينيز وذلك بمساعدة روما			١٩٢ - ١٩٨
	غزوة ديتروس البنجاب		١٨٩
			١٨٧
	بيده حكم شنغا (١٧٦ - ٢٦٤?)		١٧٦

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاتاحول
١٧٢ - ١٦٨				
١٧٤ - ١٦٤				حكم انطيوخس الرابع
١٦٩				انطيوخس الرابع يتبع سياسة هلينية في فلسطين . ثورة المكابيين
١٦٨				
١٦٧				
بعد ١٦٤				الانحطاط والفوضى المتزايدتان في المملكة السلوقية أثر صراع السلالات الحاكمة . وتقدم البرثيين وانتصارات اليهود الذين تعضدوموما سياسياً
١٤٨				
١٤٦				
١٤٥				
١٤٠				
١٣٣				موت أثاروس الثالث الذي يهب كنوزه الى الشعب الروماني
حوالي ١٣٠				

التواريخ	الصين	المسند	العالم الايجي والعالم اليوناني
١٧٢ - ١٦٨		اركراتيدس ينتزع بكثريان من ديمتريوس	الحرب المقدونية الثالثة تشنها روما على الملك برسيه ؛ سنة ١٦٨ يول - اميل يسحق برسيه في يديه
١٧٤ - ١٦٤			
١٦٩			
١٦٨		ميناندر في البنجاب (مات حوالي سنة ١٥٠ - ١٤٥) . تصل غزواته الى بانجلترا	
١٦٧			القضاء على مملكة مقدونيا . الرومان يفتلون باليونان عقوبات صارمة . نفي بوليب وآخرون الى ايطاليا . تعطي ديولوس الى اثينا ولكنها تبقى ميناء حراً . ازدهار ديولوس الاقتصادي التي تصبح سوق التجارة الايطالية في الشرق
بعد ١٦٤			
١٤٨			بعد القضاء على ثورة قامت في مقدونيا اخضاع البلاد وجعلها مقاطعة رومانية . يراقب حاكمها بلاد اليونان
١٤٦			بعد حرب قصيرة مع الحلف الاخي يدرس الرومان كورنتيا
١٤٥	حياة المؤرخ سه مانتس (١٤٥ - ٨٦)		
١٤٠	حكم رو (١٤٠ - ٨٧) اتساع الفتوحات نحو تركستان الصينية		
١٣٣			
حوالي ١٣٠		يصل اليو - تشه الى بكثريان ويخضموها	

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران	بلاد كنعان وسوريا والاتناشول
١٢٩		انقراض السيادة السارقية: يستولي البرثيون على بابل بدلاً من اليونان		
١٢٦				بعد ان سحقت روما ثورة ارستونيكوس تأخذ على عاتقها تنظيم مقاطعة آسيا
حوالي ١١٤				
١١٢				ميتريدات ملك البنطس . سنة ١٠٧ يستولي على مملكة البوسفور البحرية (مضيق كرتش في القرم)
١٠٤				ياخذ كاهن اورشليم الاكبر ارستبولوس لقب ملك
حوالي ١٠٠				
القرن الأول				
٨٨				
٨٨ - ٦٤				من سنة ٨٨ - سنة ٨٤ حروب روما ضد ميتريدات
ابتداء من ٨٠				
٧٣				
٧٠				
٦٤				يومي في سوريا

العالم الالبي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			١٢٦
			١٢٦
		علاقات سياسية مع بكتريان	حوالي ١١٤
			١١٢
			١٠٤
	عمود هليودوروس في فيديشا		حوالي ١٠٠
	قوانين ماو		القرن الأول
			٨٨
			٦٤ - ٨٨
			ابتداء من ٨٠
	يهبط الشاكا نحو البنجاب ومالفا		٧٣
		حكم سيونتي (٧٣-٤٩) قترحات جديدة نحو الغرب	
	بدء حكم الاندهرا في الجنوب. انتهاء ستوبا سانشي الاولى		٧٠
	بدء حكم الكانفا (٦٤-٥٠?)		٦٤

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاتاضول
٦٣				استيلاء يرمي على اورشليم . يمسك يرمي تنظيم الشرق . ويغلق مقاطعتي سوريا وبيتقينا الرومانيتين . وينشئ على طول الفرات الوسط سلسلة من الدولات التابعة ضد البرثيين
٥٣		يتنصر البرثيون على كرسوس في كار و يقتلونه		
٤٨	مقتل يرمي أمام بلوزه . وصول قيصر الى الاسكندرية . يده حرب الاسكندرية التي تحرق في اثنائها مكتبة الاسكندرية			
٤٧	موت بطليموس الرابع عشر شقيقين كليوباتره			
٤٢				
٣١				
٣٠	موت كليوباتره . مصر تصبح رومانية			

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجي والعالم اليوناني
٦٣			
٥٣			
٤٨			
٤٧			
٤٢			انتصار انطونيوس واغسطس على الجمهوريين في فيليبس في مقدونيا
٣١			انتصار اغسطس على انطونيوس وكليوباتره في اكيوم في الابير
٣٠		حوالي سنة ٣٠ بدء حكم الكوشانا في الشمال	

جدول الاعلام

- 1 -

١١٤ ، ١٣١ ، ٢٦٩ .
 هاتيس : ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٤٩٣ .
 اتيك : ٢٣٥ ، ٢٧٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٦٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ،
 ٤٠٧ ، ٤٠٨ .
 أثينا (الإله) : ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ،
 ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٤ .
 أثينا - الاثينيون : ٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٦٢ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
 ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
 ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،
 ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،
 ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ،
 ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،
 ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ،
 ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،
 ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ،
 ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ،
 ٤١١ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ،
 ٤٦٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ،
 ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ،
 ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢١ ،
 ٥٢٤ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٦ .
 اثيوبية - الاثيوبيون : ٢٢٧ ، ٣٩ .
 اجانثترو : ٥٥٤ .

ابراهيم : ١٤٨ ، ١٦٦ .
 ايساراس : ٥٦٩ .
 ايسرا : ٦٢٤ .
 ابقراط : ٢٣٠ ، ٢٣٩ ، ٥٤٠ .
 ابن خلدون : ١١ ، ١٢ .
 أبو سليل : ١١٨ .
 ابولوت : ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٣٤ ، ٢٩٤ ،
 ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ،
 ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧١ ، ٣٨٧ ، ٤١٧ ، ٤٤٧ ،
 ٤٧٣ ، ٤٨٩ ، ٤٩٨ .
 ابولونيد : ٢٣٠ .
 ابولونيوس : ٥١٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ .
 ابيخارموس : ٣٩٦ ، ٣٩٨ .
 ابيدوس : ١٠٤ ، ١٠٧ .
 ابيدورس : ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٨ ، ٤٩٣ .
 ابير : ٤١٤ ، ٤٤٧ ، ٥٢٣ ، ٦١٠ .
 ابيس : ٨٧ ، ٨٨ ، ٤٩٥ .
 ابيقور : ٣٨٥ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ .
 ابييل : ٣٧٨ ، ٥٠٧ .
 ابييل - ايل : ١٩٥ .
 اطرغائيس : ٢٦٤ .
 اتوريا الاتروسكيون : ٣٠٧ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ ،
 ٣٣٠ .
 اتان : ٥٦٩ .
 اتوم : ٩٤ .
 اتون : ٥٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١١ .

ارغوس : ٢٣٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٥ ، ٣٩٦ ، ٤٥٣ .
 ارغوليد : ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٣٧١ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ، ٤٩٣ .
 ارميا : ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ .
 ارميتاج : ٣٨٠ .
 ارمينيا : ١٥٧ ، ٤٢١ ، ٤٧٧ ، ٥٣٩ .
 ارتيوسا : ٣٨١ .
 اريدو : ١٦٧ .
 اريستيبوس : ٣٨٥ .
 اريستيدس : ٢٩٢ .
 ارينا : ٢٠٦ .
 آريون : ٢١٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ .
 ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ .
 اسانا : ٥٤٨ .
 اسباميا : ٣٣٨ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ .
 اسبانيا : ٢٥٩ ، ٣١٣ .
 استير : ٢١٩ .
 اسرائيل : ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ .
 اسرائيل (ملكة) : ٢٦٧ ، ٢٧١ .
 اسثيل : ٣١١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ .
 اسشين : ٤٠١ .
 اسكليبيوس : ٣٧١ ، ٣٨٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٥١٧ ، ٥٣٠ .
 الاسكندر الكبير : ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٩ ، ٧١ ، ١٢٦ ، ١٣٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٠ ، ٢٥٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٩٧ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

اخشوروش : ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٣٠ .
 احيرام : ٢٦٠ ، ٢٦١ .
 اختاتون : ٩٨ .
 الاخمينيون : ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٦٤ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٧ ، ٦٠٧ .
 اختاتون : ٥٠ ، ٦٥ ، ٧٩ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٨ .
 الاخيون : ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٤٠٩ .
 ادفو : ٨٩ ، ٤٨٦ .
 ادونييس : ١٦١ ، ٢٠٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٣٦٦ .
 اراتاكسا : ٥٣٩ .
 اراتوس : ٥٢٣ ، ٥٣٦ .
 الاراميون : ١٥٨ ، ١٧٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ .
 اربيل : ١٦٦ .
 ارمجشستا : ٢٢١ .
 ارميس : ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٤٨٩ .
 ارجينوز (جزر) : ٣٦٢ .
 ارجيه (جبل) : ١٥٨ .
 ارخيدس : ٥١٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠ .
 ارخيناس : ٣٨٨ .
 الاردن : ٢٦٦ .
 ارزو : ٦٠٦ .
 الارساميون : ٤٠٥ ، ٤٧٧ .
 ارسطارخوس : ٥٢٠ ، ٥٢٩ ، ٥٣٢ .
 ارسطو : ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤٠٤ ، ٤١٠ ، ٤٩٢ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ .
 ارسطوبولوس : ٤٨٨ .
 ارسطوقانوس : ٣٤٤ ، ٤٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٨٣ ، ٣٩٧ ، ٥٣٩ .
 ارسينوي : ٤١٩ ، ٥١٤ ، ٥٣٧ .

٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ،
 ٥٠٨ ، ٥١٣ ، ٥٢٩ ، ٥٤٢ .
 الاسيانيون : ٤٧١ .
 اسين : ١٥١ .
 اشتار : ١٤٠ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٤ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ .
 اشعيا : ٢٧٣ ، ٢٧٥ .
 اشونافا : ١٥١ ، ١٧٩ ، ١٩٠ .
 اشور : ٤٠ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ،
 ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
 ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٦٤ .
 ٢٦٨ .
 اشوربانيبال : ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ،
 ١٦٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٩٧ .
 اشورناسيرابلي : ١٤٠ .
 اشورية - الاشوريون : ٣٩ ، ١٣٧ ،
 ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ،
 ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
 ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٨ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٣ .
 اشوكا : ٥١١ ، ٥٥٠ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ،
 ٦٠٨ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٢١ ، ٦٢٣ ،
 ٦٢٧ ، ٦٣٠ .
 اشيل : ٢٩٩ .
 اطلال : ٤١٣ ، ٥٠٦ .
 الاطاليون : ٤١٣ ، ٤٢٤ ، ٤٣١ ،
 ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٧٩ ، ٤٩٠ ، ٥٠٥ ،
 ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٣٢ .
 اغاجمنون : ٢٤٨ ، ٣٩٦ .
 الاغريق : ١٥ ، ٤٠ ، ٥٢ ، ٦٣ ، ٧٢ ،
 ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٩٤ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٦ ،
 ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢

٤٤١ ، ٤٤٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ،
 ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ،
 ٤٨٦ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٣ ،
 ٥٠٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥١٣ ،
 ٥١٤ ، ٥٢٣ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٣ ، ٥٤٢ ،
 ٥٥٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ ،
 الاسكندرية - الاسكندريون : ٤٥ ،
 ٧١ ، ٢٥٨ ، ٣٥١ ، ٤١٧ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ،
 ٤٣٠ ، ٤٤٢ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٦ ،
 ٤٦٧ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٨٤ ، ٤٨٩ ،
 ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٦ ،
 ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ،
 ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ،
 ٥٣٠ ، ٥٣٨ .
 الاسكندرية خاركس : ٤٦١ .
 اسوان : ٥٢٨ .
 اسورا : ٥٦٩ ، ٦٢٤ .
 آسيا : ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٠ ، ٦١ ،
 ٨١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١٧٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ،
 ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٣٦ ،
 ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٧ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ،
 ٤٤٥ ، ٤٥١ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ، ٤٧٠ ،
 ٤٧٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ،
 ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٤٩٣ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥١٥ ، ٥١٥ ،
 ٥٣٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٥٢ ، ٥٧٩ ،
 ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١١ ،
 ٦٦٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٢ .
 آسيا الصغرى : ٢٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
 ١٧٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
 ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٠ ،
 ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٤٠٨ ،
 ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٦ ،
 ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٧٠

٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٠٠ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ،
 . ٥٣٣
 افينوس : ٤٣٠ .
 افيميروس : ٤٩٢ ، ٥٣٦ .
 الاقصر : ١١٥ .
 اكداد (اغاده) الاكثاديون : ١٣٦ ،
 ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٦٣ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢٢٠ .
 اكلديوس : ٣٨٥ .
 اكينانا : ٢٢٠ ، ٤٨٦ ، ٦١٢ .
 اكني : ٣٥٤ ، ٣٥٥ .
 الالائي : ٢٥ ، ٦٣١ .
 ألتيس : ٣٧١ ، ٣٧٣ .
 الهه (القيا) : ١٤٥ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠ .
 القسيس : ٢٩٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ،
 ٣٩٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ .
 القبيادس : ٢٦٢ ، ٣٦٣ ، ٤١٢ .
 القينودس : ٣٥٧ .
 الكمان : ٢١٢ .
 الالباذة : ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٩٩ .
 اليان ريعل : ٢٦٠ .
 امازون : ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٥٠٦ .
 امانوس : ٢٦٢ .
 امبراسيا : ٥٠٣ .
 اميندوكليس : ٣٨٢ .
 امحوتب : ٩١ .
 امنحوتب : ٩١ ، ٥٣٠ .
 امنمحت : ٩٥ .
 امنوقيس : الثاني ١٢٠ - الثالث ٦٤ ،
 ٩١ ، ٩٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ - الرابع : ٥١ ،
 ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٩ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ،
 ١١١ ، ١٢٨ ، ٢٦٩ .
 امورو : ١٣٧ .
 امون : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
 ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
 ٣٦٦ .

٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،
 ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،
 ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ،
 ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٨ ،
 ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٨ ،
 ٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ،
 ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،
 ٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،
 ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ،
 ٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،
 ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ،
 ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ،
 ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ ،
 ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ،
 ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٠ ، ٥٠٦ ، ٥١٠ ، ٥١١ ،
 ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥٢٠ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ،
 ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٤٢ .
 اغني : ٥٦٩ ، ٦٢٤ .
 اغيس : ٤٥٣ .
 افانتي : ٥٥٣ .
 افاميا : ٤٧١ .
 افتارا : ٦٢٤ .
 افتيخيداس : ٤٩٢ ، ٥٠٥ .
 افدوكسس : ٣٨٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٧ .
 افروديت : ٢٩٤ ، ٣١٠ ، ٣٧٤ ، ٤٣١ ،
 ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ .
 افريقيا : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٥٩ ،
 ٣٤٣ ، ٤٦٠ .
 افستا : ٥٦٩ .
 افسس : ٣٠٣ ، ٤٢٨ ، ٤٦١ .
 افغانستار : ٢٢٣ ، ٥٠٨ ، ٦٠٦ ،
 ٦٣١ ، ٦٣٢ .
 الافلاسيون : ٤٧٧ .
 افلاطون : ١٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤١ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٣٥٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ،

۱۶۲ ، ۱۶۳ ، ۱۶۶ ، ۱۷۹ ، ۱۸۸ ، ۲۶۴ ،
 اورویا : ۱۷ ، ۲۰ ، ۲۴ ، ۲۵ ، ۲۶ ،
 ۱۷۸ ، ۱۸۵ ، ۲۰۷ ، ۲۱۴ ، ۲۱۷ ، ۲۴۳ ،
 ۲۵۳ ، ۲۶۴ ، ۲۸۵ ، ۲۸۶ ، ۴۲۹ ، ۵۰۰ ،
 ۵۱۵ ، ۵۲۷ ، ۵۴۶ ، ۵۴۷ ، ۶۰۵ ،
 اورستس : ۳۹۵ ،
 اورشلیم : ۲۲۴ ، ۲۶۶ ، ۲۶۷ ، ۲۶۸ ،
 ۲۷۰ ، ۲۷۱ ، ۲۷۳ ، ۴۳۳ ، ۴۸۸ ،
 اورغنا : ۶۰۶ ،
 اورغیوس : ۲۹۷ ،
 اورغوزد : ۲۱۷ ، ۲۱۸ ، ۲۲۵ ، ۲۲۶ ،
 ۲۲۷ ، ۲۲۸ ،
 اور — نامو : ۱۷۹ ،
 اوروک : ۱۳۷ ، ۱۶۳ ، ۱۶۶ ، ۱۶۷ ،
 ۱۶۸ ، ۱۷۱ ، ۱۷۵ ، ۴۷۹ ، ۴۸۷ ، ۴۹۶ ،
 اوریبید : ۳۱۴ ، ۳۴۲ ، ۳۵۷ ، ۳۹۶ ،
 ۳۹۷ ، ۳۹۸ ، ۴۷۷ ، ۴۸۳ ، ۵۳۹ ،
 اوزرئیس : ۴۶ ، ۷۳ ، ۹۱ ، ۹۲ ، ۹۳ ،
 ۹۴ ، ۹۵ ، ۱۰۱ ، ۱۰۳ ، ۱۰۴ ، ۱۰۶ ،
 ۱۰۷ ، ۱۰۸ ، ۱۱۴ ، ۱۲۱ ، ۴۹۳ ، ۴۹۵ ،
 اوزورابیس : ۴۹۵ ،
 اوستراليا : ۱۹ ،
 اوغاریت : ۲۴۲ ، ۲۵۱ ، ۲۵۶ ، ۲۵۸ ،
 ۲۶۰ ، ۲۶۱ ،
 اوغسطس : ۱۸۹ ، ۵۳۶ ،
 اوفید : ۵۳۶ ،
 اوقیانیا : ۱۹ ،
 اوکرائیا : ۵۸۰ ،
 اوکسیر (سیئدة) : ۳۰۶ ،
 اوکلیدس : ۵۳۰ ،
 اوکوس (نهر) : ۶۰۶ ،
 الالمب : ۴۸۹ ،
 اولمیا (مدینة) : ۲۹۶ ، ۳۰۸ ،
 ۳۲۲ ، ۳۲۴ ، ۳۴۷ ، ۳۶۳ ، ۳۶۴ ، ۳۷۱ ،
 ۳۷۳ ، ۳۷۶ ، ۴۸۹ ، ۵۰۳ ،
 اولمیا (والده الاسکندر) : ۴۱۹ ،

الاناضول : ۲۰۴ ،
 اناکاغور : ۳۶۱ ، ۳۸۱ ، ۳۸۲ ، ۳۸۸ ،
 اناکسیمندروس : ۳۰۱ ،
 اناکسیمینوس : ۳۰۱ ،
 انام : ۶۳۱ ، ۶۳۲ ،
 انتوم : ۱۶۵ ،
 انقیالکیداس : ۶۱۱ ،
 انٹیرووس : ۴۶۰ ،
 انتیستین : ۳۸۷ ،
 انتیفون : ۳۹۶ ،
 انتیفونوس : ۵۱۰ ، ۵۱۱ ، ۵۲۳ ، ۵۳۴ ،
 الاتیفونیون : ۴۱۳ ، ۴۲۵ ، ۴۲۷ ،
 اندرا : ۵۶۹ ، ۶۱۷ ، ۶۲۴ ،
 اندھرا : ۶۰۷ ، ۶۰۹ ، ۶۱۰ ، ۶۱۱ ،
 اندونیشیا : ۵۴۵ ،
 انطاکیة : ۴۲۴ ، ۴۶۱ ، ۴۷۱ ، ۴۷۲ ،
 ۴۷۳ ، ۴۸۴ ، ۴۸۸ ، ۴۹۳ ، ۵۰۵ ، ۵۰۷ ،
 ۵۱۹ ،
 انطونیوس : ۵۱۹ ،
 انطونیوس : ۴۱۹ ، ۴۷۰ ، ۴۷۱ ،
 ۴۷۱ ، ۴۷۸ ، ۴۷۹ ، ۴۸۶ ، ۴۸۸ ، ۵۰۹ ،
 ۵۱۰ ، ۵۱۱ ،
 انقره : ۲۰۹ ،
 انلیل : ۱۶۶ ، ۱۶۷ ، ۱۶۸ ، ۱۸۵ ،
 انہیتا : ۲۰۷ ، ۲۲۵ ،
 اهورا : ۵۶۹ ،
 ائو : ۱۶۵ ، ۱۶۶ ، ۱۶۷ ،
 انویس : ۴۹۵ ،
 اهریمان : ۲۲۵ ،
 اوبیشاد : ۵۶۴ ، ۵۷۰ ، ۵۷۱ ، ۶۲۵ ،
 ۶۲۶ ،
 اوبیہ (جانین) : ۱۲ ،
 اوبیا : ۲۸۶ ، ۵۲۴ ،
 اُردہ : ۵۵۳ ، ۵۵۴ ،
 الاودیسیہ : ۷۱ ، ۱۷۵ ، ۲۹۹ ،
 اور : ۱۳۷ ، ۱۴۸ ، ۱۵۱ ، ۱۵۷ ،

بروثاغوراس : ٣٦١ ، ٣٨٣ .
 برومياوس : ٣٩٥ .
 براكسيس : ٤٩٥ ، ٥٠٥ .
 برياموس : ٢٠٩ .
 البريطانية (الجزائر) : ٥٢٧ .
 بريكليس : ٢٩٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣ .
 برينتا : ٤٩٩ .
 بصرغاد : ٢٢٠ ، ٢٢٦ .
 بستونوت : ٢٠٧ ، ٢١٠ .
 البطالسة : ٥٣ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ٩٥ ، ١٣٠ ، ٤١٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٥ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٣ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ .
 بطوليبيس : ٤٦٧ .
 بعل : ٢٠٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ .
 بعل هامون : ٢٦٠ .
 بكتريه : ٢٢٧ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦١١ .
 بكين : ٢٣ ، ٦٠٦ .
 بل : ١٦٧ .
 بلاتيا : ٣١٢ ، ٣٣١ .
 بلجيكا : ٤١ .
 بلشاصر : ١٨٥ .
 البلطيق (بحر) : ٢٨ .
 البلقان : ٢٦ .
 بلوينيز : ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٩ ، ٥١٥ .

بارثون : ٣٦٨ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
 البارسيس : ٤٠١ ، ٤٩٨ ، ٥٠٤ .
 باريس : ١٢ ، ١٣ .
 باسي : ٣٧٢ .
 بالي : ٤٥٥ ، ٦٢٣ .
 باناييتيوس : ٥٣٤ .
 البحر الاحمر : ٥٠ ، ٧٠ ، ٢٠٧ ، ٢٥٩ ، ٤٥٦ ، ٤٦١ ، ٥٢٨ .
 البحر الاسود : ٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٩٢ ، ٣١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٧٩ ، ٤٤١ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٦٠٦ .
 البحر المتوسط : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ١٣٧ ، ٢٠٩ ، ٢٢٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٧٩ ، ٢٩٢ ، ٣٤٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤٦ ، ٥١١ ، ٥٢٩ ، ٥٧٤ ، ٦٠٧ .
 البحر الميت : ٥١٢ .
 المختار : ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٥٩ .
 البرابرة : ٣٠ ، ٣٠٥ ، ٣٧٢ ، ٤٥٥ ، ٤٧٦ .
 براكستيل : ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٥٠٤ .
 براما : ٦٢٤ ، ٦٢٥ .
 برامان : ٥٧١ ، ٦٢٤ .
 برامانا : ٦٢٥ .
 برنيان : ٤١ .
 برقوي : ٥٦٩ .
 برزنوسكي (جان) : ٦٢٧ .
 برسبوليس : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٦٠٨ ، ٦١٢ .
 برغاموس : ٤١٣ ، ٤٢٤ ، ٤٥٩ ، ٤٨٤ ، ٤٩٨ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٩ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٣٢ .
 برلين : ١٢٣ .
 برمانيا : ٥٤٥ ، ٦٣١ .
 برهدرتا : ٥٥٣ .
 بروا (ادوار) : ١٣ .

. بوشان : ۵۶۹ ، ۶۲۴ .
 بوغاز - كي : ۱۷۳ ، ۲۰۳ .
 بولس اميلیوس : ۵۰۳ .
 بول (مرسلین) : ۲۷ .
 بولیب : ۳۴۷ ، ۴۴۳ ، ۴۴۴ ، ۴۴۹ ،
 ۴۵۰ ، ۴۵۳ ، ۴۵۴ ، ۴۶۹ ، ۴۹۲ ، ۵۰۲ ،
 ۵۲۴ ، ۵۲۶ ، ۵۳۵ .
 بوليفنوت : ۳۷۸ .
 بوليكليت : ۳۷۵ .
 بومباي : ۶۰۶ .
 بومباي : ۴۴۵ ، ۵۰۰ ، ۵۰۷ .
 البونت : ۵۰ ، ۷۰ ، ۳۱۳ ، ۴۱۴ ، ۴۴۳ .
 بوڤديشاري : ۶۰۶ ، ۶۲۳ .
 بياس : ۵۵۴ .
 بيبيلوس : انظر جيبيل .
 بيبي الأول : ۱۲۲ .
 بيت ايل : ۲۶۵ .
 بيتوزيريس : ۴۹۷ .
 بيتوساراييس : ۴۵۹ .
 بيتوكليس : ۳۶۱ .
 بيتون : ۳۰۵ .
 بيتياس : ۵۲۷ ، ۵۲۸ ، ۵۲۹ .
 بيتاغور : ۳۰۱ .
 بيتينيا : ۴۱۴ ، ۴۲۱ .
 بيتانا : ۴۲۵ .
 بيرغو بوليتيقوس : ۴۴۳ .
 البيره : ۱۸۵ ، ۲۶۲ ، ۳۵۴ ، ۳۵۵ ،
 ۳۶۰ ، ۳۶۹ ، ۴۴۰ ، ۴۴۱ ، ۴۹۴ ، ۵۰۰ ،
 ۵۴۰ .
 بيروز : ۵۱۰ .
 بيروس : ۴۱۴ ، ۵۰۳ ، ۵۲۳ .
 بيرون : ۵۲۳ .
 بيرينيس : ۵۱۴ ، ۵۳۷ ، ۵۳۸ .
 بيزنطية : ۲۸۵ ، ۴۱۸ ، ۵۱۳ ، ۵۳۹ .
 ۵۴۲ .
 بيزيديا : ۴۷۲ .

بلوت : ۳۹۸ ، ۵۴۰ .
 بلوتارك : ۹۱ ، ۹۲ ، ۳۶۲ ، ۵۲۶ ،
 ۵۷۴ .
 بلوخستان : ۵۵۱ .
 بلين : ۴۷۴ .
 بنارس : ۵۵۳ ، ۵۵۴ ، ۶۲۱ .
 بنتاوار : ۵۱ .
 بنتيليك : ۳۷۴ .
 البنجاب ۵۱۱ ، ۵۵۲ ، ۵۵۳ ، ۵۵۴ ،
 ۶۰۶ ، ۶۰۷ ، ۶۱۱ .
 بن خدد : ۲۶۲ .
 بنديس : ۳۶۶ .
 بنسداروس : ۳۱۰ ، ۳۴۲ ، ۳۹۲ ،
 ۴۰۷ ، ۵۱۳ .
 بنغال : ۵۵۴ ، ۶۳۱ .
 بنكالا : ۵۵۳ .
 بهار : ۵۵۳ ، ۵۵۴ .
 بهاغافادجيتا : ۶۲۵ .
 بهكسالي : ۶۱۰ .
 بهرهوت : ۶۱۱ ، ۶۱۳ ، ۶۲۹ .
 بهستون : ۲۲۷ .
 بهكيتي : ۶۲۵ .
 بهوبال : ۶۲۹ .
 بهرجا : ۶۲۶ .
 بهخوروس ، ۵۴ ، ۶۹ .
 بهخيس : ۸۸ .
 بهدهغايا : ۶۱۳ .
 بوذا : ۵۷۱ ، ۶۱۳ ، ۶۲۷ .
 بورسيبا : ۱۷۶ ، ۱۸۹ .
 بورنيو : ۵۴۵ .
 بروسا : ۵۶۹ .
 بوزانياس : ۳۳۱ .
 بوزايدون : ۲۹۴ ، ۲۹۶ ، ۳۷۶ .
 بوزايدونيا : ۳۰۹ .
 بوزريس : ۹۲ ، ۱۰۳ .
 البوسفور : ۲۸۵ ، ۶۰۶ ، ۶۰۷ .

٥٨٩ ، ٥٨٨ ، ٥٨٧ ، ٥٨٥ ، ٥٨٤ ، ٥٨٣
 ٦٠٣ ، ٦٠٠ ، ٥٩٩ ، ٥٩٨ ، ٥٩٢ ، ٥٩٠
 . ٦٣٩ ، ٦٣٣ ، ٦٣٠
 . تش رو : ٥٨٦
 . تشو : ٥٨١
 . تشنغ : ٦٣٠
 . تشنغ - تو : ٦٣٢
 . تشنغ - كين : ٦٣١
 . تشو : ٦٣٠
 . تشو كوتيان : ٢٣
 . تفلا تفلاس : ١٧٥
 . تكسيلا : ٥٥٣ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦١١
 . تل برسب : ١٩٧ ، ١٩٠ ، ١٨٤
 . تل المارئة : ٩٩ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٣٣ ، ١٣١
 . تموز : ١٦١
 . تتاغرا : ٣٨١
 . تنيس : ٤٥
 . تون - هوانغ : ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٣١
 . توت عنخ آون : ٩٩
 . توت عنخ امون : ١٢٥
 . التورين (مقاطعة) : ٢٨
 . تورينو : ١٢٣
 . توسيديد : ٢٨٤ ، ٣٥٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٤٠١ ، ٥٢٣
 . تونغ تشونغ شو : ٦٣٨
 . تونكان : ٦٠٧ ، ٦٣٢
 . التبيت : ٥٤٦
 . تيرنوس : ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠
 . ٢٥٤ ، ٢٥٣
 . تيرنس : ٣٩٨
 . تيشوب : ٢٠٧ ، ٢٤٠
 . تيمستوكلس : ٢٩٢ ، ٣٣٠ ، ٣٦٢
 . ٥٣٩ ، ٣٩٨
 . تيمون : ٥٣٣
 . تيناروس : ٤٢٨

بيس : ٩١
 بييساتروس : ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٣٩٨
 . بيلا : ٤٨٤
 . بيلااما : ١٧٩
 . بيوييداس : ٣٣١
 . بيوس : ٢٣٩
 . بييسارا : ٥٥٤
 . بيوسيا : ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣
 . ٣٨١ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٥٠٨
 . بيون : ٥٣٢
 - -
 . تاليس : ٢١٢ ، ٣٠١
 . تانغ : ٦٣٢
 . تانيس : ١٦١
 . تحوتس : ٤٢ - الثاني ٤٩ - الثالث ٥١
 . تراجان : ٦٣٢
 . تراقيا - تراقيون : ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٣٩ ، ٤٢٨ ، ٤٩٥
 . ترانسفال : ٢٤
 . تركستان : ٢٦ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٣
 . ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٥٢٧ ، ٥٤٦ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٣١ ، ٦٣٢
 . تريورتي : ٦٢٥
 . تريليل : ٢٣
 . تساليا - تساليون : ٢٥٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٢ ، ٤٠٩ ، ٥٠٨
 . تس - اين : ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧
 . تسن - شه - هوانغ - تي : ٦٠٥ ، ٦٠٧
 . ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨
 . تسين : ٥٨١ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٩٢ ، ٦٣٠
 . تشانغ : ٥٨٧
 . تشانغ - نغان : ٥٨٠
 . تشار : ٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢

حورايي : ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ،
 ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
 ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ،
 ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٠ ، ٢١٩ ، ٢٦٩ .
 حورحبيب : ٦٤ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١٤٦ .
 الحوريون : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
 ٢٠٨ .
 حيرام : ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

- خ -

خاريس : ٥٥٥ .
 خرسايد : ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ،
 ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٦ .
 خطوش : ٢٠٣ .
 خفرع : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ .
 خلقيدونيا : ٣٣٢ .
 خلقيس : ٣٤٥ ، ٣٩٩ ، ٤٣٥ .
 خنصو : ١١٦ .
 خوارزم : ٢٢٧ .
 خونو : ١١٩ .
 خيرونيا : ٣١٦ ، ٤٠١ .

- د -

داريوس : ١٢٨ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
 ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٥٤ ،
 ٦٠٨ ، ٦١٢ .
 دازا : ٥٦٦ .
 داغون : ٣٦٠ .
 الدانوب : ٢١٦ .
 دانيال : ٣٦٤ .
 داوود : ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٢ .
 دجلة : ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٥٨ ، ١٨٥ ،
 ٢٠٥ ، ٢٦٣ ، ٤٦١ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ .
 الدرافيديون : ٥٥٧ .

- ث -

ثرموس : ٥٠٣ .
 ثيوبومبوس : ٣٩٢ .
 ثيوغثيس : ٢٨٨ ، ٣٠٠ .
 ثيوفراستوس : ٥٣٠ .
 ثيوكريتوس : ٥١٤ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ .
 ثيون : ٥٠٧ .
 ثيتيت : ٣٨٨ .

- ج -

جازون : ٥٣٨ .
 جافا : ٢٣ ، ٥٤٥ .
 جبعة : ٢٦٥ .
 جبل طارق : ٢٨ ، ٢٥٩ .
 جبل - جبلينون : ٧٠ ، ٩٢ ، ٢٤٣ ،
 ٢٤٣ ، ٢٦٠ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .
 الجبلجال : ٢٦٥ .
 جوتير : ٢٠٧ .
 جيشيون : ٣٤٨ .
 جيحس (جيغيس) : ٢١٠ ، ٢١١ ،
 ٢٨٩ .
 جيسر : ٩١ ، ١١٩ .

- ح -

حاتور : ٨٧ ، ٨٨ ، ١١٤ .
 حتشبوت : ٤٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٩١ ،
 ٩٥ ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ٥٣٠ .
 الحثيون : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٠ .
 حدد : ٢٠٧ ، ٢٤٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ .
 حران : ١٦٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ .
 حزقيال : ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ .
 حلب : ٢٦٢ .
 حماة : ٢٦٢ ، ٢٦٥ .
 حصص : ٢٦٤ .
 حلايا : ٥٥٣ .

ديتريوس : ٥١٨ ، ٥٢٣ .
ديوسقليس (ديوستين) : ٣٣٠ ،
٣٣٨ ، ٣٥٣ ، ٣٦٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١

٤٠٧ ، ٤٨٤ ، ٥٢١ ، ٥٣٥ .

ديوسيدس : ٣٣٠ ، ٣٠٢ .

ديوكريت : ٣٨٢ ، ٥٣٣ .

ديمتير : ٢٠٧ ، ٢٩٤ ، ٣٦٤ .

دينارخوس : ٣٩٩ .

ديوجين : ٣٨٥ ، ٥٣٣ .

ديونيزيوس : ٤٦٩ .

ديونيسوس : ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١٠ ،

٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،

٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤٤٤ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ،

٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ .

الدينوميثيس : ٣٣٠ .

- 3 -

ذيافومينوس : ٣٧٥ .

ذيلون : ٣١٦ .

ذيفوروس الصقلي : ٥٤ ، ٦٩ ، ١٣٠ ،

١٨٩ .

- 3 -

رايهو : ٥٦٩ .

راجانيا : ٥٦٠ .

راجفريا : ٥٥٤ ، ٦١٢ .

راس شمرا : ٢٤٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ،

٢٦١ .

راكوتيس : ٤٦٦ ، ٤٩٥ .

الرامة : ٢٦٥ .

رامون : ٢٦٤ .

رج : ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،

٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ،

١٠٧ ، ٤١٤ .

رعمسيس : ٦٥ - الثاني : ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ،

٤٩ ، ٥١ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ١١٦ ، ١١٨ ،

١٢٣ ، ٣٦١ .

دراكون : ٢٩٢ .

الدرديليل : ٣٣٢ .

دقنى : ٤٧٣ .

دلتا : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ،

٤٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ،

٨٨ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٣٦ ،

٤٥٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٥٠٧ .

دلفي : ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ،

٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٢٤ ، ٣٣٥ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ،

٣٦٤ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ،

٤٤٩ ، ٤٨٩ ، ٥٠٣ .

دلهي : ٥٥٣ .

دمشق : ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،

٤٩٤ .

دندره : ٨٩ ، ٢٥٢ .

دنكرلك : ٤١ .

دواب : ٥٥٣ .

دورا ورويوس : ٤٧٧ .

دور - شروكين : ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩١ ،

دوريفوروس : ٣٧٥ .

الدوريون : ٢٣٨ ، ٢٥٣ .

دوليخه (دوليكي) : ٢٠٧ ، ٢٦٤ ،

٤٩٤ .

دوموزي : ١٦١ .

دونيس : ٣١٦ ، ٣٣٠ ، ٣٩٧ ، ٥٣٦ .

ديادس : ٥٦٩ .

ديديوس : ٥٢١ .

دير البحري : ٧١ ، ٩١ ، ٩٥ .

ديركي : ٥٠٦ .

ديسكوبول : ٣٧٥ .

ديكي : ٢٩٥ .

ديكيارخوس : ٥٢٤ .

ديلوس : ٢٦٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ،

٣٦٢ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ،

٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٨٩ ، ٣٩٥ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،

٥٠٣ .

٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠،
 ٤٧٠، ٤٧٤، ٤٧٧، ٤٨٦، ٦١٣،
 سوتراتوس : ٤٩٩ .
 سوغديان : ٢٢٧، ٦٠٦، ٦٠٧ .
 سوفوكليس : ٣٦٤، ٣٨١، ٣٩٥،
 ٣٩٦ .
 سوما : ٥٦٩ .
 سو - ماتسيان : ٦٣٨ .
 سوماسيانغ - جو : ٦٣٨ .
 سومر - السومريون : ١٣٤، ١٣٥،
 ١٣٧، ١٣٨، ١٦١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧،
 ١٨٦، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٣ .
 سومطرا : ٥٤٥ .
 السون : ٦١٢، ٥٥٤ .
 السويس : ٥٠، ٧٠، ٢٢٣، ٤٥٦ .
 سويسرا : ٢٦ .
 سيا : ٥٢ .
 سينار : ١٦٦ .
 سينارييس : ٢٨٦ .
 سيبيريا : ٥٧٩ .
 سيفيل : ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٢، ٤٩٣ .
 سيت : ٦١١ .
 سيني - برثي : ٦١١ .
 سيرابيس : ٨٧، ٩١، ٤٩٥، ٥٠٥،
 ٥١٩، ٥٣٠ .
 سيراكوزا : ٢٨٧، ٣١٣، ٣١٦، ٣٣٠،
 ٣٤٥، ٣٥٣، ٣٨١، ٣٨٥، ٣٩٦، ٣٩٧،
 ٣٩٨، ٣٩٩، ٤١٣، ٥٢٦ .
 سيراكوزيا : ٥٢٧ .
 سيزوسترس الثاني : ١١٣ .
 سيفنوس : ٣٠٤، ٣٠٥ .
 السيكلاد : ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٢،
 ٢٥١، ٢٥٣، ٢٩٦، ٤٤٠، ٤٤١ .
 سيكيوني : ٣٠٥، ٣١٠ .
 سيلان : ٦٠٩، ٦١٠ .

سقراط : ٣٠٨، ٣١٩، ٣٢٧، ٣٥٧،
 ٣٥٨، ٣٦٢، ٣٦٧، ٣٨٣، ٣٨٤،
 ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٩٦، ٥٣٢ .
 سكندا : ٦٢٤ .
 سكوياس : ٣٧٨، ٥٠٤ .
 سكيلاكس : ٢٢٣ .
 سكيوني : ٢٨٦ .
 سلامين : ٣١٢، ٣٣٠، ٣٦٢ .
 سالوقس : ٤١٤، ٤٥٩، ٤٧١، ٥١١،
 ٥٢٩، ٦١٠ .
 سالوقيا : ٤٢٩، ٤٦١، ٤٧١، ٤٧٤ .
 السالوقيون : ٢٦٨، ٤١٣، ٤١٧،
 ٤٢١، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٤، ٤٦٩، ٤٧٠،
 ٤٧١، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٨، ٤٧٩،
 ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٩٦، ٥١٠،
 ٥١٩ .
 سليمان : ٢٥٧، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨،
 ٢٧٠ .
 سفيراميس : ١٤٨ .
 سن : ١٦٢، ١٦٥، ١٦٦، ٢٦٤ .
 سنجاريب : ١٨٥ .
 السند : ٥٥٣، ٥٥٤ .
 سندايد : ١٣١ .
 سوات : ٥٥٢ .
 شوبارتو : ١٣٧ .
 سوتيس : ١٢٩ .
 السودان : ٤٦١ .
 السوربون : ١٣ .
 سوريا (الـ) : ٥٦٩ .
 سوريا - السوربون : ٥١، ٦٨، ٩٠،
 ٩٦، ١٣٣، ١٥٨، ١٦١، ١٨٧، ٢٢٣،
 ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٢،
 ٢٦٤، ٢٦٤، ٤١٣، ٤٢٩، ٤٣٦، ٤٣٧،
 ٤٤٠، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٧١، ٤٧٣،
 ٤٨٤، ٤٨٤، ٥١٣، ٥٤٢، ٦٠٧، ٦١٠ .
 سوزه : ١٧٥، ١٧٩، ١٨٠، ٢١٤ .

شي - كنج : ٥٧٦ .
 شيرون : ٣٣٢ ، ٣٩٠ ، ٥٢١ .
 شيفا : ٦٢٤ ، ٦٢٥ .
 - ص -
 صافو : ٣٠٠ .
 صقليا : ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
 ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ،
 ٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٧٩ ، ٤٠٥ ،
 ٤٣٨ ، ٤٤٢ ، ٤٥١ ، ٤٤٠ .
 صموئيل : ٢٦٥ .
 الصنطور : ٣٧٤ .
 صهيون : ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ .
 صور : ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ،
 ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
 صولون : ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٠ ، ٣٣٧ ،
 ٣٣٩ ، ٣٦٨ .
 صيدون : ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
 الصين : ٢٢٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٧٤ ،
 ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٥ ، ٥٩٢ ،
 ٥٩٩ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ،
 ٦٠٧ ، ٦١٥ ، ٦٢١ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٣ ،
 ٦٤٠ .
 - ط -
 طارتنا : ٢٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٤٥ ، ٣٨٨ ،
 ٤٢٨ .
 طار : ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ .
 طروادة : ١٢١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٨ ،
 ٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٣٠٤ .
 طوخ : ٨٩ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٢٨ .
 طيبة - الطيبون : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
 ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩١ ،
 ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
 ٢١٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٦ ، ٣٦٢ ، ٤٠٧ .

السلييب : ٥٤٥ .
 سيلينوته : ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ .
 السياريون : ١٤٤ ، ٢١٦ .
 سينياه : ٥٠ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٧٢ ،
 ٢٦٩ .
 سينوبارغيس : ٣٨٤ .
 سيوان - تي : ٦٣١ .
 سيون كوانغ : ٥٧٨ .
 - ش -
 شاك : ٦١١ .
 شاكيميني : ٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٦٠٣ ، ٦٢٧ ،
 شاول : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ .
 شتدري : ٥٥٣ .
 الشرق الأدنى : ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٥١ ، ٦٩ ، ١٣١ ، ٢٠١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ،
 ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٦٤٠ .
 الشرق الأقصى : ٢٠ ، ٢٢٣ ، ٤٦١ ،
 ٤٧٧ ، ٦٠٩ .
 الشرق الأوسط : ٢٦ .
 شرماتا : ٦١٠ .
 ششناكا : ٥٥٣ .
 شليان : ٢٥٢ .
 شمبوليون : ١١١ ، ٢٣٩ .
 ششن : ١٤١ ، ١٥٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
 ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٦٩ .
 شندراغوبتا : ٦١٠ .
 شن سي : ٥٨٠ .
 شنج : ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨٣ ، ٥٩٣ ،
 ٦٠٣ .
 شنج - تي : ٥٩٩ .
 شنيرب (روير) : ١٣ .
 شوتروك فاشوته : ١٧٩ .
 شونفا : ٦٠٩ ، ٦١١ .
 شيون اميلانوس : ٥٢٥ .
 شيت : ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ .

غيسيا : ٥٦٢ .
 غيلغميش : ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٩٣ ، ١٩٦ .
 غيمه : (متحف) : ١٣ .
 - ف -
 فانا : ٥٦٩ .
 الفارتيون : ١٨٩ ، ٤٠٥ ، ٤١٣ ، ٤٢٩ .
 . ٤٦٠ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ٦١١ .
 فارس : ١٧٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
 . ٢٣٠ ، ٤٣٦ ، ٤٧٢ ، ٤٨٧ ، ٥١١ ، ٦٠٦ .
 فاروس : ٤٥٦ ، ٥٢٧ .
 فاقير : ٢٥٢ .
 فان (بحيرة) : ١٣٧ .
 فايسوس : ٢٣٧ .
 فايو : ٥٦٩ .
 فتاح : ٨٧ ، ٩٤ .
 الفرات : ٤٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٦ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ .
 . ٢٦٣ ، ٤٦١ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ .
 فترهان : ٥٦٩ .
 الفرس : ٣٠ ، ٣٩ ، ٧١ ، ١٢٦ ، ١٤٥ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٦٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٨٩ ، ٤١٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٦ ، ٥٠٦ .
 فرسال : ٤٠٩ .
 فرغانا : ٦٣١ .
 فرنافتي : ٥٥٣ .
 فرنسا : ١٨ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٤١ .
 فرنسوا . (اناه) : ٣٠٧ ، ٣٠٨ .
 فروتا : ٥٦٩ ، ٦٢٤ .
 فريارغنا : ٥٦٩ .
 فريجييا - الفريجييون : ٢٠٧ ، ٢٠٩ .
 . ٢١٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ .

- ح -

العاصي : ٢٦٢ ، ٤٧١ ، ٥٠٥ .
 عاصيون جابر : ٢٦٦ .
 عاموس : ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ .
 العبرانانيون : ٢٢٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ .
 العرب : ١٤ ، ٢٧٠ .
 عشارت : ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٣٦٦ .
 العقبة : ٢٦٦ .
 عيلام : ١٣٨ ، ١٧٥ .

- غ -

غاد : ٤٩٢ .
 غالبيا - غاليون : ٣١٣ ، ٣٤٦ ، ٤٠٥ ، ٤٥٥ .
 غالاتيون : ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٧٨ ، ٥٠٥ .
 . ٥٠٦ .
 الغانج : ٥١١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٦٠٩ ، ٦١٢ .
 غرانيه (مرسيل) : ٥٧٤ ، ٥٧٦ .
 غروسيه (رنيه) : ٥٨٢ .
 الغز (السيت) : ١٤٤ ، ١٦٢ ، ٢١٦ .
 غلا (جزيرة) : ٢٤٩ .
 غندمارا : ٥٥٤ .
 غندمرفا : ٥٦٩ ، ٦٢٤ .
 غنيشا : ٦٢٤ .
 غويتا : ٦٠٩ .
 غوديا : ١٦٢ ، ١٩٥ .
 غوردياس : ٢٠٩ .
 غورديون : ٢٠٩ .
 غورغياس : ٣٩٩ .
 غورنيا : ٢٤١ ، ٢٤٣ .
 غوغو : ٢١٠ .
 غومتي : ٥٥٢ .

كلرمون - قران : ١٣ .
 كلستين : ٣٣٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٢٩٢ ، ٣٣٩ .
 كلتياخوس : ٥٢١ ، ٥٢٠ ، ٥١٤ ، ٥٣٩ ، ٥٣٨ ، ٥٣٧ ، ٥٣٥ .
 كلويباتره : ٥١٩ ، ٤١٩ ، ٤١٣ ، ٣٠٥ .
 كلوييس : ٣٠٥ .
 كلويمينوس : ٤٥٤ ، ٤٥٣ ، ٤٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٣٥٢ ، ٢٩٢ ، ٣١٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ .
 كمي : ٦١١ .
 كنعان : ٢٦٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٥ ، ٢٣٨ ، ٢٧٠ .
 كنوسوس : ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٠ .
 كوانغ - وو - تي : ٦٣٢ .
 كويبا : ٢٠٧ .
 كويبييس : ٢٤٩ .
 كويرا : ٦٢٤ .
 كويرنيك : ٥٣٠ .
 كوتا : ١٦٦ .
 كورثوس : ٢٨٦ ، ٢٨٤ ، ٢٥٨ ، ٣٩٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٣٩٩ .
 ٤٠٩ ، ٤٤٢ ، ٦١٠ .
 كوريا : ٦٠٧ ، ٦٠٥ .
 كوزلوف : ٦٠٦ .
 كوس : ٤٩٣ ، ٤٦١ ، ٣٨٩ ، ٢٣٠ ، ٥٤٠ .
 كوسا : ٦٠٩ .
 كوسمي : ٥٥٣ .
 كوشالا : ٥٥٣ .
 كوشنشين : ٦٠٦ .
 كولنجيد : ٥٣٨ .
 كوماجين : ٢٠٧ .
 كومس : ٣٣٠ .
 كونغ - سوان ينغ : ٥٧٨ .

كبادوكية : ١٣٩ ، ٢٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٢١ ، ٤٧٠ .
 كتيسياس : ٢٣٠ .
 كراتيس : ٥٣٢ ، ٥٢١ ، ٥١٤ .
 كراسوس : ٤٧٧ .
 كرانغاور : ٦٠٧ .
 الكردوك : ٤٧٨ .
 الكرم : ٥٥٢ .
 الكرمل : ٢٥٦ .
 الكرنك : ٦٥ ، ٧٠ ، ٨٢ ، ١١٥ ، ١٦٦ .
 كرنباد : ٥٣٢ .
 كرو : ٥٥٣ .
 كروتون : ٣٨٩ .
 كروزيه (موريس) : ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٩١ ، ٣٤٢ ، ٥١٥ .
 كريتولوس : ٥٣٢ .
 كريتوس : ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣ .
 كريسبوس : ٥٣٤ .
 كساندر : ٥٣٧ .
 كريشنا : ٦٢٥ ، ٦٢٤ .
 كستوس : ٢٢٤ ، ٢١٢ .
 كسينوفانس : ٣٠١ .
 كسينوفوت : ٣٢٢ ، ٣١٩ ، ٢١٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٩٢ ، ٣٣٦ .
 كشتريا : ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٦١٠ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢١ ، ٦٢٧ .
 كشمير : ٦١١ .
 كلاروس : ٢٩٨ .
 الكلدان : ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٤٩٦ .

١٦٣ ' ١٥٨ ' ١٥٥ ' ١٣٧ - ١٣٥ ' ١٣٣
 ' ٢٠٤ ' ٢٠٢ - ٢٠٠ ' ١٩٣ ' ١٨٩ ' ١٧٣
 ' ٢٢٧ ' ٢٢٤ ' ٢٢٠ - ٢١٨ ' ٢١٦ ' ٢١٤
 ' ٢٤٥ ' ٢٤٣ ' ٢٤٢ ' ٢٣٧ ' ٢٣٦ ' ٢٣٣
 - ٢٦٤ ' ٢٦١ ' ٢٥٨ ' ٢٥٦ ' ٢٥٥ ' ٢٥٣
 ' ٣٠٢ ' ٣٠١ ' ٢٩٢ ' ٢٧٠ ' ٢٦٩ ' ٢٦٧
 ' ٤١٧ ' ٤١٤ ' ٤١٣ ' ٣٨٨ ' ٣٤٥ ' ٣١٣
 - ٤٣٦ ' ٤٣٣ - ٤٣٠ ' ٤٢٩ ' ٤٢٧ ' ٤١٨
 ' ٤٦٢ ' ٤٦٠ - ٤٥٥ ' ٤٤١ ' ٤٤٠ ' ٤٣٨
 ' ٤٧٤ ' ٤٧١ - ٤٦٩ ' ٤٦٧ ' ٤٦٦ ' ٤٦٣
 ' ٤٨٨ ' ٤٨٦ ' ٤٨١ ' ٤٨٠ ' ٤٧٨ ' ٤٧٥
 ' ٥١٩ ' ٥١٨ ' ٥٠٨ ' ٤٩٦ ' ٤٩٥ ' ٤٩٣
 . ٦٤١ ' ٦١٠ ' ٦٠٧ ' ٥٤٧
 . المصفاة : ٢٦٥
 . مقدها : ٥٥٣ ' ٥٥٤ ' ٦١٠ ' ٦١١
 . مغتزيا : ٤٧٢ ' ٤٨٩
 ' مقدونيا - المقدونيون : ٣٩ ' ٥٣
 ' ٢١٨ ' ٢٦٨ ' ٣٢٩ ' ٣٢٤ ' ٣٥٩ ' ٤٠١
 ' ٤٠٤ ' ٤٠٧ ' ٤١٣ ' ٤١٤ ' ٤١٨ ' ٤٢١
 ' ٤٢٣ ' ٤٢٤ ' ٤٢٥ ' ٤٢٧ ' ٤٢٨ ' ٤٢٩
 ' ٤٥٣ ' ٤٥٤ ' ٤٥٨ ' ٤٧٣ ' ٤٧٩ ' ٤٨٤
 . ٥٠٣ ' ٥١١ ' ٦١٠
 . المكايون : ٢٦٨ ' ٤٨٨
 . ملايار : ٦٠٧
 . ملقرط : ٢٦٠
 . منون : ١٢١
 . منتوحوبت : ١١٨
 . مندريس : ٢٨٦ ' ٤٧٢ ' ٤٨٩
 . مندريس : ٨٨
 . منشيوس : ٥٧٨
 . منقوليا : ٦٠٧ ' ٦٠٧ ' ٦١١ ' ٦٣٣
 . منف : ٤٥ ' ٤٦ ' ٤٧ ' ٥٧ ' ٨٧
 ' ٩٤ ' ١٠٧ ' ١١٧ ' ١٢٠ ' ١٢٩ ' ٢١٦
 . ٤٩٥
 . منكورع : ١١٩ ' ١٢٠
 . منقيس : ٨٨

. ١٠٦ ' ١٠٤ ' ١٠٣
 ' اللاديون : ١٣٧ ' ١٤٤ ' ٢١٦ ' ٢١٤
 . ٢٢٧ ' ٢٢١ ' ٢١٨ ' ٢١٧
 . ماراقون : ٣٧١ ' ٣٩٥
 . مارسياس : ٣٧٥
 . ماراي : ٢٤٧
 . ماركوس اوريليوس : ٥٣٤
 . ماروت : ٤٦٩
 ' ماري : ١٣٨ ' ١٩٠ ' ١٩٤ ' ١٩٥
 . ١٩٧
 . مارييت : ٨٧ ' ١٢٣
 . ماغاس : ٥١١
 . مالغا : ٦١١
 . مالوس : ٥٢١
 . مالبا : ٢٣٧
 . مانيتون : ٤٩٥ ' ٥١٠
 . مقرا : ٢٠٦ ' ٢٢٥ ' ٥٦٩ ' ٦٢٤
 . مقريا : ٦٢٧
 . مقريديات : ٤٥٥ ' ٤٧٠ ' ٤٧٩
 . مجدو : ٥١
 . المحيط الاطلسي : ٢٧
 . مدرنا : ٥٤٨
 . مدهيديشا : ٥٥٣
 ' مردوك : ١٦٧ ' ١٧٥ ' ١٨٨ ' ١٨٩
 . ٢٢٤ ' ٢١٩ ' ١٩٧
 . مرسيليا : ٢٨٦ ' ٣١٣ ' ٤٠٥
 . مرماريا : ٣٧٢
 . مرمناد : ٢١٠ ' ٢١١ ' ٢٨٦
 . مريكاره : ٦٤
 . مسبارو (هنري) : ٥٧٤ ' ٥٨٥
 . مسينيون : ٣٤٣
 . المشكب : ٦٦٣
 ' مصر - مصريون : ٢٦ ' ٢٨ ' ٣٠
 - ٩٨ ' ٩٦ - ٩٤ ' ٩٢ - ٨٧ ' ٨٥ - ٣٥
 ' ١٠٧ ' ١١٢ ' ١١٤ ' ١١٥ ' ١١٨ ' ١٢٠
 - ١٢٩ ' ١٢٧ ' ١٢٦ ' ١٢٥ ' ١٢٢ ' ١٢١

مينة البيضاء : ٢٥١ ، ٢٥٦ .
 مينس : ٤٤ ، ٤٥ .
 مينغ تانغ : ٥٧٦ ، ٥٣٣ .
 مينتلروس : ٣٩٨ ، ٥١١ ، ٥٣٥ ،
 ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٦١١ .
 مينوس : ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ .
 مينوطور : ٢٤٤ ، ٢٤٠ .
 مينديوس : ٥٣٢ .

- ن -

نابو : ١٨٩ .
 نابولي : ٥٠٧ .
 نابوليون : ١٨٠ .
 نايونيد : ١٦٢ .
 ناييس : ٣٤٣ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ .
 ناجا : ٦٢٤ .
 نارام سن : ١٤٢ .
 ناكسينا : ٥١١ .
 الناكسيون : ٣٠٥ .
 نانكين : ٦٣٢ .
 نبوخذ نصر : ١٤٥ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ،
 ١٨٤ ، ١٩٢ ، ١٩٧ ، ٢٢٤ ، ٢٦٨ .
 نجاور : ٢٥٩ .
 نختسافيس : ٤٦٩ .
 نرغال : ١٦٦ .
 نغان - ينغ : ٥٨٠ .
 نفرتي : ١٢٣ .
 نكش - أي - روستم : ٢٢٨ .
 النعسا : ٢٦ .
 ننبيا : ٥٥٤ ، ٦١٠ .
 نو : ٥٩٤ .
 النوبة - النوبيون : ٥٠ ، ٥١ ، ٥٧ ،
 ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٩٦ .
 نوزيقا : ٣٥٧ .
 نوكراتيس : ٧١ ، ٢٨٦ ، ٤٦٧ .
 نوميديا : ٤٣٨ .

مهاياراتا : ٦٢٥ .
 مهاقيرا : ٥٥٤ ، ٥٧٢ .
 موت : ٢٦٠ .
 موتزيليون : ٦٢٣ .
 موتسو : ٦٠٢ .
 موتي : ٥٧٩ ، ٦٠٢ .
 موريا : ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ،
 ٦١٠ ، ٦١٢ .
 موزيريس : ٦٠٧ .
 موسى : ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
 موس (مارسل) : ١٨٠ .
 الموشكو : ٢٠٩ .
 مولوخ : ٢٦٠ .
 مولير : ٣٩٨ .
 مونييه (رولان) : ١٣ .
 موهنجو - دارو : ٢٨ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ .
 ميتاني : ٢٠٣ ، ٢٠٨ .
 ميداس : ٢٠٩ .
 ميداي : ١٩٢ ، ٢٢٧ ، ٥٣٨ .
 ميرون : ٣٧٥ .
 ميريس (بحيرة) : ٧٥ ، ٨٧ ، ١١٣ .
 ميسين - ميسينيون : ٢٣٨ ، ٢٤٨ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ،
 ٢٨١ .
 الميسيون : ٤٧٨ .
 ميکارا : ٢٨٦ .
 ميقاتينوس : ٥١١ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ ،
 ٦١٢ ، ٦١٨ ، ٦٢١ .
 ميكال الجلو : ٥٠٦ .
 ميل ب : ٥٤٧ .
 ميلتيادس : ٢٩٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ .
 ميسله : ١٨٥ ، ٢١٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ ،
 ٤٦٩ ، ٤٩٩ .
 ميلو : ٥٠٥ .
 ميلاوس : ٢٣٧ ، ٢٤٢ .
 ميليندا : ٥١١ ، ٦١١ .

٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٥١٣ .

هيراكليوس : ٥٣٠ .

هيرون : ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٨ .

هيروانداس : ٥٣٥ ، ٥٤٠ .

هيزريد : ٢٨١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ،
٣٢٢ ، ٣٥٢ .

هيسارليك : ٢٤٣ .

هيكاتوميلون : ٣٠٩ ، ٣١٠ .

هيكاتيه الميلي : ٤٠ ، ٣٠٢ ، ٣٩٠ .

هيكوب : ٢٠٩ .

هيليوذوروس : ٤٨٨ ، ٦١١ .

هيلوس : ٤٠٧ ، ٤٤١ ، ٤٩٩ .

هيميرا : ٣٣٠ .

هيو - تو : ٥٩٩ ، ٦٠٠ .

هيونج-نو : ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ .

-و-

وازيستان : ٥٥٢ .

وقا - ونج : ٥٨٠ .

ون : ٥٩٨ ، ٦٠١ .

ونج - منج : ٦٣٢ .

وو : ٦٣١ .

وي : ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٦٣٢ .

-ي-

اليابان : ٦٠٥ .

ياما : ٦٢٤ .

يانغ : ٥٩٢ .

يسوع : ٢٦٤ .

يعقوب : ٢٦٢ .

يكشا : ٦٢٤ .

مينيا : ٥٥٣ .

ين : ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٦٠٣ ، ٦٣٠ .

ينج : ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٦٠٣ .

ينج - شار : ٥٧٩ .

ينج - هيونج : ٦٣٨ .

اليهود : ٢٢٤ ، ٤٦٧ .

يوذا : ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ .

يوه : ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

يوتشي : ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

يوسف : ٧٣ .

يوشع : ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

يونان : ٢٦٨ .

يونان : ٦٣١ .

اليونان : ١٢ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٥٤ ، ١٤٥ ،

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ،

٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ،

٢٥٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،

٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،

٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ،

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ،

٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ،

٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ،

٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٨ ،

٣٨٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ،

٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ،

٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ،

٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،

٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ،

٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥ ، ٤٨١ ،

٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ،

٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٤٧ ، ٦٠٦ ،

٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢١ .

بين ون تسو : ٥٧٨ .

فهرست الخرائط والتصاميم

صفحة

- ١ - مصر (خارطة) ٤٣
- ٢ - مدينة مصرية في عهد الامبراطورية الوسطى (تصميم) ١١٣
- ٣ - معبد شمسي شيده الملك نيوسري (تصميم) ١١٤
- ٤ - منطقة طيبة (خارطة) ١١٥
- ٥ - معبد خنصو في الكرنك (تصميم) ١١٦
- ٦ - منطقة منف (خارطة) ١١٧
- ٧ - معبد خفرع المدفني (تصميم) ١١٩
- ٨ - ديماس امنوفيس الثاني (تصميم) ١٢٠
- ٩ - بلاد ما بين النهرين (خارطة) ١٣٤
- ١٠ - امتداد الامبراطورية الاشورية في عهد اشور بانديال ١٣٨
- ١١ - رسم نيبور : ١ - على لوحة مسارية ، ٢ - حسب أعمال التنقيب الحديثة ١٧٧
- ١٢ - مدينة اشور (المدينة) ١٨٥
- ١٣ - دور شروكين ، خرسا باد اليوم (تصميم) ١٩١
- ١٤ - بابل عشية الفتح الفارسي (تصميم) ١٩٧
- ١٥ - امبراطوريات آسيا الوسطى نحو منتصف القرن الخامس قبل المسيح (خارطة) ٢١٠
- ١٦ - امتداد الامبراطورية الفارسية في بدء القرن الخامس قبل المسيح (خارطة) ٢١٥
- ١٧ - منطقة برسبوليس (خارطة) ٢٢٧
- ١٨ - العالم الايجي (خارطة) ٢٣٥
- ١٩ - قصر تيرنوث (تصميم) ٢٥٠
- ٢٠ - كنعان وسوريا (خارطة) ٢٥٧
- ٢١ - معبد ارميس في افسس (تصميم) ٣٠٣
- ٢٢ - معبد الهيكاتومبيدون في قلعة ائينا (تصميم) ٣٠٩
- ٢٣ - ائينا والبيره في القرن الرابع قبل المسيح (تصميم) ٣٥٥

	٢٤ - الألتيس ، نطاق زفنس المقدسي في اولمبيا ، في أواخر القرن الرابع قبل
٣٧٣	المسيح (تصميم) .
٣٧٧	٢٥ - قلعة اثينا في أواخر القرن الرابع قبل المسيح (تصميم)
٤٥٧	٢٦ - الاسكندرية الهلينية (تصميم)
٤٧٣	٢٧ - خريطة لاوزيكيا البحرية السلوقية (اللاذقية اليوم)
٤٩٩	٢٨ - بيت هلمني في برينا (ايونيا) (تصميم)
٥٠١	٢٩ - برغاموس الهلينية (تصميم)
٥٢٩	٣٠ - خط طول الاسكندرية كما رسمه ايراتوشينوس (تصميم)
٥٤٩	٣١ - الهند في الزمن السابق للآريين . الحضارة المدعوة حضارة المهندوس (خارطة)
٥٥٢	٣٢ - الهند البرامانية قبل سلالة الموريا (خارطة)
٥٥٥	٣٣ - الهند في عهد سلالة الموريا
٥٨١	٣٤ - الصين حتى سقوط سلالة الهان (خارطة)

فهرست الصور

- ١ - افریز الأياثل السوداء في مغارة لاسكو .
- ٢ - سيدة دامارالتند البيضاء .
- ٣ - هرم سكرّة ذو الدرجات .
- ٤ - أهرام الجيزة .
- ٥ - أبو الهول في الجيزة .
- ٦ - نقش ناتىء في مصطبة أخوتحوتب .
- ٧ - جبارا ممنون .
- ٨ - معبد حتشبسوت في دير البحري .
- ٩ - معبد امنوفيس الثالث في الأقصر .
- ١٠ - غداء الأميرة .
- ١١ - قاعة الأعمدة في الكرنك .
- ١٢ - معبد أمون في الكرنك .
- ١٣ - سيتي الاول والإله حاتور .
- ١٤ - معبد سيتي الاول في ابيدوس .
- ١٥ - التماثيل الجبارة في معبد أبي سنبل . السلالة التاسعة عشرة .
- ١٦ - المعبد المتأقني لرعمسيس الثاني في طيبة . السلالة التاسعة عشرة .
- ١٧ - أور - ناتشي ، ملك لاغاش ، وعائلته (حوالي السنة ٢٨٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ١٨ - نصب نصر لنارام سين ، ملك اغادي (القرن السادس والعشرون قبل المسيح) .
- ١٩ - سومريو لاغاش ، بقيادة ملكهم ايناتوم ، يدوسون الجثث في مسيرهم الى المعركة (القرن الثامن والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢٠ - دستور حورابي ، ملك بابل (حوالي ١٨٠٠ (?) قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢١ - كودورو بابلي ، الملك مليشيباك الثاني يضع ابنته تحت حماية اجدى الآلهات (حوالي ١٢٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢٢ - النقل البخري . نقش ناتىء من الالبستر مصدره قصر خرسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢٣ - ثورة منجم ذو وجه بشري مصدره قصر سرجون الثاني في خرسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢٤ - الملك أشوربانيبال في عربة أمة . نقش ناتىء مصدره نينوى (القرن السابع قبل المسيح) .

- ٢٥ - نقش في الأبادانا في برسبوليس (القرن الخامس قبل المسيح) .
- ٢٦ - « الملك الكاهن » أو « الأمير ذو زهور الزنبق » في كنوسوس (كرتيا) . نقش جصي ملون ، بعد ترميمه (حوالي ١٦٠٠ ق . م .) .
- ٢٧ - باب اللبوءات في ميسين .
- ٢٨ - « منخرة أتريا » في ميسين .
- ٢٩ - البرناس كما يرى من زيمينون .
- ٣٠ - عند لحف حصون ارغوس . في المؤخرة أكمة لاريسا (٣٠٠ م .) . في المقدمة أكمة اسيس (٨٠ م .) .
- ٣١ - طريق اللبوءات في ليتون ديولوس (القرن السابع قبل المسيح) .
- ٣٢ - مشهد وليمة : هيراكليلس عند افريتيوس . رسم ذو طابع كورنثي (القرن السادس قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٣٣ - الهيرايرن في اولمبيا .
- ٣٤ - عداؤون اولمبيون . رسم على قارورة (القرن السادس قبل المسيح) . متحف الفاتيكان .
- ٣٥ - زفس هستيايا (ويعرف بزفس ارتميسيون أيضاً) ، وهو من البرونز وينسب الى كلاميس (حوالي ٤٦٠ ق . م .) . المتحف الوطني في أثينا .
- ٣٦ - مسرح ايندورس .
- ٣٧ - المعبود ذو الشكل *D* ، ويعرف بمعبود « جونون اللاسينية » ، في اغريجتنا (القرن الخامس قبل المسيح) .
- ٣٨ - مرفأ سلامين الطبيعي كما يرى من برج أثينا نيقى .
- ٣٩ - قلعة اثينا .
- ٤٠ - تطواف عيد الإلهة « اثينا » ، قسم من افريز البرثنون . متحف اللوفر .
- ٤١ - البرثنون (في حالته الحاضرة) .
- ٤٢ - اثينا برثنوس . ميدالية من البرونز المذهب ، ويرجح انه مستوحى من تمثال فيدياس في البرثنون .
- ٤٣ - الإلهة « نيقى » في ساموتراس .
- ٤٤ - إناة شنفي ثلاثي القوائم مصدره نغان ينغ . عهد شنغ .
- ٤٥ - تمثال نصفي لرجل مصدره موهنجو - دارو . الحضارة المعروفة بمحضارة الهندوس . متحف الآثار ، نيودلهي .
- ٤٦ - المدخل الجنوبي للشتوبا في ساتشي (الهند) . القرن الأول قبل المسيح .
- ٤٧ - إناة طقسي بشكل رأس رجل تملوه الخوذة . طرف قناة من البرونز . عهد شنغ .
- ٤٨ - حصان من حجر وقبر هوو - كيو - بنغ المحروطي الشكل . هيان - ينغ ، مقاطعة شن - سي (السنة ١١٧ ق . م .) .

فهرست عام

صفحة

١١

مقدمة الطبعة العربية

١٧

مقدمة عامة لتاريخ الحضارات العالم

٢٣

مدخل - من وحدة العصر الفراني الى التنوع التاريخي
ظهور الانسان - العصر الحجري القديم - من حضارة العصر الحجري الحديث الى عصر الحديد -
غزوات وتجهين - وحدة الحضارات وتنوعها - الامبراطوريات القديمة ووحدة الحضارة .

القسم الأول

حضارات الشرق الأدنى والامبراطورية

العوامل التي ساعدت على النجاح في مصر وما بين النهرين - سر هذا النجاح -
أهلية الشرق الاذنى للسيطرة والسودد .

٣٥

الكتاب الأول

الحضارة المصرية

٣٩

مدى الحضارة المصرية واستمرارها - وحدة وفوضى - عزلة وأصالة .

٤٤

الفصل الأول . - التنظيم السياسية

٤٤

١ - الملك

الملك محور الوحدة وخالفها- اختيار العاصبة منف واث ذلك- الملك الإله - تعيين الملك وتعيينه -
حياة الملك - وظائف الملك : الدين - وظائف الملك : الحرب - وظائف الملك : استناب
النظام واتساعة العدل .

٥٤

٢ - الحكومة والادارة

الصفات العامة - الحكومة المركزية الادارة الاقليمية والمحلية - الادارة والحياة المادية في مصر -

٧١٥

مراقبة الحياة المادية وغنى التاج - الموظفون والنظام الملكي - انحلال الامبراطورية القديمة
وزوالها - الاصلاح الاعرج - رئيس كهنه آمنون .

٦٦ الفصل الثاني . - التنظيم الاقتصادي والاجتماعية

النظام المثالي

٦٧ ١ - الحياة الاقتصادية

الموارد الطبيعية واستثمارها - التحويل والمقايضات - التجارة الخارجية - عزلة مصر الاقتصادية
ونتائجها .

٧٢ ٢ - المجتمع

الارضاع الاجتماعية : الرق - الأبررة : المرأة - الولد والاحصانيات البشرية - الاتجاه المحتوم الى
الطبقات الوراثية - الأمثلة الاجتماعية : الفلاح - المامل - الجندي - الضابط -
الكاهن . - الكاتب .

٨٤ الفصل الثالث - المظاهر الدينية

٨٤ ١ - الآلهة

التعدد الاسمي- الواقع والخيال في الفكرة الدينية - حدود تشبيه الآلهة بالانسان- الآلهة المحليون:
تقدمهم وحدهم- الآلهة الكونيون- الآلهة الشعبيون- اوزوريس- المذاهب اللاهوتية- مذاهب
هليوبوليس ومنف : «رع» و «فتاح» - أمنون وأمون رع - الثورة « الاتونية » وفشلها .

٩٩ ٢ - عالما بعد الموت

الايان بالحياة الثانية - نقل المعاند حول الحياة الثانية الى مستوى الشعب - العقيدة الشمسية في
الامبراطورية القديمة - تعمم العقيدة الشمسية - انتصار عقيدة اوزوريس - وزن النفس
وما يعنيه .

١٠٥ ٣ - العبادة

عبادة الآلهة المراسم الجنائزية وعبادة الاموات- الدين والحضارة .

١١٠ الفصل الرابع . - المظاهر الفنية والعقلية

١١٠ أ - الفن

ابداع الامبراطورية القديمة - التطور اللاحق - مصر القديمة في فنها .

١١٢ ١ - الهندسة المعمارية

مساكن الاخياء - المعبد - المدفن .

١٢١ ٢ - النقاشة والتصوير

صناعة البتائل - للنقش الناتىء والتصوير - الفنون الثابوية .

١٢٦ ب - الحياة العقلية

الكتابة، الكتاب، المدارس و «بيوت الحياة» - العلوم الصحيحة - العلوم الطبيعية والسحر - الأدب،
الحاتمة . - الحضارة المصرية والعالم القديم

١٣٢

الكتاب الثاني

حضارة بلاد ما بين النهرين

مصر وبلاد ما بين النهرين : تشابه في المصير والحضارة - مصر وبلاد ما بين النهرين : حضارات
موحدة ومفصلة . - وحدة حضارة ما بين النهرين .

١٣٦

الفصل الأول . - الأشكال السياسية

التجزئة - الاستمرار عن مفهوم مقومات البلدة - مفهوم الامبراطورية - بزغ الامبراطوريات -
النظام الملكي وجماعة المواطنين - الملك «ناب الآلهة» مستعبد وتنصيب الملك - واجبات الملك
الدينية - الملك صلة الوصل بين الشعوب والآلهة - السلطات والنظم الملكية - القيادة
الحربية - الجيش الاشوري - التمنسنة - الادارة والموظفون - المركزية - زمن
حمورابي - الابهة الملكية .

١٤٨

الفصل الثاني . - الأشكال الاجتماعية والاقتصادية

القصر - الهيكل - المجتمع الغلاني - المرووس - العبد - تشريع الامرة - العمل الصناعي - المواد
الاولية - وسائل النقل - التجار ومستعمراتهم - تنظيم المعاملات - المعايير والقيم .

١٦١

الفصل الثالث . - الحياة الروحية

١٦١

١ - الأفكار والوقائع الدينية

الديانة : السوربون والساميون - تكريم الموتى : عدم النظام في قبور اور - الافكار المتداولة
بخصوص الموت - خوف وتقوى - الآلهة الكبرى - الصلة للشخصية بين الإله والفرد -
الآلة والمزايما الانسانية - الآلهة والدول - الهيكل - العبادة ورجال الكهنوت - السحر -
العرافة - علم التنجيم - معطيات ديانة بلاد ما بين النهرين المستتفة .

١٧٢

٢ - الاكتشافات الفكرية

الروائع - الكتابة المسارية - الفنتان السورية والاكادية - اللغة الارامية - المؤلفات الادبية -
الاناشيد المشولوجية الكبرى - المكاتب - العلوم : الطب وعلم الفلك - الرياضيات وعلم
الموازين - علوم الطبيعة - العلم والسحر في الفنون - الحقوق : العقود - القوانين : قانون
حمورابي - حدود الجهد الفكري .

١٨٣

الفصل الرابع . - الآثار الفنية

المدن والحضون - استعمال الحزف - النتائج - السقف ودعاه - الهيكل - البرج ذو الطبقات -
المرك والمباني الدينية - القصر - الجنائن - الاوصاف العمومية لفن النقش - مقوماته -
شروط التقنية - فن صنع التماثيل - قيم ماري، غرديا - النقش البارز - التزيين المرسوم
والمزخرف بالطينا . - فن النقش على الحجر .

٢٠٠

الحاتمة

٧١٧

الكتاب الثالث

آسيا الصغرى وإيران

- ٢٠٣ **الفصل الأول . - الحضارة الحثية**
الحضارات الحثية والحورية : الخطوط الكبرى - الدولة - النصوص القانونية وتعاليمها - الفن والدين - استمرار هذه الديانة وانتقالها .
- ٢٠٩ **الفصل الثاني : - الحضارة الليدية**
الفريجيون . - المملكة الليدية - الحياة الاقتصادية - الحضارة الليدية والحضارة اليونانية .
- ٢١٤ **الفصل الثالث . - حضارة بلاد الفرس الاخمينية**
روح السيطرة الفارسية - الروح الإيرانية - إرث « الشرق الكلاسيكي » - النظام الملكي - الحكم والادارة - أهداف الادارة - الديانة - الحياة الفكرية - الفن - الميزة الإيرانية والمهلبية.

التيسر الثاني

حضارات الانسان في الشرق الأدنى

الكتاب الاول

المقدمات

- ٢٣٦ **الفصل الأول . - الحضارة الايحية**
- ٢٣٦ ١ - وحدة الحضارة الايحية وازدواجيتها
العهد الكرويقي - العهد الميسيني - وحدة وازدواجية - حدود المستندات .
- ٢٣٩ ٢ - الحضارة الكريكية
الملكية المينوسية - النشاط الاقتصادي - طريق بحر ايجه المعرضة - المجتمع - الديانة - الفن .
- ٢٤٨ ٣ - الحضارة الميسينية
الامراء المحاربون - الارستقراطية والطبقات الكادحة - التجارة والثروة - الفن الميسيني - إرث الميسينيين .
- ٢٥٥ **الفصل الثاني . - كنعان وسوزيا**
- ٢٥٦ ١ - الفينيقيون

الحياة السياسية - الحياة الاقتصادية - الاستثمار - الديانة والفن - الإيميدية - دور الحضارة
الفينيقية التاريخي .

٢٦٢

٢ - الأراميون

الحياة السياسية - الدور التجاري - الأرامية لغة الشرق - الديانة .

٢٦٥

٣ - المبرانيون

٢٦٥

أ - التعليلات الزمنية

الغضاة - الملكية الاتحادية - الازمات والتبويرراطية - أولوية الديانة .

٢٦٩

ب - الديانة وتطور النظريات الاخلاقية

يهود القدم - أخطار التأثيرات الخارجية - اورشليم - الأنبياء - المثل الأعلى والعمل النافذ - يهود
والمباداة - الشريعة - للتفرد الديني والأخلاقي - قسطنطين المبرانيين .

٢٧٩

الفصل الثالث . - الحضارة اليونانية القديمة

٢٨٠

١ - التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

المتنوع القديم : ذرو الأملاك الواسعة - أضرار الدم - الدولة الارستوقراطية - أسباب تقلبات
الاحوال: تقنية الحرب - أسباب تقلبات الاحوال : الثورة الاقتصادية - الأزمة السياسية
والاجتماعية - المشترعون - الاستبداد والحضارة اليونانية - مناهجة الاستبداد وعمله -
الوضع في آخر العهد القديم - تقدم اثينا .

٢٩٣

٢ - التطور الأدبي

عوامل التطور الأدبي - التنوع الديني - الطغوس مكونة الوحدة : المباريات - التصوف -
هتافات النيب - الشعر الملحمي - نشأة الشعر الغنائي ونضارته - نشأة العلم والفلسفة -
أولوية الفكر اليوناني - الهندسة المهارية - النقاشة - صناعة الحرف - مراكز الأشماع .

الكتاب الثاني

المدينة اليونانية والانسان

حضارة اليونان الكلاسيكية (القرن الخامس والرابع)

٣١٢

الفصل الأول . - الشوائب الداخلية في الحضارة اليونانية المنتصرة

مندوسة الحضارة اليونانية - الحرية والتسلط - حالة الحرب حالة طبيعية - الجروب : الاسباب
والخسائر بالأرواح - الحرب : قانونها وديانتها - التجنيد : مبدأ وواقع - الثورات
الدائمة - العوز والنفي والارتراق .

٣٢٣

الفصل الثاني . - المثل الأعلى والوقائع السياسية

٣٢٣

١ - سيادة المدينة

- المدنية - سيطرة المدينة الحارجية - المدنية والفرد .
- ٣٢٩ ٢ - خطوط التنظيم السياسي العامة
المدنية والسلطة الشخصية - الجمعية - المجلس - القضاة المدنيون - الاليفارشيات والديموقراطيات :
المواطنون الإيجابيزون والمواطنون السليون .
- ٣٣٦ ٣ - الديموقراطية اليونانية
تقدم الديموقراطية - حدود الفكرة الديموقراطية اليونانية - الديموقراطية والاستثمار - الديموقراطية
اليونانية وليدة زمانها .
- ٣٤١ **الفصل الثالث - الحياة المادية والاجتماعية**
- ٣٤١ ١ - المجتمعات الريفية
كبار الملاكين - الفداية - صغار الملاكين .
- ٣٤٤ ٢ - المقايضات
الاقتصاد المركب : ثيران وبيع - المراكز الاقتصادية الكبرى : اثينا .
- ٣٤٦ ٣ - المجتمعات المدنية
الحياة في سبارطة - مناجم وعبيد ال « لوريون » - العبيد المدنيون في اثينا - الاجانب المقيمين -
اضرأاف المواطنين عن النشاط الاقتصادي - بتأثير التمريض اليومي - يفعل استمرار
الاعتبارات المدنية - فقدان الثروات الطائلة .
- ٣٥٤ ٤ - المدن والحياة الخاصة
البيرة واثينا - المساكن - سيدة البيت - حياة الرجل .
- ٣٥٩ **الفصل الرابع : - الكلاسيكية الروحية والجمالية**
- تباين التقدم الثقافي - املوية اثينا .
- ٣٦١ ١ - الديانة
الروح الشعبي - العبادات الشاملة - الالعب الكبرى - أسرار الفسيس - العبادات المدنية -
التصلب والتسائل - النخبة والديانة المدنية والاعباد - عيد الإلهة « اثينا » الكبير -
اعباد ديونيسوس والتمثيلات المسرحية - تطور الاعباد .
- ٣٧٠ ٢ - الفن
التنافس في مجهود هندسة العمارة - التقليد والتكامل في هندسة العمارة - تنوع النقاشة - أوج
الكلاسيكية - النقاشة في القرن الرابع - الفنون الأخرى - التصوير وصناعة الحزف
والفخار .
- ٣٨١ ٣ - الحياة الفكرية
الفلسفة : التقاليد والجددة في القرن الخامس - الفلسفة في القرن الرابع - العلوم - التساويخ -
الشعر : الشعر الغنائي - المسرح - كيبسار مؤلفي المأسى في القرن الخامس - « المهزلة
القديمة » - المسرح في القرن الرابع - اصول ونشأة البيان - الاسايدة ومعدو الخطب -
البيان - الفلسفة : ايزدقراط - البيان - الفعل : ديوسينيس - نهاية الكلاسيكية اليونانية .

الكتاب الثالث

الملكية الهلينية والانسان

الحضارة الهلينية (من القرن الثالث حتى القرن الأول)

صفحة

- ٤٠٣ الفصل الأول . - الاسكندر باعث حضارة جديدة
ركاكة الامبراطورية السياسية - مسكونية الحضارة الهلينية - النتائج .
- ٤٠٦ الفصل الثاني . - المثالية الملكية والحكومة الملكية
- ٤٠٦ ١ - الرواسب والاقتراسات الجمهورية
مخاطط للبولس - المدن والحرب - الاتحادات - الانظمة الاتحادية - الديموقراطية: ظواهر ووقائع.
- ٤١٢ ٢ - مثالية الملكية الهلينية
اصول الملكية الهلينية - امتداد وقوة الواقع الملكي - المثالية الملكية - الحق الملكي - الاخلاق الملكية
- ٤١٨ ٣ - الأنظمة الملكية
السلطة الملكية - بطانة الملك والسياسة - الحكومة المركزية - الادارة المحلية - الوسطاء - الامتيازات المحلية - الغيرة - القوة العسكرية
- ٤٢٩ ٤ - العبادة السلافية
العبادة السلافية : اصولها - العبادة السلافية : الاشكال - العبادة السلافية : مميزات وأهميتها .
- ٤٣٤ الخاتمة
- ٤٣٥ الفصل الثالث . - الاقتصاديات والمجتمعات
- ٤٣٥ ١ - العالمان
اليونان القديمة - الشرق - شركة أم استنار ؟
- ٤٣٨ ٢ - الاقتصاد والمجتمع في اليونان القديمة
- ٤٣٨ ١ - التطور الاقتصادي
البحبوحة الاولى - مزاحمة الزراعة والصناعة - تطور التجارة .
- ٤٤٢ ٢ - الطبقات الاجتماعية
طبقة ذوي اليسار في المدن اليونانية- المثل البورجوازي الاعلى: المدينة والبيت- المثل البورجوازي الاعلى : التربية والثقافة - الطبقات الاجتماعية الدنيا - العبيد .

- ٤٤٩ - ٣ - الآفات والاضطرابات الاجتماعية
تدني عدد السكان - الاضطرابات الاجتماعية - الثورة الاجتماعية في سبارطة - المعضلة الاجتماعية
والمعامل السياسية .
- ٤٥٤ - ٣ - الحياة الاقتصادية في الشرق الهلنبي
اسهام الاغريق في نمو الشرق الاقتصادي - النشاط الاقتصادي : الزراعة والصناعة - النشاط
الاقتصادي : التجارة - رجحان السياسة على الاقتصاد : الملوك يضمنون بدمهم على الحياة
الاقتصادية .
- ٤٦٤ - ٤ - الاتصال بين المجتمعين
المدينة اليونانية والمواطنون الأصليون .
- ٤٦٦ - ١ - الحل اللاجبي في مصر
الاغريق والبلديون في مصر : المدن - الريف - الملكية اللاجبية والمجتمع البلدي .
- ٤٧٠ - ٢ - الحل السلوقي في آسيا
سياسة السلوقيين الاقتصادية - السلوقيون والاكثاريون من المدن - المدن اليونانية والبيروجوازية اليونانية
في آسيا - عمل المدن اليونانية - البلديون خارج المدن - النتائج .
- ٤٨٢ - الفصل الرابع . - المعتقدات والأذواق والأفكار
الحضارة اليونانية والملكية - لاسركزية ووحدة .
- ٤٨٦ - ١ - الديانة
العادات المحلية - الحضارة اليونانية والديانة اليهودية - سنى الديانة اليونانية الخارجي - انحطاطها
الراهن - التجديدات الدينية : العبادة الملكية والسلاوية - التجديدات الدينية : عبادة
إله الحظ - التجديدات الدينية : الفلق والحلاص - التجديدات الدينية : العبادات
الشرقية وسيرايس .
- ٤٩٦ - ٢ - الفن
الفن اليوناني والفنون البلدية - تجديد الفن اليوناني .
- ٤٩٨ - ١ - هندسة العبارة
الأبنية الكبرى - البيت - المدينة .
- ٥٠٢ - ٢ - الفنون التصويرية
الظروف العامة - الثقافة - التصوير والتخريف والصباغة .
- ٥٠٩ - ٣ - الحياة الفكرية
- ٥٠٩ - ١ - رجال الفكر والمجتمع الجديد
الظروف العامة - الاغريق والشرقيون .
- ٥١٣ - ٢ - في خدمة النشاط الفكري
الوحدة الفكرية : « الـ كيني » - انتشار الثقافة - التربية الهلينية - نصرة الآداب والفنون
ومؤسسات الأبحاث .

- ٥٢٠ ٣ - الشغف الفكري والروح العلمية
الألسنية والعالم الواسع - التاريخ - التقدم العلمي والتقدم التقني - انطلاقة العلوم .
- ٥٣١ ٤ - المدارس الفلسفية والألوان الأدبية
الفلسفة - الأدب - النثر - الشعر - المسرح والمهزلة الإيانية .
- ٥٤١ الخاتمة
همام ونجاح الحركة الفكرية .

القِسْمُ الثالث

آسيا الشرقية

الكتاب الأول

- ٥٤٥ آسيا الشرقية من (١٢٠٠ الى ٣٠٠ ق . م)
- ٥٤٧ **الفصل الأول . - الهند**
خصائص الحضارة الهندية الأساسية - تحديد الوقت والاصول - اللغات والخطوط - لغة تاريخية .
- ٥٥٧ **الفصل الثاني . - الحضارة الهندية قبل عهد الموريا**
- ٥٥٨ ١ - خصائص الحضارة الهندية
المستندات .
- ٥٦٠ ٢ - الحياة الاجتماعية
الاجتماع - الدولة - الأسرة .
- ٥٦٦ ٣ - المدينة والريف
الديانة - العلوم .
- ٥٧٤ **الفصل الثالث . - خصائص الحضارة الصينية القديمة**
المطام والمستندات - اللغة والكتابة - لغة تاريخية .
- ٥٨٣ **الفصل الرابع . - الحضارة الصينية أيام الشنغ والتشاو**
- ٥٨٣ ١ - عهد الشنغ
- ٥٨٥ ٢ - الحضارة الصينية أيام التشاو
المستندات - المجتمع - الهيئة الإدارية - رجال الكهنوت - أسرة الفلاحين - حياة النبلاء - مجتمع
القرية والمدينة - الديانة - الفلسفة - الفن .

الكتاب الثاني

من القرن الرابع الى أواخر القرن الأول ق. م.

٦٠٥	الفصل الأول . - آسيا الشرقية من القرن الرابع حتى القرن الأول ق. م.
٦٠٩	الفصل الثاني . - المهند أيام حكم المورينا وخلفائهم
٦١١	١ - إطار المدينة والريف
٦١٥	٢ - الحياة الاجتماعية
	المصادر - المجتمع - الثياب والحل .
٦٢٣	٣ - الديانات
	الفن .
٦٣٠	الفصل الثالث . - صين ملوك التسين والهان
	تطور الفنون التاريخية - السلطة الامبراطورية - المصادر - المجتمع - إطار المدينة - الآداب - الفنون والتقنيات .
٦٤٠	الخاتمة
٦٤٣	المصادر
٦٤٩	جدول زمني مقارن
٦٨٩	جدول الأعلام
٧١١	فهرست الخرائط والتصاميم
٧١٣	فهرست الصور
٧١٥	فهرست عام

انتهى المجلد الأول، ويليه المجلد الثاني،
روما وامبراطوريتها

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

Publiée sous la direction de

MAURICE CROUZET

TOME 1

**L'ORIENT
ET
LA GRÈCE ANTIQUE**

par

André AYMARD et Jeannine AUBOYER

Texte Traduit en Arabe

par

Farid M. DAGHER et Fouad ABOU-RIHAN

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris.

